إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

ترجمة: أسامة إسبر





«سفر التكوين»



ذاكرة النار

الطبعة الأولى ـ 1995

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب: 34494

هـ: 7775872

تصميم الغلاف: بتول محمود السيد

ذاكرة النار

سفر التكوين

تأليف: إدواردو كاليانو
ترجمة: أسامة إسبر

العنوان الأصلي للكتاب:

Memory of Fire
«Genesis»

Edwardo Galeano

مقدمـــة

كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوفَ وأخرسَ، علّمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صُنِعَ سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفس، تمت خيانته في النصوص الأكاديمية، كُذِبَ عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخام تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفُّس ويستحضر حريته والكلمة.

جُرِّدَتْ أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهِكَتْ ذاكرتها.

حكَمَ عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراضٍ عسكري لطغاة يرتدون بزّات عسكرية لم تستخدم من قبل.

لست مؤرخاً. أنا كاتب يحبّ أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحتقرة والمحبوبة: أحب أن أتحدث معها، أن أتقاسم معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو... إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيـال هـذا السـرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقعاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست آسفاً.

على أية حال. إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. مـافيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوبي وبطريقتي.

إدواردو كاليانو

الأصوات الأولى

10

« إن الخشب الجاف سيحرق الخشب الرطب »

مثل أفريقي أحضره العبيد إلى الأمريكيتين

- الخلق -

حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما.

كان الإله يغني ويهزّ خشاخيشه حين حلم حلمه في سحابة من دخان التبغ شاعراً بالسعادة إلا أن الشك يبلبله واللغز يحيّره.

يعرف هنود «الماكيريتير» أن الإله إذا حلم بتناول الطعام يمنح الخصب والطعام، وإذا حلم بالحياة يولد ويمنح الولادة.

حين حلمت المرأة والرجل بأن الإله يحلم بهما كانا داخل بيضة كبيرة متلألئة يغنيان ويرقصان ويخبطان بقدميهما محدثين جلبة وصخباً لأنهما كانا يتلهفان بجنون ليولدا. كانت السعادة في حلم الإله أقوى من الشك واللغز وهكذا خلقهما الإله وهو يغني حالماً:

«أكسر البيضة فتولد المرأة ويولد الرجل. معاً سوف يعيشان ويموتان إلا أنهما سيولدان ثانية، ثمّ سيولدان ويموتان من جديد ثم سيولدان. لن يتوقّفا عن الولادة أبداً لأن الموت كذبة».

- الزمن -

يعتقد هنود المايا أن الزمن ولد وسمّي قبل أن توجد السماء وتستيقظ الأرض:

انطلقت الأيام من جهة الشرق وبدأت تمشي.

خلق اليوم الأول السماء والأرض من أحشائه.

نصب اليوم الثاني سلّماً لينزل عليه المطر.

أمّا البحار والأراضي وتعدد الأشياء فكانت من عمل اليوم الثالث.

شاء اليوم الرابع أن يجمع بين السماء والأرض.
قرر اليوم الخامس أن الجميع يجب أن يعملوا.
انبثق النور من اليوم السادس.
ملأ اليوم السابع الأمكنة الخاوية بالتربة.
دفن اليوم الثامن يديه وقدميه في التربة.
خلق اليوم التاسع العوالم السفلية. ووضع العاشرُ علاماتِ على أولئك الذين يمتلكون أرواحاً مسمومة.
داخل الشمس صاغ اليوم الحادي عشر الشجر والحجر.
صنع اليوم الثاني عشر الريح. هبّت الريح وسميّت الروح لأنه لم يكن يوجد فيها موت.
بلّل اليوم الثالث عشر التراب وصاغ من الوحل جسداً مثلَ أجسادنا.
هذا ما يُذْكَرْ في «يوكاتان».

ـ الشّمس والقمر[1] ـ

حملَ الطوفان الشمس المائية الأولى. تحوّل جميع من يعيش في العالم إلى أسماك.
افترست النمور الشمس الثانية.
دمّر مطرٌ ناريٌّ الشمس الثالثة وهيَّج البشر.
بعثرتْ العاصفة الشمس الرابعة، شمسَ الريح. تحوّل البشر إلى قرود انتشرت في التلال.
بدأت الآلهة بالتفكير ثم اجتمعت في «تيوتيهواكان».
ـ من سيجعل الفجر يبزغ؟
خطا إله الأصداف المشهور بقوته إلى الأمام وقال:
ـ سأكون أنا الشمس.
ـ من أيضاً؟
خيّم الصمت.
نظر الجميع إلى الإله المزهور[2] الأكثر دمامة وسوءاً بين الآلهة وقالوا: «أنت».
انسحب إله الأصداف والإله المزهور إلى التلال التي هي الآن أهرامات الشمس والقمر. هناك صاما وتأملا.

---

(١) ـ في هذا الكتاب يذكّر المؤلف الشمس ويؤنّث القمر ويجوز في العربية تذكير أو تأنيث أي منهما رغم أن الدارج هو تذكير القمر وتأنيث الشمس.
(٢) ـ المزهور: المصاب بالسفلس أو بالزهري.

بعد ذلك جمعت الآلهة حطباً وبنَتْ ناراً ودَعَتْهما.

أسرع الإله الصغير ورمى نفسه في ألسنة اللهب وبزغ حالاً متوهجاً في السماء.

نظر إله الأصداف مقطّباً إلى النار وبدأ يتقدم ويتراجع متردداً ثم دار دورتين. كان عليهم أن يدفعوه لأنه لم يستطع أن يقرّر. صعد إلى السماء بعد تأخر طويل. غضبتْ الآلهة وضربته على وجهه بأرنبٍ عدة مرات إلى أن أطفأت توهجه. وهكذا أصبح إله الأصداف المغرور قمراً. أما البقع الظاهرة على القمر هي الندوب الناجمة عن ذلك الضرب.

إلا أن الشمس اللامعة لم تتحرك. طار الباشق السبجي نحو الإله المزهور الصغير وسأله: «لماذا لاتتحرك؟».

أجابه الإله الصديدي الأحدب المشلول المحتقر: «لأنني أحتاج إلى الدم والقوة».

منحت الشمسُ الخامسة، الشمسْ التي تتحرّك، الضوءَ «للتوليكس» ومنحته للآزتيكيين. لها مخالب وتتغذّى على قلوب البشر.

ـ الغيوم ـ

ألقت غيمة قطرة مطر على جسد امرأة فأنجبت توأما بعد تسعة أشهر.

حين كبرا رغبا أن يعرفا من هو والدهما.

قالت: «انظرا جهة الشرق في الصباح الباكر وسوف تشاهدانه في السماء مرتفعاً كبرج».

يمّما عبر الأرض والسماء بحثاً عن والدهما.

شكّت الغيمة بهما فطلبت: «برهانا أنكما ولدي».

أرسل الأول لمعة برق إلى الأرض والثاني قصف رعد. وحين استمر شكّ الغيمة عبرا طوفاناً وخرجا سالمين.

رتّبتْ الغيمة لهما مكاناً قربها بين أخوتها وأولاد أخوتها الكثيرين.

ـ الريح ـ

حين خلق الإله أوائل هنود «الواوينوك». بقيت بعض نتف الصلصال على الأرض. من هذه النطف خلق «غلوساكابي» نفسه.

من علٍ، سأله الإله مندهشاً: «كيف نشأت»؟

أجاب غلوسكابي: «أنا صانع معجزاتِ. لم يخلقني أحد».

وقف الإله إلى جانبه ومدّ يده نحو الكون متحديًا: «انظر إلى خلقي. إذا كنتَ صانع معجزاتٍ أرني أشياء خلقتها».

«أستطيع أن أخلق ريحاً إذا أردت». ونفخ غلوسكابي بملء رئتيه.
ولدت الريح وماتت حالاً.
اعترف غلوسكابي خجلاً: «أستطيع أن أخلق الريح لكن ليس بوسعي أن أجعلها تعيش»
عندئذ نفخ الإله بقوة حتى أن غلوسكابي سقط وفقد كلّ شعره.

- المطر -

اكتشفت فتاة فجأة أنها حية في إقليم البحيرات الشمالية الكبرى. فتحت عجائب العالم عينيها فانطلقت خبط عشواء.

حين اقتفت أثر صيادي أمة «المينوميني» والحطابين وصلت إلى كوخ خشبي يعيش فيه عشرة أخوة وطيور الرعد[1]، فاستقبلوها وقدموا لها الطعام والمأوى.

في صباح سيء، حين كانت تُحضر الماء من النبع قبض عليها ثعبان مُشْعِرٌ وحملها إلى أعماق جبل صخري. كانت الثعابين على وشك أن تلتهمها حين غنّت.

من بعيد، سمعتْ طيور الرعد الغناء فهاجمت الجبل الصخري بالبروق وأنقذت الفتاة وقتلتْ الثعابين.

وضعت طيور الرعد الفتاة في قفل شجرة وقالت لها:
«سوف تعيشين هنا وسنعود في كل مرة تغنيّن فيها».
وفي كل مرة تغني فيها ضفدعةُ الشجرة الخضراء يقصف الرعد وتمطر على العالم.

- قوس قزح -

نصبَ أقزام الغابة كميناً لـ «يوبوينا هوابوشكا» وقبضوا عليه وقطعوا رأسه.
تخبّط الرأس عائداً إلى أرض «الكاشيناهواز».
ورغم أنه تعلّم أن يقفز برشاقة وأن يوازن نفسه لم يرغب أحد برأس بلاجسد.
قال متنهداً: «أمي، أخوتي، أبناء بلدي، لماذا ترفضونني؟ لماذا تشعرون بالعار مني؟».
في محاولة منها لتوقف الشكاوى وتتخلص من الرأس اقترحت الأم أن يُحوِّل نفسه إلى شيء ما، إلا أن الرأس رفض أن يتحوّل إلى شيءٍ وُجد سابقاً. فكر الرأس وحلم وخمّنَ. لم يكن القمر قد وجد ولاقوس قزح.
طَلَبَ سبعَ كراتٍ من الخيوط الصغيرة من جميع الألوان.

---

(١) - طيور الرعد: طيور خرافية يعتقد الهنود الحمر أنها تحدث البرق والرعد.

صوّب ورمى الكرات نحو السماء واحدة بعد أخرى.

علقت الكرات وراء الغيوم وبدأت الخيوط تنحلُّ بنعومةٍ نحو الأرض.

قبل أن يصعد قال الرأس محذراً: «إن من لايتعَرف علـيّ سيُعاقَب. حين تشاهدونني هناك قولوا: هذا هو «يوبوينا هوابوشكا» العالي والأنيق»

ضفر الخيوط السبعة المتدلية وتسلق على الحبل إلى السماء.

في تلك الليلة ظهر جُرْحٌ بليغٌ للمرة الأولى بين النجوم. رفعت فتاةٌ عينيها وسألت: «ماهذا؟»

انقضّ عليها حالاً ببّغاء أحمر. دار دورةً مفاجئة ونخسها بذيله الحادّ المدبّب بين ساقيها. نزفت الفتاة ومنذ تلك اللحظة تنزف النساء حين تأمر القمر بذلك.

في الصباح التالي توهج حبل الألوان السبعة في السماء.

أشار رجل إليه بإصبعه: «انظروا! انظروا كم هو فائق للعادة» قال ذلك وسقط.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي مات فيها أحد ما.

- النهار -

كان الغراب الذي يهيمن الآن على طوطم أمة الهايدا حفيد الرئيس الكبير المقدس الذي خلق العالم.

حين بكى الغراب طالباً القمر التي كانت تتدلى عبر جذوع الأشجار أعطاه جده القمر. رماها الغرابُ نحو السماء من فتحة المدخنة ثم بكى ثانيةً طالباً النجوم. حين حصل عليها نثرها حول القمر ثم بكى وقفز وصرخ إلى أن أعطاه جده الصندوق الخشبي الذي حُفِظَ فيه ضوء النهار. منعه الرئيس الكبير المقدَّس أن يُخرج الصندوق من المنزل لأنه قرّر أن العالم يجب أن يعيش في الظلام.

لعب الغراب بالصندوق متظاهراً بالقبول وبدأ يراقب من زاوية عينه الحراس الذين كانوا يراقبونه

في إحدى المرات وحين أشاحوا بصرهم عنه حمل الصندوق بمخالبه وطار عبر المدخنة فانشق مخلبه واحترق ريشه وأصبح أسود اللون منذ ذلك الوقت.

وصل الغراب إلى بعض الجزر الواقعة ناحية الشاطىء الشمالي. سمع أصواتاً بشرية فطلب الطعام. لم يمنحه أحد شيئاً. عندئذ هدّد بأن يحطّم الصندوق الخشبي محذّراً:

«إن النهار موجود معي هنا إذا خرج لن تُطفىءَ السماء ضوءها أبداً ولن يقدر أحد على النوم أو على حفظ الأسرار وسيعرف الجميع من هم البشر وما هي الطيور والحيوانات والغابة».

سخروا منه. فتح الغراب الصندوق وانتشر النور في الكون.

- الليل -

لم تتوّقف الشمس أبداً عن الإضاءة ولم يذق هنود «الكاشيناهوا» طعم الراحة.
ولأنهم بحاجة إلى الهدوء ومرهقين من الضوء المتواصل استعاروا الليل من الفأر.
خيم الليل، إلا أن ليل الفأر لم يكن طويلاً بما يكفي للقمةِ طعامٍ وتدخين سيجارة قرب النار. حين جاء الصباح كان الناس لتوهم قد جلسوا في أراجيحهم.
بعد ذلك جربوا ليل التابير(١). بليل التابير استطاعوا أن يناموا بعمق وتمتعوا بالراحة الطويلة المستحقة. ولكن حين استيقظوا كان قد مرّ وقت طويل حتى أن نباتاً معرّشاً هجم من التلال غزا أراضيهم ودمّر منازلهم.
وبعد بحث طويل استقروا على ليل المدرّع(٢). استعاروه منه ولم يعيدوه أبدا.
مجرداً من الليل، ينام المدرّع أثناء النهار.

- النجوم -

بالعزف على المزمار يُعْلَن عن الحب أو عودة الصيادين. يستدعي هنود الواي واي ضيوفهم بإطالة أصوات المزمار. بالنسبة «للتوكانوز» المزمار يبكي. أما بالنسبة «للكاليناس» فهو يتحدث لأنه البوق الذي يصيح.

على ضفاف نهر «النيغرو» يؤكد المزمار قوة الرجال. إن المزامير مقدسة ومخبأة وأي امرأة تقترب منها عقابها الموت.

في الأزمنة الغابرة، حين كانت النساء تمتلك المزامير كان الرجال يجمعون الحطب ويحضرون خبز «المنيهوت». وكما يروي الرجال، شعر الشمس بالإهانة لأن النساء يدرن العالم فنزل إلى الغابة وأخصب عذراء بوضع عصير أوراق بين ساقيها. هكذا ولد «جوروباري».

سرق جوروباري المزامير المقدّسةً ومنحها للرجال. علّم الرجال أن يخبئوها ويدافعوا عنها ويقيموا احتفالات طقسية بدون نساء. كشف لهم أيضاً الأسرار التي يجب أن ينقلوها إلى أبنائهم الذكور.

حين اكتشفت والدة جوروباري مخبأ المزامير المقدّسة حكمت عليه بالموت ومن النتف التي بقيت منه صنعت النجوم السماوية.

---

(١) - التابير: حيوان أميركي استوائي شبيه بالخنزير.

(٢) - المدرع: حيوان ثديي يعيش في أمريكا الجنوبية من الدرداوات لرأسه وجسمه درع من الصفائح العظمية الصغيرة يستطيع أن ينكمش فيه إذا هوجم على صورة كرة.

- درب التبانة -

أكل قلب الطيور وليس أكبر من دودة. كان والده أفضل صياد في شعب «الموسيتين».

تحول حالاً إلى ثعبان يبلغ طوله ذراعاً وبدأ يطلب قلوباً أكثر. كان الصياد يقضي اليوم كله في الغابة يقتل من أجل ولده.

حين أصبح الكوخ لايتسع للثعبان فرغت الغابة من الطيور. أحضر له والده، رامي السهام الخبير قلوب اليغاور.

وكان الثعبان يتلهمها ويكبر. فرغت الغابة من اليغاور.

فقال الثعبان: «أريد قلوباً بشرية».

أفرغ الصياد قريته وجوارها من الناس إلى أن جاء يوم قُتِلَ فيه في قريةٍ بعيدة.

مدفوعاً بالجوع والحنين خرج الثعبان ليبحث عنه.

لفّ جسده حول القرية المذنبة كي لاينجو أحد. وبينما كان الرجال يرشقون الحلقة العملاقة التي فرضت عليهم الحصار بسهامهم، أنقذ الثعبان جسد والده ونما باتجاه الأعلى. هناك مايزال مرئياً متموجاً مشعاً بسهام مضيئة في سماء الليل.

- نجم المساء -

سألت القمر، الأم المنحنية ولدها: لاأعرف أين والدك. اعثر عليه وأوصل له كلمتي.

انطلق الولد ليبحث عن الضوء الأكثر تألقاً بين الأضواء.

لم يعثر عليه في ضوء الظهيرة حين يحتسي شمس شعب «التاراسكان» خمرته ويرقص مع نسائه على قرع الطبول. لم يعثر عليه في آفاق وأقاليم الموتى. لم يكن الشمس في أي من منازله الأربعة.

مايزال نجمة المساء يبحث عن والده في السماء ودائماً يصل مبكراً جداً أو متأخراً جداً.

- اللغة -

نهض الأب الأول «للكوارانيين» في الظلمة التي أضاءتها تأملات قلبه وخلق اللهب والضباب الرقيق. خلق الحب ولم يكن يوجد أحد ليقدمه إليه. وخلق اللغة ولم يكن هناك أحد ليستمع إليه.

ثم طلب من الآلهة أن تبني العالم وحمّلها مسؤولية النار والضباب والمطر والريح ثم منحها الموسيقى وكلمات الأغنية المقدسة لتمنح الحياة للرجال والنساء.

وهكذا أصبح الحب مشتركاً ودخلت اللغة إلى الحياة وتخلّص الأب الأول من عزلته ليرافق الرجال والنساء الذين يغنون حين يمشون:

نحن نمشي على هذه الأرض
نحن نمشي على هذه الأرض المشعة.

- النار -

كانت الليالي جليديةً لأن الآلهة أخذت النار بعيداً. كان البرد يقطع لحم وكلمات البشر. كانوا يتوسلون مرتجفين بأصواتٍ منكسرة وكانت الآلهة تدير آذاناً صمّاء.

مرة، أعادت الآلهة النار فرقص البشر من الفرح وعبروا عن امتنانهم بالأغاني. إلا أن الآلهة أرسلت حالاً المطر والبرد وأطفأت النيران.

تحدثت الآلهة وطلبت: «لكي يحظوا بالنار، على البشر أن يشقوا صدورهم بخناجر سبجيّة ويقدموا قلوبهم».

قدّم هنود الكويتشي دم سجنائهم وأنقذوا أنفسهم من البرد.

لم يقبل «الكاكيكويتشليون» الصفقة. «الكاكيكويتشليون»، أبناء عمومة الكويتشيين والذين ينحدرون مثلهم من «المايا»، انسلوا بأقدام مريّشةٍ عبر الدخان وسرقوا النار وخبأوها في كهوف جبلهم.

- الغابة -

لمح والد هنود «الويتوتو» في حلمه ضباباً مشعاً. كان الضباب حياً بالطحالب والأشنات وصداحاً بالرياح والعصافير والثعابين. استطاع الأب أن يمسك بالضباب وحمله بخيط من نَفَسه وسحبه خارجَ الحلم ومزجه بالتراب.

بصق عدة مراتٍ على الأرض الضبابية وفي الخليط الزبدي نهضتْ الغابة ونشرتْ الأشجار تيجانها الضخمة وأينعت الثمار وتفتّحت الأزهار. وعلى الأرض المندّاة أخذ الخنزير البري والمدرّع والأيل والفهد وآكل النمل شكلاً وصوتاً. وحلّق في الجو النسر الذهبي والمقو والصقر والطنان ومالك الحزين الأبيض والبطة والخفاش.

وصل الدبور بسرعة كبيرة. وضع ضفادع الطين وبشراً لا أذيال لهم ثم استراح بعد ذلك.

- شجرة الأرز -

استحضر الأب الأول العالم إلى الولادة بطرف صولجانه وغطّاه بالزغب.

من الزغب خرجت شجرة الأرز، الشجرة المقدسة التي تتدفق منها الكلمة. ثم أخبر الأب الأول الكوارانيين أن يجوّفوا الجذع ويصغوا لما يوجد داخله. قال إن كل من يستطيع أن يصغي إلى شجرة الأرز، علبة الكلمات، سيعرف أين يبني موقده ومن لايستطيع سيعود إلى الغبار المحتقر.

- شجرة الغويقم[1] -

خرجت امرأة شابة من شعب «النيفاكل» لتبحث عن الماء. شاهدت شجرة الغويقم ناسوك وشعرت بندائها. عانقت جذعها الضخم ضاغطة عليه بجسمها وحفرت بأظافرها على لحائها. نزفت الشجرة.

تركتها قائلة: «كم أرغب ياناسوك لو كنت رجلاً».

تحولت شجرة الغويقم إلى رجل وركضت وراءها. حين وجدها أظهر لها كتفه المخدوش واستلقى إلى جانبها.

- الألوان -

كان الأبيض مرة ريشاً للطيور وجلداً للحيوانات.

أما الأزرق فهو الذين استحموا في بحيرة لايصبُّ فيها ولايخرج منها نهر. الأحمر هو الذين غُمِسوا في بحيرة الدم الذي سفحه طفل من قبيلة «كاديو». أما لون التراب: فهو الذين تدحرجوا في الوحل. والرمادي هو الذين بحثوا عن الدفء في نيران المخيم المطفأة. الأخضر: هو الذين حكّوا أجسادهم بالأوراق. والأبيض: هو الذين بقوا صامتين.

- الحب -

في الغابة الأمازونية نظر الرجل الأول والمرأة الأولى إلى بعضهما بفضول. لم يعرفا ماكان يوجد بين ساقيهما.

سأل الرجل: «هل قطعوه؟»

---

(١) ـ العويقم: شجر أميركي استوائي.

أجابت: «لا، كنت دائماً هكذا».

تفحصها عن كثب. حكّ رأسه، كان يوجد جرح مفتوح هناك. قال: «من الأفضل ألا تأكلي المنيهوت أو الموز أو أية فاكهة تنشق حين تنضج. سوف أشفيك، ادخلي إلى الأرجوحة الشبكية واستريحي».

أطاعته. وبصبر ابتلعت الشاي المعطّر وتركته يدلكها بالمراهم العطرية. صرّتْ على أسنانها لتمتنع عن الضحك حين قال لها: «لاتقلقي».

أمتعتها اللعبة رغم أنها بدأت تتعب من الصيام في الأرجوحة، سال لعابها من تذكر الفاكهة.

وفي أحد المساءات جاء الرجل راكضاً عبر الغابة. قفز من الاهتياج وصاح: «وجدتها».

كان قد شاهد لتوه قرداً يعالج أنثاه على ذراع الشجرة.

قال الرجل وهو يقترب من المرأة: «هكذا يفعل».

حين انتهى العناق الطويل، امتلأ الجو بشذى كثيف من الأزهار والفاكهة. ومن الجسدين المستلقيين صعدت أبخرة وسطعت توهجات لم يسمع بها من قبل. كان كلّ شيء جميلاً حتى أن الشموس والآلهة ماتت من الإرتباك.

ـ الأنهار والبحر ـ

لم يكن يوجد ماء في غابة الشوكوز. عرف الإله أن النملة كانت تمتلكه وطلب منها بعضاً منه. لم ترغب بالإصغاء. شدّ الإله خصرها وجعلها نحيلة بشكل دائم فأخرجت النملة الماء الذي كانت تحتفظ به في جوفها.

ـ والآن أخبريني من أين حصلت عليه.

قادتْ النملة الإله إلى شجرة لم يكن فيها أي صفة غير عادية.

أربعة أيام وأربع ليال ضربها البشر والضفادع بالفؤوس ولم تسقط. كان يوجد نبتة متسلقة تمنعها من لمس الأرض.

أمر الإلهُ طائرَ الطوقان: «اقطعها».

لم يستطع الطوقان ولهذا حُكم عليه أن يأكل ثمرة كاملة.

قطع «المقو» النبتة بمنقاره الحاد الصلب.

حين سقطت شجرة الماء ولد البحر من جذعها والأنهار من أغصانها.

كانت المياه كلها عذبة. كان الشيطان هو الذي يواصل إلقاء قبضات من الملح فيها.

- المدّ والجزر -

في الأزمنة الغابرة كانت الرياح تهبّ بلا انقطاع على جزيرة «فانكوفر». لم يخيم طقس جيد أبداً ولم يكن يوجد مدّ منخفض.

قرّر الرجال أن يقتلوا الرياح. أرسلوا الجواسيس، فشل شحرور الشتاء وأيضاً فشل السردين، ورغم ضعف بصره وذراعيه المكسورتين كان النورس هو الذي استطاع أن يراوغ حارس الأعاصير الكامن حول بيت الرياح.

ثم أرسل جيشاً من الأسماك تحت قيادة النورس. اندفعت الأسماك جسداً واحداً وضربت الباب. الرياح المندفعة إلى الخارج دعست عليها وانزلقتْ وسقطت واحدة بعد أخرى على سمك الراي اللسّاع الذي وخزها بذيله والتهمها.

أُسِرتْ الريح الغربية. بعد أن أصبحت سجينة لدى البشر. وَعَدَتْ أنها لن تهب بشكل متواصل وبأنه سيكون هناك هواء عليل ونسائم خفيفة وأن المياه ستتراجع مرتين في اليوم بحيث يمكن أن تجمع قواقع الأسماك في مد منخفض. تمّ العفو عنها.

وحافظت الريح الغربية على وعدها.

- الثلج -

قال سيد المنزل: «أريدك أن تطير». أقلع المنزل وطار. سافر في الجوّ والظلام وهو يُصفِّر إلى أن أمره السيد: «أريدك أن تقف هنا». وقف المنزل وتدلى في الليل والثلج المتساقط.

لم يكن يوجد دهن حوت لإشعال المصابيح وهكذا جمع السيد حفنة من الثلج الطري فمنحه الثلج الضوء.

هبط المنزل في قرية «اكوليك». جاء شخص ليحيّيه وحين رأى المصباح مضاءً بالثلج تعجّب قائلاً: «الثلج يشتعل..؟!»، فانطفأ المصباح.

- الطوفان -

في سفح جبال الآنديز عقد رؤساء الجماعات لقاءً. دخنوا وتناقشوا.

رفعت شجرة الوفرة تاجها الغني عالياً فوق سقف العالم. من الأسفل، بدتْ الأغصان العالية مثقلة بالثمار ومليئة بالأنناس وجوز الهند والببايا والفوانابانز والحنطة والمنيهوت واللوبياء...

كانت الفئران والطيور تستمتع بالوليمة أما البشر فلا. كان الثعلب يتسلق، يقيم لنفسه الولائم ولايشارك أحداً. البشر الذين حاولوا الصعود سقطوا وتحطموا.

ـ ماالذي يجب أن نفعله؟

استحضر أحد الزعماء فأساً أثناء نومه. استيقظ وفي يده ضفدعة ضرب بها الجذع الضخم لشجرة الوفرة إلا أن المخلوقة الصغيرة تقيأت كبدها.

ـ كان الحلم كاذباً.

توسّل زعيم آخر في حلمه إلى أب الجميع ليمنحه فأساً. حذّره الأب أن الشجرة ستسترجع أشياءها إلا أنه أرسل ببغاء أحمر. ضرب الرئيس جذع الشجرة وهو ممسك بالببغاء. سقط مطر من الطعام على الأرض وصُمَّتْ الأرض من الصخب. عندئذ هبّتْ عاصفة غريبة من أعماق الأنهار. ارتفعت المياه وغطت العالم.

نجا شخص واحد فقط وبدأ يسبح أياماً ولياليَ إلى أن استطاع التمسك برأس شجرة نخيل نَتَأَ خارج الماء.

ـ السلحفاة ـ

عندما انحسر الطوفان تحول وادي أواهاكا إلى مستنقع.

عاشت حفنة من الوحل وبدأت تمشي. مشى ذكر السلحفاة ببطء شديد. تحرك برأس يمتد إلى الأمام وبعينين مفتوحتين مكتشفاً العالم الذي كانت تعيده الشمس إلىً الحياة.

في المكان الذي أَنْتَنَ شاهد ذكرُ السلحفاة نسراً يلتهم الجثث.

قال له: «خذني إلى السماء. أريد أن أقابل الإله».

أجبره النسر على الإستمرار في الطلب لأن الجثث كانت طيبة المذاق. أخرج ذكر السلحفاة رأسه متوسلاً ثم أعاده إلى تحت درعه غير قادر على تحمّل الرائحة الكريهة.

توسل إليه: «أنت، يا من يمتلك جناحين خُذْني».

متأففاً من إلحاحه بسط النسر جناحيه الكبيرين وحمل ذكر السلحفاة على ظهره وطار. طار به عبر السحاب. اشتكى ذكر السلحفاة الذي كان يشيح برأسه: «رائحتك مقرفة جداً».

تظاهر النسر بأنه لايسمع.

كرّر ذكر السلحفاة: «يالنتانة التعفّن».

أبقاه الطائر الكريه إلى أن فقد صبره ثم رماه بفظاظة إلى الأرض.

جاء الإله، جمع بقاياه ورمّمها.

وتبدو على الدرع آثار الترميم.

- الببغاء -

كانت الغابة خضراء بعد الطوفان إلا أنها خالية. أطلق الذي بقي على قيد الحياة سهامه عبر الأشجار. لم تصِبِ السهام شيئاً سوى الظلال والورق.

في أحد المساءات وبعد أن بحث طويلاً عاد الذي بقي على قيد الحياة إلى معتزله فوجد لحماً مشويا وكعك منيهوت. حدث الشيء نفسه في اليوم التالي. وبسبب الجوع اليائس والعزلة بدأ يتساءل من سيشكر على هذا الحظ الجيد. في الصباح اختبأ وانتظر.

ظهر ببغاوان من السماء. وحالما حطّا على الأرض تحولا إلى امرأتين. أشعلتا النار وبدأتا تطبخان.

اختار الرجل الوحيد المرأة ذات الشعر الأطول والريش الأروع الأكثر بهاء. طارت المرأة الأخرى المرفوضة.

يلعن هنود «المينا» المنحدرون من هذا الزواج جدّهم حين يزداد كسل نسائهم أو تذمرهن. يقولون لقد أخطأ لأنه اختار المرأة التي لافائدة منها. أصبحت الأخرى أماً وأباً لجميع الببغاوات التي تعيش في الغابة.

- الطائر الطنان -

يُحيّي الشمس حين يبزغ الفجر. يخيّم الليل وهو مايزال يعمل. يتنقل وهو يطنّ من غصن إلى آخر ومن زهرة إلى أخرى سريعاً وضرورياً كالنور. ينتابه الشك أحياناً فيقف متدلياً في الهواء ويطير أحياناً أخرى إلى الخلف كما لايستطيع طائر أن يفعل. أحياناً يسكره العسل الذي يمتصه. حين يحلّق يطلق ومضاتٍ من اللون.

يُحْضِرُ الرسائل من الآلهة. يتحوّل إلى سهم من البرق ليُنَفِّذ انتقامها. ينفخ النبوءات في آذان العرّافين وحين يموت طفل كواراني وترقد روحه في تويج زهرة ينقذها ويحملها بمنقاره الإبري إلى الأرض التي تخلو من الشرّ. عرف الطريقَ إلى هناك منذ بداية الزمن. وُجِدَ قبل أن يولد العالم. أنعش فم الأب الأول بقطرات الندى وسكّن جوعه بنكتار الآلهة.

قاد الرحلة الطويلة «للتولتيكز» إلى مدينة «تولا» المقدسة قبل أن يُحْضِرَ دفءَ الشمس إلى «الآزتيك».

كقائد «للشونتالز» يُحلّق فوق مخيمات الأعداء، يحصي عددهم. ينقضُّ عليهم ويقتل زعيمهم أثناء نومه. كشمس «للكيتشي» يطير إلى القمر، يفاجئها في مخدعها ويمارس معها الحب.

بحجم اللوزة جسده، من بيضة ليست أكبر من حبة فاصولياء ولد في عش تتسع له جوزة. حين ينام يتغطى بورقة صغيرة.

ـ طائر الليل (أوروتاو) ـ

«أنا ابنة النحس»، هذا ماقالته نيمبيو ابنة الزعيم حين منعها والدها عن حب رجل من الأعداء.

قالت ذلك وطارت

عثروا عليها بعد فترة في جبال الأوكوازو. عثروا على تمثال. كانت نيمبو تنظر دون أن تشاهد. كان فمها صامتاً وقلبها نائماً.

طلب الرئيس إحضار الشخص الذي يقرأ الأسرار ويشفي المرض. جاءت القبيلة كلها لتشهد الإنبعاث.

طلب الشامان النصيحة من المتة وخمرة المنيهوت. اتجه إلى نيمبيو وأسرّ في أذنيها:

ـ لقد مات الرجل الذي تحبيّنه لتوه.

حوّلت صرخة نيمبيو البشر إلى صفصاف باك. طارت وتحولت إلى عصفور.

يمكن أن تُسمع صرخة الأوروتاو التي تهزّ الجبال في الليل على بعد أكثر من فرسخ. من الصعب رؤية الأوروتاو، من المستحيل اصطياده. لاأحد يستطيع أن يصطاد الطائر الشبح.

ـ الطائر الفرّان[1] ـ

حين وصل إلى سن الاختبارات الثلاثة للبطولة ركض الفتى وسبح بشكل أفضل من أي شخص آخر وأمضى تسعة أيام دون طعام وتمدّد على السير الجلدي دون أن يتحرك أو يشكو. سمع أثناء الاختبارات صوت امرأة تغني له من بعيد فساعده هذا على التحمل.

قرّر زعيم القبيلة أن يزوج ابنته للفتى إلا أنه طار وضاع في غابات نهر البارغواي باحثاً عن المغنية.

هناك، مايزال بوسعك أن تقابل الطائر الفرّان يخفق جناحيه بقوة ويطلق أصواتاً بهيجة حين يفكر أن الصوت الذي يبحث عنه يطير في طريقه نفسها. بنى منزلاً من الوحل بباب مفتوح باتجاه نسيم الشمال في مكان آمنٍ من الضوء منتظراً مالا يجيء.

يحترمه الجميع. كل من يقتل الطائر الفران أو يخرب منزله ستنقضّ عليه العاصفة.

---

(١) ـ طائر أميركي يبني عشه على الأرض بشكل قبة أو فرن.

- الغراب -

جافةً كانت البحيرات وفارغةً مجاري الأنهار، فأرسل هنود «التاكيلما» الذين كانوا يحتضرون من العطش ذكر الغراب وأنثاه ليبحثا عن الماء.

تعب ذكر الغراب حالاً. بال في وعاء وقال بأن هذا هو الماء الذي أحضره من مكان بعيد.

تابعت الأنثى الطيران ثم عادت فيما بعد بحمل من الماء العذب وأنقذت شعب التاكيلما من الظمأ.

عوقب الغراب وحكم عليه بأن يعاني من العطش في الصيف. ولأنه غير قادر على ترطيب حنجرته يتحدث بصوت أجش حين يكون الطقس حاراً.

- الكندور[1] -

كانت كويلاكا تنسج القماش في ظلّ شجرةٍ وفوقها كان يحلق كونيرايا الذي تحوّل إلى طائر. لم تكترث الفتاة مطلقاً بشدوه ورفرفته.

كان كونيرايا يعرف أن الآلهة الأخرى الأكبر سناً وأهميةً تشتعل بالشهوة من أجل كويلاكا. على أية حال أرسل إليها من الأعلى بذرته على شكل ثمرة ناضجة. حين رأت الثمرة المتوردة عند قدميها التقطتها وأكلت منها. شعرت بلذةٍ غريبة وحملت.

بعد ذلك تحوّل إلى رجل حزين يرتدي ثياباً رثة فضفاضة وطاردها في جميع أنحاء البيرو. طارت كويلاكا نحو المحيط حاملةً طفلها الصغير على ظهرها وخلفها كان كونيرايا الغاضب يحاول اصطيادها.

سأل الظّربان[2]. أجاب الظربان الذي شاهد قدميه النازفتين واستياءه العام: «أيها الأبله ألا ترى أنه لا فائدة من ملاحقتها؟».

صبّ عليه كوينرايا لعناته: «سوف تتجوّل في الليل وتترك خلفك رائحة كريهة أينما ذهبت وحين تموت لن يلتقطك أحد عن الأرض».

أمّا الكندور فقد شجّع معنويات الصياد قائلاً له: «أسرع وسوف تمسكُ بها».

وهكذا باركه كونيرايا: «سوف تطير في أي مكان تريد. لن يوجد مكان في السماء أو على الأرض لا تستطيع الذهاب إليه. لن يصل أحدٌ إلى حيث بُني عشك ولن تفتقد الطعام أبداً ومن يقتلك ستكون عقوبته الموت».

بعد أن تسلق عدداً من الجبال، وصل كونيرايا إلى الساحل متأخراً جداً إذ تحولت المرأة وولدها إلى جزيرةٍ في وسطِ المحيط.

---

(١) - الكندور: نسر أميركي ضخم.

(٢) - الظربان: حيوان ثديي صغير نتن الرائحة.

- اليَغْوَرْ -

كان اليَغْوَرْ يصطاد بالقوس والنُشّاب حين قابل ظلاً. حاول أن يصطاده غير أنه لم يُفْلح. رفعَ رأسه. كان صاحب الشبح الشاب بوتوك من قبيلة كايابو وكان على وشك أن يموت من الجوع ممدداً على قمة صخرة.

لم يمتلك بوتوك القوة ليتحرك كان بوسعه فقط أن يتمتم بعض الكلمات. أنزل اليَغْوَر قوسه ودعاه إلى عشاء من اللحم المشوي في منزله. ورغم أن الشاب لم يعرف معنى كلمة مشوي وافق ورمى نفسه علىً ظهر الصياد.

قالت زوجة اليَغْوَر: «أنت تحمل ولد أحد الغرباء»

قال اليغور: «إنه لي الآن».

شاهد بوتوك النار للمرة الأولى. تعّرف على الفرن الحجري وعلى رائحة التابير المشوي ولحوم الطرائد. تعلّم أن النار تضيء وتبعث الدفء. أعطاه اليغور قوساً ونشاباً وعلمه أن يدافع عن نفسه.

هرب بوتوك في أحد الأيام بعد أن قتل زوجة اليغور.

ركض يائساً مسافةً طويلةً ولم يتوقف إلى أن وصل إلى قريته. هناك روى قصته وكشف الأسرار. السلاح الجديد واللحم المشوي. قرّر «الكايابوس» أن يستولوا على النار والأسلحة فقادهم إلى المنزل البعيد. لم يبق شيء لليغور من النار سوى انعكاسها المشع في عينيه.

منذ ذلك الوقت كره اليغور البشر. كل ما يمتلكه من أجل الصيد أنيابه ومخالبه بها يأكل لحم ضحيته نيئاً.

- الدب -

اجتمعت حيوانات النهار وحيوانات الليل لتقرر ما الذي ستفعله حيال الشمس التي كانت تأتي وتذهب على هواها. قرّرت الحيوانات أن تترك المسألة للقدر. ستقرر المجموعة الرابحة في لعبة الأسرار كم ستطول فترة حصول العالم على ضوء الشمس في المستقبل.

كانوا ما يزالون يتحدثون حين اقتربت الشمس التي أسرتها المحادثة. اقتربت الشمس فكان على حيوانات الليل أن تتبعثر. كان الدب ضحية الإهتياج العام. وضع قدمه اليمنى في فردة حذائه اليسرى وقدمه اليسرى في فردة حذائه اليمنى. وانطلق راكضاً قدر استطاعته.

استناداً إلى الكومانتشيز، منذ ذلك الوقت يمشي الدبّ متمايلاً.

- التمساح -

كان شمس شعب الماكيوزي قلقاً. كان عدد الأسماك في البرك ينقص كل يوم.

عُيّن التمساح حارساً. ازداد نقص الأحواض من السمك. لفّق التمساح الحارس والسارق قصةً جيدة عن مهاجمين لامرئيين إلا أن الشمس لم يصدقها فتناول منجلاً وترك جسم التمساح متصالباً بالجراح.

ليسترضيه قدم له التمساح ابنته الجميلة زوجة.

قال الشمس: «سأنتظر وصولها».

وبما أن التمساح لا يمتلك فتاةً نحت امرأة على جذع شجرة برقوق برية.

قال: «هذه هي»، ثم غاص في الماء وبدأ ينظر من طرف عينه وهذه هي الطريقة التي ينظر فيها دائماً.

كان نقّار الخشب هو من أنقذ حياته. قبل أن يصل الشمس نقر نقار الخشب الفتاة الخشبية تحت بطنها. وهكذا أصبحت المرأة التي لم تكن مكتملة مفتوحة لدخول إله الشمس.

- المدرّع -

أُعلِنَ عن احتفالٍ ضخمٍ قرب بحيرة تيتيكاكا، فرغب المدرّع الذي كان مخلوقاً متفوقاً جداً، أن يدهشَ الجميع.

كان قد بدأ قبل ذلك بوقت طويل بحياكةِ رداء فائق الروعة سيخرج جميع العيون من محاجرها.

رآه الثعلب وهو يعمل: «هل مزاجك عكر؟»

ـ لا تقاطعني أنا مشغول.

ـ من أجل ماذا أنت تفعل هذا؟

شرح له المدرّع.

قال الثعلب مستمتعاً بالكلمات: «آه الحفلة ستبدأ اليوم».

ـ ماذا تعني، الليلة؟

غاص قلبُ المدرّع. لم يكن متأكداً أبداً من حساباته للوقت: «كيف ولم ينته سوى نصف الرداء بعد؟»

بينما كان الثعلب يغادرُ بضحكةٍ مختنقة أنهى المدرّع الرداء. كان عليه أن يستخدم خيطاناً أكثر خشونه حين كان الوقت يمرّ. وهكذا أصبح الرداء كبيراً. لهذا السبب تبدو قوقعة المدرّع مشدودة حول العنق ومفتوحة جداً من الخلف.

- الأرنب -

أراد الأرنب أن يكبر.

وعده الإله أن يزيد حجمه إذا أحضر له جلد نمر وقرد وسحلية وثعبان.

ذهب الأرنب ليزور النمر. قال له بثقةٍ: «لقد كشف الإله لي سراً».

رغبَ النمر أن يعرف السّر فأعلن الأرنب عن إعصار وشيكٍ: «سوف أنقذ نفسي لأنني صغير الحجم سأختبىء في ثقب. لكن ماذا ستفعل أنت؟ لن يعفو عنك الإعصار».

تدحرجت دمعة بين شاربي النمر.

قال الأرنب: «هناك طريقة واحدة لإنقاذك. سنبحث عن شجرة جذعها قوي جداً. سأربطك إلى الجذع من مخلبيك وعنقك وهكذا لن يقدر الإعصار على حملك».

سمح النمر بأن يقيّد وهو شاكرٌ، ثم قتله الأرنب بضربة واحدة وسلخه وتابع طريقه إلى غابات بلاد «الزيبوتك».

توقف تحت شجرة كان يوجد فيها قرد يأكل. أخذ الأرنب سكيناً وبدأ يضرب رقبته بالجزء الكليل منها. كان يقوقىء بخفوت مع كل ضربة سكين. بعد أن ضرب نفسه كثيراً وضحك كثيراً رمى السكين على الأرض وركض بعيداً.

اختبأ بين الأغصان مراقباً. نزل القرد حالاً. فحص الأداة التي سببت الضحك وحك رأسه. أمسك بالسكين ومن الضربة الأولى قطع حنجرته.

بعد أن حصل على جلدين. دعا الأرنب السحلية إلى لعب الكرة. كانت الكرة حجرية. ضرب السحلية على قاعدة الذيل وقتلها.

تظاهر الأرنب أنه نائم قرب الأفعى.. تماماً قبل أن تتوتر الأفعى وقبل أن تقدر على القفز ضرب عينيها بمخلبيه.

صعد إلى السماء حاملاً الجلود الأربعة.

طلب من الإله: «والآن زِدْ من حجمي».

فكر الإله: «هذا الأرنب صغير ورغم ذلك فعل جميع هذه الأشياء فإذا جعلته يكبر لن يعجز عن فعل أي شيء. إذا كبر الأرنب ربما لن أستمر إلهاً».

انتظر الأرنب. مسّد الإله ظهره بنعومة وفجأة أمسكه من أذنيه ودوّره وقذفه إلى الأرض.

منذ ذلك الوقت أصبح للأرنب أذنان كبيرتان وقدمان أماميتان قصيرتان لأنه استخدمهما ليوقف سقطته وأصبحت عيناه قرنفليتين من الهلع.

- الثعبان -

قال له الإله: «ستمّر ثلاثة قوارب في النهــر. سيسـافر المـوت في اثنـين منهـا. إذا حـذرت أيـا منهما يخلو من الموت فسوف أجعلك خالداً».

ترك الثعبان القارب الذي كان محملاً بسلال اللحم الفاسد يمرُّ. لم يكترث بالثاني الـذي كـان مليئاً بالبشر. بدا الثالث فارغا وحين وصل رحّب به.

لهذا السبب أصبح الثعبان خالداً في إقليم شيبياس.

وفي كل مرة يدبّ فيه الهرم يمنحه الإله ثوباً جديداً.

- الضفدعة -

جاء هنود «التينو» الأوائل من كهفٍ في هايتي.

لم يشفق الشمس عليهم. فجأة وبدون سابق إنذار خطفهم وبدأ يمسخهم. حوّل الشخص الـذي كان يحرس الليل إلى حجر. صنع من الصياد أشجاراً وحوّل الشخص الذي ذهب ليجمع الأعشاب العطرية إلى طائر يغني في الصباح.

هرب أحدهم من الشمس آخذاً معه جميع النساء.

لا يوجد ضحك في أغنية الضفادع الصغيرة في الجزر الكاريبيّة. كان هؤلاء هم أطفال «التينو» في تلك الأيام حين كانوا ينادون أمهاتهم كانوا يقولون: «تو، تو».

- الخفّاش -

حين كان الزمن ما يزال في مهده، لم يكن يوجد في العالم مخلوق أقبح من الخفّاش.

صعد الخفاش إلى السماء ليبحث عن الإله لم يقل له أنا ضجر من كوني أبدو قبيحاً وأريدك أن تمنحني ريشاً ملوناً. قال له: «من فضلك امنحني ريشاً فأنا أموت من البرد».

ولأنه لم يبق لدى الإله ريشة واحدة قرّر الإله: «سيمنحك كل طائر ريشة».

وهكذا حصل الخفاش على الريشة البيضـاء مـن الحمامـة وعلـى الخضـراء مـن الببغـاء وعلـى القزحية من الطنان وعلى الوردية من البَشْروس وعلى الحمراء من قنزعة الكاردينال وعلـى الزرقـاء من ظهر الرفراف وعلى الصلصالية من جناح النسر وعلى الريشـة الشمسـية الـتي تتوهـج في صـدر الطوقان.

وبدأ الخفاش الغني بالألوان والنعومة يطير بين الأرض والسماء وفي كل مكان يذهب إليه يصبح الهواء منعشاً وتخرس الطيور إعجاباً. يروي شعوب الزابوتيك أن قوس قزح ولد من صدى طيرانه.

نفخ الغرور صدره واكتسب نظرةً ازدرائية ووجّه ملاحظاتٍ مهينة.

دعتْ الطيور إلى مؤتمر ثم طارت جميعاً إلى الإله. شرحت له: «إن الخفاش يسخر منا ونشعر بالبرد بسبب الريش الذي أخذه منا».

وفي اليوم التالي حين حلق الخفاش أصبح فجأة عارياً وسقط مطر من الريش على الأرض.

ما يزال يبحث عنه. هذا الأعمى الدميم، عدوّ الضوء يحيا مختبئاً في الكهوف. حين يخيم الليل يخرج للبحث عن الريش المفقود طائراً بسرعة كبيرة ولا يتوقّف أبداً لأنه يشعر بالعار إن رآه أحد ما.

- البعوض -

كان هناك كثير من الموتى في قرية النكتناز. كان يوجد في كل جسمٍ ميت ثقبٌ يُسرَقُ منه الدم.

كان المجرم طفلاً بدأ يقتل قبل أن يتعلّم المشي. تلقّى الحكم بالموت وهو يزأر من الضحك. اخترقوه بالرماح فأخرجها من جسمه وهو يضحك كأنها أشواك.

قال الطفل: «سأعلمكم كيف تقتلونني».

اقترح على جلاديه أنه يجب عليهم أن يشعلوا ناراً كبيرة ويرموه فيها.

تبعثر رماده في الجو وهكذا بدأت البعوضات الأولى المتلهفة للأذى بالطيران.

- العسل -

كان العسل هارباً من زوجتي أخيه بعد أن رميتاه مرات عديدة خارج الأرجوحة.

طاردتاه ليلاً ونهاراً. شاهدتاه وهذا جعل اللعاب يسيل من فميهما. نجحتا فقط في الحلم في لسه ولعقه وأكله.

استمر حقدهما بالنمو. وفي أحد الصباحات وبينما كانت زوجتا أخيه تستحمان عثرتا على العسل على ضفة النهر. ركضتا نحوه فتبلّل بالماء. وحالما أصبح رطباً انحلّ العسل.

ليس من السهل العثور على العسل الضّائع في خليج «باريا»، عليك أن تتسلق الأشجار وفأسك في يدك وتفتح الجذوع وتقوم بكثير من التنقيبات. يُؤكل العسلُ النادرُ بمتعة وخوف لأنه يقتل أحياناً.

- الجذور -

صنع «باتشاكاماك» الذي كان ولداً للشمس رجلاً وامرأةً في كثبان «لورين».
لم يكن يوجد شيء يؤكل فمات الرجل من الجوع.
حين كانت المرأة منحنية لتبحث عن الجذور دخل إليها الشمس وصَنَعَ طفلاً.
غار باتشاماك فقبض على الطفل الحديث الولادة وقطعه إرباً لكنه تاب فجأةً أو خاف من غضب أبيه الشمس، فبعثر في العالم أشلاء أخيه المقتول.
نبتت الذرة من أسنان الطفل الميت ونما المنيهوت من عظامه. أخصب دمُه الأرضَ، وبزغت الأشجار المثمرة والتي تمنح ظلاً من اللحم المتناثر.
هكذا ولد الرجال والنساء على هذه الشواطىء وحيث لا تمطر السماء أبداً يعثرون على الطعام.

- الذرة -

صنعت الآلهة (كويتشز- المايا) الأوائل من الطين عاش بعض منهم. كانوا ناعمين يفتقدون للقوة، تساقطوا قبل أن يقدروا على المشي.
بعد ذلك جرّبت الآلهة الخشب. تحدثت الدمى الخشبية ومشت إلا أنها كانت يابسة ولم تمتلك دماً أو جوهراً، ذاكرةً أو هدفاً. لم تعرف كيف تتحدث مع الآلهة، أو لم تستطع أن تفكر بأي شيء تقوله لها.
بعد ذلك صنعت الآلهة الأمهات والآباء من الذرة. صاغت لحمها من الذرة البيضاء والصفراء
النساء والرجال الذين ولدوا من الذرة رأوا مثل الآلهة وشملت نظرتهم جميع أنحاء العالم.
أرسلت الآلهة عليهم نفساً وتركت أعينهم مظلّلةً إلى الأبد لأن الآلهة لم ترغب أن يرى الناس ما وراء الأفق.

- التبغ -

توسّل هنود «الكاريري» إلى الجدّ أن يسمح لهم بتجريب لحم الخنازير البرية التي لم تكن قد وجدت بعد، إلا أن الجدّ، والذي يدعى مهندس الكون اختطف أطفال الكاريري الصغار وحوّلهم إلى خنازير برية ثم خلق شجرة مرتفعة جداً ليمكنهم من الهرب إلى السماء.
طارد الناس الخنازير في الشجرة من غصن إلى آخر. واستطاعوا أن يقتلوا بعضها. أمر الجد النمل أن يُقوِّض الشجرة. حين سقطت تعرّض الصيادون لكسور في عظامهم. ومنذ أن حدث السقوط الكبير أصبحنا جميعاً نمتلك عظاماً مقسمة وأصبحنا قادرين على تحريك أصابعنا وأرجلنا وأجسادنا.

أُقيمت مأدبة كبيرة من لحم الخنازير الميتة في القرية.

وجه الناس دعوة إلى الجد ليهبط من السماء حيث كان يعتني بالأطفال الذين نجوا من الصيد إلا أنه فضّل أن يبقى فيها.

أرسل الجدّ التبغ ليأخذ مكانه بين البشر. حين يدخنون يتحدثون مع الإله.

- المتة -

كانت القمر متلهفةً لتخطو على الأرض. رغبت أن تتذوق الفاكهة وتستحم في أحد الأنهار. شكراً للسحاب الذي مكّنها من النزول. غطت السحب السماء من المغيب إلى الفجر فلم يلمح أحدٌ غياب القمر.

كان الليل مدهشاً على الأرض. مشتْ القمر في غابة «البارانا» وحصلت على عطور سرية وأطاييبَ وسبحت طويلاً في النهر. أنقذها فلاّحٌ عجوز مرتين. حين كان اليغور على وشك أن يغرز أنيابه في عنقها قطع العجوز حنجرة الوحش بمديته. وحين جاعت القمر أخذها إلى منزله. قدمت لها زوجة الفلاح كعكات الذرة المدوّرة ثم اعتذرت شاكيةً من الفقر.

في الليلة التالية نظرت القمر من السماء إلى الأسفل حيث كان منزل صديقها الذي بناه في فسحةٍ غابيةٍ بعيدة جداً عن القرى وعاش فيه منفياً مع زوجته وابنته.

ورأتْ القمر أنه لم يعد يوجد طعام في الكوخ بعد أن قُدِّمتْ لها آخر كعكات الذرة. فالتفتت إلى أنوارها الأكثر إشعاعاً وطلبت من الغيوم أن تمطر مطراً خاصاً جداً حول الكوخ.

في الصباح نمتْ أشجار مجهولة وظهرت بين أوراقها السوداء أزهار بيضاء.

لم تمت ابنةالفلاح العجوز أبداً. أصبحت ملكة المتة وبدأت تتجول في أنحاء العالم لتقدمها إلى الآخرين. إن المتة توقظ النائمين وتُنَشِّط الخاملين وتؤاخي بين البشر الذين لا يعرفون بعضهم.

- المنيهوت -

لم يمسّها رجل، إلا أن ولداً ذكراً نما في حوض ابنة الزعيم.

سمّوه ماني. بعد بضعة أيام من ولادته بدأ يجري ويتحدث. جاء البشر من زوايا الغابة البعيدة ليقابلوا ماني الإستثنائي.

لم يُصب ماني بأي مرض لكنه حين بلغ العام قال: «سأموت»، ومات.

بعد وقت قصير نمت نبتة لم ترى من قبل على قبر ماني وكانت الأم تسقيها كل يوم. نمت النبتة . أزهرت وأثمرت كانت الطيور التي تنقرها تطير بشكل غريب تغني وتدور بجنون.

في أحد الأيام انشقت الأرض في المكان الذي يستلقي فيه ماني. أدخل الرئيس يده وسحب جذراً لحمياً كبيراً. طحنه بالحجر ووصنع عجينة ثم عصرها وبدفء النار صنع الخبز للجميع.

سمّوا الجذر «ماني أوكا»، «منزل ماني»، ويسمّى «مانيوك» في الحوض الأمازوني وأماكن أخرى.

ـ البطاطس ـ

رغب زعيم من جزيرة «تشيلو» المزدحمة بنوارس البحر أن يمارس الحب مع الآلهة.

حين تعانقت الآلهة المتزوجة اهتزّت الأرض وارتفعت أمواج كبيرة. كان هذا معروفاً كثيراً جداً إلا أنه لم يشاهد أحد ذلك.

سبح الزعيم إلى الجزيرة الممنوعة متلهفاً لمفاجئة الآلهة. كل ما استطاع رؤيته عظاءة عملاقة، فمها مفتوح مليء بالزبد. لسانها كبير بشكل غير مألوف ويخرج من رأسها النار.

دفنت الآلهة الزعيم الذي لا يمتلك حكمة في الأرض وحكمت عليه بأن يأكله الآخرون. وكعقابٍ على فضوله غطّت جسده بأعين عمياء.

ـ المطبخ ـ

عثرت امرأة من شعب «التيلاموك» على كوخ في وسط الغابة كان يصدر دخاناً. دفعها الفضول إلى الإقتراب والدخول.

كانت النار تشتعل بين أحجار في وسط الكوخ وتتدلى من السقف أسماك السلمون. سقطت واحدة على رأسها. التقطتها المرأة وعلّقتها في مكانها. سقطت السمكة مرة ثانية وضربتها على رأسها. علقتها ثانية إلا أنها كرّرت السقوط.

رمت المرأة الجذور التي جمعتها لتأكلها في النار. أحرقتها النار في ومضةٍ. غاضبةً، ضربت المرأة النارَ بالمسعر بعنفٍ حتى أن النار كانت على وشك الإنطفاء حين وصل صاحب المنزل وهدأ ذراعها.

بعث الرجل الغامض الحياة في ألسنة اللهب وجلس إلى جانب المرأة وشرح لها: «لم تفهمي».

كانت على وشك اطفاء النار لأنها ضربتها وبعثرت جمارها. وهذا عقاب لا تستحقه. أكلت النار الجذور لأنها اعتقدت أن المرأة قدمتها إليها. وقبل ذلك كانت النار هي التي سبّبَت سقوط السمكة عدة مرات على رأس المرأة لا لتؤذيها بل لتخبرها أنه بوسعها أن تطبخها.

ـ أطبخها؟ ماذا يعني هذا؟

وهكذا علّم صاحب المنزل المرأة كيف تتحّدث مع النار وتشوي السمك على الجمر وتأكله بشهيّة.

- الموسيقا -

حين أصدر الروح (بوبي - جوكو) لحناً بزغت الذرة من الأرض دون توقف، نَيِّرَةً وقدَّمت آذاناً عملاقةً مليئةَ بالحبوب.

قطفت امرأة الذرة بطريقةٍ خاطئةٍ. شدَّت أذناً بقوة فآذتها. انتقمت الأذن وجرحت يدها. أهانت المرأة (بوبي جوكو) ولعنت صفيرَهُ.

حين أغلق بوبي جوكو شفتيه ذبلت الذرة ويبست ولم يُسْمَع بعد ذلك الصفير المرح الذي جعل حقول الذرة تتبرعم ومنحها القوة والجمال. كان شعب «البورورو» يحرث الذرة بألمٍ ومشقة ويحصد محاصيلَ بائسةً.

إن الأرواح تعبّر عن نفسها بالصفير وحين تبزغ النجوم في الليل تحييها بهذه الطريقة وتستجيب كلّ نجمة إلى نغم هو اسمها.

- الموت -

بنى «كوموكمز» هنديٌّ المودوك الأول قرية على ضفة نهر. ورغم أنها تحتوي مساحةً واسعةً لتتحرك فيها الدببة وتنام، شكت الأيائل أن الطقس باردٌ جداً ولايوجد عشبٌ كاف.

بنى «كوموكمز» قرية أخرى بعيدة وقرّر أن يقضي نصف سنة في كل من القريتين. وقسم السنة من أجل هذا إلى ستة أشهر صيفية، وستة أشهر شتوية وخصّص الشهر المتبقي للحركة.

مضت الحياة هانئة في القريتين. ازدادت الولادات بشكل مدهش إلا إن الموتى رفضوا أن يخرجوا من القرية فأصبح عدد السكان كبيراً ولم يعد يوجد طريقة لإطعامهم.

قرّر «كوموكمز» أن يتخلّص من الموتى. كان يعرف أن رئيس أرض الموتى رجل عظيم لا يسيء معاملة أحد.

حين توفيت ابنة «كوموكمز» الصغيرة غادرت بلاد المودوك كما أمر والدها.

يائساً، استشار «كوموكمز» الشيهم فقال له:

«أنت اتخذت القرار ويجب أن تتحمّل عواقبه كأي شخص آخر».

إلا أن «كوموكمز» سافر إلى أرض الموتى البعيدة وطالب باسترداد ابنته.

فقال له الهيكل العظمي الكبير الذي كان مسؤولاً هناك: «إن ابنتك هي ابنتي الآن. ليس فيها لحم ولا دمٌ فما الذي تستطيع أن تفعله في بلادك؟»

قال كوموكمز: «أريدها مهما حصل».

فكر رئيس الموتى وقتاً طويلاً.

قال له محذراً: «خذها. ستمشي خلفك. وعندما تقترب من أرض الأحياء سيعود اللحم ويغطي عظامها. ولكن لا تلتفت إلى الوراء إلى أن تصل، أتفهم؟ سأمنحك هذه الفرصة».

انطلق «كوموكمز» ومشت الفتاة خلفه.

لمس يدها عدة مرات. كان لحمها ينمو ودفنها يزداد في كل مرة. ولم ينظر أبداً إلى الخلف. ولكن حين ظهرت الغابات الخضراء في الأفق لم يستطع أن يتحمّل القيد فأدار رأسه ملتفتاً، عندئذٍ تفتّتتْ حفنة من العظام أمام عينيه.

- الإنبعاث -

كان من عادة الميت أن يعود بعد خمسة أيام في البيرو. كان يشرب كأساً من «الشيكا» ويقول: «أنا الآن خالد».

كان يوجد كثير من البشر في العالم. كانت المحاصيل تزرع في قاع الجروف وعلى حواف المهاوي ومع ذلك لم يكن الطعام كافياً.

بعد ذلك مات رجل في «هواروتشيري».

اجتمعت القبيلة كلها في اليوم الخامس لتستقبله. انتظروه من الصباح إلى ما بعد حلول الليل. بردت الصحون الساخنة وبدأ النوم يُطبق الجفون. لم يعد الرجل الميت.

جاء في اليوم التالي. كان الجميع غاضبين. صرخت زوجته التي شعرت بالإهانة أكثر من الجميع: «أنت لا تصلح لشيء، دائماً لا تصلح لشيء. يتقيد جميع الأموات بالمواعيد إلا أنت».

تلعثم المنبعث مطلقاً بعض الأعذار إلا أن المرأة ضربته بعرنوس ذرة على رأسه وتركته في الخارج ممدّداً على الأرض. عندئذ غادرتْ الروح الجسد وطارت متحولةً إلى حشرة سريعة تصدر طنيناً ولم تعد أبداً.

منذ ذلك الوقت لم ينبعث أي ميت ليختلط بالأحياء وينافسهم على طعامهم.

- السحر -

عاقبت امرأة عجوز من «التوكونا» بعض الفتيات اللواتي لم يقدمن لها الطعام. نزعت في الليل عظامهنّ من سيقانهن والتهمت لُبَّها وهكذا لم تستطع الفتيات أن يمشين أبداً.

تلقت العجوز في طفولتها وبعد ولادتها حالاً قوى الإشفاء والإنتقام من الضفدعة. علمتها الضفدعة أن تشفي وتقتل، أن تسمع أصواتاً لا تسمع وأن ترى ألواناً لا تلمح. تعلمت أن تدافع عن نفسها قبل أن تكتسب النطق. وقبل أن تتمكن من السير عرفت كيف تكون حيث لم تكن لأن رماح الحب والكراهية تخترق حالاً الأدغال الأكثر كثافة والأنهار الأكثر عمقاً.

حين قطع «التوكوناز» رأسها جمعت العجوز دمها بيديها ونفخته باتجاه الشمس وصرخت:
- «روحي تدخل إليك أيضاً».
منذ ذلك الوقت يتلقى أي شخص يمارس القتل في جسده ودون أن يريد أو يعرف، روح ضحيته.

- الضحك -

رأى الخفاش الذي كان معلقاً إلى غصن من قدميه محارباً من «الكايابو» منحنياً على جدول.
أراد أن يصادقه.
نزل إلى المحارب وعانقه. وبما أنه لم يكن يعرف لغة «الكايابو» تحدث معه بيديه. سحبتْ مداعبات الخفاش من الرجل الضحكة الأولى. وكلما كان يضحك كان يدبّ فيه الضعف. ضحك كثيراً إلى أن فقد كل قوته وسقط مغشياً عليه.
حين علم القرويون بذلك غضبوا كثيراً. حرق المحاربون كومة من الأوراق الجافة في كهف الخفاش وأغلقوا مدخله.
بعد ذلك تناقشوا، قرّر المحاربون أن الضحك يجب أن يقوم به فقط الأطفال والنساء.

- الخوف -

نادتهم الأجسادُ التي لا تُصَدَّق إلا أن رجال «النيفاكل» لم يتجاسروا على الدخول. شاهدوا النساء تأكل وتبتلع لحم السمك بالفم الأعلى بعد أن تمضغه بالفم الأسفل. كان يوجد أسنان بين سيقانهن.
وهكذا أشعل الرجال نيراناً ونادوا النساء وغنوا ورقصوا معهن.
جلست النساء في حلقة بأرجل متقاطعة.
رقص الرجال طوال الليل. تموجوا. التفتوا. طاروا كالدخان والعصافير. وحين جاء الفجر سقطوا أرضاً مغشياً عليهم. رفعتهم النساء بلطف وقدّمت لهم الماء ليشربوا.
كانت الأرض منقطة بالأسنان حيث كن يجلسن.

- السلطة -

كانت النساء في الأزمنة الغابرة تجلس في مقدمة المركب والرجال في مؤخرته. كانت النساء تصطاد الحيوانات والأسماك تغادر القرية وتعود إليها أنّى شاءت. كان الرجال يبنون الأكواخ، يحضّرون الطعام، يغذون النار ليطردوا البرد ويدبغون الجلود من أجل الملابس.

هكذا كانت حياة هنود «الأونا» و «الياغان» في تييرا ديل فويغو، إلى أن جاء يوم قَتَل فيه الرجالُ جميعَ النساء، وارتدوا الأقنعة التي صنعتها النساء لتخيفهم بها.

أُعفيت فقط الفتيات الحديثات الولادة من القتل. حين كن يتربيّن. كرّر القتلة لهن أن قدرهُنَّ خدمة الرجال. صدّقن ذلك، أيضاً بناتهنَّ صدّقن ذلك وبنات بناتهن.

ـ القوة ـ

في الأراضي التي وُلد فيها نهر «جوروا» كان «ميني» العجوز مالك الذرة يقّدم الحبوب مشّويةً وهكذا لم يستطع أحد أن يزرعها.

نجحت العظاءة في سرقة حبة طازجة منه. قبض عليها العجوز «ميني» ونزع حنكها وأصابعها إلا أنها نجحت في تخبئة الحبة وراء ضرسها الخلفي، ثم بصقتها في الأرض المشاع. كان فكها كبيراً وأصابعها طويلة جداً صعبة الانتزاع.

كان العجوز ميني مالك النار أيضاً. انسلت الببغاء إلى جوارها، بدأت تصرخ بصوت مرتفع. ضربها العجوز ميني بكل شيء كان في متناول يده إلا أن الببغاء صدت القذائف إلى أن شاهدت عصا مضاءةً في طريقها إليها، عندئذ أمسكتها بمنقارها الذي كان ضخماً كمنقار الطوقان وهربت. تبعها سيل من الشرر. أحرقت الجمار، التي كانت تهوّيها الريح، منقارَها، إلا أنها كانت قد وصلت إلى الأشجار حين قرعَ العجوز ميني طبله وحرّك عاصفة مطريةً.

وضعت الببغاء العصا المحترقة في جوف شجرةٍ تحت حماية الطيور الأخرى، وطارت راجعةً إلى المطر. أراحت المياه حروقها إلا أن منقارها قَصُرَ وتحدَّب وما يزال يظهر فيه ندبة بيضاء سببتها النار.

حمت الطيور النار المسروقة بأجسادها.

ـ الحرب ـ

عند الفجر، أعلن البوق من الجبل أن الوقت قد حان للقوس والنشاب وبنادق النفخ.

حين خيم الليل لم يبق شيء في القرية سوى الدخان.

استلقى رجل بين الموتى دون أن يتحرك. لطّخ جسده بالدم وانتظر. كان الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من شعب «البالاوينغ».

حين ذهب العدو نهض الرجل وتأمّل عالمه المدمّر. سار بين البشر الذين تقاسموا معه الجوع والشبع. وبحث بلا جدوى عن شخص أو أثر لم يُمْحَ. خدّره الصمت المرعب. أمرضته رائحة الدم والنار. شعر بقرف كونه حياً. فرمى نفسه بين أبناء قومه.

مع الضوء الأول جاءت النسور. لم يبق شيء داخل ذلك الرجل سوى ضبابٌ، وتوقٌ للنوم، وبقي أيضاً: أن يترك نفسه لأن يلتهم.

إلا أن ابنة الكندور فتحت باباً عبر الطيور آكلة الجثث المتحلقة. ضربت بقسوة بجناحيها وغاصت، فتمسك بقدميها وأخذته ابنة الكندور بعيداً.

- حفلات -

كان رجل من «الأنويت» يصطاد رنَةً حين ظهر خلفه فجأة نسر.

قال النسر: «لقد قتلتُ شقيقيك. إذا أردت أن تنقذ نفسك يجب أن تقيم حفلة في قريتك ليغني الجميع ويرقصوا».

ـ حفلة؟ غناء؟ ماهذا؟ ماهو الرقص؟

ـ تعال معي.

أراه النسر حفلةً. كان يوجد الكثير من الطعام الجيد والشراب، والطبل يقرع بقوة كقوة قلب أم النسر العجوز، وإيقاعه يرشد أبناءها عبر المساحات الواسعة للجليد والجبل. كانت الذئاب والثعالب وضيوف آخرون يرقصون ويغنون إلى شروق الشمس.

عاد الصياد إلى قريته.

فيما بعد، وبعد وقت طويل، عرف أن أم النسر العجوز وجميع عجائز العالم النسري كانوا أقوياء ورشيقين وسريعين. تعلّم البشر أخيراً أن يُغنّوا ويرقصوا وأرسلوا إليهم، من بعيد، مباهج أدفأت الدم.

- الضمير -

حين انخفضت مياه «الأورينوكو» أحضرت القوارب الكاريبيين بفؤوس قتالهم.

لم يمتلك أحد فرصةً ضدّ أبناء اليَغْوَر. مهدوا القرى وصنعوا العيدان من عظام ضحاياهم. لم يخشوا أحداً. كان الشيء الوحيد الذي زرع الهلع فيهم شبح ولد في قلوبهم.

كان الشبح ينتظرهم خلف الأشجار. حطم جسورهم ووضع في ممراتهم نباتات متعرشة ومتشابكة. كان يسافر في الليل وليحرفهم عن الطريق كان يمشي إلى الخلف. كمن في المنحدر الذي تحطّمت عليه الصخور، في الوحل الذي غاص تحت أقدامهم، في ورقة النبات السام، في لمسة العنكبوت. بنَفَس صرعهم. أدخل الحمّى عبر آذانهم وسرق منهم الظل.

لم يكن ألَماً، إلّا أنه يؤذي. لم يكن موتاً، إلا أنه يقتل. كان اسمه «كاينما». ولد بين الغزاة لينتقم للمغزوّين.

ـ المدينة المقدّسة ـ

أمر «ويراكوتشا» الذي هرب من الظلمة الشمس أن يرسل فتاةً وطفلاً إلى العـالم ليضيئا الطريق للعميان.

وصل ولدا الشمس إلى ضفة بحيرة «تيتيكاكا» وانطلقا عبر الوهاد «الآندية». كانا يحملان ساريةً ذهبيةً، أينما غاصت من الضربة الأولى كانا يعثران على مملكةٍ جديدة. وعلى العرش كانا يتصرفان كوالدهما الذي يمنح الضوء والوضوح والدفء ويسقط المطر والندى ويقوي المحاصيل ويكاثر القطعان ولايترك يوماً يمر لا يزور فيه العالم.

حاولا أن ينصبا السارية في كل مكـان إلا أن الأرض كـانت تعيدها. اجتازا المرتفعات وعبرا الشلالات والهضاب. كانت أقدامهما تغير أي شـيء فتتحول الأرض القاحلة إلى خصبة وتجف المستنقعات وتعود الأنهار إلى مجاريها. في الفجر كان يرافقهما إوز أبيض وفي المساء النسور.

غرس ولدا الشمس أخيراً السارية قرب جبل «وانا كـوري» حـين ابتلعتها الأرض صعد قـوس قزح في السماء.

بعد ذلك قال الآنكي الأول لأخته وزوجته:

ـ لنجمع البشر سويةً.

كان الوادي الذي يمتد بين الجبال والمروج مغطًى بأشجار خفيضة. ولم يكن أحد يمتلك منزلاً كان الناس يعيشون في الثغور أو خلف الصخور يقتاتون علـى الجـذور ولم يعرفـوا كيف ينسجون القطن أو الصوف ليحموا أنفسهم من البرد.

تبع الجميع ولدي الشمس. آمن الجميع بهما وعرف الجميع من تـألق كلماتهما وأعينهما أنّ ولَدَيْ الشمس لم يكونا كاذبين. رافقوهما إلى المكان الذي كانت تنتظرهم فيه مدينة كوزكو العظيمة التي لم تكن قد ولدت بعد.

ـ الرحّالة ـ

جاء مايا الكويتشز من الشرق.

حين وصلوا إلى الأراضي الجديدة حاملين آلهتهم على ظهورهم خافوا من أنه لن يوجد فجر.

تركوا السعادة خلفهم في «تولان» ووصلوا مقطوعي النفس بعد رحلةٍ طويلة مؤلمة. انتظروا عند حافة غابة «إزماتشي» صامتين محتشدين معاً دون أن يجلس أحد منهم أو يتمدّد ليستريح. إلا أنّ الوقت مرّ وخيّم الليل.

أخيراً ظهر نجم الصباح في السماء.

حضن هنود الكويتشز بعضهم ورقصوا، ثم، وكما يقول الكتاب المقدّس: أشرقت الشمس كرجل.

منذ ذلك الوقت يجتمع هنود الكويتشز في نهاية كل ليلة ليحيّوا نجم الصباح ويراقبوا ولادة الشمس حين يكون الشمس على وشك الظهور، يقولون:

ـ لقد جئنا من هناك.

ـ أرض الميعاد ـ

تنقّلوا أكثر من قرنين ليلاً ونهاراً، بلانوم، عراةً ومسحوقين. ذهبوا للبحث عن مكان تمتدّ فيه الأرض بين القصب والسعادى(١)

ضاعوا مراراً. تبعثروا وتجمعوا ثانيةً. ضربتهم الريح. اندفعوا إلى الأمام وانطلقوا. ارتطموا ببعضهم وتدافعوا. سقطوا من الجوع ونهضوا. سقطوا ثانية ثم نهضوا من جديد. وفي الإقليم البركاني حيث لاينمو عشب أكلوا لحم الثعابين.

حملوا رايةً وعباءة الإله الذي تحدث مع الكهنة في الحلم ووعدهم بمملكة من الذهب وريش الكتزل قال لهم: «سوف تُخضِعون جميع الشعوب والمدن من الماء إلى الماء، وليس بالسحر بل بشجاعة القلب وقوة الذراع».

حين اقترب من البحيرة المتلألئة تحت شمس الظهيرة بكى شعب الآزتيك للمرة الأولى. كان هناك جزيرة الصلصال الصغيرة: فوق الصبّار الشوكي والأسَلِ والأعشاب البرية كان النسر يفرد جناحيه.

حين رآهم قادمين أخفض رأسه. كان هؤلاء المنبوذون المحتشدون على حافة البحيرة، القذرون، المرتجفون، الشّعْبَ المختار الذي ولد في الأزمنة الغابرة من أفواه الآلهة.

رحّب بهم هويتزيلو بوتشلي: «هذا هو مكان راحتنا وعظمتنا». تعالى رنين صوته: «آمر أن تدعى هذه المدينة التي ستكون ملكة على جميع المدن الأخرى «تينوشتيتلان»: هذه هي المكسيك»

ـ أخطار ـ

حذّر الذي خلق الشمس والقمر «التينوز» وطلب منهم أن يراقبوا الموتى.

يختبىء الموتى في النهار ويأكلون ثمر الغوافة، ولكن في الليل يتجولون ويتحدّون الأحياء. كان الرجال الموتى يطلبون المبارزة والنساء الميتات ممارسة الحب. كانوا يختفون فوراً في المبارزات، وفي

(١) ـ السعادى: نوع من النبات.

ذروة الحبّ كان يجد العاشق نفسه وحيداً ولاشيء بين ذراعيه. على المرء أن يتحسّس البطن بيده قبل أن يقبل مبارزة رجل أو النوم مع امرأة لأن الموتى لا يمتلكون سُرَراً.

حذّر إله السماء «التينوز» أيضاً أن يراقبوا حتى البشر الذين يرتدون ثياباً كثيرة.

صام الرئيس كايسيمو لمدة أسبوع وكان جديراً بكلماته: أعلن الواحد اللامرئي، الذي له أم ولابداية له أن متعة الحياة ستكون قصيرة. سيأتي رجال يرتدون الملابس وسوف يهيمنون ويقتلون.

- بيت العنكبوت -

حلم كاهن «السيو» شارب الماء أن مخلوقات أجنبية كانت تنسج بيت عنكبوت ضخم جداً حول شعبه. استيقظ عارفاً أن هذا سيحدث وقال لشعبه: «حين يحدث هذا ستعيشون في منازل رمادية مربعة على أرض عارية وقرب تلك المنازل الرمادية المربّعة ستموتون من الجوع».

- النبي -

أصغى الكاهن - اليغور «لليوكاتان» إلى رسالة الآلهة وهو ممدّد على الحصير. تحدثوا معه عبر السقف بلغة لم يكن يعرفها أحد.

تذكّر شيلام بيلام، الذي كان الناطق باسم الآلهة مالم يحدث بعد:

«سيتبعثر في أنحاء العالم النساء اللواتي يغنين والرجال الذين يغنون.. لأحد سينجو.. لأحد سيُنْقَذْ سيسود البؤس في سنوات حكم الجشع... سيُحوَّل الرجال إلى عبيد. حزيناً سيكون وجه الشمس... سيخلو العالم من السكان سيصبح صغيراً وذليلاً».

عالم جديد قديم

١٤٩٢ م: البحر المحيط

- مسار الشمس إلى الآنديز -

النسائم عذبة وعليلة كالتي يجود بها ربيع «سيفيل» والبحر يشبه نهر «كواد الكويفيري». لكن حالما ترتفع الموجة سرعان مايصيبهم دوار البحر فيتقيأون وهم مضغوطون في مقدمات السفن، الرجال الذين يشقون البحر المجهول، البحر الذي بلا إطار على متن ثلاث سفن صغيرة متجاورة. رجال، قطرات صغيرة في الريح. ولنفترض أن البحر لايحبهم؟ الليل يخيّم على السفن الشراعية. هل ستؤرجحها الريح؟ يقفز الأدورادو وهو يطارد سمكة طائرة علي سطح السفينة ويزداد الهلع. لايُقدِّر الطاقم العطرَ الزعتريَّ للبحر الذي يتموّج لامبالياً ولايصغون إلى ضجيج النوارس وطيور الطيش التي تجيء من الغرب. ذلك الأفق: هل تبدأ الهاوية من هناك؟ هل ينتهي البحر؟

عيون تشعّ منها الحمّى لبحارةٍ ضربهم الطقس في ألف رحلة، أعينٌ لامعة لمجرمين مزمنين يُجرّون من السجون الأندلسية إلى السفن بالقوة: هذه الأعين لاترى الإنعكاسات النبوية للذهب والفضة في زبد الأمواج ولافي طيور الجبال والأنهار التي تُحلّق فوق السفن ولا في الأسَل الأخضر والأغصان الكثيفة التي تعلق بها القواقع ولا في الطحلب البحري. أهذا قاعُ الهاوية حيث يبدأ الجحيم بالاشتعال؟ في أي نوعٍ من الأنياب ستقذف الرياح التجارية[1] هؤلاء الرجال الصغار؟ يحدّقون بالنجوم باحثين عن الله، إلا أن السماء غامضة كهذا البحر الذي لم يُسبر من قبل. يسمعون زئيره، البحر الأم، ذو الصوت الأجش، يجيب الريح بعبارات الإدانة الأبدية. طبول غامضة تقرع في الأعماق، يصلّبون أو يصلّون ويتمتمون: الليلة سننسحب من العالم، الليلة سننسحب من العالم.

---

(١) ـ رياح تهب باطراد نحو خط الإستواء.

١٤٩٢م: غواناهاني

- كولومبس -

يركع على ركبتيه باكياً. يقبّل الأرض. يخطو إلى الأمام. يترنح لأنه لم ينم منذ شهر، ويقطع رؤوس بعض الأغصان بسيفه.

بعد ذلك يرفع الراية. متكئاً على ركبة واحدة بعينين مرفوعتين إلى السماء يلفظ ثلاث مرات: اسمي إيزابيلا وفرديناند. وإلى جانبه كان الناسخ رودريغو إيسكوبيدو، البطيء بالكتابة، يخطّ السند.

بدءاً من اليوم يصبح كلّ شيء لهذين الملكين البعيدين: البحر المرجاني، الشواطىء، الصخور المخضّرة بالطحالب، الغابات، الببغاوات، والبشر العراة الذين لايعرفون شيئاً إلى الآن عن الثياب والخطيئة أو النقود، والذين كانوا ينظرون إلى المشهد بحذر.

يترجم لوي توغي أسئلة كريستوف كولومبس إلى العبرية: «هل تعرفون مملكة الخان العظيم؟ من أين هذا الذهب الذي تعلقونه على آذانكم وأنوفكم؟».

يحدق به الرجال الذين تشبه جلودهم ورق الغار بأفواه فاغرة، يحاول المترجم أن يستخدم ذخيرته من اللغة الكلدانية: «الذهب؟ المعابد؟ القصور؟ ملك الملوك؟ الذهب؟».

يحاول بعد ذلك باللغة العربية، بالقليل الذي يعرفه منها: «اليابان، الصين؟ الذهب؟».

يعتذر المترجم لكولومبس باللغة القشتالية يشتم كولومبس باللغة الجنَوية ويرمي أوراق اعتماده على الأرض وهي مكتوبة باللاتينية وموجهة إلى الخان العظيم. يراقب الرجال العراة غضبَ المتطفل ذي الشعر الأحمر والبشرة الخشنة الذي يرتدي قبّعة مخملية وثياباً برّاقة جداً.

حالاً سينتشر الخبر في جميع الجزر.

«تعالوا وشاهدوا الرجال الذين جاؤوا من السماء. أحضروا لهم الطعام والشراب».

١٤٩٣م: برشلونة

- يوم المجد -

يعلن عن حضوره المنادون بأبواقهم. تجلجل الأجراس، وتُقْرع الطبول مصدرةً إيقاعات احتفالية. يصعد الأميرال الذي جاء مؤخراً من الآنديز الدرجات الحجرية، ويتقدّم على السجادة القرمزية وسط الانبهار المترف لتصفيق حاشية البلاط الملكي. يصل الرجل الذي جعل نبوءات القدّيسين صادقةً إلى المنصة، يركع، ويقبل يدي الملكة والملك.

خلفه تتقدّم الغنائم. تتوهّج على الأطباق نتف الذهب التي استبدلها كولومبس بمرايا صغيرة وقلنسوات حمراء في الحدائق البعيدة التي بَزَغَتْ خديثاً من البحر. على الأغصان والأوراق الذابلة عُرضت جلود العظاءات والثعابين، وتدخل خلفها مرتجفةً وباكيةً الكائنات التي لم تشاهد أبداً من قبل إنهم القلة التي نجت من الزكام وداء الحصبة والقرف من الطعام المسيحي والرائحة السيئة. ليسوا عراةً كما كانوا حين اقتربوا من السفن الشراعية الثلاثة وأُسروا. كانوا مكسوّين بالسراويل والقمصان وبعض الببغاوات التي وُضِعَتْ على أيديهم ورؤوسهم وأكتافهم. تبدو الببغاوات بريشها الذي سَرَقَتْهُ الريح القذرة للرحلة هاجعةً كالرجال. لم يبق على قيد الحياة أحدٌ من الأطفال والنساء الذين أُسروا.

سُمِعَتْ تمتماتٌ معاديةٌ في الصالون، الذهب قليل ولا أثر للفلفل الأسود، لجوزة الطيب والثوم أو الزنجبيل ولم يُحضر كولومبس أية حوريات ملتحياتٍ أو بشراً لهم أذيال أو أشخاصاً لهم عين واحدة أو رجل واحدة ـ وتلك القدم الكبيرة بما يكفي لتحمي من الشمس الحامية حين تُرفع إلى الأعلى.

١٤٩٣م: روما

ـ عهد آدم ـ

في الضوء الخافت لمبنى الفاتيكان الذي يفوح بعطور شرقية يملي البابا أمراً رسمياً.

مرّ وقت قصير منذ أن مُنِحَ رودريغو بورغيا من كسافيتا التابعة لفالنسيا اسم الإسكندر الرابع، ولم تمض سنة بعد على اليوم الذي اشترى فيه نقدياً الأصوات السبعة التي كانت تنقصه في المجمع المُقدّس.

يكرس الإسكندر معظم وقته للإنغماس في الملذات ولا يفكر بسر الثالوث المقدس. الجميع يعرفون أنه يفضّل القداسات القصيرة جداً ماعدا تلك القداسات التي يحتفل بها مهرجه «غابربيلينو» وهو مقنّع في غرفته الخاصة، ويعرف الجميع أن البابا قادر على إعادة تسيير موكب عيد القربان ليمر تحت شرفة امرأة جميلة.

إنه قادر أيضاً على تقطيع العالم وكأنه فرّوج: يرفع يداً ويرسم حداً من رأس الكوكب إلى ذيله، عبر البحر المجهول ويسلّم ممثل الله إلى الأبد كلّ ما اكتشف أو هو قيد الاكتشاف، في غرب هذا الحد، إلى إيزابيلا القشتالية وفرديناند الأراغوني وإلى ورثتهم على العرش الأسباني، ويعهد إليهما إرسال خبراء وحكماء ومثقفين، يخشون الله وطيبين إلى الجزر والأراضي المكتشفة أو التي ستُكْتَشَفُ ليرشدوا السكان الأصليين إلى العقيدة الكاثوليكية وإلى العادات الحسنة. وتعود ملكية أي شيء يكتشف شرق الحدّ إلى التاج البرتغالي.

ألمُ وابتهاجُ أشرعةٍ تُنْشَر: كان كولومبس في الأندلس يجهز لرحلة ثانية إلى الأقاليم التي ينمو فيها الذهب عناقيدَ على الكرمة وتنتظر الأحجار الكريمة في جماجم العظاءات.

١٤٩٣م: ويهوسينكو

- أين الحقيقة؟ أين الجذور؟ -

ويهوسينكو، مدينة الموسيقا لا الحرب، التي تقع في وادي «تلاهكالا» هاجمها الآزتيكيون في ومضةٍ ودمّروها وقدموا الأسرى أضاحي لآلهتهم.

في ذلك المساء، جمع ليكايهواتزن، ملك ويهوسينكو الشعراء من مناطق أخرى. تحدث الشعراء في حدائق القصر عن الزهور والأغاني التي جاءت إلى الأرض، إقليمِ اللحظةِ الهاربة، والتي جاءت من داخل السماء والتي لاتستمر إلا هناك في منزل واهب الحياة. يتحدث الشعراء ويشكون:

هل يمكن أن يكون الرجال حقيقيّين؟

هل ستكون أغنيتنا حقيقية غداً؟

تتبع الأصوات بعضها الآخر. حين يخيم الليل، يشكرهم ملكُ ويهوسينكو ويودعهم:

نعرفُ شيئاً حقيقياً

وهو قلوب أصدقائنا

١٤٩٣م: باستو

- الجميع يدفعون الجزية -

وصل جابي ضرائب إمبراطورية الآنكا حتى إلى تلك المرتفعات البعيدة في الشمال.

لم يكن لدى شعب «الكويلاسينكا» شيءٌ يدفعه، ولكن في هذه المملكة الواسعة تدفع جميع القبائل الجزية سلعاً أو عملاً. لاأحد، مهما كان بعيداً أو فقيراً يستطيع أن ينسى من هو المسؤول.

عند سفح البركان يخطو زعيم «الكيلاسينغاز» إلى الأمام ويضع أسطوانة خيزرانية في يد مبعوث كوزكو. كانت الأسطوانة مليئة بالقمل.

١٤٩٣م: جزيرة سانتا كروز

- تجربة ميغيل كينو من سافونا -

ينتشر ظلّ الأشرعة على البحر. تعوم أعشاب الخليج وقناديل البحر التي تدفعها الأمواج على سطح الماء متجهةً إلى الشاطىء.

كان كولومبس يتأمل عن ظهر إحدى السفن الشواطىء البيضاء التي نصبَ عليها مرة ثانية الصليب والمشنقة. هذه هي رحلته الثانية. لايعرف كم ستطول إلا أن قلبه يخبره أنها ستنجح. ولماذا لايصدق الأميرال هذا؟ أليس من عادته أن يقيس سرعة السفينة ويده على صدره تحصي خفقات قلبه؟

في سفينة أخرى وفي حجرة الكابتن كانت فتاة شابة تُظهر أسنانها. حين يمدُّ ميكيل سوفيو يده إلى ثدييها تخدشه وترفسه وتصرخ. حصل عليها ميكيل منذ فترة كهدية من كولومبس.

يجلدها بحبل يضرب بقسوةٍ على رأسها ومعدتها وساقيها. يتحول صراخها إلى أنين وأنينها إلى عويل. وفي النهاية، كان كل مايمكن سماعه هو مجيء وذهاب النوارس وصرير الأخشاب المهتزّة وبين فينة وأخرى كانت الأمواج تُدخل رذاذاً عبر فتحة الرمي

يرمي ميكيل نفسه على الجسد النازف ويضغط. يشهق ويصارع. كان الهواء يفوح برائحة القار والملح الصخري والتعرّق. بعد ذلك، وفجأة تثبّتت الفتاة التي بدا أنه أغمي عليها أو ماتت أظافرها على ظهر ميكيل ثم تلتفّ حول قدميه وتدحرجه في عناقٍ عنيف.

حين يقذف ميكيل، بعد وقت قليل، لايعرف أين هو، وما الذي حدث. شاحباً، خلّص نفسه منها ورماها بعيداً بقبضته.

يتعثّر على سطح السفينة، بفمٍ فاغرٍ يأخذ نفساً عميقاً من النسيم البحري، ثم يقول بصوتٍ مرتفعٍ وكأنه يعلن حقيقة أبدية: «إن جميع النساء الهنديات عاهرات».

١٤٩٥م: سالامنكا

- الكلمة الأولى من أميركا -

ينشر إيليو أنطونيو نبريخا، عالم اللغات، قاموسه الإسباني - اللاتيني هنا. يتضمن القاموس المفردات الأميركية الأولى للغة القشتالية:

«كانو»: قارب مصنوع من لوح خشبي واحد.

جاءت الكلمة الجديدة من جزر الآنتيل.

رحّبَتْ هذه القوارب غير الشراعية المصنوعة من جذوع الأشجار السيبة بكريستوف كولومبس. جاء الرجال من الجزر، يجذفون القوارب بشعر أسود طويل وأجساد موشومة برموز الزنجفر. اقتربوا من السفن الشراعية وقدموا مياهاً عذبةً واستبدلوا الذهب بنوعٍ من الأجراس التنكية التي تباع بقطعةٍ نقديةٍ نحاسية واحدة في قشتالة.

١٤٩٥م: لا إيزابيلا

- كاأونابو -

يجلس السجين منفصلاً منعزلاً عند مدخل منزل كريستوف كولبس. كان مقيداً بالأغلال من كاحليه ورسغيه.

كان هذا كاأونابو الذي أحرق حصن نافيداد الذي بناه أميرال البحر حين اكتشف جزيرة هايتي. أحرق الحصن وقتل ساكنيه ولم يتوقف الأمر عند ذلك. عاقب لمدة عامين بالنشاب الأسبان الذين كان يعثر عليهم في منطقته الجبلية «سيبو» حيث جاؤوا ليصطادوا الذهب والبشر.

زاره ألونزوا أوخيدا الذي تمرّس في الحروب ضد المغاربة بحجّة السلام. دعاه إلى ركوب حصانه ثم قيّده بأغلال من الحديد المصقول قائلاً: «هذه كانت جواهر يرتدونها ملوك قشتالة أثناء حفلاتهم الراقصة».

ويمضي الزعيم «كاأونابو» الآن الأيامَ جالساً قرب الباب، عيناه مثبّتتان على لسان ضوئي يغزو الأرض عند الفجر ويتراجع ببطء في المساء. لايُرَفُّ له جفن حين يأتي كولومبس، أما حين يظهر «أوخيدا» يحاول الوقوف ويحيّيه بانحناءةٍ لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع أن يهزمه.

١٤٩٦م: لاكونسبيون

- انتهاك المقدّسات -

يحضر بارثولوميو كولومبس، شقيق كريستوفر وقائمقامه حَرْقَ لحم بشريٍّ. ستة رجال يحترقون في محرقة هايتي.

يسعل الجميع من الدخان. يحترق الستة كعقوبة ودرس: لقد دفنوا صور المسيح والعذراء التي منحها لهم «رامون باني» لتحميهم وتنصحهم. علمهم فراي رامون أن يصلّوا على ركبهم ويرددوا السلام المريمي والصلاة الربانية وأن يتحصّنوا باسم يسوع ضد الإغراء والأذى والموت.

لم يسألهم أحد لماذا دفنوا الصور. كانوا يأملون أن هذه الآلهة الجديدة ستخصب حقول الذرة والمنيهوت واللوبياء.

تضيفُ النار الدفءَ إلى الحرارةِ الرطبة اللاصقة التي تنذر بمطر غزير.

١٤٩٨م: سانتو دومينغو

- الجنة الأرضية -

كان كريستوف كولومبس يكتب رسالةً في المساء قرب نهر «أوزما». كان جسده يصرُّ من الروماتيزم أما قلبه فكان يقفز من الفرح. كان المكتشف يشرح لصاحبي الجلالة الكاثوليكيين أنه يمتلك دليلاً على أن الجنة الأرضية تقع على حلمة ثدي امرأة.

أدرك هذا منذ شهرين حين دخلتْ سفنه الشراعية إلى خليج «باريا». هناك بدأت السفن تصعد بهدوء نحو السماء .. مبحراً ضد التيار إلى حيث يفقد الهواء وزنه وصل كولومبس إلى الحدّ الأبعد للشرق. هنا في أكثر أراضي العالم جمالاً يظهر الرجال الذكاءَ والبراعة والشجاعة ولاترتدي النساء الرائعات سوى شعرهن الطويل وعقود اللؤلؤ الملتفة حول أجسادهن هنا يوقظ الماء العذب النقيّ الظمأَ. الشتاء لايعاقب والصيف لايحرق وتداعب النسائم ماتلامسه. الأشجار تَهَبُ الظلال المنعشة وتتدلى على مسافة ذراع ثمار فائقة البهجة تثير الجوع

لكن لاتستطيع أية سفينة أن تبحر خلف هذا الاخضرار والجمال. هذا هو حدّ الشرق. هنا تنتهي المياه والأراضي والجزر. هنا ترفع شجرة الحياة عالياً وبعيداً تاجَها الكبير ويُزْبِدُ منبع الأنهار المقدّسة الأربعة. يُدعى أحَدُ هذه الأنهار «أورينوكو» وأشك إذا كان نهر عظيم وعميق كهذا معروف في العالم.

ليس العالم كروياً. العالم حلمة امرأة تبدأ الحلمة في خليج «باريا» وتصعد إلى نُقطةٍ قريبةٍ جداً من الفردوس السماوي. أما القمة التي تتدفّق عليها أنساغ الفردوس لن يصل إليها أبداً أيّ إنسان.

- لغة الجنة -

يسمّي «الكواروس» الذين يعيشون في ضواحي الجنة الأرضية قوسَ قُزحٍ ثعبانَ العقود، والسماءَ البحرَ الأعلى. يسمّون البرقَ توهجَ المطرِ، والصديقَ قلبيَ الآخر، والروحَ شمسَ الصدرِ، والبومةَ سيدةَ الليلةِ المظلمة، والعكازَ الحفيدَ المستمر، وبدلاً من: نغفر لكم. يقولون: ننسى.

١٤٩٩م: غرناطة

من هم الأسبان؟

تبقى المساجد مفتوحة في غرناطة، بعد سبع سنواتٍ من استسلام معقل العرب الأخير في إسبانيا. كان تَقَدُّم الصليب بطيئاً خلف نصر السيف. يقرّر رئيس الأساقفة سيزينيروس أن المسيح لايستطيع الانتظار.

«المغاربة»، هو الإسم الذي أطلقه المسيحيون الأسبان على أسبانيي الثقافة الإسلامية الذين عاشوا هنا ثمانية قرون. حُكِمَ على آلاف مؤلفة من الأسبان ذوي الثقافة اليهودية بالنفي. كذلك خُيِّر المغاربة بين العمادة والمنفى، أما بالنسبة للمرتدين المزيفين فقد أوقدتْ نيران محاكم التفتيش. إن وحدة أسبانيا، أسبانيا التي اكتشفت أميركا لن تنتج من حاصل جميع أجزائها.

يُساق فقهاء غرناطة المسلمين إلى السجون بأمر من رئيس الأساقفة سيزينيروس. تلتهم ألسنة لهبٍ عاليةٍ الكتبَ الدينية والشعرية والفلسفية، النسخ الوحيدة التي تحرس كلمات ثقافة رَوَتْ هذه الأراضي وعاشت فيها.

كانت قصور الحمراء المزدانة بالنقوش تشهد صامتةً على العبودية بينما كانت ينابيعها ماتزال تُقَدِّم الماء إلى الحدائق.

١٥٠٠م: فلورنسا

- ليوناردو -

يعود من السوق حاملاً أقفاصاً متنوعة على ظهره. يضعها على الشرفة. يفتح أبوابها الصغيرة وتنطلقُ الطيور. يراقب الطيور وهي تضيع في السماء مرفرفةً بفرح ثم يجلس ليعمل.

يدفِّىء يدَهْ شعاعُ الظهيرة، وعلى لوحٍ عريض يرسم ليوناردو دي فينشي العالم. وفي العالم الذي يرسمه ليوناردو تظهر الأراضي التي اكتشفها كولومبس وقت الغروب. يبتكرها الفنان كما ابتكر الطائرة والدبابة والمظلة والغواصة ويعطيها شكلاً كما جَسَّدَ لغز العذارى وأهواء القدّيسين: يتخَيَّلُ جسد أميركا، التي ماتزال لاتملك أسماً ويحددها كأرض جديدة وليس كجزء من آسيا.

كولومبس، الذي كان يبحث عن المشرق اكتشف الغرب. يخمِّن ليوناردو أن العالَم كَبُرَ.

١٥٠٦م: فالادوليد

- الرحلة الخامسة -

أملى وصيته ليلة أمس وسأل في الصباح إذا وصل مبعوث الملك ثم نام. أطلق أنيناً وصدرت عنه كلمات فارغة. مايزال يتنفس ولكن بصعوبة كأنه يصارع الهواء.

لم يصغ أحد في البلاط إلى توسلاته. عاد من الرحلة مقيّداً بالأغلال ولم ينتبه أحد في الرحلة الرابعة إلى ألقابه الرفيعة ومناصبه.

يخرج كريستوف كولومبس عارفاً أنه لايوجد حبّ أو مجد لايقود إلى ألم. ولكنه، من جهة أخرى لايعرف أن الراية التي نصبها لأول مرة سوف ترفرف بعد خمسة أعوامٍ فوق مملكة الآزتيك في أراض مجهولة وفوق مملكة الآنكا، تحت السماوات المجهولة للصليب الجنوبي. لايعرف أنه

رغم كل كذبه ووعوده وتهويماته مايزال مقصّراً. الأميرال الأعلى للبحر المحيط مايزال يؤمن أنه وصل إلى آسيا من الخلف.

لن يسمّى المحيط بحر كولومبس ولن يحمل اسمه العالم الجديد بل اسم صديقه الفلورنسي أمير يكوفيسبوتشي، البحار والربّان الماهر. إلا أن كولومبس هو الذي اكتشف لوناً مذهلاً لم يوجد في قوس قُزَحِ الأوروبي. يفقد بصره ويموت دون أن يشاهده.

١٥٠٦م: تينوشتيتلان

- الإله الكوني -

غزا موكيتزوما تيوكتيبيك

النار تلتهم المعابد، الطبول تقرع يصعد السجناء واحداً بعد آخر الدرجات إلى حجر الأضاحي الدائري. يطعن الكاهن كلّ صدر بالخنجر المقدس ينتزع القلب. يرفعه إلى الأعلى ويريه للشمس الذي يشرق فوق البراكين الزرقاء.

إلى أي إله كان يمنح الدم؟ الشمس يطلبه ليولد كل يوم ويسافر من أفق إلى آخر. إلا أن طقوس الموت المذهلة تخدم أيضاً إلهاً آخرَ لايظهر في المخطوطات ولا في الترانيم.

لو لم يحكم ذلك الإله العالم لما كان هناك عبيد وأسياد، إقطاعيات ومستعمرات، لما استطاع تجار الآزتيك أن يغتصبوا ماسة مقابل حبة لوبياء من الشعوب المهزومة ولاالكاكاو مقابل الأحجار، لما عبر الحمّالون شساعة الإمبراطورية حاملين أطناناً من الضرائب على ظهورهم ولقَدَر العامة على ارتداء الأرديّة القطنية ولشربوا الشوكولاتة وتزّينوا بجرأةٍ بريش الكتزل المنوع وخلاخيل الذهب ونبات المغنولية والسحلبيّة الخاصة بالنبلاء، لسقطت عندها الأقنعة التي تخبيء وجوه الزعماء المحاربين: منقار النسر، أنياب النمر، الريش الذي يتموج ويتلألأ في الجوّ.

تتلطخ درجات المعبد العظيم بالدم وتتكوّم الجماجم وسط الساحة العامة. ليس هكذا فقط يجب أن يتحرك الشمس، لا، أيضاً هكذا سيقرّر الإله السريّ بدلاً من الإنسان تبجيلاً لذلك الإله وعَبْرَ البحر يشوي وكلاء محاكم التفتيش الهراطقة في النيران أو يزجّون بهم في غرف التعذيب. إنه إله الخوف. إله الخوف الذي له أسنان جرذ وجناحا عقاب.

١٥١١م: نهر كوارافو

- أكوينابا -

وصل الكابتن بونس ليون إلى جزيرة بويرتوريكو منذ ثلاثة أعوام على ظهر سفينةٍ شراعية. فتح له الزعيم أكوينابا باب منزله وقدّم له طعاماً وشراباً وطلب منه أن يختار إحدى بناته. منحه اسمه أيضاً وبدأ بونس دي ليون يدعو نفسه أكوينابا واستبدل أكوينابا اسمه باسم الغازي.

منذ ثلاثة أيام جاء الجندي سالسيدو وحده إلى ضفة نهر كوارفو. قدّم الهنود ظهورهم له ليعبر عليها. حين وصلوا إلى منتصف النهر رموه عن ظهورهم ثم حملوه باتجاه قاع النهر إلى أن توقف عن الرفس بقدميه، ثم مدّدوه على العشب

تحوّل سالسيدو إلى كرة أرجوانية من اللحم الملوي عُصرت إلى أن تحولت إلى درع تهاجمه الحشرات ويتعفّن بسرعة تحت الشمس. ينظر إليه الهنود وأيديهم على أنوفهم. توسّلوا ليلاً ونهاراً إلى الغريب طالبين الصفح. إن مادفعهم إلى ذلك هو الشك. لافائدة الآن. تذيع الطبول الأخبار الجيدة: «*الغزاة غير خالدين*».

غداً ستبدأ الانتفاضة بقيادة أكوينابا. سيعود زعيم المتمردين إلى اسمه القديم. سيستعيد اسمه الذي استُخدم ليذل شعبه.

كو ـ كوي، كو ـ كوي: تصيح الضفادع الصغيرة. أوقفت الطبول التي تدعو إلى الحرب أنغامها الكريستالية الرتيبة المضادة.

١٥١١م: آيماكو

- بيسيريلّو -

أُخْمِدَ العصيان المسلَّح للزعيمين أكوينابا ومابوداماكا وقُتل جميع الأسرى.

يعثر الكابتن دييغو سالزار على المرأة العجوز المختبئة بين الأشجار المتشابكة ولايطعنها بسيفه. يقول لها: «خذي هذه الرسالة إلى الحاكم في كابارا».

تفتح العجوز عينيها قليلاً ثم تسحب أصابعها مرتجفةً.

تمشي مترنحة كولد صغير حاملة الظرف كأنه راية.

بينما كانت العجوز ماتزال في المدى المجدي لقوس النشّاب يطلق الكابتن سراح بيسيريللو. أمر الحاكم بونس دي ليون أن بيسيريللو يجب أن يحصل مرتين على مايُدفع لرامي القوس، كخبير أدغال وصياد هنود. ليس لهنود بويرتوريكو عدو أسوأ منه.

يُسقط السهم الأول المرأة. بيسيريلّو ذو الأذنين المرتفعتين والعينين الناتئتين سيفترسها بعضّة واحدة.

توسّلت إليه: «أيها السيد الكلب: أنا أحمل رسالة إلى الحاكم».

لايفهم بيسيريللو اللغة المحلية فتريه المرأة الظرف الفارغ.

ـ «لاتؤذيني أيها السيد الكلب».

يشمّ بيسيريللو الظرف. يدور عدّة مرات حول حقيبة العظام التي تئن، يرفع حافره ويبول عليها.

١٥١١م: يارا

ـ هاتوي ـ

في هذه الجزر، في مواضع الصلب هذه، الذين يختارون الموت بشنق أنفسهم، أو يشربون السمّ مع أولادهم عددهم كبير. لايستطيع الغزاة أن يتجنبوا هذا الانتقام ولكنهم يعرفون كيف يشرحونه: الهنود متوحشون، يظنون أنّ كل شيء مشاع كما سيقول أفيديو. إنهم بشر كسالى بالفطرة وماكرون ويقومون بعمل قليل. وتمضية للوقت انتحر كثير منهم بالسم كي لايعملوا وشنق آخرون أنفسهم بأيديهم.

لم يقتل هاتوي الزعيم الهندي لإقليم الكواهابا نفسه. هرب مع قومه من هايتي في قارب واختبأوا في كهوف الجبال إلى الشرق من كوبا.

هناك أشار إلى الذهب وقال: «هذا هو إله المسيحيين. إنهم يطاردوننا من أجله ومات آباؤنا وأخوتنا من أجله. دعونا نرقص له، إذا أفرحه رقصنا سيأمرهم هذا الإله ألاّ يسيئوا معاملتنا».

قبضوا عليه بعد ثلاثة أشهر.

قيدوه وساقوه إلى المحرقة.

قبل أن تشعل النار التي ستحوله إلى فحمٍ ورمادٍ يعده الكاهن بالمجد والراحة الأبدية إذا وافق على العمادة. يسأل هاتوي:

ـ «هل يوجد مسيحيون في ذلك الفردوس»؟

ـ «نعم».

يختار هاتوي الجحيم ويبدأ الخشب بالصرير.

١٥١١: سانتو دومينغو

ـ الاحتجاج الأول ـ

في الكنيسة المبنية من جذوع الأشجار والمسقوفة بأغصان النخيل يصخب الراهب الدومينيكاني أنطونيو مونتينسينوس كالرعد مستنكراً الإبادة الجماعية:

من منحكم حق استعباد الهنود بهذا النير المتوحش والمريع؟ تقومون بقتلهم لتحصلوا على الذهب كل يوم. أحبّوهم كما تحبون أنفسكم؟ ألا تفهمون هذا؟ ألاتشعرون؟

تتعالى همسات الغضب. لم يساوم على هذا فلاّحو استريمادوريا ورعاة الأندلس الذين أنكروا أسماءهم وتواريخهم وتحرّكوا عشوائياً حاملين بنادق صدئة على أكتافهم بحثاً عن جبال الذهب والأميرات العاريات في هذه الجهة من المحيط. كان مايحتاج إليه هؤلاء المغامرون الذين تمّ شراؤهم بالوعود على عتبات كاتدرائية سيفيل، هؤلاء البحارة الذين لسعتهم البراغيث والذين لم يجربوا

أية معركة. هؤلاء السجناء المحكومون الذين كان عليهم أن يختاروا بين أميركا أو السجن والمشنقة، هو قدّاس صفح وعزاء.

- «سوف نبلّغ الملك فرديناند عنك. سيتمّ ترحيلك».

رجل حائر يبقى صامتاً جاء إلى هذه الأراضي منذ تسعة أعوام استملك هنوداً ومناجم ومزارع وأسّس ثروة صغيرة. هذا الرجل الذي يدعى بارتولومي لاس كاساس؟ سوف يصبح حالاً الكاهن الأول الذي تمّت تسميته في العالم الجديد.

١٥١٣: كواريكا

- ليونسيسو -

تظهر عضلاتها بشكل بارز. لاتتوقف أعينها الصفراء عن اللمعان. تلهث تشهر أنيابها وتعضّ محدثةً ثقوباً في الهواء. لاتستطيع أية سلاسل أن تغلّها حين تتلقى الأمر بالهجوم.

الليلة، وبأمر من الكابتن بالبو ستغرز الكلاب أنيابها في اللحم العاري لخمسين هندياً من بنما ستنتزع أحشاءهم وتلتهمهم. ارتكبوا ذنباً فاحشاً وهو اللواط. سيحصل المشهد في قمة الجبل بين الأشجار التي اقتلعتها العاصفة منذ بضعة أيام. كان الجنود يتقاتلون بالمشاعل ليحصلوا على المقاعد الأفضل.

يرأس فاسكو نونيز بالبو الإحتفال، أما كلبه ليونسيسو فيرأس الذي ينتقمون من أجل إرضاء الإله. جسد ليونسيسو، بن بيسيريللو مليء بالندوب. كان سيداً سابقاً للأسر والتقطيع. يحصل على راتب ملازم ثانٍ وعلى حصة من كل غنيمة ذهباً وعبيداً.

بعد يومين سيكتشف بالبو المحيط الهادي.

١٥١٣: خليج سان ميكيل

- بالبو -

مخوضاً في الماء إلى خصره، يرفع سيفه ويصرخ بالرياح الأربع.

يحفر رجاله صليباً كبيراً في الرمل. يسّجل الناسخ فالديرابانو أسماء الذين اكتشفوا لتوهم المحيط الجديد ويرتل الأب أندريه تسبيحة الشكر.

يخلع بالبو درعه الذي يزن خمسين كيلوغراماً، يرمي سيفه بعيداً ويقفز.

يطرطش ويترك الأمواج تجرّه، طائشاً من فرح لايعيه. يفتح له البحر أبوابه يعانقه ويهدهده. يودُّ بالبو أن يشربه إلى أن يجفّ.

١٥١٤: نهر سينو

- المثول أمام القضاء -

عبروا كثيراً من المستنقعات والزمن وغذّتهم الحرارة والغابات والبعوض. إنهم ينفذون، على أية حال، أوامر الملك بأن لا يهاجموا السكان الأصليين إلا بعد أن يطلبوا منهم الاستسلام. يعلن القديس أوغسطين الحرب ضد الذين يسيئون استعمال حريتهم لأنها ستجعلهم يشكلون خطراً إذا لم يروّضوا، ولكن، وكما يقول القديس أسيدور: «لاتكون الحرب عادلة إذا لم يعلن عنها مسبقاً».

قبل أن يبدأوا البحث عن الذهب وعن معادن نفيسة بحجم البيض يقرأ المحامي مارتين فردينانديز دي أنكيسو بشكل كامل دون أن يغفل علامات الترقيم الإنذار الذي سيترجمه المترجم بألم وعلى نحو متقطع.

تحدث أنكيسو باسم الملك فرديناند والملكة جوانا، ابنته، مروّضي الشعوب البربرية. يوضح لهنود «السينو» أن الله جاء إلى العالم وترك القديس بطرس ممثلاً له وأن وريث القديس بطرس هو البابا المقدّس وأن البابا المقدس إله الكون منح ملك قشتالة، جميع أراضي الآنديز بالإضافة إلى شبه الجزيرة هذه

يتحمّص الجنود في دروعهم، يطلب أنكسيسو من الهنود ببطء ووسوسة أن يغادروا هذه الأراضي بما أنهم لاينتمون إليها، أما إذا أرادوا البقاء فعليهم أن يدفعوا الجزية لأسيادهم كدليل على الطاعة. يبذل المترجم جهده.

يصغي الزعيمان وهما جالسان لايرفّ لهما جفن للشخصية الغريبة التي تعلن لهما أنه في حالة الرفض أو التأخير ستُشَنّ الحرب عليهما وسيحولان إلى عبيد مع نسائهما وأطفالهما وسيتمّ التخلص منهما بالبيع وأن الأسبان لن يتحمّلوا مسؤولية الحرب.

يجيب الزعيمان دون أن ينظرا إلى أنكيسو: إن الإله المقدس كريم جداً في التصرف بمُلكيات الآخرين ولابد أنه سكران ليقرّر مصير مالا يملكه، وأن ملك قشتالة وقح لأنه جاء ليهدّد بشراً لايعرفهم.

يتدفق الدم.

ثم تُقرأ الخطبة الطويلة في الليل، بدون مترجم وعلى بعد نصف فَرْسخٍ من القرى التي سيفاجئها الهجوم. السكان المحليون نائمون، لن يسمعوا الكلمات التي ستعلن أنهم مذنبون بجريمة ارتُكبت ضدّهم.

١٥١٤: سانتا ماريا ديل دارييين

- من أجل حب الفاكهة -

يجرّب غوانزالو فرديناندیز أوفييدو. الوافد الجديد، فاكهة العالم الجديد.

تبدو له الغوافة متفوقة على التفاح. وتبدو «الغوانا» حسنة المنظر وتمنح لبّاً أبيض مائياً يمتلك طعماً لذيذاً، ومهما أكلت منها لن يصيبك الأذى أو سوء الهضم.

تمتلك المامي مذاقاً يجبرك أن تلحس أصابعك وتصدر رائحةً ذكية، يقرّر غوانزالو أن لاشيء أفضل منها.

إلا أنه يتذوق ثمار المَشْمَلَة فيغزو رأسه عطرٌ لايمكن مقارنته بالمسك. يصحح خطأه ويقرر أن المشملة هي أفضل ثمرة ولايمكن العثور على شيء يُقارَن بها.

بعد ذلك يقشر ثمرة أنناس فتفوح ثمرة الأنناس الذهبية بعطر كالذي يصدره الخوخ وتمنح الشهية للبشر الذين نسوا مُتَع الطعام لايعرف أوفييدو كلمات تستحق أن تصف فضائلها. تُمْتِعُ عينيه وأنفه وأصابعه ولسانه. إنها تتفوق على جميع الثمار كما يتفوق ريش الطاووس على ريش جميع الطيور.

١٥١٥: أنتويرب

- اليوتوبيا -

يصخب مغامرو العالم الجديد في حانات الميناء الفلمنكي. يقابل توماس مور أو يخترع في الواجهة المائية، رافايل هيثلودي وهو بحار في أسطول أميريكو فيسبوتشي الذي يقول إنه اكتشف جزيرة اليوتوبيا قبالة أحد الشواطىء الأميركية.

يروي البحار أنه لايوجد في اليوتوبيا مال أو ملكية خاصة. هناك يُشَجَّعُ احتقار الذهب والإستهلاك ولا يفتخر أحد بارتداء الملابس. يقدم الجميع ثمار عملهم إلى المخازن العامة ويأخذون بحرية مايحتاجون إليه. يسير الإقتصاد وفق خطة ولايُخزّنْ النقد، الذي هو ابن الخوف والجوع لايُعرَفْ. يختار الناس أميرهم ويمتلكون القدرة على الإطاحة به وينتخبون الكهنة. يكره سكان اليوتوبيا الحرب وأمجادها رغم أنهم يدافعون بوحشية عن حدودهم. يؤمنون بدين لايسيء إلى العقل ويرفضون إماتة الجسد والإكراه في الدين. يسمح القانون بالطلاق إلا أنه يعاقب بقسوة الخيانات الزوجية ويجبر كل شخص أن يعمل ستّ ساعات في اليوم، يتم تقاسم الراحة والعمل والمائدة. تعتني المجموعة بالأطفال حين يذهب الآباء إلى العمل ويحظى المرضى بعناية مميزة ويخلص القتل الرحيم من الآلام المبرّحة. تشغل الحدائق والبساتين معظم المكان وتسمع الموسيقا أينما يذهب المرء.

١٥١٩: فرانكفورت

- تشارلز الخامس -

يمرّ نصف قرن على موت غوتنبيرغ. تتكاثر المطابع في جميع أنحاء أوروبا: يطبعون الكتاب المقدس بأحرف قوطية ويكتبون الأرقام بحروف فضية وذهبية. يفترس الملك الرجال. يتبرّز البشر قطعاً ذهبيةً في لوحة هيرونيموش بوش: حديقة المتع. وبينما كان مايكل آنجلو يرسم وينحت أنبياءه وقدّيسيه كتبَ: «*يباع دم المسيح بالملعقة*». لكل شيء ثمنه: عرش البابا وتاج الملك، قبعة الكاردينال وتاج الأسقف. اشتريَتْ صكوك الغفران والحرم الكنسي وألقاب النبالة. تعتبر الكنيسة الدين بالفائدة خطيئة إلا أن البابا يرهن أراضي الفاتيكان لأصحاب البنوك، وعلى ضفة الراين قدّم تاج الإمبراطورية المقدسة إلى الذي دفع سعراً أعلى.

يتنازع ثلاثة مرشحين على إرث شارلمان. يقسم الناخبون بطهارة أصواتهم وأيديهم ويدلون بشهادتهم ظهراً، ساعة صلاة التبشير: يبيعون تاج أوروبا إلى ملك أسبانيا، تشارلز الأول، ابن الغاوية والمجنونة وحفيدة ملك الكاثوليكيين مقابل (٨٥٠,٠٠٠) فلورينا وضعها صاحبا البنوك الألمانيان «فوغر» و«فيلر» على الطاولة.

يحول تشارلز الأول نفسه إلى تشارلز الخامس امبراطور أسبانيا وألمانيا والنمسا ونابلس وصقلية والأراضي المنخفضة والعالم الجديد الكبير، المدافع عن العقيدة الكاثوليكية وحبر الله المحارب على الأرض.

في هذه الأثناء يهدد المسلمون الحدود ويقرع مارتن لوثر باب كنيسة ويتمبرغ بهرطقاته المتحدّية. يكتب ميكافيللي: يجب أن تكون الحرب للأمير فكرةً وهدفاً وحيداً. يصبح الملك الجديد في سن التاسعة عشرة أقوى رجل في العالم. يقبّل السيف راكعاً على ركبتيه.

١٥١٩: آكلا

- بدراریاس -

صخبُ بَحرٍ وطبول. يخيّم الليل إلا أن هناك ضوءاً يجيء من القمر. تتدلى حول الساحة الأسماك وقرونُ الذرة الجّافة من السقوف القشية.

يدخل بالبو مقيداً بالأغلال، يداه موثقتان خلف ظهره. يحلون وثاقه. يدخن بالبو سيجاره الأخير. يضع رأسه على الوضم دون أن يتفوّه بكلمة. يرفع الجلاّد الفأس.

يختلس بدراریاس أفيلا النظر من منزله عبر الحائط القصبي. إنه يجلس على التابوت الذي أحضره من أسبانيا. يستخدم التابوت ككرسي أو طاولة ويغطيه عاماً بعد آخر بالشموع أثناء قدّاس

راحة نفس الميت الذي يحتفل بانبعاثه. يسمونه بدراriاس المدفون منذ أن خرج من تابوته مغلفا بكفن بينما كانت الراهبات ترتل شعيرة الموتى والأقرباء يبكون بشكل هستيري سموّه سابقا بدراriاس الباسل لانه لايقهر في المسايفات والمعارك، ورغم أنه يبلغ الثمانين من العمر الآن يستحق لقب غضب الله. حين استيقظ بدراriاس هازّا عرفه الأبيض بعد أن فقد مائة هندي الليلة الماضية في القمار كان من الأفضل تجنب نظرته.

منذ أن هبط بدراriاس على هذه الشواطىء لم يثق ببالبو. ولأن بالبو زوج ابنته لايقتله بدون محاكمة. لايوجد الكثير من المحامين هنا وهكذا يعمل القاضي كمستشار ونائب عام وتأخذ المحاكمة وقتاً طويلاً.

يتدحرج رأس بالبو على الرمال.

كان بالبو هو الذي أسّس مدينة «آكلا» هذه بين أشجار حَنَتْها الريح. في اليوم الذي ولدت فيه «آكلا» انقضّ طير أسود مفترس من وراء الغيوم وخطف الخوذة المعدنية عن رأس بالبو ثم أقلع ناعباً.

هنا كان بالبو يبني قطعة بعد أخرى السفن الشراعية التي سترسل لاستقصاء البحر الجديد الذي اكتشفه.

سيكمل الجلاد المشروع. سوف يغزو وسيكون بدراriاس شريكه. سيصبح هذا الجلاد الذي جاء مع كولومبس في رحلته الأخيرة مركيزاً يمتلك عشرين ألف خادم في الممالك الغامضة للجنوب. اسمه فرانسيسكو بيزارو.

١٥١٩: تينوشتيتلان

- بشائر النار والماء والتراب والهواء -

مرةً، في قديم الزمان طار العرّافون إلى كهف أم إله الحرب. لم تبتسم ولم تحييهم الساحرة التي لم تغتسل لمدة ثمانية قرون. قبلت تقدماتهم من الثياب والجلود والريش دون أن تشكرهم وأصغت متجهمة إلى أخبارهم. أخبرها العرّافون أن المكسيك، السيدة والملكة، وجميع المدن هي تحت أمرها. تفوهت العجوز بتعليقها الوحيد قائلةً: «هزم الآزتيكيون الجميع وسيأتي آخرون ويهزمونهم».

مرّ الوقت.

كانت البشائر تتجّمع في الأعوام العشرة الماضية.

سَرَّبتْ نارٌ ألسنة اللهب من وسط السماء لمدة ليلة كاملة.

انبثقت فجأة نار بثلاثة ألسنة من الأفق وطارت لتقابل الشمس.

انتحر منزل إله الحرب حارقاً نفسه بالنار. القيت عليه سطول الماء وكان الماء يغذي اللهب.

أحرق معبد آخر في ومضة برق في إحدى الليالي حينما لم يكن يوجد عاصفة.

تحوّلت البحيرة التي بُنيت المدينة على ضفتها إلى مرجل يغلي. صعدت المياه البيضاء الساخنة في أبراج من الغضب مقتلعةً المنازل، مستأصلةً أسسها.

اصطادت شباك الصيادين طائراً بلون الرماد مع الأسماك. كانت توجد مرآة مستديرة على رأس الطائر. رأى الإمبراطور «موكيتزوما» في المرآة جيشاً يتقدّم وجنوداً يركضون بأرجل الأيائل وسمع صرخاتهم القتالية، ثم عاقب العرافين الذين لم يستطيعوا قراءة المرآة ولم يمتلكوا أعيناً ليشاهدوا الوحوش ذات الرأسين التي كان «موكيتزوما» يشاهدها في نومه ويقظته. سجنهم الإمبراطور في أقفاص وحكم عليهم بالموت جوعاً.

كانت صرخات امرأة غير مرئية تُرْعبُ كلّ ليلة جميع الذين ينامون في تينوشتيتلان وتلاتيلولكو كانت تصرخ: «*يا أبنائي الصغار علينا أن نذهب الآن بعيداً من هنا*». لم يوجد جدار لم تخترقه صرخة المرأة: «*إلى أين سنذهب ياأبنائي الصغار؟*».

١٥١٩: سيمبولا

- كورتيز -

يُحَلِّقُ برق ألسنة لهب على شاطىء فيراكروز. تحترق إحدى عشرة سفينة، يحترق أيضاً الجنود المتمردون الذين يتدلون من طرف عارضة شراع بارجة الأميرال. وبينما يفتح البحر فكيه ليلتهم النيران، يضغط هيرنان كورتيز الذي يقف على الشاطىء رمانة مقبض سيفه كاشفاً رأسه.

ليس فقط السفن والمشنوقون واجهوا نهايتهم. لاعودة الآن، ولن توجد حياة أكثر ممّا سيولد غداً: إما الذهب والمجد أو الطيور آكلة الجثث المنهزمة. على شاطىء فيراكروز غاصت أحلام أولئك الذين أحبوا أن يعودوا إلى كوبا ليناموا في الاستراحة الإستعمارية ممدّدين في الأراجيح الشبكية مغلفين بشعر النساء ودخان السيجار: البحر يقود إلى الماضي والأرض إلى الخطر. سيتقدّم الذين يستطيعون حل المشكلة على ظهور الأحصنة والآخرون على الأقدام: سبعمائة رجل يتجهون إلى المكسيك نحو الجبال والبراكين ولغز موكتيزوما.

يعدّل كورتيز ريش قبّعته ويدير ظهره للّهب، يذهب إلى قرية سيمبولا، بينما كان الليل يخيّم. لايقول شيئاً للرجال، سيعرفون حين يذهبون.

يحتسي الخمرة وحيداً في خيمته. ربما يفكر بالرجال الذين قتلهم دون اعتراف أو بالنساء اللواتي نام معهن بدون زواج منذ أن كان طالباً في سالامنكا التي تبدو بعيدة جداً، أو يفكر بسنواته الضائعة كبيروقراطي في جزر الآنتيل أثناء وقت الانتظار. ربما يفكر بالحاكم دييغو فيلاسكويز

الذي سيرتعش حالاً من الغضب في سانتياغودي كوبا. بالتأكيد هو يبتسم بينما يفكر بذلك المغفّل الذي يسبّب النعاس والذي لن يطيع أوامره أبداً بعد الآن، أو ربما يفكر بالمفاجأة التي تنتظر الجنود الذين يسمعهم يضحكون ويلعنون وهم يلعبون النرد والورق.

شيء من هذا القبيل يدور في رأسه، أو ربما سحر رعب الأيام القادمة، بعد ذلك ينظر فيشاهدها على الباب ويعرّفه الضوء عليها. كان اسمها مالينالي أو مالينش حين قدّمها له زعيم تاباسكو. عرفت باسم مارينا لمدة أسبوع.

يتفوّه كورتيز ببعض الكلمات بينما تنتظر هادئة بعد ذلك وبحركة واحدة ترخي شعرها وتحلّ ثيابها. يسقط شلال ثياب ملونة عند قدميها العاريتين. يصمته توهج جسدها.

على بعد بضعة خطوات، وفي ضوء القمر، مستخدماً الطبل كطاولة يسجّل الجندي برنال داياز ديل كاستيللو أحداث اليوم.

١٥١٩: تينوشتيتلان

- موكتيزوما -

وصلت جبال كبيرة متحركة فوق البحر إلى شواطىء «يوكاتان» لقد عاد الإله كويتزالكوت. يقبّل البشر مقدمات السفن.

لايثق الإمبراطور موكتيزوما بظله.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبيء؟»

يتمنى موكتيزوما أن يتحوّل إلى حجر أو إلى عصا. لايستطيع مهّرجو البلاط أن يصرفوا انتباهه. جاء كويتزالكوتل، الإله الملتحي الذي منح الأرض والأغاني الجميلة ليطلب ماله.

غادر «كويتز» في الأزمنة الغابرة ميمّماً باتجاه الشرق بعد أن أحرق منزله الذهبي ومنزله المرجاني. حلّقت أجمل الطيور لتفتح له الطريق. خرج في البحر على طوف من الثعابين وغاب عن البصر مبحراً نحو الفجر. عاد الإله الملتحي، الثعبان المريّش جائعاً الآن.

الأرض تهتزّ. ترقص الطيور في القدور التي تغلي. لاأحد سيبقى، كما قال الشاعر: «*لاأحد، لاأحد سيبقى حياً على وجه الأرض*».

أرسل موكتيزوما هدايا ثمينة من الذهب إلى الإله «كويتزالكوتل». أرسل خوذاً ملأى بغبار الذهب والبط الذهبي والكلاب الذهبية والنمور الذهبية والعقود الذهبية والصولجانات والأقواس والسهام ولكن الإله كان يطلب المزيد وهو يأكل متقدماً نحو تينوشتيتلان ساخطاً، بين البراكين العظيمة وخلفه تتقدّم آلهة أخرى ملتحية. كانت أيدي الغزاة ترسل الرعد والصواعق والنار التي تقتل.

- «ماذا أفعل؟ أين أختبىء؟»

يعيش موكتيزوما ورأسه مدفون بين يديه.

منذ عامين حين كان يوجد نذير بالشر، كانت الآلهة تعود وتنتقم. أرسل موكتيزوما عّرافيه إلى كهف «هويماك» ملك الموتى. هبط العّرافون إلى أعماق تشابلتوبيك ترافقهم حاشية من الأقزام والمحدبين وقدموا إلى «هويماك» بأمر من الإمبراطور هدية من جلود السجناء الذين سلخت جلودهم مؤخراً. أرسل هويماك جوابه إلى موكيتزوما:

- «لاتكن مغفلاً. لايوجد هنا راحة ولا فرح».

وطلب منه أن يصوم وينام بدون امرأة.

أطاعه موكتيزوما، وبدأ يتوب. أقفل الخصيان على زوجاته ونسي الطبّاخون وجباته الشهية، إلا أن الأمور ساءت. توافدت قطعان غربان السوء السوداء. فقد موكتيزوما حماية تلازولتيوتل، إلهة الحب وأيضاً إلهة البراز التي تأكل قذاراتنا، ليصبح الحب ممكناً، وهكذا غرقت روح الإمبراطور في القذارة والسواد. زاد في عدد الرسل إلى هويماك في مناسبات عديدة وتوسّل إليه مقدماً الهدايا، إلى أن منحه إله الموتى موعداً.

ذهب موكتيزوما إلى مقابلته في الليلة المتفق عليها واتجه قاربه إلى «تشابولتيبك». وقف الإمبراطور في المقدمة وتكشف الضباب فوق البحيرة عن الريش الفلمنكي.

بعد أن وصل إلى قدم الجبل سمع موكتيزوما صوت المجاذيف. اقترب قارب يتحرّك بسرعة وشعّ شخص عار ووحيد في الضباب الأسود، يرتفع مجذافه كالرمح

- «هل هذا أنت ياهويماك؟»

استمر الشخص في الاقتراب إلى أن ضغط تقريباً على الإمبراطور ثم نظر في عينيه كما لايستطيع إنسان أن ينظر وقال له: «أنت جبان، ثم اختفى».

1519: تينوشتيتلان

- عاصمة الأزتيكيين -

مصعوقين بجمالها، يعبر الغزاة الممّر. تبدو تينوشتيتلان وكأنها منتزعة من أوراق آماديس، أشياء لم يُسمع بها أبداً، لم تُشاهد أبداً، لم يُحلم بها أبداً... تشرق الشمس من خلف البراكين، تدخل البحيرة وتحطم الضباب العائم إلى شظايا. تشع المدينة بشوارعها وأقنيتها ومعابدها وأبراجها العالية أمامهم. يخرج عدد كبير صامت وغير مستعجل ليرحب بهم، بينما تفتتح قوارب لايحصى عددها أتلاماً في المياه الكوبالتية.

يصل موكتيزوما على حمّالة، جالساً على جلد يغور ناعم، تحت ظلّة من الذهب واللآلىء والريش الأخضر. يتقدّم أسياد المملكة أمامه ويكنسون الأرض التي يمر فوقها.

يرحّب بالإله كويتزالكوتل قائلاً:

ـ «ها قد جئت لتحتل العرش ها قد جئت وسط الضباب. أنا لاأراك في الأحلام. أنا لاأحلم. إلى أرضك جئت...»

يتلقى الذين يرافقون كويتزالكوتل أكاليل من المغنولية[1] وتوضع عقود الأزهار حول أعناقهم وعلى أذرعهم وصدورهم: فيها زهرة الدرع وزهرة القلب وزهور العطر الرائع واللون الذهبي.

كوتيزالكوتل، أحد سكان أستريمادورا، هبط على الشواطىء الأميركية حاملا ملابسه على ظهره وبعض القطع الذهبية في محفظته كان يبلغ التاسعة والعشرين حين وضع قدميه على رصيف المرفأ في سانتو دومنيغو وسأل: «أين الذهب». إنه يبلغ الآن الثالثة والأربعين وأصبح قائدا عسكرياً جسوراً يرتدي درعاً من الحديد الأسود ويقود جيشاً من الخيالة والرمّاحين ورماة النشّاب والبنادق والكلاب المتوحّشة. لقد وعد جنوده: «سأجعلكم في وقت قصير أغنى الرجال الذين جاؤوا إلى الآنديز».

سينتهي الإمبراطور موكتيزوما الذي يفتح بوابات تينوشتيتلان حالاً. سيسمّى بعد وقت قصير إمرأة الأسبان وسيرجمه قومه بالحجارة حتى الموت. سيأخذ مكانه الشاب «كيواهتيموك» ويتابع القتال.

ـ أغنية الدرع الآزتيكية ـ

على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.
على الدرع، أنجبت العذراء
المحارب العظيم.

على جبل الثعبان
في وسط الجبال
يتجوّل الغازي
بصبغة الحرب ودرع النسر.

لاأحد. بالتأكيد. يستطيع مواجهته.
بدأت الأرض تدور
حين ارتدى أصباغه الحربية
ورفع درعه.

---

(١) ـ المغنولية: نبات من الفصيلة المغنولية جميل الورق والزهر.

١٥٢٠: تيوكالهوياكان

- ليلة الأسى -

يراجع هرنان كورتيز القلة الناجية من جيشه، بينما تخيط مالينش الأعلام الممزّقة.

كانت تينوشتيتلان خلفهم وكان خلفهم أيضاً عمود الدخان الذي أطلقه البركان بوباكاتيبتل الذي لا تقدر ريح على إخفائه والذي بدا وكأنه يودّعهم.

لقد استعاد الآزتيكيون مدينتهم. السقوف مليئة بالسهام والرماح والبحيرة مغطاة بالزوارق الحربية. هرب الغزاة مبعثرين تطاردهم عاصفة من السهام والحجارة بينما طبول الحرب والصرخات واللعنات تذهل الليل.

أنقذ هؤلاء الجرحى والمبتورون الذين تبقوا لكورتيز أنفسهم باستخدام الجثث كجسر، عبروا إلى الشاطىء الآخر ماشين على الخيول التي انزلقت وغرقت وعلى الجنود الذين قتلتهم السهام والحجارة أو أغرقهم ثقل الأكياس المليئة بالذهب والتي لم يستطيعوا إقناع أنفسهم بتركها خلفهم.

١٥٢٠: سيغيورا ديلا فورنتيرا

- توزيع الثروة -

يُسْمَعُ صخبُ المشاجرات والتذمر من المعسكر الإسباني. لا يوجد بديل أمام الجنود. يجب أن يسلّموا سبائك الذهب التي أنقذت من الكارثة. سيشنق كلّ من يخبىء شيئاً.

صنع هذه السبائك صائغو ونحّاتو المكسيك. كان الذهب قبل أن يحوّل إلى غنائم ويصّهر في قوالب ثعباناً على وشك أن يعضّ، نمراً على وشك أن يقفز، نسراً على وشك أن يحلّق أو خنجراً تثعبن وعام كنهر في الجوّ.

يشرح كوريتز أن هذا الذهب مجرد فقاعات إذا ما قورن بالذي ينتظرهم. يأخذ خِمساً له وخِمساً للملك بالإضافة إلى حصص أبيه والحصان الذي مات تحته ويعطى كل ما تبقى لقوّاده. لم يبق شيء يذكر للجنود الذين لعقوا هذا الذهب وعضّوه ورازوه في أيديهم وجعلوه مخدات لنومهم وحكوا له قصص انتقامهم.

أثناء ذلك، كان يَشِمّون بالحديد وجوه العبيد الهنود الذين أُسِرُوا في تبيكا وهواكويتشولا.

كان الهواء يفوح برائحة اللحم المحروق.

١٥٢٠: بروكسل

- دورير -

يجب أن تكون هذه الأشياء انبثاقات من التمس كالرجال والنساء الذين صنعوها في الأرض البعيدة التي سكنوها: خوذ وأحزمة، مراوح ريش، فساتين وعباءات، ملابس صيد، شمس ذهبية وقمر فضي، بندقية نفخ وأسلحة أخرى تمتلك جمالاً يجعلها تبدو وكأنها صنعت لتعيد إحياء الضحايا.

لن يتعب المصمّم الأعظم في جميع العصور من النظر إليها. إنها جزء من الغنائم التي سرقها كوريتز من موكتيزوما، القطع الوحيدة التي لم تصهر وتحوّل إلى قوالب. يعرض الملك تشارلز، الذي عيّن حديثاً على عرش الإمبراطورية المقدّسة، للعامة الغنائم التي جاءت من أجزاء عالمه الجديد.

لايعرف ألبريخت دورير القصيدة المكسيكية التي تشرح أن الفنان الحقيقي يجد المتعة في عمله ويتحدث مع قلبه، لأنه يمتلك قلباً غير ميت لم يأكله النمل. إلا أنه مشاهداً ما يشاهد، يسمع دورير تلك الكلمات ويجد أنه يجرّب السعادة الأعظم في حياته التي بلغت نصف قرن.

١٥٢٠: تلاهكالا

- إعادة فتح تينوشتيتلان -

يوشك هذا العام على الانتهاء. حالما ستشرق الشمس سيصدر كورتيز الأمر بالمسير. قام جنوده الذين سحقهم الآزتيكيون بالردّ تحت حماية الهنود في تلاهكالا و ويهوسينكو وتيهوكو يقود جيشاً يتألف من خمسين ألفاً. من الهنود بالإضافة إلى جنود جدد جاؤوا من أسبانيا وسانتو دومينغو وكوبا مزودين بالخيول والبنادق وأقواس النشّاب والمدافع. لكي يحارب على المياه حين يصلون، يحتاج كورتيز أشرعة ولوازم حديدية وصواري ليجهز ثلاث سفن شراعية. سينصب هنود ويهوسينكو العوارض الخشبيّة.

يُظهر الضوء الأول خط السماء البركاني. خلفه صاعدة من المياه المذهلة تنتظر تينوشتيتلان متحدية.

١٥٢١: تلاتيلولكو

- سيف النار -

تتدفّق الدماء كالماء. يحول الدم مياه الشرب إلى أسيد. لم يبق ما يؤكل سوى التراب. قاتلوا من منزلٍ إلى آخر فوق الحطام والموتى ليلاً ونهاراً. استمرت الحرب ثلاثة أشهر دون توّقف. لم يبق للتنفس سوى القذارة والغبار إلا أن الطبول ما تزال تقرع في الأبراج الأخيرة والأجراس ترنّ على

كواحل آخر المحاربين. تستمرّ الصرخات الحربية والأغاني التي تمنح القوة. تأخذ النساء المتبقيات فؤوس المحاربين الساقطين وتضرب الدروع حتى الموت.

يستدعي القائد كواوهيتموك أفضل محاربيه. يرتدي قبعة البومة ذات العرف الطويل ويستلّ سيف النار. قابضاً على السيف بزغ إله الحرب من حوض أمه قديماً في الأزمنة الغابرة. بهذا الثعبان ذي الأشعة الشمسية قطع هويتزيلوبوشتلي رأس أخته القمر وقطّع إلى أشلاء أخوته النجوم الأربعمائة لأنهم لم يسمحوا له أن يولد.

بأمر كواوهيتموك: «دعوا أعداءنا ينظرون إليه وسيذهلهم الرعب».

يفتح سيف النار طريقاً. يتقدّم القائد المختار عبر الدخان والحطام.

يسقطونه بطلقة واحدة من بندقية.

١٥٢١: تينوشتيتلان

- العالم مُصْمَت تحت المطر -

فجأة تتوقف الصرخات والطبول جماعياً. هزمت الآلهة والرجال. مات الزمن مع موت الإله. ماتت المدينة مع موت الرجال. ماتت مدينة المحارب التي يزيّنها الصفصاف والأسل وهي تقاتل حين عاشت. لن يجيء بعد الآن الأمراء المهزومون من جميع الأقاليم في قواربهم عبر الضباب ليدفعوا الجزية.

يخيّم صمت مذهل. ويبدأ المطر بالسقوط. تمتلىء السماء بالرعد والبرق وينهمر المطر طوال الليل.

جُمّع الذهب في سلال كبيرة. ذهب دروع وشارات حرب ذهب أقنعة الآلهة، قلادات الشفاه والآذان، الزخارف والسلاسل. وُزن الذهب وسعّر الأسرى: أحد هؤلاء البائسين لا يساوي حفنتين من الذرة.. يتجمّع الجنود ليلعبوا النرد والورق.

تحرق النار كعبي قدمي الإمبراطور كواوهيتموك المدهون بالزيت بينما العالم مصمت والمطر ينهمر.

١٥٢١: فلوريدا

- بونس ليون -

كان متقدماً في السن أو هكذا شعر. لن يتبقى وقت كاف ولن يستطيع القلب المنهمك أن يصمد. أراد خوان بونس دي ليون أن يكتشف ويربح العالم غير المُفتَتح الذي أعلنت عن وجوده جزر فلوريدا. أراد أن يقزّم ذكرى كريستوف كولومبس بعظمة أعماله البطولية.

هنا هبط، متبعاً النهر السحري الذي يعبر حديقة المتع. وبدلاً من أن يعثر على نهر الشباب الأبدي التقى بذلك السهم الذي اخترق صدره. لن يستحم أبداً في المياه التي تعيد الطاقة إلى العضلات والضوء إلى الأعين دون أن تمحو تجربة الروح الناضجة.

يحمله الجنود بسواعدهم إلى السفينة. يطلق القائد المغزو تمتمات وشكاوى كالطفل، إلا أن أعوامه تبقى كثيرة وما يزال يتقدّم في السن. يؤكد الرجال الذين يحملونه بدون دهشة أنه هنا حلّت هزيمة جديدة في الصراع المستمر بين الموجودين دائماً والذين لم يوجدوا أبداً.

١٥٢٢: الطرق العامة لسانتو دومينغو

- أقدام -

سُحِقَ التمرد الأول الذي قام به الزنوج السود في أميركا. نشب في مطاحن السكّر التي يمتلكها دييغوكولومبس ابن المكتشف. شبّت النار في طواحين ومزارع الجزيرة كلها. انتفض السود مع بعض الهنود مسلّحين بالعصى والحجارة ورماح قصب السكر التي حطّمت الدروع في غضب عبثي.

يتدلى الآن على المشانق المبعثرة على الطرق الرجال والنساء، الشبّان والعجائز. على مستوى عين المسافر تتدلى أقدام يستطيع أن يخمّن منها هوية الضحايا قبل أن يجيئهم الموت. بين تلك الأعضاء الجلدية المجروحة بالتعب والخضوع تتدلى أقدام مرحة وأقدام رزينة وأقدام ماتزال ترقص معبرة عن حبها للأرض وداعية إلى الحرب.

١٥٢٢: سيفيل

- أطول رحلة سبق أن تمّت -

لم يعتقد أحد أنهم مايزالون أحياء، إلا أنهم وصلوا البارحة. ألقوا مراسيهم وأطلقوا نيران جميع مدافعهم. لم يهبطوا حالاً إلى اليابسة ولم يظهروا للعين. في الصباح ظهروا على رصيف المرفأ. دخلوا سيفيل مرتجفين في ثياب قذرة حاملين المشاعل. فتح الحشد لهم الطريق مندهشاً لهذا الموكب من الفزّاعات التي يقودها خوان سيباستيان دي ألكانو. وتعثروا وهم يسيرون اتكأوا على بعضهم من أجل العون، ذهبوا من كنيسة إلى أخرى يؤدون العهود يتبعهم الحشد أينما ذهبوا. وكانوا دائماً يغنون.

غادروا منذ ثلاثة أعوام عبر النهر في خمس سفن سريعة اتجهت غرباً. كانوا حفنة من المغامرين جاؤوا معاً بحثاً عن الممّر بين المحيطات وعن الثروة والعظمة. كانوا جميعاً لاجئين. اتجهوا إلى البحر هرباً من البؤس والحب والسجن أو المشنقة.

الآن يتحدث الناجون عن العواصف والجرائم والعجائب. شاهدوا بحاراً وأراضي لاخرائط لها ولااسم. عبروا ست مرات المنطقة الكروية حيث يغلي العالم دون أن يحترق أبداً. شاهدوا ثلجاً أزرق في الجنوب وأربع نجوم في السماء تشكل صليباً. شاهدوا الشمس والقمر يتحركان إلى الخلف وسمكاً يطير. سمعوا عن نساء تحبلهن الريح وقابلوا طيوراً سوداء كالغربان تندفع إلى أفواه الحيتان المفتوحة وتلتهم قلوبها. وقالوا إنهم شاهدوا على جزيرة بعيدة جداً بشراً صغاراً طولهم نصف متر لهم آذان يصل طولها إلى الأرض، وبسبب طول آذانهم، حين ينامون يُستخدم أحدهم كمخدة وآخرٌ كغطاء. وقالوا أيضاً إنه حين شاهد هنود «المولوكا» الزوارق الصغيرة التي أطلقت من السفن ظنوها فتيات السفن الصغيرات وأن السفن أنجبتها وأرضعتها.

قال الباقون على قيد الحياة أنه في جنوب الجنوب حين تنفتح الأراضي وتتعانق المحيطات يشعل الهنود نيراناً في الليل والنهار كي لايموتوا من البرد. قالوا إن هؤلاء الهنود عمالقة بالكاد تصل رؤوسنا إلى خصورهم. قبض ماجلان الذي ترأس الرحلة على إثنين منهم بعد أن وضع أغلالاً حديدية في كواحلهم ورسوغهم قائلاً إنها حليّ ولكن فيما بعد مات أحدهما من الإسقربوط(١) والآخر من الحرارة.

يقولون لابديل لهم عن شرب مياه المستنقعات وهم يحبسون أنوفهم وأنهم يأكلون نشارة الخشب وجلود الحيوانات والجرذان التي نافستهم على البسكويت المدوّد. كلّ من يموت جوعاً يضعونه على لوح خشبي وبما أنهم لايملكون أحجاراً لإغراقه تبقى الجثث عائمة على المياه: تدار وجوه الأوروبيين نحو السماء بينما الهنود إلى الأسفل. حين قابلوا هنود المولوكاس باع أحد البحارة الهنود ورق لعب مقابل ستة ديكة إلا أنه لم يستطيع أن يأكل لقمة منها لأن لثته كانت متورمة.

شاهدوا ماجلان يبكي والدموع تنحدر من عيني البحار البرتغالي الخشن حين دخلت السفن المحيط الذي لم يعبره أوروبي من قبل وعرفوا مزاجه المريع حين قطع رأسي ضابطين متمردين وقطّعهما وترك الآخرين في الصحراء. إن ماجلان هو جيفة الآن، غنيمة في يد السكان الأصليين للفيلبين الذين أصابوا رجله بسهم مسموم.

لم يعد من الجنود الذين يبلغ عددهم (٢٣٧) جندياً والذين غادروا سيفيل منذ ثلاثة أعوام سوى ثمانية عشر شخصاً. عادوا في سفينة تصدر صريراً ولها عارضة ينخرها الدود، ترشح من الجهات الأربع.

الباقون على قيد الحياة. هؤلاء الرجال المتضورون جوعاً، الذين أبحروا لتوهم حول العالم للمرة الأولى.

---

(١) ـ الإسقربوط: داء من أعراضه تورم اللثة ونزف الدم منها.

١٥٢٣: كوزكو

- هواينا كاباك -

أمام الشمس يرمي نفسه ويلمس الأرض. يمسك الأشعة الأولى بجبهته ويرفعها بيديه إلى فمه ويشرب الضوء، ثم ينهض، يقف وينظر مباشرة إلى الشمس دون أن يرّف له جفن.

كانت نساء هواينا كاباك خلفه ينتظرن برؤوس محنية. وكان الأمراء الكثيرون ينتظرون صامتين. ينظر الآنكي إلى الشمس نداً لندٍ وهَمْسُ الفضيحة ينمو بين الكهنة.

مّرت أعوام كثيرة على اليوم الذي جاء فيه هوايناكاباك ابن الأب المتألق بلقب الشاب الجسور الزعيم الغنيّ بالفضائل وسّع الإمبراطورية إلى ما وراء حدود أسلافه. قاد هواينا كاباك المتلهف للسلطة، المستكشف والفاتح جيوشه من الدغل الأمازوني إلى أعالي، «كويتو» ومن «الشاكو» إلى سواحل تشيلي. بسهم طائر وفأس مهلك جعل نفسه سيد الجبال الجديدة والسهول والصحارى الرملية. لايوجد أحد ليحلم به أو يخشاه في المملكة التي هي الآن أكبر من أوروبا. تعتمد على هوايناكاباك المراعي والماء والبشر. حركت إرادته الجبال والبشر. وفي هذه الإمبراطورية التي تجهل العجلة شيد أبنية في «كيوتو» بأحجار من «كوزكو» لكي تُعْرف في المستقبل عظمته ويؤمن الرجال بكلمته.

ينظر الآنكي بثبات إلى الشمس، ليس بتحد كما يخشى الكهنة بل بدافع الشفقة. يشعر هوايناكاباك بالأسف على الشمس لأنه والده ووالد الآنكيين منذ غابر الأيام. ليس للشمس الحق في التعب والضجر. لايستريح الشمس أبداً ولايلعب ولاينسى. لايتأخر عن موعده ويجري اليوم في نفس المسار عبر السماء كما فعل البارحة وسيفعل غداً.

بينما يتأمل الشمس يُقَرِّر هواينا كاباك· «سوف أموت حالاً».

١٥٢٣: كواوكابولكا

- أسئلة الزعيم -

يقّدم الطعام والذهب ويقبل العمادة، إلا أنه يسأل جيل غونزاليس دي آفيلا أن يشرح له كيف يمكن للمسيح أن يكون إنساناً وإلهاً ولمريم أن تكون عذراء وأماً.

سأل: أين تذهب الأرواح حين تغادر الأجساد وفيما إذا كان البابا في روما لايموت. سأل من ينتخب ملك قشتالة. لقد انتخب الزعيم «نيكارغوا» الكبار في القبائل بعد أن اجتمعوا عند جذع شجرة سيبة. هل انتخب الملك من قبل الكبار في شعبه؟

يسأل الزعيم الغازي أن يقول له ماهو هدف بحث قلة من الرجال عن الذهب الكثير؟ هل أجسادهم كبيرة بما يكفي لكثير من الزينة؟

فيما بعد سأل فيما إذا كان صحيحاً أن الشمس والنجوم والقمر ستنطفيء وستسقط السماء كما قال أحد الأنبياء.

لا يسأل الزعيم نيكارغوا لماذا لن يولد أطفال في هذا الجزء من العالم. لم يخبره أي نبي أنه في بضعة أعوام سترفض النساء أن تنجب عبيداً.

١٥٢٣: بينالا

ـ مالينش ـ

أنجبت من كورتيز طفلاً وفتحت له بوابات إمبراطورية. كانت ظله وحارسته، مترجمته ومستشارته، وسيطته، وسيدته طوال غزو المكسيك ودائماً تمتطي حصانها قربه.

تمرّ في بينالا مرتدية زي إمرأة إسبانية: ملابس صوفية وحريرية وساتانية ولايتعرّف أحد في البداية على السيدة المميزة التي تأتي مع الأسياد الجدد. من على صهوة جوادها الكستنائي المطهم تتفحّص مالينش ضفة النهر، تأخذ نفساً عميقاً من الهواء العذب وتبحث بلاجدوى عن الزوايا الغابيّة حيث اكتشفت السحر والخوف منذ أكثر من عشرين عاماً. خبرت شموساً وأمطاراً كثيرة، عذابات وأحزاناً منذ أن باعتها أمها كجارية وجُرّت عن التربة المكسيكية لتخدم أسياد المايا في «يوكاتان».

حين تعلم أمها من جاء إلى زيارتها في بينالا ترمي نفسها عند قدميها وتغسلهما بالدموع طالبة منها الصفح. ترفعها مالينش من كتفيها وتعانقها وتعلق حول عنقها العقود التي كانت ترتديها. ثم تمتطي حصانها وتتابع طريقها مع الإسبان.

ليست بحاجة لأن تكره أمها. منذ أن قدّمها أسياد يوكاتان هدية لهرنان كوريتز كانت تمتلك الوقت الكافي لتثأر لنفسها لقد دُفع الدين: يرتجف المكسيكيون وينحنون حين تقترب. تكفي نظرة واحدة من عينيها السوداوتين لإرسال أمير إلى المشنقة. بعد موتها بوقت طويل سيحلّق ظلها فوق تينوشتيتلان العظيمة التي قامت بأعمال كثيرة لتهزمها وتذلها وسيستمر شبحها ذو الشعر الطويل المرخي ورداؤها المتموّج في زرع الخوف إلى الأبد في غابات وكهوف تشابولتيبك.

١٥٢٤: كويتزالتينانكو

ـ سيخبر الشاعر الأطفال قصة هذه المعركة ـ

سيتحدث الشاعر عن بيدور دي ألفارادو والذين جاؤوا معه ليعلّموا الخوف.

سيقول إنه حين سحقت القوات المحلية وتحولت غواتيمالا إلى مسلخ، صعد القائد تيكوم أومان في الجوّ وطار بجناحين ونبت ريش في جسده. طار ثم انقضّ على ألفارادو بضربة قوية

قطعت رأس حصانه. قسم ألفارادو وحصانه نصفين وبقي هكذا: خلّص الغازي نفسه من الحصان المقطوع الرأس ونهض. طار القائد تيكوم ثانية وصعد إلى الأعلى متوهجاً. حين غاص إلى الأسفل من السحاب طعنه ألفارادو برمحه واندفعت الكلاب لتمزّق تيكوم أشلاء إلا أن الفارادو أبعدها بسيفه. تأمل ألفارادو لوقت طويل عدوه المطعون ذا الجسد المجروح الذي ينمو ريش الكتزل على ذراعيه ورجليه، تأمل جناحيه المحطمين وتاجه الثلاثي اللؤلؤي الماسيّ والزمردي. استدعى ألفارادو جنوده: «انظروا». ثم طلب منهم أن ينزعوا خوذاتهم.

سيسأل الأطفال المتحلقين حول الشاعر: «هل رأيت كل هذا أم سمعت عنه؟».

- «نعم».

سيسأل الأطفال: «هل كنت هناك؟».

- «لا. لم يبق من شعبنا الذي كان هنا أحد على قيد الحياة».

وسيشير الشاعر إلى السحاب المتحرك إلى قمم الأشجار المتأرجحة.

- «أترون الرماح؟ سيقول أترون حوافر الخيل؟ مطر السهام؟ الدخان؟». سيقول لهم وهو يضع أذنيه على الأرض المليئة بالانفجارات: «أصغوا».

وسيعلمهم أن يشمّوا التاريخ في الريح أن يلمسوه في الأحجار التي صقلها النهر وأن يتعرّفوا على طعمه بمضغ بعض الأعشاب العطرية ببطء كما يمضغ المرء الحزن.

١٥٢٤: أوتاتلان

- انتقام المقهورين -

يستلقي الزعماء الهنود حفنة من العظام سوداء كالسخام في حطام المدينة. لا يوجد شيء اليوم في عاصمة «الكويتشز» لا يفوح بالحرق.

تحدّث نبيّ منذ قرن تقريباً، كان زعيم «الكاكتشيكويلزهو» الذي قال حين كان هنود الكويتشز على وشك أن يمزّقوا قلبه. *سوف يأتي رجال مسلحون يرتدون الثياب من الرأس إلى القدم ليسوا عراة مثلنا ويدمّرون هذه الأبنية ويرجعونكم إلى الحياة في كهوف البوم والقطط البرية وسوف تختفي كلّ هذه العظمة*.

تحدث حين قتلوه، هنا في مدينة الوهاد هذه التي حوّلها بدرو الفارادو وجنوده إلى ألسنة لهب لتوّهم. لعن الزعيم المقهور هنود الكويتشز ، ومنذ ذلك الحين، مرّ وقت طويل هيمن فيه هنود الكويتشز، على شعوب غواتيمالا الأخرى.

١٥٢: جزر العقرب

شعيرة العشاء الرباني

ابتلعهم البحر ثم تقيأهم ازدردهم ثانية ثم رماهم على الصخور. كانت الدلافين وخرفان البحر طير في الجو، والسماء مليئة بالزبد. حين تحطمت السفينة الصغيرة بذل الرجال جهوداً كبيرة يعانقوا الصخور. كانت الأمواج تعارك طوال الليل لتمزقهم بضرباتها المتتالية. انتزِعَ كثيرون من مكنتهم وتحطموا على الصخور أو افتُرِسوا.

فجراً، هدأت العاصفة وانحسر المدّ. ترك الذين نجوا مصيرهم للقدر وانطلقوا على ظهر زورق تداع. بقوا طيلة خمسة أيام بين سلاسل الصخور دون ماء للشرب أو ثمار تبلل أفواههم.

في ذلك الصباح وصلوا إلى إحدى الجزر.

زحفوا على أربع إلى الأمام تحت الشمس التي تطهو الصخور، لا يمتلك أي منهم القوة لجرّ ن يبقى خلفهم عراة ومجروحين يلعنون الضابط، المحامي«ألونزو زوازو»، القانوني الجيد والبحار لسيء، يلعنون الأم التي أنجبته والملك والبابا والله.

هذا المنحدر الصغير هو أعلى جبل في العالم. يتابع الرجال التسلق ويعزون أنفسهم بعد ساعات المتبقية قبل الموت.

فجأة يفركون أعينهم، لا يصدقون ذلك: كانت خمس سلاحف عملاقة تنتظرهم على الشاطئ، شمس من تلك السلاحف التي تبدو في البحر كجزر صخرية والتي تمارس الجنس دون خوف حين تقترب السفن منها.

اندفع الرجال نحوها. كسروا دروعها غاضبين وجائعين وبدأوا يجرفونها إلى أن انقلبت لسلاحف وهي تضرب الهواء. طعنوها بسكاكينهم، فتحوا بطونها بقبضاتهم وطعناتهم ودفنوا ؤوسهم في الدم المندفع.

ثم ناموا غارقين إلى أعناقهم في دنان الخمرة الجيدة هذه. بينما كانت الشمس تستمر في التقدم لى كبد السماء.

لا يصغي أحد للمحامي «زوازو». يركع على الرمل وفمه ملطخ بالدم، يرفع يديه ويقدّم لسلاحف إلى الجراح الخمسة لمخلّصنا.

١٥٢٤: توه كاها

- كواوتيموك -

كان جسد الملك الأخير للآزتيكيين يتأرجح معلقاً من كاحليه على غصن شجرة سيبة كبيرة. قطع كورتيز رأسه.

وصل إلى العالم في مهد محاط بالدروع والرماح وهذه هي الأصوات الأخيرة التي سمعها: «وطنك الحقيقي في مكان آخر. أنت موعود بأرض أخرى. مكانك المناسب هو ساحة المعركة، مهمتك أن تمنح دم أعدائك للشمس كي يشربه وأجسادهم للأرض كي تأكله».

صبّ العرافون على رأسه الماء منذ تسعةٍ وعشرين عاماً وهم يطلقون كلمات طقسية: «أين تختبىء يا سوء الحظ؟ في أي عضو تخفي نفسك؟ ابتعد عن هذا الطفل».

سمّوه كواوتيمك، النسر الذي يسقط، وسّع والده الإمبراطورية من البحر إلى البحر. حين احتلّ الأمير العرش كان الغزاة قد توغلوا في البلاد. نهض كواوتيموك وقاوم، بعد أربعة أعوام من هزيمة تينوشتيتلان ما تزال تصدح الأغاني التي تدعو إلى عودة المحارب من أعماق الغابة.

من يهدهد الآن جسده المبتور؟ الريح أم شجرة السيبة؟ ألا تبدو هذه شجرة سيبة من تاجها الضخم؟ ألا تقبل هذا الغصن المكسور كذراع آخر من آلاف الأذرع التي تنمو من جذعها الجليل؟ هل ستنمو عليه ورود حمراء؟

الحياة تستمر. الحياة والموت يستمران.

١٥٢٦: طليطلة

- النمر الأميركي -

يعرض المرَوِّض في قصر طليطلة النمر الذي تلقّاه الملك من العالم الجديد. يقوده المرَوِّض لومباردي ذو الابتسامة العريضة والشارب المدّبب برسنٍ كأنه كلب صغير بينما ينزلق النمر على الحصباء بخطوات خافتة.

يتجمد دم غونزالو فرديناندیز دي أو فييديو.يصرخ بالمرَوِّض من بعيد ألا يثق به، ألا يكون أبله مع هذا الوحش المفترس، إن هذه الحيوانات ليست للبشر.

يضحك المرَوِّض يفلت النمر ويضربه على ظهره يسمع أوفييدو زئيره العميق. يعرف أن زمجرة الأنياب المصطكة هذه تعني تهديداً وصلاةً للشيطان. إنه متأكد أن المروض سيقع في الفخ في أحد الأيام. سيمّد يده ليلمس النمر وبعد ذلك سيُبْتَلَع بعد ضربة مخلب سريعة. هل يؤمن هذا المسكين أن الله منحِ النمر مخالب وأنياباً ليقدم له مروض وجباته في ساعات منتظمة. لم يجلس أحد من سلالته أبداً ليتناول العشاء بتوقيت الأجراس ولم تعرف هذه السلالة سوى الافتراس. ينظر أوفييدو إلى اللومباردي المبتسم ويرى كومة من اللحم المفروم بين أربع شموع .

ينصحه: «اقتلع مخالبه وجميع أنيابه من جذورها»، ثم يذهب.

١٥٢٨: مدريد

- حلُّ خيوط المحفظة -

يدخل البرد من الشقوق ويجمد الحبر في المحابر.

إن تشارلز مدان لكل قديس بشمعة. اشترى العرش الإمبراطوري بنفود دفعها أصحاب بنوك أوكسبورغ وموّل خطبته وجزءاً جيداً من الحروب التي مكنته من إذلال روما وقمع التمرد الفلمنكي وبعثرة نصف محاربي فرنسا النبلاء في حقول بافيا.

يتألم ضرس الإمبراطور وهو يوّقع أمراً بتأجير حقّ اكتشاف واستغلال وحكم فنزويلا

يعين حكام ألمان لفترة طويلة على فنزويلا، لم يترك الحاكم الأول أمبروزيو ألفنغر هندياً لم يوشم أو يباع في أسواق سانتا مارتا وجامايكا وسانتو دومينغو، والذي يموت بعد أن يخترق حنجرته سهم.

١٥٢٥: تمبيز

- يوم المفاجآت -

تصل رحلة البحر الجنوبي أخيراً إلى شاطىء يخلو من المستنقعات والبعوض، يأمر فرانسيسكو بيزارو الذي سمع بوجود قرية في الجوار، جندياً وعبداً أفريقياً أن ينطلقا.

يصل الأبيض والأسود إلى «تمبيز» عابرين الأراضي المزروعة والمروية جيداً بواسطة أقنية مائية، كان يوجد زراعات لم يشاهدوا مثلها في أميركا، يحيط أبناء تمبيز الذين لايخرجون عراة ولاينامون في العراء بالوافدين الجدد ويقدمون لهم الهدايا. لم تكن عينا ألونزو دي مولينار كبيرتين بما يكفي لتحصيا الذهب والفضة اللذين يكسوان جدران المعبد.

يندهش سكان تمبيز بأشياء كثيرة من عالم آخر. يشدّون لحية ألونزو دي مولينار ويلمسون ثيابه وفأسه الحديدية. يؤمنون سائلين عن هذا الوحش المأسور ذي العرف الأحمر الذي يصرخ في قفص: «ماذا يريد؟»، يشير ألونزو إليه ويقول: «ديك»، ويتعلمون كلمتهم الأولى بلغة قشتالة.

لايتصرف الأفريقي الذي يرافق الجندي جيداً. يدافع عن نفسه لاطماً الهنود الذين يريدون أن يحكّوا جلده بقرون الذرة اليابسة. الماء يغلي في إناء كبير، يريدون أن يضعوه فيه ليزيلوا لونه.

١٥٢٨: جزيرة الحظ السيء

- الناس كرماء بما يملكونه... -

قذفت عاصفة إحدى السفن التي أبحرت إلى فلوريدا منطلقة من سانليوكردي بارميد إلى قمم الأشجار الكوبية والتهم البحر السفن الأخرى في حوادث تحطم متعاقبة. ولم ينتظر السفن التي زودها رجال نارفايز وكابيزا فاكا بأشرعة من القمصان وحبال من أعراف الأحصنة، مصير أفضل.

يرتجف رجال السفينة المحطمة، الأشباح العارية، من البرد ويبكون بين صخور جزيرة «مال هادو» يحضر لهم الهنود الماء والأسماك والجذور ويبكون معهم. ذرف الهنود أنهاراً من الدموع وكلما طال الندب كلما شعر الأسبان بالأسفْ.

أخذهم الهنود إلى قريتهم وهكذا لم يمت البحارة من البرد، إذ واظب الهنود على إشعال النار طوال الطريق في مواضع الراحة. كان يحملونهم على المحفات بين النار والنار، دون أن يجعلوا أقدامهم تلمس الأرض.

ظنّ الأسبان أن الهنود سيقطعونهم إرباً ويرمونهم في إناء الطهي، إلا أنهم تقاسموا معهم في القرية الطعام القليلَ الذي يمتلكونه. وكما سيقول آلفار كابيزا دي فاكا، يرتعب الهنود ويغضبون حين يعلمون أن خمسة مسيحيين أكلوا بعضهم على الشاطىء وبقي منهم واحداً فقط لم يوجد أحد ليأكله.

١٥٣١: نهر أورينوكو

- دييغو دي أورداز -

تبقى الريح عنيدة وتجرّ السفينة عكس التيار. الشمس تجلد المياه.

يشبه شعار النبالة الذي يرتديه القائد مخروط بركان بوبوكاتيبتل.كان أول إسباني يخطو على قمته الثلجية. في ذلك اليوم ومن هذا الارتفاع شاهد من خلال زوابع الرماد البركاني ظهور النسور ومدينة تينوشتيتلان تومض في البحيرة، كان عليه أن يبتعد بسرعة لأن البركان غضب وهدده بوابل من النار والحجارة والدخان الأسود.

يتساءل اليوم دييغو أورداز، المبلّل بالماء إلى عظامه إذا كان نهر أورينوكو سيقوده إلى حيث ينتظر الذهب. كان هنود القرى يشيرون إلى الأمام. بينما يطارد الضابط البعوض ويهدىء بدن السفينة المرقّع الذي يصّر متقدماً إلى الأمام. القردة تحتج. ببغاوات لامرئية تصرخ. طيور كثيرة بلا أسماء ترفرف محتجّة بين الشواطئ.

- أغنية شعب البيارو عن الرجل الأبيض -

سيئة مياه النهر
الأسماك تختبىء
في الوهدة الضيقة
محمرة من الوحل.

يعبر الرجل ذو اللحية
الرجل الأبيض
يعبر الرجل ذو اللحية
في القارب الكبير
بمجاديف تصرّ
تعضّها الثعابين.

١٥٣١: مدينة المكسيك

- عذراء كوداليوب -

هل يصعد ذلك الضّوء من الأرض أم يهبط من السماء؟ هل هو حشرة ضوئية أم نجم متوهج؟ لايريد أن يغادر منحدرات تيبياك ويستمّر في منتصف الليل مشعاً على الحجارة ومتعلّقاً بالأغصان. مهلوساً ومثاراً، يراه الهندي العاري خوان دييغو: ينفتح لـه ضوء الأضواء يتحطّم قطعاً ذهبية وياقوتية وتظهر في قلبه المتوهج أكثر النساء المكسيكيات تألقاً وتقول له باللغة الناهواتلية: «أنا أم الإله».

يسمع الأسقف أوماراكاويشك. إنه حامي الهنود الرسمي الذي عيّنه الإمبراطور وحارس الحديد الذي يطبع على أوجه الهنود أسماء ماليكهم. رمى المخطوطات الآزتيكية في النار، الأوراق التي لوّنتها يد الشيطان ودمّر خمسمائة معبد وعشرين ألف تمثال يعرف الأسقف زاماراكا جيداً أن إلهة الأرض تونانتزن كان لها حرم على منحدرات تيبياك وأن الهنود كانوا يحجون إلى هناك ليعبدو: «أمنا»، كما كانوا يسمّون تلك المرأة المكسوة بالثعابين والقلوب والأيدي.

يشك الأسقف ويقرّر أن خوان دييغو شاهد عذراء كواديليوب العذراء التي ولدت في أستريما نديورا والتي جعلت شموس إسبانيا لونها داكناً وجاءت إلى وادي الآزتيكيين لتكون أماً للمهزومين.

١٥٣١: سانتو دومينغو

- رسالة -

يضغط على صدغيه وهو يتتبّع الكلمات التي تتقدّم وتتراجع. يقول متوسلاً: «لاتفكر بمنزلتي الوضيعة وبفظاظة التعبير، فكّر بالإرادة الطيبة التي تدفعني إلى الكلام».

يكتب فراي بارتولومي ديلاس كاساس إلى مجلس الآنديز. سيكون من الأفضل كما يؤكد أن يذهب الهنود إلى الجحيم بهرطقاتهم ومماطلاتهم وعزلتهم بدلاً من أن ينقذهم المسيحيون. إن

صرخات الدم الإنساني الكثير المسفوح تصل إلى السماء، صرخات الذين أحرقوا أحياء وتم شواؤهم ورميهم إلى الكلاب المتوحشة...

ينهض. يمشي. يخفق رداؤه الأبيض في سحب الغبار.

يجلس فيما بعد على حافة الكرسي المزخرفة. يخدش أنفه بالقلم تكتب اليد الناتئة العظام: «كي ينقذ الهنود في أميركا وتنفّذ إرادة الله يقترح فراي بارتولومي أن يحكم الصليب السيف وأن تخضع حاميات الجنود للأساقفة ويجب أن يُرْسَل المستعمرون إلى حراثة الأراضي تحت الحراسة». يتابع كلامه: «يستطيع المستعمرون أن يحضروا السود والمغاربة وعبيداً آخرين ليخدموهم، أو يمكنهم أن يعيشوا معتمدين على عملهم الخاص أو بطريقة ما، لاتؤذي الهنود...».

١٥٣١: جزيرة سيرانا

- المطروح[1] والآخر -

تجرح ريح من الملح والشمس «بدرو سيرانو» الذي يتجوّل عارياً في الجروف. النوارس ترفرف وهي تطارده. يصنع لنفسه ظلاً بيده المرفوعة وعيناه مثبّتتان على أرض العدو.

يتجه إلى الخليج الصغير ماشياً على الرمال وحين يصل إلى خطّ الحدود يتبوّل. لايعبر الخط، لأنه يعرف إذا كان الآخر يراقب من أحد المخابىء سيظهر بقفزة واحدة ويتعامل مع هذا الإستفزاز.

يبول وينتظر. تصرخ الطيور وتهرب. أين وضع الرجل نفسه؟ السماء بياض يبهر البصر، ضوء كلسي، والجزيرة حجر يشتعل. صخور بيضاء، ظلال بيضاء، زبد فوق الرمل الأبيض: عالم صغير من الرمل والكلس. أين يستطيع الوغد أن يختبىء؟

مرّ وقت طويل على تحطم سفينة «بدرو» في تلك الليلة العاصفة. ووصل طول لحيته وشعره إلى صدره حين ظهر الآخر على لوح رماه المدّ الغاضب على الشاطىء. أفرغ بدرو رئتيه من الماء وقدّم له الطعام والشراب وعلّمه كيف لا يموت على تلك الجزيرة الصحراوية التي لا تنمو فيها سوى الصخور. علّمه أن يقلب السلاحف وينهيها بشق واحد، أن يقطع لحمها إلى شرائح ويجففه في الشمس وأن يجمع ماء المطر في دروعها. علمه أن يصلي للمطر وأن يحفر للبطلينوس[2] تحت الرمل ودلّه على مخابىء السرطانات والقريدس وقدّم له بيض السلاحف والمحار الذي أحضره البحر وعلق بأغصان المنغروف[3]. عرف الآخر من بدرو أنه من الضروري جمع كل شيء يرسله البحر

(١) - المطروح: شخص يوفق إلى بلوغ الشاطىء إثر غرق سفينة.

(٢) - البطلينوس: حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي.

(٣) - المنغروف: شجر استوائي.

إلى الحيد البحري لكي تشتعل النار ليلاً ونهاراً وتتغذّى بالطحالب وأعشاب البحر، بالأغصان التائهة وقناديل البحر وعظام الأسماك. ساعده بدرو في بناء سقف من دروع السلاحف منح ظلاً عوّض غياب الأشجار.

كانت الحرب الأولى هي حرب الماء. شك بدرو أن الآخر يسرق أثناء نومه واتهمه الآخر بأنه يشرب مثل وحش. حين نفذ الماء وسفحت القطرات الأخيرة التي تم التنازع عليها بالكلمات لم يكن لديهما بديل عن شرب بولهما والدم الذي استنزفاه من السلحفاة الأولى التي عثرا عليها. تمددا ليموتا في الظل وبقي لديهما لعاب قليل يكفي فقط للعنات الصامتة.

أنقذهما المطر أخيراً. ظن الآخر أن بدرو يستطيع أن يخفض سقفه إلى النصف لأن السلاحف أصبحت نادرة قال له: «إن منزلك قصر من دروع السلاحف أما أنا فأمضي النهار ملوياً في منزلي».

قال بدرو: «أتبرّز عليك وعلى الأم التي أنجبتك، إذا كنت لا تحب جزيرتي اذهب من هنا»، وأشار بأصبعه إلى البحر الواسع.

قرّرا أن يقسما المياه. يوجد من الآن فصاعداً حجرة للماء في كل طرف من الجزيرة.

جاءت حرب النار. دارا حول الجزيرة حاملين النار لعل سفينة عابرة تراهما. في إحدى الليالي، حين كان الآخر يقوم بالحراسة انطفأت النار. لعنه بدرو وهزّه ليوقظه.

قال الآخر مكشراً عن أسنانه: «إذا كانت هذه جزيرتك فافعل هذا أيها الخنزير».

تدحرجا على الرمال. حين تعبا من ضرب بعضهما قرّرا أن كلاً منهما سيشعل ناره. ضرب بدرو حجراً بسكينه إلى أن تولّدت بعض الشرارات ومنذ ذلك الوقت بُنيت نار على كل طرف من الجزيرة.

جاءت حرب السكاكين ثالثاً. لم يكن يمتلك الآخر شيئاً يقطع به وطلب منه بدرو أن يمنحه قريدساً طرياً كلما أعاره سكينه.

بعد ذلك نشبت حرب الطعام والعِقْدُ الصدفي.

حين انتهت حربُ قذفِ الأحجار وقّعا هدنة واتفاقية حدود. لم يكن يوجد سجلات أو أوراق في هذا المكان المهجور ولاأحد منهما يستطيع أن يوّقع اسمه، إلا أنهما رسما الحدود وأقسما بالله والملك أن يحترما ذلك. قذفا سمكة في الجو. رسم بدرو نصف الجزيرة التي تواجه «كارتاجينا» وحدّد الآخر النصف الذي يواجه سانتياغو دي كوبا.

يقضم بدرو أظافره وهو واقف على الحدود، ينظر إلى الأعلى وكأنه يطلب المطر ويفكر: «لابد أنه مختبىء في أحد الشقوق، أستطيع أن أشم رائحته، هذا الأجرب. إنه في وسط المحيط ولايستحم أبداً، سيتقلّى بدهنه إنه هناك نعم».

يصرخ: «مرحباً ياثقب المؤخرة».

يجيبه صخب الرعد وعربدة النوارس وأصوات الريح.

يصيح: «أيها العاقّ. يابن العاهرة»، إلى أن تنفجر حنجرته ويركض من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر جيئة وذهاباً وحيداً وعارياً على الرمال.

١٥٣٢: كاجاماركا

- بيزارو -

يكنس ألف رجل ممرّ الآنكي الذي يؤدي إلى الحي الكبير حيث ينتظر الإسبان مختبئين. ترتجف الجموع حين يمرّ الأب المحبوب، الواحد، الذي لاشريك له، إله العمل والراحة. يصمت المغنون ويجمد الراقصون، في الضوء الأخير للنهار تتوهج تيجان وأردية «آتاهوالبا» وبطانته من نبلاء المملكة بالذهب والفضة.

أين الآلهة التي أحضرتها الريح؟ يصل الآنكي إلى وسط الحي ويصدر أمراً بالانتظار. منذ بضعة أيام اخترق جاسوس معسكر الغزاة، شدّ لحاهم وعاد ليخبر أنهم ليسوا سوى حفنة من اللصوص جاؤوا من البحر. كلّفه ذلك التجديف حياته. أين أبناء «يراشوشا» الذين يرتدون النجوم في كعابهم ويرسلون الرعود التي تسبب السُبات والذعر والتشتت والموت؟

يظهر الكاهن فيسنت دي فالفيرد من الظلال ويذهب لمقابلة آتاهوالبا. يرفع الإنجيل في يد والصليب في اليد الأخرى كأنه يوقف عاصفة في أعالي البحار ويصرخ أن الله الحقيقي هو هنا وكل ماعداه باطل. يترجم المترجم ويقول له آتاهوالبا وهو على رأس الحشد: «من قال لك هذا؟».

- «يقول ذلك الإنجيل، الكتاب المقدس».

- «دعه يقول لي».

على بعد بضعة خطوات يشهر بيزارو سيفه.

ينظر آتاهوالبا إلى الإنجيل. يقلبه بيده، يهزه ليجعله يتكلم يضغطه على أذنه ثم يقول: «إنه لايقول شيئاً إنه فارغ».

ثم يرميه إلى الأرض.

كان بيزارو ينتظر هذه اللحظة منذ ذلك اليوم الذي ركع فيه أمام الإمبراطور تشارلز الخامس ووصف الإمبراطورية بأنها كبيرة كأوروبا وأنه اكتشفها واقترح غزوها ووعده بأروع كنز في تاريخ الإنسانية. وحتى قبل هذه اللحظة منذ اليوم الذي رسم فيه سيفه خطاً في الرمال وانحنى بعض الجنود المرضى المتضوّرين جوعاً وأقسموا أن يتبعوه إلى النهاية. وأيضاً قبل ذلك. بكثير: انتظر بيزارو هذه اللحظة منذ أن كان مرمياً على باب كنيسة في أستريماندورا منذ أربعة وخمسين عاماً وشرب حليب التّفاف[١] لأنه لم يكن يوجد أحد يرضعه.

يصرخ بيزارو وينقضّ. وعند الإشارة يظهر الفخّ. وسط دوي أبواق الإغارة وزئير البنادق يهاجم الفرسان الحشد الأعزل المنذهل.

---

(١) - التّفاف: عشب ذو عصارة لبنية.

١٥٣٣: كاجاماركا

- الفدية -

كوّم الذهب والفضة لشراء حياة آتاهوالبا كحشد من النمل تدفقت على طرق الإمبراطورية الأربع خطوط طويلة من اللامات وبشر تحني أكتافهم الحمولات. جاءت الغنيمة الأروع من «كوزكو»: حديقة كاملة من الأشجار والأزهار الذهبية والأحجار الكريمة والطيور والحيوانات الفضية النقية والفيروزية واللازوردية.

يبتلع الفرن الآلهة والحليّ ويتقيأ سبائك الذهب والفضة يتنازع الضباط والجنود على توزيعها إذ أنهم لم يحصلوا على رواتب منذ ستة أعوام.

يخصّص بيزارو من كل خمس سبائك حصة للملك ثم يصلّب على نفسه. يطلب مساعدة الله الذي يعرف كلّ شيء ليرى العدالَة وقد تحققت ويطلب مساعدة هيرناندو دي سوتو الذي يعرف كيف يقرأ ليراقب الناسخ.

يخصّص جزءاً للكنيسة وآخر للكاهن المرافق. يكافئ بسخاء أخوته وضباطه الآخرين. يأخذ كلّ جندي مقاتل أكثر مما يجمعه الملك فيليب في عام ويصبح بيزارو أغنى رجل في العالم. يخصّص آسر آتاهوالبا لنفسه مايعادل مرتين مايصرفه بلاط الملك تشارلز بخدمه الستمائة في عام، هذا دون أن تحسب المحفّة الآنكية التي تحمل ثلاثة وثمانين كيلو غراماً من الذهب الخالص وهذه غنيمة له كقائد.

١٥٣٣: كاجاماركا

- آتاهوالبا -

عَبَرَ قوس قزح أسود السماء. لم يرغب آتاهوالبا الآنكي أن يصدّق ذلك.

في يوم الاحتفال الشمسي سقط نَسْرٌ ميتاً في ساحة السعادة. لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

قتل الرسل الذين جاؤوا بأخبار سيئة وقطع بضربة فأس واحدة رأس النبي الذي تنبأ بسوء الحظ. أحرق معبد الوحي وقطّع شهود النبوءة إلى أشلاء.

قيّد آتاهوالبا أبناء أخيه الثمانين على أعمدة نُصِبَتْ على الطرق وتغذّت العقبان على لحومهم.

صبغت زوجات هويسكار مياه نهر آدماركا بالدم. أكل هواسكار الذي سجنه آتاهوالبا خراء البشر وشرب بول الخرفان وزوِّج إلى صخرة كُسيت بالثياب كان هواسكار هو آخر من قال: «سيقتلونه كما سيقتلني». لم يرغب آتاهوالبا أن يصدق ذلك.

حين تحوّل قصره إلى سجن له، لم يرغب أن يصدق ذلك. قال آتاهوالبا الذي سجنه بيزارو: «أنا أعظم الأمراء على الأرض» ملأت الفدية غرفة بالذهب واثنتين بالفضة. صهر الغزاة حتى المهد الذهبي الذي سمع فيه آتاهوالبا أغنيته الأولى.

أخبره بيزارو وهو جالس على عرشه أنه قرّر أن يؤكد حكم الموت عليه. أجاب آتاهوالبا: «لاتمزح معي هكذا». ولم يرغب أن يصدق ذلك الآن وهو يصعد خطوة إثر خطوة الدرج جاراً أغلاله في الضوء اللبني للفجر.

ستنتشر الأنباء حالاً بين أطفال الأرض الذين لايحصى لهم عدد والمحكومين بدفع الجزية لابن الشمس. سيبكون في «كويتو» موت الظل الذي يحمي: منذهلاً، ضائعاً بلا ذاكرة ووحيداً. سيعمّ الفرح في «كوزكو» ويُسْفَح الشراب.

آتاهوالبا مقيّد من يديه ورجليه وعنقه. لكنه مايزال يفكر: «ماذا فعلت لأستحق الموت؟».

عند قدم المشنقة يرفض أن يصدق أن إنساناً هزمه. تستطيع فقط الآلهة أن تفعل هذا. لقد خانه والده الشمس.

يبكي ويقبّل الصليب ويقبل العمادة قبل أن تحطم عنقه الضاغطة الحديدية. حاملاً اسم فرانسيسكو الغازي يطرق بعنف على أبواب جنة الأوروبيين حيث لايوجد مكان له.

١٥٣٣ هاكوي كوانا

- السرّ -

يتقدّم بيزارو نحو كوزكو على رأس جيش كبير. أضاف الملك الآنكي الجديد آلاف الهنود إلى حفنة من الغزاة. يُنهك ضباط آتاهوالبا تقدّمه يأسر بيزارو في وادي هاكوي كوانا أحد رسل أعدائه.

تلعق النار باطن قدميه.

- «ماذا تقول هذه الرسالة؟»

إنه رجل متمّرس بالجري. عبر الرياح الجليدية للسهل وحرارة الصحراء الشرسة. عوّدهُ عمله على الألم والإعياء. إنه يئنّ لكنه لن يتكلم.

بعد عذاب طويل ارتخى لسانه فقال: «لن تستطيع الجياد أن تتسلّق الجبال».

- «ماذا أيضاً؟».

- «لايوجد ما يخشى منه. إن هذه الخيول جبانة لكنها لاتؤذي».

- «وماذا أيضاً؟».

جعلوه يمشي على النار.

- «وماذا أيضاً؟».

فقد قدميه وقبل أن يفقد حياته قال: «أنتم ستموتون أيضاً».

١٥٣٣: كوزكو

ـ الغزاة يدخلون إلى المدينة المقدّسة ـ

في الظهيرة المتألقة يشق الجنود طريقهم عبر سحب الدخان. تختلط رائحة الجلد المتعَرق برائحة الإشتعال. بينما تُسمع قعقعة حوافر الأحصنة وعجلات المدافع.

يرتفع مذبح في الساحة. تواكب رايات حريرية مطرزة بالنسور الإله الجديد المفتوح الذراعين الملتحي كأبنائه. ألا يشاهد الإله الجديد أبناءه حاملين الفؤوس بأيديهم ويقفزون فوق ذهب المعابد والمدافن؟

وسط أنقاض كوزكو، ينتظر العجائز والمشلولون الذين فحّمتهم النار بصمتٍ، الأيام القادمة.

١٥٣٣: ريوبامبا

ـ آلفارادو ـ

رست السفن منذ نصف عام في بويرتو فييجو. أبحر بدرودي آلفارادو من غواتيمالا، حالماً بكنوز مملكة عذراء. ذهب معه خمسمائة إسباني وعشرون ألفاً من الهنود والزنوج العبيد. أبلغه الرسل: «إن القوة التي تنتظرك ستجعل ماتراءى لك كالقذارة، وفي شمال تمبيز ستتضاعف شهرتك وثروتك. لقد أصبح بيزارو وألماغرو سيدين في الجنوب إلا أن مملكة كيوتو الخيالية لايملكها أحد».

عثروا على الذهب والفضة والزمرد في القرى الساحلية. انطلقوا إلى الجبال حاملين ثروات سريعة. واجهوا الأدغال والمستنقعات، الحمّى التي تقتل في يوم أو تترك المرء مجنوناً والمطرَ المرعبَ للرمادِ البركاني. حطّمت العواصف الثلجية والرياح التي تقطع كالسكاكين عند سفوح الآنديز العبيد الذين لم يعرفوا البرد أبداً وبقي كثير من الإسبان هياكل عظمية في الجبال. الجنود الذين ترجّلوا ليشدّوا أحزمة سروج أحصنتهم بقوا متجمّدين بشكل مستمر. رميت الغنائم في قاع الوهاد: قدّم آلفارادو الذهب وازداد صخب الجنود من أجل الطعام والمأوى. بعينين محروقتين من الثلج الذي يعمي البصر استمر آلفارادو بقيادة القافلة. كان يقطع بضربة سيف واحدة رؤوس العبيد الذين سقطوا والجنود الذين لم يرغبوا بالذهاب.

موتى أكثر مما هم أحياء، عضلاتهم متصلبة ودمهم متجمد، وصل الرجال الأكثر بأساً إلى هضبة. وأخيراً وصلوا إلى الطريق الملكي للآنكيين الذي يؤدي إلى «كويتو»، إلى الجنة. حالما وصلوا عثروا على آثار الحوافر الطرية على الوحل. لقد سبقهم القائد بينال كازار إليها.

١٥٣٣: كويتو

- هذه المدينة تقتل نفسها -

يدخل رجال بينال كازار ولايمكن إيقافهم. آلاف من الحلفاء الهنود، أعداء الآنكا، يتجسّسون ويقاتلون من أجلهم. بعد ثلاث معارك سبق السيف العذل. يشعل القائد روميناهوي الذي كان يقرع طبول الانسحاب النار في كويتو. لن يستمتع بها الغزاة حية ولن يجدوا أية كنوز سوى تلك التي يمكن أن يحفروا المدافن ليعثروا عليها. ارتفعت مدينة كويتو، مَهد وعرش آتاهوالبا، ناراً عظيمة بين بركانين.

يبتعد روميناهوي الذي لم يُطعن في الظهر أبداً عن ألسنة اللهب المحلقة. عيناه دامعتان بسبب الدخان.

١٥٣٣: برشلونة

- الحروب المقدّسة -

يصل رسل الأنباء السارة من أميركا. يغلق الإمبراطور عينيه ويرى الأشرعة تقترب ثم يتذوّق رائحة القار والملح. يتنفس الإمبراطور كالمحيط، كالمدّ العالي، كالجزر وينفخ ليسرّع السفن المنتفخة بالكنوز.

كان القدر قد كافأه لتوه بمملكة جديدة حيث يتكوّم الذهب والفضة كالحديد في «فيزكايا». الغنائم المدهشة في طريقها. ستمكنه من تهدئة أصحاب البنوك الذين يخنقونه وسيدفع لجنوده من الرمّاحين السويسريين والمرتزقة الألمان والمشاة الإسبان الذين لم يشاهدوا أبداً قطعة نقد في أحلامهم. ستموّل فدية آتاهوالبا الحروب المقدّسة ضدّ الهلال الإسلامي الذي وصل إلى بوابات فيينا وضدّ الهراطقة الذين يتبعون لوثر في ألمانيا. سيرسل الإمبراطور أسطولاً عظيماً ليطرد السلطان سليمان والقراصنة ذوي اللحى الحمراء من البحر الأبيض المتوسط.

تعكس المرآة صورة إله الحرب يرتدي درعاً دمشقياً مطرزاً عند العنق وعلى صحن الصدر يرتدي خوذة مريشة وله وجه تضيئه شمس العظمة. تظهر حواجب كثيفة فوق عينين كئيبتين، ذقن منتصب إلى الأعلى تغطّيه لحية. يحلم الإمبراطور بالجزائر ويسمع نداء القسطنطينية، تنتظر تونس أيضاً التي سقطت في أيد ملحدة جنرال يسوع المسيح.

١٥٣٣: سيفيل

- كنوز الآنكيين -

رمت السفن الأولى الذهب والفضة على أرصفة مرفأ سيفيل. جرّت الثيران الحمولات إلى غرفة التجارة. تصاعدت تمتمات الدهشة من الحشد الذي أتى ليراقب عملية التفريغ. كان هناك حديث عن أسرار وعن ملك مهزوم وراء المحيط.

يخرج سكيران من المقهى الذي يواجه رصيف المرفأ وينضمان إلى الحشد. إنهما لايحتفلان بالكنوز الآنكية. كانا متوهجين بعد جلسة تناول خمور جيدة ولأنهما قطعا عهداً على نفسيهما. اتفقا على تبادل زوجتيهما: أنت تأخذ زوجتي التي هي كاللؤلؤة وأنا آخذ زوجتك رغم أنها لاتستحق الكثير. كانا يبحثان عن كاتب بالعدل ليجعل الأمر رسمياً.

لم يفكرا بذهب وفضة البيرو ولم يلتفت الحشد إلى المطروح الذي وصل مع الكنز. أنقذته سفينة جذبتها النار من جزيرة كاريبية. كان اسمه «بدرو سيرانو» ومنذ تسعة أعوام سبح ناجياً من حطام سفينة. يستخدم شعره ليجلس عليه ولحيته كرداء وله بشرة جلدية ولم يتوقف عن الحديث منذ أن أصعدوه إلى السفينة. والآن يتابع رواية حكايته وسط الزئير ولاأحد يصغي إليه.

١٥٣٤: ريوبامبا

- التضخم -

حين وصلت أنباء ذهب آتاهوالبا إلى سانتو دومينغو ذهب الجميع للبحث عن السفن. كان أول من تحرك بسرعة ألونزو هيرنانديز المتاجر بالهنود. أبحر من بنما ولدى وصوله إلى تمبيز اشترى حصاناً. يكلف الحصان في تمبيز أكثر مما يكلف في بنما بسبع مرات وبثلاثين مرة مما يكلف في سانتو دومينغو.

أجبر تسلّق الجبال هيرنانديز على المشي. وليكمل رحلته إلى كيوتو يشتري حصاناً آخر. يدفع مايزيد على كلفته بتسعين مرّة في سانتو دومينغو ويشتري عبداً أسود بثلاثمائة وخمسين بيزو، يزيد سعر الحصان في ريوبامبا على سعر الإنسان تسع مرات.

كلّ شيء للبيع في المملكة حتى الرايات الملطخة بالوحل والدم وكل شيء مسعّر بسعر مرتفع كالسماء. تباع السبيكة بقطعتين ورقيّتين.

يهزم التجار الذين وصلوا متأخرين الفاتحين دون أن يشهروا سيفاً.

١٥٣٥: كوزكو

- العرش النحاسي -

لايستلقي على ركبتي الملك الصغير التابع للملك آخر صولجان ذهبي بل عصا تشعّ بقطع زجاجية ملونة. يرتدي مانكو آنكا شُرّابة قرمزية على رأسه إلا أن العقد الذهبي الثلاثي غائب عن عنقه حيث لاتتوهج الشمس ولاتتدلى الأقراص اللامعة من أذنيه. يخلو ظهر شقيق آتاهوالبا وعدوه ووريثه من عباءة الذهب وخيوط الفضة ونسيج الفيكونة[١] اختفى الباز عن الرايات التي تضربها الريح وحلّ مكانه نسر امبراطور أوروبا.

لاأحد يركع عند قدمي الآنكي الذي توّجه بيزارو.

١٥٣٦: مدينة المكسيك

- موتولينيا -

يمشي فراي توريبيو مونتولينيا حافياً على الهضبة حاملاً كيساً ثقيلاً على ظهره.

موتولينيا كلمة محلية تعبر عن شخص فقير ومبتلى. مايزال يلبس رداءً رثاً مرقعاً منحه اسمه منذ أعوام حين كان يصل حافياً كما الآن من ميناء فيراكروز.

يقف على قمة المنحدر وتمتدّ تحت قدميه البحيرة الكبيرة التي تتوهج فيها مدينة المكسيك. يمسّد موتولينيا جبهته بيده يتنفس بعمق وينصب في الأرض عشرة صلبان مصنوعة من أغصان ومربوطة بالحبال. حين ينصبها يخصّصها كالتالي:

« هذا الصليب ياإلهي هو من أجل الأمراض التي لم تكن معروفة هنا والتي تنتشر برعب بين السكان المحليين».

«وهذا من أجل الحرب، وهذا من أجل الجوع الذي قتل من الهنود مايبلغ عدد قطرات البحر وذرات الرمال».

«هذا من أجل جامعي الجزية، الدبابير التي تأكل عسل الهنود. وهذا من أجل الجزية التي تجبرهم على بيع أبنائهم وأراضيهم ليدفعوها».

«وهذا من أجل مناجم الذهب التي تفوح بنتن الموت والتي لايستطيع المرء أن يتقدّم فيها فرسخاً واحداً».

---

(١) ـ الفيكونة: حيوان جنوب أميركي شبيه بالجمل.

«وهذا من أجل مدينة المكسيك العظيمة التي ترعرعت على أنقاض تينوشتيتلان ومن أجل الذين أحضروا العوارض الخشبية والأحجار على ظهورهم ليبنوها وهم يغنون ويصرخون ليلاً ونهاراً إلى أن ماتوا من الإعياء أو من الانهيارات».

«وهذا من أجل الأرقّاء الذين جرّوا إلى هنا من جميع الجهات كقطعان من الوحوش وحُفِرَ الوشم على وجوههم. وهذا من أجل الذين تساقطوا على جانبي الطريق حاملين أثقالاً لتدعيم المناجم».

«وهذا ياإلهي من أجل صراعاتنا الأبدية ومناوشاتنا نحن الإسبانيين والتي تنتهي دائماً بتعذيب الهنود وقتلهم».

يصلي موتولينيا راكعاً أمام الصلبان: «سامحهم يارب. أتوسّل إليك أن تغفر لهم. أعرف جيداً أنهم يستمرّون في عبادة الأوثان الدموية، وإذا كانوا سابقاً يمتلكون مائة إله فهم الآن يمتلكون واحداً إضافياً. لايستطيعون أن يميّزوا خبز القربان المقدّس عن حبّة ذرة، ولكن إذا كانوا يستحقون عقوبة يدك الجبارة فهم أيضاً، يستحقون شفقة قلبك الكريم».

يصلّب موتولينيا، ينفض رداءه وينزل عن الهضبة. يصل إلى الأبرشية قبل بدء السلام المريمي. وحيداً في حجرته يتمدّد على فراشه القشّي ويمضغ ببطء وبصوت مسموع ترتّية(١).

١٥٣٦: ماشو بيتشو

- مانكو آنكا -

مريضاً من كونه ملكاً يُعَامَل ككلب ينتفض مانكو آنكا ضدّ الرجال ذوي الوجوه المُشْعِرَة. يعيّن بيزارو على العرش الفارغ «بولو» شقيق مانكو آنكا وآتاهوالبا وهواسكار.

على ظهر حصانه وعلى رأس جيش ضخم يحاصر مانكو آنكا «كوزكو». تتعالى النيران حول المدينة ويسقط مطر سهام الصوفان المشتعل إلا أن الجوع يؤثر على الذين يضربون الحصار أكثر مما يؤثر على المحاصَرين. ينسحب جنود مانكو آنكا بعد نصف عام وسط صيحات الحرب التي تشق الأرض.

يعبر الآنكا وادي نهر أوربامبا ويبزغ بين القمم العالية المكلّلة بالضباب. تقوده درجات حجرية إلى مخبأ قمة الجبل السري. محمية بالمتاريس والأبراج المحصنة تفرض قلعة ماشوبيتشو سيادتها خارج العالم.

---

(١) ـ الترتية: كعكة مسطحة مدورة من دقيق الذّرة.

١٥٣٦: وادي أولوا

- غونزالو كويريرو -

ينسحب خيالة ألونزو دي آفيلا المنتصرون. يستلقي في ساحة المعركة بين الخاسرين هندي ملتح. جسده العاري أرابيسك من الحبر والدم. تتدلى رموز ذهبية من أنفه وقد شقّتْ طلقة بندقية جبهته.

كان اسمه غونزالو كويريرو. كان في بداية حياته يعمل بحارا في ميناء بالوس. بدأت حياته الثانية منذ ربع قرن حين تحطمت سفينته على شاطىء يوكاتان. عاش بين الهنود منذ ذلك الوقت. كان زعيماً أيام السلم وقائداً في الحرب. أنجبت له امرأة من المايا ثلاثة أبناء.

في عام ١٥١٩ أرسل هرنان كورتيز في طلبه.

قال غونزالو للمترجم: «لا ! انظرْ إلى جمال أبنائي، اترك لي فقط بعض هذه الكرات الحمراء التي تحملها سأعطيها لأبنائي واقول لهم: لقد أرسل لي أخوتي هذه الألعاب من بلدي».

بعد وقت طويل سقط غونزالو كويريرو وهو يدافع عن بلد آخر ويقاتل إلى جانب أخوة آخرين اختارهم بنفسه. إنه أول غاز غزاه الهنود.

١٥٣٦: كولياكان

- كابيزا دي فاكا -

مرّت ثمانية أعوام على تحطم سفينة كابيزا دي فاكا قرب جزيرة «مال هادو». يصل أربعة أشخاص فقط، أربعة إلى كوالياكان من بين ستمائة رجل أبحروا من الأندلس. ترك بعضهم على الطريق وابتلع البحر عدداً كبيراً منهم، مات البعض الآخر من الجوع والبرد أو قتلهم الهنود.

عبرَ ألفارو نونيركابيزا دي فاكا وآلونزو ديل كاستيللو وأندريه دورا نتيز واستينابيكو وعربي أسود أميركا كلها سيراً على الأقدام من فلوريدا إلى شواطىء المحيط الهادي. عراة ومسلوخي الجلد كالثعابين أكلوا العشب البري والجذور والديدان والسحالي أو أي شيء عثروا عليه حياً إلى أن قدّم لهم الهنود الأغطية والتين الشوكي وقرون الذرة مقابل معجزاتهم وعلاجاتهم. أعاد كابيزا دي فاكا أكثر من هندي واحد إلى الحياة بصلاته الربانية وسلامه المريمي وشفى كثيراً من المرضى بشارة الصليب والنفخ على مواضع آلامهم. انتشرت شهرة مجترحي المعجزات في الأرجاء، وجاء كثيرون ليسلموا عليهم على الطرقات واستقبلتهم القرى بالرقص والغناء.

حين شقوا طريقهم جنوباً ظهرت في «سينالو» العلامات الأولى التي تدل على وجود المسيحيين. عثر كابيزا دي فاكا ورفاقه على أبازيم ومسامير لكعوب الأحصنة وعلى أعمدة للربط، أيضاً وجدوا الخوف، وحقولاً مهجورة وهنوداً نزحوا إلى الجبال.

قال كابيزا دي فاكا: «نشعر بالدفء، بعد مسير طويل اقترينا من قومنا».

قال الهنود: «ليسوا مثلكم. تجيئون من حيث تشرق الشمس ويجيئون من حيث تغرب. إنكم تشفون المرضى وهم يقتلون الأصحاء. تمشون عراةً وحفاةً ولستم جشعين مثلهم».

١٥٣٧: روما

- يقول البابا إنهم مثلنا -

يطبع البابا بولس الثالث اسمه والذي يشبه اسم القديس بطرس والقديس بولس، بالختم الرصاصي على مخطوطةٍ ورقية. يَصْدُرُ أمر بابوي رسمي عن الفاتيكان. يوضح أن الهنود بشر ويمتلكون روحاً وعقلاً.

١٥٣٨: سانتو دومينغو

- المرآة -

أحجار تصدر دخاناً ومعاول تلمع تحت شمس الظهيرة. يتعالى زئير في الميناء. أحضرت سفن شراعية كبيرة مدفعية ثقيلة من سيفيل من أجل حصن سانتو دومينغو.

يراقب فرنانديز دي أوفييدو، رئيس البلدية، عملية نقل المدافع. تحت ضرب السياط يُنزل الأرقّاء السود الحمولة بسرعة كبيرة تصّر العربات تحت حمولتها من الحديد والبرونز يتحرك عبيد آخرون جيئةً وذهاباً وسط الصخب ويدلقون سطول الماء على اللهب المتصاعد من محاور العجلات الحامية.

تبحث فتاة هندية عن سيدها وسط الهياج والصخب. كان جسدها مغطى بالبثور وكانت كل خطوة تخطوها نصراً لأن ثيابها الهزيلة تعذب جلدها. عانت طوال الليل ونصف النهار وبصرخات متتالية من حروق بالأسيد أحرقت بيديها جذور شجرة «الغو» فركتها بين يديها وصنعت عجينة دهنت بها جسدها لأن مادّتها تحرق الجلد وتزيل لونه وتحوّل النساء الهنديات والأفريقيات إلى سيدات قشتاليات بيضاوات.

- «ألم تعرفني ياسيدي؟».

يدفعها أوفييدو بعيداً إلا أن الفتاة تلحّ بصوتها الواهن تابعة سيدها كظله وهو يجري ويصدر الأوامر إلى كبار العمال:

- «ألا تعرف من أنا؟».

تسقط الفتاة على الأرض وتتابع: «سيدي، سيدي، أراهن أنك لاتعرف من أنا؟»

١٥٣٨: وادي بوغوتا

- لحية سوداء، لحية حمراء، لحية بيضاء -

ذهب غونزالو خمينيث كويسادا ذو اللحية السوداء والعينين السوداوين منذ عـام ليبحـث عـن منابع الذهب ومنبع نهر «الماجدلينا» وتبعه نصف سكان سانتا مارتا.

عبروا أراضي ومستنقعات كانت تتبخّر تحت أشعة الشمس. حين وصلوا إلى ضفة النهر لم يبق أحد من آلاف الهنود الذين سيقوا ليحملوا المدافع والخبز والملح على قيد الحياة. وبما أنه لم يعـد يوجد عبيد يصطادون لهم طبخـوا الكـلاب وأكلـوا لحـم الأحصنـة. كـان الجـوع أكـثر سـوءاً مـن التماسيح والأفاعي والبعوض. التهموا الجذور وقطع الجلد كانوا يتنازعون على لحـم الموتـى قبـل أن يمنحه الكاهن تاشيرة الذهاب إلى الجنة.

أبحروا في النهر. لسعتهم الأمطار ولم تهـب ريـح لتدفـع الأشـرعة إلى أن قـرّر كويسـادا تغيـير الاتجاه: «يجب أن تكون «ألدورادو» في الجانب الآخر من الجبال وليس عند منبع النهر». هذا ما قاله لهم. وهكذا ساروا عبر الجبال.

بعد أن تسلّقوا كثيراً يقترب كويسادا من الأودية الخضراء لأمـة التشيبشـا. علـى رأس سـبعين فزّاعة تأكلها الحمّى. يرفع سيفه ويعلن أنه سيتوقف عن طاعة أوامر حاكمه.

غادر نيقولاس فيدرمان ذو اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين كوزكو منذ ثلاثـة أعـوام ونصـف ليبحث عن المركز الذهبي للأرض منطلقاً في رحلة عبر الجبال والسهول. كان أول من مات هنـوده ورجاله السود.

حين يصل فيدرمان إلى القمم المكللة بالسحب يشاهد الأودية الخضراء لأمة التشيبشا. بقي معه مائة وسبعون جندياً من الأشباح التي تجرّ أنفسها مغلّفةً بجلود الأيائل. يُقبّلُ فيدرمان سيفه يتّخذ موقعاً ويعلن أنه لن يطيع بعد الآن أوامر حاكمه.

انطلق سيباستيان بينالكازار ذو العينين الرماديتين واللحية التي شيّبها العمـر أو غبـار الطريـق منذ ثلاثة أعوام بحثاً عن الكنوز التي فرّغتها مدينة كوزكو وأحرقتها وحرمتـه منهـا. لم يبـق مـن الهنود والأوروبيين الذين ذهبوا معه سوى مائة وستين شخصاً من الأوروبيين المرهقين. هادمْ المـدن وبانيها، بينالكازار ترك خلفه قافلة من الرماد والدم وعوالم جديـدة ولـدت مـن حـدّ سـيفه حـول المشانق وفي الساحة وحول الساحة والكنيسة والمنازل والمتاريس

تتوهج خوذة الغازي على قمة رؤوس الجبال. يتمّلك بينالكازار الأودية الخضراء لأمة التشيشـيا ويعلن أنه لن يطيع ثانية أوامر حاكمه.

جاء كويسادا من الشمال وجـاء فيدرمـان مـن الشـرق ومـن الجنـوب جـاء بينالكـازار. صليـبٌ وبندقيةٌ، سماءٌ وترابٌ: بعد تجوّل مجنون طويل يهبط القُوّاد الثلاثة المتمردون منحـدرات الجبـال ويلتقون في سهل بوغوتا.

يعرف بينالكازار أن زعماء هذه المنطقة يسافرون على محفّات ذهبية. يسمع فيدرمـان الألحـان العذبة التي تعزفها النسائم على أغطية الذهب المتدلية في المعـابد والقصور. يركـع كويسـادا علـى شاطىء البحيرة حيث يعمّد الكهنة المحليون الذين يغطيهم غبار الذهب أنفسهم.

من الذي سيصل إلى ألدورادو؟ كويسيدا الغرناطي الذي يقول إنه وصل إلى هنا أولاً أم فيدرمـان الألماني الذي يغزو باسم صاحب البنك فيلزر، أم بينالكازار القرطبي؟

تروز الجيوش الثلاثة المقرّحة الجلد والبارزة العظام قوة بعضها وتنتظر.

ينفجر الألماني ضاحكاً ويلتقط الأندلسي العدوى إلى أن ينهار القوّاد الثلاثة ويسقطون أرضاً مـن الضحك والجوع ومن السبب الذي جاء بهم إلى هنا، ذلك الذي هو غير موجود والذي جاء دون أن يصل، معرفة أن ألدورادو لن تكون مُلكاً لأحد.

١٥٣٨: بوكان مسايا

- إله المال: فولكان -

خرجت من فوهة البركان «مسايا» في أزمنة أخرى عجوز عارية تتقن أسراراً كثيرةً وقدّمت نصائح جيدة عن الذرة والحرب. ومنذ أن وصل المسـيحيون ترفض المرأة، كما يقول الهنـود أن تغادر الجبل المشتعل.

يعتقد كثير من المسيحيين أن «المسايا» هو فم الجحيـم وأن توهجاتـه ودخانـه النـاري الأبـدي يعلن العقوبات الأبدية. يؤكد آخرون أن هذه السحابة الدخانيـة السـاطعة التي تُرى على بعـد خمسين فرسخاً صادرة عن الذهب والفضة اللذين يُصهران وينقّيان ويغليان في بطن الجبـل وكلمـا ازداد تأجج النار ازداد نقاؤهما.

أُعدّ للرحلة منذ عام، يستيقظ الأب بلاس ديل كاستيللو بـاكراً جـداً ويسمع اعترافـات بـدرو رويز وبينيتو دافيلا وخوان سانشيز. يتوسّل الأربعة طلباً للغفـران والدمـوع تسـيل مـن أعينهـم ثـم ينطلقون في الصباح.

كان القسيّس هو أولُ من اقترب مرتدياً خوذة وبطرشيلاً[1] على صدره حاملاً صليبـاً في يـده إلى الساحة المستوية الكبيرة التي تحيط بفم اللهب.

يصيح مُسْوَدّاً من الرماد وهو يركز الصليب بين الأحجار: «هذا ليس جحيماً بل جنـة». يتبعـه رفاقه حالاً. يدلي الهنود من الأعلى بكرة سلاسل ومراجل وعوارض خشبية.

يغطسّون المرجل ولايأتي الذهب والفضـة مـن الأعمـاق لاشـيء سـوى خبـث الكـبريت وحـين يغطسون المرجل عميقاً يأكله البركان.

(١) - البطرشيل: نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره في الخدمة.

١٥٤١: سانتياغودي تشيلي

- آنيز سواريس -

اكتشف بدرو دي فالديفيا هذه الهضبة وهذا الوادي منذ بضعة شهور. سمّى الآروكانيون هذه الهضبة التي اكتشفوها منذ آلاف السنين «هويلين» أي الألم. عمدها فالديفيا باسم لوسيا.

من أعلى الهضبة شاهد فالديفيا التراب الأخضر بين ذراعي النهر وقرّر أنه لايوجد في العالم مكان أجمل من هذا لبناء مدينة للحواريّ سانتياغو الذي يرافق الغزاة ويقاتل من أجلهم. قطع الجوّ بسيفه في الجهات الأصلية التي حددتها البوصلة وهكذا ولدت سانتياغو بحدودها الجديدة. إنها تستمتع الآن بصيفها الأول: بُنِيَتْ بعض المنازل من الوحل والأخشاب وسُقِفَتْ بالقش ومُهدَتْ ساحة في الوسط وأحيطت بسور من القضبان المغروزة.

بقي خمسون رجلاً في سانتياغو. يمكث فالديفيا معهم على ضفة نهر «الكاتشابول». حين يشرق الفجر ينفخ الحارس بوق الإنذار من البرج. تقترب فرق خيالة من السكان الأصليين من الجهات الأربع. يسمع الإسبانيون صرخات الحرب ويسقط عليهم حالاً وابل من السهام.

تتحول بعض المنازل ظهراً إلى رماد ويسقط السور يقاتلون جسداً لجسد في الساحة. تركض آنيز إلى كوخ السجن. هناك يقف الحارس الذي يحرس سبعة من الزعماء الآروكانيين الذين أسرهم الإسبان منذ بعض الوقت. تتوسّل إليه وتأمره أن يقطع رؤوسهم.

- «ماذا؟».

- «رؤوسهم».

- «ماذا..».

- «هكذا».

تقبض على سيفه فتطير أربعة رؤوس في الجو. تحوّل الرؤوس المحاصرين إلى مطاردين. لايستدعي الإسبان القديس سانتياغو فحسب بل سيدتنا التي تقدم المساعدة الجيدة أيضاً.

كانت آنيز سواريس المرأة المَلَقية أول من وقّع حين بدأ فالديفيا حملات التطويع في منزله في كوزكو. جاءت إلى هذه الأراضي الجنوبية على رأس القوات الغازية راكبة على حصانها قرب فالديفيا حاملة سيفاً فولاذياً كبيراً مرتدية درعاً من الزرد الرائع ومنذ ذلك الوقت وهي تتقدّم وتقاتل وتنام مع فالديفيا. واليوم أخذت مكانه.

إنها المرأة الوحيدة بين الرجال يقولون إنها مسترجلة. ويقارنونها مع «رولدان» أو «إيل سيد» وتدلك أصابع القائد فرانسيسكو دي آغيري بالزيت. لقد التصقت هذه الأصابع على مقبض سيفه ولايمكن فصلها رغم أن الحرب انتهت.

١٥٤١: صخرة نوشيستلان

- أبداً -

قبضوا حتى على حماره. أولئك الذين يسرقون الآن آنيته الفضية ويدوسون على سجاداته رموه خارج المكسيك بأقدام مغلولة.

بعد عشرة أعوام يستدعي المسؤولون المحارب. يتخلى ألفارادو عن حكم غواتيمالا ويجيء ليطهر هذه الأرض التي فتحها كورتيز من الهنود غير المتنين. يريد أن يتجه شمالاً إلى مدن سيبولا الذهبية السبع، في حمى المعركة يسقط عليه حصان ويرميه عن الجرف.

عاد بدرو آلفارادو إلى المكسيك وفي المكسيك يرقد. تعلق خوذته بغصن ويسقط سيفه بين العلّيق. «*لاتشهرني بدون شرف*»، مايزال يمكن قراءة هذه الجملة على الحدّ الفولاذي.

١٥٤١: مدينة غواتيمالا القديمة

- بياتريس -

تزوّج بدرو آلفارادو من فرانسيسكا إلا أنها ماتت من شاي شربتها في الطريق فتزوج شقيقتها بياتريس.

كانت بياتريس تنتظره في غواتيمالا حين علمت أنها أرملة منذ شهرين. كلّلت بيتها بالسواد من الداخل والخارج وأغلقت الأبواب والنوافذ بالمسامير لتصنع عزلة خاصة تستطيع أن تعبّر فيها عن ألم قلبها.

تبكي وهي تنظر في المرآة إلى جسدها العاري الذي جفّ من الانتظار ولم يعد يمتلك الآن شيئاً ينتظره، هذا الجسد الذي توقف عن الغناء. تبكي من فمها الذي يستطيع أن يقول فقط: «أين أنت يا حبيبي».

تبكي من المنزل الذي تكرهه والأرض التي ليست لها والسنين التي سُفِحَتْ بين المنزل والكنيسة من القداس إلى العشاء من العمادة إلى الدفن محاطة بالجنود السكارى والخدم الهنود الذين يمرضونها. تبكي من الطعام الذي يزعجها ومن أجل الذي لم يأتِ أبداً لأن الحرب قائمة دائماً والغزو مستمر. تبكي من أجل جميع الدموع التي سفحتها وحيدة في فراشها حين تجفل من صياح ديك أو عواء كلب ـ وتعلمت وهي وحيدة أن تقرأ الظلمة وتصغي إلى الصمت وترسم في الهواء. تبكي وتبكي محطمة من الداخل.

حين تخرج من المعتزل تعلن: «أنا حاكمة غواتيمالا».

لاتستطيع أن تحكم طويلاً

يتقيأ البركان شلالاً من الماء والحجارة يغرق المدينة ويقتل كلّ ما يلمسه. يتابع الطوفان تقدمه نحو منزل بياتريس التي تركض إلى الكنيسة وتتجه إلى المذبح وتعانق العذراء. تعانق وصيفاتها قدميها بينما تصرخ بياتريس. «هل أنت هناك ياحبيبي؟».

يدمر الطوفان المدينة التي بناها ألفارادو وبينما هو يزأر بصوت أكثر علواً تستمر بياتريس بالصراخ: «هل أنت هناك؟».

١٥٤١: كابو فريو

- في الفجر، غنّى الجندب -

كان صامتاً منذ أن أصعدوه إلى السفينة في ميناء كاديز. أمضى شهرين ونصفا صامتا وحزيناً في قفصه الصغير واليوم رنّت صرخة فرح من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها وأيقظت الجميع.

- «معجزة! معجزة!».

كان يوجد فقط وقت تستطيع فيه السفينة أن تغيّر اتجاهها. كان الجندب يحتفل باقتراب اليابسة. شكراً للجندب الذي أنقذ البحارة من تحطّم مؤكد على صخور الشاطىء البرازيلي.

يمتلك كابيزا فاكا الذي يقود هذه الرحلة خبرة جيدة بهذه المسائل. سمّوه آلفار مجترح المعجزات منذ أن عبر أميركا من شاطىء إلى آخر ليحيي الأموات في القرى الهندية.

١٥٤٢: كويتو

- الدورادو -

خاض رجال غونزالو بيزارو لوقت طويل في عمق الأدغال بحثاً عن الأمير ذي الجلد الذهبي وأيكات القرفة صادفوا ثعابين وخفافيش وجيوشاً من البعوض، مستنقعات وأمطاراً لاتتوقف أبداً. كان البرق يلمع ليلة بعد أخرى ليضيء طريق هذه القافلة من الرجال العراة الذين يرهقهم السُعار.

يصلون بعد الظهر إلى محيط كويتو هياكلَ عظميةً متقرّحةً ويتفوّه كل منهم باسمه ليتمّ التعرّف عليه. لم يعد من هذه الرحلة أربعة آلاف عبدٍ هندي ذهبوا معهم.

يركع القائد غونزالو ويقبّل الأرض. رأى البارحة في حلمه تنّيناً ينقضّ عليه ويمزقه إرباً ويأكل قلبه. وهذا يمنعه من النوم الآن بعد أن نقلوا إليه الأنباء:

«لقد اغتيل شقيقك فرانسيسكو في ليما».

١٥٤٢: كونلابيارا

- الأمازونيات -

لم يكن مسار المعركة سيئاً في هذا اليوم، يـوم القديـس جـون، وسـط طلقـات البنـادق وأقـواس النشاب كان رجال فرانسيسكو أوريلانـا يفرغـون القـوارب البيضـاء القادمـة مـن الشـاطىء. إلا أن السحرة كانوا في الممرّ الحربي. ظهرت المرأة المحاربة فجأة جميلـة بشـكل فضـائحي وشرسـة ثـم غطّت الزوارق بعد ذلك النهر. هربت السفن عكس التيـار كالشّـياهم مذعـورة مغطـاة بالسـهام مـن المقدمة إلى المؤخرة بما فيه الصواري الرئيسية.

كانت هذه المرأة السليطة المشاكسة تضحك وهـي تحـارب واجهـت هـؤلاء النسـوة العظيمـات الجاذبية والجمال الرجال ولم يعد يوجد خوف في قرية كونلابيار. قاتلن وهـن يضحكـن ويرقصـن وصدورهن ترتعش في النسيم إلى أن ضاع الإسبان خلف فم نهر تاباخوس مرهقين من الجهد الكبـير ومن الدهشة.

لقد سمعوا حكايات عن هؤلاء النساء وهـم يصدقونهـا الآن. إنهـن يعشـن في الجنـوب في أرض تخلو من الرجال إذا ولد الأطفال ذكوراً يتم إغراقهـم، وحـين يجـوع الجسـد يشـنون حربـاً علـى القبائل الساحلية يأخذون الأسرى ويعيدونهم في اليوم التالي. بعـد ليلـة مـن ممارسـة الحـب ذلـك الذي يذهب شاباً يعود عجوزاً.

سيتابع أوريلانا وجنوده الإبحار في أقوى أنهار العالم ويصل إلى البحر بدون قبطـان أو بوصلـة أو خريطة. يبحر في المركبين الذين دعماً في وسط الغابة ويندفع عـبر نهـر الأمـازون عـبر الأدغـال ولايمتلك أحد القدرة على التجديف. يصلون طالبين من الله أن يجعل عدوهم التـالي رجـالاً مهمـا كان عددهم.

١٥٤٢: نهر إغوازو

- في وضع النهار -

محترقاً تحت لباسه الحديدي، متألماً من الجراح والعضّ يترجّل آلفار نونيزكابيزا دي فاكا عن حصانه ويرى الله للمرة الأولى.

ترفرف فراشات كبيرة حوله. يركع كابيزا فاكا أمام شلالات «إغوازو». زئير ومياه زبدية تهبط من السماء لتغسل دم جميع القتلـى ولتشـفي جميـع الصحـارى. جـداول تتحـول إلى أبخـرة حـرة وأقواس قزح تسحب الأدغال من أعماق الأرض الجافـة، الميـاه الـتي تجـأر، مـنيّ الله، تخصـب الأرض، مياه يوم الخلق الأول الأبدي.

عبرَ كابيزا دي فاكا نصف العالم سيراً على الأقدام وأبحر ليعبر النصف الآخر كي يعثر على مطر الله هذا عانى حوادث التحطم والآلام من أجل أن يقابله، ولكي يراه ولد وله عيناه في وجهه. وما سيبقى له من الحياة سيكون هبة.

١٥٣٤: كوباغوا

ـ صائدو اللؤلؤ ـ

سقطت مدينة كاديز الجديدة بعد أن دمرها الزلزال البحري والقراصنة. وسابقاً سقطت الجزيرة كلها، جزيرة كوباغوا هذه التي باع فيها كولومبس منذ خمسةٍ وأربعين عاماً الهنود صحوناً مكسورة مقابل اللآلئ. بعد عمليات صيد كثيرة ينفد المحار ويستلقي صيادو اللؤلؤ في قاع البحر.

كان الهنود الأرقاء يجبرون على الغوص في المياه بعد أن تربط صخور على ظهورهم لكي يصلوا إلى الأمكنة التي تتواجد فيها أكبر اللآلئ ومن شروق الشمس إلى شروقها يسبحون دون أن يستريحوا ويجمعون المحار الملتصق بالصخور وفي القيعان.

لم يستمر أي عبد وقتاً طويلاً، لأن الرئة ستنفجر عاجلاً أم آجلاً ويصعد إلى الأعلى جدول من الدم بدل الغوّاص. قال الرجال الذين اصطادوا هؤلاء العبيد أو اشتروهم: «إن البحر أصبح أحمرَ لأن المحار يحيض مثل النساء».

١٥٤٤: ماشو بيتشو

ـ العرش الحجري ـ

من هنا هيمن مانكو آنكا على أراضي فيلكا بامبا. من هنا شنّ حرباً طويلةً قاسيةً، حربَ غاراتٍ وحرائق. لايعرف الفاتحون الغزاة المتاهات التي تؤدي إلى القلعة السرية ولايعرف مسالكها أيّ عدو آخر.

استطاع القائد دييغو منديز فقط أن يصل إلى المخبأ. جاء هارباً بعد أن اخترق سيفه حنجرة فرانسيسكو بيزارو بأمر من ابن ألماغرو. منحه مانكو آنكا اللجوء السياسي، إلا أن دييغو مانديز يطعن آنكا بخنجر في ظهره.

بين حجارة ماشو بيتشو حيث تمنح الأزهار المتلألئة العسل لكل من يرويها يرقد الآنكي في ثياب جميلة.

- النشيد الحربي الآنكي -

سنشرب من جمجمة الخائن
ونصنع عقداً من أسنانه
وأبواقاً من عظامه
وطبلاً من جلده
ثم سنرقص.

١٥٤٤: كامبيتش

- لاس كاساس -

ينتظر لبعض الوقت في الميناء مع الحرارة والبعوض. يتجول على رصيف المرفأ حافياً يصغي إلى مدّ البحر وجزره وإلى صوت عكازه على الأحجار. لاأحد لديه كلمة يقولها لهذا الأسقف الذي كُرِّس حديثاً في شياباس.

هذا هو الرجل المكروه جداً في أميركا والذي يعتبره الأسياد والمستعمرون ضدّ المسيح وبلاء هذه الأراضي. إنه مسؤول عن تطبيق قوانين الإمبراطور الجديدة التي تمنع أبناء المستعمرين من اقتناء العبيد الهنود. ماالذي سيحدث لهم دون الأيدي التي تغذيهم في المناجم والمزارع؟ إن القوانين الجديدة تأخذ الطعام من أفواههم.

إنه الرجل المحبوب جداً في أميركا وصوت من لاصوت لهم والمدافع العنيد عن أولئك الذين يتلقون معاملة سيئة أكثر من الروث المكوّم في الساحات، الذي يشجب الذين يحولون المسيح إلى أكثر الآلهة قسوة والملك إلى ذئب جائعٍ للحم البشر.

حالما وصل إلى كامبيشي أعلن بارتولومي دي لاس كاساس أن أي مالك للهنود لن يُغفر له في الاعتراف. أجابوه أن أوراق اعتماده كأسقف لاقيمة لها كالقوانين الجديدة لأنها جاءت مطبوعة وليست مكتوبة بخط ناسخ الملك. هدّدهم بالحَرْم الكنسي فضحكوا. تعالى زئير ضحكهم لأنه كان من المعروف أن فراي بارتولومي أصم.

في ذلك المساء وصل مبعوث من مدينة شياباس الملكية. أرسلت حكومة المدينة تقول إنه لايوجد شيء في خزائنها لتمويل رحلة الأسقف إلى أبرشيته، أرسلت له بعض القطع النقدية من النقود المخصصة لعمليات دفن الموتى.

١٥٤٤: ليما

ـ كارفاجال ـ

يمنح ضوء الفجر شكلاً ووجهاً للظلال التي تتدلى من مصابيح الساحة. يتعرّف أحد المستيقظين باكراً بخوف على فاتحين من العهد القديم من أولئك الذين أسروا آتاهوالبا في كاجمركا يتأرجحان بلسانين ناتئين وأعين جاحظة.

قرع طبول وأصواتُ حوافر: تثب المدينة مستقيظة. يصيح منادي القرية ملء رئتيه وإلى جانبه فرانسيسكو كارفاجال يملي ويصغي يعلن المنادي أن جميع أرستقراطيي ليما الرئيسيين سيشنقون مثل هذيْن الإثنين إذا لم يقبل المجلس تعيين غوانزليس بيزارو حاكماً. ولقد حدّد كارفاجال القائد الميداني للتمرد الظُهْر كآخر موعد لذلك.

«كارفاجال!».

قبل أن يتلاشى الصدى ارتدى قضاة المحكمة الملكية وبعض أعيان المدينة بعضاً من ثيابهم وانطلقوا بشكل فوضوي إلى القصر ووقّعوا دون أي نقاش الأمر الذي جعلَ غونزاليس بيزارو صاحب سلطة مطلقة.

إلا أن الأمر كان يحتاج إلى توقيع المحامي «زاراتي» الذي مسّد رقبته وتردّد بينما كان الآخرون ينتظرون منبهرين ومرتجفين يسمعون أو يظنون أنهم يسمعون لهاث الجياد ولعنات الجنود الذين احتلوا الميدان والمتلهفين للهجوم.

توسّلوا إليه: «تحرّك بسرعة».

يفكّر «زاراتي» بالمهر الذي تركه لابنته العازبة تيريزا وتقدماته الكريمة للكنيسة التي تملك أكثر مما دفع من أجل حياة أكثر هدوءاً من هذه.

ـ «ماذا ينتظر حضرتكم».

ـ «إن صبر كارفاجال قصير».

خاض كارفاجال أكثر من ثلاثين حرباً في أوروبا وعشر حروبٍ في أميركا. قاتل في رافينا وبافيا وكان موجوداً أثناء نهب روما. قاتل مع كورتيز في المكسيك ومع فرانسيسكو بيزارو في البيرو وعبر سلسلة الجبال ست مرات.

«شيطان الآنديز».

إنه عملاق يُعرف عنه أنه ينزع الخوذة والدرع في وسط المعركة ويعرض صدره. إنه يأكل وينام على حصانه.

ـ «هدوءاً ياسادة هدوءاً».

ـ «سيتدفّق الدم البريء».

- «لايوجد وقت نضيّعه».

تخيّم ظلال المشنقة على ألقاب النبالة التي حُصل عليها حديثاً.

- «وقّع ياسيدي. دعنا نتجنب مآسي أخرى للبيرو».

يغمس زارتي ريشة الأوزة، يرسم صليباً وتحته يخطّ قبل أن يوقّع: «أقسم بالله وبهذا الصليب وبكلمات القدّيسين المبشرين أنني أوقع لثلاثة أسباب: الخوف ثم الخوف ثم الخوف».

١٥٤٥: مدينة شياباس الملكية

- الأنباء السيئة تأتي من فالادوليد -

ألغى التاج مفعول القوانين الجديدة الهامة التي تعتق الهنود. من لاحظ أنها طُبّقت حين كانت سارية المفعول لمدة ثلاثة أعوام؟ واقعياً حتى الهنود الذين وضعت عليهم علامة الحرية استمروا عبيداً.

- «من أجل هذا قالوا لي إنني على حق؟».

يشعر فراي بارتولومي أن الله تخلى عنه وأصبح ورقة لاتستند على غصن ووحيداً.

«قالوا لي نعم بحيث لايتغيّر أي شيء والآن حتى ورقة لن تحمي الذين لايمتلكون درعاً سوى أحشائهم. هل تلقّى الملوك العالم الجديد من البابا من أجل هذا؟ هل الله مجرّد حجّة؟ أيأتي ظل الجلاد من جسدي؟».

مغطّى بشرشف، يكتبُ رسالةً إلى الملك فيليب يعلن فيها أنه سيزور «فالادوليد» دون أن ينتظر أذناً من أحد.

ثم يركع على الأرض مواجهاً الليل ويصلي صلاة ابتكرها لنفسه بصوت مرتفع.

١٥٤٦: بوتوسي

- فضة بوتوسي -

قُتل خمسون هندياً لأنهم رفضوا أن ينقبوا عن الفضة. قبل أقلّ من عام على اكتشاف العرق الأول صُبغَتْ منحدرات الجبال بالدم البشري، وعلى بعد فرسخ من هنا تظهر على صخور الوهاد البقع الخضراء المسوّدة لدم الشيطان. أغلق الشيطان بإحكام الوادي الضيّق الذي يؤدي إلى «كوزكو» وحطّم الإسبان الذين مروا من ذلك الطريق. أخرج ملاك كبير الشيطان من كهفه وحطّمه على الصخور. والآن كثر العمل في مناجم فضة بوتوسي وفتح الطريق إليها.

قبل الغزو وفي أيام الآنكا «هواينا كاباك» حين كانت المعاول تحفر في شرايين الجبل الفضّية، هز العالم زئير مخيف ثم قال صوت الجبل للهنود: «*سيكون لهذه الثروة ملّاك آخرون*».

١٥٤٧: فالباريسو

- الفراق -

يطنّ الذباب فوق بقايا الوليمة. لاتساعد الخمرة كلها ولاحرارة الشمس السكارى على النوم. القلوب تخفق بسرعة هذا الصباح في ظل الشجرة التي تواجه البحر. يوّدع بدرو فالديفيا الذين هم على وشك أن يغادروا. بعد الحرب الطويلة والجوع في براري تشيلي سيعود خمسة عشر شخصاً من رجاله إلى إسبانيا، تنحدر دمعة على خد فالديفيا حين يتذكر الأعوام المشتركة، المدن التي احترقت بلا سبب، الهنود الذين أخضعتهم رماح الإسبان الحديدية.

يقول كلمات تبعث الدفء: «إن عزائي الوحيد هو معرفة أنكم ستستريحون وتستمتعون بما تستحقونه وهذا على الأقل يهدىء حزني قليلاً».

كانت الأمواج تهدهد السفينة التي ستأخذهم إلى البيرو في مكان قريب من الشاطىء. من هناك سيبحرون إلى إسبانيا عبر بنما، إلى البحر الآخر وبعد ذلك... ستكون رحلة طويلة إلا أن تمديد الأرجل. يجعل المرء يشعر وكأنه يمشي على أرصفة ميناء سيفيل. حُمّل الذهب والأغراض الأخرى والثياب على السفينة منذ البارحة. سيأخذ الناسخ خوان بينل معه ثلاثة آلاف بيزو ذهباً من تشيلي.. تبع فالديفيا كظله حاملاً أوراقه وقلمه ومحبرته شاهداً على كل خطوة خطاها ومنحَ قوة القانون لكل فعل قامَ به. هدّدهم الموت مرات عديدة. ستفعل هذه الثروة الصغيرة أكثر من تسوية الموقف لبناته المراهقات اللواتي ينتظرنه في إسبانيا البعيدة.

كان الجنود يحلمون بصخب حين قفز شخص ما وصرخ: «أين فالديفيا؟».

كان فالديفيا يتضاءل وهو يجذف مبتعداً في القارب الصغير متجهاً نحو السفينة المحمّلة بذهب الجميع.

كانت اللعنات والتهديدات تحجب صخب الأمواج على شاطىء فالباريسو.

كانت الأشرعة ترتفع وتتحرك في اتجاه البيرو. يريد فالديفيا أن يصبح حاكم تشيلي و يأمل بأن يُقْنِع القادة في ليما بالذهب الذي يحمله معه وبقوة ذراعه.

يُمْسِك الناسخ (خوان بينل) رأسه وهو جالس على صخرة غير قادر على التوقف عن الضحك. بناته سيمتن عذراوات في إسبانيا. يبكي بعض الرجال وقد أصبح لونهم قرمزياً من الغضب بينما يعزف البوّاق آلونزو دي توريس لحناً نشازاً قديماً ثم يحطم البوق الذي كان كلّ ما ترك له.

- أغنية الحنين -

من كتاب الأغاني الإسباني

أنا مشتاق إليكِ
أيتها البلاد التي أرضعتني.
وإذا كنت سأموت منحوساً
ادفنيني عالياً في الجبال
كي لا يفقد جسدي المقبور
البلاد التي أشتاق إليها كثيراً.
ادفنيني عالياً قدر ما تتحملين
لأرى إذا كنت أقدر أن أشاهد من هناك.
البلاد التي ذرفت من أجلها دمعة.

١٥٤٨: هاكوي هاكوانا

- انتهت معركة هاكوي هوكوانا -

غونزالو بيزارو الذي يُعْتَبَرُ أفضل رمّاح في أميركا والذي يستطيع أن يشقّ بعوضةً وهي تطير بطلقة بندقية أو سهم يسلّم سيفه إلى بدرو ديلاكاسكا.

ينزع بدرو درعه المصنوع من الفولاذ الميلانيّ ببطء. يُرْسَل لاكاسكا في مهمة لقصّ جناحيه ويتوقّف زعيم المتمردين عن حلمه بأن يصبح ملكاً على البيرو. إنه يحلم فقط بأن يعفو عنه لاكاسكا.

يدخل بدرو دي فالديفيا إلى خيمة المنتصرين بعد أن حاربت المشاة تحت أوامره.

يقول كاسكا: «إن شرف الملك في يديك أيها الحاكم»

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوه فيها ممثّل الملك حاكماً لتشيلي. يشكره فالديفيا بانحناءة كان هناك أشياء أخرى سيطلبها ولكن حين فتح فمه ليتكلم دخل الجنود محضرين القائد الثاني لغونزالو بيزارو. يدخل القائد كارفاجال حاملاً خوذته المريّشة بشكل يلفت النظر ولايجرؤ آسروه على لمسه.

كان كارفاجال هو الضابط الوحيد الذي لم يتخلّ عن بيزارو حين عرض لاكاسكا إعفاء الملك عن المتمردين الذين يعلنون توبتهم. انتقل ضباط وجنود كثيرون بسرعة مع أحصنتهم إلى المعسكر الآخر. بقي كارفاجال وقاوم إلى أن جرّدوه من حصانه.

قال دييغو سينتينون، قائد الجنود المنتصرين: «كارفاجال، لقد سقطت بشرف ياكارفاجال».

لاينظر إليه العجوز.

يقول سينتينون وهو يمد يده ليتلقى سيفه: «هل تتظاهر بأنك لاتعرفني؟».
يجيب كارفاجال الذي هزم سينتينون أكثر من مرة ودفعه إلى الهرب وطارده عبر نصف البيرو: «أعرفك من ظهرك فقط».
ثم يعطي سيفه لبدور دي فالديفيا.

١٥٤٨: هاكوي هاكوانا

- الجلّاد -

يصل كارفاجال مقيداً بالحبال والأغلال داخل سلة كبيرة تجرّها البغال. وسط سحب الغبار وصرخات الكراهية يغني المحارب القديم. يخترق صوته الأجش صخب الشتائم، متجاهلاً الرفسات وضربات أولئك الذين صفّقوا له البارحة ويبصقون اليوم في وجهه.

يالها من خرافة!
طفلٌ في مهد
عجوز في مهد
يالها من خرافة!

يغني في السلّة التي تجعله يتخبّط. حين تصل البغال إلى الساحة يرمي الجنود كارفاجال عند قدمي الجلاد. يزأر الحشد حين يشهر الجلاد سيفه ببطء.

يطلب كارفاجال: «أيها الأخ جوان، بما أننا اشتغلنا في نفس التجارة عاملني كما يعامل خياط خياطاً آخر».

خوان انركويز هو اسم الشاب اللطيف الوجه. كان له اسم آخر في سيفيل حين كان يتجول على رصيف المرفأ حالماً بأن يكون جلّاد الملك في أميركا. يقولون إنه يحب هذه المهنة لأنها تزرع الخوف ولايوجد سيدٌ مهم أو محاربٌ عظيم لايتنحى جانباً حين يمرّ قربه في الشارع. يقولون أيضاً إنه منتقم محظوظ. إنهم يدفعون له ليقتل ولايصدأ سلاحه أبداً ولاتتلاشى ابتسامته:

الجدّ المسكين!
الجدّ المسكين!

يطنّ صوت كارفاجال منخفضاً وحزيناً لأنه تذكر لتوه حصانه بوسكانيللو الذي هو أيضاً عجوز مهزوم، تذكر كيفَ كانا يفهمان بعضهما.

يمسك خوان إنركويز لحيته بيده اليسرى وباليمنى يقطع رأسه بضربة واحدة.
يشتعل التصفيق تحت الشمس الذهبية.

يرفع الجلاد رأس كارفاجال الذي كان يبلغ الرابعة والثمانين من العمر والذي لم يغفر أبداً لأي شخص.

١٥٤٨: هاكوي هاكوانا

- حول أكل لحوم البشر في أميركا -

منذ أن حضر فرانسيسكو بيزارو مرتدياً ثياب الحزن جنازة ضحيته آتاهوالبا نجح عدة رجال في قيادة المملكة الآنكية الواسعة الأرجاء وفرض القوة عليها.

ثار دييغو دي ألماغرو الذي كان يحكم جزءاً من تلك الأرض ضدّ فرانسيسكو بيزارو حاكم الجزء الآخر. أقسم الإثنان بخبز القربان المقدّس بأنهما سيتقاسمان الألقاب والهنود والأراضي دون أن يأخذ أحدهما أكثر من الآخر. كان بيزارو يريد هذا التمرد فانتصر عليه وقطع رأسه.

انتقم ابن ألماغرو لأبيه وعيّن نفسه حاكماً على جثة بيزارو، إلى أن أرسله إلى المشنقة كريستوبال فاكادي كاسترو الذي مرّ ذكره في التاريخ على أنه الشخص الوحيد الذي نجا من المشنقة أو البلطة أو السيف.

ثار فيما بعد غوانزالو بيزارو شقيق فرانسيسكو ضدّ بلاسكو نونيز فيلا ــ النائب الملكي الأول للبيرو. سقط نونيز فيلا عن حصانه مصاباً بجرح بليغ. قُطع رأسه وعُلّق على رمح.

كان غونزالو بيزارو على وشك أن يعيّن نفسه ملكاً. يهبط في يوم الإثنين، التاسع من نيسان، المنحدر الذي يؤدي إلى الساحة راكباً على بغل. أوثقوا يديه خلف ظهره ورموا عليه رداءً أسود ليغطي وجهه ويمنعه من أن يشاهد جسد فرانسيسكو كارفاجال الذي يخلو من الرأس.

١٥٤٨: كوانا جواتا

- ولادة مناجم كوانا جواتا -

- «سلام الله عليك ياأخي!»

- «وعليك السلام أيها المسافر».

تبادل الرجلان الراكبان على ظهر بغلين والقادمين من مدينة المكسيك التحية وقررا أن يتوقفا ليستريحا. خيّم الليل. أولئك الذين ينامون نهاراً يراقبونهما من الظلال.

- «أليس هذا جبل كيوبيليت؟».

- «بوسعك أن تسميه جبل الملعون».

سيذهب مايس بدرو ومارتن رودريغو إلى زاكاتيكاس ليبحثا عن ثروة في المناجم. أحضرا معهما ما يمتلكانه وبعض البغال ليبيعوها بسعر جيد. سينطلقان إلى وجهتيهما عند بزوغ الفجر.

يجمعان بعض الأغصان فوق موضع توجد فيه أعشاب جافة ويحيطونها بالأحجار حين يضرب الصوان الفولاذ تنقدح الشرارة وإلى جانب النار يروي راكبا البغلين قصصهما عن حظهما السيء وبينما هما مستغرقان في ذلك مغلفين بالثياب الرّثة والحنين يصرخ أحدهما: «إنها تشّع؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «الأحجار».

يقفز مارتين رودريغوفي في الجو مشكلاً نجمة خماسية قذرة إزاء السماء التي يضيئها القمر بينما يكسر مايبس بدرو أظافره على الصخور الحارة ويحرق شفتيه وهو يقبّلها.

١٥٤٩: لاسيرينا

ـ العودة ـ

يرسي بدرو دي فالديفيا في كوينتيرو وتفاجئه حالاً الرائحة الأسيدية للجيف.

حمل فالديفيا في البيرو وزناً يساعده على تجنب المصائد وتجاوز الشكوك والأعداء. برهنت قوة ذراعه التي وضعت في خدمة الملك بالإضافة إلى توهج الذهب الذي سرقه من رجاله على شاطىء فالباريسو أنها بليغة جداً للرجال القادة في ليما. يعود بعد عامين حاملاً لقب حاكم تشيلي موقعاً ومختوماً. يلتزم أن يعيد الذهب إلى آخر غرام منه ويلتزم التزاماً آخر يأكل قلبه. بما أنه مُنح لقبه الجديد يجب أن ينهي علاقته مع آنيز سواريز ويحضر زوجته الشرعية من إسبانيا.

لاتستقبله تشيلي بابتسامة: في مدينة لاسيرينا هذه التي عمّدها باسم مسقط رأسه يستلقي الإسبان مقطوعي الأيدي والرؤوس بين الدمار. إن قصص حياته الساحرة لاتهمّ العقبان.

ـ المرة الأخيرة ـ

يظهرُ خط متموج في الضباب الأسود عند بزوغ الفجر ويفصل الأرض عن السماء.

تخلص آنيز التي لم تنم، نفسها من ذراع فالديفيا وتستلقي على مخدتها. لقد شبعت منه وتنبض كل زاوية صغيرة من جسدها بعنفوان الحياة، تنظر إلى يدها في الضوء الضبابي الأول، تخيفها أصابعها: إنها تشتعل. تبحث عن الخنجر. ترفعه. فالديفيا نائم ويشخر. يتردّد الخنجر في الجو فوق الجسد العاري.

تمرّ قرون.

أخيراً تخبىء الخنجر داخل المخدة بهدوء قرب وجهه. تخرج على رؤوس أصابع قدميها من الفراش محولة امرأة الفراش إلى امرأة حرة.

١٥٥٢: فالآدوليد

- الذي كان يتلقى الأوامر دائماً يصدرها الآن -

تُقبّل المرأة سبيكة الفضة بشفتيها، بجبهتها، بثدييها بينما يقرأ الكاهن بصوت مرتفع رسالة من زوجها خوان برييتو مؤرخة في بوتوسي. احتاجت الرسالة والسبيكة عاماً كاملاً تقريباً لتعبر المحيط وتصل إلى فالادوليد.

يكتب خوان برييتو أنه بينما كان الآخرون يمضون وقتهم في البارات وحلبات مصارعة الثيران، لم يُمْضِ وقته في البارات أو ساحة مصارعة الثيران، وأن الرجال في بوتوسي يضعون أيديهم على سيوفهم عند أدنى إثارة وأنه يوجد عواصف رملية تخرب الملابس وتجنن الروح، وأنه لايفكر سوى بالعودة إلى إسبانيا وأنه يرسل سبيكة الفضة الكبيرة من أجل بناء حديقة ليتم فيها حفل استقباله حين يعود إلى الوطن.

يجب أن يكون للحديقة بوابة حديدية مزدوجة وقوس حجري عريض يُمكّن المدعوين إلى الحفلة من الدخول بعرباتهم ويجب أن تُسوّر الحديقة بحائط مرتفع دون أية فتحة وأن تمتلأ بالأشجار والأزهار والأرانب والحمام ويجب أن تنصب طاولة كبيرة في الوسط تزوّد بالأطعمة لأرستقراطيي فالادوليد الذين اشتغل لديهم سابقاً كخادم. يجب أن تفرش سجادة على العشب قرب رأس الطاولة لتجلس عليها زوجته وابنته سابينا.

يؤكد لزوجته بشكل خاص ألا تشيح بصرها عن سابينا وأن تمنع حتى الشمس عن لمسها وذلك لأنه سيمنحها مهراً عالياً ويزوّجها زواجاً حسناً ولهذا السبب أمضى كل تلك السنين في الآنديز.

١٥٥٣: ضفة نهر سان بدرو

- ميغيل -

التصقت قطع كثيرة من جلده بالسوط. اتهموه بالتباطؤ في العمل أو بفقدان إحدى الأدوات، قال مراقب العمال: «ليدفع من جسده». وحين كانوا على وشك تقييده من أجل لسعات سوط أخرى حمل ميغيل سيفاً وفرّ إلى الغابات.

فرّ عبيد آخرون من مناجم بورما وانضمّ بعض الهنود إلى الهاربين. هكذا ولد الجيش الصغير الذي هاجم العام الماضي المناجم ومدينة باركو يزيميتو الجديدة.

ثم توجّه المتمردون إلى الجبال وبعيداً عن كل شيء أسّسوا مملكة حرة على ضفاف النهر. صبغ هنود «الجيرايجارا» أنفسهم باللون الأسود من رؤوسهم إلى أقدامهم وسوية مع الأفارقة عيّنوا «ميغيل» ملكاً.

تتنقل الملكة «غيومار» بروعة بين أشجار النخيل وتصدر تنورتها الجميلة المصنوعة من البروكار حفيفاً. ترافقها وصيفتان ترفعان طرف لباسها الحريري.

جالساً على عرشه الغابي يأمر ميغيل بحفر الخنادق وبناء الأسيجة يُنَصِّب مسؤولين ووزراء ويعيّن رجاله الأكثر معرفة أساقفة.

يقول «ميغيل» حين يسوي أحد رجال الحاشية طوقه المخرّم، ويبسط آخر أكمام سترته العسكرية: «مملكتي مستديرة ومروّية».

كان الجنود الذين سيقتلون ميغيل ويزيلون مملكته يُجَهَّزُون في «توكويو» تحت قيادة دييغو دي لوسادا. سيجيء الإسبان مسلحين بالبنادق والكلاب وأقواس النشّاب. سيفقد السود والهنود الذين يبقون على قيد الحياة آذانهم أو سَيُخصَون وتقطع أوتار أقدامهم ليكونوا عبرة لكل فنزويلا.

- حلم بدرو دي فالديفيا -

يرفرف ضوء المشاعل في الضباب. يعلو صوت المهاميز التي تقدح الشرر من الرصيف على أرض استعراض ليست في تشيلي ولا في أي مكان آخر. في الرواق، صف من نبلاء الحاشية، أردية سوداء طويلة وسيوف مشدودة إلى الخصور وقبّعات مريّشة. حين يعبر بدرو دي فالديفيا يركع كل واحد من الرجال وينزع قبعته. حين يزيلون قبعاتهم، يزيلون رؤوسهم معها.

١٥٥٣: توكابل

- لوتارو -

ضربت حمى الحرب كلّ مكان في تشيلي.

على رأس الآروكانيين تتموج العباءة الحمراء «لكوبوليكان»، العملاق الذي يستطيع أن يقتلع شجرة من جذورها.

يهجم الفرسان الإسبان. ينفتح جيش كوبوليكان كمروحة، يجعل الفرسان يدخلون، يطبق الفكّين ويلتهمهم من الجانبين.

يرسل فالديفيا كتيبة ثانية فتتبعثر أمام جدار آلاف الرجال. عندئذ يهاجم مع أفضل جنوده. يهجم بسرعة كبيرة، صارخاً حاملاً رمحاً بيده وينهار الآروكانيون أمام هجومه البرقيّ.

في هذه الأثناء، وعلى رأس الهنود الذين يخدمون الجيش الإسباني، ينتظر لوتارو إلى جانب تلّ.

- «أي نوع من الجبن هذا؟ أيّ عار يلحق ببلادنا؟».

كان لوتارو حتى هذه اللحظة خادم فالديفيا. في ومضة غضب يعلن الولاء ويختار الخيانة. ينفخ بالمزمار المعلّق على صدره ويشنّ هجوماً بسرعة كبيرة. يفتح ممراً إلى اليمين واليسار بالضربات، يشق الدروع ويجبر الخيول على الركوع، إلى أن يصل إلى فالديفيا فيحدق به في عينيه ويسقطه.

لم يصل بعد إلى سن العشرين هذا القائد الجديد للآروكانيين.

١٥٥٣: توكابيل

- فالديفيا -

تقام حفلة حول شجرة القرفة.

يراقب المهزومون الذين يرتدون ثياب الأسود رقصات المنتصرين الذين يرتدون الخوذ والدروع. يرتدي لوتارو ثياب فالديفيا، السترة الخضراء المطرزة بالذهب والفضة، الدرع المشعّ، والخوذة ذات المقدمة الذهبية المرصّعة بالزمرّد والريش الرشيق.

يودّع فالديفيا العالم عارياً.

لم يخطىء أحد. هذه هي الأرض التي اختار فالديفيا أن يموت فيها منذ ثلاثة عشر عاماً حين غادر «كوزكو» يتبعه سبعة إسبان على ظهور الأحصنة وألف هندي على الأقدام. لم يخطىء أحد سوى «دونا مارينا» الزوجة التي تركها خلفه في استريمادور، والتي قرّرت بعد عشرين عاماً أن تعبر المحيط وهي الآن على ظهر سفينة مع حاشية تليق برتبتها كزوجة حاكم، مع عرش فضي وفراش مخملي أزرق وسجّاد وكل بطانتها من الأقرباء والخدم.

يفتح الآروكانيون فم فالديفيا ويملأونه بالخراء. يجبرونه على بلع الخراء حفنة إثر حفنة. يملأون جسمه بالتربة التشيلية حين يقولون له: «تريد الذهب؟ كل الذهب. أتخم نفسك بالذهب».

١٥٥٣: بوتوسي

- الحسناء ورئيس البلدية -

لوكان يوجد في بوتوسي مستشفى ومرّت أمام الباب سيشفى المرضى. إلا أن هذه المدينة، أو مجموعة البيوت، التي ولدت في أقل من ستة أعوام لاتملك مشفى.

نما معسكر المناجم بجنون ويحتوي الآن عشرين ألف روح. في كل صباح ترفع سقوف جديدة من قبل مغامرين يجيئون من كل مكان، يدفشون ويطعنون بعضهم بحثاً عن ثروة سهلة. لايبحث أحد في شوارعها الترابية عن فرصة بدون سيف ودرع جلدي ومحكوم على النساء أن يعشن وراء المصاريع والأقل دمامة بينهنّ يجازفن مجازفة خطيرة وبينهن، ليس هناك بديل للحسناء ـــ التي هي عانس قبل أي شيء ـ إلا أن تعزل نفسها عن العالم. تظهر فقط عند بزوغ الفجر لحضور القدّاس ومعها مرافقة كبيرة، لأن مجرّد رؤيتها تجعل أي شخص يتوق إلى ابتلاعها إما بلقمة واحدة أو رشفة بعد أخرى وتجعل الذين يحملون سلاحاً بيد واحدة يصفقون.

شاهدها رئيس بلدية المدينة دون دييغو دي إسكيفال. يقولون لهذا السبب يخرج بابتسامة عريضة وكل العالم يعرف أنه لم يبتسم منذ ذلك اليوم البعيد في طفولته حين آذى عضلات وجهه وهو يحاول ذلك.

ـ رجل أعمى يغني لها
تلك التي تنام وحيدة
على ألحان الأرغن اليدوي ـ

سيدتي
لماذا تنامين وحيدة
حين يكون بوسعك النوم مع شاب
يرتدي بنطالاً
أزراره مصقولة،
وسترة
بعرى فضّية؟
في الأعلى
يوجد شجرة زيتون خضراء
وفي الأسفل
شجرة برتقال خضراء
وبينهما شحرور
يمصّ قطعة سكّر

١٥٥٣: بوتوسي

- رئيس البلدية والشاب الشجاع -

يقول أحدهم: «لا تنم وحيداً نم مع هذه المرأة». ثم يشير إليه. ما تفضله الفتاة هو جندي يتميز بمشية رائعة ويوجد عسل في عينيه وصوته. يقاوم دون دييغو يأسه وينتظر فرصته.

تجيء الفرصة في إحدى الليالي، في إحدى مقامر بوتوسي على يد راهب قامر بما يحويه إناؤه التسوّلي. يقطف مقامر ماهر نصّاب ثمار جهده حين يخفض الخاسر ذراعه ويسحب خنجراً من تحت ردائه ويطعن يد الرجل ويثبتها على الطاولة. يقفز الشاب الشجاع الذي كان هناك بدافع الفضول ويشترك في المشاجرة. يتمّ اعتقال الجميع.

كان على رئيس البلدية دون دييغو أن يقرّر المسألة. يواجه الشاب الشجاع ويقدم له عرضاً: «إما أن يدفع غرامة أو يعاقب».

- «لا أستطيع أن أدفع غرامة. أنا فقير. إلا أنني أنحدر من دم نقي ونسب شريف».

يقرر ريئس البلدية: «إثني عشر جلدة لهذا الأمير».

يحتجّ الجندي: «أتفعل هذا مع جندي إسباني؟».

يقول دون دييغو وهو يجلس مستمتعاً بالجلد: «قل هذا لأذني الأخرى لأن هذه لا تصدق ذلك».

حين يحلون وثاقه يهدّد العاشق الذي جلد: «سأنتقم من أذنيك هاتين أيها السيد رئيس البلدية. سأعيرهما لك لمدة عام، يمكنك أن تستخدمهما طوال هذه الفترة وبعد ذلك ستصبحان ملكي».

١٥٥٤: كوزكو

- رئيس البلدية والأذنان -

منذ أن هدّده الشاب الشجاع ودون دييغو يتحسّس أذنيه كل صباح حين يستيقظ ويفحصهما في المرآة. اكتشف أن أذنيه تنموان حين تكونان سعيدتين وأن البرد والغمّ يجعلهما تتقلّصان أما النظرات والافتراءات فترفع حرارتهما إلى أن تحمرّا ـ تتحركا بيأس كالطيور في الأقفاص حين تسمعان صرير حد فولاذي أثناء شحذه.

ولكي يضمن سلامتهما يأخذهما إلى كوزكو يرافقه حرس وعبيد طوال الطريق.

وفي أحد أيام الأحد يغادر دون دييغو الكنيسة بعد القدّاس بطريقة تدل على الإستعراض أكثر مما تدل على المشية الطبيعية، يتبعه طفل أسود حاملاً وسادة صلاته. فجأة تنظر عينان إلى أذنيه باستهداف واضح ثم يلمع رداء أزرق ويختفي في الحشد.

تشعر أذناه بالألم.

١٥٥٤: ليما

- رئيس البلدية ومُحَصِّل الدَّيْن -

ستقرع أجراس الكاتدرائية بعد قليل معلنة منتصف الليل. ستحدّد عاماً على مرور تلك الحادثة الغبية التي أجبرت دون دييغو على الانتقال إلى «كوزكو» ومن ثمّ إلى ليما.

يؤكد دون دييغو للمرة الألف أن الأبواب موصده وأن الحرّاس الذين يحرسون حتى السقف لم يناموا. فتّش بنفسه المنزل زاوية بعد أخرى دون أن ينسى حتى كومة الحطب في المطبخ سيقيم حفلة عاجلاً.

ستقام حفلة تنكرية ومصارعة ثيران ومبارزات وألعاب نارية وسيشوى الدجاج بالسّفود على النار وستفتح براميل الخمرة. سيرهق دون دييغو عيني ليما. سيجرّب في الحفلة عباءته الدِمَقْسية وجواده المطهم ذا السرج المخملي الأسود المطرّز بالذهب الذي ينسجم مع غطاء السرج القرمزي المزركش.

يجلس منتظراً قرع الأجراس. يعدّها ثم يسحب نفساً عميقاً.

يرفع عبد الشمعدان ويضيء طريقه المفروش بالسجاد الذي يؤدي إلى غرفة النوم. ينزع عبد آخر صدرته وحذاءه الذي يبدو كالقفاز وجوربه الأبيض المخرّم. يغلق العبدان الباب ويذهبان إلى موقعهما ليحرسا إلى الصباح.

يطفىء دون دييغو الشموع ويدفن رأسه في الوسادة الحريرية الكبيرة وللمرة الأولى طيلة عام واحد ينام نوماً عميقاً لا يشوبه قلق.

فيما بعد، بدأت بدلة الدرع التي تزيّن زاوية غرفة النوم بالتحرك. يتقدّم الدرع في الظلمة حاملاً سيفاً في يده، نحو الفراش ببطءٍ شديد.

١٥٥٤: مدينة المكسيك

- سيبولفيدا -

يقرّر مجلس مدينة المكسيك، قِشْدَة النبالة الاستعمارية أن يرسل إلى خوان غينيز دي سيبولفيدا مئتي بيزو ذهباً تقديراً لخدماته وليشجّعه في المستقبل.

ليس سيبولفيدا الإنساني، طبيباً وكبيراً للكهنة فحسب، إنه مؤرخ وكاهن تشارلز الخامس ويتألّق في عمله كما تشهد على ذلك ثروته المتصاعدة. يعمل في البلاطات كوكيل دعاية متحمّس جداً لمالكي الأراضي الأميركية والهندية.

في ردّه على تأكيدات بارتولومي ديلاس كاساس، يؤكد سيبولفيدا أن الهنود عبيد بالفطرة، استناداً إلى إرادة الله، وأن النصوص المقدّسة تحتوي على أمثلة تعفي غير العادلين من العقاب. وحين يقترح لاس كاساس أن يتعلم الإسبان لغة الهنود وأن يتعلم الهنود لغة قشتالة يجيب سيبولفيدا أن الفرق بين الإسبان والهنود، هو نفس الفرق بين الذكر والأنثى، وتماماً مثل الفرق بين الإنسان والقردة. مايدعوه لاس كاساس : إساءة استعمال السلطة ، والجريمة يعتبره سيبولفيدا نظاماً شرعياً للهيمنة، ويمدح فنون اصطياد أولئك الذين ولدوا ليطيعوا ويرفضون العبودية.

الملك الذي ينشر انتقادات لاس كاساس يحظر أطروحة سيبولفيدا حول الأسباب العادلة للحرب الإستعمارية. يقبل سيبولفيدا الحظر مبتسماً ودون احتجاج في التحليل الأخير الواقع أكثر قوة من الضمير السيء، وهو يعرف جيداً مايعرفه جميع أولئك الحكام في قلوبهم: إن مايبني الإمبراطوريات هو رغبة جمع المال وليس رغبة ربح الأرواح.

١٥٥٦ : آسنسيون، البارغواي

- فاتحون -

حملوا الحطب، والجرحى على ظهورهم. عاملت النساء الرجال وكأنهم أطفال. قدمت لهم الماء العذب، والعزاء، وخيوط العنكبوت لتضميد كدماتهم . جاءت كلمات التجشيع والتنبيه من أفواههن، وأيضاً اللعنات التي حرّكت الجبناء، وشجّعت الضعفاء. كن يطلقن السهام والرصاص حين كان الرجال يبحثون عن قطعة ظلّ ليموتوا فيها. حين وصل الذين نجوا من الجوع والسهام إلى السفن، رفعت النساء الأشرعة، وجذّفن دون تذمّر. هذا ماحصل في بوينس آيرس، ونهر البارانا.

بعد عشرين عاماً وزّع الحاكم إيرالا الهنود والأراضي في آسنسيون. عبّر بارتولومي غارسيا أحد أولئك الذين وصلوا في السفن من الجنوب عن احتجاجه. منحه إيرالا ستة عشر هندياً فقط: هو الذي ما يزال ذراعه مصاباً برأس سهم، وقاتل وجهاً لوجه الكواجر التي قفزت فوق حاجز بوينس آيرس الدفاعي.

تصرخ دونا إيزابيل دي غويفارا: «ماذا عني أنا؟ ماذا سأقول أنا؟».

هي أيضاً كانت هناك من البداية. جاءت من إسبانيا لتؤسّس بوينس آيرس مع مندوزا وذهبت مع إيرالا إلى آسنسيون. وكونها امرأة، لم يمنحها الحاكم هنوداً على الإطلاق.

١٥٥٦: آسنسيون، الباراغواي

- جنة محمد -

يتدحرج النّرد. ترفع امرأة هندية الشمعة. الذي يربح يأخذها عارية، لأن الشخص الذي يخسرها راهن عليها عارية.

في الباراغوي، النساء الهنديات غنائم العجلة والنرد والورق، غنائم الحملات على الأدغال، أسباب المبارزات والجرائم. ورغم أنه يوجد الكثير منهن، فإن الدميمة تساوي ما تساويه قطعة من لحم الخنزير أو الخيل. يذهب غزاة الآنديز والهنود إلى القداس تتبعهم قطعان من النساء. في هذه الأرض الخالية من الذهب والفضة يمتلك البعض ثمانين أو مائة امرأة، من اللواتي يطحنّ نهاراً قصب السكر وفي الليل يعملن في الحياكة ويمنحن أجسادهن ليقدمن لأسيادهن العسل والملابس والأولاد: يساعدن على نسيان الحلم بالثروة الذي أنكره الواقع، وعلى نسيان الحبيبات البعيدات اللواتي يهرمن في إسبانيا.

يُحذّر دومينغو مارتينيز والد مالا يحصى من المهجّنين ونسّاك المستقبل: كونوا حذرين. إنهن يذهبن إلى الفراش حاقدات يقول إن النساء الهنديات حاقدات وعنيدات، متلهفات دائماً للعودة إلى الغابة حيث تمّ اصطيادهن، وأن المرء لايستطيع أن يأتمنهن حتى على أونصة قطن لأنهن يخبئنها أو يحرقنها أو يمنحنها، وأن مجدهن هو فقط تدمير المسيحيين وتدمير كل ما يوجد. انتحرت بعضهن شنقاً أو أكلن القذارة، ويوجد البعض ممن رفضن منح أثدائهن للأولاد الحديثي الولادة. قتلت الهندية جوليانا الغازي نونو دي كابريرا في إحدى الليالي وصرخت بالأخريات أن يفعلن مثلها.

- أغنية زير نساء -
من كتاب الأغاني الإسبانية

إذا كان بوسع المغاربة
أن يضاجعوا سبع نساء
لماذا يرفض الإسبان
مضاجعة الكثيرات؟
آه، يالها من متعة

أن تعود إلى إسبانيا
على الطريقة المغربية.
أن تحب امرأة واحدة هو لا شيء
أن تحب اثنتين نفاق
أن تحب ثلاثة وتخدع أربعة
هذا هو المجد الذي يأتي من الله.

١٥٥٦: لا امبريال

- مارينو دي لوبيرا -

يقرّر الحصان الذهبي الجلد والمفعم بالحيوية الجهة والسرعة. إذا أراد أن يعدو بسرعة يعدو، يختار البلاد المفتوحة ويجري وسط الحشائش الطويلة، يقترب من الجدول ويعود باحترام، ودون عجلة يروح ويغدو في الشوارع القذرة لهذه المدينة الموسومة من جديد.

راكباً على ظهره العاري، مطلق العنان، يستعرض بدرو مارينو دي لوبيرا ويحتفل. تتدفّق كلّ خمرة لامبريال في شرايينه. يقهقه من وقت لآخر ويوجّه ملاحظة. يدير الحصان رأسه، ينظر ويوافق.

تمرّ اليوم أربعة أعوام على ترك بدرو لحاشية نائب الملك في ليما وعلى عبوره الطريق الطويل إلى تشيلي.

يقول دون بدرو للحصان: «عمري أربعة أعوام، أربعة أعوام قصيرة. أنت أكثر كهولة وغباء».

شاهد كثيراً وقاتل كثيراً في تلك الأعوام الأربعة. يقول إن هذه الأراضي التشيلية تنبت الفرح والذهب كما تنمو النباتات في أمكنة أخرى. وحين تنشب حرب، كما يحدث دائماً، ترسل العذراء ضباباً كثيفاً لتعمي الهنود ويمنح القديس سانتياغو رمحه وحصانه الأبيض لجيش الغزاة. ليس بعيداً من هنا وليس منذ زمن بعيد، حين كانت فرق الخيالة الآرومانية تدير ظهرها للبحر، أسقطتها موجة عملاقة وابتلعتها.

يتذكّر بدرو ويعلق، والحصان يوافقه الرأي.

فجأة تظهر ثعابين برقية في السماء ويهزّ الرعد الأرض.

يقول بدرو: «إنها تمطر، إنها تمطر حليباً!».

يَرْفَعُ الحصان رأسه ويشرب.

١٥٥٨: كانييتي

- الحرب مستمرة -

بمائة سهم يشقّ صدره، يقابل كوبوليكان نهايته. يسقط القائد العظيم ذو العين الواحدة مهزوماً بسبب الخيانة. اعتادت القمر أن تقف وتتأمل أعماله البطولية الفذّة ولم يكن يوجد رجل لايحبه أو يخشاه، إلا أن خائنا استطاع أن يقضي عليه.

منذ عام فاجأت الخيانة أيضاً لوتارو.

سأل القائد الإسباني: «وأنت، ماذا تفعل هنا؟».

لم يدخل لوتارو إلى سانتياغو كغاز على رأس رجاله. أُحْضِرَ رأسه المقطوع من جبل «تشيلبريكو» مشكولاً بأطول رمح في الجيش الإسباني.

إن الخيانة سلاح مهلك كالتيفوئيد والجدري والجوع الذي أصاب الآروكانيين حين كانت الحرب تدمّر المحاصيل والمزروعات. مع ذلك يمتلك مزارعو وصيادو هذه الأراضي التشيلية أسلحة أخرى. يعرفون الآن كيف يستخدمون الخيول التي كانت تزرع سابقاً الهلع في قلوبهم. يهجمون على ظهور الأحصنة كزوبعة من الخيّالة ويحمون أنفسهم بالدروع الجلدية. يعرفون كيف يستخدمون البنادق التي يستولون عليها في ساحة المعركة ويربطون السيف على رؤوس رماحهم. وراء أغصان الأشجار المتحركة، في ضباب الصباح يتقدّمون غير مرئيين، ثم يتظاهرون بالانسحاب لكي تغرق أحصنة العدوّ في المستنقعات أو لتنكسر أقدامها في مصائد مموّهة. تخبرهم أعمدة الدخان بوجهة الجنود الإسبان، ينقضون عليهم ويختفون. يظهرون فجأة ويهجمون على العدو حين تصبح الشمس أكثر إشعاعاً ويتحمّص الجنود في دروعهم. كانوا يسقطون الخيّالة بأنشوطة العقدة المنزلقة التي ابتكرها لوتارو.

والأكثر من ذلك أن الآروكانيين يطيرون. قبل أن يذهبوا إلى الحرب يدلكون أنفسهم بريشِ أسرعِ الطيور.

- الأغنية الآروكانية -

عن الخيّال الشبح

من هذا
الذي يمتطي الريح
كالنمر
بجسده الشبحي؟

حين تراه أشجار البلوط.
حين يراه الناس.
يقول أحدهم للآخر همساً.
«انظر ياأخي، لقد جاء
شبح كوبوليكان».

١٥٥٨: ميتمالويان

ـ الطيور السوداء ـ

قبضوا على خوان تيتون، الواعظ الهندي لقرية ميشمالويان التي تقع في وادي المكسيك وهم يعذبونه الآن. قبضوا أيضاً على الذين استمعوا إليه. خرج خوان معلناً نهاية حقبة واقتراب عام ينهي جميع الأعوام. قال: «ستخيّم ظلمة شاملة، سيجَفّ المزاد العلني ويهيمن الجوع. وكل من لا يغسلون المعمودية عن شعرهم سيتحولون إلى حيوانات. ستهبط الطيور السوداء المرعبة من السماء وتأكل جميع من لا يزيلون علامة الكهنة».

أخبر مارتين أوسيلوتل أيضاً عن الطيور السوداء. أُسِرَ وضُرِبَ وجرّد من أملاكه ونفي من تيهوكو. هو قال أيضاً إنه لن يوجد لسانُ لهبٍ في احتفال النار الجديدة وسينتهي العالم بسبب أولئك الذين نسوا تعاليم آبائهم وأجدادهم ومن أنجبهم وربّاهم. قال: ستنقضّ الطيور السوداء علينا في الظلام وتلتهم النساء والرجال. قال مارتين أوسيلوتل: «إن الرهبان هم طيور سوداء مُقنّعة وأعداء للسعادة لايعرفون أننا ولدنا لنموت وأنه بعد الموت لن نحصل على المتعة ولا على السعادة».

أيضاً يمتلك الأسياد العجائز الذين يعيشون في «تلاهكالا» شيئاً يقولونه عن القساوسة: «إنهم مساكين، إما مرضى أو مجانين، ظهراً وفي منتصف الليل وعند بزوغ الفجر، حين يبتهج الجميع يصيحون ويبكون. يجب أن يكون فيهم خطأ مريع. إنهم لايمتلكون إحساساً. لايبحثون عن المتعة والسعادة، لايبحثون إلا عن الحزن والعزلة».

١٥٥٨: يوستي

من أنا؟ من كنت؟

يتنفس باذلاً جهداً كبيراً والحرارة تفترس رأسه. قدماه منتفختان بداء المفاصل لاتستطيعان السير. يتمدّد على الدكّة، هذا الذي كان ملكاً على نصف العالم يهرب من مهرّجيه ويتأمّل الغسق في وادي أستريمادورا. الشمس تغيب خلف الجبال الأرجوانية وأشعتها الأخيرة تضفي لوناً أحمر على الظلال المنتشرة فوق دير الجيرونوميين.

دخل مدناً كثيرة كفاتح. صُفّق له وحُقد عليه. ضحى الكثيرون بحياتهم من أجله، وزهقت أرواح كثيرة باسمه. بعد أربعين عاماً من القتال والسفر يريد السجين الأعلى لامبراطوريته أن يستريح وينسى. من أنا؟ ماذا كنت؟ رأى الموت يدخل في المرآة. أهو الخادع أم المخدوع؟

في وسط الحروب وبضوء نيران المعسكرات وقّع أكثر من أربعمائة اتفاقية قروض مع أصحاب البنوك الألمانيين والجنويّين والفلمنكيين، ولم تحضر السفن ذهباً وفضة كافيين من أميركا. هذا الذي أحب الموسيقا سمع رعد المدافع والأحصنة أكثر من ألحان المزمار المقدّسة، وبعد حروب كثيرة سيرث ولده فيليب امبراطورية مفلسة.

وصل تشارلز إلى إسبانيا من الشمال عبر الضباب حين كان في سن السابعة عشرة تتبعه حاشية من التجار الفلمنكيين وأصحاب البنوك الألمان في قافلة لاتنتهي من العربات والأحصنة. في ذلك الوقت لم يكن قادراً على إلقاء التحية بلغة قشتالة. ولكنه سيختارها غداً ليقول وداعاً.

ستكون آخر كلماته: «آه يايسوع».

١٥٥٩: مدينة المكسيك

- النّدابون -

يفرد نسر الأستورياس جناحيه في سماء الهضبة المكسيكية. على قماش أسود محاط بالرايات يتوّهج التاج. تعلن منصّة التابوت، التبجيل لتشارلز الخامس، وأيضاً للموت الذي غزا ملكاً لايُقهر.

تجوّل التاج الذي هو نسخة طبق الأصل عن التاج الذي زيّن الإمبراطور في أوروبا، في شوارع المكسيك. حُمل على وسادة دِمَقْسية في الموكب. صلّت الجموع وغنّت خلفه بينما قرعت جميع الكنائس لحن الموت. تقدّم النبلاء على ظهور الأحصنة في بروكار حزن أسود وأردية مخملية سوداء مطرزة بالذهب والفضة، وتقدّم تحت ظِلّةٍ كبير الأساقفة والأساقفة بتيجانهم التي تشدّ الأبصار وسط غيمة من البخور.

لم ينم الخيّاطون لعدة أيام. ارتدت المستعمرة كلها ثياب الحداد.

كان الآزتيكيون يندبون أيضاً في أحيائهم القذرة. كانوا على هذه الحالة لمدة شهور وتقريباً لمدة عام كان الطاعون يستأصلهم بالجملة. حمّى لم تعرف أبداً قبل الغزو، تسحب الدم من الأنف والعينين وتقتل.

- نصيحة الحكماء الآزتيكيين العجائز -

بما أنك ترى الآن بعينيك
انتبه .
انظر إلى الوضع هنا ، لايوجد فرح
ولا سعادة .

هنا ، على الأرض ، تُذرف دموع كثيرة
يتوقف النَفَس
وتنتشر الكآبة والمرارة .
تهبّ ريح سبجيّة وتنقضّ علينا .
الأرض هي مكان الفرح المؤلم
الفرح الذي يخز

ولكن رغم أن الأمور كانت هكذا
رغم أن المعاناة كانت شاملة
حتى ولو كانت الأشياء هكذا على الأرض
أيجب أن نخاف دائماً؟
ونرتجف إلى الأبد .
ونعيش إلى الأبد ونحن نبكي؟

كي لانئن دائماً
كي لايتخمنا الحزن
مَنَحَنا أبونا
الابتسامات ، الأحلام والطعام .
قُوّتنا
وفعل الحبّ
الذي يبذر الناس

١٥٦٠: ويهوسينكو

- المكافأة -

يحمل زعماء ويهوسينكو الآن أسماء أسيادهم الجدد. يُطلق عليهم اسم فيليب دي ميندوزا وهرناندو دي مينيسيس وميغيل دي ألفارادو ودييغو دي تشيفز أو ماتيو ديلاكورونا. إلا أنهم يكتبون بلغتهم الناهاواتولية وبتلك اللغة بعثوا رسالة إلى ملك إسبانيا: «نحن المنحوسين، خدمك الفقراء من ويهوسينكو ...».

يشرحون لفيليب الثاني أنهم لايستطيعون الوصول إليه بأية طريقة أخرى لأنهم لايمتلكون أجرة الرحلة وأنهم سيروون قصتهم في الرسالة. كيف سنتكلم؟ من سيتكلم من أجلنا؟ نحن المنحوسين.

لم يشنوا الحرب أبداً على الإسبان مشوا عشرين فرسخاً إلى هيرنان كورتيز وعانقوه، قدّموا له الطعام وخدموه واعتنوا بجنوده المرضى. قدموا له الرجال والأسحلة والخشب لبناء السفن التي هاجمت تينوشتيتلان. بعد أن سقطت العاصمة الآزتيكية قاتل سكان ويهوسينكو مع كورتيز أثناء غزو ميتشواكان وجاليسكو وكولهواكان وبانوكو وأهواكا وتيهوانتيبك وغواتيمالا. مات الكثيرون وفيما بعد، حين طلبوا منّا أن نحطم الأحجار ونحرق النقوش التي كنا نعبدها، فعلنا ذلك ودمرنا معابدنا... كنا ننفذ جميع أوامرهم.

كانت ويهوسينكو مملكة مستقلة حين جاء الإسبان لم تدفع الجزية أبداً للآزتيكيين: آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد. وأسلافنا لم يعرفوا ماهي الجزية ولم يدفعوها لأحد.

الآن، على أية حال، يطلب الإسبان منا جزية مرتفعة من النقود والذرة ونعلن أمام جلالتكم أن مدينتنا ويهوسينكو ستختفي وتموت بعد وقت قصير.

١٥٦٠: ميتشوكان

- فاسكو دي غيروكا -

المسيحية البدائية، المشاعية البداتية: يصوغ أسقف ميتشوكان قوانين لمجموعاتنا البروتستانتية. ألهمته ذلك يوتوبيا توماس مور وأنبياء الإنجيل والتقاليد العريقة لهنود أميركا.

إن هذه الجماعات التي أسّسها غيروكا حيث لايسود أحد على غيره أو على أي شيء ولا يُعْرَفُ الجوعُ والمال، لن تتكاثر في المكسيك كما كان يرغب. إن مجلس الآنديز لن يأخذ على محمل الجد الأسقف الغبي، ولن ينظر إلى الكتب التي كان ينصح بها بعناد. لكن هنا، عادت اليوتوبيا إلى أميركا حيث نشأت. لقد جُسّدت خرافة توماس مور في العالم المشاعي الصغير

لميتشوكان، وسيتذكر الهنود في الأزمنة القادمة فاسكو دي غيروكا وكأنه منهم، هذا الحاكم الذي ثبّت عينيه على هلوسة ليرى ماوراء زمن الخزي والعار.

١٥٦١: مراكب فيلادي لوس

- الإستقلال الأول لأميركا -

توّجوه البارحة. تجمهرت قردة فضولية بين الأشجار. يقطر عصير الفاكهة من فم فيرناندو دي غوزمان وتتألق شموس في عينيه. كان الجنود يركعون واحداً بعد الآخر أمام العرش المصنوع من العصي والقش، يقبلون يد المنتَخَب ويقسمون يمين الولاء ثم يوقعون الإعلان بأسمائهم أو بإشاراتهم، كانوا جميع أولئك الذين لم يكونوا نساءً أو خدماً أو هنوداً أو سوداً. جعل الناسخ الإعلان رسمياً، وأعلن الإستقلال.

أصبح للذين يبحثون عن الدورادو، للضائعين وسط الأدغال ملكاً. لاشيء يربطهم بإسبانيا الآن سوى الاستياء. لقد رفضوا العبودية للملك الذي هو وراء البحار. يصرخ لوب دي آغيري: «لاأعرفه ولا أريد أن أعرفه أو أطيعه».

نُصِب البلاط في أكبر أكواخ القرية وعلى ضوء الشموع يأكل الأمير فيرديناند كعك المنيهوت المغطى بالعسل. حوله خدمه، حامل كوبه، وخادمه الخاص. يصدر الأوامر لمعاونيه وهو يلتهم الكعك. يصدر الأوامر لنسّاخه ويمنح الامتيازات والألقاب. كان أمين الصندوق الملكي وكاهن القصر وكبير الخدم والمتذوّق يرتدون سترات رثة أيديهم متورّمة وشفاههم متشققة. كان ضابط النظام ذو اللون الداكن والعين الواحدة والأعرج والقزم هو ليو آغيري الذي يتآمر في الليل ويشرف على بناء السفينة في النهار.

ترنّ ضربات الفؤوس والمطارق. حطمت تيّارات نهر الآمازون سفنهم، ولكن إلى الأمام تنهض سفينتان على الرمل. الغابة تقدم أخشاباً جيدة. يصنعون كيراً من جلود الأحصنة، مسامير، ورتاجات، ومفاصل من كعوبها.

عذّبهم البرغش والبعوض وخنقتهم الرطوبة والأبخرة المحملة بالحمّى وهم ينتظرون اكتمال السفينة. يأكلون الأعشاب ولحم القشاعم دون ملح. لم تبق كلاب أو أحصنة ولم تُخرج سنارات الصيد سوى الوحول والطحالب العفنة ولكن لاأحد في المعسكر يشكّ في أن ساعة الانتقام قد حانت. غادروا البيرو منذ شهور بحثاً عن البحيرة التي ذكرت الأسطورة أنها تحوي تماثيل ذهبية كبيرة بحجم الأطفال، والآن يريدون أن يعودوا إلى البيرو مستعدين للحرب. لن يصرفوا يوماً آخر في البحث عن أرض موعودة لأنهم يدركون أنهم وجدوها سابقاً، وقد أمرضهم حظهم السيء. سيبحرون في نهر الآمازون ويظهرون في المحيط ويحتلون جزيرة مارغريتا ويغزون فنزويلا وبنما...

أولئك الذين ينامون، يحلمون بفضّة بوتوسي، أما آغيري الذي لايغمض أبداً عينه الوحيدة، يراها مستيقظة.

١٥٦١: نويفا فالنسيا ديل ري

- آغيري -

يظهر آغيري في وسط خشبة المسرح حاملاً فأساً في يده ومحاطاً بدزينات من المرايا. على ستارة المسرح الخلفية تظهر صورة تخطيطية كبيرة وسوداء للملك فيليب الثاني.

لوب دي آغيري: (مخاطباً الجمهور). على طريق هزيمتنا، عابرين في الموت والبلية استغرقنا عشرة أشهر للوصول إلى فم الأمازون، النهر العظيم المخيف والمشؤوم. بعد ذلك استولينا على جزيرة «مارغريتا». هناك قضيتُ على خمسة وعشرين خائناً بالمشانق أو المخانق الحديدية، ثم شققنا طريقنا إلى الجزء الرئيسي من الجزيرة. يرتجف جنود الملك فيليب من الخوف. سنغادر فنزويلا حالاً وندخل إلى مملكة البيرو منتصرين (يلتفتْ ويرى صورته المثيرة للشفقة في إحدى المرايا). توّجتُ فرناندو دي غوزمان ملكاً على نهر الأمازون (يرفع فأسه ويحطم المرآة بضربة). توجته ملكاً وقتلته. فعلت الشيء نفسه مع قائد حرسه ومع جنرال وأربعة قوّاد آخرين. (يحطّم جميع المرايا وهو يتحدث) قتلتُ أيضاً كبير خدمه وكاهنةً وامرأةً اشتركت في مؤامرة ضدي وذلك الشخص الذي وُلِدَ في اليونان وظن أنه رام ماهر وأميرالاً وستة من حلفائهم.... عيّنت قادة جدداً وصفّ ضباط. أرادوا أن يقتلوني فشنقتهم (يحطم آخر مرآة)... جميعاً.. جميعاً.. جميعاً.. (يجلس على الأرض شبه مختنق، مغطى بالزجاج، يرفع الفأس بيده إلى الأعلى، وعيناه شاردتان. يخيّم صمت طويل). عبرتْ البحر إلى البيرو شاباً لأنني أستحق الكثير وأنا أحمل في يدي رمحاً... ربع قرن! أسرار.. مآس... حفرت مقابر كاملة لأعثر على الذهب والفضة وأمنحها للآخرين... نصبتْ المشانق في وسط مدن لم تولد... اصطدت حشوداً من البشر وأنا على ظهر حصاني... هنودا يهربون مرعوبين في ألسنة اللهب... سادةً من ذوي الألقاب الرفيعة يرتدون ثياباً حريرية مستعارة أولاد شيء ما أو آخر، أولاد لأحد، تمتلىء أفواههم بالرغوة ويأكلون الوسخ، الدم الذي سمّمته السهام.. وعلى الجبال يستلقي محاربون اخترقت دروعهم الفولاذية عواصف ثلجية أكثر عنفاً من وابل الرصاص، وَجَدَ كثير منهم قبوراً في بطون العقبان، اصفرّ كثيرون منهم كالذهب الذي كانوا يبحثون عنه... جلد أصفر، عينان صفراوتان... والذهب (يُسْقِطُ فأسه من يديه اللتين تبدوان كالمخلبين بألم. يظهر راحتي كفيه) تبخّر تحوّل الذهب إلى ظل أو ندى (ينظر إلى الأسفل مشككاً. يخيم صمت طويل. ينهض فجأة. يعود إلى مخاطبة الجمهور، يرفع قبضته الناتئة العظام نحو الصورة التخطيطية الكبيرة لفيليب الثاني، ينعكس ظله بلحيته المستدقة على ستارة المسرح الخلفية) قلة ملعونة منكم ستذهب إلى الجحيم أيها الملوك، لأنه يوجد قلة ملعونة منكم. (يمشي نحو ستارة المسرح

الخلفية جاراً قدمه العرجاء). أيها الوغد الكريه، فقدتُ جسدي وأنا أدافع عنك ضد المتمردين في البيرو! قدّمت لك رجلاً وعيناً وهاتين اليدين الليتن لافائدة ترجى منهما. إن المتمرد الآن هو أنا. سأتمرّد حتى الموت بسبب إنكارك للجميل (يواجه الجمهور شاهراً سيفه). أنا أمير المتمردين، لوب دي آغيري، الحاج، غضب الله، زعيم المشلولين! لانحتاج إليك ياملك إسبانيا! (تمرّ أضواء ملوّنة في نقاط مختلفة على المسرح) يجب أن لا نترك أي وزير من وزرائك حياً (يطعن بسيفه شعاعاً من الضوء الأحمر).. القضاة، الحكام، الرؤساء، نواب الملوك! الحرب حتى الموت ضد جمبع عاهرات البلاط (يبقى شعاع الضوء في مكانه غير آبهٍ بطعنة السيف القاطعة) المغتصبون، اللصوص (يجرح السيف الهواء) لقد دمّرتم الآنديز (يهاجم ضوءاً ذهبياً)، محامون، كتاب بالعدل، متبرّزو حِبْر! إلى متى سنتحمل سرقاتكم في هذه الأراضي التي ربحناها (يشق السيف شعاعاً أبيض اللون) كهنة، أساقفة، كبار أساقفة. إنكم لن تدفنوا حتى هندياً مسكيناً. من أجل التوبة تضعون دزينة من الفتيات في مطابخكم. أيها المتاجرون بالقرابين المقدّسة، أيها الغشّاشون (تتكاثر هجمات السيف العبثية على أضواء لاتتحرك على المسرح. يفقد أغيري قواه ويبدو مرة أخرى وحيداً وتافهاً لامعنى له).

١٥٦١: نويفا فالينسيا ديل ري

- من رسالة لوب دي آغيري إلى الملك فيليب الثاني -

هنا عرفنا حجم قسوتك وكيف حنثت بيمينك وبكلمتك، ولهذا، في هذه البلاد نمنح لوعودك ثقة أقل من التي نمنحها لكتب مارتن لوثر، لأن نائبك مركيز كانيتي شنق مارتن دي روبلز، الرجل الذي كان يخدمك بشكل جيد، والفاتح الشجاع للبيرو توماس فاسكويز والمسكين ألونزو داياز الذي بذل جهوداً كبيرة في اكتشاف هذه الأرض أكثر من التي بذلها كشّافة موسى في الصحراء..

استمع، استمع أيها الملك الإسباني، كفّ عن قسوتك وعقوقك مع عبيدك، وبما أنك أنت ووالدتك المرتاحان في إسبانيا بعيدان عن جميع المتاعب، فقد منحك أتباعك على حساب دمهم ومدّخراتهم جميع الأراضي والإقطاعيات التي تمتلكها في هذه النواحي، واستمع أيها الملك والسيد، لايمكنك أن تلقّب نفسك ملكاً عادلاً إذا أخذت أي جزء من هذه الأراضي التي لم تقم فيها بأية مغامرة دون أن تكافىء أولئك الذين كدحوا وتعرقوا...

وا آسفاه! ومن بالغ سوء الحظ أنه كان على والدك، القيصر الإمبريالي أن يفتح ألمانيا بقوات إسبانيا، صارفاً الكثير من النقود التي جاءت من هذه الأمكنة التي اكتشفناها نحن، ومن بالغ سوء الحظ أن هرمنا وإعياءنا لايؤلمك بما يكفي لجعلك توقف جوعنا حتى ليوم واحد.

١٥٦١: باركو بزيميتو

- إعادة النظام -

لوب دي آغيري الذي تخلّى عنه رجاله مفضلين صفح الملك أو الوعود، يطعن حتى الموت ابنته الفيرا لينقذها من أن تصبح وسادة للحراس السود ويواجه جلاديه. يصحح تسديدهم، ليس إلى هذه الجهة، ليس إلى تلك الجهة، طلقة قذرة ويسقط دون أن يمنح نفسه لله.

حين يقرأ فيليب الرسالة جالساً على عرشه بعيداً عن هنا، يُثَبّتُ رأس آغيري على رمح كعبرة لجميع بيادق التنمية الأوروبية.

١٥٦٢: ماني

- النار تخطىء خطأً فادحاً -

يرمي فراي دييغو إلى اللهب كتب المايا واحداً بعد آخر.

يلعن المفتش الشيطان بينما تفرقع النار وتلتهمُ. حول المحرقة يئن الهراطقة ورؤوسهم منكّسة إلى الأسفل. يغطّس الهنود المعلقين من أقدامهم، المسلوخين من ضربات السياط في الشمع المغلي، بينما النار تتأجّج والكتب تطقطق وكأنها تتذمّر. تتحوّل اليوم ثمانية قرون من أدب المايا إلى رماد. على الصفحات الطويلة للورق اللحائي تكلمت الإشارات والصور: تحدّثتْ عن عمل أنجزَ وأيام انصرمتْ عن الأحلام وحروبِ بشرٍ ولدوا قَبْلَ يسوع. بفرشاةٍ من الصوف رسمَ العارفون بالأشياء هذه الكتب المضاءة والمضيئة لكي لاّيصاب بالعمى أحفاد الأحفاد، لكي يعرفوا كيف يرون أنفسهم وتاريخَ قومهم ولكي يعرفوا حركات النجوم، تواترَ الكسوفات ونبوءات الآلهة وأن يستدعوا الأمطار ومحاصيلَ ذرة جيدة.

في الوسط يحرق المفتش الكتب، ويؤدّب القرّاء حول النار الكبيرة. في هذه الأثناء يشرب المؤلفون والكهنة الفنانون الذين ماتوا منذ أعوام أو قرون شراب الشوكولاتة في الظلّ المنعش لأول شجرة في العالم. إنهم ينعمون بالسكينة لأنهم ماتوا وهم يعرفون أنه من المستحيل أن تحرق الذاكرة. ألن يغنى مارسموه ويُرقص على إيقاعه عبر أزمان وأزمان؟

حين تُحرق منازلها الورقية الصغيرة، تجد الذاكرة مأوى في الأفواه التي تغني أمجاد الرجال والآلهة في الأغاني التي تنتقل من شعب إلى آخر وفي الأجساد التي ترقص على إيقاع الجذوع المجوّفة ودروع السلاحف وعيدان القصب.

١٥٦٣ : حصن آركو

- التاريخ الذي سيكون -

تُشدّ الأنشوطة وتخنق. نفدتْ الماء في هذا الحصن الدفاعي الأمامي الذي حُرق مرتين وأُعيد بناؤه. سيضطرون بعد قليل إلى شرب بولهم القليل. سقطت سهام كثيرة في الداخل استخدمها الإسبان حطباً للطبخ.

يقترب زعيم الآروكانيين من سفح الحصن على ظهر حصانه: «أيها القائد، هل تسمعني؟».

يظهر لورينزو بيرنال رأسه.

يعلن الزعيم المحلي أن الحصن سيحاط بالقش وتُضرم فيه النار. يقول إنهم لم يتركوا أحداً حياً في كونسيبسيون.

يصرخ برنال: «لن يحصل أي شيء».

- «لايوجد فرصة، أبداً».

ينهض الحصان على قائمتيه.

- «إذاً ستموت».

يقول بيرنال صارخاً: «سنموت ولكننا سنربح الحرب على المدى الطويل، سيكون هنا الكثير منا».

يجيب الهندي بضحكة خافتة:

يسأل: «كيف؟ أية نساء ستنجبهم؟».

يجيب القائد ببطء وهو يمضغ كلماته: «إذا لم يكن يوجد نساء إسبانيات، سنستولى على نسائكم». ثم يضيف: «وسننجب منهن رجالاً يصبحون أسيادكم».

١٥٦٤ : بليموث

- هوكينز -

تنتظر السفن الأربع التي يقودها جون هوكينز المدّ الصباحي. حالما ترتفع المياه ستبحر إلى أفريقيا لاصطياد البشر على شواطىء غينيا. من هناك سيذهبون إلى جزر «الآنتيل» ليبيعوا العبيد مقابل السكر والجلود واللآلى.

منذ عامين قام هوكينز بهذه الرحلة على حسابه، في سفينة سُمْيت يسوع. باع مائة عبد تهريباً في سانتو دومينغو. انفجرت الملكة إليزابيت من الغضب حين علمت بذلك، إلا أن غضبها تلاشى حين اطّلَعَتْ على بيان ميزانية الرحلة. بمثل لمح البصر أصبحت شريكة في العمل مع كلب البحر الديفوني واشترى إيرلات[1] بيمبروك وليشستر ورئيس بلدية لندن أسهماً أولى في المشروع الجديد.

يخطب هوكينز بالبحارة وهم يرفعون الأشرعة. ستتبنّى البحرية البريطانية أوامره في القرون القادمة. يصيح بأعلى صوته: «اخدموا الله كل يوم. أحبوا بعضكم، ادّخروا مؤنكم، راقبوا النيران! صادقوا بعضكم!».

١٥٦٤: بوغوتا

- تقلبات الحياة الزوجية -

- «قولي لي، هل أبدو مختلفة؟».
- «قليلاً».
- «ماذا قليلاً؟».
- «أنت سمينة بعض الشيء ياسيدتي، اعذريني إذا قلت هذا».
- «برأيك هل أنا سمينة من الطعام أم من الضحك؟».
- «سمينة من الحب، ولاأقصد الإساءة طبعاً».
- «لايوجد إساءة، هذا ما طلبتك من أجله».

السيدة قلقة جداً، جسدها قليل الصبر، لاتستطيع أن تنتظر زوجها الغائب، إذ أخبرها أحدهم إنه عائد إلى «كارتاجينا» ماالذي لن يفعله حين يرى بطنها ذلك الرجل الصارم الذي يشفي الصداع بقطع الرؤوس.

- لهذا استدعيتك ياجوانا، ساعديني أنت التي تستطيعين أن تطيري وتشربي الخمر من كأس فارغ. أخبريني هل زوجي عائد في الأسطول «الكارتاجيني»؟

تخلط المرأة السوداء جوانا غارسيا الماء والتراب والدماء والأعشاب في حوض غسيل فضي. تغمس كتاباً أخضر صغيراً في الحوض وتتركه يعوم ثم تدفن أنفها فيه وتقول: لا، إنه ليس قادماً، وإذا كنت ترغبين برؤية زوجك تعالي وألقي نظرة.

---

(١) - إيرل: لقب انكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت.

تنحني السيدة فوق الحوض. تشاهده جالساً في ضوء الشموع قرب امرأة جميلة في مكان مليء بالحرير بينما يقطع له أحد ما ثوباً من النسيج الفاخر. «آه أيها الدجال. أخبريني ياجوانا. ماهذا المكان؟».

ـ «إنه منزل خياط في جزيرة سانتو دومينغو».

تظهر في المياه الكثيفة صورة خياط يقطعُ كمّا.

تقول المرأة السوداء: «هل أوقف هذا؟».

ـ «نعم أوقفيه».

تبزغ اليد من الحوض مع كم من النسيج الرائع يقطر بين الأصابع.

ترتجف السيدة من الغضب:

ـ «إنه يستحق بطوناً أكثر سمنة هذا الخنزير القذر».

من زاوية المنزل، ينخر جرو صغير بأعين نصف مفتوحة.

١٥٦٥: الطريق إلى ليما

ـ الجاسوس ـ

نما البطيخ الأحمر كبيراً كالشموس في مزرعة دون أنطونيو سولار التي تقع على نهر لورين. إنها المرة الأولى التي تُزرَع فيها هنا هذه الثمار التي أُحضرت من إسبانيا. يرسل رئيس العمال عَشْر عيّنات مستمتعاً ومعتزاً بالأمر. تمكن مقارنة حجم هذه البطيخات مع فجل وادي «كوزكو» الذي يقال عنه أن خمسة أحصنة يمكن أن تربط إلى رؤوسه.

ينقل الهنديان هدية كبير العمال في كيسين ويمنحهما رسالة لتسلّم مع البطيخ إلى دون أنطونيو سولار: « إذا أكلتم أية بطيخة ستخبره هذه الرسالة بذلك».

حين يصبحان على بعد فرسخين من مدينة الملوك يجلس الهنديان ليستريحا.

ـ «ما طعم هذه الفاكهة المميزة؟».

ـ «لابدّ أنه مدهش».

ـ «مارأيك بتجريبها؟ لنجرّب بطيخة واحدة».

استدرك أحد الهنديين: «ولكن الرسالة ستغني».

ينظران إلى الرسالة بكراهية وينظران حولهما باحثين عن سجن لها. يخبآنها في مكان لاتستطيع أن ترى منه شيئاً ويلتهمان بطيخةً بعضاتٍ سريعة مكتشفين اللبَّ السائلي الذي يفوق طعمه الخيال ثم يأكلان بطيخة أخرى ليجعلا الكيسين متساويين وبعد ذلك يلتقطان الرسالة ويحملان الكيسين على كتفيهما ويتابعان طريقهما.

١٥٦٥: يوليو

ـ الحجر هو أنا ـ

ينتظر مسؤول الملك الساحرة الماهرة في الشعوذة والتي استدعيت لتشرح نفسها. كان التمثال الحجري مرمياً عند قدميه مُنكبّ الوجه. لقد قبض على الساحرة وهي تتحدث مع الوثن في الخفاء وستدفع حالاً جزاء هرطقتها ولكن المسؤول يريد أن يسمع من شفتيها اعترافها بالتحدث مع الشيطان قبل أن تُعاقب. كان يُسلّي نفسه أثناء انتظارها بالدوس على الوثن وبالتفكير بمصير هؤلاء الهنود الذين يجب أن يكون الله متأسفاً على خلقهم.

يرمي الجنود الساحرة أرضاً ويتركونها ترتجف على العتبة.

عندئذ يُسلّم الوثن الحجري العجوز والقبيح على الساحرة العجوز القبيحة بلغة «الكويتشوا» قائلاً من تحت قدم المسؤول: «مرحباً أيتها الأميرة»

ينصعق المسؤول ويسقط على الأرض زاحفاً.

تقول وهي تُهَوِّي له بقبعتها ممسكة معطف الرجل الذي فقد وعيه: «لاتعاقبني ياسيدي. لاتحطمه».

تريد المرأة العجوز أن تشرح له أن الآلهة تعيش في الحجر وبدون الوثن لن تعرف اسمها أو من هي أو من أين جاءت وسوف تهيم في الأرض عاريةً وضائعةً.

ـ صلاة الأنكيين بحثاً عن الله ـ

اسمعني
يامن يعيش عالياً في البحر
يامن يعيش في أعماق البحر
ياخالق العالم
وخزّاف الإنسان
ياإله الآلهة،
عيناي يائستان لرؤيتك.
أو تائقتان لمعرفتك.
إذا رأيتك
وعرفتك
وتأملتك
وفهمتك

فسوف تراني وتفهمني،
لاالشمس ولا القمر،
لا النهار
ولا الليل
ولا الصيف
ولا الشتاء
يتحركون اعتباطاً
بل في فلكٍ مُحْكم
إلى المكان المحدّد
وإلى النهاية الطيبة
يامن تحمل معك في كل مكان
الصولجان الملكي،
اسمعني،
أصغي إليّ
لاتجعلني أصاب بالإعياء
لاتتركني أموت.

١٥٦٥: مدينة المكسيك

ـ المراسم ـ

يومض الرداء المطلي بالذهب. بعد مرور أربعة وخمسين عاماً على موته يرأس «موكتيزوما» الموكب. يتحرك الخيالة وكأنهم راجلون نحو الساحة الرئيسية لمدينة المكسيك. يقفز الراقصون على صوت رعد الطبول وعلى نواح غلايين «التشيريميا». كثير من الهنود الذين يرتدون الملابس البيضاء يحملون أغصاناً مزهرة. يحمل آخرون قدور طبخ «صلصالية» كبيرة. يختلط دخان البخور بعطور المرق المتبّل.

يترجّل موكتيزوما أمام قصر كوريتز.

ينفتح الباب. يظهر كورتيز بين غلمانه مسلحاً بمِطْرَدٍ مسنون.

يحني موكيتزوما رأسه ويقدّم أكاليل الزهور راكعاً. يلمس كورتيز كتفيه. ينهض موكتيزوما. بإيماءة بطيئة ينزع قناعه ويكشف الشعر المجعّد والشارب المستدقّ لألونزو دي آفيلا.

ألونزو دي آفيلا. سيّد المشانق والمدية، مالك الهنود والأراضي والمناجم يدخل إلى قصر مارتين كورتيز، مركيز وادي «أواهاكا». يفتح ابن غازٍ بابه لإبن أخ غازٍ آخر.

تبدأ اليوم رسمياً المؤامرة ضد ملك إسبانيا. ليس كلّ شيء في حياة المستعمرة حفلات ساهرة ومسايفات، العاب ورق، وحفلات صيد.

١٥٦٦ : مدريد

- المتعصّب للكرامة الإنسانية -

يتحدّى فراي بارتولومي دیلاس كاساس الملك ومجلس الآنديز. هل سيعاقب نتيجة عدم طاعته؟ لايهمه هذا الأمر كثيراً في سن الثانية والتسعين. لقد قاتل طيلة نصف قرن. أليست مآثره مفتاح مأساته؟ تركوه يربح معارك عديدة إلا أن نتيجة المعركة كانت مُحدّدة مسبقاً. كان يعرف ذلك منذ وقت طويل.

لن تطيعه أصابعه أبداً الآن. يملي الرسالة ويخاطب دون إذن من أحد البابا. يطلب من بيوس الخامس أن يأمر بوقف الحروب ضد الهنود والنهب الذي يستخدم الصليب غطاءً له. يغضب وهو يملي الرسالة يصعد الدم إلى رأسه ويرتجف الصوت الخشن الضعيف الذي تبقى له.

فجأة يسقط على الأرض.

١٥٦٦ : مدريد

- حتى ولو خسرت، هذا جدير بالاهتمام -

تتحرك الشفتان. تنطقان كلمات بلاصوت: «سامحني يا إلهي؟».

يتوسّل فراي بارتولومي طالباً الرحمة يوم العقاب لأنه اعتقد أن العبيد المغاربة والسود سوف يخففون الكارثة التي تحلّ بالهنود.

يتمدّد بجبهة رطبة شاحباً لاتتوقف شفتاه عن الحركة. بعيداً يقصف الرعد ببطء. يغلق مانح الولادة، رجل الفعل فراي بارتولومي عينيه. ورغم أن سمعه تدهور، يسمع قرع المطر على سقف أبرشية «آتوشا» يبلل المطر وجهه. يبتسم.

يتمتم القسّيس الذي يرافقه شيئاً عن الضوء الغريب الذي أضاء وجهه. يسافر فراي بارتولومي تحت المطر، حرّاً من الشك والعذاب للمرة الأخيرة إلى العوالم الخضراء حيث عرف السعادة.

تقول شفتاه في صمت وهو يقرأ الصلوات في ضوء الحباحب مبلّلاً بالمطر الـذي يضـرب السـقف المغطّى بورق النخيل: «أشكرك».

يقول وهو يحتفل بالقداس في أكواخ بلا جدران وهو يعمّد الأطفال العراة في النهر: «أشكرك».

يُصَلّبُ القساوسة. تسقط آخر حبات الرمـل مـن السـاعة. يقلـب أحدهـم السـاعة الرمليـة كـي لايقاطع الزمن.

١٥٦٨: لوس توكويز

- كواي كاي بورو -

لن يعكس النهر وجهه ثانية ولاحزمة الريش المتألقة على خوذته.

لم تُصغ الآلهة لزوجته آركويا هذه المرة، التي توسّلت كـي لا يمسّـه المرض أو الرصاص وأن لاينسى النوم الذي هو شقيق الموت أن يعيده إلى العالم في نهاية كل ليلة.

قطّع الغزاة كواي كاي بورو بالرصاص.

منذ أن انتخبه الهنود زعيماً، لم يكن هناك هدنة في هذا الوادي ولا في جبال آفيـلا. في مدينـة كاراكاس الحديثة الولادة صلّبَ الناس حين نطقوا اسمه بصوت منخفض.

مواجهاً الموت ومسؤوليه، سقط آخـر الرجـال الأحـرار صارخـاً: «اقتلونـي! اقتلونـي! حـرّروا أنفسكم من الخوف».

١٥٦٨: مدينة المكسيك

- أبناء كورتيز -

مارتن كان إسم ولد هرنان كورتـيز الأكـبر والـذي أنجبتـه شـهوات والـده مـن المـرأة الهنديـة مالينش، مات والده تاركاً له معاشاً سنوياً ضئيلاً.

مارتين هو أيضاً اسم ولد هرنان كورتيز الشرعي والـذي أنجبتـه امـرأة إسبانية والدهـا كونـت وشقيقها دوق. ورث هذا المارتن شارة الشرف والثروة. إنـه مركـيز وادي «أواهاكـا» ومـالك لآلاف الهنود وللأراضي التي أذلّها والده وأحبّها واختار أن يمكث فيها إلى الأبد.

كان من عادة المركيز مارتين أن يتجوّل في شوارع المكسيك على سرج من المخمل القرمزي المطرّز بالذهب وخلفه يمشي حرّاسه مرتدين بزّات حمراء ومُسَـلّحين بالسيوف. كـل مـن يمـر في طريقـه يجب أن ينزع قبّعته ويبايعه وينضم إلى حاشيته. كان مارتن الآخر، الوغد، واحداً من الحاشية.

أراد المركيز مارتن أن ينفصل عن إسبانيا ويعلن نفسه ملكاً على المكسيك. حين فشلت المؤامرة أطلق الأعذار وسمّى الأسماء فَعُفِيَ عنه.

مارتن الوغد الذي خدم شقيقه في المؤامرة وكل شيء آخر يُعذّب بالمخلعة[1] إلى جانبه يسجّل الناسخ: «لقد عُرّي ووضِعَ في المخلعة: وحين تم توبيخه قال إنه لا يدين لأحد بأي شيء»، يدير الجلاد العجلة. تسحقُ الكبلات اللحم وتُمدّد العظام.

يُسجّل الناسخ: «لقد سُئل ثانيةً ويقول أنه لا يملك شيئاً يقوله أكثر مما قاله».

تدور العجلة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.

هافانا: ١٥٦٩

- القديس سيمون يحارب النمل -

يغير النمل على المدينة ويُدمّر المحاصيل. افترس عدداً من المسيحيين ذوي النوم الثقيل من سُرَرهم.

تعقد سلطات هافانا اجتماعاً استثنائياً تقرر فيه طلب حماية أحد القدّيسين من النمل المفترس.

أجريت القرعة أمام المحترم آلونزو آلفاريز على الرسل الإثني عشر. يربح القديس سيمون ويصير حامياً يتوسّط مع الله ويزيل النمل من المنازل والمزارع في هذه البلدة ومحيطها.

ستكافىء القرية بالمقابل القديس سيمون وتقيم حفلاً تكريمياً سنوياً له لايعفى أحد من حضوره يتضمن صلاة الغروب وقدّاساً وموكباً ومصارعة ثيران.

١٥٧١: مدينة المكسيك

- يجب أن تمشي بجارك -

تتدلى شارات الشرف والسجادات الجميلة والمخمل والرايات من الشرفات. يتوهج درع فارس النظام في سانيتاغو أمام نائب الملك. يرفع الخدم فؤوسهم الكبيرة حول الصليب الضخم المثبت إلى منصة الإعدام.

المفتش العام قادم من مدريد. تعلن الطبول والأبواق عن وصوله. يجيء على ظهر بغل مزّين بالحلي والزخارف وسط شموع مضاءة لا تحصى وقبعات سوداء.

(١) ـ المخلعة: أداة تعذيب قديمة.

سَيُعَذِّبُ الهراطقة أو سيُحْرَقون تحت سلطته المطلقة. أمر البابا «انوسنت الرابع» منذ قرون أن يكافأ قاتلو الأرواح وسارقو إيمان المسيح بالتعذيب، إلا أن البابا بولس الثالث أمر فيما بعد أن لايستمر التعذيب أكثر من ساعة. منذ ذلك الوقت يستريح المفتشون قليلاً من عملهم في كل ساعة. سيأمر المفتش الجديد الذي وصل إلى المكسيك بعدم استخدام الخشب الأخضر أبداً في الإعدامات كي لا تختنق المدينة من الدخان المزعج وسيأمر أن تتم الإعدامات في أيام جميلة كي يستمتع الجميع بذلك. لن يزعج نفسه بالهنود لأنهم آمنوا حديثاً، وهم ضعفاء وقيمتهم قليلة.

يجلس المفتش قرب نائب الملك. تحيّيه طلقات المدفعية. تقرع الطبول ويعلن منادي البلدة المرسوم العام للإيمان. يأمر المرسوم الجميع أن يبلّغوا عن أي شخص يعرفونه أو شاهدوه أو سمعوا عنه ولايستثنى من هذا الزوجات والأزواج والآباء أو أي شخص آخر مهما كانت درجة قرابته. الجميع ملزمون بالتبليغ عن الأحياء أو الأموات الذين نطقوا، أو آمنوا بكلمات أو آراء هرطوقية أو مثيرة للشك أو خاطئة أو طائشة أو مسيئة أو غير أخلاقية أو تجديفية.

١٥٧١: مدريد

ـ من هو المذنب أو المجرم أو الشاهد؟ ـ

أهذا هو الوجه نفسه، أم المرآة التي تعكسه؟ لايفكر الملك بذلك مرتين. يصدر أمراً بمصادرة جميع المخطوطات التي تركها فراي بارتولومي لاس كاساس كي لاتقع في أيدي إسبان سيئين أو في يد أعداء إسبانيا. مايقلق الملك فيليب الثاني بشكل خاص هو إمكانية نشر أو توزيع كتاب تاريخ الآنديز السميك جداً والذي لم يستطع لاس كاساس أن يكمله والذي مايزال حياً ومسجوناً ومقفلاً عليه في أبرشية سان غريغوريو.

«١٥٧٢: كوزكو»

ـ توباك آمارو ـ

يجيء جارّاً قدميه على الحصى. يقترب توباك آمارو على ظهر حمار قزم، وعنقه مقيّدة بحبل إلى منصة الإعدام. أمامه يعلن منادي المدينة أنه طاغية وخائن.

يعلو الصخب في الحي الرئيسي.

- «لماذا يأخذونك أيها الآنكا[1] ليقطعوا رأسك؟».

تتحول تمتمات السكان المحليين إلى زئير. تصرخ النساء: «ليقتلونا جميعاً».

عالياً، على منصة الإعدام يرفع توباك آمارو يداً، يضعها على أذنه ويخفضها بهدوء. بعد ذلك، يصمت الحشد.

لم يكن يوجد شيء سوى الصمت حين يقطع سيف الجلاد رأس حفيد هوينا كاباك.

تنتهي مع توباك آمارو أربعة قرون من السلالة الآنكية وأربعون عاماً تقريباً من المقاومة في جبال «ويلكابامبا». الآن ستتوقف عواصف الحرب والإيقاع الخشن للأبواق المحارّية عن مهاجمة وادي كوزكو.

- المقهورون يؤمنون -

سيعود ويتجوّل على الأرض. تعرف ذلك الجبال الأكثر علوّاً. ولأنها أكثر علوّاً ترى المسافة الأكثر بعداً.

كان ابناً للشمس ولامرأة بسيطة.

سجنَ الريح وقيّد والده الشمس ليجعل الزمن يعاني.

رفع الأحجار إلى القمم بالحبال وبنى بهذه الأحجار المعابد والحصون.

تتبعه الطيور أينما اتجه. تحيّيه وتُبهج خطواته. نزفتْ قدماه من الترحال الطويل وحين امتزج دم قدميه بالتراب تعلّمنا كيف نحرثه. تعلّمنا الكلام حين قال لنا: «تكلّموا». كان أكثر قوة وشباباً منا.

لم يعشّش الخوف في صدورنا دائماً. لم نرتطم به دائماً كما هو الأمر مع منحدرات ومرتفعات دروبنا الوعرة. تاريخنا طويل. ولدَ تاريخنا في اليوم الذي خرجنا فيه من فم وعيني وإبطي ورحم الأرض.

إسباناري، شقيق إنكاري قطع رأس «إنكاري». تحوّل رأس إنكاري إلى نقود. تدفّق الذهب والفضة من أحشائه المليئة بالبراز.

تعرف ذلك الجبال الأكثر علوّاً. يحاول رأس إنكاري أن ينمو نحو قدميه. ستتجمّع أشلاؤه بالتأكيد في أحد الأيام. وحين يجيء هذا اليوم سيتجوّل على الأرض وستتبعه العصافير.

---

(١) - الآنكا: الملك.

١٥٧٤ : مدينة المكسيك

ـ فعل الإيمان[1] الأول في المكسيك ـ

منذ أن نشر المنادون مرسوم الاتهامات انهمر الشجب على المهرطقين ومتعددي الزوجات والساحرات والمجدفين.

احتُفل بفعل الإيمان في الأحد الأول لعيد الصوم الكبير من الصباح إلى المساء وبدأتْ محكمة التفتيش تصدر أحكامها على الفزّاعات التي كانت تُجرّ من زنزاناتها ومن غرف التعذيب.

عالياً، على منصة الإعدام الفخمة، محاطاً بالرمّاحين والحشود المبتهجة، يعمل الجلّاد. يقول نائب ملك إسبانيا الجديدة الذي يحضر المشهد جالساً على عرش مخملي واضعاً مخدة تحت قدميه:

ـ «لايمكن أن يُذْكَر أن حشداً كبيراً في احتفال عام كهذا، أو في أي شيء له قداسة كبيرة سبق وشوهد من قبل».

جُلِدَ صائغان، وناسخ، وصانع أحذية من مائة إلى مائتي جلدة، لأنهم قالوا إنّ الجماع ليس ذنباً مهلكاً. يعاني بعض متعددي الزوجات من عقوبات مشابهة، من بينهم الراهب الأوغسطيني خوان سارميينتو، الذي يوجد في ظهره جرح غير مندمل، يُسَيّرُ ليجدف في السفن لمدة خمسة أعوام.

يتلقى كل من الزنجي دومينغو الذي ولد في المكسيك والهجين ميغيل فرانكو مائة جلدة لأن الأول ينكر وجود الله والثاني جعل زوجته تعترف له. يُجْلد أيضاً الصيدلي غاسبار ديلوس رييس لأنه قال إنه من الأفضل التعايش مع المرأة بدلاً من الزواج وبأنه جائز شرعياً للفقراء والمظلومين بأن يحنثوا بإيمانهم من أجل النقود.

إلى التجذيف في السفن، السجن الشاق لمسببي الأذى، يذهب اللوثريون واليهود الذين رضعوا هرطقاتهم من أثداء أمهاتهم وبعض الإنكليز من أسطول جون هوكينز وفرنسي قال إن الملك والبابا جبانان.

يختتم إنكليزي من مناجم غوانا جواتو وحلاق فرنسي من يوكاتان حياتهما الهرطقية في المحرقة.

---

(١) ـ فعل الإيمان: الاحتفال الذي يرافق إصدار الحكم بالموت من قبل محكمة من محاكم التفتيش على امرىء متهم بالهرطقة والذي يتبع بتنفيذ الحكم من جانب السلطات الزمنية.

١٥٧٦: غوانا جواتو

- الرهبان يقولون -

جاءت إلى المكسيك منذ عشرين عاماً قادتها حمامتان إلى غوانا جواتو. وصلت دون أن تصاب بأذى رغم أنها عبرت البحر والصحراء ضلّ الذين كانوا يحملونها طريقهم. أرسلها الملك إلينا ليشكرنا على الثروة التي لاتتوقف أبداً عن التدفق من أحشاء هذه الجبال.

عاشت في إسبانيا أكثر من ثمانية قرون. عاشت في غرناطة في كهف لتختبىء من المغاربة، وحين عثر عليها المسيحيون وأنقذوها لم يجدوا أي جرح في جسدها المتخشّب. وصلت إلى غوانا جواتو سليمة. وبقيت سليمة، تجترح المعجزات. وها هي سيدتنا تمنح العزاء للفقراء والأغنياء بسبب بؤسهم وتحمي من البرد أولئك الذين ينامون خارج المنازل وفي القصور. لاتميّز رحمتها اللامتناهية بين الخدم والأسياد. ولايفشل أي شخص يستدعيها في الحصول على العطف الرباني.

أنقذت فضيلتها كثيراً من الهنود الذين يذهبون إليها تائبين ومؤمنين. بقيت سيف الله الذي يعاقب بغضب عادل الأوثان والهنود المذنبين في المكسيك. المبتلون الذين تضرعوا إليها ودفعوا الصدقات لم يمسسهم الطاعون.

في المناطق الأخرى، يموت الهنود الذين لايقتلهم التيفوئيد من الجوع أو العمل الشاق. تتناثر الجثث في الحقول والساحات وتمتلىء بها المنازل التي مات جميع سكانها ولم يبق أحد يخبر عن ذلك. ينشر الطاعون في أرجاء المكسيك روائح التعفن والدخان، وعلينا نحن الإسبان أن نسدّ أنوفنا حين نمرّ.

١٥٧٦: هوشيميلكو

- الحواري سانتياغو يحارب الطاعون -

حتى الأطفال الرضّع هنا دفعوا الجزية مالاً وذرةً. إذا استمر الطاعون من سيدفع؟ بنت السواعد المحليّة كاتدرائية المكسيك. إذا لم يتوقّف الطاعون من الذي سيزرع هذه الحقول؟ من الذي سيغزل وينسج في المشاغل؟ من الذي سيبني الكاتدرائيات ويعبّد الشوارع؟.

يناقش الرهبان الفرنسيسكانيون الموقف في أبرشيتهم. من بين ثلاثين ألف هندي عاشوا في «هوشيميلكو» بقي فقط أربعة آلاف حين جاء الإسبان وهذا ليس مبالغة. مات الكثيرون وهم يقاتلون مع هرنان كورتيز وهم يفتحون البلدان ويقتلون الرجال من أجله. مات أيضاً الكثيرون وهم يعملون من أجله ومن أجل بدرو دي آلفاردو. وقتل الطاعون عدداً كبيراً..

يجيء إلى راعي الأبرشيه فراي جيرونيمو منديبيتا الوحي الذي ينقذ.

يحضرون للقيام بالقرعة. يخلط قندلفت معصوب العينين قصاصات الورق في صحن فضي. كتب في كل قصاصة اسم قديس له مكانة رفيعة في البلاط السماوي. يختار القندلفت واحدة. يفتحها الأب منديبيتا ويقرأ: «إنه الحواريّ سانتياغو».

أُعلِنَ من الشرفة لهنود هوشيميلكو وبلغتهم. يتحدث الراهب الرؤيوي راكعاً على ركبتيه، رافعاً ذراعيه: «سيهزم سانتياغو الطاعون».

يعده بمذبح.

١٥٧٧: هوشيميلكو

- الحواري سانتياغو يحارب الطاعون -

كان صوت اصطدام الأذرع يُسْمَع من مقبرة سانتياغو في مساء كل معركة، في أثناء الأعوام الشاقة للغزو، وكان القديس يقاتل مع حشد الغزاة راكباً على حصانه الأبيض، حاملاً رمحاً في يده. كان من عادة القديس سانتياغو أن يقتل الهنود وأن لاينقذهم، وكان الطاعون الذي لايلمس الإسبان يستمّر في إبادة الهنود في «هوشيميلكو» وفي أجزاء أخرى من المكسيك.

بينما كان الليل يرخي سدوله، يسمع الآب منديبيتا، من حجرته صرخات وأنيناً أكثر قوة من أناشيد الملائكة.

يجب أن يتوسط أحد ما إلى الله أو سيتبخر الهنود من هوشيميلكو. يناقش الفرنسيسكانيون الموقف ثانية ويقرّرون أن يجروا القرعة. يختار القدر المبارك سيباستيان ليكون القدّيس الحامي.

يعدونه ببناء مذبح.

١٥٧٩: كويتو

- ابن آتاهواليا -

شاهد بيتو الكاهن الهندي لإقليم أرشيدونا في رؤياه الشيطان في شكل بقرة. قالت له إن الله متضايق جداً من المسيحيين ولن يدافع عنهم، أما غوامي، الكاهن الهندي لتامبيسا فقد قضى خمسة أيام في العالم الآخر. شاهد الأعاجيب وأصغى إلى الإله ويمتلك الآن قوة المطر والإنبعاث. يعلن بيتو وغوامي أن الهنود الذين لاينضمون إلى التمرد سيحصدون الضفادع والثعابين في حقول أبدية الجدب.

ينصّب النبيّان نفسيهما على رأس رماح كثيرة. وفي جنوب شرق كويتو يتمرّد هنود «الكويخـو» ويهاجمون قرى عديدة وينتظرون عبثاً أن يحصل تمرّد في الجبال. يأسر فرانسيسكو آتاهوالبا، ولد الآنكا وقائد الجيش الإسباني متآمري الجبال ويخمد التمرد.

تأتي الهزيمة بعد بضعة معارك. يجبر الإسبان جميع هنود إقليم «الكويخو» والمناطق المحيطـة «بكويتو» على حضور إعدام النبيّين بيتو وغوامـي. يُعْرضـان في شـوارع كويتـو، يُعذّبـان بكلاّبـات حامية، يُشْنقان ويُقطّعان وتُعْرض قطعهما. يراقب الكابتن فرانسيسكو المشهد، جالساً علـى المقعـد الملكي.

١٥٨٠: بوينيس آيرس

- المؤسّسون -

أبحر ضابط إسباني منذ نصف قرن تقريباً من «سيغيل» إلى هـذه الشـواطىء المجهولـة. وظّـف كل الثروة التي جمعها من نهب روما في هذه الحملة. أسّس هنـا مدينـة وحصنـاً أحاطـه بـالأكواخ وأبحر في النهر بحثاً عن جبال الفضة والبحيرة الغامضة التي تنام فيها الشمس.

بحث سيباستيان كابوت منذ عشرة أعوام عن كنز الملك سليمان مبحـراً في هـذا النهـر الـذي لايُعبّرُ عن اسمه الفضي والذي يوجد فقط وحلٌ علـى إحـدى ضفتيـه ورمـل علـى الضفـة الأخـرى ويقود إلى أنهارٍ أخرى تقود إلى الأدغال.

لم تستمر مدينة بدرودي ميندوزا طويلاً. بينما كـان جنـوده الذيـن دفعهـم الجـوع إلى الجنـون يأكلون بعضهم كان الضابط يقرأ فيرجيل وإيرازموس وينطق بكلماتٍ مـن أجـل الخلـود. وفي وقـت قصير جداً تلاشى الحلم «ببيرو» أخرى، فرغب أن يعود إلى إسـبانيا، إلا أنـه لم يصـل إلى هنـاك حياً. فيما بعد، جاء ألونزو كابريرا الذي أحرق بوينيس آيـرس باسـم الملـك. استطاع أن يعـود إلى إسبانيا وهناك قتل زوجته وانتهتْ حياتَهُ في مصح عقلي.

يجيء الآن خوان دي غاري من أسنسـيون. وتولـد سـانتا ماريـا ديلـوس بونيـس آيـرس ثانيـةً وجـاءت مـع غـاري مجموعـة مـن البـاراغويين، مـن أبنـاء الغـزاة الذيـن رضعـوا مـن أمهـاتهم «الكوراكوانيات» حليبهم الأول واللغة المحلية التي يتحدثون بها.

يُجسّدُ سيف غاري، الملتصق بيده، ظلَّ الصليب. تصطك أسنان المؤسّسين من البرد والخـوف. يعزفُ النسيم ألحاناً من الحفيف في رؤوس الأشجار، وخلف هذا، في السهول اللانهائية الإمتداد، يتجسّس عليهم الهنود والأشباح بصمت.

١٥٨٠: لندن

- دريك -

ثلاثة أنخاب لذهب السفن الشراعية! تحيا فضة بوتوسي!

تصرخ النساء وتقرع أجراس الكنيسة منبهة: «لقد جاء التنين». أبحر فرانسيس دريك حول العالم في ثلاثة أعوام. عبر خط الإستواء مرتين ونهب البحر الإسباني، سارقاً المرافىء والسفن من تشيلي إلى المكسيك.

يعود الآن بسفينة واحدة وبحارة محتضرين عددهم ثمانية عشر شخصاً، إلا أنه يحضر معه كنزاً يعادل مائة وعشرين مرة المبلغ الذي خُصِّص للرحلة. تُنصِّبُ الملكة إيلزابيث الشريكة الرئيسية وصاحبة الخطة القرصانَ فارساً. يُقامُ الاحتفال على ضفة نهر «التايمز»، على السيف الذي يمنحه لَقَبَهُ نُقِشَتْ كلمة للملكة إيلزابيت: «من يطعنك يادريك يطعنني». يقدم لجلالتها وهو راكع على قدميه بروشاً سرقه في المحيط الهادي.

مرتفعةً فوق الضباب والسخام، تتربّع إليزابيت على قمة امبراطورية ناشئة. إنها ابنة هنري الثامن وآن بولين التي قُطِعَ رأسها في برج لندن لأنها أنجبت فتاةً. تلتهم الملكة العذراءُ عشّاقها وتستخدم قبضتيها ضد خادماتها وتبصق على ملابس أفراد حاشيتها.

سيصبح فرانسيس بيكون فيلسوفَ الملكة وقاضي قُضاتها. وسيصبح ويليم شكسبير شاعرها وفرانسيس دريك قائد سفنها. مُحتَقِرُ العواصفِ، سيّدُ الأشرعةِ والرياح، القرصان دريك يتحرّك في البلاط كأنه يتسلّق الصواري والأشرعة. إنه قصير وبدين له لحية شديدة الاحمرار، ولد في البحر وربِّي على خشيةِ الله. إن البحر منزل له، ولايشّن أي هجومٍ إلا بعد أن يضغط الإنجيل على صدره، الإنجيل الذي يضعه تحت ثيابه.

١٥٨٢: مدينة المكسيك

- مالونُ جلد المجذوم؟ -

يتقدّم الصباح منتهكاً الظلمة مقتلعاً منها وجوه الأشباح وأيديها ويثبتها إلى الجدار بالمسامير.

لايلمس المسؤول شيئاً، يخبىء يديه المقفّزتين تحت ردائه. عيناه نصف مغمضتين وكأنه خائف أن تنتقل العدوى إليهما. لقد جاء ليشرف على تطبيق النظام الجديد في مستشفى سان باولو. أمر نائب الملك ألا يختلط المرضى الذكور، وأن يُوضَعَ البيض والهجن في غرفة واحدة وأن يوضع السود والخلاسيون في غرفة أخرى والهنود في غرفة منفصلة. ويأمر أن توضع جميع النساء مهما كانت وضعيتهن أو لونهن في غرفة واحدة.

١٥٣٨: كوبا كابانا

ـ أم الإله أيمارا ـ

يعبران بحيرة تيتيكاكا في قاربٍ مصنوع من عشب التيغا. تسافر معه مرتدية ثيابَ الإحتفال. مُوَّه رداؤها، بالذهب في مدينة لاباز. حين يصلان يضع رداءه عليها ليقيها من المطر ثم يدخلان إلى قرية «كوباكابانا». كان المطر يلسع الحشود التي جاءت لتستقبلهم.

يدخل فرانسيسك تيتو يوبانكوي معها إلى المعبد ويزيل غطاءها. يأخذها إلى المذبح تعانقهم عذراء «كوباكابانا» جميعاً من مكانها المرتفع. ستحمي البشر من الطاعون والحزن وطقس شهر شباط السيء.

صاغها النحات الهندي في بوتوسي اشتغل عامين ليمنحها الجمال اللائق بها. على الهنود أن يرسموا أو ينحتوا صوراً تحاكي النماذج الأوروبية فقط ولم يرغب فرانسيسك تيتو يوناكوي أن ينتهك الحظر. لقد نوى أن يصنع عذراء مماثلة لسيدتنا في «كانديلاريا»، إلا أن يديه صاغتا هذا الجسد الآنديّ ذا الرئتين الكبيرتين الجائعتين للهواء والجمجمة الكبيرة والرجلين القصيرتين والوجه الهندي العريض الذي يحتوي شفتين مكتنزتين وعينين لوزيتين تحدقان بحزن نحو الأرض المصابة بالكدمات.

١٥٨٣: سانتياغو ـ تشيلي

ـ كان حراً لوهلة ـ

يحاول أن ينهض مستنداً على يديه إلا أنه يسقط على وجهه. يحاول أن يتكىء على مرفقه فينزلق. يحاول أن يقدّم ركبته فيغوص في الوحل.

كان يبكي تحت المطر دافناً وجهه في الوحول.

لم يبكِ هرناندو مارافيلا حين جُلد بالسوط مائتي جلدة وهو يُجَرّ في شوارع ليما إلى المرفأ، ولم تُلْمَحْ دمعة واحدة على وجهه حين جُلد مائتي جلدة في سانتياغو.

يسوطه المطر الآن مستخلصاً الدم الجافّ والوحول.

قالت له مالكته الأرملة دونا أنطونيا نابيا منذ زمن طويل حين أحضروا العبدَ الهاربَ إليها: «أيها الحقير، هكذا تعضّ اليد التي تغذيك!».

هرب هرناندو مارافيلا لأنه شاهد في أحد الأيام امرأةً جميلةً كصورةٍ ولم يقدر على مقاومة اللحاق بها.

قبضوا عليه في ليما وحققت معه محكمة التفتيش وحُكم عليه بأربعمائة جلدة لأنه قال إن الشيطان هو الذي يُرتِّبُ الزواج وأن الأسقف لايساوي شيئاً وأنه يتبرّز عليه.

هذا الذي ولد في أفريقيا حفيداً لطبيبٍ وابناً لصيادٍ يلتفّ على نفسه ويبكي. كان جلده ينسلخ بينما المطر ينهمر على سانتياغو.

١٥٨٣: تلاتيلولكو

- ساهاغن -

تغني الحمامة المطوقة.

تقدّم امرأة الأزهار إلى حجرٍ حُطِّم إلى قِطَعٍ. تقول المرأة للحجر: «إلهي! كم عانيت ياإلهي!».

يدلي الحكماء العجائز المحليّون بشهاداتهم لفراي برناردينو دي ساهاغن متوسلين: «دعنا نموت بما أن آلهتنا ماتت».

فراي برناردوينو دي ريبييرا الذي ولد في ساهاغن: ابن القديس فرانسيس، حافي القدمين ويلبس رداءً كهنوتياً مرقعاً، الذي يبحث عن الفردوس وعن ذاكرة المقهورين، سافر أكثر من أربعين عاماً عبر المكسيك وإقطاعيّة ويهوسينكو وتولا وتولتيكس وعبر منطقة تيهوكو لينقذ صور وكلماتِ الزمن الماضي. أنقذ ساهاغن ومساعدوه الشبان في كتاب التاريخ العام لإسبانيا الجديدة الذي يتألف من إثني عشر مجلداً أصوات الهنودِ القديمة ومهرجاناتهم وطقوسهم وآلهتهم وطريقتهم في حساب مرور الأعوام والنجوم وأساطيرهم وقصائدهم وطبهم وحكاياتهم عن العصور الغابرة وعن الغزو الأوروبي. إن التاريخ يغنيّ في هذا العمل الأول العظيم للأنثروبولوجيا الأميركية.

أمر الملك فيليب الثاني منذ ستة أعوام بالإستيلاء على هذه المخطوطات المحلية التي ترجمها ساهاغن ونسخها كي لايبقى لها أي أثر. أين انتهت هذه الكتب التي قيل إنها تُخلّدُ وتنشر عبادة الأوثان؟ لاأحد يعرف. لم يستجب مجلس الآنديز لتوسلاتِ المؤلفين والناسخين اليائسة. ماالذي فعله الملك بأربعين عاماً من حياة ساهاغن وبقرونٍ عديدةٍ من حياة المكسيك.؟ يقولون في مدريد إن الصفحات استُخدمت لتعليب التوابل.

لايستسلم العجوز «ساهاغن». في سن الثمانين. يتشبّث ببعض الأوراق التي أُنْقِذَتْ من الكارثة ويُملي على طلابه في تلاتيلولكو السطور الأولى من عمل جديد سيدعى فن الكهانة فيما بعد سيذهب ليعدّ تقويماً مكسيكياً كاملاً. حين ينهي التقويم يبدأ بتأليف قاموس ناهواتليّ ـ إسباني لاتيني. وبعد القاموس...

في الخارج تعوي الكلاب خائفة من المطر.

١٥٨٣: آكوما

ـ مملكة سيبولا الحجرية ـ

استجاب الكابتن أنطونيو دي أسبيخو الذي صنع ثـروةً سريعةً علـى حـدود المكسـيك لدعـوة سيرانة[1] مدن الذهـب السبع فقـامَ علـى رأس بعـض الخيالـة المحـاربين برحلـةٍ (أوديسـة) إلى الشمال، وبدلاً من مملكة سيبولا الخرافية عثر على صحراء شاسعةٍ تتناثر فيها أحياناً بعض القرى على شكل حصون. لم يكن هناك أحجار ثمينة تتدلى من الأشجار لأنه لم يكن يوجد أشجار إلاّ في الأودية النادرة، ولم يكن هناك توهج ذهبي سوى ذلك الذي كانت الشمس تستخرجه وهي تضرب الصخور بقسوة.

نصب الإسبان علمهم في تلك القرى ومايزال الهنود لايعرفون أنهم سيُجْبرون حالاً علـى تغيير أسمائهم وبناء معابد لعبادة إله آخر رغم أن الروح العظيمة قالت لهم في الماضي أنَّ سلالة جديدة، سلالة ذات ألسنة مثل الشوكة، ستصل جالبةً معها الجشع والخيلاء. يقدّم الهنود للكابتن أسبينو الذرة والكعك والديكة والجلود ويرحب به سكان الجبال العليا ويحضرون الماء والذرة.

فيما وراء ذلك يحلّق حصن بُني من الطين والصخور في السماء الأرجوانية. مـن حافـة الهضبـة تهيمن قرية الآكوماز على الوادي المخضرّ بحقول الذرة التي ترويها الأقنيـة والسـدود. الآكومـاز، أعداء النافاخوس مشهورون بوحشيتهم. حتى فرانسيسكو فاسكويز دي كورنادو الذي جاء إلى هنـا منذ أربعين عاماً لم يتجرأ على الإقتراب منهم.

يرقص الآكوماز على شرف أسبيخو ويضعون عند قدميه الثياب الملونـة والديكـة، قـرونَ الـذرة وجلود الأيائل.

بعد بضعة سنوات يرفضون دفع الجزية. سيستمر الهجوم ثلاثـة أيـام وثـلاث ليـال، ستُقْطَع رِجْلٌ لكل من بقي على قيد الحياة بضربة فأسٍ واحدة وسَيُرْمى الزعماء من فوق الجرف.

ـ أغنية الليل، قصيدة نافاخوسيه ـ

أيها المنزل المصنوع من الفجر
أيها المنزل المصنوع من ضوء المساء
أيها المنزل المصنوع من سحابة داكنة

---

(١) ـ السيرانة: واحدة من مجموعة كائنات أسطورية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائهـا فتوردهم موارد الهلاك.

يامن يوجد على بابه سحابة سوداء.
تتدلى منها خيوط سوداء...
والذي يقف البرق فوقه
أتمنى أن أمشي سعيداً
أتمنى أن أمشي سعيداً مع شلالاتٍ كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً مع نباتاتٍ كثيرة
أتمنى أن أمشي سعيداً على خط اللقاح
أتمنى أن أمشي سعيداً
ويكون جميلاً ما ينتظرني
ويكون جميلاً ما خلفته ورائي
ويكون جميلاً ماهو فوقي
وما هو تحتي
وما هو حولي
ويصبح الجمال غاية كلّ شيء.

١٥٨٦: كوري

- الطاعون -

لاتلمع الأنفلونزا كالسيف الفولاذي، لكن لايستطيع أيّ هندي أن يتفاداها. يقتل الكزاز والتيفوئيد من الناس أكثر مما يستطيع ألفٌ من الكلاب الرمادية التي لها أعينٌ نارية ومخالب مزبدة أن تقتل.

يهاجم الجدريُّ بشكل سري، أما البندقية فتهاجم بصوت صاخب وسط غيوم الشرر والدخان الكبريتي، لكن الجدري يدمّر الهنود أكثر مما تدمرهم البنادق.

إن رياح الطاعون تدمّر هذه الأقاليم، تضرب البشر وترميهم أرضاً تلتهم أجسادهم، تأكل أعينهم وتغلق حناجرهم وتفوح من الجميع رائحة التعفّن.

يرنّ في هذه الأثناء صوت غامض فوق البيرو. يدوس على الطاعون ويخترقُ ابتهالاتِ الذين يحتضرون، يقول هذا الصوت الذي يهمس من أذنٍ إلى أخرى: «كلّ من يرمي الصليبَ خارجَ بيته سيعود من الموت».

١٥٨٨: كويتو

- حفيد آتاهوالبا -

تتعرّق الأعمدة والأرابيسك والزخارف ذهباً. يصلّي القديسون والعذراوات المعبودات اللواتي يرتدين أردية مموّهة وكورس الملائكة ذات الأجنحة الذهبية الصغيرة ذهباً: هذا واحدٌ من المنازل التي تقدمها كويتو له، هذا الذي ولد في بيت لحم منذ قرون في معلف تبن ومات عارياً.

تمتلك عائلة الملك آتاهوالبا مذبحاً في كنيسة فرانسيس هذه، في مكان الشرف، في جناح الكنيسة العظيم قرب المبشّر. يرتاح الموتى عند قدمِ المذبح. يشغل المدفن الرئيسي ولد آتاهوالبا الذي عُمِّدَ باسم فرانسيسكو مثل والده وقاتل والده. كان يجب على الله أن يحفظ العظمة للكابتن فرانسيسكو آتاهوالبا لو كان يصغي، كما يقولون، لوجهات نظر القادة بانتباهٍ أكبر من الذي يمنحه لصرخاتِ المَقُودين عرفَ ابنُ الملك كيف يقمعُ الانتفاضاتِ المحلية في الجنوب. أحضر إلى كويتو كأسرى زعماء كارناريبامبا وكويس وكوفيء بمكتب مدير هذه المدينة للشؤون العامة.

جاءتْ بنات فرانسيسكو وبنات أخيه ليضَعْن صورةَ القديسة كاترين التي نحتها نحاتٌ من طليطلة يُدعى خوان بوتيستا فاسكويز في مكان مرتفع على مذبح آتاهوالبا. أرسل الصورة من إسبانيا ألونزو، ابن فرانسيسكو وماتزال الأسرة لا تُدرِك أن ألونزو مات في مدريد بينما كانت القديسة كاترين تعبرُ المحيط لتصل إلى هذه الكنيسة.

مات ألونزو آتاهوالبا حفيد الملك في السجن. كان يستطيع العزف على القيثارة والكمان وموتّرة المفاتيح. كان يرتدي فقط الملابس الإسبانية التي يُفصِّلها أفضل الخياطين، ولم يدفع أجرة منزله لوقتٍ طويل. لا يُسجَنُ السادةُ بسبب الديون إلا أن ألونزو ذهب إلى السجن بعد أن شجبه أفضل الخياطين في مدريد وتجار الجواهر وصانعو القبّعات والقفّازات. ولم يدفع للمنحوتة التي تضعها الآن أسرتُه بين الأكاليل الذهبيّة على المذبح المموّه بالذهب.

١٥٨٨: هافانا

- القديس مارشال يحارب النمل -

يستمر النمل المفترس في قتل البشر وتهديم الجدران. يقطع الأشجار ويلتهم المزارع والفاكهة والذرة ولحم الشاردين.

وبسبب عدم فعاليةِ راعي الأبرشية القديس سيمون ينتخب مجلس المدينة جماعياً حامياً آخر.

تَعِدُ المدينة بأن تحتفل بيومه في كل عام. إن القديس مارشال هو الدرع الجديد لهافانا الذي يحميها من النمل المفترس. يُعْرَف القديس مارشال الذي كان أسقفاً «لليموغس» منذ ثلاثة قرون كأخصائي، ويقال إن نفوذه كبير عند الله.

١٥٨٩: كوزكو

- يقول إنه امتلك الشمس -

مُتَصَلِّباً تحت الأغطيةُ يُخفِّفُ مانسيو سيرادي لوكويزامو الحمل عن ضميرهُ. يملي أمام الكاتب بالعدل ويُقسم: «إننا اكتشفنا هذه المناطق في ظرفٍ كهذا حيث لم يَكُن يوجد في أيٍ منها لصٌ واحد أو رجلٌ شريرٌ أو عاطلٌ عن العمل ولم يكن توجد امرأة فاسقة أو سيئة...».

لا يريدُ ضابط بيزارو العجوز أن يرحل من هذا العالم دون أن يقول للمرة الأولى: «إن الأراضي والجبال والمناجم والمراعي وأراضي الصيد والغابات وجميع المصادر حُكمت أو قُسّمت بطريقة عرفها الجميع وحصلوا على ملكيتهم دون أن يحتلها أو يأخذها أي شخص آخر...».

إن دون مانسيو هو آخر المتبقين على قيد الحياة من الجيش الذي غزا البيرو. كان منذ أكثر من نصف قرن أحد أولئك الذين غزوا مدينة «كوزكو» المقدّسة وسرقوا كنوز مقابرها ومنازلها وهدموا أعمدة معبد الشمس المزين بالذهب التي كان تألقها يجعل أيّ شخص يدخل يبدو كجثة. يقول إنه تلقّى الجزء الأفضل من الغنيمة: حصل على وجه الشمس الذهبي الكبير ذي الأشعة النارية وألسنة اللهب، التي غزت المدينة وأعمت سكان كوزكو عند ساعة الفجر.

رهن دون مانسيو الشمس في لعبة ورق وخسرها في ليلة واحدة.

١٥٩٢: ليما

- إحراق المهرطقين في ليما -

تحمل الريح رماد ثلاثة لوثريين إنكليز أسروا في جزيرة بونا. أحرق أحدهما ويدعى هنري أوكسلي حياً لأنه لم يتخلَّ عن دينه.

يلتفُّ الدخان صاعداً من وسط دائرة محاطة بالرماح الطويلة بينما يزداد الحشد اهتياجاً ومحكمةُ التفتيش تقرأ أحكاماً بالجلد والآلام الأخرى والإذلال.

عوقب كثيرون لأنهم تزوّجوا مرتين أو بسبب الجماع وجرائم أخرى متعلقة بالآثام الجسدية. وحُكم على راهب دومينيكاني وآخر فرانسيسكاني وآخر أوغسطيني وآخر جزويتي بتهمة إغواء الراهبات. وحكم على الجندي خوان ديبورتيلا لأنه أقسم بأذني الله. حُكم على إيزابيل دي أنكولو وهي زوجة جندي بتهمة أنها قرأت كلمات التكريس بصوت منخفض كي يرغب بها الرجال. وحُكم على البحار بارتولومي ديلاغاريس لأنه أكّد أنه لايوجد إثم كونه يدفع مقابل الجنس وهو عازب. حُكم على الحلاق لورنزو ديلابينا لأنه قال حين احتلَّ أحدهم مقعد زوجته في الكنيسة: «إذا كانت هذه هي الطريقة المتبعة فهذا يعني أنه لايوجد إله».

حُكم على بدرو لويس أنريكويز، من مدينة سيفيل، بالسجن لمدة عشرة أعوام لأنه أكّد أنه إذا أخذ المرء ديكاً إلى حقل يخلو من أصوات الكلاب في منتصف الليل وقَطّع رأسه فإنه سيعثر على حجرة صغيرة، بحجم حبة بندق وإذا حك شفتيه بها هذا سيجعل المرأة الجميلة الأولى التي يصادفها تموت من الحب ولأنه أكّد أنه إذا قتل المرء هرّة في شهر كانون الثاني ووضع حبة لوبياء في كل مفصل منها ودفنها، فإن حبات اللوبياء التي تنمو منها تجعل كلّ من يتذوقها وهو ينظر في المرآة لامرئياً ولأنه قال أيضاً إنه كان شخصاً فظاً ومعالجاً وعلامة على ذلك كان يضع صليباً على صدره وآخر في سقف حلقه ولأنه ادّعى أنه شاهد في السّجن عجائب وشمَّ أطيب العطور.

١٥٩٣: كواراباي

- آنشييتا -

أشار «إغناسيو دي ليولا» إلى الأفق وأمر: «اذهب وأضرم النار في العالم».

كان خوسيه آنشييتا أصغر الرسل الذين أحضروا رسالة يسوع والأخبار الطيبة إلى غابات البرازيل. بعد أربعين عاماً يلقبه الهنود كارايبيبي، الرجل المجنح، ويقولون إنه حين يرسم علامة الصليب يوقف العواصف ويحوّل الأسماك إلى لحم خنزير والرجل الذي يحتضر إلى بطل. تهبط ملائكة من السماء لتعلن له عن وصول المراكب الشراعية أو عن هجوم الأعداء. يرفعه الله عن الأرض حين يصلي. جسده النحيل الذي يحرقه قميصه النسيجي يصدر الأشعة حين يجلد نفسه متقاسماً العذاب مع ابن الله الوحيد.

ستشكره البرازيل بسبب معجزاته. من يد هذا القدّيس ذي الثياب البالية جاءت القصائد الأولى التي كتبت على هذه الأرض والقواعد اللغوية التوبية ـ الكوارانية الأولى والمسرحيات الأولى، ومسرحيات الأسرار المقدّسة المكتوبة باللغة الفطرية، والتي تنقل الإنجيل مازجة الشخصيات المحلية بالأباطرة الرومانيين والقديسين المسيحيين. كان آنشييتا أول مدرس وطبيب ومكتشف ومؤرخ لحيوانات ونباتات البرازيل في كتاب يخبرنا كيف يغيّر الكواراس لون ريشه وكيف تبيض «البيوبوا» في الأنهار الشرقية وكيف يعيش الشيهم[1].

يتابع في سن الستين تأسيس المدن وبناء الكنائس والمستشفيات ويحمل على كتفيه النحيلين الألواح الخشبية الثقيلة مع الهنود. يبحث عنه البشر والطيور كأنهم ملهمون بنورانيته المتواضعة والنظيفة. يمشي فراسخ عديدة دون أن يتذمر أو أن يسمح لهم بأن يحملوه في الشباك عبر هذه الأقاليم حيث يمتلك الجميع لون الحرارة ويتآكلون في لحظة ليولدوا ثانية، الفاكهة التي صارت عسلاً، الماء، الموت، بذار الفاكهة الجديدة: الأرض تغلي، البحر يغلي على نار بطيئة، وآنشييتا يكتب على الرمل بعصاه أشعاره لخالق الأبدية.

---

(١) ـ الشيهم: حيوان شائك من القوارض.

١٥٩٦: لندن

- رالي -

السير والتر رالي، مدير التبغ والصانع العسكري المغرور ينفث ثعابين دخان من أنفه وحلقات ودوائر دخانية من فمه وهو يقول: «إذا قطعوا رأسي فسيسقط سعيداً وغليوني بين أسنانه؟».

يعلق صديقه: «ستنتن».

لم يكن يوجد في البار سوى عبد أسود صغير ينتظر صابراً في الزاوية. يروي رالي كيف اكتشف الجنة الأرضية العام الماضي في غويانا هناك، حيث تختبيء إلدورادو. يلعق شفتيه متذكراً طعم الفاكهة وبيض الإغوانة ثم يغمض عينيه واصفاً فاكهة وأوراقاً لا تسقط أبداً عن رؤوس الأشجار.

يقول: «اسمع ياأخي، إن مسرحيتك عن العشاق الشباب... نعم، تلك، التي تدور أحداثها في فُرَجِ الغابة، إنها مدهشة. تدور أحداثها في فيرونا وتفوح براحئة القفص. لقد اخترتَ الخلفية الخاطئة ياعزيزي، ذلك الهواء، هناك...».

يعرف صديق رالي، الأصلع ذو العينين اللعوبتين أن غوّيانا هي مستنقع حيث السماء سوداء دائماً بسبب البعوض، إلا أنه يصغي صامتاً ويوافق لأنه أيضاً يعرف أن رالي لايكذب.

١٥٩٧: سيفيل

- مشهد في السجن -

جرحه الأتراك. هاجمه القراصنة وجَلَدَه المغاربة. حرمه القساوسة من الكنيسة. سجن في الجزائر وفي كاسترو ديليريو. والآن هو سجين في سيفيل. جالساً على الأرض قرب الفراش الحجري يغمس قلمه في المحبرة ويتساءل. عيناه مثبّتتان على لهب الشمعة ويده الطيبة متوازنة في الفراغ.

هل للإلحاح قيمة؟ مايزال جواب الملك فيليب مؤلماً، حين طلب منه وللمرة الثانية عملاً في أميركا: «ابحث عما يناسبك هنا». وإذا كانت الأشياء قد تغيرت منذ ذلك الوقت، فإنها تغيّرت نحو الأسوأ. كان يمتلك سابقاً أمل الإستجابة على الأقل. إلا أن الملك المؤتزر بالسواد والمفصول عن العالم لم يعد منذ ذلك الوقت يتحدث مع أحد سوى مع أشباحه داخل جدران الأسكوريال.

ميغيل دي سرفانتس وحيد في زنزانته ولايكتب للملك... ولايطلب العمل في أي مكتب فارغ في الآنديز. يبدأ على صفحة بيضاء برواية مصائب شاعر فارس، أحد أولئك الفرسان الذين يمتلكون رمحاً مرمياً في المعلف وسيفاً صدئاً ودرعاً مهترئاً وجواداً ضعيفاً وكلباً جباناً.

ترنّ أصوات كئيبة في السجن لكنه لايسمعها.

١٥٩٨: بوتوسي

- قصة فلوريانا روزاليس امرأة بوتوسي الطاهرة -
(عرض موجز للقصة نقله بارتولومي آرزانس أورسواي فيلا)

عمّدوها باسم فلوريانا بسبب جمالها العظيم الذي بدا منذ أن ولدت كزهرة جميلة ورشيقة ولأن اسم والدتها كان آنا.

كانت الشابة المدهشة التي ربيت على الفضيلة في عزلة المنزل تتجنّب أن ترى أحداً أو يراها أحد إلا أن هذا أشعل رغبات طالبي يدها الذين أحاطوا بها منذ أن كانت في الثانية عشرة من عمرها. كان الأكثر نجاحاً في متابعة طلب يدها دون خوليو شانسير مالك المنجم والكابتن رودريغو دي ألبوكويركي وحاكم توكومان الذي مرّ من هنا في طريقه إلى «ليما» وتريّث في بوتوسي بعد أن شاهد فلوريانا في الكنيسة.

بدافع من الضغينة المحضة ولأنه رُفِضَ، يتحدّى حاكم توكومان والد فلوريانا في مبارزة ويجرحان بعضهما قرب نبع إلى أن تفصل بينهما بعض السيدات من اللواتي لم تنقصهن الشجاعة.

احترقت فلوريانا غضباً من رؤية والدها مجروحاً وقرّرت أن تنتقم بيدها. أرسلت تخبر الحاكم أنها ستنتظره مساء غد في حانوت معيّن حيث ترغب بالتحدث معه دون أن يراهما أحد.

ارتدى الحاكم أفضل ثيابه حتى بدا فارغاً ومزهواً بإفراط وكانت هذه رذيلة سيئة في الرجال الذين درسوا في مدرسة «هليوغا بالوس» الذين قال عنهم «هيروديانو» أنه احتقر الملابس الصوفية الرومانية واليونانية وارتدى ألوانا ذهبية وأرجوانية مزينة بالأحجار الثمينة على النمط الفارسي، كما يذكر «لامبرايديو». وصل الحاكم بثيابه الأنيقة في الوقت المحدّد حيث ظهرت فلوريانا حاملة معها بين الأزهار الجميلة أفعى غضبها السامة. أخرجت من كمّها موسى حاداً واندفعت إليه كلبوة لتقطع وجهه وهي تصبّ لعناتها عليه. تجنّب الحاكم الموسى بيده وأشهر، خنجراً. متيقظة للخطر، القت فلوريانا على وجهه كومة من الملابس ثم أمسكت بيديها عصا كبيرة وختمت على قدره. لقد ضربت الحاكم ضربة بطحته أرضاً.

حاول والدا فلوريانا المهمومان والخائفان، أن يخبآها في منزلهما إلا أن هذا كان مستحيلاً، إذ جاء الحاكم والسلطة القضائية العليا والشرطة راكضين ولم يكن أمام فلوريانا من بديل سوى أن تصعد إلى غرفتها وترمي نفسها من النافذة إلى الشارع. شاء الله أن تعلق تنورتها بنتوء من إطار النافذة فعلقت به ورأسها متدل إلى الأسفل.

أخبرت الخادمة دون شانشيز فارفان الذي كانت تعرفه وتعرف أنه يحب سيدتها أن يذهب إلى الزقاق خلف المنازل ليرى إذا كانت فلوريانا هناك لأنها رمت نفسها لتوها من النافذة. ولكن حين شاهد الكابتن رود ريغو دي آلبوكويركي دون خوليو يتحدث بشكل سريّ مع الخادمة تبعه إلى الزقاق.

وصل دون خوليا حين كانت فلوريانا متدلية وهي تتوسّل طالبة المساعدة وقد امتلكها الخوف وصارخة أنها تختنق. اقترب حبيبها الفارس ومّد ذراعيه وأمسكها من كتفيها ودفعها بقوة ساقطاً معها على الأرض.

في هذه اللحظة جاء الكابتن رود ريغو متفوهاً بكلماته الغرامية ثم غطّى فلوريانا بردانه ورفعها. حين شاهد دون خوليو ذلك اعتملت فيه الغيرة فنهض وطعن الكابتن بخنجره قائلاً له إنه خائن وضيع. سقط الكابتن إلى الأرض بجرح مهلك في صدره وبدأ يتوسّل طالباً الإعتراف، حين سمعت فلوريانا ذلك لعنت قدرها ومصائب شرفها ورحلت بسرعة كبيرة.

ارتدت فلوريا ثياباً هندية لتهرب من بلدة «بوتوسي» ولكن حين كانت على وشك امتطاء بغل، يُبَلِّغْ أحدهم الحاكم فيجيء إلى المكان ليزجّها في السجن. حين شاهد الحاكم فلوريانا اخترق الطفل الأعمى الذي يدعى كيوبيد قلبه بسهم مريع. أمسكها من يديها لاهثاً وحملها إلى القصر.

في الساعة العاشرة من تلك الليلة، أي في الساعة التي كان عليها أن تدخل فيها إلى غرفة الحاكم ربطت فلوريانا حبلاً إلى الشرفة وهبطت إلى يدي خوليو الذي كان ينتظرها في الأسفل. طلبت الشابة من دون خوليو قبل أن تتحرك خطوة واحدة أن يقسم أن لا يمسّ طهارتها.

وحين اكْتشِفَ أمر هربها وأحدقَ بهما الخطر حمل دون خوليا فلوريانا على كتفيه وركض بها إلى ساحة ديل غاتو البعيدة. طار فوق الأحجار والوحل تحت سيل من التعرّق وحين استطاع أخيراً أن يجلس ليستريح، وبعد أن أنزل فلوريانا عن ظهره انهار فجأة.

ظانة أنه أغمي عليه وضعتْ رأس دون خوليو في حضنها، وبعد أن اكتشفت أنه مات قفزت مرعوبةً وهربت إلى «سان لورينزو» في شهر آذار من عام ١٥٩٨ .

بقيت هناك مختبئة وقـرّرت أن تحافظ على طهارتها الدائمة وأن تستمر إلى نهاية عمرها خادمة مطيعة لله.

- دوبيتات[1] إسبانية للغناء والرقص -

رأيت رجلاً يعود إلى الحياة
بعد أن تلقى ألف طعنة رمح

---

(١) ـ الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين.

وفيما بعد رأيته يموت
من نظرة واحدة فقط.

في أعماق البحر
تنهّد حوت مراراً
فروت تنهداته هذه الحكاية:
إن من يحب، يتألم.

أريد اليوم أن أغنّي
لأن الأقدار ستجلب الدموع
إلى عينيّ غداً.

١٥٩٨: مدينة بنما

ـ أوقات النوم والقدر ـ

يريد سيمون توريس، صيدلي بنما، أن ينام إلا أنه لايستطيع أن يزحزح عينيه عن ثغره في السقف. كان جفناه ينفتحان ويحدقان بالثغرة كلما أغمضهما. يشعل سيمون غليونه ويدخن محاولاً أن يبعد البعوض بالدخان وبيده. يلتفّ ويتقلّب مبلّلاً ومحترقاً في الفراش الذي التوى من جرّاء الصدمة التي تعرّض لها في ذلك اليوم. تغمزه النجوم عبر الفتحة ويودّ أن يتوقّف عن التفكير، وهكذا تمرّ الساعات إلى أن يصيح الديك إما ليعلن عن النهار أو ليدعو الدجاجات.

منذ اسبوع نزلت امرأة من السقف وسقطت على سيمون.

تلعثم الصيدلي: «من، من، من أنت؟».

قالت وهي تمزق ثيابها: «لانمتلك وقتاً طويلاً».

نهضت في الصباح متألقة ومتلألئة وارتدت ثيابها بسرعة كبيرة.

ـ «إلى أين أنت ذاهبة؟».

ـ «إلى نومبر دي ديوس. تركتُ الخبز هناك في القرن».

صرخ الصيدلي: «إلا أنه يبعد عشرين فرسخاً».

صحّحت له: «ثمانية عشر فقط». وقبل أن تختفي قالت له: «كن حريصاً على نفسك. كلّ من ينام معي يفقد ذاكرته».

١٠٩٩: كويتو

- هنود أزميرالداس الذين هم من أصل أفريقي -

يبقون مستيقظين، لايغمض لهم جفن. يمتلئون بالشكوك. هذه الفرشاة التي تسرق صورتهم، ألن تسرق أرواحهم منهم؟ الفرشاة سحر مثل المرآة، وتمتلك الناس كالمرآة.

يجبرهم البرد المرعب لكويتو على السعال بين فينة وأخرى ويزأر الفنان بهم. متعبين وشبه مختنقين من الأطواق يستأنفون وضعياتهم ويبقون متقلبين إلى أن يعطسوا ثانية. جاؤوا إلى هذه المدينة منذ بضعة أيام ومايزالون لايستطيعون أن يفهموا لماذا جاء هؤلاء البشر الأقوياء ليعيشوا في مكان بارد كهذا ولماذا تمتلك المنازل أبواباً ولماذا تحتوي الأبواب أقفالاً ومصاريع.

دفعت العاصفة منذ نصف قرن، سفينة إلى الصخور الساحلية، قرب فم نهر، أزميرالداس. كان يوجد في السفينة عبيد من غينيا سيباعون في ليما. انطلق السود وضاعوا في الغابات. بنوا القرى وأنجبوا أطفالاً من النساء المحليات وتكاثر هؤلاء الأولاد. من بين الثلاثة الذين يرسم صورتهم الآن أندريه سانشيز كاليك، يوجد إثنان ولدا من ذلك التمازج الأفريقي مع النساء الإكوادوريات. أما الثالث، فرانسيسكو دي آروبي فقد جاء من غينيا. كان عمره عشرة أعوام حين تحطّمت السفينة.

ألبسوا ثياب السادة: أردية وعباءات، أكماماً مخرّمة وقبّعات كي لايتركوا انطباعاً سيئاً لدى الملك حين يتلقى في مدريد صورة أملاكه الجديدة، البرابرة الذين كانوا لايقهرون حتى هذا الوقت. وضعت رماح في أيديهم وعقود من الأسنان والأصداف على ثيابهم الإسبانية ووضعت على وجوههم تزيينات ذهبية تخترق آذانهم، ومناخيرهم وشفاههم.

١٠٩٩: نهر شاكريز

- الحكماء لايتحدثون -

هذا هو الطريق الأكثر إشعاعاً على الأرض. من البحر إلى البحر تنطلق قافلة الفضة الطويلة. خطوط لاتحصى من البغال تحمل عبر الغابة معادن بوتوسي في طريقها إلى السفن الشراعية المنتظرة في بورتوبيلو.

تواكب قرود صغيرة قافلة الفضة عبر بنما وهي تصرخ دون توقف ساخرة من البغّالين وتقذفها بثمار الغوافة.

كان فراي دييغو دي أوكانا يراقبها بإعجاب من ضفة نهر «تشاكريز». لكي تعبر النهر، تشكل القرود سلسلة تبدأ من الشجرة وكل واحد منها يمسك الآخر بذيله إلى أن تتأرجح السلسلة وتجمّع القوة التي تقذفها بعنف إلى أعلى أغصان الضفة الأخرى.

يجيء إليه هندي من البيرو يحمل متاعه ويقول له: «أيها الأب، إنهم بشر. إنهم لايتحدثون كي لايلاحظ الإسبان ذلك لأنهم إذا عرفوا ذلك سيرسلونهم إلى العمل في المناجم».

١٥٩٩: لاامبريال

- سهام اللهب -

ينشب التمرّد على شواطىء المحيط الهادىء وتهزّ الأصداء سلاسل جبال الآنديز.

جاء غارسيا أونيز ليولا ابن أخ القديس أغناطيوس إلى هنا من البيرو وهو مشهور بأنه صياد لايكلّ وقاتل محترف. هناك أسر توباك أومارو، آخر الآنكيين، ثم عيّنوه حاكماً على تشيلي ليروّض الآروكانيين. هناك قتل الهنود وسرق الخراف وأحرق المحاصيل دون أن يترك نبتة واحدة. الآن يعرض الآروكانيون رأسه على رمحٍ.

يستعمل الهنود عظام المسيحيين كأبواق تعلن الحرب بأقنعة حربية ودروع جلدية، تدمر خيالة الآوركانيين الجنوب. تسقط سبع بلدات واحدة بعد أخرى تحت مطر السهام النارية. هكذا يصبح المصطادون صيادين. يحاصر الآروكانيون «لاأمبريال» ويغيرون مجرى النهر ليقطعوا عنها الماء.

تستعيد نصف مملكة تشيلي وكلّ المناطق المتدة إلى جنوب بيو - بيو هويتها الآروكانية.

يقول الهنود وهم يشيرون إلى الرمح: «هذا هو سيدي وهو لن يأمرني بأن أحفر بحثاً عن الذهب أو أن أحضر الأعشاب للمواقد ولا أن أعتني بالقطيع أو أبذر أو أحصد. أريد أن أبقى مع هذا السيد».

١٥٩٩: سانتا مارتا

- يشنون الحرب ليمارسوا الحب -

ينشب التمرد علي شواطىء الكاريبي وتهزّ أصداؤه سييرا نيفادا. ينتفض الهنود من أجل حرية الحب.

في مهرجان البدر ترقص الآلهة في جسد الزعيم «سوشاسيك» وتعير ذراعيه السحر. أصوات الحرب المتصاعدة من قرى «جريبوكا» وبوندا توقظ أرض التيرونا كلّها وتهزّ «ماسينغا» وماسينغويلا

وزاكا ومازاكا وبوريتاكا ويتراما وماروما وتيروناكا وكواتشاكا وتشوينا وسينتو ونهوانجي وماماتوكو وسيبيناغا ودورسينو وغيراكا وأرويغواو دوراما ويبوكاكا ودونا وتشينغ وماساكا ودوداما وساكاسا وكومينكا وغوارينا ومورااكاتاكا وشوكوينكا وماسانغا.

يرتدي الزعيم «سوشاسيك» جلد يغور. بالسهام الصافرة والسهام الحارقة والسهام السامة يحرق التيرونيون المعابد ويكسرون الصلبانٍ ويقتلون الرهبان. يقاتلون ضد عدو الإله الذي يحظر عاداتهم.

منذ زمن موغل في القدم، كان أي شخص في هذه الأراضي يرغب بالطلاق يحصل عليه، وكان الأقرباء يمارسون الحب إن أرادوا ذلك، رجلاً مع رجل وامرأة مع امرأة أو رجلاً مع امرأة إلى أن جاء الرجال الذين يرتدون الحديد، أولئك الذين رموا إلى الكلاب كلّ من أحب كما كان أسلافه يفعلون.

يحتفل التيرونيون بانتصاراتهم الأولى، يعزفون في معابدهم التي يسميها العدّو منازل الشيطان على المزمار المصنوع من عظام المهزومين ويشربون خمرة الذرة ويرقصون على قرع الطبول وإيقاع الأبواق الصدفيّة. يغلق المحاربون جميع الممرات والطرق المؤدية إلى سانتا مارتا ويجهزون للهجوم الأخير.

١٦٠٠: سانتا مارتا

- كانت لهم بلاد -

تحتاج النار إلى وقت لتشتعل. إنها تشتعل ببطء.

تصرُّ المعادن. يتحرك رجال يرتدون الدروع. لقد فشل الهجوم على سانتا مارتا وأصدر الحاكم أمراً بالتدمير الشامل. وصلت الأسلحة والرجال من «كارتاجينا» في الوقت المناسب وتبعثر التيرونيون الذين أهزلتهم سنوات كثيرة من دفع الجزية والعبودية منهزمين.

أبيدوا بالنار. أحرقت القرى والمزارع وحقول الذرة ومحاصيل البطاطا والمنيهوت وبساتين الفاكهة. أحرقت المزروعات المروّية التي أبهجت العين ومنحت الطعام والمزارع حيث كان التيرونيون يمارسون الحب في وضح النهار، لأن الأطفال الذين يصنعون في الظلام يولدون عمياناً. كان كل شيء يحترق.

كم من العوالم الكثيرة تضيء هذه النار؟ العالم الذي كان والذي شوهد والعالم الذي كان ولم ير.

نفي التيرونيون في نهاية خمسة وسبعين عاماً من التمردات وهربوا إلى الجبال، إلى الأمكنة القاحلة والبعيدة التي تخلو من السمك والذرة. نفاهم الغزاة إلى تلك الأمكنة البعيدة المرتفعة، سيطروا على أراضيهم واستأصلوا ذاكرتهم. وهكذا يمكن أن يطال النسيان في عزلتهم البعيدة

الأغنيات التي غنّوها حين عاشوا سوية أحراراً وأقوياء يلبسون أردية قطنية متعددة الألوان وعقوداً ذهبية وأحجاراً مشعّة. وهكذا يمكن أن ينسوا إلى الأبد أن أجدادهم كانوا يغاوِرّ.

يتركون خلفهم الخراب والقبور.

تهمس الريح. تهمس الأرواح المعذّبة وترقص النار في المسافة.

- تقنيات الصيد -

في أعماق الدغل الأمازوني يجلس صياد من قبيلة «ديزانا» على صخرة مرتفعة ويتأمل النهر. تنحدر المياه حاملة الأسماك والأحجار المصقولة. تنحدر المياه مع ضوء الصباح الأول. يمعن الصياد النظر ويشعر أن النهر القديم يتحوّل إلى دم يتدّفق في شرايينه. لن يصطاد صيّاد السمك حتى يربح قلوب الإناث من الأسماك.

قريباً منه، في القرية، يستعدّ صياد آخر. لقد تقيأ واستحّم فيما بعد في النهر ونظف نفسه من الداخل والخارج. يشرب عصير النباتات التي لها لون الأيائل بحيث تحبل عطورها جسده ويرسم على وجهه القناع الذي تفضّله الأيائل. بعد أن ينفخ دخان التبغ على أسلحته، يمشي بهدوء إلى النبع الذي يشرب منه الأيّل هناك يرشُّ عصير الأنناس، الذي هو حليب ابنة الشمس.

نام الصياد وحيداً في تلك الليالي الأخيرة. لم يعاشر النساء ولم يحلم بهن، بحيث لا يغار الحيوان الذي سيصطاده وسيخترقه برمحه وسهامه.

١٦٠٠: بوتوسي

- العجيبة الثامنة للعالم -

تحمل قوافل من اللامات والبغال إلى ميناء «آريكا» الفضة التي نزفتها جبال بوتوسي من أفواهها. بعد رحلة طويلة تصل السبائك إلى أوربا لتمَوّل الحرب والسلام والتقدم.

تتلقى بوتوسي بدلاً من ذلك، من سيفيل أو عن طريق التهريب خمور إسبانيا قبعات وحرير فرنسا، ربطات ومرايا ونسيج فلاندرز، سيوفاً ألمانية وورقاً جنوياً وجوارب نيبوليتانية، زجاجاً من البندقية وشمعاً قبرصياً وألماساً سيلانياً ورخاماً هندياً وعطوراً عربية وملقيةً وسجاداً فارسياً وبورسلاناً صينياً وعبيداً سوداً من «كيب فيرد» وأنغولا وخيولاً قوية من تشيلي.

كلّ شيء مرتفع الثمن في هذه المدينة الأغلى في العالم. فقط شراب الذرة وأوراق الكوكا رخيصة الثمن. يمضي الهنود الذين أسروا بالقوة في البيرو أيام الآحاد في الزرائب ويرقصون على إيقاع الطبول ويشربون «الشيكا» إلى أن يسقطوا أرضاً في صباحات الإثنين يجمعون كالقطيع في الجبل،

يمضغون الكوكا ويضربون بالقضبان الحديدية، ليبحثوا عن شرايين الفضة، عن الثعابين الخضراء والبيضاء التي تظهر وتختفي في أحشاء هذا البطن الكبير حيث لا يوجد ضوء أو هواء. يكدح الهنود طوال الأسبوع، هؤلاء السجناء الذين يتنفسون الغبار الذي يقتل الرئات ويمضغون الكوكا التي تخدع الجوع وتقنّع الإعياء، ولا يعرفون أبداً متى يخيّم الليل أو يبزغ الفجر إلى أن ينتهي يوم السبت ويرنّ الجرس من أجل الصلاة ونهاية العمل. عندئذ يتحركون إلى الأمام حاملين شموعاً مضاءة ليظهروا فجر الأحد من الحفر العميقة والقنوات والأروقة اللانهائية.

يشاهدهم قسيس جاء حديثاً إلى بوتوسي يصلون إلى ضواحي المدينة موكباً طويلاً من الأشباح القذرة بظهور جرّحتها السياط ويقول: «لاأريد أن أشاهد صورة الجحيم هذه».

يقترح عليه أحدهم: «إذاً أغلق عينيك».

يقول: «لاأستطيع، إذا أغلقت عينيّ سأرى أكثر من ذلك».

- نبوءات -

تزوّجا البارحة أمام النار كما تتطلّب التقاليد وسمعا الكلمات المقدّسة:

لها: «حين يشتعل بنار الحب لاتتحولي إلى جليد».

له: «حين تشتعل بنار الحب لاتكن جليداً».

يستيقظان على وهج النار، يتعانقان ويهنئان بعضهما بعينيهما ويرويان أحلامهما.

أثناء النوم، تسافر الروح خارج الجسد وتعرف في أبدية أو في رفّة عين ما الذي سيحدث. يتمّ تقاسم الأحلام الجميلة، وليتقاسماها يستيقظان باكراً جداً. تُرمى الأحلام السيئة، على أية حال، إلى الكلاب.

الأحلام السيئة، الكوابيس المتعلقة بالمهاوي والعقبان أو الوحوش يمكن أن تنذر بالأسوأ. والشيء الأسوأ هنا هو أن تجبر على الذهاب إلى مناجم زئبق «هوان كاميليا» أو إلى جبل بوتوسي الفضي البعيد.

- أنشودة كوزكو -

رغبت لامة
أن يكون لها شعر ذهبي
متألقاً كالشمس
قوياً كالحب

وناعماً كالضباب
يحلّه الفجر
ليِنسج ضفيرة
يعلِّم عليها
عقدة بعد عقدة
الأقمار التي تعبر
والأزهار التي تذبل

١٦٠٠: مدينة المكسيك

- عربات -

عادت العربات إلى شوارع المكسيك العريضة بعد أن حظرها منذ أكثر من عشرين عاماً الملك المتقشّف فيليب الثاني. قال المرسوم إن استخدام العربات يحوّل البشر إلى عاطلين عن العمل ويعوّدهم على حياة الراحة والكسل وهكذا يخسرهم العضلات المفيدة في فنون الحرب.

وبما أن الملك فيليب الثاني مات الآن، تنتشر العربات ثانية في هذه المدينة. تحوي في داخلها الحرير والمرايا ويزينها في الخارج الذهب ودروع السلاحف وعلى الباب تعلّق شارات الشرف. تنفث عطر الخشب الرائع وتتحرك بنعومة البندول وتهتزّ كالمهد وخلف الستائر يبتسم النبلاء الإستعماريون ويلوحون بأيديهم. على مقعده الرفيع وسط الهدّابات والشرابات الحريرية، تقريباً مثل ملك يجلس الحوذي المحتقر، والأحصنة منعّلة بالفضة.

مايزال استخدام العربات محظوراً على الهنود والعاهرات والذين عاقبتهم محاكم التفتيش.

١٦٠١: فالّادوليد

- كويفيدو -

حكمت إسبانيا البرتغالَ ومستعمراتها عشرين عاماً بحيث استطاعَ الإسباني أن يمشي على الأرض دون أن تطأ قدمه تربة أجنبية. إلا أن إسبانيا هي أغلى بلد في أوروبا. تنتج دائماً أشياء قليلة ونقوداً كثيرة. من الإسكودات التي تبلغ خمسة وثلاثين مليوناً والتي ولدت منذ ستة أعوام لم يبق حتى ظلّ. إن المعلومات التي نشرها مؤخراً دون مارتين غونزاليس في كتاب يدعى رسالة في السياسة الضرورية، غير مشجعة: بعامل من الصدفة أو الوراثة، كل إسباني يعمل يحصل على

ثلاثين إضافية. أما الذين يحصلون على دخل يعتبر العمل بالنسبة لهم خطيئة. أما الطبقة الارستقراطية فتحوّل غرفة النوم إلى ساحة معركة. وفي إسبانيا ينمو الشحاذون والقساوسة أكثر مما تنمو بعض الأشجار القليلة.

تبحرُ مراكب محمّلة بذهب أميركا إلى جنوا. لاتتركُ المعادن التي تصل من المكسيك والبيرو أدنى رائحة في إسبانيا. ويبدو وكأن العمل الفذّ للغزو أنجزه أصحاب البنوك والتجار الألمان والجنويين والفرنسيين والفلمنكيين.

يعيش في فالاّدوليد شاب مشلول وضعيف البصر ينحدر من دم نقي يمتلك لساناً وسيفاً حادّين. في أوقات المساء وبينما ينزع له خادمه حذاءه، يحلم بالأشعار. وفي الصباح تنزلق ثعابينه من تحت أبواب القصر الملكي.

يشخّص فرانسيسكو دي كويفيدو في ذهنه، بينما رأسه مدفون في مخدّته، القوة التي تحوّل الجبان إلى محارب والتي تهدىء القاضي الأكثر قسوة، ولاعناً مهنة الشاعر هذه، يحك عينيه ويقرّب المصباح، وبخبطة واحدة يخرج من رأسه الأشعار التي ستمنعه من النوم. الأشعار تخبر عن دون دويلون، الذي:

يولد بشكل مشرّف في الآنديز
حيث العالم يرافقه
يجيء ليموت في إسبانيا
ويدفن في جنوا.

١٦٠٢: ريسيف

ـ الحملة الأولى ضد بالماريس ـ

في المطاحن التي تضغط وتعصر قصب السكّر يقاس عمل كلّ عبد كما يقاس وزن القصبة وضغط الآلة الساحقة وحرارة الفرن. تنعدم قوة العبد خلال خمسة أعوام ولكنّ المالك يستعيد في عام واحد الثمن الذي يدفع له. حين تنعدم فائدة أيدي العبيد ويصبحون أفواهاً لافائدة لها، يحصلون على حريتهم.

يختبىء العبيد الذين يربحون الحرية قبل الشيخوخة المفاجئة أو الموت المبكر في الجبال التي تقع في شمال شرق البرازيل. يرسل الحاكم العام للبرازيل الحملة الأولى ضد بالماريس.

تتألف من بعض البيض الفقراء والهجن المتلهفين لأسر وبيع السود ومن بعض الهنود الذين وعدوا بالأمشاط والسكاكين والمرايا الصغيرة ومن كثير من الخلاسيين.

يعود قائد الحملة من نهر «تابيكورو» الذي يدعى بارتولوميو بيزيرا ويعلن في ريسيف: «لقد دمّر مركز التمرد»، ويصدقه الجميع.

١٦٠٣: روما

ـ أجزاء العالم الأربعة ـ

صدرت في روما طبعة منقّحة وموسّعة من كتاب سيزار ريبا: علم الأيقونات. يظهر قاموس الصور الرمزية هذا العالم كما يبدو من الشاطىء الشمالي للبحر الأبيض المتوسط.

تظهر أوروبا على القمة، ملكة، محاطة برموز قوتها، تدعمها الأحصنة والرماح. تحمل بيد واحدة أعمدة المعبد وتحمل بالأخرى شبحاً. تضع تاجاً على رأسها وتستلقي تيجان أخرى عند قدميها وسط التيجان الكهنوتية والكتب وفراشي الرسم والآلات الموسيقية: القوانين والقيثارات. وإلى جانب البوق يوجد بوصلة ومسطرة.

في الأسفل، إلى اليمين، تظهر آسيا. تقدم القهوة والفلفل والبخور. تزّينها أكاليل الأزهار الفاكهة وينتظرها جمل راكع.

في جانب آخر تظهر أفريقيا امرأة مغربية غسقية اللون برأس فيل وعلى صدرها عقد مرجاني. وحولها أسد وثعبان وعقرب وسنابل قمح.

في أسفل كل شيء تظهر أميركا امرأة بوجه يخيف الناظر إليه. ترتدي الريش فوق جلدها الزيتوني العاري. عند قدميها يستلقي رأس بشري مقطوع وسحلية. إنها مُسلحة بالقوس والنشّاب.

١٦٠٣: سانتياغو

ـ القطيع ـ

يحصل مجلس بلدة سانتياغو على حديد وَشْمٍ جديد مصنوعٍ من الفضة لوشم العبيد الهنود على وجوههم. يأمر الحاكم ألونزو دي ريبيرا أن جزءاً خامساً من قيمة كل آروكاني تمّ بيعه في موانىء فالديفيا وآريكا يجب أن يخصّص لكلفة الحرب وتغذية الجند.

تتلاحق حملات الصيد. يعبر الجنود نهر «البيو ـ بيو» ويقومون بالجلد ليلاً. يحرقون ويبترون ويعودون بالرجال والنساء والأطفال مقيدين من أعناقهم. وحالما يوشمون يباعون للبيرو.

يرفع الحاكم إناء الخمرة ويشرب نخب المعارك التي ربحت. يشرب الأنخاب على الطريقة الفلمنكية مثل بدرو دي فالديفيا. أولاً، جرعة كبيرة بعدها أخرى للسادة والسيدات الذين يتذكّرهم. حين ينتهي من الناس يشرب أنخاب القديسين والملائكة ولاينسى أبداً أن يشكرهم على الذريعة التي يقدمونها.

ليما: ١٦.٥

- ليلة القيامة -

بعد عيد الميلاد تماماً، دمّرت المدافع الثقيلة للطبيعة مدينة آريكويبا. انفجرت سلسلة الجبال وتقيأت الأرض أسس المنازل. تبعثر البشر تحت الأنقاض وأحرقت الحمم المحاصيل ثم نهض البحر وابتلع مرفأ آريكا.

جمع راهب حافي القدمين حشداً في ساحة ليما. البارحة، عند الغسق. أعلن أن هذه المدينة الفاسقة ستنهار في الساعات القليلة القادمة وسينهار محيطها كله.

صرخ: «لن ينجو أحد. لن ينجو حتى الحصان أو السفينة الأكثر سرعة».

تمتلىء الشوارع وقت الغروب بالتائبين الذين يعاقبون أنفسهم بالمشاعل. يصرّح المذنبون بذنوبهم في الزوايا والأغنياء يرمون عن شرفاتهم آنية الفضة وثياب الحفلات في الشوارع. تكشفُ أسرار تجعل شعر الرأس ينتصب. الزوجات الخائنات ينزعن بلاط الأرصفة ويضربن أثداءهن بها. يركع اللصوص والغواة أمام ضحاياهم، يقبّل الأسياد أقدام عبيدهم ولاتتسع أيدي الشحاذين للصدقات الكثيرة. تتلقى الكنيسة نقوداً أكثر مما تلقّته في جميع أعياد الصوم الكبير في تاريخها كله، وإذا لم يكن الناس يبحثون عن قسّ يعترفون له، كانوا يبحثون عن واحد ليزوجهم. غصّت الكنائس بالبشر الذين يريدون أن يلوذوا بحمايتها.

بزغ الفجر.

تشرق الشمس فوق ليما كما لم يحدث من قبل. يبحث التائبون عن مراهم لظهورهم المتشققة ويطارد الأسياد عبيدهم. اللواتي خطبن حديثاً يحقّقن عن رجالهن الجدد الذين بخّرهم ضوء الفجر، البشر الذين تابوا من ذنوبهم يتجولون في الشوارع بحثاً عن ذنوبٍ جديدةٍ يرتكبونها تسمع شهقات البكاء واللعنات خلف كل باب. لايوجد شحاذ لم يختف عن البصر، أيضاً اختبأ الكهنة ليحصوا الجبال النقدية التي قبلها الله البارحة. ستشتري كنائس ليما بالنقود المتبقية الريش الأصلي لكبير الملائكة، جبريل.

١٦.٧: سيفيل

- الفراولة -

يتذكّر الضابط غونزاليس دي ناخيرا الذي عاش ستة أعوام في تشيلي ويروي.

يتحدث عن أولئك الذين ولدوا وسط الأبواق والطبول، عن النبلاء الذين ارتدوا الدروع منذ أن كانوا في مهودهم، وجعلوا من أجسادهم جداراً لصدّ هجمات الهنود. يصّر أن المطر يخرج السنابل الذهبية من التربة التشيلية وأن الهنود يدفعون الجزية من الذهب الذي يستخرجونه من بطون العظاءات.

يتحدث أيضاً عن فاكهة نادرة لها لون وشكل القلب تنفجر مخرجةً عصيرها اللذيذ حين تلمس الأسنان. تستطيع أن تنافس بحيويتها ومذاقها وعطرها ألذّ الفاكهة الإسبانية، رغم أنهم هناك في تشيلي يشتمونها بتسميتها فراولة.

١٦٠٨: بويرتو برينسيبي

- سيلفستر دي بالبو -

ولدت أول قصيدة ملحمية في تاريخ كوبا في المنزل الطيني المسقوف بسعف النخيل لسيلفستردي بالبو الذي يعمل في مجلس بلدة بويرتو برينسبي. يملي المؤلف مقاطعه الشعرية الفخمة على الأسقف ألتميرانو الذي اختطفه القرصان الفرنسي جلبرت جيرون منذ أربعة أعوام في مرفأ «منزانيللو».

تخرج من مملكة نبتون[1] الفقمات والحوريات إلى سفينة القرصان متعاطفة مع الأسقف، الذي لن يقبل شيئاً في الدفاع عنه يقدّم سكان «منزانيللو» مائتي دوقية وألف جلد ومؤناً أخرى فيعتق القرصان اللوثري الرهينة. جاءت الساتيرات والفونات[2] والقنطورات[3] من الغابات إلى الشاطىء حاملات التين الشوكي والأنناس والأفوغاته والتبغ. وأحضرت حوريات الغابة الفاكهة البرية وأشياء أخرى وأيضاً أحضرت حوريات الماء لترحب بالقسيس الأسماك النهرية وأحضرت له حوريات الينابيع والبرك سلاحف لذيذة الطعم من «ماسابو». حين كان القراصنة جاهزين لجمع الفدية هجم عليهم بعض الشباب، زهرة شباب «منزانيلّلو» ومنحوهم ما يستحقّونه. كان الذي اخترق صدر جلبرت جيرون برمحه شاباً أسود يدعى سلفادور:

آه يا سلفادور الكريبولي، أيها العبد البطل
لتحلّق شهرتك في الأرجاء بلا نهاية ؛
لأنه في مدح جندي شجاع
لن يكلّ قلم أو لسان أبداً.

مليئاً بالإعجاب والرهبة، يستحضر سيلفستر دي بالبو طراودة ويقارن شباب منزانيللو بآخيل ويوليس بعد أن خلطهم بالحوريات والسنتورات. ولكن وسط هذه الآلهة الرائعة تمّ تخليد جميع

---

(١) - نبتون: إله البحر.

(٢) - فون: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان.

(٣) - قنطور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس.

سكان هذه القرية بشكل متواضع. يسمي المؤلف العبد الأسود الذي تصرّف كبطل وكثيراً من فاكهة الجزيرة وأعشابها العطرية وحيواناتها بأسمائها.

١٦.٨: سيفيل

- ماتيو آليمان -

يسافر ماتيو آليمان في السفينة المبحرة إلى المكسيك. لكي يسافر إلى الآنديز يُقدِّمُ رشوة إلى سكرتير الملك ويبيِّن نقاء دمه.

هذا الذي ينحدر من أبٍ وأمٍ يهوديين والذي تحرق له محكمة التفتيش أيّ قريب، والذي يدعى ماتيو آليمان يبتكر لنفسه نسباً مسيحياً متفوقاً وشارة شرفٍ مفروضة وحوّل سيدته فرانسيسكادي كالديرون إلى ابنته الكبرى.

عرف الروائي كيف يتعلّم فنون شخصيته كوزمان دي ألفاراشي الماهر في الاحتيال والتشرد والخبث الذي يغير لباسه واسمه ومدينته ليمحو العار الذي لحق به لينجو من البؤس: «سأرقص على اللحن نفسه مثل كلّ الآخرين، طالما يستمر». هذا مايقوله كوزمان دي ألفاراشي في الرواية التي تقرؤها إسبانيا كلها.

١٦.٨: قرطبة

- الآنكا غارسيلاسو -

يبلغ الستين من العمر، يتكىء على الطاولة، يغمس قلمه في المحبرة القرنية ويكتب بطريقة تبريرية. يكتب نثراً مليئاً بالتفاصيل وأنيقاً. يمدح الغازي بلغته التي جعلها لغةً له. بيدٍ واحدةٍ يحيي الغزو معتبراً أنه عمل العناية الإلهية: «إن الغزاة، سواعد الإله، نصّروا العالم الجديد ودفعت المأساة ثمن الخلاص». باليد الأخرى، يودِّع مملكة الآنكيين التي دُمِّرت قبل أن تعرف ويستحضرها وكأنه يحن إلى الفردوس. تنتمي يدٌ واحدة إلى والده، الذي يعمل ضابطاً لدى بيزارو. وتنتمي الأخرى إلى أمه، ابنة عم «آتاهوالبا» التي أذلّها ذلك الضابط ورماها بين ذراعي جندي.

ولد الآنكا غارسيلاسو من عملية اغتصاب مثل أميركا. ويعيش مثل أميركا ممزّقاً إلى أشلاء.

رغم أنه عاش نصف قرن في أوروبا ما يزال يصغي إلى أصوات طفولته في كوزكو كأنها ما تزال مسموعة: الأشياء التي تعلمها وهو في طرحته، والحليب: جاء إلى العالم في تلك المدينة المدمّرة بعد أن وصل الإسبان وشرب في تلك المدينة من شفتي والديه القصص التي جاءت من ذلك اليوم البعيد حين أسقط الشمس على بحيرة تيتيكاكا الأمير والأميرة اللذين ولدا من علاقته الغرامية مع القمر.

١٦.٩: سانتياغو

- كيف تتصرف على المائدة -

أخبروه بذلك هذا الصباح حين أحضروا الشوكولاته العطرية التي يتصاعد منها البخار. بقفزة واحدة خلّص الحاكم نفسه من الأغطية الهولندية: قرّر ملك إسبانيا أن يجعل استعباد الهنود الذين يؤسرون في الحرب قانونياً.

احتاجت الأنباء إلى عام تقريباً لتعبر المحيط وسلاسل الجبال. بيعَ الآروكانيون لبعض الوقت بحضور كاتب بالعدل وأي شخص يحاول الهرب يقطعون مفاصله، وستغلق موافقة الملك أفواه بعض المتذمّرين.

- «ليبارك الله هذا الخبز».

يقدم الحاكم عشاء لمروّضي البشر في هذه الأراضي العدوّة. يشرب الضيوف خمرة البلاد بقرون الثيران ويأكلون خبز الذرة المغلّف بأوراق الذرة. وكما يشير الحكيم الفونصو، يلتقطون بثلاثة أصابع قطع اللحم المتبّلة، وكما أضاف إيرازموس روتردام، لا يقضمون العظام أو يرمون قشور الفاكهة تحت الطاولة. بعد تناول شراب الكويلين الساخن يستخدمون نكاشة أسنان دون أن يتركوها بين شفاههم أو خلف آذانهم.

١٦١١: ياروتيني

- مدمّر الوثن -

إنهم يحطمون كاباك هوانكا بالفؤوس. يصرخ القسيس فرانسيسكو دي آفيلا بالهنود أن يتحركوا. مايزال هناك كثير من الأوثان التي يجب أن تكتشف وتدمّر في أراضي البيرو حيث يعرف أن لاأحد يُمتنع عن خطيئة عبادة الأوثان. لايستريح الغضب الإلهي أبداً. ولايجلس آفيلا، جالد السحرة، أبداً.

إلا أن عبيده الذين يعرفون يتألمون عند كل ضربة. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل اختاره وأنقذه الإله «بارياكاكا» تقاسم معه كاباك هوانكا لوحده كعكته وأوراق الكوكا حين قنّع بارياكاكا نفسه بالأسمال وجاء إلى ياروتيني وتوسّل طالباً شيئاً يشربه ويمضغه. إن هذه الصخرة الكبيرة رجل كريم. جمّده بارياكاكا وحوّله إلى حجر كي لا يجرفه إعصار العقوبة الذي يجرف الجميع.

رمى آفيلا القطع عن الجرف. ووضع مكان كاباك هوانكا صليباً. فيما بعد يسأل الهنود عن تاريخ كاباك هوانكا ويدوّنه.

١٦١٢: سان بدرو دي أومباتشا

- المضروب يضرب -

يصفرُ السوط المصنوع من الجلد المدبوغ والذي هو رمز السلطة في الجو ويضرب. يمزّق الجلد إلى قطع ويشقّ اللحم.

عارياً وموثقاً إلى البكرة، يتحمّل كريستوبال دي ليون مولوهوامـاني زعيم جماعة أومباشا التعذيب. يتزامن أنينه مع لسعات السوط.

متنقلاً بين الزنزانة ومنصة التعذيب والسوط يعيش الزعيم في الألم. تجاسر أن يتمرد على نائب الملك في ليما. ولم يرسل النسبة المحدّدة له من الهنود. كان مسؤولاً عن قلة الأيدي التي تحضر الخمور من السهول إلى كوزكو والتي تنسج وتحيك الملابس كما يأمر الحاكم.

يستخدم الجلاّد الذي هو عبد أسود السوط بمتعة. إن هذا الظهر ليس أسوأ أو أفضل من أي ظهر آخر.

١٦١٣: لندن

- شكسبير -

تصاب شركة فيرجينيا بخيبة أمل كبيرة على شاطىء أميركا الشمالية الذي يخلو من الذهب أو الفضة، مع ذلك تذيع كَراريس الدعاية في جميع أنحاء انكلترا أنّ الإنكليز يبيعون الهنود في فيرجينيا لآلىء السماء مقابل لآلىء الأرض.

منذ وقت ليس بطويل، كان جون دون[1] يستكشف جسد عشيقته في قصيدة كما يستكشف المرء أميركا، وفيرجينيا وذهب فرجينيا هو الموضوع الأساسي لاحتفالات خطبة الأميرة إيـلزابيت. تقام حفلة تنكرية بقيادة جورج تشايمان على شرف ابنة الملك، تدور حـول صخرة ذهبية كبيرة هي رمز لفيرجينيا أو لأوهام مالكي أسهمها: الذهب، مفتاح القوى كلها، سرّ الحياة الذي يطارده السيميائيون، ابن الشمس كما الفضة. وُلِدَ من القمر والنحاس من الزّهرة. يوجد ذهب في مناطق العالم الكروية الدافئة، حيث تبذر الشمس أشعتها بسخاء.

يُمَثَّل في احتفالات خطبة الأميرة عمل لوليم شكسبير أيضاً يدعى «العاصفة» وقد جاء هذا الإلهام بسبب تحطم سفينة تابعة لشركة فيرجينيا في برمودا. تجري أحداث مسرحية خالق

(١) ـ جون دون: شاعر انكليزي مشهور جداً.

الأرواح والعجائب الكبير هذه المرة في جزيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط الذي يشبه البحر الكاريبي. هناك يقابل الدوق بروسبيرو كاليبان ابن الساحرة سيكوراكس، عابدة إله الهنود الباتاغونيين. كاليبان متوحش، هندي على النمط الذي شاهده شكسبير في معرض ما في لندن: شيء ينتمي إلى الظلمة، وحش أكثر من كونه إنساناً، الذي يتعلّم فقط أن يلعن، ولايمتلك مقدرة على المحاكمة أو الإحساس بالمسؤولية يستطيع أن يجد مكاناً في المجتمع الإنساني فقط كعبدٍ أو مربوطاً كقرد، أي في المجتمع الأوروبي، الذي لايمتلك هو على الإطلاق أدنى اهتمام في الانضمام إليه.

١٦١٤: ليما

ـ مجلس مدينة ليما ولادة الرقابة على المسرح ـ

أكّد في هذا المجلس أنه بسبب عدم فحص الأعمال الكوميدية التي تمثّل في هذه المدينة أنه قيلت أشياء كثيرة مؤذية بحقّ السلطات والشرف المرتبط بهذه الحكومة. ومن أجل أن تتوقف هذه الأشياء غير اللائقة في المستقبل يتوجّب علينا أن نقدّم علاجاً. وبعد أن طرحت المسألة ونوقشت تم التوصل إلى إتفاق وأصدر أمر يقتضي التنويه لمؤلفي الأعمال الكوميدية الحاليين والمستقبليين بأن لايمثلوا أية ملهاة قبل أن تشاهد وتفحص وتتمّ الموافقة عليها من قبل الشخص الذي يعيّنه المجلس في حينه وكل من يخالف سيدفع غرامة قدرها مائتا بيزو.

١٦١٤: ليما

ـ رقصات هندية حُظِرت في البيرو ـ

جناحا الكندور، رأس الببغاء، وجلد اليغور: يرقص الهنود البيروفيون رقصة أسلافهم التي تدعى «ريمي» في عيد القربان. يؤدّون صلاتهم للشمس باللغة الكويتشوانية في وقت رشّ البذار أو يبايعون الشمس حين تحدث ولادة في فصل الحصاد.

إلى النهاية وبمساعدة إلهنا لكي تُقمع المناسبات التي تسبّب البطالة والكسل ولكي يتوقف الشيطان عن ممارسة خدعه يقرّر كبير أساقفة ليما أن تتوقّف الرقصات والأغاني التي تمارس باللهجة المحلية أو باللغة العامية. يعلن كبير الأساقفة عن عقوبات مريعة ويأمر بحرق جميع الآلات الموسيقية المحلية بما فيه المزمار القصبيّ رسول الحب:

ستنامين على الشاطىء،
وسأجيء في منتصف الليل.

١٦١٥: ليما

- غوامان بوما -

يتكىء على الطاولة، وهو يبلغ سبعين عاماً من العمر، يغمس القلم في المحبرة القرنية ويكتب ويرسم متحدياً. يكتب نثراً مستعجلاً ومتقطّعاً يلعن الغازي بلغته ويجعلها تنفجر. تظلّ اللغة القشتالية تضغط على الكلمات الكويتشوية والأيمارّية ولكن بعد كل شيء، قشتالة هي قشتالة بالنسبة للهنود، وبدون الهنود لايساوي جلالتكم أي شيء.

ينهي غوامان بوما اليوم رسالته الموجّهة إلى ملك إسبانيا. كانت موجهة في البداية إلى فيليب الثاني الذي مات حين كان غوامان يكتبها. يريد أن يرسلها الآن إلى يد فيليب الثالث يتنقّل الرحّالة من قرية إلى أخرى، يسيرُ المؤلف فوق جبال يغطّيها الثلج، يأكل إذا استطاع ويحمل على ظهره مخطوطته التي تكبر بالأمثلة والكلمات. يعود المؤلف من العالم... يعبرُ في العالم وهو يبكي طوال الطريق ويصل أخيراً إلى ليما. ويقرر أن يسافر من هنا إلى إسبانيا ولايعرف كيف سيتدبّر الأمر. وما الذي يهمّ؟ لاأحد يعرف غوامان ولاأحد يصغي إليه والملك بعيد جداً ومرتفع جداً، إلا أن غوامان الذي يحمل القلم في يده يعامله نداً لند ويخاطبه بشكل مألوف ويشرح له ما يجب عليه أن يفعله.

منفياً من مقاطعته، عارياً، معاملاً كأنه لاشيء، لايتردّد غوامان في إعلان نفسه وريثاً للسلالات الملكية الياروفيلكية والآنكية ويسمّي نفسه مستشار الملك والمؤرخ الهندي الأول وأمير الإقليم ونائب الحاكم. كتب هذه الرسالة الطويلة بدافع من كبريائه: يبدأ نسبه من أقدم أسياد «هوانكو» واندمج في الإسم الذي يمنحه الباز والكوجر، شعار نبالة أسلافه الذين حكموا الأراضي التي تقع في شمال البيرو قبل الآنكيين والإسبان.

إن كتابة هذه الرسالة تسبّب البكاء. الكلمات، الصور، دموع الغضب. إن الهنود هم المالكون الطبيعيون لهذه المنطقة والإسبان هم غرباء هنا. يدوس الرسول سانتياغو الذي يرتدي الزيّ العسكري على مَحَليّ ساقط. في المآدب الصحون منمنمة بالنساء. يحمل البغّال سّلة مليئة بأبناء الكاهن المهجّنين. أيضاً، إنه عقاب من الله أن يموت كثير من الهنود في مناجم الفضة والزئبق. في كل أنحاء البيرو، حيث يوجد مائة، لايبقى عشرة. يسأل الآنكا: «هل تأكلون الذهب؟»، يجيب الغازي: «نأكل هذا الذهب».

ينهي غوامان رسالته اليوم، لقد عاش من أجلها. لقد استغرقت معه نصف قرن لتكتب وترسم. تتألف تقريباً من ألف ومائتي صفحة. اليوم ينهي غوامان رسالته ويموت.

لن يراها فيليب الثالث ولا أي ملك آخر أبداً. سوف تتيه في الأرض ضائعة لمدة ثلاثة قرون.

١٦١٦: مدريد

- سرفانتس -

- «أية أنباء تحضرها من أبينا؟».
- «إنه يستلقي ياسيدي وسط الدموع والصلوات. إنه متورّم وله لون الرماد. لقد أسلم روحه سابقاً وهو بين الكاتب بالعدل والقسيس والنّدابون ينتظرون».
- «لوكان معي فقط بلسم فييرابراس... جرعتان منه وسيتحسّن».
- «كيف وهو يبلغ السبعين وعلى وشك الاحتضار ولايوجد إلا ستة أسنان في فمه ولايمتلك إلا يداً واحدة تعمل وهو مليء بالندوب من الحروب واللعنات والسجون؟ هذا لن يفيده بأي شيء ياسيدي».
- «لاأقول جرعتين بل قطرتين».
- «لقد تأخر الوقت».
- «لقد مات، أهذا ماتقوله؟».
- «يحتضر ياسيدي».
- «انزع قبعتك ياسانشو وأنت ياروزينانته، أخفض رأسك. وآه ياأمير النبالة وملك الحروف».
- «ما الذي ستفعله بدونه ياسيدي؟».
- «لاشيء لايعظّمه».
- «أين سنضع أنفسنا ونحن وحيدان هكذا؟».
- «سنذهب إلى حيث أراد أن يذهب ولم يستطيع».
- «إلى أين ياسيدي؟».
- «لنقوّم ما اعوجّ على شواطىء «كارتاجينا» وفي وهاد «لاباز» وغابات «سوكونسكو»».
- «إنها أمكنة ظريفة لطحن عظامك».
- «يجب أن تعرف ياسانشو، ياأخي على طرقات كثيرة وفي رحلات كثيرة أن العظمة في الآنديز تنتظر الفارس الجوّال المتعطّش للعدالة والشهرة...».
- «حسناً، لم تمض وهلة على تعرضنا للضرب».
- «... وسوف يكافىء المرافقون بممالك كبيرة لم تكتشف أبداً».
- «ألا يوجد بعضها في مكان أقرب؟».
- «وأنت ياروزينانته، إن الأحصنة في الآنديز تنعّل بالفضّة والقطع الذهبية، وتعتبر آلهة».
- «إنّ ألف ضربة غير كافية بالنسبة له. إنه يريد أكثر من ألف ضربة».
- «أخرس ياسانشو».

- «ألم يقل والدك أنّ أميركا هي ملاذ للأنذال ومعبد للعاهرات؟».
- «اخرس، سأخبرك».
- «قال إن كل من يذهب إلى الآنديز يترك ضميره على رصيف المرفأ».
- «ولهذا سنذهب، للننظّف شرفه، هذا الذي تبنّانا كأحرار في السجن».
- «ألا نستطيع أن نندبه هنا فقط؟».
- «هل تدعو هذه الخيانة تبجيلاً؟ الآن أيها الوغد! سننطلق ثانية. إذا كان قد صنعنا لنطوف في العالم، سنأخذه عبر العالم. أحضر لي خوذتي والدرع والرمح ياسانشو!».

١٦١٦: بوتوسي

- صور موكب -

جبل بوتوسي السحري: على هذه السهول المرتفعة والمعادية والتي منحت العزلة والبرد فقط، ازدهرت أكثر مدن العالم ازدحاماً بالسكان.

ترأس صلبان فضية فخمة الموكب الذي يتقدّم بين صفين من الرايات والسيوف. ترنّ على الشوارع الفضية الحوافر الفضية للأحصنة المزيّنة بالمخمل والسروج المطرّزة باللآلىء. من أجل التصديق على الذين يحكمون ومن أجل تقديم العزاء للذين يخدمون تمرّ الفضة في عرض متوهجة، واثقة، متبخترة، متأكدة أنه لايوجد مكان على الأرض لاتستطيع شراءه.

ترتدي المدينة ثياب المهرجان وعلى الشرفات تتدلى شعارات النبالة وأشياء أخرى، ومن بحر الحرير الذي يصدر حفيفاً ومن زبد البريمات وشلالات اللآلىء تراقب السيدات بإعجاب الموكب الذي يتقدّم والمؤلف من مجموعة أبواق وشومات[1] وطبول بأصوات حادة. كان بعض السادة يضعون عصابة سوداء على إحدى أعينهم وكانت تبدو أورام وجراح على جباهم، وهذه لم تكن علامات حرب بل سفلس. كانت القبلات وكلمات الغزل تطير من الشرفات إلى الشارع ومن الشارع إلى الشرفات.

تظهر شخصيات الأنانية والجشع المقنّعة. يغني الجشع من خلف قناعه الثعباني بينما حصانه يثب:

جَذْرَ جميع الشرور
يسمّونني، ولا أتعب أبداً
ليس لأشبع رغبة.

---

(١) ـ الشوم: آلة موسيقية خشبية قديمة.

تجيب الأنانية التي ترتدي بنطالاً أسود وسترة سوداء مطرزة بالذهب وقناعاً أسود تحت قبعة سوداء كثيرة الريش:

إذا غزوت الحب
وغزا الحبّ الموت، سيّتفق الجميع
أن لا شيء أقوى مني.

يرأس الأسقف جيشاً طويلاً وبطيئاً من الكهنة والتائبين الذين غطوا رؤوسهم مسلّحين بشموع طويلة وبشمعدان فضّي، بعد ذلك تفرض أبواق المذيعين أنفسها على أصوات أجراس الكنائس معلنة عن عذراء «كواديليوب» ضوء الصابرين، مرآة العدالة، ملاذ الخاطئين وعزاء المبتلين، النخلة الخضراء، الصولجان المزهر والصخرة المضيئة. تظهر في موجات من الذهب وأمهات اللآلىء تحملها أذرع خمسين هندياً مثقلة بجواهر كثيرة وتراقب بعينين مندهشتين صخب الملائكة ذات الأجنحة الفضية والعرض البديع لعابديها. وعلى حصان أبيض مطهم يجيء فارس السيف المشتعل تتبعه كتيبة من الخدم والغلمان ترتدي بزات بيضاء. يقذف الفارس قبعته بعيداً ويغني للعذراء:

رمادي كجمال سيدتي
التي تظهر كثيراً من الجمال
لتذهل السماء والأرض.

يركض الخدم والغلمان الذين يرتدون بزات أرجوانية خلف فارس الحب الإلهي الذي يجيء خبباً على حصانه كخيّال على الطريقة الرومانية وحوافّ ردائه الحريري الأرجواني تتأرجح في الريح. يركع على ركبتيه أمام العذراء ويخفض رأسه المتوج بالغار ولكن حين يهييء نفسه ليغني أشعاره ينبعث وابل من الدخان الكبريتي ويقاطعه. لقد غزت منصة الشيطان الشارع ولا أحد يعير أدنى انتباه إلى فارس الحي الإلهي.

يفتح الأمير تارتر، عابد محمّد، جناحيه الخفاشيين وتظهر الأميرة بورسبيرين التي تمتلك شعراً طويلاً وفستاناً طويلاً وتقذف من مكان عال تجديفات يصفّقُ لها أتباعها من الشياطين. وفي مكان ما يُلْفَظُ اسم يسوع المسيح وتنفجر منصة الجحيم مصدرة صوتاً مرتفعاً ــ يقفز الأمير تارتر والأميرة بروسبيرين عبر الدخان واللهب ويسقطان أسيرين عند قدمي أم الإله.

الشارع مغطّى بملائكة صغار وهالات وأجنحة فضّية متألقة أما الكمنجات والغيتارات والبزق والشومات تصدر ألحاناً عذبة. موسيقيات يرتدين ثياب عازبات يحتفلن بوصول الرحمة والعدالة والسلام والحقيقة، بنات بوتوسي الأربع الرشيقات محمولات على محفات من الفضة والمخمل، وكان للخيول التي تجرّ منصتهم صدور ورؤوس هندية.

بعد ذلك يجيء الثعبان ملتفاً ومتموجاً. يتقدّم الثعبان على أقدام هندية في الطريق المضاء بالمشاعل زارعاً الخوف والنار في الاحتفالات ومظهراً التحدي والقوة عند قدمي العذراء. حين يقطع الجنود رأسه بالفؤوس والسيوف يظهر من أحشاء الثعبان الآنكا بكبرياء محطم إلى أشلاء. جاراً ثوبه الفانتازي، يركع ابن الشمس على قدميه أمام الضوء الإلهي. كانت العذراء تزهو بردائها الذهبي وباليواقيت واللآلئ والصليب الذهبي الذي يشعّ على تاجها الإمبراطوري أكثر تألقاً من السابق فوق عينيها المندهشتين.

بعد ذلك يجيء الحشد. حرفيون من كل مهنة ومتشردون شحاذون يستطيعون أن يجبروا حتى العين الزجاجية على البكاء: المهجنون أبناء العنف، الذين ليسوا عبيداً أو أسياداً، يمشون على أقدامهم، إذ أن القانون يحظر عليهم اقتناء الخيول أو الأسلحة كما يمنع الخلاسيين من استخدام المظلات بحيث لا يستطيع أي شخص أن يخبيء وصمة العار التي تلوّث الدم إلى الجيل السادس. يجيء مع المهجنين والخلاسيين أرباعُ الزنوج وأنصاف السود وبقية الخلائط التي أنتجها الصياد وفريسته

وفي الخلف يتقدم حشد من الهنود محملاً بالفاكهة والأزهار وصحون الطعام التي يتصاعد منها البخار يتوسّلون إلى العذراء من أجل الصفح والعزاء

وفي نهاية المؤخرة كان بعض السود يجرّون المحفة التي تركها جميع الآخرين.

١٦١٦: سانتياغو باباسكويارو

- هل إله الأسياد، هو إله العبيد؟ -

تحدّث نبي هندي عن الحياة الحرّة. مرتدياً الثياب التقليدية، سافر عبر الصحارى والجبال مثيراً الغبار ومغنيّاً على الإيقاع الحزين لجذع شجرة أجوف عن الأعمال الفذة للأسلاف، وعن الحرية الضائعة. بشّر العجوز بالحرب ضدّ أولئك الذين احتلوا أراضي الهنود وآلهتهم وجعلوا الهنود يفجرون رثاتهم في مناجم.زاكاتيكاس. أعلن أن أولئك الذين ماتوا في الحرب الضرورية سينبعثون والعجائز الذين ماتوا وهم يقاتلون سيولودون شباباً وأقوياء.

سرق التيبيهوانيون البنادق وصنعوا وأخبأوا الأقواس والسهام لأنهم رماة مهرة كنجم الصباح، رامي السهام المقدّس. سرقوا الأحصنة وقتلوها ليأكلوا سرعة حركتها وقتلوا البغال ليأكلوا قوتها.

نشب التمرد في سانتياغو باباسكويارو في شمال دورانغوا. داس التيبيهوانيون، هنود المنطقة الأكثر مسيحية، والذين كانوا أوائل المرتدّين عن دينهم، على الصليب، وحين توسّل الأب برناندور سيزنيروس طالباً الرحمة، أجابوه: «ليساعدك الله». في الجنوب حطموا وجه العذراء بالمناجل وتجرعوا الخمرة بكؤوس القربان. وفي قرية «زابجي» طارد الهنود الملفعون بالأردية

الكهنوتية الجزويتية والقلنسوات، الإسبان الفارين عبر الغابات. ضربوا الأب هرناندو ديـل توفـار بالهـراوات في سانتا كاتارينا قائلين له: «لنر إذا كان الله سينقذك». انتهى الأب خوان ديـل فـالي متمدّداً عارياً على الأرض رافعاً يده التي ترسم إشارة الصليـب عاليـاً في الجـو، أمـا يـده الأخـرى فتغطي عضوه الذي لم يستخدم أبداً.

إلا أن العصيان لم يستمر طويلاً، إذ أن القوات الإستعمارية هزمت الهنود في سهول «كاكاريا». وسقط مطر أحمر على الموتى. سقط المطر عبر فضاء كثيف بالبارود وثُقِبَ الموتى بطلقات من الوحل الأحمر.

ترنّ الأجراس في زاكاتياس داعية إلى الولائم الاحتفالية. يتنهّد مالكو المناجم بارتياح، لن يكون هناك نقص في الأيدي التي تحفر. لاشيء سـيقاطع رخـاء المملكـة. سيكونون قـادرين علـى البـول بهدوء في الأوعية الفضّية ولن يمنع أحد زوجاتهم اللواتي تتبعهن مائة خادمـة وعشـرين فتـاة مـن حضور القدّاس.

١٦١٧: لندن

- نفخات تبغ فيرجينية في ضباب لندن. -

الشخصيات:

الملك: (ملك بريطانيا جيمس الأول، ملك اسكوتلندة السادس). لقد كتب: «إن التبغ يحوّل أعضاء الإنسان الداخلية إلى مطبخ، يوسخها ويملؤها بنوع من السخام الزيتي والمدهن. كتب أيضـاً أن أي شـخص يدخّـن يقلـد التصرفـات البربريـة والوحشـية للهنـود المتوحشـين والعبيـد والكفار».

جون رولف: استعماري انكليزي في فيرجينيا. إنه أحد الأعضاء الأكثر تميزاً من البشـر الخـاصّين الذين حدّدتهم واختارتهم إصبع الله... لأنه أنتج خلائط جيدة من التبغ في مزارعه وذلـك من البذور التي أحضرها إلى فيرجينيا من ترايني‌داد. أرسـل إلى لنـدن منـذ ثلاثـة أعـوام في سفينة إيلزابيت أربعة براميل مليئة بالأوراق التي افتتحت تجارة التبغ التي كانت مزدهرة سابقاً في لندن. يمكن أن يقال بشكل جيد إن جون رولف وضع التبغ على عرش فيرجينيـا كنبتة ملكية لها قوة مطلقة. في العام الماضي جاء إلى لندن مـع الحـاكم «ديـل» باحثـاً عـن مستعمرين جدد وإيداعات جديدة لشركة فيرجينيا واعداً بأرباح خيالية لأصحاب الأسهم، لأن التبغ بالنسبة لفيرجينيا سـيكون ماكانتـه الفضـة في البـيرو. جـاء أيضـاً ليقـدّم للملـك جيمس زوجته، الأميرة الهندية بوكاهونتاس المعمّدة باسم ربيكا.

السير توماس ديل: كان حاكماً لفيرجينيا حتى العام الماضي. جعل زواج رولف بوكاهونتاس قانونياً والذي هو أول زواج أنكلو ـ هندي في تاريخ فرجينيا على أساس أن هذا الزواج يعتبر عملاً سياسياً ملائماً جداً للمساهمة في تقديم تموين الحبوب والأيدي بسلام من قبل السكان المحليين. على أية حال، في طلبه للأذن لم يذكر جون رولف هذا الجانب من القضية ولم يذكر أيّ شيء عن الحب رغم أنها لم تبلغ الثمانية عشرة من العمر. قال رولف إنه أراد أن يتزوج هذه الوثنية، ذات الثقافة الوقحة والتصرفات البربرية والمنحدرة من جنس ملعون من أجل صالح مزرعته وشرف بلاده وعظمة الله ومن أجل خلاصه ولتحويلها إلى المعرفة الصحيحة بالله وبالمسيح.

بوكاهونتاس: كانت تعرف أيضاً باسم ماتوكا حين عاشت مع الهنود. كانت البنت المفضلة لدى الزعيم الكبير بوهاتان. بعد أن تزوجت رولف تركت عبادة الأوثان وغيرت اسمها إلى ربيكا وغطّت عريها بملابس إنكليزية. ارتدت قبعة وربطة عنق مرتفعة وجاءت إلى لندن واستقبلت في البلاط. كانت تتحدث وتفكر كامرأة انكليزية وشاركت زوجها في دينه الكالفيني بإخلاص ووجدت فيها شركة فرجينيا الداعم الأكثر قدرةً وغرابةً لتمكّنَ لنفسها في لندن. ماتت مصابة بمرض إنكليزي كانت تبحر في التايمز في طريقها إلى فرجينيا وحين انتظرت السفينة الرياح المفضّلة لفظت بوكاهونتاس نفسها الأخير بين ذراعي جون رولف في آذار عام ١٦١٧ ولم تكن قد وصلت إلى سن الواحد والعشرين.

أوبيكانكانوف: إنه عم بوكاهونتاس والأخ الأكبر للزعيم الكبير بوهاتان. منح العروس في الكنيسة البروتستانتية في «جيمس تاون». منذ ثلاثة أعوام لم ينطق بأية كلمة قبل وأثناء وبعد مراسيم الزواج إلا أن بوكاهونتاس أخبرت رولف بقصة عمها. عاش أوبيكانكانوف، مرة في إسبانيا وفي المكسيك، كان في ذلك الوقت مسيحياً معروفاً باسم لوي دي فيلاسكو ولكنه حالما عاد إلى بلاده تخلص من الصليب والرداء الكهنوتي ورماهما في النار، ذبح القساوسة الذين كانوا يرافقونه واستعاد اسم أوبيكانكانوف والذي يعني في اللغة الهندية: *هذا الذي يمتلك روحاً نظيفة*.

يجمع ممثل من مسرح غلوب تفاصيل هذه القصة ويسأل نفسه الآن وهو يواجه إبريقاً من البيرة، مالذي سيفعله بها. هل يكتب قصة حب مأساوية أم مسرحية أخلاقية عن التبغ وقواه الشريرة؟ أم يعدّ حفلة تنكرية يكون موضوعها غزو أميركا؟ ستنجح المسرحية بالتأكيد لأن لندن كلها تتحدث عن الأميرة بوكاهونتاس وزيارتها السريعة الزوال إلى هنا. هذه المرأة التي تعادل مجموعة من الحريم كلّ لندن تحلم بها عارية بين الأشجار وفي شعرها أزهار عطرية. أيّ ملاك منتقم طعنها بسيفه؟ هل كفّرت عن ذنوب شعبها الوثني أم هل كان موتها تحذيراً من الله لزوجها؟ التبغ، الإبن غير الشرعي لبروسبرين وباخوس... ألا يحمي الشيطان العقد الغامض بين

تلك العشبة والنار؟ هذا الدخان الذي يصيب الرجل الفاضل بالدوار، أليس ابن الشيطان؟ والفسق المخبوء لجون رولف.. وماضي أوبيكانكانوف، المعروف سابقاً باسم لوي دي فيلاسكو، أهو منتقم أم خائن؟.. يدخل أو بيكانكانوف إلى الكنيسة وذراعه في ذراع الأميرة .. طويلة، منتصبة، صامتة...

يختتم صائد الحكايات غير الحكيم عمله وهو يدفع ثمن بيرته ويخرج إلى الشارع قائلاً: «لا، لا، إن هذه القصة جيدة جداً للكتابة وكما قال شاعر الآنديز اللطيف «سيلفا»: إذا كتبتها ما الذي سيبقى عندي لأرويه لأصدقائي؟».

١٦١٨: ليما

- عالم صغير -

مات مالك فابيانا كريولا خفّض في وصيته ثمن حريتها من مئتين إلى مائة وخمسين بيزو.

أمضت فابيانا الليل دون أن تنام وهي تفكر كم يساوي صندوقها الخشبي المليء بمسحوق القرفة. لاتعرف أن تجمع ولهذا لا تستطيع أن تحسب الحريات التي اشترتها بعملها خلال نصف القرن الذي أمضته في العالم ولاثمن الأولاد الذين أنجبوا من خلالها وأخذوا منها.

يجيء الطائر مع ضوء الفجر الأول وينقر النافذة بمنقاره يعلن الطائر نفسه كل يوم أن وقت الاستيقاظ والذهاب قد حان.

تتثاءب فابيانا، تجلس على الحصيرة وتفحص قدميها المتآكلتين.

١٦١٨: لواندا

- الرحيل في السفينة -

يُقْبَضُ عليهم بشباك الصيادين. يتقدّمون الآن إلى الساحل مربوطين إلى بعضهم من أعناقهم بينما تصدح طبول الألم في القرى.

يساوي العبد على الشاطىء الأفريقي أربعين عقداً زجاجياً أو صفارة مربوطة إلى سلسلة أو مسدسين أو حفنة طلقات. كان يقدّم اللحم الإنساني مقابل الحصول على البنادق القديمة والمناجل وشراب الرُّم والحرير الصيني.

يفحص الكاهن عمود الأسرى على الرصيف الرئيسي لميناء لواندا. يتلقى كلّ عبد قرصة ملح على لسانه ورشة من الماء المقدّس على رأسه واسماً مسيحياً. يترجم المترجمون الموعظة: «أنتم الآن أبناء الله..»، ينصحهم ألا يفكروا بالأراضي التي يغادرونها وأن لايأكلوا لحم الكلب أو الجرذ أو

الحصان، يذكرهم بالرسالة الإنجيلية التي أرسلها القديس بولس إلى «أفسس»: «أيها العبيد اخدموا أسيادكم» يذكرهم باللغة التي صبّها نوح على أبناء حام الذين بقوا سوداً طوال العصور.

يشاهدون المحيط للمرة الأولى ويروّعهم هذا الوحش الكبير الذي يزأر. يظنون أن البيض يأخذونهم إلى مسلخ بعيد ليأكلوهم ليصنعوا منهم الزيوت والشحوم. تسوقهم سياطٌ مصنوعة من جلود جواميس البحر إلى قوارب كبيرة تعبر الأمواج المتكسرة. على السفن يواجهون مدفعية موزّعة على الطرفين. تمنعهم السلاسل والقيود من الانتحار غرقاً.

سيموت كثيرون في الرحلة وسيباع الباقون على قيد الحياة في أسواق أميركا ويوشمون ثانية بالحديد المحمّى.

لن ينسوا آلهتهم أبداً. سيتقنّع أوكسالا الذي هو رجل وامرأة بالقديس جيروينمو وبالقديسة بربارة. سيصبح أوباتالا يسوع المسيح وسيتحوّل «أوشن» الذي هو روح الحسية والمياه العذبة إلى عذراوات «كانديلياريا»، إلى الفهم والفضيلة والمتع وسيصبح القديسة آني في ترينيداد. خلف القديس جورج والقديس أنطوني والقديس ميخايل ستكمن رماح «أوغم» إله الحرب. سيغني «بابلو» داخل القديس لازاروس. ستحلّ رعود ونيران «شانغو» المخيف في القديس جون والقديسة بربارة وسيستمرّ «إيليكوا» في كوبا بامتلاك وجهين: الحياة والموت، وفي شمال البرازيل سيكون «لإيكسو» رأسان الإله والشيطان، ليقدم للمؤمنين العزاء والانتقام.

١٦١٨: ليما

ـ ظلمة شديدة ـ

يدفع الصديقان ردائيهما الرثين إلى الخلف ويكنسان الأرض بقيعتيهما. يتبادلان تحيات الاحترام ثم تبدأ المجاملات: «إن جدعتك شيء عجيب».

ـ «إن قرحتك التناسلية رائعة فنيّة».

يعبران قطعة الأرض الخالية والذباب يطاردهما.

يتحدثان وهما يبولان مديرين ظهريهما للريح.

ـ «مرّ وقت طويل ولم نر شيئاً».

ـ «إنني أهرب كذبابة. وتزداد معاناتي».

ـ «نعم».

يخرجُ السحلية كسرةُ خبز من جيبه. ينفخ عليها. يليّنها ويدعو شحاذ الخبز ليكون ضيفه. يتأملان الأزهار في النباتات الشائكة وهما جالسان على صخرة.

يقضم شحّاذ الخبز لقمة بأسنانه الثلاثة ويقول: «يوجد في السراي صدقات جيدة... إنه أفضل مكان لعين في ليما. إلا أن الحمّال رماني في الخارج ورفسني».

ـ «أنت لا تعني خوان أوتشوا؟».
ـ «إن اسم الشيطان أفضل له. يعلم الله أنني لم أفعل له شيئاً».
ـ «لم يَعد خوان أوتشوا هناك».
ـ «هذا صحيح».
ـ «لقد نبذوه ككلب والآن لم يعد حمّالاً في السراي ولم يعد يساوي شيئاً».
يبتسم شحاذ الخبز بعد أن شعر بأنهم انتقموا له. يمدّد أصابع قدميه العارية.
ـ «ألأنه قام بأعمال سيئة؟».
ـ «لا، لم يكن هذا هو السبب».
ـ «إذا لأنه كان غبيا جداً».
ـ «لا، لا، لأنه ابن خلاسي وحفيد زنجي. أسود جداً وبشكل مخز».

١٦٣٠: مدريد

ـ رقصات الشيطان تجيء من أميركا ـ

شكراً لجثة القديس إسيدور التي نامت قربه في الأيام القليلة الماضية، إن الملك فيليب الثالث يشعر بتحسّن. أكل هذا الظهر وشرب دون اختناق. أضاءت أطباقه المفضّلة عينيه وأفرغ كأس الخمرة بجرعة واحدة.

يرطب الآن أصابعه في الوعاء الذي يحمله خادم راكع. يقدم خادم الاستحمام المنديل إلى كبير خدم الأسبوع. ينقله كبير خدم الأسبوع إلى كبير الخدم. يركع كبير الخدم لدوق «أوسيدا» يأخذ الدوق المنديل ويحني رأسه ثم يسلمه للملك. وبينما يجفف الملك أصابعه يزيل الطفيليّ الفتات عن ثيابه ويصلي القسيس صلاة شكر لله.

يتثاءب فيليب، ويفكّ ياقته العالية المزركشة، ويسأل عن الأخبار.

يقول له الدوق أن هيئة إدارة المستشفى جاءت إلى القصر. إنهم يشكون أن الجمهور يرفض الذهاب إلى المسرح منذ أن منع الملك الرقصات، والمستشفى يعتمد على إيرادات المسرح. قالت الهيئة للدوق: «سيدي منذ أن توقفت الرقصات توّقفت الإيرادات. إن المرضى يموتون ولانملك شيئاً ندفعه من أجل الضمادات والأطباء». يقرأ الممثلون أشعاراً ألّفها لوب دي فيغا تمجّد الهنود:

تاكويتان ميتاناكوني
إسباني من هنا إلى هناك

لا يوجد في إسبانيا حب
هكذا يبدو لي
هناك الأنانية هي الملك
أما هنا فالحب.

لكن مايريده الجمهور من أميركا هو الرقصات والأغاني غير المحتشمة التي تثير البشر الأكثر احتراماً. لافائدة للممثلين في جعل الأحجار تبكي والموتى يضحكون ولا في جعل الفنون المسرحية تستخرج الإضاءة من الغيوم الكرتونية. تقول هيئة المستشفى وهي تئن: «إذا بقيت المسارح خالية يجب أن تغلق المستشفيات».

يقول الدوق: «أخبرتهم أن جلالتكم سيقرّر».

يحكّ فيليب ذقنه ويفحص أظافره.

ـ «إذا لم يغير جلالتكم رأيه فإن ما مُنِعَ قد مُنِعَ وبشكل جيد».

إن رقصة السربندة والشاكون تجعل الجنس يشع في الظلام. لقد شجب الأب ماريانا هذه الرقصات التي هي ابتكارات الزنوج الأميركان المتوحشين وهي شيطانية في كلماتها وحركاتها. حتى في المواكب تسمع أشعارهم التي تمدح الخطيئة وحين تنفجر إيقاعات دفّهم الداعر وصنوجهم لاتستطيع حتى الراهبات في الأديرة أن يسيطرن على أقدامهن وعلى دغدغات الشيطان التي تكهرب أردافهنّ وبطونهن.

تلاحق عينا الملك طيران ذبابة كبيرة كسولة بين بقايا المأدبة. يسأل الملك الذبابة: «وأنت، ماذا تعتقدين؟».

يظنّ الدوق أن الكلام موجّه إليه فيقول: «إن هذه الرقصات التهريجية هي موسيقا لِسَبْتِ السحرة كما قال جلالتكم بشكلٍ جيد، ومكان السحرة هو النار في الساحة الرئيسية».

تختفي الحلويات عن الطاولة إلا أن الرائحة تعلق في الجوّ.

يأمر الملك الذبابة هاذياً: «أنت التي تقرّرين».

يلحّ الدوق: «إن أسوأ عدو لجلالتكم لايستطيع أن يتهمكم بعدم التسامح. كان جلالتكم متسامحاً. في زمن الملك والدك حفظه الله..».

يهذي فيليب: «ألست أنت التي تقودين؟».

ـ «إن كل من تجرأ على رقص السربندة حصل على مكافأة مختلفة... مائتي جلدة وجرعة تجذيف في السفن».

يهمس الملك ويغلق عينيه: «أقول، أنتِ.».

ـ «أنت»، وتظهر كمية من الزبد واللعاب الذي ينتجه فمه دائماً بإفراط على شفتيه.

يشمّ الدوق رائحة احتجاج. فيغلق فمه حالاً وينسحب على رؤوس أصابع قدميه.

يغلب النعاس فيليب الذي ثقل جفناه ويحلم بامرأة ريّانة عارية تفترس ورق اللعب.

١٦٢٢: سيفيل

- الجرذان -

إن الأب أنطونيو فاسكويز دي اسبينوزا الذي وصل حديثاً من أميركا هو ضيف الشرف.

بينما كان الخدم يقدمون قطع الديك الرومي مع الصّلصة اندفعت موجات زبدية في الجو وجنّنت العاصفة بحراً أبيض مرتفعاً وحين جيء بالدجاجات المحشية سقطت أمطار استوائية على المائدة. يروي الأب أنطونيو أن المطر يسقط عنيفاً على الساحل الكاريبي حتى أن النساء يحملن ويولد أبناؤهن وهم ينتظرون توقفه، وحين يتوقف يكونون قد كبروا.

يأكل الضيوف الذين سحرتهم القصة والمأدبة ويصمتون، يمتلىء فم الكاهن بالكلمات وينسى الطعام. يستمع الأولاد والنساء الجالسون على الوسائد وكأنهم في قدّاس.

كان العبور من ميناء هوندوران في تروجيللو إلى سانلوكار دي باراميدا عملاً فذاً. تابعت السفن طريقها وهي تصطدم ببعضها، تعذّبها رياح عنيفة باردة. ابتلع البحر الغاضب عدة سفن والتهمت أسماك القرش كثيراً من البحارة. ولكن لم يكن هناك شيء أسوأ من الجرذان، قال الأب أنطونيو هذا وهو يخفض صوته.

ملأ الله السفن بالجرذان ليعاقب الذين ارتكبوا ذنوباً كثيرة في أميركا والذين لا يكترثون بالإعتراف أو بالعشاء الرباني كما يجب أن يفعلوا قبل أن يصعدوا إلى السفن. وضعها في المخزن بين المؤن وتحت مؤخرات السفن وتحت قاعة الكوثل وفي القمرات وعلى مقعد القبطان. كانت جرذاناً كبيرة وكثيرة أثارت الخوف والإعجاب. سرقت الجرذان أربعة قنطارات خبز من الحجرة التي كان الكاهن ينام فيها بالإضافة إلى البسكويت الذي كان تحت باب القبو. افترست لحم الخنازير وجوانب قطع اللحم المقدّد في المخزن الصدري لمؤخرة السفينة. وحين ذهب المسافرون الظامئون ليبحثوا عن الماء وجدوا جرذاناً غارقة تعوم في الصهاريج. وحين ذهب الجائعون إلى خنّ الدجاج، كان كل ما عثروا عليه هو العظام والريش وربما على دجاجة زاحفة بقدمين مقروضتين. لم تنج حتى الببغاوات وهي في أقفاصها. وبدأ البحارة يراقبون الماء والطعام المتبقيين ليلاً ونهاراً مسلحين بالهراوات والسكاكين فهاجمتهم الجرذان وعضّت أيديهم وأكلت بعضهم.

وصلت الجرذان إلى الزيتون والفاكهة إلا أن الحلويات بقيت سليمة ولم تلمس قطرة من الخمرة.

- «هل ترغبون بسماع الصلوات الجديدة التي ألفتها؟ بما أن الصلوات القديمة لم تُهدئْ غضب الرب. ؟».

لايجيبه أحد.

يسعل الرجال ويرفعون المناديل إلى أفواههم. اختفت النساء الواقفات اللواتي كن يصدرن أوامرهن إلى الخدم. كان الذين يستمعون وهم جالسون على الأرض حُولاً وفاغري الأفواه. يرى الأطفال الأب أنطونيو بأنف كبير وأسنان ضخمة وبشارب طويل ثم يحنون رؤوسهم باحثين عن ذيله تحت الطاولة

١٦٢٤: ليما

- بشر للبيع -

- «إمشي!».
- «أركض!».
- «غنِّي!».
- «ما هي عيوبه؟».
- «افتح هذا الفم!».
- «هل هو سكران أم مشاكس فقط؟».
- «كم تدفع ياسيدي؟».
- «والأمراض؟».
- «يساوي هذا الثمن مرتين».
- «اركض».
- «من الأفضل ألا تغشني وإلا سأعيده».
- «إقفز أيها الكلب».
- «لاتحصل على بضائع كهذه مقابل لاشيء».
- «اجعله يرفع ذراعيه».
- «اجعله يغني جيداً بصوت مرتفع».
- «هل لهذه المرأة أولاد أم لا؟».
- «لنر أسنانها».

يجرونهم من أذن واحدة وسيوشم اسم المشتري على الخدود أو الجبهة وسيكونون أدوات عمل في المزارع وأحواض الصيد والمناجم أو أسلحة في الحرب سيصبحون قابلات وظئرات[1] يمنحن الحياة ليأخذها الجلّادون وحافرو القبور. سيصبحن مغنيات ولحماً للفراش.

(١) ـ ظئرات: مرضعات لغير أولادهن.

تقع زريبة العبيد إلى اليمين في وسط ليما إلا أن مجلس المدينة صوّت لتوه من أجل إزالتها. سيوضع السود المعروضون للبيع في محجر للأرقاء يقع على الجانب الآخر من نهر ريماك قرب مسلخ «سان لازاور». هناك سيصبحون بعيدين عن المدينة بحيث لاتحمل الرياح أبخرتهم المعفنة والمعدية.

١٦٢٤: ليما

ـ أسود يسوق أسود ـ

عرض ثلاثة عبيد أفارقة في شوارع ليما بأيد موثقة وأعناق مقيدة بالحبل. كان الجلادون، الذين هم أيضاً سود، يمشون خلفهم بعد كل بضعة خطوات تنهال عليهم مائة ضربة سوط وحين يسقطون تخصص لهم ضربات أخرى.

أصدر رئيس البلدية الأمر. لقد أدخل العبيد ورق لعب إلى مقبرة الكاتدرائية وحوّلوها إلى مقمرة مستخدمين أحجار القبور طاولات وكان رئيس البلدية يعرف أن هذا الدرس سيكون عبرة لجميع السود الذين أصبحوا وقحين وكثيري العدد ومدمني شغب.

يستلقي الثلاثة الآن في فناء منزل سيدهم. ظهورهم لحم ممزّق. يعوون حين تغسل جراحهم بالبول والرّم.

يلعن مالكهم رئيس البلدية، يهزّ قبضته ويقسم بأن ينتقم، لأنه لايجوز لأحد أن يلعب ألعابا كهذه بملكية بشر آخرين.

١٦٢٤: ليما

ـ الشيطان يعمل ـ

يشعّ القمر متألقاً حين تعلن أجراس الكنيسة عن الساعة الواحدة. يغادر خوان موغروفيخو سيردا البار ويسير في ليل ليما المعّطر ببراعم أشجار البرتقال.

في تقاطع شارع «باركن» يسمع أصواتاً غريبة أو أصداء، فيتوقف ويصغي.

أسموديو يقول إنه تحرّك عدة مرات منذ أن أبحرت سفينته من سيفيل. لدى وصوله إلى بورتوبيللو سكن في أجساد تجار عديدين يسمّون الخدع القذرة صفقاتٍ، والسرقة عملاً، وأداةَ فتحِ الأقفال عصاً للقياس، وعاش في بنما في رجل أعمال دجّال بإسم مزّيف كان يحفظ غيباً كيف يتصرّف كدوق ومركيز...

ـ «أخبرني يا أسموديو، هل ينتبه هذا الشخص لقواعد الطبقة الأرستقراطية الحديثة؟».

ـ «جميعهم يا أمونيو. كان يكذب ولم يدفع أبداً ديونه ولم يزعج نفسه بالوصية السادسة. كان يستيقظ متأخراً دائماً ويتحدث أثناء القداس ويشعر بالبرد طوال الوقت فَكِّرْ فقط كم هو قاس أن

يشعر المرء بالبرد في بنما والتي قامت بمحاولة جيدة لتصبح جحيمنا. في بنما تتعرّق الأحجار، والناس يقولون: أسرعوا بالحساء. سوف تزداد سخونته».

لايستطيع دون خوان دي موغروفيخو الدائخ أن يرى أسموديو أو أمونيو الذين يتحدثان من مكان ما، لكنه يعرف أن أسماء كهذه لاتخطر في حيوات القدّيسين، ورائحة الكبريت التي لايمكن أن يخطىء في معرفتها المرء كافية لفهم فحوى هذه المحادثة البليغة. يبسط دون خوان ظهره على الصليب الطويل في تقاطع شارع «باركن» الذي يسقط ظله على الشارع ليبقى بعيداً عن أمونيو وأسموديو، يصلّب ويستحضر سرية من القدّيسين لتحميه وتنقذه. إلا أنه لايستطيع أن يصلي لأنه يريد أن يصغي ولن يفقد كلمة واحدة من هذا الحديث.

يقول أسموديو أنه غادر جسد ذلك السيد ليدخل إلى كاهن مرتد عن دينه وبعد ذلك وفي الطريق إلى البيرو وجد سكناً في أحشاء سيدة ورعة كانت مختصة ببيع الفتيات.

ـ «هكذا وصلت إلى ليما ونصيحتك حول العمل في متاهاتها كانتْ مفيدة جداً. قل لي ماذا يحدث في هذه البراري... هل تجمع الثروات هنا بشكل شريف؟».

ـ «لو كانت تجمع بشكل شريف، ستكون الجحيم أقل ازدحاماً».

ـ «ماهي أفضل طريقة لإغراء رجال الأعمال».

ـ «فقط ضعهم في العمل واتركهم فيه».

ـ «هل يحب الناس هنا أو يحترمون أسيادهم؟».

ـ «الخوف».

ـ «إذاً ماذا عليهم أن يفعلوا ليستمروا؟».

ـ «لايستحقون ذلك».

يستحضر دون خوان عذراء «آنتوش» ويبحث عن المسبحة التي نسيها ويمسك بمقبض سيفه بينما تستمر الأسئلة وأجوبة أمونيو السريعة.

ـ «أخبرني هل يرتدي ثياباً جيدة أولئك الذين يفترضون أنهم أفضل الناس؟».

ـ «يستطيعون ذلك نظراً لأنهم يجعلون الخياطين منشغلين طوال العام».

ـ «هل يتذمرون كثيراً؟».

ـ «في ليما الوقت دائماً مناسب للتذمر».

ـ «والآن أخبرني لماذا يغيرون في بعض الأسماء؟».

ـ «أولاً ليتجنبوا قول الحقيقة وثانياً كي لايسمي أحد القدّيسين».

تهاجم نوبة سعال دون خوان في تلك اللحظة. يسمع صرخات: «لنذهب! لنهرب!»، وبعد صمت طويل يخلص نفسه من الصليب الذي يحميه. يتحرك بركبتين مرتجفتين نحو شارع «ميرشانت» وبوابات «بروفنسيا». لم يبق من الرجلين المهذارين نفخة دخان واحدة.

١٦٢٤: سيفيل

- الفصل الأخير من حياة النذل -

يعكس النهر وجه الرجل الذي يستنطقه.

- «ماذا أفعل ببطلي؟ هل أقتله؟».

يرقص حذاؤه الضيّق المتدلي من الرصيف الحجري فوق نهر «كوادالكويفر» يمتلك هذا الرجل عادة أن يهزّ قدميه حين يفكر.

- «يجب أن أقرّر. أنا الذي خلقته وجعلته ابن حلاّق وساحرة وابن أخ جلاّد. توّجته أميراً على العالم السفلي للقمل والشحاذين وعلاّفاً للمشنقة».

تشعّ نظارته على المياه المتدرجة نحو الخضرة وتثبت على الأعماق حين يطلق أسئلته: «ماذا أفعل؟ علّمته أن يسرق الدجاج ويستدر الصدقات باسم جراح المسيح. تعلّم مني الغشّ في لعبة الطاولة والورق والمبارزة. بفنوني أصبح دون جوان الراهبات ومهرجاً مشهوراً».

يجعد فرانسيسكو دي كويفيدو أنفه ليجعل نظارته مرتفعة إلى الأعلى: «إنه قراري ويجب أن أتّخذه. لم يوجد أبداً رواية في تاريخ الأدب لم تحتو فصلاً أخيراً».

يمد عنقه باتجاه السفن التي تخفض أشرعتها وهي تقترب من أرصفة المرفأ.

- «لم يعان أحد منه كما عانيت. ألم أجعل جوعه جوعي حين كانت معدته تئن وحين لم يكن بوسع المستكشفين أنفسهم أن يعثروا على عينين في رأسه. إذا كان يجب أن يموت دون بابلو، ينبغي أن أقتله إنه مثلي، فلذة بقيت من ألسنة اللهب».

يحدق من بعيد شاب رث الملابس بالسيد الذي يحكّ رأسه متكئاً فوق النهر. يقول الصبيّ لنفسه: «لابد أنه عفريت عجوز، عفريت عجوز مجنون يحاول أن يصطاد بدون سنارة».

يقول كويفيدو في نفسه: «هل أقتله؟ ألا يعرف الجميع أن تحطيم المرايا يجلب النحس؟ هل أقتله؟ لنفترض أنني جعلت الجريمة عقوبة عادلة لما اقترفه في حياته الشريرة؟ سيكون حصة صغيرة للمفتش ورجال الرقابة. إن مجرّد التفكير بمتعتهم يلوي معدتي».

يبدأ طيران النوارس. ترسو سفينة قادمة من أميركا. يقفز كويفيدو ماشياً. يتبعه الصبي مقلداً مشيته المتقوّسة.

يتوهج وجه الكاتب. لقد عثر على ظهر السفينة على القدر الملائم لشخصيته؟ إنه سيرسل النذل دون بابلو إلى الآنديز. أين في غير أميركا يمكن أن تنتهي حياته؟ أصبح لروايته خاتمة وهاهو كويفيدو يمشي شارداً في مدينة سيفيل هذه حيث يحلم الرجال بالرحلات والنساء بالعودة إلى الأوطان.

١٦٢٤: مدينة المكسيك

- نهرٌ من الغضب -

يقذف الحشد الذي يغطي الساحة الرئيسية والشوارع المجاورة اللعنات والأحجار على قصر نائب الملك. تتكسر أحجار الأرصفة والكلمات التي تتهمه بالخائن واللص والكلب ويهوذا على المصاريع والمداخل المحكمة الإغلاق. تختلط الشتائم المنصبّة على نائب الملك مع صيحات الابتهاج بكبير الأساقفة الذي عزله من الكنيسة لأنه يضارب بخبز هذه المدينة. كان نائب الملك يخزن لبعض الوقت الذرة والقمح في مخازنه الخاصة ويلعب بالأسعار. يغلي الحشد: «اشنقوه. اضربوه. اضربوه حتى الموت» يطالب البعض برأس الضابط الذي دنّس الكنيسة بجرّه لكبير الأساقفة خارجها، آخرون يريدون أن يعدموا «ميخيا» الذي يرأس صفقات عمل نائب الملك والجميع يريدون أن يشووا نائب الملك المحتكر بالزيت.

ترتفع الرماح والعصي والمطارد فوق الرؤوس وطلقات البنادق والمسدسات ترفع أيد لامرئية راية الملك فوق سقف القصر وتعول الأبواق طالبة النجدة لكن لايأتي أحد لمساعدة نائب الملك المحشور في الزاوية. أغلق سادة المنطقة قصورهم على أنفسهم وهرب القضاة والمسؤولون عبر الشقوق. ورفض الجند أن يطيعوا الأوامر.

لاتقاوم جدران السجن عند الزاوية الهجوم. ينضّم السجناء إلى المدّ الغاضب. تسقط بوابات القصر وتلتهم النار الأبواب ويغزو الرعاع الغرف إعصاراً ينزع ستائر الجدران ويكسر أقفال الصناديق الكبيرة ويلتهم مايصادفه.

هربَ نائب الملك مقنّعاً كأسقف عبر قناة سرية إلى أبرشية سان فرانسيسكو.

١٦٢٥: مدينة المكسيك

- ما الذي تحبّه في مدينتنا؟ -

يسلّي الأب توماس كيج الذي وصل حديثاً نفسه في منتزه «ألاميدا». يراقب بعينين جائعتين السيدات وهن يتجوّلن في نفق بين الأشجار الطويلة. لايوجد امرأة واحدة ترتدي شالاً أو طرحه تصل إلى تحت الخصر، فمن الأفضل إظهار الأرداف المتأرجحة وتصنّع المشية الجميلة. كان يمشي خلف كلّ سيدة مجموعة من النساء السود والخلاسيات الجذابات تظهر أثداؤهن من تقويرات فساتينهن. ومن أجل الإثارة والدعابة يثبتن أزهارا على أحذيتهن العالية الكعب ويلففن على جباههن عصابات حريرية عليها كلمات مطرزة.

يصل القسّ إلى القصر محمولاً على ظهر هندي.

يقدّم له نائب الملك الأنناس والشوكولاته الحارة ويسأله ما الذي يحبه في المدينة.

قاطع المضيف مديح الأب كيج للمكسيك ولنسائها وعرباتها وأزقتها قائلاً: «هل تعرف أنني أنقذتُ حياتي بشعرة؟ وشعرة من رجل أصلع في ذلك.. ».

تنبثق من فم نائب الملك جداول أخبار عن انتفاضة العام الماضي.

بعد الكلام عن الدخان الكثير والدم وبعد صحنين آخرين من الشوكولاتة يعرف الأب كيج أن نائب الملك أمضى عاماً في أبرشية سان فرانسيسكو ومايزال غير قادر على الخروج من القصر خوفاً من أن يجازف بتلقي وابل من الأحجار. على أية حال، إن كبير الأساقفة المرتدّ يعاني من عقوبة النفي في «زامورا» البائسة والبعيدة وأرسل بعض القسيسين للتجذيف في السفن وكان شنق ثلاثة أو أربعة من المشاغبين كافياً لسحق وقاحة العامّة.

يقول نائب الملك· «لوكان الأمر بيدي لشنق الجميع». ينهض عن كرسيه ويعلن: «الجميع! جميع سكان هذه المدينة اللعينة». يعود إلى الجلوس ثانية. ثم يتنفس ويقول: «إن هذه الأراضي جاهزة دائماً للتمرّد. لقد نظّفت شوارع المكسيك من العصابات».

يضيف بثقة وهو يمطّ عنقه: «أتعرف شيئاً ما؟ أبناء الإسبان، الذين ولدوا هنا... من كان على رأس التمرد؟ لقد كانوا هم. الكريبوليون! يعتقدون أنهم يملكون البلاد ويريدون أن يحكموا...».

يحدق الأب كيج بعيني متصوف إلى الشمعدان الكريستالي الذي يهّدد بلطم رأسه ويقول: «لقد أساؤوا إساءة مجحفة بحق الله.. إنها سدوم ثانية.. لقد رأيتها بأم عيني هذا المساء.. إنها متع أرضية..».

يهزّ نائب الملك رأسه مؤكداً.

يمرّر القس جملة: «سوف يقطعون عاجلاً كالعشب. سوف يذبلون كما تذبل الأعشاب الخضراء».

يتناول رشفة الشوكولاته الأخيرة.

يضيف وهو يضع الكوب الصغير في صحنه بهدوء: «هذا ماينصّ عليه المزمور السابع والثلاثين».

١٦٢٥: ساماياك

- رقصات هندية منعت في غواتيمالا -

يعلن القساوسة أنه لم يبق ذكرى أو أثر للطقوس والعادات القديمة في إقليم فيراباز.. إلا أن أصوات المنادين في البلدة تصبح خشنة وهي تعلن تعاقب مراسيم الحظر.

يصدر الآن خوان مالدونادو القاضي الملكي قوانين جديدة ضد رقصات مؤذية لصيّادي الهنود ولحفظ القانون المسيحي الذي يقرّون به، لأن رقصات كهذه تحضر إلى الذهن تضحيات قديمة

وطقوساً مسيئة لإلهنا. إن الهنود يبذرون الأموال على الريش وآنية الشرب التي تمنعهم من العمل في المزارع ومن دفع الجزية والحفاظ على منازلهم.

إن أيّ شخص يرقص رقصة «التن» سيجلد مائة جلدة. في رقصة التن يبرم الهنود عقداً مع الشيطان. إن «التن» أو «رابينال آشي» هي رقصة خصب ممسرحة بالكلمات والأقنعة. والتن هو أيضاً جذع شجرة أجوف ترافق قرعه أصوات أبواق طويلة صدّاحة، حين تستمر مسرحية ابن الكويتشيين، سجين «الرابيناليين» يرقص المنتصرون ويغنون تمجيداً لعظمة المقهور الذي يودّع أرضه توديعاً مشرفاً ويصعد إلى المحرقة حيث سيقدّم أضحية.

١٦٢٦: بوتوسي

- إله غاضب -

تتطوفن البحيرة، تهدم السدّ وتغزو المدينة. يحطّم الطوفان أشياء كثيرة إلى أشلاء. تجرّ البغال أشلاء البشر خارج الوحل. ينتهي مزيج من الإسبان والكريبوليين والهجن والهنود في قبور مشتركة. تبدو منازل بوتوسي جثثاً محطّمة.

لايهدأ غضب بحيرة «كاريكاري» إلى أن ينظّم القساوسة عرضاً لمسيح الصليب الحقيقي. تهدأ المياه حين ترى الموكب يقترب. سمعت هذه المواعظ نفسها من جميع منابر البيرو في تلك الأيام: «أيها المذنبون، إلى متى ستلعبون ألعابكم مع رحمة الرب؟ إن صبر الربّ لانهائي. إلى متى أيها المذنبون؟ ألم تكفكم التحذيرات والعقوبات؟».

ليس انفجار بحيرة بوتوسي شيئاً جديداً في هذه البقاع العريضة الخصبة. سقطت منذ خمسة وأربعين عاماً صخرة كبيرة على مجموعة من السحرة الهنود في «آتشوكالا» التي تقع على بعد بضعة فراسخ من مدينة «لاباز». كان الناجي الوحيد هو الزعيم الذي أصيب بالخرس وروى القصة بالإشارات. دفنت صخرة أخرى مجموعة من الهراطقة الهنود بعد وقت قصير في «ياناأوكا» قرب «كوزكو». بعد عام انفتحت الأرض وابتلعت الرجال والمنازل في «آركوبيا»، وبما أن المدينة لم تتعلم من هذا الدرس أظهرت الأرض مخالبها بعد فترة وجيزة ولم تترك شيئاً منتصباً سوى أبرشية سان فرانسيسكو وفي عام ١٥٨٦ اجتاح المحيط مدينة سان ماركوز دي آريكا وجميع مرافئها وشواطئها.

حين بدأ القرن الجديد، ثار بركان آبيناس. كان غضبه عظيماً إلى درجة أن رماده عبر سلاسل الجبال براً ووصل إلى شواطىء نيكاراغوا بحراً.

ظهر نجمان محذران في هذه السماء عام ١٦١٧ ومكثا رافضين الذهاب. أخيراً تحركا بعيداً. شكراً للأضحيات ولوعود المؤمنين في جميع أنحاء البيرو الذين صلّوا التاسوعية[1] بدون توقف.

(١) ـ التاسوعية: عبادة تستمر تسعة أيام.

١٦٢٨: شيباس

الشوكولاتة والأسقف

لايضع فلفلاً أسود كالذين يعانون من مشاكل في الكبد لايضيف الذرة لأنها تسبّب انتفاخاً في البطن. يضيف بسخاء القرفة التي تساعد على إفراغ المثانة وتقوّي البصر والقلب لايستثني الفلفل الحار المطحون جيداً. يضيف ماء زهر البرتقال والسكر الأبيض ومسحوقاً شجرياً ليمنح اللون ولاينسى أبداً حفنة اليانسون وحفنتين من الفانيلا ومسحوق زهرة الإسكندرية.

يعبد الأب كيج الشوكولاتة المزبدة المحضرة جيداً. إذا لم تغمس الحلويات والمرزبانية[1] في الشوكولاته لن يكون لها نكهة. يحتاج كوباً من الشوكولاتة في منتصف الصباح ليخرج، وكوباً آخر بعد العشاء لينهض عن الطاولة وآخر ليتمدّد في الليل ويصدّ النعاس.

منذ أن وصل إلى شيباس لم يلمسها. يحتجّ بطنه، إلا أن الأب توماس يفضّل أن يعيش بشكل سيء بين الدوخات والاغماءات إذا كانت تجنبه القدر الذي قتل الأسقف بيرناردو دي سالازار.

حتى وقت متأخر، كانت نساء هذه المدينة تذهب إلى القدّاس مع مجموعة من الخادمات والوصيفات اللواتي بالإضافة إلى حمل الوسائد المخملية، يحملن كانوناً وأداة للتسخين وكأساً لتحضير الشوكولاتة. ولأن للنساء معداً حساسة، لايتحمّلن عناء الصلاة بدون الإكسير الساخن الذي مايزال جزءاً من القدّاس الأكبر. هكذا كان الأمر إلى أن قرّر الأسقف بيرناردو دي سالازار أن يحظر هذه العادة بسبب الفوضى التي سبّبتها في الكنيسة.

انتقمت السيدات، ومات الأسقف في صباح أحد الأيام في مكتبه. وعند قدميه كانت قطع الكوب الذي قدّمه أحد ما لَهُ، تستلقي مبعثرة.

١٦٢٨: مدريد

دم أزرق للبيع

وقع الأسطول الإسباني في يد القرصان بيت هن مقابل شاطىء ماتنزاس في كوبا. ستذهب كلّ الفضة القادمة من المكسيك والبيرو إلى هولندة. رُفّع «هن» في أمستردام إلى أميرال فخري وحُضّر له استقبال كأنه بطل قومي. من الآن فصاعداً سيغني الأطفال الهولنديون:

بيت هن، بيت هن
إسمك قصير
لكنّ شهرتك طويلة.

(١) ـ المزربانية: حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض.

في مدريد تحكّ الرؤوس لم يبق سوى ثقب في الكنز الملكي.

يقرّر الملك من ضمن إجراءات الطوارىء الأخرى أن يعرض في السوق ألقاب النبلاء للبيع. تمنح النبالة للأعمال المميّزة. وما هو العمل الأكثر تميّزاً من الحصول على المال لدفعه من أجل ذلك؟ يستطيع أيّ عاميّ أن يستيقظ في الصباح نبيلاً له نسب عريق بأربعة آلاف دوقية والذي كان البارحة إبن يهودي أو حفيد مسلم يستطيع أن يبدأ يومه بدم نقيّ.

إلا أنه يمكن الحصول على الألقاب التانوية بثمن أقل. يوجد في قشتالة كثير من النبلاء الذين سيخرجون رافعين مؤخراتهم إلى الأعلى إذ لم تغطّيهم أرديتهم، سادة عظمة وهمية يعيشون وهم يزيلون أوساخاً غير مرئية عن جركيناتهم[1] وشواربهم: إنهم يقدمون للّذي يدفع ثمناً أعلى حق استخدام كلمة «دون» والتي هي كل ما تبقى لديهم.

أولئك الذين فقدوا مكانتهم في العالم يشتركون مع أولئك الذين يركبون عربات فضّية بالإحساس بالشرف والحنين إلى العظمة وبالرعب من العمل ـ والتسوّل أقل قيمة ـ وباحتقار الإستحمام الذي هو عادة المغاربة والإستحمام غريب عن الدين الكاثوليكي ويُغْضِب محاكم التفتيش.

ـ أغنية عن اليد الآندية تغنّى في إسبانيا ـ

يذهب المرء إلى روندا من أجل الإجّاص
ومن أجل التفاح إلى أرغوناليس
يذهب إلى الآنديز ليجمع نقوداً
وإلى سييرا لارتكاب الحماقات.

ذهب زوجي إلى الآنديز
لينهي بؤسه:
جاء ليخبرني أخباراً كثيرة
وبأشياء ثمينة قليلة من أجل الصرف.

ذهب زوجي إلى الآنديز
وأحضر لي خنجراً

---

(١) ـ جركينة: سترة طويلة ضيّقة لاكمين لها.

عليه نقش يقول:
إذا أردت أن تأكل يجب أن تعمل.

يذهب الرجال إلى الآنديز
من أجل قبّرة ذهبية.
إنهم يمتلكون الآنديز ها هنا
إذا أردوا فقط أن يعملوا.

١٦٢٩: لاس كانكريخيراس

- باسكونان -

يصرّ رأسه ويتألم. ممدّداً في الوحل وسط كومة من الموتى، يفتح نونيز دي بينيدا عينيه: العالم لوحة من الدم والوحل ملطخةٌ بالمطر الذي يدوّم ويرتدّ ويطرطش ويرتدّ

يرمي الهنود أنفسهم عليه. يمزقون درعه وخوذته الحديدية التي بعجتها الضربة التي صرعته ثم يعرّونه. يصلّب فرانسيسكو قبل أن يقيدوه إلى جذع شجرة.

تسفع العاصفة وجهه. يتوقف العالم عن الدوران. يخبره صوت من داخله عبر صرخات الآروكانيين: «أنت في مستنقع في إقليم تشيلان، في أرضك، تشيلي. هذا المطر هو الذي رّطب بارودك وهذه الريح هي التي أطفأت فتائلك. لقد خسرت. أصغ لهؤلاء الهنود الذين يتجادلون حول طريقة موتك».

يتمتم فرانسيسكو صلاته الأخيرة.

فجأة تتطاير مجموعة من الريش الملوّن عبر المطر. يفسح الآروكانيون طريقاً للحصان الأبيض الذي يخرج من منخريه ناراً متفجرة ومن فمه زبداً. يهمز الخيّال المقنّع بخوذةٍ حصانه بشدّة. يقف الحصان على قائمتيه أمام «موليكان» المنتصر. يخيّم الصمت على الجميع.

يفكّر فرانسيسكو: «إنه الجلاّد. انتهى كلّ شيء الآن».

يقول الخيّال المريّش شيئاً ما لموليكان. يسمع فرانسيسكو فقط صوت المطر والريح. ولكن حين يختفي الخيّال يفك موليكان وثاق الأسير وينزع رداءه ويغطيه به.

بعد ذلك تعدو الأحصنة إلى الجنوب.

١٦٢٩: ضفاف نهر البيو ـ بيو

ـ بوتابيتشون ـ

يشاهدون حالاً حشداً يتقدّم من ناحية الجبال البعيدة. يخز موليكان حصانه ويتقدّم ليلتقي بالزعيم بوتابيتشون.

كان مع المجموعة القادمة من سلاسل الجبال أسير يتعثر بين الأحصنة مقيداً من عنقه بحبل.

ينصب بوتابيتشون رمحه الثلاثيّ الرؤوس على التلة المسطّحة. يفك وثاق الأسير ويرمي غُصْناً على قدميه.

ـ «سمّ القادة الثلاثة الأكثر شجاعة في جيشكم».

يتلعثمُ الجندي: «لاأعرف».

يأمر بوتابيتشون: «سمِّ واحداً».

ـ «لاأذكر».

ـ «سمّ واحداً»

يسمى والد فرانسيسكو.

ـ «سمّ آخراً».

يسمي آخراً. ويؤمر بأن يكسر غصناً مع كل إسم. يراقب فرانسيسكو المشهد وأسنانه تصطك.

يسمّي الجندي إثني عشر قائداً. يحمل إثني عشر غصناً في يده.

ـ «إحفر حفرة الآن».

يرمي الأسير الأغصان في الحفرة واحداً بعد آخر مكرراً الأسماء.

ـ «ألق عليها وسخاً وغطيها».

يقول بوتابيتشون بعد ذلك: «لقد دفن القادة الشجعان الإثنا عشر الآن؟».

يضرب الجلاد الأسير بهراوته المليئة بالمسامير. ينتزعون قلبه، ويدعون موليكان إلى تجرع جرعة الدم الأولى. يعوم دخان التبغ في الجو حين يمرُّ القلب من يد إلى أخرى.

بعد ذلك يقول بوتابيتشون السريع في الحرب البطيء في الكلام لموليكان: «جئنا لنشتري القائد الموجود معك... نعرف إنه ابن ألفارو، الزعيم الكبير الذي جعل أرضنا ترتجف».

يقدّم له إحدى بناته ومائة خروف قشتالي وخمس لامات وثلاثة أحصنة وسروج وعدة عقود من الحجر الثمين. سيكفي هذا لشراء عشرة إسبان.

يبتلع فرانسيسكو لعابه. يحدّق موليكان بالأرض، بعد برهة يقول: «يجب أن آخذه إلى أبي أولاً وإلى الزعماء الآخرين لإقليمي «ريبوكورا» أريد أن أريهم غنيمة شجاعتي».

يقول بوتابيتشون: «سننتظر».

يفكر فرانسيسكو: «إن حياتي هي فقط موت بعد آخر». تطنّ أذناه.

١٦٢٩: ضفاف نهر امبريال

- موليكان -

- «هل استحممت في النهر؟ اقترب من النار. أنت ترتجف. اجلس واشرب. تعال أيها القائد هل أنت أصم؟ وتتحدث لغتنا كواحد منا؟.. كل واشرب. أمامنا رحلة طويلة. ألا تحبّ الشيكا؟ ألا تحبّ لحمنا غير المملح؟ طبولنا لا ترقص قدميك؟. أنت محظوظ أيها القائد الولد. أنتم بشر يحرقون وجوه الأسرى بالحديد الذي لايمحى أثره. أنت سيء الحظ أيها القائد الولد. إن حريتك الآن ملكي. أنا آسف عليك. اشرب. اشرب. انزع هذا الخوف من قلبك لن أبيعك أبداً. إن قدرك في يد إله العالَم والإنسان. إنه عادل. اشرب. أكثر؟ قبل أن تصل الشمس سنكون في ريبوكيورا. أريد أن أشاهد والدي واحتفل. إنه عجوز. عاجلاً ستذهب روحه لتأكل البطاطا السوداء هناك خلف القمم الثلجية. أتسمع وقع خطى الليل؟ أجسادنا نظيفة وقويّة للبدء بالرحلة. الخيول تنتظرنا. قلبي يخفقُ بسرعة أيها القائد الولد. أتسمع قرع طبول قلبي؟ أتسمع موسيقا سعادتي؟

١٦٢٩: إقليم ريبوكيورا

- لتقول وداعاً -

قمراً بعد قمر مرّ الزمن. سمع فرانسيسكو وتعلّم الكثير في سنوات أسره. لقد تعلّم، ، ويوماً ما سيكتب الجانب الآخر من هذه الحرب التشيلية: هذه الحرب العادلة التي شنّها الهنود ضدّ الذين خدعوهم وأخطأوا معهم واسترقوهم وفعلوا ما هو أسوأ من ذلك.

يصلّي فرانسيسكو في الغابة راكعاً أمام صليب مصنوع من الأغصان. سيذهب الليلة إلى حصن ناسيمينتو. سيستبدل هناك بثلاثة زعماء آروكانيين أسرى. سيحرسه في الرحلة مائة رمح.

يمشي الآن نحو المقرّ. تنتظره في أجمة الأشجار دائرة من المعاطف الرثّة والوجوه الموحلة. تمّر الفراولة أو شيكا التفاح من فم إلى آخر.

يتلقى المبجّل «تيريوبيلان» غصن القرفة الذي هو الكلمة ويرفعه ثم يمدح طويلاً كلاً من الزعماء الحاضرين يمدح موليكان، المحارب الباسل الذي ربحَ أسيراً مهماً في المعركة وعرفَ كيف يأسره حيّاً.

يقول تيريوبيلان: «حين حملنا سلاحنا ضدّ الطغاة الإسبان الذين اضطهدونا وأذلونا فقدت شعوري بالعطف نحوهم فقط في المعركة. لكن حين رأيتهم كأسرى فيما بعد سبّب لي هذا ألماً وحزناً عظيماً وآلم روحي أنني أدرك أننا في الحقيقة لانكرههم كأشخاص، إلا أننا نكره جشعهم وقساوتهم وغرورهم».

يلتفت إلى فرانسيسكو قائلاً: «وأنت أيها القائد الصديق والرفيق الذي سيرحل بعيداً ويتركنا متألين وحزينين بدون عزاء لاتنسانا».

يسقط تيريوببيلان غصن القرفة في وسط الدائرة ثم يهز الآروكانيون الأرض بضربات أقدامهم.

١٦٣٠: موتوسينتل

- لن يخونوا موتاهم -

كان فراي فرانسيسكو برافو يعظ في قرية موتو سينتل لمدة عامين تقريباً. أخبر الهنود في أحد الأيام أنه استدعي إلى إسبانيا. قال إنه يرغب بأن يعود إلى غواتيمالا ويبقى فيها إلى الأبد مع قطيعه الذي يحبه إلا أن رؤساءه في إسبانيا لن يسمحوا له.

قال فراي فرانسيسكو: «إن ما يمكن أن يقنعهم هو الذهب فقط».

قال الهنود: «لانملك ذهباً».

صحّح القسيس: «نعم تملكون.. أعرف أن هناك ذهباً مخبأ في موتوسينتل».

شرحوا له: «ليس هذا الذهب لنا. إنه لأسلافنا. نحن فقط نعتني به ثم إذا فقد منه شيء ماذا سنقول لهم حين يعودون إلى الحياة؟».

- «أعرف فقط ماذا سيقول رؤسائي في إسبانيا. سيقولون: إذا كان هنود القرية التي تريد أن تمكث فيها يحبونك، فلماذا أنت فقير؟».

اجتمع الهنود ليناقشوا المسألة.

في أحد أيام الأحد، يعصبون عيني فراي فرانسيسكو ويدورون به إلى أن يدوخ. ذهب الجميع خلفه من الشيخ الأكبر إلى الرضيع. حين يصلون إلى مؤخرة الكهف يزيحون العصابة عن عينيه. ينبهر القس، وتتألم عيناه من لمعان الذهب. كان يوجد ذهب أكثر من كنوز ألف ليلة وليلة ولم تعرف يداه المرتجفتان أين تبدآن. حوّل رداءه إلى حقيبة وحمل ما قدر عليه. بعدَ ذلك أقسم بالله وبالكتب المقدّسة أنه لن يكشف السرّ أبداً ثم منحوه بغلاً وكعكعات ذرة كزادٍ في رحلته.

بعد مرور فترة من الزمن تلقى القصر الملكي في غواتيمالا رسالة من فراي فرانسيسكو برافو أرسلها من ميناء فيراكروز. قال إنه يؤدي واجبه رغم أن هذا يؤلم روحه بأن يقدم خدمة للملك تتعلّق بقضية مهمة ومميّزة مرتبطة بنوع من العمل. وصف الموضع المحتمل للذهب: «أعتقد أنني ابتعدت عن القرية قليلاً. كان هناك جدول يجري في جهة اليسار». وضع في الظرف بعض العيّنات ووعد أن يستخدم ما تبقى من أجل روح قدّيس في «مَلقَة».

يندفع القضاة والجنود على ظهور خيولهم إلى موتو سينتل. يطلب القاضي خوان مالدونادو الذي يرتدي رداء أحمر ويحمل صولجاناً أبيض، من الهنود أن يسلموا الذهب.

يعدهم ويضمن لهم المعاملة الحسنة.
يهدّدهم بالعقوبات.
يسجن بعضهم.
يعذّب البعض الآخر بأدوات تعذيب خشبية.
يجبر البعض على الصعود على درجات منصة الإعدام،
ولايحظى بشيء.

١٦٣. ليما

- ماريا، ملكة ظهور السفن -

تقول ماريا ديل كاستيللو وهي تطلق تنهيدة: كل يوم تحدث مشاكل كثيرة ولا يأتي زوج. يُقَدِّمُ عند قدميها عامل المسرح والملقّن والممثلة النجمة العزاء ويمنحونها النسائم من مراوحهم.

اعتقل حرّاس محكمة التفتيش خوان من بين ذراعي ماريا في الغسق المتلبّد وزجوه في السجن لأن الألسنة المسمومة قالت إنه قال بينما كان يستمع إلى الإنجيل: «أوه.. كل ما يوجد فيه هو الحياة والموت».

قبل بضع ساعات في الساحة الرئيسية وفي الشوارع الأربعة التي تؤدي إلى زاوية التاجر، أعلن الزنجي لازارو أوامر نائب الملك الجديدة بخصوص المسارح.

يأمر نائب الملك الكونت تشينشون بأن يفصل حائط من الطوب النساء عن الرجال في المسرح تحت طائلة العقوبة إذا جلس أي شخص في منطقة الجنس الآخر. يجب أيضاً أن تتوقف المسرحيات الكوميدية بوقت أبكر حين تقرع الأجراس من أجل الصلاة ويجب أن يغادر الرجال والنساء من أبواب مختلفة كي لايتم ارتكاب اعتداءات خطيرة ضدّ الربّ، أبينا، كما يحدث غالباً في ظلام المعبر الضيّق وقرّر نائب الملك أنه إذا لم يكن هذا كافياً فيجب أن يُخفّض سعر البطاقات.

تصرخ ماريا: «لن ينال مني أبداً. مهما حاصرني لن ينال مني».

حافظتْ ماريا ديل كاستيللو، الزعيمة العظيمة للمسرح الكوميدي في ليما على حيويتها وجمالها اللذين جعلاها مشهورة وماتزال بعد ستين عاماً تسخر من المحجبات اللواتي يظهرن عيناً واحدة، وبما أن عينيها جميلتان فإنها تنظر وتغوي وتخيف بوجهها المكشوف. كانت طفلة تقريباً حين اختارت هذه المهنة السحرية وكانت تسحر الناس من على مسرح «ليما» منذ نصف قرن. أوضحت أنها حتى لو أرادت فإنها لاتستطيع أن تحوّل المسرح إلى دير لأن الله لن يتزوجها بعد ثلاث زيجات استمتعت بها بشكل كامل.

رغم أن المفتشين جرّدوها من زوجها ورغم أن مراسيم الحكومة تحاول إخافة الجمهور، تُقسمُ ماريا أنها لن تنام مع نائب الملك.

- «أبداً، أبداً».

ضدّ الجحيم والمياه العالية وحيدة وبنفسها سوف تستمر في تقديم أعمالها الجريئة في مسرحها الكوميدي خلف أبرشية سان أوغسطين. بعد وقت قصير ستحيي مسرحية الراهبة الملازمة. التي كتبها الإسباني الساخر المشهور خوان بيريز دي مونتالبان وستنتج مسرحيتين جديدتين لاذعنين لكي يرقص الجميع ويغنون ويمتلئون بالعواطف في هذه المدينة المضجرة التي لايحدث فيها شيء.

١٦٣١: غواتيمالا القديمة

- أمسية موسيقية في دير كونسيبسيون -

تغني جوانا وهي تعزف على العود في حديقة الدير. ضوء أخضر. نسيم أخضر: كان الهواء ميتاً إلى أن لمسته بكلماتها وموسيقاها.

جوانا ابنة القاضي مالدونادو الذي يوزّع الهنود على المزارع والمناجم والمشاغل. كان مهر زواجها ليسوع ألف دوقية وستة عبيد سود كرّسوا لخدمتها في الدير. حين تغني جوانا كلماتها وكلمات الآخرين يصغي العبيد الذين يجلسون بعيداً منتظرين.

لايستطيع الأسقف الجالس أمام الراهبة أن يسيطر على عينيه. ينظر إلى رأس جوانا المنحني فوق المزمار، إلى حنجرتها العارية، إلى فمها المتوهج الفاغر ويأمر نفسه بأن يلزم الهدوء. إنه مشهور بأنه لايغير تعابير وجهه أبداً حين يمنح قبلة أو عزاء. إلا أن هذا الوجه الثابت يرتدي الآن تقطيبة يلتوي فمه ويرفّ جفناه، يبدو نبضه الصارم غير منسجم مع اليد التي تحمل كأس خمرة وهي مرتجفة.

كانت الألحان، مدائح الخالق أو اتهامات التجديف تصعد بين الأوراق. في الخلف، كان ينتصب بركان الماء الأخضر. يودّ الأسقف أن يركّز على حقول الذّرة والحنطة والينابيع التي تتدفّق على المنحدرات.

ذلك البركان يأسر المياه. كلّ من يقترب منه يسمع هيجانات.كما يحدث في إناء ماء يغلي. كانت آخر مرة تقيّأ فيها منذ أقل من قرن فأغرق المدينة التي أسّسها بدرو دي ألفارادو في سفوحه. هنا ترتجف الأرض في كلّ صيف واعدة بالغضب. هنا تعيش المدينة في قلق وتوتر بين بركانين يقطعان نفسها: واحد يهدّد بالطوفان والآخر بالجحيم.

خلف الأسقف، يقع البركان الناري مواجهاً للبركان المائي. يمكن أن يقرأ المرء على ضوء ألسنة اللهب الصاعدة من فمه رسالة على بعد فرسخ واحد. يسمع من وقت لآخر رعد كأنه قصف

مدافع عديـدة ويقصـف البركـان العـالم بالأحجـار: يطلـق الصخـور الضخمـة الـتي لايسـتطيع أن يحرّكها عشرون بغلاً ويملأ السماء بالرماد والهواء بزنخ الكبريت.

يحلّق صوت الفتاة.

ينظر الأسقف إلى الأرض راغباً أن يعدّ النمل إلا أن عينيه تنزلقـان علـى قدمـي جوانـا اللتـين يخبئهما حذاؤها ويكشفهما بطريقة ما. تحلق عيناه فوق الجسد المتناسق الذي يخفق تحت العباءة البيضاء بينما تستيقظ ذاكرته فجأة وتعود به إلى الطفولة. يتذكّـر الأسـقف تلـك الاندفاعـات الـتي لايمكن السيطرة عليها والتي كان يشعر بها ليعض خبز القربان المقدّس في منتصف القدّاس ويتذكر هلعه من أن ينزف ثم يبدأ بحراً من الكلمات غير المنطوقة والرسائل غير المكتوبة والأحلام التي لم تروَ أبداً.

بعد وهلة، يصدر الصمت صوته. يلاحظ الأسقف وهو يجفل أن جوانـا توقفـت لبعـض الوقـت عن الغناء واللعب. ستريح المزمار على ركبتيها وتنظر إلى الأسقف بابتسامة عريضة، بتلك العينـين التي لاتستحقهما حتى هي. يعوم عطر أخضر حولها.

يعاني الأسقف من نوبة سعال. يسقط اليانسون على الأرض ويؤلم يديه من التصفيق ثم يصرخ.

- «سأجعلك الأم الرئيسية للدير. سأجعلك رئيسة الدير».

- دوبيتتات شعبية للعاشق الخجول -

أريد أن أقول ولا أريد
أنا أتحدّث دون أن أنطق بكلمة.
أريد أن أحبّ ولاأريد.
وأنا أحبّ دون أن يسمعني أحد.

يعتريني ألم لاأعرف أين موضعه.
ولاأعرف سببه.
ولا أعرف متى سيشفيني منه
شخص ما نسيت اسمه.

في كلّ مرة تنظرين إليّ
وأنا إليك
بعيني أقول
مالا أقوله.
وبما أنني لاأجدك
أبحث لأذكرك.

١٦٣٣: بينولا

- المجد لله في الأعالي -

إن برغوث الرمل[1] أصغر من برغوث عاديّ وأشرس من نمر يدخل من القدمين وبصرعك إذا حككت. إنه لايهاجم الهنود بيد أنه لايرحم الأجانب.

حاربه الأب توماس كيج لمدة شهرين عندما يحتفل بنصره على البرغوث يوطد إقامته في غواتيمالا إنه لن يتذمر من أيّ شيء لولا البرغوث نرحّب به القرى بالأبواق تحت مظلات من الأغصان والأزهار يمتلك ما يريده من الخدم ويقود سائسٌ حصانه من لجامه.

يجمع راتبه في الوقت المناسب فضة وقمحا وذره وكاكاوا ودجاجاً وَيُدْفَعُ له بشكل منفصل مقابل القدّاسات التي يتلوها هنا في بينولا والمكسيك. هذا بالإضافة إلى عمليات التنصير والخطوبات والدفن والصلوات التي يؤديها ردًا على دعوات لمحاربة الجراد والأوبئة أو الزلازل. وبالمقارنة مع مايعطى للقديسين الكثيرين الذين يرأسهم وأولئك الذين بعملون أثناء عيد الميلاد وعيد الفصح يأخذ الأب كيج أكثر من ألفي «أسكود» كل عام دون أن بقوم بأي عمل. بالإضافة إلى الخمرة والملابس مجاناً.

يأخذ القسيس راتبه من الجزية التي يدفعها الهنود لدون خوان دي كوزمان مالك هؤلاء الرجال وهذه الأراضي بما أن المتزوجين فقط يدفعون الجزية، والهنود سريعون في نشر الفضيحة وفضوليون. يجبر المسؤولون الأطفال الذين هم في سن الثانية عشرة والثالثة عشرة على الزواج، ويزوجهم الكاهن بينما أجسادهم ماتزال تنمو.

١٦٣٤: مدريد

- من كان يختبىء تحت مهد زوجتك؟ -

يقرّر المجلس الأعلى لمحكمة التفتيش الذي يدقّق بمسألة نقاء الدم أنه سيجري تحقيقاً دقيقاً جداً مع موظفيه قبل أن يتزوّجوا.

يجب على جميع من يعمل في محكمة التفتيش ومن الحمّال إلى النائب العام. إلى المعّذب والجلاد والطبيب ومساعد الطاهي أن يوضحوا نسب المرأة التي يختارونها لمدة قرنين وذلك لتجنّب الزواج من المرضى.

وهؤلاء المرضى هم كل من يوجد فيه قطرات من الدم الهندي أو الأسود أو كل من ينتمي أجدادهم أو أجداد أجدادهم إلى الدين اليهودي أو الثقافة الإسلامية أو لهم أية علاقة بأية هرطقة.

---

(١) - برغوث الرمل: هامة من جنس دود الجبن تورث لسعتها حكاكاً شديداً وتنقر الجلد.

١٦٣٦: كويتو

ـ النصف الثالث ـ

أمضى الصياد الكبير ورئيس الحكومة وملك الحب وطاولة الورق والقدّاس أكثر من عشرين عاماً في منطقة كويتو. إن الجميع يمشون أو يركضون وفق سرعة حصانه.

اكتشف مجلس الآنديز في مدريد أنه مذنب ارتكب ستة وخمسين جنحة، إلا أن الأنباء السيئة لم تكن قد عبرت المحيط بعد. يجب أن يدفع غرامة الحانوت الذي افتتحه في الفناء الملكي ليبيع الحرير والنسيج الصقيل الذي هرّبه، وغرامةَ الفضائح التي لاتحصى مع النساء المتزوجات والأرامل والعذارى وغرامةَ المقمرة التي افتتحها في منزله في غرفة التطريز قرب الكنيسة الصغيرة التي كان يمارس فيها عبادته كلّ يوم. لقد ربح دون أنطونيو دي مورغا من قَلْبِ ورق اللعب مائتي ألف بيزو هذا دون أن نحصي بطولات أصابعه الرشيقة الغشّاشة (لقد حكم أنطونيو على عدد كبير من الهنود بأن يمضوا بقية حياتهم مقيدين إلى الأنوال، وذلك بسبب ديون تبلغ عشر قطع نقدية).

إلا أن قرار مجلس الآنديز لم يكن قد وصل إلى «كويتو» بعد: لكنّ هذا لم يكن الشيء الذي يقلق دون أنطونيو.

يقف في غرفته عارياً أمام المرآة المؤطرة بالذهب ويرى شخصاً آخر. ينظر إلى جسده البقريّ ولايعثر عليه. كان يتدلى تحت البطن المترهّل وبين الساقين النحيلتين صامتاً، المفتاح الذي عرف التوافق مع أقفال أنثوية كثيرة.

يبحث عن روحه إلا أن المرآة لا تحتوي عليها. من الذي سرق النصف المقدّس من الرجل الذي قدّم المواعظ للرهبان وكان أكثر قداسة من الأسقف؟ من الذي سرق بريق عينيه اللتين تشبهان عيني المتصوّف؟ كان يوجد فقط ظلمة وتجاعيد فوق اللحية الشائبة.

يتقدّم دون أنطونيو دي مورغا إلى الأمام إلى أن يلمس المرآة، ويسأل عن نصفه الثالث. يجب أن يكون هناك منطقة لاذت إليها الأحلام التي حلم بها مرة ونسيها. يجب أن يكون هناك مكان تستعيد فيه العينان اللتان أعطبهما النظر الكثير، ألوان العالم، وتستعيد فيه الأذنان اللتان هما الآن صمّاوان تقريباً ألحانه. يبحث عن ذوق لم يختفِ عن رائحة لم تتلاش، عن دفء تستطيع اليد أن تشعر به.

لا يعثر على أيّ شي تمّ انقاذه أو يستحق الإنقاذ. تعكس المرآة فقط رجلاً عجوزاً فارغاً سيموتُ الليلة.

١٦٣٧: مصّب نهر سوكري

- ديبغيلو -

تعلّم الأب توماس كيج منذ بضعة أيام كيف ينجو من التماسيح. إذا هربْتَ من التماسيح بشكل متعرّج فإنها ترتبك لأنها تستطيع أن تسبح فقط في خطّ مستقيم.

لكن لم يعلّمه أحد كيف ينجو من القراصنة. لكن هل يوجد أحد يعرف فعلاً كيف ينجو من تلك السفن الهولندية الكبيرة وهو يبحر في فرقاطة بطيئة غير مسلّحة؟

تخفض الفرقاطة أشرعتها في البحر الكاريبي وتستسلم. تستلقي روح الأب كيج منبطحةً أكثر انكماشاً من الأشرعة. كان يوجد معه في السفينة المال الذي جمعه في الإثني عشر عاماً التي قضاها في أميركا يحارب انتهاك المقدّسات ويسحب الموتى من الجحيم

تأتي المراكب الصغيرة وتذهب. يأخذ القراصنة اللحم والطحين والعسل والدجاج والدهون والجلود. يأخذون تقريباً جميع الثروة التي يحملها القّس من الذهب واللآلىء. إلا أنه بقي شيء منها داخل المخدة لم يستولوا عليه لأنهم احترموا فراشه.

يستقبله زعيم القراصنة الخلاسيّ الجبار في حجرته. لايقدّم سوى مقعد وكأس من الرّم. يتدفق عرق بارد على عنق القسّ ويجري على ظهره. يتجرّع جرعة سريعة كان قد سمع عن هذا الكابتن ديبغيلو. يعرف أنه اعتاد أن يقوم بالقرصنة تحت أوامر المخيف «بيكليك»، إلا أنه الآن يشتغل لوحده بإجازة قرصنة من الهولنديين. يقولون أن «ديبغيلو» يقتل كي لا يفشل في تحقيق هدفه.

يتوسّل القّس. يتطاير اللعاب من فمه وهو يقول إنه لم يبق معه شيء سوى ردائه الذي يرتديه. يعيد القرصان ملء كأسه ويخبر عن سوء المعاملة التي تعرّض لها حين كان عبداً لحاكم «كامبيتشي».

«ما تزال أمي عبدة في هافانا. ألا تعرف أمي؟ إنها تمتلك قلباً طيباً يا للمسكينة ـ يكلّلك بالعار».

يعوي القّس: «أنا لست إسبانياً. أنا انكليزي». يكرّر كلامه عبثاً. «إن بلادي ليست عدوة لك. ألا تجمع علاقة ودية بين بريطانيا وهولندا؟».

يقول القرصان: «إربح اليوم واخسر غداً.» يحبس في فمه جرعة كبيرة من الرّم ويرسلها ببطء عبر حنجرته.

يأمره وهو ينزع سترته ويكشف عن ظهره المرتفع آثار السياط: «انظر».

يشكر القّس الله لأنه كان يوجد صخب على ظهر السفينة يغطي على خفقات قلبه الوحشية.

ـ «أنا انكليزي».

يخفق وريد في جبهة الأب كيج بيأس. يرفض اللعاب أن يهبط عبر حنجرته.

- «خذني إلى هولنده أتوسل إليك. خذني إلى هولندة من فضلك! لا يمكن أن يتركني رجل كريمٌ هكذا عارياً وبدون..».

يحرّر القرصان بهزة واحدة ذراعه من أيدي القَس الألف. يضرب الأرض بقصبة فيدخل رجلان: «أخرجوه من هنا!».

يدير ظهره مودعاً، ناظراً إلى نفسه في المرآة ويقول له: «إذا ذهبت إلى هافانا في أي وقت، ابحث عن أمي، اذكرني أمامها. قل لها... قل لها: أنا بخير».

حين يعود إلى فرقاطته يشعر الأب كيج بتشنجٍ في معدته. الأمواج تنشط والقسّ يلعن الذي قال هناك في «جيزيزديلا فورنتير» منذ اثني عشر عاماً إن اميركا مرصوفة بالذهب والفضة وأنه عليك أن تمشي بحرص كي لا تدوس على الألماس.

١٦٣٧: خليج ماسّا تشوسيتس

- الله رجل إنكليزي -

قال الورع وراعي الأرواح جون إلمر منذ بضعة أعوام إن الله رجل إنكليزي ويقول جون وينثروب مؤسّس مستعمرة خليج ماسّتشوسيتس أن الإنكليز يستطيعون أن يستولوا على أراضي الهنود شرعياً كما فعل أبراهام مع اللواطيين: إن كل ما هو مشاع ليس ملكا لأحد. إن هذا الشعب المتوحش يحكم أراضي كثيرة دون لقب أو ملكية. إن وينثروب هو رئس البيوريتانيين الذين وصلوا في سفينة آرابيلا منذ أربعة أعوام. جاء مع أبنائه السبعة. ودّع جون كوتون الحجّاج في مرفأ ساوثمبتن مؤكداً لهم أن الله سيطير فوق رؤوسهم ويقودهم من إنكلترة القديمة، أرض الآثام إلى أرض الميعاد.

جاء البيوريتانيون ليشيدوا قدساً جديدة على قمة هضبة. قبل «الأرابيلا» بعشرة أعوام، وصلت «زهرة أيار» إلى بليموث في وقت كان قد وصل فيه إنكليز آخرون جائعون للذهب إلى شواطىء فيرجينيا جنوباً. تهرب الأسر البيوريتانية من الملك وأساقفته. تخلّف وراءها الضرائب والحروب والجوع والأمراض. إنها تهربُ أيضاً من الخطر الذي يهدّد في تغيير النظام القديم وكما يقول وينثروب، محامي كامبردج الذي ولد في مهد نبيل: «إن الله جّل جلاله رتب بعنايته الأكثر قداسة وحكمة الوضعية البشرية بطريقة، كما في جميع الأزمنة، تقتضي أن يكون البعض أغنياء والبعض في أعلى مراكز القوة والهيبة وأن يكون الآخرون وضعاء وخاضعين».

لأول مرة شاهد الهنود جزيرة عائمة. كانت الصارية شجرة والأشرعة غيوماً بيضاء. حين توقفت الجزيرة خرج الهنود في قواربهم ليقطفوا الفراولة، إلا أنهم وجدوا الجدري بدلاً من الفراولة.

التهمت الجدري القبائل الهندية ونظفت الأرض لرسل الله، للذين اختارهم الله، لشعبِ إسرائيل على رمال الأرض الكنعانية. الذين عاشوا هنا أكثر من ثلاثة آلاف عام يموتون كالذباب. يقول وينثروب. «أرسل اللهُ الجدري ليلزم المستعمرين الإنكليز باحتلال أراضٍ أفرغها المرضُ من سُكّانها».

١٦٣٧: حصن ميستك

- من وصية جون آندرهل بخصوص المجزرة التي ارتكبت ضد هنود بيكوت -

لم يعرفوا شيئاً عن مجيئنا. سلّمنا أنفسنا لله ونحن نقترب من الحصن وتوسّلنا طالبين مساعدته في مشروع كبير....

لم نستطع سوى أن نعجب بالعناية الإلهية في هذا الأمر، إذ أن الجنود غير الخبراء في استخدام أسلحتهم أطلقوا وابلاً نارياً وكأن إصبع الله لمست الفتيل وحجر القداحة. أُطْلِقَ الوابل فجراً حين كانوا نائمين فارتعبوا وصرخوا من الحزن وكأن الله لم يصنع قلوب الرجال بشكل يناسب الخدمة، كان لابد أنه ولد فيهم شفقة نحوهم لكن بما أن كل رجل مجرّد من الشفقة، تابعوا عملهم دون عطف. سفحوا دم سكان بلدنا الأصليين وتعاملوا معهم بشكل بربري وذبحوا حوالي ثلاثين شخصاً. اقتربنا من الحصن حاملين سيوفنا في أيدينا اليمنى وبنادقنا في اليسرى.

حرق كثيرون في الحصن وأجبر آخرون على الخروج.. استقبلهم جنودنا وتسلّوا بهم بحّد السيف. سقط الرجال و النساء والأطفال، أما الذين نجوا فقد وقعوا في أيدي الهنود الذين كانوا في مؤخرتنا. لقد رووا ذلك بأنفسهم. كان يوجد في الحصن أربعمائة روح ولم ينج أكثر من خمسة منهم من أيدينا. كان عظيماً ومحزناً بالنسبة للجنود الشبان الذين لم يشاركوا أبداً في حرب أن يشاهدوا أرواحاً كثيرة تشهق على الأرض وكثيفة جداً في بعض الأمكنة بحيث لا تستطيع أن تمر إلا بصعوبة. يمكن أن يسألنا أحد ما لماذا كان عليكم أن تكونوا متوحشين؟ ألا يجب أن يمتلك المسيحيون بعض الرحمة والشفقة؟ لكن سأحيلكم إلى حرب داؤود. حين يسفح شعب الدم ويذنب ضد الله والإنسان ويشترك الجميع في الفعل هناك يجب ألاّ يحترم الأشخاص ولكن يجب أن ينكّل بهم بالسيف وبأكثر الميتات رعباً. أحياناً يصرّح النصّ المقدّس أن النساء والأطفال يجب أن يعانوا مع آبائهم وأحياناً تتغيّر الحالة ولكن لن نتنازع حول هذا الآن. نمتلك ضوءاً كافياً من كلام الله من أجل أعمالنا.

١٦٣٩: ليما

- مارتن دي بوريس -

تدق أجراس كنيسة سانتودومينغو دقة الموت. ففي ضوء الشمعة، مغتسلاً بالعرق، أسلم مـارتن دي بوريس روحه بعد عراك طويل مع الشيطان بمساعدة مريم المقدّسة والقدّيسة كـاترين، العـذراء والشهيدة. مات في فراشه، حيث أسند رأسه إلى حجـر بـدلاً مـن المخـدة ووُضعـت جمجمـة إلى جانبه، بينما ركع نائب الملك في ليما وقبّل يده وتوسّل إليه أن يتوسّط له من أجل مكان صغير في الفردوس.

كان مارتن دي بوريس من ذرّية عبدة سوداء وسيدها، الذي كان من نسب إسباني نقي والـذي لم يحبّلها ليستخدمها كأداة، بل ليطبّق المبدأ المسيحي الذي يقول إن الجميع متساوون في الفراش أمام الله.

منح مارتن لأبرشية رهبان دومينيكاينين في سن الخامسة عشـرة. هنـاك قـام بأعمالـه واجـترح معجزاته. لم ينصب أبداً كقسّ كونه خلاسياً، إلا أنه يعانق المكنسة بحب ويكنس كل يوم الغرف والأروقة والمشفى والكنيسة. كان يحلق كل يوم بالموسى لمائتي قسّ ويعتني بالمرضى ويوزّع الملابـس الجديدة المعّطرة بحصى البان[١].

حين عرف أن الأبرشية أفلست مالياً ذهب ليقابل رئيسه: «سلاماً لك يا مريم».

- «سلاماً لك يا مريم الطاهرة».

عرض عليه: «يجب أن يبيع نيافتكم[٢] هذا الكلب الخلاسيّ».

وضع في فراشه شحاذين متقرّحين وصلّى راكعاً على ركبتيه طوال الليل. أضفى عليه ضوء غـير عادي لوناً أبيض كالثلج. خرجت ألسنة لهب بيضاء من وجهه حين عـبر الرواق في الليـل هارباً كشهاب مقدّس متجهاً إلى عزلة حجرته. مشى عبر أبواب مقفلة وصلّى أحياناً وهو راكع في الهواء مرتفعاً عن الأرض. رافقته الملائكة إلى الكورس حاملة في أيديهـا شموعـاً. قـدّم العـزاء للأسـرى في الجزائر دون أن يغادر ليما وأنقذ أرواحاً في الفيليبين، والصين واليابان، وقرع دون أن يتزحزح مـن مكانه، ناقوس التبشير شفى الميتين بخرق غمست في دم الديكة السوداء ومسحوق الضفادع وبرقـى تعلّمها من أمه. أوقف آلام الأسنان بلمسة إصبع وحوّل الجراح المفتوحة إلى ندوب والسكّر الأسمر إلى أبيض وأطفأ النيران بنظرة فتوجّب على الأسقف أن يمنعه من اجتراح معجـزات كثـيرة بـدون إذن.

---

(١) - حصى البان: نبات عطر من الفصيلة الشفويّة.

(٢) - نيافة: لقب شرف لرئيس أساقفه.

بعد صلوات الصبح سيشقّ ظهره بسوط مصنوع مـن جلد ثـور فيـه عقد سميكـة ويصـرخ وهـو ينزف: « أيها الكلب الخلاسيّ الشرير، كم ستطول حياتك المذنبة؟».

يطلب دائماً الصفح بعينين متوسلتين غاصتين بالدموع، كان أول إضافة داكنة الجلد إلى قائمـة الكنيسة الكاثوليكية المقدّسة الناصعة البياض كالزنبق.

١٦٣٩: سان ميغيل دي توكومان

- من بيان شجب للأسقف توكومان أُرسل إلى محكمة التفتيش في ليما -

بالحقيقة والإخلاص الذي يجب أن تخاطب بهما محكمة مقدّسـة، أشجب المبجّـل، أسـقف توكومان دي سافيردا الذي سمعت عنــه أشياء منيرة للشك بشـكل خطير في ديننـا الكـاثوليكي المقدّس والتي هي منتشرة في الأبرشية كلها. لقد حدث في «سالتا» أثناء احتفالات تثبيت العمـادة أن جاءت فتاة جميلة وقال لها: «من الأفضل ان تنتزع قداستك بدلاً من أن تؤكد». وأنه حدث في قرطبة العام المنصرم ١٦٣٨ أن جاءت فتاة أخرى فقـال لهـا، وبحضـور بشـر عديديـن وهـو يرفـع رداءه: «أخرجي يجب ألا أعمدك من الأسفل بل من الأعلى». ولقد تعايش مـع الأولى بـدون زواج بشكل معروف.

١٦٣٩: بوتوسي

- وصية رجل أعمال -

ينتأ أنف الكاتب بالعدل من خلال الستائر. تفوح رائحة غرفة النوم بالشمع والموت. يمكـن أن تشاهد في ضوء الشمعة الوحيدة الجمجمة تحت جلد الرجل الذي يحتضر.

ـ «ما الذي تنتظره أيّها العقاب؟».

لا يفتح رجل الأعمال عينيه إلا أن صوته يعلو بحزم.

يقول متنهداً: «لقد تناقشتُ أنا وظلّي». ثم يأمر الكاتب بالعدل: «يجب ألا تضيف أو تحـذف أي شيء، أتسمعني؟. سأمنحك طيوراً يبلغ ثمنها مائتي بيزو، بحيث تستطيع أن تطير بريشـها وبالريش الذي تكتب به إلى الجحيم، هل تسمعني؟ إن كل يوم أعيشه هو وقت مستعار. وكل يوم يمرّ يكلفني أكثر. اكتب. أسرع بالكتابة أيها الرجل. آمر أن يبنى بجزء رابع من ثروة الفضة التي

أخلفها، مرحاض كبير في الساحة العامة لكي يمجّدني في كل يوم نبلاء وعامة «بوتوسي». آمر أن يدفن جزء آخر رابع من سبائكي الذهبية وقطعي النقدية في ساحة منزلي وأن يوضع على المدخل أربعة كلاب شرسة مربوطة بالسلاسل وأن تزوّد بكمية كبيرة من الطعام لتحرس هذا الكنز».

لايتدلى لسانه. يتابع الكلام دون أن يأخذ نفساً: «وأُوصي أن يطبخ طعام عالي الجودة بجزء آخر رابع من ثروتي ويوضع في آنيتي الفضيّة ويدفن في حفرة مع كل شيء تبقى في موضع حفظ اللحوم لأنني أريد أن تتخم الديدان نفسها حتى تمرض كما ستفعل بي. وآمر...».

يحّرك سبّابته راسماً ظلاً كالهراوة على الجدار: «وآمر أن لايحضر أحد كائناً من كان جنازتي وأن ترافق جثتي جميع البغال الموجودة في بوتوسي مزيّنة بأغلى الألبسة وأفضل المجوهرات ويفعل هذا بالجزء المتبقي من ثروتي».

- يقول الهنود -

أللأرض مالك؟ كيف حصل هذا؟ كيف تُشْترى؟ إذا لم تكن لنا، إذن ماذا حدث؟ نحن منها. نحن أبناؤها. هكذا كان الأمر دائماً. الأرض حيّة وتغذّي الديدان كما تغذّينا. لها عظام ودم. فيها حليب وهي ترضعنا. لها شعر وعشب وقش وأشجار. تعرف كيف تنجب البطاطا. تنجب المنازل تنجب الناس. تعتني بنا ونعتني بها. تشرب الشيكا وتقبل دعوتنا. نحن أبناؤها. كيف إذاً يمكن أن تباع؟ كيف يمكن أن تشترى؟.

١٦٤. ساو سلفادور دي باهيا

- فييرا -

يطلق الفم شرراً وهو يتفوّه بالكلمات المهلكة كقذائف المدافع. إن أخطر خطيب في البرازيل هو قسّ برتغالي نشأ في «باهيا» وهو باهيٌّ إلى روحه.

غزا الهولنديون هذه الأراضي وأنطونيو فييرا الجزويتي يسأل الأرستقراطيين المستعمرين: «ألسنا سوداً بالنسبة للهولنديين كما هم الهنود بالنسبة إلينا؟».

من على المنبر يوبّخ لورد الكلمة لوردات الأرض والشعب قائلاً: «أيجعلني سيداً أنني ولدت بعيداً عن الشمس ويجعل الآخرين عبيداً أنهم ولدوا قربها؟ لايوجد سوء فهم فادح كهذا وخطأ فادح في الحكم كهذا بين البشر».

في كنيسة آيودا الصغيرة، أعرق كنيسة في المكسيك، يتهم أنطونيو فييرا أيضاً الله الذي أذنب بمساعدة الهولنديين الغزاة: «رغم أننا جميعاً مذنبون ياإلهي، أنت يجب من يتوب اليوم».

١٦٤١: ليما

- آفيلا -

حقّق مع آلاف مؤلفة من الهنود دون أن يجد أحداً منهم برئياً من الهرطقة. دمّر الأوثان والمعابد، أحرق المومياءات حلق الرؤوس وسلخ الظهور بالسوط. أثناء مروره، طهرت ريح الإيمان المسيحي البيرو.

وصل القسّ فرانسيسكو دي آفيلا إلى سن الخامسة والسبعين ليجد أن قوته تخونه. إنه نصف أصم وثيابه تؤلمه ويقرر أن لايغادر العالم قبل أن يحصل على ما كان يريده منذ أن كان طفلاً. وهكذا يقدّم طلباً ليدخل إلى صحبة يسوع.

يقولُ الكاهن الجزويتي أنطونيو فاسكويز: «لا».

«لا»، لأنه رغم أنه يدّعي بأنه رجل متعلّم ولغوي كبير فإن فرانسيسكو آفيلا لايستطيع أن يخفي وضعه كهجين.

١٦٤١: موروري

- الإرساليات التبشيرية -

المماليك قادمون من إقليم سان بابلو. يتقدّم صائدو الهنود، ملتهمو الأراضي على إيقاع الطبول رافعين علمهم. يتقدّم منفذو الأمر العسكري كعاصفة من الرياح الحربيّة عبر البارغواي. يحملون حبالاً طويلة بياقات للهنود الذين سيصطادونهم. ويبيعونهم عبيداً في مزارع البرازيل.

كان المماليك أو قطاع الطرق يدمّرون طوال أعوام كثيرة إرساليات الجزويتيين. لم يبق شيء من البعثات التبشيرية الثلاث عشرة في غويرا سوى الأحجار والفحم. خرجت مجموعات تبشيرية جديدة في هجرة جماعية (سفر خروج) نحو اتجاه مجرى نهر «البارانا» إلا أن الهجمات لم تتوقّف. يجد الثعبان في البعثات التبشيرية الطيور مجتمعة وسمينة، آلاف الهنود المدربين على العمل والبراءة، غير مسحلين، ومن السهل اصطيادهم. يتقاسم الكورانيون حياة منظمة تحت رعاية الأساقفة دون ملكية خاصة أو نقود أو عقوبات قتل بدون رفاه أو ندرة ويتقدمون إلى العمل وهم يغنون على ألحان المزمار. لا تفيد سهامهم المصنوعة من قصب السّكر في وجه بنادق المماليك الذين يختبرون شفرات سيوفهم بقطع الأطفال إلى نصفين ويحملون أردية الكهنة المزقة وقوافل من العبيد كغنائم حرب.

لكنّ مفاجأة تنتظر الغزاة في هذا الوقت. أمر ملك إسبانيا الذي خاف من هشاشة هذه الجبهات منح الكوارانيين الأسلحة النارية. يهرب المماليك مشتتيين.

يتصاعد ريش الدخان وأغاني المديح لله فوق المنازل. هذا الدخان الذي ليس صاعداً من المباني المحترقة بل من المداخن، يحتفل بالنصر.

مدريد: ١٦٤١

- الأبدية ضد التاريخ -

يقضم كونت ودوق أوليفاريس قبضتيه ويطلق اللعنات. يصدر أوامر كثيرة بعد عشرين عاماً من الأعمال والتعطيل في المحكمة، إلا أن خطوة الله أقوى.

كان مجلس اللاهوتيين قد رفض مشروعه بفتح قناة تصل بين نهري تاكوس ومنزناريس والتي سترحب بها سهول قشتالة. ستبقى الأنهار كما خلقها الله وستنتهي مخططات المهندسين كاردوشس ومارتيللي في الملفات.

أعلن في فرنسا أن قناة «لانكويدوك» ستفتتح حالاً لتصل بين البحر الأبيض المتوسط ووادي «غارون». أثناء ذلك وفي إسبانيا التي غزت أميركا يقرّر مجلس اللاهوتيين: «إن كلّ من يحاول أن يحسّن كلّ ما أرادته العناية الإلهية أن يبقى غير مكتمل يذنب ضدّها. لو كان الله يرغب في أن يجعل الأنهار صالحة للملاحة لجعلها كذلك».

١٦٤٤: جيمس تاون

- أوكانكانوف -

قبل أن يطلق جندي إنكليزي النار على ظهره، يسأل أوكانكانوف نفسه: «أين الحارس اللامرئي لخطواتي؟ من الذي سرق ظلي؟».

حين وصل سنه إلى المائة هزم. جاء إلى ساحة المعركة محمولاً على محفة.

أخذه الأميرال بدرو ميندينيز دي آفيلز إلى «كاديز» منذ ثمانين عاماً. قدّمه في بلاط الملك فيليب الثاني قائلاً: «هنا أمير هندي رائع لفلوريدا»، ألبسوه بنطالاً قصيراً وسترةً وطوقاً. علّموه في أبرشية دومينيكانية في سيفيل لغة ودين قشتالة ومنحه نائب الملك في المكسيك اسمه فأصبح اسم أوكانكانوف لوي دي فيلايسكو. عاد فيما بعد إلى أرض أجداده مترجماً ودليلاً لليسوعيين. ظن قومه أنّه عاد من الموت. بشّر بالمسيحية وبعد ذلك نزع ثيابهم وذبح اليسوعيين وعاد إلى اسمه القديم.

قتل الكثير منذ ذلك الوقت ولم يشاهد إلا قليلاً. رأى قرى وحقولاً تلتهمها النار وأخوته يباعون إلى الذي يدفع الثمن الأعلى، في هذا الإقليم الذي عمّده الإنكليز باسم فيرجينيا تخليداً

لذكرى ملكة عذراء روحياً. رأى رجالاً ابتلعتهم الجدري وأراضي التهمها التبغ المستعبد. شاهد سبع عشرة قبيلة من القبائل الثمانية والعشرين التي كانت هنا تكْنَسُ عن الخارطة ورأى آخرين منحوا الخيار بين الشتات أو الحرب رحّب ثلاثون ألف هندي بالبحارة الإنكليز الذين وصلوا إلى خليج «تشيسابيك» في صباح عذب من عام ١٦٠٧. بقي منهم فقط ثلاثة آلاف على قيد الحياة.

١٦٤٥: كويتو

- مريم المسيح -

يحلّ عام من الكوارث في المدينة. يتدلى قوس أسود على كل باب. لقد غزت ودمّرت الجيوش اللامرئية للحصبة والخناق. خيّم الليل تماماً بعد الفجر وانفجر البركان «بيتشينشا»، ملك التلج: تقيّأ كمية كبيرة من الماغما والنار سقطت على الحقول وإعصاراً من الرماد

- «مذنبون، مذنبون!».

يقذف الأب ألونزودي روخاس اللهب من فمه كالبركان. على المنبر المتوهج لكنيسة اليسوعيين المشيّدة من الذهب يضرب الأب ألونزو على صدره الذي يرجع الصدى وهو يبكي ويصرخ صاخباً: «اقبل يا إلهي تضحية الأكثر تواضعاً بين خدمك اجعل لحمي ودمي يكفران عن ذنوب «كويتو».

بعد ذلك تنهض امرأة شابة عند قدم المنبر وتقول: «أنا».

تعلن مريم أمام الناس الذين ملأوا الكنيسة أنها هي المختارة. سوف تهدىء غضب الله. سوف تتحمّل جميع العقوبات التي تستحقها مدينتها.

لم تعرف مريم السعادة أبداً ولم تحلم بأنها كانت سعيدة. ولم تنم أكثر من أربع ساعات كل يوم. كانت المرة الأولى التي لمسَ فيها رجل يدها حين أصيبت بالحمى. قرّرت وهي طفلة أن تصبح عروس الله ومنحته حبها ليس في الدير فحسب، بل في الشوارع والحقول، وليس بالتطريز وصناعة الحلوى والمربيات في الأديرة بل بالصلاة ركوعاً على الأشواك والحجارة وهي تبحث عن خبز للفقراء وعلاج للمرضى وعن ضوء للراتعين في ظلمة الجهل بالقانون الإلهي.

تشعر مريم أحياناً أن صوت المطر أو صوت النار يدعوها، إلا أن صوت رعد الله يعلو أكثر دائماً: إله الغضب، الذي له لحية من الأفاعي وعينان من البرق، والذي يظهر عارياً في أحلامها ليختبرها.

تعود مريم إلى البيت. تتمدّد في فراشها وتجهّز نفسها للموت بدلاً من الجميع. تدفع لتحصل على صفح الله. تقدّم جسدها له ليأكل ودمها ودموعها ليشرب حتى يدوخ وينسى.

بهذه الطريقة سيتوقف المرضَ وسيهدأ البركان وتكفّ الأرض عن الإرتجاف.

١٦٤٥: بوتوسي

- قصة إستيفانيا، امرأة بوتوسي المذنبة -

(عرض موجز للأحداث نقله بارتولومي آرزانز أورسواي ميلا)

ولدت إستيفانيا في البلدة الملكية واكتسبت جمالاً تعجز الطبيعة عن زيادته.

غادرت الشابة الجميلة المنزل في سن الرابعة عشرة متأثرة بنصائح نساء أخريات ضالاّت. حين شاهدت أمها هذا التصميم البغيض الذي دفع ابنتها إلى الرحيل أسلمت روحها بعد بضعة أيام.

لم يجعل هذا الأمر الفتاة تعود إلى الطريق المستقيم. بعد أن فقدت سابقاً كنز عذريتها المجاني بدأت تلبس ثياباً فضائحية وأصبحت مذنبة علنية مثيرة للفضائح.

بعد أن طالت السمعة شقيقها استدعاها إلى منزله وقال: «مهما تألمت يجب أن تسمعينني. إن استمرارك في هذه الخطايا المهلكة سيجعلك عدوة لله وعبدة للشيطان وستلطخين نبالتك وتسيئين إلى شرف سلالتك. فكّري أيتها الأخت. إن ما تفعلينه يخرج من هذه القذارة خافي الله وتوبي». أجابت إستيفانيا: «ماذا تريد مني أيّها المنافق؟». حين وبّخها شقيقها تناولت بسرعة هائلة خنجراً كان معلقاً على الجدار وهجمت عليه بوحشية شيطانية قائلة: «هذا هو الجواب الوحيد الذي تستحقه كلماتك». تركته ميتاً في بحيرة من الدم. قنّعت بعد فترة فعلها السيء بالتظاهر بالحزن وارتدت ثياباً سوداء وعبّرت عن أحزانها الكثيرة.

نجح والدها المتقدم في السن والمتأسف على موت ولده الطيب وفضيحة ابنته السيئة في التصدي لها بكلمات مقنعة، استمعت إليها الفتاة القاسية القلب ضدّ إرادتها وبدلاً من أن تصلح نفسها، اشمأزّت من العجوز، أشعلت ليلاً النار في سقف منزله، قفز العجوز المتألم من فراشه صارخاً بأعلى صوته: «حريق! حريق!» إلا أن الأعمدة التي تدعم السقف انهارت والتهمه العنصر المريع.

بعد أن وجدت نفسها حرة كرّست إستيفانيا نفسها للآثام والخطايا بفسوق أكبر.

جاء إلى بوتوسي في تلك الأيام رجل من إسبانيا. كان تاجراً غنياً، جاء في سفينة شراعية إلى البيرو ولفت انتباهه جمال وفتنة المذنبة. أغراها. بينما كانا يتمتعان بفحشهما قرّر عاشق سابق للسيدة مسلّح بجميع أصناف الأسلحة أن ينتقم لهذه الإساءة.

وجد العاشق السابق المرأة وحيدة إلا أنها كبحت روحه الغاضبة بكلمات مخادعة وحين هدأت غضبه أخرجت سكيناً من كمّها بسرعة كبيرة وطعنته فسقط المسكين ميتاً على الأرض.

ذكرت إستيفانيا الحادثة للتاجر الغني. هدّد بعد عدة شهور وبعد أن عذّبته الغيرة كثيراً أن يحاكمها من أجل الجريمة. في تلك الأيام ذهبا ليستحما في بحيرة «تارابايا». خلعت ثيابها

الفاخرة كاشفة ثلج جسدها المنقّط باللون القرمزي الجميل ورمت نفسها في الماء عارية. تبعها التاجر السعيد، وعندما أصبحا في وسط البحيرة دفعت رأس الرجل المنحوس في الماء بكل قوة ذراعيها.

لا يظنّ أحد أن أفعالها الشنيعة انتهت هنا. بضربة سيف واحدة أنهت حياة سيّد من دم نقّي وقتلت إتنين آخرين بالسم الذي دسّته في وجبة الغذاء. أنهت ألعابها الماكرة حياة الآخرين بطعنات سيف في الصدور وأفرحها أن هذا الدم كله يسفك من أجلها.

واستمر الأمر إلى عام ١٦٤٥ حين سمعت المرأة المذنبة موعظة ألقاها الأب فرانسيسكو ماتينو خادم الله الذي كانت فضائله المثيرة للإعجاب ممتعة جداً في ذلك الوقت في بوتوسي. كان حزن إستيفانيا كبيراً فبدأت تبكي وترخي جداول الدموع من عينيها مطلقة تنهدات عظيمة. وشهقات بدت وكأنها تمزّق روحها وحين انتهت الموعظة رمت نفسها على قدمي الكاهن متوسلة من أجل الإعتراف.

حثّها الكاهن على التوبة وغفر لها إذ أنه معروف بشكل جيد بأية سعادة تسلّم النساء أنفسهم ليدي الأفعى وذلك عائد إلى ذنوب موروثة منها تلك التي أغرت آدم. نهضت إستيفانيا عن قدمي كاهن الاعتراف كأنها ماجدولين أخرى وحين كانت في طريقها إلى البيت ـ آه للمذنبة السعيدة ـ اكتسبت مظهر مريم الأكثر قداسة التي قالت لها: «يا ابنتي لقد صفح عنك. توسلت لإبني من أجلك لأنك صلّيت في طفولتك وأنت تحملين مسبحتي».

١٦٧٠: سانتياغو ـ تشيلي

ـ منع لعبة للهنود التشيليين ـ

يعلن القائد العام دون مارتن موخيكا منع لعبة «الشويكا» التي يلعبها الآروكانيون وفق تقاليدهم ضاربين كرة بعصي محنية في ساحة محاطة بأغصان خضراء.

يعاقب بمائة جلدة الهنود الذين لاينفذون الأمر وتفرض ضرائب على الآخرين لأن لعبة «الشويكا» السيئة انتشرت بشكل واسع بين الجنود الكريبوليين.

يقول مرسوم القائد العام أن المنع فرض ليتم تجنّب الذنوب المخالفة لشرف الله أبينا ولأن مطاردة الكرة تدرّب الهنود على الحرب وتسبّب اللعبة إزعاجات وبعد ذلك تأتي السهام. يقول القرار إنه من غير اللائق أن يتجمّع الرجال والنساء عراة تقريباً من أجل اللعبة، لايرتدون شيئاً سوى الريش وجلود الحيوانات التي يعقدون عليها آمالهم في الربح. يستحضرون في بداية اللعبة الآلهة لتدعم شجاعتهم وسرعة أقدامهم وفي النهاية يشرب الجميع وهم يتعانقون محيطات من شراب «الشيكا».

١٦٤٨: أوليندا

ـ مغنّي المدفع ـ

كان طفلاً حين اقتادوه من قريته الأفريقية ورحّلوه بحراً مـن لوانـدا وبـاعوه في ريسيف. كـان رجلاً حين فرّ من حقول القصب ولاذ إلى أحد المعاقل التابعة للسود في بالماريس.

حالما دخل الهولنديون إلى البرازيل وعد البرتغاليون أن يعتقوا كلّ مـن يقـاتل مـن العبيد ضدّ الغزاة. قرّر الهاربون إلى بالماريس أن الحرب ليست حربهـم ولم يكـن يهـم كثـيراً إذا كـان الذيـن يحملون السوط في حقول القصب وطواحين السـكر برتغـاليين أم هولنديـين. إلا أن «هـنريك ديـاز» ذهب وتطوّع وأصبح قائداً لفوج من السود الذي يقاتلون من أجل التـاج البرتغـالي في شمـال شـرق البرازيل. منحه البرتغاليون لقب نبيل.

أرسل القائد هنريك دياز من أوليندا رسالة تهديد إلى الجيش الهولندي المتمركز في «ريسـيف». قال فيها: إن فوجه يتألف من أربعة أمم. من المينيّين والآرديين والأنغوليين والكريبوليين. وهـؤلاء المينيّون حاقدون لا يعرفون الخوف ومتوحشون تخضع سمعتهم من لا يسـتطيعون الوصـول إليهـم. والآرديون غاضبون يريدون أن يقطعوا الجميع بضربة واحدة والأنغوليون خشنون لا يتعبهم العمل. فكّروا الآن إذا لم يكن الرجال الذي حطّموا كل شيء مقدر عليهم أن يحطموا كلّ هولندا.

١٦٤٩: مريم، قديسة قبيلة الهورن

ـ لغة الأحلام ـ

يفكر الأب راغوينو وهو يراقب هنود «الهورن» يحيطون بالهدايا والطقوس رجلاً حلـم البارحـة حلماً غامضاً ويقول: «إنهم مساكين». تضع القبيلـة الطعـام في فمه وترقـص لـه تضربـه الشابات ويدلكنه بالرماد. بعد ذلك يتحلق الجميع وهم جالسـون ويبـدؤون تفسـير الحلـم. يطـاردون الحلـم بصور لامعة أو كلمات ويتابع هو القول: «لا لا!»، إلى أن يقول شـخص مـا: «النهـر». ثـم ينجـح الجميع في التقاطه: النهر، جدول غاضب، امرأة وحيدة في زورق. فقدت المجذاف. يجرفها النهر بعيداً. تسأل إحدى النساء. «أهذه أنا؟»، تسأل أخرى. تدعو القبيلـة المرأة الـتي تخـترق عيناهـا الرغبات الأكثر غموضاً لتفسّر رموز الحلم. حين تشرب شاي الأعشاب العطرية تستحضر العصـارة روحـها العارفة وتفك رموز الرسالة.

يؤمن هنود الهورن مثل جميع شعوب «الأوركوا» أن الأحلام تحوّل الأشـياء الأكـثر وضاعـة إلى رموز حين تلمس بأصابع الرغبة. يؤمنون أن الأحلام هي لغة الرغبات غير المتحققـة ويسـتخدمون

كلمة «أوندينوك» من أجل الرغبات السرية للروح التي لا تعرفها اليقظة. وتأتي الرغبات السرية في الرحلات التي تقوم بها الروح حين يكون الجسد نائماً.

يفكّر الأب راغوينيو: «مساكين».

يعتبر الهورنيون كل من لا يحترم ما تقوله الأحلام أنه يرتكب جريمة كبيرة. يأمر الحلم. إذا لم ينفّذ الحالم الأوامر تغضب الروح وتُمْرِضُ الجسدَ أو تقتلهُ. تعرف جميع شعوب «الأوركوا» أن المرض يمكن أن يجيء من الحرب أو الصدفة أو من الساحرة التي تغرز أسنان الدب أو نتف العظام في الجسد، إلا أنه أيضاً يجيء من الروح حين ترغب بشيء ولا يمنح لها. يناقش الأب راغوينيو الموضوع مع يسوعيين فرنسيين آخرين يبشرون في المنطقة يدافع عن هنود كندا: «من السهل أن ننعت باللادين ببساطة كل ما هو غباء...».

يرى بعض الكهنة قرني الشيطان يبزغان من هذه الخرافات مرتعبين لأنه عند نزع قبّعة سوف يحلم الهنود ضد الوصية السادسة وسينغمسون في اليوم التالي في طقوس الشفاء العربيدية. ينتقل الهنود عراة وينظرون إلى بعضهم ويلمسون بعضهم بحرية شيطانية ويتزوّجون ويطلّقون متى شاؤوا. ويكفي أن يأمر الحلم ليبدأ الإحتفال الذي هو دائماً مناسبة لارتكاب الذنوب المسعورة. لا يستطيع الأب راغوينيو أن ينكر أن الشيطان يستطيع أن يجد أرضاً خصبة في هذا المجتمع الذي هو بلا قضاة أو شرطة أو ملكية حيث تتقاسم النساء القيادة مع الرجال ويعبدون سوية آلهة مزيفة إلا أنه يصرّ على البراءة الأساسية لهذه الأرواح البدائية التي ما تزال تجهل شريعة الله.

وحين يرتجف اليسوعيون الآخرون من الهلع لأن بعض الأوركوانيين يمكن أن يحلموا في إحدى الليالي بقتل كاهن، يتذكّر راغوينيو ما حصل سابقاً عدة مرات وأنه حين حصل هذا، كل ما كان ضرورياً هو أن تجعل الحالم يمزق رداءً وهو يرقِص حلمه في إيماء غير مؤذ.

يقول الأب راغوينيو: «هذه عادات غبية إلا أنها ليست إجرامية».

- قصة إركوية -

إنها تثلج في الخارج وفي وسط المنزل يتحدّث الحكواتي المسنّ ووجهه إزاء النار. يصغي الجميع جالسين على جلود حيوانية وهم يخيطون الثياب ويصلحون الأسلحة.

يقول العجوز: «لقد نمت الشجرة الفائقة الحسن والبهاء في السماء. امتدّت جذورها البيضاء الأربعة في جهات أربع. ولدت جميع الأشياء من هذه الشجرة...».

يروي العجوز أنه في أحد الأيام اقتلعت ريحٌ الشجرة من جذورها. من الثغرة التي فتحت في السماء سقطت زوجة الزعيم العظيم حاملة حفنة من البذار. أحضرت لها سلحفاة التربة في درعها

فاستطاعت أن تزرع البذار وهكذا بزغت النباتات الأولى التي منحتنا الطعام. فيما بعد أنجبت المرأة فتاة كبرت وأصبحت زوجة الريح الغربية. نفخت الريح الشرقية الكلمات في أذنيها..

يروي الحكواتي الجيّد قصة ويجعلها تحدث. تهبُّ الريح الغربية الآن على المنزل الكبير، تدخل من المدخنة ويحجب الدخان جميع الوجوه.

يعوي الأخ الذئب الذي علّم «الإوروكوانيين» ان يجتمعوا سوية ويصغوا. إنه وقت النوم.

في أحد الصباحات لن يستيقظ الحكواتي. إلا أن واحداً من الذين سمعوا قصصه سيرويها للآخرين. وفيما بعد سيموت هذا الشخص أيضاً وستبقى القصص حية طالما توجد منازل كبيرة وبشر مجتمعون حول الموقد.

- أغنية عن أغنية للأوروكوانيين -

حين أغني
يمكن أن يساعدك ذلك
نعم يمكن، نعم.
إنه غناء قوي

حين أغني
يستطيع ذلك أن يوقظها
نعم، يمكن، نعم
إنه غناء قوي

حين أغني ينبسط ذراعاها
نعم، يمكن ذلك، نعم
إنه غناء قوي.

حين أغنيّ
يتمدّد جسدها
نعم، يمكن ذلك. نعم
إنه غناء قوي.

١٦٥. مدينة المكسيك

- الغزاة والمغزوون -

تتدلّى شارة العائلة بأبهة على الحديد المزخرف فوق البوابة وكأنها فوق مذبح. ينطلق سيد المنزل في عربة من خشب الماهوغاني مع حاشيته من الأتباع والأحصنة المزيّنة. يتوقف أحد ما في الداخل عن العزف على موترّة المفاتيح. يُسْمَعُ حفيفُ الحرير والأنسجة وأصوات بناتٍ قابلاتٍ للزواج ووقعُ خُطىً على سجّادٍ ناعمٍ مستسلمٍ ثمّ يُسْمَعُ رنينُ الملاعق الفضّية المنقّشة على الخزف الصيني.

إن مدينة المكسيك هذه، أو مدينة القصور هي من أضخم المدن في العالم. ورغم أنها بعيدة عن البحر، تحضر السفن الصينية والإسبانية بضائعها وفضّتها إلى شمال المدينة. إنّ غرفة تجارتها القوية تنافس تلك التي في سيفيل. ومن هنا تتدفّق البضائع إلى البيرو ومانيلا والشرق الأقصى.

إن الهنود الذين بنوا مدينة الغزاة هذه على خرائب مدينتهم تينوشتيتلان يحضرون الطعام في القوارب. يمكن أن يعملوا هنا أثناء النهار، إلا أنهم يُنقلون في الليل تحت ألم ضربات السياط إلى أحيائهم القذرة خارج الأسوار.

يرتدي بعض الهنود الجوارب والأحذية ويتحدثون الإسبانية آملين أن يُسْمَحَ لهم بالبقاء وبهذه الطريقة ينجون من دفع الجزية والعمل الإجباري.

- من أغنية الناواتل حول سرعة زوال الحياة -

نعيش دورة حياة واحدة
نتلاشى في يوم ونهبط في ليلة
إلى إقليم اللغز.
جئنا إلى هنا لنعرف أحدنا الآخر
نحن هنا فقط في العبور
فدعونا نمضي الحياة في سلامٍ ومتعةٍ
تعالوا ودعونا نستمتع بها.
إن الأرض ليست واسعة

لأولئك الذين يعيشون غاضبين.
كم هو جميل أن نحيا إلى الأبد.
وأن لا نموت أبداً.

وبينما نحن نحيا. وروحنا محطمة
هنا يضايقوننا باستمرار ويتجسّسون علينا
ولكن رغم كلّ المصائب
وكلّ جراح الروح
يجب ألاّ نحيا عبثاً.
كم هو جيد أن نحيا إلى الأبد
وأن لا نموت أبداً.

١٦٥٤: أوهاكا

- الطب والسحر -

أخبر هنود الزابوتيك، الذين كانوا قبل أن يسقطوا على الأرض طيوراً متألقة الألـوان، غونزالـو بالسالوبر بعض الأسرار. بعد أن عاش بينهم وبعد البحث في أسرار الدين والطب، كتب دون عونزالو تقريراً مفصّلاً في أواهاكا سيرسله إلى مدينة المكسيك. يشتكي التقرير الهنود إلى محكمة التفتيش المقدّسة، ويطلب معاقبتهم بسبب الشعوذات التي لم يقدر الكهنة والعدالة الطبيعية على قمعها. منذ فترة غادر «آلاركون» الجامعة ليعيش عشرة أعوام مع قبيلة «كويهـو» الهندية. عرف الأعشاب السرية التي تشفي المرضى وشجب فيما بعد الممارسات الشيطانية للهنود.

أثار الطب المحلّي في الفترة الأولى للغزو فضولاً كبيراً في أوروبا وأضيفت العجائب على نباتات أميركا. جمع فراي بيرناندو ساهاغن ونشر حكمة ثمانية أطباء «آزتيكيين» وأرسل الملك فيليب الثاني طبيبه الخاص فرانسيسكو هرنانديز إلى المكسيك ليقوم بدراسة شاملة للطب المحلّي.

يعتقد الهنود أن الأعشاب تتحدّث وتمارس الجنس وتشفي. إنها نباتات صغيرة تستطيع بمساعدة كلمات إنسانية أن تسحب المرض من الجسم وتكشف الأسرار وتُقوِّم الأقدار وتثير الحب أو النسيان. تبدو أصوات الأرض هذه كأصوات الجحيم بالنسبة لإسبانيا القرن السابع عشر المشغولة بالإستجواب والرقى والتي تعتمد على سحر الصلاة في الشفاء وعلى الاستحضارات والطلاسم أكثر من اعتمادها على الشراب والتطهير والتشطيب.

١٦٥٥: سان ميغيل نيبانتلا

- جوانا في سن الرابعة -

تتحدث جوانا باستمرار مع روحها التي هي صديقتها الداخلية حين تمشي على ضفة الجدول. تشعر بسعادة كبيرة لأنها مصابة بالحازوقة. تقف وتنظر إلى ظلها الذي ينمو معها وتقيسه بغصن بعد كل قفزة صغيرة لبطنها. نمت البراكين أيضاً وهي مصابة بالحازوقة حين كانت حيّة، قبل أن تحرقها نيرانها. ما يزال يوجد بركانان يدخّنان إلا أنهما غير مصابين بالحازوقة الآن. إنهما لا ينموان. تكبر جوانا وهي مصابة بالحازوقة وتزداد كبراً.

يجعلك البكاء أحياناً أكثر صغراً. لهذا السبب العجائز وندّابو الجنازات هم بحجم الصراصير. ليس هذا موجوداً في كتب والدها التي تقرؤها، إلا أنها تعرف ذلك. تعرف هذه الأشياء لأنها تتحدّث كثيراً مع روحها. تتحدّث جوانا أيضاً مع الغيوم. لتتحدّث مع الغيوم يجب أن تتسلّق التلال أو قمم الأشجار.

- «أنا غيمة. نحن الغيوم لنا وجوه وأيد. ليس لنا أقدام».

١٦٥٦: سانتياغو لافيكا

- كيج -

مات الراهب الأنجليكاني توماس كيج في جامايكا، في أرجوحة شبكية معلّقة بين شجرتي نخيل.

حلم أن يصبح نائب الملك الإنكليزي الأول للمكسيك منذ الأيام القديمة عندما طاف في أراضي أميركا في رداء راهب كاثوليكي مبشراً ومتجسّساً ومستمتعاً بالشوكولاته وثمار الجوافة. حين عاد إلى لندن حرّك الأحزاب وأقنع اللورد كرومويل أنه من الضروري والممكن تجهيز أسطول جيّد لغزو المستعمرات الإسبانية.

في العام الماضي غزت قوات الأميرال «ويليام بن» جزيرة جامايكا. انتزعت انكلترة من إسبانيا الجزء الأول من امبراطوريتها الأميركية وفقد ورثة كولومبس مركيزات جامايكا أفضل ممتلكاتهم. بعد ذلك ألقى المبجّل توماس كيج موعظة بروتستانتية وطنية من على منبر أضخم كنيسة في سانتياغو لافيكا بينما كان الحاكم الإسباني قادماً بين أذرع عبيده ليسلّم سيفه.

١٦٥٨: سان ميغيل نيبانتلا

- جوانا في السابعة -

ترى في المرآة أمّها قادمةً فترمي السيف الذي يسقط محدثاً جلبةً كطلقة مدفعٍ وتجفل جوانا بطريقةٍ تجعل كل وجهها يختفي خلف القبعة العريضة الحواف.

تقول بغضب حين تضحك أمها: «أنا لا ألعب». تنزع القبعة وتظهر شاربها المرسوم بالسخام. تتحرك قدما جوانا بارتباك في البوط الجلدي الضخم. تزلّ وتسقط وترفس الهواء مذلّةً غاضبةً وأمها لا تستطيع التوقف عن الضحك.

تحتج جوانا والدموع تبزغ في عينيها. «أنا لاألعب. أنا رجل. سأذهب إلى الجامعة لأنني رجل».

تضرب الأم رأسها: «يا ابنتي المجنونة. يا حبيبتي جوانا يجب أن أجلدك بسبب هذه الأعمال غير المحتشمة».

تجلس قربها وتقول بنعومة: «من الأفضل لو أنك ولدت غبية يا ابنتي التي تعرف كلّ شيء».

تداعبها بينما تبلّل جوانا رداء أمها الفضفاض بالدموع.

- جوانا تحلم -

تتجوّل في سوق الأحلام. وضعت نساء السوق أحلاماً على قطع قماش كبيرة على الأرض.

يصل جدّ جوانا إلى السوق حزيناً جداً لأنه لم يحلم منذ زمن طويل. تمسكه جوانا من يده وتساعده على اختيار الأحلام. يختاران أحلاماً من الحلوى أو من القطن، أجنحةً للطيران أثناء النوم ويقلعان سوية محملين بأحلامٍ لن يكون أي ليلٍ كافياً لها.

١٦٦٣: غواتيمالا القديمة

- دخول المطبعة -

إن الأسقف انركويز ريبيرا هو من أشدّ المحامين المتحمّسين لفرض العمل الإلزامي على الهنود بدون أن يفكر بإعطاء الهنود شيئاً يفكّر الأسقف بمن سيحرث الحقول وإذا لم يكن هناك أحد لحراثتها، بمن سيحرث الأرواح؟.

حين كان الأسقف يعدّ سجلاً عن ذلك يتلقى من بويبلا أول مطبعةٍ وصلت إلى غواتيمالا. طلب الرأس الروحي المثقف للكنيسة معها مجموعة حروف مطبعية وأسلوب المادة الطباعية وكلّ شيء لكي يقدر على طباعة أطروحته اللاهوتية.

إن الكتاب الأول الذي نشر في غواتيمالا ليس مكتوباً بلغة المايا أو باللغة القشتالية، بل باللاتينية.

١٦٦٣: ضفة نهر بارايبا

ـ الحرية ـ

استمر نباح الكلاب وتبويق صيادي العبيد طويلاً قبل أن يتلاشى. يعبر الهارب حقلاً من الجذامة المفترسة الطويلة ويجري نحو النهر.

يرمي نفسه على الأعشاب مديراً وجهه إلى الأسفل فاتحاً ذراعيه، ماداً رجليه. يسمع أصوات الجنادب والزيزان والضفادع الصغيرة: «لست شيئاً. إن تاريخي ليس تاريخ الأشياء». يقبّل الأرض ويعضّها: «أخرجت قدميّ من الفخ. لست شيئاً». يضغط جسده العاري على الأرض المبلّلة بالندى ويسمع صوت نباتات صغيرة تنمو في التراب متلهفة للولادة. إنه يتضوّر جوعاً ولأول مرةٍ يمنحه الجوع السعادة. جسده مغطّى بالجراح ولايشعر بذلك. يلتفت نحو السماء وكأنه يعانقها. يطلع القمر ويضربه ضربات ضوء عنيفة. تهبط عليه سياط ضوئية من القمر والنجوم. ينهض وينظر إلى جهته.

الآن إلى الأدغال. الآن إلى الشاشة الكبيرة للخضرة.

يسأل الهارب نملةً تزحف على يده: «هل أنت ذاهبة أيضاً إلى بالماريس؟ دلّيني على الطريق».

ـ أغنية بالماريس ـ

استرح أيها الرجل الأسود
فالرجل الأبيض لا يجيء إلى هنا
وإذا جاء
سيتكفّل به الشيطان
استرح أيها الرجل الأسود
إذا جاء سيغادر
بعد أن يتذوّق طعم هراواتنا.

١٦٦٣: سيرا باريكا

- بالماريس -

حين يلمع البرق في بعض الليالي يمكن أن تشاهد القمم البرّاقة لسلسلة الجبال من الشواطىء. أباد البرتغاليون على تلالها السفحية هنود الكايتي الذين حرمهم البابا كنسياً إلى الأبد لأنهم أكلوا الأسقف البرازيلي الأول. وهنا المكان الذي يؤوي إليه العبيد السود الهاربون بعد أن وجدوا ملاذاً في السنوات العديدة الأخيرة في قرى بالماريس المختبئة.

تشكّل كل مجموعةٍ حصناً وتمتدّ الحقول المزروعة الشاسعة وراء الأسيجة الخشبية المرتفعة ومصائد الأوتاد الخشبية الحادّة. يعمل المزارعون وأسلحتهم في متناول أيديهم وحين يعودون في الليل إلى الحصن يحصون الأجساد ليتأكدوا أنه لا يوجد مفقودون.

يحصلون هنا على موسمي ذرة سنوياً وعلى اللوبياء والمنيهوت والسكر والبطاطا والتبغ والخضار والفاكهة ويربّون الخنازير والدجاج. يأكل سود بالماريس أكثر وأفضل من سكان الساحل حيث يأكل الجميع قصب السكر الذي ينتج لأوروبا ويسرق أوقات الجميع وأمكنتهم.

كما في أنغولا، تعتبر شجرة النخيل ملكةً عند هذه الجماعات السوداء ينسجون من خيوطها الملابس ويصنعون السلاسل والمراوح ويستخدمون السعف لبناء السقوف والأسرة ويأكلون لحم فاكهتها ويصنعون منها الخمرة ويستقطرون زيت النار من قشورها ويجعلون دهونها للطبخ ويصنعون منها أيضاً الغلايين. وكما في أنغولا يؤدي الزعماء الشعائر النبيلة للحدّاد ويحتلّ مشغل الحدّاد مكان الشرف في الساحة حيث يجتمع الناس.

إلا أن أنغولا متعددة وأكثر أفريقية. ينحدر سكان بالماريس من ألف إقليم وألف لغة. إن لغتهم المشتركة الوحيدة هي التي سمعت من أفواه أسيادهم مترافقة مع أوامر يصدرها السوط على ظهر سفن العبيد وفي حقول القصب. إن اللغة البرتغالية المختلطة بكلمات أفريقية وكوارانية هي الآن عقد اتصال بين أولئك الذين أذلّتهم سابقاً.

منذ أن طرد الهولنديون من بيرنامبكو شنّ البرتغاليون أكثر من عشرين حملة عسكرية ضد أرض الأحرار هذه. يكتب راوٍ من البرازيل إلى لشبونة: «إن جيشنا الذي يستطيع أن يروّض كبرياء هولندة لم يصل إلى نتيجة مع هؤلاء البرابرة في غزاوته الكثيرة والمتعاقبة لبالماريس».

ولم يحالف الهولنديين حظّ أفضل. انتهت حملاتهم بالفشل أيضاً. حرق البرتغاليون والهولنديون قرى فارغةً وضاعوا في الأدغال ملتفتين حولهم كالمجانين تحت أمطار عنيفة. شنّوا الحرب ضدّ ظلّ يعضّ ويهرب وكانوا يدّعون النصر في كل مرةٍ. لم يفلح أي منهما في تدمير بالماريس أو منع هرب العبيد الذين يغادرون «ملك السكر» وبلاطه دون عملٍ رغم أن الهولنديين صلبوا سوداً متمردين والبرتغاليون جلدوا وبتروا ليبثوا الخوف والعبرة.

عادت إحدى الحملات البرتغالية على بالماريس لتوها إلى ريكتيف فارغة اليد. كان يقودها ضابط أسود يقود مئتي جنديٍ أسود يدعى كونكالو ريبيلو، ذبحوا بعض الأسرى الذين استطاعوا القبض عليهم.

١٦٦٥ : مدريد

- تشارلز الثاني -

يهتزّ الملك الجديد ويبكي. يرفعونه من الخلف بحمالات مربوطة إلى الإبطين والخصر. لا يعرف أن يتحدث ويمشي في سن الرابعة ويجب أن ينتزعوه عن حلمات أربعين حاضنة ليجلسوه على عرش إسبانيا.

إنه يبكي الآن لأن التاج المنزلق فوق عينيه يؤلمه ولأنه يريد أن يعود ليلعب مع الأقزام ويشرب الحليب الدافىء للجنيّات.

عاش هذا الضعيف بفعل معجزة أو شكراً لحقيقةِ أنهم لم يغسلوه حتى عندما ولد رغم أن رأسه وعنقه مغطيان بالجروح المتقيّحة للجرب (لاأحد يستحم في البلاط حتى منذ أن توفيّ دومينغو سينتوريون من البرد منذ عشرة أعوام).

«آرورو» ، يتلعثم الملك ويضع قدمه على أذنه.

١٦٦٦ : أمستردام الجديدة

- نيويورك -

يسقط الإنكليز ببضع طلقات من مدافعهم العلم الذي يرفرف فوق الحصن ويحتلون جزيرة مانهاتن من الهولنديين الذين اشتروها من هنود «الديلاوير» مقابل ستين «فلوريناً».

يقول هنود «الديلاوير» متذكرين وصول الهولنديين منذ أكثر من نصف قرن: «أراد الرجل العظيم فقط أرضاً صغيرة بمساحة جلد ثور ليزرع فيها الخضار من أجل حسائه. كان أول شيء لاحظناه هنا أرواحهم المخادعة».

تصبح أمستردام الجديدة، أهم سوق عبيد في شمال أميركا وتدعى الآن نيويورك وسمّي «وول ستريت» باسم الجدار الذي شيّد ليمنع هرب العبيد.

١٦٦٦: لندن

- الخدم البيض -

تنحدر ثلاث سفن مليئة بالخدم البيض في «التيمز» متجهة إلى البحر. حين يفتحون بوابات الهبوط في جزيرة «باربادوس» البعيدة سيذهب الأحياء إلى مزارع السكر والقطن والتبغ وسيذهب الموتى إلى قاع الخليج.

يسمّون المتاجرين بالخدم البيض أرواحاً وهم ماهرون جداً في تبخير البشر. يرسلون إلى جزر «الآنتيل» العاهرات والمتشردين الذين خطفوا في أحياء لندن الفقيرة والشبان الكاثوليكيين الذين اصطيدوا في إيرلندا واسكوتلندة والسجناء الذين ينتظرون المقصلة في السجن. يستيقظ السكارى الذين أسروا على رصيف المرفأ ومعهم في الرحلة إلى أميركا بعض الفتيان الذين أغروا بالحلويات ومغامرون كثيرون خدعوا بوعود ثروة سهلة. هناك سيعتصرون في مزارع باربادوس أوجامايكا أو فيرجينيا إلى أن يردوا الثمن الذي دفع لشرائهم وأجرة الطريق.

يحلم الخدم البيض بأن يصبحوا مالكين للأرض وللسود. حين يستعيدون حريتهم بعد أعوام من الندم والكدح بلا مقابل، كان أول ما يفعلونه هو أن يشتروا زنجياً ليهوّي لهم في ساعة القيلولة.

يوجد أربعون ألف عبد أسود في «باربادوس». سجّلت الولادات في كتب إحصاء المزرعة. يسعّر الزنجي الصغير عند الولادة بنصف جنيه استرليني.

١٦٦٦: جزيرة تورتوكا

- صلوات القراصنة -

حين نهب ديفيدنو، المعروف باسم إيل أولونيس مدينة ريميديوس ماراكا يبو فرم بقطلسه[١] كثيراً من الإسبانيين. تعود سفنه بنصف سرعتها بسبب وزن الثروة المسروقة.

يرسو إيل أولونيس، وبين قدميه يهزّ ذيله وينبح صديقه الوحيد الذي يثق به ورفيقه في مغامراته. تجيء خلفه مجموعة من الرجال خرجت حديثاً من نسيج عنكبوت حبال الأشرعة والصواري، جائعة للخمّارات والنساء والأرض الصلبة.

على هذه الرمال الحامية التي تقدر أن تسلق بَيض السلاحف يقف القراصنة صامتين أثناء قدّاس طويل بأجسادهم المرقّعة وستراتهم المتسخة ولحاهم المدهنة ووجوههم التي تشبه السكاكين

(١) - قطلس: سيف قصير ثقيل.

التي نلمتها السنين. إذا تجرأ أيّ شخص على السعال أو الضحك أثناء القدّاس يسقطونه بطلقة ويصلبون. إن كل قرصان يشكّل مستودع أسلحة. يحمل على خصره أربعة سكاكين وحربة موضوعة في غمد مصنوع من جلد تمساح ويحمل مسدسين وسيفاً وبندقية معلقة على الصدر.

توزّع الغنائم بعد القدّاس بدءاً بالمبتورين. كلّ من فقد ذراعه اليمنى يحصل على ستمائة بيزو أو على ستة عبيد. وكل من فقد الذراع اليسرى يحصل على خمسمائة بيزو أو خمسة عبيد. وينطبق هذا الثمن على القدمين وكلّ من فقد عيناً أو إصبعاً على شواطىء كوبا وفنزويلا له الحق بمائة بيزو وعبد واحد.

يبدؤون عمل اليوم بكؤوس الرُّمّ وينهونه بشواء شرائح لحم السلاحف. يطهى لحم السلاحف المقطّع ببطء تحت الرمل المغطّى بالجمر داخل الدروع مع محّ البيض والبهارات وهذا يعتبر أفضل طبق للحفلات في الجزيرة. يشعل القراصنة غلايينهم مستلقين على الرمال مسلمين أنفسهم للدخان والحنين.

حين يخيّم الليل يغطون باللآلىء جسد امرأة خلاسية ويهمسون لها قصص الرعب والعجائب، قصصاً عن الشنق والتحميل والكنوز ويقسمون لها أنهم لن يبحروا ثانية في وقت قريب. يشربون ويمارسون الحب دون أن ينزعوا أبواطهم: الأبواط التي ستصقل غداً حصى المرفأ باحثةً عن سفينة من أجل غارةٍ أخرى.

١٦٦٧: مدينة المكسيك

- جوانا في السادسة عشرة -

يحدّد الجرس في السفن أوقات المراقبة وفي المناجم وحقول القصب يستدعي الهنود الأقنان والعبيد السود إلى العمل. يحدّد المواعيد في الكنائس ويعلن عن القدّاسات والوفيّات والحفلات.

لكن، في البرج الذي يقع فوق قصر نائب الملك يتدلى جرس صامت. قيل إن المفتشين أخذوه من برج الأجراس في قرية إسبانية قديمة وأزاحوا لسانه ونفوه إلى «الآنديز» ولايعرف أحد متى حصل هذا. منذ أن صنعه المايسترو رودريغو عام ١٥٣٠ كان هذا الجرس دائماً نظيفاً ومطيعاً. قيل كان له مائة نغم على هوى قارعه وكانت القرية كلها فخورة به. إلى أن جاءت ليلة جعل فيها رنينه العنيف المتواصل الجميع يقفزون من أسرّتهم. كان الجرس يعلن الخطر بدافع من الفرح أو الخوف أو بما لايعرف أحد ماذا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم يفهمه فيها أحد. اجتمع حشد في الرّدهة بينما كان الجرس يرنّ بجنون وذهب رئيس البلدية والقسّ إلى البرج وأكدا وهما متجمدان من الخوف أنه لايوجد أحد هناك. لم تحركه يد بشرية. نقلت السلطات القضية إلى محكمة التفتيش. أعلن مجلس محكمة التفتيش أن قرع الجرس لاقيمة له إطلاقاً وأنه أصمت إلى الأبد ونفي إلى المكسيك.

تمشي جوانا آنيز أسباخي خارج قصر حاميها، نائب الملك مانسيرا وتعبر الساحة الكبيرة يتبعها هنديان يحملان صندوق ثيابها. تصل إلى الزاوية. تقف وتنظر إلى البرج وكأن الجرس الصامت يناديها. إنها تعرف قصة حياته، تعرف أنه عوقب لأنه كان يغني لوحده.

تتجه جوانا إلى دير سانتا تيريزا لأنتيغوا. لم تعد سيدة في البلاط. ستبحث في الضوء الهادىء للأروقة وعزلة الحجرة عمّا لاتستطيع أن تجده في الخارج. كانت تودّ أن تدرس ألغاز العالم في الجامعة إلا أن النساء يولدن محكوماً عليهن بالتطريز وبالزواج الذي يتم اختيارهن له. ستصبح جوانا راهبة حافية القدمين وستلقّب نفسها سور جوانا آنيز لاكروز.

١٦٦٨: جزيرة تورتوكا

- الكلاب -

لايبقى هنود في هذه الجزيرة التي تقع شمال هايتي، إلا أن الكلاب التي أحضرها الإسبان لاصطيادهم ومعاقبتهم تبقى. تتنازع كلاب الدّرواس التي تكاثرت وتتحرك في قطعان مع القراصنة الفرنسيين للسيطرة على هذه الأرض. يسمع نباحها ليلة بعد أخرى من الأدغال. يرتجف القراصنة وهم نائمون وراء متاريسهم.

تنتمي جزيرة تورتوكا إلى المشروع الذي أسّسه الوزير الفرنسي كولبرت لإدارة تجارة العبيد والقرصنة. عيّن المشروع برتراند دي أوغيرون حاكماً وهو سيد له مقام رفيع بين القراصنة وقطّاع الطرق.

يحضر الحاكم من فرنسا شحنة سمّ ستستخدم لقتل بعض الأحصنة التي ستنتشر أجسادها في الجزيرة وتملأ بطونها بالسمّ. وبهذه الطريقة يتوقّع أن يضع حداً لتهديد الكلاب المتوحشة.

١٦٦٩: بلدة جبرالتر

- كلّ ثروة العالم -

يتابع رجال هنري مورغان البحث على طول شواطىء بحيرة ماراكيبو عن كنز إيل أولينسو المدفون والذي لم يستطع حمله معه، فرغم كل الوقت والجهد الذي بذل لم يكن أولينسو يمتلك الوقت الكافي والسفن الكبيرة لتحميله.

يبدأ الهبوط بعد رشق المدافع المضاد. يقفز القراصنة من مراكبهم الصغيرة ويدخلون المدينة التي يتصاعد منها الدخان بسيوفهم المشهرة.

لا أحد هناك لا شيء هناك.

يستقبلهم شاب رث الملابس في وسط الساحة ضاحكاً. تمتلك القبّعة الكبيرة التي تغطي عينيه. حافة مكسورة تتدلى على كتفه.

يصيح: «سرٌ، سرٌ». يحرك ذراعيه كطاحونة هواء ضارباً ذباباً متخيّلاً ولايتوقّف عن الضحك.

حين يخدش حدّ سيف حنجرته يهمس: «لاتناموا وأقدامكم عارية وإلا ستأكلها الخفافيش».

يغلي الجوّ كثيفاً بالدخان والبارود يغلي مورغان من الحرارة وفقدان الصبر. يقيّدون الشاب. «أين أخبأوا المجوهرات؟»، يضربونه: «أين الذهب؟»، يفتحون الجراح الأولى في خديه وصدره.

يصرخ: «أنا سيباستيان شانشيز! أنا شقيق حاكم ماراكايبو، أنا شخص مهم جداً».

يقطعون نصف أذنه.

يجرونه. يقود الشاب القراصنة إلى كهف عبر غابة ويكشف كنزه. كان هناك صحنان من الصلصال مخبأان تحت الأغصان وحدٌّ صدىءٌ لمرساة ودرع فارغ وبعض الريش الملوّن والحجارة ومفتاح وثلاثة قطع نقدية صغيرة.

يكرّر مالك الكنز قائلاً: «أنا سيباستيان شانشيز»، وهم يقتلونه.

١٦٦٩: ماراكايبو

- الطوق المحطّم -

يكتشف مورغان فجراً أن سفناً إسبانية خرجت من الليل وأغلقت المدخل إلى البحيرة. يقرر الهجوم. يرسل أمام أسطوله مركباً أحادي الصاري ضدّ بارجة الأميرال. كانت راية الحرب ترفرف متحدية فوق المركب المليء بالزفت والقار والكبريت الذي حصل عليه مورغان في ماراكايبو، ووزّعت علب البارود في جميع الزوايا. كان الطاقم مؤلفاً من بعض الدمى الخشبية التي ترتدي القمصان والقبّعات.انفجر الأميرال الإسباني دون ألونزو ديل كامبو في الجو دون أن يكتشف أن مدفعيته أطلقت على برميل بارود.

يهجم أسطول القراصنة. تكسر فرقاطات مورغان الطوق الإسباني بنيران المدفعية ويربح البحر المفتوح. يبحر محملاً بالذهب والمجوهرات والعبيد.

يتبختر هنري مورغان في ظلّ الأشرعة مرتدياً من رأسه إلى قدميه غنائم ماراكايبو. يمتلك منظاراً ذهبياً وبوطاً أصفر اللون مصنوعاً من جلد قرطبي، أما أزرار سترته فزمّرد صنعه صائغو أمستردام. ترفع الريح التخريم الزبديّ لقميصه الحريري الأبيض وتحمل من بعيد صوت امرأة تنتظر مورغان في جامايكا، تلك الخلاسية النارية التي حذّرته على رصيف المرفأ حين ودّعته قائلة: «إذا متّ فسوف أقتلك».

١٦٧٠: ليما

- «احزنْ من أجلنا» -

قال له هنود مناجم بوتوسي بلا كلام: «احزن من أجلنا»، وكتب العام الماضي الكونت ليموس، نائب الملك في البيرو إلى ملك إسبانيا: «لا يوجد شعب في العالم مرهق هكذا، إنني أريح ضميري وأعلم جلالتكم بكل وضوح: إن ما يجلب إلى إسبانيا ليس فضة بل دم الهنود وعرقهم».

رأى نائب الملك الجبل الذي يأكل الرجال. يحضر الهنود من القرى مقيدين معاً بياقات حديدية وكلما ابتلع الجبل مزيداً من الهنود يزداد جوعه. أفرغت القرى من الرجال.

بعد أن يرسل التقرير إلى الملك يحظّر الكونت ليموس فترات العمل التي تستمر أسبوعاً في الأنفاق الخانقة. تقرع الطبول ويعلن في الشوارع: *يأمر نائب الملك أن الهنود سيعملون في المستقبل من الشروق إلى الغروب لأنهم ليسوا عبيداً ليقضوا الليل في المناجم.*

لاينتبه أحد إلى ذلك.

يتلقى جواباً في قصره في ليما من مجلس «الآنديز» في مدريد. يرفض المجلس قمع العمل الإجباري في مناجم الفضة والزئبق.

١٦٧٠: سان خوان آتيتلان

- متطفل في المذبح -

يحمل الحمار في منتصف الصباح الأب ماركوز رويز إلى قرية سان خوان آتيتلان. من يعرف فيما إذا كانت الموسيقا اللطيفة للماء والأجراس التي يحملها النسيم تجيء من القرية أو من الحلم؟

يلفّ ويدور كثيراً قبل أن يصل آتيتلان القرية التي تقع عميقاً في الريف الوعر. من المعروف جيداً أن الهنود يزرعون محاصيلهم في الزوايا الأكثر خفاءً في الجبال ليبايعوا في تلك المخابىء آلهتهم الوثنية.

حين يصل إلى المنازل الأولى يبدأ فراي ماركوز بالاستيقاظ. كانت القرية مهجورة ولم يأت أحد لاستقباله. ترفّ عيناه بعنف لدى وصوله إلى الكنيسة. كانت تغصّ بالبشر. يخفق قلبه بشدة وهو يشقّ طريقه إلى الداخل ويحك عينيه ليرى ما يحدث: كان الهنود في الكنيسة مزيّنين بالأزهار ومعطّرين كما لم يحدث من قبل ويعبدون أبله القرية. كان جالساً على المذبح مغطّى من رأسه إلى قدميه بالثياب المقدّسة، ويتلقى هدايا البخور والفاكهة والطعام الساخن وسط جدول من الخطب والترنيمات الغامضة. لايسمع أحد صرخات فراي ماركوز الساخطة الذي ينسحب بسرعة ليبحث عن الجنود.

يُغضبُ المشهدُ الراهبَ الورعَ إلا أن دهشته لاتستمر طويلاً. فبعد كلّ شيء ماالذي يستطيع المرء أن يتوقّعه من هؤلاء الوثنيين الذين يعتذرون من الشجرة حين يقطعونها ولايحفرون بئراً إلا بعد أن يعتذروا من الأرض؟ ألا يخلطون الله بحجر أو بآخر؟ بصوت جدول متدفق أو رذاذ مطر؟ ألا يسمّون الخطيئة الجسدية لعباً؟

١٦٧. ماسايا

ـ الأبله ـ

تشرق الشمس لحظة من خلال السحب ثم تختبىء خجلة أو خائفة من تألق البشر هنا في الأسفل لأن الأرض مضاءة بالفرح: رقص حواري، مسرح للرقص، مسرحيات هزلية موسيقية ظريفة على شفا الوضوح. يدير الأبله المهرجان ليس باللغة النواتلية أو الإسبانية بل بلغة هجينة نمت في نيكاراغوا وغذاها ألف مصطلح طوّره الناس لأنهم تحدّثوا بجرأة وابتكروا وهم يتحدثون فلفلاً حاراً من مخيلة شعب يسخر من أسياده.

يشغل هندي عريق ومتحدث سريع أجش الصوت وسط المسرح. إنه الأبله أو المعروف باسم الفأر ماشو الذي يسخر من الممنوعات، الذي لايقول أبداً ما يقوله ولا يصغي لما يسمعه ويتجنّب ببراعة أن يتمّ تحطيمه من قبل الأقوى: حين لايستطيع أن ينجز إنسحاباً يرتبك.

١٦٧. كوزكو

ـ العجوز مولي ـ

تنوء جدران الكاتدرائية بالذهب. تهيمن على العذراء الداكنة ذات الشعر الأسود الذي يتدفّق من تحت قبّعتها القشيّة والتي تحمل لامةً صغيرةً بين ذراعيها. يحيط صورتها البسيطة بحر مزبد من الزبد المخرّم. تريد كاتدرائية كوزكو أن تتقيأ من جوفها الغني هذه العذراء الهندية، عذراء اليأس وكأنه لم يحدث منذ زمن بعيد أن منع بوّابوها امرأةً عجوزاً حافيةً من الدخول.

صرخ الكاهن عن المنبر: «اتركوها وشأنها. دعوا هذه الهندية تدخل. إنها أمي».

يسمي الجميع الكاهن خوان إسبينوزا ميدرانوا باسم العجوز ذو الشامات لأن الله غطى وجهه بالشامات. حين يعظ العجوز ذو الشامات تتجمّع الحشود في الكاتدرائية، ولايوجد في الكاتدرائية البيروفية خطيب أفضل منه. والأكثر من ذلك أنه يدرّس اللاهوت في معهد سان أنطونيو اللاهوتي ويكتب المسرحيات. تشبه ملهاته «أحبب موتك» التي كتبها بالإسبانية لغة والده، المنبر الذي

يلقي منه مواعظه: أشعار فخمة تدور في بناء أرابيسكي متباهية ومسرفة كالكنائس الإستعمارية. وفي نفس الوقت كتب بلغة «الكوينشو»، لغته الأم مسرحية دينية طقسية تركيبها بسيط وأسلوبها تسلسلي ولغتها واضحة تدور حول موضوع الإبن الضال. في هذه المسرحية الشيطان مالك أراضٍ بيروفي والخمرة هي الشيكا والعجل التوراتي خنزير سمين.

١٦٧١: مدينة بنما

- حول دقة المواعيد -

مرّ أكثر من عامين على وصول هنري مورغان إلى بنما في سفينة على رأس حفنة من الرجال وعصف بمتاريس بورتو بيللو حاملاً سكيناً بين أسنانه. استولى بقوته الصغيرة وبدون بنادق ومدافع على هذا المعقل المنيع وطلب كي لايحرقه جبلاً من الذهب والفضة كفدية. أرسل حاكم بنما الذي هزمه وحرّره من وهمه هذا العمل الفذّ ليطلب من مورغان مسدساً كالذي استخدمه في الهجوم.

قال القرصان: «ليحتفظ به لمدة عام وسأذهب لأعيده».

يدخل الآن إلى مدينة بنما متقدماً بين ألسنة اللهب. يرفرف العلم الإنكليزي في إحدى يديه وتمسك الأخرى بقطلس. يتبعه ألفا رجل وعدة مدافع. تحوّل النار الليل إلى نهار. يعلو صيف آخر فوق الصيف الأبدي لهذه الشواطىء يلتهم المنازل والأديرة والكنائس والمستشفيات ويلعق شفتي القرصان الذي يصرخ: «أنا هنا من أجل المال وليس من أجل الصلوات».

بعد كثير من القتل والحرق يتحرك متبوعاً بقافلة لانهائية من البغال المحمّلة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

يرسل مورغان اعتذاراته إلى الحاكم عن تأخره.

١٦٧٢: لندن

- عبء الرجل الأبيض -

أسّس دوق يورك، شقيق ملك إنكلترة شركة المغامرات الملكية منذ تسعة أعوام. اشترى المزارعون الإنكليز في «الآنتيل» عبيدهم من تجار عبيد هولنديين إلا أن التاج لم يسمح بالحصول على هذه المواد من الأجانب. رتّب المشروع الجديد التجارة مع أفريقيا وضمّ مالكي أسهم من ذوي المكانة الرفيعة: الملك تشارلز الثاني، ثلاثة دوقات، ثمانية إيرلات، سبعة لوردات وكونتيسّة وسبعة وعشرين فارساً. تمجيداً لدوق يورك طبع الضباط الحرفين الأولين من اسمه على صدور ثلاثة آلاف عبد من الذين كانوا ينقلونهم سنوياً إلى باربادوس وجامايكا بالحديد المحمّى.

سيدعى المشروع الآن شركة أفريقيا الملكية. يشجّع الملك الإنكليزي الذي يملك معظم الأسهم على شراء العبيد في مستعمراته حيث تزيد كلفة العبيد ستة مرات عنها في أفريقيا.

تبدأ أسماك القرش رحلتها إلى الجزيرة وراء السفن منتظرة الأجساد التي ترمى عن ظهورها. يموت كثيرون لأنه لايوجد ماء كاف والأقوياء جداً يشربون ماهو متوفّر، أو يموتون من الزّحار الجدري ويموت كثيرون من الكآبة. يرفضون أن يتناولوا الطعام ولاتوجد طريقة لفتح أفواههم.

يستلقون في صفوف، محطمين فوق بعضهم، تلمس أنوفهم ظهر المركب. تُقَيِّدُ رسوغهم وتسلخُ الأغلالُ كعابهم. حين يتوجّب إغلاق فُتَح الرمي في البحار العاصفة أو في المطر، ترتفع حرارة كمية الهواء القليلة إلى درجة الحمّى ولكن حين تنفتح الكوى يفوح المعتقل برائحة الكراهية والحقد المتخمّر، أكثر إنتاناً من زنخ المسالخ وتصبح الأرضية زلقة من الدم والتقيؤ والخراء.

يصغي البحارة الذين ينامون على السطح في الليل إلى الأنين الذي لايتوقّف الصاعد من الأسفل وعند بزوغ الفجر يصغون لصرخات أولئك الذين حلموا أنهم كانوا في بلادهم.

- أغنية شعب الماندينغو عن طائر الحب -

دعني، آه ياديامبير
أنت أيها الذي يرتدي حزاماً بهدابات طويلة
دعني أغني للطيور
التي تصغي للأميرة الراحلة
وتتلقى آخر أسرارها
وأنتن ياعذراوات، غنّين، غنّين
بنعومة
للطائر الجميل
وأنت ياسيد البندقية المرعبة
دعني أنظر إلى طائر الحب
الطائر الذي أحبه أنا وصديقي
دعني ياسيد الرداء الرائع
يامالك الثياب المتألقة
أكثر من ضوء النهار
دعني أحبّ طائر الحب

١٦٧٤: ميناء رويال

ـ مورغان ـ

كان طفلاً حين باعوه لتاجر في بريستول. استبدله الضابط الذي أخذه إلى «الآنتيل» ببضعة قطع نقدية في باربادوس.

تعلّم في تلك الجزر أن يكسر بضربة فأس واحدة أي غصن يصدم وجهه، وتعلّم أنه لايوجد ثروة لاتجرم الأب أو لا تسيء إلى الأم. أمضى أعواماً يسرق السفن ويرمّل النساء. كان يقطع ببساطة الأصابع التي ترتدي الخواتم الذهبية. إنه أميرال القراصنة. يعلق دائماً على عنقه التي تشبه الضفدعة رخصة القرصنة التي تضفي طابعاً قانونياً على وظيفته وتحميه من المشنقة.

منذ ثلاثة أعوام وبعد نهب بنما، نقلوه إلى لندن كسجين.. حرّره الملك من الأغلال وسمّاه فارس البلاط وعيّنه حاكماً على جامايكا.

صاغ الفيلسوف جون لوك تعاليمه عن الحكومة الجيدة من هذه الجزيرة التي هي مقرّ القراصنة الإنكليز. وسيؤكد مورغان أن الكتب المقدّسة والكلاب التي تصطاد الهاربين ستكون موجودة وسيشنق أخوته القراصنة في كل مرة يقرّر فيها ملكه تحسين علاقاته مع إسبانيا.

يهبط حديثاً في ميناء رويال، ينزع قبعته المريّشة. يسكر من الرُّم ويفرغ الإناء على شعره المستعار الكثير الإلتفاف، يصيح القراصنة ويلوّحون بسيوفهم وهم يتبادلون الأنخاب.

الحصان الذي ينقل مورغان إلى قصر الحكومة مُنَعَّل بالذهب.

١٦٧٤: بوتوسي

ـ كلوديا الساحرة ـ

حرّكت الغيوم بيدها وسلّطت ومنعت العواصف. أعادت البشر برفّة عين من أراض بعيدة ومن الموت. مكّنت حاكم مناجم بوركو أن يشاهد مدينته مدريد في مرآة وقدّمت على مائدة دون بدرو دي آيامونت الذي جاء من «أتريرا» كعكات مطهوة حديثاً في فرن «أنزيرا». جعلت الحدائق تزهر في الصحارى وحوّلت العاشقات المحترفات إلى عذراوات. أنقذت أسرى لاذوا إلى منزلها بتحويلهم إلى كلاب وقطط. تقول إن الأوقات السيئة بحاجة إلى وجه متألق وتصرع الجوع بالغيتار. كانت تعزف على غيتارها وتهزّ دفها لتشفي المرضى وتبعث الموتى. إذا كنت صامتاً ستجعلك تتحدّث وإذا تحدّثت كثيراً تستطيع أن توقفك عن الكلام. مارست الحبّ علناً مع شيطان أسود في الريف. وهربت بعد منتصف الليل.

ولدت في توكامان وماتت هذا الصباح في بوتوسي. استدعت وهي على فراش موتها كاهناً يسوعياً وطلبت منه أن يخرج من الدرج قطع شمع معيّنة ويزيح الدبابيس الملصقة عليها لكي يشفى خمسة كهنة زرعت فيهم المرض.

عرض عليها الكاهن الاعتراف والرحمة الإلهية، إلا أنها ضحكت وماتت وهي تضحك.

١٦٧٤: يورك تاون

- الجواد الأولمبي -

تحدّى جيمس بلوك وهو خياط من يورك تاون، ماثيو سيلدر في سباق أحصنة. غرّمته المحكمة الإقليمية بسبب جرأته وحذّرته أنه من المخالف للقانون أن يشارك في سباق لأن هذه الرياضة خاصّة بالسادة. يجب أن يدفع بلوك ما يعادل مئتي باوند من التبغ.

بشر على أقدامهم، أرستقراطيون على خيولهم: هالة الأرستقراطية هي الغبار الذي ترفعه الحوافر على طول الطريق. تصنع حوافر الأحصنة أو لا تصنع الثروة. يخرج فرسان التبغ من عزلة المزرعة مرتدين ثياباً حريرية وشعراً مستعاراً مجعّداً من أجل السباق بعد ظهر أيام السبت ومن أجل الحديث عن الخيول في أوقات المساء. يتناقشون فوق أكواز عصير التفاح والبراندي ويتراهنون بينما يُرْمى النرد على الطاولة. يقامرون بالمال أو التبغ أو العبيد السود أو الخدم البيض، ويرهنون فقط في ليالي العظمة أحصنتهم. يقاس الحصان الجيد بقيمة مالكه، مزارع التبغ الفرجيني الذي يعيش ويحكم وهو على ظهر الحصان وعلى ظهره يموت طائراً كالريح إلى البوابات السماوية.

لايوجد وقت في فيرجينيا لأي شيء آخر. استطاع الحاكم ويليام بيركلي منذ ثلاثة أعوام أن يلاحظ بفخر: أشكر الله. لايوجد مدارس مجانية ولاطباعة وآمل أن لايحصل على كليهما لمئات السنين لأن التعليم يولّد العصيان والهرطقة والإنقسام وتنشر الطباعة ذلك.

١٦٧٦: وادي كونيكتيكت

- فأس المعركة -

ينتفض هنود الوامبانوغ حين تسقط الثلوج الأولى. لقد تعبوا من رؤية حدود نيوانجلاند تمتدّ جنوبا وغرباً بقدمين سريعتين. خرّبوا وادي كونتيكت وهم يقاتلون على بعد أقل من عشرين ميلاً من بوسطن.

يجّر الحصان راكبه على الأرض بعد أن علقت رجله بالركاب. لقد قتله سهم. يضرب المحاربون الرشيقون، ضحايا السلب والنهب، يختفون. وهكذا يدحرون الغزاة نحو الساحل حيث جاؤوا منذ أعوام.

١٦٧٦: بليموث

- ميتاكوم -

مات نصف السكان الهنود في الحرب. تستلقي اثنا عشر بلدة انكليزية في الرماد.

يحضر الإنكليز في نهاية الصيف رأس ميتاكوم زعيم الوامبانوغ إلى بليموث. إن ميتاكوم هو الشيطان الذي حاول أن ينتزع من البيوريتانيين المستعمرين الأراضي التي خصّهم الله بها.

تتناقش محكمة بليموث العليا: ماذا نفعل بولد ميتاكوم؟ أنرسله إلى المشنقة أم نبيعه؟ آخذين بعين الإعتبار سفر تثنية الإشتراع وأول كتاب الملوك والمزامير من رقم ١٣٧ إلى ١٣٩، يقّرر القضاة أن يبيعوا ولد ميتاكم الذي يبلغ التاسعة من العمر في أسواق النخاسة في جزر الآنتيل.

وكدليل على الكرم يقدِّم المنتصرون للهنود قطعة أرض صغيرة ممّا كان لهم: في المستقبل ستوضع القبائل الهندية التي قاتلت أو لم تقاتل مع متياكوم في أربعة أراض مفردةٍ في خليج ماسّاتشوسيتس.

١٦٧٧: بلدة الطريق القديم

- موت هنا، ولادة هناك -

إن الجسد الذي يعرف القليل، لا يعرف ذلك ولا الروح التي تتنفّس بل الروح التي تحلم، التي تعرف أكثر، تعرف ذلك· إن الرجل الأسود الذي يقتل نفسه في أميركا يولد في أفريقيا. مات كثير من عبيد جزيرة القديسة كيتس رافضين تناول الطعام أو أكلوا فقط التراب والرماد والكلس. شنق الآخرون أنفسهم بالحبال. وفي الغابات بين الأعشاب المتعرّشة التي تعلق بالأشجار يتدلى عبيد انتحروا لا ليمحوا ذكرى الألم بل لينطلقوا في قوارب بيضاء في رحلة العودة الطويلة إلى أرض أسلافهم

يتقدَّم شخص من البوارو مالك للمزارع، عبر الأوراق ويقطع بمنجله رؤوس المشنوقين.

ينصح الأحياء: «اشنقوا أنفسكم إذا أردتم. لن يكون لكم رؤوس هناك في بلدانكم ولن تقدروا على الرؤية والسماع والكلام وتناول الطعام».

يدخل مزارع آخر يدعى« كريبز» خاصي الرجال إلى الغابة ومعه عربة مليئة بورق السكر وقِطَعِ آلة الطحن. يبحث ويعثر على عبيده الفارين الذين تجمعوا سوية وكانوا يجهزون أنفسهم للإنتحار. يقول لهم:

-«سأشنق نفسي معكم. سأرافقكم. اشتريت مطحنة سكّر كبيرة في أفريقيا وهناك ستعملون عندي».

يختار «كريبز» شجرة كبيرة، يربط الحبل حول عنقه ويزلق العقدة المنزلقة. يراقبه السود منذهلين، إلا أن وجهه كان فقط ظلاً تحت القبعة القشيّة ويردّد· «هيا بنا جميعاً! هيا بسرعة أحتاج إلى سواعد في غينيا».

١٦٧٧: بورتوكالفو

- يعد القائد بالأراضي والعبيد والألقاب الرفيعة -

ينطلق الجيش باكراً في الصباح من بورتوكالفو. يتقدّم الجنود والمتطوعون والذين وقعت عليهم القرعة لمحاربة السود الأحرار في بالماريس الذين يحرقون حقول القصب في جنوب بيرانمبكو.

يخاطب فيرناوكاريلهو القائد الأعلى مقاماً في الحرب جنوده بعد القدّاس: «إن جيش أعدائنا كبير وهو جيش عبيد. لقد خلقتهم الطبيعة ليطيعوا لا ليقاوموا. إذا سحقناهم سنحصل على أراض لمزارعنا وعلى سود لخدمتنا وعلى شرف لأسمائنا إن السود يقاتلون كالفارين ونحن سنطاردهم كاللوردات».

١٦٧٨: ريسيف

- غانكا زومبا -

في عيد قدّاس الشكر الذي يقام في الكنيسة الأم يلتقط حاكم بيرانمبكو آيريس سوسا كاسترو أذيال معطفه ويركع أمام عرش الأكثر قداسة. كان يركع إلى جانبه غانكا زومبا، الرئيس الأعلى لفيدرالية بالماريس.

ترنّ الأجراس. تصخب المدفعية والطبول. يمنح الحاكم غانكا زومبا لقب ضابط النظام وكدليل على الصداقة يتبنى اثنين من أولاده اللذين سيحملان اسمه. حدّدت الإتفاقية في نهاية محادثات السلام التي عقدت في ريسيف بين وفد ملك البرتغال وممثلي بالماريس: سيتم إفراغ المعابد البالماريسية. أعلن أن جميع الذين ولدوا هنا أحرار أما الذين يحملون علامة الوشم فيجب أن يعودوا إلى أسيادهم.

إلا أن زومبي ابن أخ غانكا زومبا قال: «لن أستسلم».

يبقى زومبي في ماكاكوس عاصمة بالماريس ويعير أذناً صماء للجماعات المتعاقبة التي تمنحه الصفح.

من بين ثلاثين ألف بالماريسي، يرافق غانكا زومبا خمسة آلاف شخص فقط، إذ أن الآخرين يعتبرونه خائناً يستحق الموت والنسيان.

يقول زومبي: «لا أصدق كلمة أعدائي. إن أعدائي أنفسهم لا يصدقونها».

ـ رقية يوروبا ضدّ العدو ـ

حين يحاولون اصطياد حرباء
من بين الأغصان
تتقمّص الحرباء لون الأغصان
فلا يستطيعون التمييز بينهما
حين يحاولون اصطياد تمساح
في قاع النهر
يتقمّص التمساح لون المياه
ولا يستطيعون تمييزه عن الجدول.
حين يحاول الساحر أن يصطادني
يمكن أن أتقمّص سرعة الريح
وأنجو.

١٦٨٠: سانتا في المكسيك الجديدة

ـ صليب أحمر وصليب أبيض ـ

تعلن عقد الحبل المصنوع من ألياف الصبّار عن التمرّد وتحصي أيام الانتظار. ينقله الرسل الأكثر سرعة من قرية إلى أخرى في المكسيك الجديدة إلى أن يشرق أحد الغضب.

تنتفض أربع وعشرون قبيلة هندية بقيت من القبائل الستة والستين التي عاشت في الأراضي الشمالية حين وصل الفاتحون. نجح الإسبان في قمع التمرّد في قرية أو قريتين.

ـ «استسلم».

ـ «أفضّل الموت».

ـ «ستذهب إلى الجحيم».

ـ «أفضّل الجحيم».

يتقدّم الذين ينتقمون لألمهم ويدمرون الكنائس والحصون ويصبحون بعد بضعة أيام أسياد الإقليم بأسره. يغتسل الهنود في النهر ويدلّكون أجسادهم بنباتات الأمول ليزيلوا زيت التعميد ويتخلّصوا

من الأسماء المسيحية. يرتدون ثياباً كالكهنة ويشربون أنخاب استعادة أراضيهم وآلهتهم. يعلنون أنهم لن يعملوا ثانية أبداً للآخرين وأن اليقطين سينمو في كل مكان وسوف تثلج الدنيا قطناً.

ترسم أنشوطة حول مدينة «سانتا في» آخر معقل إسباني في هذه الأقاليم البعيدة. يعدو زعيم الهنود إلى الأسوار مسلحاً ببندقية وخنجر وسيف مرتدياً قطعة نسيج حريرية وجدها في دير ويرمي عند قدم السور صليبين أحدهما أبيض والآخر أحمر.

- «إن الصليب الأحمر هو المقاومة والأبيض هو الإستسلام. اختاروا أحدهما».

يدير ظهره إلى العدو المحاصر ويختفي في هبّة غبار.

يقاوم الإسبان، إلا أنهم يرفعون العلم الأبيض بعد عدة أيام. جاؤوا منذ فترة بحثاً عن مدن سيبولا الذهبية الأسطورية. الآن يبدؤون الإنسحاب جنوباً.

١٦٨١: مدينة المكسيك

- جوانا في سن الثلاثين -

بعد صلوات الصبح وتسابيح الضحى تنصب خذروفاً وتدوّره في الطحين وتدرس الدوائر التي يرسمها. تفحص الماء والضوء والهواء والأشياء. لماذا تتجمّع بيضة في الزيت المغلي وتتفرّق في شراب الفاكهة؟ تشكّل مثلثاً من الدبابيس وتبحث عن خاتم سليمان. تصطاد النجوم بعين واحدة ملتصقة على المنظار.

هددوها بإبلاغ محكمة التفتيش ومنعوها من فتح الكتب إلا أن سور جوانا آنيز كروز، تدرس الأشياء التي خلقها الله والتي تخدمها لتتعلّم منها كتاب العالم.

تبدأ جوانا جدلاً بين الحب الإلهي والحب الإنساني، بين الألغاز الخمسة عشر للمسبحة التي تتدلى حول عنقها وألغاز العالم تمضي ليالي عديدة دون أن تنام وهي تصلّي وتكتب حين تبدأ الحرب اللانهائية ثانية في داخلها بين الهوى والعقل. يدخل في نهاية كل معركة الضوء الأول للفجر إلى حجرتها في الدير الجيرونيمي ويساعد سور جوانا على تذكّر ما قاله لوبريسيو ليوناردو بأنه بإمكان المرء أن يتفلسف وأن يحضّر العشاء. تبتكر القصائد على الطاولة وتعد الفطائر في المطبخ وكل هذا سيمنح للآخرين، قيثارة داؤود المهدئة لسول كما هو الأمر لداؤود، متع الروح والفم التي يشجبها محامو الألم.

يقول لها كاهن الاعتراف: إن المعاناة فقط ستجعلك تستحقين رضا الله. يأمرها أن تحرق ما تكتب وتجهل ما تعرف وأن لا ترى ما تنظر إليه.

١٦٨١: مدينة المكسيك

- سيكوينزا غونكورا -

أضاء شهاب سماء المكسيك منذ نهاية العام الماضي. أية شرور يعلنها النبيّ الغاضب؟ أية مشاكل سيسبّب؟ هل ستضرب الشمس الأرض كقبضة الله الكبيرة؟ هل ستجفّ المحيطات وتتلاشى آخر قطرة من الأنهار؟ يقول الحكيم للبشر المرتعبين: «لا يوجد سبب يوضح أن النيازك تجلب الحظ السيء».

ينشر كارلوس سيكوينزا غونكورا بيانه الفلسفي ضدّ النيازك الضالّة التي تبقيها الإمبراطورية فوق رؤوس الجبناء، والذي شكّل اتهاماً مرعباً للخرافة والخوف. ينفجر جدل بين علم التنجيم وعلم الفلك، بين الفضول البشري والوحي الإلهي. يضع اليسوعي الألماني أوسيبيو فرانسيسكو كينو الذي يزور هذه الأقاليم ستة أسس توراتية لتأكيده أن جميع النيازك تقريباً هي بشائر بحوادث شريرة ومخربة وكارثية.

يحاول كينو بازدراء أن يصلح نظرية سيكوينزا غونكورا، وابن كوبرنيكوس وغاليليو وهراطقة آخرين، ويجيب الكريبولي المتعلّم: «هل ستسلّمون على الأقل أنه يوجد أيضاً علماء رياضيات خارج ألمانيا يمكن أن يوجدوا بين خيزران وديس[1] بحيرة مكسيكية».

يحدس كوزموغرافي[2] الأكاديمية الأول سيكوينزا غونكورا بقانون الجاذبية ويؤمن أن نجوماً أخرى، يجب أن يكون لها مثل الشمس، كواكب تدور حولها. معتمداً على الكسوفات والنيازك، ثبّت تواريخ أحداث تاريخ المكسيك الطبيعي وكما أن الأرض من اختصاصه كما السماء ثبّت بدقة خطوط طول هذه المدينة ورسم الخريطة الأولى للإقليم وقال كل هذا في أعمال شعرية ونثرية لها عناوين طنّانة متناسبة مع عصره.

١٦٨٢: آكرا

- أوروبا كلها تبيع اللحم البشري -

غير بعيد عن الحصون الإنكليزية والدنمركية، في المدى المجدي لطلقة مسدّس، ينتصب المكتب التجاري البروسي. يرفرف علم جديد على هذه السواحل فوق سقوف مستودعات العبيد المصنوعة من جذوع الأشجار وعلى صواري السفن التي تبحر بحمولة كاملة.

---

(١) ـ الديس: عشب مائي من الفصيلة السعدية.

(٢) ـ الكوزموغرافيا: وصف عام للعالم أو الكون، علم يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا.

ينضمُّ الألمان إلى العمل الأكثر إدراراً في تلك الفترة بشركتهم التي تدعى أفريقيا. يصطاد البرتغاليون ويبيعون السود عبر شركتهم التي تدعى غينيا. تعمل شركة أفريقيا الملكية للتاج البريطاني. يرفرف العلم الفرنسي على سفن شركة «السينيغال» وتعمل الشركة الهولندية للآنديز الغربية بشكل جيد. ويدعى أيضاً المشروع الدنماركي المتخصّص بتسويق العبيد شركة الآنديز الغربية. وتملأ شركة البحر الجنوبي جيوب السويديين.

ليس لإسبانيا عمل في تجارة العبيد، إلا أن غرفة التجارة في سيفيل أرسلت إلى الملك منذ قرن تقريراً موثّقاً يشرح أن بيع العبيد هو التجارة الأربح في أميركا. تدفع المؤسسات التجارية الأجنبية للصناديق الملكية من أجل حقوق بيع العبيد في المستعمرات الإسبانية. بنيت بهذه الإيداعات من بين أشياء آخرى قصور مدريد وطليطلة. تجتمع لجنة الزنوج في القاعة الرئيسية لمجلس الآنديز.

١٨٦٢: ريميديوس

- بأمر من الشيطان -

يرتجف. يلتوي. يزأر. يسيل لعابه. يهزّ أحجار الكنيسة. يتصاعد البخار في كلّ مكان من أرض كوبا الحمراء.

- «أيتها الشيطانة، أيتها الكلبة! أيتها الكلبة السكرانه، تكلّمي وإلا سأبول عليك». يهدّد المفتّش خوسيه غونزاليس لاكروز، كاهن أبرشية ريميديوس ويرمي أرضاً المرأة السوداء ليوناردو أمام المذبح الرئيسي. ينتظر بارتولومي دي كاستيللو الكاتب بالعدل دون أن يتنفّس. يمسك كومة ورق سميكة في يد ويلوّح بريشة طائر في الأخرى.

يلهو الشيطان مرتاحاً في الجسد الساحر لليوناردو السوداء.

يضربها المفتش فتسقط على وجهها، تأكل الغبار وترتد. ترفع نفسها إلى الأعلى وتلتفت، محترقة ونازفة على الرقعة الآجرّية.

- «أيتها الشيطانة! لوسيفر! الزنجية! تكلّمي أيتها الخراء النتن».

يخرج من فم ليوناردو اللهب والرغوة وأصوات صاخبة لا يفهمها أحد سوى الأب خوسيه الذي يترجم ويملي على الكاتب بالعدل:

- «تقول إنها لوسيفر. تقول إنه يوجد ثمانمائة شيطان في ريميديوس».

تخرج أصواتاً أكثر صخباً من فم المرأة.

- «ماذا أيضاً؟ ماذا أيضاً أيتها الكلبة؟»، يرفعها الكاهن ليوناردو من شعرها.

- «تكلمي أيتها الخراء!». لا يلعن أمهّا لأنه ليس للشيطان أمّ

قبل أن يُغمى على العبدة يصرخ الكاهن ويكتب الكاتب بالعدل: «تقول إن ريمبديوس ستنهار إنها تعترف بكل شيء. تقول إن الأرض ستبتلعنا».

يزأر: «فم الجحيم! تقول إن ريميديوس هي فم الجحيم!».

يصرخ الجميع. يقفز جميع سكان ريميديوس صارخين وصاخبين. يغمى على أشخاص عديدين. يرخي الكاهن المستحم بالعرق، ذو الجلد الشفاف والشفتين المرتجفتين، قبضته عن عنق ليوناردو. تنهار المرأة السوداء.

لا أحد يسعفها.

١٦٨٢: ريميديوس

- إلا أنهم يمكثون -

ثمانمائة شيطان! إذاً يوجد شياطين في سماء ريميديوس أكثر مما يوجد بعوض. يخصّص ١٣٠٥ شياطين لتعذيب كلّ مواطن.

إن الشياطين عرجاء منذ السقوط الذي يعرف العالم كله عنه. ولها لحى ماعز وقرون وأجنحة خفافيش وأذيال جرذان وجلود سوداء. ولهذا فإن الدوران في جسد ليوناردو أكثر متعة لها لأنها سوداء.

تبكي ليوناردو وترفض أن تأكل.

يقول لها الأب خوسيه: «إذا كان الله يريد أن يطهّرك فسوف يبيّض جلدك».

تصدر الأغاني الحزينة للزيزان والجنادب عن الأرواح التي تتعذّب. السراطين مذنبة مكتوب عليها أن تمشي عرجاء. تعيش في المستنقعات والأنهار عفاريت تسرق الأطفال. حين يسقط المطر يسمع شجار الشياطين من الكهوف والشقوق عنيفاً وصاخباً لأن الشرر الذي تطلقه لحرق السماء يصبح رطباً. والنقيق الحاد للضفادع في مرجة بوكويرون هل يتنبأ بالمطر أم يلعن؟ هل يأتي ذلك الضوء الذي يشعّ في الظلام من الحباحب؟ هل هاتان العينان للبومة حقاً؟ ضدّ من يهسهس الثعبان؟

يسمع طنين الخفّاش الليلي الأعمى: إذا مشّطك بجناحه. ستذهب إلى الجحيم مباشرة، الجحيم تقع تحت ريميديوس، هناك ألسنة اللهب تحرق ولا تصدر ضوءاً ويجعل الجليد الأبديّ أسنان الذين أذنبوا واتبعوا شهواتهم على الأرض، تصطك وترتعش.

- «ابق مكانك».

يقفز القس في جرن المعمودية المقدّس.

- «ابقى مكانك أيها الشيطان».

يغسل الخسّ بالماء المقدّس. يتثاءب البشر وأفواههم مغلقة.

- «يسوع! يا يسوع!». يصلّب الأساقفة.

لا يوجد منزل غير مزيّن بجدائل الثوم ولا يوجد هواء لا يحبله دخان الحبق العذب.
ـ «يمتلكون أقداماً إلا أنهم لا يصلون إليّ وحديداً إلا أنهم لا يجرحونني وأنشوطات إلا أنهم لا يقيدونني..».
إلا أن الناس يمكثون. لا يغادر أحد. لا أحد يهجر مدينة ريميديوس.

١٦٨٢: ريميديوس

ـ بأمر من الله ـ

ترنّ أجراس الكنيسة المنصوبة إزاء السماء من أجل الخدمة. يغادرُ جميع سكان ريميديوس منازلهم. يجلس الكاتب بالعدل إلى يمين المذبح. ينضغط الحشد عبر الأبواب المفتوحة.

تدور شائعة تقول إن الأب خوسيه سيسمع شهادة من الله. كان يؤمل أن المسيح سينزع يده اليمنى عن الصليب ويُقسم أن يقول الحقيقة، الحقيقة كاملة ولا شيء سوى الحقيقة.

يتقدّم الأب خوسيه إلى المذبح الرئيس ويفتح وعاء خبز القربان. يرفع كأس القربان وخبز القربان المقدّس ويركع أمام جسد ودم الإله على ركبتيه ويصيغ طلبه. يدوّن الكاتب بالعدل ملاحظاته. سيُظهر الله لسكان ريميديوس أين يجب أن يعيشوا.

إذا تحدّث الشيطان من خلال فم ليوناردو فستكون ليوناردو أداة عدوّه الذي لا يقهر

يغطي الكاهن عيني الصبي ليوناردو الذي لا يصل إلى خصره بعصابة ويغمس ليوناردو يده في حُق القربان المقدّس الفضي الذي يحتوي على بعض القطع الورقية التي كُتبت عليها أسماء الأمكنة.

يلتقط الولد قطعة ورقية. يفتحها الكاهن ويقرؤها بصوت مرتفع: «سانتا ماريا دي كوادليوب! دوّن أيها الكاتب!» ثم يضيف بانتصار: «لقد أشفق الله علينا. هو، برحمته اللانهائية، يقدم لنا الحماية. هيّا يا أبناء ريميديوس لقد آن أوان الرحيل».

يذهب الكاهن.

ينظر خلفه. يتبعه البعض.

يأخذ الأب خوسيه معه كلّ شيء: كأس القربان، خبز القربان، المصباح والشمعدانات الفضيّة، الصّور والنقوش الخشبية. يرافقه فقط النساء العزّل والرجال الخائفون إلى أرض الميعاد.

تجر ممتلكاتهم الأحصنة والعبيد. يأخذون الأثاث والثياب الأرز واللوبياء، الملح والزيت والسكر واللحم المجفّف والتبغ وكتباً من باريس وقطناً من«روين» وبعض الأشياء الأخرى المهّربة إلى كوبا.

الطريق طويلة إلى سانتا ماريا دي كوادليوب. هناك تقع أراضي هاتو ديل كيوبي التي يمتلكها الأب خوسيه. كان الكاهن يبحث منذ سنوات عن مشترين لها.

١٦٨٨: هافانا

- بأمر الملك -

كان الموضوع الرئيسي للمحادثة في كل أنحاء كوبا. كانت المراهنات تُعقد أينما اجتمع الناس.
هل سيطيع سكان ريميديوس؟
يبقى الأب خوسيه الذي هجره أتباعه وحيداً ويعود إلى ريميديوس. إلا أنه يتابع حربه العنيدة المقدّسة التي تردَّد صداها في القصر الملكي. أمر تشارلز الثاني من مدريد أن سكان ريميديوس يجب أن ينتقلوا إلى أراضي «هاتو ديل كيوبي» في سانتا ماريا دي كوادليوب.
يعلن رئيس الحكومة وأسقف هافانا أن أمر الملك يجب أن يُحترم.
ينفذ الصبر.
يستمر سكان ريميديوس بالتظاهر بالصمم.

١٦٩١: ريميديوس

- ما يزالون لا يتحركون -

يصل الضابط بيريز دي موراليز فجراً من هافانا مع أربعين رجلاً مسلحين جيداً.
يذهبون إلى الكنيسة. يتلقى الجنود العشاء الرباني ويبارك الأب خوسيه بنادقهم وفؤوسهم القتالية.
يجهزون المشاعل.
تتحول بلدة ريميديوس ظهراً إلى نار كبيرة. يراقب الأب خوسيه الدخان المتدرج نحو الزرقة متصاعداً من الحطام الملتهب.
حين يخيّم الليل يظهر الناس من مخابئهم في الأدغال ويعودون إلى الحطام.
يجلسون في حلقة، أعينهم مثبتة على سحب الدخان المتواصلة. يلعنون ويتذكرون. لقد سرق القراصنة هذه البلدة مرات عديدة. وحملوا في السنوات الماضية حتى كأس القربان الأكثر قداسة وقيل أن أسقفاً مات من القرف، وقالوا إنه من الجيد أن وشاحه بقي على صدره إلا أن أي قرصان لم يشعل النار في ريميديوس.
يعقد الناس في ضوء القمر، تحت شجرة سيبة مجلساً للبلدة. يقرّر الذين ينتمون إلى أرض التربة الحمراء هذه في الغابة أن يعيدوا بناء ريميديوس.
تضمّ النساء الأطفال إلى صدورهن ويحدّقن بأعين أمهات النمور الجاهزة للقفز.
يفوح الهواء بالاحتراق، لكن ليس برائحة الكبريت، أو روث الشيطان.
الأصوات المتصاعدة بين الأشجار هي أصوات تتناقش وصوت طفل حديث الولادة، يبكي من أجل الحليب، واسمٍ يعرف به.

١٦٩١: مدينة المكسيك

- جوانا في سن الأربعين -

يضيء جدول من ضوء أبيض كلسي سور جوانا آنيز لاكروز وهي راكعة في وسط المسرح. ترفع ظهرها وتنظر نحو الأعلى حيث ينزف مسيح كبير، ذراعاه مفتوحتان على السلّم الرفيع المخطط بالمخمل الأسود والمليء بالصلبان والسيوف والرايات. يقف على المنصة مدّعيان يوجهان اتهاماتهما.

كان كل شيء أسود حتى القلنسوتين اللتين تغطيان وجه المدّعيين. كان أحدهما يرتدي ثياب راهبة ومن تحت القلنسوة تظهر التجعدات المائلة إلى الأحمر للشعر المستعار: إنها لأسقف «بويبلا»، مانويل فرنانديز من سانتا كروز في دور الأخت فيلوتي. الآخر هو أنطونيو نونيز دي ميراندا، راهب اعتراف الأخت جوانا، يمثّل نفسه. ينتأ أنفه الأعقف من تحت القلنسوة، يتحرك وكأنه يريد أن يتحرّر من مالكه.

الأخت فيلوتي (تطرز على إطار): غامض هو الله. لماذا يضع رأس رجل على جسد الأخت جوانا، لكي تهتم بقضايا الأرض البائسة؟ إنها ترفض ما تنصّ عليه الكتب المقدسة.

كاهن الإعتراف: (مشيراً إلى الأخت جوانا بصليب خشبي): العاقّة!

الأخت جوانا (عيناها مثبّتتان على المسيح فوق رؤوس المدّعيين): إنني فعلاً أردّ على كرم الله بشكل سيء. أنا أدرس لأرى إن كانت الدراسة ستجعلني أقل جهلاً لأقود خطواتي نحو قمم اللاهوت المقدّس. إلا أنني درست أشياء كثيرة ولم أتعلّم شيئاً. إن الحقائق المقدّسة تبقى بعيدة عني، دائماً بعيدة. أشعر أحياناً أنها قريبة مع ذلك أعرف أنها بعيدة. منذ أن كنت فتاة صغيرة في الخامسة أو السادسة من عمري بحثت عن تلك المفاتيح في كتب جدّي تلك المفاتيح... قرأت وقرأت وحين عاقبوني بدأت أقرأ بشكل سري.

كاهن الإعتراف (مخاطباً الأخت فيلوتي). لم تقبل أبداً إرادة الله. إنها تكتب الآن مثل رجل لقد رأيت مخطوطات قصائدها.

الأخت جوانا: ... البحث.. عرفت باكراً أن الجامعات ليست للنساء وعرفت أن النساء اللواتي يعرفن ما هو أكثر من الصلاة الربّانية يُعتبرْن فاحشات. كنت أملك كتباً خرساء لمدرسين. ومحبرة من صديقة مدرسة حين منعت الكتب عني كما حصل أكثر من مرة في هذا الدير، درست أشياء العالم. إن المرء يستطيع أن يكتشف أسرار الطبيعة حتى وهو يطبخ

الأخت.فيلوتي: الجامعة الملكية والأسقفية للفطائر المحلاّة. مقلاة حرم الجامعة.

الأخت جوانا: ما الذي نستطيع أن نعرفه نحن النساء ماعدا فلسفة المطبخ؟ إن أرسطو لو طبخ لكتب أكثر مما كتبه. هذا يضحككم أليس كذلك؟ حسناً! اضحكوا! إذا كان هذا يسرّكم. يشعر الرجال أنهم حكماء جداً لمجرد كونهم رجالاً. لقد توّج المسيح أيضاً بالشوك، وضحك عليه.

كاهن الإعتراف: (يمحو ابتسامته يضرب الطاولة بقبضته). هل سمعت مثل هذا الكلام؟ هذه الراهبة الصغيرة المتفقّهة؟ تستطيع أن تكتب بعض الأغاني وتريد أن تقارن نفسها بالمسيح.

الأخت جوانا: لقد عانى المسيح أيضاً من هذه اللاعدالة. هل هو واحد منهم؟ وهكذا عليه أن يموت. لقد اتهم، ولهذا السبب يجب أن يعاني.

كاهن الإعتراف: يجب أن تتواضعي.

الأخت فيلوتي: فعلاً يا ابنتي، إنك تخيفين الله بكبريائك.

الأخت جوانا: كبريائي؟ (تبتسم بحزن) لقد استخدمت هذا منذ وقت طويل.

كاهن الإعتراف: لقد صفّق العامة لشعرها وهكذا تظنّ نفسها من النخبة. إنها أشعار تجلب العار إلى منزل الله هذا، إنها تمجيد للجسد (يسعل) إنها الفنون الشريرة للحيوان الذكري.

الأخت جوانا: أشعاري المسكينة! إن التصفيق مجرّد غبار، ظلّ، عظمة متلاشية هل طلبت أنا هذا؟ أيّ وحي إلهي يمنع النساء من الكتابة؟ بنعمة الله أو بلعنته، إن السماء هي التي جعلتني أصبح شاعرة.

كاهن الإعتراف (ينظر إلى السقف ويرفع يديه مبتهلاً): إنها توسّخ طهارة الإيمان وتلوم السماء على ذلك.

الأخت فيلوتي: (تضع الإطار المطرز جانباً وتضع يديها علىمعدتها): تمتلك جوانا كثيراً من الأغاني للروح الإنسانية وقليلاً منها للروح المقّدسة.

الأخت جوانا: ألا تعلّمنا الأناجيل أن السماوي يعبّر عن نفسه في الدنيوي؟ إن قوة جبارة تدفع يدي..

كاهن الإعتراف: (ملوحاً بالصليب الخشبي وكأنه يريد أن يضرب جوانا من بعيد) أهذه قوة الله أم قوة الشيطان؟

الأخت جوانا: سأستمر في الكتابة، سأظل خائفة ما دام يوجد ظل لجسدي. لقد هربت من نفسي حين ارتديت رداء الراهبة وسبّبت البؤس لنفسي.

الأخت فيلوتي: إنها تستحمّ في العري. يوجد أدلة.

الأخت جوانا: يا إلهي أطفىء ضوء فهمي واترك فقط مايكفي لحفظ شريعتك. أليس الباقي غير ضروري للمرأة؟

كاهن الإعتراف (صارخاً بحّدة كغراب): لقد جلبت العار إلى نفسك. أميتي قلبك أيتها العاقّة.

الأخت جوانا: أطفئني! أطفئني يا إلهي!

(تستمر المسرحية بحوار مشابه إلى عام ١٦٩٣)

١٦٩١: بلاسنتيا

أداريو، زعيم هنود الهورون يتحدث مع البارون لاهونتان، المستعمر الفرنسي لنيوفاوندلاند

إنك بائس بما يكفي ولا أستطيع أن أراك خارج ذلك. أي نوع من الرجال هم الأوروبيون؟ إلى أيه أنواع من المخلوقات ينتمون؟ إن هؤلاء الأوروبيين يجب أن يُجبروا على القيام بالأعمال الجيدة. ولا يوجد لديهم باعث آخر لتجنّب الشر سوى الخوف من العقاب.

من منحكم هذه البلدان التي تسكنونها الآن؟ بأية حق تمتلكونها؟ لقد كانت سابقاً «للألكونكونيز». إنني يا أخي العزيز آسف عليك من أعماق قلبي وبشكل جدي. اسمع نصيحتي وتحوّل إلى «هورنيّ»، لأنني أرى بوضوح فرقاً كبيراً بين وضعيتك ووضعيتي. أنا سيد نفسي ووضعي. أنا سيد جسدي. أمتلك السيطرة على نفسي.؟ أفعلُ ما يسرّني. أنا الأول والآخر في أمتي، لا أخاف من أي رجل وأعتمد فقط على الروح العظيمة، إلا أن روحك وجسدك مقدر عليهما أن يعتمدا على الضابط الكبير، نائب ملككم، وليس لك حرية أن تفعل ما تريد. أنت خائف من اللصوص وشهود الزور ومن القتلة.. الخ. وتعتمد على عدد لانهائي من الأشخاص الذين رفعتهم منزلتهم فوقك. أصحيح هذا أم لا؟

١٦٩٢: قرية سالم

- ساحرات سالم -

لايعلم سوى المسيح كم شيطان يوجد هنا؟ يزأر المحترم صموئيل باريس، راعي أبرشية بلدة سالم ويتحدّث عن يهوذا والشيطان الجالس على مائدة الرب الذي باع نفسه بثلاثين قطعة فضّية تعادل ٣,١٥,٠ من الباوندات الإنكليزية، وهو سعر عبدة أنثى يثير السخرية.

يصيح راعي الأبرشية أنه لايوجد حياد ممكن أو ملاذ مؤكد في حرب الحملان ضد التنانين. لقد زرعت الشياطين نفسها في منزله: كان أول من عذّبته الشياطين ابنة المحترم باريس وابنة

أخيه أيضاً، الشياطين التي عصفت بهذه البلدة البيوريتانية. ربتت الفتاتان الصغيرات على كرة كريستالية لتعرفا قدرهن فشاهدتا الموت. منذ أن حدث هذا بدأت كثيرات من فتيات «سالم» يشعرن بحمّى الجحيم في أجسادهن، الحمّى المهلكة التي تحرقهن من الداخل، فيلتوين ويدرن ويتدحرجن على الأرض وتمتلىء أفواههن بالرغوة ويجدّفن ويفحشن بكلمات وضعها الشيطان على شفاههن.

يشخّص الطبيب ويليم كريكز رقى شريرة تقدّم لكلب كعكة من طحين الشعير خلطت ببول الفتيات الممسوسات، يأكلها الكلب ويهزّ ذيله وينام بسلام. يفضّل اسيطان المساكن البشرية.

بين تشنج وآخر، تتهم الضحايا.

كان أول من شنق النساء والفقراء. شنقت امرأتان بيضاوان وواحدة سوداء: سارة أوسبورن، عجوز محنية التي دعت منذ سنوات خادمتها الإيرلندية، التي كانت تنام في الاصطبل ومنحتها مكاناً في فراشها. وسارة كود الشحاذة الفوضوية التي تدخن غليوناً وتدمدم حين تقدّم لها الصدقات وتيتوبا، العبدة السوداء سيدة شيطان مشعر له أنف طويل، وابنة سارة كود، ساحرة صغيرة في سن الرابعة وضعت في سجن بوسطن مغلولة القدمين.

إلا أن الصرخات المؤلمة لفتيات سالم لاتتوقف وتتكاثر الاتهامات والأحكام وينتشر اصطياد الساحرات من قرية سالم التي تقع في الضواحي إلى مركز بلدة «سالم»، من البلدة إلى المرفأ ومن الأضعف إلى الأقوى. لم تنج حتى زوجة الحاكم من إصبع الاتهام. تدلى على المشانق مزارعون أثرياء ورجال أعمال، مالكو حوانيت يتاجرون مع لندن، أعضاء الكنيسة أصحاب الامتيازات الذين يتمتّعون بحق العشاء الرّباني.

قيل أن مطراً كبريتياً انهمر على بلدة «سالم»، مرفأ ماسّاتشوسيتس الثاني، حيث الشيطان يعمل بجّد ويطوف واعداً المدن البيوريتانية بالذهب والأحذية الفرنسية.

١٦٩٢: كوابولو

ـ تأميم الفن الإستعماري ـ

يبدأ ميغيل الذي هو من سانتياغو بعرض لوحاته الزيتية في حرم كوابولو، القرية التي تطلّ على كويتو.

يرسم ميغيل، تمجيداً للعذراء المحلية، مجترحة المعجزات العظيمة، هذه الجبال والسهول والسماء والمناظر الطبيعية التي ستحتوي حياة فقيرة لو أن الناس الذين يتحركون فيها لايضيئونها. يتحرك بشر محليون في خلفيات محلية، في مواكب أو لوحدهم. لم يعد ينسخ الفنان أعمالاً من مدريد أو روما عن حياة القديس أوغسطين. يرسم الآن مدينة كويتو المضيئة المحاطة

بالبراكين، أبراج الكنائس، هنود بوجيلي وماشنفازا، هضبة بيلافستا ووادي كوابولو والشموس التي خلف الجبال، سحب دخان النار الصاعدة والأنهار الضبابية التي لاتتوقف أبداً عن الغناء والتي تنتمي كلها إلى هنا.

لايعمل ميغيل وحده. تهرب الأيدي المجهولة لرسامين محليين أو هجن لامات، إلى لوحاتهم المتعلّقة بعيد الميلاد بدلاً من الجمال وأناناساً وبلحاً وقرون ذرة وأفوكاتة إلى النقوش الخضراء لواجهة الكنيسة، وشموساً معصوبة الرأس إلى قرب المذبح. يوجد في جميع الجوانب عذراوات حبالى، ومسيح يحزن كالبشر، كبشر هذه الأماكن، من أجل حزن هذا العالم.

١٦٩٣: مدينة المكسيك

- جوانا في الثانية والأربعين -

دموع بطول الحياة، تنبع من الزمن والألم وتبلّل وجهها. ترى العالم حزيناً وضبابياً مثلها. تودّعه منهزمة.

كانت تعترف طوال أيام بذنوب وجودها كله للأب أنطونيو نونيز ميراندا الذي لايعرف الصفح وكرّست أيامها الأخرى للتوبة. تكتب رسالة، مستخدمة دمها حبراً، إلى المحكمة المقدّسة وتطلب الغفران.

إن سفينتها ستتوقف عن الإبحار في بحار الشعر. تهجر جوانا دراساتها البشرية وتشجب الأدب. تطلب من الله هبة النسيان وتختار الصمت أو تقبله، وهكذا تخسر أميركا أفضل شعرائها.

لن يعيش جسدها طويلاً بعد انتحار الروح هذا. «ليلحق العار بالحياة لأنها استمرت طويلاً معي...»

١٦٩٣: سانتافي، المكسيك الجديدة

- ثلاثة عشر عاماً من الاستقلال -

مرّ ثلاثة عشر عاماً على احتفال الأجراس في «سانتا في» بموت إله المسيحيين وأمه مريم.

احتاج الإسبان إلى ثلاثة عشر عاماً لإعادة فتح أراضي الشمال الوحشية. حين كانت هدنة الإستقلال مستمرة استعاد الهنود حريتهم وأسماءهم ودينهم وعاداتهم، وأدخلوا في خدمتهم المحراث والعجلة وأدوات أخرى أحضرها الإسبان.

لم تكن إعادة الفتح سهلة على القوى الإستعمارية. كانت كلّ قرية هندية في المكسيك الجديدة حصناً محكم الإغلاق محاطاً بأسوار حجرية وطوبيــة عاليـة. يعيـش في وادي ريوكرانـد بشـر غـير معتادين على الطاعة أو على العبودية.

ـ أغنية هنود المكسيك للصورة التي تهرب من الرمل ـ

وهكذا يمكن أن أعالج نفسي
رسم الساحرة
صورتك في الصحراء
عيناك من رمل ذهبي
وفمك من ثلج رملي أحمر
ومن رمل أزرق شعرك
ودموعي هي من رمل أبيض.
رسم طوال النهار.
ترعرعت كإلهة
على ضخامة القماش الأصفر
ستبعثر ريح الليل ظلك
وألوان ظلك
ولن يبقى شيء لي وفق القانون القديم
لاشيء ماعدا بقية دموعي
التي هي الرمال الفضية.

١٦٩٤: ماكاكوس

ـ الحملة الأخيرة على بالماريس ـ

وُلِدَ صيّاد الهنود العظيم، الذي يقتلهم على بعد فراسخ عديدة، من أمّ هندية، يتحــدث اللغـة الكورانية وقليلاً من البرتغالية، إنه دومينغوز خورخي فيلهو. قــائد مماليك «سان بـاولو»، قـائد الهجن الذين بذروا الرعب في نصف البرازيل باسم سـادتهم المستعمرين وطهـروا بوحشية نصـف دمهم.

أجّر دومينغوز خدماته في الأعوام الستة الماضية للتاج البرتغالي ضد هنود «الجانديوم» المتمردين في المناطق الواقعة خلف ساحل «برنامبكو» وفي ريوغراند دي نورتي. بعد حملة طويلة من الذبح يصل منتصراً إلى «ريسيف» وهناك تعقد معه إتفاقية لتدمير بالماريس. يقدمون له غنيمة مدهنة من الأرض والعبيد السود ليبيعهم في ريودي جانيرو وبيونس آيرس ووعدوه بإعفاءات لانهائية وبأربعة رتب دينية وبثلاثين رتبة عسكرية ليوزّعها على رجاله.

يمشي الضابط دومينغوز باستعراض على ظهر حصانه بمنظار معلق على صدره العاري وبسترته الملوثة بالشحم في شوارع ريسيف على رأس ضباطه الهجن وضباط صفه قاطعي رؤوس الهنود. يركبون وسط سحب من الغبار وهبات من بارود المدفعية والرّم وسط التصفيق وخفق المناديل البيضاء: سينقذنا هذا المسيح من السود المتمردين. يؤمن الناس أو يأملون، مقتنعين أن الهاربين يجب أن يلاموا على قلة الأيدي في مطاحن السكر وعلى الأمراض والقحط الذي يلتهم الشمال الشرقي، بما أن الله لن يرسل الصحة أو المطر مادامت فضيحة بالماريس قائمة.

تنظم الحملة الصليبية الكبيرة. يأتي المتطوعون من جميع الجهات يدفعهم الجوع للبحث عن أرزاق مؤكدة. تفرغ السجون وينضم المجرمون المزمنون إلى أكبر جيش تمت تعبئته في البرازيل.

يتقدّم الكشافة الهنود إلى الأمام ويحمي الحمّالون السود المؤخرة. يعبر تسعة آلاف رجل الدغل ويصلون إلى الجبال. يتسلقون إلى القمة حيث تنتصب تحصينات الماكاكوز. أحضروا معهم المدافع هذه المرة.

يستمر الحصار عدة أيام، تحطم المدفعية المتاريس الثلاثية المصنوعة من الخشب والصخر. يقاتلون رجلاً لرجل على حافة الهاوية. تكدّس الكثير من الموتى ولم يبق مكان للساقطين واستمرّ الذبح بين الأشجار. يحاول كثير من السود الهرب ويسقطون عن الجرف في الفراغ. يختار كثيرون الجرف ويسقطون.

تلتهم ألسنة اللهب عاصمة بالماريس. يمكن أن تشاهد من مدينة بورتو كالفو البعيدة النار الكبيرة المشتعلة في الليل، تحرق ذاكرتها. تعلن الأبواق دون توقف النصر.

يهرب الزعيم زومبي الذي جرح. يصل من القمم الشامخة إلى الأدغال. يتجوّل عبر الأنفاق الخضراء باحثاً عن قومه في الأجمات.

- شكوى شعب آزاندي -

الطفل ميت.
لنغطي وجوهنا
بتراب أبيض.
أنجبت أربعة أبناء

في كوخ زوجي
عاش منهم الرابع فقط.
أريد أن أبكي
إلا أن الحزن
ممنوع في هذه القرية.

١٦٩٥: سيرا دوا إرموس

- زومبي -

ينبسط منظر الأدغال، تنبسط أدغال الروح. يدخن زومبي في غليونه وعيناه تراقبان الصخور الحمراء العالية والكهوف المفتوحة كجراح ولا يرى أن النهار يشرق بضوء العدو ولايرى أن الطيور تحلّق مرتعبة.

لايرى الخائن يقترب. يشاهد رفيقه سوريس وينهض ليعانقه. يطعنه أنطونيو سوريس عدة طعنات بالخنجر في ظهره. يثبت الجنود رأسه على رأس رمح ويأخذونه إلى ريسيف، ليتركوه يتعفّن في الساحة وليخبروا العبيد أن زومبي ليس خالداً.

توقّفَتْ بالماريس عن التنفس. استمرت فسحة الحرية الواسعة هذه التي تأسّست في أميركا المستعمرة قرناً وتصدّت لأكثر من أربعين حملة. طيّرت الريح رماد المتاريس السوداء بعيداً عن ماكاكوز وسوبوبيَرا ودامبرابانكا وأوبينغا وتابوكاز وآروتيرين. انتهى قَرْن بالماريس بالنسبة للفاتحين حين قضى الخنجر على زومبي. سيخيّم الليل ولن يبقى شيء تحت النجوم الباردة. لكن ما الذي يعرفه المستيقظون إذا ما قورن بما يعرفه الحالم؟.

يحلم المقهورون بزومبي ويعرف الحلم أنه طالما يبقى رجل مالكاً لرجل آخر في هذه الأراضي، سيظل شبحه يمشي. سيمشي أعرج لأن رصاصة أعطبت رجله، سيمشي صعوداً وهبوطاً في الزمن وأعرج سيقاتل في أدغال النخيل وفي جميع أراضي البرازيل سيسمّى جميع زعماء التمردات السوداء التي لاتتوقف باسم زومبي.

١٦٩٥: ساو سلفادور دي باهيا

- عاصمة البرازيل -

يوجد في هذه المدينة المضيئة كنيسة لكل يوم من أيام العام وكل يوم هو يوم قديس. تتوهج الأبراج والأجراس والنخيل السامق. تتوهج الأجساد والهواء الدبق بالزيت: سَيُحْتَفَلُ اليوم بقديس

وغداً بعاشق في مدينة جميع القديسين واللاقداسة التي تدعى باهيا. إن ساو سلفادور دي باهيا، مقر نائب الملك والأسقف هي أكثر المدن البرتغالية اكتظاظاً بالسكان بعد لشبونة وتثير حسد لشبونة بأبرشياتها وكنائسها الذهبية وبنسائها المثيرات وبمهرجاناتها وبحفلاتها التنكرية ومواكبها. هنا تلبس العاهرات الخلاسيات كالملكات ويحمل العبيد أسيادهم على المحفّات في ممرات ورقية وسط قصور من العظمة التي تثير الهذيان. هكذا يصوّر غريغوريو دي ماتوس المولود في باهيا، الأرستقراطيين النبلاء لمزارع السكر:

إن نبلاء البرازيل
ليسوا نبلاء
وليس سلوكهم الجيد جيداً
إذاً إلى ماذا ينتمون؟
إلى كومة من المال.

إن العبيد السود هم آجر وملاط هذه القلاع. يصرّ الأب أنطونيو فييرا من على منبر الوعظ على أن يشكر أنغولا، لأنه بدون أنغولا لما كان هناك برازيل وبدون البرازيل لن توجد البرتغال، لهذا من العدل أن يقال إن جسد البرازيل هو في أميركا أما روحها في أفريقيا. أنغولا التي تبيع عبيد البانتو وأنياب الفيلة، أنغولا، كما تعلن موعظة الأب التي ربّت البرازيل بدمها البائس وروحها السوداء السعيدة وقوّتها ودعمتها وخدمتها وحفظتها.

يبقى هذا الكاهن الجزويتي إلى سن التسعين العدوّ الأسوأ لمحكمة التفتيش ومحامياً للهنود المستعبدين والمتّهم الملحّ لأسياد الاستعمار، الذين يؤمنون أن العمل هو للحيوانات ويبصقون على الأيدي التي تغذيهم.

١٦٩٦: ريغلا

- عذراء سوداء، إلهة سوداء -

تجيء العذراء إلى ميناء ريغلا التي تربطها علاقة ضعيفة مع هافانا، تجيء لتستقر. جاء النقش الأرزي من مدريد ملفوفاً في كيس بين ذراعي نصيرها وتابعها بدر وآراندا. إن اليوم هو ١٨ أيلول، يوم المهرجان في مدينة الحرفيين والبحارة العابقة بالقار والمحار حيث يأكل الناس اللحم والذرة واللوبياء والمنيهوت والطبخات الكوبية والأفريقية والإيكو والأوليلي والإيكرو والكويمبومبو والفوفو، بينما ترحّب أنهار الرّم وزلازل الطبول بالعذراء السوداء الصغيرة راعية وحامية خليج هافانا.

البحر منقّط بقشور الجوز وأغصان الريحان الزكية وبنسيم من الأصوات التي تغنّي حين يخيّم الليل.

إن عذراء «ريغلا» السوداء هي أيضاً العذراء الأفريقية «يمايا» إلهة البحار الفضّية وأم الأسماك وأم وعاشقة «شانغو» الإله المحارب، المحبّ للمشاكل، وزير النساء.

١٦٩٧: كاب فرانسيز

- دوكاسي -

تصل سفن دوكاسي حاكم هايتي وزعيم القراصنة الفرنسيين في جزر الأنتيل محملة بالذهب وبالعملة الذهبية الصعبة وبدبلونات مضاعفة ومجوهرات وصحون وكؤوس قربان ذهبية وتيجان عذراوات وقديسين. أذلّ دوكاسي «كارتاجينا» وحوّل وابل مدفعيته المتاريس الصخرية للحصن إلى غبار وترك الكنيسة دون جرس والحاكم بلا خواتم.

إلى فرنسا يذهب ذهب المستعمرة الإسبانية المسروقة. يتلقى دوكاسي في فرساي لقب أميرال وصولجاناً جديراً بملك.

قبل أن يصبح حاكم هايتي وأميرالاً للأسطول الملكي، كان دوكاسي يشتغل وحده ويسرق العبيد من السفن الهولندية والكنوز من السفن الإسبانية. كان يعمل منذ عام ١٦٩١ للويس الرابع عشر.

١٦٩٩: مدريد

- المسحور -

رغم أن البواق لم يعلنها، طارت الأنباء في شوارع مدريد: لقد اكتشف المفتشون مَنْ سَحر الملك تشارلز وستُحْرَق الساحرة إيزابيل في المحرقة في الساحة الرئيسية.

كانت إسبانيا كلها تصلي لتشارلز الثاني. عندما يستيقظ كان يتناول مسحوق الثعبان الناجع في منح القوة إلا أنه لم يتحسن. استمر عضوه التناسلي مخدّراً غير قادرٍ على إنجاب الأطفال واستمرت الرائحة الكريهة والرغوة بالخروج من الفم الملكي. ولم تخرجٍ كلمة واحدة تستحق الإصغاء.

لم تأت اللعنة من كوب شوكولاتة معيّن وضعت فيه خصى المشنوقين كما ادّعت بعض ساحرات «كمانغار» ولا من الطلسم الذي يرتديه الملك حول عنقه كما اعتقد الساحر فراي مورو. اقترح أحدهم أن أم الملك سحرته بتبغ أخضر من أميركا أو باللبان الجاوي وأشيع أيضاً أن مدير الخدم في القصر، دوق قلعة فلوريت قدّم للمائدة الملكية فخذ خنزير وضعت فيه أظافر امرأة مغربية أو يهودية أحرقتها محكمة التفتيش.

أخيراً عثر المفتشون على مجموعة الدبابيس وعلى دبابيس الشعر وعلى السمك الصدفي وعلى شعرات جلالته الشقراء التي أخبأتها إيزابيل قرب المخدع الملكي.

يميل الأنف إلى الأمام، تتدلى الشفة، يتدلى الذقن، تبدو عيناه وقد لمعتا. يرفع قزم شمعة لينظر إلى الصورة التي رسمها له كارينو منذ أعوام.

أثناء ذلك، لايوجد خارج القصر خبز أو لحم سمك أو خمرة كأن مدريد مدينة محاصرة

ماكوبا: ١٦٩٩

- شرح عملي -

أخبر الأب جان بابتيست لابات عبيده ليزرع فيهم النشاط في أرض الكسل والنعاس هذه أنه كان أسود قبل أن يأتي إلى المارتينيك وأن الله وهبه اللون الأبيض مكافأة على حماسة خضوعه الذي خدم به أسياده في فرنسا.

يحاول بخار الكنيسة الأسود أن يضع تعشيقة صعبة في لوحٍ خشبي ولايستطيع الحصول على الزاوية الصحيحة يرسم الأب لابات بعض الخطوط مستخدماً مسطرة وبوصلة ويأمر «اقطعه من هنا».

كانت الزاوية صحيحة.

يقول العبد ناظراً إليه في عينيه: «أصدّقك الآن. لايستطيع أي رجل أبيض أن يفعل هذا».

١٧٠٠: أورو بريتو

- البرازيل كلها، إلى الجنوب -

أظهرت الخريطة في الأيام القديمة باهيا قريبة من مناجم بوتوسي المكتشفة حديثاً وكتب الحاكم إلى لشبونة قائلاً إن أرض البرازيل والبيرو واحدة. ليحولوا جبال البارانا بياكابا إلى سلسلة جبال الآنديز أحضر البرتغاليون مئتي لامة إلى سان باولو وجلسوا لينتظروا ظهور الذهب والفضة.

اكتشف الذهب بعد قرن ونصف. كانت مجاري الأنهار والجداول المتدفقة على منحدرات جبال «اسبينهاكو» مليئة بالأحجار المشعّة. وعثر مماليك «ساو باولو» على الذهب حين كانوا يصطادون هنود «كاتاكواز».

نشرت الريح الأنباء في كل أنحاء البرازيل واستجاب الكثيرون. كان كلّ ما عليك أن تفعله للحصول على الذهب في إقليم «ميناس جيراس» هو أن تجمع حفنة رمل أو تقلع باقة عشب وتهزّها.

جاء الجوع مع الذهب. كان سعر القطة أو الكلب في المعسكرات (١٠٥) غراماً من الذهب وهو المبلغ الذي يحصل عليه العبد مقابل عمل يومين.

١٧٠٠: جزيرة القديس توماس

ـ الرجل الذي يجعل الأشياء تتحدّث ـ

تدقّ أجراس حزينة وتقرع طبول كئيبة في الجزيرة الدنماركية في جزر الآنتيل، والتي هي مركز للتهريب والقرصنة. يتوجّه عبد إلى المحرقة. حكم عليه الرئيس الكبير «فانبل» بالإعدام لأنه يتحوّل إلى مطر حين يشعر بذلك ولأنه ركع أمام ثلاث أشجار برتقال ويمتلك تمثالاً طينياً يجيب على أسئلته كلها ويريحه من جميع الشكوك.

يتقدّم الرجل المحكوم نحو المحرقة ناظراً إليها مبتسماً ابتسامة عريضة.

يعترضه فانبل: «لن تثرثر مع وثنك مرة أخرى أيها الساحر الأسود»

يجيب العبد بهدوء دون أن ينظر إليه: «أستطيع أن أجعل قصبتك هذه تتكلّم».

«قف». يصيح فانبل بالحرس: «حلّوا وثاقه»

يرمي القصبة إليه أمام الحشد المنتظر ويقول له: «افعل هذا»

يركع العبد ويهوّي بيديه على القصبة المركوزة في الأرض. يدور حولها عدة دورات ويركع ثانية ويلاطفها.

يقول السيد: «أريد أن أعرف إذا كانت السفينة التي ستأتي إلى هنا قد أبحرت ومتى ستصل ومن عليها وماذا حدث..».

يتراجع العبد عدة خطوات إلى الوراء ويقول:

ـ «اقترب ياسيدي. سأخبرك».

حين يقرب فانبل أذنه إلى القصبة يسمع أن السفينة قد أبحرت منذ فترة من هلسنغور في الدنمارك ولكن عاصفة حطمت شراعها الثاني وحملت شراع المؤخرة حين وصلت إلى المنطقة الإستوائية. يرتعش عنق فانبل كبطن ضفدع. يرى المراقبون أنه ابيضّ.

يقول فانبل بينما تتابع القصبة كلامها وتقول له أسماء الكابتن والبحارة: «لاأسمع أي شيء».

يصرخ: «لا شيء».

تهمس القصبة له: «ستصل السفينة بعد ثلاثة أيام ستجعلك حمولتها سعيداً». ينفجر فانبل. يكسر صولجانه، يصرخ: «أحرقوا الزنجي».

يزأر: «أحرقوه».

يعوي: «أحرقوا الساحر».

ـ أغنية شعب البانتو عن النار ـ

أيتها النار التي يراقبها البشر في الليل،
في الليل العميق.
أيتها النار التي تلتهب دون أن تحرق
التي تشع دون أن تلتهب
أيتها النار التي تطير بلا جسد
أيتها النار التي لاتملك قلباً ولاتعرف
منزلاً أو أكواخاً
يانار ورق النخيل الشفّافة
يحرّضك الإنسان بدون خوف
يانار السحرة أين والدك؟
أين أمك؟
من غذّاك؟
أنت والدك وأمك
تعبرين ولاتتركين أثراً
لايولّدك الخشب الجاف
ولاتملكين شرارات للبنات
تموتين ولا تموتين
تتحوّل فيك الروح الرحّالة
ولايعرفها أحد.
يانار السحرة،
ياروح المياه في الأسفل والهواء في الأعلى
أيتها النار المتوقدة، أيتها الدودة المتوهجة التي تضيء
المستنقع.
ياطائراً بلا جناحين، ياشيئاً بلاجسد
ياروح قوة النار
اسمعي صوتي:
ثمة إنسان يحّرضك
دون خوف.

١٧٠٠: مدريد

ـ الظلّ الناقص للخريف ـ

لم يستطع أبداً أن يرتدي ثيابه لوحده أو أن يقرأ بطلاقة أو أن يقف معتمداً على نفسه. يستلقي في سن الأربعين رجلاً صغيراً عجوزاً بلا سلالة محتضراً ومحاطاً بكهنة الاعتراف وطاردي الأرواح الشريرة وبالحاشية والسفراء الذين يتنازعون على العرش.

أزاح الأطباء المنهزمون الحمامات الميتة وأحشاء الخروف عنه. لم يعد الأطباء يغطّون جسده ولايقدمون له الرّم ليشرب أو ماء الحياة الذي أحضر من «مَلَقَة» لأنه لم يبق شيء سوى انتظار الشهقة التي ستزيله من العالم. في ضوء المشاعل، يترأس مسيخ نازف على رأس السرير الطقس الأخير. يرشّ الكاردينال ماء مقدساً من أشنات داؤود. تفوح غرفة النوم برائحة الشمع والبخور والوسخ. تضرب الريح مصاريع القصر المغلقة بشكل سيء.

سيأخذونه إلى مقبرة الإسكوريال حيث ينتظره المدفن الرخامي الذي نقش عليه اسمه منذ أعوام. كانت هذه هي رحلته المفضّلة وكان قد مرّ وقت لم يزر فيه مدفنه أو يخرج من قصره. مليئة مدريد بالحفر وبالقمامة وبالمتشردين المسلحين وبالجنود الذين يعيشون على الحساء الرقيق للأبرشيات ولايخرجون للدفاع عن الملك. في المرة الأخيرة التي تجاسر أن يخرج فيها ركضت النساء الغاسلات وفقراء الشوارع خلف عربته وقذفوه باللعنات والأحجار.

تشارلز الثاني، ذو العينين الجاحظيتن المحمرّتين يرتجف ويهذي. أصبح قطعة صغيرة صفراء من اللحم تنفذ تحت الأغطية كما ينفذ القرن أيضاً، وهكذا تنتهي السلالة التي غزت أميركا.



لمحة عن المؤلف

ولد ادواردو كاليانو في مونتفيديـو. الأرغـواي عـام ١٩٤٠ دخـل عالم الصحافة كرسام كاريكتير سياسي لمجلة «الشمس» وأصبح فيما بعد محرراً لمجلة مارشا.

في عـام ١٩٧٣ نفـي إلى الأرجنتـين حيـث أسّـس وحـرّر مجلــة «الأزمة». عاش في إسبانيا من عام ١٩٧٦ إلى عام ١٩٨٤ وبعـد ذلـك عاد إلى الأرغواي.

من كتبه:

١ ـ الشرايين المفتوحة لأميركا اللاتينية (١٩٧١)
٢ ـ أيام وليالي الحب والحرب (١٩٧٨).
٣ ـ أغنية أنفسنا (١٩٧٥).
٤ ـ ذاكرة النار:
أ ـ سفر التكوين.
ب ـ الوجوه والأقنعة.
ج ـ قرن الريح.

الفهرس

صدر عن
دار الطليعة الجديدة

العنوان	
ـ الحضارة البشرية أمام مفترق طرق	تألبف: د. قدري جميل
ـ الكتاب الأبيض لأبخازيا	ترجمة. د تيسير كم نقش تدقيق د أحمد باكير
ـ حوارات سجين	تأليف· فكتور أنبيلوف ترجمة: عدنان جاموس
ـ العمل الشيوعي الفلسطيني في سوريا	تأليف حمد موعد
ـ الدراما التلفزيونية	إعداد· عماد ندّاف محمد ندّاف
ـ ميثاق الموج	شعر: أسامة اسبر
ـ آكان، أحرث صوتك بناي	شعر: أكرم قطريب
ـ ثلاث ليالٍ لقمر أريحا	شعر: وليد عيسى الزوكاني
ـ علم السلوك (بحث)	بإشراف: أ.د. زياد درويش د.منال المختار
ـ محاولة في رصد ما حدث	تأليف: أمين الحسن
ـ ماالذي حصل ياإلهي	تأليف: عماد نداف
ـ خالد بكداش (كلمات ـ أحاديث ـ مقالات)	
ـ حول الصراع الإيديولوجي	تأليف: ديمتري تسيخوف ترجمة: زياد الملاّ
ـ آه منا نحن معشر الحمير	تأليف· عزيز نيسن ترجمة: جمال دورمش

ـ حكايات من الشام	تأليف : محمد خالد رمضان
ـ وردة غان	تأليف · عماد ندّاف
ـ نقد أفكار زعماء الردة في الفكر الماركسي اللينيني المعاصر	تأليف صالح بوزان
ـ خالد بكداش يتحدث	إعداد وحوار. عماد نداف
ـ على المبدأ	تأليف : ن.ك نيفيوديفا ترجمة. زياد الملاّ
ـ جلجامش والبحث عن الخلود	ترجمة : سهام شاهين
ـ سامبو، الطاحونة السحرية	ترجمة : سهام شاهين
ـ إبرة الساحر	ترجمة : عمار مصطفى

يصدر قريباً
عن دار الطليعة الجديدة

- مولوتوف.. مائة وأربعون حديثاً
تأليف. فيليكس نشويف
ترجمة: زياد الملاّ
فايز البرشة

- الإنسان والروح
تأليف: يو.م. إيفانوف
ترجمة: عاطف أبو جمرة
فايز البرشة

- غريب في المقبرة
تأليف. وليم فوكنر
ترجمة: د محمد علي حرفوش

- إنها ساحة معركة
تأليف: غراهام غرين
ترجمة: حسام خضور

- قاعة الرقص الرومانسية
تأليف: وليم تريفور
ترجمة: فاضل السلطاني



ذاكرة النار

كنت طالب تاريخ بائس. كان حضور دروس التاريخ يشبه الذهاب إلى معرض التماثيل الشمعية أو إلى إقليم الموتى. كان الماضي ميتاً، أجوفَ وأخرسَ، علّمونا عن الماضي بطريقة جعلتنا نستكين للحاضر بضمائر جافة: لا لنصنع التاريخ الذي صُنِعَ سابقاً بل لكي نقبله. توقف التاريخ المسكين عن التنفّس، تمت خيانته في النصوص الأكاديمية، كُذِبَ عليه في المدارس، أغرق بالتواريخ، سجنوه في المتاحف ودفنوه تحت أكاليل الزهر ووراء تماثيل برونزية ورخامٍ تذكاري.

ربما يساعده «ذاكرة النار» على التنفس ويستحضر حريته والكلمة.

جُرِّدَتْ أميركا اللاتينية طوال قرون من الذهب والفضة، من النترات والمطاط والنحاس والزيت وانتُهِكَتْ ذاكرتها.

حكمَ عليها من البداية بداء النسيان أولئك الذين منعوها من الوجود. إن التاريخ الرسمي لأميركا اللاتينية يقتصر على استعراضٍ عسكري لطغاة يرتدون بزّات عسكرية لم تستخدم من قبل.

لست مؤرخاً: أنا كاتب يحبّ أن يساهم في إنقاذ الذاكرة المخطوفة لكل أميركا وخصوصاً لأميركا اللاتينية، الأرض المحتقرة والمحبوبة: أحب أن أتحدث معها، أن أتقاسم معها أسرارها، أن أسألها من أي صلصال شاق ولدت ومن أية ممارسات جنسية واغتصابات جاءت.

لا أعرف إلى أي شكل أدبي ينتمي صوت الأصوات هذا. ليس «ذاكرة النار» مقتطفات أدبية مختارة وهذا واضح. ولكن لا أعرف إن كان رواية أو مقالة أو ملحمة شعرية أو شهادة أو تاريخاً أو.. إن اتخاذ قرار حول هذا الأمر لا يسرق مني النوم، كما لا أؤمن بالحدود التي تفصل بين الأجناس الأدبية استناداً إلى ضباط جمارك الأدب.

لم أرغب بكتابة كتاب موضوعي ولا أستطيع ذلك. ولا يوجد شيء حيادي حيال هذا السرد التاريخي، ولأنني لم أستطع أن أبعد نفسي اتخذت موقعاً متعاطفاً: أعترف بذلك ولست آسفاً.

على أية حال، إن كل قطعة من هذا الموزاييك الضخم مبنية على أساس توثيقي صلب. ماقيل هنا حدث سابقاً رغم أنني أقوله بأسلوبي وبطريقتي.

إدواردو كاليانو

إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

II

الوجوه والأقنعة



ترجمة أسامة إسبر

www.alexandra.ahlamontada.com

ذاكرة النار

إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

II

الوجوه والأقنعة

ترجمة: أسامة إسبر

العنوان الأصلي للكتاب: Memory Of Fire

«Faces And Masks»

اســــــم المؤلــف: Edwardo Galeano

الطبعة الأولى ـ 1999

دار الطليعة الجديدة

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب 34494

تلفاكس: 2775872

اخراج: هالـة فطـوم

صمم الغلاف: جمال سـعيد

لوحة الغلاف للفنان: سلفادور دالي

الكتاب

هذا هو الجزء الثاني من ثلاثية ذاكرة النار. ليس هذا الكتاب مختارات أدبيـة بـل عمـل أدبي إبداعـي. يسرد الكاتب تاريخ أميركا ، وقبل كل شـيء ، تاريخ أميركا اللاتينية ، يكشف أبعاده المتعددة ويخترق أسراره. سيصل هـذا الموزاييـك الشاسـع ، فـي الجـزء الثـالث ، إلـى أزمنتنا ، أما هذا الجزء ، وهو الثانـي ، والمسمى بــ«الوجـوه والأقنعـة» ، فإنـه يغطـي القرنـين الثامن والتاسع عشر.

لا أعرف من أنا
ولا أين ولدت.
أجهل من أين أنا
أو إلى أية جحيم أتجه.

أنا قطعة من شجرة ساقطة
أجهل أين سقطت.
أين جذوري؟
على أي نوع من الأشجار نموت؟

أشعار شعبية من بوياكا، كولومبيا

وعد أميركا

سيحطم النمر الأزرق العالم.

وستولد أرض أخرى دون شر أو موت من حطامه. هذه الأرض تريد ذلك، تطلب الموت، تطلب الولادة. إنها الأرض القديمة التي أسيء إليها، المنهكة والعمياء من البكاء الكثير خلف الجفنين المطبقين. على حافة الموت تتخطى الأيام، كومة الزمن القمامية، وفي الليل تستلهم الشفقة من النجوم. حالا سيسمع الأب الأول تضرعات العالم، الأرض التي تود أن تكون أرضا أخرى، عندئذ سيقفز النمر الأزرق الذي ينام تحت أرجوحته الشبكية.

منتظرين تلك اللحظة، سافر الهنود الجوارانيون عبر الأرض الملعونة.

«أهناك شيء تقوله لنا أيها الطائر الطنان؟»

رقصوا دون توقف، أكثر خفة ورشاقة، مترنمين بأغان مقدسة احتفلت بالولادة القادمة للأرض الأخرى.

«وهج أشعتك، وهج أشعتك أيها الطائر الطنان!»

بحثوا عن الفردوس من سواحل البحر إلى وسط أميركا. وصلوا إلى حواف الغابات والجبال والأنهار بحثا عن الأرض الجديدة التي سيجعلونها خالية من الشيخوخة أو المرض أو أي شيء يوقف مهرجان الحياة الأبدي. أعلنت الأغاني أن الذرة ستنمو بنفسها، أن السهام ستنطلق عبر الأدغال من تلقاء ذاتها ولن يكون العقاب أو الصفح ضروريين ذلك لأنه لن يكون هناك منع أو لوم.

1701: وادي سالينـاس

جلد الإله

أبحر هنود الشيريكوا، المنحدرون من الشعب الجواراني عبر نهر «بيلكومايو» منذ أعوام أو قرون ووصلوا إلى حدود إمبراطورية «الآنكا». بقوا هناك في سفوح تلك المرتفعات الآندية الأولى بانتظار الأرض التي تخلو من الشر والموت.

اكتشف هنود الشيريكوا الورق والكلمة المكتوبة والكلمة المطبوعة حين وصل رهبان شوكيساكا الفرانسيسكان، بعد رحلة طويلة، حاملين الكتب المقدسة في سروج حميرهم.

وبما أنهم لم يعرفوا الورق أو لأنهم لم يحتاجوا إليه، لم يمتلك الهنود اسما له. أما اليوم فيسمونه *جلد الإله* لأن الورق يستخدم لإرسال الرسائل إلى أصدقاء بعيدين جدا.

1701: ساو سلفادور دي باهيا

صوت أميركا

مات الأب أنطونيو فييرا عند منعطف القرن لكن صوته بقي حيا واستمر يحمي المستضعفين. ولا يزال صدى كلمات هذا المبشر، التي وجهها إلى الفقراء والمضطهدين، يدوي برنينه الحي نفسه عبر أراضي البرازيل.

في إحدى الليالي، تحدث الأب فييرا عن الأنبياء القدامى قائلا إنهم لم يخطئوا في قراءة الأقدار في أحشاء الحيوانات التي ضحوا بها. قال: في الأحشاء، في الأحشاء وليس في الرأس، لأن نبيا يقدر أن يحب أفضل من واحد يستطيع أن يفكر.

1701: باريس

إغواء أميركا

حك جغرافي مثقف رأسه في مكتبه في باريس. رسم غييوم دوسليل خرائط دقيقة للأرض والسماء. هل يجب أن يضع الدورادو على خريطة أميركا؟ أيجب أن يعلم البحيرة الغامضة، كما جرت العادة، في مكان ما في أعلى نهر أرينوكو؟ سأل «دوسليل» نفسه فيما إذا كانت المياه الذهبية، التي وصفها والتر رالي بأنها بحجم بحر قزوين، موجودة فعلا، والأمراء الذين يغوصون ويسبحون في ضوء المشاعل كأسماك ذهبية متموجة: هل كانوا لحما وعظما؟

تظهر البحيرة التي دعيت تارة إلدورادو وطورا باريما على جميع الخرائط التي رسمت حتى الآن لكن ما قرأه «دوسليل» وما سمعه أثارا فيه الشك. اخترق جنود مغامرون كثيرون العالم الجديد البعيد بحثا عن الدورادو، هناك حيث تلتقي الرياح الأربع وتمتزج جميع الآلام والألوان، دون أن يجدوا شيئا. نبش الأسبان والبرتغاليون والفرنسيون والألمان المهاوي التي حفرتها آلهة أميركا بأظافرها وأسنانها، انتهكوا الغابات التي أدفأها دخان التبغ الذي نفخته الآلهة، أبحروا في أنهار ولدت من أشجار عملاقة انتزعتها الآلهة من جذورها، عذبوا وقتلوا الهنود الذين خلقتهم الآلهة من اللعاب والنفس أو الحلم. لكن الذهب الهارب كان يختفي ويتلاشى في الجو وكانت البحيرة تختفي قبل أن يستطيع أحد الوصول إليها. وبدت ألد ورادو على أنها اسم قبر دون كفن أو ضريح.

في القرنين اللذين مرا منذ أن كبر العالم وأصبح دائريا، استمر مطاردو الهلوسات في التوجه إلى أراضي أميركا من كل رصيف بحري. عبروا المحيط الضخم تحت حماية إله الإبحار والفتح مضغوطين في سفنهم. ومع الرعاة وفلاحي المزارع الذين لم تقتلهم أوروبا بالحرب أو الطاعون أو الجوع ذهب قباطنة وتجار وأنذال ومتصوفون ومغامرون. كانوا جميعهم ينشدون المعجزة، فوراء المحيط، المحيط السحري الذي يطهر الدم ويغير الأقدار، انفتح الوعد العظيم لجميع العصور. هناك سينتقم الشحاذون، والذين ليسوا أحدا، سيصبحون مركيزات وسيتحول الأخساء إلى قديسين ومغذو الصليب والمشنقة إلى مؤسسين وستصبح بائعات الهوى سيدات المجتمع.

حارس أميركا

في قديم الزمان عاش الهنود في سلسلة الجبال الآندية في ليل أبدي. وكان الكندور، أقدم الحيوانات الطائرة، هو الذي أحضر لهم الشمس. أسقطها كرة ذهبية صغيرة، بين الجبال. التقطها الهنود ونفخوا قدر استطاعتهم حتى رفعوها إلى الأعلى حيث بقيت معلقة إلى الأبد. ومن الأشعة الذهبية التي تعرقتها الشمس صاغ الهنود الحيوانات والنباتات التي تسكن الأرض.

طلع القمر في إحدى الليالي محاطا بثلاث هالات ليشع فوق القمم: أعلنت هالة الدم الحرب، أعلنت هالة اللهب النار وكانت الهالة السوداء هالة الكارثة. عندئذ هرب الهنود إلى البرية الباردة المرتفعة حاملين الذهب المقدس وغاصوا في أعماق البحيرات والبراكين.

والكندور، جالب الشمس إلى الآنديين، هو حارس الكنز، يحلق فوق القمم الثلجية والمياه والفوهات المدخنة بجناحين عملاقين. يحذره الذهب حين يقترب الجشع. يصرخ الذهب ويصفر ويصيح، فينحدر الكندور ويقتلع بمنقاره أعين اللصوص ويمزق بمخالبه لحمهم.

تستطيع الشمس فقط أن تشاهد ظهر الكندور، رأسه الأصلع وعنقه المجعدة ووحدها تعرف وحدته. وحين يرى الكندور من الأرض يبدو منيعا.

1701: أورو بريتو

خدعة الاستدعاء

ليس جبل «بوتوسي» الفضي وهما، ولا تحتوي أنفاق المكسيك العميقة على الهذيان والظلمة فحسب، ولا تنام أنهار البرازيل الوسطى على أسرة من ذهب الحمقى.

يحصص ذهب البرازيل اليانصيب أو القبضات، الحظ أو الموت. الذين لا يموتون يجمعون ثروات طائلة يأخذ خمسها ملك البرتغال. ومع ذلك حين ينجز ويقال كل شيء، يكون ذلك الخمس الملكي محض خرافة. تهرب أكوام وأكوام من الذهب ولا يستطيع ضبط تدفقها حراس بعدد أشجار غابات الإقليم الكثيفة.

يكرس رهبان المناجم البرازيلية وقتا لتسويق الذهب أطول من الوقت المخصص لإنقاذ الأرواح ويضعون الذهب في قديسين خشبيين مجوفين. وبالنسبة للراهب روبيرتو الذي يعيش قرب الساحل، فإن تزوير الأختام، بسيط كتلاوة الصلوات. وهكذا تنجو سبائك الذهب المخالفة للقانون من الختم الملكي. روبرتو، الراهب البيندكتي لأبرشية «سوروكابا» صنع أيضا مفتاحا قويا جدا يقهر أي قفل.

1703: لشبونة

الذهب عابرا في الترانزيت

منذ بضع سنوات تجلت لحاكم البرازيل العام بعض النبوءات التي كانت دقيقة بقدر ما هي دون فائدة. حذر جاو دي لينكاستر، من باهيا، ملك البرتغال قائلا إن مجموعات من المغامرين ستحول إقليم المناجم إلى ملاذ للمجرمين والمتصعلكين، والأكثر خطورة من ذلك هو أن الذهب يمكن أن يسبب للبرتغال ما سببه لإسبانيا، التي حالما كانت تتلقى الفضة من أميركا، كانت تقبلها قبلة الوداع الدامعة. يمكن أن يدخل الذهب البرازيلي من خليج لشبونة دون أن يتوقف أبدا على التربة البرتغالية ويتابع رحلته عبر نهر«تاجوس» في طريقه إلى إنكلترا وفرنسا وألمانيا...

وقعت معاهدة «ميثوين» التي ستدفع البرتغال بمقتضاها ذهبا برازيليا مقابل القماش الإنكليزي وكأن الأمر رجع صدى لصوت الحاكم. وبذهب البرازيل التي هي مستعمرة دولة أخرى ستدفع إنكلترة تطورها الصناعي دفعة هائلة إلى الأمام.

1709: جزر خوان فرنانديز

روبنسون كروزو

أبلغت المراقبة عن قصف مدفعي بعيد. للتأكد من ذلك غير عيون الدوق مسارهم واتجهوا إلى ساحل تشيلي.

اقتربت السفينة من جزر خوان فرنانديز. من بين خيط من النيران جاء نحوها قارب كرشاش من الزبد. صعدت إلى ظهر السفينة كتلة من الأوساخ والشعر ترتجف من الحمى وتطلق الصخب من فمها.

بعد أيام روى الكابتن روجرز القصة: إن الرجل الناجي من الغرق هو أليكسندر سيلكيرك، زميل اسكوتلندي متمرس في الأشرعة والرياح والنهب. وصل إلى قبالة ساحل «قلباريزو» مع

حملة القرصان ويليم دامبيير[1]، وبفضل إنجيل ومدية وبندقية عاش «سيلكيرك» أكثر من أربعة أعوام على إحدى هذه الجزر المهجورة. تعلم فن الصيد بأحشاء الماعز، واستخدم في الطبخ الملح الصخري وأضاء عالمه بزيت الفقمة. بنى كوخا على أرض مرتفعة وشيد إلى جانبه حظيرة ماعز. علم مرور الزمن على جذع شجرة وأحضرت له عاصفة بقايا سفينة غارقة وهنديا كان على وشك الغرق. سمى الهندي «فرايدي» لأنه وصل يوم الجمعة. تعلم منه أسرار النباتات. حين وصلت السفينة الكبيرة اختار «فرايدي» البقاء بعد أن أقسم له «سيلكيرك» أنه سيعود وصدق «فرايدي» ذلك.

في غضون عشرة أعوام سينشر «دانييل ديفو» في لندن روايته عن مغامرات بحار تحطمت سفينته. سيكون سيلكيرك هو «روبنسون كروزو»، ابن نيويورك، وستصبح حملة القرصان البريطاني «دامبيير» الذي نهب شواطئ البيرو وتشيلي مشروعا تجاريا محترما، أما الجزيرة الصحراوية التي لا تاريخ لها ستقفز من المحيط الهادي إلى فم نهر «أرينوكو» وسيعيش البحار الناجي هناك ثمانية وعشرين عاما. سينقذ «روبنسون» حياة آكل لحم بشر متوحش وستكون الكلمة الإنكليزية الأولى التي يعلمها له هي «سيدي».

علم «سيلكيرك» بحد مدية أذني كل عنزة اصطادها وسيقع على عاتق «روبنسون» تقسيم الجزيرة، مملكته، إلى حصص للبيع، وسيسعر كل ما حصل عليه من السفينة المحطمة وسيحفظ حسابات كل ما ينتجه على الجزيرة ويوازن كل موقف. سيتحمل روبنسون، مثل «سيلكيرك» الاختبارات القاسية للعزلة والخوف والجنون، لكن «أليكسندر سيلكيرك» سيكون في ساعة الإنقاذ بائسا ومرتجفا غير قادر على النطق وخائفا من كل شيء، أما روبنسون كروزو، مروض الطبيعة الذي لا يقهر، سيعود إلى إنكلترة مع خادمه المطيع «فرايدي» ليجمع الأموال ويخطط للمغامرات.

1711: برامريبو

المرأتان الصامتتان

قطع الهولنديون وتر أخيل عبد حاول الهرب للمرة الأولى، وقطعت رجل العبد الذي قام بمحاولة ثانية، ورغم ذلك ما من طريقة لإيقاف انتشار طاعون الحرية في سورينام.

أبحر الكابتن «موليني» عبر النهر إلى «برامريبو» وعادت حملته برأسين مقطوعين. كان عليه أن يقطع رأسي المرأتين الأسيرتين وكانت إحداهن تدعى «فلورا» والأخرى «سيري»، وفعل ذلك لأن التعذيب لم يمكنهما من السير خلال الغابة. كانت أعينهما ما تزال مثبتة نحو السماء ولم

[1] قرصان ومستكشف إنكليزي استكشف سواحل استراليا وغينيا الجديدة.

تفتحا فميهما رغم لسعات السياط والنار والملاقط المحمرة من الحرارة، كانتا صامتتين بعناد وكأنهما لم تتفوها بكلمة منذ ذلك اليوم البعيد حين سمنتا ودهنتا بالزيت ونقشت نجوم وأهلة على رأسيهما الحليقين لتجهزا للبيع في سوق «برامريبو». كانت فلورا وسيري صامتتين دائما حين سألهما الجنود أين يختبئ العبيد الآبقون. حدقتا إلى الأعلى دون أن يرف جفناهما ناظرتين إلى غيوم كبيرة كالجبال كانت تتنقل عاليا في السماء.

يحملن الحياة في شعرهن

رغم جميع السود الذين يصلبون أو يشنقون على علاقات حديدية تربط حول أضلاعهم، لا يتوقف الهرب من مستعمرات سورينام الساحلية الأربعمائة. عميقا في الغابة، يزين أسد أسود راية الهاربين الصفراء. وبسبب عدم توفر الرصاص تطلق بنادقهم الحصى أو الأزرار العظمية. لكن الأدغال، التي لا تخترق، هي حليفهم الأفضل ضد المستعمرين الهولنديين.

كانت النساء العبدات تسرق قبل الهرب حبوب الأرز والذرة والحنطة والفاصولياء والقرع وكانت تسريحات شعرهن الضخمة تستخدم كمخابئ وحين يصلن إلى اللاجئين في الغابة يهززن رؤوسهن ويسمدن بهذه الطريقة الأرض الحرة.

العبد الآبق

التمساح، الذي يتقنع بجذع، يتشمس. يدير الحلزون عينيه على حافة قرنين صغيرين. يثير الطائر الذكر أنثاه بحركات بهلوانية. يتسلق العنكبوت الذكر بيت أنثاه المرعب ـ الذي هو غطاء سرير وكفن ـ حيث سيعانق ويفترس. تتقافز مجموعة من القردة، لتقطف الثمار عن الأغصان. تسبب صرخات القردة الدوار للأدغال وتغرق أصوات الزيزان وتساؤلات الطيور. لكن تسمع أصوات خطوات غريبة على سجاد الأوراق فتنام الغابة بسرعة. مشلولة، تنسحب إلى نفسها وتنتظر. حين تدوي الطلقة الأولى تهرب الغابة كلها.

أعلنت الطلقة اصطياد العبيد الهاربين: سيمارون[1] تعني في جزر الآنتيل: «السهم الذي ينشد الحرية». استخدمها الأسبان ليطلقوها على الجاسوس الذي يهرب إلى الغابات فدخلت في لغات أخرى لتصبح شيمارو، مارون، مارون وأشارت إلى العبد الذي ينشد، في كل جزء من أميركا، حماية الغابات والمستنقعات والأودية العميقة، والذي، بعيدا عن السيد، يبني فسحة حرة ويدافع عنها واضعا آثارا وهمية وناصبا فخاخا قاتلة.

إن العبد الآبق هو غرغرينا المجتمع الاستعماري.

---

[1] العبد الهارب.

1711: مري (Murri)

الملك الأسود،

القديس الأبيض وزوجته المقدسة

منذ أكثر من قرن هرب الزنجي «دومنغو بيوهو» من المشنقة في «قرطاجنة» الآنديز وأصبح الملك المحارب للأراضي المستنقعية.

خرجت مجموعات من الكلاب والبنادق لاصطياد وشنق «دومنغو» مرات عديدة. وفي أيام متنوعة من الحماس العام جر «دومنغو» في شوارع «قرطاجنة» مربوطا إلى ذيل بغل وقطع عضوه التناسلي وثبت على رمح طويل. كوفئ آسروه بمنح متلاحقة من الأراضي ومنحوا مرارا ألقاب مركيزات ولكن داخل أسيجة العبيد الآبقين في قناة «ديك» أو «كوكا» السفلى، يسود «دومنغو بيوهو» بوجهه المصبوغ الضاحك الذي لا يخطئ.

يعيش العبيد الأحرار في يقظة مستمرة وهم مدربون منذ الولادة على القتال، تحميهم الأودية والحواف والحفر العميقة المحاطة بالأشواك السامة. إن أكثر الملاذات أهمية في الإقليم الذي استمر وقاوم قرونا سيطلق عليه اسم القديس «باسيل» الذي يتوقع وصول تمثاله حالا عبر نهر «مجدلينا».

سيكون القديس «باسيل» أول رجل أبيض يسمح له بالدخول إلى هنا. سيصل مع برطل وأدوات العمل وسيحضر كنيسة خشبية صغيرة مليئة بالمعجزات. لن يشعر بالعار من العري ولن يتحدث بصوت سيد، سيمنحه الآبقون منزلا وزوجة ويحضرون له أنثى مقدسة تدعى «كاتالينا» بحيث لا يزفه الله في العالم الآخر إلى إناث وبحيث يستمتعون بهذا العالم سوية بينما هم فيه.

الماريباليتو (Marapalito)

ثمة حياة حيوانية غنية حيث يحكم «دومينغو بيوهو» إلى الأبد ويوما واحدا داخل أسيجته. ما يثير الخوف أكثر هو النمر والحية الكاسرة وتلك التي تلف نفسها حول الأغصان وتزحف إلى الأكواخ والأكثر سحرا هي سمكة المايوبا التي تتبرز من رأسها والماريباليتو.

تلتهم الماريباليتو الأنثى عشاقها كالعنكبوت. حين يعانقها الذكر من الخلف تدير وجهها الذي بلا ذقن إليه، تقيسه بعينيها الكبيرتين الناتئتين، تثبت أسنانها عليه وتلتهمه بهدوء مطلق حتى لا يبقى منه أي شيء.

إن الماريباليتو مؤمنة جدا، دائما تبقي ذراعيها مطويتين أثناء الصلاة وتصلي بينما هي تأكل.

1712: سانتا ماريا

من القرصنة إلى التهريب

يرتفع من السفوح الخضراء لـ«السييرا نيفادا»، التي تبلل أقدامها في البحر ،برج جرس محاط بمنازل من الخشب والقش تعيش فيها ثلاثون عائلة بيضاء في ميناء «سانتا مارتا». وحول هذا المكان، يعيش الهنود والسود وخلائط لم يضايق أحد نفسه بإحصائها في أكواخ من الخيزران والطين محتمين بسعف النخيل.

كان القراصنة دائما كابوس تلك السواحل منذ خمسة عشر عاما.ومنذ أسبوع اخترقت السفن الإنكليزية نيران مدفعية الحصون التي تحرس الخليج وقابلت،بهدوء،الفجر على الشاطئ. هرب الجميع إلى التلال.

انتظر القراصنة. لم يسرقوا منديلا ولم يحرقوا منزلاً واحدا.

اقترب السكان واحدا واحدا دون ثقة، وأصبحت «سانتا مارتا» سوقا ظريفة.إذ أن القراصنة المدججين بالأسلحة جاؤوا ليشتروا ويبيعوا ولقد ساوموا ودفعوا بتشدد.

وبعيدا كانت تنمو المشاغل الإنكليزية وتحتاج إلى الأسواق. أصبح كثير من القراصنة مهربين رغم أنه لا أحد منهم يعرف ماذا يعني تراكم رأس المال.

1714: أورو بريتو

طبيب المنجم

لا يؤمن هذا الطبيب بالعقاقير وبمساحيق البودرة البرتغالية المكلفة، لا يثق بالفصد وبالتعقيم واستخدامه قليل للبطريرك «غالن» ولوصاياه القانونية. ينصح لويس غومز فيريرا مرضاه أن يستحموا يوميا وهذا سيبدو في أوروبا علامة واضحة على الهرطقة والجنون. وصف الطبيب فيريرا أعشاب وجذور الإقليم وأنقذ كثيرا من الحيوانات بفضل حس الهنود العام وحكمتهم العريقة ومساعدة براندي قصب السكر الذي يحيي الموتى.

على أية حال، لا يستطيع أن يفعل سوى القليل حيال عادة عمال المناجم الذين ينتزعون أحشاء بعضهم برصاصة أو بمدية. هنا تهرب أية ثروة والدهاء أكثر قيمة من الشجاعة في حرب الفتح الضارية ضد الطين الأسود الذي تختبئ فيه الشموس. ما من علم يمتلك دورا يلعبه.

ذهب الكابتن توماس دي سوزا، خادم الملك، ليبحث عن الذهب فوجد رصاصا. لم يستطع الطبيب أن يفعل له شيئا سوى أن يرسم إشارة الصليب.اعتقد الجميع أن الكابتن يمتلك طنا من الذهب أخفاه في مكان بعيد لكن الدائنين لم يجدوا ما يقسموه بينهم سوى بضعة عبيد.

نادراً ما يذهب الطبيب إلى مريض أسود ذلك أن العبيد في المناجم البرازيلية يُستخدمون ويُرمون. عبثاً ينصح فيريرا بمعالجة أكثر حرصاً قائلاً للرؤساء: إنهم يذنبون ضد الله ومصالحهم. لا يستمر أي عبد عشر سنوات في الأمكنة التي يُنقِّب فيها عن الذهب وفي الأروقة التي تحت الأرض لكن حفنة من الذهب تشتري طفلاً جديداً بسعر حفنة من الملح أو خنزير كامل.

1714: فيلا نوفا دو برينسيبي

جاسينتا

تقدّس الأرض التي تسير عليها. إن جاسينتا دي سكويرا، المرأة البرازيلية الأفريقية، هي مؤسسة بلدة «برينسيبي» ومناجم الذهب في أودية «كواترو فينتس». جاسينتا، السوداء والنضرة: تنفتح وتنغلق كنبتة آكلة اللحم، تبتلع الرجال وتنجب أطفالاً من جميع الألوان في هذا العالم الذي لا يزال بلا خريطة. تتقدّم «جاسينتا» وتفتح الأدغال على رأس الأوغاد الذين جاؤوا على ظهور البغال عراة ومسلحين ببنادق قديمة، والذين، حين يدخلون المناجم، يتركون ضمائرهم معلقة على غصن أو مدفونة في مستنقع. جاسينتا، المولودة في أنغولا، العبدة في باهيا، هي أم ذهب «ميناس غيريس».

1716: بوتوسي

هولغوين

دخل نائب ملك ليما دون روبيكو مورسيلو دي آنون إلى بوتوسي تحت مائة وعشرين قوس نصر من الفضة المشغولة. عبر نفقاً من القماش المطرز بصور إيكار وإيروس وميركوري وإنديميون وعملاق رودس وإينياس الهارب من طروادة.

إن بوتوسي، بوتوسي الفقيرة، ليست كما كانت سابقاً. بعدد سكانها الذي انخفض إلى النصف، استقبلت المدينة نائب الملك في شارع ليس من الفضة بل من الخشب. لكن كما في أيام الروعة والمجد صخبت الأبواق والطبول وأضاء خدم يرتدون ثياباً أنيقة بمشاعل شمعية عرض الضباط الذين على ظهور الأحصنة والمحافظين والقضاة، رجال السلطة والسفراء.

حين يخيّم الليل تبدأ الحفلة التنكرية المتألقة: قدّمت المدينة للزائر المغطى بالغبار ولاء أبطال أسبانيا الإثني عشر. حيّاه «سيد» الشجاع والإمبراطور «تشارلز» في أزياء زاهية، بالإضافة إلى ما وجد في العالم أو في الأحلام من الحوريات والأمراء العرب والملوك الإثيوبيين.

رَصَد ميلكور بيريز هولغوين يوم الأعاجيب ذاك. رسم ألف شخص وبوتوسي وأكثر الجبال كرماً في العالم بالتراب والدم وبألوان دخانية ملمعة بالفضة، ثم رسم صورته في سفح القماش الواسع: هولغوين، المولّد ذو الأنف النسري، الذي يناهز الخمسين من العمر وذو الشعر الأسود

الطويل المتدفق من تحت قبعته المنحرفة، يرفع باليته بيد واحدة. رسم عجوزين يتكئان على قصبة وكتب كلمات خرجت من فميهما:

عجائب كثيرة مرة واحدة، من سبق له أن رأى ذلك؟

لم يشاهد شيء بهذه العظمة منذ مائة وبضع سنين!

ربما لم يعرف هولغوين أن العجائب هي الشيء الذي يبدعه وكان يعتقد أنه ينسخ فقط.ولم يعرف أن عمله سيبقى حيا حين تزال كل أبهة «بوتوسي» عن وجه الأرض ولا يبقى أحد يتذكر أي نائب ملك.

1716: كوزكو

صانعو الصور

مات مستشار هولغوين دييغو كويسبي تيتو بعد وقت قصير من عماه: في ضباب العمى الأولي نجح في رسم شبيهه وهو في طريقه إلى الفردوس مرتديا على جبهته الشرابة الإمبراطورية الآنكية. كان «كويسبي» الأكثر موهبة بين الرسامين الهنود في «كوزكو». في أعماله تحلق الببغاوات بين الملائكة وتحط على القديس «سيباستيان» المثقب بالسهام. تظهر وجوه وطيور وفاكهة أميركية مهربة إلى المشاهد الطبيعية الأوروبية أو إلى مشاهد الفردوس.

حين كان الأسبان يحرقون الزمامير والأبواق الصدفية في ساحة «مايور» عثر صانعو الصور في «كوزكو» على طريقة لرسم آنية من الأفوكاتة وفلفل الريكو والتشيريموياز والفريز والسفرجل على طاولة العشاء الأخير، ورسموا أيضا يسوع الرضيع منبثقا من بطن العذراء والعذراء نائمة في سرير من الذهب تعانق القديس يوسف.

رفع البشر صلبانا من الذرة أو زينوها بأكاليل من البطاطا وظهرت عند قدم المذابح تقدمات من القرع والبطيخ.

مريم، الأرض الأم

من المألوف أن نشاهد،في كنائس هذه الأنحاء،العذراء متوجة بالريش أو محمية بالمظلات كمثل أميرة آنكية.كذلك نشاهد الإله الأب في شكل شمس بين الحمير يسند أعمدة وتشكيلات خشبية مزخرفة بالفاكهة والأسماك والطيور الاستوائية.

وتظهر لوحة، دون توقيع،مريم العذراء في جبل «بوتوسي» الفضي بين الشمس والقمر ويقف إلى جانبها بابا روما وفي الجانب الآخر ملك أسبانيا.لكن مريم ليست على الجبل بل في *داخله*، إنها الجبل، جبل له وجه امرأة ويدان ممدودتان، مريم ـ الجبل/ مريم ـ الحجر، يخصبها الله، كما تخصب الشمس الأرض.

باتشاماما (pachamama)

إن العذراء في الأراضي الآندية المرتفعة هي *ماما* والأرض والزمن هما أيضا ماما.

الأرض، الأرض الأم ـ باتشاماما ـ تغضب إن شرب المرء دون أن يدعوها. حين يشتد ظمأها تكسر الإناء وتسفح محتوياته.

تقدم إليها مشيمة المولود ثم تدفن بين الأزهار ليتمكن الطفل من الحياة.ولكي يحيا الحب يدفن العشاق شعرهم المضفور.

تعانق إلهة الأرض المنهكين والمحطمين الذين انبثقوا منها مرة. تنفتح لتمنحهم الملاذ في نهاية الرحلة. ومن تحت الأرض يجعلها الموتى تزهر.

حوريتا البحر

في رواق كاتدرائية «بونو» الرئيسي سينحت سيمون دي آستو حوريتين من الحجر.

ورغم أن حوريتي البحر ترمزان إلى الخطيئة لن ينحت الفنان وحشين بل سيبدع فتاتين هنديتين أنيقتين، عازفتي شارانكو مبتهجتين ستعشقان دون إحساس بالذنب. نهضت هاتان الحوريتان الآنديتان كويسينتو وأمانتو في الزمن الغابر من مياه بحيرة تيتيكاكا لتمارسا الحب مع الإله «تونوبا»، إله النار والبرق عند هنود الأيمارا، والذي يولد، لدى مروره، تيارا من البراكين.

1717: كيبك

الرجل الذي لم يؤمن بالشتاء

كما قال رابليه وكرر فولتير: إن برد «كندا» يجمد الكلمات حين تخرج من الفم ويعلقها في الجو. في نهاية نيسانِ تشق الشمس جليد الأنهار وينبثق الربيع من إنشقاقات الانبعاث. عندئذ، فقط عندئذ، تسمع الكلمات التي نطقت في الشتاء.

يخاف المستعمرون الفرنسيون من الشتاء أكثر مما يخاف الهنود ويحسدون الحيوانات التي تنام أثناءه. لا يعرف الدب أو فأر الجبل أمراض البرد: يغادران العالم بضعة شهور بينما يشق الشتاء الأشجار بأصوات كطلقات المدافع ويحول البشر إلى تماثيل من الدم الجامد واللحم الرخامي.

أمضى بدرو داسيلفا، البرتغالي، الشتاء حاملا البريد على زحافة تجرها الكلاب فوق جليد نهر القديس لورانس. كان يسافر في القارب أثناء الصيف وأحيانا تجبره الرياح أن يمضي شهرا كاملا في الرواح والغدو بين «كيبك» و«مونريال». كان بدرو يحمل أوامر الحاكم وتقارير الأساقفة والمسؤولين وعروضا من بائعي الفراء، ووعودا من الأصدقاء وأسرار العشاق.

عمل ساعي بريد «كندا» الأول ربع قرن دون أن يطلب إذنا من الشتاء ومات بعد ذلك...

المؤسسون

تغطي خريطة كندا حائطاً كاملاً. ثمة مدن وحصون قليلة بين الساحل الشرقي والبحيرات الكبرى. وراء ذلك تمتد مساحة شاسعة وغامضة. على حائط آخر تحت براميل البنادق تتدلى جلدات رؤوس الهنود الأعداء مسودّة من دخان التبغ.

على كرسي هزّاز كان بيير دي لا فيرندري جالساً يعض غليونه. لا يسمع بكاء طفله الحديث الولادة بينما هو ينظر إلى الخريطة وينحدر نظره إلى الأنهار الغزيرة التي لم يستكشفها أي أوروبي حتى الآن.

عاد حياً من ساحات المعركة في فرنسا حيث اعتبروه ميتاً من طلقة في الصدر وجراح متنوعة من السيف. حصل على طعام كثير في كندا بفضل قمح حقوله والتعويضات التي حصل عليها باعتباره ملازماً أول مجروحاً، لكنه كان يهذي من الضجر.

ستسافر ساقاه المجروحتان إلى أبعد من أحلام يقظته الأكثر توحّشاً وستجعل رحلاته الاستكشافية هذه الخريطة تبدو أكثر غباء. وهو متوجه إلى الغرب بحثاً عن المحيط الذي يقود إلى سواحل الصين سيصل إلى أمكنة في الشمال حيث سينفجر بيت نار البندقية من البرد حين تطلق، سيصل إلى الجنوب الأبعد من نهر الميسوري المجهول. والطفل الذي يبكي قربه في مهده الخشبي سيكون مستكشف حائط الجبال الصخرية الذي لا يُقهر.

ستتبعه البعثات التبشيرية وتجار الفراء، وهذا ما حدث دائماً كما مع كارتييه[1] وشامبلين و«لي سال».

تدفع أوروبا أسعاراً جيدة لشراء جلود القنادس وثعالب الماء والصناصر والأيائل والثعالب والدببة، ويحصل الهنود، مقابل ذلك، على أسلحة لقتل بعضهم أو يموتون في حروب بين الإنكليز والفرنسيين الذين يتنازعون على أراضيهم. يحصل الهنود أيضاً على شراب مسكر يحوّل المحارب الأقوى إلى جلد وعظم وعلى أمراض أشدُّ فتكاً من أسوأ العواصف الثلجية.

صورة الهنود

قال الرهبان والمستكشفون الفرنسيون: ليس هناك بين هنود كندا متكرّشون أو محدّبون وإذا كان هناك أعرج أو أعمى أو أعور فإن هذا سببه الحرب.

قال «بوشو» Poutchot إنهم يجهلون الملكية ويسمّون النقود: *أفعى الفرنسي*.

---

[1] ملاّح ومستكشف فرنسي.

قال «لافيتو» إنهم يرون من السخف طاعة إنسان آخر وينتخبون الزعماء الذين لا يمتلكون أي امتياز وإذا أصبح أحدهم طامعاً بالزعامة يطيحون به. تطرح النساء الآراء ويتخذن القرارات مثل الرجال وتكون الكلمة النهائية لمجالس الكبار والاجتماعات العامة. لكن ما من كلمة بشرية تسبق صوت الأحلام. إنهم يطيعون الأحلام كما يطيع المسيحيون الانتداب الإلهي كما قال «بربيوف». يطيعونها لأن الروح تتحدث كل ليلة من خلال الأحلام وحين ينتهي الشتاء ويذوب جليد العالم يقيمون حفلة عظيمة مكرسة للأحلام وعندئذ يرتدي الهنود الأزياء وتمارس أنواع الجنون بكافة أشكالها.

قال كارتييه إنهم يأكلون حين يجوعون والشهية هي التوقيت الوحيد الذي يعرفونه.

أضاف «لي جين» إنهم إباحيون، ذلك أن الرجال والنساء يستطيعون أن ينهوا قَسَمَ زواجهم متى شاؤوا. ولا تعني العذرية أي شيء لهم ولقد عرف «شامبلين» نساء تزوجن عشرين مرة.

ورأى «لي جين» أنهم لا يحبون العمل لكنهم يستمتعون باختراع الأكاذيب وهم إنتقاميون ومن أجل الانتقام يأكلون القمل والديدان وأية حشرة تستمتع بالدم البشري. ولقد بيّن «بيارد» أنهم غير قادرين على فهم أية فكرة مجرّدة.

وقال «بربيوف» إن الهنود لا يقدرون على فهم فكرة الجحيم ولم يسمعوا أبداً بالعقاب الأبدي وحين هدّدهم المسيحيون بالجحيم سأل المتوحشون: *هل سيكون أصدقاؤنا هناك أيضاً*؟

أغاني هنود التشيبيوا في إقليم البحيرات الكبرى

أحياناً أشفق على نفسي
بينما تحملني الريح عبر السماء

* * *

الدغل
يجلس في ظل شجرة
ويغني.

1718: ساو خوسيّه ديل ريي

المشهّرة

يستأصل فريق المغامرين الغابات ويفتح الأودية ويحرف مسار الأنهار وطالما تستنهض النار شرارة في الأحجار الصدئة يأكل مطاردو الذهب الضفادع والجذور ويؤسسون مدناً تحت الإشارة المضاعفة للجوع والعقاب.

يحدد نصب المشهرة[1] ولادة كل مدينة في إقليم الذهب البرازيلي. المشهرة هي مركز كل شيء وحولها ستبنى المنازل والكنائس ستشيد على التلال: المشهرة التي ترتدي تاجا في أعلاها وحلقتين حديديتين لتثبيت يدي العبد الذي يستحق التعذيب.

مشهرا سيفه أمامها أعلن الكونت آسيمار الولادة الرسمية لبلدة ساو خوسيه ديل ري. استغرقت رحلته من «ريو دي جانيرو» أربعة أشهر وتوجب عليه أن يأكل في الطريق لحم القردة والنمل المشوي.

تسبب هذه الأرض للكونت آسيمار، حاكم «ميناس غيريس» الذعر والمرض. اعتبر أن روح التمرد طبيعة ثانية لهذا الشعب العنيد الذي بلا جذور. هنا تبث النجوم الفوضى كما يقول وينفث الماء الانتفاضات وتخرج الأرض أبخرة عاصفة، الغيوم وقحة، الرياح متمردة والذهب غاضب.

يأمر الكونت بقطع رأس كل عبد هارب وينظم الميليشيات لإخماد تمرد السود. *الذين بلا سلالة*، الذين ليسوا بيضا أو سودا، النسل البائس المنحدر من السيد والعبد أو من خلائط آلاف الدماء، هم صيادو العبيد الهاربين. الذين ولدوا ليعيشوا خارج القانون لا يصلحون إلا للموت كقتلة. هؤلاء الخلاسيون والمهجنون كثيرون. هنا، دون نساء بيضاوات، ليس ثمة طريقة للنزول عند مشيئة الملك، الذي أمر من لشبونة، بتجنب *النسل المريض المدنس*.

1719: بوتوسي

الطاعون

منذ ثلاثة أعوام أرسلت السماء تحذيرا من *نار مريعة تنذر بكارثة*. الشهاب ـ الشمس المارقة المجنونة ـ أشار بذيله الاتهامي إلى جبل بوتوسي.

ولد في بداية ذلك العام في حي «سان بدرو» طفل برأسين وتساءل القديس إن كان عليه أن يجري عمادة أو اثنتين.

ورغم الشهاب والوحش أصرت بوتوسي على أساليبها وألبستها وعاداتها الفرنسية *التي ذمها الله، السيئة للطبع والتي هي فضيحة للوقار المدني والسياسي*.

احتفلت المدينة، كما جرت العادة، بكرنفال «شروفتايد» وسكرت وزأرت بطريقة *تنافي الشرف* وحين ابتدأت ست فتيات جميلات رقصهن العاري انتشر الطاعون.

عانت بوتوسي من ألف مرض وميتة ولم يرحم الله الهنود الذي سفحوا نهرا من الدم ليدفعوا ثمن خطايا المدينة. واستنادا إلى الدون ماتياس سيبيرياكو ي سيلدا، *الطبيب العالم ذي الكفاءة العالية*، استخدم الله التأثير الشرير لزحل كي يحول الدم إلى بول ومرارة وذلك من أجل أن ينتقم لنفسه.

---

[1] آلة خشبية للتعذيب.

1721: زاكاتيكاس

التهام الإله

رنت الأجراس داعية الجميع إلى الاحتفال الذي أقيم بمناسبة توقيع زاكاتيكاس معاهدة سلام مع هنود الهويشول Huichol.

منذ زمن بعيد وبعد أن انسحبوا إلى جبال «ناياريت»، دافع الهويشوليون عن استقلالهم طوال قرنين وكانوا منيعين في وجه الهجوم المتواصل. لكنهم استسلموا للتاج الأسباني وضمنت لهم المعاهدة ألا يجبروا على الخدمة في المناجم.

لم يكن لدى «الهويشيلين» بديل حين يحجون إلى أراضيهم المقدسة سوى أن يمروا في إقليم المناجم الجائع للأيدي دائما. كان الجد «النار» يحميهم من العقرب والأفعى لكنه كان عاجزا أمام صيادي الهنود.

كانت الرحلة الطويلة إلى هضبة «فيريكوتا» عبر برية حجرية لا نهائية رحلة إلى مكان أصلهم على طريق الآلهة. في «فيريكوتا» يعيش الهنود من جديد اصطياد الأسلاف للأيل ويعودون إلى اللحظة الأبدية حين رفع إله الأيائل قرنيه للشمس المشرقة من جديد وحين ضحى بنفسه لتكون الحياة البشرية ممكنة وحين سمد الذرة بدمه.

يسكن الأيل، إله الآلهة، في الصبار الذي يصعب جدا العثور عليه. تختبئ نبتة الصبار الصغيرة والقبيحة بين الصخور وحين يكتشفها «الهويشوليون» يرمونها بالسهام وحين يصطادونها، تبكي. بعد ذلك يجرحونها، يزيلون جلدها ويقطعون لحمها إلى شرائح، وحول نيران المخيم يأكل الهويشليون الصبار المقدس ثم تبدأ الغيبوبة. على حافة الجنون، في النشوة، حيث الجميع أبديون والجميع لم يوجدوا، يصبحون آلهة بينما يستمر العشاء الرباني.

إذا فقدت روحك سهوا

ماذا تفعل تلك المرأة الهويشيلية التي هي على وشك الولادة؟ إنها تتذكر. تتذكر متوترة ليلة الحب التي جاء فيها الطفل الذي على وشك أن يولد. تفكر بها بكل قوة تلك الذاكرة، تلك السعادة فينفتح جسدها مستمتعا باللذات التي عاشتها ويرسل هويشليا جيدا سيكون جديرا بالمتعة التي صنعته.

يعتني «الهويشلي» الجيد بروحه، قوة الحياة المشعة، لكن الجميع يعرفون أن الروح أصغر من نملة وأنعم من همسة، لا شيء صغير، هبة ريح، ويمكن أن تضيع في أية لحظة إهمال.

يتخطر شاب على منحدر سفح جبل، حين يسقط تنفصل عنه الروح التي ليست مربوطة إلا بخيط عنكبوت حريري. ينادي الشاب الهويشلي الدائخ والمريض مترددا حارس الأغاني المقدسة، الكاهن ـ الساحر.

ما الذي يبحث عنه ذلك الهندي العجوز الذي ينبش في منحدر الجبل؟ إنه يتعقب أثر الشاب المريض متسلقا بصمت بين الصخور الحادة مفتشا الأوراق ورقة ورقة، ناظرا تحت الأحجار الصغيرة. *أين سقطت الحياة؟ أين تستلقي خائفة؟* يسير ببطء مصغيا بانتباه لأن الأرواح الضائعة تبكي وتصفر أحيانا كالنسيم.

حين يعثر الساحر على الروح المفقودة، يرفعها بطرف ريشة ويلفها في كرة قطن صغيرة ويحملها في قصبة صغيرة مجوفة إلى مالكها الذي لن يموت.

1726: خليج مونتيفيديو

مونتيفيديو

إلى الشرق من منعطف نهر أوروغواي تربي السهول المرتفعة والمنخفضة أبقارا أكثر من البرسيم. اشتهى غزاة البرازيل، بالعو الحدود، منجم اللحم والجلود الضخم ويرفرف الآن العلم البرتغالي على ساحل «الريفر بلاتا»، فوق حصن «كولونيا ديل ساكرامينتو». ولكي يوقف هجومهم يأمر ملك أسبانيا ببناء بلدة على خليج مونتيفديو. تنبعث المدينة الجديدة تحت حماية المدفع والصليب وتزدهر على نقطة من التراب والصخور تعصف بها الرياح ويهددها الهنود.

جاء المستوطنون الأوائل من بوينس آيرس: خمسة عشر شابا، تسعة عشر طفلا، وبعض العبيد الذين لا يظهر رقمهم على القائمة - أيد سوداء للفأس والمعزق والمشنقة وأثداء لتقديم الحليب وصوت ليقوم بالحراسة.

حصل المؤسسون الأميون على امتيازات فرسان من الملك، وجربوا حق استخدام لقب الدون في جلسات المتة والجن والسيجار:

- *نخبك أيها الدون.*

- *نخبك!*

كانت تفوح رائحة المتة والتبغ من المخزن العام الذي كان المنزل الأول الذي امتلك بابا خشبيا وجدرانا من الطوب بين الأكواخ المبنية من جلود البقر المبعثرة في ظل الحصن. كان المستودع يقدم المشروبات والأحاديث والغيتارات ويبيع أيضا الأزرار والمقالي والبسكويت وأشياء أخرى مشابهة.

ولد المقهى من المستودع العام وأصبحت مونتيفيديو مدينة المقاهي ولن تخلو أية زاوية من مقهى كمكان للأسرار والصخب، كمعبد صغير تلوذ إليه الوحدة ويحتفل فيه باللقاءات اللامتوقعة حيث يخدم دخان السجائر كبخور.

1733: **أورو بريتو**

المهرجانات

زينت أقواس الأزهار شوارع «أورو بريتو» وفي ظلها تم استعراض الطقوس الدينية بين جدران من الحرير والدمقس. كانت الرياح الأربع والكواكب السبع تجيء وتروح على أحصنة مزينة بالمجوهرات، وعلى عروش مهيبة توهج القمر والحوريات ونجم الصباح مع حاشيتها من الملائكة. وبعد أسبوع من المفرقعات النارية والاحتفال المتواصل غنى الموكب أغاني شكر للذهب وهلل للألماس وكرس لله.

الألماس جديد في المنطقة. اعتاد الناس حتى وقت متأخر أن يربحوا في ألعاب الورق وحين اكتشفت هوية أحجار الكريستال الصغيرة قدم ملك البرتغال القطع الأولى لله والبابا ثم اشترى من الفاتيكان لقب الملك الأكثر إخلاصا المكلف جدا.

كانت شوارع أورو بريتو ترتفع وتنحدر كحد مدية وقسم سكانها بين القمم والمهاوي. مهرجانات أولئك الذين في القمة هي عروض حفل إلزامي، لكن مهرجانات القاع تحرض على الشك والعقاب، ذلك أن الجلود الداكنة تخبئ تهديدات السحر وأخطار التمرد، أما أغاني وموسيقى الفقراء فهي خطيئة والخلاسية التي تحب أن تضحك تجازف بالسجن أو الطرد وفي أحد الابتهاج يمكن أن يفقد عبد أسود رأسه.

1736: **سينت جون، أنتغوا**

احتدامات

أنهوا قسمهم وهم يشربون من نفس الإناء الخزفي مزيجا من الرم وتراب القبر ودم الديك ثم انفجر زلزال من الطبول. كانوا قد جهزوا البارود ليفجروا الحاكم وجميع فرسان جزيرة أنتغوا البريطانية، هذا ما قاله المدعي العام وهذا ما صدقه القضاة.

مات ستة عبيد سود من الجوع مقيدين إلى المحرقة وحطم آخر إلى قطع وأحرق سبعة وسبعون أحياء. أنقذ آخران نفسيهما لأنهما نطقا بأكاذيب حكمت على والديهما بالحرق.

تحول المتآمرون إلى فحم أو لحم نتن لكنهم كانوا يتجولون على الشاطئ فجرا. وحين يكشف المد المنخفض عجائب في الرمل يعبر الصيادون ممرات مع الموتى الذين يبحثون عن الماء والطعام ليتابعوا رحلتهم إلى الغيب.

1738: **بلدة تريلوني**

كدخوي

تتصبب النباتات والبشر عرقا في الجبال المليئة بالأدغال والواقعة في غرب «جامايكا» وحتى الشمس تخبئ نفسها حين يعلن عويل البوق الطويل أن زعيم العدو وصل إلى الممر.

لم يأت الكولونيل «كثري» إلى القتال هذه المرة وعرض المستعبدون الإنكليز السلام مع العبيد الآبقين ووعدوا أن يحترموا الحرية التي ربحوها في سنوات الحرب الطويلة وأن يعترفوا بملكيتهم للأراضي التي يعيشون فيها. مقابل ذلك يحول الآبقون أنفسهم إلى «جندرما» على أخوتهم المسجونين: من الآن فصاعدا، سيساعدون في معاقبة تمردات العبيد في مستعمرات السكر وسيعيدون الهاربين الذين يجيئون إليهم، باحثين عن ملاذ.

خرج الزعيم «كدخوي» ليقابل الكولونيل «كثري» مرتديا قبعة بلا حواف وسترة كانت زرقاء مرة وتمتلك كمين. ذلك أن غبار «جامايكا» الأحمر يضفي لونا واحدا على الجلد والثياب، لكن، بالمقابل، لم يكن هناك زر مفقود في صدرية الكولونيل ويمكن تمييز بياض شعره المستعار المجعد. انحنى «كدخوي» وقبل بوطه.

1739: بلدة ناني الجديدة

ناني

بعد أن تعامل مع «كدخوي» زعيم عبيد «ليوارد» الهاربين، سار الكولونيل «كثري» مشرقا، لكن يدا مجهولة وضعت سما مهلكا في كأس رمه فسقط عن حصانه كمعدن الرصاص.

بعد بضعة أشهر، أنقذ الكابتن «آدير» السلام في الشرق عند سفح جبل مرتفع جدا. متمنطقا سيفا احتفاليا ومعتمرا قبعة فضية، قبل «كوو» زعيم عبيد «ويند ورد» الهاربين شروط «آدير». لكن، على هذه الجروف الشرقية، «ناني» أكثر قوة من «كوو». أطاعتها عصابات «ويندورد» المبعثرة وأيضا كتائب البعوض. ناني امرأة ضخمة من طين ناري، سيدة الآلهة، لا ترتدي سوى عقد مصنوع من أسنان جندي إنكليزي.

لا أحد يشاهدها، الجميع يشاهدونها. يقولون إنها ماتت لكنها تلقي نفسها عارية كقنبلة في وسط المعركة. تقف مديرة ظهرها للأعداء وتمسك مؤخرتها الرائعة الطلقات وأحيانا تعيدها إلى مصدرها بدقة أو تحولها أحيانا إلى كرات قطنية.

حج في جامايكا

تخرج من ثغور في الأشجار، من ثغور في الأرض وشقوق في الصخور.

لا تمنعها الأمطار والأنهار. تعبر المستنقعات والأودية والغابات. لا يغير مسارها الضباب أو الشمس الحارقة.

بطيئة، لا تقهر، تنحدر من الجبال. تتقدم في صورة جانبية في طريق مستقيم دون انحرافات. تتوهج ظهورها الصدفية تحت الشمس. ترأس مسيرها كتائب من المحاربين الذكور. تشهر سيوفها ومخالبها عند أية إشارة خطر. يموت كثيرون أو يفقدون ذراعا وهم يشقون الطريق. تصر تربة «جامايكا» المغطاة بجيش السرطانات الكبير هذا.

الرحلة إلى البحر طويلة، أولئك الذين يصلون بعد شـهرين أو ثلاثـة، يصلـون منـهكين. بعـد ذلك تتقدم الإناث، تتغطى بالأمواج ويسحب البحر بيوضها.

من الملايين التي بدأت الرحلة إلى البحر يعود القليل، لكن البحر، يحضن تحت الرمل شـعبا جديدا من السرطانات وفي وقت قصير ينطلق هذا الشعب الجديد إلى الجبال التـي جـاءت منـها منجباته ولا يمكن أن يوقفه أحد.

ليس للسرطانات رؤوس.وصلت متأخرة أثناء توزيع الرؤوس التي صنعها الملك الإله فـي قصـره القطني والنحاسي في إفريقيا. لا تملك السرطانات رؤوسا لكنها تحلم وتعرف.

1742: جزر خوان فرنانديز

آنسون

اعتقد التشيليون أن أمواج المحيط أحصنة ذات أفواه مزبـدة تمتطيـها السـاحرات بأعنـة مـن أعشاب الخليج. تهجم الأمواج على كتل الصخور التي لا تؤمن بالسحر وتستسلم القلاع الصخريـة للضرب بازدراء بعيد. عاليا كملك يتأمل ذكر الماعز الرذاذ. يبقى عـدد قليـل مـن المـاعز فـي جـزر خوان فرنانديز. منذ سنوات أحضر الأسبان من تشيلي مجموعة من الكلاب لاصطيـاد هـذا الطعـام السهل وليحرموا منه القراصنة.

عبثا يصطاد رجال القائد آنسون ظلال القرنين بين الصخور والجروف ويعتقـدون أنـهم تعرفـوا على علامة «أليكسندر سيلكيرك» على أذني عنزة اصطادوها. يرفرف العلم الإنكليزي سـليما فـوق صارية السفينة. سيعود أسطول اللورد جورج آنسون إلى لندن مدمرا من الجـوع والإسـقربوط ولكـن الغنيمة ستكون رائعة بحيث لن تكفي أربعون عربة تجرها الثيران لجرها مـن المرفـأ. باسم إتمـام علم رسم الخرائط والجغرافيا والفلك والهندسة وفن الإبحـار اصطـاد العـالم آنسـون بمدافعـه سـفنا أسبانية مختلفة وأحرق عدة بلـدان آخـذا كـل شـيء حتـى اللمـات المستعارة والثيـاب الداخليـة المطرزة.

في تلك السنوات كانت الإمبراطورية البريطانية تولد في الانتقال مـن القرصنـة إلـى التـهريب لكن آنسون قرصان من المدرسة القديمة.

1735: نهر سيـراليون

لنمدح الإله

جاء وحي الله في ومضات البرق واعتنق القبطان جون نيوتن المسيحية في ليلة تجديف وسكر حين كانت عاصفة مفاجئة على وشك أن ترسل سفينته إلى قاع المحيط.

من يومه ذاك أصبح أحد محبي الله وصار يقدم موعظة كل ليلة. يتمتم صلاة المائدة قبل كل وجبة ويبدأ كل يوم غناء مزامير يكررها البحارة بصوت أجش في كورس. كان يدفع في «ليفربول» عند نهاية كل رحلة من أجل احتفال خاص بعيد الشكر مكرس لله الكلي القدرة.

وبينما كان ينتظر حمولة عند فم نهر «سيراليون» طرد القبطان نيوتن المخاوف والبعوض وتوسل إلى الله أن يحمي سفينة «أفريكان» وطاقمها وأن يضمن وصول البضائع التي تحمل هنا سليمة إلى «جامايكا».

كان القبطان نيوتن وزملاؤه العديدون منشغلين بتجارة ثلاثية بين بريطانيا وأفريقيا وجزر الآنتيل. كانوا يحملون الثياب والرم والبنادق والسكاكين في ليفربول ويأخذون بدلا منها الرجال والنساء والأطفال على الساحل الإفريقي، ثم تسلك السفن مسارا إلى الجزر الكاريبية وهناك تقدم العبيد وتأخذ السكر والقطن والتبغ الذي تنقله إلى «ليفربول» لتبدأ دورة جديدة.

يسهم القبطان أثناء أوقات فراغه في الطقوس الدينية المقدسة مؤلفا الترنيمات. في تلك الليلة، يغلق كابينته ويبدأ كتابة ترنيمة جديدة بينما ينتظر قافلة العبيد التي تأخرت لأن بعض العبيد حاولوا أن يقتلوا أنفسهم ملتهمين الطين على الطريق. كان يمتلك العنوان مسبقا: كم هو عذب رنين اسم يسوع! أنجزت الأبيات الأولى ودندن القبطان ألحانا مقبولة تحت المصباح الذي يتدلى من السقف المرتفع.

1758: كاب فرانسي

ماكاندال

أخرج فرانسوا ماكاندال منديلا أصفر من كأس ماء أمام حشد ضخم من العبيد الهاربين.

«في البداية، كان الهنود»

ثم أخرج منديلا أبيض،

«أما الآن فالبيض هم الأسياد»

هز منديلا أسود أمام أعين الآبقين وأعلن أن ساعة أولئك الذين جاؤوا من أفريقيا قد حانت. هز المنديل بيده الوحيدة لأنه ترك الأخرى بين الأسنان الحديدية لطاحونة السكر.

إن ماكاندال ذا اليد الوحيدة هو سيد السم والنار في السهول الواقعة شمال «هاييتي». بأمر منه تحرق حقول القصب وبرقاه ينهار لوردات السكر وهم يبصقون البصاق والدم.

عرف كيف يحول نفسه إلى إغوانة[1]، إلى نملة أو ذبابة مزودة بخياشيم وهوائي أو جناحين، لكنهم يقبضون عليه ويحكمون عليه ويحرقونه حيا. يشاهد الحشد جسده يتلوى

---

[1] عظاية أميركية استوائية ضخمة آكلة للأعشاب.

ويرتجف من خلال ألسنة اللهب. فجأة تشق صرخة الأرض، صرخة ألـم ومتعـة عظيمـة ويتحـرر «ماكاندال» من المحرقة والموت: صارخا ومحترقا يخترق الدخان ويتلاشى في الجو.

وهذا لم يثر دهشة العبيد لأنهم يعرفون أنه سيبقى في هـاييتي لونـا لجميـع الظـلال ومحركـا لليل.

1761: سيستيل

كانيك

أعلن هنود المايا استقلال «يوكاتان» واستقلال أميركا القادم. *«لم تحضـر لنـا السـلطة الإسـبانية سوى المتاعب، لا شيء سوى المتاعب».*

«جاسينتو أوك»، الذي يجعل الطبول تقرع حين يداعب أوراق الأشجار، نصب نفسه ملكا واختار لنفسه اسم كانيك: *الثعبان الأسود*. عقد ملك يوكاتان حول عنقه رداء سيدتنا مريم وخطب مطولا بالهنود الذين دحرجوا حبوب الذرة على الأرض وغنوا أنشودة الحرب. قال الأنبياء، الرجال ذوو الصدور الدافئة التي نورتها الآلهة: إن الذي سيموت في القتال سيبعث. وقال «كانيك» إنه ليس ملكا من أجل محبة السلطة وإن السلطة تتوق إلى مزيد من السلطة وإن الإبريق حين يطفح بالماء ينسفح. قال إنه ملك ضد سلطة المتسلطين وأعلن نهاية القنانة ومنصات الجلد والهنود الذين يصطفون لتقبيل يد السيد.

«لن يستطيعوا أن يقيدونا، ستنفد حبالهم».

تعددت الأصداء في «سيستيل» والقرى الأخرى وأصبحت الكلمات صرخات وتدحرج الكهنة والضباط مضرجين بدمائهم.

1761: مريدا

أشلاء

أسروه بعد كثير من القتل وكان القديس يوسف هو القديس الذي رعى ذلك النصر الاستعماري. اتهموا كانيك بانتقاد المسيح وبحشو فمه عشبا. حكم عليه بأن يحطم حيا بقضبان الحديد في حي مريدا الرئيسي.

دخل كانيك الحي راكبا بغلا وقد حجب وجهه تاج ورقي ضخم. وعلى التاج كتبت جنحته: *ثائر ضد الله والملك*.

فرموه قطعة قطعة دون أن يسمحوا له براحة الموت وكان مصيره أسوأ من مصير حيوان في مسلخ. بعد ذلك رموا أشلاءه في النار. حدد الاحتفال تصفيق مطول وتحت التصفيق همس أن الأقنان سيضعون زجاجا مطحونا في خبز الأسياد.

1761: سيستنيل

الذرة المقدسة

رمى جلادو كانيك رماده في الجو بحيث لا ينبعث يوم القيامة. قتل ثمانية من قواده خنقا وقطعت آذان مائتي هندي.

ولكي يؤذوا ما هو أكثر قداسة، حرق الجنود بذار الذرة التي زرعتها الجماعات الهندية.

لكن الذرة التي بقيت حية تعاني إذا أحرقت وتهان كرامتها إذا ديس عليها. وربما تحلم الذرة بالهنود كما يحلم الهنود بها. وهي تنظم المكان والزمان والتاريخ للشعب الذي صنع من لب الذرة. حين ولد «كانيك» قطعوا حبل سرته على قرن ذرة وباسم المولود الجديد زرعت حبات ذرة ملطخة بدمائه. لقد تغذى من حقل الذرة هذا وشرب ماء صافيا يحوي ضوء نجم مسائي وترعرع.

1763: بوراكو دي تاتو

يقدم المخربون مثالا سيئا

نجا الأدلاء، الذين يستطيعون أن يروا في ليلة بلا قمر كما يرون في النهار، من المصائد. بفضلهم استطاع الجنود أن يعبروا متاهة الأوتاد المسنونة الخائنة وانقضوا فجرا على قرية العبيد الأحرار.

تعالى دخان البارود وألسنة اللهب وأصبح الجو كثيفا ومالحا قرب ساحل إيتاباو Itapoa. ولم يبق في منتصف النهار شيء من بوراكو دي تاتو، ملاذ العبيد الهاربين الذي كان طوال عشرين عاما إساءة لمدينة «ساو سلفادور دي باهيا» القريبة.

أقسم نائب الملك أن يطهر البرازيل من العبيد الهاربين لكنهم كانوا ينبثقون في جميع الجوانب وعبثا قطع الكابتن بارتولوميو بوينو أربعة آلاف زوج من الآذان في ميناس غيريس (Minas Gerais).

أجبرت أعقاب البنادق أولئك الذين لم يسقطوا دفاعا عن بوراكو دي تاتو على الانتظام في الصف. وشم الجميع على صدورهم بحرف F الذي يشير إلى العبد الهارب وأعيدوا إلى مالكيهم. وبدأ الكابتن «جواكيم داكوستا» المفلس يبيع الأطفال بأسعار رخيصة.

مشاركة

التاريخ، السيدة ذات الحجاب القاني، التي تقدم شفتيها للذين يربحون، تملك الكثير لتخبئه. ستتظاهر بالغيبوبة أو بمرض فقدان الذاكرة المزيف وستكذب قائلة إن عبيد البرازيل كانوا خنوعين، مستسلمين وحتى سعداء.

لكن مالكي المستعمرات يجبرون الطباخين أن يتذوقوا عينة من كل طبق أمام أعينهم. بين متع المائدة تكمن سموم تعد بآلام طويلة. العبيد يقتلون وأيضا ينتحرون أو يهربون وهذه طرقهم لسرقة سيدهم من ثروته الرئيسية. أو ينتفضون مؤمنين وراقصين ومغنين وهذه طريقتهم في الخلاص والانبعاث.

يسكر قصب السكر المقطوع جو المستعمرة وتتوقد النار في التراب وفي الصدور البشرية: النار تصلب السياط، الطبول تدمدم. تستحضر الطبول الآلهة القديمة التي تهرب إلى أرض المنفى هذه استجابة لأصوات أطفالها الضائعين، تدخلهم، تمارس معهم الحب وتنتزع الموسيقى والصرخات من أفواههم ثم تعيد إليهم حياتهم سليمة.

في نيجيريا أو داهومي تطلب الطبول الخصوبة للنساء والحقول لكن هذا لا يحدث هنا. هنا تحبل النساء بالعبيد وتسحقهم الحقول. هنا، لا تطلب الطبول الخصب بل الانتقام و«أوغم»، إله الحديد، يشحذ الخناجر بدلا من المحراث.

صورة باهيا

يقول قادة باهيا إن *الرجل الأسود لا يذهب إلى الفردوس مهما صلى لأن شعره الخشن يخز الهنا*. يقولون إنه لا ينام بل يشخر، لا يأكل بل يبلع وإنه لا يتحدث بل يغمغم. قالوا إنه لا يموت بل ينتهي. قالوا إن الله صنع الرجل الأبيض ورسم الخلاسي، أما الإنسان الأسود فقد تبرزه الشيطان.

يشتبه بأن أي احتفال للسود هو تمجيد للشيطان الأسود الشرير ذي الذيل والمخالب والرمح الثلاثي، لكن القادة يعرفون أنه إذا سلى العبيد أنفسهم بين فينة وأخرى فإنهم ينجزون المزيد من العمل ويعيشون المزيد من السنين وينجبون المزيد من الأبناء. وكما يوحي طقس الكابويرا Capoeira والصراع اليدوي المهلك بأنه لعبة ملونة، يتظاهر الـCandomblé بأنه ليس سوى رقص وضجة ولا تغيب أبدا العذراوات أو القديسون الذين يعيرون أقنعة. لا أحد يوقف «أو غم» من التحول إلى القديس جورج، إلى الفارس الأشقر، وتخبئ الآلهة السوداء الشريرة نفسها حتى في جراح المسيح.

في أسبوع آلام العبيد، العبد هو الذي يطبق العدالة على الخائن ناسفا يهوذا الإسخريوطي الأبيض، الدمية المدهونة بالكلس، وحين يعرض السود العذراء في موكب يكون القديس الأسود بنيديكت في مركز كل التمجيد. لا تعترف الكنيسة بهذا القديس، واستنادا إلى السود كان القديس بنيديكت عبدا مثلهم وطباخا في أبرشية، وكانت الملائكة تحرك الآنية أثناء صلواته.

يفضل الأسياد القديس «أنطوني» الذي يرتدي قماشا عسكريا مخططا ويختص في إدارة السود. حين يهرب عبد، يرمى السيد القديس في الزاوية مع القمامة. يبقى القديس أنطوني تائبا ووجهه إلى الأسفل إلى أن تصطاد الكلاب العبد الهارب.

رأسك الآخر، ذاكرتك الأخرى

ثمة نقش كئيب على الساعة الشمسية لأبرشية سان فرانسيسكو يذكّر العابر كيف يمر الزمن: «*كل ساعة تمر تجرحك والأخيرة سوف تقتلك*».

الكلمات مكتوبة باللغة اللاتينية ولا يعرف عبيد «باهيا» السود اللاتينية أو القراءة والكتابة. أحضروا من أفريقيا آلهة سعيدة ومشاكسة. تُقرع الطبول كي لا يضيع الميت وكي يصل بسلام إلى «أوهالا» «Oxala». هناك في منزل خالق الخالقين ينتظر رأسه الآخر، رأسه الخالد. كلنا نملك رأسين وذاكرتين. نملك رأساً من الطين سيتحول إلى غبار وآخر يبقى إلى الأبد منيعاً على حتّ الزمن والهوى. نملك ذاكرة يقتلها الموت، بوصلة تنفد في الرحلة وذاكرة أخرى، الذاكرة الجماعية، التي ستعيش طالما تعيش المغامرة البشرية في العالم.

حين حُرِّك هواء الكون واستُنشقَ لأول مرة وولد إله الآلهة لم يكن هناك فصل بين السماء والأرض. أما الآن تبدوان مطلّقتين، لكن السماء والأرض تنضمان في كل مرة يموت فيها شخص ما، وكلما ولد امرؤٌ وفي كل مرة يتلقى أحدهم الآلهة في جسد نابض.

1763: ريو دي جانيرو

هنا

اقترح «لويس دا كُنها» منذ ربع قرن على ملك البرتغال أن ينتقل مع بلاطه كله من لشبونة إلى «ريو دي جانيرو» وأن يعلن في هذه المدينة نفسه إمبراطوراً للغرب. يجب أن تكون عاصمة الإمبراطورية هنا في مركز الثروة لأن البرتغال لا تستطيع أن تحيا دون ثروات البرازيل، لكن البرازيل، كما حذّر «لويس دا كنها» تستطيع أن تعيش بسهولة دون البرتغال.

في ذلك الوقت يبقى العرش في لشبونة لكن مركز المستعمرة انتقل من الشمال إلى الجنوب. «باهيا»، ميناء السكر، استسلمت لـ«ريو دي جانيرو» ميناء الذهب والألماس. نمت البرازيل جنوباً وغرباً مهاجمة الحدود الاسبانية.

شغلت العاصمة الجديدة أجمل بقعة في العالم. هنا تبدو الجبال كأزواج من العشاق ويحمل الهواء عطوراً تسبّب الضحك وثمة نسيم دافئ يثير الطيور. الأشياء والبشر مصنوعون من الموسيقى ويتلألأ البحر أمام عينيك فيكون من الممتع أن تغرق فيه.

1763: تيخوكو (Tijuco)

العالم داخل ماسة

بين صخور حمراء مهيبة تبدو كالتنانين تتموّج الأرض الحمراء التي آذتها يد الإنسان. يزفر إقليم الألماس غباراً نارياً يحمّر جدران مدينة تيخوكو. يتدفّق إلى جانب المدينة جدول وبعيداً تبدو

جبال لها لون البحر أو الرماد. تخرج من حوض النهر ألماسات ستعبر الجبال وتبحر من «ريو دي جانيرو» إلى «لشبونة» ومن «لشبونة» إلى لندن حيث تُقطع ويضاعف سعرها مرات عديدة وفيما بعد تقدّم التألّق للعالم كله.

تهرّب ألماسات كثيرة ورغم أن جسم الجريمة[1] يمكن أن يكون بحجم برغوث فإن المعدّنين السريين الذين قبض عليهم يتمددون دون قبور طعاماً للغربان، أما العبد الذي يُشتبه بأنه ابتلع ما يجب ألا يحصل عليه يتلقى تطهيراً عنيفاً بالفلفل الحار.

تنتمي أية ماسة إلى ملك البرتغال وإلى جاو فرنانديز دي أوليفيرا الذي يحكم هنا بعقد من الملك وإلى جانبه «شيكا دا سيلفا» المعروفة أيضاً بشيكا التي تحكم، وهي خلاسية ترتدي ثياباً أوروبية محظورة على سود الجلود وتتباهى بالظهور حين تذهب إلى القداس على محفة تتبعها حاشيتها من النساء السود اللواتي يلبسن كأميرات. تشغل موقع الشرف في الكنيسة وليس هناك نبيل في الجوار لا يحني عموده الفقري أمام يدها المغطاة بالخواتم الذهبية ولا أحد يغيب عن اجتماعاتها في المنزل الذي في الجبال. هناك تقيم شيكا دا سيلفا المآدب والحفلات المسرحية حيث تؤدّى «مفاتن ميديا» أو مسرحية أخرى شعبية، وفيما بعد تأخذ ضيوفها في رحلة في تلك البحيرة التي حفرها لها «أوليفيرا» لأنها أرادت المحيط ولم يكن هناك محيط. يصعدون درجاً مموهاً بالذهب إلى الرصيف ويطوفون في مركب مهيب يتألف طاقمه من عشرة بحارة.

ترتدي «شيكا دا سيلفا» شعراً مستعاراً لفائفه بيضاء وتغطي اللفائف جبهتها مخفية تلك العلامة التي تركها الوشم الحديدي حين كانت عبدة.

1763: هافانا

التقدم

وصل الإنكليز إلى «كوجيمار» منذ عامٍ مع القصف المدفعي. وبينما كانت «هافانا» توقّع على استسلامها بعد حصار طويل كانت سفن العبيد تنتظر خارج المرفأ. حين رستْ السفن في الخليج اغتصب الشراة بضائعهم.

يتبع التجار المحاربين كالعادة ولقد باع تاجر واحد يُدعى «جون كينيون» ألف وسبعمائة عبد أثناء الاحتلال البريطاني. ضاعف هو وزملاؤه القوة العاملة في المستعمرات التي كانت قديمة إلى درجة أنها كانت تنتج جميع أنواع الغذاء ولا تستخدم إلا آلة واحدة هي الطاحونة التي تسحق قصب السكر وتدور بخطوة الثيران الدائرة.

لا تكاد الهيمنة البريطانية على كوبا تستمر عشرة أشهر، لكن الإسبان لم يتعرفوا بسهولة على المستعمرة التي استعادوها. لقد هزّ الإنكليز كوبا كثيراً حتى استيقظت من قيلولتها الزراعية

---

[1] الجسم الذي وقعت عليه الجريمة.

الطويلة. ستتحول هذه الجزيرة في الأزمنة القادمة إلى معمل سكر ضخم يطحن العبيد ويخرب كل شيء. ستدمر مزارع التبغ وحقول الذرة ومساحات الخضار. ستستأصل الغابات وتجفف الجداول وسيعصر كل عبد أسود في فترة سبع سنوات.

العبيد يؤمنون

يؤمن العبيد أن الآلهة تحرك الدم والنسغ. يتنفس في كل ورقة من عشب «كوبا» إله ولهذا الغابة حية. الغابة، معبد الآلهة الإفريقية، منزل الأسلاف الأفارقة، مقدسة وتحفظ الأسرار. إذا نسي أي شخص أن يلقي عليها السلام، تغضب وتمنع الصحة والثروة. يتوجب على المرء أن يقدم لها هدية ليحصل على الأوراق التي تشفي الجراح وتدرأ المصائب. يجب أن يحييها المرء بكلمات طقوسية أو أية كلمات تخرج منه. يتحدث كل شخص مع الآلهة كما يشعر ووفقا لقدرته.

ليس ثمة إله كله جيد أو كله سيء، الإله نفسه يمكن أن ينقذ أو يقتل. إن النسيم ينعش والإعصار يدمر، وكلاهما هواء.

النخلة الملكية

في هذه النخلة المتغطرسة يعيش «شانغو» الإله الأسود الذي يسمي نفسه القديسة بربارة حين يتنكر بزي امرأة مسيحية. أوراق قنتها ذراعاه ومن الأعلى يطلق نيران مدفعيته. شانغو يأكل النار ولا يتعب أبدا من «التنكيت» والحب ولهذا تكرهه الآلهة وتجن منه الإلاهات. تزوج «أويا» زوجة شقيقه «أوغم» الذي قيل إنه عذراء «كانديلاريا» ويقاتل إلى جانب «شانغو» بسيفين. في الأنهار يمارس الحب مع «أوشن» ومعا يتناولان السكر والقرفة.

1766: حقول آريكو

الخيول البرية

غنى في بوينس آيرس عشرون طفلا هنديا ينتمون إلى خورس إرسالية سان خافيير الجزويتية في الكاتدرائية وفي عدة كنائس مكتظة وعبر الجمهور عن امتنانه لأصحاب الأصوات السماوية. وقد اجترحت الأوركسترا الجوارانية المؤلفة من الكمنجات والآلات ذات الوتر الواحد المعجزات.

انطلق الموسيقيون في رحلة عودتهم يقودهم «فراي هيرمان بوك» وكان يفصلهم أسبوعان من السفر عن منازلهم الواقعة على الساحل.

على الطريق يجمع «بوك» ويرسم كل ما يراه: النباتات والطيور والعادات.

يشهد بوك وموسيقيوه الكوارانيون في حقول آريكو تضحية الخيول غير الموسومة. يحضر عمال هنود تلك الخيول البرية إلى الزرائب مختلطة مع الخيول المروضة وهناك يرسنونها ويخرجونها واحدا واحدا إلى البلاد المفتوحة، ثم يقلبونها وبضربة واحدة يشقون بطونها. تتابع الخيول غير الموسومة عدوها، تخطو على أحشائها إلى أن تتدحرج على العشب وتنشر عدوى الحرية بين الخيول المروضة.

1767: الإرساليات التبشيرية

قصة سبع قرى

قدم ملك أسبانيا لحميه، ملك البرتغال، هدية تتألف من سبع قرى. منحها فارغة لكنها كانت مسكونة وهي سبع إرساليات أسسها الآباء اليسوعيون للهنود الجوارانيين إلى الشرق من نهر الأوروغواي الأعلى. خدمت كمتاريس ضد الجبهة التي كانت تهاجم دائما مثل الإرساليات الأخرى.

رفض الجوارانيون الخروج. هل يغيرون مراعيهم كقطيع من الخراف لأن الإنسان يأمر بذلك؟

علمهم اليسوعيون صناعة الساعات والمحاريث والأجراس والزمامير وكتبا مطبوعة بلغتهم الجوارانية وعلموهم أيضا كيف يصنعون البنادق ليدافعوا عن أنفسهم ضد صيادي العبيد.

يطرد الجنود البرتغاليون والأسبان الهنود لكنهم يعودون خفية في الليل. يطردون ثانية ويعودون مرة أخرى متحولين إلى رياح مرعدة وعاصفة من البرق تحرق الحصون.

يعرف الجميع أن الكهنة يصفون إلى جانبهم.وقد قال رؤساء الرهبان في نظام لويولا: *«إن مشيئة الملك هي مشيئة الله، وهي مشيئة لا تنتهك وسوف تختبرنا: حين أطاع إبراهيم الصوت الإلهي ورفع السيف فوق عنق ولده إسحق، أرسل الله ملاكا ليصد الضربة في اللحظة الحرجة»*.

لكن الكهنة اليسوعيين رفضوا أن يضحوا بالهنود وعبثا هدد كبير أساقفة بوينس آيرس بأن يحرم كنسيا كلا من الهنود والكهنة. عبثا تأمر الهيئة الكهنوتية للكنيسة بحرق البارود وتدمير البنادق والرماح التي أوقفت بها الإرساليات ألف مرة الهجمات البرتغالية ضد الحدود الإسبانية.

كانت حرب القرى السبع ضد الناجين طويلة. سقط في معركة «كايباته» ألف وخمسمائة هندي، أبيدت الإرساليات لكن ملك البرتغال لم يستطع أن يتمتع بالهدية.

لم يغفر الملكان للإساءة أبدا فبعد ثلاثة أعوام من معركة «كايباته» طرد ملك البرتغال اليسوعيين من جميع أراضيه وتبعه في ذلك ملك إسبانيا.

1767: الإرساليات التبشيرية

طرد اليسوعيين

وصلت التعليمات من مدريد في ظروف مختومة بالشمع ونفذها نواب الملوك والمحافظون في كل أنحاء أميركا. قبضوا على اليسوعيين ليلا معتمدين على عنصر المفاجأة ورحلوهم فورا إلى إيطاليا البعيدة. نفي أكثر من ألفي كاهن.

عاقب ملك أسبانيا أبناء «ليولا» الذين أصبحوا أبناء أميركا بتهمة العصيان المتكرر والتخطيط لبناء مملكة هندية مستقلة.

لم يبك أحد من أجلهم سوى الجوارانيين. لقد أعلنت الإرساليات اليسوعية الكثيرة في منطقة الجوارانيين أرض الميعاد التي تخلو من الشر والموت وسمّى الهنودُ الكهنة كاري (Karai) وهو اسم خاص بأنبيائهم.

أرسل الهنود من حطام إرسالية سان لويس غونزاكا، رسالة إلى محافظ بوينس آيرس: «*لسنا عبيداً، لا نحب عادتكم في أن يكون الرجل أنانياً بدل أن يساعد الآخرين*».

حالاً حُطّم كل شيء. اختفتْ الملكية المشتركة ونظام الإنتاج الجماعي والحياة الجماعية. بيعت أفضل ممتلكات الإرسالية للذي دفع ثمناً أعلى. تداعت المدارس والكنائس والمصانع وغزت النباتات الطفيلية المراعي وحقول الحنطة. مُزِّقت الأوراق من الكتب من أجل صناعة الخرطوش للبارود. فرَّ الهنود إلى الغابة أو بقوا ليصبحوا مشردين، عاهرات وسكارى.

أن تولد هندياً، هو مرة أخرى، إهانة أو جريمة.

1767: الإرساليات التبشيرية

لن يجعلوا لغاتهم تموت

نشرت مطابع إرساليات باراغوي بعض أفضل كتب أميركا الكولونيالية وهي كتب دينية في اللغة الجوارانية، ونشرت نقوشاً حفرها الهنود على الخشب.

كانت الجوارانية لغة الإرساليات المنطوقة والمكتوبة وبعد أن طُرد اليسوعيون فُرضت القشتالية كلغة وحيدة وإلزامية.

لا أحد يسلم نفسه للصمم أو لفقدان الذاكرة، لا أحد يكترث.

1769: لندن

أول رواية كتبت في أميركا

منذ عشرة أعوام أنهكت أجراس لندن نفسها وهي تحتفل بانتصارات الإمبراطورية البريطانية. سقطت مدينة «كيبيك»، بعد قصف عنيف وفقدت فرنسا أراضيها في كندا. أعلن الجنرال الشاب جيمس وولف الذي قاد الجيش البريطاني أنه سيسحق الطاعون الكندي لكنه مات قبل أن يشهد الحدث. كان وولف، كما أفادت الثرثرة، يقيس نفسه حين يستيقظ ويرى طوله يزداد كل يوم إلى أن قاطعت نمّوه رصاصة.

نشرت «فرانسيس بروك» رواية في لندن عنوانها **تاريخ إميلي مونتاغ**، ترصد ضباط وولف وهم يغزون القلوب في الأراضي التي غزتها مدافعهم. كانت المؤلفة امرأة إنكليزية ممتلئة وظريفة

تعيش وتكتب في كندا. نقلت في مئتين وثماني وعشرين رسالة انطباعاتها وتجاربها في المستعمرة البريطانية الجديدة ونسجت بعض العلاقات الغرامية بين شبان إنكليز أنيقين يرتدون بزات عسكرية والسيدات الشابات اللاهثات لمجتمع «كيبيك». كانت عواطفهن المثقفة جيداً تقود إلى الزواج عن طريق بيت الأزياء، قاعة الرقص والنزهات إلى الجزيرة وقدّمت الشلالات الرائعة والبحيرات النبيلة ستارة مسرح خلفية مناسبة.

الهنود والأحلام في رواية فرانسيس بروك

يحتفظ الهنود بمعظم خرافاتهم القديمة وخاصة إيمانهم بالأحلام، ولا يمكن أن تشفيهم حتى الخيبات المتكررة من حماقة كهذه. وحدث مرة أن ابتسمتُ لسماع رواية متوحش لحلم نبوي، أكّد لنا من خلاله موت ضابط إنكليزي عرفتُ أنه على قيد الحياة. قال: أنتم الأوروبيين أكثر البشر لا معقولية في العالم، تسخرون من إيماننا بالأحلام ومع ذلك تريدوننا أن نؤمن بأشياء غير قابلة للتصديق ألف مرة.

1769: ليما

نائب الملك «أمات»

في الوقت الذي تركع فيه العائلات لتصلي التاسوعية وصلوات للأموات، يُسمع صوت عربة نائب الملك وهي تتجه إلى المسرح. تدوي غمغمة فضيحة عبر الستائر الفينيسية. تتوقف الصلوات قليلاً. تنطلق الثرثرة: لقد فقد نائب ملك ليما الفظ والنذل والتافه والوغد رأسه من أجل ممثلة كوميدية تافهة.

كان الدون «مانويل دي أمات ي جُنْينت» يحضر كل ليلة أية أوبرا هزلية أو مسرحية ساخرة أو تمثيلية دينية أو ملهاة تهز فيها «ميكايلا فيليكاس»، ردفيها وترقص بكعبيها على خشبة المسرح. لا يأبه بالحبكة. حين تبدأ «ميكايلا»، تلك القرفة الرائعة النقية، القرفة المزهرة، غناءها التملّقي، يطير الشعر المستعار لنائب الملك العجوز. يصفّق بجنون ويحدث ثقوباً في الأرض بعكازه. تجيبه وهي تطوف بعينيها، مبتسمة تحت الشامة الأساسية مقدمة ثدييها في انحناءات مغطاة بالنثار المعدني.

كان نائب الملك رجل ثكنات، لا رجل حفلات ورقص، كان أعزب عبوساً تظهر عليه خمسة ندوب كبيرة ربحها في حروب شمال أفريقيا. جاء إلى «ليما» لينظف طرقاتها من لصوص المواشي والخيول وليطرد العاطلين عن العمل والمشردين. تحت هذه السماء الرصاصية والتي هي سقف أكثر من كونها سماء، أراد أن ينتحر لكنه تغلّب على الإغراء من خلال شنق البشر.

تعلم نائب الملك بعد ثماني سنوات من وصوله أن يسرق، أن يأكل صلصة الفلفل وخنزير، «غينيا» المتبّل وأن يدرس تقويرات الفساتين بمنظار الأوبرا. كانت السفينة التي أحضرته من «فلبريزو» تحتوي امرأة عارية كتمثال في مقدم السفينة.

1769: ليما

لا بيريكولي

تعرض «ميكايلا فيليكاس» صدرها مثل جميع نساء ليما لكنها تخفي قدميها، تحميهما بحذاء صغير من الساتان الأبيض، وتستمتع كالأخريات بارتداء الياقوت الأزرق والأحجار الكريمة على بطنها، حتى لو كانت مصنوعة من المعجون.

«ميكايلا»، ابنة هجين فقير من الإقليم، دارت حوانيت هذه المدينة لتحظى بمتعة المشاهدة أو الإحساس بحرير «ليون» وصوف «فلاندرز» وعضّت شفتيها حين شاهدت عقداً من الذهب والألماس حول عنق قطة سيدة كريمة النسب.

دخلت ميكايلا المسرح وتحولت إلى ملكة وحورية وصحن موضة أو إلهة طالما يستمر العرض. هي الآن المحظية الأولى طوال النهار وطوال الليل أيضاً. تحيط بها غيمة من العبيد السود، لا يُشكُّ بمجوهراتها ويقبل الكونتات يديها.

تنتقم سيدات ليما منها بتسميتها «بيريكولي». وهكذا عمدها نائب الملك محاولاً أن يقول بيرا كولا أو «العاهرة الهجينة» بفمه الأدرد. قالوا إنه شتمها هكذا كنوع من الرقية وهو يحملها على الدرج إلى فراشه المهيب لأنها أثارت فيه سعاراً خطيراً واحتراقات وإحساسات رطبة وجافة أرجعته، مرتجفاً، إلى سنوات شبابه.

ساعة الوجبة الخفيفة

يبدأ نشاط «ليما» في الساعة السابعة مع بائعة الحليب. خلفها في عطر من الطهارة يجيء بائع شاي الأعشاب.

في الثامنة يعبر بائع خثارة اللبن.

في التاسعة يقدِّمُ صوتُ حلوى من القرفة.

في العاشرة يبحث «الطامال[1]» عن أفواه ليمتعها.

الحادية عشرة هي ساعة البطيخ وحلوى جوز الهند والذرة المشوية.

ظهراً الموز وفاكهة الحب، الأناناس، الشيريموياز الحليبية ذات المخمل الأخضر، الأفوكاته التي تعد بنواة ناعمة تتنزه عبر الشوارع.

---

[1] طعام مكسيكي معدّ من دقيق الذرة ومن لحم مفروم مع الفلفل الأحمر.

في الواحدة تأتي كعكات العسل الحار.
في الثانية يقدم مدرب صقور كعكاً محلّى يسبب الاختناق وخلفها تأتي كعكات الذرة السكرية المغطّسة بالقرفة بحيث لا يستطيع لسان أن ينساها.
في الثالثة يظهر بائع «الأنتيكوشوس»، القلوب المحطمة المشوية، يتبعه بائعو العسل والسكر.
في الرابعة يبيع بائع الفلفل البهارات والنار.
السمك النيء المغطّس بالكلس، يحددّ الساعة الخامسة.
في السادسة، البندق.
في السابعة فطائر المازامورا المخبوزة على شكل حرفT على سطوح قرميدية مفتوحة.
في الثامنة بوظة بنكهات وألوان مختلفة، هبات ريح منعشة تفتح أبواب الليل على مصاريعها.

1771: مدريد

قمة ملكية

وصلت إلى القصر أقفاص كبيرة شُحِنَتْ من صحاري بيرو البرّاقة. قرأ الملك الإسباني تقرير المسؤول الذي أرسلها: إنها المدفن الكامل لزعيم من الموشيكا (Mochica) الذين هم أكثر قدماً من الآنكيين (Incas) المنحدرين من الموشيكاس والشيموس (Chimùs) الذين يعيشون الآن في فقر مدقع وثمة قلة منهم في أوديتهم التي يسيطر عليها بعض الأسبان الجشعين.
فُتِحت الصناديق وظهر ملك عمره ألف وسبعمائة عام عند قدمي تشارلز الثالث.كان يمتلك أسناناً وأظافر وشعراً لا يزال سليماً ولحماً من البرشمان ملصقاً على عظامه وتتوهج ملابسه الملكية ذهباً وريشاً. كان يرافق الزائر القادم من بعيد صولجانه، إله الذرة المكلل بالنباتات وأيضاً قامت بالرحلة إلى مدريد الأصص التي دفنت معه.
تأمل ملك أسبانيا مصعوقاً السيراميك الذي يحيط زميله الميت. كان ملك «الموشيكاس» يستلقي وسط المتع. كان السيراميك يجسّد عاشقين يتعانقان ويدخلان بعضهما بألف طريقة غافلين عن الخطيئة الأصلية،مستمتعين،دون أن يعرفا أنه بسبب فعل العصيان هذا حُكِم علينا أن نعيش على الأرض.

1771: باريس

عصر التنوير

تفسخت الجدران المهيبة للكاتدرائيات والقصور في أوروبا، هجمت البورجوازية مسلحة بالآلات البخارية ومجلدات *الموسوعة* وبدعامات الثورة الصناعية المقتحمة التي لا يمكن إيقافها.

تبرعمت في باريس الأفكار المتحدية، التي بطيرانها فوق رؤوس *العامة*، وضعت ختمها على القرن. رفع عصر التنوير، عصر *غضب التعلّم وحمّى الذكاء*، من قيمة العقل البشري، عقل الأقلية التي تفكر، ضد عقائد الكنيسة القطعية وامتيازات النبلاء. وكانت الأحكام والاضطهاد والمنفى تحفّز أولئك الأبناء المتعلمين للفلاسفة الإنكليز ولديكارت المبدع *الذي بدأ من الشك في كل شيء*.

ليس ثمة موضوع خارج البحث بالنسبة لفلاسفة التنوير من قانون الجاذبية إلى التبتل الكهنوتي. استحقت مؤسسة الإسترقاق هجومهم المتواصل. العبودية تناقض الطبيعة كما يقول دونيس ديدرو (Denis Diderot) مدير الموسوعة: القاموس الموثّق *للعلوم والفنون والمهن*. لا يمكن أن يكون الإنسان ملكاً لسيده للسبب نفسه الذي يمنع أن يكون الطفل ملك والده أو المرأة ملك زوجها أو الخادم ملك سيده أو الرعية ملك الملك وأي شخص يفكر خلاف ذلك يخلط بين الأشخاص والأشياء. قال هلفيتيوس[1] (Helvitus): *لم يصل إلى أوروبا برميل سكّر ليس مصطبغاً بالدم*. وقابل كانديد، شخصية فولتير، في سورينام عبداً التهمت يده طاحونة سكر وقطعت رجله لأنه حاول الهرب.

«*بهذا الثمن تأكلون السكر في أوروبا*».

إذا اعترفنا أن السود كائنات بشرية فإننا نعترف في الوقت نفسه، كم هو قليل ديننا المسيحي كما يقول مونتسكيو. وقال الأب رينال إن أي دين يبجّل العبودية يستحق المنع، أما جان جاك روسو فقد قال إن العبودية تجعله يشعر بالعار من كونه إنساناً.

1771: باريس

الفزيوقراطيون

قال الفزيوقراطيون[2] إن العبودية هي أكثر من جريمة، إنها خطأ اقتصادي. في العدد الأخير من صحيفة سيتزن افيميريدس قال «ديوبانت دي نيمور»[3] إن العبودية تديم أساليب الزراعة العتيقة الطراز وتبطئ تطور مستعمرات فرنسا في جزر الآنتيل وفي بر أميركا. ورغم الاستبدال المستمر لقوة العمل المصروفة فإن العبودية تعني ضياع وانخفاض رأس المال المُستثمر. اقترح ديوبانت دي نيمور أن تضع الحسابات في ذهنها الخسارات الناجمة عن الموت المبكر للعبيد وعن النيران التي يضرمها الهاربون وكلفة الحرب المتواصلة ضدهم، والتحضير السيء المرعب للمحاصيل والأدوات التي يحطمها الجهل أو الإرادة السيئة. قال إن الإرادة السيئة والكسل هما

---

[1] فيلسوف فرنسي.

[2] أتباع المذهب الفزيوقراطي، في الاقتصاد السياسي، وهو مذهب نشأ في فرنسا في القرن 18 وقال أصحابه بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هي مصدر الثروة كلها.

[3] رجل دولة فرنسي.

السلاحان اللذان يستخدمهما العبد ليعيد جزءاً من شخصيته سرقه السيد وتنتج عـدم براعته عن فقدانه المطلق لحافز تطوير ذكائه. إنها العبودية، لا الطبيعة، هي التي تصنع العبد.

إن قوة العمل الحرة، هي التي تبرهن على أنها منتجة بشكل فعّال كما يقول فلاسفة المدرسة الفيزيوقراطية الاقتصاديون. ويعتقدون أن الملكية مقدسة لكنها لا تستطيع أن تنجز إنتاج القيمة بشكل كامل إلا في إطار الحرية.

1771: باريس

يشرح وزير المستعمرات لماذا يجب ألا يُحرر الخلاسيون من حالتهم الإذلالية الفطرية

اعتقد جلالته أن فضلاً كهذا سيقضي على الفروقات التي زرعتها الطبيعة بين البيض والسود وأن الرأي السياسي المسبق كان حريصاً على صيانة مسافة كهذه لن يقدر الملونون والمنحدرون منهم على ردمها، وأخيراً من مصلحة النظام الجيد ألا يضعف حالة الذل الفطرية في النوع في أية درجة استمرت وهو رأي مسبق مفيد جداً كون حالة الذل في قلب العبيد وتسهم بطريقة رئيسية في السلام الناتج للمستعمرات.

1772: كاب فرانسي

مستعمرة فرنسا الأغنى

أنكر الرهبان الشعائر الأخيرة لمغنية «الكاب كوميدي» المدموزيل مورانج التي ندبت «هاييتي» فقدانها في ستة مسارح وأكثر من ست غرف نوم. لا تستحق أية فنانة ميتة أن يُصلى من أجلها لأن المسرح مهنة سيئة مشجوبة إلى الأبد، لكن أحد الممثلين يحمل جرساً بيد وصليباً على الصدر ويرتدي رداء أسود وذا شعر قصير لامع يتقدم مغنياً المزامير باللاتينية على رأس حاشية الفنانة.

قبل أن تصل الحاشية إلى المقبرة طهّرت الشرطة الجهير الأول وشركاءه الذين تلاشوا في لحظة لكن البشر حموهم وأخبأوهم. من لا يشعر بالعطف على أشخاص العرض أولئك الذين يهوّون كسل هاييتي الذي لا يطاق بنسائم الجنون الثقافي؟

على مسارح هذه المستعمرة الفرنسية الأغنى، يُصفَّق لمسرحيات افتتحت لتوها في باريس والمسارح هي مثل مسرح باريس أو على الأقل ترغب أن تكون كذلك.

هنا يجلس الجمهور وفقاً للون الجلد: العاجي في الوسط والنحاسي في اليمين والأبنوسي وبعض العبيد الأحرار في اليسار.

يبحر الأغنياء في المسارح تحت رفيف المراوح بينما الحرارة تطلق طوفانات تحت شعرهم المستعار «المبودر». تشبه كل امرأة غنية مخزن مجوهرات: يصنع الذهب واللآلئ والألماس إطاراً مذهلاً للأثداء الرطبة التي تقفز خارج الحرير طالبة الطاعة والرغبة.

يعيش أقوى مستعمري هاييتي محروسين من الشمس وقرني الديّوث، لا يغادرون المنزل إلا بعد الغروب حين تقلُّ قسوة الحرارة وعندئذ يتجرأون على إظهار أنفسهم على محفات أو عربات تجرها أحصنة عديدة.والسيدات مشهورات لأنهن ينغمسن في كثير من الحب أو كثير من الترمّل.

1772: ليوغان

زابيث

منذ أن تعلّمت السير بقيت هاربة. قيّدوا كعبيها بأغلال ثقيلة ونمت مغلولة لكنها قفزت ألف مرة من فوق السياج وألف مرة قبضت عليها الكلاب في جبال «هاييتي».

وشموا خدها بشعار ملوك فرنسا[1] مستخدمين الحديد الحامي وكبّلوها بياقة وأغلال حديدية وسجنوها في طاحونة السكر حيث وضعت أصابعها في الطاحنة وفيما بعد قطعت الضماد بأسنانها. ولكي تموت من الحديد قيدوها ثانية وهي الآن تحتضر وتنشد اللعنات.

زابيث،المرأة الحديدية،هي ملك المدام غالبو دو فور،التي تعيش في نانت.

1773: سان ماتيو هويتزيلو بوشوكو

قوة الأشياء

إن كنيسة هذه القرية حطام يدعو إلى الأسف. قرّر الكاهن الذي وصل حديثاً من إسبانيا أن الله لا يستطيع أن يواصل الحياة في منزل بائس ومحطم كهذا وبدأ العمل. لكي يشيد جدراناً صلبة أمر الهنود أن يحضروا أحجاراً من الآثار القريبة التي تعود إلى زمن الأوثان.

لم يجبرهم التهديد أو العقاب على طاعة الأمر. رفض الهنود أن يحركوا الأحجار التي ما تزال تستلقي حيث عبد أجداد أجدادهم الآلهة. لم تكن تلك الأحجار تعد بأي شيء لكنها منعت النسيان.

1774: سان أندريس إتزابان

ليكن الإله معكم

أجبر الهنود على البصاق في كل مرة يذكرون فيها آلهتهم وأن يرقصوا رقصات جديدة: رقصة الغزو ورقصة المغاربة والمسيحيين التي تحتفل بغزو أميركا وإذلال الكفار.

---

[1] زهرة الزنبق.

أجبروا على تغطية أجسادهم لأن الصراع ضد الأوثان هو أيضاً صراع ضد العري، العري الخطير الذي يسبب، استناداً إلى كبير أساقفة غواتيمالا، *ضرراً كبيراً في دماغ* كل من يشاهده. أجبروا أن يتلوا غيباً صلاة التسبيح والسلام المريمي والصلاة الربانية.

هل أصبح هنود غواتيمالا مسيحيين؟

ليس كاهن كنيسة سان أندريس إتزابان متأكداً جداً؟ قال إنه شرح سر الثالوث المقدس من خلال طي قماشة وعرضها أمام الهنود: *انظروا، إنها قماشة واحدة مطوية ثلاث طيات، بهذه الطريقة الله هو واحد في ثلاثة*. قال هذا أقنع الهنود أن الله مصنوع من القماش.

استعرض الهنود العذراء على منصات مريّشة. كانوا يسمّونها جدة الضوء ويطلبون منها كل ليلة أن يُحْضِرُ الغَدُ الشمس. لكنهم يبجّلون بإخلاص أكبر الثعبان الذي تسحقه تحت قدمها. يقدمون البخور للثعبان، الإله القديم الذي يقدم محصول ذرة وافر وصيد أيّل جيداً ويساعدهم في قتل الأعداء. ويعبدون التنين أكثر من القديس جورج ويغطونه بالأزهار. أما الأزهار الموضوعة على قدمي الفارس سانتياغو تبجّل الحصان لا الحواريّ. يتعرفون على أنفسهم في المسيح، الذي حكم عليه بلا دليل مثلهم، لكنهم يعبدون الصليب لا كرمز لتضحيته، بل لأنه يمتلك شكل اللقاء المثمر بين المطر والتربة.

1775: غواتيمالا سيتي

أسرار مقدسة

كان الهنود لا يؤدون شعائر الفصح إلا إذا تزامنت مع أيام المطر والحصاد أو الزراعة. أصدر كبير أساقفة غواتيمالا «بدور كورتيز لاراز» مرسوماً جديداً يؤكد بأن النسيان يعرّض خلاص الروح للخطر.

ولم يكن الهنود يجيئون إلى القداس ولم يستجيبوا للاستدعاءات أو للجرس. كان الذين يبحثون عنهم يمتطون الأحصنة في القرى والحقول ويجرونهم بالقوة. كان يعاقب على الغياب بثماني جلدات، لكن القداس كان يسيء إلى آلهة المايا وكان هذا يخيف أكثر من السوط. كان القداس يقاطع خمسين مرة في العام العمل في الحقول، الاحتفال اليومي بالصداقة مع الأرض. وكان الهنود يعتقدون أن مرافقة دورة موت وانبعاث الذرة خطوة خطوة طريقة للصلاة وأن الأرض، المعبد الشاسع، هي شهادتهم اليومية عن معجزة الحياة التي تعاود الولادة. بالنسبة لهم الأرض كلها كنيسة، جميع الغابات معبد.

كان بعض الهنود يجيئون إلى كرسي الاعتراف ليتجنبوا عقوبة المشهّرة حيث يتعلمون الخطيئة، ويركعون أمام المذبح، ويأكلون إله الذرة عن طريق العشاء الرباني. لكنهم كانوا يحضرون أولادهم إلى نافورة بركة التعميد بعد أن يقدموهم عميقاً في الغابة للآلهة القديمة. كانوا يحتفلون أمامهم بمتع الانبعاث وكل ما يولد يولد ثانية.

1775: هويهويتينانغو

الأشجار التي تعرف وتنزف وتتحدث

دخل الراهب هويهويتينانغو وسط ضباب من البخور. ظن أن الكفار يقدمون الولاء بهذه الطريقة للإله الحقيقي، لكن الأمهات غطين أطفالهن الجدد بالملابس كي لا يمرضهم الراهب حين ينظر إليهم. ليست سحب البخور من أجل الامتنان أو الترحيب، بل من أجل الرقية. أحرق الراتينج الصمغي والتف الدخان مرتفعاً ومتضرعاً لآلهة المايا القديمة كي توقف الطواعين التي أحضرها المسيحيون.

إن شجرة الراتينج (الكوبال) التي تنزف بخوراً هي شجرة مقدسة، مقدسة أيضاً شجرة السيبة التي تصبح امرأة في الليل ومقدسة شجرة الأرز وجميع الأشجار التي تعرف كيف تصغي لآلام البشر.

1775: كادو سابي

بوني

فتحت زخة من الرصاص الطريق للجنود الثمانمائة القادمين من هولندة. طقطقت «كادو سابي»، قرية العبيد الهاربين وسقطت. خلف ستار من الدخان والنار اختفت آثار الدماء عند حافة الغابة.

قرر العقيد السويسري «فورجو»، متطوع الحروب الأوربية، أن يخيم بين الأنقاض. صدرت بعد الغروب أصوات من الدغل وأرغم صفير الطلقات الجنود على الانبطاح.

أمضى الجنود الليل محاطين بالطلقات واللعنات وأناشيد التحدي والنصر. كان العبيد الهاربون اللامرئيون ينفجرون ضحكاً حين يعدهم العقيد «فورجو» وهو منبطح، بالحرية والطعام مقابل الاستسلام.

صرخ ألف صوت من بين الأوراق: *أيها الكلب الجائع! أيها الفزّاعة!*

كانت الأصوات تدعو الجنود الهولنديين *العبيد البيض* وتعلن أن الزعيم «بوني» سيصبح حالاً سيد أرض «سورينام» كلها.

حين فك الفجر الحصار، اكتشف العقيد «فورجو» أن رجاله لم يُجرحوا بالرصاص بل بالأحجار الصغيرة والأزرار والقطع النقدية وأن العبيد الهاربين أمضوا الليل وهم ينقلون في العربات أكياس الأرز والمنيهوت والبطاطا إلى الغابة، بينما منع وابل القذائف والكلمات الهولنديين من الحركة.

كان بوني مسؤولاً عن المناورة. لم يكن بوني، قائد العبيد الهاربين، موشوماً. هربت أمه العبدة من سرير السيد ومنحته ولادة حرة في الغابة.

1776: قلعة ساحل كاب

خيميائيو تجارة الرقيق الأفريقية

أمضى الكابتن بيكليك كلارك وقتاً طويلاً وهو يقايض على ساحل أفريقيا حتى أنتنت السفينة. أمر بحارته أن يخرجوا العبيد الذين اشتُروا إلى سطح السفينة كي يستحموا، لكن لم تكد تُزال أغلالهم حتى قفزوا في البحر وسبحوا باتجاه أرضهم ليلتهمهم التيار.

طعن فقدان البضاعة شرف الكابتن كلارك، الراعي القديم لهذه القطعان، وهيبة تجار الرقيق في جزيرة «رود».

افتخرت المسافن الأميركية الشمالية ببناء أكثر السفن أماناً من أجل تجارة غينيا. بُنيت سجونها العائمة بشكل فعال حيث حصل تمرد واحد للعبيد في أربع سنوات ونصف، وهو معدّل أصغر بأربع مرات من المعدل الفرنسي، ويصل إلى نصف ما يمكن أن تتباهى به مشاريع إنكلترة المتخصصة.

امتلكت المستعمرات الثلاث عشرة التي ستصبح الولايات المتحدة كثيراً من الأشياء التي تشكر عليها تجار رقيقها. لقد تحول شراب الرم، الدواء الجيد للروح والجسد، إلى عبيد على الساحل الأفريقي، ثم أصبح أولئك السود دبس سكر في جزيرتي جامايكا وباربادوس الآنتيليتين. من هناك يتجه دبس السكر شمالاً لتحوّله آلات التقطير في «ماسّاتشوسيتس» إلى رم، وبعد ذلك يعبر الرم المحيط ثانية إلى أفريقيا. كانت كل رحلة تتوّج بمبيعات التبغ والأدوات الحديدية وألواح الخشب والطحين واللحم المقدد وبشراء البهارات في الجزر. تذهب بقايا السود إلى مستعمرات جنوب كارولينا وجورجيا وفيرجينيا.

هكذا تدر تجارة الرقيق الأرباح للبحارة والتجار والمرابين ومالكي المسافن وآلات التقطير والمناشر ومصانع تقديد اللحم ومطاحن الطحين والمستعمرات وشركات التأمين.

1776: بنسلفانيا

بين

عنوانه هو *الحس العام*. نُشر الكرّاس باكراً هذا العام وانتشر في المستعمرات الأميركية الشمالية كالماء أو الخبز. قال المؤلف الإنكليزي توم بين الذي جاء إلى هذه الأراضي منذ عامين من أجل إعلان الاستقلال دون لغط: *إن حكومة خاصة بنا حق طبيعي لنا، فلماذا نتردد؟*

قال بين: ثمة شيء سخيف جداً *في تأسيس نظام ملكي*. يرى بين أن الحكومة هي في أفضل الحالات شر لا بد منه، وهي في أسوأها شر لا يُطاق، أما الملكية فهي أسوأ الحالات. قال إن رجلاً واحداً شريفاً هو *أكثر قيمة من جميع الوحوش المتوجين الذين سبق أن وجدوا* وسمّى جورج الثالث *الوحش الملكي لبريطانيا العظمى*.

قال إن الحرية تصطاد بشكل وحشي في جميع أنحاء العالم. تُعتبر الحرية في أوروبا أجنبية وطردتها آسيا وأفريقيا منذ وقت طويل وحذرها الإنكليز طالبين منها الخروج. حثَّ «بين» المستعمرين الأميركيين أن يحوّلوا هذه التربة إلى ملاذ للأحرار: *آه! استقبلوا اللاجئين وجهّزوا مع مرور الوقت ملجأ للبشرية.*

1776: فيلادلفيا

الولايات المتحدة

لم تعر إنكلترة انتباهاً كبيراً إلى مستعمراتها الثلاث عشرة الواقعة على الساحل الأطلسي لأميركا الشمالية. وذلك لأنها لم تمتلك ذهباً، فضة أو سكراً. لم تكن أساسية أبداً بالنسبة لها ولم تمنعها إنكلترة أبداً من النمو. سارت وحيدة وهكذا كان الأمر منذ ذلك الزمن القديم حين خطا الحجاج لأول مرة على الأراضي الحجرية التي سموها «نيوانجلند»، وكانت التربة صلبة إلى درجة أنه توجب عليهم أن يزرعوا البذار من خلال إطلاق النار أو هكذا قيل. أما الآن ينبغي على المستعمرات الإنكليزية الثلاث عشرة التي تطورت جيداً أن تهرب.

الولايات الثلاث عشرة جائعة للغرب. حلم كثير من الرواد بالانطلاق إلى الجبال ببندقية وفأس وحفنة من الذرة لكن التاج البريطاني رسم الحدود على قمم «جبال أبلاش» وحفظ الأرض التي وراءها للهنود. لكن المستعمرات الثلاث عشرة جائعة لعالمٍ. كانت سفنها تجوب جميع المحيطات لكن التاج البريطاني أجبرها على شراء ما يريدها أن تشتريه وأن تبيع حين يأمرها أن تبيع.

حطمت المستعمرات القيود بهزّة واحدة ورفضت أن تواصل دفْع الطاعة والنقود إلى ملك جزيرة بعيدة. رفعت علمها الخاص وقررت أن تسمي نفسها الولايات المتحدة الأميركية. رفضت الشاي وأعلنت أن الرم، المنتج القومي، مشروب وطني.

قال إعلان الاستقلال: *خُلِقَ جميع البشر مُتَسَاوين*، لكن العبيد السود الذي يبلغ عددهم نصف مليون لم يسمعوا بهذا أبداً.

1776: مونتيسيلو

جيفرسون

كان كاتب إعلان الاستقلال، وثيقة ولادة الولايات المتحدة، رجلاً يمتلك ألف موهبة واهتمام.

كان قارئ مقاييس درجة الحرارة ومقاييس الضغط الجوي والكتب، الذي لا يتعب، يبحث ويجد. كان يطارد وحي الطبيعة ويكتب ليعانق أبعاد الفكر البشري. جمع مكتبة خرافية وكوناً من الأحجار والمستحاثات والنباتات وعرف كل ما يمكن أن يعرف عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ونحو اللاتينية وبنية اللغة اليونانية وتنظيم المجتمع طوال التاريخ. عرف كل شيء عن أرضه فيرجينيا، ابنَ وجَدٍّ كل عائلة، كل ورقة عشب، واطلع على جميع الإبداعات التقنية في العالم.

استمتع في تجريب الآلات البخارية وأنماط المحاريث الجديدة وأساليب أصيلة لإنتاج الزبدة والأجبان. تخيَّل منزله في «مونتيسيلو» وصممه وبناه دون أي خطأ.

كان البيوريتانيون يحصون السكان بـ«الأرواح»، لكن جيفرسون أحصاهم بـ«أفراد النوع البشري». إن السود متساوون تقريباً داخل النوع، يمتلكون ذاكرات جيدة، لكنهم يفتقدون للخيال ولا يستطيع ذكاؤهم الفقير أن يفهم إقليدس أبداً. بشّر أرستقراطي فيرجينيا، جيفرسون، بالديمقراطية، ديمقراطية المالكين، وحرية الفكر والدين لكنه دافع عن تراتبية الجنس واللون. لم تدخل في خططه التربوية النساء أو الهنود أو السود. شجب جيفرسون الرق وكان وسيبقى مالكاً للعبيد. كانت النساء الخلاسيات تجذبنه أكثر من النساء البيض لكن فقدان النقاء العرقي كان يرعبه. واعتقد أن تمازج الدماء هو أسوأ الإغراءات التي تزعج المستعمرين البيض.

1777: باريس

فرانكلين

وصل أشهر الأميركيين الشماليين إلى فرنسا في مهمة يائسة. جاء بنجامين فرانكلين يطلب المساعدة ضد القوات الإنكليزية المستعمرة التي احتلت فيلادلفيا ومعاقل وطنية أخرى. مستخدماً كل ثقل هيبته الشخصية، اقترح السفير أن يضرم نار المجد وينتقم بصدور فرنسية.

ما من ملك أو إنسان عادي لم يسمع بفرانكلين منذ أن أطلق طائرة ورقية في الهواء واكتشف أن البروق السماوية والرعود لا تعبّر عن غضب الله بل عن الكهرباء في الجو. انبثقت اكتشافاته العلمية من الحياة اليومية. إن الأكثر تعقيداً يكمن في الأكثر بساطة: الفجر ونماذجه التي لا تتكرر أبداً، الزيت الذي يُصَبُّ على الماء ويهدئ أمواجه، الذبابة التي إذا أغرقت في الخمرة تعاود الحياة في ضوء الشمس. وبعد أن لاحظ أن الجسد يبقى طرياً في أيام الحرارة الخانقة، تصوّر فرانكلين نظاماً لإنتاج التبريد من خلال التبّخر. اخترع أيضاً وصنع مدافئ وساعات وآلات موسيقية مثل الهارمونيكا الزجاجية التي ألهمت «موزارت». وبما أن الاستبدال المستمر للنظارة، من أجل القراءة، يضجره مثل الرؤية البعيدة، قطع عدسات وأطّرها مبتكراً النظارة الثنائية البؤرة.

لكن فرانكلين أصبح أكثر شهرة حين لاحظ أن الكهرباء تنشد نقاطاً حادة وهزم الصاعقة واضعاً قضيباً حديدياً مدبباً على قمة برج. ولأن فرانكلين كان ناطقاً باسم المتمردين الأميركيين أصدر ملك بريطانيا مرسوماً يفيد أن القضبان الإنكليزية المانعة للصواعق يجب أن تمتلك رؤوساً مدوّرة.

لو أنه وُلد امرأة

من بين أشقاء وشقيقات بنجامين فرانكلين الستة عشر كانت جين تشبهه أكثر في الموهبة وقوة الإرادة.

ولكن في السن التي غادر فيها بنجامين المنزل ليشق طريقه الخاص تزوجت «جين» سرّاجاً فقيراً قبلها دون مَهْر وأنجبت بعد عشرة أشهر ولدها الأول. منذ ذلك الوقت فصاعداً وطوال ربع قرن، كانت جين تنجب طفلاً كل عامين. توفي بعض الأطفال وكانت كل وفاة تحدث جرحاً في صدرها. الذين عاشوا احتاجوا الغذاء والمأوى، التعليم والعزاء. أمضت «جين» ليالي بأكملها تهدهد أولئك الأطفال الذين كانوا يبكون وتغسل أكواماً من الصحون وتدرس الأبجدية وتقوم بالأعمال الروتينية وتكدح إلى جانب زوجها في عمله وتخدم ضيوفاً يساعد الأجر الذي يدفعونه على ملء إناء الحساء. كانت جين زوجة مخلصة وأرملة نموذجية وحين كبر الأطفال تولت مسؤولية الاعتناء بوالديها المريضين وببناتها غير المتزوجات وبأحفادها الميتّمين.

لم تعرف جين أبداً متعة السباحة في بحيرة مندفعةً فوق السطح ممسكةً بخيط طائرة ورقية كما كان بنجامين يفعل مستمتعاً رغم تقدمه في السن. لم تمتلك جين أبداً وقتاً للتفكير ولم تسمح لنفسها بالشك. ظل بنجامين عاشقاً متلهفاً لكن جين لم تعرف أن الجنس ينتج أي شيء غير الأولاد.

إن بنجامين الذي أسس أمة من المخترعين، عظيم في جميع العصور، أما جين فهي امرأة عصرها مثل معظم نساء جميع العصور. قامت بواجبها على هذه الأرض وكفّرت عن حصتها من اللوم في اللعنة الإنجيلية. فعلت ما بوسعها لتحمي نفسها من الجنون ونشدت عبثاً، قليلاً من الصمت.

لن توقظ حالتها أي اهتمام لدى المؤرخين.

1778: فيلادلفيا

واشنطن

كان الأول بين الجنود هو أيضاً الأكثر هيبة بين المزارعين وأسرع الخيالين وأبرع الرماة بين الصيادين. لم يساعد أحداً ولم يسمح لأحد أن ينظر في عينيه ولم يُسَمِّه أحد «جورج». لم تخرج من فمه مراثٍ أو شكاوى وكان دائماً مثال رباطة الجأش والجسارة رغم معاناته من القروح وآلام الأسنان والحمّى.

انتزع جيش جورج واشنطن مدينة «فيلادلفيا» من البريطانيين بمساعدة رجال وأسلحة من فرنسا. أصبحت الحرب من أجل استقلال الولايات المتحدة بين المعاطف السود والمعاطف الحمر طويلة ومؤلمة.

1780: بولونا

كالفيخيرو يدافع عن الأراضي الملعونة

ألف فرانسيسكو خافيير كالفيخيرو أحد اليسوعيين الذين طردوا من أميركا كتابه: *التاريخ القديم للمكسيك* في إيطاليا. روى الكاهن في أربعة مجلدات *حياة الشعب والأبطال* محدداً فجر

الوعي التاريخي والقومي في السكان الأصليين الذين بدءوا يسمون أسبانيا الجديدة المكسيك ولفظوا سابقاً كلمة مسقط الرأس بكبرياء. أخذ الكتاب على عاتقه الدفاع عن أميركا التي كانت تتعرض لهجوم باريس وبرلين وأدنبرة كثيراً في تلك السنوات: *إذا كانت أميركا لا تمتلك حنطة فإن أوروبا أيضاً لا تمتلك ذرة. . إذا كانت أميركا لا تمتلك رمّاناً أو ليموناً فإنها تمتلك الآن، لكن أوروبا لم تمتلك أبداً ولا تمتلك ولا تستطيع أن تمتلك الشيريمويياز والأفوكاته والموز والشيكوذابوتيس.*

هاجم كالفيخيرو ببراءة ومودة معدّي الموسوعات الذين يصفون العالم الجديد بأنه متجر الأشياء المقيتة. قال الكونت «بوفون»[1] إن السماوات في أميركا شحيحة والأمطار تفسد التربة والأسود صلعاء وصغيرة وجبانة والتابير فيل له جيب صدري والخيول والخنازير والكلاب تصبح هناك مسوخاً.أضاف أن الهنود باردون كالأفاعي ولا يمتلكون أرواحاً ولا حرارة للإناث. تحدّث فولتير أيضاً عن أسود وبشر بلا شعر وشرح البارون مونتسكيو أن البلدان الدافئة تنتج شعوباً تستحق الازدراء. ولقد أهين الأب غيوم رينال لأن سلاسل الجبال في أميركا تمتد من الشمال إلى الجنوب بدل أن تمتد من الشرق إلى الغرب . وصوّر زميله البروسي كورني دابو الهنود الأميركيين كوحش مترهل وضيع. ورأى دابو أن المناخ هناك يجعل الحيوانات مريضة ودون أذيال والنساء دميمات لا يميزن عن الرجال وليس للسكر طعم ولا نكهة للقهوة.

1780: سانغارارا

أميركا تشتعل من الجبال إلى البحر

مرّ قرنان منذ أن شقّت شفرة الجلاّد عنق توباك آمارو، آخر ملوك الآنكا، في «بلازا مايور» في كوزكو. اكتملت الأسطورة التي ولدت من موته وستنتشر النبوءة: يعود الرأس إلى الجسد ويهاجم توباك آمارو الذي ولد من جديد.

دخل خوسيه غابرييل كوندوركانكوي،توباك آمارو الثاني،إلى قرية «سانغارارا» على إيقاع موسيقى أصداف بحرية عملاقة *ليخلص الحكومة السيئة من دبابير كثيرة، من اللصوص الذين يسرقون العسل من أقراصنا*. احتشد خلف حصانه الأبيض جيش يائس وقاتل هؤلاء الجنود العراة بالمقاليع والعصي والسكاكين. كان معظمهم هنودا *سفحوا حياتهم وتقيأوا دما* في أعماق بوتوسي أو أحرقوا أنفسهم في المشاغل والمزارع.

وسط رعد الطبول وسحب الرايات توج خمسون ألف رجلا السلاسل الجبلية: توباك آمارو، محرر الهنود والسود، *السوط المسلط على الذين وضعونا في حالة احتضار يتقدم ويدمر*. أثار رسل مسرعون تمرد الجماعات من أودية كوزكو إلى سواحل «آريكا» وحدود «توكيومان» *لأن الذين يسقطون في هذه الحرب متأكدون من الانبعاث فيما بعد.*

---

[1] كاتب وعالم طبيعي فرنسي.

انضم مهجنون كثيرون إلى التمرد وبعض الكريبوليين أيضا، ذوي الدم الأوروبي الذين ولدوا في أميركا.

1780: تونغاسوكا

توباك آمارو الثاني

رفع أنطونيو أبلتياس، عبد الحاكم «أرياغا» حبلا قويا، حبل جلاد، حبل بغل في ساحة بلدة «تونغاسوكا» وطوال أسبوع هدهدت الريح جسد «أرياغا» رئيس الهنود، مالك العبيد ومالك أنطونيو.

اليد التي ترسم هي اليد التي شنقت. كان أنطونيو أبليتاس يرسم صورة الرجل الذي أمر بتحرير جميع العبيد في «بيرو». ولأنه لا يوجد منصب، أسند اللوح على بعض أكياس الذرة. كانت فرشاة أنطونيو، شانق سيده، والذي لم يعد عبدا، تجيء وتروح على الخشب الخشن خالقة اللون. كان توباك آمارو يأخذ وضعية على حصان في العراء. لم يكن يرتدي سترته المخملية المعتادة أو قبعته ذات الزوايا الثلاث. كان وارث «أباطرة الآنكا» يرتدي الشارات الملكية لابن الشمس وكمثل أسلافه توضعت على رأسه العمرة الريشية والتاج الثلاثي وشرابة متدلية وعلى صدره شمس ذهبية ويحمل بإحدى قبضتيه صولجان السلطة الذي يتألق بالريش. ظهرت حول الفارس الثابت مشاهد النصر الأخير على القوات المستعمرة. قفز من يد أنطونيو جنود صغار وسحب دخان، هنود في حالة حرب وألسنة لهب تلتهم كنيسة «سانغارارا» وأسرى يهربون من السجن.

ولدت اللوحة بين معركتين أثناء الهدنة. كان توباك وحصانه يأخذان وضعية لبعض الوقت وكانا ثابتين كالحجر حتى أن أنطونيو تساءل إن كانا يتنفسان. انتشرت ألوان متألقة على اللوح ببطء شديد وانغمس الرسام في لحظة الهدنة الطويلة تلك. وهكذا نجا الفنان وموديله من الزمن، يدرآن، بينما يستمر العمل، الهزيمة والموت.

1780: بوماكانشي

المشغل سفينة ضخمة

أبحرت فوق الأراضي الأميركية سفينة شراعية لم تتوقف أبدا عن التقدم يحركها ليلا ونهارا هنود يجدفون نحو ميناء لن يصلوا إليه أبدا. كان الهنود يجدفون ويجدفوان نحو الساحل الذي كان يتراجع وكان السوط يوقظهم حين يغلبهم النعاس.

كان الرجال والنساء الأطفال والعجائز يغزلون وينسجون ويحضرون القطن والصوف في المشاغل. وعدت القوانين بالساعات والأجور لكن الهنود المرميين في أحياء أو سجون العبيد الكبيرة تلك، يغادرونها حين تحين ساعة دفنهم.

كان توباك آمارو يخرج في جنوب «كوزكو» ويحرر العبيد المقيدين إلى الأنوال. حرمت رياح التمرد الكبير نوّاب الملوك في ليما وبوينس آيرس وبوغوتا من النوم.

قصيدة استعمارية: إذا انتصر الهنود...

سيجعلوننا نكدح
كما يكدحون
وكما نسلبهم
سوف يسلبوننا.
نتوقّع جميعنا أن نفقد
منزلا، مزرعة أو امتيازات،
لا أحد سيحظى بألقاب الشرف.
وسيصبح الجميع لا أحداً.
سنصبح ملكاً لهنود أحرار
وسيركبون علينا.

1781: بوغوتا

العوام

ارتجف كبير أساقفة بوغوتا من الغضب وأنَّ جلد كرسيه. قبضت يداه الجميلتان المزينتان بالياقوت والزمرد على عباءته الأرجوانية. لعن الدون أنطونيو كاباليروي غونغورا، الأكثر تبجيلاً، وفمه ملآن، رغم أنه لم يكن يأكل، ذلك أن لسانه بدين مثله.

جاءت أنباء فظيعة من بلدة «سوكورو» تفيد أن العوام، الذين بلا مرتبة، انتفضوا ضد الضرائب الجديدة وعيّنوا كريبوليين أغنياء ضباطا. صفعت الضرائب الأغنياء والفقراء وعاقبت كل شيء من شمعات الشحم الحيواني إلى العسل دون أن تستثني حتى الريح. دعيت الضريبة التي فرضت على تجار الترانزيت *ضريبة مبيعات الرياح*.

ذلك التمرد الذي شاهده نائب الملك في بوغوتا حدث في سوروكو مدينة الصخور. نشب في أحد أيام السوق في الساحة. انتزعت المرأة السوقية «مانويلا بيلتران» المرسوم عن أبواب قصر المدينة، مزقته وداست عليه وبعد ذلك انقض البشر على المستودعات وأحرقوا السجن وتقدم آلاف العوام المسلحين بالعصي والمعازق نحو «بوغوتا» وهم يقرعون الطبول.

انهارت الأسلحة الأسبانية في المعركة الأولى. قرر كبير الأساقفة الذي يتمتع بسلطة أكبر من سلطة نائب الملك أن يخرج وقابل العصاة. ولكي يخدعهم بالوعود تقدّم على رأس لجنة محكمة مفوّضة، إبان ذلك، حدّق فيه بغله مذعوراً.

1781: تامارا

سكان السهول

من السهول الواقعة في شرق «الآنديز» جاء ألف وخمسمائة هندي ركضاً وهم يهتفون باسم توباك آمارو. كانوا يبتغون ضم سلسلة الجبال إلى مد العوام المتقدمين إلى «بوغوتا». هرب حاكم السهول منقذاً عنقه.

كان أولئك المتمردون، هنود سافانا الأنهار، التي تصب في نهر «أرينوكو». وقد افتتحوا أسواقهم مرة على ضفتي نهر «أرينوكو» حيث تُودع السلاحف بيوضها. اجتمعوا هناك منذ سحيق الأزمنة مع هنود «غويانا» والأمازون وتبادلوا الملح والذهب وآنية الفخار والسلاسل والشباك والسمك المجفف وزيت السلاحف وسم السهام والصبغة الحمراء التي تحمي الجسد العاري من البعوض. كانت أصداف السلاحف هي النقد المتداول إلى أن وصل الأوروبيون متلهفين للعبيد وقدموا الفؤوس والمقصات والمرايا والبراندي مقابل البشر. وعندئذ بدأ الهنود يستعبدون أنفسهم ويبيعون أخوتهم وكان من يصطاد هدفاً للصيد أيضاً ومات كثيرون من الحصباء والجدري.

1781: زيباكيرا

غالان

وقعت معاهدة سلام في قرية «زيباكيرا» أملاها كبير الأساقفة وأقسم عليها بالأناجيل وكرّسها بقداس مهيب.

بررت الاتفاقية التمردات وحالاً ستتحول قطعة الورق هذه إلى رماد. وكان الضباط الكريبوليون الأغنياء يعرفونها جيداً لكنهم يحتاجون أيضاً أن يصدوا بالسرعة المكنة العاصفة المذهلة، *الفوضى التامة للعوام* التي تنمو باستمرار وتعتم سماوات «بوغوتا» وتهدد الأميركيين الأثرياء بقدر ما تهدد التاج الأسباني.

رفض أحد ضباط التمرد أن يقع في المصيدة. واصل خوسيه أنطونيو غالان الذي تلقى معموديته النارية في حصن قرطاجنة الخلاسي، الصراع. تقدم من بلدة إلى أخرى، من مزرعة إلى أخرى محرراً العبيد، ملغياً الجزية وموزعاً الأراضي. أعلنت رايته *وحدة المظلومين ضد الظالمين*. سماه الأصدقاء والأعداء: *توباك آمارو الآن وهنا*.

أنشودة شعبية للعوام

ليتوقف قرع الطبول،
وأنتم أصغوا إلي
هذه هي الأنشودة الحقيقية
وصوت الإنسان العادي:
سُحِبَتْ العنزة نحو التلال
والتلال نحو السماء
والسماء نحو مكان مجهول
لا أعرفه الآن
الأغنياء يضغطون على الفقراء
والهندي الذي لا يساوي سوى القليل
يشدّه كل من الأغنياء والفقراء
حتى يتمزق من المنتصف تماماً.

1781: كوزكو

مركز الأرض
منزل الآلهة

كوزكو، المدينة المقدسة، تريد أن تكون نفسها ثانية. الأحجار السوداء التي تعود إلى أزمنة قديمة والتي تضم نفسها في عناق عشقي، الأحجار التي انتصرت على عنف الأرض والإنسان، تريد أن تتحرر من الكنائس والقصور التي تسحقها.

حدّقت «ميكايلا باستيداس» نحو كوزكو وعضّت شفتيها. كانت زوجة توباك آمارو تنظر إلى مركز الأرض، إلى البقعة التي اختارتها الآلهة من قمة هضبة. هناك حيث كان لون الطين والدخان قريباً بحيث يستطيع أن يلمسه المرء، تنتظر عاصمة «الآنكيين».

ألحّت «ميكايلا» ألف مرة عبثاً: لن يهاجم «الآنكا» الجديد. رفض توباك آمارو، ابن الشمس، أن يقتل الهنود. توباك آمارو، رمز مؤسس الحياة، وعد العصيان الحي، لا يستطيع أن يقتل الهنود الذين يدافعون عن هذا البرج الأسباني بقيادة الزعيم «بوماكاهوا».

ألحت «ميكايلا» ألف مرة لكن توباك بقي صامتاً. كانت تعرف أن مأساة ستحدث في «ساحة الدموع». وكانت تعرف أنها ستتابع إلى النهاية مهما حدث.

1781: كوزكو

الغبار والأسى هما طريقا «بيرو»

مثقبين بالرصاص، بعضهم جلوس والبعض الآخر منبطحون على وجوههم، كانوا ما يزالون يدافعون عن أنفسهم ويقذفوننا بأحجار كثيرة أثارت جنوننا.. أصبحت منحدرات الجبال المثلّمة القمم محفة جثث: كان المنتصرون يلتقطون بنادق من هنا وهناك بين الموتى والرماح والرايات المحطمة.

لم يدخل توباك آمارو المدينة المقدسة كفاتح يرأس قواته العاصفة. دخل «كوزكو» على ظهر بغل مثقلاً بالسلاسل التي تتجرجر على أحجار الرصيف. دخل إلى السجن بين صفين من الجنود بينما كانت أجراس الكنيسة ترن بجنون.

هرب توباك آمارو سابحاً عبر نهر «كومباياتا» وباغته كمين في بلدة «لانغوي» بعد أن باعه أحد ضباطه «فرانسيسكو سانتا كروز» الذي كان أيضاً صديقه.

لم يبحث الخائن عن حبل ليشنق نفسه بل قبض ألفي بيزوس ولُقِّبَ نبيلاً.

1781: كوزكو

طقس شعائري في غرفة التعذيب

مقيداً إلى المخلعة، استلقى توباك آمارو عارياً ومدمى. غرفة التعذيب في سجن «كوزكو» كئيبة ومنخفضة السقف. ينحدر شعاع ضوء على الزعيم المتمرد، إنه ضوء عنيف مؤذ. يرتدي خوسيه أنطونيو دي أريتشي شعراً مستعاراً ملتفاً وبزة عسكرية. أريتشي، ممثل ملك أسبانيا، الجنرال القائد للجيش وكبير القضاة، يجلس إلى جانب ذراع التدوير.

حين يدوِّره، تشنّج دورة أخرى للحبل ذراعي وساقي توباك آمارو ويُسمع أنين مكتوم.

أريتشي: آه يا ملك الملوك، أيها الملك الصغير الذي بيعَ بثمن تافه. الدون خوسيه الأول، العميل الذي يقبض من التاج البريطاني! نقود مرتبطة بالطموح إلى السلطة... من الذي ينبغي أن تفاجئه الخطبة؟ إن المسألة واضحة.. أسلحة بريطانية، نقود بريطانية.. لماذا لا تنكر ذلك آه..؟ أيها الشيطان المسكين! (ينهض ويضرب رأس توباك آمارو).. لقد أعماك اللوثريون المهرطقون ووضعوا حجاباً أسود على دماغك.. أيها الشيطان المسكين. خوسيه غابرييل توباك آمارو، السيد المطلق والطبيعي لهذه الأراضي... الدون خوسيه الأول، ملك العالم الجديد! (يفتح ورقة مطوية

ويقرأ بصوت مرتفع): «الدون خوسيه الأول بمشيئة الإله، الآنكا، ملك بيرو، سانتافه، كيتو، تشيلي، بوينس آيرس وقارات البحار الجنوبية، دوق من أعلى الدرجات، لورد القياصرة والأمازونيين، صاحب السيادة في «بيتيتي» العظيمة، مفوض يمتلك رحمة إلهية» (يلتفت فجأة إلى توباك آمارو) انكر ذلك! عثرنا على هذا الإعلان في جيوبك... وعدت أن تمنح الحرية. علّمك الهراطقة فنون التهريب الشريرة. مكتسياً براية الحرية سببت أقسى حالات الطغيان. (يسير حول الشكل المقيد إلى المخلعة). قلت: «يعاملوننا كالكلاب». قلت: «يسلخون جلودنا أحياء». لكن هل حدث ودفعت الجزية أنت ورفاقك؟ استمتعت بامتياز استخدام الأسلحة والخروج على صهوة الحصان. عوملت دائماً كمسيحي يتمتع بنسب دمه نقي. منَحْناك حياة رجل أبيض وبشّرت بالحقد العنصري. نحن، أسبانك المكروهين، علمناك أن تنطق. وماذا قلت؟ ثورة! علمناك الكتابة، فماذا كتبت؟ «الحرب»! (يجلس، يدير ظهره لتوباك آمارو ويضع ساقاً فوق أخرى). لقد دمرت «بيرو». ارتكبت الجرائم، أحرقت المباني، سرقت وانتهكت المقدسات... لقد جئت بالجحيم أنت وزبانيتك الإرهابيون إلى هذه المناطق. أليس كذلك؟ إذن الأسبان يجعلون الهنود يلعقون الأوساخ، أليس كذلك؟ لقد سبق ومنعت المبيعات بالقوة وفتحت المشاغل ودفعت أجوراً عادلة. قمعت ضريبة العشر والتعرفة... فلماذا واصلت الحرب. ما دامت المعاملة الجيدة قد حُققت. لقد سببت آلاف الميتات أيها الإمبراطور المزيف وكثيراً من الآلام على الأراضي المغزوة! (ينهض وينحني فوق توباك آمارو الذي لا يفتح عينيه). إذن مخطط العمل جريمة ومن كل مائة هندي يذهبون إلى المناجم يعود عشرون؟ لقد أمرت بإنهاء العمل الإجباري، وعلى أية حال، أليس أسلافك هم الذين ابتكروا مخطط العمل «المحتقر؟ ملوك الآنكا... لم يعامل أحد الهنود أسوأ من معاملتهم... إنك تجدّف ضد الدم الأوروبي الذي يجري في عروقك يا خوسيه «غابرييل كوندوركانكوي نوغيرا».. (يتوقف ثم يتحدث وهو يدور حول جسم الضحية)... إن الحكم عليك جاهز. أعددته وكتبته ووقّعته. (تقطع يده الهواء فوق فم توباك آمارو). سيقذفونك إلى المنصة وسيقطع الجلاد لسانك. سيقيدونك إلى أربعة خيول من يديك وقدميك. ستُقَطَّع (يمرر يده فوق الجذع العاري). سيرمون جذعك في النار في جبل «بيكهو» وسيذرون رمادك في الجو. (يلمس الوجه). سيعلق رأسك على المشنقة ثلاثة أيام في بلدة «تينتا» وبعد ذلك سيدق بالمسامير على عمود عند بوابة البلدة بتاج من إحدى عشرة علاقة حديدية لتعبر عن ألقابك الإحدى عشرة كإمبراطور. (يضرب ذراعي توباك). سنرسل ذراعاً إلى «تونغاسوكا» وسيُعرض الآخر في عاصمة «كارابايا» (وساقاه). سترسل رجل إلى بلدة «ليفيتاكا» والأخرى إلى «سانتا روزادي لامبا». أما المنازل التي عشت فيها فستُمحى. سنرش أراضيك ملحاً، ستطارد السمعة السيئة سلالتك طوال جميع العصور. (يشعل شمعة ويحملها فوق وجه توباك آمارو). لا تزال تمتلك وقتاً. أخبرني: من يواصل التمرد الذي بدأته؟ من هم شركاؤك؟ (يتملّق). لا تزال تملك وقتاً. أعرض عليك المشنقة. تمتلك وقتاً لكي تتجنب كثيراً من الإذلال والمعاناة. أعطني أسماء، أخبرني. (يخفض أذنه). أنت

جـلاّد نفسـك أيـها السـفاح الهنـدي! (يجعـل نبرتـه عذبـة مـرة أخـرى). سـنقطع لسـان ابنـك «هيبوليتو». سنقطع لسان «ميكايلا»، امرأتك ونخنقها بالطوق الحديدي... حسناً! لا تتب، لكـن أنقذها. أنقذ زوجتك من موت مهين. (يقترب وينتظر). لا يعلم سوى الله الجرائم الـتي سـتحملها معك. (يدير بعنف ذراع تدوير آلة التعذيب وتصدر صرخة مرعبة).

لن يفيدك الصمت في شيء أمام محكمة صاحب السيادة العليا أيها الهنـدي المغـرور! (بشـكل يثير الشفقة). آه! يحزنني أن تختـار روحُ الذهـاب هكـذا إلى العـذاب الأبـدي... (غاضبـاً) للمـرة الأخيرة! من هم شركاؤك؟

توباك آمارو: (رافعاً رأسه بجهد هائل، يفتح عينيه ويتحدث أخيراً). هنا لا شركاء سوى أنـا وأنت. أنت كظالم، أنا كمحرر، وكلانا يستحق الموت.

1781: كوزكو

أمر أريتشي ضد ملابس الأنكا

الهنود يتحدثون الأسبانية

يمنع الهنود من ارتداء ملابس الطبقة العليـا وخاصـة ملابـس النبـلاء الـتي تذكرهـم بمـا كـان يرتديه الآنكيون القدماء وتستحضر ذكريات تزيد من كراهيتهم للأمة الحاكمة، هـذا بغـض النظـر عن كونها سخيفة ولا تتماشى مع نقاء ديننا بما أنها تبرز في أمكنة مختلفـة الشـمس الـتي كـانت إلههم الأول. يفرضُ هذا الأمر على جميع أقاليم أميركا الجنوبية إلغاءً كلياً لهذه الملابس ولجميـع لوحات وصور الآنكيين.

يجب أن يتخلّص هؤلاء الهنود من كراهيتهم للأسبان ويرتدوا ملابس يحددها القانون ويتبنـوا عاداتنا الأسبانية ويتحدثوا اللغة القشتالية. وستُشَجّع المدارس أكـثر مـن قبـل وستُفرض عقوبـات قاسية وعادلة على الذين لا يستخدمونها فترة كافية لتنويرهم...

1781: كوزكو

ميكايلا

في هذه الحرب التي جعلت الأرض تئن من آلام الولادة لم تحظ ميكايلا باستيداس بالراحـة أو الاستقرار. هذه المرأة التي تملك عنق طائر سافرت باستمرار من إقليـم إلى آخـر *جامعـة مزيـداً مـن البشر* مرسلة مقاتلين جدداً إلى الجبهة وبعض البنادق والمنظار الذي طلبـه أحدهـم وأوراق الكوكـا وقرون ذرة ناضجة. عدتْ الخيول دون توقف غدواً ورواحاً عبر الجبال حاملة أوامرهـا، جـوازات المرور، التقارير والرسائل. أرسلت رسائل عديـدة إلى توبـاك آمـارو تحثّـه أن ينقـض بقواتـه علـى

كوزكو قبل أن يدعّم الأسبان دفاعاتهم ويضعفوا ويبددوا المتمردين. كتبت فيها: *تشيبي. تشيبي.* *عزيزي: تكفي تحذيراتي لك.*

مجرورة بذيل حصان، دخلتْ ميكايلا ساحة كوزكو الرئيسية التي سماها الهنود ساحة الدموع داخل كيس جلدي كالذي تُجْلب فيه المتّة من باراغوي. كانت الأحصنة تجر أيضاً إلى المشنقة توباك آمارو وهيبوليتو ابنهما. وكان ابن آخر يُدعى فرناندو يشاهد.

1781: كوزكو

مطر مقدس

يريد الفتى أن يشيح بصره لكن الجنود يجبرونه على النظر. يشاهد فرناندو كيف يقطع الجلاد لسان شقيقه «هيبوليتو» ويدفعه على سلّم المنصة. يشنق الجلاد إثنين من أعمام فرناندو ثم العبد أنطونيو أبليتاس الذي رسم صورة توباك آمارو وبعد ذلك يقطعه بالفأس إلى أشلاء وفرناندو يشاهد. مغلول اليدين والقدمين، بين جنديين يجبرانه على النظر. يشاهد فرناندو الجلاد يضع المخنق الحديدي حول عنق توماسا كونديميتا زعيمة الآكوس التي وجهت كتيبتها النسائية ضربات موجعة للجيش الأسباني. ثم تصعد ميكايلا باستيداس إلى المنصة ويضعف بصر فرناندو. تغيم عيناه حين يصل الجلاد إلى لسان «ميكايلا» وتغطي ستارة من الدموع عيني الفتى حين يجلسون أمه لينهوا التعذيب: لا يخنق الطوق الحديدي تماماً عنقها الرائعة وكان من الضروري *تثبيت أنشوطات حول عنقها وشدّها من جهات مختلفة وقتلها برفسات على البطن والصدر.*

فرناندو، الذي ولدته ميكايلا منذ تسعة أعوام، لا يرى ولا يسمع شيئاً الآن. لا يرى أنهم يحضرون والده توباك آمارو ويقيدونه إلى أحزمة أربعة خيول من قدميه ويديه بينما وجهه مدار باتجاه السماء. ينخس الخيالة مهاميزهم متجهين في جهات البوصلة الأربع لكن توباك آمارو لا ينشق. *رفعوه في الجو وبدا كعنكبوت.* المهاميز تمزق بطون الجياد التي تتراجع إلى الخلف لتستجمع قواها لكن توباك آمارو لا ينشق.

إنه فصل جفاف طويل في وادي كوزكو. وبالضبط عند الظهيرة، وبينما كانت الجياد تصارع وتوباك آمارو لا يتمزق ينهمر مطر عنيف من السماء وتسقط قطرات ثقيلة كالهراوات وكأن الله أو الشمس أو أحداً ما قرّر أن تكون هذه اللحظة لحظة نوع المطر الذي يعمي العالم.

يؤمن الهنود

آمن الهنود أن يسوع ارتدى ملابس بيضاء ليجيء إلى كوزكو. شاهده راع طفل، لعب معه وتبعه. يسوع طفل أيضاً ويركض بين التراب والهواء: يعبر النهر دون أن تتبلل قدماه وينزلق بنعومة في وادي الآنكيين المقدس حريصاً ألا يكشط تلك الأيدي التي جرحتْ حديثاً. من

منحدرات قمة أوسانغيت التي يشع نَفَسُها الصقيعي بطاقة الحياة، سار نحو جبل «كويلوريـتي». في سفح ذلك الجبل، مأوى الآلهة القديمة، يسقط يسوع رداءه الأبيض. يتسلق الصخـرة ويتوقـف. ثم يدخل الصخرة.

أراد يسوع أن يمنح نفسه للمغزوين ومن أجلهم تحـوّل إلى حجـر مثـل آلهـة الإقليـم القديمـة، حجر يقول وسيقول: *أنا الله، أنا أنتم، أنا الذين سقطوا.*

إلى الأبـد سـيصعد هنـود وادي كوزكـو في موكـب ليحيـوه. سـيطهرون أنفسـهم في ميـاه التيـار وسيرقصون له حاملين المشاعل، سيرقصون ليمتعوا المسيح الحزين جداً، المحطم، الذي في الداخل.

الهنود يرقصون لمجد الفردوس

بعيداً عن «كوزكو» أصـاب حـزن يسوع هنـود «التيبيـهوا». منـذ أن وصـل الإلـه الجديـد إلى المكسيك بدأ هنود التيبيهوا يذهبون إلى الكنيسـة مـع فرقـة موسيقية ليقدمـوا رقصاتـهم وألعابـهم التنكرية، كعكاً شهي المذاق وشراباً جيداً. لكن لم يمنحه أي شـيء السعادة. واصـل يسـوع حزنـه وضغطت لحيته على صدره واستمر الأمر هكذا حتى ابتكر هنود «التيبيهوا» «رقصة القدامى».

يرقص تلك الرقصة شخصان مقنّعان. أحدهما السيدة العجوز والآخـر الرجـل العجـوز. يجـيء العجوزان من البحر مع هدايـا مـن القريـدس ويعـبران بلـدة «سـان بـدرو» متكئـين علـى عصويـن مريّشتين، وقد أحنى العمر جسديهما. أمام مذابح مرتجلة في الشوارع يتوقفان ويرقصان بينما يغني المرتّل ويقرع موسيقى درع سلحفاة. تهز العجوز غير المحتشـمة ردفيـها، تقـدم نفسـها وتتظـاهر بالهرب، يلاحقها العجوز ويمسكها من الخلف، يعانقها ويرفع كتفها إلى الأعلى. ترفس بقدميـها في الجو ضاحكة بجنون وتتظاهر أنها تدافع عن نفسها بضربات من عكازها ممسكة، بسعادة، جسد الرجل العجوز، الذي يتابع الإمساك بها متلعثماً وضاحكاً بينما يصفّق الجميع.

حين شاهد يسوع العجوزين يمارسان الجنس رفـع رأسـه وضحـك للمـرة الأولى. والآن يضحـك كلما أدّى هنود «التيبيهوا» تلك الرقصة غير المحتشمة.

في الأزمنة الغابرة ولد هنود «التيبيهوا» الذين أنقذوا يسوع من الحزن، من كـرات قطـن هنـاك على منحدرات جبال «فيرا كروز».

وبدلا من أن يقولوا: «يبزغ الفجر»، يقولون: «إن الله هنا».

1781: شينشيـروس

بوماكاهوا

كانت عذراء «مونتيسيرات» تتوهج في الوسط وكان ماتيو غارسيا بوماكاهوا راكعا علـى ركبتيـه يقدم الشكر وخلفه ظهرت زوجته ومجموعة من أقربائـه في موكـب. كـان بوماكـاهوا يرتـدي ثوبـا

أسبانياً، وصدرية ومعطفاً وحذاء بأبازيم. وراءه خيضت المعركة وظهر جنود صغار بدوا كالألعاب: بوماكاهوا السبع يضرب توباك آمارو التنين وكتب في الأعلى *Veni, vidi, vici*.

بعد عدة أشهر أنهى فنان مجهول الإسم عمله. ظهرت فوق باب كنيسة بلدة «شينشيروس» الصور التي ستُخلّد عظمة وإيمان الزعيم «بوماكاهوا» في الحرب ضد توباك آمارو.

تلقى بوماكاهوا، سليل الآنكيين أيضا، وساما من ملك إسبانيا وغفرانا كليا من مطران كوزكو.

1781: لاباز

توباك كاتاري

كان يتحدث اللغة الإيمارية (Aymara)، لغة شعبه. أعلن نفسه نائب ملك على الأراضي التي لم تكن قد سميت «بوليفيا» بعد. ثم عين زوجته نائبة ملك. نصب بلاطه على المرتفعات التي تهيمن على مدينة «لاباز»، اختبأ في تجويف وفرض عليها الحصار. كان أعرج ويضيء عينيه، الغائصتين عميقا في وجهه الفتي والمجعد، تألق خارق للمألوف. كان يرتدي المخمل الأسود ويصدر الأوامر بقصبة ويحارب برمح. قطع رؤوس كهنة اشتبه بأنهم أقاموا قداسات تشهيرية وقطع أذرع الجواسيس والخونة.

كان «جوليان آباز» قندلفتا وخبازا قبل أن يصبح «توباك كاتاري».

نظم هو وزوجته «بارتولينا سيسا» جيشا مؤلفا من أربعين ألف هندي واصل مراقبة القوات التي أرسلها نائب الملك من بوينس آيرس.

ورغم الهزائم والمجازر التي عانى منها لم يكن ثمة طريقة للقبض عليه. كان يسافر ليلا ليتجنب أية محاولة تطويق إلى أن قدم الأسبان حكم أتشاكاتشي الواقعة على ضفاف بحيرة «تيتيكاما» إلى أفضل أصدقائه توماس آنكا ليب، المعروف بـ«الجيد».

1782: لاباز

نساء متمردات

كانت مدن العالم الجديد الأسبانية التي ولدت كهدايا لله والملك، تملك قلبا من التراب المضروب. كانت المشنقة ومقعد الحكومة، الكاتدرائية والسجن، المحكمة والسوق في كل ساحة رئيسية. وكان البشر يطوفون حول المشنقة والنافورة غدوا ورواحا في الساحة الرئيسية، الساحة المحصنة، ساحة الحامية، يعبرون الفارس والشحاذ، الخيال ذا المهماز الفضي والعبد الحافي القدمين، السيدات الورعات وهن يأخذن أرواحهن إلى القداس والهنود الذين ينقلون الشيكا (Chica) في أباريق فخارية كبيرة.

ثمة عرض اليوم في ساحة لاباز الرئيسية. سيُضحّى بامرأتين قادتا تمرداً محلياً. بزغت «بارتولينا سيسا» زوجة «توباك كاتاري» من السجن وثمة حبل يلتف على عنقها ومقيدة إلى ذيل فرس. أما غريغوريا آباز، شقيقة توباك كاتاري، فقد أُخرجت على حمار. كانت كلتاهما تحمل باليد اليمنى صليباً مصنوعاً من العيدان كصولجان ووضع على رأسيهما إكليلان من الشوك. وكان السجناء يكنسون الأرض بالأغصان. دارت بارتولينا وغريغوريا عدة دورات حول الساحة في معاناة صامتة من أحجار وضحك أولئك الذين يسخرون منهما كملكتين هنديتين، إلى أن دقت ساعة المشنقة. أعلن الحكم أن رأسيهما وأيديهما سيعرضان في بلدات المنطقة.

كانت الشمس، الشمس المألوفة، تحضر أيضا الاحتفال.

1782: كوادواس (Guaduas)

بعينين زجاجيتين

كان رأس خوسيه أنطونيو غالان يحدق بعينين زجاجيتين من قفص خشبي إلى بلدة «شارالا». في «شارالا»، مسقط رأسه، كانوا يعرضون قدمه اليمنى وكانت إحدى يديه مثبتة بالمسامير في ساحة «سوكورو».

تابت قشدة المجتمع الاستعماري من خطيئة الوقاحة، إنهم أولئك الكريبوليون الأغنياء الذين يفضلون أن يتابعوا دفع الجزية وطاعة الملك الأسباني كي يتجنبوا *الطاعون المعدي* الذي جسده ونشره أيام العنف كل من غالان وتوباك آمارو وتوباك كاتاري. كان غالان القائد الزعيم لتمرد العوام قد خانه رفاقه وأسروه. سقط في كوخ بعد مطاردة طويلة مع رجاله الإثني عشر الأخيرين.

شحذ الدون أنطونيو كاباليروي غونكورا، كبير الأساقفة ذو الأبهة، السيف الذي قطع رأس غالان. وبينما كان يرمي في النار معاهدة السلام الواعدة والخادعة أضاف الأكثر تبجيلا إساءات ضد *العامي المحتقر*. لقد قطع غالان ليس لأنه مجرد متمرد بل لأنه أيضا *رجل غامض الولادة وعاشق لابنته*.

امتلك كبير الأساقفة عرشين بعد ذلك، فإلى جانب العرش الرسولي ربح عرش نائب ملك بوغوتا.

1782: سيكواني (Sicuani)

الاسم المحتقر

وقع دييغو كريستوبال، ابن العم الأول لتوباك آمارو والذي واصل الحرب، معاهدة سلام. وعدت السلطات الاستعمارية بالصفح والعفو العام.

أقسم دييغو كريستوبال أن يخلص للملك وهو ممدد على الأرض. جاءت حشود من الهنود من الجبال وسلمت أسلحتها. رتّب المارشال وليمة من الأنخاب المرحة وقدم الأسقف قداس شكر. وأمر نائب الملك من ليما أن تضاء المنازل ثلاث ليال.

بعد عام ونصف سوف يقطّع الجلاد لحم ابن عم توباك آمارو في ساحة السعادة في كوزكو بكلّابات محمرة من النار قبل أن يشنقه ثم سيشنق أمه ويقطّعها. أصدر القاضي «فرانسيسكو دياث دي مدينا» حكماً يَنُصُّ: *ليس ملائماً للملك أو للدولة أن تبقى أية بذرة أو سلالة من توباك آمارو أو من ابن عمّه بسبب التذمر والتأثير اللذين أحدثهما هذا الرجل المحتقر في السكان المحليين.*

1783: مدينة بنما

حباً بالموت

كانت الأرض التي تصدر بخاراً منذ الفجر تتوسّل شربة ماء وكان الأحياء يبحثون عن الظل ويستخدمون المراوح. وإذا كانت الحرارة تُيبّس الأحياء فما الذي لن تفعله للموتى الذين لا يمتلكون أحداً ليهوّي لهم؟

كان الموتى المهمون يستلقون في الكنيسة وكانت العادة تقتضي هذا كثيراً في نجد قشتالة الجاف. وكان هذا يجب أن يحدث أيضاً في فرن بنما الناري. كان المؤمنون يقفون على أحجار تذكارية أو يركعون عليها والموت يهمس لهم من الأسفل: *سأجيء إليكم حالاً*. وكانت رائحة تعفن الموتى تسبب البكاء أكثر من هلع الموت أو ذكرى الخسارة التي لا تُعوَّض.

كتب سيباستيان لوبيث رويز، الباحث المتفقه في الطبيعة، تقريراً يظهر أن تلك العادة المجلوبة من هناك هي هنا عدوٌ لعلم وقاية الصحة ومهلكة للصحة العامة وسيكون من الأفضل دفن سادة بنما في مقبرة بعيدة. فكان الجواب حين جاء: إن الموتى موضوعون بشكل جيد في الكنائس وما كان سارياً سيبقى.

1783: مدريد

حماية اليد البشرية

أعلنت أبواق الرياح الأربع أن ملك أسبانيا قرر أن يعتق اليد البشرية. من الآن فصاعداً لن يفقد السادة الذين يقومون بعمل يدوي نبالتهم. قال الملك: إن الكدح لا يلحق العار بمن يكدح ولا بأسرته وليس ثمة صنعة غير جديرة بالأسبان.

أراد تشارلز الثالث أن يحدِّث حكمه. وكان وزيره «كامبومانيز» يحلم بتطوير الصناعة والتربية العامة والإصلاح الزراعي. حصلت أسبانيا من عملها العظيم في أميركا على ألقاب الشرف وحصل

ملوك أوروبا على الفوائد. إلى متى ستدفع فضة المستعمرات ثمنا لبضائع لا تنتجها أسبانيا؟ ما معنى الاحتكار الأسباني إذا كانت المنتجات التي تغادر ميناء قادس هي إنكليزية وفرنسية وهولندية أو ألمانية؟

إن السادة الفرسان الذي يكثرون في أسبانيا، مثل الكهنة، يملكون سواعد تخدم، إما لتموت من أجل إسبانيا، أو لتقتلها. حتى ولو كان هؤلاء السادة مفلسين فإنهم لا يتنازلون لإنتاج أي شيء سوى المجد.

نسيت تلك الأيدي، منذ زمن طويل، كيف تعمل كما نسيت أجنحة الدجاج كيف تطير.

1785: مكسيكو سيتي

المحامي فيلارويل ضد صالون البلكة

إن كل صالون لشراب البلكة[1] *هو مكتب يفقس فيه الزنا والتسري والاغتصابات والنشل والسرقات والقتلة والمشاجرات والقتال بالسكاكين وجرائم أخرى.*

إنها مسارح يتحول فيها الرجال والنساء إلى أكثر أشكال الجحيم العنيفة مقتا وتطلق أفواههم أشنع البذاءات وأقذر الكلمات والأشياء الأكثر فسقا وسوءا وتحريضا التي لا يطلقها أكبر المتهتكين إذا لم تقلقه روائح أعفن وأقذر المشروبات.... هذه هي نتائج إهمال القضاة الذين لا يرعبهم منظر الرجال والنساء وهم يستلقون في الشوارع كأنهم كلاب معرضين لدهس سائق عربة سكران مثلهم كما يحدث غالبا وينقلهم بسرعة إلى الأبدية في موقف تعيس كالذي يجدون فيه أنفسهم.

صالون البلكة

حين أبعد نائب الملك شراب البلكة من «مكسيكو سيتي» عثر هذا المنبوذ على مأوى في الضواحي.

شراب النباتات الخضراء... في الحانات التي على الحواف لا يتوقف الساقي أبدا عن التنقل بين الخوابي الكبيرة والأباريق المتلهفة. *إنكم تذهلونني، تقتلونني، تسيرونني على أربع*. بينما يبكي طفل حديث الولادة بشكل يبعث الغم في إحدى الزوايا وينام عجوز من التأثيرات في زاوية أخرى.

كانت الأحصنة والحمير وديكة المصارعة المربوطة إلى حلقات معدنية تكبر في السن وهي تنتظر في الخارج. وكانت الخوابي المتألقة اللون في الداخل تحمل أسماء متحدية: «لا تستنقي». المشروب هو للأقوياء، «للشجعان».

---

[1] شراب مسكر.

... ليس ثمة قانون أو نهار في الداخل. كان النرد يتدحرج على الأرضية الترابية وأوراق القمار المزهرة ترمى على سطح برميل، وكان أحد المهرجين يغني على إيقاع قيثارة مرحة وكان آخرون يقفون في أزواج ويرقصون ليثيروا الغبار وكان كاهن يثرثر مع جندي والجندي يعده أن يتشدد مع بغال: *إنني فظ، أنا فظ جدا*، وكان الساقي ذو البطن الكبيرة يقاطع قائلا: *ما رأيكم بكأس أخرى؟*

البلكة

ربما يعيد شراب البلكة الآلهة إلى الهنود، ولذلك يقدمونه لها ويرشونه على الأرض أو على النار أو يرفعون كوزا إلى النجوم. من المحتمل أن الآلهة متعطشة دائما لشراب البلكة الذي رضعوه من حلمات الأم «ماياهويل» الأربعمائة، ومن المحتمل أيضا أن الهنود يشربون ليحموا أنفسهم وليطمئنوا وبالتأكيد إنهم يشربون لينسوا، ولينسوا.

قال الأساقفة يجب أن يلام شراب البلكة لأنه يسبب الكسل والبؤس ويحضر الأوثان ويثير التمرد. وأضاف أحد ضباط الملك: *إنه رذيلة بربرية لشعب بربري*، وأنه تحت تأثير خمرة الصبار الثقيلة *ينكر الإبن أباه والتابع سيده*.

الصبار

مسلحا بسيوف خضراء يقاوم الصبار الجفاف والبرد، الليالي الصقيعية والشموس الغاضبة لصحاري المكسيك.

يصنع شراب البلكة من الصبار، *الشجرة التي ترضع*، ومنه يصنع علف للحيوانات، ألواح وآجر للسقوف، مناصب سياج ووقود للنار. تقدم أوراق الصبار اللحمية الحبال والأكياس والحصر والصابون والورق، ورق المخطوطات القديمة، ويصنع من الأشواك دبابيس وإبر جيدة.

يزهر الصبار حين يوشك على الموت، يتفتح ويزهر. كأنه يقول: وداعا. تنبثق ساق مهيبة، ربما صارية، ربما قضيب، من قلب الصبار نحو الغيوم في انفجار من الزهر الأصفر. بعدئذ تسقط الساق الكبيرة ومعها تسقط شجرة الصبار ممزقة من جذورها.

ليس من المعتاد العثور على صبار مزهر في وادي «ميزكويتال» القاحل، لا يكاد يزهر حتى يخصيه الهنود ويديرون الجرح إلى الداخل وهكذا يسلم الصبار شراب البلكة الذي يطفئ الظمأ ويغذي ويعزي.

الكوز

يمتلك الخزاف المكسيكي تاريخا طويلا. كانت يداه قبل هيرنان كورتيز بثلاثة آلاف عام تحولان الصلصال إلى أوعية أو أشكال بشرية تصلبها النار لتحميها من الزمن. بعد ذلك بوقت طويل، قال الآزتيكيون (Aztecs) إن الخزاف *الجيد يمنح الكينونة للصلصال ويحيي الأشياء.*

لا يزال هذا التقليد العريق مزدهرا في التكاثر اليومي للزجاجات والجرار والآنية وقبل كل شيء أكواز الشرب: أكواز تونالا العاجية الشكل، أكواز «ميتيبك» الخشنة، أكواز «تولوكا» المحمرة التي تذرف دموعا سوداء... ويترأس كوز الصلصال المحمى الأعياد والمطابخ ويرافق السجين والشحاذ. يستقبل الكوز شراب البلكة الذي تزدريه الكأس الزجاجية وهو هبة العشاق:

حين أموت أيتها العجوز، خذي صلصالي إن استطعت

واصنعي كوزا مع هذه اللازمة:

إذا كنت متعطشة إلي، اشربي

وإذا توقف الشراب عند الحافة

فسيكون هذا قبلا من رجلك العجوز.

1785: مكسيكو سيتي

الخيال في الحقبة الكولونيالية

وقع نائب ملك مكسيكو سيتي، ماتياس دي غالفز مرسوما جديدا لصالح العمال الهنود، بموجبه، سيتلقى الهنود أجورا عادلة وغذاء جيدا وعناية طبية وسيحصلون على ساعتي راحة ظهرا وسيقدرون على تغيير مستخدميهم متى شاؤوا.

1785: غواناخواتو

تهب الريح حيث تشاء

تفتحت هاوية ضوئية في الجو الصافي وشعت صحراء بين الجدران السوداء لسلسلة الجبال المثلمة القمم. في الصحراء التي تومض قبابها وأبراجها، ترتفع بلدات المناجم المكسيكية. غواناخواتو التي تكتظ بالسكان كعاصمة نائب الملك، هي الأكثر تميزا. يذهب مالكوها إلى القداس على كراس محمولة تتبعهم جموع من الشحاذين عبر متاهة من الأزقة والمعابر الضيقة، عبر زقاق القبلة وزقاق الانزلاق وزقاق الرياح الأربع. وبين الأحجار التي صقلتها أقدام الزمن تنمو الأعشاب والأشباح.

ينظم جرس الكنيسة حياة «غواناخواتو» وتحكمها الصدفة. يفت الأوراق لاعب غشاش ويقولون إن المرء يدوس على الذهب والفضة أينما خطا ولكن يعتمد كل شيء على العروق التي تتسلل تحت الأرض وتمنح نفسها أو تمتنع على هواها. لقد احتفل البارحة أحد المحظوظين بضربة حظه وشرب أفضل الخمور نخبا للجميع ودفع مقابل عزف المزمار والغيتار واشترى شريطة «كامبري» رائعة، بنطالا مخمليا وسترات حريرية معدنية الخيط وصداري من هولندة، لكن خيط الفضة الذي جعله فارسا يوما واحدا اختفى دون أن يترك أثرا.

من ناحية أخرى، لا تعتمد حياة الهنود على المصادفة، ذلك أن تنفس الزئبق في مصانع الخلائط المعدنية يسبب لهم الرجفة وفقدان الأسنان إلى الأبد بينما تنفجر صدورهم من استنشاق غبار قاتل وأبخرة طاعونية في المناجم. أحيانا يمزقهم انفجار الغبار إلى أشلاء، وطورا ينزلقون في الفراغ حين يهبطون إلى الأسفل حاملين الأحجار أو حين يصعدون حاملين على ظهورهم مناظري العمال الذين يسمون الهنود: «أحصنتهم الصغيرة».

1785: غواناخواتو

صورة فضية

كانت السيدات يثرثرن في حدائقهن المورقة مستخدمات لغة المراوح المرفرفة. كان أحدهم يبول على جدار كنيسة بينما يجلس شحاذان على أحد جانبي الساحة في ضوء الشمس وينتزعان قمل بعضهما. وكان طبيب مهم يرتدي عباءة كبيرة يتحدث عن حقوق الإنسان تحت قوس حجري وكان راهب ينحدر في الزقاق وهو يطلق لعنات أبدية ضد السكارى والعاهرات والمعربدين الذين كانوا يعبرون أمامه. وفي مكان غير بعيد عن المدينة كان *الصيادون* يصطادون الهنود بالربقات.

كانت «غواناخواتو» قد أطاحت بعرش «بوتوسي» منذ زمن طويل، وملكة فضة العالم جائعة للعمل، والعمال، *الذين لا يقبضون أجورا*، ولا يشاهدون قطعة نقد طوال حياتهم، لكنهم سجناء للديون. سيرث أبناؤهم الديون والخوف من الألم والسجن والجوع أيضا، وكذلك سيخافون من الآلهة القديمة والجديدة.

1785: لشبونة

العمل الاستعماري

أمر التاج البرتغالي بإقفال مشاغل النسيج البرازيلية التي يجب أن تنتج في المستقبل لباسا بسيطا للعبيد فحسب. أصدر الوزير «ميلو ي كاسترو» الأوامر باسم الملكة. لاحظ الوزير *أن مصانع ومشاغل ثياب متنوعة تنتج ثيابا بنوعيات مختلفة بما فيه الضفائر الفضية والذهبية، قد بنيت*

وانتشرت بشكل وحشي في معظم إقطاعات البرازيل. قال الوزير إن *هذه تجاوزات مؤذية*. إذا استمرت *ستجعل مرافق وثروات هذه المستعمرات، الأكثر أهمية، ميراثا لسكانها*. ولأن البرازيل أرض خصبة ذات ثمار كثيرة *سيصبح السكان المذكورون مستقلين بشكل كامل عن مركز الهيمنة، وبالتالي، من الضروري جدا إلغاء المصانع والمشاغل المذكورة.*

1785: فرساي

البطاطا تصبح سيدة عظيمة

أحضرها الغزاة الأسبان من بيرو منذ قرنين ونصف، ولأن الهنود كانوا يزكونها، حكمت عليها أوروبا أن تكون طعاما للخنازير والسجناء والمحتضرين. كان يسخر من البطاطا وتعاقب كلما حاولت الهرب من الزرائب والسجون والمستشفيات. حظرت في أمكنة عديدة واتهمت في بزانسون Besanson بأنها تسبب الجذام.

تعرف أنطوان بارمنتييه على البطاطا في السجن. كان بارمنتييه في سجن بروسي لم يقدم فيه إلا البطاطا. ظنها في البداية غبية لكنه أحبها فيما بعد واكتشف سحرها وطعمها.

بعد أن أصبح حرا في باريس، أقام بارمنتييه مأدبة حضرها دالامبيير[1] D'Almbert ولافوازييه والسفير الأميركي بنجامين فرانكلين وشخصيات أخرى مشهورة. قدم لهم بارمنتييه قائمة بطاطا فقط: خبز البطاطا، حساء البطاطا، مسحوق البطاطا، صلصة بطاطا متبلة من أجل التذوق، بطاطا مقلية، معجنات وكعك البطاطا، ثم قدم لهم عقبة[2] من البطاطا. وكان الشراب الذي قدم لهم هو براندي البطاطا. ثم ألقى بارمنتييه خطبة دافع فيها عن البطاطا مشيدا بفضائلها الغذائية، معلنا أنها مفيدة للحلق وللدم وأنها تستطيع أن تقهر الجوع في أوروبا لأنها منيعة على عواصف البرد وتزرع بسهولة. صفق له الضيوف، المتخمون بالبطاطا، بانفعال وإيمان.

فيما بعد، أقنع بارمنتييه الملك. أمر لويس السادس عشر أن تزرع البطاطا في مستعمرات «سابلون» Sablons قرب باريس وأن يحرسها الجنود بشكل دائم. وهكذا أثار الفضول والرغبة بالثمرة المحرمة.

حصل التكريس النهائي في فرساي وطبعت ماري أنطوانيت، المزينة، كحديقة، بأزهار البطاطا، القبلة الملكية على خد أنطوان بارمنتييه وعانقه الملك لويس، الذي لم يكن قد فقد رأسه بعد. حضر جميع نبلاء فرنسا تأليه البطاطا في هذه المملكة حيث فن الطبخ الجيد هو الدين الوحيد الذي بلا ملحدين.

---

[1] فيلسوف وفيزيائي فرنسي.

[2] حلوى يختم بها الطعام ـــ المغني الأكبر.

يقولون في الآنديز: إن البطاطا ولدت من الحب والعقاب

قيل إن الآنكا[1] حكم على عاشقين انتهكا القوانين المقدسة وأمر بدفنهما حيين.
كانت المرأة عذراء خصصت لإله الشمس لكنها هربت من المعبد ومنحت نفسها لأحد الأقنان.
قرر الآنكا أن يدفنهما حيين ودفنا في حفرة عميقة مقيدين ووجههما إلى الأعلى ولم تسمع أية شكوى حين غطاهما التراب.
خيم الليل وتحركت النجوم في مسارات غير مألوفة، بعد ذلك بوقت قصير اختفى الذهب من قاع الأنهار وأجدبت حقول المملكة متحولة إلى أحجار وغبار. لكن التربة التي غطت العاشقين لم ينلها القحط.
نصح الكهنة الكبار «الآنكا» أن يأمر بنبش العاشقين وأن يحرقا وينثر رمادهما في الريح فأمر الآنكا بذلك.
لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليهما، حفروا عرضا وعمقا ولم يجدوا سوى جذر. تكاثر ذلك الجذر ومذاك صارت البطاطا عماد الشعب الآندي.

1790 : باريس

همبولت Humboldt

في سن العشرين، اكتشف أليكسندر فون همبولت المحيط والثورة.
أصابه المحيط بالصمم في دانكرك (Dunkirk). واغتصب منه القمر المبرعم من المحيط صرخة دهشة في كاليس (Calais). بعد أن أدهشه المحيط وجاءه وحي الثورة دخل همبولت بعد عام من 14 تموز في زوبعة الشارع العذبة مختلطا بالبشر الذين كانوا يرقصون ويغنون احتفالا بحريتهم الوليدة.
عاش باحثا عن الأجوبة لكنه لم يجد إلا الأسئلة. ودون توقف استقصى الكتب والسماوات والأرض مطاردا لغز الروح وألغاز الكون وأسرار الخنافس والأحجار منغمسا في عشق دائم للعالم وللرجال والنساء الذين دوخوه وذعروه. *قال شقيقه ويلهلم، طفل أمه المفضل، إن همبولت لن يعرف السعادة أبدا*. في سن العشرين أقسم همبولت، المحموم بالحياة وبارتياد الأمكنة، أن يطيع إلى الأبد رايات الثورة الفرنسية وأن يعبر المحيط مثل بالباو (Balboa) وروبنسون كروزو إلى الأرض التي لا يغيب عنها النهار.

---

[1] الملك.

1790: بوتي جواف

السحر المفقود

يستطيع وزن المحفظة أن ينجز أحيانا أكثر مما ينجزه لون الجلد: في «هاييتي» الخلاسيون الفقراء هم سود والسود الأحرار الذين جمعوا نقدا كافيا هم خلاسيون. يدفع الخلاسيون الأغنياء ثروات ضخمة كي يصبحوا بيضا رغم أن قلة تحصل على وثيقة السحر التي تسمح لسليل السيد والعبد أن يصبح طبيبا ويجعل نفسه سيدا، أن يتمنطق سيفا أو يلمس سيدة بيضاء دون أن تقطع ذراعه.

على المشنقة يتدلى الخلاسي الذي ادعى امتلاك حق المواطنية الذي أعلن حديثا في باريس، وعلى رمح طويل يطوف في بلدة بوتي جواف يركب رأس خلاسي آخر أراد أن يصبح نائبا.

1791: بواكيمان

متآمرو هاييتي

غرزت الأمة العجوز، صديقة الآلهة، منجلها في حنجرة خنزير بري أسود. شربت أرض «هاييتي» الدم ورقص وغنى قسم الحرية مئتا عبد أسود تحت حماية آلهة الحرب والنار. في شعيرة ودونية[1] ممنوعة متوهجة بالصواعق، قرر مئتا عبد أن يحولوا أرض العقاب إلى مسقط رأس.

تتحدث هاييتي اللغة الكريبولية التي هي، كالطبل، لغة مشتركة للذين انتزعوا من أفريقيا في جزر آنتيلية مختلفة. تبرعمت داخل المستعمرات الزراعية حين احتاج المحكومون أن يتعرفوا على بعضهم ويقاوموا. جاءت من لغات أفريقية مصطحبة نغما أفريقيا واغتنت بأقوال النورمانيين[2] والبريتانيين[3]. التقطت كلمات من الهنود الكاريبيين ومن القراصنة الإنكليز ومن الأسبان الذين استعمروا شرق «هاييتي». وبفضل اللغة الكريبولية، يشعر «الهاييتيون» أنهم يلمسون بعضهم حين يتحدثون.

تجمع اللغة الكريبولية الكلمات وتجمع الشعيرة الودونية الآلهة الذين ليسوا أسيادا بل عشاق مولعون جدا بالرقص ويحولون أي جسد يخترقونه إلى موسيقى وضوء، ضوء محض لحركة متموجة ومقدسة.

---

(1) Voodoo: دين زنجي أفريقي الأصل منتشر بين زنوج هاييتي ويستند إلى السحر والعرافة...

(2) أحد أبناء نورماندي بفرنسا.

(3) أحد أبناء مقاطعة بريتاني في شمال غربي فرنسا.

أغنية حب هايتية

كالحطب أحترق
وكقصب السكر ترتجف ساقاي.
وما من طبق يغوي فمي
ذلك أن أقوى شراب يتحول إلى ماء
حين أفكر بك.

تطفح عيناي
ويهزم ألمي عقلي
أصحيح يا حسنائي
أنك ستعودين حالا؟
آه! عودي إلي أيتها المخلصة الأبدية!
إن الإيمان أقل عذوبة من الشعور!
لا تتأخري كثيرا
لأن هذا يؤلمني
عودي وحرري الطائر الجائع
من قفصه.

1792: ريو دي جانيرو

متآمرو البرازيل

كان من المتوقع منذ نصف قرن تماما أن تستمر مناجم البرازيل طالما يستمر العالم لكن الذهب والألماس كانا يقلان باطراد وكانت الجزية التي يجب أن تدفع للملكة البرتغال وحاشيتها من المتطفلين تزداد ثقلا.

ومنذ ذلك الوقت أرسل كثير من البيروقراطيين الجشعين ولم يرسل تقني واحد. منعوا محالج القطن من إنتاج أي شيء سوى ملابس العبيد وحظروا استغلال الحديد الذي يستلقي في مدى ذراع وإنتاج البارود.

من أجل التخلص من أوروبا *التي تمتصنا كإسفنجة* تآمرت حفنة من السادة. منذ ثلاث سنوات نظم مالكو المناجم والمزارع والكهنة والشعراء والأطباء والمهربون والجنود انتفاضة هدفت إلى تحويل هذه المستعمرة إلى جمهورية مستقلة سيتحرر فيها السود والخلاسيون المحليون وسيرتدي الجميع ثيابا برازيلية.

قبل أن تدوي طلقة البندقية الأولى ذهب المخبرون إلى عملهم وسجن الحاكم متآمري «أورو بريتو» الذين اعترفوا تحت التعذيب متهمين بعضهم بتفاصيل حماسية. التمس «باسيليو دي بريتو مالهيرو» البراءة شارحا أن أي شخص يقدر عليه أن يولد في البرازيل يقلد العادات السيئة للسود والخلاسيين والهنود والبشر الآخرين السخيفين. «كلوديو مانوي داكوستا»، الأكثر تميزا بين السجناء، شنق نفسه في زنزانته أو شنق لأنه لم يعترف أو لأنه اعترف كثيرا.

ثمة من بقي صامتا، إنه الملازم أول جواكيم خوسيه دا سيلفا زافيير المعروف بـ«*ساكا ميلاس*»، نازع الأسنان، الذي فتح فمه ليقول: «*أنا المسؤول الوحيد*».

1792: ريو دي جانيرو

نازع الأسنان

بدوا كالجيف في ضوء الشمعة. كان المتهمون المقيدون بسلاسل ضخمة إلى قضبان النوافذ يصغون للقاضي طوال ثماني ساعات دون أن تفوتهم كلمة.

استغرقت صياغة الحكم الذي أصدره القاضي ستة أشهر. بعيدا في الليل، اكتشف الستة أنه حكم عليهم وسيشنقون وتقطع رؤوسهم ويفرمون.

ثم صمت القاضي بينما تبادل الرجال الذين أرادوا الاستقلال للبرازيل، التوبيخ والاعتذارات الإهانات والدموع، صيحات التوبة المكتومة أو الاحتجاج.

جاء عفو الملكة في الصباح الباكر وأفاد أن خمسة منهم سيحكم عليهم بالنفي بدلا من الموت. لكن واحدا منهم، الوحيد الذي لم يخن أحدا بل خانه الجميع سيسير إلى المشنقة فجرا. ستقرع الطبول من أجله وسيصدح الصوت التأبيني لمنادي البلدة في الشوارع معلنا الأضحية.

ليس نازع الأسنان أبيض، لقد انضم إلى الجيش ملازما أول وبقي دائما في هذه الرتبة ينتزع الأسنان ليدعم راتبه. أراد أن يكون البرازيليون برازيليين والطيور التي تختفي وراء الجبال حين تشرق الشمس، تعرف ذلك جيدا.

1794: باريس

علاج الإنسان هو الإنسان

علاج الإنسان هو الإنسان: هذا ما قاله الفقهاء السود وعرفته الآلهة دائما .لم يعد عبيد «هاييتي» عبيدا.

أدارت الثورة الفرنسية أذنا صماء طوال خمس سنوات، واحتج مارا (Marat) وروبسبير عبثا. استمرت العبودية في المستعمرات ورغم إعلان حقوق الإنسان فإن الرجال الذين كانوا ملكية رجال آخرين في مستعمرات جزر الآنتيل الزراعية البعيدة لم يولدوا أحرارا أو يتمتعوا بالمساواة. كانت

المتاجرة بالسود الذين من «غينيا» المشروع الرئيسي لتجارة الثوريين في نانت وبوردو ومرسيليا وعاشت معامل التكرير الفرنسية على السكر «الآنتيلي».

لكن حكومة باريس ألغت العبودية أخيرا وذلك بسبب مضايقة العصيان الأسود الذي قاده توسا لوفيرتير.

1794: جبال هاييتي

توسا

ظهر في المشهد منذ عامين. كانوا يدعونه في باريس *سبارتاكوس الأسود*.

امتلك توسا لوفيرتير جسم شرغوف وشفتين احتلتا تقريبا كل وجهه. كان سائق عربة في مستعمرة زراعية وعلمه عجوز أسود أن يقرأ ويكتب ويعالج الأحصنة المريضة ويتحدث مع البشر لكنه تعلم بطريقته الخاصة ألا ينظر بعينيه فحسب، وكان يعرف كيف يشاهد الطيران في كل طائر نائم.

1795: سانتو دومينغو

أحرقت الجزيرة

خائفا من تحرير العبيد في هاييتي، تخلى ملك إسبانيا عن «سانتو دومينغو» لفرنسا. مسحت شخطة قلم الحد الذي قطع الجزيرة إلى نصفين فاصلا أفقر المستعمرات الأسبانية عن أغنى المستعمرات الفرنسية. قال الدون مانويل كودوي، الضوء الرئيسي في بلاط مدريد: إن التمرد في «هاييتي» حول الجزيرة إلى *أرض ملعونة بالنسبة للبيض*.

كانت هذه المستعمرة الأولى لأسبانيا في أميركا حيث امتلكت الإمبراطورية محكمتها الأولى وكاتدرائيتها وجامعتها الأولى. ومن هنا أبحرت الحشود الغازية إلى «كوبا» و«بويرتو ريكو». بشرت ولادة كهذه بقدر عظيم لكن الحاكم أنطونيو دي أوزاريو حول تلك المستعمرة إلى دخان منذ قرنين.

عمل «أوزاريو» ليلا ونهارا في شي الأرض المذنبة متجها من نخلة إلى أخرى حارقا المنازل والحصون والزوارق والطواحين والزرائب والحظائر. رش الحقول بالملح بعد أن أحرقها. خنق بيديه أولئك الذين قاوموا وفي فرقعة اللهب صدحت أبواق القيامة.

بعد عام ونصف من الإحراق المتواصل وقف الحارق على الجزيرة التي دمرها وتلقى من ملك أسبانيا ألفي دوقية مقابل عمله التطهيري.

لقد طهر الحاكم أوزاريو، متطوع حرب «فلاندرز»، هذه الأرض مبتدئا بحرق المدن الشمالية لأنها كانت تقع على السواحل التي هبطها الهولنديون والإنكليز جالبين معهم أناجيل *طائفة لوثر*

وناشرين عادة أكل اللحم الهرطوقية يوم الجمعة الحزينة. لقد بدأ من الشمال ومذاك لم يعد بوسعه التوقف.

1795: كيتو

إسبيخو Espejo

مر في التاريخ قاطعا وخالقا.

كتب أكثر الكلمات حدة ضد النظام الاستعماري وأساليبه التربوية، *والتي هي تربية للعبيد* ونزع أحشاء أسلوب خطباء كيتو الطنان. ثبت بالمسامير خطبه اللاذعة على أبواب الكنائس وفي زوايا الشارع المزدحمة لكي تنتقل من فم إلى آخر *لأن الكتابة دون اسم يمكن أن تنزع قناع الحكماء المزيفين وتظهرهم في جهلهم الحقيقي والطبيعي.*

أراد أن يحكم أميركا من ولد فيها وألح على أن تطن صرخة الاستقلال بشكل متزامن في جميع الأصقاع التي يحكمها نواب الملوك وفي جميع البلاطات وأن تتحد المستعمرات لتصبح أوطانا في ظل حكومات جمهورية ديموقراطية.

كان ابن هندي وسمي عند الولادة شوسيك (Chusig) ويعني بومة الهري. ولكي يصبح طبيبا قرر أن يسمي نفسه فرانسيسكو خافيير دي سانتا كروز ي إسبيخو وهو اسم يوحي بنسب عريق وهكذا فقط يستطيع أن يمارس وينشر اكتشافاته ضد الجدري وطواعين أخرى.

أسس وحرر وكتب من الغلاف إلى الغلاف مجلة كيتو الأولى: ***ثمار الثقافة الأولى***، وكان مديرا للمكتبة العامة ولم يدفعوا له راتبه أبدا.

متهما بارتكاب جرائم ضد الملك والله، سجن «إسبيخو» في زنزانة قذرة ومات فيها بسبب الحجز بعد أن طلب وهو في نفسه الأخير الصفح من دائنيه.

لم تسجل مدينة كيتو في سجل مواطنيها الرئيسيين موت نذير الاستقلال الأميركي الهسباني الذي كان الأكثر تألقا بين أبنائها.

إسبيخو يسخر من خطابة هذه الأزمنة

أودع نسائم الإلهام المتفجرة، أضيع تذبذبات الحياة النابضة حين أسمع تلك المعميات المومضة للمفاهيم الخطابية. أية قناعة لذيذة في سماع طيور تم الخطابة اللحنية وهي تردد بجهورية ترنيمات مسقسقة في مقاطعها العذبة! أية فواصل لذيذة المذاق من الاطمئنان العظيم تدركه الروح في الأصداء المتناغمة لوصفها النبوئي.

1795: خليج مونتيغو

أدوات الحرب

لقد استحقت الكلاب الكوبية هيبتها جيدا، ذلك لأن الفرنسيين اصطادوا بها كثيرا من العبيد الفارين في جبال هاييتي، وكانت بعض الكلاب الكوبية كافية لإلحاق الهزيمة بهنود الميسكيتو (Miskito) الذين محوا ثلاثة أفواج أسبانية على سواحل «نيكاراغوا».

أرسل مالكو الأراضي الإنكليز في «جامايكا» العقيد ويليم دوز كواريل إلى كوبا لإحضار الكلاب لأن أمن الجزيرة وحيوات السكان يتطلبان ذلك كما قال المجلس. إن الكلاب أدوات حرب. ألم يستخدم الآسيويون الفيلة في حروبهم؟ وقال المزارعون الإنكليز إن أكثر أمم أوروبا تحضرا ورقيا تطارد مشاة الأعداء على الأحصنة، فلماذا لا تستخدم الكلاب لرصد مخابئ العبيد الفارين، بما أن السود، على أية حال،هم أكثر وحشية من الكلاب؟

حصل العقيد كواريل على ما يريده في كوبا بفضل المكاتب الجيدة لـ «دونا ماريا إغناسيا دي كونتريراس ي جستيس»، مركيزة سان فيليبي (San Felipe) وسانتياغو، كونتة قشتالة، ومالكة وسيدة البيجكال. صعد الرجال والكلاب إلى سفينة «ميركوري».

كان ضباب الغسق منتشرا حين وصلت الكلاب إلى «جامايكا» وفي ومضة فرغت الشوارع وأغلقت الأبواب بإحكام. اصطف أربعون حارسا كوبيا في ضوء المشاعل. وكان كل منهم يقود ثلاثة كلاب ضخمة مربوطة إلى حزامه بأغلال محكمة.

1795: هافانا

هل تخيل متمرد «الجليل» أنه سيصبح ناظرا أكبر للعبيد

لا يعاني العبيد من الإهمال في مستعمرات زراعة السكر في كوبا. كان المالك يعالجهم بالعمل ويختصر إقامتهم في وادي الدموع ذاك، وكان الكهنة ينقذونهم من الجحيم. كانت الكنيسة تحصل على 5٪ من إنتاج السكر مقابل تعليم العبيد أن الله جعلهم عبيدا وأن الجسد يستعبد لكن الروح حرة وأن الروح النقية تنظف من الصبغة في المطهر كالسكر الأبيض وأن يسوع المسيح هو الناظر الأكبر الذي يراقب ويكافئ ويعاقب ويجازي.

أحيانا لا يكون المسيح ناظرا فحسب بل يتجسد في سيد. كان الكونت «كاسا بايونا» يغسل أقدام إثني عشر عبدا في ليلة خميس الصعود، ويجلسهم إلى مائدته ويشاركهم في عشائه وكان العبيد يعبرون عن امتنانهم بإحراق مطحنة السكر التي يملكها وينتهي إثنا عشر رأسا في صف من الرماح قرب حقول القصب.

1796: أورو بريتو

إل أليخادنهو El Aleijadinho

كان إل أليخادنهو *الشلول الصغير*، خالق الثروات، ينحت بعقبه. كان نحات الجماليات الأرفع في إقليم المناجم البرازيلي قبيحا جدا. حاول عبد اشتراه أن ينتحر لينجو من خدمة سيد رهيب مثله. كان مرضه، الجذام أو السفلس، أو لعنة غامضة ما، يلتهمه لقمة لقمة. وكان يمنح العالم مقابل كل قطعة لحم تتمزق منه أعاجيب جديدة من الخشب والحجر.

كانوا ينتظرونه في «كونغونهاس دو كامبو». أيستطيع أن يفعلها؟ هل سيمتلك قوة كافية لينحت الأنبياء الإثني عشر ويرفعهم إزاء السماء الغامقة الزرقة؟ هل سيرقص أولئك الذين تنبأوا بحب وغضب الإله رقصتهم المعذبة، رقصة الحيوانات الجريحة؟

لم يعتقد أحد أنه يمتلك حياة كافية من أجل هذا العمل الكثير. كان العبيد يحملونه عبر شوارع «أورو بريتو» مختبئين تحت وشاحه ويربطون المعزق إلى ما تبقى من يده. كانوا يشاهدون خراب وجهه وجسمه ويقتربون من هذه الوحشية فحسب. تمزق «أنطونيو فرانسيسكو ليزبو»، إل أليخادنهو إلى أشلاء ولم يحلم أي قنفذ أن يقذفه بكرة ممضوغة.

1796: ماريانا

أتيدي Ataide

رصع مانويل جا كوستو أتيدي الأشكال الخشبية التي نحتها أليخادنهو بالذهب وزينها بالألوان. إنه فنان مشهور. بطريقته الخاصة ابتكر «أتيدي» في الكنائس فردوسا على الأرض ومستخدما صبغات الأزهار والنباتات رسم العذراء بوجه ماريا دو كرمو، المرأة التي ولدت هنا، المادونا السمراء التي تنبع منها الشمس والنجوم. ورسم ملائكة صغارا موسيقيين ومغنين بشفاه وحواجب غليظة وشعر أزغب وأعين مندهشة أو لعوب. كان الملائكة الخلاسيون أولاده والعذراء أمهم.

كانت الملامح الأفريقية مضفاة على قديس أسيسي (Assisi) الراعي الذي حول الذئاب إلى حملان في كنيسة سان فرانسيسكو في «ماريانا»، وكان إلى جانبه قديسون بيض بشعر حقيقي ووجوه نساء مجنونات.

1796: ساو سلفادور دي باهيا

الليل والثلج

كانت العاشقة الخلاسية تقدم النشاط الجنسي والمرأة البيضاء المكانة الاجتماعية. وكان على الخلاسي أن يبيض نفسه ليحظى بزوجة بيضاء. أما إذا كان يمتلك كثيرا من النقود فإنه يشتري

وثيقة تمحو وصمه الجدة الامة وتسمح له أن يتمنطق سيفا ويعتمر قبعة ويرتدي جزمة نصفية ويحمل مظلة حريرية. كان يحصل أيضا على صورة مرسومة يستطيع أحفاده أن يعرضوها في غرفة الجلوس دون أن يحمروا.

وصل إلى البرازيل فنانون يعرفون كيف يضفون مظهرا أوروبيا على أي موديل استوائي. كانت الإطارات الذهبية البيضوية الشكل تحيط رأس البطرق ذي الجلد القاني والشعر المستقيم والتعبير المراقب والجدي.

1796: كركاس

جلد أبيض للبيع

لم يعد التاج البريطاني يعتبر النسب الهندي رذيلة، لكن الدم الأسود، من ناحية أخرى، يسود *الولادات* لأجيال كثيرة. كان بوسع الخلاسيين الأغنياء أن يشتروا شهادات البياض مقابل خمسمائة قطعة نقدية فضية.

لكي يزيل اللطخة التي تؤله كثيرا أعلن الملك أن دييغو ميخياس بيخارون، خلاسي كركاس أبيض *بحيث لا تكون حالته المحزنة والتدنية عائقا أمام استخدامه، معاملته وبدائله ونمط ثيابه إزاء مواضيع أخرى.* كان بوسع البيض فقط في كاراكاس أن يحضروا القداس أو يركعوا على السجاد في أية كنيسة وكانت السلالة السيدة تعرف باسم *ذوي الثياب الفضفاضة* لأن الثوب الفضفاض امتياز للسيدات البيض وليس بمقدور أي خلاسي أن يصبح كاهنا أو طبيبا.

دفع ميخياس بيخارون خمسمائة قطعة نقدية لكن السلطات المحلية رفضت أن تطيع. أعلن عم سيمون بوليفار وذوو الثياب الفضفاضة الآخرون في مجلس البلدة أن المذكرة الملكية *تخيف ساكني وكريبوليي أميركا.* سأل مجلس البلدة الملك: *كيف يمكن أن يسمح السكان المحليون البيض في هذه المنطقة أن يكون إلى جانبهم خلاسي منحدر من عبيدهم أو من عبيد آبائهم؟*

1796: سان ماتيو

سيمون رودريغز (Simon Rodr?guez)

أذنا فأر، أنف بوربوني، فم كصندوق البريد. تتدلى شرابة حمراء من القبعة التي تغطي صلعته المبكرة. النظارة مرفوعة فوق الحاجبين ونادرا ما تساعد العينين الزرقاوين الحادتين والثاقبتين. كان سيمون كارينو الذي اختار اسم «رودريغز» يتجول مبشرا بمذاهب غريبة.

ادعى قارئ روسو هذا أن المدارس يجب أن تفتح للشعب ولذوي الدم المختلط وأن الفتيات والفتيان يجب أن يجلسوا في غرف الصفوف نفسها وسيكون أكثر فائدة للبلاد إعداد البنائين والحدادين والنجارين بدلا من إعداد السادة والرهبان.

سيمون المدرس وسيمون التلميذ، سيمون رودريغز الذي يبلغ الخامسة والعشرين من العمر وسيمون بوليفار أغنى يتيم في فنزويلا، وارث المنازل والمزارع، مالك ألف عبد ويناهز الثالثة عشرة.

بعيدا عن «كركاس» يطلع المدرس الفتى على أسرار الكون ويحدثه عن الحرية والمساواة والإخاء ويكشف له الحياة القاسية للعبيد الذين يعملون له ويقول له إن نبات أذن الفأرة يمتلك اسما آخر. أراه كيف يولد المهر من بطن الفرس ويكمل الكاكاو والبن دورتهما. أصبح بوليفار سباحا، متسلقا وخيالا، تعلم أن يبذر، أن يصنع كرسيا وأن يسمي النجوم في سماء «أرغوا». عبر الأستاذ والتلميذ فنزويلا وخيما حيث استطاعا وعرفا معا الأرض التي صنعتهما. في ضوء قنديل قرآ وناقشا «*روبنسون كروزو و*»*حيوات*» بلوتارك[1] (Plutarch).

1797: لاغوايرا La Guaira

البوصلة والمربع

قطع تربية بوليفار هرب معلمه. غير سيمون رودريغز الذي اشتبه بأنه يتآمر ضد الملك، اسمه إلى سيمون روبنسون، وأبحر من ميناء «لاغوايرا» إلى جامايكا وإلى المنفى.

أراد المتآمرون أميركا مستقلة وجمهورية دون جزية محلية أو رقيق أسود، حرة من الملك والبابا وحيث تكون جميع السلالات أشقاء وشقيقات على مستوى العقل وعلى مستوى الإيمان بيسوع المسيح.

ترأس الحركة الماسونيون الكريبوليون الذين ينتمون إلى المحفل الذي أسسه فرانسيسكو دي ميراندا في لندن. اتهم أيضا ثلاثة ماسونيين أسبان منفيين إلى كركاس. قيل إن رجالا فرنسيين متمرسين في الثورات والمقاصل انخرطوا في المؤامرة أيضا. وكشفت الغارات كتبا محظورة أكثر من الأسلحة الخطيرة.

رسمت أسبانيا وقطعت في ساحة «كركاس» الرئيسية: وكان خوسيه ماريا دي إسبانا رئيس المؤامرة.

1799: لندن

ميراندا

مر ثلاثون عاما على مغادرة فرانسيسكو دي ميراندا لفنزويلا. كان محاربا منتصرا في أسبانيا وأصبح ماسونيا في قادس وذهب في جولة إلى أوروبا ناشدا السلاح والمال من أجل استقلال أميركا.

---

[1] كاتب سير يوناني. أشهر آثاره كتاب «حيوات متوازية».

انتقل من بلاط إلى آخر على بساط سحري دون متاع سوى مزمار ولقب كونت مزور ورسائل تعريف كثيرة. سماه شعب باريس بطلا لكن روبسبير حكم عليه كخائن. ولكي ينقذ ميراندا رأسه عبر القناة إلى لندن بجواز سفر مزور وشعر مستعار ونظارة شمسية.

استقبله رئيس الحكومة الإنكليزية «ويليام بيت» في مكتبه وأرسل في طلب الجنرال «أبرجرومبي» وتحدث الثلاثة وهم يزحفون على أيديهم وركبهم على الخرائط المنشورة على الأرض.

ميراندا: (بالإنكليزية): يجب أن يكون واضحا أن كل هذا يجب أن يفعل من أجل استقلال وحرية تلك المناطق، التي بدونها... (*محدقا بالسقف، انتقل إلى الأسبانية*) سيحل العار.

أبرجرومبي (*هازا رأسه*): الاستقلال والحرية.

ميراندا: أحتاج إلى أربعة آلاف رجل وست سفن حربية. (*يشير بإصبع إلى الخريطة*) يجب أن نبدأ بمهاجمة كركاس و...

بيت: لا تتذمر لأنني سأتحدث معك بصراحة. أفضل حكومة أسبانيا الظالمة على نظام فرنسا المقيت.

ميراندا: (*يغمض عينيه ويهمس بالإسبانية*): إن عدو عدوي هو صديقي. إن عدو عدوي صديقي. إن عدو...

بيت: لا أريد أن أدفع الأميركيين إلى مصائب ثورة كهذه.

ميراندا: أفهم وأشاركك قلقك يا صاحب السعادة. إنني أطلب التحالف من أجل هذا بالضبط وسوية نستطيع أن نقاتل ضد المبادئ الوحشية للحرية الفرنسية (*يعود إلى الخريطة*) ستسقط كركاس بسهولة...

أبرجرومبي: ولكن ماذا إذا تسلح الملونون؟ وماذا إذا سيطروا كما حدث في «هاييتي»؟

ميراندا: إن راية الحرية في بلادي هي في يد مواطنين لامعين يتمتعون بعادات متحضرة مثل الذين أرادهم أفلاطون لجمهوريته. (*تنزلق يده إلى منطقة «سانتافه» ويثبت الثلاثة أعينهم على ميناء قرطاجنة*).

أبرجرومبي: يبدو الأمر صعبا.

ميراندا: يبدو منيعا لكنني أعرف نقطة دفاعها ضعيف جدا، في الخاصرة اليمنى للمتراس...

ميراندا يحلم بكاثرين روسيا

أحيانا وفي وقت متأخر من الليل يعود ميراندا إلى سان بطرسبرغ ويستحضر كاثرين العظيمة في غرف قصرها الشتوي الحميمة. كان القطار اللانهائي لرداء الإمبراطورة،الذي تحمله في الجو آلاف الوصيفات، نفقا من الحرير المطرز اندفع فيه ميراندا إلى أن غاص في بحر من المخرمات. باحثا عن الجسد الذي يحترق وينتظر، فك ميراندا أزرارا ذهبية وحبال لآلئ وشق طريقه بين مواد

تصدر حفيفا. خلف الانتفاخ الواسع للجزء السفلي للثوب خدشته أسلاك القرينول لكنه نجح في اختراق الدرع ووصل إلى التنورة التحتانية الأولى ومزقها بشدة واحدة. وجد تحتها تنورة أخرى وأخرى وتنورات أخرى عديدة ناعمة الملمس كاللؤلؤ وقشور بصل كانت أصابعه تقشرها بمعنويات تقل باطراد. وحين تغلغل بعد جهد كبير خلال التنورة الأخيرة ظهر المشد كحصن منيع يحميه جيش من الأحزمة والعلاقات والشرائط الصغيرة والأزرار بينما كانت السيدة المهيبة، ذات الجسد الذي لا يتعب أبدا، تئن وتتضرع.

1799: كومانا Cumana

حكيمان يمتطيان بغلا

كان العالم الجديد كبيرا جدا على عيني الأوروبيين اللذين وصلا لتوهما إلى «كومانا». كان المرفأ يتلألأ فوق النهر متوهجا من الشمس وتوضعت منازل من الألواح الخشبية البيضاء أو الخيزران إلى جانب الحصن الحجري ووراء ذلك، كان البحر الأخضر والأرض الخضراء والخليج المتألق. كان كل شيء جديدا لم يستخدم أو يشاهد أبدا: ريش طيور الفلامنكو، مناقير البجع، أشجار جوز الهند التي يبلغ ارتفاعها ستين قدما والأزهار المخملية الضخمة وجذوع الأشجار المغطاة بالنبات المتسلق والأوراق، القيلولة الأبدية للتماسيح، السرطانات السماوية والصفراء والحمراء... كان هناك هنود ينامون عراة على الرمل الدافئ وخلاسيات يرتدين ثيابا من الموصلين المطرز تداعب أقدامهن العارية الأمكنة التي يسرن عليها. هنا ليس ثمة شجرة لا تقدم فاكهة محرمة من مركز الجنة الضائعة.

استأجر أليكسندر فون همبولت وإيمي بونبلان منزلا يطل على الساحة الرئيسية يحتوي على منبسط جيد لتركيب المنظار. حين نظرا إلى الأعلى من ذلك السطح شاهدا كسوف الشمس وزخة شهب والسماء الغاضبة تنفث نارا طوال ليلة كاملة. وحين نظرا إلى الأسفل شاهدا كيف يفتح مشترو العبيد أفواه السود الذين وصلوا حديثا إلى سوق كومانا. جربا في هذا المنزل الزلزال الأول في حياتهما وهذا جعلهما يخرجان لاستكشاف المنطقة. صنفا السرخس والطيور النادرة وبحثا عن «فرانسيسكو لويانا» الذي أرضع ولده خمسة أشهر وامتلك حلمتين وحليبا نقيا عذبا بينما كان زوجته مريضة.

فيما بعد انطلق همبولت وبونبلان إلى المرتفعات الجنوبية حاملين معهما آلة السدس والبوصلة والمقياس الحراري ومقياس الرطوبة ومقياس المغنطيسية. أحضرا أيضاً ورقاً للأزهار الجافة، مشارط لتشريح الطيور والأسماك والسرطانات وحبراً وقلماً لرسم جميع العجائب. انطلق على ظهر بغل مثقل بالعتاد كلٌّ من الألماني ذي القبعة السوداء والعينين الزرقاوين والفرنسي ذي النظارة المكبّرة النهمة.

مرتبكةً، انفتحت غابات وجبال أميركا لهذين المعتوهين.

1799: مونتيفيديو

والد الفقراء

أسس «فرانسيسكو أنطونيو ماسييل» أول مصنع للحم المقدد على ضفة «الريفر بلاتا». وكان يملك أيضا مصنع الصابون والشمع. وكان مشعل المصابيح الذي يدور في شوارع مونتيفيديو حين يخيم الليل حاملا مشعلا في يده وسلما على كتفه هو الذي يشعل شموع «ماسييل».

حين لا يكون ماسييل متجولا في حقوله فإنه يتواجد في مصنع اللحم المقدد ليفحص الشرائح التي سيبيعها لكوبا أو البرازيل، أو يكون في المرفأ ليتفحص الجلود التي سيصدرها. غالبا، ما كان يرافق مراكبه الشراعية التي تحمل أسماء القديسين إلى ما وراء الخليج. سماه المونتيفيديون أب الفقراء لأنه كان يمتلك دائما الوقت ليسعف المرضى المتروكين لرعاية الله، رغم أن ذلك كان يبدو معجزة. كان ماسييل التقي يمد صحنا في أي وقت وأي مكان طالبا الصدقات للمستشفى الخيري الذي أسسه، ولا ينسى أن يزور السود الذين يمضون أسبوع الفصح في الثكنات في البراكات الواقعة عند فم نهر ميكيليت (Miguelete). كان يحدد شخصيا السعر الأدنى لكل عبد تحضره سفنه من ريو دي جانيرو أو هافانا. كان يسعِّر الذين يمتلكون أسناناً كاملة بـ «مئتي بيزوس» والذين يعرفون فنون البناء والنجارة بـ«أربعمائة».

إن ماسييل هو الأهم بين رجال أعمال «مونتيفيديو» المختصين بالمتاجرة باللحم البشري.

1799: غواناخواتو

حياة وهوى وعمل الطبقة الحاكمة

كان مالكو مناجم غواناخواتو وزاكتيكاس يشترون ألقاب النبالة العليا طوال القرن الذي كان يُحتضر. أصبح عشرة من مالكي المناجم كونتات وأصبح ستة مركيزات. وبينما كانوا يزرعون أشجار أنساب ويجربون اللمات المستعارة، كانت شيفرة عمل جديدة تحوِّل عمالهم إلى عبيد ديون. ضاعفت غواناخواتو في القرن الثامن عشر إنتاج الفضة والذهب ثماني مرات.

في غضون ذلك لمس الصولجان السحري للمال سبعة تجار من مكسيكو سيتي ومزارعين من جبال أسبانيا الشمالية وحولهم إلى مركيزات وكونتات.

اشترى بعض مالكي المناجم والتجار المتلهفين للمكانة الأرستقراطية الأراضي بالإضافة إلى الألقاب. تقدّمت في المكسيك عدة مزارع ملتهمة الأراضي التقليدية للجماعات الهندية.

فضّل آخرون أن يذهبوا من أجل الربا. على سبيل المثال، جازف المرابي خوسيه أنطونيو ديل مازو بالقليل وربح الكثير. كتب فرانسيسكو آلونزو تيران: *إن الصديق مازو هو أحد الذين*

يقومون بمعظم العمل في «غواناخواتو»، وإذا منحه الله حياة طويلة فإنه سيضع المدينة كلها في بطنه.

1799: مدينة شيباس الملكية

التاميميز (The Tamemes)

خطط الدون أوغسطين دي لاس كوينتاس زاياس، حاكم شيباس، طريقا يمتد من نهر توليخا إلى كوميتان، على الطريق إلى غواتيمالا، واقتضت الخطة أن ينقل (1200) من الـ التاميميز المواد الضرورية.

إن «التاميميز»، البغال التي تسير على ساقين، هم هنود قادرون على حمل مائة وخمسين رطلا. كانوا يحملون صرات كبيرة على ظهورهم بحبال مربوطة حول جباههم وحملوا أيضا بشرا جالسين على كراس وهكذا اجتازوا جبالا عالية ونجوا بأعجوبة من الجروف بقدم في الحياة وأخرى في الفراغ.

1799: مدريد

فرناندو توباك آمارو

كان أحد ما في الشارع ينتزع الآلام من الغيتار وكان فرناندو توباك آمارو في الداخل يرتجف من الحمى ويحتضر حالما أنه يزيل ثلجا.

لم يصل ابن زعيم «بيرو» العظيم إلى سنه الثلاثين. فقيرا كجرذ أنهى في مدريد حياة السجن والمنفى القصيرة.

منذ عشرين عاما، مسح مطر عنيف ساحة كوزكو الرئيسية ومذاك لم يتوقف المطر في العالم.

قال الطبيب إن فرناندو مات من الكآبة.

1800: نهر آبيور Apure

إلى نهر أرينوكو

كانت أميركا تلتهب وتدور وقد أحرقتها شموسها وسببت لها الدوار. كانت أشجار عملاقة تتعانق فوق الأنهار وكان قارب الفقيهين يتوهج في ظلها.

تقدم القارب تطارده العصافير وجحافل بعوض جائعة. كان همبولت وبونبلان يصفعان باستمرار ليدافعا عن أنفسهما من الرماحين الذين يخترقون الثياب والجلد ويصلون إلى العظام، بينما يدرس الألماني تشريح خروف البحر، السمكة السمينة ذات اليدين أو كهرباء الأنقليس أو

أسنان السمك الضاري (البيرانا)، ويجمع الفرنسي النباتات ويصنّفها أو يقيس تمساحاً ويحسب عمره. كانا يرسمان الخرائط معاً ويسجلان حرارة المياه وضغط الجو، يحللان «الميكا» في الرمل وأصداف الحلازين ومرور حزام أوريون (Orion) في الجو. أرادا أن تخبرهما أميركا كلَّ ما تعرفه وهنا لا توجد ورقة أو حصاة خرساء.

خيَّما في تجويف صغير وأنزلا الحمولة المزعجة. أشعلا ناراً ليطردا البعوض وليطبخا. فجأة نبح الكلب كأنه يحذر من يَغْوَر يقترب وركض ليختبئ تحت ساقي «بونبلان». نقر طائر الطوقان الذي يحمله همبولت على كتفه قبّعته القشية بعصبيّة. أصدر النبات المتسلق صوتاً وظهر من بين الأشجار رجل عارٍ ذو جلد نحاسي اللون ووجه هندي وشعر أفريقي.

«أهلاً بكم في أرضي أيها السيدان».

ثم انحنى قائلاً: «الدون إغناسيو، بخدمتكم».

نظر الدون إغناسيو إلى النار المشتعلة. كان الفقيهان يشويان جرذاً مائياً، فقال بازدراء: «هذا طعام هندي». ثم دعاهما إلى العشاء في منزله ليتناولوا لحم غزال طازج.

كان منزل الدون إغناسيو يتألف من ثلاث شباك مربوطة إلى أشجار قريبة من النهر. وهناك عرّفهما على زوجته الدونا إيزابيلا وابنته الدونا مانويلا اللتين لم تكونا عاريتين مثله. قدّم سجائر للمسافرين. وبينما كان لحم الغزال ينضج ثقبهما بالأسئلة. كان الدون إغناسيو جائعاً لمعرفة أنباء بلاط مدريد والأنباء الأخيرة عن تلك الحروب التي تجرح أوروبا كثيراً.

1800: إيسميرالدا دِل أرينوكو

سيد السم

أبحرا منحدرين في النهر.

في سفح جبل صخري وفي إرسالية إيسميرالدا المسيحية البعيدة قابلا سيد السم. كان مختبره أنظف وأرتب كوخ في القرية. سكب الهندي العجوز المحاط بالمراجل المدخنة والأباريق الفخارية عصيراً أصفر في أوعية مخروطية مصنوعة من ورق الموز وفي أقماع من سعف النخل. سقط الكوراري المرعب قطرة قطرة ورغا. إن السهم الذي يُدهن بهذا الكوراري سيدخل ويقتل بشكل أفضل من ناب الأفعى. قال العجوز وهو يمضغ بعض النباتات ولحاء الشجر ليحولها إلى معجون: «هذا أفضل من أي شيء تصنعونه».

فكّر همبولت: *إنه يمتلك اللهجة المتحذلقة والأسلوب الرسمي مثل صيادلتنا.*

تابع العجوز وهو يسكب ببطء وبيد موسوسة الماء على المعجون: أنتم اخترعتم البارود الأسود.

ثم قال بعد توقّف: أعرفه. إن ذلك البارود لا يساوي شيئاً. ولا يمكن الاعتماد عليه. لا يستطيع البارود أن يقتل بهدوء ويقتل حتى حين تُخطئ هدفك».

أجّج النار تحت الأباريق والآنية وسأل من داخل الدخان: أتعرفون كيف تصنعون الصابون؟

قال بونبلان: «إنه يعرف».

نظر العجوز إلى «همبولت» باحترام قائلاً: إن الصابون هو الشيء الكبير بعد الكورير.

كوراري Curare

نجح «غوام»، الإله الطفل لهنود التوكان (Tukan) في الوصول إلى مملكة السم. أمسك هناك ابنة كوراري ومارس الحب معها. كانت هناك عناكب وعقارب وأفاع مختبئة بين ساقيها. وكان «غوام» يموت في كل مرة يدخل فيها جسدها، وحين كان ينبعث كان يشاهد ألواناً ليست من هذا العالم.

أخذته إلى منزل والدها. لعق العجوز كوراري الذي كان يأكل البشر نَفْسَه لكن «غوام» تحوّل إلى برغوث وبهذه الطريقة دخل فم العجوز وزحف إلى كبده وأخذ لقمة. غطّى «كوراري» فمه وأنفه وأذنيه وعينيه وسرته ومؤخرته وقضيبه كي لا يهرب البرغوث،لكن «غوام» كركره من الداخل وخرج مع العطاس.

هرب عائداً إلى بلاده حاملاً في منقاره قطعة صغيرة من كبد كوراري.

وهكذا حصل هنود «التوكان» على السم كما روى رجال الزمن الغني، حرّاس الذاكرة.

1800: أروانا Uruana

أرض إلى الأبد

قبالة جزيرة «أروانا» قابل «همبولت» الهنود الذين يأكلون التراب.

كان نهر أرينوكو، *أب الأنهار*، يرتفع كل عام ويغمر ضفتيه شهرين أو ثلاثة. وبينما يستمر الطوفان، يأكل هنود الأوتوماكوس (Otomacos) الطين الناعم المجفف قليلاً بالنار ويعيشون عليه.أكّد همبولت أنه تراب محض غير مخلوط بطحين الذرة أو زيت السلاحف أو دهن التماسيح.

هكذا يسافر هؤلاء *الهنود المتجولون* عبر الحياة إلى الموت طيناً يتجوّل نحو طين، طيناً منتصباً يأكل التراب الذي يأكلهم.

1801: بحيرة كواتافيتا

الإلهة التي في قاع المياه

كانت ألدورادو لا تزال تشغل جزءاً جيداً من «غويانا» على خرائط أميركا. كانت بحيرة الذهب تهرب حين يقترب صيادوها وكانت تلعنهم وتقتلهم، لكنها على الخرائط بقعة زرقاء هادئة مضمومة إلى نهر أرينوكو الأعلى.

حلّ «همبولت» و«بونبلان» لغز البحيرة المخادعة. اكتشفا في الحجر المعدني المتلألئ في جبل يسميه الهنود الجبل الذهبي جزءاً من الهلوسة واكتشفا الجزء الآخر في بحيرة صغيرة تغزو في الفصل الممطر السهل الواسع الذي يجاور نبع مياه نهر «أرينوكو»، ثم تختفي حين تتوقّف الأمطار.

تستلقي البحيرة الشبحية، أكثر هذيانات أميركا إغراءً، في غويانا. بعيداً، على هضبة «بوغوتا»، تقع الدورادو الحقيقية. اكتشفها «همبولت» و«بونبلان» بعد أن قطعا فراسخ عديدة في القارب وعلى البغل في بحيرة «كواتافيتا» المقدسة. كانت مرآة المياه تعكس أصغر ورقة في الغابات التي تحيط بها وكان كنز هنود الميوسكا (Muisca) يستلقي في قاعها.

جاء إلى هذا الملاذ أمراء تتوهج أجسادهم العارية بغبار الذهب ورموا في وسط البحيرة أروع أعمال حداديهم ثم غاصوا. إذا خرجوا دون لطخة ذهب واحدة على الجلد فهذا يعني أن الإلهة «فوراتينا» قبلت تقدماتهم. كانت الإلهة «فوراتينا»، الإلهة الأفعى، تحكم العالم في تلك الأزمان من الأعماق.

1801: بوغوتا

Mutis ميوتيس

كان الراهب العجوز يتحدث وهو يقشر البرتقال وكان شلال لا ينتهي من لفافات الذهب يهبط إلى مقلاة بين قدميه.

انعطف همبولت وبونبلان عن طريقهما المتجه جنوباً وسارا صعوداً مع النهر أربعين يوماً كي يشاهداه ويصغيا إليه. كان «خوسيه سلستينو ميوتيس»، بَطْرَق علماء النبات في أميركا، ينام تحت تأثير الخطابات لكنه يستمتع بالثرثرات الحميمة كأي شخص آخر.

تبادل الفقهاء الثلاثة الذين أدهشهم دائماً جمال وسر الكون، النباتات والأفكار والشكوك والاكتشافات. أثار «ميوتيس» الحديث عن بحيرة «كواتافيتا» ومناجم «زيبا كويرا» وشلال «تيكينداما». مدح خريطة نهر «ماجدالينا» التي رسمها همبولت واقترح بعض التغييرات معتمداً على حكمة شخص سافر كثيراً وتعلم كثيراً وكان يعرف في داخل نفسه أن شيئاً منه سيبقى في العالم.

كان يشرح ويقول كل شيء ويتحدث، وهو يأكل ويقدم البرتقال، عن الحروف التي كتبها له لينايوس (Linnaeus) وكم علمته وعن مشاكله مع محاكم التفتيش. تذكر وقدم اكتشافاته عن القوى العلاجية للحاء الكينين (quinine) وعن تأثير القمر على مقياس الضغط الجوي وعن دورات الأزهار التي تنام مثلنا وتتمدّد وتستيقظ شيئاً فشيئاً ناشرة تويجاتها.

1802: البحر الكاريبي

نابليون يستعيد العبودية

رافقت الجيش الفرنسي أسراب من البط البري وطارت الأسماك. وعبر بحر تركوازي، يعج بالمرجان اتجهت السفن إلى جبال «هاييتي» الزرقاء. وحالا ظهرت في الأفق أرض العبيد المنتصرين. كان الجنرال لوكليرك يقود الأسطول وكان ظله أول من شق الأمواج كتمثال في مقدم سفينة. اختفت جزر أخرى كالحة، قلاع صخور، روائع خضراء في الأعماق، حراس العالم الجديد الذين عثر عليهم منذ ثلاثة قرون شعب لم يكن يبحث عنهم.

«أي نظام كان أكثر ازدهارا في المستعمرات؟»

«السابق».

أجاب نابليون: *«حسنا أعيدوه».*

قال توسا لوفيرتير: *إن أي إنسان ولد أحمر أو أسود أو أبيض لا يمكن أن يكون ملكا لجاره،* لكن الإسطول الفرنسي أعاد العبودية إلى البحر الكاريبي وقامت خمسون سفينة تحمل أكثر من عشرين ألف جندي بإعادة الماضي بمدفعيتها.

في كابينة بارجة الأميرال، كانت عبدة تهوي لبولين بونابرت وكانت أخرى تحك رأسها بلطف.

1802: بوانت آبيتر pointe – Pitre

كانوا مستاءين

أصبح العبيد الأحرار في جزيرة «غوادالوبه» وجميع المستعمرات الفرنسية عبيدا مرة أخرى. عاود المواطنون السود الظهور في بيانات مالكيهم ووصاياهم كسلع قابلة للبيع وشكلوا مرة أخرى جزءا من سجلات أدوات المزارع وعتاد السفن وترسانة الجيش. استدعت الحكومة الاستعمارية البيض الذين غادروا الجزيرة وضمنت لهم عودة الملكية وبيع السود الذين لم يطالب بهم مالكوهم إلى الخزينة العامة.

تحول الاصطياد إلى مذبحة ودفعت سلطات «غوادالوبه» 44 فرنكا مقابل رأس كل متمرد. وتواصل تعفن المشنوقين على قمة هضبة «كونستانتين». لم تنطفئ أبدا النار التي أشعلت لحرق السود في «بليس فيكتوريا» في «بوانت آبيتر» وارتفعت ألسنة اللهب فوق المنازل.

احتج ثلاثة بيض فحكم عليهم من أجل كرامتهم واستيائهم. حكم على الضابط الفرنسي ميليه دو لا جيراردبير، الذي منح أوسمة عدة مرات، بالإعدام في قفص حديدي أمام الجمهور وهو جالس على أوراق شوكية عاريا، أما الإثنان الآخران «باريس» و«باربي» فقد حطمت عظامهما قبل أن يحرقا حيين.

1802: بركان شيمبورازو

على سقوف العالم

تسلقا فوق الغيوم وسط مهاوي الثلج متمسكين بجرم شيمبورازو الفظ ومزقا أيديهما على الصخر العاري. تركا البغلين في منتصف الطريق وحمل «همبولت» على كتفه حقيبة ملآى بالأحجار التي تتحدث عن أصل سلسلة الجبال الآندية التي ولدت من تقيؤ غير عادي لبطن الأرض الساطع. اصطاد «بونبلان» فراشة على ارتفاع سبعة عشر ألف قدم وذبابة لا تصدق في ارتفاع أعلى. ثم تابع الإثنان التسلق رغم البرد القارس والدوار والانزلاقات والدم الذي نزف من أعينهما ولثتيهما وشفتيهما المزقتين. غلفهما الضباب وهما يتسلقان إلى البركان، دون قدرة على الرؤية، إلى أن سطع شعاع ضوئي وكشف القمة، ذلك البرج الأبيض، أمام المسافرين المنذهلين. أيعقل أن هذا حقيقي! لم يحدث أبداً أن تسلّق إنسان إلى مكان قريب من السماء وقيل إن أحصنة تطير إلى الغيوم ونجوماً ملوّنة في النهار تظهر على سطوح العالم. أهي هَلْوَسة كاتدرائية الثلج هذه التي ترتفع بين السماوات الشمالية والجنوبية؟ ألا تخدعهما أعينهما المكدودة؟.

شعر «همبولت» بغنىً ضوئي أكثر توتراً من أي هذيان: نحن مصنوعون من الضوء، هذا ما شعر به «همبولت». نحن أنفسنا مصنوعون من الضوء والأرض والزمن أيضاً. وشعر برغبة هائلة في أن يقول هذا حالاً للأخ غوته الذي كان يسكن هناك في منزله في «فايمر».

1803: حصن دوفن

احترقت الجزيرة ثانية

مات «توسّا لوفيرتر زعيم السود الأحرار سجيناً في قلعة بفرنسا. حين فتح السجّان وأنزل الرتاج فجراً وجد توسّا متجمداً على كرسي.

لكن الحياة في «هاييتي» استمرت وبدون توسّا وجّه الجيش الأسود ضربات لنابليون بونابرت وذُبِحَ عشرون ألف جندي فرنسي أو ماتوا من الحمّى. استحال الجنرال لوكليرك دماً أسود متخثراً وتحولت الأرض التي أراد أن يستعبدها إلى كفن له.

فقدت «هاييتي» نصف سكانها واستمرت أصوات الطلقات ومطارق التوابيت وطبول الجنازات في كومة الرماد الواسعة المفروشة بجثث تعبث بها العقبان. هذه الأرض التي أحرقها منذ قرنين ملاك مبيد التهمتها من جديد نار رجال متحاربين.

فوق الأرض التي ينبعث منها الدخان أعلن الذين كانوا عبيداً الاستقلال. لن تغفر فرنسا أبداً لتلك الإهانة.

على الساحل، شكلت أشجار النخيل التي أحنتها الريح، صفوفاً من الرماح.

1804: مكسيكو سيتي

مستعمرة أسبانيا الأغنى

كان بروفسورات اللاهوت لا يزالون يكسبون أكثر بخمس مرات من زملائهم المختصين بالجراحة أو الفلك لكن «همبولت» وجد في مكسيكو سيتي حضانة من العلماء الشبان. وكان هذا إرث بعض الكهنة اليسوعيين أصدقاء الفيزياء التجريبية والكيمياء الحديثة وبعض نظريات ديكارت الذي علّم وأفسد هنا رغم محكمة التفتيش. وجاء هذا أيضاً من عمل نائب الملك «ريفيلا غيغيدو» (Revillagigedo)، ذلك الرجل المنفتح على رياح الزمن، ومتحدي المذاهب القطعية، والذي حكم منذ بضع سنوات هذه الأراضي بقلق مخيف حيال فقدان الآلات والمختبرات والكتب الحديثة.

اكتشف «همبولت» ومدح «مدرسة التعدين» وبروفسوراتها العارفين بينما كانت المكسيك تنتج فضة أكثر من بقية العالم ويتدفق نهر الفضة إلى أوروبا من خلال ميناء فيراكروز. حذّر «همبولت» في الوقت نفسه أن الأرض المحروثة قليلة ومشغولة بشكل سيء وأن الاحتكار الاستعماري للتجارة وبؤس الشعب يعيقان تطور الصناعة.

قال: *المكسيك هي أرض اللامساواة. إن اللامساواة الوحشية في الحقوق والثروات تصفع المرء على وجهه.*

كان الكونتات والمركيزات يرسمون شعارات نبالة، اشتريتْ حديثاً، على عرباتهم. ويعيش الشعب في بؤس هو عدو للصناعة. عانى الهنود من فقر وحشي، وكما في كل أميركا، هنا أيضاً يقرر *جلد أبيض أكثر أو أقل أية طبقة يشغل الإنسان في المجتمع.*

1804: مدريد

النائب العام لمجلس جزائر الهند الغربية

ينصح ضد الإفراط في بيع وثائق البياض لكي لا يعمّم الملونون هذه الفضائل معتقدين أنها تجعلهم مساوين للبيض دون فرق سوى مصادفة اللون. ولكي لا يظنوا أنفسهم قادرين على أن يحصّلوا جميع الأقدار والوظائف، وأن يشكلوا روابط مع أية عائلة شرعية حرة من الخلائط... وهذه عواقب من المناسب تجنبها في الملكية حيث يدعّم التصنيف الطبقي النظام الأفضل والأمن والحكومة الجيدة...

إن الأشخاص الملونين أو السمر المنحدرين من خلائط مريضة يشكلون نوعاً أدنى، والذي نظراً لطبيعته الفاسدة وجهله وميله إلى الحرية، كان قليل الارتباط بحكومتنا وأمتنا ...

1804: كاتاماركا

خطيئة أمبروزيو

مقيداً إلى عمود في ساحة كاتاماركا الرئيسية، تلقّى أمبروزيو ميليكي خمساً وعشرين جلدة.

شُجِبَ الخلاسي أمبروزيو الذي كان يمتلكه القائد نييفا ي كاستيللو، أمام السلطات لأنه ارتكب جرم تعلم القراءة والكتابة. شقوا ظهره بالجلدات *ليلقنوا حاملي القلم الهنود والخلاسيين الذين يرغبون أن يحاكوا الأسبان درساً.*

كان أمبروزيو يئن ويهذي ويحلم بالانتقام منبطحاً على الأحجار. توسّل في حلمه قائلاً: *اعذروني* وطعن نفسه بالمدية.

1804: باريس

نابليون

استحضرت أوتار الأرغن المقدسة الملوك الستين الذين حكموا فرنسا وربما الملائكة أيضاً بينما كان البابا يقدم التاج إلى نابليون بونابرت.

كلل نابليون جبينه بغار القياصرة وهبط ببطء، ملكياً، في فرو الفاقوم واللون الأرجواني وألبس جوزفين التاج الذي يكرسها كأول إمبراطورة في تاريخ فرنسا. وصلا في عربة ذهبية وكريستالية إلى عرش تلك الأمة، ذلك الأجنبي الصغير والمحارب العظيم الذي جاء من جبال «كورسيكا» القاسية وزوجته جوزفين، المولودة في «المارتينيك» الآنتيلية، والتي يحرقك عناقها إلى درجة الهشاشة كما يقولون. نابليون، الملازم أول في سلاح المدفعية، والذي كان يكره الفرنسيين، أصبح نابليون الأول.

تدرّب مؤسس السلالة التي تدشّن اليوم على حفل التتويج هذا ألف مرة. ارتدى كل شخص في الحاشية وكل ممثل الثياب التي حددها، وضع نفسه حيث أراد، وتحرك وفق أوامره.

آهٍ يا خوسيه لو كان بوسع والدنا أن يشاهدنا...

قام الأقرباء الجشعون، أميرات وأمراء طبقة النبلاء الجديدة في فرنسا، بواجبهم. صحيح أن الأم لايتيسيا (Laeticia) رفضت أن تأتي وهي موجودة في القصر وتطلق الشكاوى، لكن نابليون أمر ديفيد، الفنان الرسمي، أن يمنح «لايتيسيا» مكاناً بارزاً في اللوحة التي ستخبر الأجيال القادمة عن هذه الطقوس.

اكتظّت كاتدرائية نوتردام بالضيوف وكان بينهم فنزويلي شاب يمدّ عنقه كي لا يفقد أي تفصيل. مهلوساً، حضر سيمون بوليفار في سن العشرين ولادة الملكية النابليونية: *لست أكثر من ماسة على مقبض سيف بونابرت...*

أثناء تلك الأيام قابل بوليفار أليكسندر فون همبولت في صالون مموه بالذهب وقال له الفقيه المغامر الواصل حديثاً من أميركا: *أعتقد أن بلادك ناضجة للاستقلال لكنني لا أرى الرجل الذي يستطيع.*

1804: إشبيلية

فراي سرفاندو

لأنه أراد استقلال المكسيك ولأنه آمن أن الإله الوثني كويتزالكوتل (Quetzalcoatl) هو الرسول القديس توماس شخصياً، حكم على «سرفاندو» بالنفي إلى أسبانيا.

من سجن إلى آخر ومن هرب إلى آخر حل "الهرطوق" المكسيكي ضيفاً على أكثر الزنزانات الأسبانية تنوعاً. نجح فنان الأداة الفولاذية والنفق والقفزة العالية في السفر بعيداً في القارة العجوز.

لكن فراي سرفاندو الجوّاب ومراسل الكوكب، الطائر ذا الجناحين الرشيقين والمنقار الفولاذي دافع عن نفسه ضد سحر أوروبا لاعناً كل ما كان يشاهده. كرر عند كل خطوة: *أنا مكسيكي* وأعتقد أن النساء الفرنسيات يمتلكن وجوهاً كوجوه الضفادع ذات الأنف الأفطس والفم الكبير، وأن الرجال في فرنسا كالنساء والنساء كالأطفال وأن اللغة الإيطالية صنعت من أجل الكذب وأن إيطاليا هي موطن التصنّع والكذب رغم أنها تمتلك مدينة واحدة قيّمة هي فلورنسة لأنها تشبه مدينة مكسيكية. قرأ الراهب الوقح صلاة مسبحة كاملة من اللعنات ضد أسبانيا. قال: إن الأسبان يقلدون الفرنسيين كالقردة وإن البلاط كرخانة وليست الإسكوريال سوى كومة من الأحجار.قال إن الباسكيين يثبتون المسامير بجباههم والأراغونيين (Aragonese) يفعلون مثلهم لكنهم يديرون رأس المسمار إلى الأعلى. قال إن الكاتالانيين لا يتحركون خطوة دون مصباح ولا يدخلون إلى بيوتهم أي قريب لا يحضر طعاماً وإن الـ Marilens صانعو خيوط مسابح ممسوخون وورثو سجون حكم عليهم بمناخ يتألف من ثمانية أشهر مطراً وأربعة أشهر جحيماً.

الآن، في زنزانة إشبيلية، ينزع فراي سرفاندو القمل من صدره بقبضته بينما يتموّج في بطانيته جيش من بق الفراش.كانت البراغيث تسخر من صفعاته والجرذان تسخر من هجومه بعصا. جميعها تريد أن تتعشى فراي سرفاندو الذي توسل طالباً هدنة لأنه يحتاج إلى لحظة سلام ليرتب تفاصيل هربه التالي الذي كان قد أكمله تقريباً.

1806: جزيرة ترينيداد

مغامرات، مصائب

بعد أعوام كثيرة من انتظار بلا طائل غادر فرانسيسكو دي ميراندا لندن. دفع له الإنكليز مرتّباً جيداً جداً، قدّموا له بعض الوعود والابتسامات الكريمة لكنهم لم يقدموا له رصاصة واحدة من أجل بعثته التحريرية. هرب ميراندا من لوح شطرنج الدبلوماسية البريطانية وحاول أن يجرّب حظّه في الولايات المتحدة.

حصل على سفينة في نيويورك ورافقه مئتا متطوع، نزل على سواحل خليج «كورو» في فنزويلا بعد ستة وثلاثين عاماً من المنفى. وعد متطوعيه بترحيب مجيد، بالأزهار والموسيقى وألقاب الشرف والكنوز لكنه لم يقابل سوى الصمت. لم يستجب أحد للتصريحات التي أعلنت الحرية. احتل ميراندا بلدتين وغطاهما بالرايات والسيوف وغادر فنزويلا قبل أن يهزمه خمسة آلاف جندي من كركاس.

تلقى أنباء رهيبة في جزيرة ترينيداد تفيد أن الإنكليز احتلوا ميناء بوينس آيرس ويخططون لغزو مونتيفيديو وفلباريزو وفيراكروز. أصدر وزير الحربية من لندن تعليمات واضحة: *إن الشيء الوحيد الذي يجب أن يحدث هو بسط هيمنة صاحب جلالته البريطاني مكان هيمنة الملك الأسباني.*

سيعود ميراندا إلى لندن، إلى منزله في شارع «غرافتون»، ويحتج بصخب. هناك يرفعون معاشه الحكومي من ثلاثمائة إلى سبعمائة جنيه إسترليني.

1808: ريو دي جانيرو

حظر حرق يهوذا

أمر الأمير البرتغالي، الذي وصل إلى البرازيل مؤخراً، بحظر الحرق التقليدي ليهوذا أثناء أسبوع الآلام في المستعمرة. لكي ينتقموا للمسيح ولأنفسهم رمى البشر في النار، في إحدى ليالي العام، المارشال وكبير الأساقفة والتاجر الغني ومالك الأراضي الكبير ورئيس الشرطة. واستمتع العراة برؤية الدمى الرثة، المزينة بترف، والمحشوة بالمفرقعات النارية، وهي تتلوى من الألم وتنفجر في اللهب.

من الآن فصاعداً لن يعاني رجال السلطة حتى في أسبوع الآلام، إذ أن العائلة الملكية التي وصلت لتوها من لشبونة طلبت الصمت والاحترام. كانت سفينة إنكليزية قد أنقذت الأمير البرتغالي وحاشيته ومجوهراته وأحضرته إلى هذه الأراضي البعيدة.

أنقذت تلك المناورة الفعالة السلالة البرتغالية من هجوم نابليون بونابرت الخطر الذي غزا أسبانيا والبرتغال وقدمت لإنكلترة مركز عمليات مهماً في أميركا. تلقى الإنكليز ضربات هائلة في «الريفر بلاتا»، وبعد أن طُردوا من بوينس آيرس ومونتفيديو بدأوا تغلغلهم التالي من خلال ريو دي جانيرو عبر حلفائهم الذين كانوا من الضعف بحيث أنهم لم يضعوا شرطاً واحداً.

1809: شوكيساكا Chuquisaca

الصرخة

دوّت صرخة أميركا في «شوكيساكا». وبينما كانت أسبانيا مضطربة وغارقة إلى عنقها في الحرب ضد فرنسا تمرّدت أميركا. تبرأ الكريبوليون من العرش الذي كان يشغله في مدريد جوزيف

بونابرت شقيق نابليون. كانت «شوكيساكا» هي المبتدئة وأعلن التمرد الأميركي في «سلمنكا» أن سيطرة أسبانيا على جزائر الهند الغربية ستنتهي.

شوكيساكا، والتي هي سابقاً لابلانا وشاركاس والتي ستصبح «سَكَر» (Sucre)، تقع في سفح جبلين عاشقين. ينبعث من أقنيتها وحدائقها عطر براعم الليمون ويمر في شوارعها سادة فرسان أكثر مما يمر بشر عاديون. وكانت الأردية والشعر الإكليركي الحليق أكثر الأشياء توفراً فيها. وكان الأطباء «محليّين» جداً ومتصلبين كعكاكيزهم المموهة بالذهب مثل الرهبان الذين كانوا يتجولون ويرشّون المنازل بالزوفا.

بدا العالم هنا آمناً وعصياً على التغيير. وكان من المدهش أن صرخة الحرية صدرت عن ذلك الفم المعتاد على اللاتينية ذات النبرة العالية. وستردد تلك الصرخة «لاباز» وبوينس آيرس حالاً، وستدوّي في الشمال في المكسيك...

1810: أتوتونيلكو Atotonilco

عذراء غوادالوبّه
إزاء عذراء ريميدوس

عبر الحشد بلدة «أتوتونيلكو» شاقاً طريقه عبر ستائر الغبار. *تعيش أميركا، تسقط الحكومة السيئة!*

نزع الأب ميغيل هيدالجو «صورة عذراء» غوادالوبّه، من الكنيسة وربطها إلى رمح وتوهجت الراية فوق الحشد.

تحيا سيدتنا غوادالوبّه، تسقط الكلاب الأسبانية!

توحدت حرارة الثورة مع العاطفة الدينية. قرعت أجراس كنيسة «دولوريس» ودعا الكاهن هيدالجو إلى الصراع. وأعلنت العذراء المكسيكية «غوادالوبّه» الحرب على عذراء «ريميديوس» الأسبانية. تحدَّتْ العذراء الهندية العذراء البيضاء، هذه التي اختارت هندياً فقيراً على هضبة «تيبيياك» تتقدم ضد التي أنقذت هيرنان كورتيز أثناء هربه من «تينوشتيتلان». ستردتي سيدتنا عذراء ريميديوس لباس جنرال وبأمر من نائب الملك ستثقب فرقة الإعدام راية عذراء «غوادالوبّه» بالرصاص.

كان «الآزتيكيون» يسمّون عذراء «غوادالوبّه»، أم وملكة وإلهة المكسيكيين «تونانتزن» قبل أن يرسم جبريل كبير الملائكة صورتها في ملاذ «تيبيياك». وكان الناس يتدفقون عاماً بعد آخر إلى «تيبيياك» في موكب، ويرددون: *سلاماً لك يا عذراء ويا حبلى، سلاماً لك أيتها العذراء الحامل.* ثم يزحفون على ركبهم إلى الصخرة حيث ظهرت، إلى الشق الذي تبرعمت منه الورود: *سلاماً لك يا من مسّها الله، سلاماً لك يا حبيبة الله!* ويشربون الماء من ينابيعها مردّدين: *سلاماً لك يا من*

تصنع عشاً لله، ويتوسلون من أجل المعجزات والحماية والنصيحة قائلين: *سلاماً لك يا مريم، سلاماً لك يا حواء.*

الآن تتقدم عذراء «غوادالوبّه» وتقتل من أجل استقلال المكسيك.

1810: غواناخواتو

إل بيبيلا El Pipila

تدفقت قوات هيدالجو من أدغال الجبل وانقضّت على «غوانا خواتو» برشقات من الأحجار. انضمت بلدة المناجم إلى الحادور الثائر. ورغم الذعر الذي سببته نيران الملك تجمّع الحشد في الشوارع وتحوّل إلى سيلٍ جرفَ الجنود وهاجم معقل القوة الأسبانية ومخزن الذرة، الذي يستلقي تحت الأسقف المقنطرة لصالاته الثلاثين، ثمانية آلاف مكيال ذرة وثروة لا تُحصى من الفضة وسبائك الذهب والمجوهرات، ذلك أن سادة المستعمرة الذين ذهب الخوف بعقولهم أغلقوا على أنفسهم الأبواب مع كل كنزهم.

عبثا توسل المسرفون من أجل الرحمة، بعد الذبح والسلب بدأت سكرة كبيرة وعرى الهنود الموتى ليروا إذا كانوا يملكون أذيالا.

كان إل بيبيلا عامل المنجم، بطل اليوم. قالوا إنه رفع لوحا حجريا ضخما على ظهره وسار كسلحفاة عبر مطر الرصاص وأشعل مخزن الذرة بمشعل وكثير من القار. قالوا إن اسم إل بيبيلا هو خوان خوسيه مارتينيز وإنه يمتلك أيضا أسماء أخرى، جميع أسماء الهنود الموجودين أو الذين كانوا في مناجم غواناخواتو.

1810: غوادلجارا Guadalajara

هيدالجو

عرف الجميع في بلدة دولوريس أن الكاهن هيدالجو كان يمتلك عادة القراءة السيئة وهو يسير في الشوارع وأن جناحي قبعته الكبيرين يظللان الصفحات وربما بسبب معجزة لم تدهسه الأحصنة أو محكمة التفتيش ذلك لأن ما كان أخطر من القراءة هو ما كان يقرأه. كان الكاهن يسير بخطوات بطيئة في سحابة الغبار في شوارع «دولوريس» ويغطي وجهه دائما كتاب فرنسي ما، كتاب يتحدث عن العقد الاجتماعي وحقوق الإنسان وحريات المواطنين وكان سبب عدم إلقائه للتحية على البشر تعطشه للمعرفة لا للوقاحة.

تمرد الكاهن هيدالجو مع الهنود العشرين الذين كانوا يصنعون الآنية والقدور.بعد أسبوع أصبح العدد خمسين ألفا وعندئذ ذهبت محكمة التفتيش إليه.

أعلنت محكمة التفتيش في المكسيك أنه *هرطوق ومرتد عن الدين وناكر لعذرية مريم ومادي وفاجر ومدافع عن الزنا ومحرض على الفتنة، منشق ومتشيّع للحرية الفرنسية.*

غزت عذراء غوادالوبّه «غوادلجارا» على رأس جيش متمرد وأزال ميغيل هيدالجو صورة الملك فرديناند عن الجدران وردّ على محكمة التفتيش بمرسوم ألغى العبودية وصادر بضائع الأوروبيين وألغى الجزية التي يدفعها الهنود واستعاد المزارع من الذين اغتصبوها.

180: باي دولا كويستا

موريلوس

كان كاهناً ريفياً مثل هيدالجو ومثله ولد في بلاد «تاراسكان» في جبال ميشوكان حيث أسَّسَ الأسقف فاسكو دي غيروكا منذ قرنين ونصف يوتوبياه الشيوعية، أراضي الخلاص التي دمرتها الطواعين والأشغال الشاقة التي فرضت على الهنود الذين جُروا إلى مناجم «غواناخواتو».

«بعنف أذهب إلى أراضي الجنوب الحارة».

خوسيه ماريا موريلوس، الراعي والبغال، كاهن أبرشية كاراكيورا (Caracura) انضم إلى الثورة. انطلق مع خمسة وعشرين رمّاحاً وبعض البواريد. وكانت القوات تزداد خلف المنديل الحريري الأبيض الذي يعصب رأسه.

بحثاً عن هنود الأتوياك (Atoyac) المختبئين في غياض النخيل، عبر موريلوس بلدة «باي دو لا كويستا» الصغيرة.

«من يذهب إلى هناك؟»

أجاب الهنود: *الإله المقدس.*

تحدث موريلوس معهم، ومن الآن فصاعداً حين يُصرخ: من يذهب *إلى هناك*؟ سيجيب الشعب: *أميركا.*

1811: بوينس آيرس

مورينو

اعتقد ماريانو مورينو أن ثروات عظيمة في أيد قليلة هي مياه آسنة لا تغسل الأرض. وهكذا كي *لا تتم النجاة من الطغاة دون تدمير الطغيان*، يجب أن تنتزع ملكية رأس المال الطفيلي المكدّس في المشاريع الاستعمارية. لماذا ننشد مالاً في أوروبا بسعر فائدة ابتزازية بينما هو أكثر توفراً في الوطن؟ يجب أن نحضر من الخارج الآلات والبذار بدلاً من بيانوهات «ستودارد» والأصص الصينية. فكر مارينو أن الدولة يجب أن تصبح مقاولاً كبيراً لأمة جديدة مستقلة، ورأى أن الثورة يجب أن تكون رهيبة وماكرة و قاسية مع الأعداء ومتيقظة تجاه المتفرجين.

استلم السلطة بشكل خاطف أو هكذا ظنّ.

تنفس تجار بوينس آيرس قائلين: *شكراً لله*. مات ماريانو مورينو، *شيطان الجحيم* في أعالي البحار ونفي صديقاه «فرينش» و«بيروتي» وحكم على كاستيللي بالسجن.

أمر كونيليو سافيدرا أن تجمع نسخ كتاب جان جاك روسو *العقد الاجتماعي* التي نشرها مورينو ووزّعها، وحذر قائلاً: ليس هناك مكان لأي روبسبير في «الريفر بلاتا».

1811: بوينس آيرس

كاستيللي

كان هناك اثنان منهم: قلم وصوت. كان هناك روبسبير كتبَ، هو ماريانو مورينو، وآخر نطق. قال قائد أسباني: *جميعهم ضالون لكن كاستيللي ومورينو ضالان جداً*. سجن الخطيب العظيم خوان خوسيه كاستيللي في بوينس آيرس.

بعد أن اغتصبها المحافظون ضحت الثورة بالثوار. تجمعت التهم: كاستيللي غاو للنساء، سكير ويغش في لعب الورق ومجدف على الكنائس. لم يستطع السجين أن يدافع عن نفسه، ذلك المحرض للهنود، الباحث عن العدالة للفقراء، الناطق باسم القضية الأميركية. هاجم السرطان فمه وكان يجب أن يُقطع لسانه.

خرست الثورة في بوينس آيرس.

1811: بوغوتا

نارينو

كتب أنطونيو نارينو في كولومبيا: *لقد استبدلنا الأسياد*. جردت صحيفة *لاباغاتيلا*، التي أسسها وأدارها وحررها من الغلاف إلى الغلاف، الدمى من الرؤوس ورجال السلطة من المناصب. أعلن نارينو أن الإنتفاضة الوطنية للكولومبيين تتحول إلى لعبة مقنّعة ونادى بوجوب إعلان الاستقلال فوراً. طالب أيضاً، ذلك الصوت الصارخ في البرية، أن يُعترف بحق الفقراء في التصويت وأكد أن إرادة الإنسان العاري تساوي إرادة السيد الغارق في المخمل.

كتب: *لقد استبدلنا الأسياد*. منذ بضعة شهور غزا الشعب حي «بوغوتا» الرئيسي وسجن نائب الملك وسجنت النساء نائبة الملك في سجن العاهرات. وترأس شبح خوسيه أنطونيو غالان، قائد العامة، الحشد الغاضب وعندئذ ذُعر الأطباء والأساقفة والتجار ومالكو الأراضي والعبيد. مقسمين أن يتجنبوا بأي ثمن أخطاء *متحللي فرنسا*، ساعدوا نائب ونائبة الملك على الهرب سراً.

لقد استبدلنا الأسياد. حكم كولومبيا سادة يرتدون قمصاناً منشّاة جداً وأثواباً سوداء كثيرة الأزرار. وعظ شماس الكنيسة: *حتى في السماء ثمة مراتب وحتى أصابع اليد غير متساوية*. رسمت

السيدات إشارة الصليب خافضات أجمة من الخصل والأزهار والشرائط تحت المانتيلا السوداء.
أصدرت طغمة الوجهاء مراسيمها الأولى. بين الإجراءات الوطنية الأخرى قررت أن تسلب المسلوبين الهنود كل ما تبقى لديهم. بحجة تحريرهم من الجزية، استولت الطغمة على أراضي الهنود لتجبرهم على العمل في المزارع الكبيرة التي تنصب «مُشَهِّرة» وسط كل فناء.

العالم مقلوباً

أغانٍ لغيتار يصحبه مغني

حين ترسم العالم مقلوباً
تراه في جميع أخطائه:
يهرب الكلب مذعوراً من الثعلب
يطارد اللص القاضي مرتدياً عباءته
تتكبّر القدمان على الرأس
يتجرجر الفم في الوحل
وتُطفئ النار الماء.
يعلّم العميان الأبجدية
ويجرّ السائق العربة
التي يركبها الثوران.
يجلس نهرٌ على ضفة إنسان
يشحذ حصانه في الظل
ويسقي حدّه المفلم.

1811: شيلابا

الأكرش

كان النظام العسكري يسحق الشغب الشعبي في المكسيك وأعدم «هيدالجو» في شيهواهوا. قيل إنه أنكر أفكاره بعد أربعة أشهر من الأغلال والتعذيب ولم يعد الاستقلال يعتمد إلا على القوات التي تتبع موريلوس.

أرسل إغناسيو لوبيز رايون رسالة تحذير مستعجلة إلى موريلوس: *عرفتُ من مصادر موثوقة أن نائب الملك دفع لقاتلٍ كي يقتلك. ليس بوسعي أن أخبرك أي شيء عن هذا الرجل سوى أنه أكرش...*

فجراً، في وثبة فرس، وصل الرسول إلى المعسكر في «شيلابا». ظهراً، جاء القاتل ليقدم خدماته للقضية القومية. شابكاً ذراعيه، سمع موريلوس عرضاً من الخطابات الوطنية. دون أن يتفوّه بكلمة أجلس القاتل على يمينه ودعاه أن يأكل معه. راقب القاتل وهو يأكل بينما هو يحدق بالصحن.

مساءً يتناولان العشاء معاً. كان القاتل يأكل ويتحدث ويختنق. كان موريلوس، المضيف التمثال، يستهدف عينيه.

«أمتلك شعوراً داخلياً سيئاً، قال ذلك فجأة وانتظر أن تتوتّر العينان، أن يطقطق الكرسي، ثم قدّم الراحة: «إنه الروماتيزم ثانية. مطر».

اختصر تعبيره الجاد ضحكة.

أشعل سيجاراً و تأمّل الدخان.

لم يتجرأ القاتل على النهوض. يتلعثم شاكراً. واجهه موريلوس عن قرب قائلاً: سأكون فضولياً.

لاحظ أن القاتل تحرك وأحصى قطرات التعرّق على جبينه. سحب السؤال: هل أنت نعسان؟

ودون أن يتوقف: «هل تشرفني وتنام إلى جانبي؟»

تمددا وكانت بينهما شمعة ترتعش من آلام انطفائها الوشيك دون أن تقرر إن كانت ستنطفئ أم لا. أدار موريلوس ظهره، تنفس بعمق وربما شخر. قبل الفجر سمع وقع حوافر حصان يتلاشى في المسافة.

في الصباح طلب من مساعده ورقة وقلماً ثم أرسل رسالة إلى إغناسيو لوبيز رايون: *شكراً للبخشيش، ليس ثمة أحد في هذا المعسكر يمتلك كرشاً أكبر من كرشي.*

1811: سلاسل الضفة الشرقية

لا أحد أهم من أحد

لا أحد أهم من أحد، هذا ما قاله رعاة البقر الراكبون. لا يمكن أن يمتلك الأرض أحد لأنه لا مالك للهواء. لم يعرفوا سقفاً أفضل من النجوم ولا أي مجد يقارن بحرية التجول بلا هدف عبر البراري التي تتموج كالبحر.

إن سوق القطعان في البلاد المنفتحة يعني امتلاك كل شيء. كان رعاة البقر الأميركيون الجنوبيون لا يأكلون إلا اللحم لأن الاخضرار هو عشب والأعشاب هي للأبقار. كان الشواء يُتوّج بالتبغ والرم وبغيتارات تغني عن الأحداث والمعجزات.

انضم رعاة البقر الأميركيون الجنوبيون، *الرجال الأحرار* الذين تستخدمهم المزارع وتنبذهم، إلى قوات خوسيه أرتيغاس، ومذاك اشتعلت السلاسل الجبلية الواقعة في شرق نهر الأوروغوي.

1811: ضفاف نهر الأوروغواي

سفر الخروج

عقدت بوينس آيرس صفقة مع نائب الملك وسحبت القوات التي كانت تحاصر مونتيفيديو. رفض خوسيه أرتيغاس أن يتقيد بالهدنة التي تعيد أرضه إلى الأسبان وأقسم أن يواصل الحرب حتى ولو *بالأسنان والأظافر*.

هاجر القائد نحو الشمال لينظّم جيشاً للاستقلال. اتحد شعب متناثر وولد في مساراته ذلك الجيش الجوال الذي جمع رعاة البقر المتوحشين مع عبيد وعمال وطنيين من مزارع الماشية. إلى الشمال اتجهت نساء يشفين الجراح أو يحملن الرماح ورهبان يعمدون طول الطريق الجنود الحديثي الولادة. اختار الذين منحوا المأوى الجيد، قسوة برد الحياة في الخارج والذين عاشوا بهدوء اختاروا الخطر. تقدم نحو الشمال أسياد الحروف والسكاكين، أطباء مهذارون وقطاع طرق مطلوبون لموت ما، بالإضافة إلى نازعي أسنان ومجترحي معجزات وهاربين من السفن والحصون وعبيد فارين. كان الجميع يتقدمون وأحرق الهنود أكواخهم وانضموا إلى المسير حاملين معهم السهام ووهق الكرات فحسب..

اتجهت إلى الشمال قافلة طويلة من العربات والأحصنة والراجلين، وبينما كانوا يسيرون خلت الأرض التي ستُدعى أوروغوي من أولئك الذين أرادوا وطناً. حتى الأرض نفسها ذهبت مع أولادها داخلة فيهم ولم يبق شيء في الخلف، لا رماد ولا صمت.

1812: كوشابامبا

نساء

هرب رجال كثيرون من «كوشابامبا» لكن لم تهرب امرأة واحدة. كان ثمة صخب كبير في سفح الهضبة. كانت نساء «كوشابامبا» العاميات المستاءات يقاتلن في مركز دائرة النار.

محاصرات بخمسة آلاف جندي أسباني قاومن بمدافع صفيحية مكسّرة وبعض البواريد. قاتلن إلى آخر صرخة، صرخة ستتردّد أصداؤها طوال الحرب الطويلة من أجل الاستقلال. وكلما ضعف جيشه كان الجنرال مانويل بيلغرانو (Manuel Belgrano) يصيح تلك الكلمات التي لن تفشل أبداً في استعادة الشجاعة وزيادة الغضب. كان الجنرال يسأل جنوده المترددين: *هل نساء «كوشابامبا» حاضرات؟*

1812: كركاس

بوليفار

دمّر زلزال كركاس ولاغوايرا (La Guaira) وسان فيليبي (San Felipe)، باركويزيميتو (Barquisimeto) ومريدا (Mer?da). كانت مدناً فنزويلية أعلنت الاستقلال. في كركاس، مركز التمرد، مات عشرة آلاف شخص تحت الأنقاض، ولم يُسمع شيء إلا التضرعات واللعنات بينما كان البشر يبحثون عن الجثث بين الأنقاض.

أيمكن أن يكون الله أسبانياً؟ لقد ابتلع الزلزال المشانق التي نصبها الوطنيون ودمّر جميع الكنائس التي غنّت صلاة الشكر والحمد على شرف الجمهورية التي في طور النشوء. كان العمود الذي يحمل شعار النسب الأسباني لا يزال منتصباً في كنيسة «مرسيدس» المهدمة. أما (كورو) ومراكيبو (Maracaibo) وبلنسية (Valencia) وأنغستورا (Angostura)، المدن التي كانت موالية للملك، لم تعان من خدش واحد.

احترق الجو في «كركاس» وصعد من الأنقاض غبار كثيف لا تستطيع العين اختراقه. خطب راهب ليحرّض الناس قائلاً إن الله لن يسمح بوقاحة كهذه بعد الآن.

«*لانتقام!*»

تجمّع البشر حوله في ما كان دير سان جاسينتو (San Jacinto). جالساً على أنقاض المذبح طلب الراهب معاقبة الذين سبّبوا غضب الله.

«*لانتقام!*» زأر سوط يسوع وأشارت إصبعه المتهمة إلى ضابط وطني كان يتأمل المشهد وذراعاه مشبوكتان. أثير الحشد ضد الضابط ،القصير والنحيل،الذي يرتدي بزة متألقة وتقدم ليسحقه.

لم يتوسل سيمون بوليفار ولم ينسحب: هاجم مشهراً سيفه، غاص في الهياج، صعد المذبح وبضربة واحدة قتل راهب القيامة.

تفرّق البشر صامتين.

1813: شيلبانثينكو Chilpancingo

الاستقلال ثورة أو كذبة

بعد ثلاث حملات عسكرية سيطر موريلوس على جزء جيد من المكسيك. كان كونغرس جمهورية المستقبل المتجول، يسافر وراء قائده وكان النواب ينامون على الأرض ويأكلون طعام الجنود.

في ضوء شمعة كبيرة وضع «موريلوس» مبادئ الدستور الوطني. اقترح أميركا كاثوليكية حرة ومستقلة وألغى جزية الهنود وفرض ضريبة دخل ورفع أجور الفقراء. صادر بضائع الأعداء، أسس حرية التجارة واضعاً حواجز تعرفة. قمع العبودية والتعذيب وألغى نظام الطبقات الذي يبني

الفروقات الاجتماعية على لون الجلد بحيث *أن الرذيلة والفضيلة فحسب تميزان أي أميركي عن الآخر.*

تلقّى الكريبوليون الأغنياء صدمة بعد أخرى بينما كانت قوات «موريلوس» تتقدم منتزعة الثروات وموزعة المزارع. أهي حربٌ ضد أسبانيا أم انتفاضة أقنان ؟ لم يكن هذا نوع الاستقلال الذي تاقوا إليه. سيصنعون استقلالاً آخر.

1814: سان ماتيو

بوفز

كانت كلمة *الاستقلال* في فنزويلا لا تعني أكثر من *حرية التجارة* بالنسبة للأغنياء الكريبوليين.

كان السود والسمر ينظرون إلى زعيم الأسبان، الهرقل ذي اللحية الحمراء والعينين الخضراوين، كزعيم لهم. هرب العبيد ليعثروا على خوسيه توماس رودريغز بوفز، بابا بوفز. أشعل عشرة آلاف خيّال النار في المزارع وذبحوا السادة باسم الإله والملك. كانت راية «بوفز» الجمجمة التي على أرض سوداء، تعد بالنهب والانتقام والحرب حتى الموت ضد أوليغاركية الكاكاو التي رغبت بالاستقلال عن الأسبان. في سهول سان ماتيو، امتطى «بوفز» خيوله إلى منزل عائلة بوليفار ونحت اسمه بمدية على باب الدهليز الرئيسي.

لم يتب الرمح ولم تتب الرصاصة. قبل أن يقتل بالرصاص كان بوفز يطلق طلقات متتالية من البارود ليستمتع برؤية تعابير وجوه ضحاياه. كان يوزّع فتيات أفضل العائلات على أشجع جنوده ويتسلى بمصارعة وطنيين رشيقين بعد أن يثبت في أعناقهم سهاماً وكان يقطع الرؤوس كأن الأمر مزحة.

بعد وقت قصير اخترقه رمح ودفن بقدمين مقيدتين.

1815: سان كريستوبال إيكاتيبك

جاءت البحيرة من أجله

قبض الأسبان على خوسيه ماريا موريلوس على الحافة الخطرة لـ«تزيمالاكا». بعد أخطاء وهزائم كثيرة اصطادوه في العلّيق ممزّق الثياب دون سلاح أو مهاميز.

قيدوه وشتموه وسأله المقدم يوجينيو فيلاسانا: ماذا ستفعل لو كنت الرابح وأنا المهزوم؟

أجابه الكاهن موريلوس: *أمنحك ساعتين لتعترف ثم أطلق عليك النار.*

ساقوه إلى الزنزانات السرية لمحاكم التفتيش.

أذلوه وهو راكع على ركبتيه وأطلقوا عليه النار في ظهره. قال نائب الملك: إن المتمرد مات تائباً. وقال الشعب المكسيكي: إن البحيرة سمعت صوت رصاص فرقة الإعدام وطافت لكي تحمل جسده.

1815: باريس

بحّارة البحار والمكتبات

روى الكاتب والرحالة جوليان ميليه (Julien Millet) مغامراته في أميركا الجنوبية للجمهور الأوروبي. وصف، بين أشياء أخرى، *رقصة حية وداعرة جداً* تمارس كثيراً في كيلوتا (Quillota) في تشيلي وأحضرها *السود من غينيا* متظاهراً بالنظر إلى جهة أخرى. نسخ ميليه رقصة يقوم بها السود في مونتيفيديو كما روى الرحالة أنطوني هيلمز قبل ثماني سنوات في لندن. سرق «هيلمز» نصه سطراً سطراً من الكتاب الذي نشره دوم برنيتي (Dom Pernetty) في باريس عام 1770. من ناحيته، صوّر «برنيتي» في البداية رقصة عبيد مونتيفيديو بكلمات تتشابه بشكل مدهش مع الكلمات التي خصصها الأب جان بابتيست لابا (Jean Baptiste Labat) لسود «هاييتي» في كتاب نشر منذ نصف قرن في لا هاي.

سافرت نصوص الأب لابا أكثر من مؤلفها من الكاريبي إلى مدينة «كيلوتا» التشيلية مروراً بمونتيفيديو ومن لا هاي إلى باريس مروراً بلندن دون جواز سفر أو قناع.

1815: مريدا، يوكاتان

فرديناند السابع

عبر سادة يوكاتان المتمسكون بالرسميات ساحة دي أرماس في مريدا مبيضين من الغبار والشمس ودخلوا الكاتدرائية في موكب وقور جداً. لم يفهم بائعو الطعام والعقود الهنود الذين يجلسون في رواق المعبد لماذا ترن الأجراس بمرح ولا يعرفون من هو الرأس المتوج الذي يحمله السادة على راية.

كانت الأرستقراطية الاستعمارية تحتفل بأنباء قادمة من مدريد. عرف بعد فوات الأوان أن فرنسا طُردت واستلم فرديناند السابع الحكم في أسبانيا. أفاد الرسل أن الصرخة التي سمعت حول الملك هي: *تعيش الأغلال!* وبينما كان مهرجو البلاط يقرعون أجراسهم الصغيرة أمر الملك فرديناند بسجن وقتل العصابات التي أحضرته إلى العرش، أحيا محاكم التفتيش واستعاد امتيازات الإكليروس وطبقة النبلاء.

1815: كوروثو كواتيا Curuzo-Cuatia

الجلود تدور في «الريفر بلاتا»

بضربة رمح، يصل الهلال ذو الحافة الحادة إلى ساقي الحيوان الهارب. ضربة أخرى فقط: يضرب الخيّال متأكداً من الإصابة فيعرج العجل ويشهق ويسقط. يترجل الخيال، يقطع الحنجرة ويبدأ عملية سلخ الجلد.

لا يتم القتل دائماً بهذه الطريقة، من الأسهل سوق القطيع البري بصرخات إلى الحظائر وذبحه هناك، كانت تجمع آلاف مؤلفة من الماشية البرية أو الأحصنة وتُقاد إلى الموت وكان هذا أسهل من مفاجأة الحيوانات في التلال ليلاً وهي نائمة.

ينزع راعي البقر الجلد وينشره في الشمس وما لا يريده الفم،مما تبقى،يُترك للغربان.

كان الشقيقان روبرتسون، جون وويليم، التاجران الإسكوتلنديان، يتجولان في هذه الأراضي حاملين أكياساً محشوة بالذهب بدت كأنها سجق. أرسلا من مزرعة ماشية في «كوروثوكواتيا» عشرة آلاف جلد إلى بلدة «غويا» في ستين عربة.

كانت العجلات الخشبية الضخمة تصر وهي تنعطف بينما تحث المناخس الثيران على السير. تتغلغل العربات في الريف، تتسلق التلال، تعبر المستنقعات والأنهار الطامية. حين يخيم الليل تصف العربات في دائرة مشكلة موقداً. حين يدخن رعاة البقر ويشربون المتة يعبق الجو برائحة اللحوم التي تُشوى على الجمر وبعد تناول اللحم المشوي تُروى الحكايات وتُسمع الغيتارات.

ستسافر الجلود من مدينة «غويا» إلى ميناء بوينس آيرس وتعبر المحيط إلى مصانع «ليفربول». حين تعود الجلود إلى «الريفر بلاتا» متحولة إلى أبواط وأحذية وسياط بريطانية الصنع، تتضاعف الأسعار مرات عديدة.

1815: بوينس آيرس

يبحث النبلاء عن ملك في أوروبا

كتب قلم ريشة الإوزة: *خوسيه أرتيغاس خائن لبلاده*. قدموا له الذهب والفضة عبثاً. حسب البقالون الخبراء في قياسات الياردة والموازين الدقيقة بالإضافة إلى أرستقراطيي بوينس آيرس سعر أرتيغاس حياً أو ميتاً. كانوا جاهزين لدفع ستة آلاف دولار أسباني مقابل رأس قائد معسكرات التمرد.

لكي يخلص هذه الأراضي من راعي البقر، قدمها كارلوس دي ألفير للإنكليز. كتب ألفير إلى اللورد كاسلري قائلاً: تريد هذه المناطق أن تنتمي إلى بريطانيا العظمى دون أية شروط. وتوسل إلى اللورد سترانغفورد قائلاً: *لا يمكن أن تترك الأمة البريطانية سكان «الريفر بلاتا» لقدرهم وهم يرمون أنفسهم بين ذراعيها الكريمتين...*

سافر مانويل دي ساراتي إلى لندن بحثاً عن ملك يتوِّجه في بوينس آيرس. كان الداخل الجمهوري والفيدرالي يهدد امتيازات المرفأ والذعر ينتشر عند أي قسم بالولاء. في مدريد، قدّم مانويل بيلغرانو وبرناردينو ريفادافيا، اللذان كانا جمهوريين متحمسين، العرش للرضيع فرانسيسكو دي بولا، شقيق فرديناند السابع. وعد مبعوثو ميناء المدينة بسلطة وراثية تشمل منطقة «الريفر بلاتا» كلها وتشيلي وحتى بيرو. ستحصل المملكة المستقلة على راية سماوية وبيضاء وستكون الحرية والملكية مقدستين وسيتشكّل البلاط من كريبوليين مميزين مرفعين إلى دوقات وكونتات ومركيزات.

لم يقبل أحد.

1815: معسكر التطهير

أرتيغاس

هنا كان يحكم الجنرال أرتيغاس على نجد أرجواني محاط بالتجاويف والأودية حيث يجن النهر ويغلي في دوامات وزوابع. إن هذه المساكن الألف، أكواخ الطين والقش ذات النوافذ الجلدية، التي يعيش فيها الكريبوليون الفقراء، هي عاصمة كونفدرالية شعوب الداخل في «الريفر بلاتا». كانت الأحصنة تنتظر أمام كوخ الحاكم الرسل الذين يأتون ويذهبون محضرين النصيحة وآخذين المراسيم. ولم تكن ثمة شذابات أو أوسمة تزين بزة قائد الجنوب.

كان أرتيغاس، ابن السهول، مهرباً وصياداً للمهربين. كان يعرف تعرجات جميع الأنهار، أسرار كل هضبة ورائحة عشب كل حقل وكان يعرف بشكل أكثر عمقاً الأرواح المحتشمة لرعاة البقر الذين يملكون أرواحهم فحسب وكانوا يضحون بها في زوبعة مهلوسة من الرماح.

كانت رايات أرتيغاس ترفرف فوق الإقليم الذي يرويه نهرا أوروغوي والبارانا والذي يمتد إلى سلسلة جبال قرطبة (Cordoba). وكانت تقتسم تلك المكان الفسيح المناطق التي رفضت أن تكون مستعمرة لـ«بوينس آيرس» بعد أن تحررت من أسبانيا.

كان ميناء بوينس آيرس يعيش مديراً ظهره للأرض التي يحتقرها ويحبها وكان التجار يلتصقون بالنوافذ المترصدة منتظرين السفن التي تحضر الجديد من الملابس والأفكار والكلام، لكنها لا تحمل ملكاً.

أراد أرتيغاس أن يبني حواجز ليصدّ حادور البضائع الأوروبية كي يدافع عن *فنوننا ومعاملنا*. لم يمنح حرية المرور إلا للآلات والكتب والأدوية وحوّل إلى ميناء مونتيفيديو التجارة الإقليمية التي احتكرتها بوينس آيرس طويلاً. لم ترد العصبة الفيدرالية الآرتيغية ملكاً، بل مجالس وهيئات من المواطنين، ولكي يكمل أرتيغاس الفضيحة طبّق الإصلاح الزراعي.

1816: سلاسل الضفة الشرقية

الإصلاح الزراعي

كانوا يصيحون في بوينس آيرس: جريمة دموية! وكان أرتيغاس ينتزع ملكية الأراضي، شرق نهر أوروغوي، من عائلتي «بيلغرانو» وميتر (Mitre) ومن عائلة حمي سان مارتن ومن برناردينو ريفادافيا وآزكويناغا ألماغرو ودياث فيليث. اعتبروا الإصلاح الزراعي في مونتيفيديو *مشروعاً إجرامياً*. سجن أرتيغاس لوكاس أوبيس وخوان ماريا بيريز وفنانين آخرين مختصين بالرقصة البطيئة والشعوذة.

كان راعي البقر ملقماً للمدافع أو قناً في مزرعة كبيرة للمواشي بالنسبة لمالكي الأرض، لملتهمي فدادين الأرض، التي تؤكل بنعمة من الملك أو بالاحتيال والسلب. وكل من يرفض ذلك سيوضع في آلة التعذيب الخشبية أو يصلب على الحائط.

أراد أرتيغاس أن يمتلك كل راعي بقر قطعة أرض. غزا الفقراء مزارع المواشي الكبيرة وبدأت الأكواخ وقطع الأرض المحروثة تظهر في السلاسل الشرقية التي دمرتها الحرب. بدأ الفلاحون المداسون يدوسون ورفض الرجال الذين وضعوا حياتهم في خط المواجهة في حرب الاستقلال قبول ظلم آخر. قال مجلس بلدة مونتيفيديو إن إنكارناسيون بينيتيث، جندي أرتيغاس الذي كان ينطلق على حصانه موزعاً الأرض والماشية على رأس *قوات من الأوغاد، خارج عن القانون، منحرف، متسكع، ومحرض*. وجد الفقراء ملاذاً في ظل رمحه لكن هذا الرجل الأسمر، الأمي، الشجاع وربما المتوحش، لن يكون أبداً تمثالاً ولن تحمل اسمه أية جادة أو شارع أو طريق جانبي.

1816: هضبة شيكوتي (Chicoté)

فن الحرب

حاصر المشاة الملكيون حفنة من وطنيي بيرو العليا على هضبة «شيكوتي».

صرخ الجندي بدرو لوايزا: «*لن أستسلم للعدو*»، ورمى نفسه من فوق الجرف.

أعلن الآمر إيوسبيو ليرا وهو يركض أيضاً إلى الجرف: «سنموت من أجل الوطن!»

أجاب رائد الطبل خوسيه سانتوس فارغاس على نحو مفاجئ وهو يمنعه: "سنموت إذا كنا *معتوهين*».

لنحرق العشب الجاف. هذا ما اقترحه الرقيب جوليان ريناغا.

التهب العشب الطويل ووجهت الريح ألسنة اللهب نحو صفوف الأعداء. اندفعت النار متموجة إلى الأمام. هرب المحاصرون مرتبكين ومرعوبين وهم يرمون بنادقهم وذخيرتهم ويتوسلون الإله من أجل الرحمة.

1816: تارابوكو Tarabuco

خوانا أثوردوي Juana Azurduy

إنها متبحرة في علوم الدين وولدت لتصبح راهبة في دير شوكيساكا (Chuquisaca)، لكنها الآن تحمل رتبة مقدم في جيوش عصابات الاستقلال. تبقى من أولادها الأربعة ذاك الذي ولد في وطيس المعركة وسط رعد الخيول والمدافع. وعُلِّق رأس زوجها على رمح أسباني.

تمتطي «خوانا» حصانها في الجبال أمام رجالها وشالها يرفرف في الريح، إحدى قبضتيها تمسك الأعنة والأخرى تقطع الرقاب بالسيف.

كان كل شيء تأكله يتحول إلى شجاعة. ولم يسمّها الهنود «خوانا» بل «باتشاماما» الأرض الأم.

1816: بور أو برانس

بيتيون

كانت «هاييتي» تستلقي في الأنقاض، يحاصرها الفرنسيون ويعزلها الجميع. لم تعترف أية دولة باستقلال العبيد الذين هزموا نابليون. قسمت الجزيرة إلى جزيرتين.

أعلن هنري كريستوف نفسه إمبراطوراً في الشمال. وفي حصن سانس سوسي كانت طبقة النبلاء السود الجديدة ترقص الرقصة البطيئة ـ دوق المارملاد، كونت الليموناضة ـ بينما كان الخدم السود الذين يرتدون لمات شعر بيضاء مستعارة ينحنون ويمسحون الأرض وكان الخيالة السود يعرضون قبعاتهم المريّشة في حدائق نُسِخت عن حدائق فرساي.

في الجنوب ترأس أليكسندر بيتيون الجمهورية وكان يهدف من خلال توزيع الأراضي على العبيد السابقين إلى خلق أمة من الفلاحين، فقيرة جداً لكنها حرة ومسلحة، على رماد المزارع التي دمرتها الحرب.

هبط سيمون بوليفار على ساحل هاييتي الجنوبي بحثاً عن الملاذ والمساعدة. جاء من جامايكا حيث باع كل شيء حتى ساعته اليدوية. لم يؤمن أحد بقضيته ولم تكن حملاته العسكرية المتألقة أكثر من سراب. كان فرانسيسكو ميراندا يموت راسفاً في أغلاله في مستودع «قادس». وغزا الأسبان من جديد فنزويلا وكولومبيا اللتين تفضلان الماضي ولا تؤمنان بالمستقبل الذي يعد به الوطنيون.

استقبل «بيتيون» سيمون بوليفار فور وصوله يوم رأس السنة. قدم له سبع سفن ومئتين وخمسين رجلاً وبنادق وبارودا ومؤونة ونقوداً واشترط شرطاً واحداً: «بيتيون»، الذي ولد عبداً من أم سوداء ورجل فرنسي، طلب من بوليفار أن يحرر العبيد في الأراضي التي يحررها.

صافحه بوليفار. ستغير الحرب مسارها، وربما أميركا أيضاً.

1816: مكسيكو سيتي

إل بيريكيللو سارنينتو

ولدت الرواية الأميركية اللاتينية الأولى في مطبعة في شارع ثليتا. روى خوسيه جواكين فيرنانديز دي ليزاردي مصائب إل بيريكيلليو سارنينتو في ثلاثة أجزاء فالتهمها القراء واحتفوا بها. منع نائب الملك الجزء الرابع حين كان على وشك الظهور لكن لم يكن هناك طريقة لسجن الشخصية.

ربح إل بيريكيلليو، سليل الصعلكة الأسبانية، شوارع المكسيك. كان يتجول في كل مكان معرّياً العادات والتقاليد ويقفز عن طاولة القمار إلى مكتب الموثّق العام ومن كرسي الحلاق إلى أرضية السجن. ثمة كثيرون لم يستمتعوا بمغامراته، وأغرقه الكاهن بمواعظه الأخلاقية، لكن ليزاردي، الأخلاقي المتنور، كان يحول كل لعبة إلى مغزى.

1817: سانتياغو دي تشيلي

الشيطان يعمل

كان شبان أنيقون يدخنون السجائر في مشارب ذهبية كي لا يلوّثوا أصابعهم لكن سانتياغو دي تشيلي كانت محاصرة من جهاتها الأربع بالقمامة. كانت المنازل تطل من ناحية الشمال على مزبلة نهر مابوتشو (Mapocho) وفي الجنوب كانت القمامة تتكوّم في الوادي. كانت الشمس تشرق على جبال القمامة المتكوّمة على هضبة سانتا لوسيا وتضيء أشعتها الأخيرة المزابل في ضواحي سان ميغيل وسان بابلو.

من إحدى هذه المزابل خرج الزائر الذي عبر المدينة البارحة كرشقة من الكبريت جعلت شمعات الشحم الحيواني ترتعش في مصابيح الشارع ودار بفضول أو تهديد حول معبد كومبانيا إلى أن أعلن صوت الحارس الساعة الحادية عشرة.

ليكن سلام لك يا مريم الشريفة!

هرب الشيطان بسرعة قصوى.

تجول الحذاء الذي فقده في سانتياغو من منزل إلى آخر. كان يحمله كاهن على صينية فضية ويغطيه برداء وكانت السيدات الورعات يرسمن إشارة الصليب فوقه.

1817: سانتياغو دي تشيلي

مانويل رودريغز

كان كل من يتحدث عن تحرير أميركا يوقّع أمر موته وكل من يتلقى رسالة من مندوزا يُسيّر إلى المشنقة أو إلى فرقة الإعدام. وكانت محكمة الاحتراس تطلق يد المخبرين في سانتياغو دي تشيلي.

كان الوطنيون يعيدون تنظيم الجيش الذي سحق الأسبان بين مندوزا وسانتياغو. كانت رياح المقاومة تهب وتهدأ عابرة روعة ثلج سلسلة الجبال دون أن تترك أثراً.

يمرّر الرسول أمراً أثناء مصارعة الديكة في سانتياغو وآخر في حفلة ساهرة ويلتقط في الوقت نفسه تقريراً بين سباقين للخيول في الضواحي. يعلن الرسول عن نفسه بثلاث نقرات على باب منزل كبير في الضواحي وفي الوقت نفسه يبزغ في الجبال على ظهر بغل ويعدو في السهول على حصان. كان رجل حرب العصابات يهاجم في مليبيلا (Milipilla) ويترجّل في بومير (Pomaire) ليشرب كأساً من الخمر.

سعّر الحاكم الأسباني رأس مانويل رودريغز، الرسول ورجل حرب العصابات، لكن رأسه كان يسافر مختبئاً تحت قبّعة كاهن وصمبريرة بغال، سلّة بائع جوال أو الغطاء البلشي الرائع لسيد. لم يستطع أحد أن يقبض عليه لأنه يطير دون أن يتحرك ويخرج داخلاً ويدخل خارجاً.

1817: مونتيفيديو

صور لملحمة

جاء جيش كبير من ريو دي جانيرو براً وبحراً لكي يقضي علىخوسيه أرتيغاس وليمحو حتى ظل ذاكرة مثاله المُعدي. غزا البرازيليون بالنار والسيف معلنين أنهم سينظفون السهول من العصابات. وعد الجنرال ليكور أن يعيد حقوق الملكية والوراثة التي تضررّت.

دخل ليكور إلى مونتيفيديو تحت ظُلّةٍ وقدم الأب لاراناغا وفرانسيسكو خافيير دي فيانا مفاتيح المدينة إلى مخلّصي المستعمرات الزراعية الكبيرة. رمت السيدات زهوراً وأقواساً زرقاء صغيرة في طريق العرض الفائق للعادة والمؤلف من أشرطة الزينة والزخارف والريش. قُرِعَتْ أجراس الكاتدرائية الضجرة من رنينها للجنازات وتأرجحت المباخر جيئة وذهاباً. وهكذا فعل رجال الأعمال الذين لا تنتهي انحناءاتهم ومسحهم للأرض أبداً.

1817: كيتو

مانويلا ساينث (Manuela Saenz)

ولدت كيتو بين البراكين، مرتفعة وبعيدة عن البحر، وبين الكاتدرائية والقصر، في الساحة الرئيسية، ولدت مانويلا. وصلت إلى كيتو على سرير من الساتان أغطيته من

بروكسل، ابنة لعلاقة حب سرية عاشها الدون سيمون ساينث قاتلُ الكريبوليين الذين تمردوا هنا.

في سن الخامسة عشرة ارتدت مانويلا ثياب الرجال ودخنت وروضت الخيول. لم تركب على السرج الجانبي كالسيدات بل بساقين منفرجتين وبطقم ساخر. كانت صديقتها المفضّلة عبدتها السوداء جوناتاس التي كانت تموء كالقطة وتغني كطائر وتتموج كأفعى حين تسير. كانت مانويلا في السادسة عشرة حين سجنوها في أحد الأديرة الكثيرة لهذه المدينة المؤمنة والمذنبة حيث يساعد الكهنة الراهبات العجائز على تحصيل موت جيد والشابات على عيش حياة جيدة.

تعلمت مانويلا في دير «سانتا كاتالينا» التطريز والعزف على موتّرة المفاتيح، وأن تتظاهر بالفضيلة وأن يغمى عليها وتُشيحَ عينيها. في سن السابعة عشرة، وبعد أن جنّت من النظام، هربت مع فاوستو دي إلهويار، ضابط الملك.

في سن العشرين تألقت. أراد جميع الرجال أن يكونوا محارة تلك اللؤلؤة. زوجوها لـ«جيمس ثورن»، الطبيب الإنكليزي المحترم. استمرت الحفلة أسبوعاً كاملاً.

1818: معسكر كولونيا (Colonia)

حرب الخاسرين

لم يبق في جيش «أرتيغاس» إلا العراة. كان الذين لا يملكون سوى حصان وأيضا السود والهنود يعرفون أن قدر كل شخص في هذه الحرب مهدد. انطلق الخيالة المتمردون من الحقول والأنهار بالرماح والسكاكين وهاجموا البرازيليين المسلحين جيدا. وكانوا يتلاشون في ومضة كالطيور.

وبينما كانت الأبواق تدعو إلى الذبح في هذه الأرض المغزوة كانت حكومة بوينس آيرس تنشر دعاية موجهة إلى *الذين يملكون بضائع يخسرونها*. كانت وريقة وقعها «صديق النظام»، تدعو أرتيغاس *جنيا شريرا، رسول الكذب، ذئبا نهما، سوط بلاده، آتيلا جديدا، عار القرن وإساءة للسلالة البشرية*.

أحضر أحدهم الوريقة إلى المعسكر. قال أرتيغاس دون أن يزيح عينيه عن النار: «*إن شعبي لا يعرف القراءة*».

1818: كورينتاس

أندريسيتو

قال أرتيغاس عن الهنود الذين عانوا من الموت الكثير نتيجة موالاتهم له: «*ستلبى حقوقهم أولا*».

كـان أندريـه كواكـوراري، أندريسـيتو، الهنـدي الجواراني (Guarani)، الإبـن الـذي تبنـاه أرتيغاس، هو الزعيم.وقد غزا كريانتاس منذ شهرين بطوفـان مـن الرجـال وبالسـهام ضـد البنـادق وسحق حلفاء بوينس آيرس.

دخل هنود أندريسيتو المدينة عراة إلا من طين المسير وبعض الأسمال. أحضروا بعـض الأطفال الهنود الذين حولهم سكان كريانتاس إلى عبيد. قوبلوا بالصمت والمصاريع المغلقة ودفن آمر الحامية ثروته في حديقته ومات الكاتب بالعدل من الذعر.

لم يكن الهنود قد تناولوا الطعام لكنهم لم يأخذوا أو يطلبـوا شـيئاً.حالما وصلوا قدمـوا عرضـاً مسرحياً تبجيلاً للعائلات الرئيسية. أجنحة ضخمة مـن الـورق الفضـي نشـرت علـى أطـر قصبيـة حوّلت الهنود إلى ملائكة حارسة. مثلوا، لا لأحد، لأن أحداً لم يأت، مسرحية «**إغـواء القديـس إغناطيوس**» وهي تمثيلية إيمائية قديمة تعود إلى فترة اليسوعيين.

قال أندريسيتو: *إذن، لا يريدون أن يحضروا حفـلات هنديـة*؟ أشـعل سـيجاراً كبـيراً وخـرج الدخان من أذنيه وعينيه. في الفجر، قُرِعَت طبول الحرب. أجبر أكثر سـادة كريانتـاس احترامـاً، بسن الرمح، على قطع عشب الساحة وكَنس الشوارع حتى أصبحت شفافة. تـابع السـادة طـوال النهار تلك المهمة النبيلة وفي تلك الليلة أصاب تصفيقهم في المسرح الهنود بالصمم.

حكم أندريسيتو كريانتاس إلى أن أرسل أرتيغاس في طلبه. كان الهنود يتحركـون علـى الطريـق مرتدين أجنحة فضية عملاقة، كانت الملائكة تسير راكبة صوب الأفـق وكـانت الشـمس توهّجـها وتمنحها ظل نسور طائرة.

1818: نهر بارانا

القراصنة الوطنيون

اتجهت قـوات أندريسـيتو إلى سـانتافه بمحـاذاة النـهر، وكـان أسـطول صغـير مـن القراصنـة الوطنيين يرافق الهنود في نهر البارانا.

القوارب الصغيرة، اللنشات وبعض السفن الشراعية المسلحة جيـداً،جعلـت الحيـاة مسـتحيلة للسفن التجارية البرازيلية. كان علم أرتيغاس الثلاثي الألوان يبحر في الأنهار والبحر وفي كل مكان ويقاتل. كان القراصنة يعرّون سفن الأعداء بشكل مفاجئ ويأخذون ثمار غاراتهم إلى جـزر الآنتيـل البعيدة.

كان «بدرو كامبل» هو أميرال تلك السرية مـن السـفن والقـوارب الصغـيرة. وصـل إلى هنـا مـع الغزاة الإنكليز منذ أعوام، هُجر وعمل في البراري. أصبح راعي البقر الإيرلنـدي ذو الشـعر المثبّـت بطوق، والتعبير الشرس الذي يبزغ من تحت كتلة مـن شـعر أحمـر، مشـهوراً حـالاً. حـين عيّنـه أرتيغاس رئيساً على القراصنة، كان كامبل قد جرح سابقاً في مبـارزات كريبوليـة واتـهم بـالقتل لا بالخيانة. كان الجميع يعرفون أن مديته الفضية أفعى لا تلدغ أبداً غيلة.

1818: سان فرناندو دي آبيور

الحرب حتى الموت

كان بوليفار يركب على رأس جيش سحقته الهزائم تظلل رأسه قبعة حاج وفي الظل تتوهج عينان تلتهمان عندما تنظران وابتسامة كئيبة.

كان بوليفار يمتطي حصان رافايل لوبيث الذي توفي. كان السرج يحمل الأحرف الأولى للرجل الميت، الضابط الأسباني الذي تلقى طلقة عن بوليفار حين كان الزعيم الوطني نائما في أرجوحته الشبكية.

فشل الهجوم الشمالي.

في سان فرناندو دي آبيور راجع بوليفار ما تبقى من قواته. *«إنه مجنون»*، هذا ما اعتقده أو قاله جنوده الحفاة المنهكون والمصابون حين أعلن أنهم سيشنون حالاً الحرب المقدسة، الحرب حتى الموت في كولومبيا و«بيرو» إلى قمة بوتوسي.

1819: أنغوستورا

المبتدئون: المجلس التأسيسي

تحت ظلّة، على ظهر سفينة تبحر في نهر أرينوكو، أملى بوليفار على أمناء سرّه دستوره المتخيّل. كان يصغي ويصحح ويمليه ثانية في المعسكر بينما يصدُّ عنه دخان النار البعوض. أحضرت سفن أخرى النواب من كركاس وبرشلونة وكوامانا وغويانا وجزيرة مارغريتا. فجأة، تغيرت رياح الحرب، ربما تبجيلاً لعناد بوليفار، وفي ومضة سقطت نصف فنزويلا في أيدي الوطنيين.

نزل الموفدون إلى الكونغرس في ميناء «أنغوستورا»، البلدة ذات المنازل الصغيرة، التي رسمها طفل. كانت صحيفة *إل كوريو ديل أرينوكو* تطبع هنا في مطبعة للدمى أسبوعاً بعد آخر. من الغابة نشرت أداة الفكر الجمهوري هذه مقالات أطباء كريبوليين وإعلانات عن وصول البيرة وسكاكين الجيب وعدّة الخيول والجنود المتطوعين القادمين من لندن.

حيّت ثلاث رشقات مدفعية بوليفار وهيئة أركانه العامة. حلقت الطيور، لكن طائر «مقو» اختال غير مبال بخطوات الشخص الفظ.

صعد النوابُ الدرج الحجري.

افتتح فرانسيسكو أنطونيو ثي، رائد أنغستورا، الجلسة. قارن خطابه هذه الناحية الوطنية مع ممفيس وطيبة والإسكندرية وروما.

عيَّن الكونغرس بوليفار قائداً للجيش ورئيساً مطلق الصلاحيات، وسمّي أعضاء مجلس الوزراء.

فيما بعد، اعتلى بوليفار المنصة وحذّر: *إن الجهلة يخلطون بين الواقع والخيال وبين العدالة والانتقام*... شرح أفكاره حول الحاجة إلى خلق كولومبيا كبرى ووضع أساس دستوره المتصور، الذي بُنِيَ على أساس البراءة العظمى (Magna Carta) للإنكليز.

1820: بوكيرون يمر Boquéron

خاتمة

لم تستطع الموانئ الجنوبية الثلاثة ريو دي جانيرو وبوينس آيرس ومونتيفيديو أن تنتصر على الجيوش الريفية لخوسيه أرتيغاس زعيم الداخل. لكن الموت كان له الحظ الأوفر وأخذ نصف شعبه. انتهى نصف رجال الحملة الشرقية إلى بطون الطيور آكلة الجثث. مات أندريسيتو في السجن وأُسر لافاليخا وكامبل والآخرون ولجأت قلة إلى الخيانة. سمّى فركتوسو ريفيرا أرتيغاس مجرماً واتهمه بوضع *الملكية تحت رحمة الطغيان والفوضى*. أعلن فرانسيسكو راميريث من إنتري ريوس (Entre Rios) أن أرتيغاس *هو سبب وأصل جميع شرور أميركا الجنوبية*. وأحدث إستانيسلاو لوبيث إنقلاباً في الرأي في «سانتافه».

وحَّدَ مالكو الأراضي الزعماء قضيتهم مع تجار الميناء بينما كان قائد الثورة ينتقل من كارثة إلى أخرى. كان لا يزال يتبعه آخر هنوده وسوده مع حفنة من رعاة البقر الذين يرتدون الأسمال تحت قيادة أندريه لاتوري، آخر ضباطه.

على ضفاف نهر بارانا،اختار أرتيغاس أفضل فارس. أعطاه أربعة آلاف قطعة نقدية فضية، هي آخر ما تبقى، ليأخذها إلى السجناء في البرازيل.

ثم غرز رمحه على الضفة وعبر النهر. اتجه كئيباً إلى باراغوي، إلى المنفى، هذا الرجل الذي رفض أن يصبح استقلال أميركا مصيدة لأبنائها الأكثر فقراً.

أنت

دون أن تدير رأسك، تدفن نفسك في المنفى. أنا أشاهدك، أنا أراقبك: كان نهر «بارانا» ينزلق جانبياً، بليداً كعظاءة، وفوقه، كان معطفك الممزق الملتهب يتلاشى في المسافة، بسرعة فرس يخُبّ، ويضيع بين الأوراق.

لا تودع أرضك. لن تصدقك، أو من المحتمل أنها لا تعرف أنك تغادر من أجل سبب جيد.

صار الريف رمادياً فيما ترحل مهزوماً وأرضك متروكة بلا نَفَس. هل سيعيد إليها نَفَسُها الأطفال الذين يولدون منها والعشاق الذين يجيئون إليها؟ هل سيبرهن أولئك الذين يبزغون من تلك الأرض، الذين يدخلونها، أنهم يستحقون حزناً عميقاً كهذا؟

إنها أرضك، أرضنا الجنوبية، وأنت ضروري لها جداً يا دون خوسيه! كلما آذاها وأذلها الجشعون وكلما ظن المغفلون أنها بكماء أو مجدبة، ستشتاق إليك، لأنك يا دون خوسيه أرتيغاس، يا جنرال البشر البسطاء، أفضل كلمة نطقتها.

1821: معسكر لوريلتي (Laurelty)

القديس بالتهاثار، الملك الأسود والفقيه الأعظم

اندفع الباراغويون من بلدات الجوار والمناطق البعيدة ليشاهدوا تلك الكائنات الغريبة التي تمتلك جلودا تشبه الليل.

لم يكن السود معروفين في بارغواي والعبيد الذين حررهم أرتيغاس، والذين اتبعوا مساراته إلى المنفى، أسسوا مدينة في «لوريلتي». كان معهم «بالتهاثار»، الملك الأسود، الذي اختير ليرحب بالله على الأرض. استحضروا القديس بالتهاثار وأسسوا الحدائق وقرعوا له الطبول وغنوا الأناشيد الحربية التي أحضرت من أفريقيا إلى سهول «الريفر بلاتا». كان رفاق أرتيغاس يعتمرون قبعات حريرية حمراء وتيجانا من الأزهار حين يحل السادس من كانون الثاني، وراقصين يطلبون من الفقيه ـ الملك ألا تعود العبودية أبدا وأن يحميهم من الأرواح الشريرة، التي تسبب الغباء، ومن الدجاج الذي يصيح كالديكة.

1821: كارابوبو Carabobo

بايث (Paez)

في الخامسة عشرة ولد قاتلا. قتل ليدافع عن نفسه وهرب إلى الجبال ليصبح خيالا بدويا في براري فنزويلا الشاسعة. الخيال الذي أصبح قائد الخيالة، خوسيه أنطونيو بايث، بايث السهول، طار على رأس رعاة بقر بارعين في استخدام الرمح والوهق ويمتطون خيولا غير مسرجة ويسددون كالحادور. كان يمتطي حصانا أبيض لأن الخيول البيضاء أفضل. حين لا يكون في حملة ينصرف إلى تعلم القراءة ويعزف على الفيولونسيل.

إن رجال السهول نصف العراة، الذين خدموا أسبانيا في زمن «بوفز»، هزموها في معركة «كارابوبو». شقوا طريقهم بالمناجل عبر أجمة الغرب، المستحيلة بسبب مستنقعاتها وأدغالها، وفاجأوا العدو والتهموه.

عين بوليفار بايث قائدا عاما للقوات الفنزويلية المسلحة ودخل رجال السهول إلى جانبه إلى كركاس، يرتدون مثله أكاليل من الأزهار.

في فنزويلا رمي النرد.

1822: غواياكيل

سان مارتن

موعد في غواياكيل. بين البحر الكاريبي والمحيط الهادي جادة من أقواس النصر. يظهر الجنرال بوليفار من الشمال ويأتي من الجنوب خوسيه دي سان مارتن، الجنرال الذي عبر سلسلة جبال جزائر الهند الغربية بحثا عن حرية تشيلي و«بيرو».

يتحدث بوليفار ويتحدث، يقدم ويقدم.

يقاطعه سان مارتين باقتضاب: «*أنا منهك*». لا يصدقه بوليفار، أو من المحتمل أنه فاقد للثقة لأنه لا يزال لا يعرف أن المجد ينهك المرء أيضا.

أمضى سان مارتن ثلاثين عاما في المعركة من أوران (Oran) إلى ميبو (Maipu). قاتل كجندي من أجل أسبانيا وقاتل كجنرال متمرس من أجل أميركا. قاتل من أجل أميركا وليس ضدها أبدا: حين أرسلته حكومة بوينس آيرس ليسحق جيوش أرتيغاس الفيدرالية، عصى سان مارتن الأوامر وأخذ جيشه إلى الجبال ليواصل حملته من أجل استقلال تشيلي. بوينس آيرس، التي لا تغفر، منعت عنه الخبز والملح ولم يستسيغوه في ليما أيضا. سموه *الملك خوسيه*.

خيبة أمل في «غواياكيل». سان مارتن، لاعب الشطرنج العظيم، يتجنب اللعبة قائلا: *أنا وأنت لا ننسجم*.

فيما بعد تقام وليمة وحفلة راقصة. يرقص بوليفار في وسط الغرفة وتتنافس السيدات عليه. تسبب الضجة الدوار لسان مارتن الذي يغادر بعد منتصف الليل إلى رصيف المرفأ دون أن يودع أحدا. كانت أمتعته قد سبقته إلى السفينة الشراعية.

يصدر أمر الإبحار. يسير على سطح السفينة بخطوات بطيئة يرافقه كلبه ويطارده البعوض. تبتعد السفينة عن الشاطئ ويستدير سان مارتن ليتأمل أرض أميركا التي تتلاشى وتتلاشى.

1822: بوينس آيرس

طائر غريد

على حافة قرية «مورون» ابتلع قبر وضيع عظام شاعر كان إلى الأمس يمتلك غيتارا واسما.

من الأفضل أن تسافر خفيفا

كنسر ودون أحزان...

عاش بارتولومي هيدالجو (Bartolome Hidalgo)، تروبادوري معسكرات أرتيغاس، لحظة فقط، ودائما في زوبعة من الأغاني والمعارك، ومات منفيا.

مضغت كلاب جائعة رئتيه. تجول «هيدالجو» في شوارع وأحياء بوينس آيرس قارئـا رباعياتـه التي غنت لرجال أحرار وفضحت الأعداء،التي قدمت له القليل من الطعام لكن الكثير من الحياة. دفن جسده في التراب دون كفن، لكن رباعياته العارية والمبتذلة سكنت في الريح.

1822: ريو دي جانيـرو

جنون حركة المرور

أعلنت صحيفة *دياريو دي جانيرو (Diario de Janeiro)* عن بضائع جديدة وصلت من لنـدن: آلات لإصلاح الشوارع أو معالجة الرئتين أو عصر المنيهوت، مخارط خشب، آلات تقطير وطناجر بخارية، نظارات، تلسكوبات، أمواس حلاقة، أمشاط وأيضاً سروج موسّدة، ركابات فضية، عـدّة خيول برّاقة ومصابيح عربات.

كان لا يزال يُشاهد في الشوارع خيالون وحيدون وبضع محفات قديمة مطلية بالذهب تنتمـي إلى عصر آخر،لكن الموضة أملت عربات إنكليزية، آخر موديل، تستخرج الشرر من حصـى الشـوارع. أصبحت شوارع ريو دي جانيرو خطيرة، وتكاثرت الحوادث الناجمة عن السرعة، ونمت قوة الحوذي.

كان الحوذيون، الذي يرتدون قفازات بيضـاء وقبعـات رسميـة، يلقـون مـن مقـاعدهم المرتفعـة نظرات متنمّرة على عبيد سـود آخريـن، ويسـتمتعون بنشـر الذعـر بـين العـابرين. كـانوا سـكارى وقوادين مشهورين، وعازفي غيتارات جيدين، لا يُستغنى عنهم في الحياة الحديثة. كـانت العربـة تساوي ثروة حين تُباع مع حصان سريع وأسود ماهر.

1822: كيـتو

إثنا عشرة حورية يحرسن في الساحة الرئيسية

كانت كل منهن تحمل تاجاً بينما تنفجر الفرق الموسيقية والمفرقعات. وكان وقع حوافر الخيـل على الشارع الحجري الطويل يصدح كمستهل المطر. على رأس جيشه دخل بوليفار كيتـو مجـالداً نحيلاً، عصبياً، وسيفه الذهبي يفوقه طولاً. تساقط مطـر الأزهـار والمنـاديل الصغـيرة المطـرزة عـن الشرفات. كانت الشرفات مذابح سمحت سيدات كيتو أن يعبد عليـها انتصـاب أثدائـهن العاريـة وسط المخرمات والطرحات. كانت مانويلا ساينث تقف كتمثال مقـدم سـفينة ذاهـل. فتحـت يـداً سقط منها تاج من الغار فرفع بوليفار رأسه وثبت نظرته عليها كرمح حركته بطيئة.

في تلك الليلة رقصا. رقصا الفالس إلى أن داخا ودار العـالم علـى حفيـف التنانـير الألـف لتلـك المرأة التي لا نظير لها وعلى صوت شعرها الأسود الطويل.

1823: ليما

أيد متقرحة من تصفيق طويل

انطلق من إل كالو بين صفين من الجنود وعلى طريق من الأزهار. استقبلت ليما بوليفار بتحية من مائة طلقة مدفع ومائة راية ومائة خطاب ومائة وليمة فردية.

منحه الكونغرس الصلاحية الكاملة لطرد الإسبان الذين احتلوا من جديد نصف «بيرو». قدم له مركيز توري تاغل (Torre Tagle) سيرة ذاتية لنابليون، مجموعة من أمواس طليطلة وأصصا من العبارات المنمقة: *ينتظرك النصر على القمم الثلجية لجزائر الهند الغربية ليتوجك بغاره وحوريات ريماك بدأن غناءهن احتفاء بنصرك*! أصدر وزير الحربية أوامر لإلاهة الحظ: *ليبدأ طيرانك الملكي من سفوح «شيمبورازو» إلى قمم جزائر الهند الغربية وهناك انتظري بوليفار لتتوجي جبينه بغار «بيرو»*!

كان نهر ريماك (Rimac)، *النهر الذي يتحدث*، هو الوحيد الذي بقي صامتا.

1824: ليما

رغم كل شيء

انطلق من إل كالو بين صفين من الجنود على طريق من الأزهار. استقبلت ليما زعيم الأسبان، الجنرال مونيت، رافعة راية الملك ومبتهجة بها. كانت الراية ترفرف والخطابات ترفرف. ذاب مركيز «توري تاغل» من الامتنان وتوسل لأسبانيا كي تنقذ «بيرو» من تهديد بوليفار الملعون، الوحش الكولومبي.

كانت ليما تفضل أن تواصل سبات نعيمها الاستعماري بين تموج أعلام شعارات النبالة. تبادل نواب الملك والقديسون والخيالة واللصوص والمغناجون التنهدات والانحناءات وسط خراب أميركا الرملي، تحت سماء لا تمطر، وشمس لا ترسل إلا ملائكة تدافع عن أسوار المدينة التي يتنفس المرء داخلها عطر الياسمين أما في الخارج ينتظر الخطر والعزلة. في الداخل تقبيل الأيدي والمواكب والتوددات: جميع الضباط يقلدون الملك وجميع الكهنة يقلدون البابا. في القصور يحاكي الجص الرخام وفي الكنائس السبعين التي من الذهب والفضة، يحاكي الطقس الإيمان.

بعيدا عن ليما كان بوليفار يستلقي مريضا في بلدة باتيفيلكا (Pativilca) الساحلية. كتب بين فترات إصابته بالحمى:

أسمع صوت الكارثة من جميع الجهات... كل شيء يولد ويموت أمام عيني وكأن صاعقة شققته... غبار، رماد، لا شيء!

سقطت «بيرو» كلها، باستثناء بعض الأودية، في أيدي الأسبان وتخلت حكومتا بوينس آيرس وتشيلي المستقلتان عن قضية حرية هذه الأرض ولم يكن البيروفيون مهتمين جدا.

سأل أحدهم ذلك الشخص المسحوق والوحيد: وما هي خطة عملك الآن؟

أجاب بوليفار: «النصر»

1824: مونتيفيديو

تواريخ أحداث المدينة عن كرسي حلاق

لم يكن النسيم يهب ولذلك لم يرن حوض الغسيل الصفيحي المعلق بسلك فوق ثقب في الباب ليعلن أنهم يحلقون هنا اللحى وينتزعون الأسنان ويستخدمون «كاسات الهوى».

بمقتضى العادة أو لكي يطرد وهن الصيف كان الحلاق الأندلسي يلقي خطبة أو يغني وهو ينهي تغطية وجه الزبون بالرغوة وكان الموسى يهمس بين العبارات والرقصات الأسبانية. كانت إحدى عيني الحلاق تراقب النصل الذي يحرث المرنغ والأخرى تراقب سكان مونتيفيديو الذين يتهادون في الشارع المغبر. كان اللسان أكثر حدة من الموسى ولا ينجو أحد من جزه. وكان الزبون الذي يسجن حتى تنتهي الحلاقة أصم وثابتا يصغي إلى تلك الثرثرة التي تؤرخ العادات والحوادث والتي تحاول بين فينة وأخرى أن تلاحق، من زاوية عين، الضحايا الذين يعبرون.

كان نير للثيران يجر امرأة ميتة إلى المقبرة وثمة كاهن خلف العربة يقرأ الصلوات. وكان صوت جرس يقدم وداعا روتينيا للميتة، التي من الدرجة الثالثة، يصل إلى الحانوت. توقف الموسى في الجو. صلب الحلاق وخرجت من فمه كلمات لفظت بتبديل للنبرة: «المسكينة لم تعرف السعادة أبدا».

كانت جثة «روزاليا فيلاغران» تعبر المدينة وقد احتلها أعداء أرتيغاس. لقد آمنت زمنا طويلا أنها كانت شخصية أخرى، وأنها كانت تحيا في زمن آخر وعالم آخر، ولقد قبلت الجدران في المستشفى الخيري وتحدثت مع الحمام. دخلت روزاليا فيلاغرا، زوجة أرتيغاس، من بوابات الموت دون أن تملك سنتا تدفعه مقابل كفنها.

1824: سهل خونين (Junin)

المعركة الصامتة

أعاد بوليفار تنظيم جيشه بسحر شجاعته العنيدة وانتصر في سهل «خونين» البيروفي. هجم أفضل خيالة العالم بالسيف والرمح وشفوا غليل غضبهم. لم تسمع طلقة واحدة طوال المعركة.

كان الجيش الأميركي خليطا من رعاة بقر شواطئ «الريفر بلاتا» والفلاحين التشيليين وسكان سهول كولومبيا الكبرى الذين قاتلوا والأعنة مربوطة إلى ركبهم، ووطنيين إكوادوريين وبيروفيين، أبطال سان لورينزو وميبو وكارابوبو وبيشنشا. كان الرجال يمتلكون رماحا من غواياكيل ومعاطف من كاجمركا، أحصنة وسروجا من لامبايكوي (Lambayeque) وأحذية من تروخيللو. تبع بوليفار

أيضا إنكليز وفرنسيون، وأسبان ربحهم العالم الجديد، ومتطوعون أوروبيون حاربوا بعيدا على غواديانا أو الراين أو السين.

حين تغرب الشمس يموت الجرحى. كان يحتضر في خيمة بوليفار المقدم سويرسبي، الإنكليزي الذي كان مع نابليون في (بورودينو)، وفي مكان ليس بعيدا يعوي كلب قرب جثة ضابط أسباني. كان الكلب يركض إلى جانب حصان صديقه طوال معركة «خونين» أما الآن، يحاول الجنرال (ميللر) أن يمسكه أو يطرده، لكن ليس ثمة طريقة.

1825: لاباث

بوليفيا

سقطت الراية الملكية مستسلمة عند قدمي أنطونيو خوسيه دي سكر (Antonio Jose de Sucré)، الذي كان جنرالا في سن العشرين ومارشالا في الثلاثين وهو ضابط بوليفار المفضل. أنهت المعركة الرعدية لسهل آياكوتشو (Ayacucho) السلطة الأسبانية لا في «بيرو» فحسب بل في القارة كلها أيضا.

حين وصلت الأنباء إلى ليما قفز بوليفار إلى طاولة غرفة الطعام ورقص داعسا على الصحون مكسرا الكؤوس والزجاجات.

فيما بعد ركب بوليفار وسكر (Sucre) سوية تحت أقواس نصر مدينة «لاباث». هناك ولدت بلاد البيرو العليا، التي امتصها نائبا ملك ليما وبوينس آيرس. لقبت نفسها الآن بـ «جمهورية بوليفار»، وستسمى بوليفيا لكي يخلد أبناؤها اسم محررهم.

حضر خوسيه ماريانو روي لوبا، الراهب الذي يتمتع بموهبة خطابية عظيمة وفم مليء بالذهب، خطبة ترحيبية رائعة، لكن القدر خطف «روي لوبا» قبل أن يتمكن بوليفار من سماعها. كانت الكلمة مؤلفة باللغة اللاتينية.

1825: بوتوسي

المبتدئون: البطل على القمة

تسلق بوليفار في بوتوسي إلى قمة جبل الفضة. حين يتحدث بوليفار يتحدث التاريخ: *هذا الجبل الذي يثير صدره إعجاب وحسد العالم*... تفهم الريح رايات الأوطان الجديدة وأجراس جميع الكنائس. *أعتقد أن هذه الثروة لا تساوي شيئا حين أقارنها*... تعانق ذراعا بوليفار ألف فرسخ. تكثر الأودية طلقات المدافع وصدى الكلمات... *بمجد نصر راية الحرية من الشواطئ المشتعلة والبعيدة*... سيتحدث التاريخ عن الرجل العظيم الذي يقف على المرتفعات. لن يقول شيئا عن التجاعيد الألف التي تخطط وجهه الذي لم ينهكه الزمن لكن المليء بأثلام الحب والأحزان

العميقة. لن يهتم التاريخ بالمهور التي تعدو في صدره، حين يعانق من سماوات بوتوسي، الأرض وكأنها امرأة، الأرض وكأنها تلك المرأة التي شحذت سيوفه وعرته وغفرت له بنظرة، تلك التي تعرف أن تصغي إليه، تحت رعد المدافع والخطابات والاحتفاءات، حين يقول: *ستكونين وحيدة يا مانويلا وسأكون وحيدا وسط العالم. لن يكون هناك عزاء أكبر من مجد غزونا لأنفسنا.*

1825: بوتوسي

امتلكت إنكلترة بوتوسي

سارت المستعمرات الأسبانية المستقلة محنية. جرت من اليوم الأول حجرا ثقيلا مربوطا إلى عنقها، حجرا ينمو ويهيمن. تكاثرت *الديون* الناجمة عن الدعم الإنكليزي بالرجال والسلاح بسبب المرابين والتجار. كان المرابون، ووسطاؤهم المتمرسون في فنون الخيمياء، يحولون أية حصاة إلى حلية ذهبية. وعثر التجار البريطانيون في هذه الأراضي على أسواقهم الأكثر ربحا. كانت البلدان الجديدة، الخائفة من غزو أسباني جديد، تحتاج إلى اعتراف رسمي من إنكلترة. لكن إنكلترة لا تعترف بأحد قبل توقيع اتفاقية الصداقة والتجارة التي تضمن حرية غزو بضائعها الصناعية.

أمقت الديون أكثر من الأسبان، هذا ما كتبه بوليفار للجنرال الكولومبي «سنتاندر» قائلا له إنه باع مناجم بوتوسي للإنكليز بمبلغ مليونين ونصف بيزوس كي يسدد تلك الديون.

كتب أيضا: «*أشرت لحكومة بيرو أن تبيع للإنكليز جميع مناجمها وأراضيها وأملاكها وجميع ممتلكات الحكومة مقابل دينها الوطني الذي لا يقل عن عشرين مليونا*».

أصبح جبل بوتوسي الغني، الذي في أسفل العالم، ملكا لشركة لندنية وقانتوم بوتوسي ولاباث وشركة المناجم البيروفية. وكما يحدث مع أوهام أخرى ناجمة عن نوبات حمى تأملية، الاسم أطول من رأس المال: ادعت الشركة أنها تملك مليون جنيه إسترليني لكنها كانت تملك فعلا خمسين ألفا.

لعنة جبل الفضة

بوتوسي التي قدمت كثيرا من الفضة، تقدم القليل، ذلك لأن الجبل لا يرغب بذلك.

طوال أكثر من قرنين سمع بوتوسي الهنود يئنون في أحشائه. توسل إليه الهنود الذين حكم عليهم بالنزول إلى أنفاقه أن ينهي منيه، وأخيرا لعن الجبل الجشع.

مذاك، كانت تصل قوافل بغال غامضة ليلا، تغوص في الجبل وتحمل سرا حمولات من الفضة. لم يستطع أحد أن يشاهدها أو يقبض عليها لكن الجبل كان يفرغ نفسه ليلة بعد أخرى.

حين تنكسر ساق بغل بسبب الحمولة الثقيلة، يشرق الفجر على خنفساء تعرج بألم على الطريق.

1826: شوكيساكا

بوليفار والهنود

لم تطع القوانين أبدا في مستعمرات أميركا الأسبانية. ومهما كانت سيئة أو جيدة، لم تطبق القوانين أو الأوامر الملكية الكثيرة التي حمت الهنود (والتي اعترفت بعجزها من خلال التكرار). ولم تطبق أيضا الأوامر التي حظرت انتشار الروايات. ولم يمنع هذا التقليد الكريبوليين البارزين والجنرالات أو الأطباء من الإيمان بأن الدستور جرعة ناجعة للسعادة العامة.

نسج سيمون بوليفار الدساتير بحماس وقدم للكونغرس مشروعا دستوريا للجمهورية الجديدة يحمل اسمه.

قال نص الدستور إن بوليفيا ستمتلك رئيسا مدى الحياة وثلاث غرف تشريعية ومدافعين عن الحقوق العامة وشيوخا ومراقبين قال عنهم بوليفار *إنهم يشبهون قليلا Areopagus أثينا ومراقبي روما.*

البشر الذين لا يعرفون القراءة لن يمتلكوا حق التصويت وبما أن جميع البوليفيين يتحدثون الكويتشوا (Quechua) أو الأيمارية (Aymara)، ولا يعرفون شيئا عن اللغة القشتالية ولا يعرفون القراءة فإن حفنة من الذكور المختارين ستمتلك ذلك الحق. وكما فعل في كولومبيا وبيرو ألغى بوليفار في البلاد الجديدة الجزية المحلية والأعمال الشاقة للهنود وقسم الأراضي المشاعية إلى قطع صغيرة خاصة. ولكي يتلقى الهنود، الغالبية العظمى في بلاده، ضوء الحضارة الأوروبية، أحضر بوليفار إلى شوكويساكا أستاذه القديم سيمون رودريغز مع أوامر لتأسيس المدارس.

1826: شوكيساكا

اللعنة على الخيال الخلاق

عاد «سيمون رودريغز»، أستاذ بوليفار، إلى أميركا. أمضى سيمون ربع قرن على الجانب الآخر من البحر وصادق هناك اشتراكيي باريس ولندن وجنيف. عمل مع ناشري روما وكيميائيي فيينا وعلم دروسا ابتدائية في بلدة صغيرة في السهب الروسي.

بعد عناق الترحيب الطويل عينه بوليفار مديرا للتربية في البلاد الجديدة التأسيس. في مدرسة نموذجية في شوكيساكا بدأ سيمون رودريغز مهمته في استئصال الأكاذيب والمخاوف التي يقدسها التراث. صرخت السيدات الورعات ونبح الأطباء المتفقهون من هول الفضيحة. إنه الرعب: اقترح

«رودريغز» المجنون أن يخلط الأطفال ذوي النسب الرفيع مع الخلاسيين الذين كانوا ينامون في الشوارع إلى أمس. بماذا يفكر؟ أيريد أن يأخذه الأيتام إلى الفردوس؟ أم هل يفسدهم ليرافقوه إلى الجحيم؟ لم يسمع في غرف الصفوف التعليم الشفهي أو اللاتينية المقدسة ولا قواعد النحو، كل ما سمع هو صخب المناشر والمطارق الذي لا تحتمله آذان الكهنة والمحامين الصغار الذين يحتقرون العمل اليدوي. *إنها مدرسة للعاهرات واللصوص!* أولئك الذين يؤمنون أن الجسد مشين والنساء زينة صرخوا للسماء العالية. في مدرسة الدون سيمون تجلس الفتيات والفتيان إلى جانب بعضهم، ولإكمال كل هذا، دراستهم لعب.

ترأس حاكم شوكيساكا الحملة *ضد الساتير الذي جاء ليفسد أخلاق الشباب*. حالا طلب المارشال «سكر» رئيس بوليفيا، استقالة سيمون رودريغز لأنه لم يقدم أرصدته بالدقة المطلوبة.

أفكار سيمون رودريغز
تعلم كيفية التفكير

اعتبر المؤلف مجنونا. إنه يبث تهويماته للآباء الذين لم يولدوا بعد. يجب أن يتعلم الجميع دون تمييز سلالي أو لوني. لنتوقف عن خداع أنفسنا: لن يكون هناك مجتمع حقيقي دون تربية شعبية.

ليس التعليم تربية. علم وستحصل على شعب يعرف، رب، وستحصل على شعب يفعل.

أن تطلب ترداد ما لا يفهم عن ظهر قلب هو صناعة لببغاوات. لا تطلب من الطفل أن يفعل أي شيء لا توجد فيه «لماذا؟». إذا عودت الطالب أن يرى دائما العقل وراء الأوامر التي يتلقاها، فإنه يفقده حين لا يراه ويسأل عنه قائلا: لماذا؟ علم الأطفال أن يكونوا محبين للبحث والتحقيق، وهكذا حين يسألون عن أسباب ما يطلب منهم أن يقوموا به، فإنهم يتعلمون طاعة العقل لا السلطة كما يفعل البشر المحدودون ولا العادة كما يفعل الأغبياء.

يجب أن يدرس الفتيان والفتيات معا في المدرسة، أولا: بهذه الطريقة يتعلم الرجال منذ طفولتهم أن يحترموا النساء. وثانيا: تتعلم النساء ألا تخاف من الرجال.

يجب أن يتعلم الفتيان المهن الثلاث الرئيسية: البناء والنجارة والحدادة لأن الأشياء الأساسية تصنع من التراب والخشب والمعدن، ويجب أن تصبح النساء مدرسات أو صاحبات مهن أخرى لكي لا يصبحن عاهرات بسبب الضرورة ويجعلن الزواج وسيلة لتأمين الغذاء.

إن ذلك الذي لا يعرف شيئا يمكن أن يخدعه أي شخص، والذي لا يملك شيئا، يمكن أن يشتريه أي شخص.

1826: بوينس آيرس

رفادفيا

على قمة وهاد «الريفربلاتا»، فوق الضفة الموحلة للنهر، يقع الميناء الذي يغتصب ثروة البلاد كلها.

في مدرج بوينس آيرس، احتل القنصل البريطاني مقعد نائب ملك أسبانيا وكان النبلاء الكريبوليون يستخدمون كلمات من فرنسا وقفازات من إنكلترا وهكذا ينزلقون في حياة الاستقلال.

كان تيار البضاعة المصنعة وفق المواصفات الأرجنتينية في يوركشير ولانكشير يتدفق من نهر «التايمز». وكانوا يحاكون في «بيرمينغهام» المرجل النحاسي التقليدي الذي يسخن الماء للمتة وينحتون نسخا دقيقة عن الركابات الخشبية والبولا والوهق التي تستخدم في هذه البلاد.

ونادرا ما كانت مشاغل النسيج المحلية تملك فرصة لمقاومة الهجوم إذ كانت سفينة واحدة تحضر عشرين ألف زوج من الأبواط بأسعار مخفضة وممطرا من ليفربول كلفته أقل بخمس مرات من كلفته في «كاتامركا».

كان «رفادافيا» يكثر الدين العام والمكاتب العامة وهو جالس على كرسي بذراعين سيصبح مقدسا. إن محاميا مبجلا من بوينس آيرس يخرج في عربة تجرها أربعة خيول يدعي أنه رئيس بلاد يحتقرها ولا يعرفها، لكن وراء أسوار مدينة بوينس آيرس، كانت البلاد تكرهه.

1826: بنما

بلدان وحيدة

نطق الرضيع كلماته الأولى فكانت الأخيرة ومن بين الذين دعوا إلى المعمودية لم يصل إلى بنما سوى خمسة وبدلاً من المعمودية حدث مسحٌ بالزيت مفرط.

قلّص الحزن، حزن الأب، وَجْهَ بوليفار وبدت التعازي جوفاء.

قُرعت الأجراس من أجل وحدة أميركا الهسبانية.

دعا بوليفار البلدان الجديدة إلى الوحدة في وطن واحد تحت حماية بريطانية. لم يدعُ الولايات المتحدة أو هاييتي لأنهما كانتا غريبتين عن عاداتنا الأميركية، لكنه أراد أن توحِّد بريطانيا العظمى عصبة الأمم الأميركية الهسبانية وتدافع عنها ضد خطر غزو أسباني جديد.

لم تكن للندن مصلحة في وحدة أراضيها الجديدة ولم يُنجب كونغرس بنما شيئاً سوى تصريحات طنانة لأن المناطق التي حكمها نواب الملك أنجبت بلداناً مقيدة إلى إمبراطورية جديدة وراء البحار وتعيش حالة طلاق فيما بينها. إن الإقتصاد الكولونيالي والمناجم والمزارع التي تنتج للخارج والمدن التي تفضّل البازار على المعمل لا تفتح طريقاً لأمة كبيرة بل لأرخبيل كبير. كانت البلدان المستقلة تتفكك بينما كان يحلم بوليفار بوطن موحّد. لم توقع هذه البلدان اتفاقية تجارية

واحدة بين بعضها لكنها غمرت بطوفان السلع الأوروبية واشترت جميعها المنتج البريطاني الرئيسي: مذهب حرية التجارة.

أما في لندن فقد عرض رئيس الوزراء جورج كانينغ (George Canning) غنيمته أمام مجلس العموم.

1826: لندن

كانينغ (Canning)

لؤلؤة التاج تتحدث. يكرس جورج كانينغ الجلف، زعيم الدبلوماسية البريطانية، عمله أمام مجلس العموم. ينشر كانينغ ذراعيه، جناحي الباز. يعلن مهندس الإمبراطورية: «*استدعيت العالم الجديد إلى الوجود كي أصلح توازن العالم القديم*».

تصدر قهقهة من زاوية ويتبع ذلك صمت طويل. ينتصب «كانينغ» في ظلمة مظهره الجانبي الشبحي الحاد ثم ينفجر الاحتفاء الحماسي الأعظم الذي لم يسمع أبدا من قبل في هذه الغرفة.

إنكلترة هي محور الكوكب. فعل اللورد كاسلري (Castlereagh) الكثير للمشروع الإمبراطوري إلى أن أربك في أحد المساءات وقطع حنجرته بموسى. جاء «كانينغ»، خلف «كاسرلي» إلى السلطة بشق النفس حين أعلن أن حقبة الفروسية انتهت. يجب أن تمهد الأمجاد العسكرية الطريق للدبلوماسية الماكرة. قدم المهربون لإنكلترة أكثر مما قدم الجنرالات. وحان وقت التجار والمصرفيين لكي يربحوا المعارك الحقيقية للهيمنة على العالم.

إن صبر الهرة أكثر فاعلية من غضب النمر.

1828: بوغوتا

هنا يكرهونها

ينادونها دون أن يخفضوا أصواتهم: «غريبة» وميسالينا (Messalina) وفي السر يسمونها أسماء سيئة. يقولون إنه بسببها يتجول بوليفار مثقلا بالظلال ومليئا بالتجاعيد وإنه يستنفد مواهبه في الفراش.

قاتلت مانويلا ساينث بالرمح في أياكوتشو (Ayacucho) وكان الشارب الذي نزعته عن العدو طلسما للجيش الوطني. حين أعلنت القوات العصيان في ليما ضد بوليفار تنكرت في زي رجل ودخلت عبر الثكنات بمسدس وحقيبة من النقود. هنا، في بوغوتا، كانت تطوف في ظل أشجار الكرز بثياب قائد ترافقها امرأتان سوداوان بملابس الفرسان. منذ بضع ليال وضعت في حفلة إزاء الحائط دمية رثة كتب عليها: «*الموت لفرانسيسكو دي بولا سنتاندر، الخائن*»، وأطلقت عليها النار.

ترعرع سنتاندر في ظل بوليفار الذي عينه أثناء أعوام الحرب نائبا للرئيس. أما الآن فيرغب سنتاندر باغتيال *الملك الذي بلا تاج* في حفلة رقص تنكرية ما أو في كمين غادر.

قال خفير بوغوتا الليلي الكلمة الأخيرة وهو يحمل مصباحا في يديه. أجابته أجراس الكنائس التي تخيف الشيطان وتدعو الجميع إلى دخول منازلهم.

تدوي الطلقات ويسقط الحراس. اندفع القتلة صاعدين الدرج، وبفضل مانويلا التي كانت تستلقي لتعرقلهم نجح بوليفار في الهرب من النافذة.

1828: بوغوتا

من رسالة مانويلا ساينث إلى زوجها جيمس ثورن

لا، لا ليس ثانية أيها الرجل، حبا بالله! لماذا تجعلني أكتب وأتراجع عن قراري؟ انظر، مهما كان جيدا ما تفعله، فإنه يسبب لي ألما لأني سأقول لك ألف مرة: لا؟ أيها السيد أنت ممتاز، فريد من نوعك، لن أقول أبدا أي شيء آخر عنك. ولكن يا صديقي، إن هجري لك من أجل الجنرال بوليفار شيء ذو شأن، أما هجر زوج آخر لا يملك مواصفاتك لن يكون شيئا مهما.

... أعرف جيدا أن لا شيء يقدر أن يوحدني معه تحت رعاية ما تدعوه بالشرف. أتظنني أقل شرفا لأنني اخترته كعشيق لا كزوج؟ آه، أنا لا أعيش وفق الاهتمامات الاجتماعية التي ابتكرت من أجل التعذيب المتبادل!

اتركني وحدي يا عزيزي الإنكليزي ولنفعل شيئا آخر. سنتزوج ثانية في السماء أما على الأرض فلا ... هناك سيكون كل شيء وفق الطراز الإنكليزي ذلك لأن أبناء أمتك يعيشون حياة رتيبة و أذكياء فيما يتعلق بالتجارة والأساطيل. إنهم يتلقون الحب بلا متعة والحديث دون فكاهة، يسيرون دون نشاط ويحيون بالانحناءات، ينهضون ويجلسون بحذر، ينكتون دون ضحك. هذه شكليات مقدسة، لكن أنا، الغانية البائسة، التي تضحك على نفسها وعليك وعلى هذه الرزانات الإنكليزية كم سيكون تصرفي سيئا في السماء!

1829: كريانتاس

بونبلان

لقد اكتشف أميركا في مجرى تسعة آلاف فرسخ وسبعين ألف نبتة. حين عاد إلى باريس، اشتاق إلى أميركا. وضح له حنانه أنه ينتمي إلى البلاد نفسها كالجذور والأزهار التي جمعها. نادته تلك الأرض كما لم تناده أوروبا أبدا ومن أجلها اجتاز المحيط مرة أخرى.

كان بروفسورا في بوينس آيرس وعاملا في حقول المتة في «البارانا» الأعلى (Upper Parana). هناك اعتقله جنود غاسبار رودريغز دي فرانسيا، ديكتاتور البارغوي المطلق والأبدي. ضربوه بالعصي وأخذوه في قارب باتجاه أعلى النهر.

سجن في الباراغواي تسع سنين وقيل إن الديكتاتور فرانسيا، الذي يحكم بالرعب والغموض، اتهمه بالتجسس. تدخل الملوك والأباطرة والرؤساء لإطلاق سراح الفقيه الشهير لكن لم تحدث الوساطات والبعثات والتوسلات أي تأثير.

حكم عليه الديكتاتور في يوم هبت فيه ريح شمالية، ريح تفسد الروح. وفي يوم هبت فيه ريح جنوبية قرر أن يطلق سراحه. وبما أن بونبلان لا يريد أن يغادر، طرده الديكتاتور.

لم يسجن بونبلان في زنزانة. كان يعمل في أراض تقدم القطن وقصب السكر والبرتقال. وشيد معملا لتقطير الرم وحانوت نجارة ومستشفى وأشرف على ولادات النساء والأبقار في المنطقة وقدم أدوية ضد الروماتيزم والحمى. أحبت باراغوي سجينها الحافي القدمين الذي يلبس قميصا فضفاضا، الباحث عن النباتات النادرة، رجل الحظ السيء الذي قدم فوائد كثيرة، وها هو يغادر الآن لأن الجنود يجبرونه على الخروج.

لم يكد يعبر الحدود إلى داخل الأراضي الأرجنتينية حتى سرق شخص ما خيوله.

1829: أسنسيون، بارغوي

فرانسيا المطلق

ليس ثمة لصوص في باراغوي، أي لا أحد على وجه الأرض، وليس هناك شحاذون. حين يقرع الطبل، لا الجرس، يذهب الطلاب إلى المدرسة. ورغم أن الجميع يستطيعون أن يقرأوا ليس هناك مطبعة أو مكتبة أو كتاب أو صحيفة أو نشرة تجيء من الخارج، أما مكتب البريد فقد اختفى بسبب عدم الاستخدام.

تعيش البلاد التي تسجنها الطبيعة وجيرانها في أعلى النهر، متيقظة، تنتظر هجوما أرجنتينيا أو برازيليا مفاجئا. ولكي يتوب البارغوايون عن استقلالهم قطعت بوينس آيرس منفذهم إلى البحر وتعفنت سفنهم عند أرصفة المرفأ، لكنهم ثابروا على بؤسهم وكرامتهم. الكرامة والعزلة الوطنية: عاليا فوق الأكرات كان غاسبار رودريغز يقود ويراقب. كان الديكتاتور يعيش وحيدا ويأكل خبز وملح أرضه في صحون تجربها قبله الكلاب.

كان جميع البارغوايين جواسيس أو هدفا للتجسس. في الصباح الباكر يقدم أليخاندرو الحلاق لـ «إل سبريمو» (El Supremo) أول تقرير في اليوم عن الشائعات والمؤامرات وهو يشحذ موسه. بعد أن يخيم الليل، يصطاد الديكتاتور بالمنظار النجوم التي تخبره أيضا ما الذي يفعله أعداؤه.

1829: ريو دي جانيـرو

كرة ثلج الدين الخارجي

مضى سبعة أعوام على إعلان الأمير بدرو نفسه إمبراطورا على البرازيل. ولدت البلاد في حيـاة الاستقلال وهي تقرع أبواب المصرفيين الإنكليز. كان الملك خوان، والد بدرو، قد أفرغ البنك وأخذ معه إلى لشبونة آخر غرامات الذهب والفضـة. وصلـت الملايـين الأولى مـن الجنيـهات الإسـترلينية حالا من لندن ورهن دخل الرسوم الجمركية كضمان وحصل الوسطاء المحليـون علـى 2٪ مـن كـل قرض.

أصبحت البرازيل مدينة بضعف ما حصلت عليه وتدحرج الديـن متناميا ككـرة ثلجيـة. كـان الدائنون يصدرون الأوامر وولد جميع البرازيليين مدينين.

كشف الإمبراطور بدرو في خطبة وقورة أن الخزينة العامة فرغت وأصبحت *في حالة بائسـة* وأن البلاد مهددة بالخراب الشامل. لكنه، على أية حال، أعلن الخلاص: قـرر الإمـبراطور أن يتخـذ *إجراءات ستدمر سبب الكارثة الحالية بضربة واحدة*. وشرح قائلا إن هذه الإجراءات الراديكالية: تتألف من قروض جديدة تتوقع البرازيل استلامها من مؤسسة روتشيلد وويلسون في لنـدن، بفـائدة قاسية لكنها مشرفة.

في غضون ذلك، أفـادت الصحـف أن ألـف حفلـة قـد جـهزت للاحتفـال بخطبـة الإمـبراطور والأميرة «أميليا». كانت إعلانات الصحف تعـرض عبيـدا سـودا للبيـع أو التأجـير وأنـواع جبنـة وبيانوهات وصلت حديثا من أوروبا، سترات إنكليزية من الصوف الرائع وخمورا من بـوردو. كـان فندق «دو غلوبو» في شارع «كويتاندا»، يبحث عـن *شـيف أجنـبي أبيـض ليس سكيرا أو نافخـا للسيجار*، وكانوا يحتاجون في 76 شـارع دوفيـدور إلى *سـيدة تتحـدث الفرنسـية لتعتنـي بشـخص أعمى*.

1830: نهر مجدلينا

القارب ينحدر إلى البحر

أرض خضراء، أرض سوداء، وبعيدا يكفن الضباب الجبال. كان نهر «مجدلينا» يحمل سيمون بوليفار في اتجاه مجرى النهر. «لا».

كان الشعب الذي منحه سيفا مرصعا بألماسة يحـرق دسـتوره في شـوارع «ليمـا». الذيـن سمـوه «أب البلاد»، أحرقوا صورته في شوارع «بوغوتا» ولقبوه رسميا في كركاس بـ«عـدو فـنزويلا»، أمـا في باريس فقد ازدادت المقالات التي تشوهه والأصدقاء الذين عرفوا كيف يمدحونه يجـهلون كيـف يدافعون عنه.

«لا أستطيع».

أكان ذلك تاريخ البشرية؟ هذه المتاهة، لعبة الظلال التي لا طائل منها؟ كان الشعب الفنزويلي يلعن الحروب التي أخذت نصف أبنائه إلى أمكنة بعيدة ولم تمنحهم شيئا مقابل ذلك. انتزعت فنزويلا نفسها من كولومبيا الكبرى وتبعتها إكوادور، بينما كان بوليفار يستلقي تحت قماشة متسخة في الزورق الذي يبحر في نهر مجدلينا نحو البحر.

«لم أعد أستطيع».

كان السود لا يزالون عبيدا في فنزويلا رغم القوانين. أما في كولومبيا وبيرو فإن القوانين التي أصدرت من أجل تحضير الهنود طبقت من أجل سلبهم. وأعيدت في بوليفيا الجزية، الضريبة الكولونيالية، التي كان الهنود يدفعونها لمجرد كونهم هنودا.

أكان هذا، أكان هذا هو التاريخ؟ لقد قزمت العظمة كلها. وزحفت الخيانة على عنق كل وعد وأصبح الرجال العظام مالكي أرض شرهين. دمر أبناء أميركا بعضهم، أما «سكر»، الوريث المختار، الذي أنقذ نفسه من السم والخنجر، سقط صريعا برصاصة في الغابات، حين كان في طريقه إلى «كيتو».

«لم يعد بوسعي. لنذهب»

كانت التماسيح وألواح الخشب تتمازج في النهر وكان بوليفار، ذو الجلد الأصفر، الذي خبا بريق عينيه، المرتجف والهاذي، ينحدر في نهر مجدلينا نحو البحر، نحو الموت.

1830: مراكيبو

الحاكم يعلن

«بوليفار، عبقرية الشر، مشعل الفوضى، ظالم بلاده، زال من الوجود».

1830: لاغوايرا

التقسيم

القنصل الأميركي الشمالي في لاغوايرا، غ. ج ويليامسون، نبي وبطل تفكك كولومبيا الكبرى، أرسل إلى وزارة الخارجية تقريرا جيد الاطلاع. بعد شهر من الحدث، أعلن انفصال فنزويلا ونهاية الرسوم الجمركية التي لا تناسب الولايات المتحدة.

مات سيمون بوليفار في 17 كانون الأول. في 17 كانون أول آخر ومنذ إحدى عشرة سنة، أسس كولومبيا الكبرى في عملية صهر لفنزويلا وكولومبيا شملت أيضا إكوادور وبنما. ماتت كولومبيا الكبرى معه.

ساعد القنصل الأميركي الشمالي في ليما ويليم تيودور في نسج المؤامرة ضد المشروع الأميركي لبوليفار، *مجنون كولومبيا الخطير*. لم يكن تيودور منزعجا من حرب بوليفار ضد العبودية التي هي مثال سيء للولايات المتحدة الجنوبية فحسب، بل أيضا، وقبل كل شيء، *من التعظيم المفرط* لأميركا التي تحررت من أسبانيا. قال القنصل بمنطقية *إن إنكلترا والولايات المتحدة تملكان أسبابا مشتركة قوية* ضد تطور قوة جديدة. في غضون ذلك، كان الأميرال البريطاني فليمنغ يروح ويجيء بين بلنسية وقرطاجنة، مشجعا على التقسيم.

1830: مونتيفيديو

المبتدئون: قسم الدستور

قال اللورد جون بونسوني: *إن الحكومة الإنكليزية لن توافق أن تكون البرازيل والأرجنتين السيدتين الحصريتين لسواحل أميركا الجنوبية الشرقية.*

أصبحت أوروغوي، من خلال نفوذ لندن وحمايتها، دولة مستقلة. انفصل الإقليم الأكثر تمردا في «الريفر بلاتا» والذي طرد البرازيليين عن ترابه، عن الجذع القديم، وعاش حياة خاصة به .ثم تحرر ميناء بوينس آيرس أخيرا من كابوس ذلك السهل العادي الذي أعلن فيه أرتيغاس تمرده.

قدم الأب لاراناغا (Larranaga) في كنيسة مونتيفيديو الأم، تسبيحة شكر لله. أضاء الحماس وجه الكاهن كما في تسبيحة الشكر الأخرى التي قدمها منذ بضع سنوات عن المنصة نفسها تبجيلا للغزاة البرازيليين.

حدث قسم الدستور تحت شرفات مجلس المدينة وكانت السيدات اللواتي يغفلهن الدستور يرافقن التكريس القانوني للبلاد الجديدة وكأنه يشملهن. كن يمسكن بيد تسريحاتهن العملاقة الخطرة أيام هبوب الريح وبالأخرى يفتحن إزاء صدورهن مراوح رسمت عليها شعارات وطنية. وكانت قبات عالية منشاة تمنع الرجال من إدارة رؤوسهم. صدحت البراءة العظمى في الساحة فقرة بعد فقرة، فوق بحر من القبعات الرسمية. استنادا إلى دستور الجمهورية الجديدة لن يمنح حق المواطنية للرجال الذين قدموا أجسادهم ضد الرصاص الأسباني ورصاص بوينس آيرس والبرازيل. لم تصغ باراغوي لرعاة البقر الفقراء أو الهنود أو السود الذين لا يزالون يجهلون أن قانونا حررهم. قال الدستور، إن الخدم والعمال الهنود وضباط الصف والجنود والمتشردين والسكارى والأميين لا يسمح لهم بالتصويت أو باستلام وظيفة عامة.

في الليل غص المدرج بالحشود، إنه يوم افتتاح *الخدعة السعيدة أو انتصار البراءة* لروسيني، وهي الأوبرا الأولى الكاملة التي قدمت في هذه المدينة.

1830: مونتيفيديو

مسقط رأس أو قبر

بدأ الشاعر الأرغواني البرناسي الأول، فرانسيسكو أكيونا دي فيغيراو، مهنته بأنشودة، تتألف من مقاطع شعرية ثمانية الأسطر، تحتفي بمجد أسبانيا العسكري. حين سيطر رعاة بقر أرتيغاس على مونتيفيديو هرب إلى ريو دي جانيرو وهناك كرّس قوافيه المداهنة للأمير البرتغالي وجميع أفراد حاشيته. تبع الدون فرانسيسكو الغزاة البرازيليين إلى مونتيفيديو وارتجل قصائد للقوات المحتلة. فيما بعد في اليوم الذي تلا طرد البرازيليين نفخت ربات الشعر القصائد الوطنية العشرية المقاطع في أذن الدون فرانسيسكو، وكلمات من الغار لتتويج جبين أبطال الاستقلال. وبدأ الشاعر الزاحف كتابة النشيد الوطني للبلاد الحديثة الولادة. وسيحكم علينا، نحن شعب أوروغوي، أن نصغي إلى الأبد إلى أشعاره، واقفين.

1832: سانتياغو دي تشيلي

الصناعة الوطنية

في تشيلي أيضاً يرقص السادة ويلبسون وفق الطراز الفرنسي، يقلدون بايرون في حياكة ربطات أعناقهم وعلى المائدة يطيعون إملاءات رؤساء الخدم الفرنسيين، يتناولون الشاي كالإنكليز ويخفضون كؤوس خمرتهم كالفرنسيين.

حين أسس فيسينتي بيريث روزاليس معملاً للبراندي اشترى أفضل أجهزة التقطير الباريسية وكمية كبيرة من اللصقات بأرابيسك مطلي بالذهب وأحرف مخططة رائعة تقول بالإنكليزية شمبانيا معتقة، كونياك. على باب مكتبه علّق يافطة كبيرة تقول:

استيراد مباشر

لن يكون الطعم قوياً جداً بل معتدلٌ. انطلق المشروع كمنزل يحترق. ولم يقدر المصنع أن يواكب الطلب، لكن الدون فيسينتي أصيب بنوبة وطنية وقرر أنه لا يستطيع أن يتابع حياته في حالة من الخيانة.

«تنتمي هذه السمعة الجيدة لتشيلي فقط»

أحرق اللصقات الأوروبية ووضع يافطة أخرى على بابه أكثر ضخامة:

صناعة محلية

ارتدت الزجاجات ثوبا جديدا ولصقات طبعت هنا، تقول بالإسبانية: *كونياك تشيلي*.
لم يتمكن من بيع زجاجة واحدة.

صيحات في سوق سانتياغو دي تشيلي

«*قرنفل وحبق للفتيات الصغيرات القصيرات والبدينات*!».
«كعكات رقيقة مدورة!»
«أزرار جميلة، الخيط ببنس!»
«كبريت!»
«*صدقة كرمى لله*!»
«لحم بقري جيد!»
«بنس لرجل أعمى فقير»!
«مكانس، فرصة أخيرة للمكانس!»
«تبغ، تبغ للمضغ!»
«ميداليات عجيبة بالمفرق أو بالجملة!»
«انظروا إلى كعكات البراندي هذه!»
«*سكاكين من أجل أمنكم الشخصي*!»
«شفرات حادة!»
«من يشتري هذا الحبل»
«خذوا هذا الخبز الجيد.»
«أجراس صغيرة، بقي واحد فقط.»
«بطيخ،»!
«خذوا هذا الخبز الجيد، إنه ساخن!»

1833: أركيبا (**Ariquipa**)

حيوانات اللامة

قالت فلورا تريستان: «*إنها كائنات سعيدة*.»

كانت فلورا تسافر في أرجاء بيرو، بلد والدها، واكتشفت في الجبال «*الحيوان الوحيد الذي لم يقدر الإنسان أن يحط من قدره*.»

إن حيوانات اللامة اللطيفة أكثر رشاقة من البغال وتتسلق إلى أمكنة أكثر ارتفاعا وتقاوم البرد والإعياء والحمولات الثقيلة. تقدم ،دون مكافأة، لهنود الجبال وسيلة النقل والحليب واللحوم والصوف النظيف المتألق الذي يستر أجسادهم. لكنها ترفض أن تقيد أو تساء معاملتها أو أن تنفذ الأوامر. حين توقف خطواتها الملكية يتوسل إليها الهنود أن تسير ثانية. إذا ضربها أو أهانها أو هددها شخص فإن حيوانات اللامة ترمي نفسها على الأرض، وترفع أعناقها الطويلة مديرة نحو السماء أجمل أعين في الوجود ثم تموت بهدوء.

قالت فلورا تريستان: «*إنها مخلوقات سعيدة.*»

1833: سان فيسينتي

أكينو

كان رأس أكينو موضوعا في سلة الجلاد.

لترقد روحه في الحرب. لقد رفع زعيم هنود السلفادور ثلاثة آلاف رمح ضد سارقي الأراضي وعرى القديس يوسف على مذبح كنيسة مرتفع. مرتديا رداء والد المسيح، أعلن أن الهنود لن يصبحوا أبدا عبيدا مرة أخرى أو جنودا ولن تبيدهم المجاعة أو يسكروا. لكن المزيد من القوات وصل وتوجب عليه أن يلوذ بالجبال.

سلمه ملازم في قواته يدعى «كاسكابال».

قال أكينو حين أثقلوه بالأغلال والسلاسل: «*أنا الآن يغور دون مخالب أو أنياب*». واعترف لـ«فراي تافارو» أنه لم يخش أبدا طوال حياته سوى غضب أو دموع زوجته. قال حين عصبوا عينيه: *أنا جاهز لألعب الغميضة*.

1834: باريس

تاكوايي Tacuabé

على أراضي كيكواي (Quequay) المرتفعة، أكملت خيالة الجنرال «ريفيرا» عملية التحضير بمهارة جيدة في الرماية. بعدئذ، لم يبق هندي حي في أوروغوي.

تبرعت الحكومة بالهنود الأربعة المتبقين من هنود التشاروا Charrua إلى أكاديمية العلوم الطبيعية في باريس وأرسلوا كمتاع في عنبر سفينة بين الطرود والحقائب الأخرى.

دفع الجمهور الفرنسي رسم دخول ليشاهد المتوحشين، العينات النادرة لسلالة انقرضت. سجل العلماء إيماءاتهم وملابسهم وقياساتهم، واستنتجوا من حجم جماجمهم أن ذكاءهم محدود وشخصيتهم عنيفة.

قبل مرور شهرين انتحر الهنود. تشاجر الأكاديميون على الجثث. لم يبق على قيد الحياة إلا تاكوابي الذي هرب مع طفلته الحديثة الولادة إلى مدينة ليون بطريقة مجهولة واختفى هناك.

كان تاكوابي هو الذي صنع الموسيقى في المتحف بعد أن غادر الجمهور. دلّك قوساً بعصا قصيرة مبللة باللعاب واستخرج اهتزازات عذبة من أوتاره المصنوعة من شعر الحصان. قال فرنسيون تجسسوا عليه من وراء الستائر إنه أنتج أصواتاً ناعمة، مكتومة، لا تسمع تقريباً وكأنه كان يتحدث في السرّ.

1834: مكسيكو سيتي

الحب هو العطاء

وُضِعَتْ قرعة مليئة بالخل وراء كل باب وعلى كل مذبح كانت تصلي ألف شمعة. وصف الأطباء فصد الدم والتعقيم بالكلوريد. حدّدت رايات ملونة المنازل التي غزاها الطاعون وأشارت الأغاني والصرخات الكئيبة إلى مرور عربات مليئة بالجثث في الشوارع لا يقودها أحد.

أصدر الحاكم تصريحاً يحظّر أنواعاً معينة من الطعام وقال إن الفلفل المحشو والفاكهة نشرت الكوليرا في مكسيكو.

كان حوذيّ يقطّع تشيريمويا (Chirimoya) ضخمة في شارع «الروح القدس». تمدد في مجثمه ليستمتع بأكلها قطعة بعد أخرى. ابتعد عنه أحد العابرين فاغراً فاه.

«*أيها البربري ألا ترى أنك تنتحر! ألا تعرف أن هذه الثمرة تأخذك إلى القبر*.

تردّد الحوذي متأملاً النواة الحليبية دون أن يقرر أن يبدأ بالعض. نهض أخيراً وسار بضع خطوات وقدّم التشيريمويا إلى زوجته التي كانت تجلس في زاوية.

«*كُليها أنت يا حبيبتي*».

1835: جزر غالاباغوس (Galapagos)

داروين

تكشّف البحر والضباب عن تلال سوداء وكانت سلاحف بحجم الأبقار تزحف على الصخور كأنها في قيلولة وبين الشقوق انزلقت عظاءات وتنانين بلا أجنحة.

علّق قبطان البيغل (Beagle) قائلاً: «*عاصمة الجحيم*».

أكد تشارلز داروين حين ألقيت المرساة: *حتى الأشجار تشعر بالسوء*.

في جزر «غالاباغوس» اقترب داروين من كشف *سر الأسرار*. أحس هنا بمفاتيح تحول الحياة الذي لا ينتهي على الأرض. اكتشف كيف أكملت طيور الدج مناقيرها، كيف أخذ المنقار الذي يكسر بذاراً صلبة كبيرة شكل مِكْسرة، والمنقار الذي ينشد رحيق الصبّار شكل كماشة. واكتشف

داروين أن الشيء نفسه حصل للأصداف وأعناق السلاحف، وفقاً لتناولها الطعام على مستوى الأرض أو تفضيلها الفاكهة المرتفعة.

سيكتب داروين: «*إن أصل جميع آرائي هو في جزر غالاباغوس*». وكتب في دفتر يومياته: «*كنت أنتقل من دهشة إلى أخرى*».

حين أبحرت سفينة «البيغل» من ميناء بريطاني منذ أربع سنوات كان داروين لا يزال يؤمن بكل كلمة في النصوص المقدّسة. اعتقد أن الله خلق العالم كما هو الآن في ستة أيام وأنهى عمله كما أكد كبير الأساقفة أشر (Usher) في التاسعة صباحاً، يوم السبت، 12 تشرين أول، عام 4004 قبل الميلاد.

1835: كولومبيا

تكساس

منذ خمسة عشر عاماً، أصدرت قافلة عربات صريراً عبر سهول تكساس المهجورة وقدمت لها الأصوات الجنائزية للبوم والذئاب الصغيرة ترحيباً سيئاً. اقتطعت المكسيك أراضي لهذه العائلات الثلاثمائة التي جاءت من «لويزيانا» مع عبيدها ومحاريثها. كان هناك منذ خمسة أعوام عشرون ألف مستعمر أميركي شمالي في تكساس واشتروا كثيراً من العبيد من كوبا أو من الزرائب حيث يسمّن سادة فيرجينيا وكينتكي السود الصغار. رفع المستعمرون رايتهم، صورة الدب، ورفضوا أن يدفعوا الضرائب لحكومة المكسيك أو أن يطيعوا القانون المكسيكي الذي ألغى العبودية في جميع الأراضي الوطنية.

آمن نائب رئيس الولايات المتحدة جون كالهون (John Calhoun) أن الله خلق السود كي يقطعوا الخشب ويقطفوا القطن ويحملوا الماء للشعب المختار. احتاجت المعامل إلى مزيد من القطن واحتاج القطن إلى مزيد من الأراضي والعبيد. قال كالهون العام الماضي *ثمة أسباب قوية تقتضي أن تشكل تكساس جزءاً من الولايات المتحدة*.

في ذلك الوقت كان الرئيس جاكسون الذي يتنفس الحدود برئتي رياضي، قد أرسل صديقه سام هوستون إلى تكساس.

شق هوستون العنيد طريقه بقبضته، وصار جنرالا للجيش وأعلن استقلال تكساس. إن هذه الدولة الجديدة التي ستصبح حالا نجمة أخرى على علم الولايات المتحدة، أكبر من فرنسا.

ونشبت الحرب ضد المكسيك.

1836: سان جاسينتو (San Jacinto)

العالم الحر يتنامى

عرض سام هوستون الأرض بسعر أربعة سنتات للأكر الواحد. تدفق المتطوعون الأميركيون على كل طريق ووصلت الأسلحة في السفن من نيويورك ونيو أورليانز.

لم يعنِ ذلك الشهاب الذي أعلن الكارثة في سماوات المكسيك أي شيء لأحد وعاشت المكسيك في كارثة دائمة منذ أن أعلن قتلة «هيدالجو» و«موريلوس» الاستقلال كي يستبدوا بالسيطرة على البلاد.

لم تستمر الحرب طويلاً. وصل الجنرال المكسيكي سانتا آنا داعياً إلى حمام دم ونفذ واحداً في «آلامور» لكنه فقد في «سان جاسينتو» أربعمائة رجل في ربع ساعة. سلّم «سانتا آنا» تكساس مقابل حياته وعاد إلى مكسيكو سيتي بجيشه المهزوم وشيفه الخاص وسيفه الذي يساوي سبعة آلاف دولار وأوسمته التي لا تُحصى وعربته المليئة بالديكة المصارعة.

احتفل الجنرال هوستون بالنصر وعيّن نفسه رئيساً لتكساس.

أكد دستور تكساس حقوق السيد الأبدية على عبيده كملكية مكتسبة شرعياً، وكان شعار القوات المنتصرة: *توسيع منطقة الحرية*.

1836: حصن ألامو

صور بطل الحدود

حين نشبت حرب تكساس وكان الحظ لا يزال يبتسم للقوات المكسيكية، سقط الكولونيل «ديفي كروكيت» مخترقا بالحراب. سقط في حصن «ألامو» مع عصابته المؤلفة من الأبطال الخارجين عن القانون وأنهت الصقور قصته.

فقدت الولايات المتحدة، التي كانت تسمن على حساب أراضي الهنود، أحد أبطالها الحدوديين. كان ديفي كروكيت يمتلك بندقية سميت «بتسي» تقدر أن تقتل خمسة دببة برصاصة واحدة.

كان بوسع «كروكيت» أن يصبح ابن «دانييل بون»، الرائد الأسطوري للقرن السابق، الشجاع جدا والقاتل المتوحد، الذي كره الحضارة، وكسب عيشه من خلال توطين المستعمرين في الأراضي التي سرقها من أصدقائه الهنود. وكان بوسعه أن يصبح والد «ناتي بمبو» الشخصية الخيالية التي اشتهرت إلى درجة أنها بدت حقيقية.

منذ أن نشر فينيمور كوبر كتابه «*آخر الموهيكانيين*» *(The last of the Mohicans)* دخل ناتي بمبو، الصياد الفظ والنبيل، في الحياة اليومية للولايات المتحدة. علمته الطبيعة كل ما يعرفه عن الأخلاق وجاءت طاقته من الجبال والغابات. كان دميما يمتلك ضرسا واحدا في فمه الكبير لكنه كان يحمي دون مقابل العذراوات البيضاوات الجميلات اللواتي، يعبرن، بفضله، دون خوف، في الدغل والرغبة. كان ناتي بمبو يمدح الصمت بكلمات كثيرة ولم يكذب حين قال إنه لا يخشى الموت وإنه يعجب بالهنود وهو يقتلهم بحزن.

1836: هارتفورد

المسدس

سجل المهندس صامويل كولت، في هارفـاد بـ«كونيكتيكـت»، بـراءة اخـتراع المسـدس الـذي اخترعه. كان مسدسا بأسطوانة دوارة تحتوي خمـس رصاصـات ويقتـل خمـس مـرات في عشـرين ثانية.

جاء الطلب الأول من تكساس.

1837: مدينة غواتيمالا (Guatemala City)

مورازان

هبت عاصفة من أردية الكهنة وكان «رافايل كاريرا» ومضة البرق التي أثارت الخوف وقصفت الرعود فوق غواتيمالا كلها: «*يحيا الدين! الموت للأجانب! الموت لمورازان!*»

أشعلت جميع الشموع وصلت الراهبات بسرعة بحيث رتلـن تسـع تاسـوعيات في تسـع ثـوان. قدمت الجوقات التحيات لمريم ولعنت مورازان بالحماسة نفسها.

إن فرانسيسكو مورازان، رئيس أميركا الوسـطى، *هـو الأجنـبي الهرطـوق*، الـذي سـبب ذلـك الصخب الصوفي. لم يوحد مورازان، الذي ولـد في هنـدوراس، المنـاطق الأميركيـة الوسـطى في أمـة واحدة فحسب بل خفض أيضا الكونتات والمركيزات إلى فئة مواطنين عاديين وأنشأ مـدارس عامـة تعلم أشياء هذا العالم ولا تقول شيئا عن السماء. استنادا إلى قوانينه، لم يعد الصليب ضروريا للقبر ولا الكاهن ضروريا للزفاف ولا فرق بين طفـل يولـد في مخـدع الزوجيـة وآخـر يصنـع، دون عقـد سابق، على قش إصطبل، وكل منهما يمتلك حقوق الوراثة نفسها.

والأخطر من ذلك أن مورازان فصل الكنيسة عن الدولة وشرع لحرية الإيمـان أو عـدم الإيمـان، ألغى ضرائب العشور والثمار الأولى لضباط الله وباع أراضيهم.

لام الكهنة مورازان واعتبروه سببا للطاعون الذي كان يلتـهم غواتيمـالا. كـانت الكولـيرا تقتـل البشر والاتهامات المتفجرة تمطر عن المنابر: لقد سمم مورازان المياه، ووقع المسيح الدجال عقدا مع الشيطان كي يبيعه أرواح الموتى.

انتفض سكان الجبال ضد السجين وكان رافايل كاريرا، مربـي الخنـازير الـذي يقـود التمـرد، فوق سن العشرين فقط .وكان قد أصيب بثلاث رصاصات في جسـده. كـان يتجـول واضعـا وشـاحا على كتفيه وأوسمة على صدره وكان ثمة غصن أخضر مثبت على قبعته.

1838: بوينس آيرس

روزاس (Rosas)

كان خوان مانويل دي روزاس، مروض المهور والبشر العظيم، رئيسا لسلسلة جبال «الريفر بلاتا». كان الراقص وعازف الغيتار يروي قصصا تثير الخوف أو الضحك حول نيران المعسكر، لكنه كان مصنوعا من الرخام وحتى أولاده ينادونه: يا سيدي! اعتقل الطباخ الذي أفسد فراريجه وأمر بأن يجلد هو حين ينتهك أحد قوانينه بسبب الإهمال.

كانت مزارع ماشيته الكبيرة أكثر ازدهارا ومصانع لحمه المقدد أفضل تنظيما وكان روزاس يملك أفضل بحر من الأراضي العشبية يمتد من ميناء بوينس آيرس إلى القرى الهندية.

كان روزاس هو الحاكم وأصدر قانونا جمركيا لحماية الإنتاج الأرجنتيني للمعاطف الواقية من المطر وللمخدات والأحذية والعربات والسفن والخمرة والأثاث ثم أغلق الأنهار الداخلية في وجه التجار الأجانب.

طلبت صحيفة روفي دي دوموند أن تقدم فرنسا درسا في التحضر والنظام لأبناء الغزو الأسباني الفاسدين. وحاصر الأسطول الفرنسي الذي قاده الأميرال لوبلان بوينس آيرس، المرفأ الأرجنتيني الوحيد المجهز لتجارة ما وراء البحار.

1838: بوينس آيرس

المسلخ

كتب إستيبان إتشيفيريا القصة الأولى في أدب «الريفر بلاتا». في قصة *المسلخ* تضايق ديكتاتورية روزاس طبيبا من بوينس آيرس لا يقدر أن يدافع عن نفسه، من خلال رعاع يجيدون استخدام السكاكين.

كان إتشيفيرا الذي ولد في أحياء الفقراء وصلب عوده في معارك الشارع والذي صقلته باريس، يحتقر «الرعاع». قدم مسلخ يقع في جنوب المدينة خلفية فانتازية للكاتب كي يصف الكلاب التي تتنازع على الأحشاء هي والنساء السوداوات النازعات للأحشاء ولكي يتحدث عن اللعنة عليك التي كانت تخرج من حناجر سوقية كالدم الذي يتدفق من أعناق الوحوش. كان الذابح في القصة يرتدي معطف راعي بقر أميركي جنوبي ووجهه مصطبغ بالدم ويدفن سكينه إلى مقبضها في حنجرة عجل خصي وفيما بعد يحاصر في زاوية السيد ذا ربطة العنق السوداء الذي لم يناده بلقبه الشائع.

المزيد عن أكل لحوم البشر في أميركا

كان الكولونيل خوان رامون إستومبا أثناء توليه سلاح الفرسان يزج فرسانه ضد لا أحد. انتهت الحرب ضد إسبانيا لكن حرب الأرجنتينيين ضد بعضهم أكثر وحشية. رفع الكولونيل إستومبا سيفه وزأر: هجوم! وكزوبعة من صرخات الحرب وطعن السيوف هاجم الفرسان الأفق الفارغ.

كانت البلاد المزقة محكومة بعنفها الجنوني وكان أبطال الاستقلال يلتهمون بعضهم. استلم إستانسيلاو لوبيث رأس بانشوراميريز ملفوفا بجلد خروف، وضعه في قفص حديدي، وأمضى ليلة كاملة يتأمله بمتعة. أثقل غريغوريو لامدريد والدة فاكندو غيروكا بالسلاسل وجرها في الشوارع قبل أن يسقط فاكندو في كمين وتخترق رصاصة عينه. وفي زريبة أعدم خوان لافيل مانويل دوريغو على سجادة من براز البقر ومذاك كان شبح دوريغو يلاحق لافيل إلى أن قبض عليه في أحد الأيام وخاطه بالرصاص إلى جسد عشيقته العاري بحيث يمكن أن يحصل على متعة الموت داخل امرأة.

1838: تيغوثيغالبا

أميركا الوسطى تتفكك إلى أجزاء

كانت أميركا الوسطى تتفكك إلى أجزاء بينما كان مورازان يحارب في غواتيمالا ضد الحشد الذي حرضه الكهنة.

تلك الخيوط الضعيفة التي خاطت البلاد مع بعضها انقطعت واحدا بعد آخر. ألغت كوستاريكا ونيكاراغوا الاتفاق الفيدرالي وأعلنت هندوراس نفسها بلدا مستقلا. احتلفت مدينة «تيغوثيغالبا» بالطبول والصناجات والخطابات بفشل ابنها، الذي، منذ عشر سنوات، أطلق من هنا حملته التوحيدية الكبيرة. لقد برهن الحقد الإقليمي، الحسد والجشع والسموم القديمة أنها أكثر قوة من عاطفة مورازان وتمزقت جمهورية أميركا الوسطى الفيدرالية إلى أربع قطع أصبحت على الفور خمسا ثم ستا.وتشعر هذه القطع البائسة، حيال بعضها، بالحقد أكثر مما تشعر بالشفقة.

1839: كوبان

بيعت مدينة مقدسة بخمسين دولارا

والمشتري هو «جون لويد ستيفنز»، سفير الولايات المتحدة في أميركا الوسطى. إنها مدينة كوبان التي تنتمي إلى هنود المايا في هندوراس والتي غزتها الغابة على ضفة نهر.

تحولت الآلهة في «كوبان» إلى أحجار هي والرجال الذي اختارتهم أو أدبتهم. كان يعيش في كوبان قبل أكثر من ألف عام الفلكيون الحكماء الذين اكتشفوا أسرار نجم الصباح وقاسوا السنة الشمسية بدقة لم تضاه أبدا.

أفسد الزمن المعابد ذات الطنف الجميلة والأدراج المنحوتة لكنه لم يزيلها. ولا تزال الآلهة تنظر عن المذابح وتلعب «الغميضة» بين ريش الأقنعة ولا يزال اليغور والثعبان يكشفان عن أنيابهما على أعمدة حجرية تصعد من الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة بينما الرجال والآلهة يتنفسون من هذه الأحجار، صامتين، لكنهم ليسوا خرسا أبدا.

1839: هافانا

يتحدث الطبل بخطورة...

قرر زعيم كوبا أن يجيز رقصات الطبل في المستعمرات الزراعية شرط أن تنجز أيام القيلولة وبمراقبة حذرة من كبار العمال.

يجب على كبار العمال أن يمنعوا الطبل من نقل أصوات التمرد. الطبل الأسود، الطبل الحي، لا يصدر صوتا لوحده. يتحدث الطبل مع طبول أخرى، طبل «الماتشو» ينادي، يتحدث بخطر مع البشر والآلهة. حين ينادي الطبل، تظهر الآلهة، تدخل الأجساد وتطير منها.

في الأزمان الغابرة، قتلت العقرب «آكيكي» الضجر بلدغها شخصين، مذاك أصبح الهنود يخرجون راقصين من أحواض أمهاتهم، راقصين، كما يقولون، من الحب أو الألم أو النقمة، وراقصين يخترقون وحشية الحياة.

1839: هافانا

إعلانات مبوبة

القسم الاقتصادي

حيوانات للبيع

للبيع: زنجية كريبولية، شابة، صحتها جيدة دون عيوب، متواضعة جدا ومخلصة، طباخة جيدة تمتلك بعض الخبرة في الغسل والكي وممتازة في الاعتناء بالأطفال، سعرها 500 بيزوس. المزيد من المعلومات في 150 شارع دوات.

للبيع: حصان أنيق من ذرية رائعة، ستة أشبار وثلاثة إنشات.

بضائع محلية للاستئجار

زنجية للخدمة في المنزل. زنوج للسخرة ولأي عمل وزنوج صغار للعب مع الأطفال. معلومات كاملة في 11 شارع دواث 21 آذار.

نوعية متفوقة وصلت لتوها من شبه الجزيرة. للبيع...

1839: فلباريزو

المضيء

على هضبة في حي رينكوندا التابع لميناء فلباريزو التشيلي، أمام منزل متواضع ثمة لافتة:

أضواء وفضائل أميركية شموع من شحم الحيوان، الصبر، صابون، استقالة، غراء قوي، حب العمل.

في الداخل دخان المطبخ وزئير الأطفال. هنا يعيش سيمون رودريغز. يمتلك أستاذ بوليفار في بيته مدرسة ومصنعا صغيرا. يعلم الأطفال متعة الإبداع ويدفع الفواتير من صناعة الشموع والصابون.

1839: فيراكروز

زوجا كرمى بالله!

سواء أكان عجوزا، وحيد الذراع أو مشلولا؟

خطا السفير الأسباني على التربة المكسيكية للمرة الأولى. لم يجد في فيراكروز طيورا سوى العقبان التي تطوف بحثا عن الجثث. خرج شابكا ذراعه بذراع زوجته ليطوف في الشوارع الحزينة، ليتعلم عادات البلاد.

عثر السفير في كنيسة على قديس مسحوق كانت العوانس تطلب منه إجتراح المعجزات وهن يرجمنه بالأحجار. كانت الشابات ترمي الأحجار آملات وفي ظنهن أن أفضل إصابة ستمنحهن أفضل زوج، أما العجائز، اللواتي لم يعدن ينتظرن من قديس «بادوا» أنطوني زوجا أو عزاء، فكن يضربنه ويشتمنه لينتقمن.

لقد حطمن القديس أنطوني ودمرن وجهه وحولن ذراعيه إلى جدعتين وصدره إلى ثقب واسع. وكن يتركن له الأزهار عند قدميه.

1840: مكسيكو سيتي

حفلة تنكرية

توجب على الخياطين ومزيني الشعر في مكسيكو سيتي أن يواصلوا الركض من منزل إلى آخر ومن سيدة إلى أخرى. من التي ستكون أكثر رشاقة في الحفلة الراقصة الكبيرة المعدة من أجل التبرع للفقراء؟ أية حسناء ستنتصر؟

جربت السيدة كالديرون دي لاباركا، زوجة السفير الأسباني، الفستان المكسيكي الوطني، الزي النموذجي لوادي «بويلبا». متعة المرآة التي تعكس الصورة، بلوزة بيضاء بحواف مخرمة، تنورة حمراء، لمعان النثار المعدني على التنانير المطرزة. لفت السيدة كالديرون الحزام المتعدد الألوان ألف لفة حول خصرها ومشطت شعرها جاعلة فرقه تحت المنتصف ووصلت الضفائر بحلقة.

سمعت المدينة كلها بذلك. اجتمع مجلس الوزراء لدرء الخطر. جاء وزير العلاقات الخارجية ووزير الدولة ووزير الحربية إلى منزل السفير وحذروه رسميا. لم تستطع السيدات الأكثر أهمية تصديق ذلك: أغمي عليهن، استنشقن الملح وهبت رياح المراوح. أيعقل أن تلبس سيدة بهذا الوزن ثيابا لا قيمة لها؟ وعلنا! نصح الأصدقاء وضغط السلك الدبلوماسي. انتبهي الآن، تجنبي الفضيحة، إن ثيابا كهذه هي لنساء ذوات سمعة سيئة.

تخلت السيدة كالديرون دي لاباركا عن الثوب الوطني. لن تذهب إلى الحفلة الراقصة كمكسيكية. سترتدي ثوب فلاحة إيطالية من لاثيو (Lazio). ستظهر إحدى راعيات حفلة الرقص مزينة كملكة اسكوتلندة، وستظهر سيدات أخريات كمحظيات فرنسيات أو سويسريات، كفلاحات إنكليزيات أو أراغوينات (Aragonese) أو سيرتدين حجبا تركية مسرفة.

ستبحر الموسيقى في بحر من اللآلئ والألماس وسيفتقد الرقص للبراعة والرشاقة: ليس بسبب الأقدام بل بسبب الأحذية، الصغيرة جدا والمعذبة.

المجتمع المكسيكي الراقي

مقدمة لزيارة

كيف حالك؟ هل أنت بخير؟

بخدمتك، وأنت؟

«لا شيء جديد، بخدمتك.»

«كيف أمضيت الليل؟»

«بخدمتك.»
«كم أنا سعيد! وكيف حالك يا سنيورة؟»
«تحت تصرفك، وأنت؟»
«شكرا جزيلا. وزوجك؟»
«بخدمتك، لا شيء جديد».
«اجلس من فضل!»
«بعدك يا سنيوريتا».
«لا يا سنيور، أنت أولا، من فضلك»
«آه لا تؤاخذني إن أرغمتك دون طقوس، أنا عدوة الشكليات والإتكيت».

صرخات شارعية في مكسيكو سيتي

«فحم، يا سيدي؟»
«شحم خنزير شحم ببنس ونصف»
«لحم مملح، لحم مملح جيد!»
«أثمة دهن قديم؟»
«أزرار! أزرار قمصان!»
«تفاحات صغيرة للفلفل الحار! تفاحات صغيرة طازجة!»
«موز، برتقال رمان!»
«مرايا صغيرة!»
«أقراص صغيرة سمينة حارة من الفرن.»
«من يريد حصرا من «بويبلا»، حصرا مساحتها خمس ياردات».
«كعكات عسل! جبنة وعسل!».
«حلوى! حلوى جوز الهند! مرنغ!»
«آخر ورقة يانصيب، بقيت واحدة فقط بنصف بنس.»
«تورتيلا!»
«من يريد جوزا؟»
«تورتيلا لبنية!»
«بط، يا حبي، بطات ساخنة»
«كستناء مشوية ساخنة!»

المجتمع المكسيكي الراقي

الطبيب يودع

إلى جانب السرير:
«أنا بخدمتك يا سنيورة!»
«شكرا جزيلا يا سنيور!»
عند قدم السرير:
«اعتبريني يا سنيورة خادمك الأكثر تواضعا!»
«صباح الخير يا سنيور».
متوقفا إلى جانب الطاولة:
«أقبل قدميك يا سنيورة!»
«أقبل يدك يا سنيور!»
مقتربا من الباب:
«سنيورة! إن منزلي المتواضع وما يحويه وأنا نفسي رغم أنني لا أنفع، وكل ما أملك ملك لك!»
«شكرا جزيلا يا دكتور!»
يدير ظهره ليفتح الباب لكنه يستدير ثانية بعد أن يفتحه.
«وداعا يا سنيورة، خادمك!»
«وداعا يا سنيور».
يغادر أخيرا، لكنه يفتح الباب نصف فتحة ويدخل رأسه:
«صباح الخير يا سنيورة!»

1840: مكسيكو سيتي

راهبة تبدأ حياتها في الدير

لأنك اخترت الطريق القويمة
لا أحد يستطيع أن يزيحك الآن
أيتها المختارة.

في سن السادسة عشرة ودعت العالم. مرت في عربة في الشوارع التي لن تراها أبدا مرة أخرى. حضر الأقرباء والأصدقاء الذين لن يشاهدوها بعد الآن الطقس في دير سانتا تيريزا.

لا أحد، لا أحد، لا شيء

يقدر أن يزيحك.

ستأكل مع عرائس المسيح الأخريات من إناء فخاري وثمة جمجمة تحتل وسط المائدة. ستكفر عن ذنوب لم ترتكبها، ذنوب غامضة، يستمتع بها آخرون، وستعالجها من خلال تعذيب جسدها بحزام وتاج من الشوك. ستنام إلى الأبد وحيدة على فراش إماتة الجسد. سترتدي ثيابا تملأ جلدها رملا.

بعيدا عن معارك بابل العظيمة

وعن الفساد والاغراءات والأخطار

بعيدا.

كانت مغطاة بالأزهار واللآلئ والألماس. يعرونها من كل زينة، يجردونها من ثيابها.

أبدا.

على صوت الأرغن، يحض الأسقف ويبارك ويرسم الخاتم الرعوي، حجر الجمشت الضخم، إشارة الصليب فوق رأس الفتاة الراكعة، وتغني الراهبات:

Ancilla Christi sum....

يلبسونها ثيابا سوداء وحين تركع الراهبات ضاغطات بوجوههن على الأرض تنفتح أجنحة سوداء حول دائرة الشموع.

يسدل الستار كغطاء على تابوت.

1842: سان خوسيه، كوستاريكا

رغم أن الزمن سينساك، فإن هذه الأرض لن تنساك

كانت السيدات والرهبان يجهزون في مدينة غواتيمالا رافايل كاريرا، الرئيس الذي من الجبال، لديكتاتورية طويلة. جربوا عليه القبعة ذات الزوايا الثلاث، المعطف والسيف الرسمي. علموه السير ببوط جلدي لماع وكيف يكتب اسمه ويعرف الوقت من ساعة ذهبية. كاريرا، مربي الخنازير، سيواصل تجارته بطرق أخرى.

في سان خوسيه، كوستاريكا، يحضر فرانسيسكو مورازان لموته. استجمع شجاعته، ذلك أنه من الصعب على مورازان، محب الحياة، الغني بالحياة، أن ينهزم. أمضى الليل مثبتا عينيه على سقف الزنزانة مودعا. كان العالم كبيرا. أجل الجنرال وداعه. كان يفضل أن يحكم كثيرا ويقاتل قليلا. أمضى أعواما كثيرة مفجرا الحرب والمنجل في يده من أجل بلاده أميركا الوسطى، بينما كانت تصر على تمزيق نفسها إلى أشلاء.

قبل البوق العسكري جاءت أغنية طائر البوق. جاءت الأغنية من أعالي الفردوس ومن أعماق طفولته، كما من قبل، كما دائما، في نهاية الظلمة، وأعلنت هذه المرة الفجر الأخير.

واجه مورازان فرقة الإعدام، كشف عن رأسه وبنفسه أصدر أمر التذخير والتسديد. صحح التسديد وأصدر أمر إطلاق النار.

أعادته رشقات الرصاص إلى الأرض.

1844: مكسيكو سيتي

ديكة المحارب

كانت الكنيسة التي تستحوذ على الأرض وتقرض النقود، تملك نصف المكسيك وكان النصف الآخر ينتمي إلى حفنة من السادة وإلى هنود معزولين في جماعاتهم. كان الرئيس هو الجنرال لوبيث دي سانتا آنا الذي يشرف على السلامة العامة والصحة الجيدة لديكته المصارعة. كان سانتا آنا يحكم حاملا ديكا بين ذراعيه وهكذا كان يستقبل الأساقفة والسفراء، ولكي يعتني بديك مجروح كان يترك اجتماعات مجلس الوزراء. أسس مواقع لصراع الديكة أكثر مما أنشأ مشافي وأصدر قوانين خاصة بصراع الديكة أكثر من المراسيم التربوية. كان رجال مصارعة الديكة يشكلون بلاطه الشخصي مع غشاشي لعب الورق وأرامل العقداء الذين لم يوجدوا في مجلسه أبدا.

كان مولعا جدا بديك أبلق يتظاهر أنه أنثى ويغازل العدو وبعد أن يخدعه يمزقه حتى الموت، لكنه كان يفضل «بدريتو» الشرس الذي أحضره من «فيراكروز» مع قليل من التربة أيضا بحيث يستطيع بدريتو أن يتمرغ عليها دون حنين. كان سانتا آنا يثبت الشفرة شخصيا على دابرة الديك، يعقد المراهنات مع البغالين والمتشردين ويمضغ ريشا من الديك الخصم ليمنحه حظا سيئا. وكان يرمي أوسمته على حلبة المصارعة حين تنتهي نقوده.

أمنح ثمانية مقابل خمسة!

ثمانية مقابل أربعة إذا شئت!

يخترق لمعان برق دوران الريش وتمزق دابرة «بدريتو» الأعين أو تقطع حنجرة أي بطل منافس. يرقص سانتا آنا على ساق واحدة ويرفع القاتل عرفه، يخبط جناحيه ويغني.

1844: مكسيكو سيتي

سانتا آنا

يعبس سانتا آنا ويحدق في الفراغ. يفكر بديك ما سقط في معركة أو برجله التي فقدها كتذكار معظم للمجد العسكري.

منذ ستة أعوام، أثناء حرب صغيرة ضد ملك فرنسا، مزقت رشقة من الرصاص رجله. أملى الرئيس ذو الرجل المقطوعة وهو في سرير الألم رسالة وداع مقتضبة لمسقط رأسه تتألف من خمس عشرة صفحة، لكنه عاد إلى الحياة والسلطة كالعادة.

رافقت حاشية كبيرة الساق من «فيراكروز» إلى العاصمة. وصلت الساق تحت ظلة يرافقها سانتا آنا الذي كان يلوح بقبعته ذات الريش الأبيض من نافذة العربة وخلفه تدفق الأساقفة والوزراء والسفراء بثيابهم الفاخرة بالإضافة إلى جيش من الفرسان الذين يرتدون زيا مبهرجا ودروعا. مرت الساق تحت ألف صف من الرايات وتلقت، إبان عبورها، صلوات للموتى وخطابات وأناشيد وترنيمات وتحية بطلقات المدفعية وقرع أجراس. حين وصلوا إلى المقبرة، أعلن الرئيس أمام ضريح عظماء الأمة تبجيلا أخيرا للقطعة التي أخذها الموت منه مقدما.

منذ ذلك الحين والرجل المفقودة تؤلمه، واليوم تؤلمه أكثر من قبل، تؤلمه بشكل معذب، لأن الشعب المتمرد حطم الضريح التذكاري الذي كان يحرسها وبدأ يجرها في شوارع مكسيكو.

1845: فيلتا دي أوبليغادو (Vuelta de Obligado)

غزو التجار

منذ ثلاثة أعوام أذلت السرية البريطانية الإمبراطورية السماوية. بعد فرض الحصار على «كانتون» وبقية الساحل، فرض الإنكليز استهلاك الأفيون على الصينين باسم حرية التجارة والحضارة الغربية.

بعد الصين جاء دور الأرجنتين: لم يجد الحصار الطويل الذي فرض على ميناء بوينس آيرس. كان خوان مانويل دي روزاس، الذي تعبد صورته ويحيط به المهرجون الذين يلبسون كالملوك، لا يزال يرفض أن يفتح أنهار الأرجنتين. كان المصرفيون والتجار الإنكليز والفرنسيون يطلبون طول أعوام معاقبته على تلك الوقاحة.

سقط كثير من الأرجنتينيين دفاعا عن أرضهم لكن مدافع السفن الحربية التابعة لأقوى بلدين حطمت الأغلال التي امتدت عبر نهر «بارانا».

1847: مكسيكو سيتي

الفتح

تتلألأ المكسيك أمام أعيننا، بهذه الكلمات عبر الرئيس «آدامز» عن انبهاره عند منعطف القرن.

من القضمة الأولى فقدت المكسيك تكساس.

الآن تمتلك الولايات المتحدة المكسيك كلها في صحنها.

هرب الجنرال سانتا آنا، سيد الانسحاب، إلى الجنوب تاركا ذيلا من السيوف والجثث في الحفر. من هزيمة إلى أخرى انسحب بجيشه المؤلف من الجنود النازفين، الجائعين، الذين لم يدفع لهم أبدا، وإلى جانبهم المدافع القديمة التي تحملها البغال وخلفهم قافلة نساء تحمل الأطفال والأسمال والتورتيلا في سلال. كان جيش الجنرال «سانتا آنا» الذي يحوي ضباطا أكثر من الجنود، جيدا في قتل المواطنين الفقراء فحسب.

لكن ضباط الكلية الحربية المكسيكيين، الذين هم أطفال عمليا، لا يستسلمون في قلعة تشابولتيبيك (Chapultepec). قاوموا القصف بعناد لم يولد من الأمل. انهارت الأحجار على أجسامهم وبين الأحجار كانوا يزرعون النجوم والتشكيلات التي تتصاعد من الدخان فوق الوادي الضخم.

دخل الفاتحون العاصمة. كان في مدينة مكسيكو ثمانية مهندسين، ألفا راهب، ألفان وخمسمائة محام، عشرون ألف شحاذ.

دمدم البشر الذين اجتمعوا مع بعضهم وأمطرت السقوف أحجارا.

1848: فيلا غوادولوبه هيدالجو

الفاتحون

أعلن الرئيس بولك (Polk) من واشنطن أن أمته كبيرة الآن كأوروبا. لا أحد يستطيع إيقاف هجوم هذه البلاد الفتية الشرهة. نمت الولايات المتحدة جنوبا وغربا وهي تقتل الهنود، تدوس على جيرانها أو تدفع. اشترت «لويزيانا» من نابليون وعرضت على أسبانيا مائة مليون دولار مقابل جزيرة كوبا.

لكن حق الفتح أكثر عظمة ورخصا. وقعت المعاهدة مع المكسيك في فيلا غوادالوبه هيدالجو. اقتطعت المكسيك للولايات المتحدة، والمسدس على صدرها، نصف أراضيها.

1848: مكسيكو سيتي

الإيرلنديون

وزع الفاتحون العقوبات في الساحة الرئيسية لمكسيكو سيتي. جلدوا المتمردين المكسيكيين ووشموا بالحديد الحار وجوه الفارين الإيرلنديين ثم شنقوهم.

لقد دخلت كتيبة القديس باتريك الإيرلندية مع الغزاة لكنها حاربت مع المغزوين، جعل الإيرلنديون القدر السيء للمكسيكيين قدرا لهم من الشمال إلى «مولينو ديل ري». مات كثيرون دفاعا عن أبرشية تشوربسكو (Churubuscu) دون ذخائر. كانت أجساد السجناء ذوي الأوجه المحروقة، تتأرجح غدوا ورواحا على المشانق.

1848: إبيـــراي

عجوز يرتدي ممطرا أبيض

لم يهو المدن أبدا وكان جل مـا يتمنـاه حديقـة في بـارغواي، عربـة مدولبـة مليئـة بالأعشـاب الطبية. كان يساعده عكاز على السير وتساعده السوداء «أنسينا»، منشدة الأغاني السـعيدة، علـى زراعة الأرض وعلى استقبال ضوء كل نهار دون ظلال كئيبة.

«خوسيه أرتيغاس بخدمتك»

كان يقدم المتة والاحترام وكلمات قليلة للزوار الذين يجيئون أحيانا من البرازيل.

«لا يزال اسمي يسمع هناك إذن؟»

تجاوز سن الثمانين الذي قضـى منـه ثمـاني وعشـرين سـنة في المنفـى، ولـن يعـود. ولا تـزال الأفكار التي أبدعها تحارب ويقمع الشعب الذي أحبه. كـان أرتيغـاس يعـرف جيـدا ثقـل العـالم والذاكرة ويفضل أن يبقى صامتا. لم يكن هناك نبتة تقدر أن تشفي الجراح داخل إنسان.

خوسيه أرتيغاس كما صوره

دومينغو فاوستينو سارمينتو

كان قاطع طريق لا أكثر ولا أقل. إن ثلاثين عاما من ارتكاب الجرائم والسرقة هـي مؤهـلات لا تدحض لمارسة قيادة قطيع من حثالة الفلاحين الهنود العصاة من أجـل ثـورة سياسـية، وبينـهم جعل اسم أرتيغاس المخيف زعيما للعصابة ... من قـدم لـه الطاعـة؟ الهنـود الفقـراء أو المتوحشـون الذين قادهم كونه عدو البيض الأكبر والأكثر وحشية وقسوة ... كان جافي الأخلاق بما أنه لم يتردد على المدن ويجهل التراث الإنساني للحكومة الحرة، ورغم أنه أبيـض، قـاد سـكانا محليـين أقـل ثقافة منه ... آخذين بعين الاعتبار سوابق وأفعال أرتيغـاس، نشـعر بنـوع مـن تمـرد العقـل، تمـرد غرائز الرجل الذي من السلالة البيضاء، حين يحـاول أحـد مـا أن يضفـي عليـه الفكـر السياسـي والوجدان الإنساني.

1848: بوينس آيرس

العاشقان (1)

تمثيلية درامية:

كاميلا أوغورمان (Camila O'Gorman): ولدت في بوينس آيرس في منزل بثلاثة أفنية منذ عشرين عاما. ربيت في جو من الطـهارة لتنجـح في أن تصبـح عـذراء، زوجـة وأمـا في الممـر العسـر

الضيق الذي يقود إلى الطمأنينة الزوجية. التطريز. مساءات البيانو والصلوات التي تؤدى بينما يغطي الوشاح الأسود الرأس. فرت مع كاهن كنيسة «سوكورو».

لاديسلاو غوتييريز (Ladislao Gutiérrez): كاهن الله. عمره خمسة وعشرون عاما. ابن أخ حاكم «توكومان». لم يقدر على النوم بعد أن وضع خبز القربان على لسان تلك المرأة الراكعة في ضوء الشموع. انتهى راميا كتاب الصلوات والرداء فسبب الذعر للملائكة الصغار ولحمام برج الجرس.

أدولفو أو غورمان (Adolfo O'Gorman): يبدأ كل وجبة مرددا الوصايا العشر إلى رأس طاولة كبيرة من خشب الماهوغاني. أنجبت له امرأة طاهرة قسا وشرطيا وابنة فارة. كان هذا الوالد المثالي هو أول من طالب بعقوبة مثالية لتلك *الفضيحة المريعة* التي ألحقت العار بأسرته. توسل في رسالة إلى خوان مانويل دي روزاس أن يستخدم يدا قوية *ضد ذلك الفعل الأكثر وحشية وغرابة في البلاد.*

فيليبي إلورتوندو ي بالاسيو (Felipe Elortondo Y Palacio): سكرتير البلاط، يكتب أيضا إلى روزاس طالبا القبض على العاشقين ومعاقبتهما بقسوة من أجل منع جرائم مشابهة في المستقبل. شرح في رسالته أن لا علاقة له بتعيين الكاهن «غوتييريز» الذي كان مسألة تتعلق بالأسقف.

خوان مانويل دي روزاس (Juan Manuel De Rosas): أمر بإلقاء القبض على العاشقين وانطلق رسله من بوينس آيرس حاملين وريقة تصف الهاربين. كاميلا: *بيضاء، عينان سوداوان، بشرة جميلة، طويلة، جسدها نحيل، متناسقة القوام*. لاديسلاو: *أسمر، نحيل، لحية كاملة وشعر مجعد*. يجب تطبيق العدالة، هذا ما وعد به روزاس *من أجل إرضاء الدين والقوانين ولمنع الفساد الأخلاقي والفسق والفوضى*. أصبحت البلاد كلها متيقظة.

يشارك أيضا:

صحافة المعارضة: كان أعداء روزاس يحرضون الأخلاق العامة من مونتيفيديو وفلباريزو ولاباز. قالت الصحيفة اليومية *ميركريو شيلينيو (Mercurio Chileno)* لقرائها: *لقد وصل فساد العادات المرعب إلى هذا الحد تحت الطغيان المخيف لـ«كاليغولا الريفر بلاتا»، بحيث أن كهنة بوينس آيرس الفساق ومنتهكي الحرمات يفرون مع بنات أفضل مجتمع دون أن يتبنى الحاكم سيء السمعة أي إجراء ضد تلك الأفعال المريعة المنافية للأخلاق.*

الحصانان: يأخذان العاشقين إلى الشمال عبر البلاد المنفتحة، متجنبين المدن. كان حصان لاديسلاو يمتلك جلدا ذهبيا وساقين طويلتين، وكان حصان كاميلا رماديا وسمينا وكبير البطن. كان الحصانان ينامان مثل راكبيهما في العراء ولا يتعبان.

المتاع: متاعه هو: ممطر صوفي، بعض الملابس، مديتان، مسدسان، حقيبة، ربطة عنق حريرية ومحبرة. متاعها هي: شال حريري، عدة فساتين، أربع تنانير كتانية، مروحة، قفازان، مشط، خاتم خطبة ذهبي ومحطم.

العاشقان (II)

إنهما اثنان بسبب خطأ يصححه الليل.

1848: أمكنة مقدسة

العاشقان (III)

فرا في الصيف وأمضيا الخريف في ميناء «غويا» على ضفاف نهر «بارانا» مستخدمين أسماء أخرى. اكتشف مكانهما في الشتاء، تمت خيانتهما وألقي القبض عليهما.

نقلا إلى الجنوب في عربتين منفصلتين. تركت العجلات ندوبا على الطريق.

سجنا في زنزانتين منفصلتين تحت الأرض.

إذا توسلا طالبين الصفح، سيصفح عنهما، لكن كاميلا الحامل لا تعلن توبتها ولا لاديسلاو أيضا. قيدت أقدامهما بالحديد ورش كاهن الأغلال بالماء المقدس.

أعدما رميا بالرصاص في فناء وأعينهما معصوبة.

1848: باكالار (Bacalar)

سيسيليو تشي (Cecilio Chi)

تحدثت قرون الذرة محذرة من الجوع. كانت مزارع السكر الضخمة تلتهم حقول ذرة جماعات المايا في إقليم يوكاتان المكسيكي. كان الرجال يشترون كما في أفريقيا ويدفع الرم مقابلهم. كان السوط يقول: الهنود *يسمعون بظهورهم*.

ونشبت الحرب. استجاب هنود المايا المرضى من تقديم الموتى في حروب شعب آخر لدعوة طبل الجذع المجوف. انبثقوا من الدغل، من الليل، من العدم، حاملين منجلا في يد ومشعلا في الأخرى: احترقت المزارع مع مالكيها وأبناء مالكيها ومع الوثائق التي جعلت الهنود وأبناءهم عبيد دين.

كان إعصار المايا يدور ويدمر وكان «سيسيليو تشي» يقاتل بـ «خمسة عشر ألف هندي» ضد المدافع التي تقتل بالجملة وهكذا سقطت مدينة فلدوليد دي يوكاتان التي اعتقدت أنها نبيلة وقشتالية جدا، وسقطت باكالار، (Bacalar) وبلدات وحاميات كثيرة واحدة بعد أخرى.

أباد سيسيليو تشي الأعداء مستحضرا متمرد الزمن القديم خاسينتو كانيك (Jacinto Canek) والنبي القديم تشيلام بالام (Chılam Balam) أعلن أن الدم سيجري في ساحة «مريدا» حتى يصل إلى كواحل البشر. قدم الشراب الناري والألعاب النارية لقديسي كل بلدة احتلها. إذا رفض القديسون أن يغيروا مواقعهم واستمروا في خدمة السيد، كان سيسيليو تشي يذبحهم بمنجله ويرميهم في النار.

1849: ضفتا نهر بيت (Patte)

فارس يدعى الجدري

من كل أربعة من هنود البوني (Pawnee) مات واحد هذا العام من الجدري أو الكوليرا أما أعداؤهم الأبديون الكيوواس (Kiowas) فقد أنقذوا أنفسهم بفضل العم العجوز «سيندي».

تجول ذلك العجوز الوحشي في السهول من وجع قلب إلى آخر. كان يردد دائما: *عالي انتهى*، بينما كان يبحث عبثا عن حيوانات الأيل والجواميس. قدم له نهر «واشيتا» طينا أحمر بدل الماء الصافي. *حالا سيحاصر أبناء قومي الكيوواس اكالأبقار*.

كان العم العجوز سيندي يسير غارقا في تلك الأفكار الحزينة حين شاهد في جهة الشرق سوادا بدلا من الشمس، لطخة سوداء كبيرة تنتشر عبر السهول. حين اقتربت رأى أن اللطخة فارس يرتدي ثيابا سوداء ويعتمر قبعة سوداء مرتفعة ويمتطي حصانا أسود بينما تظهر على وجهه ندوب وحشية. قدم نفسه: «إسمي هو الجدري». أجاب سيندي: لم أسمع أبدا...

شرح الغريب: «جئت من مكان بعيد، من الجانب الآخر من البحر وأحضر معي الموت».

سأل عن هنود الكيوواس (Kiowas) لكن العم العجوز سيندي عرف كيف يجعله يعود قائلا له إن «الكيوواس» لا يستحقون أن يزعج نفسه بهم لأنهم شعب قليل متضور جوعا، ثم زكى هنود «البوني» الكثيرين والأنيقين والأقوياء ودله على الأنهار حيث يعيشون.

1849: سان فرانسيسكو

ذهب كاليفورنيا

تدفق التشيليون من «فلباريزو» محضرين معهم زوجا من الأبواط، مدية، مصباحا ومجرفة.

أصبح المدخل إلى خليج سان فرانسيسكو معروفا باسم البوابة الذهبية وإلى البارحة كانت سان فرانسيسكو بلدة يرباس بيناس (yerbas Buenas) المكسيكية. كانت هناك كتل ذهبية تزن ثلاثة كيلوغرامات في الأراضي التي اغتصبت من المكسيكيين في حرب.

لم يكن الخليج يتسع لسفن كثيرة. كانت المرساة تلمس القاع ويتبعثر المغامرون عبر الجبال. لم يضيع أحد وقته في إلقاء التحية.

كان الغشاش في لعب الورق يدفن بوطه الجلدي اللماع في الطين:

«*يعيش نردي المحظوظ! يعيش شابي!*»

كان مجرد النزول على هذه التربة يحول المتسكع إلى ملك والحسناء التي وبختته تموت من الندم. كان فيسينتي بيريث روزاليس الذي وصل حديثا يصغي إلى أفكار مواطنيه: الآن أملك موهبة! ومن هو الحمار الذي يملك نقودا في تشيلي؟ *هنا خسارة الوقت خسارة للمال*. رعد مطارق لانهائي، عالم يغلي، صرخات ألم الولادة. من لاشيء نهضت الظلات التي قدمت تحتها الأدوات والشراب واللحم المجفف مقابل حقائب جلدية مليئة بغبار الذهب. كان الرجال والغربان ينعبون، قطعان رجال من جميع الأراضي وليلا ونهارا كانت تدوم زوبعة الفراكات، قبعات البحارة، فرو «أوريغون» وقبعات مول (Maule)، الخناجر الفرنسية، القبعات الصينية، الأبواط الروسية، رصاصات لماعة على خصور رعاة البقر.

كانت امرأة تشيلية جميلة تبتسم تحت ظلة من القماش المخرم قدر استطاعتها، كان مشدها يعصرها وأيضا الحشد الذي يرميها على بحر الوحل المبلط بالزجاجات المحطمة. في هذا المرفأ هي «روزاريتو أميسنيكا». ولدت باسم روزاريتو إنوييردو منذ سنوات لا تعرف عددها وأصبحت روزاريتو فيلاسيكا في «تالكاهوانو» وروزاريتو تورو في «تالكا» وروزاريتو مونتالفا في فلباريزو.

من كوثل السفينة كان بائع المزاد العلني يقدم السيدات للحشد. كان يعرضهن ويتغنى بمدائحهن واحدة بعد أخرى: *انظروا يا سادة! يا له من خصر! يا له من شباب!، يا له من جمال...!*

كان البائع يقول: من يزيد؟ من سيدفع أكثر مقابل هذه الزهرة التي لا نظير لها؟

1849: **إل مولينو** (El Molino)

كانوا هنا

كان الرجل ينادي فيسقط الذهب من الرمال والصخور. كانت شرارات الذهب تقفز على الونشات وتصل سليمة إلى يد الرجل من قاع أنهار وأودية كاليفورنيا.

كان إل مولينو واحدا من مخيمات كثيرة انبثقت على هذه الشواطئ الذهبية. في أحد الأيام لاحظ المعدنون أعمدة دخان تصعد من غابات الأرز البعيدة، وفي الليل شاهدوا خطا من النيران التي تهزأ بالريح. تعرف أحدهم على الإشارات: كان تلغراف الهنود يدعو إلى الحرب ضد المتطفلين.

في ومضة شكل المعدنون مفرزة من مائة وسبعين بندقية وهاجموا معتمدين على عنصر المفاجأة. أحضروا مائة أسير هندي وقتلوا منهم خمسة عشر ليلقنوهم درسا.

رماد

منذ أن تجلى له حلم الأرنب الأبيض لم يتحدث العجوز عن أي شيء آخر، رغم أنه لا يزعج نفسه بالكلام إطلاقا وكان لوقت طويل غير قادر على الوقوف. جعلت الأعوام عينيه دامعتين وأحنته. كان يعيش في سلة مخبئا وجهه خلف ركبتيه المستدقتي الرأس مستعدا ليعود إلى بطن الأرض. عالقا في السلة كان يسافر على ظهر ابن أو حفيد ويروي أحلامه للجميع ويبربر قائلا: *سيلتهمنا الأرنب الأبيض. سيلتهم بذارنا وعشبنا وقوتنا. قال إن الأرنب الأبيض سيجيء راكبا على حيوان أكبر من أيل قدماه دائريتان وعلى عنقه شعر.*

لم يعش العجوز ليشاهد حمى الذهب في أراضي كاليفورنيا. قبل أن يصل المعدنون على ظهور الأحصنة أعلن: «*لم يعد بوسعي أن أطعم أولادي. كجذر قديم جاهز للنمو الآن فحسب. لن أتحدث بعد الآن*».

أحرقوه في سلته على حطب اختاره بنفسه.

1849: بالتيمور

بو

كان الرجل الميت يستلقي على باب دسكرة ووجهه إلى الأعلى مختنقا من التقيؤ. جرته يد ورعة إلى المستشفى فجرا وبعد ذلك لا شيء، لا شيء بعد اليوم أبدا.

إدجار آلن بو، ابن الممثلين الكوميديين المتجولين، الشاعر المتشرد الذي أدين واعترف بخطيئة العصيان والهذيان، حكمت عليه محاكم لا مرئية وسحقته كماشة لا مرئية.

لقد ضاع وهو يبحث عن نفسه وليس عن الذهب في كاليفورنيا، كلا، كان يبحث عن نفسه.

1849: سان فرانسيسكو

بنطال ليفي (Levi)

لم تعم ومضات العنف والمعجزات ليفي شتراوس (Levi Strauss) الذي وصل من «بافاريا» البعيدة وأدرك بطرفة عين واحدة أن الشحاذ يصبح هنا مليونيرا والمليونير شحاذا أو جثة بطقطقة ورق اللعب أو الزناد. اكتشف بطرفة عين أخرى أن البنطلونات أصبحت مزقا في مناجم كاليفورنيا هذه وقرر أن يقدم أفضل الثياب القوية التي أحضرها معه. لن يبيع ظلات أو خياما. سيبيع بنطلونات فظة لرجال أفظاظ يقومون بعمل فظ في حفر الأنهار والوهاد. ولكي لا تتمزق الدرزات دعمها ببرشامات نحاسية. في الخلف، تحت الخصر، طبع ليفي اسمه على رقعة جلدية.

حالا سيدعي رعاة بقر الغرب كله أن البنطلونات المصنوعة من قماش نيميس الأزرق، الـذى لا تنهكه الشمس أو الزمن، هي خاصة بهم.

1850: سان فرانسيسكو

الطريق إلى التطور

كان بيريث روزاليس التشيلي يبحث عن الحظ في مناجم كاليفورنيا. بعد أن عـرف أن أسـعارا خيالية تدفع مقابل أي شيء صالح للأكل على بعد بضعة أميال من سان فرانسيسكو، حصل على بضعة أكياس من اللحم المقدد الذي ينغل فيه الدود وعلى بضع جرار من المربى واشترى لنشـا. لم يكد يدفعه عن الرصيف حتى سدد وكيل جمارك بندقية إلى رأسه: *اتركه في مكانه* !

لا يمكن أن يتحرك هذا اللنش في أي نـهر في الولايـات المتحـدة *لأنـه صنـع في الخـارج ولأنـه جؤجؤه ليس مصنوعا من خشب أميركي شمالي.*

دافعت الولايات المتحدة عن سـوقها الوطنيـة منـذ عـهد رئيسـها الأول. كـانت تـزود إنكلـترا بالقطن لكن الحواجز الجمركية كانت تمنع دخول الملابس الإنكليزية وأي منتج يـؤذي صناعتـها. كان مزارعو الولايات الجنوبية يريدون الملابس الإنكليزية لأنها أفضل وأرخص وكانوا يشكون مـن أن مشاغل النسيج الشمالية تفرض عليهم ثيابا بشعة ومكلفة من حفاض الطفل إلى كفن الجثة.

1850: بـوينـس آيـرس

الطريق إلى التخلف

فكرة دومينغو فوستينو سارمينتو

لسنا صناعيين أو بحارة وستزودنا أوروبا قرونا طويلة بمنتجاتها الصناعية مقابل موادنا الخام.

1850: نهر بلاتا

بوينس آيرس ومونتيفيديو في منتصف القرن

سافر الشاعر زافيير مارمييه من مقعده في الأكاديمية الفرنسية إلى أرصفة مرفأ نهر بلاتا.

توصلت القوى الأوروبية العظمى إلى معاهدة مع «روزاس» ورفـع الحصـار عـن بوينـس آيـرس. اعتقد مارمييه أنه في شارع فيفيان وهو يطوف في شارع بيزو. وجد في واجـهات الحوانيـت ألبسـة حريرية من ليون وصحيفة «دو مود» de Modes، روايات «دومـا» (Dumas) وسـاندو (Sandeau) وقصائد دي موسيه. لكن في ظل أروقة قصر المدينة، كان سود حفاة الأقـدام يتـهادون في ألبسـتهم العسكرية والأرصفة ترن بسبب خبب أحصنة رعاة البقر.

شرح أحدهم لـ«مارمييه» أنه ليس هناك راعي بقر يقتل أي شخص دون أن يقبل أولا شفرة مديته ويقسم بالعذراء الطاهرة. وإذا كان الميت صديقا يضعه القاتل على جواده ويربطه إلى السرج بحيث يمكن أن يدخل المقبرة على ظهر حصان.

أما في ساحات الضواحي فقد رأى مارمييه العربات، سفن السهل التي تحضر الجلود والقمح من الداخل، وتأخذ، في رحلة عودتها، الملابس والشراب الكحولي المقطر، الذي يصل من الهافر (Le Havre) وليفربول.

عبر الشاعر النهر. كانت مونتيفيديو تحت الحصار من مؤخرتها طوال سبع سنوات وقد أضناها جيش رعاة البقر التابع للجنرال أوريبي (Oribe)، لكن المدينة بقيت على قيد الحياة مواجهة النهر ـ المحيط وذلك بفضل السفن الفرنسية التي كانت تسكب البضائع والنقود على أرصفة المرفأ. كانت جريدة مونتيفيديو الوحيدة هي «لوباتريوت فرانسي» *Le patriot Fransais* وكانت أغلبية السكان فرنسية.

لاحظ مارمييه في ملاذ أعداء روزاس هذا *أن الأغنياء أصبحوا فقراء وفقد الجميع عقولهم*. كان العاشق يدفع أونصة ذهب ليشكل زهرة كاميليا في شعر فتاة وكانت ربة المنزل تقدم للزائر باقة من أزهار صريمة الجدي مشدودة بخاتم من الفضة والياقوت والزمرد. بدت الحرب بين الطليعيين والمحافظين لسيدات مونتيفيديو أكثر أهمية من الحرب ضد الفلاحين الأورغوايين، هذه الحرب الحقيقية التي تقتل البشر. كان الطليعيون يرتدون لمات شعر قصير جدا أما المحافظون فكانوا يلفون شعرهم بترف.

1850: باريس

دوما (Dumas)[1]

يطوي ألكسندر دوما كميه المصنوعين من قماش الباتيستا وبشخطة قلم يكتب الصفحات الملحمية لـ«*مونتيفيديو أو طروادة الجديدة*.»

يسعر الروائي، رجل الفنتازيا والشراهة، عمل الخيال العظيم هذا بـ «خمسة آلاف فرنك». يسمي تل مونتيفيديو المتواضع جبلا ويحول حرب التجار الأجانب ضد رعاة البقر الفرسان إلى ملحمة يونانية. جيوش جوزيبي غاريبالدي (Giuseppe Garibaldi) التي تقاتل من أجل مونتيفيديو لا ترفع راية أوروغوي بل راية القراصنة التقليدية المؤلفة من جمجمة وعظمين متصالبين على حقل أسود. لكن، في الرواية، يكتب دوما ليأمر فقط الشهداء والعمالقة بالمشاركة في الدفاع عن المدينة التي هي فرنسية تقريبا.

[1] الكسندر دوما (1802ـــ 1870): روائي فرنسي، وضع عددا كبيرا من الروايات التاريخية.

1850: مونتيفيديو

لوتريامون في الرابعة من عمره

ولد إزيدور دوكاس (Isidoro Ducasse) في ميناء مونتيفيديو وكان جدار مضاعف من التحصينات يفصل الريف عن المدينة المحاصرة. ترعرع إزيدور دائخا من القصف المدفعي ومنبهرا من المشهد اليومي للموتى المتدلين على أحصنتهم.

أخذه حذاؤه إلى البحر. واقفا على الرمل، مديرا وجهه إلى الريح، سأل البحر أين تذهب الموسيقى بعد أن تغادر الكمان، أين تمضي الشمس حين يخيم الليل وإلى أين يرحل الموتى. سأل إيزودور البحر أين ذهبت أمه، تلك المرأة التي لا يستطيع أن يتذكرها أو يسميها أو يتخيلها. أخبره أحدهم أن الموتى الآخرين رموها خارج المقبرة. البحر، الذي يتحدث كثيرا، لا يجيب والولد يتفادى جرفا ويعانق بأقصى قوته، باكيا، شجرة ضخمة كي لا تسقط.

1850: شان سانتا كروز (Chan Santa cruz)

الصليب الذي يتحدث

ثلاثة أعوام طويلة من الحرب الهندية في يوكاتان. مات أكثر من مائة وخمسين ألفا وفر مائة ألف وتناقص عدد السكان إلى النصف.

قاد الخلاسي خوسيه ماريا باريرا، أحد قادة التمرد، الهنود إلى كهف في الغابة. هناك قدم نبع الماء العذب في ظل شجرة ماهوغاني مرتفعة جدا. أنجبت الشجرة الصليب الصغير الذي يتحدث.

قال الصليب بلغة المايا: «*حان وقت الانتفاضة في يوكاتان. أنا أسقط ساعة بعد ساعة، إنهم يقطعونني بالمناجل، يطعنونني بالسكاكين، يخزونني بالعصي. أتجول في يوكاتان لأشفي أحبائي الهنود...*»

الصليب بحجم إصبع. الهنود يكسونه بـHuipil وقميص، يزينونه بخيوط ملونة ذلك أنه سيجمع المتفرقين.

1851: لاتاكونغا (Latacunga)

أتجول عشوائيا وعاريا...

بدلا من التفكير بالميديين (Medes) والفارسيين والمصريين، لنفكر بالهنود. من الأفضل لنا أن نفهم هنديا أكثر من أن نفهم أوفيد. ابدأوا مدرستكم بالهنود أيها السيد مدير الكلية.

قدم سيمون رودريغز نصيحته لكلية بلدة لاتاكونغا في الإكوادور: نصحهم بتأسيس كرسي بلغة الكويتشوا بدلاً من اللاتينية، أن يدرّسوا الفيزياء بدلاً من اللاهوت، أن تشيد الكلية مصنعاً للفخار ومصنعاً للزجاج، أن تمنح شهادات في البناء والنجارة والحدادة.

قضى الدون سيمون حجه على طول شواطئ المحيط الهادي وعبر جزائر الهند الغربية. لم يرغب أبداً أن يكون شجرة، بل ريحاً. أثار الغبار طوال ربع قرن على طرق أميركا. منذ أن طرده سكر (Sucre) من شوكيساكا أنشأ مدارس عديدة ومصانع شمع ونشر كتابين بيديه حرفاً حرفاً، لأنه ليس هناك أي صفّاف حروف، يقدر أن يتعامل مع أقواس كثيرة وخرائط متشابهة. كان ذلك المتشرد العجوز، الأصلع والدميم والأكرش، الذي صبغته الشمس، يحمل على ظهره حزمة من المخطوطات وكان مُبْتلى بغياب النقود والقراء. ولم يكن يملك إلا ما يرتديه.

اعتاد بوليفار أن يناديه *مدرّسي، سقراطي*. قال: *لقد صنعت قلبي من أجل العظيم والجميل من الأمور*. كان البشر يضغطون على أسنانهم كي لا يضحكوا حين يلقي رودريغز المجنون خطبة حول القدر المأساوي للأراضي الأميركية الهسبانية.

«*نحن عميان، عميان!*»

لم يصغ إليه أو يصدقه أحد. اعتبروه يهودياً لأنه كان يتجول ويبذر الأطفال أينما مرَّ دون أن يعمدهم بأسماء القديسين بل يسميهم قرن ذرة، قرعاً، جزرة وهرطقات أخرى. غيّر كنيته ثلاث مرات وقال إنه ولد في «كركاس» وأنه أيضاً ولد في فيلادلفيا وفي «سانليوكار دي باراميدا» وأشيع إن إحدى مدارسه في «كنسبسيون» بتشيلي، دمرها زلزال أرسله الله حين علم أن الدون سيمون درّس التشريح عارضاً نفسه عارياً أمام الطلاب.

كانت وحدة سيمون تزداد كل يوم. هذا الأكثر حكمة، الأكثر جاذبية بين مفكري أميركا، يزداد إحساسه بالوحدة كل يوم.

كتب في سن الثمانين: «*رغبت أن أجعل الأرض فردوساً للجميع، لكنني جعلتها جحيماً لي*».

أفكار سيمون رودريغز
«إما أن نخترع أو نضيع»

انظروا إلى طريقة أوروبا في الاختراع وانظروا إلى أميركا كيف تقلد.

يرى البعض أن الازدهار يتحقق من خلال جعل مرافئهم مليئة بالسفن الأجنبية وتحويل منازلهم إلى مستودعات للتأثيرات الأجنبية. كل يوم تأتي حمولة من الملابس الجاهزة وقبعات للهنود. عاجلا سنرى رزما صغيرة مطلية بالذهب مع شعارات النبالة، تحوي ترابا أعد بعملية جديدة، للفتيان المعتادين على أكل التراب.

النساء يعترفن باللغة الفرنسية! الإرساليات تبرئ الذنوب بالإسبانية.

ينبغي أن لا تقلّد أميركا كالخادمة، ينبغي أن تكون أصيلة. إن حكمة أوروبا وازدهار الولايات المتحدة عدوان لحريات الفكر في أميركا. لا تريد الجمهوريات الجديدة أن تسمح بمرور أي شيء لا يحمل إذناً...

لم يستشر رجال الدولة في تلك الأمم سوى العقل، وهذا أسسوه على تربتهم. قلّدوا الأصالة بما أنكم تحاولون أن تقلّدوا كل شيء!

أين نذهب للبحث عن موديلات؟ نحن مستقلون لكننا لسنا أحراراً، نحن أسياد تربتنا لا أسياد أنفسنا.

لنفتح التاريخ ومن أجل ذلك الذي لم يُكتب بعد، ليقرأه كل منكم في ذاكرته الخاصة.

1851: لا سيرينا (La Serena)

البشائر

قال فرانسيسكو بلباو (Francisco Bilboa): «*لا يستطيع البؤس أن يفكر أو يخزن في الذهن أية ذكرى سوى الألم*». ثم أضاف أن استغلال الإنسان للإنسان لا يترك للإنسان وقتاً ليصير إنساناً. لقد قسم المجتمع إلى أولئك الذين يستطيعون أن يفعلوا كل شيء وإلى أولئك الذين يفعلون كل شيء. يجب أن يوضع حد لنظام لا يمنح مأوى لأولئك الذين يكدحون ليشيدوا القصور ويقدم الأسمال للذين ينسجون أفضل الملابس.

الذين يبشرون بالاشتراكية في تشيلي لم يبلغوا سن الثلاثين بعد. لقد خان فرانسيسكو بلباو وسانتياغو أركوس الشابان اللذان تعلّما في باريس، طبقتهما. في سياق بحثهما عن *مجتمع تضامن* فجّرا في مجرى هذا العالم تمردات عسكرية متنوعة وانتفاضات شعبية في جميع أنحاء البلاد ضد لابسي الشعر المستعار والكهنة والملكية الخاصة.

في اليوم الأخير من العام سقط الحصن الثوري الأخير في مدينة «لا سيرينا». سقط أيضاً كثير من الحمر أمام فرق الإعدام. «بلباو»، الذي هرب في مناسبة أخرى متنكراً في زي امرأة، فر هذه المرة من فوق الأسطح وذهب إلى المنفى لابساً رداء كاهن وحاملاً كتاب القداس.

1852: سانتياغو دي تشيلي

ماذا عن الاستقلال للفقراء؟ التشيلي

سانتياغو أركوس يسأل نفسه في السجن

كانت الحكومة منذ الاستقلال للأغنياء ولاتزال. كان الفقراء جنودا، ميليشيات وطنية، صوتوا كما أمرهم مستخدموهم، اشتغلوا في الأرض، حفروا الخنادق، عملوا في المناجم، حملوا على

ظهورهم، حرثوا البلاد، تابعوا كسب بنس ونصف، جُلدوا وعوقبوا على الُشـهِّرة... تمتّع الفقراء باستقلال مجيد كالأحصنة التي هاجمت قوات الملك في تشاكابكو وميبو .

شعب تشيلي يغني لمجد الفردوس

أرسل القديس بطرس، الذي يرعاك ويرعاني،
غلاماً ليحضر بعض السجق والنبيذ
وضلعاً ظريفاً من لحم الخنزير
ليدخل الإناء من أجل يخنة طيبة،
مع بَنْش جيد مسكر، كما يفعل سكان الأرض،
ولكي لا يكون متعجرفاً طلب
سلة من التورتيلا
ليقدر جميع الملائكة الصغار
على التخلص من الضجر السماوي
ويقيموا حفلة رقص رائعة.
وحين كانت الساعة بطيئة نهض
القديس أنطوني قائلاً: حسناً يا سادة!
اللعنة على جميع الشياطين في الجحيم يا سادة
أليست هذه حفلة؟
ودون الإساءة لأحد
حان وقت التحرر
من خلال حيلة بريئة..
سأصعد إلى القديسة كلارا
وقبل أن تشعر بذلك
سأداعب كفلها الصغير الريّان.

1852: مندوزا (Mendoza)

خطوط اليد

حتى ملائكة المذبح الصغيرة كانت ترتدي عباءات حمراء في الأرجنتين. كـان الرفـض تحديـاً لعنف الديكتاتور. مثل كثـيرين مـن أعـداء روزاس، عـانى الطبيـب «فيديريكـو مـاير» مـن المنفـى والسجن.

منذ وقت ليس بطويل نشر هذا البروفسور البوينس آيرسي الشاب كتابا في سانتياغو دي تشيلي. بدأ الكتاب المزين باقتباسات فرنسية وإنكليزية ولاتينية كالتالي: *نفتني ثلاث مدن عن صدورها واستقبلتني ثلاثة سجون على صدورها. على أية حال، رميت أفكاري بحرية في وجه الطاغية. والآن، ثانية، أطلق أفكاري في العالم وأنتظر، دون خوف، ما يخبئه القدر لي.*

بعد شهرين، حين كان ينعطف، سقط الطبيب فيديريكو ماير آرنولد في بركة من الدم. لكن هذا لم يحصل بأمر من الطاغية بل بأمر من حماة فيديريكو، الدونا ماريا، المرأة السيئة الخلق التي من «مندوزا». لقد دفعت لقطاع طرق بارعين في استخدام السكاكين كي يقتلوا صهرها لأنه لا يسرها.

1853: لاكروث (La Cruz)

كنز اليسوعيين

إنها تعرف ولهذا يتبعها الغراب طائرا خلفها كل صباح في الطريق إلى القداس وينتظرها على باب الكنيسة.

كانت قد وصلت إلى سن المائة لتوها. ستفصح عن السر حين تكون مستعدة للموت وإذا لم تفعل ذلك، ستعاقبها العناية الإلهية.

جاء الوعد: *بعد ثلاثة أيام من الآن.*

وبعد ثلاثة أيام: *الشهر القادم.*

وبعد شهر: *سنرى غدا.*

حين يضايقها البشر تبيض عيناها وتتظاهر بأنها دائخة أو تنفجر ضاحكة محركة ساقيها الصغيرتين وكأن الشيخوخة شيء ناب.

كانت بلدة «لاكروث» كلها تعرف أنها تعرف. كانت مجرد فتاة صغيرة حين ساعدت اليسوعيين على دفن الكنز في غابات مسيونيس (Misiones)، لكنها لم تنس.

مرة، منتهزين فرصة غيابها، فتح الجيران الصندوق القديم الذي أمضت أيامها جالسة عليه، ولم يعثروا فيه على حقيبة ملأى بالذهب. عثروا فقط على السرر الجافة لأولادها الأحد عشر.

حين جاءت آلام الموت تجمهرت البلدة كلها عند قدم سريرها. كانت تفتح وتغلق فمها الذي يشبه السمكة كأنها تحاول أن تقول شيئا.

ماتت في باب الطهارة. كان السر هو الشيء الوحيد الذي امتلكته طوال حياتها وماتت دون أن تفصح عنه.

1853: بيتا (Paita)

الثلاثة

لم تعد تلبس مثل كابتن أو تطلق النار من المسدسات أو تمتطي حصانا. لم تعد ساقاها تعملان وشوهت السمنة جسدها. لكنها تجلس على كرسي مرضها وكأنه عرش ثم تقشر البرتقال والجوافة بأجمل يدين في العالم.

محاطة بأباريق صلصالية، تحكم «مانويلا ساينث» في المدخل المظلل لمنزلها. فيما وراء ذلك، بين جبال بلون الموت، كان يمتد خليج «بيتا». منفية في هذا الميناء البيروفي، عاشت مانويلا على صناعة الحلويات والمربى وكانت السفن تقف لتشتري. كانت بضائعها تتمتع بشهرة وافرة على هذه السواحل وكان الحواتون يتنهدون من أجل ملعقة.

حين يخيم الليل، كانت مانويلا تسلي نفسها برمي الفتات إلى كلاب ضالة عمدتها بأسماء الجنرالات الذين خانوا بوليفار. وبينما تتعارك أسماء مثل سنتاندر، بايث، كوردوبا، لامار وسانتا كروزو، على العظام، كان وجهها القمري يتوهج وتنفجر بالضحك وهي تغطي فمها الأدرد بمروحة. كانت تضحك بكل جسدها وبجميع أشرطتها المخرمة الطائرة.

كان يزورها أحيانا صديق قديم يأتي من بلدة أموتابي وكان سيمون رودريغز المتجول يجلس على كرسي هزاز قرب مانويلا ويدخن الاثنان، يثرثران ويصمتان معا. كان الشخصان اللذان أحبهما بوليفار أكثر من غيرهما يغيران الموضوع إذا دخل اسم البطل إلى الحديث.

حين يغادر الدون سيمون، تطلب مانويلا إحضار الصندوق الذهبي وتفتحه بمفتاح تخبئه في صدرها وتتحسس الرسائل الكثيرة التي كتبها بوليفار إلى *المرأة الوحيدة*، تلك الأوراق المنهكة التي لا تزال تقول: *أرغب أن أراك ثانية وألمسك وأشعر بك وأتذوقك*... ثم تطلب المرآة وتمشط شعرها بعناية فائقة تحسبا لاحتمال زيارته لها في الأحلام.

1854: أموتابي (Amotape)

شاهد يصف وداع سيمون رودريغز للعالم

حالا شاهد قس «أموتابي» يدخل، جلس الدون سيمون في السرير وأشار للكاهن أن يجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة وبدأ يلقي شيئا مثل الخطبة في المادية. جلس القس هناك مبهوتا ونادرا ما امتلك الشجاعة ليلفظ بضع كلمات محاولا أن يقاطعه ...

1855: نيويورك

ويتمان

دفع الشاعر من جيبه لينشر ديوان «أوراق العشب» بسبب عدم توفر أي ناشر.

بارك والدو إمرسون، لاهوتي الديمقراطية، الكتاب، لكن الصحافة هاجمته ككتاب نثري وفاحش.

في مرثاة وولت ويتمان المهيبة، تزأر الحشود والآلات، يعانق الشاعر الله والمذنبين، الهنود والرواد الذين يمسحونهم عن وجه الأرض. يعانق العبد والسيد، الضحية والجلاد. تفتدى جميع الجرائم في نشوة العالم الجديد، أميركا، العضلية والمخضعة، التي لا تملك دينا تدفعه للماضي، رياح التقدم التي تجعل الإنسان رفيق الإنسان وتحرر الفحولة والجمال.

1855: نيويورك

ميلفل

البحار الملتحي كاتب بلا قراء. منذ أربعة أعوام نشر قصة قبطان يطارد حوتا أبيض في بحار الكون، قصة حربون متعطش للدماء يطارد الشر ولم ينتبه أحد إليها كثيرا .

في أزمنة النشاط تلك، على هذه الأراضي الأميركية الشمالية ذات الاتساع الكامل، كان صوت هيرمان ميلفل يغني نشازا. كتبه لا تثق بالحضارة التي تضفي على المتوحش دور الشيطان وتجبره أن يلعبه ـ كما يفعل القبطان آخاب مع موبي ديك في المحيط الشاسع. رفضت كتبه الحقيقة الوحيدة والإلزامية التي يفرضها على الآخرين رجال معينون يعتقدون أنهم مختارون.

تثير كتب ميلفل شكوكا حول الرذيلة والفضيلة، ظلي العدم نفسه، وتعلم أن الشمس هي المصباح الوحيد الجدير بالثقة.

1855: منطقة واشنطن

أنتم أيها القوم ستختنقون من قمامتكم، يحذر الزعيم الهندي «سياتل»

ليست الأرض صديقا للرجل الأبيض بل عدو وحين باشر بغزوها واصل ذلك. لكن جميع الأشياء مترابطة: ما يحل بالأرض سيحل بأبناء الأرض..

إن ضجة المدن تهين الأذنين.

الهواء ثمين بالنسبة للرجل الأحمر لأن الأشياء كلها تتقاسم النفس نفسه: الوحوش، الأشجار، الإنسان، وكمثل رجل مر على موته أيام كثيرة فإنه غافل عن النتانة ...

لا يهم كثيرا أين نمضي بقية أيامنا لأنها معدودة. بعد بضع ساعات، بعد بضعة شتاءات... البيض أيضا سيعبرون ـ ربما أسرع من القبائل الأخرى. إذا واصلتم تلويث سريركم فإنكم ستختنقون في إحدى الليالي في قمامتكم.

الغرب البعيد

هل يصغي أحد حقا إلى الزعيم العجوز سياتل؟ لقد حكم على الهنود مثل الجواميس والأيل الأميركي. ذلك الذي لا يموت برصاصة يهلك جوعا أو من الأسى. في السجن، وسط المعاناة، يتحدث الزعيم العجوز سياتل في العزلة عن الاغتصابات والإبادات ولا أحد يعرف ماذا يقول عن ذاكرة شعبه التي تتدفق في نسغ الأشجار.

صهل المهر. كان الرواد البيض يتقدمون كالشمس نحو الغرب وكان يرشدهم ضوء ألماسي صادر عن الجبال. كانت أرض الميعاد تجدد أي شخص يغرز فيها محراثا ليخصبها. في ومضة بزغت المدن والشوارع في العزلة التي كان يسكنها الصبار والهنود والأفاعي. قالوا إن المناخ مفيد جدا للصحة وأن الطريقة الوحيدة لتدشين المقابر هي إطلاق النار على شخص ما.

كانت الرأسمالية المذعورة والشرهة تحول كل ما تلمسه: توجد الغابة كي يقطعها الفأس والصحراء ليعبرها القطار والنهر لا يستحق الانتباه إذا كان يخلو من الذهب ولا يكترث بالجبال إن خلت من الفحم أو الحديد. لم يكن أحد يسير. كان الجميع يركضون مستعجلين ـ فالمسألة ملحة ـ وراء الظل البدوي للثروة والقوة. يوجد المكان ليهزمه الزمن ويوجد الزمن ليضحي به التقدم على مذابحه.

1856: غرانادا

ووكر (Walker)

كان ابن «تينيسي» يطلق النار ويدفن دون شاهدة. كان يملك عينين من الشرر ولا يضحك أو يشرب الكحول. كان يأكل وكأن المسألة واجب ولم تشاهد أية امرأة معه منذ أن توفيت خطيبته الصماء البكماء. وكان الله هو صديقه الوحيد الجدير بالثقة. كان يدعو نفسه «المقدر»، يرتدي ثيابا سوداء ويكره كل من يلمسه.

أعلن وليم ووكر، السيد الجنوبي، نفسه رئيسا لنيكاراغوا. فرشت ساحة غرانادا الرئيسية بالسجاد الأحمر ولمعت الأبواق في ضوء الشمس. عزفت الفرقة ألحانا عسكرية أميركية شمالية بينما كان «ووكر» راكعا وهو يقسم واضعا يده على الإنجيل. أطلقت المدفعية عشرين طلقة تحية له. ألقى خطابه بالإنكليزية ثم رفع كأس ماء وشرب نخب رئيس الولايات المتحدة، مواطنه، وزميله الذي يقدره. قارن السفير الأميركي الشمالي جون ويلر، ووكر بكريستوف كولومبس.

وصل ووكر إلى نيكاراغوا منذ عام على رأس كردوسة الخالدين. *سأقتل كل من يعارض التقدم الإمبراطوري لقواتي.*

كمدية تشق اللحم جاء المغامرون الذين تطوعوا على أرصفة سان فرانسيسكو ونيو أورليانز البحرية.

أعاد رئيس نيكاراغوا الجديد الاسترقاق الذي ألغي في أميركا الوسطى منذ أكثر من ثلاثين عاما. وأعاد تأسيس تجارة الرقيق والقنانة والأعمال الشاقة. أصدر مرسوما فرض الإنكليزية لغة رسمية لنيكاراغوا وقدم الأيدي والأراضي لأي أميركيين شماليين يهتمون بالمجيء.

1856: غرانادا

هنا انتصبت

خمسة أو لا شيء. لم تكن نيكاراغوا شيئا كثيرا. لقد أراد ويليم ووكر أن يغزو أميركا الوسطى كلها.

توحدت القطع الخمس لسقط رأس مورازان ضد القرصان وحولت قوته إلى أشلاء. قتلت حرب الشعب كثيرا من الأميركيين الشماليين وقتلت أكثر من ذلك الكوليرا التي تملؤك بالتجاعيد والشيب وتنهيك فجأة.

عبر مسيح الاسترقاق الذي هزم هزيمة منكرة، بحيرة نيكاراغوا.

طاردته أسراب البط وجحافل من الذباب الناقل للعدوى. قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة قرر ووكر أن يعاقب مدينة «غرانادا». يجب ألا يبقى شيء حيا هناك، لا البشر ولا المنازل ذات الأسطح القرميدية ولا الشوارع الرملية المخططة بأشجار البرتقال.

صعدت ألسنة اللهب إلى السماء.

كان ثمة رمح مشكول في الأرض عند طرف الرصيف البحري المدمر وكانت قطعة جلدية تتدلى على الرمح كراية منكسرة مكتوب عليها بأحرف حمراء إنكليزية: هنا انتصبت غرانادا.

ووكر: «دفاعا عن الاسترقاق»

إن أعداء الولايات المتحدة ـ أي أعداء الاسترقاق ـ يبدون أكثر تيقظا من أصدقائها.

ثمة شيء منتظر من الجنوب من أجل ذكرى الموتى الشجعان الذين يرقدون في تربة نيكاراغوا. غادر هؤلاء الرجال منازلهم للدفاع عن العبودية وواجهوا بهدوء ورباطة جأش مخاطر مناخ إستوائي وقدموا في النهاية أرواحهم...

إذا كان لا يزال هناك قوة في الجنوب ـ ومن يستطيع أن يشك بذلك ـ من أجل مزيد من الصراع ضد الجنود المضادين للعبودية، يجب أن تتخلص هذه القوة من النعاس الذي يغلفها وتستعد من جديد للصراع... إن الحقل الحقيقي للعبودية هو أمريكا الاستوائية، هناك تعثر على المقعد الطبيعي لإمبراطوريتها وهناك تنتشر إذا بذلت الجهد.

1858: منبع نهر جيلا (Gila)

أراضي الأباتشي المقدسة

هنا، في الوادى الذي ولد فيه النهر، بين مرتفعات أريزونا الصخرية تقع الشجرة التي قدمت المأوى لـ«جيرونيمو» منذ ثلاثين عاما..

كان قد خرج لتوه من حوض أمه ولف بقطعة قماش. علقوا قطعة القماش على غصن. هدهدت الريح الطفل بينما توسل صوت قديم للشجرة:

«*دعيه يحيا ويكبر ليشاهدك تثمرين مرات كثيرة*».

إن هذه الشجرة هي مركز العالم. حين يقف جيرونيمو في ظلها لا يخلط بين الشمال والجنوب أو بين الشر والخير.

كانت تنتشر حولها بلاد هنود الأباتشي الكبيرة. عاشوا في هذه الأراضي الوعرة منذ أن ارتدى أولهم، ابن العاصفة، ريش النسر الذي هزم أعداء الضوء. هنا لم ينقطع صيد الحيوانات أبدا ولا الأعشاب التي تشفي المرضى ولا الكهوف الصخرية التي تأوي الموتى.

وصل رجال غرباء على ظهور الأحصنة حاملين حبالا وأوتادا كثيرة. بدا جلدهم وكأنه أفرغ من الدم وكانوا يتحدثون لغة لم تسمع أبدا من قبل. نصبوا في الأرض إشارات متألقة الألوان وسألوا ميدالية بيضاء كانت تجيب محركة إبرتها.

لا يعرف جيرونيمو أن الرجال جاؤوا ليمسحوا أراضي هنود الأباتشي ويبيعونها.

1858: كاسكييه

جيرونيمو

ذهب هنود الأباتشي دون سلاح إلى سوق كاسكييه في الأراضي الجنوبية بين «سونورا» و«كاساس غرانديس» ليستبدلوا الغذاء بجلود الجواميس والأيائل. دمر جنود مكسيكيون مخيماتهم واستولوا على أحصنتهم. كان بين الموتى أم وزوجة جيرونيمو وأطفاله الثلاثة.

لم يقل جيرونيمو شيئا بينما كان رفاقه يجتمعون ويصوتون بحزن. حوصروا عزلا من السلاح ولم يكن ثمة خيار أمامهم سوى المغادرة.

جالسا قرب النهر بلا حراك، كان يراقب أبناء قومه يتقدمون خلف الزعيم «مانغاس كولورادو». هنا بقي الموتى. أخيرا غادر جيرونيمو أيضا ناظرا من فوق كتفه. تبع قومه *على مسافة مناسبة ليسمع الوقع الناعم لأقدام الأباتشي المنسحبين.*

لا يتفوه بكلمة طوال المسير الطويل نحو الشمال. حين وصل إلى الوطن، أحرق منزله الجلدي ومنزل والدته وجميع أشيائه وأشياء زوجته وأمه وألعاب أطفاله. ثم، مديرا ظهره إلى النار، رفع رأسه وغنى أنشودة الحرب.

1858: سان بورخا (San Borja)

ليمت الموت

يتحرق جسده الموجوع من أجل أن يمتزج بالتربة الأميركية. عرف إيمي بونبلان أن المطاف سينتهي به إلى هناك، منذ ذلك اليوم البعيد حين نزل مع «همبولت» على الساحل الكاريبي.

مات بونبلان من موته في كوخ مبني من القش والطين، مات بهدوء عارفا أن النجوم لا تموت، أن النمل والبشر لن يتوقفوا عن الولادة، أنه سيكون هناك أوراق برسيم جديدة وبرتقال أو شموس جديدة على الأغصان وأن المهور التي تنتصب على سيقانها النحيلة كسيقان البعوض ستمد أعناقها بحثا عن حلمة. ودع العجوز العالم كما يودع طفل النهار وقت النوم.

فيما بعد، طعن سكير الجسد، لكن تلك البلاهة الشريرة للبشرية تفصيل لا أهمية له.

1860: شان سانتا كروز

المركز الاحتفالي لمتمردي يوكاتان

«لم يضعني أبي بين الأغنياء ولا مع الجنرالات أو مع أولئك الذين يملكون مالا أو مع الذين يدعون ملكيته».

لقد أعلنت هذا في يوكاتان أم الصلبان، تلك التي بزغت من شجرة ماهوغاني إلى جانب النبع. وحين قطع الجنود شجرة الماهوغاني وأحرقوا الصليب الصغير الذي يرتديه الهنود، كانت قد أنجبت بنات مسبقا. بعثت الكلمة إلى الحياة من صليب إلى آخر: *وضعني أبي مع الفقراء، لأنني فقير.*

حول الصليب، حول الصلبان، نشأ «شان سانتا كروز»، الملاذ الكبير لتمردي المايا في غابة يوكاتان.

دخل جنود حملة الكولونيل أسيريتو (Acereto) دون مقاومة. لم يجدوا هنودا وتركوا فاغري الأفواه. كان الهنود قد بنوا كنيسة ضخمة من جدران صلبة تحت قبة مهيبة كمنزل للإله، منزل للإله اليغور. وعلقوا في البرج الأجراس التي أخذت من «باكالار».

كان كل شيء مخيفا في المدينة المقدسة الخالية من البشر ولم يكن في المزادات سوى قليل من الماء، لكن الكولونيل أسيريتو منع الشرب من الآبار. منذ ستة أعوام شرب جنود آخرون وتقيأوا وماتوا بينما كان الهنود يسألونهم من الدغل إن كان الماء عذبا.

من الصبر إلى فقدان الصبر أمضى الجنود الأيام. في غضون ذلك، تدفق الهنود من مائة قرية ومن ألف بقعة لزراعة الذرة. أحضروا بنادق أو مناجل وكيسا صغيرا من طحين الذرة. احتشدوا في الدغل وحين قرر الكولونيل أسيريتو أن ينسحب سحقوا قواته في هجمة واحدة.

فرض على الفرقة الموسيقية التي أسرت سليمة أن تعلم الأطفال الموسيقى وأن تعزف موسيقى البولكا في الكنيسه حيث يعيش الصليب، ويتحدث محاطا بآلهة المايا. هناك، في الكنيسة، يحتفل البشر بالعشاء الرباني مستخدمين خبز الذرة والعسل وينتخبون مرة في كل عام مؤولين للصليب وزعماء محاربين يرتدون أقراطا ذهبية لكنهم يشتغلون في حقول الذرة كأي شخص آخر.

1860: هافانا

شاعر في أزمة

بكلفة ثلاث عشرة ميتة في كل كيلومتر نصبت كوبا سكة الحديد التي تنقل السكر من حقول «غينز» (Guines) إلى ميناء هافانا: موتى أفارقة، إيرلنديون، من جزر الكاناري، صينيون من ماكاو (Macoa)، عبيد أو عمال نهاريون بائسون أحضرهم التجار من أمكنة بعيدة. وكان ازدهار السكر يتطلب المزيد والمزيد.

منذ عشرة أعوام وصلت الشحنة الأولى من هنود المايا اليوكاتانيين إلى كوبا. بيع مائة وأربعون هنديا من أسرى الحرب بسعر خمسة وعشرين بيزوسا للرأس، أما الأطفال فقد بيعوا مجانا. فيما بعد، منح الرئيس المكسيكي «سانتا آنا» احتكار التجارة للكولونيل مانويل ماريا خيمينيث وارتفع السعر إلى مائة وستين بيزوسا للرجل، ومائة وعشرين بيزوسا للمرأة وثمانية للطفل. تواصلت حرب المايا وازدادت معها القروض والبنادق الكوبية. كانت حكومة يوكاتان تأخذ ضريبة على كل عبد يباع وهكذا كانت تدفع هنودا من أجل الحرب ضد الهنود.

اشترى الشاعر الإسباني خوسيه ثوريلا «José Zorilla» شحنة هنود في ميناء كامبيتشي كي يبيعها في كوبا. كان على وشك ركوب السفينة حين قتلت الحمى الصفراء شريكه في رأس المال سيبريانو دي لاس كاغيغاس (Cipriano de las Cagigas) في هافانا، والآن يعزي مؤلف «دون جوان تينوريو» نفسه بكتابة الأشعار في مستعمرة لزراعة البن.

1861: هافانا

أيدي السكر

ستعرض هافانا حالا ألعابها الزهرية. اقترح مفكرو المجتمع الأدبي حافزا مركزيا كبيرا. أرادوا أن يتمحور التنافس الأدبي حول موضوع طلب ستين ألف عبد جديد من أسبانيا. هكذا سيدعم الشعراء مشروع استيراد السود الذي يتمتع مسبقا برعاية صحيفة «دياريو دي لامارينا»وبالمباركة القانونية للنائب العام.

كان السكر يحتاج إلى الأيدي. وكان السود الذين يهربون عن طريق مارييل وكوجيمار وسواحل باتابانو، نادرين ومكلفين. خطط للمشروع ثلاثة من مالكي مطاحن السكر، لأن *كوبا مستنفدة وخربة* فهي تتوسل إلى السلطات الأسبانية *أن تسمع صرخات ألمها وتزودها بسود* متواضعين ومخلصين تدين لهم كوبا بازدهارها الاقتصادي. قالوا بإلحاح إنه سيكون من السهل إحضارهم من أفريقيا *ذلك أنهم سيركضون بمتعة إلى السفن الأسبانية حين يشاهدونها تقترب.*

لغة السكر

زُيِّنت شبك نوافذ منازل هافانا بلوالب حديدية وزيّنت أعمدتها بقصابات زينة ملاطية أما المداخل فقد زيّنت بمصنوعات خشبية مخرّمة ووضع ريش الطاووس على النوافذ ذات الزجاج الملوّن. كان حديث الأطباء والكهنة يتوهج بالأرابيسك. وصل الشعراء إلى قواف لم يُسمع بها والناثرون إلى أكثر النعوت جلجلة. كافح الخطباء لإيضاح فكرتهم، فكرتهم القلقة الهاربة، الفكرة التي تحدق من وراء ظرف أو علامتي حصر بينما يضيف الخطيب إليها المزيد من الكلمات وتتمدّد الخطبة محاولة أن تمسكَ بالفكرة لكنها تواصل الهرب وتستمر المطاردة بلا توقف.

من ناحية أخرى، كانت كتب المحاسبة تتحدث لغة الواقع الفظّة. كانوا يسجلون في مطاحن السكر في جميع أرجاء كوبا ولادة أو شراء كل عبد أسود ككسب تجاري ويحسبون النقص بنسبة 3٪ سنوياً. كان مرض الرجل مساوياً لعطل صمّام وكانت الوفاة مثل فقدان رأس من القطيع: *القطيع المقتول هو قطيع الجواميس. فقدنا خنزيرة السيبة. توفي الزنجي دومنغو موندنغو.*

1861: بل رن (Bull Run)

الرماديون ضد الزرق

خيضت معركة الحرب الأهلية الأولى قرب مدينة واشنطن. التفت جمهور غفير كان في العربات أو على ظهور الأحصنة، ليشاهد العرض. ولم يكد الدم يتدفق حتى خرت الأحصنة وأجفل الجمهور وصرخ هلعا وحالا امتلأت شوارع العاصمة بالمبتورين والموتى.

كان البلدان المتصارعان يقتسمان الخريطة نفسها والراية واسم الولايات المتحدة. نقلت صحيفة جنوبية خبر انتخاب أبراهام لنكولن في قسم «أخبار من الخارج» وفي غضون أشهر شكلت الولايات الجنوبية أمة منفصلة ثم نشبت الحرب.

كان الرئيس الجديد لنكولن يجسد مثل الشمال. أعلن أثناء حملته أنه من المستحيل إبقاء البلاد موزعة بين نصف من الأحرار ونصف من العبيد ووعد بالمزارع بدل المستعمرات الزراعية وبالتعريفات الجمركية ضد منافسة الصناعة الأوروبية.

الشمال والجنوب: مكانان، فترتان. في الشمال كانت المصانع تنتج أكثر من الحقول والمخترعون الذين لا يتعبون يخترعون التلغراف، آلة الخياطة والحصادة وكانت مدن جديدة تبزغ في جميع الأنحاء ووصل عدد السكان في نيويورك إلى مليون وكانت الأرصفة البحرية ضيقة على السفن المكتظة بالأوروبيين اليائسين الذين ينشدون بلادا جديدة. أما في الجنوب ثمة كبرياء الأسلاف والحنين، حقول تبغ ومستعمرات قطن زراعية كبيرة وأربعة ملايين عبد ينتجون المواد الخام لمعامل النسيج في لانكشاير وثمة سادة يتبارزون من أجل شرف أخت ملوث أو الاسم الطاهر لأسرة. وكانت السيدات يهوين أنفسهن في العربات عبر الريف المزهر ويصبن بالإغماء على شرفات قصورهن بعد الغروب.

1862: فريديريكسبرغ (Fredericksburg)

قلم رصاص الحرب

كان الجندي الشاب الذي ينظر دون أن يرى يسند ظهره إلى حائط ويضع ساقا فوق أخرى. كان نمو لحيته الذي تواصل عدة أشهر قد بسط الياقة المفتوحة لصدرته. كانت يد جندي تخبط على رأس كلب ينام على ركبتيه.

كان جون جيسر (John Geyser) المتطوع من بنسلفانيا يرسم نفسه ورفاقه بينما كانت الحرب تمارس القتل. كان قلمه يجمدهم للحظة في الطريق إلى الخندق الذي تنقب فيه قذائف المدفعية. كان الجنود يذخرون البنادق أو ينظفونها أو يأكلون الحصص المخصصة لهم والمؤلفة من البسكويت ولحم الخنزير، أو كانوا يحدقون بأعين حزينة. حزانى كانوا ينظرون دون أن يشاهدوا أو ربما كانوا يشاهدون ما ينظرون إليه.

1863: مكسيكو سيتي

الجزائر الأميركية

أطلقت صحافة باريس اسم الجزائر الأميركية على المكسيك. هاجم جيش نابليون الثالث وغزا العاصمة والمدن الرئيسية.

في روما قفز البابا من الفرح. كانت حكومة «بينيتو خواريز» التي أطاح بها الغزاة مذنبة بالتجديف ضد الله وأملاكه في المكسيك. لقد عرى خواريز الكنيسة وحرمها من عشورها المقدسة وعقاراتها الشاسعة كالسماء ومن حماية الدولة المحببة.

انضم المحافظون إلى الفاتحين الجدد. ساعد عشرون ألف جندي مكسيكي ثلاثين ألف جندي جاؤوا من فرنسا وكانوا قد انتهوا لتوهم من غزو كريميا (Crimea) والجزائر والسنغال. احتل نابليون الثالث المكسيك مستنهضاً الروح اللاتينية، الثقافة اللاتينية والسلالة اللاتينية ولدى مروره كان يطلب تسديد دين ضخم وخيالي.

تولى مسؤولية المستعمرة الجديدة ماكسميليان النمساوي، أحد أمـراء أوروبـا الكثـيرين العـاطلين عن العمل وكانت ترافقه زوجته الفاتنة.

1863: لندن

ماركس

«*سيحطم نابليون الثالث رأسه في المكسيك هذا إذا لم يشنقوه في البداية*»... هذا ما أعلنـه نـبيّ حكيم فقره مدقع يعيش على ما يستطيع أن يستدينه في لندن.

وبينما كان يصحح ويصقل مسودات عمل سيغيّر العالم، لم يفوّت كارل ماركس تفصيلاً واحـداً مما يحدث في العالم. سمّى في رسائله ومقالاتـه نـابليون الثـالث الإمـبراطور الشـحّاذ واعتـبر غـزو المكسيك *مشروعاً مخزياً*. شجب أيضاً إنكلترا وأسبانيا اللتين رغبتا أن تقتسـما مـع فرنسـا منطقـة المكسيك كغنيمة حرب. شجب أيضاً جميع الأمم الـتي تسـرق الأمـم والمعتـادة علـى إرسـال آلاف مؤلفة من البشر إلى المسلخ من أجل أن يوسّع المرابون والتجار نطاق مشاريعهم.

لم يعـد مـاركس يؤمـن أن التوسـع الإمـبراطوري للبلـدان الأكـثر تطـوراً هـو نصـر للتقـدم على التخلف. على أية حال، اختلـف منـذ خمسـة عشـر عامـاً مـع «إنجلـز» الـذي صفّـق لغـزو الولايـات المتحـدة للمكسيك معتقـداً أن هـذا سـيحول الفلاحـين إلى بروليتاريـا ويطيـح بالأسـاقفة والإقطاعيين.

1865: لا باز

بيلثو

أعاد طوفان من الهنود المتمردين بيلثو إلى السلطة. عاد إسـيدورو بيلثـو، الجـد بيلثـو، المنتقـم للفقراء ومعذب الأطباء، إلى لا باز ممتطيا موجة بشرية.

حين كان في السلطة منذ بضع سنوات، كـانت عاصمـة بوليفيـا أينمـا كـان ممتطيـا فرسـه ولم ينجـح أسـياد البـلاد الذيـن حـاولوا القيـام بـأكثر مـن أربعـين انقلابـا عسـكريا في الإطاحـة بـه. كره التجار الأجـانب بيلثـو لأنـه أغلـق الأبـواب في وجوهـهم وحمـى صنـاع كوشـابامبا مـن غـزو المعاطف البريطانية الواقية من المطر. ارتعب منه محامو شوكيساكا الصغـار الذيـن كـان يجـري في شرايينهم الحبر أو الماء. تآمر ضده أيضا أسـياد المنـاجم الذيـن لم يقـدروا أبـدا أن يملـوا عليـه أي مرسوم.

لقد عاد بيلثو النحيل والأنيق، دخل القصر على صهوة حصانه، بخطوات رشيقة وكأنه يوجه سفينة.

من كلمة لـ«بيلثو»
موجهة إلى الشعب البوليفي

حان وقت أن نطلب من الأرستقراطية أن تعيد ألقابها ومن الملكية الخاصة أن تعيد امتيازاتها ... إن الملكية الخاصة هي المصدر الرئيسي لمعظم الاعتداءات والجرائم في بوليفيا. إنها سبب الصراع المستمر بين البوليفيين، إنها المبدأ المهيمن لتلك الأنانية التي تشجبها إلى الأبد الأخلاق الكونية. تسقط الملكية، يسقط المالكون والورثة. تسقط الأرستقراطية! لتوزع الأراضي على الجميع وليتوقف استغلال الإنسان للإنسان!.

1865: لا باز

ميلغاريجو (Melgarejo)

كان ماريانو ميلغاريجو، العدو الأشرس لبيلثو، هرقلا يقدر أن يحمل حصانا على كتفه. ولد في «تاراتا»، الأرض الجبلية المغطاة بالأعشاب، لأب أحب وغادر. ولد يوم الأحد في عيد الفصح.

«*لقد اختارني الله لأولد بينما هو ينبعث*».

قبل أن يتعلم السير عرف كيف يمتطي أحصنة نادرا ما رفعت رؤوسها فوق العشب الأخضر، وعرف، قبل الحلمة الأمومية، الشيكا التي تجعلك تطوف أو تطير، أفضل شيكا في بوليفيا، حليب تاراتا، ذرة تمضغها النساء العجائز وتنخمها باللعاب الأكثر قذارة.

وقبل أن يعرف كيف يكتب اسمه، كان لا يمكن إيقافه في الهجمات المتهورة للمعركة حيث كان يقاتل جسدا أمام جسد بسترة ممزقة، رافعا وباترا البشر بالخنجر والرمح أو السيف.

قضى على حياة كثيرين، هذا المتمرد والمشاغب الأبدي، قتل في وضح النهار وفي الليالي المظلمة وحكم عليه بالموت. في الليلة قبل الماضية نام على العرش وفي الليلة الماضية نام في أخاديد الجبال.

دخل البارحة إلى مدينة «لا باز» على رأس جيشه، راكبا على مدفع ضخم بينما كان معطفه الأحمر يتوهج كراية، واليوم عبر الساحة كئيبا ووحيدا.

1865: لا باز

أقصر انقلاب عسكري في التاريخ

إنها ساعة «بيلثو». جاء «ميلغاريجو» المهزوم ليستسلم وعبر الساحة وسط الصرخات.

ـ *يعيش بيلثو!*

كان «بيلثو» ينتظر في غرفة ضخمة في الطابق الثاني. دخل «ميلغاريجو» القصر. صعد الدرج دون أن ينظر إلى الأعلى وكانت لحيته السوداء منبسطة على صدره الجاموسي. كان الحشد يصرخ في الساحة.

يعيش بيلثو، جدنا بيلثو!

سار ميلغاريجو نحو «بيلثو» فنهض الرئيس وفتح ذراعيه قائلا:

ـ أسامحك.

كانت الأصوات ترعد من خلال النوافذ المفتوحة.

ـ *جدنا بيلثو!*

استسلم ميلغاريجو للعناق وأطلق النار. دوت الطلقة وسقط الجسد على الأرض.

خرج المنتصر إلى الشرفة وعرض الجثة وقدمها.

بيلثو ميت! من التالي؟

1865: أبوماتوكس (Appomatox)

الجنرال «لي» يسلم سيفه الياقوتي

وسط تقدم ساحق انتظر الجنود الشماليون الأمر من أجل الهجوم النهائي. تصاعدت في تلك اللحظة سحابة غبار من خطوط العدو وازداد نموها وبزغ من جيش الرماديين الجائع والممزق فارس يحمل راية بيضاء معلقة بعصا.

نقش الجنود الجنوبيون أسماءهم على ظهورهم في المعارك الأخيرة لكي يتم التعرف عليهم بين الأموات. كان الجنوب المدمر قد خسر الحرب منذ وقت طويل ورغم ذلك واصلها بسبب العناد وحس الشرف.

الآن يقدم الجنرال المهزوم روبرت ف. لي بيد ترتدي قفازا سيفه المرصع بالياقوت بينما كان الجنرال المنتصر يوليسيس جرانت يدخن أو على الأقل يمضغ سيجارا دون سيف أو شارات شرف وبسترة مفتوحة الأزرار.

انتهت الحرب وانتهت العبودية ومع سقوط العبودية سقطت الأسوار التي منعت التطور الكامل للصناعة في الولايات المتحدة وتوسع سوقها المحلية. مات في الحرب ستمائة ألف شاب وكان نصفهم سودا يرتدون اللباس الأزرق للكتائب الشمالية.

1865: واشنطن

لنكولن

جاء «إيب»[1] من «كينتكي» حيث استعمل والده الفأس والمطرقة وكان للكوخ جدران وسقف وأسرة من الأوراق الجافة. كانت فأسه تقطع كل يوم خشبا للنار وفي أحد الأيام انتزعت من الغابة الخشب اللازم لدفن والدة إيب تحت الثلج. كان إيب ولدا صغيرا حين غرزت المطرقة تلك المسامير الخشبية من أجل الأم التي لن تصنع أبدا مرة أخرى خبزا أبيض أيام السبت أو تطرف تينك العينين المحتارتين دائما، ثم أحضرت الفأس خشبا لصنع معدية كي يقدر الأب أن يأخذ أولاده في النهر إلى «إنديانا».

جاء من إنديانا. هناك كتب إيب حروفه الأولى بالفحم وأصبح أفضل ناشر للقضبان الخشبية في المقاطعة.

جاء من إلينيوي. في إلينيوي أحب امرأة اسمها «آن» وتزوج أخرى اسمها «ماري» تتحدث الفرنسية ونشرت موضة التنورة القرينولية في «سبرنغفيلد». قررت ماري أن «إيب» سيصبح رئيس الولايات المتحدة. وبينما كانت تنجب الذكور، كان يكتب الخطب وبعض القصائد في جزيرة ذهنه الكئيبة، تلك الجزيرة السحرية التي استحمت في سائل ضوئي.

جاء من الكابيتول[2] في واشنطن. وحين مد عنقه من النافذة، شاهد سوق العبيد التي كانت إصطبلا حجز فيه السود كالأحصنة.

جاء من البيت الأبيض. جاء إليه واعدا بالإصلاح الزراعي وحماية الصناعة معلنا أن أي شخص يجرد آخر من حريته غير جدير بأن يستمتع بها. دخل البيت الأبيض مقسما أنه سيحكم بطريقة يمتلك فيها صديقا داخل نفسه حين لا يملك أي صديق. حكم في زمن الحرب وأنجز وعوده في زمنها. كان يمكن أن يشاهد في الفجر منتعلا شبشبه، واقفا على باب البيت الأبيض لينتظر الصحيفة.

جاء دون عجلة. لم يكن أبراهام لنكولن مستعجلا أبدا. كان يسير كالبطة باسطا قدميه الضخمتين، شاخصا كبرج في الحشد الذي يهتف له. دخل المسرح وصعد الدرج ببطء إلى المقصورة الرئاسية. في المقصورة، فوق الأزهار والرايات، يشكل رأسه الناتئ العظام ذو العنق الطويل صورة جانبية في الظلال، وفي الظلال تشع أعذب عينين وأكثر الابتسامات كآبة في أميركا.

جاء من النصر والحلم. اليوم هو الجمعة الحزينة ومنذ خمسة أيام استسلم الجنرال «لي». في الليلة الماضية حلم لنكولن ببحر من الغموض وبسفينة غريبة أبحرت نحو شواطئ ضبابية.

---

[1] إيب اختصار لأبراهام.

[2] مبنى الكونغرس الأميركي.

جاء لنكولن من حياته كلها سائرا دون عجلة نحو ذلك الموعد في مقصورة المسرح الكوميدي في مدينة واشنطن.

الآن تنطلق نحوه الرصاصة التي تشق رأسه.

1865: واشنطن

تمجيد

كم شُنِق من السود لأنهم سرقوا زوجاً من البنطلونات أو نظروا في عيني امرأة بيضاء؟ ما أسماء العبيد الذين أحرقوا نيويورك منذ قرن؟ كم سار من البيض على منوال إليجا لوفجوي (Elijah Lovejoy) الذي أُلقيت مطبعته في النهر واغتيل في «إلينيوي» دون أن يشاهد أو يعاقب أحد من أجل ذلك؟ كان تاريخ إلغاء العبودية في الولايات المتحدة يمتلك أبطالاً لا يُحصون من البيض والسود مثل:

- جون رسورم (John Russwurm) وساموايل كورنيش (Samuel Cornish) اللذان أسّسا أول صحيفة للسود، وتيودور ويلد (Theodore Weld) الذي أسس أول مركز للتعليم العالي سمح بقبول النساء والسود.
- دانييل بين (Daniel Payne) الذي نجح في جعل مدرسته مفتوحة ست سنوات للسود في «تشارلستون»، وبرودينس كراندال (Prudence Crandal)، المدرسة الكويكرية في «كونيكتيكت» التي أهينت ورُجمت وسُجنت وفقدت تلاميذها البيض وأُحرقت مدرستها لأنها قبلت فتاة سوداء فيها.
- جابرييل بروسر (Gabriel Prosser) الذي نشد الحرية لأخوته في فيرجينيا وعثر على مشنقة لنفسه، وديفد ووكر (David Walker) الذي دفعت سلطات جورجيا مقابل رأسه عشرة آلاف دولار والذي تجول معلناً أن قتل إنسان يمزّق حياتك هو مثل تناول الماء إذا كنت ظمآناً والذي واصل ترديد ذلك إلى أن اختفى أو أُخفي.
- نات تيرنر (Nat Turner)، الذي رأى في السماء أثناء كسوف شمسي إشارة تقول إن الأخير سيصبح الأول وجن من العنف الإجرامي، وجون براون (John Brown) الذي امتلك لحية صياد وعينين ناريتين وهاجم مخزن أسلحة في فيرجينيا وشن من مبنى دائري لإيواء القطارات معركة ضد «المارينز» ثم رفض أن يدافع عنه محاميه على أساس أنه مجنون وسار بكرامة إلى منصة الإعدام.
- وليام لويد جاريسون (William Loyd Garrison)، العدو المتعصب ضد لصوص البشر، الذي عرض في شوارع «بوسطن» بحبل حول عنقه، وهنري جارنت (Henry Garnet) الذي وعظ في الكنيسة قائلا إن العبد المستسلم يذنب ضد الله، وهنري وارد بيتشر (Henry Ward Beecher) كاهن من بروكلين قال إن البندقية مفيدة أكثر من الإنجيل في بعض الحالات وهكذا سميت الأسلحة التي أرسلت إلى عبيد الجنوب أناجيل بيتشر.

- هارييت بيتشر ستاو (Harriet Beecher Stowe)، التي ربحت روايتها كوخ العم توم كثيرا من البيض إلى جانب القضية، وفرانسيس هاربر (Frances Harper) الشاعر الذي عثر على الكلمات المناسبة ليشتم السلطة والمال، وسولومون نورثرب (Solomon Northrup)، العبد من لويزيانا الذي يعتبر شاهدا على الحياة في مستعمرات زراعة القطن من صوت البوق قبل شروق الشمس إلى منتصف الليل.
- فريدريك دوجلاس (Frederick Douglass)، العبد الهارب من ميريلاند الذي حول في نيويورك يوم الاستقلال إلى إدانة وأعلن أن الحرية والمساواة تبدوان كمحاكاة تهكمية ساخرة.
- هارييت تبمان (Harriet Tubman)، الفلاح الأمي الذي نظم هرب أكثر من ثلاثمائة عبد إلى كندا عن طريق «بول ستار».

1865: بوينس آيرس

خزي ثلاثي

بينما كان التاريخ في أميركا الشمالية يربح حربا، نشبت حرب سيخسرها التاريخ في أميركا الجنوبية، ذلك أن بوينس آيرس وريو دي جانيرو ومونتيفيديو، المرافئ الثلاثة التي سحقت خوسيه أرتيغاس منذ نصف قرن، قررت أن تدمر باراغوي.

في ظل الديكتاتوريات المتعاقبة لـ«غاسبار رودريغز دي فرانسيا» وكارلوس أنطونيو لوبيث وابنه فرانسيسكو سولانو، الذين تمتعوا بسلطة مطلقة، أصبحت باراغوي مثالا سيئا قد يسبب عدوى خطيرة لجيرانها. لم يكن أصحاب الأراضي يحكمون في باراغوي ولم يضارب التجار ولم يختنق المرابون. ولأنها كانت محاصرة من الخارج نمت البلاد نحو الداخل وواصلت نموها دون أن تطيع السوق العالمية أو رأس المال الأجنبي. وبينما كان الآخرون يتدلون على مشانق ديونهم، لم تكن باراغوي مدينة بـ«سنتافو واحد» وكانت تسير على رجليها الخاصتين.

كان السفير البريطاني في الأرجنتين «إدوارد ثورنتون» هو الكاهن الأعلى لطقس طرد الأرواح الشريرة. ستطرد الأرجنتين والبرازيل وأوروغوي الشيطان من خلال غرز حراب في تلك البطون المتعجرفة.

1865: بوينس آيرس

الحلف المنسوج من لعاب العنكبوت

كتاج غرائبي على شجرة صغيرة، كان رأس تشاتشو بينالوكا المشكول على رأس رمح، كعرف شعر يربطه شريط، يزين مركز الساحة. كان تشاتشو وحصانه عضلة واحدة. أسروه وهو بلا حصان وغدرا قطعوا رأسه. *ولكي يبقوا «الرعاع» صامتين*، عرضوا رأس راعي البقر المحارب الذي من سهل ريوخا (Rioja). هنأ دومينغو فاوستينو سارمينتو الجلادين.

أطالت الحرب ضد باراغوي حربا أخرى استمرت نصف قـرن، وهـي حـرب بوينـس آيـرس، المرفأ المصاص للدماء، ضد الأقاليم. تعاون فينانسيو فلوريس (Venancio Flores) ابن أوروغوي مـع ميتر (Mitre) وسارمينتو في إبادةرعاة البقر المتمردين وحصل علـى رئاسـة أوروغـوي كمكافـأة لـه. فرضت السفن والأسلحة الأرجنتينية فلوريس على الحكومة. افتتح غـزو أوروغـوي بقصـف مدينـة «بيساندو» غير المحمية. قاومت بيساندو شهرا إلى أن أعدم ليندرو فومـيز، رئيـس الدفـاع، وسـط الأنقاض الملتهبة.

هكذا أصبح الحلف المزدوج ثلاثيا. تولت حكومات الأرجنتـين والـبرازيل وأوروغـوي بمباركـة وقروض إنكليزية علاج باراغوي. وقعت إتفاقية قالت إنها تشن الحرب باسم السلام. توجب على باراغوي أن تدفع كلفة إبادتها وسيزودها المنتصرون بحكومة مناسبة.

وباسم احترام سيادة أرض باراغوي، ضمنت الاتفاقية ثلث أرضها للبرازيل ومنحت الأرجنتين كل مسيونيس (Misiones) و«تشـاكو» (Chaco) الفسـيحة. شـنت الحـرب أيضـا باسـم الحريـة. وعدت البرازيل، التي تملك مليونـي عبـد، أن تمنـح الحريـة لـ«بـاراغوي» الـتي لا تملـك عبـدا واحدا.

1865: سان خوسه

أركيثا (Urquiza)

يقولون إنه يقبل يد امرأة فيحبلها. يجمع الفدادين والأطفـال. كـان يمتلـك مـن الأطفـال مائـة وخمسين هذا دون أن نحصي المشتبه بـهم، ومـن الأراضـي، مـن يعـرف؟ يعبـد المرايـا والأوسـمة البرازيلية والبورسلان الفرنسي ورنين النقود الفضية.

خوستو خوسيه أركيثا (Justo José Urquiza)، الرئيـس الموقـر للسـاحل الأرجنتيـني، الرجـل الذي هزم منذ سنوات خوان مانويل دي روزاس، يمتلك شـكوكا حـول حـرب بـاراغوي. حسـمها ببيع ثلاثة آلاف حصان من حظائره الكبيرة إلى الجيش البرازيلي بسعر ممتاز ووقـع عقـدا لـتزويد جيوش الحلفاء بلحم بقر معلب. بعد أن تحرر من شكوكه، حكم بالموت على كل مـن رفـض قتـل الباراغويين.

1866: كوروبايتـي: (Curupayti)

ميتر (Mitre)

تندفع في المياه الشظايا التي كانت سفنا. ورغم أن أسطول باراغوي قد دمر، لم يستطع أسطول الحلفاء أن يواصل غزوه باتجاه أعالي النهر، ذلك أن مدافع كوروبايتي وهيوميتا أوقفته وعـام بـين الحصنين صف من الألغام امتد من الشاطئ إلى الشاطئ.

بقيادة رئيس الأرجنتين،القائد العام للحلف الثلاثي، اقتحم الجنود متاريس كوروبايتي بالحراب. أمر البوق موجات متعاقبة من الجنود للقيام بالهجوم. وصلت قلة إلى الخندق، لكن لم يصل أحد إلى السياج. كان الباراغوييون يتمرنون على رمي عدو يلح على إظهار نفسه في البلاد المفتوحة في وضح النهار. كان زئير المدافع ودمدمة الطبول يتبع بقعقعة نيران البنادق. كان حصن الباراغويين ينفث ألسنة نار وحين انجلى الدخان كضباب بطيء استلقى آلاف الموتى في المستنقعات بعد أن اصطيدوا كالأرانب. من مسافة معقولة كان بارتولومي ميتر الذي يرتدي معطفا واقيا أسود ويعتمر قبعة تشامبيركو يتأمل نتائج عبقريته العسكرية وهو يحمل منظارا في يده.
كذب بإخلاص مثير للإعجاب، واعدا القوات الغازية أنها ستصل إلى أسنسيون في غضون ثلاثة أشهر.

1866: كوروبايتي

فرشاة الحرب

«كانديدو لوبيث»، أحد جنود «ميتر»، سيرسم كارثة «كوروبايتي» والمعارك الأولى التي شارك فيها وأيضا الحياة اليومية في المعسكرات. سيرسم بيده اليسرى لأن قنبلة قطعت يده اليمنى في كوروبايتي.
سيرسم دون أن يحاكي أحدا ودون أن يحاكيه أحد، وسيبيع أثناء الأسبوع الأحذية في حانوت في بوينس آيرس وفي أيام الأحد سيصنع الصور التي تقول: «*كانت الحرب هكذا*». ستصبح اليد اليسرى الغبية حكيمة، من خلال حب الذاكرة، لكن لن يخصه أي فنان بأدنى اهتمام ولن يعامله أي ناقد بجدية ولن يشتري أحد ذكرياته عن ضباط وجنود الصف. «*أنا مؤرخ بالفرشاة*»
رسم كانديدو لوبيث،المنعزل، الحشود ولم يضع في لوحاته قادمات لسيوف براقة وأحصنة مندفعة أو أبطالا يلفظون الكلمات الأخيرة وهم يحتضرون واضعين أيديهم على صدور نازفة. ولا يضمن قصصا عن عظمة بصدر مكشوف. سيمر من خلال عينيه الطفليتين جنود صغار لا يحصون ودوارة من الأحصنة تلعب في تشكيل منظم لعبة الحرب المريعة.

1867: سهول كاتاماركا (Catamarca)

فيليبي فاريلا (Felipe Varellla)

تمرد رجال تلال على صهوات أحصنتهم في خمسة مناطق أرجنتينية. تحدت السكين القاطعة، المثبتة إلى رمح، مدفعية كتائب الجبهة ناشدة قتالا بالسلاح الأبيض. وتعالت من العاصفة الغبارية لتلك المواجهات صرخة: *تعيش باراغوي*!

جاء فيليبي فاريلا من «الآنديز» وحرض فلاحي سهول كاتاماركا ضد بوينس آيرس، الميناء الذي يستغل الأرجنتين وينفي أميركا. شجب إفلاس الأمة التي تتجرجر في ديون ضخمة من أجل أن تدمر أمة شقيقة. حمل أتباعه الجبليون في إلى المعركة كلمة السر في رؤوسهم وهي *الوحدة الأميركية* وحملوا في قلوبهم غضبا قديما: *إن الإقليمي شحاذ بدون بلاد*.

فاريلا، راعي البقر الطويل والنحيل المؤلف فقط من عظمي خدين وذقن، الذي ولد وتربى على ظهر حصان، هو الصوت الخشن للفقراء في نهاية قدرتهم على التحمل. نقل المتطوعون الإقليميون مغلولين إلى مستنقعات باراغوي، سجنوا في الزرائب وأطلقت عليهم النار حين تمردوا أو فروا.

1867: **سهول لاريوخا** (La Rioja)

التعذيب

أخذ الكولونيل بابلو إراتابل شهادة من رجال سهول لا ريوخا المتمردين. أخذ شهادة بعد أن وضعهم على المشهرة أو أجبرهم على السير بأقدام مسلوخة أو شق رقابهم تدريجيا بسكين مثلمة.

كان ميناء بوينس آيرس يستخدم أدوات إقناع متنوعة ضد الأقاليم المتمردة. كانت إحدى الأدوات الأكثر فعالية تدعى المشهرة الكولومبية. وكان السجين يقيد إلى المشهرة ويربط بقطع جلدية رطبة بين بندقيتين وحين تجف القطع يطق عموده الفقري ويتفتت.

1867: **لا باز**

حول الدبلوماسية، علم العلاقات الدولية

وصل الرئيس ميلغاريجو راكبا على هولوفيرنيس، حصانه في الحرب والقيلولة، إلى كاتدرائية «لا باز». أصغى إلى القداس الوقور جالسا تحت ظلة على كرسي مخملي. كان يرتدي بزة جنرال عسكري تشيلي وتتوهج على صدره شريطة النظام الإمبراطوري البرازيلي.

بعد كثير من المجيء والذهاب والقتل، تعلم «ميلغاريجو» ألا يثق حتى بقميصه وقيل إنه كان ينتزعه أحيانا ويثقبه بالرصاص.

«*يقود القائد ويده على الزناد*».

كان هناك كائنان في العالم، اثنان فحسب، لم ينظر إليهما الجنرال الحديدي شزرا: حصانه هولوفيرنيس وخوانا سانشيث الجميلة. رفع السفير التشيلي كأسه وشرب مع البقية نخب هولوفيرنيس، حين جاء الحصان الأسود، إلى المائدة الرئاسية، ليشرب البيرة بين الوزراء والأساقفة والجنرالات. غطى السفير البرازيلي جسد خوانا سانشيث بعقود ومجوهرات وأساور لم تلمح امرأة مليغاريجو مثلها حتى في أكثر أحلامها وحشية.

كان ميلغاريجو الذي تزين صدره الأوسمة البرازيلية قد اقتطع للبرازيل خمسة وستين كيلومترا مربعا من غابة أمازونيا البوليفية. وبعد أن تحول إلى جنرال للجيش التشيلي قدم ميلغاريجو لتشيلي نصف صحراء «أتاكاما» الساحلية الغنية جدا بالنترات. هناك كان الرأسماليون البريطانيون والتشيليون يستغلون السماد الذي كانت تشتهيه جدا أراضي أوروبا المستنفدة. وبعد أن اقتطعت صحراء «أتاكاما» فقدت بوليفيا منفذها إلى البحر.

نقوش
على صخرة في صحراء «أتاكاما»

أموت من أجلك يا أنطونيا.
تعرفين من
قاضي تشانرسيلو (Chanarcillo) يسرق.
ادفع لي أونصاتي الثلاث يا رامون.
المدير جلف.
يقول الدون ت. ب إنه ليس خلاسيا.

1867: بوغوتا

رواية تدعى «ماريا»

كانت السيدات يجلسن في أراجيحهن الشبكية والجدائل ترفرف خلف أعناقهن العاجية، يهزهن رجال يلبسون كالموتى بوجوه كالفراريج المسلوقة. كانت قافلة من السود الذين يحملون سلالا على رؤوسهم تمر صامتة في الجوار وكأنها تعتذر عن وجودها وكونها مصدر إزعاج. وفي حديقة المستعمرة الزراعية حيث تنتشر رائحة البن وشذى الغاردينيا، كان جورج إسحق يبلل قلمه بالدموع.

بكت كولومبيا كلها. لم يصل «إيفرن» في الوقت المحدد. بينما كان يحرث البحار، لفظت ابنة عمه المصابة بمرض وراثي لا يعالج، أنفاسها الأخيرة، وصعدت إلى الفردوس عذراء. عند القبر، ضغط على صدره ميراث حبه. تركت له ماريا منديلا (طرزته وبللته بالدموع)، بضعة تويجات زنبق بيضاء وذابلة مثلها، وخاتما انزلق من اليد المتخشبة التي كانت وردة قشتالة الرشيقة، وخصلة من شعرها الطويل في علبة استطاعت شفتاها الزنبقيتان أن تقبلها بينما كان الموت يجمدهما.

1867: **كيريتارو** (Querétaro)

ماكسيمليان

طرد جيش خواريز والعصابات المكسيكية المؤلفة من ألف شخص، الفرنسيين. سقط الإمبراطور ماكسيمليان في الوحل وهو يصيح: *تعيش المكسيك*!

في النهاية، سحب نابليون الثالث جيشه وكره البابا ماكسيمليان ولقّبه المحافظون بـ «*المفقر*». كان نابليون قد أمره أن يدير المستعمرة الفرنسية الجديدة لكن ماكسيمليان لم يمتثل لأمره. توقّع البابا أن يستعيد ثروته وظن المحافظون أنه سيطهر المكسيك من الشيطان الليبرالي، لكن ماكسيمليان، أصدر قوانين كقوانين «خواريز» بينما كان يحاربه.

وصلت عربة سوداء إلى «كيريتارو» تحت المطر. خرج الرئيس خواريز، قاهر المتطفلين الغزاة، إلى تابوت مفتوح بلا أزهار حيث يستلقي الأمير ذو العينين الزرقاوين الذاويتين الذي كان يحب أن يطوف في «الألاميدا» لابساً كراعي بقر مكسيكي معتمراً قبعة واسعة منقّطة بنثار لماع.

1867: **باريس**

أن تكون أو أن تنسخ، هذه هي المعادلة

جاءت إلى معرض باريس العالمي لوحات زيتية على القماش أرسلت من إكوادور وكانت جميعها نسخاً طبق الأصل عن لوحات الفنانين الأوروبيين الأكثر شهرة. مدح الكاتالوج الفنانين الإكوادوريين، *الذين، رغم أنهم لا يمتلكون أصالة عظيمة، فإنهم على الأقل، يمتلكون موهبة إعادة إنتاج روائع المدارس الإيطالية والأسبانية والفرنسية والفلمنكية بإخلاص ملحوظ*.

في غضون ذلك، ازدهر فنٌّ آخر في الأسواق الهندية وعلى حواف إكوادور الفقيرة. كان العمل المُحْتَقَر لأيد قادرة على خلق الجمال من الصلصال والخشب والقش وريش الطيور وأصداف البحر وفتات الخبز. دعي هذا الفن صنعة وكأنه يعتذر.

الأكاديميون لا يمارسونه، لا يمارسه إلا الفقراء الذين يأكلون قلوب البراغيث أو كروش البعوض.

أغنية للفقراء في إكوادور

«أجائع أنت أيها البط؟»
«نعم».

«كل الألم الذي في أمعائك».

«اطعن بعوضة»

«مص الدم من الشقوق

واترك الكرش لتستمتع به أو

من أجل جراح البرد في الغد.»

1869: مكسيكو سيتي

خواريز

نحت وجه الهندي المكسيكي الذي هزم بابا روما ونابليون الثالث من حجر «أواهاكا». دون ابتسامة أو كلام ودائما في معطف وياقة مرتفعة، دائما مرتديا اللباس الأسود، بينيتو خواريز صخرة محاطة بخورس من الأطباء الذين يدورون حوله وهم يتحدثون ويستخدمون نبرة خطابية، هؤلاء المتعلمون المتحذلقون ذوو المناقير الذهبية والريش المطلي بالذهب.

كانت المكسيك تمتلك كهنة أكثر مما تمتلك مدرسين وكانت الكنيسة تملك نصف كل شيء، حين جاء خواريز إلى السلطة. ووصف الليبراليون جرعتهم لبلاد مصابة بمرض الجهل والتخلف. كان علاج التحديث يدعو إلى السلام والنظام وكان من الضروري التخلص من الحروب التي تقتل البشر أكثر من الملاريا أو السل الرئوي، لكن طاعون الحرب ضغط على خواريز دون رحمة.

أولا، الحرب ضد الغزاة الفرنسيين، ثم الحرب ضد أبطال الحرب العسكريين الذين رفضوا الاستقالة، وضد الهنود الذين رفضوا أن يفقدوا أراضيهم المشاعية.

أعلن المكسيكيون الليبراليون إيمانا أعمى بحق الانتخاب الكوني وحرية التعبير رغم أن التصويت هو امتياز قلة والقلة تعبر عن نفسها. آمنوا بالخلاص عن طريق التربية، رغم أن المدارس القليلة هي جميعها في المدن، لأن الليبراليين، يعيشون بشكل أفضل مع ربات الإلهام بدلا من الهنود. وبينما كانت العقارات الكبيرة تزداد كبرا، حلموا بمزارعين رواد يسمدون أراضي غير محروثة وحلموا بسكك حديدية سحرية وبدخان السيارات والمداخن، بأفكار وبشر ورأسمال سيحضر التقدم من أوروبا.

اقتنع خوارير ابن هنود الزابوتيك (Zapotec) أنه إذا نسخت المكسيك القوانين الأميركية الشمالية فإنها ستنمو كالولايات المتحدة، وإذا استهلكت منتجات إنكليزية فإنها ستصبح أمة صناعية مثل إنكلترة. واعتقد هازم فرنسا أن المكسيك إذا استوردت أفكارا فرنسية، ستصبح أمة واسعة الاطلاع.

1869: سان كريستوبال دي لاس كاساس

لا الأرض ولا الزمن أبكمان

تهتز الأرض بسبب الحديث الذي يدور بين الموتى. تطنُّ المقبرة كساحة في يوم تسوّق. كان هنود المايا الذين سقطوا في تمردات شياباس القديمة يحتفلون بالأنباء الأخيرة. لقد قاتلوا هنا بالرمح والفأس منذ ذلك اليوم البعيد حين انقض المغتصب الأول، ابن المرأة والكلب، على الأراضي المشاعية. تحدث الموتى بسعادة بين أنفسهم وهنأوا، من خلال الأحلام، الأحياء وأخبروهم عن الحقائق التي لا تعرفها الأذن.

تمرد الهنود في هذا الجوار مرة أخرى. حطم الهنود، عبيد الديون، المزارع وأحرقوا السجون ودافعوا عن آخر أراضيهم المشاعية التي يعملون فيها كجماعة رغم حكومة «خواريز».

كانت آلهة الجبال أيضاً تحتفل، إنها الآلهة التي تنحرف عن العاصفة حين تحمل المرض أو الجشع.

1869: مكسيكو سيتي

خواريز الهنود

قُتل خوليو لوبيث منذ عام *لأنه متمرد وقاطع طريق واشتراكي متعصّب*. أعلن خوليو لوبيث على رأس هنود منطقة تشالكو (Chalco) *حرباً على الأغنياء* وتمرّد لكي يستعيد الأراضي المسروقة.

ألبسوا الأسرى الهنود في تشالكو بزّات جنود وأجبروهم على القتال ضد الهنود المتمردين في «يوكاتان». أولئك الذين يُقمعون في كل حرب، أصبحوا قامعين في الحرب التالية، هُزموا وصُنِّعوا ليقتلوا المتمردين وهكذا واصلت حكومة خواريز إرسال القوات ضد هنود المايا في يوكاتان وشياباس، ضد هنود الكوراس (Coras) في نيارت (Nayarit) والتاراسكانز (Tarascans) في ميتشواكان (Michoacan) والياكويز (Yaquis) في سونورا (Sonora) والأباتشي (Apaches) في الشمال.

لكي يستعيدوا أراضيهم المشاعية، حاصر الهنود المزارع: سقط الموتى الأوائل وأصبح الهواء مجرد دخان مدفعية. كان دستور خواريز ينص على تحويل الهنود إلى مالكين صغار وعمال أحرار. حظرت قوانين «خواريز» المشهِّرة والأغلال، العبودية مقابل الدين وأجور الجوع، بينما كانت في الواقع تسيطر على الأراضي، التي لا يزال الهنود يمتلكونها جماعياً، وتحوِّلهم إلى عبيد في العِزَب الكبيرة أو شحاذين في المدن.

ولد بينيتو خواريز في الجبال، بين الصخور التي تشبهه، على شواطئ بحيرة جيلاتو (Guelatao). تعلّم أن يسمّي العالم في إحدى لغات المكسيك الهندية المائة. فيما بعد، أصبح رجل أدب تحت رعاية رجل تقي.

1869: لندن

لافارغ (Lafargue)

حين بدأ بول لافارغ ضَرْبَ حصاره على لورا ماركس (Laura Marx) كـان مؤسس الاشتراكية العلمية ينهي تصحيح الجزء الأول من *رأس المال*. تلقى كارل ماركس وجهة نظر معتمة عن هجمات الكوبي المتحمّس وطلب منه أن يكسب ابنته ذات العينين الخضراوين *قواعد سلوك إنكليزية أكثر رصانة*. طلب منه أيضاً ضمانات اقتصادية. بعد أن طرد من ألمانيا وفرنسا وبلجيكا، مرّ ماركس في أوقات عصيبة في لندن منهكاً من الديون وكان أحياناً لا يمتلك بنساً واحداً لشراء جريدة.

لكنه لا يستطيع أن يخيف لافارغ وكان دائماً يعرف أنه لا يقدر على ذلك. كان لافارغ شاباً حين بدأ هو وماركس يتقاتلان ويحبان بعضهما. وهكذا ولد حفيد ماركس الأول من المهجّن الكوبي، ابن حفيد خلاسية وهندي من «جامايكا».

1869: أكوستا نو (Acosta)

باراغوي تسقط وتدوسها حوافر الأحصنة

وساقطةً تابعت القتال. صُنعت آخر المدافع من أجراس الكنائس وأطلقت الأحجار والرمل بينما كانت جيوش التحالف الثلاثي تضغط باتجاه الشمال. نزع الجرحى أضمدتهم لأن النزف حتى الموت أفضل من الخدمة في الجيش أو المسير نحو مستعمرات البن البرازيلية بوشم العبودية.

لم تنج حتى القبور في الهجوم على «أسنسيون». في بيريبيباي (Piribebuy)، اكتسح الغزاة الخنادق التي كانت تدافع عنها النساء والمبتورون والعجائز وأحرقوا المستشفى المليء بالجرحى. قاومت الهجوم في «أكوستا نو» كتائب من الأطفال المتنكرين بلحى من الصوف أو العشب.

لكن الذبح استمر والذين لم يقتلهم الرصاص، قتلهم الطاعون. وكان كل موت يؤذي، كل موت يبدو كالأخير، لكنه الأول.

1870: جبل كورا (Mount Cora)

سولانو لوبيث

هذه قافلة من الموتى الذين يتنفّسون. سار آخر جنود باراغوي خلف المارشال فرانسيسكو سولانو لوبيث. لم تُشاهد أبواط أو عدّة خيول لأنها أُكلت، لكن لم تشاهد أيضاً جراح أو أسمال:

ذلك أن هؤلاء الجنود هم من الوحل والعظام، يتجولون في الغابات أقنعةَ وحلٍ، دروعَ وحلٍ، لحمَ صلصال طبخته الشمس من طين المستنقعات وغبار الصحارى الأحمر.

لا يستسلم المارشال لوبيث: مهلوساً، يشهر سيفه ويرأس هذا المسير الأخير إلى لا مكان. يكتشف مؤامرات أو يتخيلها، ويتهمة الخيانة أو الضعف أعدم شقيقه وجميع أنسبائه بالإضافة إلى أسقف وكاهن وجنرال. وبسبب عدم توفر البارود نُفِّذ الإعدام بالرمح. يموت كثيرون بأمر من لوبيث وكثيرون من الإعياء ويتركون في الخلف على الطريق. تستعيد الأرض ما يخصّها وتحدّد العظام الأثر للمطارد.

يغلق جيش ضخم الدائرة في جبل كورا ويسقط لوبيث على ضفاف نهر «أكيدابان». يجرحونه برمح وينهون حياته بطلقة واحدة لأنه كان ما يزال يعوي.

1870: جبل كورا

إليسا لينش (Elisa Lynch)

محاطة بالغزاة، حفرت إليسا بأظافرها قبراً لـ «سولانو لوبيث». توقفت الأبواق عن العزف ولم يعد يُسمع صفير الرصاص أو انفجار القنابل. غطى الذباب وجه المارشال وهاجم جسده المجروح، لكن «إليسا» لم تشاهد الضباب الأبيض. بينما كانت يداها تحفران الأرض، كانت تلعن هذا اليوم المشؤوم. وتردّدت الشمس في الأفق لأن النهار لم يجرؤ على الانسحاب قبل أن تنهي لعنها له.

تلك المرأة الإيرلندية، ذات الشعر الذهبي، التي قاتلت على رأس صفوف من النسوة المسلحات بالمعازق والعصي، كانت مستشارة لوبيث الأكثر عناداً. البارحة، بعد ستة عشر عاماً وأربعة أولاد، قال لها، للمرة الأولى، إنه يحبها.

جواراني (Guarani)

من باراغوي المدمرة بقيت اللغة

تمتلك الجواراني قوى غامضة، إنها لغة الهنود، لغة المغزوين التي امتلكها الغزاة. رغم الحظر والاحتقار، ظلت الجواراني اللغة الوطنية لهذه الأرض المدمرة وستبقى هكذا رغم أن القانون يريد شيئاً آخر. هنا ستظل البعوضة تُدعى «ظفر الشيطان» واليعسوب «الحصان الصغير للشيطان» والنجوم «نيران القمر»، والغسق «فم الليل».

كان الجنود الباراغوييون ينطقون كلمات السر ويثيرون الهمم بالجواراني وبها كانوا يغنون. والآن يصمت الموتى بالجواراني.

1870: ريو دي جانيرو

يتكاثر ألف شمعدان

يتكاثر ألف شمعدان في المرآة وترسم أحذية حريرية دوائر رقصة الفالس على الأرضية اللماعة لقصر البارون «دي إتماراتي». يمر الزوجان الإمبراطوريان خلال سحب من الضيوف من صالون إلى آخر وسط تقبيل للأيدي لا نهائي، وبينما هما ذاهبان قاطعت معزوفات أبواق وابتهاجات رعدية الحفلة الراقصة. كان السادة يبدون كطيور البطريق والسيدات كالفراشات وكن محصورات بشدة في تنانيرهن القرينولية وشرائطهن المربوطة، وكانت أكثر من واحدة ترتدي حمالات صدر أوروبية استوردتها المدموزيل أرتيميس، تتجعّد في ترافق تام مع تنفسهن. بشمبانيا وموسيقى على الموضة الفرنسية، احتفلت البرازيل بتدمير باراغوي.

كانت العربات التي تندفع إلى الحفل تعبر ممرات تمر فيها قوافل من السود الذين يحملون آنية وبراميل آسنة. كانت سحب الذباب تطارد الموكب إلى شواطئ ريو دي جانيرو. في كل مساء، كان العبيد يرمون براز الأسياد في مياه الخليج الجميل.

1870: ريو دي جانيرو

موا (Maua)

بينما كانت تحتفل بتدمير باراغوي، كانت البلدان الغازية تتعارك حول من سيحصل على اللقمة الأكبر من المغزو.

راقب أحدهم في ريو دي جانيرو الاحتفالات المرحة بحاجب متجعّد وهزّ كتفيه أثناء حديث عن تخوم جديدة. لم يكن إيرينيو إيف نجيلستا دي سوثا، بارون موا بفضل من الإمبراطور بدرو الثاني، يرغب أبداً في تلك الحرب. امتلكته من البداية هواجس بأنها ستكون طويلة ودموية وأن من سيربحها سيخسرها. غارٌ لإمبراطورية البرازيل؟ سلام أضاءته العظمة؟ الإمبراطورية تزدهر وكأن الحرب لم تنشب أبداً؟ كان البارون دي موا، الشريك البرازيلي لآل روتشيلد اللندنيين، يعرف أن المبيدين مدينين للبنوك البريطانية ضعف ما كانوا مدينين به سابقاً. يعرف موا، مالك المستعمرات الزراعية الكبيرة، أن عزب البن خسرت آلافاً من العبيد السود في ساحة المعركة. موا، المعتاد على تمويل ميزانيات البلدان المنتصرة وإصدار عملتها الورقية، يعرف أيضا أنهم غلفوا أنفسهم بحوالات لا قيمة لها. وربما يعرف ـ من يدري؟ ـ أن هذه الحرب التي انتهت لتوها هي بداية دماره الشخصي، وأن الدائنين سوف يصادرون حتى نظارته الذهبية، وأنه، في أعوامه الأخيرة، سيصبح ثانية ذلك الولد الوحيد، الذي تركه بحار ما، على رصيف «ريو» البحري.

1870: فاسوراس (Vassouras)

بارونات البن

ينتج وادي نهر باريبا (Pariba) الجنوبي معظم البن الذي يستهلكه العالم وينتج أيضاً أكبر عدد من الفيكونتات والبارونات والمركيزات في كل قدم مربع واحدة.

كان الإمبراطور بدرو الثاني يكافئ وهو على عرش البرازيل مستعبدي البن الذين قدموا كثيراً من المال إلى الحرب ضد باراغوي بألقاب نبالة جديدة.

لم يكن هناك مستعمرة تملك أقل من مائة عبد. حين يكون الليل لا يزال مخيماً، وبتوقيت يعلنه الجرس الحديدي، يغتسل الهنود في الحوض ويشكرون بصوت مرتفع سيدنا يسوع ثم يسيرون ليعملوا في الجبال بإلهام من السوط.

كان أبناء الأسياد يجيئون إلى العالم من خلال قابلات سوداوات وترضعهم مربيات سوداوات جميلات. كانت المربيات السوداوات تعلمهم الأغاني والأساطير وتذوق الطعام. كانوا يتعلمون اللعب مع الأطفال السود ويكتشفون الحب مع الفتيات السوداوات، لكنهم كانوا يعرفون من البداية من هو المالك ومن هو الملكية. كان الزواج من ابن عم أو ابنة أخت يدعّم وحدة العائلة ويحافظ على نبالة النسب.

1870: سان باولو

نابوكو (Nabuco)

كان الجميع يلتهمون العبد الأسود. ليس بارونات البن ولوردات السكر فحسب، بل كل برازيلي حر مهما كان فقيراً، يملك على الأقل عبداً يعمل له.

شجب جواكيم نابوكو ذلك المرض المتأصل بخطب لاذعة. أعلن نابوكو، سليل مالكي الأراضي والسياسيين المحترفين، أن البرازيل لن تدخل العالم الحديث طالما أن الأرض والسياسة حكرٌ على حفنة من الأسر وطالما أن البلاد كلها تستريح على ظهور العبيد.

ترأس الشاعر خوسيه بونيفاسيو جماعة من دعاة إبطال الرق من جامعة ساو باولو. عمل معه، بالإضافة إلى نابوكو خطباء آخرون لامعون مثل كاستر ألفيس، روي باربوسا ولويس غاما الذي باعه والده في باهيا لكنه نجح في النجاة من العبودية من أجل أن يشجبها.

1870: بوينس آيرس

الحيّ الشمالي

نفخ خيال يرتدي بلوزة زرقاء في البوق الذي حذّر من الخطر. قعقعت الحوافر، رنّت الأجراس وأجفل العابرون: جاء الترام الجديد مندفعاً بسرعة جنونية بلغت ستة أميال في الساعة. وعدت صحيفة في بوينس آيرس أن تحجز عموداً يومياً للضحايا.

سبب الترام ميتة أو اثنتين لكي يتجنب خيبة الأمل، لكـن، بعـد وهلـة قصـيرة، لم يتحـدث أحد عن عنفه الإجرامي؛ ذلك أن الحمـى الصفـراء غـزت بوينـس آيـرس وكـانت تقتـل ثلاثمائـة شخص في اليوم.

ولأنه لم يكن ثمة مكان لدفن متسولين كثيرين، ولدت مقبرة تشاكاريتا من هـذا الطـاعون مثـل الحي الشمالي، لأن الأغنياء هربوا من معقلهم التقليدي. لقد قررت الفراسخ العشرة التي في جنـوب ساحة دي مايو دائماً قدر الأرجنتين وازدهرت على حسابها. عاش هنا، حتى الآن، السادة الذين يصنعون السياسة والمشاريع في مقـهى «دي بـاريس» وأيضـاً السـيدات اللواتـي يتسوّقن في مخـزن لندن. لكن الحمى الصفراء تطاردهم الآن، هذه الحمى التي تتغذى بقسوة على المقاطعـة المنخفضـة المحاطة بالمزابل والمستنقعات، مهد البعوض، حساء الطواعين، المنازل التي أفرغها سفر الخـروج وأصبحت مساكن للفقراء. وحيـث كـانت تعيـش أسـرة واحـدة، كـان يحتشـد مئتـا شـخص قـدر استطاعتهم.

نمت تلك المدينة المبعثرة على ضفتي النهر بشكل فاحش. منذ قرنين كانت بوينس آيرس قرية حزينة ضائعة، أما اليوم، يعيش فيها مائـة وثمـانون ألـف شـخص، نصفـهم أجـانب: بنـاؤون، غاسلات، صانعو أحذية، عمال مياومون، طبـاخون، حـرّاس ليليـون، نجـارون، وقـادمون جـدد آخرون دفعتهم رياح التجارة من البحر الأبيض المتوسط.

1870: باريس

لوتريامون

في سن الرابعة والعشرين

كان مصاباً بالحبسة ولم يتعب من أي شيء إطلاقـاً. أمضـى ليـالي مـع البيـانو غـازلاً الألحـان والكلمات وفي الفجر كانت عيناه محمرّتان بشكل يثير الشفقة.

لقـد مـات إيزيـدور دوكـاس، الكونـت الخيـالي لوتريـامون. ولـد الطفـل ورُبـي أثنـــاء حـــرب «مونتيفيديو»، ذلك الطفل الذي طرح أسئلة عن النهر ـ البحر، مات في فندق في باريس. لم يجـرؤ ناشره على إرسال أناشيده إلى المكتبات.

كتب لوتريامون ابتهالات للمسترذل وللُوطي وغنـى لضـوء المواخـير الأحمـر وللحشـرات الـتي تفضّل الدم على الخمرة. ووبّخ الإلـه السـكران الـذي خلقنـا وأعلـن أنـه مـن الأفضـل أن نولـد مـن رحم سمكـة قـرش. لقـد قـذف نفسـه في الهاويـة فتاتـاً بشـرياً قـادراً علـى الجمـال والجنـون وفي طريقه إلى الأسفل اكتشف صـوراً وحشـية وكلمـات مدهشـة. إن كـل صفحـة كتبـها تصـرخ حـين تمزقها.

1871: ليما

خوانا سانشيث (Juana Sanchez)

سقط «ميلغاريجو» المدمِّر. رجمه الهنود وطردوه من بوليفيا وهو يعاني الآن من المنفى في بيت حقير في أحياء ليما الفقيرة. كان كل ما تُرك له من قوة هو معطفه المصطبغ بالدم. قتل الهنود حصانه «هولوفيرنيس» وقطعوا أذنيه.

أمضى لياليه وهو يعوي أمام منزل أسرة «سانشيث». جعل صوت ميلغاريجو الحزين المدوي ليما ترتجف. لكن خوانا لم تفتح الباب.

كانت خوانا في الثامنة عشرة حين وصلت إلى القصر. أغلق ميلغاريجو على نفسه وعليها ثلاثة أيام وثلاث ليال. سمع حرّاسه صرخات وضربات ونخيراً وأنيناً، لكنهم لم يسمعوا أبداً كلمة واحدة. في اليوم الرابع ظهر ميلغاريجو.

«*أحبها قدر ما أحب جيشي*».

تحولت مائدة المأدبة إلى مذبح. في المركز، كانت خوانا العارية تحكم محاطة بالشموع. كان الوزراء والأساقفة والجنرالات يمجدون جمالها راكعين على ركبهم حين يرفع «ميلغاريجو» كأساً من الكونياك الملتهب وينشد أغاني التكريس. وكانت كتمثال رخام منتصب، عارية إلا من شعرها، وتنظر نحو الأسفل وبعيداً.

لم تقل شيئاً. خوانا لم تقل شيئاً. حين ذهب «ميلغاريجو» في حملة عسكرية، تركها مسجونة في دير في «لاباز». عادت إلى القصر بين ذراعيه ولم تقل شيئاً، هذه العذراء كل ليلة، التي تولد له كل ليلة. لم تقل خوانا شيئاً حين استولى «ميلغاريجو» على أراضي الهنود المشاعية ومنحها ثروة كبيرة ومنح أسرتها إقليماً كاملاً.

الآن، أيضاً، لا تقول خوانا شيئاً. أغلقت باب منزلها في ليما بإحكام ولم تظهر نفسها أو تستجيب لزئير ميلغاريجو اليائس. لا تقولُ له: *لم تمتلكني أبداً، لم أكن هناك*.

كان ميلغاريجو يبكي ويجأر وقبضتاه ترعدان على الباب. في هذا الظل، قتلته رصاصتان وهو يصرخ اسم المرأة.

1873: مخيم تيمبو (Tempu)

الماميزيس (The Mambises)

كان السود الذين يلمعون من المشاعل وأضواء أخرى يتموجون ويدورون ويقفزون ويتحدثون مع الآلهة معولين من الألم والمتعة. بدت هذه الفوضى لمراسل «*نيويورك هيرالد*» عصية على الفهم كالفصول التي تجيء في كوبا دفعة واحدة أثناء صيف لا ينتهي. رفّت عينا الصحفي بقسوة حين اكتشفتا أن الشجرة تمتلك في الوقت نفسه غصناً يتفجّر اخضراراً وآخر يصفرُّ موتاً.

هذه هي أرض المامبي (Mambi التي تقع في غابة شرق كوبا. كانت «المامبي» تعني قاطع طريق أو متمردا في «الكونغو»، لكنها تعني في هذه الجزيرة العبد الذي يقاتل ليصبح إنسانا.

كان هنود المامبيزيس (Mambises) عبيدا هاربين في الجبال قبل أن ينضموا إلى الجيش الوطني. حسب مراسل الـ«هيرالد» أن الحرب الكولونيالية كلفت في غضون خمسة أعوام ثمانين ألف قتيل أسباني. مات جنود كثيرون بسبب الرصاص أو المرض وقتل منجل «المامبي» عددا كبيرا. حولت الحرب مطاحن السكر إلى حصون مسلحة ضد هجوم السود من الخارج وهربهم من الداخل.

في هذا المخيم الذي يعيش فيه «المامبيزيس» العراة والفقراء، يشارك في كل شيء. شرب الصحفي ماء مخلوطا بدبس السكر نظرا لعدم توفر البن، وبعد بضعة أيام أعلن كرهه الأبدي للبطاطا الحلوة والهوتيا ـ ذلك الحيوان الصغير الذي يقدم الغذاء لأي شخص يقدر أن يصطاده في شقوق شجرة أو صخرة. كتب الصحفي أن الحرب يمكن أن تستمر إلى الأبد. هنا، يقدم النبات المتسلق الماء حين لا يكون ثمة نهر في الجوار وتقدم الأشجار الفاكهة والأراجيح الشبكية والخف والظل الجيد لأولئك الذين يحتاجون إلى أن يجلسوا ويتبادلوا النكات بينما تندمل جراحهم.

1875: مكسيكو سيتي

مارتي (Marti)

طال شاربه المنتصب مؤخراً في هافانا حين أسّس صحيفتين قصيرتي العمر: *الشيطان الأعرج* *الوطن الحر*، ولأنه أراد الاستقلال لكوبا، المستعمرة الأسبانية، حكم عليه بالسجن وبالأشغال الشاقة. باكراً، حين كان لا يزال فتى، أراد أن يترجم شكسبير وألهب الكلمات وأقسم أن ينتقم أمام عبد أسود يتدلى على المشنقة. تنبّأ في أشعاره الأولى أنه سيموت من أجل «كوبا».

أرسلوه من السجن إلى المنفى ولم تختف آثار الأغلال عن كاحليه. ليس هناك كوبي أكثر وطنية من ابن الرقيب الأسباني المستعمر هذا. لا أحد أكثر طفولة من هذا المنفي المتسائل والمندهش والمستاء من العالم.

كان خوسيه مارتي في الثانية والعشرين حين حضر في المكسيك مظاهرته الأولى التي اشترك فيها الطلاب والعمال. أضرب صانعو القبعات وتضامنت معهم جمعية مزيني الشعر للإخاء والوفاء والجمعية الأخوية لمجلدي الكتب وعمال الطباعة والخياطون والمفكرون: «عمال الفكرة». وفي الوقت نفسه، انفجر الإضراب الجامعي الأول جرّاء فصل ثلاثة طلاب طب.

كتب مارتي لصانعي القبعات خطباً مفيدة ووصف في مقالته طلاباً يتقدمون مع العمال في شوارع مكسيكو سيتي متشابكي الأذرع وجميعهم في أفضل ملابس الأحد. قال: *إن هؤلاء الشباب على حق*، «*لكننا سنحبهم وإن كانوا مخطئين*».

1875: **حصن سيل** (Sill)

آخر جواميس الجنوب

كانت السهول الجنوبية مفروشة بالجواميس التي تكاثرت كالعشب الطويل حين جاء الرجل الأبيض من «كانساس» لكي يشحن الريح برائحة التفسّخ. كانت الجواميس المسلوخة تستلقي على السهول. ذهبت ملايين الجلود إلى أوروبا الشرقية. لم تكن إبادة الجواميس تستدرُّ الأموال فحسب، بل، وكما قال الجنرال شيريدان: *إنها الطريقة الوحيدة لإحلال سلام دائم ولجعل الحضارة تتقدّم.*

لم يعد هنود الكيووا (Kiowa) والكومانتشي (Comanche) يعثرون على جواميس داخل سجن حصن «سيل». كانوا يستحضرون عبثاً الصيد الجيد برقصات لإله الشمس، ولم يعد بوسعهم أن يعيشوا على حصصهم الحكومية المثيرة للشفقة.

هرب الهنود إلى وادي «بالو درو» البعيد، المكان الأخير للجواميس في السهول الجنوبية. عثروا هناك على الغذاء والراحة الكاملة: استخدموا الجلود من أجل المأوى والأغطية والثياب واستخدموا القرون والعظام من أجل الملاعق والسكاكين ورؤوس السهام وصنعوا من الأعصاب وأوتار العضلات الحبال والشباك وحوّلوا الحويصلات إلى آنية للماء.

وصل الجنود حالاً وسط سحب من الغبار وبارود المدفعية. أحرقوا الأكواخ، قتلوا ألف حصان وساقوا الهنود ثانية إلى الحجز.

نجح بعض هنود الكيووا في الهرب وتجولوا في السهل إلى أن هزمهم الجوع. استسلموا في حصن «سيل» حيث وضعهم الجنود في زريبة وكانوا يرمون لهم كل يوم قطعاً من اللحم النيء.

إلى الآخرة

عقدت جواميس آخر قطيع جنوبي اجتماعاً. لم يستمر النقاش طويلاً. قيل كل شيء وتواصل الليل. كانت الجواميس تعرف أنها لم تعد قادرة على حماية الهنود.

حين بزغ الفجر من النهر شاهدت امرأة من هنود «الكيووا» القطيع الأخير يعبر في الضباب. كان القائد يسير بخطى وئيدة تتبعه الإناث والعجول وبعض الذكور المتبقية على قيد الحياة.

حين وصلت الجواميس إلى سفح جبل «سكوت» توقفت دون حراك ورؤوسها إلى الأسفل. عندئذ فتح الجبل فمه ودخل القطيع. هناك، في الداخل، العالم أخضر وجديد.

حين دخلت الجواميس كلها، انغلق الجبل.

سيتينك بل Sitting Bull

حين يتحدث، لا تتعب أية كلمة أو تسقط.

يقول: *كفى كذباً!* منذ ثماني سنوات ضمنت حكومة الولايات المتحدة، باتفاقية موقرة، لهنود السيو (Sioux) أنهم سيبقون إلى الأبد مالكي «التلال السوداء»، مركز عالمهم، المكان الذي يتحدث فيه المحاربون مع الآلهة.

منذ عامين، اكتُشف الذهب في تلك الأراضي وفي العام الماضي أمرت الحكومة هنود «السيو» أن يغادروا أراضي الصيد حيث يبحث المعدّنون عن الذهب في الصخور والجداول.

«*قلت كفى كذباً*! سيتينك بُل، زعيم الزعماء، حشد آلافاً من محاربي السهول، السيو (Sioux) والتشيينيز (Cheyennes) والأراباهوس (Arapahos). رقص طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثبت عينيه على الشمس. إنه يعرف.

استيقظ قبل بزوغ الفجر وبلّل قدميه العاريتين بالندى متلقياً نبض الأرض.

فجراً، رفع عينيه إلى ما وراء التلال. هناك كان الجنرال كستر (Custer) قادماً مع فرقة الخيالة السابعة.

1876: ليتل بك هورن

بلاك إلك

في سن التاسعة سمع الأصوات. كان يعرف أننا جميعاً، نحن الذين نملك أرجلاً وأجنحة أو جذوراً، أبناء الأب الشمس نفسه والأرض الأم نفسها، التي نرضع ثدييها. أخبرته الأصوات أنه سيجعل الأزهار تنمو على القصبة المقدسة، شجرة الحياة المزروعة في مركز أرض هنود «السيو»، وأنه يستطيع أن يقتل القحط وهو راكب على سحابة. أعلنت الأصوات أيضاً الحروب والمعاناة.

في العاشرة، قابل رجلاً أبيض للمرة الأولى: ظن أن الشخص مريض. في الثالثة عشرة كان «بلاك إلك» يستحم في نهر «ليتل بك هورن»، حين حذرته الصرخات أن الجنود قادمين. تسلّق هضبة ومن هناك شاهد سحابة غبار ضخمة مليئة بالحوافر والصرخات، ومن السحابة خرجت أحصنة كثيرة بسروج فارغة.

1876: ليتل بك هورن

كستر

حذّر «بلاك كيتل»، زعيم هنود التشييني (Cheyenne) من ذلك حين كانا يدخنان غليون السلام معاً. سيموت كستر إذا خان وعوده ولن يوسّخ أي هندي يديه بسلخ فروة رأسه. فيما بعد، أحرق «كستر» المخيم وثُقب الزعيم بلاك كيتل بالرصاص وسط اللهب.

أصبح الجنرال جورج أرمسترونغ كستر مجرد أحد موتى فرقة الفرسان السابعة التي سحقها الهنود على ضفتي نهر ليتل بك هورن. كان كستر قد حلق شعره الذهبي في الليلة السابقة، بدا قحف رأسه الناعم سليماً وكان يرتدي التعبير الغبي للرجال الذين لم يُهزموا أبداً.

1876: «وور بونيت كريك»

«بوفالو بل»

بعد وقت قصير من هزيمة «ليتل بك هورن»، هاجم بعض الجنود هنود «التشييني» المخيمين على ضفة جدول وسقط في المعركة الزعيم «يلوهاند».

كان بوفالو بل هو أول من ظهر في المشهد. بضربة واحدة سلخ قحف رأس زعيم «التشييني» وركض بسرعة إلى أنوار مدن بعيدة. أصبح تاريخ الغرب مشهداً مسرحياً وهو ينكشف. لم تكن المعركة قد رُبحت بعد وكان سالخ قحف الرأس يبيع عمله الملحمي العظيم في مسارح فيلادلفيا وبالتيمور وواشنطن ونيويورك. من أجل ذكرى الجنرال كستر، ومن أجل الانتقام له، رفع «بوفالو بل» ذراعيه أمام المدرج المحتشد: ظهرت في يد السكين ومن الأخرى التي تمسك قحفاً مصطبغاً بالدم، تدلى شلال من ريش متعدد الألوان. كان البطل يرتدي بزة مكسيكية تنوء بالزينة، يضع مسدسين في حزامه، ويعلق على كتفيه بندقية وينشستر تتسع لخمس عشرة طلقة. حالاً سيزيّن المشهد أغلفة روايات رعاة البقر المثيرة التي تُباع في جميع أرجاء العالم.

إن بوفالو بل، الأكثر شهرة بين رعاة البقر، لم يسق بقرة واحدة طوال حياته. إن الرمز الحي لربح الغرب، السوبرمان الخالد، حظي بشهرته من خلال إبادة الهنود والجواميس والتحدث بلا نهاية عن شجاعته ودقته في الرماية. عمدوه باسم «بوفالو بل» حين كان يعمل في سكة حديد «كانساس باسيفيك». قال إنه أطلق 4280 طلقة في عام ونصف وقتل 4280 جاموساً رغم أن النساء كن يمنعنه من الخروج دائماً.

1876: مكسيكو سيتي

الموت

تولّى الجنرال سانتا آنا رئاسة المكسيك إحدى عشرة مرة. اشترى ولاء جنرالاته من خلال بيع قطع من البلاد وفرض الجزية على الكلاب والأحصنة والنوافذ، لكنه كان يهرب دائماً من القصر متنكراً في زي متسوّل. ورغم أنه اختص في خسارة الحروب، نصبت له تماثيل كثيرة من البرونز وهو منتصب يعدو على الفرس مشهراً سيفه وأصدر مرسوماً حوًل عيد ميلاده إلى عطلة وطنية.

حين عاد من المنفى كان جميع أصدقائه وأعدائه قد ماتوا. دافناً جسده في كرسي عميق ذي ذراعين وواضعاً ديكاً بين ذراعيه، كان سانتا آنا يداعب أوسمة قديمة أو يحك ساقه الفلّينية. كان أعمى، لكنه اعتقد أنه شاهد عربة ملأى بالأمراء والرؤساء تصف أمام باب منزله. كان أصمّ، لكنه اعتقد أنه سمع حشوداً متضرعة تتوسل من أجل مقابلة أو رحمة أو وظيفة.

كان سانتا آنا يصرخ: *انتظر! اخرس!* ـ بينما كان أحد خدمه يبدل بنطاله المبلّل.

فيما بعد، أخذوه من منزله في شارع فيرجارا، المرهون والفارغ دائماً، إلى المقبرة. سارت الديكة أمام التابوت متحدية البشر وباحثة عن معركة.

1877: مدينة غواتيمالا

المحضّر

أغمض رئيس غواتيمالا «خستو روفينو باريوس» عينيه وسمع صخب سكك الحديد والآلات البخارية ينتهك صمت الأبرشيات.

لم يكن ثمة أصبغة تركيبية في أسواق العالم ولا أحد يشتري القرمز والنيلة من غواتيمالا. حان وقت البن. كانت الأسواق تطلب البن والبن يطلب الأراضي والأيدي والقطارات والموانئ. *لكي يحدّث البلاد*، طرد «باريوس» الرهبان الجشعين واستولى على أملاك الكنيسة الضخمة ومنحها لأقرب أصدقائه. استولى أيضاً على أراضي الهنود المشاعية وألغى بمرسوم الملكية الجماعية وفرض العبودية. *ولكي تدمج الحكومة الليبرالية الهندي في الأمة*، جعلته قناً في مستعمرات البن الزراعية الجديدة وعاد نظام الأشغال الشاقة الكولونيالي.

كان الجنود يتجولون في المستعمرات الزراعية ويوزّعون الهنود.

1879: مكسيكو سيتي

الاشتراكيون والهنود

من المؤلم أن نقول هذا، لكن يجب أن نقوله. قاله الكولونيل ألبيرتو سانتا في سجن «تلاتيلوكو»: كان الهنود أكثر سعادة تحت الحكم الأسباني. *اليوم يُقال بشكل طنّان إنهم أحرار بينما هم عبيد*.

قال الاشتراكي «سانتا في» الذي فجر تمرداً هندياً في وادي تيهميلوكان (Texmelucan): إن سبب الأمراض في المكسيك هو بؤس الشعب الناتج بدوره عن منح الأراضي لأيد قليلة وعن غياب الصناعة، *لأن كل شيء يأتي من الخارج بينما نستطيع أن نصنعه بأنفسنا*. وسأل نفسه: *أيكون من الأفضل أن نفقد الاستقلال ونصبح مستعمرة أميركية شمالية أو نبدّل المنظمة الاشتراكية التي دمرتنا؟*

أعلن خوان دي ماتا ريفيرا في صحيفة *الاشتراكي* (*Socialist*) أن الهنود كانوا أفضل في المستعمرة وطلب أن تعاد أراضيهم إليهم. ليس ثمة قانون يمنح اللصوص حقوق الاستيلاء على ثمار العنف والخزي وسوء السمعة.

في الوقت نفسه، نشر فلاّحو سيير غوردا (Sierra Gorda) خطتهم الاشتراكية. رأوا أن العِزَب الكبيرة السارقة، والحكومات التي حولت الهنود إلى خدم لمالكي الأرض، هي جذر البؤس كله. اقترحوا أن تصبح المزارع مناطق وأن تعاد الملكية المشاعية في المزارع والمياه والغابات والمراعي.

1879: جزيرة Choel ـ Choele

طريقة ريمنغتون

غزا الجنود الأرجنتينيون عشرين ألف فرسخ من الأرض الهندية. كانت سوق لندن تتطلب تكثيراً للماشية ثم انفجرت الحدود. كانت البنادق المتكررة تفرغ أمكنة فارغة لغرب السهول الكبيرة التي كانت تتوسع جنوباً وغرباً. طهّر الجنرال خوليو أرجنتينو ووكا باتاجونيا (Patagonea) من المتوحشين، حرق القرى، وجعل الهنود والنعام دريئة له ليتمرن عليها، وواصل المهنة العسكرية المتألقة التي بدأها في الحروب ضد رعاة البقر والباراغويين.

حضر أربعة آلاف جندي يغطيهم الغبار القدّاس في جزيرة «Choel - Choele» الواقعة في نهر نيجرو (Negro). قدموا نصرهم لله وأعلنوا نهاية الحملة الصحراوية.

وزّع الباقون على قيد الحياة من الرجال والنسوة الهنود، غنائم الحدود، على المزارع والحصون والاصطبلات والمطابخ والأسرّة. كان عددهم يزيد على العشرة آلاف كما حسبه الكولونيل «فيديريكو باربا» الذي قال، إنه، بفضل السيدات الأرجنتينيات، ارتدى الأطفال المتوحشون بنطلونات وبدوا ككائنات بشرية.

1879: بوينس آيرس

مارتن فييرو وغروب رعاة البقر

نشر خوسيه هونانديث في بوينس آيرس الجزء الأخير من «مارتين فييرو»، الأنشودة التي تتحدث عن احتضار رعاة البقر الذين أسسوا هذه البلاد وأصبحوا بلا بلاد. انتشر النصف الآخر

من هذه القصيدة الرائعة مدة من الوقت في ريف «الريفر بلاتا» وكانت مقاطعها مستلزمات أساسية للحياة كاللحم والمتة والتبغ.

كان الأقنان في العِزَب الكبيرة والمجندون في الحصون ينشدون ،بحزن،الرباعيات حول نيران المخيم، ليستحضروا طرق الأخ البري، الإنسان الذي بلا حاكم أو أحكام، وبهذه الطريقة كانوا يبعثون ذكرى حريتهم الضائعة.

1879: بور ـ أو ـ برانس

ماسيو (Maceo)

كان أنطونيو ماسيو المنفي قد وصل إلى مرتفعات بيلي إير (Pelle Air) في طريقه إلى سانتو دومنغو، حين انقض عليه خمسة قتلة. كانت ليلة يضيئها البدر، لكن ماسيو نجا من الرصاص وعدا بسرعة ليختبئ في الدغل. وعد القنصل الأسباني في هاييتي القتلة بـ«عشرين ألف بيزوس» ذهباً. كان ماسيو أكثر المقاتلين من أجل استقلال كوبا شعبية وأخطرهم.

فقد والدة وأربعة عشر شقيقاً في الحرب، وإلى الحرب سوف يعود. وسط رعد الفرسان وبينما كانت المناجل تتقدم إلى مداخل الأودية، كان ماسيو يقود الهجوم. رُفِع أثناء القتال ولم يُسْعِد الجنرالات البيض أن يصبح كائن أسود لواء.

قاتل «ماسيو» من أجل ثورة حقيقية قائلاً: *ليست المسألة مجرد استبدال الأسبان*. ليس الاستقلال هدفاً نهائياً، بل الهدف الأول. بعد ذلك يجب أن يُغيِّر «كوبا» وطالما أن الشعب لا يقود، لن تصبح المستعمرة وطناً. لم يثق مالكو الأراضي الكريبوليون، لأسباب وجيهة،بهذا الرجل الذي قال إن حق الملكية ليس مقدّساً.

1879: جزر تشينتشاس (Chinchas)

الغوانو[1] (Guano)

كانت التلال التي ارتفعت على تلك الجزر برازاً محْضاً طوال آلاف الأعوام. أتمتْ ملايين الطيور عملية هضمها على ساحل بيرو الجنوبية.

كان هنود الآنكا (Incas) يعرفون أن هذا «الغوانو» يقدر أن يحيي أية أرض مهما بدت قاحلة، لكن أوروبا لم تعرف القوى السحرية للسماد البيروفي إلى أن أحضر همبولت العيّنات الأولى.

«بيرو»، التي حظيت بهيبة عالمية بسبب الذهب والفضة، تابعت مجدها بفضل الإرادة الطيبة للطيور. أبحرت إلى أوروبا سفن محملة بسماد الغوانو ذي الرائحة الكريهة وعادت محضرة

[1] سماد من زرق الطيور.

تماثيل من رخام كارّارا المحض لتزيّن جادات ليما. كانت عنابرها محملة أيضاً بالملابس الإنكليزية التي دمرت مشاغل النسيج في السلاسل الجبلية الجنوبية. وأحضرت نبيذاً من «بوردو» أفلس الكروم المحلية في «موكيكوا». وصلت منازل كاملة إلى كالاو (Callao) من لندن واستوردت من باريس فنادق ترفيهية كاملة مع رؤساء خدمها.

بعد أربعين عاماً، استُنفذت الجزر. باعت «بيرو» إثني عشر مليون طن من الغوانو واستهلكت ضعفي هذه الكمية وهي الآن مدينة بشمعة لكل قديس.

1879: صحارى أتاكاما وتاراباكا

الملح الصخري

لم تنشب حرب من أجل سماد الغوانو الذي لم يبق منه إلا القليل. كان الملح الصخري هو الذي دفع الجيش التشيلي إلى غزو الصحارى ضد قوتي بيرو وبوليفيا المتحالفتين.

من صحرائي أتاكاما وتاراباكا القاحلتين جاء|سر اخضرار أودية أوروبا. كان هناك في هذه الأماكن المنعزلة السحالي المختبئة تحت الأحجار وقطعان البغال التي تحمل إلى موانئ المحيط الهادي حمولات الملح الصخري، ذلك الثلج الكثير الكتل الذي سيستنهض حماس الأراضي الأوروبية المنهكة. لم يكن ثمة شيء يلقي ظلاً في عالم اللاشيء ذاك، إلا جبال الملح الصخري المتلألئة التي تجف مهجورة تحت الشمس، أو العمال البائسين، محاربي الصحراء، الذين يرتدون أكياس طحين ممزقة ويحملون فؤوساً بدل الرمح ورفوشاً بدل السيوف.

تبيَّن أن الملح الصخري، ضروري جداً لمشاريع الحياة والموت، ليس لأنه الأشهر بين الأسمدة، بل لأنه يصبح باروداً إذا مُزج بالكربون والكبريت. وهكذا أصبحت الزراعة وصناعة الحرب المزدهرة بحاجة إليه.

1880: ليما

الصينيون

كانت تشيلي تغزو وتدمّر. وكان الجيش التشيلي يدمر ببزات وأسلحة إنكليزية بلدات ليما الساحلية تشوريلوس (Chorrillos) وبارانكو (Barranco) وميرافلوريس (Miraflores) دون أن يترك حجراً فوق آخر.

أرسل الضباط البيروفيون الهنود إلى المسلخ وركضوا صارخين: *يعيش الوطن!*

كان كثير من الصينيين، صينيين من «بيرو»، يقاتلون إلى الجانب التشيلي. كانوا صينيين فارين من العزب الكبيرة، يدخلون الآن إلى ليما منشدين مدائح للجنرال الغازي «باتريسيو لينش» الأمير الأحمر، المنقذ.

نقل أولئك الصينيون بالخدعة والإكراه من مينائي ماكاو (Macao) وكانتون على يد التجار الإنكليز والبرتغاليين والفرنسيين ووصل إلى بيرو واحد من كل ثلاثة. عُرضوا للبيع في ميناء كالاو (Callao) وأعلنت صحيفة ليما *أنهم خرجوا من الزورق طازجين*. وشم كثيرون بالحديد الحامي، ذلك أن سكك الحديد والقطن والسكر والغوانو والبن تحتاج إلى أيدي العبيد. لم يزحزح الحراس أعينهم عنهم في جزر «الغوانو» لأن أدنى إهمال سيجعل بعض الصينيين ينتحرون غرقاً.

سبب سقوط ليما الفوضى في جميع أنحاء بيرو وتمرّد السود في وادي كانيتي (Canete). في نهاية كرنفال أربعاء رماد انفجر حقد القرون. إذلالات طقسية: السود، العبيد إلى وقت متأخر، والذين لا يزالون يُعاملون هكذا، انتقموا لجراحهم القديمة من خلال قتل الصينيين، الذي هم عبيد أيضاً، بالعصي والمناجل.

1880: لندن

دفاعاً عن الكسل

مطارداً من البوليس الفرنسي ومقهوراً من الشتاء البريطاني الذي يجعل المرء يبول رواسب كلسية، كتب «بول لافارغ» في لندن إدانة جديدة *للنظام الإجرامي الذي يجعل الإنسان خادماً بائساً للآلة*.

كتب صهر ماركس الكوبي: *إن الأخلاق الرأسمالية هي محاكاة ساخرة للأخلاق المسيحية مثيرة للشفقة*.

تعلّم الرأسمالية العمال كما يعلمهم الكهنة أنهم ولدوا في وادي الدموع هذا، ليكدحوا ويعانوا، وتستجرهم لدفع زوجاتهم وأبنائهم إلى المصانع التي تطحنهم إثنتي عشرة ساعة في اليوم. رفض لافارغ أن يسهم في *أغان مثيرة للغثيان على شرف إله التقدم، الابن الأكبر للعمل*، وطالب بحق الكسل والاستمتاع الكامل. إن الكسل هو هبة الآلهة، حتى المسيح بشّر به في موعظة الجبل. أعلن لافارغ أنه يوماً ما ستنتهي عذابات الجوع والعمل الشاق، الأكثر عدداً من جراد الإنجيل، وعندئذ سترتجف الأرض من المتعة.

1881: لنكولن سيتي

بيلي، الطفل

«سأمنحك علاوة يا دكتور».

منذ دقيقة كان بيلي ينتظر المشنقة في زنزانة، لكنه يسدد الآن إلى الشريف من أعلى الدرج.

«لقد تعبتُ يا دكتور».

رمى له الشريف مفتاح الأصفاد وحين انحنى بيلي، انفجرت نار المسدس. سقط الشريف بعد أن أصابته رصاصة في عينه وتشظّت نجمته الفضية.

كان بيلي يبلغ الواحدة والعشرين وثمة إحدى وعشرون إصابة في كفل مهره، هذا دون أن نحصي دزينة من المكسيكيين وهنود الأباتشي الذين قتلهم ولم يُسجَّلوا.

«*لن أفعل ذلك لو كنت مكانك أيها الغريب*».

بدأ مهنته في سن الثانية عشرة، حين أهان متسكع أمّه، وانطلق بسرعة قصوى مشهراً موسى يقطر دماً.

1882: سينت جوزف

جيسي جيمس (Jesse James)

قاتل جيسي وأبناؤه، أبناء جيمس، مع الجيش الجنوبي المستعبد وأصبحوا فيما بعد الملائكة المنتقمين للأرض المغزوّة. ولكي يرضوا حسّهم بالشرف سطوا على أحد عشر بنكاً وسبعة قطارات بريد وثلاث عربات مسرح.

أرسل جيسي ستة عشر شخصاً إلى العالم الآخر متبجحاً ومتردداً ودون أن يزعج نفسه بإشهار بندقيته.

في ليلة سبت، في سينتْ جوزف، بـ«ميسوري»، أطلق عليه صديقه المفضّل النار في ظهره.

«*أنت، يا طفل، جفف الدموع وانظر حولك إن كنت تستطيع أن تزيح تلك القمامة من الطريق. سأقول لك ماذا كان. أتعرف ماذا كان؟ أعند بغل في أريزونا*».

1882: سهول أوكلاهوما

غروب رعاة البقر

منذ نصف قرن، حيّر حصان أوكلاهوما الخرافي والبري، واشنطن إرفنغ وألهم قلمه. أصبح أمير السهول الذي لا يروّض، السهم الأبيض ذو العرف الطويل، دابة وديعة.

أصبح راعي البقر أيضاً وبطل اجتياح الغرب وقاطع الطريق العادل أو المنتقم، جندياً أو قناً يراقب ساعات منتظمة. كانت الأسلاك الشائكة تتقدم ألف كيلومتر في اليوم وكانت قطارات التبريد تعبر سهول الولايات المتحدة الشاسعة. استحضرت الأناشيد الرعوية وروايات الإثارة عواء الذئاب الأميركية والهنود، الأوقات الطيبة لقوافل العربات المغطاة ومحاورها الخشبية ذات الصرير، المدهونة بلحم الخنزير، وكان «بوفالو بل» يشرح أن الحنين يمكن أن يتحول إلى عمل مربح جداً. لكن راعي البقر آلة أخرى بين آلات كثيرة تحلج القطن، تدرس الحنطة أو تكبس الشعير.

1882: نيويورك

أنت أيضاً تستطيع أن تنجح في الحياة

لم يعد طريق السعادة يؤدي إلى سهول الغرب فحسب، إنه يقود الآن إلى نهار المدن الكبرى. كان صفير القطار، ذلك المزمار السحري، يوقظ الشباب من نعاسه الصدئ ويدعوه للانضمام إلى فراديس الإسمنت والفولاذ. كان صوت السيرانة يعد أي يتيم رث الثياب بأنه يستطيع أن يصبح رجل أعمال ثرياً إذا اشتغل بجد وعاش فاضلاً في مكاتب ومعامل الأبنية العملاقة.

باع الكاتب هوراشيو ألجر (Horatio Alger) ملايين النسخ من هذه الأوهام. كان «ألجر» أكثر شهرة من شكسبير ورواياته أكثر انتشاراً من الإنجيل. لم يتوقف قراؤه وشخصياته، متلقو الأجور التافهون، عن الركض منذ أن استقلوا القطارات أو السفن العابرة للمحيط. وفي الحقيقة، كان المسار محجوزاً لحفنة من أبطال المشاريع، لكن المجتمع الأميركي الشمالي كان يستهلك جماعياً فانتازيا المنافسة الحرة وحتى حلم المشلولين بالفوز في السباقات.

1882: نيويورك

الخلق استناداً إلى جون د. روكفلر

في البدء صنعت الضوء بمصباح كيروسين فانسحبت الظلال التي سخرت من شموع شحم الحيوان أو دهن الحوت. وكان صباح وكان مساء يوم واحد.

وفي اليوم الثاني اختبرني الله وسمح للشيطان أن يغويني مقدماً لي الأصدقاء والعشيقات وثروات أخرى.

وقلت: ليأتِ البترول إليّ. ثم أسّست «ستاندارد أويل» ورأيت أن هذا شيئاً حسناً وكان مساء وكان صباح يوم ثالث.

وفي اليوم الرابع اتبعت مثال الله. مثله هدّدت ولعنت كل من لا يطيعني ومثله مارست الابتزاز والعقاب. وكما سحق الله منافسيه، بلا رحمة شللت خصومي في «بيتسبرغ» فيلادلفيا ووعدت التائبين بالغفران وبالنعيم الأبدي.

ثم أنهيت فوضى الكون وحيث ثمة فوضى أرسيت النظام. وبميزان لم يُعرف أبداً من قبل، حسبت الكلف وفرضت الأسعار وغزوت الأسواق. ثم وزّعت قوة ملايين الأيدي كي لا يُضيّع الوقت أو الطاقة أو الموارد مرة أخرى. طردت الصدفة والقدر من تاريخ الرجال وفي المكان الذي خلقته لم أترك مكاناً للضعفاء ولغير الأكفاء، وكان مساء وكان صباح يوم خامس.

ولكي أمنح عملي اسماً نحت كلمة «ثقة» ورأيت أن هذا شيئاً حسناً، ثم أكدت أن العالم يدور حول عيني المراقبتين بينما كان مساء وكان صباح يوم سادس.

وفي اليوم السابع قمت بالأعمال الخيرية، جمعت النقود التي منحها الله لي لأنني تابعت عمله الكامل وأعطيت الفقراء خمسة وعشرين سنتاً ثم استرحت.

1883: مدينة بسمارك

آخر جواميس الشمال

أصبح الجاموس تحفة نادرة في «مونتانا» وكان هنود البلاكفيت (Blackfeet) يقضمون العظام ولحاء الأشجار.

قاد «سيتينك بُل» الصيد الأخير لهنود «السيو» في السهول الشمالية، ورغم أنهم سافروا بعيداً لم يصادفوا سوى بعض الحيوانات. وحين كانوا يقتلون أي جاموس كانوا يطلبون الصفح من الجاموس اللامرئي العظيم، كما يقتضي التقليد، ويعدونه أنهم لن يضيّعوا شعرة واحدة من جسده.

بعد ذلك حالاً، احتفلت شركة الباسيفيك الشمالية للسكك الحديدية بإكمال خطها من الساحل إلى الساحل. كان هذا هو الخط الرابع الذي يعبر الأرض الأميركية الشمالية. تقدمت قاطرات تسير على الفحم ذات مكابح ضغط هوائية وعربات «البولمان» خلف الرواد نحو سهول الهنود، وعلى الجانبين بزغت مدن جديدة ونمت السوق المحلية العملاقة وتماسكت.

دعت سلطات الباسيفيك الشمالي الزعيم «سيتينك بل» إلى إلقاء خطبة في حفلة التدشين العظيمة. وصل «سيتينك بل» من الحجز حيث يعيش هنود «السيو» على التبرعات وصعد منصة الخطابة المغطاة بالأزهار والرايات وخاطب رئيس الولايات المتحدة والمسؤولين والشخصيات الحاضرة والجمهور العام قائلاً: «*أكره جميع البيض. إنهم لصوص وكاذبون*». وكان ضابط شاب يترجم كما يلي: «قلبي الأحمر واللطيف يرحب بكم. قاطع «سيتينك بول» تصفيق الجمهور: *لقد سرقتم أرضنا وحولتمونا إلى منبوذين*... قدّم الجمهور للمحارب الذي يعتمر ريشاً أحمر هتافاً احتفائياً على الأقدام بينما كان المترجم يتعرّق جليداً.

1884: سانتياغو دي تشيلي

ساحر المال يأكل لحم الجنود

قال الحاكم المنتصر: *ولدت حقوقنا من النصر، القانون الأعلى للأمم.*

انتهت حرب الباسيفيك أو حرب النترات بعد أن سحقت تشيلي أعداءها براً وبحراً وأصبحت صحراءا «أتاكاما» و«تاراباكا» جزءاً من خريطة تشيلي. فقدت بيرو نتراتها وجزر سماد «الغوانو» المستنفدة. فقدت بوليفيا منفذها إلى البحر وحصرت في قلب أميركا الجنوبية.

احتفلوا في سانتياغو دي تشيلي بالنصر وقبضوا في لندن مقابله. دون أن يطلق طلقة أو يصرف بنساً، أصبح «جون توماس نورث» ملك النترات. اشترى نورث بالمال الذي اقترضه من مصارف

تشيلية العقود التي منحتها الدولة البيروفية لإيداعات المالكين القدامى مقابل أغنية. اشتراها «نورث» حين كانت الحرب في بداية نشوبها، وقبل أن تنتهي كانت الدولة التشيلية من اللطف بحيث أنها اعترفت أن العقود ألقاب ملكية شرعية.

1884: هواناكايو (Hwanacayo)

الوطن يدفع

قاتل المارشال أندريه أفيلينو كاسيريس وعصاباته الهندية فوق مائة فرسخ جبلي ضد غزاة بيرو التشيليين دون توقف طيلة ثلاث سنوات.

كان هنود الجماعات يدعون مارشالهم ذا الشارب الوحشي «جدّنا»، وفقد كثيرون حيواتهم وهم يتبعونه صارخين: «يعيش» للوطن الذي يحتقرهم. كان الهنود في ليما أيضاً مغذين للمدافع وحمل المؤرخ الاشتراكي *تلك السلالة الذليلة والمنحطة* مسؤولية الهزيمة.

بخلاف ذلك، كان المارشال كاسيريس يقول حتى وقت متأخر إن الذين هزموا بيرو هم تجارها وبيروقراطيوها. رفض معاهدة السلام التي اقتطعت جزءاً جيداً من بيرو. لكن «كاسيريس» غيّر رأيه فيما بعد لأنه رغب أن يصبح رئيساً. وكان عليه أن يربح الاستحقاقات. يجب أن يسرّح الهنود المسلحين الذين قاتلوا ضد التشيليين، لكن الذين غزوا أيضاً المزارع ويهددون النظام المقدس للعزب الكبيرة.

استدعى المارشال «توماس ليمز» زعيم مقاتلي الكولكا (Colca)، فجاء «ليمز» إلى «هواناكايو» مع 1500 هندي ليقول: *رهن أوامرك أيها الجد*.

ولكن حالما وصل «ليمز» جُرِّدت قواته من الأسلحة ولم يكد يعبر عتبة الثكنة حتى أسقطته ضربة من عقب بندقية. فيما بعد أطلقوا عليه النار وهو جالس معصوب العينين.

1885: ليما

الإزعاج يأتي من القمة
كما يقول مانويل غونزاليس

تئن بيرو تحت هيمنة قلة من أصحاب الامتيازات الذين سيمددوننا بين عاصرات مطحنة السكر ويقطّروننا في إنبيق ويحرقوننا حتى نصبح رماداً في فرن للصهر إذا قدروا أن ينتزعوا من بقايانا ميلغراماً واحداً من الذهب... يتلقون، كأرض حلّت عليها اللعنة، البذار ويشربون الماء دون أن ينتجوا ثماراً أبداً...

برهنوا على جبنهم في الحرب ضد تشيلي دون أن يمتلكوا الشجاعة للدفاع عن «الغوانو» والنترات... لقد أذللنا وديس علينا ونزفنا كما لم يحدث لأمة من قبل، لكن الحرب مع تشيلي لم تعلمنا شيئاً ولم تصحح أياً من رذائلنا.

1885: مكسيكو سيتي

الكل ينتمي إلى الكل

هذا ما قاله «تيودور فلوريس»، هندي الميكستيك (Mixtec)، بطل ثلاث حروب.

كرّروا ذلك!

ردد جميع الأبناء: *كل شيء ينتمي إلى الجميع.*

دافع «تيودور فلوريس» عن المكسيك ضد الأميركيين الشماليين والمحافظين والفرنسيين. منحه الرئيس خواريز ثلاث مزارع تربتها جيدة كمكافأة، لكنه رفض ذلك.

«الأرض، الماء، الغابات، المنازل، الثيران هي للجميع، كرروا ذلك!

كرّر الأبناء ذلك.

كان السقف المفتوح على السماء عصياً تقريباً على رائحة البراز والقلي وهادئاً. هنا يستطيع المرء أن يتنفس الهواء ويتحدث بينما في الفناء السفلي يتشاجر الرجال بالسكاكين على امرأة ويبتهل أحدهم بصوت مرتفع للعذراء والكلاب تعوي نُذر الموت.

طلب الإبن الأصغر: «*حدّثنا عن سلسلة الجبال*».

روى الأب كيف يعيش قومه في «تيوتيتلان دِل كامينو». هناك، من يستطيع أن يعمل يقوم بالعمل ويحصل الجميع على ما يحتاجونه ولا يسمح لأحد أن يأخذ أكثر من حاجته، لأن ذلك يعتبر جريمة خطيرة. في سلسلة الجبال يعاقب على الجرائم بالصمت أو التوبيخ أو الطرد. كان الرئيس خواريز هو الذي أحضر السجن الذي لم يكن معروفاً هناك. أحضر خواريز القضاة وألقاب الملكية وأمر بتقسيم الأراضي المشاعية، «*لكننا لم نكترث بالأوراق التي منحها لنا*».

كان تيودورو فلوريس في الخامسة عشرة حين تعلّم اللغة الأسبانية، ويريد الآن أن يصبح أبناؤه محامين ليدافعوا عن الهنود ضد خدع الأطباء. ولهذا السبب أحضرهم إلى العاصمة، زريبة الخنازير التي تصم، ليمروا مندسين بين المهاوشين والشحاذين.

ما خلقه الله وما يخلقه الإنسان هو للجميع، كرروا ذلك!

كان الأبناء يصغون إليه كل ليلة حتى يغلبهم النعاس.

ولدنا جميعاً متساوين، عراة تماماً. جميعنا أخوة. كرروا ذلك!

1885: كولون (Colon)

بريستان (Prestan)

ولدت مدينة كولون منذ ثلاثين عاماً لأنه كان هناك حاجة إلى محطة طرفية للقطار الذي يعبر «بنما» من البحر إلى البحر. ولدت المدينة على مستنقعات البحر الكاريبي وقدمت الحمى والبعوض، فنادق مترفة، أوكار قمار وبيوت دعارة للمغامرين الذين تدفقوا ليحصلوا على ذهب كاليفورنيا. قدمت أيضاً بيوتاً حقيرة للعمال الصينيين الذين صانوا السكك وماتوا من الطاعون أو الحزن.

في ذلك العام، احترقت «كولون» ووقع اللوم على «بدرو بريستان». بريستان، المدرس والطبيب الأسود، الذي يعتمر دائماً قبعة سوداء مرتفعة ويرتدي ربطة عنق، العنيد دائماً في الشوارع الموحلة، قاد عصياناً شعبياً. اتجه ألف من «المارينز» الأميركيين للعمل على أرض بنما بحجة حماية سكة الحديد وملكيات أميركية شمالية أخرى وشنقوا بريستان الذي دافع عن الشعب المُذلّ بحياته وروحه وقبعته.

تحل لعنة على كولون بسبب الجريمة وتكفيراً عن الذنب، ستُحرق المدينة من الآن إلى الأبد كلّ عشرين سنة.

1886: تشيفيلكوي (Chivilcoy)

السيرك

انجلى الضباب عن عربة سيرك عند بزوغ الفجر وسط غياض «تشيفيلكوي» المورقة.

في الظهيرة، رفرفت أعلام ملوّنة فوق خيمة. دار عَرْضٌ نصر حول المدينة. كانت شركة الأخوة بوديستا للدراما الكريبولية وللفرسان والجمناز والألعاب البهلوانية، تملك حاوياً يابانياً وكلباً ناطقاً وحماماً مدرباً، طفلاً فلتة وأربعة مهرجين.

ادعى البرنامج أن المهرج بيبينو الـ88، وفريق الألعاب البهلوانية *نالا إعجاب الجمهور في لندن وباريس وفيينا وفيلادلفيا وروا.*

لكن الطبق الرئيسي الذي قدّمه السيرك هو «*خوان موريرا*»، الدراما الكريبولية الأولى في تاريخ الأرجنتين، وهي تمثيلية إيمائية تحتوي مبارزات بالرباعيات الشعرية والسكاكين وتروي مصائب راعي بقر أميركي جنوبي، أنهكه ضابط وقاض ورئيس بلدية وبقّال.

1886: أطلانطا (Atlanta)

كوكا ـ كولا

حظي الصيدلاني جون بيمبرتون بقليل من الهيبة بسبب جرعات الحب التي وصفها وعلاجاته للصلع.

ابتكر فيما بعد دواء يزيل الصداع ويخفف الغثيان. صُنع منتجه من قاعدة أوراق الكولا التي أُحضرت من «الآنديز» ومن جوز الكولا والبذار المنشطة التي جاءت من أفريقيا. وأكمل الماء والكاراميل وبعض الأسرار، الصيغة.

حالاً سيبيع بيمبرتون ابتكاره بـ«ألفين وثلاثمائة دولار». كان مقتنعاً أنه علاج جيد وكان سينفجر من الضحك لا من الكبرياء، لو كشف له بصّار ما أنه ابتكر رمز القرن القادم.

1887: شيكاغو

سيعيشون ثانية في كل أول أيار

كانت المشنقة تنتظر الخمسة لكن لينغ (Lingg) مات باكراً مفجراً إصبع ديناميت بين أسنانه. ارتدى فيشر (Ficher) ثيابه ببطء مدندناً النشيد الوطني الفرنسي. بارسونز (Parsons)، المحرّض، الذي استخدم كلمات كالسوط أو المدية، أمسك بأيدي رفاقه قبل أن يقيدها الحرس وراء ظهورهم. إنجل (Engel)، المشهور بدقته في الرماية، طلب نبيذاً برتغالياً أحمر حلواً وأضحك الجميع بنكتةٍ. كان الجواسيس الذين كتبوا الكثير *وصوّروا الفوضى كمدخل إلى الحياة*، يستعدون للموت.

ثبت المشاهدون أعينهم على المنصة وهم جالسون على مقاعدهم. *إشارة، ضجة، انطبق الفخ... هناك، ماتوا وهم يدورون في الجو، في رقصة مريعة...*

كتب خوسيه مارتي ريبورتاجاً عن إعدام الفوضويين في شيكاغو. ستحييهم الطبقة العاملة في كل أول أيار. لا يزال هذا مجهولاً لكن مارتي كان يكتب دائماً وكأنه يسمع صرخة طفل حديث الولادة حيث لا يتوقع أحد أن يسمعها.

1889: لندن

نورث

قفز منذ عشرين عاماً على رصيف مرفأ فلبريزو بعينين حجريتين وشعرات ذقن حمراء وجعداء. كان يحمل في جيبه عشرة جنيهات إسترلينية وصرّة ثياب على ظهره. في عمله الأول تعرّف على الملح الصخري بطريقة قاسية في مرجل راسب صغير في «تاراباكا». وفيما بعد أصبح تاجراً في مرفأ إيكيكي (Iquique). أثناء حرب «الباسيفيك». وبينما كان التشيليون والبيروفيون والبوليفيون ينتزعون أحشاء بعضهم بالحراب، قام جون توماس نورث بخدعات سحرية جعلته رابح ساحات المعركة.

الآن، يصنع نورث، ملك النترات، البيرة في فرنسا والإسمنت في بلجيكا ويملك سيارات أجرة في مصر ومناشر في أفريقيا السوداء ويستغل الذهب في أستراليا والألماس في البرازيل. اشترى

هذا الميداس (Midas) ذو الأصل السوقي والأصابع السريعة رتبة كولونيل في إنكلترا في جيش صاحبة الجلالة البريطانية، وترأس المحفل الماسوني لمقاطعة «كينت» (Kent)، وأصبح عضواً بارزاً في حزب المحافظين، وبدأ الدوقات واللوردات والوزراء يجلسون إلى طاولته. عاش في قصر قيل إن جنوداً تشيليين انتزعوا أبوابه الحديدية الكبيرة من كاتدرائية في ليما.

عشية رحلة إلى تشيلي أقام نورث حفلة وداع راقصة في فندق ميتروبول حضرها ألف إنكليزي. توهجت صالونات المتروبول كالشموس وكذلك الصحون والمشروبات. كان حرف (N) يتوهج وسط شعارات نبالة ضخمة من الأقحوان. وحيّا هتافُ المضيف الجبار وهو ينزل الدرج متنكراً في زي هنري الثامن شابكاً ذراع زوجته التي تلبس كدوقة وخلفهما ظهرت الابنة كأميرة فارسية والابن في زي الكاردينال ريتشيو.

كان المراسل الحربي لـ«التايمز» بين الحاشية الضخمة التي سترافق «نورث» إلى المملكة التشيلية. كانت تنتظره أيام مضطربة. هناك، في الصحارى التي غزيت بالرصاص، كان نورث سيد الملح الصخري والصحف وسكك الحديد، لكن، كان هناك في مدينة سانتياغو رئيس يمتلك ذوقاً سيئاً لأنه يرفض هباته اسمه «خوسيه مانويل بالماسيدا»، وكان نورث متوجهاً إلى هناك ليطيح به.

1889: مونتيفيديو

كرة القدم

كانوا يحتفلون بأقدامهم بعيد ميلاد الملكة فكتوريا السبعين على ضفتي نهر «بلاتا».

تنافس فريقا بوينس آيرس ومونتيفيديو على الكرة في حقل «بلانكيدا» الصغير تحت عيني الملكة المتفحصتين والمزدريتين. كانت تتدلى بين الرايات، وسط المدرج، صورة سيدة بحار العالم وجزء جيد من أراضيه.

ربح فريق بوينس آيرس ثلاثة مقابل لا شيء ولم يكن هناك موتى ليُنْدَبوا رغم أن العقوبة لم تكن قد ابتكرت وكل من يقترب من مرمى العدو يجازف بحياته. كان على المرء أن يخترق حادوراً من الأرجل التي تسدد كالفؤوس لكي يسدد من مكان قريب على المرمى وكانت كل مباراة معركة تتطلب عظاماً من الفولاذ.

كانت كرة القدم لعبة إنكليزية وكان يلعبها مسؤولو سكة الحديد وشركات الغاز وبنك لندن، لكن بضعة كريبوليين من الهدّافين الدخلاء ذوي الشوارب الشقراء، أظهروا أن البراعة تصلح كسلاح فعال لإسقاط حراس المرمى.

1890: نهر بلا تا

رفاق

كان يأتي أكثر من خمسين ألف عامل كل عام إلى «الريفر بلاتا» وهم أوروبيون استنزفهم اليأس على هذه السواحل. حيّت رايات إيطالية زيارة «إدمندو دي أميسيس» إلى مستعمرات بيدمونت (Piedmontes) على الساحل الأرجنتيني. وفي اجتماعات العمال في بوينس آيرس أو مونتيفيديو سمعت خطابات في اللغة الأسبانية والإيطالية والفرنسية أو الألمانية.

كان ثمانية من كل عشرة عمال أو صناع أجانب وكان بينهم اشتراكيون وفوضويون طليان وفرنسيون من الكومونة وأسبان من الجمهورية الأولى وثوريون من ألمانيا ووسط أوروبا.

نشبت الاضطرابات على ضفتي النهر. كان سائقو السيارات يعملون ثماني عشرة ساعة في اليوم وكان عمال المطاحن ومصانع المعكرونة يعملون خمس عشرة ساعة. لم يكن ثمة أيام أحد وكان مسؤول من حكومة بوينس آيرس قد نشر اكتشافه الذي يقول إن الكسل هو سبب جميع الرذائل.

احتفل بيوم الأول من أيار الأميركي اللاتيني في بوينس آيرس وحيا الخطيب الرئيسي، «جوزف وينيجر» شهداء شيكاغو بالألمانية وأعلن أن ساعة الاشتراكية تقترب، بينما كان رجال الرداء والقلم والسيف أو التونية، يضجون من أجل طرد أعداء النظام الغرباء. سن الكاتب الملهم «ميغيل كاني» قانونا لطرد المحرضين الغرباء من الأرجنتين.

1890: بوينس آيرس

مساكن الفقراء

كان الفقراء والأغنياء يدفعون السعر نفسه في مسرح كولون أوقات الكرنفال ولكن حالما يعبرون الباب تتجه الأيدي إلى مكانها والأدمغة إلى مكانها ولا أحد يرتكب انتهاك حرمة المقدسات ويجلس في المكان الخطأ. كان العامة يرقصون في الممرات والأسياد في المقصورات وقاعات الانتظار.

كانت بوينس آيرس مثل مسرحها، ذلك أن أبناء الطبقة العليا كانوا ينامون في قصور فرنسية من ثلاثة طوابق في الحي الشمالي، وكانت العازبات اللواتي يفضلن الموت على مزج دمائهن مع أجنبي ما ذي دم غير محدد، ينمن وحيدات. كان بشر القمة يزخرفون نسبهم أو يصنعونه بسيول من اللآلئ والأحرف المنقوشة على عدة الشاي الفضية ويعرضون خزفا من سكسونية (Saxony) أو«سيفر» (Sevrés) أو ليموج (Limoges) وكريستالا من ووترفورد (Waterford) وقماشا مطرزا من «ليون» وأغطية طاولات من «بروكسل»، ذلك أنهم انتقلوا من حياة القرية الكبيرة المعزولة إلى حياة حب الظهور المسعورة لباريس أميركا.

كان مستضعفو الأرض يحتشدون في الجنوب، وكان العمال الذين يصلون حديثاً من «نابولي» أو «فيجو» (Vigo) أو بيسارابيا (Bessarabia) ينامون بالدور في منازل استعمارية ضخمة ذات ثلاثة أفنية أو في مساكن بنيت خصيصاً لهم. ولم تكن الأسرّة النادرة تبرد أبداً في اللامكان الذي تغزوه المناقل وأحواض الغسيل والصناديق التي تخدم كمهادٍ.

كانت المشاجرات متواصلة في الممر الطويل على الباب المؤدي إلى المرحاض الوحيد وكان الصمت ترفاً مستحيلاً. لكن أحياناً، في ليالي الحفلات، كان الأكورديون أو الماندولين أو الزمامير تُحضر الأصوات الضائعة إلى الغاسلات وصانعات الثياب،خادمات الرؤساء الأغنياء والأزواج، وكانت تريح عزلة الرجال الذين من الشروق إلى الشروق، يصبغون الجلود ويعلبون اللحوم وينشرون الخشب ويكنسون الشوارع ويحملون الحمولات ويشيدون ويدهنون الجدران ويلفون السجائر ويطحنون الحبوب ويخبزون الخبز بينما يلمّع أبناؤهم الأحذية ويستدعون جريمة اليوم.

رجل لوحده

كانوا يقولون في قرى جالسيا (Galicia) كلما هاجر شخص ما: *«لقد نقصت نار أخرى»*.

هناك، يصبح إنساناً زائداً، وهنا لا يريد أن يكون زائداً. كان الرجل ذو الكلمات القليلة يعمل ويقاوم ويبقى صامتاً كبغل، وفي المدينة الأجنبية يشغل مكاناً أصغر من المكان الذي يشغله كلب.

هنا، كانوا يسخرون منه ويعاملونه باحتقار لأنه لا يستطيع حتى أن يوقّع ولأن العمل اليدوي هو للنوع الأدنى. من ناحية أخرى، كانوا يعبدون هنا أي شخص مغرور ويصفقون للمخادع الذي يفرغ أكثر الرؤوس مباهاة بضربة حظ.

كان المهاجر الوحيد يحظى بقليل من النوم ولكنه حالما يغمض عينيه تجيء جنية ما أو ساحرة لتحبه على الجبال الخضراء أو المنحدرات الثلجية وكانت الكوابيس تهاجمه أحياناً. ثم يغرق في النهر، ليس في أي نهر، لكن في نهر معيَّن قيل إن كل من يعبره يفقد ذاكرته.

رقصة التانغو

ولدت رقصة التانغو، سليلة الميلونجا (Milonga) الخليعة على حافة المدينة وفي ساحات مساكن الفقراء. كانت سيئة السمعة على ضفتي نهر «بلاتا» وكان العمال والمجرمون يؤدونها على أرضيات ترابية. كان يرقصها رجال المطرقة أو المدية، ذكراً مع ذكر إذا كانت المرأة غير قادرة على متابعة الخطوة الجسورة المتقطعة أو إذا بدا العناق الجسدي أكثر ملاءمة للعاهرات: كان الراقصان ينزلقان ويهتزان ويتمددان ويقفزان في حركات مفاجئة ومتشابكة ومعقدة.

جاءت رقصة التانغو من ألحان رعاة البقر الأميركيين الجنوبيين في الداخل وجاءت من البحر، من أناشيد البحارة. جاءت من عبيد أفريقيا وغجر الأندلس. ساهمت أسبانيا بالغيتار وقدمت ألمانيا الكونسرتينة وإيطاليا الماندولين. قدم سائق العربة بوقه والعامل المهاجر الهارمونيكا، رفيقة لحظات الوحدة. كانت التانغو تمتد فوق الثكنات بخطوة مترددة ثم تهبط، وسط السيركات المتنقلة وأفنية منازل الدعارة في الأحياء الفقيرة. أما الآن، يقدمها عازفو الأرغن في شوارع الشاطئ على حواف بوينس آيرس ومونتيفيديو متجهين نحو مركز المدينة، ثم أخذتها السفن إلى باريس لتجننها.

1890: هارتفورد

مارك توين

خطفت يدا الروائي هانك مورغان، الموظف في مصنع «كولت» للأسلحة، إلى بلاط الملك آرثر البعيد. سافر الهاتف والدراجة والديناميت إلى أزمنة الساحر ميرلن والسير جالاهاد في وادي كاميلوت. هناك نشر هانك مورغان وباع صحيفة بسعر متواضع وأسس أكاديمية «ويست بوينت» العسكرية وكشف أن العالم ليس صحنا تسنده الأعمدة. ورغم أنه جاء من مجتمع يعرف الاحتكارات، أحضر هانك إلى القلاع الإقطاعية الأنباء الطيبة عن المنافسة الحرة والتجارة الحرة والانتخابات الحرة. حاول عبثا أن يلغي المبارزات على الأحصنة وينشر كرة السلة، أن يبطل الملكية الوراثية ويحل محلها الديمقراطية أن يلغي قوانين الشرف ويعتمد حساب الكلفة. لكنه أحرق أخيرا ثلاثين ألف فارس إنكليزي برماحهم ودروعهم بالأسلاك الكهربائية التي استخدمت سابقا ضد الهنود في الولايات المتحدة. تسارعت المغامرة نحو ذروة مهلكة وسقط هانك مختنقا من البخارات السامة لضحاياه المتعفنين.

أنهى مارك توين كتابه *يانكي من كونيكتيكت في بلاط الملك آرثر* في منزله في «هارتفورد» وأعلن: «إنه أغنية بجعتي». عاش دائما بسرعة فائقة مطاردا مليونا من الدولارات الهاربة. كان صحفيا ومستكشفا، وكيلا حكوميا، معدن ذهب، مضاربا، مبتكر أدوات ميكانيكية، مدير شركة تأمين ومقاولا فاشلا. بين إفلاس وآخر، نجح في اختراع أو استدعاء توم سوير وهك فن، وعثر على طريقة ليدعونا جميعا إلى رحلة على معدية في نهر الميسيسيبي وفعل ذلك ليس من أجل الرغبة بالوصول، بل من أجل المتعة المحضة للسفر.

1890: ووندد ني (Wounded Knee)

ريح ثلجية

لم يخلق الخالق الهنود بل غناهم ورقصهم.

أعلن الخالق مـن خـلال الأغـاني والرقصـات أن زوبعـة أرض جديـدة خضـراء سـتدمر الأرض القديمة، وأحضر النبيُّ ووفوكا (Wovoka) نبأ ذلك من العالم الآخر. ستُبعث الجواميس في الأرض الجديدة وسيولد الهنود الموتى من جديد وسيغرق طوفان شرس البيض، ولن يبقى مغتصب واحـد على قيد الحياة.

جاءت رقصات وأغاني النبي «ووفوكـا» مـن الغـرب، عـبرت الجبـال الصخريـة وانتشـرت في أرجاء السهول. احتفل هنود «السـيو» الذيـن كـانوا أقـوى القبـائل وأكثرهـا عـددا بـإعلان الجنـة وبنهاية الجوع والمنفى. رقصوا وغنوا من انبلاج الفجر إلى منتصف كل ليلة.

بعد أربعة أيام من عيد الميلاد قاطع رعد نيران البنادق الاحتفالات في مخيم هنـود «السـيو» في «ووندید ني». ثقب الجنود النساء والأطفال والرجال القلائل بالرصاص كالجواميس الكثيرة. هبت ريح ثلجية على الموتى وجمدتهم في الثلج.

أغنية هنود «السيو» النبوية

قلت إنني أمة من الرعد
قلت أنا أمة من الرعد
سوف تحيا.
سوف تحيا.
سوف تحيا.
سوف تحيا.

1891: سانتياغو دي تشيلي

بالماسيدا (Balmaceda)

أراد خوسيه مانويل بالماسيدا أن يطور الصناعة الوطنية *لنعيش ونلبس بأنفسنا*. اعتقد أن حقبـة النترات ستمر دون أن تترك لـ «تشـيلي» شيئا إلا النـدم. رغـب أن يطبـق محرضـات وحمايـات مشابهة لتلك التي مارستها الولايات المتحـدة وإنكلترا وفرنسـا وألمانيـا أثنـاء طفولتـها الصناعيـة. رفع أجور العمال وأنشأ المدارس العامـة في البـلاد ومنـح جسـد تشـيلي الطويـل عمـودا فقريـا مـن سـكك الحديـد والطـرق. أثنـاء أعوامـه كرئيـس، جـازف رأس المـال البريطـاني المقـدس مجازفـة تجديف خطيرة. أراد بالماسيدا أن يؤمم السكك الحديدية وينـهي ربـا المصـارف وشـراهة شـركات النترات.

كان بالماسيدا يريد الكثير واستطاع أن يفعـل الكثـير، لكـن الميزانيـة الضخمـة التـي خصصـها «جون توماس نورث» لشراء الضمائر وحرف العدالـة فعلـت أكـثر. فتحـت الصحـف رعدهـا ضد

القيصر السكران من السلطة، الطاغية عدو الحرية والمعادي للمشاريع الأجنبية، ولم يكـن صخب الأساقفة والبرلمانيين أقل بعثاً للصمم. نشبت انتفاضة عسكرية وتدفق دم الشعب.

أعلنت *الصحيفة الأميركية الجنوبية* (ساوث أميركان جورنال) نصر الانقلاب العسكري: *ستعود تشيلي إلى أوقات الأمس الجيدة*. احتفل المصرفي إدواردو ماتي بذلك أيضاً: *نحن أسياد تشيلي، نحن مالكو رأس المال والتربة وكل ماتبقى هو جمهور قابل للتأثر والبيع*.

انتحر بالماسيدا.

1891: واشنطن

أميركا الأخرى

عاش خوسيه مارتي عشرة أعوام في الولايات المتحدة. أعجبته أشياء كثيرة في تلك البلاد المتنوعة والفتية حيث لا أحد يخاف من أي شيء جديد. لكن خوسيه شجب في مقالاته الطموحات الإمبريالية للأمة الشابة، تمجيدها للجشع وتحويله إلى حق مقدس والتمييز العنصري الذي يبيد الهنود ويذل السود ويحتقر اللاتينيين.

قال مارتي إنه في جنوب ريو هناك أميركا *أخرى، أميركا الخاصة بنا، الأرض التي تتلعثم*، التي لا تتعرف على شبهها الكامل لا في المرآة الأوروبية ولا في المرآة الأميركية الشمالية. إنها الوطن الأميركي الهسباني الذي يطالب باسترداد كوبا ليكمل نفسه، بينما في الشمال يطالبون بها كي يلتهمونها. إن مصالح أحد الأميركيتين لا تتزامن مع مصالح الأخرى.

سأل مارتي: *هل يناسب الاتحاد السياسي والاقتصادي مع الولايات المتحدة أميركا الهسبانية؟*

ثم أجاب: *إن وحدة بين طائري كندور أو حملين هي أقل خطرا من وحدة كندور وحمل*.

عقد العام الماضي المؤتمر الأول الشامل لأميركا في واشنطن وأرسل مارتي كمندوب للأوروغوي من أجل مواصلة الحوار. قال: *كل من يقول وحدة إقتصادية، يقول وحدة سياسية. الشعب الذي يشتري يصدر الأوامر، الشعب الذي يبيع يخدم... الشعب الذي يريد أن يموت يبيع لشعب واحد فحسب، والشعب الذي يريد إنقاذ نفسه يبيع لأكثر من شعب... الشعب الذي يريد أن يكون حرا يوزع عمله بين شعوب متساوية القوة. إذا كان يجب أن يفضل أي منها، فضل الذي يريد القليل على الأقل ازدراء...*

كرس مارتي حياته لأميركا *الأخرى*: أراد أن يحيي كل شيء فيها قتل منذ الغزو فصاعدا، وأن يكشفها ويدفعها إلى التمرد، لأن هويتها المختبئة التي خينت لن تنكشف حتى تفك قيودها.

أي خطأ يمكن أن ترميه في وجهي أمي العظيمة أميركا؟ مارتي ابن الأوروبيين، لكن ابن أميركا، الوطني الكوبي المخلص للوطن العظيم، شعر أن دم الشعوب المجروحة يتدفق في

شرايينه، تلك الشعوب التي ولدت من النخيل أو بذار الذرة والتي سمت درب التبانة *طريق الروح* والقمر *شمس الليل أو الشمس النائمة*. هكذا كتب مجيبا سارمينتو المشغوف بكل مـا هـو أجنبي: *هذه ليست معركة بين الحضارة والبربرية، بل بين التعلم المزيف والطبيعة.*

1891: نيويورك

بدأ التفكير يصبح تفكيرنا كما يعتقد خوسيه مارتي

... أن تعرف هو أن تحلـل. إن معرفـة البـلاد وحكمـها وفقـا لمعرفتنـا هـي الطريقة الوحيدة لتحريرها من الطغيان. ينبغي أن تخضع الجامعة الأوروبية للجامعة الأميركيـة. يجـب أن يوضـع تاريخ أميركا منذ «الآنكيين» حتـى الآن علـى رؤوس أصابعنـا حتـى ولـو لـم يعلـم تـاريخ القضـاة اليونانيين. إن يوناننا أفضل من اليونان التي ليسـت لنـا. يجـب أن يحـل السياسـيون الوطنيـون مكان السياسيين الغرباء. لتطعم جمهورياتنا بالعالم لكن الجذع يجب أن يكون جذع جمـهورياتنا. وليصمت المتحذلق المهزوم، ذلك أنه ليس هناك وطن يقدر أن يفخر به المرء كثيرا مثل جمهورياتنا الأميركية المجروحة ...

كنا قناعاً ببنطلونات من إنكلترا وصدارٍ باريسـية وسـترات مـن أميركـا الشـمالية وطاقيـة مـن أسبانيا ... كنا كتّافيات وشملات في بلدان جاءت إلـى العـالم تنتعـلُ خفـاً وشـعرها معصـوب ... لا الكتاب الأوروبي ولا الكتاب اليانكي قدّما مفتاحاً للغز أميركا ...

تقف الشعوب وتحيي بعضها. وتسأل: من نشـبه؟ وتجيـب بعضـها مـاذا تشـبه. حـين تـبزغ مشكلة في كوخيمار (Cojimar) لا يذهبون إلى دانزيغ (Danzig) بحثاً عن حلها. لا تزال المعاطف الواقية من المطر فرنسية لكن التفكير بدأ يصبح أميركياً ...

1891: غواناخواتو

34 شارع كانتاراناس تصوير فوري

ينحني الرامي ذو الرأس المغطى ويسدّد. لا تبتسم الضحية التي هي سيد من غواناخواتو رفيـع النسب، ولا تتحرك أو تتنفس. كانت الستارة مسدلة خلفه وكان ثمة مشهد ورقي مشغول بالجص وكان درج دعامة المسرح لا يقود إلى أي مكان. محاطة بأزهار ورقية وأعمـدة كرتونيـة ودرابزيـن، تضع الشخصية الوقورة يدها على ذراع كرسي وتواجه بكرامة الفـم المدفعـي للكـاميرا ذات الجـزء الجلدي المتمدد.

صور جميع أبناء «غواناخواتو» في الإستوديو الواقع في 34 شارع «سانتاراناس». كان رومالدو غارسيا يصور الأسياد وزوجاتهم وأبناءهم، الفتيان الذين يبدون كأقزام يرتدون صداري فضفاضة بساعات جيب وفتيات صارمات كالجدات تسحقهن قلنسوات حريرية مزينة بأشرطة. كان يصور الرهبان السمان والجنود في لباسهم العسكري الكامل والذين يتناولون العشاء الرباني للمرة الأولى والعشاق وأيضا بعض الفقراء الذين يجيئون من بعيد ويقدمون ما لا يملكونه ليأخذوا وضعية أمام كاميرا الفنان المكسيكي الذي فاز بجائزة في باريس، مرتدين أفضل ثيابهم المكوية بمباهاة وحليقي الشعر.

كان الساحر رومالدو غارسيا يحوِّل الأشخاص إلى تماثيل ويبيع الخلود للفانين.

1891: بوريسيما دل رنكون

حيوات

لم يتعلم من أحد. كان يرسم لأنه أحب ذلك. كان يُدفع لـ«هيرمينيجيلدو بستوس» بسخاء أو أربعة بنسات مقابل الصورة. لم يكن سكان بوريسيما يملكون مصوراً فوتوغرافياً بل رسّاماً.

منذ أربعين عاماً رسم «هيرمينيجيلدو» صورة لـ«ليوكاديا لوبيث»، حسناء البلدة، وكانت تشبهها كثيراً. مذاك، شاهدت بلدة «بوربسيما» عمليات دفن وحفلات زفاف ناجحة، كثيراً من ألحان المناجاة ونزع أحشاء في البارات وهربت فتاة مع مهرج سيرك متنقل. ارتجفت الأرض أكثر من مرة وأرسل حاكم جديد أكثر من مرة من «مكسيكو سيتي»، وبينما كانت الأيام البطيئة تمر بشموسها وأمطارها الغزيرة تابع «هيرمينيجيلدو بستوس» رسم البشر الأحياء الذين شاهدهم والموتى الذين تذكرهم.

كان أيضاً حدائقياً وبائع بوظة ودزينة من الأشياء الأخرى. كان يزرع الذرة والفاصولياء في أرضه أو بالتفويض وينشغل دائماً في مكافحة ديدان المحاصيل. كان يصنع الحلوى المتجلدة من الجليد الذي يجمعه عن أوراق «الأغاف»[1] وحين يخف البرد كان يخلل البرتقال. كان يطرز أيضاً الرايات الوطنية ويصلح السقوف الراشحة ويدير قرع الطبول أثناء الأسبوع العظيم، يزيّن الستائر والأسرة والأكفان. وبلمسة رشيقة جداً رسم الدونا بومبوسا لوبيث شاكراً العذراء الأكثر قداسة التي سحبتها عن فراش موتها، ورسمَ الدونا ريفجيو سيجوفيا، مشيداً بمفاتنها دون أن يحذف شعرة من الخصل المتدلية على جبهتها وناسخاً المشبك الذهبي المعلق حول عنقها والذي كتب عليه: «ريفوجيتو».

كان يرسم نفسه حليق الذقن والشعر بعظمي خدين بارزين وحاجبين متغضنين وبزة عسكرية، وكان يكتب على ظهر الصورة: *هيرمينيجيلدو بستوس، هندي من بلدة بوريسيما*

---

[1] شجر.

دل رنكون، ولــدت في 13 نيسان 1832 ورسمت صورتـي في 19 حزيران 1891، لأرى إن كنـت أستطيع ذلك.

1892: باريس

فضيحة القناة

أعلنت محكمة فرنسية إفلاس شركة قناة بنما. علق العمل وانتشرت الفضيحة. اختفـت فجـأة مدخرات آلاف من الفلاحين الفرنسيين والبورجوازيين اللؤماء. كان المشروع الذي سيفتح شقا بـين المحيطين، ذلك المر الذي حلم به الغزاة، عمليــة غـش عملاقـة. ونشـرت وقـائع تبذيـر ملايـين عديدة من أجل رشوة السياسيين وإسكات الصحفيين. كتب فريدريك أنجلز من لندن: *يصلح مشروع بنما أن يكون للجمهورية البورجوازية صندوق باندورا وأعني تلك الفضيحــة القوميـة المهيبـة التـي تخطت جميع الحدود. لقد اجترحت معجزة تحويل قناة لم تشق بعد إلى هاوية لا يسبر لها غور.*

لم يذكر أحد العمال الآنتيليين والصينيين والـهنود الشـرقيين الذيـن أبادتـهم الحمـى الصفـراء والملاريا بسرعة سبعمائة وفية في كل كيلومتر من قناة شقت عبر الجبال.

1892: سان خوسيه، كوستاريكا

نبوءة شاعر نيكاراغوي شاب

يدعى روبن داريو

سيشهد القرن القادم أعظم الثورات التي أدمت الأرض. السمك الكبير يـأكل الصغـير؟ هـذا مـا سيحدث لكننا سنستعيد حالا ما يخصنا. تسود حياة الفقر والعوز ويحمل العامل على كتفيه لعنـة بحجم الجبل. ولا شيء يهم الآن سوى الذهــب البـائس والذيـن حرمـوا مـن الـميراث هـم القطيـع الأبدي الذي يساق إلى المسلخ الأبدي.

ما من قوة ستقدر على احتواء تيارات الانتقام المهلكة وسيكون علينـا أن نغنـي نشـيدا وطنيـا جديدا، سيدمر، كبوق أريحا، منازل الأشرار...

ستشاهد السماء بفرح مخيف، وسط رعد الكارثة المخلصة، إخصاء الأشرار المتعجرفين والانتقام المطلق والمرعب للبؤس المنتشي.

1893: كاندوس

أنطونيو كونسلهيرو

طاف الأنبياء وقتا طويـلا في أراضـي الـبرازيل الشـمالية الشـرقية المحروقـة وأعلنـوا أن الملـك «سيباستيان» سيعود من جزيرة «لاس برومـاس» (Las Brumas) ليعــاقب الأغنيـاء ويحـول السـود

إلى بيض والشيوخ إلى شباب. قالوا: حين ينتهي القرن ستصبح الصحراء بحرا والبحر صحراء وستدمر النار المدن الساحلية وعبدة النقود والخطيئة المسعورين. وعلى رماد ريسيفه (Recife) و(ساو باولو) وباهيا وريو، ستنهض قدس جديدة يحكم فيها المسيح ألف عام. أعلن الأنبياء أن ساعة الفقراء تقترب وفي غضون سبعة أعوام ستهبط السماوات إلى الأرض وعندئذ لن يكون هناك مرض أو موت وسيدفع كل ظلم في العهد الأرضي والسماوي الجديد.

كان التقي أنطونيو كونسلهيرو يتجول من بلدة إلى أخرى شبحا قذرا ومغبرا تتبعه جوقة من الصلوات. كان جلده درعا جلديا مكدودا ولحيته دغلا من العليق وسترته كفنا ممزقا. لم يكن يأكل أو ينام، كان يوزع الصدقات التي يجمعها على الفقراء ويتحدث مع النساء مديرا ظهره. رفض أن يطيع الحكومة الفاسقة للجمهورية ورمى فرمانات الضريبة في النار في ساحة بلدة بوم كونسيلهو (Bom Conselho).

حين طاردته الشرطة هرب إلى الصحراء ومع مئتين من الحجاج أسس جماعة «كاندوس» قرب قاع نهر سريع الزوال حيث لا تسمح الحرارة للمطر أن يلمس التربة. وعلى السفوح الصلعاء للتلال نهضت أكواخ الطين والقش الأولى. وفي وسط تلك الأرض المنزوية، أرض الميعاد، الدرجة الأولى إلى السماء، رفع أنطونيو كونسلهيرو بانتصار صورة المسيح وأعلن القيامة: *سيباد الأغنياء والكفرة والمتقلبون. ستصطبغ المياه بالدم، سيكون هناك راع واحد وقطيع واحد فحسب. قبعات كثيرة وبضعة رؤوس...*

1895: كي ويست (Key West)

الحرية تسافر في سيجار

لا ينام أبدا ولا يكثر من الطعام. كان خوسيه مارتي يجمع البشر والنقود ويكتب المقالات والرسائل ويلقي الخطب والقصائد والمحاضرات ويناقش وينظم ويشتري الأسلحة. لم يقدر عشرون عاما من المنفى على إطفاء ضوئه.

كان دائما يعرف أن كوبا لا تستطيع أن تكون نفسها دون ثورة. أسس منذ ثلاثة أعوام الحزب الثوري الكوبي على سواحل فلوريدا الثلاثة. ولد الحزب في مشاغل التبغ في تامبا و«كي ويست» برعاية العمال الكوبيين المنفيين الذين سمعوا مارتي شخصيا وقرأوا كتاباته.

كانت المشاغل كجامعات عمل واقتضى التقليد أن يقرأ المرء الكتب أو المقالات بينما يعمل الآخرون صامتين وهكذا كان عمال التبغ يتلقون أفكارا وأنباء ويسافرون يوميا عبر العالم والتاريخ وفي أقاليم الخيال الرائعة. كانت الكلمة الإنسانية تنطلق من فم القارئ وتخترق المرأة التي تنزع ضلوع أوراق التبغ والرجال الذين يلفون الأوراق ويمسدون السيجار على الفخذ أو الطاولة. وبعد أن اتفق مع الجنرالين «ماكسيمو غوميث» وأنطونيو ماسيو، أصدر مارتي أمر الهجوم. سافر الأمر من مشاغل فلوريدا هذه ووصل إلى كوبا مخبأ داخل سيجار هافانا.

1895: بلاييتاس (Playitas)

النزول

بعد أربعين عاما من الآن سيذكر ماركوس دل روزاريو: «*لم يحبني الجنرال «غوميث» من النظرة الأولى*». *سألني: لماذا أنت ذاهب إلى كوبا؟ هل أضعت شيئا ما هناك؟* سيصفق ماركوس نافضا الأوساخ عن يديه. *كان الجنرال غوميث عجوزا خرافيا صغيرا، قويا ورشيقا جدا، يتحدث بصوت مرتفع ويتراجع إلى الخلف محاولا ابتلاعك..*»

سيعبر البستان باحثا عن ظل. «*أخيرا عثرنا على سفينة أنزلتنا في مكان قريب من ساحل كوبا*».

سيظهر حلقات أرجوحته الشبكية الحديدية: «*تركتنا السفينة في البحر وكان ثمة موجة طامية مرعبة ...*

دومينيكيان وأربعة كوبيين في قارب، تلعب العاصفة بهم، أقسموا أن يحرروا كوبا.

«*كانت ليلة مظلمة لا تقدر أن ترى فيها أي شيء...*

يطلع قمر أحمر يتعارك مع الغيوم بينما يصارع القارب بحرا غاضبا.

كان العجوز في الحيزوم يمسك العجلة بينما كانت بوصلة القارب مع مارتي.. نزعت موجة كبيرة العجلة من يدي الجنرال.. كنا نقاتل البحر الذي أراد أن يبتلعنا ويمنعنا من الوصول إلى كوبا..

ونتيجة سحر ما لا يتحطم القارب على الجروف بل يطير ويغوص ويطفو. فجأة يسير مع الريح، ينفتح الموج ويظهر شاطئ صغير أو بالأحرى حدوة حصان من الرمل.

«*وقفز الجنرال غوميث إلى الشاطئ وحين وقف على اليابسة قبل الأرض مباشرة وصاح كالديك*».

1895: أرويو هوندو

في سلسلة الجبال

ليس بحزن، بل بتألق وابتهاج سيتحدث ماركوس ديل روزاريو عن مارتي: «*حين شاهدته، اعتقدت أنه ضعيف جدا ثم رأيت أنه سلك صغير حي يقفز هنا ويهبط هناك...*»

علمه مارتي الكتابة. وضع مارتي يده على يد ماركوس وهو يرسم حرف الألف: «*اذهب إلى المدرسة وأصبح عبقريا*».

كان ماركوس يعتني «بمارتي» ويصنع له مخدات جيدة من الأوراق الجافة ويحضر له ماء جوز الهند ليسقيه. أصبح الرجال الستة الذين هبطوا في «بلاييتاس» مائة ثم ألفا... كان مارتي يتقدم حاملا حقيبة على ظهره ومعلقا بندقية على كتفه ويتسلق سلسلة الجبال محرضا البشر.

«حين كنا نتسلق الجبال مثقلين بالحمولات، كان يتعرض أحيانا للسقوط فأسرع لأمسك به لكنه يقول بسرعة: لا، شكرا لك، لا. كان يحمل خاتما مصنوعا من الأغلال التي قيده بها الأسبان حين كان لا يزال طفلا».

1895: معسكر دوس ريوس (Dos Rios)

إنجيل مارتي

كتب مارتي وهو يرتدي قميصه في المعسكر رسالة إلى صديقه الحميم «مانويل ميركادو» أخبره فيها أن حياته معرضة للخطر كل يوم وأنها جديرة بأن يمنحها من أجل بلاده *ومن أجل واجبي في أن أمنع الولايات المتحدة، بعد أن تحصل كوبا على استقلالها، من أن تمد نفسها إلى جزر الآنتيل وأن تهبط، بقوة إضافية، على أراضينا الأميركية. إن كل ما فعلته حتى الآن وكل ما سأفعله هو من أجل ذلك. وينبغي أن يتم هذا بهدوء...*

إن الكوبيين يبذلون الدماء ليمنعوا *الشمال الهائج والوحشي الذي يحتقرهم من ضم شعوب أميركا الخاصة بنا، إليه... ذلك أنني عشت داخل الوحش وأعرف أحشاءه ومقلاعي هو مقلاع داود.* وأضاف: *هذه مسألة حياة أو موت وليس ثمة مكان للرعب.*

غير فيما بعد لهجته. كانت هناك أشياء أخرى يريد أن يتحدث عنها: *والآن أحدثك عن نفسي.* لكن الليل أوقفه أو ربما التواضع، حالما بدأ يقدم لصديقه أعماق روحه تلك. كتب:

ثمة *عاطفة من الصدق الشفيف*... وكان هذا آخر ما كتبه.

في ظهيرة اليوم التالي، أسقطته رصاصة عن حصانه.

1895: نيكينوهومو

سيكون اسمه ساندينو

تجمع البشر على باب المنزل المصنوع من الطوب بعد أن جذبتهم صرخة. كعنكبوت متدلية، حرك الطفل الوليد ذراعيه وساقيه. لم يأت الملوك المجوس ليرحبوا به، بل قدم له الهدايا عامل مزرعة ونجار وامرأة كانت في طريقها إلى التسوق.

قدمت العرابة ماء الخزامى للأم وقدمت للولد قرص عسل كان تذوقه الأول للعالم.

فيما بعد، دفنت العرابة المشيمة التي بدت كجذر في زاوية حديقة. دفنتها في بقعة جيدة معرضة لضوء الشمس لكي تصبح تربة هنا في «نيكينوهومو».

في غضون بضعة أعوام، سيصبح الطفل الذي خرج لتوه من المشيمة تربة أيضا، التربة المتمردة لـ«نيكاراغوا» كلها.

1896: بور ـ أوبرانس

أقنعة

استنادا إلى دستور «هاييتي»، تتحدث جمهورية السود الأحرار اللغة الفرنسية وتتعاطى الدين المسيحي. لكن الأطباء كانوا مقهورين لأن اللغة الكريبولية استمرت، رغم القوانين والعقوبات، لغة لجميع الهاييتين تقريبا واستمر الجميع تقريبا يؤمنون بالآلهة الودونية التي تتجول بعدد كبير في الغابات والأجساد.

طلبت الحكومة من الفلاحين أن يقسموا علنا:

أقسم أن أدمر جميع الأوثان والخرافات إذا حملتها معي أو كانت في منزلي أو أرضي. أقسم ألا أدنس نفسي بأية ممارسة خرافية ...

1896: بوكا دي دوس ريوس

قداس من أجل راحة الموتى

«هل حدث هذا هنا؟»

مر عام وما يزال «ماكسيمو غوميث» يروي القصة لـ«كاليكستو غارسيا». قاد المحاربون القدماء من أجل استقلال كوبا المسير من نهر «كونترامايستر» وتقدمت جيوشهم خلفهم. روى الجنرال غوميث كيف أكل مارتي بشهية جيدة في منتصف الطريق ثم قرأ بعض الأشعار كعادته وكيف سمعوا صوت بعض الطلقات وركض الجميع بحثا عن الأحصنة.

أحدث الأمر هنا؟

جاؤوا إلى دغل عند مدخل الطريق إلى «بالو بيكادو».

قال أحدهم: *«هنا»*.

نظف حاملو المناجل بقعة الأرض.

قال غوميث: *«لم أسمعه يشكو أبدا ولم أشاهده يستسلم»*. وأضاف مدمدما وغاضبا: *أمرته، نصحته أن يبقى في الخلف*.

بقعة أرض بحجم جسده.

أسقط الجنرال «ماكسيمو غوميث» حجرا ورمى الجنرال كاليكستو غارسيا حجرا آخر. اصطف الضباط والجنود وسقطت الأحجار وراء بعضها مصدرة طقطقة حادة، تجمعت الأحجار فوق بعضها رافعة نصب مارتي التذكاري نحو السماء ولم تكن تسمع سوى تلك الطقطقات في صمت كوبا الشاسع.

1896: بابييتي (Papeete)

فلورا تريستان

قدم القماش العريض والعاري نفسه متحديا. كان بول غوغان يرسم ويصطاد في الجوار ويضيف اللون كأنه يودع العالم فيما كانت يده اليائسة تكتب: *من أين جئنا، من نحن، إلى أين نحن ذاهبون؟*

منذ أكثر من نصف قرن سألت جدة غوغان السؤال نفسه في أحد كتبها وماتت دون أن تعثر على جواب. لم تذكر عائلة فلورا تريستان البيروفية ذلك أبدا، ربما بسبب الحظ السيء أو لأنها كانت مجنونة أو شبحا. حين سأل «بول» عن جدته في سنوات طفولته البعيدة في ليما، أجابوه:

حان وقت النوم، لقد تأخر الوقت.

أحرقت فلورا تريستان حياتها وهي تبشر بالثورة، الثورة البروليتارية وثورة النساء اللائي يستعبدهن الأب ورب العمل والزوج. دفع عمال «بوردو» ثمن كفنها وحملوها في تابوت إلى المقبرة.

1896: بوغوتا (Bogota)

خوسيه أسنسيون سيلفا

كان يحب شقيقته ألفيرا، عطر الخزامى، بخور البلسم، القبلات المختلسة لأكثر الجنيات شحوبا في «بوغوتا» وكتب من أجلها أفضل أشعاره. كان يزورها في المقبرة كل ليلة ويشعر أن وجوده عند قبرها أفضل من وجوده بين أصحابه الكتاب.

ولد خوسيه أسنسيون سيلفا مرتديا السواد وكان ثمة زهرة في عروته، وهكذا عاش ثلاثين عاما، من محنة إلى أخرى، هذا المؤسس الذاوي للحداثة في كولومبيا. أخذ إفلاس والده، تاجر الحرير والعطور، الخبز من فمه وفقدت أعماله الكاملة في تحطم سفينة في البحر.

في وقت متأخر من الليل، كان يناقش للمرة الأخيرة إيقاع قصيدة منظومة على البحر الإسكندري. حمل مصباحا في يده وودع من الباب ضيوفه. ثم دخن سيجارته التركية الأخيرة وأشفق على نفسه أمام المرآة للمرة الأخيرة. معذبا من دائنيه ومن المحتقرين الذين يدعونه «سوزان الطاهرة»، فك الشاعر أزرار قميصه وضغط فوهة المسدس على الصليب الذي رسمه طبيب صديق على قلبه.

1896: مناوس (Manaos)

الشجرة التي تبكي حليبا

كان الهنود يسمونها كوتشو. كانوا يشقونها فيتدفق الحليب ويجمع في أوراق لسان الحمل المطوية كالآنية ويجفف في حرارة الشمس أو بالدخان بينما تمنحه اليد البشرية الشكل. منذ أزمان

سحيقة، صنع الهنود من هذا الحليب البري مشاعل تستمر طويلا وآنية لا تنكسر وسقوفا تهزأ بالمطر وكرات تقفز وتطير.

منذ أكثر من قرن، تلقى ملك البرتغال سيرنكات دون إبر من البرازيل وألبسة مضادة للرصاص، وقبل ذلك، درس الفقيه الفرنسي لاكوندامين (La Condamine) فضائل الصمغ الفضائحي الذي لم يأبه بقانون الجاذبية.

سافرت آلاف مؤلفة من الأحذية من الغابة الأمازونية إلى ميناء بوسطن إلى أن اكتشف تشارلز جودييز وتوماس هانكوك، منذ نصف قرن، كيف يمنعان انكسار وتمدد الصمغ. بعدئذ، بدأت الولايات المتحدة تنتج خمسة ملايين حذاء في العام، أحذية محصنة ضد البرد والرطوبة والثلج وبزغت معامل كبيرة في إنكلترة وألمانيا وفرنسا.

ولم ينحصر الأمر في إنتاج الأحذية، كثر الصمغ المنتجات وخلق الحاجات. ودارت الحياة الحديثة دائخة حول الشجرة الضخمة التي تبكي حليبا حين تجرح. منذ ثماني سنوات، ربح ابن دون دنلوب سباقا في «بلفاست» للدراجات الثلاثية العجلات مستخدما الإطارات الهوائية التي اخترعها والده لتحل مكان العجلات الصلبة. وفي العالم الماضي، اخترع ميتشيلين Michelin إطارات هوائية قابلة للاستبدال لسباق سيارات من باريس إلى بوردو».

الأمازون، الغابة الفانتازية التي بدت مستودعا للقردة والهنود والمعتوهين، أصبحت منطقة لعب محظورة لشركة المطاط الأميركية ولشركة ربر آمازون ولمشاريع أخرى بعيدة ترضع حليبها.

1896: مناؤس (Manaos)

العصر الذهبي للمطاط

ارتفعت الستارة ببطء بينما كانت تعزف التأليفات الأولى لأوبرا بونتشيلي (Ponchielli) الجوكوندا (La gioconda). كانت ليلة احتفال وأبهة عظيمة وبعوض في مدينة مناؤس. كانت ليلة احتفال وأبهة وبعوض في مسرح «أمازوناس» وكان نجوم الأوبرا الإيطالية يدشنون مسرح أمازوناس الذي هو صحن رخام جلب مثلهم من أوروبا إلى قلب الغابة.

كانت «مناؤس» وبيليم دو بارا (Belem do Para) عاصمتي المطاط في البرازيل. ومثل إكيتوس (Iquitos) التي تقع في الأدغال البيروفية، بلطت المدن الأمازونية الثلاث شوارعها ببلاط أوروبي وأنعشت لياليها بفتيات ذات وضع اجتماعي واحد من باريس وبودابست وبغداد أو من الغابة المحلية. كانت المخاصر الذهبية تدير الفرق الموسيقية وسبائك الذهب تستخدم كأثقال توضع على الأوراق وكانت بيضة دجاجة تكلف ذراعا وساقا. كان البشر المهمون جدا يشربون مشروبات فاخرة مستوردة ويتعافون في ينابيع فيشي المعدنية الحارة ويرسلون أولادهم ليدرُسوا في لشبونة أو جنيف في سفن «بوث لاين» التي تجيء وتروح في مياه نهر الأمازون العكرة.

من الذين كانوا يقومون بالعمل في غابات المطاط؟ كـان يقـوم بـهذا العمـل في الـبرازيل ضحايـا الجفاف في الشمال الشرقي. كان الفلاحون يأتون من تلك الصحارى إلـى هـذه المستنقعات حيث من الأفضل للمرء أن يكون سمكة. كان ذلك السـجن الأخضـر يسجنهم بعقـد وكـان المـوت يـأتي سريعا لينقذهم من العبودية والعزلة المروعة. أما في بيرو كانت الأيدي العاملة هندية ولقـد أبيـدت قبائل كثيرة في عصر المطاط ذاك الذي بدا أبديا.

1897: كانودس (Canudos)

يوكليدس دا كنها

كانت الأرض تصدر دخانـا وتلتـهب وتتسـع أثنـاء النـهار. حـين يخيـم الليـل، فـأس الجليـد، ترتجف الأرض وتتقلـص وفي الفجـر تنشـق نصفـين. كتـب يوكليـدس دا كنـها في دفـتره: *حطـام الزلازل*. ونوه: *مشهد طبيعي يبدو أنه صنـع ليـهرب*. رصـد تجـاعيد الأرض ومنعطفـات النـهر، قطعة الطين الجافة والملتفة التي يدعوها الهنود «ريد هنـي»، وبحـث دون جـدوى عـن ظـل بـين الأدغال المكتسحة. هنا، كان الهواء يحول كل ما يلمسه إلى حجر ويستلقي جندي مديـرا وجهـه إلى الأعلى، مادا ذراعيه وكان الجرب قد شوه جبهته. قتلوه منذ ثلاثة أشهر في قتال يدوي وأصبح الآن تمثال نفسه.

سمع صـوت الطلقـات مـن بعيـد، مـن قريـة كـانودس المقدسـة. اسـتمر إطـلاق النـار المتقطـع أياماً وشهوراً وتنوّع أحياناً ليصبـح قصـف مدفعيـة وانفجـارات وإطـلاق نـار مـن رشاشـات وكـان يوكليدس يحب أن يفهم أي نوع من القوة يمكّن الفلاحـين المتصوّفـين مـن مقاومـة هجـوم ثلاثـين كتيبة دون خوف. كـانت آلاف كثـيرة منـهم تقـدم نفسـها للقتـل بدافـع مـن الإخـلاص للمسـيح المخلّص «أنطونيو كونسلهيرو»، وسأل مؤرخ هذه الحرب المقدسة نفسه كيف يستطيعون خلط تلـك السهول العارية بالسماء وذلك الرؤيـوي الـذي هـرب مـن مشـفى المجـانين الـذي لـم يتسـع لـه، بالمسيح.

متردداً بين القرف والإعجاب وصف يوكليدس دا كُنها ما شاهده، من حيرة إلى أخرى، لقراء صحيفة في «ساو باولو». كان يوكليدس، الاشتراكي على الطراز الأوروبي، الـهجين الـذي يحتقـر الهجن، والبرازيلي الذي يشعر بالعار من البرازيل، بين أكثر المفكريـن تألقـاً في الجمهوريـة التـي تعرض على رايتها الحديثة الولادة شعار «النظام والتقدم». وبينما كـانت عمليـة الذبـح تتواصـل، بذل جهداً ليفهم لغز الأرض الشمالية الشرقية التي تقع خلف السـاحل، أرض المتعصّبـين حيـث تورث العداوات والولاءات، حيث تُعالج كآبة القطيع المنبـوذ بـالصلوات ويُحتفـل بمـوت الأطفـال بالغيتارات.

1897: كانودس

كان الموتى يحتوون رصاصا أكثر من العظام...

لكن آخر المدافعين عن كانودس كانوا يغنون وراء صليب ولا يزالون يتوقعون وصول كبار الملائكة.

طلب قائد الصف الأول أن تصور جثة أنطونيو كونسلهيرو المريعة *لكي يؤكد موته*، لأنه كان يحتاج إلى التأكد من ذلك. من زاوية عينه نظر القائد إلى حفنة الأسمال والعظام الصغيرة.

شيد أكثر الفلاحين بؤسا في جميع العصور متراسا من الأجساد حول ذلك المتوشلح المسحوق، عدو الجمهورية والمدن المذنبة. توجب إرسال خمس حملات عسكرية: حاصر خمسة آلاف جندي «كانودس» وكان عشرون مدفعا يقصف من سفوح التلال في حرب لا تصدق بين الغدارة ورشاش نوردنفلت.

حولت الخنادق إلى قبور من الغبار لكن جماعة كانودس لم تستسلم، تلك اليوتوبيا التي بلا ملكية أو قانون حيث يتقاسم الفقراء الأرض الشحيحة والخبز الحقير والإيمان برحابة السماء.

قاتلوا من منزل إلى آخر، من إنش إلى آخر.

سقط آخر الأربعة الذين بقوا على قيد الحياة، ثلاثة رجال وطفل.

1897: ريو دي جانيرو

ماتشادو دي أسيس (Machado De Assis)

كان الكتاب البرازيليون المنقسمون إلى طوائف تلعن بعضها يحتفلون بالعشاءات الأخيرة والإهداءات في «كولومبو» ومقاهي ومكتبات أخرى. هناك كانوا يودعون، في جو تفوح منه رائحة الطهارة، رفاقهم الذين كانوا يسافرون لوضع أزهار على قبر «موباسان» في باريس، وفي تلك المعابد، على صوت كؤوس باركتها مشروبات مقدسة، ولدت أكاديمية الآداب البرازيلية وكان رئيسها الأول «ماتشادو دي أسيس».

إنه روائي أميركا اللاتينية العظيم في هذا القرن الذي عرت كتبه بمحبة وسخرية المجتمع الراقي للدبابير، الذين غزاهم هو، ابن الأب الخلاسي، وعرفهم أكثر من أي شخص آخر. مزق ماتشادو دي أسيس الأغطية التنكرية، الإطارات المزيفة للنوافذ المزيفة المطلة على مشاهد أوروبية وكان يغمز القارئ وهو يعري الجدار الطيني.

1898: سواحل كوبا

الثمرة جاهزة للسقوط

هبطت جنيهات الجنرال ويليم شافتر الثلاثمائة وخمسة وعشرون على ساحل كوبا الشرقي. جاءت من مناخات شمالية باردة حيث كان الجنرال مشغولا في قتل الهنود وهنا ذابت في بزته النظامية الصوفية التي لا تقاوم.

رفع شافتر جسمه بضع خطوات على ظهر الحصان ومن هناك تفحص الأفق بمنظار.

لقد جاء ليقود. وكما قال أحد ضباطه، الجنرال يونغ: *كان العصاة المنحطون والكثيرون، مثل متوحشي أفريقيا لا يقدرون أن يحكموا أنفسهم.* حين بدأ الجيش الأسباني ينهار أمام هجوم الوطنيين العنيد، قررت الولايات المتحدة أن تتولى مسؤولية حرية كوبا. إذا جاؤوا، لن يستطيع أحد إخراجهم كما حذر مارتي وماسيو. ثم جاؤوا.

رفضت أسبانيا أن تبيع تلك الجزيرة *بثمن معقول*، وعثر التدخل الأميركي الشمالي على حجته في الانفجار المؤاتي للسفينة الحربية «مين»، التي غرقت في ميناء هافانا بمدافعها الكثيرة وطاقمها.

ادعى الجيش الغازي حماية المواطنين الأميركيين الشماليين وإنقاذ مصالحهم التي تهددها حرب مدمرة وكارثة اقتصادية. لكن الضباط كانوا يشرحون في السر أنهم يجب أن يمنعوا ظهور جمهورية سوداء مقابل سواحل فلوريدا.

1898: واشنطن

عشرة آلاف ضحية

احتجت إدا ويلز (Ida Wells) باسم زنوج الولايات المتحدة الأميركية للرئيس «ماكينلي»، قائلة إن عشرة آلاف عملية قتل حصلت في العشرين عاما الأخيرة. سألت إدا ويلز: إذا كانت الحكومة لا تحمي المواطنين الأميركيين الشماليين داخل حدودها، فبأي حق تدعي تلك الحماية لكي تغزو بلدانا أخرى؟ أليس الزنوج مواطنين؟ أم أن الدستور يضمن لهم حق أن يحرقوا حتى الموت فحسب؟

كان الغوغاء المتعصبون الذين تحرضهم الصحف والمنابر يجرون السود من السجون، يقيدونهم إلى الأشجار، ويحرقونهم أحياء، ثم يحتفل الجلادون في البارات ويذيعون أعمالهم العظيمة في الشوارع.

كان صيادو الزنوج يستخدمون اغتصاب المرأة البيضاء كحجة في بلاد يعتبر فيها اغتصاب الرجل الأبيض للمرأة السوداء طبيعيا، لكن في معظم الحالات، لم يكن السود الذين يحرقون يمتلكون سمعة سيئة أو مشتبه بهم بالسرقة أو الوقاحة.

وعد الرئيس ماكينلي أن ينظر في الأمر.

1898: هضبة سان خوان (San Juan)

تيدي روزفلت

ملوحا بسيفه، عدا تيدي روزفلت على رأس فرسانه الأشداء وحين نزل من هضبة سان خوان كان يحمل راية أسبانية مفتتة. سيحظى بالعظمة كلها من أجل تلك المعركة التي فتحت الطريق إلى سانتياغو دي كوبا. أما عن الكوبيين الذين قاتلوا أيضا، لم يذكر الصحفيون أي شيء.

كان تيدي يؤمن بعظمة القدر الإمبراطوري وبقوة قبضته. تعلم الملاكمة في نيويورك لينقذ نفسه من الضرب والإذلال الذي عانى منه كطفل مريض، مصاب بالربو وقصر البصر. حين بلغ سن الرشد، ارتدى القفازات مع الأبطال، اصطاد الأسود والثيران، ألف الكتب وزأر خطبا. في الصفحة الأولى المطبوعة، وعلى المنصات، كان يمدح فضائل السلالات القوية التي ولدت لتحكم، السلالات المحاربة كسلالته وأعلن أنه في كل تسع من عشر حالات ليس هناك هندي أفضل من الهندي الميت.وقال إن العاشرة يجب أن تفحص بإمعان. كان هذا المتطوع في جميع الحروب يعبد المواصفات العليا للجندي، الذي يشعر في وطيس المعركة، بأنه ذئب وكان يحتقر الجنرالات الناعمين الذين كان يؤلمهم فقدان ألفين من رجالهم.

ولكي ينهي الحرب الكوبية بسرعة، اقترح تيدي أن يدمر أسطول أميركي شمالي بالمدفعية قادس وبرشلونة، لكن أسبانيا المرهقة من الحروب الكثيرة ضد الكوبيين، استسلمت في أقل من أربع ساعات. عدا تيدي روزفلت المنتصر من هضبة سان خوان بالسرعة القصوى ليصبح حاكم ولاية نيويورك ثم صعد إلى رئاسة الولايات المتحدة.

ذلك المتعصب المتحمس لإله يفضل البارود على البخور، أخذ نفسا عميقا وكتب:

ليس هناك نصر سلمي يبلغ عظمة النصر الحربي الكامل.

في غضون بضع سنوات، تلقى تيدي روزفلت جائزة نوبل للسلام.

1898: سواحل بويرتو ريكو

الثمرة تسقط

كان رامون إيميتيريو بيتانسيس ذو اللحية الشائبة الطويلة والعينين الكئيبتين، يحتضر في منفاه الباريسي. قال: *لا أريد مستعمرة مع أسبانيا ولا مع الولايات المتحدة.*

وبينما كان بطرق استقلال بويرتو ريكو يشرف على الموت، كان جنود الجنرال «مايلز» يغنون وهم يهبطون على ساحل جوانيكا (Guanica). كان الجنود يتقدمون أمام النظرة الساكنة لفلاحي قصب السكر والبن، ببنادق معلقة على أكتافهم وفراشي أسنان موضوعة في قبعاتهم.

كان إيو جينو «ماريا دي هوستوس»، الذي أراد أيضا وطنا، يتأمل تلال بويرتو ريكو من على ظهر سفينة ويشعر بالحزن والعار وهو يراها تنتقل من سيد إلى آخر.

1898: واشنطن

يشرح الرئيس ماكينلي أن الولايات المتحدة يجب أن تحتفظ بـ«الفيليبين» بأمر مباشر من الله

كنت أسير على أرض البيت الأبيض ليلة بعد أخرى حتى منتصف الليل ولا أشعر بالعار حين أخبركم أيها السادة أنني ركعت وصليت أكثر من ليلة للإله الجبار كي يضيء لي ويرشدني. ولا أعرف كيف جاءني ذلك بهذه الطريقة في وقت متأخر من الليل: أولا، لا نستطيع أن نعيد الفيليبين لأسبانيا لأن هذا سيكون عملا يتصف بالجبن والعار. ثانيا، لا نستطيع أن نسلمها لفرنسا أو ألمانيا ـ اللتين تتنافسان تجاريا في الشرق ـ لأن هذا سيكون مشروعا سيئا لا يستحق الثناء. ثالثا، لا نستطيع أن نتركها لنفسها لأنها غير مؤهلة للحكم الذاتي وحالا ستهيمن الفوضى والحكم السيء هناك ويصبح الأمر أسوأ مما كان في العهد الأسباني. ورابعا، لم يبق أمامنا ما نفعله سوى أن نأخذها كلها وأن نربي الفيلبينيين ونطورهم ونحضرهم ونجعلهم مسيحيين، ونفعل بنعمة من الله ما نقدر عليه بهم كأشقائنا البشر الذين مات من أجلهم المسيح. ثم بعد ذلك ذهبت للنوم ونمت بعمق.

1899: نيويورك

يقترح مارك توين تغيير الراية

رفعت مصباحي قرب الباب الذهبي. كان تمثال الحرية يستقبل عددا لا يحصى من الحجاج الأوروبيين الباحثين عن أرض الميعاد بينما أعلن أن مركز العالم الذي استغرق آلاف السنين للانتقال من نهر الفرات إلى نهر «التيمز»، أصبح الآن نهر الهدسون.

احتفلت الولايات المتحدة بحماسة إمبراطورية كاملة، بغزو جزر هاواي، ساموا، الفيليبين، كوبا، بويرتو ريكو وبعض الجزر الصغيرة التي سميت بفصاحة Ladrones أي «اللصوص». وأصبح المحيط الهادي والبحر الكاريبي بحيرتين أميركيتين شماليتين وولدت شركة الفاكهة المتحدة. لكن الروائي مارك توين، مفسد المتع، اقترح تغيير الراية الوطنية: يجب أن تكون الألوان البيضاء سوداء والنجوم جماجم وعظام متصالبة.

طلب قائد الاتحاد التجاري «صامويل جومبرز» الاعتراف باستقلال كوبا وشجب أولئك الذين يرمون الحرية إلى الكلاب في لحظة الخيار بين الحرية والفائدة. أما الصحف الكبيرة فقد رأت،

من ناحية أخرى، أن الكوبيين الذين يريدون الحرية هم جاحدون. كانت كوبا بلادا محتلة. وكانت راية الولايات المتحدة التي بدون قضبان سوداء أو جماجم ترفرف مكان الراية الأسبانية وتضاعفت القوى الغازية في غضون عام. كانت المدارس تعلم اللغة الإنكليزية وكانت كتب التاريخ الجديدة تتحدث عن واشنطن وجيفرسون ولا تذكر مارتي أو ماسيو. لم يعد هناك عبودية لكن مقاهي هافانا وضعت يافطات تحذر: «للبيض فقط».

فتحت السوق دون شروط لرأس المال الجائع للسكر والتبغ.

1899: روما

كالاميتي جين (Calamity Jane)

قالوا إنها كانت تنام معلقة مسدسيها على أحد أعمدة السرير وإنها لا تزال تغلب الرجال في البوكر والشرب والتجديف. قتلت كثيرا من الرجال، كما قالوا، بكلاب يعلق بالحنك، منذ أن كانت تقاتل مع الجنرال «كستر» في ويومي (Wyoming) وقتلت الهنود لتحمي المعدنين في التلال السوداء لهنود السيو (Sioux). قالوا إنهم قالوا إنها كانت تمتطي جاموسا في شارع مدينة «رابيد» وأنها سطت على قطارات وأغوت في حصن «لارامي» الشريف الوسيم «وايلد بل هيكوك» الذي منحها ابنة وحصانا اسمه الشيطان يركع ليساعدها على امتطائه. كانت ترتدي دائما بنطالا وقالوا إنها كانت غالبا تنتزعه ولم يكن هناك امرأة أكرم منها في الصالونات ولا أوقح منها في الحب والكذب.

قالوا.. ربما لم توجد أبدا. ربما، ليست الليلة، في ساحة «الوايلد ويست شو» وأن العجوز بوفالو بل يكذب علينا ثانية. ولو لم يكن الأمر من أجل تصفيق الجمهور، لن تكون حتى «كالاميتي جين» الحقيقية متأكدة أنها هذه المرأة التي في سن الرابعة والأربعين، السمينة أكثر من المعتاد والبسيطة، التي تجعل سيفها يطير وتحوله إلى مصفاة.

1899: روما

الإمبراطورية الناشئة تثني عضلاتها

تلقى «بوفالوبل» في احتفال مهيب ساعة ذهبية مرصعة بالألماس من يدي ملك إيطاليا. كان عرض الغرب البري «وايلد ويست شو» يتجول في أوروبا. لقد انتهى غزو الغرب وبدأ غزو العالم. كان بوفالو بل يمتلك رهن أوامره جيشا مؤلفا من خمسمائة رجل. لم يكن يعمل في سيركه رعاة البقر فحسب، بل أيضا الرماحون الأصليون لأمير «ويلز» والفرسان الخفاف للحرس الجمهوري الفرنسي، الفرسان الدارعون لإمبراطور ألمانيا وقوزاق روس وفرسان عرب ورعاة بقر مكسيكيون ورعاة بقر من «الريفر بلاتا». كان جنود فرقة الفرسان الخامسة يؤدون أدوارهم كغزاة وكان الهنود

المغزوون، المنتزعون من أمكنة حجزهم، يظهرون كأشخاص مستأجرين للتمثيل يكررون هزائمهم على رمال الساحة وكان قطيع من الجواميس، قطع المتحف النادرة، يضفي واقعية على البزات الزرق النظامية والخوذ المريشة. كان فرسان تيدي روزفلت الأشداء يمثلون للجمهور غزوهم الأخير لـ«كوبا» وكانت الفرق الكوبية وفرق هاواي والفرق الفيليبينية تقدم تبجيلا صاغرا للراية المنتصرة.

شرح برنامج المشهد الاستيلاء على الغرب بلغة داروين: *إنه القانون الحتمي لبقاء الأنسب*. مجد «بوفالوبل» بعبارات ملحمية الفضائل المدنية والعسكرية لأمته التي هضمت نصف المكسيك وعددا من الجزر والتي تدخل الآن إلى القرن العشرين مسيطرة على العالم بخيلاء قوة عظمى.

1899: سينت لويس

بعيداً

انبعثت النار من الأفواه والأرانب من القبعات، وخرجت من البوق السحري أحصنة زجاجية صغيرة. مرَّت سيارة فوق امرأة متمددة نهضت بعد ذلك بقفزة واحدة، رقصت أخرى وثمة سيف مغروز في بطنها. أطاع دب ضخم أوامر صدرت باللغة الإنكليزية.

دعي «جيرونيمو» إلى دخول منزل بأربع نوافذ. فجأة نهض المنزل وصعد في الجو. مندهشاً، نظر جيرونيمو إلى الأسفل: كان البشر في الأسفل يبدون بحجم النمل. ضحك القيّمون على الأمر وقدّموا له منظاراً كالذي أخذه من الضباط الذين سقطوا في المعركة. قرّب المنظار ما كان بعيداً.

حدّق «جيرونيمو» إلى الشمس فآذى الضوء العنيف عينيه. ضحك القيّمون وبما أنهم ضحكوا، ضحك هو أيضاً.

كان جيرونيمو، أسير حرب الولايات المتحدة، أحد الأشياء الجذّابة في معرض «سينت لويس». كانت الحشود تأتي لتشاهد الوحش المروَّض. كان زعيم «الأباتشي» في أريزونا يبيع الأقواس والسهام ويأخذ، مقابل بضعة سنتات، وضعية أمام الكاميرات، أو يطبع قدر استطاعته، أحرف اسمه.

1899: ريو دي جانيرو

العلاج قتلاً

لعبت أيد سحرية بأسعار البن ولم تقدر البرازيل أن تدفع لمصرف لندن والريفر بلاتا ولدائنين آخرين مهمين. أعلن وزير المالية «جواكيم مرتينهو»: *إنها ساعة التضحية*. كان الوزير يؤمن *بالقوانين الطبيعية* لعلم الاقتصاد، التي، من خلال *الانتخاب الطبيعي*، تشجب الضعفاء، أي الفقراء، أي الجميع. أيجب أن تسترجع الدولة مشروع البن من أيدي المضاربين؟ قال مرتينهو المستاء

إن هذا سينتهك *القوانين الطبيعية* ويعتبر خطـوة خطيرة باتجـاه الاشـتراكية، الطـاعون المخيـف الذي جلبه العمال الأوروبيون إلى البرازيل. قال: الاشتراكية تنكر الحرية وتحول الإنسان إلى نملة.

كان مرتينهو يعتقد أن الصناعة الوطنية تأخذ العمل مـن المسـتعمرات الزراعيـة وترفـع أسـعار الأيدي، وسيشهد مرتينهو، الملاك الحارس لنظام الملكيـة، أن مـالكي الرجـال والأراضـي، الذيـن بقوا سالمين، بعد إلغاء العبودية وإعلان الجمهورية، لـن يعـانوا مـن الأزمـة. ولكـي يدفـع الديـن الإنكليزي ويوازن دفاتر الحسابات، أحرق الوزير في الفـرن أيـة عملـة ورقيـة صادفـها وقمـع أيـة خدمة مدنية في المتناول وأنزل وابلا من الضرائب على الفقراء.

كان مرتينهو، الاقتصادي بحكم الوظيفة والطبيب بحكم المهنة، يجري أيضا تجارب في حقـل الفسيولوجيا. كان ينتزع في مخبره الكتلة الدماغيـة للجـرذان والأرانـب ويشـرح الضفـادع ليـدرس تشنجات الجسد الذي يتابع الحركة وكأنه يمتلك رأسا.

1900: هوانيوني (Huanuni)

باتينو

كان الفارس يجيء من البؤس وينطلق على فرسه في البؤس عبر رياح جليدية، وبعـدو بطـيء، على عراء الكوكب. وكان يتبعه بغل محمل بالأحجار.

أمضى الفارس وقتا طويلا منقبا في الصخور وفاتحا الكهوف بالديناميت. لم ير أبدا البحـر ولـم يعرف مدينة «لاباز»، لكنه اشـتبه أن العـالم يعيـش حقبـة صناعيـة وأن الصناعـة تـأكل المعـادن المحتقرة. لم يذهب إلى الجبال بحثا عن الفضة كما فعل كثيرون. وكما لم يفعل أحد، بحث عـن القصدير مخترقا قلب الجبل، إلى روحه، وعثر عليه.

وصل سيمون باتينو، الفارس الذي أنتنه البرد، المعدن الذي أهلكته العزلة والديون، إلى مدينة «هوانيوني». كان يضع في خرج بغله قطعا من أغنى عرق قصدير في العالم جعلته ملك «بوليفيا».

1900: مكسيكو سيتي

بوسادا

كان يزود الأشعار والأنباء بالرسوم التوضيحية وكانت أوراقه العريضة تبـاع في الأسـواق وعلـى أبواب الكنائس وأينما غنى شاعر نبوءات نوسترادراموس، التفاصيل المريعة لخروج القطار عن الخط في «نيماماتلا» والظهور الأخير لعذراء «غوادالوبه» أو مأساة المرأة التـي أنجبـت أربـع عظـاءات في حي في هذه المدينة.

وبفضل اليد السحرية لـ«خوسيه غوادالوبه بوسادا» لم تفقد أناشـيد الكوريـدو (Corrido) أبـدا تلقائيتها ومحليتها وشعبيتها. كانت سكاكين المتشدقين وألسـنة الـثرثرة دائمـا حـادة في رسـوماته

وكان الشيطان يواصل الرقص و والموت يضحك وشراب البلكة يبلـل الشـوارب وإليوتـيريو البـائس يسحق بحجر ضخم قحف رأس المؤلف القديم لأيامه.

في هذا العام، احتفلت لوحة لـ«بوسادا» بظهور السيارة الكهربائية الأولى في شوارع مكسـيكو، وأظهرت أخرى السيارة تدهس موكب جنازة أمام المقبرة مع تبعثر ضخم للهياكل العظميـة. كـانوا يبيعون مقابل «سنتافو» واحد النسخة المطبوعـة علـى ورق أسمر مـع أشـعار لأي شـخص يعـرف كيف يقرأ ويبكي.

كان مشغله فوضى من اللفافات والأوعيـة وصحـون الزنـك والأسـافين الخشـبية وكـانت كلـها مكومة حول المطبعة وتحت مطر من الأوراق المطبوعة المعلقة كـي تجـف. كـان بوسـادا يعمـل مـن الصباح إلى المساء وهو ينقش الأعـاجيب التـي كـان يسـميها رسـومات صغـيرة. وكـان بـين فينـة وأخرى يذهب إلى الباب ليدخـن سيجارا مريحـا دون أن ينسـى أن يغطـي رأسـه بقبعـة وبطنـه الضخم بسترة صوفية داكنة.

كل يوم، كان يعبر أمام باب بوسادا بروفسورات أكاديمية الفنون الجميلة التي تقع في الجـوار والذين لم ينظروا إليه أو يسلموا عليه أبدا.

1900: مكسيكو سيتي

بورفريو داياث

ترعرع في ظل «خواريز» الذي سماه *الرجل الذي يبكي وهو يقتل*.

«إنه يبكي دائما وسيقتلني إذا لم أكن حريصا».

حكم بورفريو داياث المكسـيك ربـع قـرن وسـجل كتـاب السيرة الرسـميون للأجيـال القادمـة تثاؤباته وأقواله المأثورة، لكنهم لم يدونوا حين قال:

«إن أفضل هندي هو المدفون على عمق ست أقدام».

«اقتلوهم في مكانهم».

«لا تحرضوا القطيع علي».

كان القطيع هو المشرعون الذين يصوتون بـ«نعم» حـين تنحنـي رؤوسـهم مـن النعـاس والذيـن يدعون الدون بورفيريو: *الفريد، الذي لا يقـهر، الـذي لا يستبدل*. كـان الشـعب يسـميه «الـدون بيرفيدي» ويسخر من حاشيته:

«كم الساعة»

«ما تقوله يا سيادة الرئيس».

كان يعرض إصبعه الصغيرة ويقول: *تلاهكالا (Tlaxcala) تؤذيني*.

ويشـير إلـى قلبـه ويقـول: *أواهاكا (Oaxaca)* توجعنـي، ثـم يضـع يـده علـى قلبـه ويقـول: *ميتشوكان (Michoacan) توجعني*، وفي ومضة يأتي ثلاثة حكام ويرتجفون أمامه.

طبق قانون إطلاق النار أثناء الهرب على المتمردين والفضوليين، وفي أوج باكس بورفيريانا، تقدمت مكسيكو. أصبحت الرسائل التي كانت تنقلها البغال والأحصنة أو الحمام، تطير فوق سبعين ألف كيلومتر من أسلاك البرق. وحيث اعتادت عربات المسرح أن تذهب، امتد خمسة عشر ألف كيلومتر من سكك الحديد. كانت الأمة تدفع ديونها في الموعد المحدد وتزود السوق العالمية بالمعادن والغذاء. بزغ حصن في كل عزبة وكان الحراس يراقبون من الشرف المفرجة الهنود الذين لا يستطيعون حتى أن يغيروا أسيادهم. لم يكن ثمة مدارس لعلم الاقتصاد لكن الدون بورفريو كان يحكم محاطا بالعلماء المتخصصين في الاستيلاء على الأراضي التي ستمر فيها سكة الحديد. كان رأس المال يجيء من الولايات المتحدة وكانت الأزياء والأفكار تشترى مستعملة من فرنسا. كانت مكسيكو سيتي تحب أن تدعو نفسها باريس أميركا رغم أن سراويل الفلاحين البيضاء كانت تشاهد أكثر من البنطلونات في الشوارع، وكانت الأقلية التي ترتدي الفراكات تسكن قصورا على طراز قصور نابليون الثالث. عمد الشعراء مساءاتها باسم «الساعة الخضراء»، ليس بسبب الضوء الذي يتخلل الأشجار بل بسبب ذكرى أفسنتين[1] دي موسيه.

1900: مكسيكو سيتي

الأخوة فلوريس ماجون

أبحر البشر في بحر من شراب البلكة بينما كانت الأجراس ترن والسهام النارية تنطلق والسكاكين تلمع تحت الأضواء البنغالية[2]. غزا الحشد الألاميدا (Alameda) وشوارع أخرى ممنوعة والساحة المخصصة للسيدات اللواتي يرتدين المشدات والسادة الذين يرتدون السترات، حاملا العذراء على منصته.

كان ذلك يوم سيدة الملائكة الذي يستغرق في مكسيكو أسبوعا من حفلات الرقص، وعلى هامش متعة الشعب العنيفة ولدت صحيفة جديدة وكأنها تستحق ذلك. دعيت *«البعث الجديد»* وورثت حماس وديون صحيفة «الديموكرات» The Democrat التي أغلقتها الديكتاتورية. كان يكتبها وينشرها ويبيعها جيسوس وريكاردو وإيزيك فلوريس ماجون.

ترعرع الأخوة فلوريس ماجون مع العقوبة. منذ أن توفي والدهم أخذوا أدوارهم بين السجن ودراسة القانون وأعمال صغيرة عابرة وصحافة مقاتلة ومظاهرات أحجار ضد الرصاص.

---

[1] الأفسنتين: عشبة معمرة تستعمل في الطب للهضم والإدرار وتستعمل في صنع شراب كحولي يسمى باسمها.

[2] نور أزرق يستعمل في المسارح أو في الألعاب النارية.

قال لهم والدهم الهندي تيودور فلوريس ذو الوجه النحيل الذي يعيش الآن بين النجـوم: *كـل شيء ينتمي إلى الجميع*. قال لهم ألف مرة: *كرروا ذلك!*

1900: مريدا، يوكاتان

هينيكوين (Henequén)

كان واحد من كل ثلاثة من هنود المايا في يوكاتان رهينة لـ«الـهينيكوين»، وسـيصبح أولادهـم الذين يرثون ديونهم عبيدا أيضـا. كـانت الأراضـي تبـاع بـهنودها، لكـن مستعمرات الـهينيكوين الزراعية الكبيرة كانت تستخدم أساليب علمية وآلات حديثة وتتلقى أوامرهـا بـالتلغراف وتمولـها مصارف نيويــورك. كـانت آلات كشـط بخاريـة تفصـل الألياـف وكـانت قطـارات «إنترناشـيونال هارفستر» تنقلها إلى ميناء يدعى التقدم.

في غضون ذلك، كان الحرس يسجنون الهنود في الثكنات حين يخيم الليل وفي الفجـر يركبـون خيولا ليعيدوهم إلى خطوط النباتات الشوكية.

كان غزل نبات السيسال والهينيكوين يفيد في تقييد أي شيء على الأرض وكـانت كـل سـفينة تمخر عباب المحيط تستخدم حبالا من الهينيكوين. أدى الهينيكوين إلى ازدهار يوكاتان، إحـدى أغنى مناطق المكسيك. وفي مريدا، العاصمة،كانت القضبان الذهبية المشبكة تمنـع الـهنود والبغـال من أن يدوسوا في حدائق نسخت بشكل سيء عن حدائق فرساي. كانت عربة الأسقف مماثلة تماما لتلك التي يستخدمها البابا في روما وجاء من باريس مهندسون قلدوا القلاع الفرنسـية القروسـطية، رغم أن مغامري اليوم لا يغامرون من أجل أميرات سجينات، بل من أجل هنود أحرار.

كان الجنرال إغناسـيو برافـو ذو العينـين الحـادتين كمديـة والشـارب الشـائب والفـم المحكـم الإغلاق قد وصل إلى ميريدا ليبيد هنود المايا الذين كانوا لا يزالون يقرعون طبول الحـرب. حيتـه مدافع «سان بينيتو» مخلص الهينيكوين. وفي ساحة دي آرماس تحت أشجار الغار المورقة، قــدم سادة يوكاتان للجنرال «برافو» السيف الفضي الذي ينتظر غازي شان سـانتاكروث (Chan Santa Cruz) مدينة المتمردين المقدسة في الغابة.

ثم أطبق الجفن البطيء لليل.

من الأنشودة المكسيكية للكتيبة الثماني والعشرين

أنا في طريقي، في طريقي
أنا في طريقي يملؤني الفرح

لأن هنود المايا
يحتضرون، كما يقال، من الخوف.
أنا في طريقي، في طريقي
إلى الجانب الآخر من البحر
لأنه لم يعد أمام الهنود
طريق للهرب.

أنا في طريقي، في طريقي
فليمنحك الله الدفء يا جوهرتي
لأن هنود المايا
سيقدمون وقودا محببا.

أنا في طريقي، في طريقي
لأمكث هناك في الشتاء
لأن هنود المايا
سيذهبون مباشرة إلى الجحيم.

1900: تابي (Tabi)

الثعبان الحديدي

كانت المدفعية ترعد في المقدمة مدمرة المتاريس وساحقة الهنود. وخلف المدافع، كان الجنود، الذين معظمهم من الهنود يحرقون حقول ذرة الجماعات ويطلقون الماوتزر Mausers ضد أسلحة قديمة تذخر من المواسير. وخلف الجنود، كان الهنود الأقنان، ينصبون سكة الحديد ويرفعون أعمدة التلغراف والمشانق.

كان ذيل سكة الحديد، الأفعى التي بلا جلد، في مريدا وكان جسدها الطويل ينمو نحو «شان سانتا كروز». وصل الرأس إلى «سانتا ماريا» وقفز إلى هوبومبيتش (Hobompich) ومن هناك إلى تابي لسان حديد مضاعفا وسريعا وشرها. كان يحطم الغابة ويقطع الأرض مطاردا ومهاجما وعاضا وكان في مسيره المتوهج يبتلع الهنود ويتبرز العبيد.

كان ملاذ شان سانتا كروز مدانا. لقد جاء إلى الوجود منذ نصف قرن وولد من صليب الماهوغاني الصغير ذاك الذي ظهر في الدغل وقال: *«لقد أرسلني والدي لأتحدث معكم يا من أنتم التراب»*.

النبي

حدث هكذا هنا، منذ أكثر من أربعة قرون. متمددا على ظهره، على حصير، سمع الكاهن ـ اليغور لـ«يوكاتان» رسالة الآلهة. تحدثوا معه من خلال السقف بلغة لم يعد يفهمها أحد وهم يجلسون القرفصاء على منزله.

تذكر تشيلام بالام (Chilam Balam) ذلك الذي كان فم الآلهة، ما لم يحدث بعد وأعلن ما سيكون:

ستنهض العصا والحجر من أجل الصراع.. .ستعض الكلاب أسيادها.. أولئك الذين استعاروا العروش يجب أن يتقيأوا ما ابتلعوه. كان حلو المذاق وطيبا جدا ما ابتلعوه لكنهم سوف يتقيأونه. سيغادر المغتصبون إلى حدود المياه... عندئذ لن يكون هناك مفترسون للإنسان... حين ينتهي الجشع، سيتحرر وجه الأرض وستتحرر يداها وستتحرر قدماها».

ذاكرة النار: الوجوه والأقنعة = Memory of Fire/

تأليف: إدواردو كاليانو؛

ترجمة: أسامة إسبر.

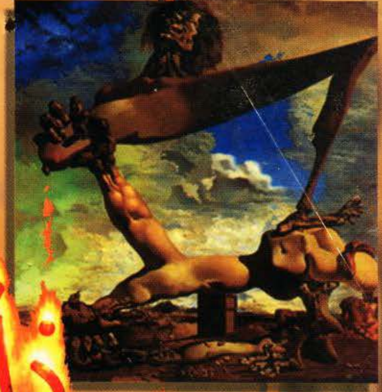
ـــ دمشق دار الطليعة الجديدة، 1998. ـــ ج 2 ؛ 24 سم.

1 ـــ 868/ و ك/ ل ذ 2 ـــ 980 ك/ ل ذ

3 ـــ العنوان 4 ـــ العنوان الموازي

5 ـــ كاليانو 6 ـــ إسبر

مكتبة الأسد



ذاكرة النار

ثلاثيــة ذاكرة الــنار (عمل إبداعي وملــحمي) على حد تعبير الواشنطن بوســت . تهتم هذه الثلاثية بالـتأريـخ لأمريكا ، و خصوصا لأمريكا اللاتينية التي يحار كاليانو من أي صلصال شاق و من أيــة اغتصابـات ولـدت . وإذا كانت ذاكرة النار عصية علـى التصنيف ، حســب مقاييس ضباط جمارك الأدب ، علـى حد تعبيرالمؤلـف ، فهي في الحقيقة تتضمن في نسيج رائع كل تلـك الأجناس منسوجة مع بعضها بحيث لا يمكننا الفصل بيـن جنس أدبي و آخر .وعلاوة على ذلـك يبني كاليـانو كل قطعة من هذا الموزاييك الهائل على أســاس توثيقي صلب.

و إن كان الجزء الثالث الذي يـحمل عنوان (قرن الريـح) يـصل إلى عصرنا الحاضر فإن هذا الجزء (الوجوه و الأقنعة) يـعانق القرنيــن الـثامن عـشر والتاسع عشر .

لوحة الغلاف للفنان العالمي سلفادور دالي

دار الطليعة الجديدة

ص.ب 34494 تلفاكس 7775872

إدواردو كاليانو

ذاكرة النار

III

قرن الريح



ترجمة: أسامة اسبر

www.alexandra.ahlamontada.com

ذاكرة النار

ادواردو كاليانو

ذاكرة النار

III

قرن الريح

ترجمة: أسامة اسبر

العنوان الأصلي للكتاب: Memory Of Fire
«Faces And Masks»
اســـــم المؤلـــف: Edwardo Galeano

الطبعة الأولى ــ 2001

دار الطليعة الجديدة

سوريا ــ دمشق ــ ص.ب 34494
تلفاكس: 2775872

إخراج: هالـة فطـوم

صمم الغلاف: جمال سعيد

الكتاب

هذا الكتاب هو الجزء الثالث من ثلاثية ذاكرة النار للكاتب الأميركي اللاتيني ادواردو كاليانو، وهو عمل إبداعي مبني على توثيق دقيق لكنه يتحرك بحرية كاملة. لا يعرف المؤلف إلى أي شكل أدبي ينتمي الكتاب: إلى السرد، المقالة، القصيدة الملحمية، التأريخ، الشهادة... ربما ينتمي إلى جميع هذه الأشكال أو لا ينتمي إلى أي منها. يروي المؤلف الوقائع التي صنعت القرن العشرين ويكشف معنى العالم الجديد كما كان والعالم كما هو الآن. يروي المؤلف ما حدث، تاريخ أميركا، وقبل كل شيء، تاريخ أميركا اللاتينية، وحاول أن يفعل ذلك بطريقة تجعل القارئ يشعر أن ما حدث يحدث مرة أخرى حين يرويه.

ولد ادواردو كاليانو في مونتفيديو، الأرغواي، في 1940. دخل عالم الصحافة كرسام كاريكاتور لمجلة إل سول. فيما بعد أصبح محرراً للأسبوعية مارشا، وحرّر صحيفة إيبوكا. في 1973 نُفيَ إلى الأرجنتين، حيث أسس وحرّر مجلة الأزمة. من بين أعماله: العروق المفتوحة لأميركا اللاتينية، أيام وليالي الحب والحرب، أغنية أنفسنا، كتاب المعانقات، كرة القدم في الشمس والظل، الكلمات المتجولة وثلاثية ذاكرة النار وكتاب قرن الريح هو الجزء الثالث من ثلاثية ذاكرة النار.

«وكنا ننزع أنفسنا من الريح بأظافرنا»

خوان رولفو

1900: سان خوسيه دي غارسيا

العالم يستمر

كان هناك بعض الذين أنفقوا مدّخرات أجيال عديدة في حفلة صاخبة أخيرة. لعن كثيرون أولئك الذين لم يقدروا أن يلعنوهم، وقبّلوا الذين كان ينبغي ألا يقبّلوهم. لم يرغب أحد أن ينتهي دون اعتراف، وفضّل الكاهن الحوامل والأمهات الجديدات. أمضى هذا المتدين الناكر لذاته ثلاث ليال في حجرة الاعتراف قبل أن يُغمى عليه من عسر هضم الذنوب.

حين جاء منتصف الليل في اليوم الأخير من القرن، استعدَّ جميع سكان سان خوسيه دي غارسيا ليموتوا نظيفين. تجمّعَ غضبُ الله منذ خلق العالم واعتقد الجميع أن الوقت حان من أجل الانطفاء الأخير. أصغى البشر، حابسي الأنفاس، مصطكي الأسنان، ومغمضي الأعين، إلى دقات ساعة الكنيسة الاثنتي عشرة، واحدة بعد أخرى، مقتنعين جداً أنه لن يكون هناك مستقبل.

لكن، كان هناك مستقبل. فالقرن العشرون يقترب ويتقدم وكأن شيئاً لم يحدث. استمر سكان سان خوسيه دي غارسيا في المنازل نفسها، عاشوا وبقوا على قيد الحياة بين جبال المكسيك الوسطى، هذا ما سبّب دهشة للمؤمنين الذين كانوا يتوقعون حلاً، وراحة للمذنبين الذين وجدوا أن هذه القرية الصغيرة ليست سيئة إذا ما قارنها المرء بغيرها.

1900: ويست أورنج، نيو جيرزي

إديسون

قدمت اختراعاته الضوء والموسيقى للقرن الجديد. حملت الحياة اليومية ختم توماس آلفا إديسون الذي أضاء مصباحه الكهربائي الليالي، وحفظ فونوغرافه، ووزع أصوات العالم التي لن تضيع بعد الآن. وبفضل الميكروفون، الذي أضافه إلى اختراع بيل، أصبح البشر يتحدثون بوساطة الهاتف. وتحركت الصور بفضل جهاز عرض الصور الذي أكمل به عمل الأخوين لوميير.

كانوا يمسكون رؤوسهم في دائرة تسجيل الاختراعات حين يشاهدونه يدخل. هذا الذي قدم الكثير للطاقات البشرية، لم يتوقف دقيقة واحدة عن الاختراع دقيقة واحدة. كان مبدعاً لا يتعب منذ ذلك الزمن البعيد حين كان يبيع الصحف في القطارات وقرر في أحد الأيام الرائعة أنه يستطيع أن يصنعها ويبيعها في الوقت نفسه، ثم تفرغ لتلك المهمة.

1900: مونتيفيديو

رودو

قدم السيّدُ، التمثالُ الناطق، موعظته إلى شبان أميركا. دافعَ خوسيه إنريك رودو أرييل السماوي، عن الروح النقية وانتقد كاليبان المتوحش، الوحش الذي يريد شيئاً يأكله. القرن الذي يولد هو زمن أي شخص. كان البشر يريدون الديموقراطية والاتحادات التجارية وكان رودو يحذّر من أن الحشد البربري يستطيع أن يتسلق مرتفعات مملكة الروح حيث تعيش الكائنات المتفوقة. كان المفكر الذي اختارته الآلهة، الرجل الخالد العظيم، يقاتل دفاعاً عن الملكية الخاصة في الثقافة.

هاجم رودو أيضاً الحضارة الأميركية الشمالية المتأصلة في السوقية والمذهب النفعي وقارنها مع التراث الأرستقراطي الإسباني الذي يحتقر الحس العملي، العمل اليدوي، التكنولوجيا، وبراعات أخرى.

1900: نيويورك

هذه هي أميركا، وفي الجنوب ليس هناك شيء

باع أندرو كارنيجي بـ 250 مليون دولار احتكار الفولاذ إلى المصرفي جون بييربونت مرجان، صاحب جنرال الكتريك، الذي أسس، بناء على ذلك، شركة الفولاذ الأميركية. تدفقت شلالات الاستهلاك ودوارُ النقد من قمم ناطحات السحاب: تنتمي الولايات المتحدة إلى الاحتكارات وتنتمي الاحتكارات إلى حفنة من الرجال، لكن العمال الذين يتدفقون إلى هنا من أوروبا عاماً بعد آخر، الذين تغريهم صافرات المعامل وينامون على سطح السفن، يحلمون أن يصبحوا من أصحاب الملايين حالما يقفزون على أرصفة ميناء نيويورك. إن ألدورادو، في الحقبة الصناعية، هي الولايات المتحدة، والولايات المتحدة هي أميركا.

أما في الجنوب فإن أميركا الأخرى لم تنجح بعد في أن تغمغم اسمها.

قال تقرير منشور حديثاً إن جميع بلدان هذه الأميركا المجاورة وقّعت اتفاقيات تجارية مع الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا وألمانيا، لكن، لم توقع أي منها أية اتفاقية مع أي من جيرانها.

إن أميركا اللاتينية أرخبيل من البلدان المعتوهة، مصنوعة من أجل الانفصال، ومدربة لتكره بعضها.

1901: في جميع أنحاء أميركا اللاتينية

مواكب تحيي ولادة القرن

في القرى والمدن الواقعة إلى الجنوب من ريو غراندي، كان يسوع المسيح يسير إلى المقابر وحشاً محتضراً ملطخاً بالدم وخلفه يتقدم الحشد حاملاً المشاعل ومنشداً الأغنيات. كان البشر ممزقي الثياب، مسحوقين، ومصابين بألف من الأمراض التي لا يقدر على معالجتها طبيب أو مؤمن لكنهم كانوا يستحقون مصيراً لا يقدر أن يتنبأ به نبي أو بصار.

1901: أميين Amiens

فيرن

قرأ ألبيرتو سانتوس ديمون منذ عشرين عاماً جول فيرن. بعد أن قرأه، هرب من منزله، من البرازيل، ومن العالم، إلى أن قرر، وهو يبحر في السماء من غيمة إلى أخرى، أن يعيش في الجو تماماً. والآن يتحدى سانتوس ديمون الريح وقانون الجاذبية، ذلك أن رائد الفضاء البرازيلي اخترع منطاداً ذا محرك وقابلاً للتوجيه ويتحكم بمساره، لا ينجرف، ولا يضيع في أعالي البحار أو فوق السهل الروسي، أو في القطب الشمالي. بعد أن تزوّد بمحرك ودافع وموجّه، صعد سانتوس إلى السماء ودار دورة كاملة حول برج إيفل وهبط في البقعة التي أعلن عنها مستهزئاً بالريح أمام تصفيق الحشد. ثم سافر إلى أميين ليصافح الرجل الذي علمه الطيران.

جالساً على كرسي هزاز، كان جول فيرن يملّس لحيته الشائبة. كان متيّماً بذلك الطفل الذي كان متنكراً بشكل سيئ مثل سيد يدعوه يا قبطاني وينظر إليه دون أن تطرف عيناه.

1902: كيتثالتينانغو Quetzaltenango

الحكومة تقرر أن الواقع غير موجود

انفجرت الطبول والأبواق في ساحة كيتثالتينانغو الرئيسية مستدعية المواطنين لكن، كل ما كان المرء يسمعه هو الرعد المرعب لبركان سانتا ماريا في انفجاره الكامل. قرأ منادي البلدة بأعلى صوته تصريح الحكومة ذات السيادة. دمرت سيول الحمم والطين ومطر الرماد، الذي لا ينقطع، أكثر من مائة بلدة في هذا الجزء من غواتيمالا بينما كان منادي البلدة يؤدي واجبه وهو يحمي نفسه قدر استطاعته.

هزَّ بركان سانتا ماريا الأرض تحت قدميه وقصف رأسه بالأحجار. ظهراً، خيّمتْ ظلمةٌ كليـةٌ. وفي ذلك السواد لم يكن يرى سوى التقيؤ الناري للبركان. كان منادي البلدة يصرخ يائساً وهو يقـرأ البلاغ في ضوء مصباحه المرتجف.

أفهَمَ البلاغ الذي وقعه الرئيس مانويل استرادا كابريرا السكان أن بركان سانتا ماريا هادئ وأن جميع براكين غواتيمالا خامدة وأن الزلزال حدث بعيداً عن هنا في جزء ما من المكسـيك، وبمـا أن الموقف طبيعي لا يوجد مانع للاحتفال بعيد الإلاهة منيرفا الذي سيحصل، اليوم، في العاصمة رغم الإشاعات الكريهة التي ينشرها أعداء النظام.

1902: غواتيمالا سيتي

استرادا كابريرا

مارس مانويل استرادا، في مدينة كيتثالتينانغو، طيلة سنوات عديدة، *الكهانة المهيبـة للقـانون في المعبد الملكي للعدالة على صخرة العدالة التي لا تتزحزح*. حين بدأ يعري الإقليم، جاء الطبيـب إلى العاصمة، حيث أوصل مهنته السياسية إلى ذروة سعيدة بعد أن أشهر مسدسـه وانقـضّ علـى رئاسة غواتيمالا. مذاك، أعاد تأسيس استخدام أدوات التعذيب والسياط والمشانق في جميع أنحــاء البلاد. وأصبح الهنود يقطفون بنّ المستعمرات الزراعية مجاناً ويشيّد البنــاؤون السـجون والثكنـات دون مقابل.

كان الرئيس استرادا كابريرا يضع كل يوم، في احتفال مهيب، حجر الزاوية لمدرسة جديدة لا تُبنى مطلقاً. منح نفسـه لقـبَ مربّـي الشـعوب وحـامي الشـباب المجتـهد. وتمجيـداً لنفسـه كـان يحتفل، كل عام، بالعيد الكبير للإلاهة منيرفا. وفي هيكل البارثينون[1] الذي هو نسخة كاملة عن الأصل اليوناني، كان الشعراء ينقرون أوتار قيثاراتهم وهم يعلنون أن غواتيمالا سيتي، أثينا العــالم الجديد، تمتلك بيريكليساً[2].

1902: سينت بيير

أنقذ المحكوم فقط

انفجر بركان أيضاً في جزيرة المارتينيك. سـعل الجبـل بيليـو كأنـه يشـق العـالم إلـى نصفـين. سحابة حمراء ضخمة غطت السماء وسـقطت متوهجـة علـى الأرض. في رفـة جفـن دمـرت مدينـة سينت بيير واختفى سكانها الأربعة وثلاثون ألفاً باستثناء واحد.

---

(1) – هيكل الإلاهة أثينا في مدينة أثينا.

(2) – بيركليس: سياسي أثيني بلغت أثينا في عهده أوج ازدهارها السياسي والثقافي.

كان الناجي هو لودجر سيلباريس، السجين الوحيد في المدينة، ذلك أن جدران السجن كانت مصممة ضد الهرب.

1903: بنما سيتي

قناة بنما

أصبح المر بين المحيطات هوساً للفاتحين. بحثوا عنه بنشاط وأخيراً عثروا عليه، بعيداً إلى الجنوب، قرب تييرا ديل فويغو الباردة والبعيدة. لكن حين اقترح شخص ما فتح الخصر الضيق لأميركا الوسطى، منعَ الملك فيليب الثاني فتح قناة مهدداً بعقوبة الموت، لأن:

ما ضمّه الله يجب ألا يمزقه الإنسان.

بعد ثلاثة قرون اهتمت فرنسا بالموضوع وبدأت شركة القناة العالمية العابرة للمحيط عملها في بنما لكنها أفلستْ بعد ثلاثة وثلاثين كيلومتراً.

قررت الولايات المتحدة أن تكمل القناة، وعلقت الأمر أيضاً. حدث توقف مفاجئ لأن كولومبيا لم توافق، ذلك أن بنما منطقة تابعة لها. نصح السيناتور حنا في واشنطن بالانتظار: *نظراً لطبيعة الوحش الذي نتعامل معه*. لكن الرئيس تيدي روزفلت لا يؤمن بالصبر. أرسل المارينز، وهكذا، وبفضل الولايات المتحدة وسفنها الحربية، أصبحت بنما دولة مستقلة.

1903: بنما سيتي

إصابات هذه الحرب:

صيني واحد وحمار واحد

سقطا ضحيتين للمدافع المنصوبة على جوانب السفن الكولومبية. ولم تكن ثمة مصائب أخرى يشكى منها. كان إمانويل أمادور، رئيس بنما الجديد تماماً، يجلس بين الرايات الأميركية على كرسي بذراعين، ويحمله الحشد على منصة، وبينما كان يمر، هتف أمادور لزميله روزفلت: يعيش، يعيش!

بعد أسبوعين، وُقّعت في واشنطن، وفي غرفة البيت الأبيض الزرقاء، اتفاقية منحت الولايات المتحدة، إلى الأبد، القناة نصف المنتهية وأكثر من ألف وأربعمائة كيلومتر مربع من الأرض البنمية. كان يمثل الجمهورية الحديثة الولادة فيليب بيناو باريّا، الساحر التجاري والبهلوان السياسي، والمواطن الفرنسي.

1903: لا باث

هيلكا

ربح الليبراليون البوليفيون الحرب ضد المحافظين. أو بالأحرى ربحها لهم جيش بابلو ثاراتي هيلكا الهندي. كانت الأعمال العظيمة التي زعمَ الجنرالات ذوو الشوارب القيام بها قد أنجزت على يد الهنود.

وعد الكولونيل خوسي مانويل باندو، قائد الليبراليين، أن يحرر جنود هيلكا من القنانة ويستعيد أراضيهم. من معركة إلى أخرى، وبينما كان يمر في القرى، أعاد هيلكا الأراضي المسروقة إلى الجماعات وذبح كل من كان يرتدي بنطلوناً.

بعد أن هزم المحافظين، عين الكولونيل باندو نفسه جنرالاً ورئيساً وبعد أن وضع النقاط على جميع الحروف أعلن:

الهنود كائنات أدنى وإبادتهم ليست جريمة. ثم نفذ ذلك وقتل كثيرين بالرصاص. وقتل هيلكا، حليف الأمس الذي لا يقهر، عدة مرات، بالرصاص والنصل والحبل.

لا يزال هيلكا، حتى الآن، وفي الليالي الماطرة، ينتظر الرئيس على بوابة القصر الحكومي ويحدق به دون أن يقول شيئاً، إلى أن يستدير باندو ويبتعد.

1904: ريو دي جانيرو

لقاح

تلاشى الطاعون الدَّبلي والحمى الصفراء بعد أن قضي على الجرذان والبعوض. وبعد ذلك أعلن أوزوالدو كروث الحرب على الجدري. وبينما كان آلاف البرازيليين يموتون من المرض، والأطباء يفصدون المحتضرين، والمعالجون يخيفون الطاعون بدخان الجل،كان أوزوالدو، المسؤول عن الصحة العامة، يجعل اللقاح إجبارياً .

هاجم السيناتور روي باربوسا، الخطيب ذو الصدر الحمامي، الناعم اللسان، اللقاح مستخدماً أسلحة قضائية مليئة بالنعوت. دافع روي باربوسا، باسم الحرية، عن حق كل فرد في أن يتلوث إذا أراد ذلك. وكانت سيول التصفيق والهتافات التمجيدية تقاطعه من عبارة إلى أخرى.

عارض السياسيون اللقاح وكذلك الأطباء والصحفيون. وكانت جميع الصحف تنشر افتتاحيات غاضبة وكاريكاتيراً قاسياً ضد أوزوالدو الذي لم يستطع أن يظهر وجهه في شارع خشية الإهانات والأحجار.

وقفت البلاد كلها ضد اللقاحات وصعدت هتافات في جميع الأنحاء: يسقط اللقاح! تمرد طلاب الكلية الحربية مشهرين أسلحتهم ضد اللقاحات وكانوا على وشك الإطاحة بالرئيس.

1905: **مونتيفيديو**

الترام

قام الوحش، ذو الزئير، بعملية قتله الأولى في مونتيفيديو. ذلك أن عابراً بريئاً سقط مسحوقاً في مركز المدينة. وصلت بضع سيارات إلى هذه الشوارع لكنها حين تعبر، ترسم العجائز إشارة الصليب.

ويركض البشر إلى مداخل المنازل لكي يحتموا.

وحتى وقت متأخر، كان الرجل الذي ظن نفسه تراماً يسير خبباً في المدينة التي بلا محرك.

حين يصعد يفرقع سوطه اللامرئي وحين يهبط يشد لجاماً لا يقدر أحد على رؤيته. وعند التقاطعات ينفخ بوقاً خيالياً كأحصنته، كمسافريه الذين يصعدون عند كل توقف، كالبطاقات التي يبيعها لهم وكالفكة التي يحصل عليها. حين توقف رجل السيارة عن القدوم، عندما لم يمر مطلقاً، اكتشفت المدينة أنها فقدت ذلك المعتوه المحبب.

1905: **مونتيفيديو**

شعراء الانحطاط

تسلق روبيرتو دي لاس كاريراس إلى الشرفة ضاماً إلى صدره رزمة ورود وسونيتة متوهجة ولم تكن تنتظره محظية جميلة وإنما سيد شرير أطلق خمس طلقات أصابت اثنتان منهما الهدف فأغمض روبيرتو عينيه واستغرق في التفكير: *سأتعشى الليلة مع الآلهة*.

لم يتناول العشاء مع الآلهة بل مع المرضات في المشفى. وبعد بضعة أيام عاود هذا الشيطان الأنيق الظهور طائفاً، بغدر، في شارع ساراندي، هذا الذي أقسم أن يفسد جميع النساء المخطوبات والمتزوجات في مونتيفيديو. كانت صدرته الحمراء، المزينة بثقبي رصاصتين، تبدو أنيقة جداً، وعلى صفحة عنوان كتابه ***إكليل الجنازة*** ظهرت قطرة دم.

كان الابن الآخر لبايرون وأفروديت هو خوليو إيريراي ريسيغ الذي يسمي العلية التي يكتب ويقرأ فيها برج بانوراماس. تخاصم الاثنان طويلاً حول سرقة استعارة لكنهما خاضا المعركة نفسها ضد جبل العهر، المنافق الذي يعود إلى فترة ما قبل كولمبوس، لم يُقدَّم في قسم الأدوية المثيرة للشهوة أكثر من مح بيضة ممزوج بالنبيذ أما في قسم الأدب من الأفضل أن يقال القليل.

1905: إلوبانغو Ilopango

ميغيل بعمر أسبوع

رفضت الآنسة سانتوس مارمول التي حملت بشكل غير شرعي أن تفصح عن مؤلف عارها. طردتها أمها السيدة توماسا من المنزل. اشتبهت السيدة توماسا، التي كانت أرملة رجل أبيض فقير، بما هو أسوأ. حين ولد الطفل أحضرته الآنسة المنبوذة بين ذراعيها قائلة: *هذا هو حفيدك يا ماما*. أطلقت السيدة توماسا صرخة مخيفة حين رأت الطفل، العنكبوت الأزرق، الهندي ذا الشفة السميكة، ذلك الشيء القبيح الصغير الذي يثير الغضب أكثر مما يثير الشفقة، ثم أغلقت الباب بعنف في وجه ابنتها. سقطت الآنسة متكومة على درج الباب وبدا الطفل، الذي سقط تحت أمه الفاقدة للوعي، ميتاً. لكن حين أخرجه الجيران أطلق الوافد الجديد، المنسحق، صرخة هائلة.

وهكذا حصلت الولادة الثانية لميغيل مارمول وهو بعمر أسبوع .

1906: باريس

سانتوس ديمون Santos Dumont

بعد خمس سنوات من اختراع المنطاد ذي المحرك، اخترع البرازيلي سانتوس ديمون الطائرة. أمضى خمس سنوات وهو مسجون في حظيرة الطائرات يجمع ويفكك أشياء خيزرانية وحديدية ضخمة تولد وتموت بسرعة قصوى على مدار الساعة: في الليل تذهب إلى النوم مزودة بأجنحة نوارس وزعانف أسماك وتستيقظ متحولة إلى يعاسيب أو بط بري. أراد سانتوس ديمون أن يهرب من الأرض بهذه الأشياء التي كانت تعيده، بعناد، ليصطدم ويتحطم. مواجهاً بنيران تشتعل وهبوط لولبي مفاجئ وحوادث تحطم كان ينجو بسبب عناده. لكنه واصل القتال إلى أن حوّل أحد تلك الأشياء إلى طائرة أو بساط سحري حلق عالياً في السماء.

أراد العالم كله أن يقابل بطل هذا العمل الضخم العظيم: ملك الجو، سيد الرياح الذي يبلغ طوله أربع أقدام، الذي يتحدث همساً ولا يزن أكثر من ذبابة .

1907: ساغوا لا غراندي Sagua La Grande

لام

في الحرارة الأولى لذلك الصباح الدافئ استيقظ الفتى الصغير ورأى. كان العالم على قفاه ويدور كخفاش يائس يطارد ظله. انسحب الظل العاتم إلى الجدار بينما اقترب الخفاش

وضربه بجناحه. قفز الفتى الصغير مغطياً رأسه بيديه واصطدم بمرآة كبيرة. لم يشاهد أحداً في المرآة أو أي شيء آخر. حين استدار تعرف، في الخزانة المفتوحة، على الملابس الممزقة لوالده الصيني وجده الأسود. كانت تنتظره ورقة فارغة صباحاً في مكان ما. لكن هذا الفتى الكوبي، المخبل، الذي يدعى ويلفريدو لام، لايزال غير قادر على جر ظله الضائع الذي يدور بجنون في العالم المهلوس فوقه. ولم يكن قد اكتشف بعد طريقته المدهشة في طرد الخوف.

1907: إكيكي Iquique

رايات بلدان كثيرة

ترأست رايات بلدان كثيرة مسيرة عمال النترات المضربين في الصحراء المغطاة بالحصى في شمال تشيلي ـ آلاف منهم مع آلاف من زوجاتهم وأولادهم ـ تقدموا إلى ميناء إكيكي وهم يرددون الشعارات والأغاني. حين احتل العمال الميناء أرسل وزير الداخلية أمراً بالقتل. قرر العمال أن يضربوا عن العمل ولم يرم حجر واحد.

كان خوسيه بريجز، قائد الإضراب، ابن أميركي شمالي لكنه رفض أن يطلب حماية القنصل الأميركي الشمالي. حاول قنصل البيرو أن ينقذ العمال البيروفيين لكنهم رفضوا أن يتخلوا عن رفاقهم التشيليين. وحاول قنصل بوليفيا أن يغري العمال البوليفيين ويبعدهم لكنهم قالوا: *مع التشيليين نعيش ومعهم نموت*.

حصدت رشاشات وبنادق الجنرال روبيرتو سيلبا رينارد المضربين العزل وتركت بساطاً من الأجساد. برَرّ وزير الداخلية رافايل سوتومايور المجزرة *باسم الأشياء الأكثر قدسية*، والتي هي في ترتيب الأهمية: *الملكية*، النظام *العام*، *والحياة*.

1907: ريو باتالا Rio Batalha

نيمويينداخو Nimuendaju

لم يولد كيرت أنكل هندياً، بل أصبح هندياً أو اكتشف أنه كان هندياً. منذ سنوات، غادر ألمانيا إلى البرازيل. وفي البرازيل، في أعمق أعماقها، تعرّف على شعبه. وها هو الآن يرافق هنود الغواراني وهم يتجولون في الغابة كحجاج يبحثون عن الفردوس. أكل من طعامهم واشترك في متعة تقاسمه معهم. عالياً ارتفعت أغانيهم وفي منتصف الليل أقيم طقس سري: ثقبوا الشفة السفلى لكيرت أنكل الذي أصبح يعرف باسم نيمويينداخو: *ذلك الذي يخلق منزله*.

1908: أسونثيون Asuncion

باريت

ربما عاش مرة في الباراغواي منذ قرون أو آلاف السنين ـ لا أحد يعرف متى ـ و نسي ذلك. بالتأكيد، منذ أربع سنوات، حين، من قبيل المصادفة أو الفضول، نزل رافايل باريت هنا، شعر أنه وصل أخيراً إلى المكان الذي كان ينتظره: كانت هذه البقعة، التي نسيها الله، مكانه في العالم. مذاك، بدأ يخطب في الناس في زوايا الشارع، أو واقفاً على صندوق صابون، وينشر مقالات الإلهام والاستنكار. ونتيجة لذلك طردته الحكومة. طردت الحراب الفوضوي الشاب إلى الحدود ورحّلته بعد *أن اتهمته بأنه أجنبي يحرض على الفتنة*.

هذا البارغوايي أكثر من البارغوايين، العشبة الحقيقية لهذه التربة والرضاب الحقيقي لهذا الفم، ولد في النمسا من أم إسبانية وأب إنكليزي ودرس في باريس.

كان ذنب باريت الخطير، انتهاك التابو الذي لا يغتفر، هو شجب العبودية في المعسكرات الزراعية للمتة.

منذ أربعين عاماً، حين انتهت حرب الإبادة ضد البارغواي، شرَّعتْ البلدان المنتصرة، باسم الحضارة والحرية، استرقاق الباقين على قيد الحياة مع أبنائهم. مذاك، أصبح مالكو الأراضي الأرجنتينيون والبرازيليون يحصون العبيد البارغوايين بالرأس وكأنهم أبقار.

1908: سان أندريس دي سوتابينتو San Andres de Sotavento

الحكومة تقرر

أن الهنود غير موجودين

أصدر الحاكم، الجنرال ميغيل مارينو تورالبو الأمر لشركات النفط التي تعمل على الساحل الكولومبي. شهد الحاكم أمام الكاتب بالعدل والشهود أن: *الهنود غير موجودين*.

منذ ثلاثة أعوام أفاد القانون 55 الصادر في 1905، والذي صادق عليه الكونغرس الوطني في بوغوتا، أن الهنود والجماعات الهندية لم يوجدوا في سان أندريس دي سوتابينتو حيث انبثق النفط فجأة. والآن كل ما يفعله الحاكم هو تأكيد القانون: إذا وجد الهنود فإن وجودهم سيكون مخالفاً للقانون. وهكذا أودعوا في المقبرة أو في المنفى.

1908: سان أندريس دي سوتابينتو

صورة سيد الحيوات والمعسكرات الزراعية

كان الجنرال ميغيل مارينو تورالبو، الشـره للأراضـي، والـذي يـدوس علـى الـهنود والنسـاء، يحكم المناطق الكولومبية الساحلية من على صـهوة حصـان. كـان يضـرب بطـرف سـوطه الوجـوه والأبواب ويصنع الأقدار. الذين كان يصادفـهم في طريقـه يقبلـون يديـه وكمـا هـي عـادة البيـض، المعصومة عن الخطأ، كان يخب على الطرقات، ويتبعه دائماً وصيف على حمار صغير، يحمل له البراندي، والماء المغلي، وعدة حلاقته، والدفتر الذي يدون فيـه الجـنرال أسـماء الفتيـات اللواتـي يفترسهن.

كانت أملاكه تزداد وهو يسير على حصانه بدأ ذلك بمزرعة خيل واحدة، وهو الآن يملك سـتاً منها. كان هذا الذي يؤمن بالتقدم دون إقصاء الـتراث يسـتخدم الأسـلاك الشـائكة ليضـع حـدوداً لأراضيه، وأدوات التعذيب ليضع حدوداً للبشر.

1908: غوانابي Guanape

صورة سيد آخر

للحيوات والمستعمرات الزراعية

يأمر: *أخبروه أنه من الأفضل له أن يحمل كفنه* على *ظهر حصانه*.

كان يعاقب بخمس طلقات كل من يخل في تأدية الواجب، سواء القن الذي يتـأخر بمكـاييل الذرة التي يدين بها أو كل من يبطئ في إرسال ابنته أو التخلي عن بقعة أرض.

يأمر: *لا تستعجل ذلك، فقط* الطلقة *الأخيرة ستقتل*.

لم تكن أسرته نفسها تُستثنى من غضب ديوجراسياس إترياجو، الرئيس المطلق لوادي غوانابي الفنزويلي. في إحدى الليالي استعار قريب له حصانه الأفضل ليذهب إلى رقصة على الموضة فقيده الدون ديوجراسياس في اليوم التالي إلى أربعة أوتاد، ووجهه إلـى الأسـفل، وسـلخ كعبـي قدميـه وكفليه بمبشرة المنيهوت ليعالجه من إلحاح الرقص والظهور على حصان غيره.

حين قتل في لحظة بلا حراسة على يد بعض الأقنان الذين حكم عليهم بالموت رددت العائلة، تسع ليال، التاسوعية للميت واحتفل سكان غوانابي تسع ليال احتفالاً وحشياً. لم يتعب أحد من المرح ولم يطلب أي موسيقي مقابلاً لسباق المسافة الطويلة.

1908: مريدا، يوكاتان

نهاية الزمن وما بعد ذلك

كان القطار الذي يقل الرئيس المكسيكي قد اختفى. قام برفيريو داياث بفحص مستعمرات الهينكوين الزراعية في يوكاتان وأخذ معه انطباعاً جيداً جداً. قال وهو يتعشى مع الأسقف ومالكي ملايين الهكتارات وآلاف الهنود الذين ينتجون فبراً رخيصاً لشركة انترناشيونال هارفستر: *يا له من منظر جميل. هنا يشعر المرء بجو من* السعادة *العامة*.

لم يكد دخان القاطرة يتلاشى حتى تهاوت منازل الكرتون المدهون بنوافذها الأنيقة بضربة يد. أصبحت الأكاليل والأعلام نثاراً وكنست وحرقت. وقلبت الريح، بنفخةٍ، أقواس الأزهار التي امتدت على الطرقات. قامت الصواعق بزيارتها أيضاً وعاود تجار مريداً امتلاك آلات الخياطة، والأثاث الأميركي الشمالي أما ثياب العبيد الجديدة فقد تآكلت أثناء العرض.

كان العبيد هنوداً من شعب المايا الذي عاش، حتى وقت متأخر، حراً في مملكة الصليب الصغير المتحدث، وهنوداً من الياكوي، من سهول الشمال، الذين اشتروا بسعر أربعمائة بيزوس للشخص الواحد. كانوا ينامون مكومين في حصون حجرية ويعملون على إيقاع سوط مبلل. حين يصبح أحدهم فظاً يدفنونه إلى أذنيه ويفلتون عليه الأحصنة.

1908: سيوداد خواريث Ciudad Juarez

مطلوب

منذ بضع سنوات، وبطلب من برفيريو داياث، عبرت الفرق الجوالة الأميركية الشمالية الحدود إلى هنا لتسحق عمال مناجم النحاس في سونورا. فيما بعد، انتهى الإضراب في مصانع نسيج فيراكروث بالاعتقالات والاعدامات، ولكن الإضرابات نشبت مرة ثانية هذا العام في كواويلا Coahuila وتشيواوا Chihuahua ويوكاتان. كان الإضراب الذي يزعج النظام جريمة وكل من يقوم به يرتكب جريمة، واعتُبِرَ الشقيقان فلوريس وماجون، محرضا الطبقة العاملة، مجرمان من الدرجة الأولى. ألصقت صورهما على حائط محطة القطار في سيوداد خواريث كما في جميع المحطات على كل من جانبي الحدود. وعرضت وكالة فيرلونج Furlong البوليسية مكافأة من أربعين ألف دولار مقابل كل منهما.

طيلة سنوات، هزأ الشقيقان فلوريس وماجون من سلطة الرئيس الأبدي برفيريو داياث. علما الشعب، من خلال الصحف والنشرات، أن يتوقف عن احترامه، وحالما ضاع الاحترام بدأ الشعب يفقد خوفه.

1908: كاراكاس

كاسترو

كان يصافح بالسبابة فحسب لأنه ليس هناك من يستحق الأصابع الأربع الأخرى. حكم سيبريناو كاسترو في فنزويلا وكان تاجه قبعة بشرابة متدلية. كان يعلن عن ظهوره نفخ أبواق ورعد تصفيق وحفيف جنود منحنين، وتتبعه حاشية من المتنمرين ومهرجي البلاط. كان كاسترو قصيرا مثل بوليفار، سريع الغضب ومدمنا للرقص والنساء. وكان يتظاهر بأنه بوليفار حين يأخذ وضعية من أجل الخلود، لكن بوليفار خسر بعض المعارك أما كاسترو المنتصر لم يخسر أية معركة بتاتا. كانت زنزاناته مكتظة ولم يثق بأحد عدا خوان بيسينتي غوميث، يده اليمنى في الحرب والحكومة، الذي يسميه أعظم رجل في الأزمنة الحديثة. وكان كاسترو لا يثق بالأطباء المحليين الذين يعالجون الجذام والجنون بحساء من لحم الصقر الحوّام المسلوق. وبدلاً من ذلك قرر أن يعهد بأمراضه إلى أيدي أطباء ألمان متعلمين. من ميناء لاجيرا La Guira يبحر إلى أوروبا ولم تكد السفينة تنطلق حتى استولى غوميث على السلطة.

1908: كاراكاس

دمى

كان كل فينزويلي ذكر هو سيبريانو كاسترو للنساء اللائي يقعن في طريقه. وكانت الآنسة المناسبة هي التي تخدم والدها وأخوتها كما تخدم زوجها ولا تفعل أو تقول أي شيء دون أن تطلب أذناً. إذا كانت تملك مالاً أو تنحدر من أسرة جيدة فإنها تحضر قداس الصباح الباكر ثم تمضي اليوم في تعلم إصدار الأوامر إلى الهيئة السوداء: الطباخون، المرضعات، المربيات، الغاسلات، وتعمل في الحياكة. أحياناً تستقبل الأصدقاء وتذهب بعيداً في تزكية رواية مثيرة هامسة: لو رأيت كيف كنت أبكي. في أوائل المساء، وهي جالسة على صوفا تحت مراقبة عمة منتبهة، تمضي بضع ساعات مصغية إلى خطيبها الذي يأتي مرتين في الأسبوع دون أن تنظر إليه أو تسمح له بالاقتراب. كل ليلة، قبل الذهاب إلى النوم، تكرر: السلام عليك يا مريم وفي ضوء القمر تضع على جلدها تويجات ياسمين مبللة من المطر.

إذا هجرها خطيبها تصبح عمة ويحكم عليها إلى الأبد أن تلبس القديسين والجثث والأطفال الجدد، تراقب المخطوبين وتعتني بالمرضى، تعلم شفهياً، وتمضي الليل في سريرها المنعزل متنهدة فوق صورة عاشقها المزدري.

1909: باريس

نظرية الضعف القومي

نشر البوليفي ألسيدس أرجيداس، الذي أرسل إلى باريس بمنحة من سيمون باتينو، كتاباً جديداً بعنوان **شعب مريض**. كان الملك الصغير يغذي أرجيداس لكي يبرهن أن الشعب البوليفي ليس مريضاً فحسب إنما أيضاً لا يمكن علاجه.

منذ فترة اكتشف مفكر بوليفي آخر يدعى غابرييل ريني مورينو أن الأدمغة المحلية والهجينة *معطلة خلوياً*، وأنها تزن من خمس إلى سبع أو حتى تسع أونصات أقل من دماغ الإنسان الأبيض.

ادّعى أرجيداس أن الهجن يرثون الخصائص الأسوأ لأسلافهم وهذا هو السبب الذي يشرح لماذا لا يريد البوليفيون أن يغسلوا ويتعلموا. ولا يستطيعون أن يقرأوا ويشربوا فحسب، وإنما أيضاً يمتلكون وجهين، وهم أنانيون، كسالى ومستهجنون. تنتج جميع حالات البؤس، عندهم، من طبيعتهم الخاصة لا من شراهة أسيادهم. إنهم شعب حكم عليه علم الأحياء ويخضع لعلم الحيوان، والمصير البهيمي للثور هو مصيرهم: إن هذا الشعب غير القادر على صناعة تاريخه الخاص، يستطيع فقط أن يحيا مصيره. والمصير، الأمل اليائس، ليس مكتوباً في النجوم بل في الدم.

1909: نيويورك

شارلوت

ما الذي سيحدث إذا استيقظت امرأة في الصباح متحولة إلى رجل؟ ماذا إذا لم تكن الأسرة معسكر تدريب حيث يتعلم الأبناء القيادة والبنات الطاعة؟ ماذا إذا كان هناك رعاية نهارية للأطفال واشترك الأزواج في التنظيف والطبخ؟ ماذا لو تحولت البراءة إلى كرامة وتماشى العقل مع العاطفة؟ ماذا لو نطق الوعاظ والصحف بالحقيقة؟ ماذا لو لم يعد أي شخص ملكاً لأي شخص آخر؟

هذا ما كان تهذي به شارلوت بركنز جيلمان Charlotte Perkins Gilman بينما كانت الصحافة تهاجمها وتسميها: أماً *غير طبيعية*. مع ذلك، كانت الأخيلة، التي تسكن روحها وتعض أحشاءها، تهاجمها بشكل أكثر وحشية.

كان الأعداء المريعون الذين في الداخل هم الذين يوقعونها أحياناً. كانت تسقط لكنها كانت تتعافى، تسقط وتتعافى مرة أخرى وكان فيها نبض للمضي إلى الأمام لم يهجرها مطلقاً. كانت عابرة السبيل العنيدة، هذه، تسافر، دون تعب، في أنحاء الولايات المتحدة معلنة عن عالم مريض.

1909: ماناغوا

علاقات أميركية داخلية في حالة عمل

كان فيلاندر نوكس Philander Knox محاميا ومساهما في شركة روزاريو ولايت للمناجم. كان أيضا وزير خارجية الولايات المتحدة. لم يعامل رئيس نيكاراغوا خوسي سانتوس ثيلايا الشركة بالاحترام المطلوب وأراد أن تدفع شركة روزاريو ولايت الجزية. لم يحترم أيضا الكنيسة بالشكل المطلوب فحكمت الأم المقدسة أنه مذنب بما أنه جردها من أراضيها وألغى العشور والثمار الأولى ودنس قداسة الزواج بقانون الطلاق، وهكذا صفقت الكنيسة حين قطعت الولايات المتحدة علاقاتها مع نيكاراغوا وأرسل وزير الخارجية نوكس بعض المارينز الذين أطاحوا بالرئيس ثيلايا وعينوا مكانه محاسب شركة روزاريو ولايت للمناجم.

1910: الغابة الأمازونية

آكلو البشر

بين عشية وضحاها انهار سعر المطاط وانتهى حلم الرخاء الأمازوني. بصفعة وقحة أيقظت السوق العالمية على نحو مفاجئ بيلم دو بارا، مناؤس، وإكيتوس، وجميع الحسناوات النائمات اللواتي يتمددن في الغابة في ظل شجرة المطاط. كانت الأرض التي دعيت أرض الغد تتحول إلى الأرض التي لم تكن أبدا أو أرض الأمس وقد هجرها التجار الذين انتزعوا نسغها. هربت أموال المطاط الطائلة من الغابة الأمازونية إلى معسكرات زراعية آسيوية جديدة تنتج مطاطا أفضل بأسعار أرخص: كان ذلك عملا يأكل لحم البشر ودعا الهنود صيادي العبيد، الذين كانوا يطوفون الأنهار بحثا عن العمل: *آكلي البشر*. كان كل ما بقي من القرى الثرية هو الفتات فيما أرسل آكلو البشر الهنود، مقيدين، إلى شركات المطاط في عنابر السفن مع البضائع الأخرى وفواتير ملائمة من أجل عمولات المبيعات ورسوم الشحن.

1910: ريو دي جانيرو

الأميرال الأسود

صدر أمر بالتزام الصمت على ظهر السفينة وقرأ ضابط الحكم. قرعت الطبول بغضب بينما كان بحار يجلد لأنه انتهك النظام. راكعا على ركبتيه ومقيدا إلى درابزون ظهر السفينة تلقى الرجل المحكوم عقابه أمام الطاقم كله. آخر الجلدات ـ مائتان وثماني وأربعون، مئتان وتسع وأربعون، مئتان وخمسون ـ تنهال على جسد معلم بالأثلام ومستحم بالدم، فاقد للوعي أو ميت.

ثم نشب العصيان وانتفض البحارة على مياه خليج غوانابارا وقتل ثلاثة ضباط بالسكاكين. رفعت السفن الحربية الراية الحمراء وأصبح بحار عادي قائدا جديدا للأسطول. كان خوواو كانديدو، الأميرال الأسود، يميل في الريح في برج قيادة بارجة الأميرال بينما كان المتمردون المنبوذون يقدمون له الأسلحة. في الفجر أيقظ مدفعان ريو دي جانيرو وأصدر الأميرال الأسود تحذيرا: المدينة تحت رحمته. إذا لم يمنع الجلد ـ عادة الأسطول البرازيلي ـ وإذا لم يصدر عفو، فإنه سيقصف ريو حتى يدمرها. ثم وجهت فوهات المدفعية نحو أكثر الأبنية أهمية في ريو.

نريد جواباً الآن وحالاً.

أطاعت المدينة التي انتابها الذعر وأعلنت الحكومة إلغاء العقوبة الجسدية في الأسطول وعفواً عن المتمردين. أزاح خوواو كانديدو المنديل الأحمر عن عنقه وسلم سيفه وهكذا حول الأميرال نفسه إلى بحار.

1910: ريو دي جانيرو

صورة أغلى محام في البرازيل

عارض منذ ست سنوات اللقاح ضد الجدري باسم الحرية. ينبغي ألا تنتهك حرمة جلد الإنسان مثل ضميره كما قال ري بربوسا. لا تمتلك الدولة الحق في انتهاك الفكر أو الجسم حتى ولو كان ذلك باسم الصحة العامة. الآن يشجب، *بكل قسوة وعنف، بربرية* تمرد البحارة. عارض هذا المحلف الشهير والمشرع البارز، الَجلْد، لكنه شجب أساليب المجلودين قائلاً إن البحارة لم يطلبوا طلبهم العادل بطريقة حضارية من خلال الدستور *مستخدمين القنوات الملائمة في إطار أعراف قضائية سائدة.*

آمن ري باربوسا بالقانون واستند إيمانه إلى أفكار الأباطرة الرومان والليبراليين الإنكليز. لكنه لم يؤمن بالواقع. كان الطبيب يظهر واقعية معينة فقط حين يجمع في نهاية الشهر راتبه كمحام لـ«لايت وباور»، المشروع الأجنبي الذي يمارس، في البرازيل، سلطة أكثر من اللّه.

1910: ريو دي جانيرو

نادراً ما يلتقي الواقع والقانون

نادراً ما يلتقي الواقع والقانون في هذا البلد ذي العبيد الأحرار قانونياً، وحين يلتقيان لا يتصافحان. كان الحبر الذي كُتِبتْ به القوانين التي أنهت تمرد البحارة لايزال طرياً حين استأنف الضباط جلد وقتل البحارة الذين أعفي عنهم مؤخراً. قتل كثير من البحارة رمياً بالرصاص

في أعالي البحار ودفن آخرون أحياء في مقابر تحت الأرض في جزيرة كوبرا التي سميت جزيرة اليأس حيث كانت تلقى إليهم مياه جيرية حين يشكون من الظمأ.

وانتهى الأميرال الأسود في مشفى للمجانين.

1910: مستعمرة موريسيو Mauricio

تولستوي

اسحق زيمرمان Isaac Zimmerman، الذي نفي لأنه فقير، وصل إلى الأرجنتين. حين شاهد كوب متة للمرة الأولى ظن أنه محبرة وأن المصاصة قلم، وأحرق ذلك القلم يده. بنى كوخه في هذا السهل المعشوشب في مكان ليس بعيداً عن أكواخ الحجاج الآخرين الذين نفوا مثله من أودية نهر دانيستر، وهنا أنتج الأطفال والمحاصيل. كان اسحق وزوت لا يملكان سوى القليل جداً وتقريباً لا شيء والقليل الذي لديهما يمنحانه بكرم وافر. استخدمت بعض صناديق الخضار كطاولة لكن غطاء الطاولة دائماً قاس وأبيض جداً وعليه، تقدم الأزهار اللون، والتفاح العطر. في إحدى الليالي عثر الأطفال على اسحق منهاراً على تلك الطاولة ورأسه مدفون بين يديه. شاهدوا وجهه في ضوء الشمعة ينضح دمعاً. لكنه أخبرهم قائلاً: علم لتوه بمحض المصادفة، أنه هناك، في الجانب البعيد من العالم، توفي ليو تولستوي. وشرح لهم من كان ذلك الصديق القديم للفلاحين، ذلك الرجل الذي عرف كيف يصور زمنه، بشكل مهيب، ويتنبأ بعالم آخر.

1910: هافانا

السينما

سار مُشْعِلُ المصباح في طريقه حاملاً السلم على كتفه، كان يشعل الفتائل بحيث يستطيع البشر أن يسيروا في شوارع هافانا دون أن يتعثروا. كان الرسول يمضي على الدراجة حاملاً تحت ذراعه لفافات الفيلم من سينما إلى أخرى بحيث يستطيع البشر أن يسيروا دون تعثر في عوالم أخرى وأزمنة أخرى ويطوفوا عالياً في السماء مع فتاة تجلس على نجمة.

كانت تلك المدينة تمتلك صالتين مكرستين لأعظم أعاجيب الحياة المعاصرة وكلتاهما تعرض الفيلم نفسه. وحين يتوانى الرسول في إحضار اللفائف، كان عازف البيانو يمتع الجمهور بموسيقى الفالس والألحان الراقصة، أو يلقي المرشد قطعاً مختارة من *الدون خوان تينوريو*. لكن الجمهور يعض أظافره منتظراً المرأة المغوية ودوائر المخدع تحت عينيها لتبهر البصر في الظلمة، أو الفرسان الذين يرتدون دروع الزرد ليسيروا الخبب، بسرعة تصيب بالصرع، نحو القلعة المكللة بالضباب.

سرقت السينما الجمهور من السيرك ولم يعد الحشد يصطف ليشاهد مروض الأسد ذا الشارب أو جيرالدين الجميلة المغطاة بالنثار اللماع وهي تمضي منتصبة على الحصان بوركين ضخمين.

هجر أيضا محركو الدمى هافانا ليتجولوا في السواحل والقرى وغادر الغجر الذين كانوا يبصرون مع الدب الحزين الذي يرقص على إيقاع التامبورين مع العنزة التي تدور على كرسي، مع لاعبي السيرك الكئيبين في أزيائهم المختلفة الألوان. غادر الجميع هافانا لأن البشر لم يعودوا يرمون بنسات الإعجاب، بل بنسات الشفقة فحسب.

لا أحد يستطيع أن ينافس السينما التي هي أكثر إعجازا من مياه لوردز. كان وجع المعدة يعالج بالقرفة السيلانية والزكام بالبقدونس وكل شيء آخر بالسينما.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والحب

احتفل بمرور مائة عام على استقلال المكسيك وكانت جميع مستودعات العاصمة تعرض صورة الرئيس برفريو داياث.

كانت اثنتان من كل عشر فتيات في مكسيكو سيتي يشتغلن في الدعارة. السلام والنظام، النظام والتقدم: القانون ينظم ممارسة هذه المهنة المزدحمة. منع قانون المواخير الذي أعلنه الدون برفريو بنفسه التجارة الجسدية دون واجهات مناسبة، كما منع عرضها في جوار المدارس والكنائس. منع القانون أيضا اختلاط الطبقات الاجتماعية: يجب *ألا يكون في المواخير سوى نساء الطبقة نفسها التي ينتمي إليها الزبائن*. وفرض القانون جميع أنواع الوقاية الصحية والعقوبات وأرغم السيدات *أن يمنعن طلابهن من الخروج إلى الشارع في جماعات يمكن أن تلفت الأنظار*. سمح لهم أن يخرجوا فرادى وحكم عليهم أن يتواجدوا بين السرير والمشفى والسجن. وكان للعاهرات الحق، على الأقل، في الطواف أحيانا في المدينة. بهذا المعنى هن أفضل من الهنود. وبأمر من الرئيس الهندي الميكستيكي النقي تقريبا، منع الهنود من السير في الجادات الرئيسية أو الجلوس في الساحات العامة.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والطعام

افتتحت الذكرى المئوية بمأدبة من الطعام الفرنسي الفاخر في صالونات القصر الوطني. قدم ثلاثمائة وخمسون خادما صحونا أعدها أربعون شيفا وستون مساعدا بإدارة الشهير سيلفان دومونت.

كان هنـاك مكسـيكيون رشـيقون يـأكلون بالفرنسـية ويفضلـون الكريـب علـى قريبتـها الفقـيرة والمحلية تورتيا الذرة. وجدوا صلصة البوشاميل أكثر جـدارة مـن الصلصـة المحليـة، ذلـك المزيـج اللذيذ، لكن المفرط، من الأفوكاتة والطماطم والفلفل. حين تصـادف الطبقـة العليـا فلفـلا أجنبيـا، ترفض صلصة الفلفل المكسيكية، رغم أن أفراد هذه الطبقة يتسللون فيمـا بعـد إلـى مطبـخ العائلـة ويلتهمونها خلسة، مطحونة أو كاملة، كصحـن جـانبي أو رئيسـي، محشـية أو كمـا هـي، غـير مقشرة أو عارية.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والفن

دشنت المكسيك مهرجانها الوطني بمعرض كبير للفن الإسباني. ولمنح أولئك الفنـانين الإسـبان التقديم الذي يستحقونه، بنى الدون برفريو لهم جناحا خاصا في وسط المدينة.

في المكسيك، حتى الأحجار التي تستخدم لبناء مركز البريد تأتي من أوروبا، مثل كل ما يعتبر مهما. من إيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، أو إنكلترا تأتي مواد البناء والمهندسـون، أو حـين لا يتوفـر المال لاستيراد المهندسين، يتولى المهندسون المحليون بناء منازل كمنازل رومـا أو بـاريس أو لنـدن أو مدريد. في غضون ذلك، يرسـم الفنـانون المكسـيكيون عـذراوات منتشـيات، كيوبيـدات ممتلئـي الأجساد، وسيدات المجتمع الراقي في نموذج أوروبي يعـود قرنـا إلـى الـوراء، ويسـمي النحـاتون رخامهم التذكاري ومنحوتاتهم البرونزية بأسماء مثل: رغم كل شيء، يأس...؟

خلف حدود الفن الرسمي، بعيدا جدا عن نجومه، كان النحات العبقـري خوسـيه غوادالوبـي بوسودا يعري بلاده وزمنه. لم ينظر إليه أي ناقد بشكل جدي ولم يكن له تلاميذ، رغم أن فنانين شابين كانا يتبعانه منذ أن كانا طفلين. كان خوسـيه كليمينتـي أوروثكـو ودييغـو ريبـيرا يسـكنان مشغل بوسودا ويراقبانه وهو يعمل بإيمان وكأنه في قداس بينما النشارة المعدنية تسقط على الأرض لدى مرور المنقاش على الصفائح.

1910: مكسيكو سيتي

الذكرى المئوية والديكتاتور

في أوج احتفالات الذكرى المئوية افتتح الدون برفريو مشفى للأمراض العقلية وبعد ذلـك بوقـت قصير وضع حجر الأساس لسجن جديد. كان الدون برفريو مزينا من كرشه إلى رأسه المريش الذي يسود فوق سحابة من القبعات الرسمية والخـوذ الإمبراطوريـة. كـان رجـال حاشـيته الأنتيكـات، المصـابون بالرومـاتيزم، والذيـن يرتـدون الفراكـات والأحذيـة النصفيـة ويضعـون أزهـارا في عـرى

أزرارهم، يرقصون على ألحان: «يعيش بؤسي»، وهي آخر الألحان المهمة. وكانت أوركسترا من مائة وخمسين موسيقيا تعزف تحت ثلاثين ألف نجمة كهربائية في غرفة الرقص المهيبة في القصر.

استمرت الاحتفالات شهرا وجعل الدون برفريو، الذي أعاد انتخاب نفسه ثماني مرات، إحدى تلك الحفلات الراقصة مناسبة لإعلان اقتراب ولايته التاسعة بينما كان يقدم تنازلات مدتها تسعة وتسعون عاما في النحاس والنفط والأرض لشركات مورغان وككنهايم وروكفلر وهيرست. لقد أدار الديكتاتور الأصم والصلب الأرض الاستوائية الأكبر للولايات المتحدة.

في إحدى تلك الليالي، وفي أوج ذلك المرح الصاخب، ظهر مذنب هالي في الجو وانتشر الذعر وأعلنت الصحافة أن المذنب سيغرز ذيله في المكسيك ويحرق كل شيء.

1911: أنينيكويلكو Anenecuilco

زاباتا

ولد على السرج راكبا وكان مروضا للأحصنة، ويتنقل في الريف، على ظهر الحصان، حريصا ألا يزعج النوم العميق للأرض. إن إمليانو زاباتا رجل صموت، يتحدث من خلال بقائه صامتا.

فلاحو قريته أنينيكويلكو، المؤلفة من منازل مبنية من الطوب، ومسقوفة بسعف النخل، ومتناثرة على هضبة، نصبوا زاباتا قائدا لهم وأودعوا لديه أوراقا تعود إلى زمن نواب الملوك. برهنت صرة الوثائق تلك أن هذه الجماعة، ليست دخيلة على أرضها.

خنقت أنينيكويلكو مثل كل الجماعات الأخرى في إقليم موريلوس المكسيكي وكانت جزر الذرة تقل في محيط من السكر. لم يبق من قرية تيكيسكيتنغو، التي حكم عليها بالموت لأن هنودها الأحرار رفضوا أن يصبحوا عصابة من الأقنان، سوى صليب برج الكنيسة. كانت المستعمرات الزراعية الضخمة تتقدم مبتلعة الأرض والماء والغابات ولم يكن ثمة مكان حتى لدفن الموتى.

إذا أرادوا أن يزرعوا فليزرعوا في الآنية.

كان الرجال المسلحون والمخادعون يشهدون النهب بينما كان مستهلكو الجماعات يقيمون الحفلات الموسيقية في حدائقهم ويربون مهر البولو والكلاب الأصيلة.

دفن زاباتا، قائد القرويين المستعبدين، ألقاب نواب الملك المالكين للأراضي تحت أرضية كنيسة أنينيكويلكو ورمى نفسه في الصراع. كانت قواته الهندية، المجهزة جيدا والراكبة جيدا، ولكن غير المسلحة جيدا، تنمو وهي تنطلق.

1911: مكسيكو سيتي

ماديرو

كان الشمال كله ينتفض خلف فرانسيسكو ماديرو. وبعد ثلاثين سنة متواصلة على العرش انهار برفريو داياث في بضعة أشهر.

كان الرئيس الجديد ماديرو ابنا فاضلا للدستور الليبرالي، وأراد أن ينقذ المكسيك من خلال الإصلاح القضائي، بينما كان زاباتا يطالب بالإصلاح الزراعي. وبينما هم يجابهون صخب الفلاحين، وعد النواب الجدد أن يدرسوا بؤسهم.

1911: حقول تشيواوا Chihuahua

بانتشو بيا

من بين القواد الشماليين الذين قادوا ماديرو إلى الرئاسة كان بانتشو بيا المحب والمحبوب أكثر من الجميع. كان يحب الزواج ويفعل ذلك دائما. يسدد المسدس إلى الرأس فلا يعيقه كاهن ولا تقاومه فتاة. كان يحب أيضا أن يرقص على ألحان المرمبة وأن ينخرط في المعارك.

وكانت الطلقات ترتد عن صمبريرته كقطرات المطر.

خرج إلى الصحراء باكرا: *بدأت الحرب، بالنسبة إلي، حين ولدت*. كان صغيرا أكثر من طفل حين انتقم لأخته. ومن عمليات القتل الكثيرة التي حدثت منذ ذلك الوقت استهدفت الأولى مديره الذي لم يترك له إلا خيار أن يصبح لص خيول.

ولد مثل دوروتيو أرانجو. كان بانتشو بيا شخصا آخر تماما. كان زعيم عصابة، صديقا، بل من أفضل الأصدقاء. حين قتل الحرس الريفي بانتشو بيا الحقيقي أخذ دوروتيو اسمه واحتفظ به. وضد الموت والنسيان بدأ يدعو نفسه بانتشو بيا من أجل أن يستمر صديقه حيا.

1911: ماتشو بيكتشو Machu Picchu

الملاذ الأخير للآنكيين

لم يمت الملاذ الأخير للآنكيين، إنه ينام فحسب. طول قرون زفر نهر أوروبامبا ذو الزئير، المزبد نفسه القوي على الصخور المقدسة وغطاها بغطاء من الأدغال الكثيفة ليحرس نومها. وهكذا حافظ الحصن الأخير للآنكيين، موطئ القدم الأخير لملوك البيرو الهنود على سريته.

وبين جبال ثلجية لا تظهر على أية خريطة عثر عالم آثار أميركي شمالي يدعى هيرام بنغهام على ماتشو بيكتشو Machu Picchu. قاده طفل من المنطقة بيده فوق الجروف إلى العرش المهيب

الذي تحجبه الغيوم والخضرة، وهناك عثر هيرام بنغهام على الأحجار البيضاء التي لا تزال حية بين النباتات الخضراء وكشفها للعالم مستيقظة.

1912 : كيتو

ألفارو

لعنت امرأة طويلة ترتدي ثيابا سوداء الرئيس ألفارو وهي تطعن جثته بخنجر، ثم رفعت على رأس عصا المزق الدموية لقميصه، كراية ملتهبة.

سار خلف المرأة التي ترتدي الأسود منتقمو كنيسة الأم المقدسة وكانوا يجرون الجسد العاري بحبال مربوطة إلى قدميه. صاحت العجوز الثرثارة، آكلة القديس، وبالعة خبز القربان: *يحيا الدين* ! !

سالت الدماء في الشوارع المحصبة، دماء لم تستطع الكلاب أن تلعقها مطلقا، ولم تقدر الأمطار أن تغسلها.

انتهى الذبح بألسنة اللهب، أضرمت نار كبيرة رمي فيها ما تبقى من العجوز ألفارو ثم داس على رماده المسلحون وقطاع الطرق الذين استأجرهم السادة أصحاب الأراضي.

لقد تجاسر الرئيس ألفارو على انتزاع الأراضي من الكنيسة التي تملك كثيرا من الإكوادور واستخدم الأجور لإنشاء المدارس والمشافي. ولأنه صديق لله لا للبابا، أجاز الطلاق وحرر الهنود المسجونين بسبب الديون. ولم يكره ذوو الأردية الكهنوتية أحدا مثله ولم يخش الذين يرتدون الفراكات مثله.

خيم الليل. فاح جو كيتو برائحة اللحم المحروق. وكما في كل يوم أحد عزفت الفرقة الموسيقية العسكرية الحان الفالس والباسيوس pasillos من على منصة الساحة الرئيسية.

أشعار حزينة
من كتاب الأغاني الإكوادوري

ليبتعد الجميع،
قفوا جانبا أو امضوا.
مرضي معد،
وأنا مليء بالألم.

أنا وحيد، ولدت وحيدا،
من أم مهجورة،
ووحيدا أبقى
ريشة في عاصفة.

كيف يجعل بيت مطلي
رجلا أعمى يغني؟
ما فائدة الشرفات للشارع
إذا كان لا يستطيع أن يرى شيئاً؟

1912: كانتون سانتا آنا Canton Santa Ana

سجل عادات مانابي

ولد إيلوي ألفارو على ساحل الإكوادور في إقليم مانابي. وفي تلك الأرض الحارة، منطقة الوقاحة والعنف لم يعر أحد، أدنى اهتمام، إلى قانون طلاقه الأخير الذي فُرض ضد الريح و المد. هنا، من الأسهل أن تصبح أرملاً بدلاً من أن يقبض عليك بشريطة حمراء ذلك أن السرير الذي ينام عليه اثنان يستيقظ عليه واحد. ويشتهر سكان مانابي بسرعة غضبهم وإفلاسهم وقلوبهم الكبيرة.

كان مارتن بيرا من سكان مانابي النادرين، ولقد صدئت مديته من بقائها طويلاً في غمدها. حين غزا خنزير الجيران حديقته الصغيرة، ورعى نباتات المنيهوت، ذهب مارتن ليتحدث مع عائلة روزادو، وطلب منهم، بلطف، أن يسجنوا الحيوان. وفي المناسبة الثانية، عرض مارتن أن يصلح الحيطان المهلهلة لزريبة خنازير عائلة روزادو مجاناً، ولكن، في المرة الثالثة التي كان الخنزير يمرح فيها في الحديقة أطلق عليه مارتن النار فخرّ الحيوان صريعاً وأعادته عائلة روزادو إلى أملاكها لتمنحه دفناً لائقاً بخنزير.

توقفت عائلة بيرا وروزادو عن تبادل التحيات. وبعد أيام، بينما كان الذي أعدم الخنزير يعبر جروف كالبو ممسكاً بعرف بغله، أردته رصاصة وعلقته من أحد الركابين. جر البغل مارتن بيرا إلى المنزل متأخراً جداً عن أية امرأة راكعة لتساعده في موت لائق .

فرت عائلة روزادو. وحين اصطادهم أبناء مارتن في دير فارغ قرب كوليماس أشعلوا ناراً حول المكان وكان على عائلة روزادو التي يبلغ عددها ثلاثين شخصاً أن تختار الموت. مات البعض حرقاً والبعض الآخر بالرصاص بعد أن ثقبوا كالمناخل .

حدث هذا منذ سنة أما الآن فقد التهمت الغابة حديقتي العائلتين تاركة أرضاً لا يملكها أحد.

1912: باجيو دي فلوريس

حروب العائلات

ورثت النخبة الأرض والكراهية في صحاري شمال شرق البرازيل. كانت أرضا حزينة تحتضر من الظمأ أما الحقد فقد تناقله الأقرباء من جيل إلى آخر، ومن انتقام إلى آخر، إلى الأبد وإلى يوم واحد. نشبت حرب أبدية في ثيارا بين عائلة كونا وعائلة باتاكا. ومارست عائلتا مونتيسيس وفيتوساس الإبادة المتبادلة. وفي باريبا صفت عائلتا دانتاسيس ونوبريكخاسيس بعضهما بعضا، وفي برنامبكو، في إقليم نهر باجيو، كان كل وليد من عائلة بيريرا يتلقى من والديه وجديه أمرا باصطياد وليد كاربالو وكل وليد من عائلة كاربالو يهيأ للقضاء على فرد من بيريرا.

اليوم، أطلق بيرغلينو دا سيلبا بيريرا، المعروف باسم لامبياو، طلقاته الأولى على شخص من كاربالو، وعلى الرغم من أنه لا يزال طفلا، أصبح، بشكل آلي، خارجا عن القانون.

لا تستحق الحياة كثيرا في هذه الأرجاء حيث المشفى الوحيد هو المقبرة. ولو كان لامبياو طفل الأغنياء فلن يكون عليه أن يقتل على حساب الآخرين. كان سيفعل هذا من أجله هو فقط.

1912: ديكيري

الحياة اليومية

في منطقة الكاريبي: غزو

كان تعديل بلات الذي قام به السيناتور بلات من كونيكتيكت هو مفتاح الدخول الذي استخدمته الولايات المتحدة للدخول إلى كوبا في أية ساعة. كان التعديل الذي أصبح جزءا من الدستور الكوبي يخول الولايات المتحدة أن تغزو وتتدخل ويمنحها سلطة أن تقرر من هو الرئيس المناسب لكوبا، ومن هو غير المناسب .

طبق الرئيس الحالي المناسب ماريو غارسيا مينوكال، الذي يرأس أيضا شركة السكر الكوبية الأميركية، تعديل بلات مستدعيا المارينز لإنهاء حالة عدم الاستقرار. كان كثير من السود في حالة تمرد ولم يكن أي منهم يقدر الملكية الخاصة تقديرا عاليا. جاءت سفينتان حربيتان وهبط المارينز على الشاطئ في ديكيري لحماية مناجم الحديد والنحاس التابعة لشركات النحاس الإسبانية الأميركية والكوبية التي هددها الغضب الأسود، ولحماية مطاحن السكر على طول سكك حديد غوانتنامو وسكك الحديد الغربية.

1912: نيكينوأومو Niquinohomo

الحياة اليومية في أميركا الوسطى: غزو آخر

دفعت نيكاراغوا للولايات المتحدة تعويضا ضخما مقابل الخسائر الأخلاقية التي سببها الرئيس الساقط ثيلايا الذي ارتكب اعتداء خطيرا وحاول أن يفرض الضرائب على الشركات الأميركية الشمالية.

وبما أن نيكاراغوا تفتقد للمال، قدم المصرفيون الأميركيون القروض الضرورية لدفع التعويض، وبما أن نيكاراغوا تفتقد للضمانات طلب وزير الخارجية الأمريكي فيلاندر نوكس من المارينز أن يتولوا مسؤولية الجمارك والبنوك الوطنية وسكك الحديد.

ترأس المقاومة بنخامين ثيليدون. كان لرئيس الوطنيين وجه جميل المحيا وعينان مندهشتان، ولم يستطيع الغزاة أن يرشوه لأنه يبصق على النقود وهكذا هزموه من خلال الخيانة.

أوغستو سيزر ساندينو، القن الذي لا أهمية له، والذي هو من قرية لا أهمية لها، رأى جثة ثيليدون تعبر وتجر في الغبار بينما رجلاه ويداه مقيدتان إلى سرج غاز ثمل.

1912: مكسيكو سيتي

هيرتا

بدا كجثة هالكة، وكانت نظارته، المعتمة والمشعة، الشيء الوحيد الذي بدا حيا في وجهه. تحول فيكتوريانو هيرتا، الذي كان حارسا شخصيا متطوعا لبرفريو دايات، إلى الديموقراطية حين سقطت الديكتاتورية، وأصبح اليد اليمنى للرئيس ماديرو، وكرس نفسه لاصطياد الثوار. في الشمال قبض على بانتشو بيا، وفي الجنوب على ملازم أول زاباتا خيادادو ماغانا وأمر بإعدامهما رميا بالرصاص. كانت فرقة الإعدام تضع يدها على الزناد حين قاطع العفو الرئاسي الحفل فتنهد بيا قائلا: *جاء الموت إلي لكنه خسر الموعد.*

نقل الشخصان المنبعثان إلى زنزانة صغيرة في سجن تلاتيلولكو، وأمضيا الأيام والشهور وهما يتحدثان. كان ماغانا يتحدث عن زاباتا، وعن خطته في الإصلاح الزراعي، وعن ماديرو الذي يدير أذنا صماء، وهو حريص جدا أن لا يسيء للفلاحين أو مالكي الأراضي *وهو يمتطي حصانين في الوقت نفسه.*

وصل لوح صغير وبعض الكتب، وكان بانتشو بيا يعرف أن يقرأ البشر لكنه يجهل الحروف. علمه ماغانا، وسوية دخلا كلمة كلمة، طعنة سيف بعد طعنة، *قلاع المسلحين الثلاثة* ثم بدأا

بدأا رحلة عبر رواية دون كيخوته دي لا مانشا وعبر الطرق المجنونة لإسبانيا. وكان بانتشو بيــا، المقاتل الصحراوي الشرس، يقلب الصفحات بيد عاشق.

قال له ماغانا: *هذا الكتاب... أتعرف؟ كتبه سجين. أحدنا.*

1913: مكسيكو سيتي

حبل بثمانية عشر سنتا

فرض الرئيس ماديرو ضريبة خفيفة على شركات النفط التي لم تمس إلى الآن فهدد السفير الأميركي الشمالي هنري لين ويلسون بالغزو وتوجهت عدة سفن حربية إلى ميناء مكسيكو، كما أعلن السفير، بينما كانت قوات الجنرال هيرتا المتمردة تقصف القصر الوطني.

نوقش مصير المكسيك في ردهة التدخين في السفارة الأميركية. وقرر تنفيذ قانون إطلاق النار في أثناء محاولة الهرب. وهكذا وضعوا ماديرو في سيارة وأمروه أن يغادر البلدة ثم ثقبوه بالرصاص حين قام بذلك.

حضر الرئيس الجديد الجنرال هيرتا مأدبة في نادي جوكي حيث أعلن أنه يمتلك علاجا جيدا لإمليانو زاباتا وبانتشو بيا وأعداء النظام الآخرين: وهو حبل بسعر ثمانية عشر سنتا.

1913: جوناكاتيبيك Jonacatepec

القبائل لم تدمر

اقترح ضباط هيرتا، المتورطون القدامى في إبادة الهنود المتمردين، أن ينظفوا المناطق الجنوبية. حرقوا القرى وأسروا الفلاحين، وكل من صادفوه سقط قتيلا أو سجينا. فمن الذي ليس زاباتا في الجنوب؟

كانت قوات زاباتا جائعة ومريضة ومنهكة. ولكن قائد الذين بلا أرض كان يعرف ماذا يريد وشعبه يؤمن بما يفعله. لم يكن بمقدور النار أو الخداع أن يقفا في وجه ذلك. وبينما كانت صحف العاصمة تقول إن *قبائل زاباتا دمرت كليا*، كان زاباتا يفجر القطارات، ويفاجئ الحاميات ويدمرها، ويحتل القرى ويهاجم المدن، ويتحرك أينما أراد، عبر الجبال التي لا تخترق والوهاد التي لا تعبر، مقاتلا وعاشقا وكان كل هذا هو عمل يوم واحد.

كان زاباتا ينام أينما يحب ومع من يحب ولكن، من بين كل هذا كان يفضل اثنتين هما واحدة.

زاباتا والاثنتان

كنا توأمين. سميت كل منا لوث في يوم معموديتنا وغريغوريا في يوم ولادتنا. سموها لوث وسموني غريغوريا. وهناك كنا فتاتين صغيرتين في المنزل حين جاء أبناء زاباتا ثم رئيسهم وحاولوا إقناع أختي أن تذهب معهم.

اسمعي، اذهبي معي.

وبالضبط في 15 أيلول جاء وأخذها.

فيما بعد، في تلك الحركة الدائرية المستمرة، ماتت شقيقتي في هوالتا من مرض يسمونه - ماذا يسمونه؟ - الرقاص. بقي معنا الزعيم زاباتا ثلاثة أيام وثلاث ليال دون أن يأكل أو يشرب. كنا قد أشعلنا الشموع لأختي فحسب حين أخذني بالقوة قائلا إنني ملكه لأنني كنت أنا وشقيقتي...

1913: سهول تشيواوا

شمال المكسيك يحتفل بالحرب وعيد القديس

كانت الديكة تصيح كلما شعرت بالقيام بذلك. لقد اشتعلت هذه الأرض وجنت وتمرد الجميع.

«سنذهب إلى الحرب يا امرأة».

«ولكن لماذا أنا؟»

«أتريدينني أن أموت من الجوع في الحرب؟ من الذي سيعد لي التورتيا؟»

كانت أسراب العقبان تتبع الأقنان المسلحين فوق السهول والجبال. إذا كانت الحياة لا تساوي شيئا فما الذي يمكن أن يساويه الموت؟ كان الرجال يرمون أنفسهم كالنرد في الاضطراب، ويعثرون على الانتقام أو النسيان، وعلى أرض لتغذيهم أو لتغطيهم.

ابتهج الأقنان: لقد جاء بانتشو بيا.

صاح المراقبون راسمين إشارة الصليب: جاء بانتشو بيا!

سأل الجنرال هيرتا: أين، أين هو؟

أجاب قائد حامية تشيواوا: في الشمال، في الجنوب، في الغرب وأيضا في اللامكان.

كان بانتشو بيا هو أول من يهجم أثناء مجابهة العدو نحو فكوك المدافع التي يصدر منها الدخان وحين يحمى وطيس المعركة يقهقه فحسب ويقفز قلبه كسمكة فوق الماء. كان ضباطه يقولون: *الجنرال لا يعاني من أية مشكلة، إنه عاطفي قليلا فحسب*. وهو هكذا. وكان من المعروف أنه ينتزع أحشاء الرسول الذي يعدو على حصانه محضرا أخبارا جيدة من الجبهة بطلقة واحدة. وكان يفعل ذلك من أجل المتعة فحسب.

1913: كلياكان Culiacan

رصاصات

ثمة رصاصات تمتلك مخيلة كما اكتشف مارتن لويس كوثمان. إنها رصاصات تسلي نفسها بإيلام اللحم. ولقد عرف رصاصات جدية تخدم العنف البشري لكنه لم يعرف تلك الرصاصات التي تلعب بالألم البشري.

وكونه راميا يمتلك قلبا طيبا عين الروائي لإدارة أحد مشافي بانتشو بيا. وكان الجرحى يتكومون على الأوساخ دون ملاذ سوى أن يطبقوا أسنانهم هذا إن كانوا يمتلكون أسنانا.

وبينما كان يفحص الأجنحة المكتظة كان كوثمان يؤكد المسارات غير المحتملة لتلك الرصاصات، ذات المخيلة، القادرة على إفراغ محجر العين تاركة الجسد حيا. أو تلصق قطعة من الأذن بالعنق وقطعة من العنق بالقدم. وشهد المتعة الشريرة للرصاصات، التي بعد أن تؤمر بقتل جندي، تحكم عليه ألا يجلس ثانية بتاتا وأن لا يأكل بفمه مطلقا.

1913: حقول تشيواوا

في أحد تلك الصباحات، قتلت نفسي

قتلت نفسي على طريق مكسيكي مغبر وترك الحدث في تأثيرا عميقا. لم تكن تلك جريمتي الأولى فمنذ أن ولدت في أوهايو منذ واحد وسبعين عاما، ومنذ أن سميت أمبروس بيرس دمرت حياة والدي وعددا من الأقرباء والزملاء. لطخت تلك الحوادث المؤثرة أيامي أو قصصي بالدماء ذلك أن الأمر سيان بالنسبة لي: فالفرق بين الحياة التي عشتها والحياة التي كتبتها هي قضية للمنكتين، الذين يسنون القانون البشري، وللنقد الأدبي، ولمشيئة الله في هذا العالم.

ولكي أنهي أيامي انضممت إلى قوات بانتشو بيا واخترت إحدى تلك الطلقات الطائشة الكثيرة التي تطن عبر السماء المكسيكية في تلك الأيام. وبرهنت هذه الطريقة أنها عملية أكثر من الشنق، وأرخص من السم، وملائمة أكثر من إطلاق النار بإصبعي، وأكثر شرفا من انتظار المرض أو الشيخوخة.

1914: مونتيفيديو

باتل Batlle

كتب مقالات شوهت سمعة القديسين وألف خطبا هاجمت الشركة التي تبيع العقارات في عالم الغيب. حين تولى رئاسة الأوروغواي لم يكن أمامه بديل سوى أن يقسم أمام الله والأناجيل المقدسة لكنه شرح حالا أنه لا يؤمن بأي منهما.

حكم خوسيه باتل ي أوردونيث متحدياً قوى السماء والأرض لكن الكنيسة وعدته بمكان ظريف في الجحيم. والشركات التي أممها أو أجبرها أن تحترم اتحادات عمالـها، وعمـل اليـوم المؤلـف مـن ثماني ساعات، ستغذي النار، وسينتقم الشيطان من اعتداءاته على المتفوقين عليه من الذكور.

قال أعداؤه حين أصدر قانونـا يسمح للنسـاء بإقامـة دعـوى مـن أجـل الطـلاق: «*إنـه يشـرع للفسق.*» وقالوا حين وسع قوانـين الإرث لتشمل الأبنـاء غـير الشـرعيين: «*إنـه يفكـك الأسـرة*». وقالوا: «*إن دماغ المرأة أدنى*» حين أنشأ جامعة نسوية، وأعلن أن النساء سيحصلن على حقهن في التصويت حالا لكي لا تسير الديموقراطية في الأوروغواي على رجل واحدة، ولكي لا تبقى النسـاء إلى الأبد أطفالا ينتقلون من يدي الأب إلى يدي الزوج.

1914: سان إغناسيو

غيروكا

من غابة نهر بارانا حيث كان في منفاه الطوعي صفق هوراشيو غيروكا لإصلاحات باتل *ولذلـك الإيمان الحماسي بالأشياء النبيلة.*

لكن غيروكا كان بالفعل بعيدا عن الأوروغواي. غادر البلاد منذ بضع سنوات هاربـا مـن ظـل الموت بعد أن أعتمت لعنة حياته منذ أن قتل صديقه المفضل بينما كان يحاول الدفاع عنه أو ربمـا كان ملعونا من البداية.

في الغابة، على بعد خطوة من حطام الإرساليات اليسوعية، عـاش غيروكـا محاطـا بالخنـافس وأشجار النخيل وكتب قصصا دون انعطافات كمـا فتـح ممـرات في الدغـل وكتـب القصـص بـهيام كهيامه العاصف الذي عمل به في التربة والخشب والحديد.

ما كان غيروكا يبحث عنه لم يستطع أبدا أن يجده بعيدا عن هنا. هنا، نعـم، رغـم أن الأمـر نادرا ما حصل. في هذا المنزل الذي بنته يداه قرب النهر عاش غيروكا أحيانا متعة سماع أصوات أكثر قوة من نداء الموت: حقائق نادرة وهاربة عن الحياة والتي، فيما تستمر، تكون مطلقة كالشمس.

1914: مونتيفيديو

دلميرا

كان لديها موعد في تلـك الغرفـة المسـتأجرة مـع الرجـل الـذي كـان زوجـها. لأنـه يرغـب أن يمتلكها، يرغب أن يبقى معها، مارس الجنس معها ثم قتلها و انتحر.

نشرت صحف الأوروغواي صورة الجثة مستلقية على السرير: قتلت دلميرا برصـاصتين، وهـي عارية، مثل قصائدها التي لا ترتدي الأحمر.

دعنا نتوغل أكثر في الليل، دعنا ...

كتبت دلميرا أوغستين منتشية. وغنت لحمى الحياة دون شعور بالعار. وحكم عليها أولئك الذين يعاقبون النساء على ما يصفقن له في الرجل لأن الطهارة واجب أنثوي والرغبة، مثل العقل، امتياز ذكري. تسير القوانين في الأوروغواي أمام البشر الذين لا يزالون يفصلون الروح عن الجسد وكأنهما الحسناء والوحش. تدفقت أمام جثة دلميرا الدموع والعبارات عن تلك الخسارة التي لا تعوض للأدب الوطني ولكن النادبين شعروا، في أعماقهم، ببعض الراحة: ماتت المرأة وهذا أفضل.

لكن هل ماتت؟ ألن يكون جميع العشاق الذين يحترقون في ليالي العالم ظلال صوتها وأصداء جسدها؟ ألن يهيئوا في ليالي العالم مكانا صغيرا حيث يستطيع جسدها المتحرر من الأغلال أن يغني، وقدماها المشعتان أن ترقصا؟

1914: سيوداد خمينيث

تاريخ شعوب غاضبة

من صدمة إلى صدمة، ومن أعجوبة إلى أخرى، سافر جون ريد على طرقات شمال المكسيك بحثا عن بانتشو بيا وعثر عليه عند كل خطوة. كان ريد، مؤرخ الثورة، ينام أينما يحل الليل. لم يسرق أحد منه شيئا مطلقا، ولم يجعله أحد يدفع مقابل أي شيء سوى الرقص والموسيقى. وكان هناك دائما شخص يقدم له قطعة تورتيا أو مكانا لحصانه.

من أين جئت؟

من نيويورك.

حسنا، لا أعرف أي شيء عن نيويورك، ولكن أراهنك إن كنت تشاهد قطيعا رائعا يسير في الشوارع كالذي تشاهده في شوارع خمينيث؟

امرأة تحمل على رأسها إبريقا وأخرى تقعي لترضع وليدها وثالثة تركع على ركبتيها وتطحن الذرة والرجال، الذين يرتدون أغطية ذاوية، يجلسون في حلقة يشربون ويدخنون.

اسمع يا خوانيتو، لماذا لا يحب شعبك المكسيكيين؟ لماذا يسموننا صانعي الدهون؟

كان الجميع يمتلكون أسئلة ليطرحوها على الرجل النحيل ذي النظارة الذي بدا وكأنه هنا بسبب غلطة.

اسمع يا خوانيتو كيف تقول «بغل» بالإنكليزية؟

بغل عنيد برأس سمين.

1914: سولت ليك سيتي

مغني الشعوب الغاضبة

حكموا عليه لأنه غنى أناشيد حمراء سخرت من الله، أيقظت العمال ولعنت النقود. لم يقل الحكم أن جو هيل شاعر بروليتاري متجول، أو بشكل أسوأ، أجنبي يهدف إلى تدمير النظام الجيد للعمل. تحدث الحكم عن الهجوم والجريمة، ولم يكن ثمة برهان، والشهود كانوا يغيرون شهادتهم في كل مرة. وتصرف محامو الدفاع كأنهم المدعون. لكن هذه التفاصيل افتقدت الأهمية بالنسبة للقضاة الذين يصدرون القرارات في سولت ليك سيتي. قيد جو هيل إلى كرسي ووضعت دائرة كرتونية على صدره كهدف لفرقة الإعدام.

جاء جو هيل من السويد وتجول على طرقات الولايات المتحدة. نظف المباصق في المدن، وشيد الجدران، حزم القمح وقطف الفاكهة في الريف، نقب عن النحاس في المناجم، وحمل الأكياس على أرصفة المرفأ. نام تحت الجسور وفي المخازن وكان يغني في كل مكان وفي أي وقت. لم يتوقف مطلقا عن الغناء، وودع أصدقاءه مغنيا. ذلك أنه سينطلق، الآن، إلى المريخ ليزعج سلامه الاجتماعي.

1914: توريون

يسيرون على سكة الحديد إلى المعركة

في سيارته الحمراء، التي تعرض اسمه بأحرف ذهبية كبيرة، استقبل الجنرال بانتشو بيا جون ريد. استقبله مرتديا سرواله التحتاني، سكب له القهوة ودرسه لوهلة طويلة. وحين قرر أن هذا الغرينغو يستحق أن يصغي إلى الحقيقة بدأ يتحدث.

«*يريد سياسيو الشوكولاتة أولئك المعطرون أن يربحوا دون توسيخ أيديهم.*»

ثم أخذه ليزور المشفى الميداني الذي كان قطارا يحوي غرفة عمليات وفيه أطباء يعالجون رجاله وأشخاصا آخرين. أراه السيارات التي تنقل الذرة، والسكر، والبن، والتبغ إلى الجبهة. وأراه أيضا المنصة التي يعدم عليها الخونة.

كانت سكك الحديد، التي بناها برفريو داياث، الطريق إلى السلام والنظام، والمفتاح الرئيسي لتقدم بلاد بلا أنهار أو طرقات. ولقد أنشئت، لا لكي تنقل قوما مسلحين، بل مواد أولية رخيصة وعمالا طيعين وجلادي التمردات. لكن الجنرال بيا كان يشن الحرب من القطار ولقد سير من كامارخو قاطرة بسرعة قصوى ودمر قطارا مليئا بالجنود. دخل رجال بيا سيوداد خواريث رابضين في سيارات فحم بريئة وبعد إطلاق عدة طلقات احتلوها بسبب المتعة لا الضرورة. كان جنود بيا يذهبون إلى الخطوط الأمامية للحرب بالقطار وكانت القاطرة تشهق متسلقة، بألم، المنحدرات الشمالية الجرداء. ومن خلف ريش دخان أسود تخرج سيارات مهتزة، تصدر صريرا، مليئة

بالجنود والأحصنة، وعلى سطوحها تبزغ البنادق، والصمبريرات، والمدافئ. وبين الجنود الذين يغنون المانانيتاس mananitas ويطلقون النار في الجو يزعق الأطفال وتطبخ النساء ـ النساء المجندات يرتدين ثياب العرس، وينتعلن الأحذية الحريرية من النهب الأخير.

1914: حقول موريلوس

حان وقت الحركة والقتال

كان صدى الزئير والطلقات كانهيال جبل فيما جيش زاباتا، الذي يهبط إلى المزارع ويصعد إلى القرى، يفتح الطريق إلى مكسيكو سيتي.

حول الزعيم زاباتا، كان الجنرال (جينوفيفو دي لا أو) يتأمل وينظف بندقيته، وكان وجهه كشمس بشارب، بينما كان أوتيليو مونتانو، الفوضوي، يناقش بيانا مع أنطونيو دايات سوتو ي غاما الاشتراكي. كان بين ضباط ومستشاري زاباتا امرأة واحدة فحسب وهي الكولونيل روزا بوباديا، التي ربحت رتبتها في الحرب، وهي تقود جماعة من الخيالة وتدعم حظرا لتناول الشراب حتى ولو كان قطرة تيكيلا. كانوا يطيعونها بشكل غامض رغم أنهم بقوا مقتنعين أن النساء لسن جيدات إلا لتزيين العالم ولإنجاب الأطفال وطبخ الذرة وصلصة الفلفل والفاصولياء أو أي شيء يقدمه الله ويسمح به.

1914: مكسيكو سيتي

هيرتا يهرب

هرب هيرتا على السفينة نفسها التي نقلت برفريو دايات من مكسيكو.

كانت الأسمال تنتصر في الحرب ضد الثياب الفاخرة وانقض مد من الفلاحين على العاصمة. زاباتا، ذلك *الأتيلا من موريلوس*، وبانتشو بيا، *إنسان الغاب الذي يأكل اللحم النيئ ويقضم العظام*، هجما من الشمال لينتقما من الظالمين. وقبل عيد الميلاد تماما عرضت صحف مكسيكو سيتي على صفحاتها الأولى حواشي سوداء تندب وصول الخارجين عن القانون، البرابرة المنتهكين للفتيات والأقفال.

كانت أياما مضطربة لم يعرف فيها أحد الآخر وكانت المدينة ترتجف من الذعر وتتنهد من الحنين. والبارحة فقط، في محور العالم، كان الأسياد في منازلهم الكبيرة مع أتباعهم و بيانوهاتهم وشمعداناتهم ورخام كارارا وحولهم الأقنان، وفقراء الأحياء الفقيرة، الدائخون من شراب البلكة، يرمون في القمامة، محكومين بالأجور أو البقشيش الذي لا يكاد يشتري بعض الحليب المخلوط بالماء أو بن فريجول أو لحم الحمير.

1915: مكسيكو سيتي

لم يستولوا على السلطة

قرع جبان، في مكان ما بين الرغبة والامتناع. فتح الباب إلى المنتصف. رأس غير مغطى، صمبريرة ضخمة تمسكها يدان تتوسلان، حبا بالله، من أجل الماء والتورتيا. كان رجال زاباتا الهنود، الذين يرتدون بنطلونات بيضاء وأحزمة خرطوش متصالبة على صدورهم، يتجولون في شوارع المدينة التي تحتقرهم و تخشاهم. لكن، لم توجه إليهم دعوة في أي مكان. وفي لمح البصر التقوا برجال بيا، الأجانب الضائعين أيضا والعميان.

قرقعة ناعمة للأخفاف على الدرجات الرخامية، أقدام خائفة من متعة السجاد، وجوه تحدق، محتارة، في مرايا من الأرضيات الشمعية: دخل رجال زاباتا وبيا القصر الوطني وكأنهم يلتمسون عذرا. جلس بيا على الكرسي ذي الذراعين المموه بالذهب الذي كان عرش برفريو دايات ليرى أي إحساس يقدمه بينما تمتم زاباتا، الذي إلى جانبه، أجوبة إلى الصحفيين وكان يرتدي بزة مزركشة جدا وعلى وجهه تعبير من هو هناك دون أن يكون هناك.

انتصر قائدا الفلاحين لكنهما لم يعرفا ماذا يفعلان بنصرهما: *إن هذا الكوخ كبير علينا*.

إن السلطة هي شيء ما للأطباء، لغز مهدد لا يمكن أن يفك شيفرته سوى المثقفين، أولئك الذين يفهمون فن السياسة الراقي، *أولئك الذين ينامون على مخدات ناعمة*.

حين خيم الليل ذهب زاباتا إلى فندق قذر على بعد خطوة من سكة الحديد التي تقود إلى بلاده وذهب بيا إلى قطار عسكري وودعا، بعد بضعة أيام، مكسيكو سيتي.

اكتشف أقنان المزارع، هنود الجماعات، منبوذو الريف، مركز السلطة وشغلوه للحظة وكأنهم في زيارة، على رؤوس أصابع أقدامهم، متلهفين لينهوا، بالسرعة الممكنة، تلك الرحلة إلى القمر. هؤلاء الغرباء عن مجد النصر عادوا إلى الأراضي التي عرفوا أن يتحركوا فيها دون أن يضيعوا.

لم يتخيل خليفة هيرتا أنباء أفضل من هذه. كان هو الجنرال بينستيانو كارانثا الذي كانت قواته المسحوقة تنتعش بفضل مساعدة الولايات المتحدة.

1915: تلالتيثابان Tlaltizapan

الإصلاح الزراعي

في طاحونة قديمة في قرية تلالتيثابان بنى زاباتا مقره. هنا، في مقاطعته، بعيدا عن اللوردات ذوي الشوارب الخدية، وسيداتهم المريشات، بعيدا عن المدينة الخاطفة للبصر والمخادعة، سحق زعيم متمردي موريلوس المزارع الكبيرة، أمم مطاحن السكر ومعامل التقطير، دون أن يدفع قرشا واحدا، وأعاد للجماعات أراضيها التي سرقت منذ قرون. ولدت قرى حرة من جديد، ولد ضمير

وذاكرة التقاليد الهندية ومعها الديموقراطية المحلية. هنا لا يصدر البيروقراطيون أو الجنرالات القرارات، وإنما تصدرها الجماعة المجتمعة في ندوة مفتوحة. منع بيع أو تأجير الأرض، ومنع اشتهاء الملكية.

في ظل الغار، في ساحة القرية، لا يدور الحديث عن مصارعة الديكة والأحصنة والمطر. كان جيش زاباتا، عصبة الجماعات المسلحة، يحرس الأراضي المستعادة، يزيت بنادقه ويعيد تذخيرها بخرطوش قديم.

كان تقنيون شبان يحضرون إلى موريلوس مناصب ثلاثية القوائم وأدوات أخرى غريبة ليساعدوا الإصلاح الزراعي. استقبل الفلاحون أولئك المهندسين الشبان من كيرنباكا بمطر من الأزهار لكن الكلاب نبحت على الرسل الذين يمتطون الأحصنة ويعدون من الشمال حاملين أنباء سيئة مفادها أن جيش بانتشو بيا قد سحق.

1915: إل باسو El Paso

أثويلا Azuela

نفي طبيب من جيش بانتشو بيا إلى تكساس بعد أن اعتقد أن الثورة المكسيكية انفجار لا فائدة منه. قالت رواية ماريانو أثويلا *الخاسرون* إن الثورة حكاية رجال عميان سكارى يطلقون النار دون أن يعرفوا لماذا أو على من. يندفعون كحيوانات بحثا عن أشياء يسرقونها أو امرأة يرمونها على الأرض في أرض تفوح، إلى درجة النتانة، برائحة البارود والدهن المقلي.

1916: تلالتيثابان

كارانثا

كانت صلصلة مهاميز خيالة بيا لا تزال تسمع في الجبال لكنهم لا يشكلون جيشا. من خنادق تدافع عنها أسلاك شائكة قامت الرشاشات بعملية تنظيف جيدة، في أربعة معارك طويلة، لخيالة بيا الناريين الذين طحنوا إلى غبار وهم يشنون هجمات انتحارية عنيدة ومتكررة.

بينستيانو كارانثا الذي أصبح رئيسا رغم أنف كل من بيا وزاباتا، شن الحرب في الجنوب قائلا:

إن هذا العمل الذي يهدف إلى تقسيم البلاد جنوني.

أعلن مرسوم أن الأراضي التي وزعها زاباتا ستعاد إلى مالكيها القدامى ووعد مرسوم آخر بإطلاق النار على كل من هو من جماعة زاباتا.

هجمت القوات الحكومية على حقول موريلوس المزدهرة مطلقة نار البنادق وحارقة بالمشاعل. قتلت خمسمائة شخص في تلالتيثابان وعددا كبيرا في مكان آخر. بيع السجناء في يوكاتان كعبيد

عمل لمزارع الهينيكوين كما حدث أيام برفريو داياث أما المحاصيل والقطعان، التي هي غنائم حرب، فقد أخذت إلى أسواق العاصمة.

قاوم زاباتا في الجبال وحين اقترب فصل المطر وتوقفت الثورة من أجل الزراعة، ولكن فيما بعد استمرت، بعناد، وبشكل لا يصدق.

1916: بوينس آيرس

إسادورا

حافية القدمين، وعارية، وبالكاد مكتسية بالراية الأرجنتينية، رقصت إسادورا دنكن على إيقاع النشيد الوطني في مقهى للطلبة في بوينس آيرس. وفي اليوم التالي عرف العالم كله بذلك. ألغى المدير العقد وألغت الأسر الجيدة حجزها في مسرح كولون وطلبت الصحافة الطرد الفوري لتلك الأميركية الشمالية المسيئة التي جاءت إلى الأرجنتين لتلطخ الرموز الوطنية.

لا تستطيع إسادورا أن تفهم ذلك. ذلك أنه لم يحتج أي فرنسي حين رقصت على إيقاع النشيد الوطني الفرنسي عارية إلا من شال أحمر. إذا كان بوسع المرء أن يرقص بإيحاء من عاطفة أو فكرة فلماذا لا يستطيع أن يرقص على إيقاع النشيد الوطني؟

الحرية تسيء. هذه المرأة ذات العينين المشعتين هي العدو المعلن للمدارس والأمومة والرقص الكلاسيكي ولكل ما يسجن الريح. ترقص من أجل متعة الرقص، ترقص حين تريد وكما ترغب، وتخرس الأوركسترات أمام الموسيقى التي تولد من جسمها.

1916: نيو أورليانز

جاز

جاءت أكثر أنواع الموسيقى حرية من العبيد. هذه الموسيقى هي الجاز التي تطير دون أن تطلب أذنا. أجدادها هم السود الذين غنوا أثناء عملهم في مزارع مالكيهم في جنوب الولايات المتحدة. أما آباؤها فهم موسيقيو بيوت الدعارة السوداء في نيو أورليانز. كانت فرق بيوت الدعارة تعزف طول الليل، دون توقف، على الشرفات التي تحميها من شجار الشارع وولدت من ارتجالاتها الموسيقى الجديدة.

من مدخراته التي جمعها من بيع الجرائد والحليب والفحم اشترى شاب قصير رعديد بوقه الخاص بعشرة دولارات. كان ينفخ فتخرج الموسيقى وتحيي اليوم. لوي أرمسترونغ، هو، مثل الجاز، حفيد للزنوج، وربي، كالجاز، في بيت للدعارة.

1916: كولمبس

أميركا اللاتينية تغزو الولايات المتحدة

المطر يسقط نحو الأعلى. الدجاج يعض الثعالب، والأرانب البرية تطلق النار على الصياد.
لأول مرة في التاريخ يغزو الجنود المكسيكيون الولايات المتحدة.

بالقوة المسحوقة المتبقية، بخمسمائة رجل من بين آلاف كثيرة كانت تتبعه، عبر بانتشو بيا الحدود صائحاً: تحيا المكسيك! وسقطت زخات الرصاص على مدينة كولمبوس في تكساس.

1916: ليون

داريو[1]

في نيكاراغوا، الأرض المحتلة والذليلة، مات روبن داريو. قتله الطبيب ثاقباً كبده بشكل مهلك. عذب بقاياه المعطر والحلاق والمزين والخياط. فُرضت عليه جنازة فخمة وفاح هواء شباط الدافئ في مدينة ليون بالبخور والمر. السيدات الأكثر تميزاً، المزينات بالزنبق وريش مالك الحزين، خدمن كخادمات وعذراوات مينرفا ونثرن الأزهار على طول طريق موكب الجنازة.

محاطة بالشموع والمعجبين، ارتدت جثة روبن داريو سترة يونانية وتاجاً من الغار في النهار، وفي الليل فراكاً أسود رسمياً وقفازاً يتماشى معه. وطول أسبوع، ليلاً ونهاراً، نهاراً وليلاً، عُذِّب بقراءات لا تنتهي من الأشعار الزائفة ومُتِّع بخطب أعلنت أنه الشاعر الخالد، مسيح القيثارة الإسبانية وشمشون الاستعارة.

زأرت المدفعية وساهمت الحكومة في الشهادة من خلال تكويم الأوسمة العسكرية على الشاعر الذي وعظ مبشراً بالسلام. لوح الأساقفة بالصلبان ورنت أجراس البرج. في أوج هذا الجلْد رُميَ الشاعر الذي آمن بالطلاق وتعليم المواطنين العاديين في الحفرة مُحوّلاً، إلى ملكٍ للكنيسة.

1917: حقول تشيواوا ودورانجو

من نسور إلى دجاج

دخلت بعثة تأديبية مؤلفة من ألف جندي وكثير من المدفعية إلى مكسيكو لتجبر بانتشو بيا على دفع ثمن هجومه «الوقح» على مدينة كولمبوس الأميركية الشمالية.

أعلن الجنرال جون برشنغ بينما كان رعد مدافعه يرجّع صدى كلماته: *سنحضر ذلك القاتل في قفص حديدي.*

---

[1] – من شعراء الحداثة في أميركا اللاتينية.

وعبر ضخامة الشمال المكسيكي، المصاب بالقحط، عثر الجنرال برشنغ على بعض القبور: هنا دفن بانتشو بيا ـ دون أن يكون بيّا في أي منها. عثر على الأفاعي والعظاءات والأحجار الصامتة وعلى فلاحين يتمتمون دلائل مزيفة حين يضربون أو يهددون أو يعرض عليهم كل ذهب العالم.

بعد بضعة شهور، تقريباً بعد عام، عاد برشنغ إلى الولايات المتحدة مع قافلة طويلة من الجنود الممتلئين بالغبار بينما الناس يقذفونهم بالحجارة والأكاذيب في جميع القرى الصغيرة في تلك الصحراء المليئة بالحصى. سار ملازمان شابان على رأس الموكب الذليل وكلاهما متعمد بالنار في المكسيك. بالنسبة إلى دوايت أيزنهاور، المتخرج حديثاً من ويست بوينت، كانت هذه بداية غير محظوظة على الطريق العسكري إلى المجد. بصق جورج بتون وهو يغادر *هذه البلاد الجاهلة ونصف المتوحشة*. من على قمة الهضبة نظر بانتشو بيا إلى الأسفل وعلق قائلاً: *جاؤوا كالنسور ويغادرون الآن كالدجاج الذي يشُخُّ تحته*.

1918: كوردوبا

باحثون رجعيون

بعد مَنْعٍ بدأ منح الشهادات في جامعة كوردوبا الأرجنتينية إلى أولئك الذين لا يمتلكون قدرة على تحديد نسبهم الأبيض كما كانت الحالة منذ بضع سنوات. لكن الواجبات تجاه الخدم لا تزال موضوعاً يدرس في منهاج فلسفة القانون، ولا يزال طلاب الطب يتخرجون دون أن يشاهدوا مريضاً.

كان البروفسورات، الأشباح الموقرة، يحاكون أوروبا منذ عدة قرون خلت، عالم سادة ضائع وسيدات ورعات، والجمال الشرير لماض استعماري. كانت ميزات الببغاء وفضائل القرد تُكَافأ بشذابات وشرابات.

كان طلاب كوردوبا يتغذون وينفجرون من الغضب. قاموا بإضراب ضد ساجني الروح داعين الطلاب والعمال في جميع أنحاء أميركا اللاتينية إلى القتال من أجل ثقافة خاصة بهم فترددت من المكسيك إلى تشيلي أصداء جبارة.

1918: كوردوبا

الآلام التي تتريث هي الحريات التي نفتقدها، يعلن بيان الطلاب

... قررنا أن نسمي جميع الأشياء بأسمائها الصحيحة. كوردوبا تشفي نفسها. من اليوم نعد لبلادنا عاراً أقل وحرية زائدة. إن الآلام المنتشرة هي الحريات التي نفتقدها. نؤمن أننا لسنا على خطأ، هذا ما يقوله لنا إيقاع القلب: نحن ندوس على حواشي الثورة، نحن نعيش ساعة أميركية.

كانت الجامعات، حتى ذلك الوقت، ملاذاً علمانياً للاعتدال، ومصدر دَخْل للجهلة، ومشفى آمناً لغير الأصحاء. والأسوأ من ذلك، أصبحت مكاناً عثرت فيه جميع أشكال الطغيان على بروفيسور يقوم على تدريسها. وهكذا عكست الجامعات، بإخلاص، تلك المجتمعات المنحطة التي قدمت المشهد الحزين للثبات الخرف. لهذا السبب، لجأ العلم، فيما يواجه تلك المؤسسات المغلقة والساكنة، إلى الصمت، أو دخل في خدمة البيروقراطية، مبتوراً، وشاذاً...

1918: إلوبانغو

ميغيل في الثالثة عشرة

وصل إلى ثكنات إلوبانغو وقد ساقه الجوع الذي أغرق عينيه في أعماق رأسه.

في الثكنات، ومقابل الطعام، بدأ ميغيل يقوم بالرحلات ويلمع أحذية الضباط، وتعلم بسرعة أن يشق جوز الهند بضربة منجل واحدة، كأنه أعناق، وأن يطلق النار بالقربينة دون أن يضيِّع الذخائر. وهكذا أصبح جندياً.

بعد عام من الحياة في الثكنات انهار الولد البائس. بعد أن تحمل طويلاً الضباط السكارى الذين كانوا يضربونه، دون سبب، هرب ميغيل. وتلك الليلة، أي ليلة هربه، كانت ليلة زلزال إلوبانجو.

سمعه ميغيل من مكان بعيد. طوال يومين هزت الأرض السلفادور، تلك البلاد الصغيرة ذات البشر الدافئين، إلى أن جاء، بين هزة وأخرى، الزلزال الحقيقي، الزلزال الأكبر، الذي انفجر وهدم كل شيء. هدم الثكنات دون أن يترك فيها حجراً فوق آخر وسحق الجنود والضباط على السواء لكن ميغيل نجا.

وهكذا حصلت الولادة الرابعة لميغيل مارمول في سن الثالثة عشرة.

1918: جبال موريلوس

أرض مخربة، أرض حية

هل الخنازير والأبقار والدجاج من جماعة زاباتا؟ وماذا عن الأباريق والمقالي والآنية؟ أبادت قوات الحكومة نصف سكان موريلوس في أعوام حرب الفلاحين العنيدة وأخذت كل شيء.

لم يبق في الحقول إلا الأحجار وسيقان النباتات المتفحمة، حطام منزل، امرأة ترفع محراثاً. أما الذين لم يموتوا من الرجال فقد أصبحوا خارجين عن القانون.

لكن الحرب استمرت، وستستمر طالما أن الذرة تنبت في شقوق الجبال السرية وطالما أن عيني زاباتا تومضان.

1918: مكسيكو سيتي

البرجوازية الجديدة تولد كاذبة

قال زاباتا: *نحن نقاتل من أجل الأرض وليس من أجل أوهام لا تقدم لنا شيئاً نأكله... بانتخابات أو بدون انتخابات، البشر يمضغون المرارة.*

وبينما كان الرئيس كارانثا يجرد الفلاحين من الأرض تحدث عن الإصلاح الزراعي. وبينما كان يطبق إرهاب الدولة على المواطنين، منحهم حق التصويت للأغنياء ومنح الأميين حرية الصحافة.

البرجوازية المكسيكية الجديدة، الابنة الشرهة للحرب والنهب، تغني أغاني في مدح الثورة بينما تبتلعها، بالسكين والشوكة، على غطاء طاولة مطرز.

1919: كواوتلا cuautla

علمهم هذا الرجل أن الحياة ليست فقط خوفاً من المعاناة وأملاً بالموت

كان يجب أن يتم هذا من خلال الخيانة. صداقة مخادعة، ضابط حكومي يقوده إلى المصيدة. كان ألف جندي ينتظرون وأسقطته ألف بندقية عن حصانه.

فيما بعد، نقلوه إلى كواوتلا Cuautla وعرضوه ووجهه إلى الأعلى. تدفق فلاحون من كل مكان إلى هناك لكي يشاهدوا عرض الجند الذي استمر عدة أيام. حين اقتربوا من الجسد نزعوا صمبريراتهم ونظروا بانتباه وهزوا رؤوسهم. لم يصدق أحد ذلك، ثمة ثؤلول مفقود وندوب كثيرة، وتلك البزة ليست له، وهذا الوجه المنتفخ من طلقات كثيرة يمكن أن يكون وجه أي شخص.

تحدث الفلاحون بهمسات بطيئة قاشرين الكلمات كحبات الذرة:

يقولون إنه ذهب مع صديق إلى شبه الجزيرة العربية.

إلى الجحيم، زاباتا لا يجبن.

لقد شوهد على مرتفعات كويلاميولا.

أعرف إنه ينام في كهف في سيرو بريتو.

البارحة كان حصانه يشرب من النهر.

لم يصدق فلاحو موريلوس، ولن يصدقوا، أن إمليانو زاباتا ارتكب عار أن يموت ويتركهم وحدهم.

أنشودة موت زاباتا

أيها النجم الليلي الصغير
الذي يمتطي السماء كساحرة
أين زعيمنا زاباتا
الذي كان سوطاً مسلطاً على الأغنياء؟

يا زهرة الحقول الصغيرة
ويا أودية موريلوس
إذا سألوا عن زاباتا
قولوا إنه ذهب ليجرب الهالات.

أيها الجدول الصغير المليء بالفقاعات
ماذا يقول لك ذلك اللون القرنفلي؟
يقول إن زعيمنا زاباتا لم يمت
إن زاباتا في طريقه إليكم.

1919: هوليود

شابلن

في البدء كانت الأسمال.

ومن كيس فضلات استوديوهات كيستون اختار شارلي شابلن الثياب الأقل فائدة، الكبيرة جداً، الصغيرة جداً، القبيحة جداً، وارتداها سوية كأنه ينقب في علبة قمامة. بنطلون فضفاض، سترة قزم، قبعة بولر وحذاء ضخم مهترئ. أضاف إلى ذلك شارباً داعماً وعكازاً. ثم نهضت كومة الثياب الصغيرة المنبوذة، حيَّت مؤلفها بانحناءة سخيفة، وانطلقت تسير كالبطة. اصطدم شابلن، بعد بضع خطوات، بشجرة فطلب الصفح منها رافعاً قبعته.

هكذا جاء إلى الحياة شارلي، المتشرد، المنبوذ والشاعر.

1919 : هوليود

كيتون

الرجل الذي لا يضحك مطلقاً يبتكر الضحك.

مثل شابلن، بستر كيتون ساحر هوليودي. بطله المنبوذ ـ القبعة القشية، الوجه الحجري، جسم الهرة ـ لا يشبه في أي شيء شارلي المتشرد لكنه يتورط في الحرب السخيفة نفسها مع الشرطة والزعران والآلات. ودائماً يكون فاقد الحس، جليدياً من الخارج، مشتعلاً من الداخل، يسير بكرامة كبيرة على الأسوار، في الجو وفي قاع البحر.

ليس كيتون مشهوراً مثل شابلن. أفلامه تسلي ولكن، بكثير من الغموض، بكثير من الكآبة.

1919: ممفيس

آلاف البشر يهرعون إلى العرض

والكثير منهم نساء يحملن بين أذرعهن أطفالا ويصل أداء الأسرة إلى أوجه حين يعمد إل برسونز، المقيد إلى وتد، بالنار وتسحب ألسنة اللهب صرخاته الأولى.

غادر الجمهور بعد وقت ليس بطويل، بأسلوب منظم، شاكيا من قصر هذه الأمور وحرك البعض الرماد بحثا عن عظم يكون تذكارا.

إل برسونز هو أحد السود السبعة وسبعين الذين شووا أحياء أو شنقهم الحشد الأبيض هذا العام في جنوب الولايات المتحدة لارتكاب جريمة أو فعل اغتصاب ـ أي بسبب النظر إلى امرأة بيضاء وربما بسبب نظرة فاسقة قائلا: نعم بدلا من نعم سيدتي. أو لأنه لم ينزع قبعته قبل الكلام.

بين أولئك الزنوج الذين أعدموا دون محاكمة كان البعض ممن يرتدون الزي العسكري للولايات المتحدة الأميركية أو ممن أسروا بانتشو بيا في صحارى المكسيك الشمالية أو أعيدوا حديثا من الحرب العالمية.

1921: ريو دي جانيرو

مسحوق الأرز

اقترح الرئيس إبيتاسيو بسوا على مدراء كرة القدم البرازيلية، لأسباب تتعلق بالهيبة الوطنية، ألا يرسلوا أي لاعب أسود الجلد إلى بطولات كرة القدم الأميركية الجنوبية القادمة.

وحدث أن فازت البرازيل العام الماضي بفضل آرتر فريدينريك Artur Friedenreich الذي أحرز هدف الفوز، والذي لا يزال بوطه الموحل معروضا في واجهة محل لبيع المجوهرات. فريدينريك، المولود من ألماني وسوداء، هو أفضل لاعب في البرازيل. دائما يصل إلى الملعب متأخرا ذلك أنه يمضي نصف ساعة في حجرة الملابس حيث يكوي شعره الجعد لكي لا تتحرك أية شعرة في أثناء اللعب حتى حين يسدد الكرة برأسه.

إن كرة القدم، ذلك اللهو الظريف الذي يتم بعد القداس، هي شيء خاص بالبيض.

مسحوق الذرة! مسحوق الذرة! تصرخ المراوح لكارلوس ألبيرتو الخلاسي الآخر اللاعب في نادي فلومينينسي Fluminense الذي يبيض وجهه بمسحوق الذرة.

1921: ريو دي جانيرو

بخينغينا Pixinguinha

أُعلن أن فرقة الباتونز Batons ستظهر حالاً على مسرح باريس وتصاعد الاستياء في الصحف البرازيلية.

ما الذي سيظنه الأوروبيون؟ هل سيتخيلون أن البرازيل مستعمرة أفريقية؟ لا تحتوي مجموعة الباتونز على ألحان أوبرالية بل على ألحان محلية والسامبا الحديثة الولادة. إنها أوركسترا من السود تعزف موسيقى سوداء. حضت المقالات الحكومة على منع العار وشرحت وزارة الخارجية بسرعة أن الباتونز ليست بعثة رسمية.

بخينغينا، أحد أفراد الفرقة السود، هو أفضل موسيقي في البرازيل. لا يعرف ذلك ولا يهمه ذلك ذلك أنه مشغول جداً بالبحث في مزماره، بمتعة شيطانية، عن أصوات مسروقة من الطيور.

1921: ريو دي جانيرو

مؤلف البرازيل المطابق للزي الحديث

دشن كويلو نيتو Coelho Neto مسبحاً في ناد رياضي ورفع خطابه من شأن فضائل المسبح واستدر الدموع والتصفيق. استحضر كويلو نيتو قوى البحر والسماء والأرض *في هذه المناسبة الوقورة والعظيمة إلى درجة أننا لا نقدر أن نقيمها دون أن نتعقب، في ظلال الزمن، بروزها في المستقبل.*

ليما باريتو، المؤلف غير الدارج، الملعون كخلاسي ومتمرد، والذي لأنه رد اللعنة مات في مشفى مجهول، شجب *حلويات الأغنياء.*

سخر ليما باريتو من أبهة الكتاب الذين يرددون كالببغاوات أدب الثقافة المنمقة، وينشدون لمجد برازيل سعيدة دون سود وعمال أو فقراء، برازيل مسكونة باقتصاديين فقهاء، فكرتهم الأصلية هي أن يفرضوا مزيداً من الضرائب على الشعب، برازيل تحوي مائتين واثنين وستين جنرالاً كل ما يفعلونه هو تصميم بزات جديدة لعرض العام القادم.

1922 : تورنتو

إنقاذ مؤقت

أنقذ آلاف من المحكومين بموت مبكر ولم يكن هذا خلاصاً جمهورياً أو ملكياً وإنما تم على يد طبيب كندي كان يبحث، منذ أسبوع، عن عمل ولا يحمل في جيبه إلا سبعة سنتات.

بحدبة حرمته من النوم، وبعد كثير من الأخطاء والإحباط اكتشف فريد بانتنغ Fred Banting أن الأنسولين الذي يفرزه البنكرياس يخفض السكر في الدم وهكذا خفف أحكام الموت الكثيرة التي فرضها داء البول السكري.

1922 : ليفنوورث

من أجل إيمانه المتواصل أن كل شيء ملك للجميع

كان ريكاردو، الأكثر موهبة وخطراً بين الأخوة فلوريس ماجون، غائباً عن الثورة التي فعل الكثير لكي يفجرها. وبينما كان قدر المكسيك يضعف في ساحات المعركة، كان يكسر الأحجار مغلولاً في سجن أميركي شمالي.

حكمت عليه محكمة أميركية شمالية بعشرين عاماً من الأشغال الشاقة لأنه أنشد بياناً فوضوياً ضد الملكية الخاصة، ولقد عرض عليه العفو مرات كثيرة، شرط أن يلتمسه، لكنه لم يفعل ذلك مطلقاً.

حين أموت ربما سيكتب أصدقائي على قبري: هنا يرقد حالم. وربما يكتب أعدائي: هنا يرقد مجنون، لكن لن يتجرأ أحد أن يكتب هنا يرقد جبان وخائن لأفكاره.

في زنزانته، بعيداً عن أرضه، شنقوه وقال التقرير الطبي إنه مات من أزمة قلبية.

1922: حقول باتاغونيا

إعدام العمال

خرج أرستقراطيون شبان من عصبة الأرجنتين الوطنية، منذ ثلاث سنوات، إلى الصيد في أحياء بوينس آيرس الفقيرة. كانت رحلة القنص ناجحة. قتل الأولاد الأغنياء العمال طول أسبوع دون ترخيص ولم يذهب أي منهم إلى السجن.

والآن يستخدم الجيش العمال كدريئة للتدرب على الرمي في أراضي الجنوب المتجمدة. تدخل فرقة الخيالة العاشرة بقيادة المقدم ممتلكات باتاغونيا الكبيرة ويطلقون النار على العمال الهنود المضربين يرافقهم المتطوعون المتحمسون من الهيئة الوطنية. لا يعدم أحد دون محاكمة وتستمر كل محاكمة أقل من الوقت الذي يستغرقه تدخين سيجارة.

يتصرف مالكو المزارع والضباط كقضاة ويدفن الذين حكم عليهم في قبور جماعية يحفرونها بأنفسهم .

لم يوافق الرئيس إيبوليتو يريغوين Hipolito Yrigoyen، بشكل عام، على هذا الأسلوب في القضاء على الفوضويين والمتمردين لكنه لم يرفع إصبعاً ضد القتلة.

1923: نهر غواياز

صلبان تعوم في النهر

مئات من الصلبان المتوجة ببراعم الجبل، سرايا مزهرة من السفن الصغيرة تطوف في ضخامة الأمواج والذاكرة. يذكر كل صليب بعامل مقتول. رمى الناس هذه الصلبان العائمة في المياه بحيث يمكن أن يحظى العمال الذين يرقدون في مجرى النهر بالراحة.

حدث هذا منذ سنة في ميناء غواياكيل الذي كان في يد العمال لعدة ساعات. وهم يتغذون على جوع يأكلهم، دعوا إلى الإضراب العام، الأول، في تاريخ الإكوادور ولم يكن حتى بمقدور مسؤولي الحكومة أن ينتشروا إلا بإذن من الاتحادات. شكلت النساء والغاسلات وعمال التبغ والطباخون والبائعون الجوالون لجنة روزا لكسمبورغ وكانوا الأكثر تحدياً.

أعلن كارلوس أرويو، رئيس غرفة النواب: *اليوم يضحك الغوغاء. وغداً سيذهبون إلى النوم باكين*، أمر رئيس الجمهورية خوسيه لويس تمايو الجنرال إنريك باريجا أن يهتم بالمسألة: مهما كانت الكلفة.

من الطلقات الأولى حاول بعض العمال أن يهربوا مشتتين كالنمل من هضبة نمل سحقتها قدم. كان أولئك أول من سقطوا.

لا أحد يعرف كم عدد الذين رموا في نهر غواياز ليغرقوا وبطونهم مشققة من الحراب.

1923: أكابلكو

وظيفة قوى النظام في العملية الديموقراطية.

حالما انتهى فيلم توم ميكس، أدهش خوان اسكوديرو الجمهور سائراً أمام شاشة سينما أكابلكو الوحيدة، ملقياً خطبة ضد التجار الذين يمصون الدماء. وفي الوقت الذي تحلق حوله الأطفال الذين يرتدون البزات، كان حزب العمال في أكابلكو، قد وُلد، وعمده التهليل.

بمثل لمح البصر، نما حزب العمال، وفاز في الانتخابات، ونصب رايته السوداء والحمراء فوق السيتي هول. خوان اسكوديرو، الطويل، ذو الشاربين الخديين الكثيفين، والشارب المدبب، هو رئيس البلدية الجديد، رئيس البلدية الاشتراكي. في لمحة، حول القصر إلى مقر للتعاونيات والاتحادات، وأطلق حملة لتعليم القراءة والكتابة، وتحدى قوة الشركات الثلاث التي تملك الماء والهواء والأرض وسخام هذا الميناء المكسيكي القذر، الذي تخلى عنه الله والحكومة الفيدرالية.
فيما بعد نظم مالكو كل شيء انتخابات جديدة بحيث يمكن أن يصحح البشر خطأهم، لكن حزب عمال أكابلكو ربح ثانية. وهكذا لا يوجد حل إلا استدعاء الجيش الذي سوى الموقف حالاً. تلقى خوان اسكوديرو المنتصر طلقتين، واحدة في الذراع وأخرى في الجبهة، طلقة رحمة من مدى قصير بينما أحرقَ الجنود السيتي هول. لكن اسكوديرو عاش وواصل الفوز في الانتخابات. على كرسي مدولبة، مبتوراً، لا يكاد يقدر على الكلام، رتب اسكوديرو حملة منتصرة لمنصب نائب من خلال إملاء الخطب على شاب كان يفك شيفرة غمغمته ويكررها بصوت مرتفع على منصات الحملة.
قرر مالكو أكابلكو أن يدفعوا ثلاثين ألف بيزوس لكي تصوب الدورية العسكرية بدقة. دخلت هذه النفقات في دفاتر الشركة كما ينبغي لكن لم يذكر الهدف منها. وأخيراً سقط خوان اسكوديرو، بعد أن أطلق عليه رصاص كثير، ماتَ من موت شامل كما يمكن أن تقولوا، شكراً أيها السادة.

1923: أثنغارو Azangaro

أوربيولا Urviola

أرادته أسرته أن يصبح طبيباً وبدلاً من ذلك أصبح هندياً وكأن ظهره ذا الحدبة المضاعفة وبنيته القزمة لم تكونا لعنة كافية. ترك إيزكييل أوربيولا مهنته القانونية في بونو، مقسماً أن يتبع خطى توباك أمارو. مذاك تحدث لغة الكويتشوا، ارتدى خفاً وعزف على فلوت كوينا. نهاراً وليلاً كان يروح ويجيء محرضاً على التمرد في السلسلة البيروفية، حيث يُمتلك الهنود كالبغال والأشجار.
كانت الشرطة تحلم بالقبض على أوربيولا الأحدب بعد أن تعهد مالكو الأراضي بذلك.
لكن سمكة القريدس تحوّلت إلى صقر يطير فوق الجبال .

1923: كاياو Callao

مارياتيغي Mariategui

أعادت سفينةٌ خوسيه مارياتيغي إلى البيرو بعد بضع سنوات في أوروبا. حين غادر كان متجولاً بوهيمياً من ليما كتب عن الأحصنة، وشاعراً صوفياً شعر بعمق وفهم قليلاً. هناك في

أوروبا، اكتشف أميركا. عثر مارياتيغي على الماركسية وعلى نفسه وهكذا تعلم أن يشاهد من بعيد البيرو التي يستطيع أن يراها من قرب.

آمن مارياتيغي أن الماركسية تعني التقدم الإنساني بشكل لا يقبل الجدل مثل اللقاح ونظرية النسبية. ولكن من أجل البيرو على المرء أن يبدأ بالماركسية التي ليست تعليماً شفهياً أو تتبع خطة سيد ما، ولكنها مفتاح للدخول عميقاً في هذه البلاد. والمفاتيح إلى أعماق بلاده هي الجماعات الهندية التي دمرها نظامُ مالكي الأراضي والتي لم تتخل عن تقاليدها الاشتراكية في العمل والحياة.

1923: بوينس آيرس

طلقة دون تسديد لمعتقل عامل

درس كاتالوج الأسلحة النارية بشهوانية وكأنها تحوي صوراً عارية. كان زي الجيش الأرجنتيني، بالنسبة إليه، جميلاً كأنعم الجلود البشرية. يحب أن يسلخ الثعالب التي تسقط في أفخاخه حية لكنه يفضل أن يتدرب على الرمي بإطلاق النار على العمال الفارين ويزيد من ذلك إن كانوا حمراً والأكثر من ذلك إن كانوا حمراً أجانب.

تطوع خورخي أرنستو بيريث ميلان تيمبرلي في قوات المقدم باريا، وفي العام الماضي، سار إلى باتاغونيا من أجل رياضة إبادة أي مضربين يقعون في مدى سلاحه. فيما بعد، حين رمى الألماني الفوضوي كيرت ويلكنز القنبلة التي نسفت المقدم باريا أقسم صياد العمال هذا بصوت مرتفع أن ينتقم لرئيسه.

وانتقم له. باسم الهيئة الوطنية الأرجنتينية، أطلق جورج أرنستو بيريث ميلان تيمبرلي طلقة في صدر ويلكنز وهو نائم في زنزانته ثم صور نفسه للأجيال القادمة، والبندقية بيده، آخذاً وضعية عسكرية تدل على أداء الواجب.

1923: تامبيكو

ترافن

سفينة كالشبح، هلكٌ قديمٌ مقدر عليه أن يتحطم، وصلت إلى مقابل ساحل المكسيك. كان بين طاقمها المؤلف من مشردين دون اسم أو أمة، أحد الناجين من ثورة مقموعة في ألمانيا.

رفيق روزا لوكسمبورغ، الفار من الجوع والشرطة، كتب روايته الأولى في تامبيكو ووقعها باسم ب.ترافن. وبهذا الاسم سيصبح مشهوراً دون أن يعرف أحد مطلقاً أي وجه أو صوت أو خطوة هي له. قرر ترافن أن يكون لغزاً بحيث لا تستطيع أية بيروقراطية أن تسميه. ذلك أنه من الأفضل السخرية من عالم يكون فيه عقد الزواج والإرث أكثر أهمية من الحب والموت.

1923: حقول دورانجو

بانتشو بيا يقرأ ألف ليلة وليلة

يفك شيفرة الكلمات بصوت مرتفع في ضوء الشمعة، لأن هذا هو الكتاب الذي يمنحه أفضل الأحلام، وفيما بعد يستيقظ باكراً لكي يرعى البقر مع رفاق معركته القدماء.

لا يزال بيّا أكثر الرجال شعبية في حقول شمال المكسيك ولا تحب ذلك طبقة الموظفين. اليوم مرت ثلاثة أعوام على تحويل رجاله لمزرعة كانوتيو Canutillo إلى جمعية تعاونية تمتلك الآن مشفى ومدرسة وعالماً من البشر جاء ليحتفل.

كان بيّا يصغي لأشعاره المفضلة حين ذكر الدون فرناندو، الحاج الذي من غرناطة، أن جون ريد قد مات لتوه في المكسيك.

أمر بانتشو بيا بإيقاف الحفل فتوقف حتى الذباب في الجو.

إذن، مات العجوز خوان؟ صديقي القديم خوان؟

هو نفسه.

صدق بيّا ولم يصدق..

قال الدون فرناندو عاذراً نفسه: *قرأت هذا في الصحف. دفن هناك مع أبطال الثورة.*

لم يتنفس أحد أو يزعج الصمت. غمغم الدون فرناندو: *مات من التيفوس لا من رصاصة.*

هز بيّا رأسه: «*إذن مات خوان العجوز؟*»

ثم كرر: *إذن مات خوان العجوز.*

صمت. نظر في المسافة ثم قال: «*لم أسمع مطلقاً بكلمة اشتراكية إلى أن شرحها لي*».

وحالاً نهض، مد ذراعيه، وبخ عازفي الغيتارات الصامتين: *والموسيقى؟ ماذا حدث للموسيقى؟ اعزفوا!*

1923: مكسيكو سيتي / بارال

تبرع الشعب بمليون قتيل للثورة المكسيكية

حدث هذا في عشرة أعوام من الحرب بحيث استطاع الزعماء العسكريون أخيراً أن يمتلكوا أفضل الأراضي والمشاريع الأكثر ربحاً. تقاسم ضباط الثورة السلطة والمجد مع الأطباء الناهبين للهنود ومع السياسيين الذين للتأجير، وخطباء مأدبة متألقين يسمون «أوبريغون Obregon» لينين المكسيكي.

على هذا الطريق إلى المصالحة الوطنية ليس ثمة مشكلة لا يمكن أن تُحل بعقد عمل أو تنازل عن أرض أو بنوع من التفضيل يتدفق من محفظة مفتوحة. عَرّف الرئيس ألبارو أوبريغون نمط

حكومته بعبارة أصبحت على الفور عبارة كلاسيكية في المكسيك: *ليس ثمة جنرال يقدر أن يقاوم رشقة خمسين ألف بيزوس.*

لكن أوبريغون أخطأ في ذلك مع الجنرال بيّا.

لا حل معه إلا قتله بالرصاص.

وصل بيّا إلى بارال في الصباح الباكر وحين رآه أحدهم أشار بلفحة حمراء فاستجاب اثنا عشر رجلاً بضغط أصابعهم على الزناد.

كانت بارال مدينته المفضلة. «*أحب بارال كثيراً كثيراً.*» وفي اليوم الذي طرد فيه نساء وصبية بارال الغزاة الغرينغو بالحجارة تحررت الأحصنة التي داخل بانتشو وأطلق صرخة فرح هائلة: «*فقط أحب بارال حتى الموت.*»

1924: مريدا، يوكاتان

المزيد عن وظيفة قوى النظام في مسيرة الديموقراطية

فيليبي كاريو بيرتو Felipe Carrillo Puerto، العصي أيضاً على المدفع الذي يطلق منه أوبريغون النقود، واجهَ فرقة إعدام في صباح رطب من صباحات كانون الثاني.

أتريد كاهن اعتراف؟

لست كاثوليكياً.

ماذا عن كاتب بالعدل؟

لا أملك شيئاً أتركه.

كان ملازماً في جيش زاباتا في موريلوس قبل تأسيس حزب العمال الاشتراكي في يوكاتان.

هناك ألقى كاريو بيرتو خطبه بلغة المايا شارحاً أن ماركس كان شقيقاً لخاسينتو كانيك وسيسليو تشي وأن الاشتراكية، وريثة التراث المشاعي، قدمت بعداً مستقبلياً للماضي الهندي العظيم.

إلى أمس، ترأس حكومة يوكاتان الاشتراكية. لم يستطع عدد لا يحصى من المحتالين والمصالح الخاصة أن تمنع الاشتراكيين من فوز سهل في الانتخابات أو أن تمنعهم، فيما بعد، من تنفيذ وعودهم. أثار تدنيسهم للممتلكات الكبيرة المقدسة ونظام العمل العبودي والاحتكارات الإمبريالية المتنوعة غضب أولئك الذين أداروا مزارع الهينيكوين، هذا إذا لم نتحدث عن شركة انترناشيونال هارفستر. تشنج كبير الأساقفة من التعليم العام والحب الحر والتعميد الأحمر الذي دُعي هكذا لأن الأطفال تلقوا أسماءهم على حشية من الأزهار الحمراء ومع هذه الأسماء أمنيات من أجل حياة طويلة من النضال الاشتراكي. إذن، ماذا يمكن أن يُفعل إلا دعوة الجيش كي ينهي الفضيحة؟

كرر اغتيال كاريو بيرتو تاريخ خوان إسكوديرو في أكابلكو. استمرت حكومة المذلولين سنتين في يوكاتان. يحكم المُذلون بأسلحة العقل. لا يملك المذلون الحكومة، لكنهم يملكون عقل الأسلحة. وكما في كل المكسيك، امتطى الموت نرد القدر.

1924: مكسيكو سيتي

تأميم الأسوار

يستدعي فن المسند الحجز. من ناحية أخرى، تقدم الصورة الجدارية نفسها للحشد العابر. يمكن أن يكون البشر أميين لكنهم ليسوا عمياناً، وهكذا هاجم ريبيرا وأوروزكو، وسيكويروس جدران مكسيكو

ورسموا شيئاً جديداً ومختلفاً. ولد على الكلس الرطب فن وطني حقيقي، ابن الثورة المكسيكية وأيام الولادات والجنازات تلك.

تقدم الفن الجداري المكسيكي إلى الأمام ساحقاً الفن الممسوخ، والمخصي، لبلاد مدربة على إنكار نفسها. فجأة انبعثت الحيوات الصامتة والمشاهد الميتة دائخة وأصبح معذبو الأرض موضوعات للفن والتاريخ بدلاً من موضوعات للاستعمال والاحتقار أو الشفقة.

تجمعت الشكاوى ضد فناني الصور الجدارية لكنهم لم ينالوا قطرة من المديح. هادئين، واقفين على منصاتهم، تابعوا عملهم. ست عشرة ساعة دون استراحة هو يوم العمل لريبيرا الذي يملك عيني وبطن ضفدعة وأسناناً كأسنان السمكة. كان يضع مسدساً في حزامه.

من أجل وضع حَدٍ للنقاد، كما قال.

1924: مكسيكو سيتي

دييغو ريبيرا

بعث دييغو ريبيرا كاريو بيرتو، مُخلّص يوكاتان، بجرح رصاصة في صدره دون أن يبّلغه عن موته الخاص. ورسم إمليانو زاباتا وهو يحرض البشر، ورسم الشعب، جميع سكان مكسيكو متوحدين في عمل ملحمي وحربي واحتفالي على جدار في وزارة التربية مساحته ألف وستمائة متر مربع. وبينما كان يغسل العالم باللون، يسلي دييغو نفسه بالكذب. لكل من يريد أن يسمع، يروي أكاذيب عملاقة كبطنه، كولعه بالخلق وكنهمه في التهام النساء.

لم تكد تمر على عودته من أوروبا ثلاثة أعوام. هناك، في باريس، كان دييغو فناناً طليعياً تعب من المدارس. وتماماً، وبينما كان نجمه يذوي، ويرسم بسبب الضجر فحسب، عاد إلى المكسيك وصفعته أضواء بلاده على وجهه ملهبة عينيه.

1924: مكسيكو سيتي

أوروثكو

أصبح دييغو ممتلىء الجسم، لكن خوسيه كليمنتي أوروثكو هَزُلَ. رسم ريبيرا أشياء حسية، أجساداً من الذرة، فاكهة شهوانية. رسم أوروثكو أشكالاً يائسة، أجساداً من جلد وعظم، نبتة صبار مقطوعة ونازفة. ما شكل سعادة لريبيرا كان مأساة لأوروثكو. ثمة لطف في ريبيرا وهدوء مشع وثمة قسوة وقسمات ملتوية من الألم في أوروثكو. تمتلك ثورة أوروثكو المكسيكية عظمة تماماً مثل ريبيرا، لكن حين يتحدث ريبيرا معنا عن الأمل، يبدو وكأن أوروثكو يقول إن كل من يسرق النار المقدسة من الآلهة لن يمنحها لأخوته البشر.

1924: مكسيكو سيتي

سيكويروس

فظ، منسحب، متمرد من الداخل ـ هذا هو أوروثكو. مثير، طنان، متمرد خارجياً ـ هذا هو ديفد ألفرو سيكويروس. مارس أوروثكو الرسم كطقس عزلة. لكنه، بالنسبة إلى سيكويروس، فعل تضامن ونضال. قال سيكويروس: *ليست هناك طريقة أخرى إلا طريقتنا*. قابل الثقافة الأوروبية التي اعتبرها مريضة بطاقته العضلية الخاصة. كان أوروثكو يشك، يفتقد للإيمان بما يفعله. كان سيكويرس يندفع إلى الأمام متأكداً أن عاصفته الوطنية ليست دواء سيئاً لبلاد مصابة بعقدة نقص حادة.

الشعب هو بطل الرسم الجداري المكسيكي كما يقول دييغو ريبيرا

إن الجدة الحقيقية للرسم المكسيكي، بمعنى أننا بدأناه مع أوروثكو وسيكويروس، قامت على جعل الشعب بطل الرسم الجداري. حتى ذلك الوقت، كان أبطال الرسم الجداري الآلهة والملائكة وكبار الملائكة والقديسين وأبطال الحرب والملوك والأباطرة والأساقفة والزعماء السياسيين والعسكريين الكبار، وكان البشر يظهرون ككورس حول نجوم المأساة.

1924: ريغلا

لينين

استدعى رئيس بلدية الجماعة الكوبية الجميع. من مدينة هافانا المجاورة جاءت أنباء عن وفاة لينين في الاتحاد السوفياتي. أصدر رئيس البلدية بلاغ ندب. قال البلاغ: *إن لينين، السابق*

الذكر، ربح تعاطفاً يستحقه بجدارة بين العناصر البروليتارية والفكرية لهذه المقاطعة المحلية. بالتالي، سيتوقف سكانها يوم الأحد، في الخامسة بعد الظهر، دقيقتي صمت وتأمل، سيتوقف أثناءهما الأشخاص والآليات توقفاً تاماً.

في الساعة الخامسة بعد الظهر بالضبط، تسلق رئيس بلدية ريغلا هضبة فورتن. ورغم المطر الغزير كان يرافقه أكثر من ألف شخص لينفذوا دقيقتي الصمت والتأمل. فيما بعد، زرع رئيس البلدية شجرة زيتون على قمة الهضبة تمجيداً للرجل الذي كان يزرع دائماً الراية الحمراء هناك وسط الثلوج.

1926: سان ألبينو

ساندينو

ساندينو قصير ونحيل. ستدفعه ريح ضالة بعيداً بما أنه لم يكن مزروعاً بقوة في تربة نيكاراغوا.

في هذه الأرض، أرضه، وقف أوغستو سيزار ساندينو طويلاً وتحدث بما قالته الأرض له. ذلك أنه حين يتمدد لينام تهمس له أرضه الأسى والعذوبة. تحدث ساندينو عن أسرار أرضه المذلولة والمغزوة وسأل: *كم منكم يحبها كما أحبها أنا؟*

خطا إلى الأمام تسعة وعشرون معدِّناً من سان ألبينو.

كان هؤلاء الجنود الأوائل في جيش التحرير النيكاراغوي. أميون، يكدحون خمس عشرة ساعة في اليوم ليستخرجوا الذهب من الأرض لشركة أميركية شمالية، وينامون مكومين في سقيفة. فيما بعد فجروا المنجم بالديناميت وتبعوا ساندينو إلى الجبال.

ذهب ساندينو راكباً بغلاً.

1926: بيرتو كابيثاز

النساء الأكثر إثارة للإعجاب في العالم

إنهن عاهرات بيرتو كابيثاز هن اللواتي عرفن، من أحاديث السرير، الموقع الدقيق تحت الماء حيث دفن المارينز الأميركيون الشماليون أربعين بندقية وسبعة آلاف خرطوشة. وبفضل هؤلاء النساء اللائي جازفن بحياتهن في التصدي لقوات الاحتلال الأجنبية حصل ساندينو ورجاله، من تحت المياه، وبضوء المشعل، على أسلحتهم وذخائرهم الأولى.

1926: خواثيرو دو نورتي Juazeiro do Norte

الأب سيسيرو

كانت خواثيرو قرية صغيرة تافهة تتألف من أربعة أكواخ، ويبدو أن الله قد بصقها في الفراغ حين أشار بإصبعه في يوم رائع إلى كومة القمامة تلك وقرر أن يجعلها مدينة مقدسة. منذ ذلك

الوقت، تدفق المبتلون إلى هنا بالآلاف. وكان كل طريق للشهادة والمعجزة يقود إلى هنا. حجاج قذرون من جميع أنحاء البرازيل، صفوف طويلة من الأسمال وجذوع الأعضاء حوَّلت خواثيرو إلى أغنى مدينة في الأرض الشمالية الشرقية الواقعة خلف الساحل. في هذه القدس الجديدة التي أعادت الإيمان، والنصب التذكارية للمنسيين، ونجمة قطب الضائعين، أصبح الجدول المتواضع سالخادينهو يُعرف الآن باسم نهر الأردن. محاطاً بنساء ورعات يُلوِّحن بصلبان برونزية نازفة، أعلن الأب سيسيرو أن يسوع المسيح قادم.

إن الأب سيسيرو روماو بابتيستا هو سيد الأرواح والأراضي. هذا المخلص للمحطمين في الصحراء، مروِّض المجانين والمجرمين، منح الأطفال لنساء عقيمات والمطر للأرض الجافة والضوء للعميان ومنح الفقراء الفتات الذي كان يتساقط من الخبز الذي يأكله.

1926: خواثيرو دو نورتي

بمعجزة ربانية أصبح قاطع طريق قائداً بارزاً

أطلق محاربو لامبياو Lampiao الطلقات وأنشدوا الأغاني. رحبت بهم الأجراس والألعاب النارية في مدينة خواثيرو. عرض قاطعو الطرق ترسانة كاملة وأوسمة مزخرفة على درعهم الجلدي. عند قدم تمثال الأب سيسيرو، بارك الأب سيسيرو زعيم العصابة. ومن المعروف جيداً أن قاطع الطريق لامبياو لا يلمس بتاتاً منزلاً يحوي صورة للأب سيسيرو أو يقتل أي تابع للقديس مجترح المعجزات.

باسم حكومة البرازيل، منح الأب سيسيرو لامبياو رتبة نقيب، ثلاث شارات على كل كتف وسلم رجاله بنادق ماوتزر لا تخطئ مقابل بنادقهم القديمة التي من نوع وينشستر. بالمقابل، وعد النقيب لامبياو بهزيمة المتمردين الذين يقودهم الملازم لويس كارلوس بريستس، الذي يطوف البرازيل مبشراً بالديموقراطية وأفكار شيطانية أخرى، ولكنه لم يكد يغادر هذه المدينة حتى نسي كارلوس بريستوس وعاد إلى أسلوبه القديم.

1926: نيويورك

فالنتينو

البارحة، في بار إيطالي، انهار رودولف فالنتينو متخماً من وليمة معكرونة.

ترملت ملايين النساء في القارات الخمس. كن يعبدن اللاتيني الرشيق الماكر على مذبح شاشة السينما، التي هي معبد لجميع البشر في جميع المدن. ركض معه إلى الواحة تحثهم ريح الصحراء. رافضة في مصارعات ثيران مأساوية، ودخلن أماكن غامضة، ورقصن على أرض مغطاة بالمرايا، وتعرّين في غرف نوم الأمير الهندي وابن الشيخ. وبعد أن اخترقهن بمثقاب عينيه وسحقهن بذراعيه، أغمي عليهن في أسّرة حريرية عميقة.

لكنه لم يدرك. فالنتينو، الإله الهوليودي الذي يدخن مصادفة بينما يقبل ويدمِّر بلمحة، هذا الذي كان يتلقى يومياً ألف رسالة حب، كان ينام في الحقيقة وحيداً ويحلم بأمه.

1927: شيكاغو

لوي

عاشت في شارع برديدو في نيوأورليانز ـ شارع الضائعين ـ حيث يمدد الموتى في الخارج ويوضع على صدورهم صحن من أجل قطع نقدية من الجيران للجنازة. حين ماتت استمتع ابنها لوي بمنحها جنازة رائعة، الجنازة المتميزة التي ستكون قد حلمت بها في نهاية الحلم الذي جعلها الله فيه بيضاء ومليونيرة.

لوي أرمسترونغ، الذي عاش دون أن يكون هناك ما يأكله إلا البقايا والموسيقى، هرب من نيو أورليانز إلى شيكاغو آخذاً معه بوقاً وسندويشة سمك من أجل الرفقة.

مرت بضع سنوات وبدأ يسمن. كان يأكل لينتقم لنفسه. وإذا عاد إلى الجنوب الآن ربما سيرحَّب به في أمكنة ممنوعة على السود ومحظورة على الفقراء. سيكون بوسعه أن يسير في شارع في البلدة. إنه ملك الجاز ولا أحد يجادل في ذلك. بوقه يهمس، يئن، يُعْوِل، ويزأر كحيوان جريح ويضحك بصخب محتفلاً، بحماسة وقوة هائلة، بعبث الحياة.

1927: نيويورك

بيسي

كانت هذه المرأة تغني آلامها بصوت المجد ولم يقدر أحد أن يستمع ويتظاهر أنه لا يسمع أو لا يتأثر. بيسي سميث، رئتا الليل العميق، السمينة جداً، السوداء جداً، لعنت لصوص الخلق. إن أغانيها الكئيبة هي دندنات النساء السوداوات الثملات في الأحياء القذرة. أعلنت أن البيض والسوبرمانات والأغنياء الذين يَذلّون العالم سوف يُطاح بهم عن عروشهم.

1927: رابالو

عزرا باوند

مر عشرون عاماً على رحيل عزرا باوند من أميركا. كان باوند، ابن الشعراء ووالدهم، يبحث تحت الشمس الإيطالية عن صور جديدة، عن صداقات جديدة بثور ألتاميرا وعن كلمات مجهولة للتحدث مع آلهة أكثر قدماً من الأسماك.

لكن باوند كان يُخطىء في اختيار الأصدقاء طوال الطريق.

1927: تشارلزتاون

نهار جميل

قال حاكم ولاية ماساتشوسيتس: يا له من يوم جميل!

في منتصف الليل، في يوم الاثنين هذا من شهر آب، سيشغل عاملان إيطاليان الكرسي الكهربائي لزنزانة الموت في سجن تشارلزتاون. سيُعدم الحذّاء نيكولا ساكو وبائع السمك بارتولميو فانزيتي من أجل جرائم لم يقترفاها.

كانت حياة ساكو وفانزيتي في يدي رجل أعمال جمع أربعين مليون دولار من بيع سيارات بكارد. ألفن تيفتس فوللر، حاكم ماساتشوسيتس، الرجل الصغير خلف مقعد كبير من الخشب المشغول، رفض أن يستسلم للاحتجاجات التي تدفقت من جميع الجهات. آمن بنزاهة المحاكمة وصلاحية الدليل. كان يؤمن أن جميع الفوضويين الملاعين، والأجانب القذرين الذين جاؤوا ليدمروا هذه البلاد، يستحقون الموت.

1927: أراراكوارا Araraquara

ماريو دي أندريدي

تحدى كل ما هو ذليل وعذب وفخم في الثقافة الرسمية. إنه خالق كلمات، كلمات تموت من الحسد من الموسيقى، وهي مع ذلك قادرة على رؤية وقول كل شيء للبرازيل وقادرة أيضاً على تذوق البرازيل، حبة الفول الساخنة والطيبة.

في أيام العطل، ومن أجل المتعة، كان ماريو دي أندريدي ينسخ أقوال وأفعال ماكونايما، البطل الذي بلا شخصية، كما يسمعها تماماً من المنقار الذهبي لببغاء. استناداً إلى الببغاء، كان ماكونايما رجلاً أسود بشعاً، ولد في قلب الغابة ولم يزعج نفسه بالكلام إلا في سن السادسة وذلك بسبب الكسل الرهيب. ومنشغلاً كما كان بتقطيع النمل والبصاق في وجوه أخوته وتدليل قريباته الإناث. غطت مغامرات ماكونايما الوحشية جميع الأزمنة و الأمكنة في البرازيل بينما كان يعري الكهنة من أرديتهم والدمى من رؤوسها.

إن ماكونايما أكثر واقعية من مؤلفه. وكمثل أي برازيلي من اللحم والدم، كان ماريو دي أندريدي ملفقاً من المخيلة.

1927: باريس

بيّا ـ لوبوس

من خلف السيجار الضخم تعوم سحابة من الدخان. مكتسياً بها، سعيداً وعاشقاً، كان هيتور بيّا ـ لوبوس يصفر لحناً تشردياً.

ادعى النقاد المعادون في البرازيل أنه يؤلف الموسيقى ليعزفها المصروعون لجمهور من المرضى المرتابين لكنه صادف، في باريس، استقبالاً حماسياً. صفقت صحافة باريس، بحماسة، لإيقاعاته الجريئة وحسه القوي بالقومية، ونشرت مقالات عن حياة الملحن البارز. روت إحدى الصحف كيف كان بيّا ـ لوبوس مقيداً مرة إلى مشواة وكان على وشك أن يُشوى حياً على يد آكل للحوم البشر حين كان يطوف في الغابة الأمازونية حاملاً فيكترولا بين ذراعيه ويعزف لباخ. في إحدى الحفلات الكثيرة التي أقاموها له بين الحفلات الموسيقية في باريس، سألته سيدة إن كان قد أكل لحم البشر نيئاً وإن كان قد أحب ذلك.

1927: سهول خاليسكو

خلف صليب كبير من العصي

هجم الكريستيروس Cristeros المتمردون في خاليسكو وولايات مكسيكية أخرى بحثاً عن الشهادة والمجد. كانوا يصيحون يعيش يعيش! لمسيح توجه الملك بالجواهر بدل الشوك، وللبابا الذي لم ينس فقدان بعض الامتيازات الإكليركية التي لا تزال باقية في المكسيك.

كان هؤلاء الفلاحون الفقراء يموتون من أجل ثورة وعدتهم بالأرض. والآن، محكومين بموت حي، بدأوا الموت من أجل كنيسة تعدهم بالسماء.

1927: سان غابرييل دي خاليسكو

طفل ينظر

تغطي الأم عينيه كي لا يشاهد جده معلقاً من قدميه ثم تمنعه يدا الأم من رؤية جسد أبيه مثقباً برصاص قطاع الطرق أو عمه يتلوى في الريح هناك على أعمدة التلغراف.

ماتت الأم أيضاً أو ربما أتعبها الدفاع عن عيني ابنها. جالساً على السياج الحجري الذي يمتد فوق المنحدرات، كان خوان رولفو يتأمل أرضه القاسية بعين مجردة. شاهد فرساناً من الشرطة الفيدرالية أو الكريستيروس لا فرق، ينبعثون من الدخان، وخلفهم، في المسافة،ألسنة لهب. شاهد أجساداً متدلية في صف والتي كانت ثياباً ممزقة أفرغتها العقبان. رأى موكباً من نساء يرتدين اللباس الأسود.

كان خوان رولفو، الطفل الذي يبلغ التاسعة، محاطاً بأشباح تبدو مثله.

لا شيء حياً هنا ولا أصوات إلا تلك المنبعثة من الذئاب الصغيرة. والهواء الوحيد هو الريح السوداء التي تنهض، في هبّات، من سهول خاليسكو حيث الأحياء ليسوا إلا موتى يتظاهرون بأنهم أحياء.

1927: إل تشيبوتي El Chipote

حرب اليغاور والطيور

منذ خمسة عشر عاما نزلت قوات المارينز في نيكاراغوا لكي *تحمي حياة وملكيات مواطني الولايات المتحدة* ولكنها نسيت أن تغادر. كانت تلوح ضدها تلك الجبال الشمالية. القرى نادرة هنا لكن أي شخص لم يصبح فعلا أحد جنود ساندينو هو جاسوس أو رسول له. منذ تدمير منجم سان ألبينو بالديناميت والمعركة الأولى في ماي ماي تابعت القوة المحررة نموها. عبئ الجيش الهندوراسي كله على الحدود ليمنع وصول الأسلحة إلى ساندينو عبر النهر لكن رجال العصابات لم يكترثوا وحصلوا على البنادق من الجنود الساقطين وصنعوا رصاصا من الأشجار التي طمروا أنفسهم فيها. ولم يكن هناك أي نقص في المناجل لقطع الرؤوس أو في القنابل المصنوعة من علب السردين والتي تملأ بالزجاج والمسامير والبراغي والديناميت من أجل بعثرة العدو.

قصفت الطائرات الأميركية كيفما اتفق ودمرت القرى. وطاف جنود المارينز في الغابات بين المهاوي والقمم المرتفعة وقد شوتهم الشمس وأغرقتهم الأمطار وخنقهم الغبار. ولقد حرقوا وقتلوا كل ما وجدوه. حتى القردة الصغيرة قذفتهم بأشياء.

عرضوا على ساندينو عفوا وعشرة دولارات عن كل يوم تمرد فيه. لمح الكابتن هاتفيلد باستسلام.

من معقله في شيبوتي، تلك القمة الغامضة المكللة بالضباب، جاء الجواب: *لا أبيع أو أستسلم.*
ثم ختمه: *خادمك المطيع الذي يرغب أن يضعك في تابوت أنيق مع أصص من الأزهار الجميلة.*
ثم توقيع ساندينو.

كان جنوده يعضون كاليغاور وينتقلون بسرعة كالطيور. وحيث لا يتم توقعهم يهجمون في قفزة يغور واحدة، وقبل أن يستطيع العدو أن يتحرك يهاجمون من الخلف أو الجوانب ثم يختفون بخفقة جناح.

1928: سان رافايل دي نورتي

جيش صغير مجنون

قصفت أربعة مراكب إل شيبوتي التي طوقتها وضربتها رشقات مدفعية المارينز ورعد الإقليم واهتز أياما وليالي إلى أن ثبت الغزاة حرابا وهاجموا الخنادق الحجرية المليئة بالبنادق. لم ينته هذا العمل البطولي بجرحى أو بقتلى لأن المهاجمين لم يعثروا إلا على جنود من القش وبنادق من العصي.

نقلت الصحف الأميركية خبر النصر دون أن تذكر أن المارينز دمروا فيلق دمى بقبعات عريضة ومناديل سوداء وحمراء. ولقد أفادت الصحف، على أي حال، أن ساندينو نفسه كان بين الضحايا.

في قرية سان رافايل البعيدة أصغى ساندينو إلى رجاله يغنون في ضوء نيران المعسكر وهناك سمع بنبأ موته.

إن الله وجبالنا معنا وبعد كل ما قيل وفعل ليس الموت أكثر من لحظة ألم قصيرة.

في الأشهر الماضية وصلت ست وثلاثون سفينة حربية وستة آلاف من قوات المارينز كتعزيزات إلى نيكاراغوا. مع ذلك، من بين سبع وخمسين من المعارك الصغيرة والكبيرة التي خسرت جميعها انزلقت الطريدة من بين أصابعهم ولم يعرف أحد كيف حدث ذلك.

إنه جيش صغير مجنون كما قالت الشاعرة التشيلية غابرييلا ميسترال عن محاربي ساندينو الذين يتواصل الهجوم ضدهم، سادة الجسارة والسلوك الشيطاني.

كان كله أخويا جدا

خوان بابلو راميريث: *صنعنا دمى من القش ونصبناها هناك. ونصبنا أشراكا من العصي ووضعنا على رؤوسها قبعات وكان شيئا مسليا... أمضوا أسبوعا يطلقون النار عليها ويقصفونها حتى أنني بلت في بنطالي من الضحك.*

ألفونسو أليكسندر: *كان الغزاة كالفيل وكنا كالأفعى. كانوا ثباتا وكنا حركة.*

بدرو أنطونيو أروث: *مات اليانكيون ميتات محزنة، الجاحدون. لم يعرفوا كيف تسير الأشياء في جبال بلادنا.*

سنفوروسو غونزاليس ثيليدون: *ساعدنا الفلاحون، عملوا معنا، شعروا بنا.*

كوسمي كاسترو أندينو: *لم نأخذ أي مال. حين نصل إلى قرية ويمنحنا الفلاحون الطعام نقتسمه. كان هذا أخويا جدا.*

1928: واشنطن

جريدة السينما

تلقى عشرة من ضباط المارينز وسام الاستحقاق في طقس عاطفي في واشنطن *من أجل الخدمة المميزة والبطولة الفائقة للعادة في الحرب ضد ساندينو.*

كرست الواشنطن هيرالد، وصحف أخرى، صفحات لجرائم *العصابة الخارجة عن القانون* التي ذبحت حناجر المارينز. نشرت أيضا وثائق وصلت حديثا من المكسيك، بأرقام مؤثرة من الأخطاء الإملائية، برهنت أن الرئيس المكسيكي كاليس يرسل أسلحة بلشفية ودعاية إلى ساندينو

من خلال دبلوماسيين روس. أضافت مصادر رسمية في وزارة الخارجية الأميركية أن كاليس بدأ يظهر عواطفه الشيوعية حين فرض ضرائب على شركات النفط الأميركية التي تعمل في المكسيك وأكدتها بشكل كامل حين بنت حكومته علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي.

حذرت الحكومة الأميركية أنها *لن تسمح للجنود الروس والمكسيكيين أن يدخلوا السوفييت إلى نيكاراغوا*. أسهب الناطق باسم وزارة الخارجية قائلا: *المكسيك تستورد البلشفية*. وبعد نيكاراغوا الهدف الثاني للتوسع السوفييتي في أميركا الوسطى سيكون قناة بنما.

صرح السيناتور شورتريدج *أن مواطني الولايات المتحدة يستحقون الحماية كمواطني روما القديمة*. وقال السيناتور بينجهام: *نحن مرغمون على أن نقبل وظيفتنا كشرطي كوني*. السيناتور بينجهام، عالم الآثار المشهور الذي اكتشف منذ ستة عشر عاما آثار ماتشو بيكتشو في بيرو، لم يخف مطلقا إعجابه بأعمال الهنود الموتى.

من أجل المعارضة، أنكر السيناتور بورها حق بلاده في أن تتصرف كرقيب على أميركا الوسطى، واقترح السيناتور ويلر أن ترسل الحكومة المارينز إلى شيكاغو، لا إلى نيكاراغوا، إذا كانت فعلا تريد التخلص من العصابات. من ناحيتها، تبنت مجلة ***الأمة*** وجهة نظر مفادها أن تسمية الرئيس الأميركي لساندينو بمجرم هي كمثل تسمية جورج الثالث الإنكليزي لجورج واشنطن بلص.

1928: ماناغوا

لمحة مختصرة عن القوة الكولونيالية

كان الأطفال الأميركيون الشماليون يدرسون الجغرافيا من خلال خرائط تظهر نيكاراغوا كنقطة ملونة تسمى *محمية الولايات المتحدة الأميركية*.

حين قررت الولايات المتحدة أن نيكاراغوا لا تستطيع أن تحكم نفسها كانت هناك أربعون مدرسة عامة في منطقتها الواقعة على ساحل الأطلسي. ثمة ست مدارس الآن. نصبت القوة الحارسة سكة حديد وشقت طريقا عاما واحدا وأنشأت جامعة. في الوقت نفسه ازدادت ديون البلاد المحتلة ودفعت كلفة وقوعها تحت الاحتلال بينما استمر المحتلون بالاحتلال كي يضمنوا دفع كلفة الاحتلال.

كانت مكاتب الجمارك النيكاراغوية تحت سيطرة البنوك الأميركية الشمالية الدائنة التي عينت كليفورد د. هام مراقبا للنفقات والحسابات وجابيا عاما للضرائب. هام هو أيضا المراسل النيكاراغوي لوكالة الأنباء المتحدة. وكان نائب مراقب النفقات ونائب جابي الضرائب هو إرفينغ ليندبيرج الذي هو أيضا مراسل الأسوشييتد برس. وهكذا لم يغتصب هام وليندبيرج تعريفات نيكاراغوا فحسب بل اغتصبا الإعلام كذلك. إنهما هما اللذان يعلمان الرأي العام العالمي عن أفعال ساندينو السيئة، *قاطع الطريق الخارج عن القانون والعميل البلشفي*. قاد عقيد أميركي شمالي الجيش النيكاراغوي ـ الحرس الوطني ـ وقاد نقيب أميركي شمالي الشرطة النيكاراغوية.

أدار الجنرال الأميركي الشمالي فرانك مكوي مجلس الانتخاب الوطني وحرس طاولات التصويت أربعمائة واثنان وثلاثون جنديا من المارينز واثنا عشرة طائرة أميركية. ولم يكد الرئيس الجديد ينتخب حتى أعلن أن المارينز سيبقون.

نظم تلك الحفلة المدينية الجنرال لوجان فيلاند قائد القوات المحتلة. الجنرال فيلاند ذو العضلات، والحاجبين الكثين وضع ساقا فوق أخرى تحت طاولة المكتب. حول مسألة ساندينو، تثاءب وقال: «*سيسقط هذا الطائر يوما ما.*»

1928: مكسيكو سيتي

أوبريغون

نبحت الكلاب في مزرعة نيناري في وادي ياكوي بمكسيكو.

أمر الجنرال ألبارو أوبريغون: *أخرسوها!*

لكن الكلاب زادت من نباحها.

أمر الجنرال: *أطعموها!*

تجاهلت الكلاب الطعام وواصلت نباحها.

قدموا لها لحما طازجا.

لم يؤثر اللحم الطازج، ورغم الضرب، لم تتوقف عن النباح.

قال أوبريغون متذمرا: *أعرف ماذا تريد.*

حدث ذلك في 17 أيار. في التاسع من تموز، في كولياكان، كان أوبريغون يرتشف شراب التمر الهندي في ظل رواق حين قرعت أجراس الكاتدرائية وقال الشاعر شاي أندريدي الثمل قليلا: *إنها تقرع من أجلك يا صديقي.*

في اليوم التالي، في إسكينابا، بعد وليمة من القريدس، كان أوبريغون يستقل القطار حين ضغطت الصديقة الجيدة إليسا بيفن على ذراعه وتوسلت إليه بصوتها الأجش: *لا تذهب. سوف يقتلونك.*

لكن أوبريغون دخل القطار على أية حال متجها إلى العاصمة. بعد كل شيء، عرف كيف يشق طريقه عنوة إلى الأمام في الأيام التي كان الرصاص يطن فيها كالدبابير. كان قاتلا للقتلة، وغازيا للغزاة ولقد حظي بالسلطة والمجد والمال دون أن يفقد أي شيء إلا اليد التي قطعها بانتشو بيا.

وهكذا قرر ألا يتراجع لأنه كان يعرف أن أيامه معدودة. واصل طريقه، ببساطة، بمرح يشوبه حزن. لقد فقد في النهاية براءته الوحيدة: سعادة اللامبالاة حيال موته.

اليوم، 17 تموز، 1928، بعد شهرين من نباح الكلاب في نيناري، قتل متعصب للملك والمسيح الرئيس الذي أعيد انتخابه، ألبارو أوبريغون، في مطعم بمكسيكو سيتي.

1928: بيا إرموسا Villahermosa

آكل الكاهن

لم يكد أوبريغون يموت بعد أن أسقطه رصاص كاثوليكي متعصب حتى أصدر حاكم ولاية تاباسكو المكسيكية، مانويل خاريدو، مرسوما يدعو إلى الانتقام. دمر الكاتدرائية حتى آخر حجر فيها وشيد من برونز الأجراس تمثالا للفقيد الذي أعول عليه.

كان خاريدو يؤمن أن الدين الكاثوليكي يسجن العمال في قفص الخوف ويرهبهم بتهديد عذاب النار الأبدية. قال: من أجل حرية المجيء إلى تاباسكو، يجب أن يذهب الدين، ثم طرده بعد أن ذبح القديسين، ودمر الكنائس، وانتزع الصلبان من المقابر، وأجبر الكهنة على الزواج وأعاد تسمية جميع الأماكن التي سميت بأسماء القديسين. عاصمة الولاية سان خوان بوتيستا، أصبحت بيا إرموسا. وفي موعظة وقورة سمى ثورا للاستيلاد أسقفا وسمى حمارا البابا.

1928: سانتا مارتا الجنوبية

عصر الموز

لم تكن إلا قرى ضائعة على الساحل الكولومبي، قطعة غبار بين النهر والمقبرة، تثاؤبا بين قيلولتين حين جاء قطار شركة يونايتد فروت. عبر القطار المستنقعات، اخترق الغابة ساعلا الدخان، وظهر هنا، في غاية الوضوح، معلنا بصفرة أن عصر الموز قد جاء.

استيقظت المنطقة لتجد نفسها مزرعة ضخمة. حصلت ثيناغا Cienaga وأراكاتاكا وفنداثيون Fundacion على تلغراف ومراكز بريد وشوارع جديدة بمكاتب للمراهنة وبيوت دعارة. الفلاحون، الذين وصلوا بالآلاف، تركوا بغالهم عند مواقع الربط وذهبوا إلى العمل.

برهن هؤلاء العمال أنهم مطيعون ورخيصون طيلة سنوات وهم يقطعون النباتات المتطفلة والجذور بمناجلهم بأقل من دولار في اليوم، وقبلوا أن يعيشوا في سقيفة قذرة، ويموتوا من الملاريا والسل. ثم أسسوا اتحادا.

1928: أراكاتاكا

اللعنة

حر شديد ووهن وحقد. تعفن الموز على الأشجار ونامت الثيران أمام عربات فارغة. وقفت القطارات ميتة على سككها ولم يصلها عنقود واحد من الفاكهة. انتظرت سبع سفن راسية عند أرصفة سانتا مارتا: في عنابرها التي تخلو من الفاكهة توقفت المراوح عن الطنين.

أربعمائة مضرب خلف القضبان لكن الإضراب تواصل بعناد.

أقامت يونايتد فروت في أراكاتاكا عشاء على شرف الزعيم العسكري والمدني للمنطقة. في أثناء تناول الحلوى لعن الجنرال كارلوس كورتيز بارغاس العمال، *مرتكبي الشر المسلحين ومحرضيهم البلاشفة* وأعلن أنه سيتقدم غدا إلى ثيناغا على رأس قوات حفظ النظام ليقوم بعمله.

1928: ثيناغا

مذبحة

ارتفع مد من الرايات على شواطئ ثيناغا. رجال يحملون مناجل على خصورهم، نساء يحملن الآنية وأطفال ينتظرون هنا وسط نيران المخيم. وعدت الشركة أنها ستوقع، الليلة، اتفاقية لإنهاء الإضراب.

بدلا من مدير يونايتد فروت جاء الجنرال كورتيز بارغاس، وبدلا من الاتفاقية قرأ عليهم إنذارا.

لم يتحرك أحد. دوى بوق التحذير ثلاث مرات ثم انفجر العالم وارتفع صخب الرعود فجأة بينما كانت الرشاشات والبنادق تفرغ مخازنها. فرشت الساحة بالجثث. كنس الجنود وغسلوا طول الليل بينما رميت الجثث في البحر. وفي الصباح لم يكن هناك شيء.

لم يحدث شيء في ماكوندو ولم يحدث شيء ولن يحدث أي شيء مطلقا.

1928: أراكاتاكا

غارسيا ماركيز

استمرت مطاردة المضربين الجرحى والمختبئين، اصطيدوا كالأرانب من بنادق قطار متحرك، وفي المحطات، وضعوا في شباك كالأسماك. أسر مائة وعشرون في أراكاتاكا في ليلة واحدة.

أيقظ الجنود الكاهن وانتزعوا مفتاح المقبرة. مرتجفا في سرواله أصغى الكاهن لإطلاق النار.

في مكان ليس بعيدا زعق طفل في مهده.

ستمر الأعوام وسيكشف ذلك الطفل للعالم أسرار منطقة هاجمها طاعون النسيان حتى أنها نسيت أسماء الأشياء. سيكتشف الوثائق التي تروي كيف أطلقت النار على العمال في الساحة وكيف أن الأم الكبيرة هي مالكة الحيوات والمزارع والمطر الذي سقط ويسقط وكيف أنه بين مطرة وأخرى تصعد ريمديوس الجميلة إلى السماء ويمر في الجو ملاك عجوز صغير ومنتوف ساقطا نحو قن الدجاج.

1928: **بوغوتا**

جريدة السينما

نقلت الصحافة أخبار الأحداث الأخيرة في منطقة الموز. قالت المصادر الرسمية إن تزايد المضربين أحرق أربعين مزرعة، ودمر خمسة وثلاثين ألف متر من أسلاك البرق وقتل ثمانية عمال حين حاولوا أن يهاجموا الجيش.

اتهم رئيس الجمهورية المضربين بالخيانة والجريمة مصرحا: *لقد طعنوا بخنجرهم المسموم القلب المحب للوطن.* ثم أصدر الرئيس مرسوما عين بموجبه الجنرال كورتيز بارغاس رئيسا للأمن الوطني ورفع وكافأ جميع من اشتركوا في الأحداث.

في خطبة دراماتيكية، ناقض المشرع الليبرالي الشاب خورخي إليسير غيتان القصة الرسمية واتهم الجيش الكولومبي بارتكاب المذبحة تنفيذا لأوامر شركة أجنبية. قال غيتان إن شركة يونايتد فروت التي أدارت المجزرة خفضت الأجر اليومي الذي كان يدفع في قسائم وليس نقدا. أكد المشرع أن الشركة تستغل أراضي تبرعت بها الدولة الكولومبية وهي غير خاضعة للضرائب.

1929: **مكسيكو سيتي**

ميا Mella

أمر ديكتاتور كوبا خيراردو ماشادو بقتله. كان خوليو أنطونيو ميا طالبا مكسيكيا آخر منفيا إلى مكسيكو ومشغولا جدا بالتحرك ونشر المقالات لقلة من القراء، وهي مقالات ضد التمييز العنصري والوجه الخفي للاستعمار. لم يخطئ الديكتاتور حين عده عدوه الأكثر خطرا. كان رجلا متألقا منذ أن ألقى خطبه النارية التي هزت طلاب هافانا. التهب ميا وهو يشجب الديكتاتورية ويسخر من شيخوخة الجامعة الكوبية التي هي مصنع للمحترفين الذي يملكون ذهنية دير استعماري.

وفي ليلة كان تينا يطوف فيها شابكا ذراع صديقته تينا مودوتي اغتاله القتلة.

صرخت تيما لكنها لم تبك. لم تبك إلى أن عادت إلى المنزل وشاهدت حذاءه الفارغ ينتظرها تحت السرير.

منذ بضع ساعات، كانت تلك المرأة سعيدة لأنها تغار من نفسها.

1929: **مكسيكو سيتي**

تينا مودوتي

لا علاقة للحكومة الكوبية بالمسألة كما أصرت الصحف اليمينية المكسيكية. كان ميا ضحية جريمة هوى وليس كما قال البلاشفة الموسكوفيون. كشفت الصحافة أن تينا مودوتي، المرأة ذات

السمعة الملتبسة، تصرفت ببرود إزاء الحادثة، وبالتالي، سقطت في تناقضات مثيرة للشبهة في إفاداتها للشرطة.

مودوتي، المصورة الفوتوغرافية الإيطالية، رسخت قدميها عميقا في مكسيكو في الأعوام القليلة التي قضتها فيها. عكست صورها عظمة في أشياء الحياة اليومية وفي البشر الذين يمارسون العمل اليدوي. لكنها مذنبة بخطيئة الحرية. كانت تعيش وحيدة حين عثرت على ميا مختلطا بالحشد المتظاهر من أجل ساكو وفانزيتي وساندينو وتنقلت معه بشكل غير رسمي. كانت في السابق ممثلة في هوليود وموديلا للرسامين وعشيقة لهم. جعلت كل رجل يراها عصبيا. باختصار، هي عاهرة. ولتتويج ذلك هي شيوعية وأجنبية. وزعت الشرطة صور جمالها الذي لا يغفر وهي عارية بينما بدأت الإجراءات لطردها من مكسيكو.

1929: مكسيكو سيتي

فريدا

ليست تينا مودوتي وحيدة أمام مفتشيها. كان يرافقها دائما دييغو ريبيرا وفريدا كاهلو: الرسام الضخم بوذا وفريدا الصغيرة الرسامة، أفضل صديقات تينا، التي تبدو كأميرة شرقية غامضة لكنها تقسم وتشرب التيكيلا مثل فرقة موسيقية في خاليسكو.

كانت كاهلو تمتلك ضحكة وحشية ورسمت لوحات زيتية رائعة منذ ذلك اليوم الذي حكم عليها فيه بالألم الذي لا ينتهي. عرفت ألما آخر منذ طفولتها حين ألبسها والداها جناحين من القش، لكن الألم المتواصل، والذي يشل، جاء فقط منذ الحادث الذي تعرضت له حين اخترقت شظية من سيارة متفجرة جسدها كالرمح وأصابت عظامها.

إنها الآن ألم يعيش كشخص. أجروا لها عدة عمليات عبثا. وبدأت ترسم في فراشها في المشفى صورا شخصية كانت تمجيدا يائسا للحياة المتبقية لها.

1929: كابيا

لامبياو

هاجم رجل العصابات الأكثر شهرة في الشمال الغربي للبرازيل بلدة كابيا. حدد الزعيم لامبياو، الذي لا يضحك مطلقا، مبلغا معقولا كفدية ثم قدم تخفيضا لأننا في فصل القحط. وبينما كانت شخصيات البلدة البارزة تجمع المال كان يطوف في الشوارع. تبعته البلدة كلها. كانت جرائمه المروعة قد سببت له إعجابا عاما.

كان لامبياو، الملك الأعور، سيد الأماكن المفتوحة، يلمع تحت الشمس. منحته نظارته ذات السلك الذهبي مظهر بروفيسور شارد الذهن. كان خنجره المتوهج طويلا كسيف. وعلى كل إصبع يتألق خاتم من الزمرد، وخيطت إلى طوق الشعر الذي حول جبهته باوندات إنكليزية ورقية.

اتجه لامبياو نحو السينما حيث يعرض فيلم لجانيت غينور. في تلك الليلة تناول العشاء في الفندق وإلى جانبه جلس عامل تلغراف البلدة يتذوق اللقمة الأولى من كل صحن. ثم تناول لامبياو عدة كؤوس من الكحول وهو يقرأ كتاب حياة يسوع من تأليف إلين ج. وايت. أنهى يومه في الماخور، اختار أكثرهن جمالا، إندينا ما، وأمضى معها الليلة كلها. فجرا أصبحت إندينا مشهورة وطوال أعوام كان الرجال يقفون في صف منتظرين أمام بابها.

1929: أتلانتيك سيتي

هيئة الجريمة

عقدت الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة مؤتمرها الأول في صالونات فندق بريسيدينت وحضر الممثلون المؤهلون لعصابات إجرامية تعمل في كل من المدن الرئيسية.

غصن زيتون، راية بيضاء: قرر المؤتمر أن العصابات المتنازعة يجب أن تتوقف عن تصفية بعضها بعضا وصدر عفو عام. ومن أجل ضمان السلام اتبع منفذو صناعة الجريمة مثال صناعة النفط.

وكما فعلت ستاندارد أويل وشيل وزع رجال العصابات الأقوياء الأسواق وحددوا الأسعار واتفقوا على إبادة الصغار والمتوسطين.

في الأعوام الأخيرة نوع مدراء الجريمة اهتماماتهم وحدثوا أساليبهم، والآن لا ينشغلون بالابتزاز والقتل والدعارة والتهريب فحسب، وإنما أيضا يملكون مصانع التقطير والفنادق والكازينوهات والسوبرماركات ويستخدمون أحدث الرشاشات والآلات الحاسبة. يدير المهندسون والاقتصاديون وخبراء الدعاية فرق التقنيين الذين يتجنبون ضياع المصادر ويضمنون ارتفاعا متواصلا في الفوائد.

ترأس آل كابوني هيئة الشركة الأكثر ربحا في اللعبة وكان يكسب مائة مليون دولار في العام.

1929: شيكاغو

آل كابوني

تغنى عشرة آلاف طالب باسم آل كابوني في ملعب جامعة نورثويسترن الرياضي. حيا كابوني ذو الشعبية الحشد ملوحا بيديه. كان يرافقه اثنا عشر حارسا وتنتظره على الباب سيارة كاديلاك مصفحة. يضع كابوني وردة في طية صدر سترته ودبوسا ألماسيا في ربطة عنقه ولكنه يرتدي تحت هذا صدرة فولاذية ويخفق قلبه إزاء مسدس من عيار 45. إنه صنم. لا أحد يقدم مثله عملا كثيرا لردهات الجنازة، ولمحلات بيع الأزهار، ولخياطين يقومون بتصليح غير مرئي للثقوب الصغيرة. وكان يدفع رواتب كريمة لرجال الشرطة والقضاة والمشرعين ورؤساء البلديات. كابوني، رجل الأسرة النموذجي، مقت التنورة القصيرة ومساحيق التجميل وآمن أن مكان المرأة هو المطبخ. وكوطني متحمس كان يضع صور جورج واشنطن وأبراهام لنكولن على طاولته. وكمحترف مؤثر

كان يقدم أفضل خدمة متوفرة لإخماد الإضرابات وضرب العمال وإرسال المتمردين إلى العالم الآخر وهو دائما متيقظ للتهديد الأحمر.

آل كابوني يدعو إلى مقاومة الخطر الشيوعي

إن البلشفية تقرع بابنا ويجب أن لا نسمح لها بالدخول. يجب أن نبقى متحدين وندافع عن أنفسنا ضدها بشكل حاسم. يجب أن تبقى أميركا آمنة ودون فساد وينبغي أن نحمي العمال من الصحافة الحمراء والخيانة الحمراء ونضمن أن تبقى عقولهم معافاة...

1929: نيويورك

شعور بالنشاط والخفة

كان ملايين البشر يقرؤون كتاب **الرجل الذي يجهله الجميع** للمؤلف بروس بارتون، الكتاب الذي يصور وول ستريت على أنه فردوس. يقول المؤلف إن مسيح الناصرة أسس عالم المشاريع الحديث وكان مقاولاً غازياً للسوق، ذا موهبة بعبقرية إعلانية، يساعده اثنا عشر بائعاً على صورته وشبهه.

بإيمان يجاور الإيمان الديني، آمنت الرأسمالية بأبديتها الخاصة. أي مواطن أميركي شمالي لا يشعر بأنه واحد من النخبة؟ إن البورصة كازينو يلعب فيه الجميع ولا أحد يخسر. جعلهم الله مزدهرين. وكان المقاول هنري فورد يتمنى أن لا ينام مطلقاً لِكي يجمع المزيد من النقود.

من البيان الرأسمالي لهنري فورد صانع السيارة

فشلت البلشفية لأنها كانت غير طبيعية وغير أخلاقية أما نظامنا فقد صمد...

ليس ثمة سخف أو ضرر أكثر ضخامة للبشرية من الإصرار على أن جميع الناس متساوون.

يأتي المال بشكل طبيعي كنتيجة للخدمة ومن الضروري جداً أن نملك النقود ولكن لا نريد أن ننسى أن نهاية المال ليست الراحة بل فرصة إنجاز مزيد من الخدمة. في ذهني لا يوجد شيء أكثر مقتاً من حياة الراحة. لا أحد منا يمتلك حقاً بالراحة إذ لا مكان في الحضارة للعاطل..

أظهرنا في إعلاننا الأول أن السيارة هي منفعة. قلنا: نسمع دائماً الحكمة القديمة المقتبسة، الزمن هو النقود، مع ذلك كم من رجال الأعمال والمشاريع يتصرفون وكأنهم فعلاً آمنوا بحقيقتها...

1929: نيويورك

الأزمة

نمت المضاربة بوتيرة أسرع من الإنتاج وكان الإنتاج أسرع من الاستهلاك. انطلق كل شيء بوتيرة تبعث على الدوار إلى أن حدث فجأة، في يوم واحد، انهيار بورصة نيويورك محيلا إلى رماد فوائد أعوام.

أصبحت أغلى الأسهم قصاصات ورق لا تنفع حتى في تغليف الأسماك.

هبطت الأسعار والرواتب وأسعار الأسهم وسقط أكثر من رجل أعمال من برجه. أغلقت المعامل والبنوك وانهار المزارعون. فرك العمال أيديهم فوق أكوام القمامة المشتعلة ومضغوا العلكة ليهدئوا معداتهم. انهارت أضخم المشاريع وحتى آل كابوني تعرض للسقوط.

1930: لا باز

مغامرة مؤثرة لأمير ويلز بين المتوحشين

دفعت بورصة نيويورك كثيرا من الحكومات إلى الهاوية. تفتت الأسعار العالمية ومعها رؤساء أميركا اللاتينية ـ الريش الذي نتف من جناحي نسر ـ وولدت ديكتاتوريات جديدة لتجعل الجوع أكثر حدة.

وفي بوليفيا أدى انهيار سعر القصدير إلى سقوط الرئيس هرناندو سايلز ووضع مكانه جنرال على جدول رواتب باتينو، ملك القصدير. نهض مجرم يرافق الجيش، هاجم القصر الحكومي ومنح أذنا لنهبه. خارج السيطرة، سرقوا السجاد والأثاث واللوحات وكل شيء. أخذوا الحمامات كلها والمراحيض والحنفيات وأنابيب التصريف.

عندئذ زار أمير ويلز بوليفيا. توقع البشر وصول أمير على الطراز الذي أراده الله يمتطي جوادا أبيض مطهما ويتمنطق سيفا. خصلاته الذهبية تتدفق في الريح. خيب أملهم سيد يعتمر قبعة ويحمل عكازا ويهبط من القطار منهكا.

في ذلك المساء أقام الرئيس الجديد مأدبة للأمير في القصر الذي جرد من كل شيء. وفي أثناء تناول الحلويات وتماما حين كانت الخطب على وشك أن تبدأ، همس سيادته كلمات مؤثرة في أذن مترجمه الذي نقلها إلى الضابط المعاون الذي نقلها، بدوره، إلى الرئيس. شحب الرئيس. نقرت قدم الأمير بعصبية على الأرض. أمنياته أوامر ولكن لا يوجد مكان في القصر أو طريقة لتنفيذها. دون تردد عين الرئيس لجنة يرأسها وزير الخارجية وقائد القوات المسلحة.

رافقت الحاشية ذات القبعات والريش أمير ويلز بشكل مؤثر بخطوة مهيبة ورشيقة وهي تقريبا كالقفز، عبر ساحة دي أرماس. حين وصلوا إلى زاوية دخلوا جميعا إلى فندق باريس. فتح وزير

الخارجية الباب الذي كتب عليه مخصص للسادة وبيّن الطريق لوريث العرش الإمبراطوري البريطاني.

1930: بوينس آيرس

يريغوين Yrigoyen

تركت الأزمة العالمية أيضاً رئيس الأرجنتين هيبيليتو يريغوين مترنحاً على حافة جرف محكوماً بانهيار أسعار اللحوم والقمح.

صامتاً ووحيداً، هذا الثقل العنيد والقديم من زمن آخر وعالم آخر، لا يزال يريغوين يرفض أن يستخدم الهاتف ولم يدخل مطلقاً إلى السينما ولا يثق بالسيارات ولا يؤمن بالطائرات. لقد غزا الشعب بالثرثرة وأقنعه فرداً فرداً، وشيئاً فشيئاً دون خطب. والآن، يفك البشر نفسهم الأحصنة عن عربته ويجرونه بأيديهم ويلعنونه ويرمون أثاثه في الشارع.

طُبخ الانقلاب العسكري الذي أطاح به في نادي الجوكي وفي وثيركولو دي أرماس Circulo de Armas على ألسنة لهب الأزمة نفسها. ختم البطريرك المريض الذي يئن من الروماتيزم مصيره حين رفض أن يسلم النفط الأرجنتيني لستاندارد أويل وشل. والأسوأ من ذلك، أراد أن يخفف كارثة الأسعار من خلال إقامة المشاريع مع الاتحاد السوفياتي.

مرة أخرى، من أجل صالح العالم، دقت ساعة السيف، هذا ما كتبه الشاعر ليوبولدو لوغونيز معلناً الحقبة العسكرية في تاريخ الأرجنتين.

في أوج الانقلاب، لاحظ نقيب شاب يدعى خوان دومنغو بيرون أحد المتحمسين يندفع بسرعة هائلة من القصر الحكومي صارخاً: *يحيا الوطن! تحيا الثورة*!

كان المتحمس يحمل العلم الأرجنتيني ملفوفاً حول ذراعه وكانت هناك، داخل الراية، آلة كاتبة مسروقة.

1930: باريس

الصحفي أورتيث إتشاغي Ortiz Echague يعلق على هبوط سعر اللحوم

في كل مرة أعود فيها من بوينس آيرس يسألني الأرجنتينيون الذين في باريس: كيف حال الأبقار؟

على المرء أن يجيء إلى باريس ليقدر أهمية البقرة الأرجنتينية. ليلة أمس، في كاباريه إل جارون - في مونمارتر حيث يجرب الأرجنتينيون الشبان المهن الفظة للحياة - سألني بعض

الأشخاص الذين يجلسون إلى طاولة مجاورة بتلك الألفة المعتادة في ساعات الصباح الأولى: «قل لنا أيها الصديق الحميم، كيف حال الأبقار في الوطن»

قلت: إنها في حالة عجز.

ولا تستطيع أن تنهض؟

لا يبدو الأمر جيدا.

ألا تملك أية أبقار؟

تحسست جيبي وقلت: لا.

أنت لا تعرف أيها الصديق القديم كم أنت محظوظ. عند هذه النقطة دخلت ثلاث كونسرتينات في بكاء حنيني مختصرة الحوار.

كيف حال الأبقار؟ سألني رئيس الخدم والموسيقيون وفتيات الأزهار والخدم وراقصات الباليه الشاحبات، حمالون بخصل ذهبية، سائسون مجتهدون، وقبل كل شيء، نساء مغطيات بالمساحيق، من تلك النساء البائسات المنتفخات الأعين والفقيرات الدم؟

1930: أبيانيدا Avellaneda

البقرة، السيف والصليب

تشكل البقرة والسيف والصليب الثالوث المقدس للسلطة في الأرجنتين، ويحرس الأشداء في الحزب المحافظ المذبح. في قلب بوينس آيرس، يستخدم المسلحون ذوو القفازات البيضاء، القوانين والمراسيم كالرشاشات في عمليات السلب. الخبراء في المحاسبة المضاعفة والأخلاق المضاعفة لم يحتاجوا إلى إزعاج أنفسهم بكسر الأقفال. إنهم لا يملكون شهادات دكتوراه من أجل لاشيء. يعرفون بدقة أية خلائط سرية تفتح صناديق نقد البلاد.

في الجانب الآخر النهر، في أبيانيدا، تمسك حزب المحافظين بإطلاق النار الشريف من أجل سياسته ومشاريعه. كان السيناتور الدون ألبيرتو بارسيلو يمنح الحياة ويقضي عليها وهو على عرشه هناك. يصطف المنبوذون ليتلقوا من الدون ألبيرتو بقشيشا قليلا، نصيحة أبوية وعناقا حميما. شقيقه إنريك ذو الذراع الوحيدة، يعتني بقسم الماخور. أما مسؤولية الدون ألبيرتو فهي اليانصيب والسلام الاجتماعي. يدخن بمشرب ويتجسس على العالم من تحت جفنين منتفخين. أتباعه ينهون الإضرابات ويحرقون المكتبات ويحطمون المطابع ويختصرون عمل الاتحادات التجارية وجميع الذين ينسون أن يدفعوا ويطيعوا في ساعة الأزمة هذه المفضية إلى الفوضى. فيما بعد، منح الإله الدون ألبيرتو مائة بيزوس.

1939: كاستيكس Castex

آخر متمرد من رعاة البقر

كان يدعى في السهوب الأرجنتينية بيروليتو، وهو ابن فلاحين من إيطاليا. أصبح خارجا عن القانون منذ شبابه بعد أن أطلق النار على شرطي وأصابه في جبهته لأنه أذله. والآن ليس أمامه خيار إلا أن ينام خارج المنزل. في الصحراء، حيث تضربه الريح، يظهر ويختفي كبرق أو سراب، ممتطيا حصانا أسود يقفز فوق سبعة أسيجة من الأسلاك دون جهد. يحميه الفقراء وينتقم لهم ضد الأقوياء الذين يستغلونهم ثم يبتلعون أراضيهم. في نهاية كل غارة ينقش حرف b بالرصاص على دولاب طاحونة مزرعة ويزرع الريح بمنشورات فوضوية تنبئ بالثورة .

1930: سانتو دومنغو

الإعصار

يضرب وهو يزأر محطما السفن على الأرصفة، هادما الجسور، مقتلعا الأشجار، قاذفا بها في الجو. تطير سقوف قصديرية كفؤوس مجنونة، ويتقطع بشر. تمهد الريح هذه الجزيرة، يجرفها البرق ويغرقها المطر والبحر. يضرب الإعصار كأنه ينتقم لنفسه أو ينفذ لعنة فنتازية ما. يمكن أن يعتقد المرء أنه حكم على جمهورية الدومينيكان أن تدفع، وحدها، دين كوكب بأكمله.

فيما بعد، حين تلاشى الإعصار بدأ الحرق وكان يجب أن تحرق الجثث والحطام وإلا ستقضي الأوبئة على أي شيء يبقى على قيد الحياة أو منتصبا. طول أسبوع تدلت سحابة كبيرة من الدخان الأسود فوق مدينة سانتو دومنغو.

هكذا كانت الأيام الأولى لحكومة الجنرال رافايل ليونيداس تروخيو الذي جاء إلى السلطة عشية الإعصار والذي عانى من انخفاض في أسعار السكر لم يكن أقل عنفا.

1930: إلوبانغو

ميغيل في سن الخامسة والعشرين

طالت الكارثة أيضا سعر البن دورة كاملة. فسدت الحبوب على الأشجار وخيمت رائحة كريهة من البن المتعفن في الجو. رمى المزارعون عمالهم على الطرقات في جميع أنحاء أميركا والقلة التي ظلت تملك عملا تلقت الحصص نفسها كالخنازير.

في أسوأ أوقات الأزمة ولد الحزب الشيوعي في السلفادور. كان ميغيل، الذي أصبح صانع أحذية ماهرا، ويعمل أينما يجد نفسه، هو أحد المؤسسين. كان يحرض البشر، يربح متطوعين، يختبئ ويهرب والشرطة تطارده دائما.

في صباح ما اقترب ميغيل من منزله متنكرا. بدا كأنه لم يكن مراقبا. سمع طفله الصغير يبكي فدخل. كان الطفل وحيدا ويصرخ بقوة. كان ميغيل قد بدأ يغير حفاضه حين نظر عبر النافذة ورأى الشرطة تحاصر المكان.

قال لطفله المتبرز ونصف المحفض: اعذرني، وقفز كقطة منزلقا عبر ثغرة بين قرميد السقف المحطم حين رنت الطلقات الأولى.

وهكذا حصلت الولادة الرابعة لميغيل مارمول في سن الخامسة والعشرين.

1930: نيو يورك

الحياة اليومية في أثناء الأزمة

بشكل لا يدعو إلى السرور، وكسلسلة من الصفعات الوقحة على الوجه، أوقظت الأزمة الأميركيين الشماليين. وخزت الكارثة التي حلت ببورصة نيويورك الحلم العظيم، الذي وعد أن يملأ جميع الجيوب بالنقود، والسماء بالطائرات، وكل إنش من الأرض بالسيارات وناطحات السحاب.

لا أحد يبيع التفاؤل في السوق. الأزياء تحزن. أوجه طويلة، فساتين طويلة، شعر طويل. انتهت العشرينيات ذات الزئير، ومعها السيقان المكشوفة والشعر القصير.

سقط الاستهلاك كله عموديا. ازدادت مبيعات السجائر، وخرائط البروج، ولمبات الـ 25 واط، التي لا تقدم الكثير من الضوء، لكنها لا تسحب الكثير من التيار. أنتجت هوليود أفلاما عن الوحوش العملاقة المفلتة، كنغ كونغ، وفرانكشتاين، اللذين لا يشرحان كالاقتصاد، ولا يمكن إيقافهما كالأزمة التي تبذر الرعب في شوارع المدينة.

1930: أتشوابا Achuapa

تقلص قوس قزح

نيكاراغوا، البلاد التي حكم عليها أن تنتج حلويات رخيصة ـ الموز، القهوة، السكر ـ تابعت تحطيم هضم زبائنها.

احتفل رئيس الجبهة الساندينية ميغيل أنغيل أورتيث بالعام الجديد بالقضاء على دورية بحرية في أودية أتشوابا الموحلة، وفي اليوم نفسه سقطت دورية أخرى عن الجرف في جوار أوكوتال.

عبثا، حاول الغزاة الانتصار من خلال التجويع، وحرق الأكواخ والمحاصيل. أجبرت أسر كثيرة أن تذهب إلى الجبال، متجولة ودون حماية. تركت خلفها أعمدة من الدخان والحيوانات المقتولة بالحراب.

اعتقد الفلاحون أن ساندينو يعرف كيف يغري قوس قزح، وحين يأتي يتقلص إلى أن يصبح بوسعه أن ينخسه بإصبعين فحسب.

1931: بوكاي Bocay

الأبواق ستصدح

في ضوء رقاقات خشب الصنوبر العطرية، كتـب سـاندينو الرسـائل، الأوامـر، والتقـارير التـي ستقرأ بصوت مرتفع في المعسكر حول الوضـع العسـكري والسياسـي في نيكـاراغوا (*حـالا سـيحرق العدو نفسه كمفرقعة ...*). كتب بيانات تشجب الخونة (*لن يجدوا مكانا لكـي يعيشوا فيه إلا تحت سبعة أشبار من التراب ...*). وخط نبوءات أعلنت أن أبواق الحرب ستصدح حـالا ضـد الظـالمين في كل مكان، وعاجلا لا آجلا، سيقضي يوم القيامة على الظلم لكي يصبح العالم في النهايـة مـا أراد أن يكونه حين لم يكن هناك أي شيء.

كتب ساندينو لأحد ضباطه:

«لن يكون بوسعنا أن نسير بسبب جميع الأزهار...»

إذا أدركك النوم، الجوع أو المخاوف التافهة، اسأل الله أن يريحك... سيمنحنا الله هذا النصر الآخر، الذي سيكون النصر الحاسم، لأنني متأكد أنه بعد هذه المعركة لـن يعـودوا لكـي يحصلـوا على فكتهم، وسوف تغطى بالمجد! حين ندخـل مانـاغوا، لـن نكـون قـادرين أن نسـير بسـبب جميع الأزهار...

1931: بوكي

سانتوس لوبيث

كان كل من ينضم إلى الجيش المحرر لا يحصل على راتب مطلقا، لا يحصل إلا على حق أن يدعى بالأخ. عليه أن يعثر على بندقية بطريقته الخاصة، في المعركة، وربما على بدلة تنـتزع مـن جندي، كي يرتديها حالما يتم تقصير البنطلون بشكل ملائم.

كان سانتوس لوبيث مع ساندينو من اليوم الأول. عمل لدى المزارعـين الذيـن امتلكـوه منـذ أن كان في الثامنة من عمره. كان في سن الثانية عشرة حين نشب تمرد سان ألبينو، وأصبح فتى مائيا ورسولا في جيش ساندينو، جاسوسا بين السكارى أو الأعداء المخبلين، ومـع أصدقائـه الآخريـن، تخصص في إعداد الكمائن وابتكار الهجمات المضللة بالصفائح ونثريات مختلفة يستطيع أن يعـثر عليها ليجعل بضعة أشخاص يبدون كحشد.

وصل سانتوس لوبيث إلى سن السابعة عشرة في اليوم الذي رفعه فيه ساندينو إلى عقيد.

1931: بوكي

ترانكيلينو

كان السلاح الأروع في ترسانة ساندينو الواهنة رشاش براوننغ آخر موديل، انتزع من طائرة أميركية شمالية أسقطت بالبنادق.

وكان هذا البراوننغ يطلق ويغني بين يدي ترانكيلينو جاركين.

كان ترانكيلينو هو الطباخ. يظهر سنا واحدا حين يبتسم، يضع نبتة سحلبية في قبعته، وحين يحرك الإناء الكبير الذي يتصاعد منه البخار، الفقير باللحوم، لكن الغني بالرائحة الطيبة، يتناول جرعة رم جيدة.

كان تناول الكحول ممنوعا في جيش ساندينو إلا أن ترانكيلينو استثني من ذلك. والحصول على ذلك الامتياز استغرق طويلا. ولكن بدون تلك الجرعات القليلة لا يعمل فنان الملعقة الخشبية والزناد. حين يفرضون عليه الحمية، تكون صحونه فارغة وطلقاته طائشة.

1931: بوكي

كابريرا الصغير

يعزف ترانكيلينو الموسيقى على الرشاش، ويصنعها بدرو كابريرا بالبوق. بالنسبة لبروانننغ ترانكويلينو إنها تفجرات تانغو ومارشات وأناشيد رعوية، بينما يئن بوق كابريرا الصغير مصدرا احتجاجات ويعلن أفعالا جسورة.

ولكي يقبل بوقه السماوي كل صباح، يجب على كابريرا الصغير أن يجمد جسده ويغمض عينيه. يوقظ الجنود قبل الفجر، وفي الليل يهدهدهم كي يناموا، نافخا ألحانا بسيطة متريثة.

هذا الموسيقي والشاعر، ذو القلب الدافئ والقدمين المصابين بالحكة، كان معاون ساندينو منذ أن بدأت الحرب. ولقد منحته الطبيعة قامة طولها ياردة ونصف وسبع نساء.

1931: هانويل

الرابع

زار شارلي المتجول مدرسة هانويل. سار على رجل واحدة، وكأنه يتزحلق. لوى أذنه فاندفع تيار من الماء خارجا. مئات من الأطفال، الميتمين، الفقراء، أو المهجورين، انفجروا من الضحك. منذ خمسة وثلاثين عاما، كان شارلي شابلن أحد أولئك الأطفال. والآن تعرف على الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه وعلى زاوية مبنى الألعاب الرياضية الكريه حيث كان يجلد.

فيما بعد هرب إلى لندن. في تلك الأيام، كانت نوافذ الحوانيت تعرض قطع لحم خنزير حارة جدا وبطاطا ذهبية مغمسة بالصلصة. كان أنف شابلن لا يزال يتذكر الرائحة التي تسللت عبر الزجاج لتسخر منه. ولا تزال تنتقش في ذاكرته أسعار متع لا يمكن الحصول عليها: كوب من الشاي، نصف بنس، قطعة من الرنكة، ترتة، بنسان.

ومنذ عشرين عاما غادر انكلترة في قارب للماشية. والآن يعود هذا الرجل الأكثر شهرة في العالم. تتبعه سحابة من الصحفيين كظله، وأينما يذهب يتجمع البشر لكي يشاهدوه ويلمسوه. يستطيع أن يفعل ما يريد. في قمة فورة الأفلام السينمائية الناطقة، حققت أفلامه الصامتة نجاحا ساحقا. وأصبح بوسعه أن يصرف ما يريد على الرغم من أنه لم يرغب بذلك مطلقا. على الشاشة، شارلي المتجول، الورقة الفقيرة في الريح، لا يعرف أي شيء عن النقود، وفي الحقيقة، شارلي شابلن، الذي يتعرق الملايين، يراقب البنسات، ولا يقدر أن ينظر إلى لوحة دون أن يحسب سعرها. لن يتقاسم أبدا مصير بستر كيتون، الرجل ذي الجيبين المفتوحين، الذي يطير منه كل شيء حالما يكسبه.

1932: هوليود

الخاسر

وصل بستر كيتون إلى استوديوهات مترو متأخرا ساعات، يجر ثقل فورة شراب البارحة: عينان محمومتان، لسان نحاسي، عضلات قماشية. من يعرف كيف نجح في تنفيذ دوران المهرج وكيف قرأ النكات البلهاء التي اقتضاها النص.

والآن أفلامه ناطقة ولا يسمح له بالارتجال، ولا يمكن أن يصور باحثا عن تلك اللحظة الخادعة حين يكتشف الشعر الضحك المسجون ويحرره. كيتون، عبقري الحرية والصمت، يجب أن يتبع حرفيا سيناريوهات الدجال التي كتبها آخرون. بتلك الطريقة تهبط التكاليف إلى النصف، ويقضى على الموهبة، استنادا إلى معايير إنتاج مصانع الأفلام في حقبة الفيلم الصاخب. تركت في الخلف إلى الأبد، الأيام التي كانت فيها هوليود مغامرة مجنونة.

كل يوم يشعر كيتون أنه مع الكلاب والأبقار. وكل ليلة يفتح زجاجة بوربون ويتوسل إلى ذاكرته أن تشرب وتبقى هادئة.

1932: مكسيكو سيتي

أيزنشتاين

حين كان في مكسيكو اتهم بأنه *بلشفي*، *شاذ جنسيا*، *وخليع*. في هوليود، سموه *كلبا أحمر وصديق القتلة*.

جاء سيرجي أيزنشتاين إلى مكسيكو ليصور ملحمة محلية. وقبل أن ينتج نصفها، استأصلت الأحشاء. حظر الرقيب المكسيكي بعض المشاهد لأن الحقيقة كلها جيدة جدا، ولكن ليس كثيرا منها، شكرا. ترك المنتج الأميركي الشمالي الشريط المصور بين يدي كل من يريد أن يقطعه إلى قطع.

انتهى فيلم أيزنشتايين تعيش المكسيك Que Viva Mexico كومة من القصاصات المتكلفة والصور التي تفتقد إلى التمفصل وضعت مع بعضها دون تناغم أو بخداع، حروف مدهشة مزقت وحررت من كلمة لم تنطق بتاتا من قبل عن هذه البلاد، هذا المكان الذي قفز من المكان الذي يقابل فيه قاع البحر مركز الأرض: الأهرامات التي هي براكين على وشك الانفجار، زواحف متداخلة كأجساد جائعة، أحجار تتنفس...

1932: طرق سانتافه

محرك الدمى

لم يعرف محرك الدمى أنه محرك للدمى حتى ذلك المساء عندما لاحظ، حين كان مع صديق على شرفة في بوينس آيرس، عربة محملة بالقش تعبر الشارع، وعلى القش كان يتمدد فتى صغير يدخن مديرا وجهه إلى السماء، يداه خلف عنقه، ويضع رجلا فوق أخرى. شعر هو وصديقه بإلحاح لا يقاوم للخروج. هرب الصديق مع امرأة نحو الأراضي الغامضة المتجمدة في جنوب الجنوب، واكتشف محرك الدمى لعبة تحريك الدمى، حرفة الأحرار، وانطلق في عربة يجرها حصانان.

ومن بلدة إلى أخرى على ضفتي نهر البارانا تركت عجلات العربة الخشبية ندوبا طويلة. كان اسم محرك الدمى، ومستحضر السعادة، خابيير بيلافيني. كان خابيير يسافر مع أولاده ذوي الأجساد المصنوعة من المعجون والورق. وكان يحب من بينهم، بشكل خاص، ماستر غلوبتروتر ذا الأنف الطويل والحزين، القبعة السوداء، وربطة العنق الطائرة. في أثناء العرض يكون امتدادا ليد خابيير، وفيما بعد، ينام ويحلم على قدميه، في صندوق عرض.

1932: إثالكو

حق الانتخاب ومضاعفاته المؤلمة

الجنرال ماكسيميليانو إرنانديث مارتينيث، الذي أصبح رئيسا بسبب انقلاب عسكري، دعا شعب السلفادور إلى انتخاب نواب ورؤساء بلديات. وعلى الرغم من نصب ألف فخ، فاز الحزب الشيوعي الصغير بالانتخابات. شعر الجنرال بالإهانة. علق تدقيق أوراق الاقتراع إلى أجل غير مسمى.

تمرد الشيوعيون بسبب الخدعة وانتفض السلفادوريون في اليوم نفسه الذي ثار فيه بركان إثالكو. وبينما كانت الماغما الحارقة تتدفق على المنحدرات وغيوم الرماد تحجب السماء، هاجم الفلاحون الحمر الثكنات بالمناجل في إثالكو، وناهيثالكو، وتاكيوبا، وخوايوا Juayua، وبلدات أخرى. وللمرة الأولى استلم سوفييت أميركا السلطة مدة ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام. تبع ذلك ثلاثة أيام من الذبح. واجه فارابندو مارتي وقواد شيوعيون آخرون فرق الإعدام. ضرب الجنود حتى الموت الزعيم الهندي خوسيه فيليسيانو أما، قائد الثورة في إثالكو. علقوا جثته في الساحة الرئيسية وأجبروا طلاب المدارس على مراقبة المشهد. ثلاثون ألف فلاح، شجبهم مستخدموهم، أو حكم عليهم لمجرد الشبهة أو بسبب كلام عجائز، حفروا قبورهم بأيديهم. مات أطفال أيضاً، لأن الشيوعيين، يحتاجون، كالأفاعي، إلى أن يقتلوا وهم صغار. وأينما نبش كلب أو خنزير التراب، تظهر بقايا البشر. كان أحد ضحايا فرقة الإعدام الحذّاء ميغيل مارمول.

1932: سويابانغو Soyapango

ميغيل في السادسة والعشرين

حين كانوا ينقلونهم في شاحنة وهم مقيدون، تعرف ميغيل على أشباح طفولته.

فكر: «*أي حظ، أنا ذاهب لأموت حيث دفن حبل سرتي*».

أركعوهم على الأرض بأعقاب البنادق ثم أطلقوا عليهم النار زوجاً زوجاً. كانت أضواء الشاحنة الأمامية والقمر تمنح من الضوء أكثر من الحاجة.

بعد بضع زخات، جاء دور ميغيل مع رجل كان يبيع نقوشاً حكم عليه بأنه روسي. أمسك الروسي وميغيل، الواقفان أمام فرقة الإعدام، أيديهما المقيدة خلف ظهريهما. اعترت حكة جسم ميغيل كله واحتاج بيأس إلى أن يحك، وهذا ملأ ذهنه حين سمع: «*استعداد! سددوا! أطلقوا النار!*»

استعاد ميغيل وعيه تحت كومة من الأجساد التي كانت تقطر دماً. شعر برأسه ينتفض وينزف وشعر بألم الرصاصات في جسمه وروحه وثيابه. سمع طقطقة بندقية تُذخَّر من جديد: إنها رصاصة الرحمة. غامت عيناه بالدم. انتظر ميغيل الطلقة الأخيرة، لكنه شعر بدلاً من ذلك بمنجل يقطّع فيه.

رفس الجنود الجثث ورموها في حفرة ورموا فوقها التراب. بعد ذلك سمع الشاحنة تنطلق. حاول ميغيل، الجريح والمقطع، أن يتحرك. استغرق قروناً كي يزحف من تحت كثير من الموت والتراب، وأخيراً نجح في أن يسير بخطوة بطيئة جداً وكان يسقط أكثر مما ينتصب، خرج ببطء، معتمراً صمبريرة رفيق اسمه سيرافين.

وهكذا حصلت الولادة الخامسة لميغيل مارمول، في سن السادسة والعشرين.

1932: ماناغوا

ساندينو يتقدم

تقدم ساندينو في هجوم وصل إلى ضفاف بحيرة ماناغوا وشتت قوات الاحتلال. في غضون ذلك، ظهرت صورتان في الصحف العالمية. إحداهما تظهر الملازم أول بنسغتون من البحرية الأميركية يحمل كغنيمة، رأساً مقطوعاً لفلاح نيكاراغوي. في الأخرى تبتسم هيئة الأركان العامة للحرس الوطني النيكاراغوي، ضباط ينتعلون أبواطاً مرتفعة وأغطية للرأس خاصة برحلات القنص. في مركزهم أجلِسَ مدير الحرس، العقيد كالفن. ب.ماثيوز. كانت الغابة خلفهم. عند أقدام المجموعة، كان يتمدد على الأرض، كلب. الغابة والكلب هما النيكاراغويان الوحيدان.

1932: سان سلفادور

ميغيل في السابعة والعشرين

من بين أولئك الذين أنقذوا ميغيل، لم يبق أحد. ثقب الجنود بالرصاص الرفاق الذين عثروا عليه في حفرة، أولئك الذين حملوه عبر النهر على كرسي من الأيدي، أولئك الذين أخفوه في كهف، وأولئك الذين أحضروه إلى منزل شقيقته في سان سلفادور. حين رأت شقيقته طيف ميغيل المثقب بالرصاص والمليء بجروح المنجل المتصالبة، تم إيقاظها من الإغماء بالمروحة. ثم صلت وبدأت تاسوعية من أجل راحته الأبدية.

تواصلت خدمة الجنازة. بدأ ميغيل يستعيد صحته قدر استطاعته، مختبئاً خلف المذبح الذي شيد في ذاكرته، دون أي شيء إلا من مرهم عصير التشيشيبنثي chichipince الذي تضعه أخته بصبر كصبر القديسين على جراحه المتقيحة. مستلقياً وراء الستارة، مشتعلاً من الحمى، أمضى ميغيل عيد ميلاده مصغياً إلى أقرباء وجيران يبعثون الغم يغسلهم محيط من الدموع، يطرون ذكراه بصلوات لا تتوقف.

في إحدى تلك الليالي توقفت دورية على الباب.

«لمن تصلون؟»

«لروح أخي الذي مات».

دخل الجنود، اقتربوا من المذبح، وجعدوا أنوفهم.

تشبثت شقيقة ميغيل بمسبحتها. ارتعشت الشموع أمام صورة سيدنا يسوع المسيح. رسم الجنود صورة الصليب وقالوا: «لترقد روحه بسلام» ثم خرجوا.

وهكذا حصلت الولادة السادسة لميغيل مارمول في سن السابعة والعشرين.

1932: ماناغوا

الهزيمة العسكرية الأولى للولايات المتحدة الأميركية في أميركا اللاتينية

في اليوم الأول من العام غـادر المـارينز نيكـاراغوا مـع جميـع سـفنهم وطائراتـهم. إن الجـنرال الضامر، الرجل الصغير، الذي يبدو كحرفT كبير، ويعتمر صمبريرة ذات حـواف عريضـة، أذل إمبراطورية.

رثت الصحف الأميركية الموتى الكثيرين الذين سقطوا في أعوام كثيرة من الاحتلال، لكنها شددت على قيمة تدريب الطيارين. وبفضل الحرب ضد ساندينو استطاعت الولايات المتحدة، للمرة الأولى، أن تجرب القصف الجوي من طائرات فوكر وكرتيس التي صممت خصيصاً للقتال في نيكاراغوا.

عُين مكان العقيد المغادر ماثيوز ضابط محلي متعاطف ومخلص هـو أناستاسـيو تاتشـو سـوموزا كرئيس للحرس الوطني، الذي يدعى الآن الغارديا ناسيونال.

وحالما وصل إلى ماناغوا قال ساندينو المنتصر: «*الآن نحن أحرار، لن أطلق رصاصة أخرى.*»

حياه رئيس نيكاراغوا خوان بوتيستا ساكاسا وعانقه. عانقه أيضاً الجنرال سوموزا.

1933: معسكر خوردان Camp Jordan

حرب تشاكو Chaco

نشبت الحرب بين بوليفيا والباراغواي، البلدين الأكثر فقراً في أميركا الجنوبية واللذين لا منفذ لهما على المحيط، إنهما البلدان اللذان تعرضا أكثر من غيرهما للغزو والنهب، أزالا بعضـهما عـن الخريطة. كانت شركتا ستاندارد أويل ودتش شيل تختبئان في طيـات العلمـين، وتتنازعـان علـى النفط في تشاكو.

في تلك الحــرب، أجـبر البـاراغويون والبوليفيـون علـى كراهيـة بعضـهم بعضـاً باسـم أرض لا يحبونها، ولا يحبها أحد. تشاكو صحراء رمادية تسكنها الأشواك والثعابين، لا يبين فيـها طـائر غريد أو شخص. كل شيء ظامئ في هذا العالم المرعب حيث تشكل الفراشات خثرات يائسة علـى قطرات الماء القليلة.

بالنسبة للبوليفيين كانت المنطقة تتحول من ثلاجــة إلـى فـرن: لقـد قذفـوا مـن أعـالي جبـال الأنديز وغمسوا في تلك الأراضي ذات الأشجار الخفيضة المشوية. هنا يموت البعض مـن الرصـاص وكثيرون من الظمأ.

كانت سحب ذباب وبعوض تطارد الجنود، الذين يهجمون عبر الأجمات برؤوس منحنية، في مسير إجباري ضد خطوط العدو. على الجانبين، بشر حفاة هم النقد الذي يدفع بسبب أخطاء ضباطهم. مات عبيد المالك الإقطاعي والكاهن القروي في بدلات مختلفة، في خدمة الجشع الإمبريالي.

تحدث أحد الجنود البوليفيين وهو يسير إلى حتفه. لم يقل شيئاً عن المجد، أو عن مسقط الرأس. قال وهو يتنفس بتثاقل: «*اللعنة على الساعة التي ولدت فيها ذكراً*».

ثيسبيدس Cespedes

من الجانب البوليفي، سيروي أوغوستو ثيسبيدس تلك الملحمة المثيرة للشفقة:

سرية من الجنود تبحث عن الماء بدأت تحفر بئراً بالمعاول والرفوش. المطر القليل الذي سقط تبخر مسبقاً، وليس هناك ماء في أي مكان. على عمق اثني عشر متراً عثر صيادو الماء على الوحل. حفروا إلى ثلاثين متراً، ثم على عمق خمسة وأربعين متراً أخرجت البكرة سطولاً من الرمل، وكل منها أكثر جفافاً من الآخر. تابع الجنود الحفر، يوماً بعد آخر، في بئر الرمل، تغلغلوا إلى أعمق وهم أكثر صمتاً. وحين شن الباراغويون، الذي أنهكهم الظمأ، هجوماً، مات البوليفيون وهم يدافعون عن البئر وكأنها تحتوي على الماء.

روا باستوس Roa Bastos

من الجانب البارغوايي، سيروي أوغوستو روا باستوس القصة. تحدث هو كذلك عن آبار أصبحت قبوراً، وعن حشد الموتى، وعن الأحياء الذين يمكن تمييزهم عنهم من حقيقة أنهم يتحركون، كسكارى نسوا الطريق إلى المنزل. رافق الجنود الضائعين، الذين ليس لديهم قطرة ماء، ليس لديهم دمعة ليبكوا.

1934: ماناغوا

فيلم رعب:

سيناريو لممثلين وبعض الكومبارس

غادر سوموزا منزل آرثر بليس لين، سفير الولايات المتحدة الأميركية.

وصل ساندينو إلى منزل ساكاسا، رئيس نيكاراغوا.

حين جلس سوموزا ليعمل مع ضباطه، جلس ساندينو ليتناول العشاء مع الرئيس.

قال سوموزا لضباطه إن السفير قدم، لتوه، دعمه غير المشروط من أجل قتل ساندينو.

تحدث ساندينو مع الرئيس عن مشكلات تعاونية ويويلي، حيث كان يعمل هو وجنوده في الأرض مدة عام.

شرح سوموزا لضباطه أن ساندينو عدو شيوعي للنظام، لديه أسلحة أخرى كثيرة مخبأة أكثر من تلك التي سلمها.

شرح ساندينو للرئيس أن سوموزا لن يدعه يعمل بسلام.

ناقش سوموزا مع ضباطه فيما إذا كان يجب أن يموت ساندينو بالسم، بإطلاق النار، في حادث طائرة، أو كمين في الجبال.

ناقش ساندينو مع الرئيس القوة المتنامية للحرس الوطني، الذي يقوده سوموزا، وحذر من أن سوموزا سيطيح به حالاً ليجلس على الكرسي الرئاسي.

أنهى سوموزا ترتيب بعض التفاصيل العملية وغادر ضباطه.

أنهى ساندينو قهوته واستأذن من الرئيس لكي يغادر.

ذهب سوموزا إلى أمسية شعرية وذهب ساندينو إلى موته.

وبينما كان سوموزا يصغي إلى سونيتات ثويلا روزا كارديناس، النجمة الفتية للآداب البيروفية، التي شرفت هذه البلاد بزيارتها، أطلقت النار على ساندينو في مكان يدعى الجمجمة، على طريق لونسوم.

1934: ماناغوا

قررت الحكومة عدم حدوث جريمة

في تلك الليلة نجا العقيد سانتوس لوبيث من المصيدة في ماناغوا. على رجل نازفة، جرحه الثامن من الرصاص في سنوات الحرب تلك، تسلق إلى الأسطح، قفز إلى الأرض، وقفز فوق الجدران، وأخيراً بدأ زحفاً كابوسياً إلى الشمال على طول سكة الحديد.

في اليوم التالي، وبينما كان سانتوس لوبيث لا يزال يجر رجله المجروحة على شاطئ البحيرة، حدثت مجزرة بالجملة في الجبال. أمر سوموزا بتدمير تعاونية ويويلي فهاجمها الحرس الوطني الجديد بشكل مفاجئ، وقضى على جنود ساندينو السابقين، الذين كانوا يرشون بذار التبغ والموز وشيدوا مستشفى إلى نصفه. أنقذت البغال لكن الأطفال قتلوا.

بعد ذلك حالاً، أقيمت ولائم تبجيلية لسوموزا في سفارة الولايات المتحدة في ماناغوا وأيضاً في النوادي الحصرية لليون وغرانادا.

أصدرت الحكومة أوامر بالنسيان. مسح عفو عام جميع الجرائم التي ارتكبت منذ ذلك المساء الذي قتل فيه ساندينو.

1934: سان سلفادور

ميغيل في التاسعة والعشرين

كما يحدث دائما، طارده البوليس السلفادوري فالتجأ ميغيل إلى بيت عشيقة القنصل الإسباني.

في إحدى الليالي هبت عاصفة. من النافذة، شاهد ميغيل، بعيدا هناك، حيث ينعطف النهر، المياه المرتفعة تهدد كوخ زوجته المصنوع من القصب والطين. ترك ميغيل مخبأه متحديا العاصفة والدورية الليلية، وأسرع إلى أسرته.

أمضوا الليل جاثمين سوية داخل الجدران الهشة، وهم يصغون إلى زئير الريح والنهر. فجرا، حين انحسرت المياه وهمدت الرياح، كان الكوخ منحرفا قليلا ومبللا، لكنه كان لا يزال منتصبا. وهكذا ودع ميغيل أسرته وعاد إلى ملاذه.

لكنه لم يعثر على ذلك البيت، لم يبق أثر من ذلك البيت القوي. دمر غضب النهر الوهد، مزق الأساسات، وحمل إلى الشيطان، المنزل وعشيقة القنصل، والفتاة الخادمة.

وهكذا حصلت ولادة ميغيل مارمول السابعة في سن التاسعة والعشرين.

1935: طريق بيامونتيس ـ بويوبي Vellamontes - Boyuibe

بعد تسعين ألف قتيل

انتهت حرب تشاكو بسقوط تسعين ألف قتيل. مرت ثلاث سنوات على تبادل الطلقات الأولى بين الباراغويين والبوليفيين في قرية صغيرة تدعى ماسامالكي، والتي تعني، في اللغة الهندية، *المكان الذي تقاتل فيه شقيقان.*

وصلت الأنباء إلى الجبهة ظهرا. صمتت البنادق. نهض الجنود، ببطء، وخرجوا من الخنادق. أشباح بثياب ممزقة، أعمتهم الشمس، اندفعوا عبر الأرض الخالية بين فوج بوليفيا سانتا كروز وفوج الباراغواي توليدو ـ القصاصات، المزق. منعت أوامر صادرة حديثا التآخي مع أولئك الذين كانوا أعداء منذ برهة. لم يسمح إلا بالتحية العسكرية، وهكذا حيا بعضهم بعضا. أطلق أحدهم صرخة عظيمة لكنها لم تتوقف. حطم الجنود الرتب، رموا القبعات، والأسلحة، أي شيء، كل شيء، في الجو وركضوا في فوضى جنونية، باراغويين إلى بوليفيين، وبوليفيين إلى باراغوايين، وهم يصيحون، يغنون، يبكون، يعانق بعضهم بعضا ويتدحرجون على الرمال الحارة.

1935: ماراكي

غوميث

مات ديكتاتور فنزويلا خوان بيثنتي غوميث لكنه تابع حكمه. لم يقدر أحد على زحزحته طول سبعة وعشرين عاماً، والآن لا أحد يجرؤ أن ينكت على جثته. حين دفن تابوت العجوز المرعب تحت كومة من التراب، حطم السجناء أبواب السجن وعندئذ فقط بدأ الابتهاج والنهب.

مات غوميث عازباً. أنجب جبالاً من الأطفال، وكان يعشق كأنه يريح نفسه، لكنه لم يكن يُمْضي مطلقاً ليلة بأكملها بين ذراعي امرأة. كان ضوء الفجر يجده دائماً وحيداً في سريره الحديدي تحت صورة العذراء مريم وإلى جانبه خزائنه المليئة بالنقود.

لم يصرف بنساً بتاتاً، وكان يدفع نفطاً مقابل كل شيء ويوزع النفط بغزارة على غلف وستاندارد وتيكساكو وشل. وبآبار النفط دفع للطبيب الذي فحص مثانته، وللشعراء الذين مجدته سونيتاتهم، وللجلادين الذين حمت مهماتهم السرية نظامه.

1935: بوينس آيرس

بورخيس

كان يشعر بالرعب من كل ما يجمع البشر سوية ككرة القدم أو السياسة، ومن كل شيء يكثر عددهم كالمرآة وفعل الحب. لم يعترف بأي واقع إلا ذلك الذي وجد في الماضي، ماضي أجداده، وفي كتب ألفها أولئك الذين كانوا يعرفون كيف يفسرون ذلك الواقع. ما تبقى دخان.

بدقةٍ عظيمة وذكاء حاد، روى خورخي لويس بورخيس *التاريخ الكوني للعار*. لكنه لم يتحقق مطلقاً من العار القومي الذي كان يحيط به.

1935: بوينس آيرس

تلك الأعوام المهينة

وقعت الحكومة الأرجنتينية في لندن اتفاقية تجارية باعت البلاد بنصف بنس. في العقارات الغنية شمال بوينس آيرس، كان مالكو الماشية يرقصون الفالس في ظل الأشجار. ولكن إذا كانت البلاد برمتها بقيمة نصف بنس، فما هو سعر أبنائها الأكثر فقراً؟ ذهبت الأيدي العاملة في المساومات وبوسعك العثور على فتاة تتعرى مقابل فنجان من القهوة. بزغت معامل جديدة، وحولها منازل من الصفيح يغزوها البوليس والسل، حيث متة البارحة، المجففة تحت الشمس، تدرأ الجوع. ابتكر البوليس الأرجنتيني النخس الكهربائي ليقنع أولئك الشكاكين ويُقوّم من يَلْتوون.

في ليل بوينس آيرس، كان القواد يبحث عن فتاة تريد أن تمضي وقتاً جيداً، وتبحث الفتاة عن رجل يقدم لها وقتاً كهذا. كان المقامر يبحث في حلبة السباق عن بقشيش حار، والمخادع يصبح قواداً، العاطل عن العمل، يبحث عن عمل في الطبعات الأولى. أما البوهيميون فيروحون ويغدون في الشوارع، وأيضاً الخلعاء والغشاشون، جميعهم منعزلون في عزلتهم، بينما يغني لحن التانغو الأخير لديسثيبولين: إن العالم كان وسيستمر نكتة قذرة.

1935: بوينس آيرس

ديسثيبولين Discepolin

إنه عظم طويل واحد بأنف، نحيل إلى درجة أنه يُحْقَن عَبْر معطفه، هذا الشاعر الكئيب لبوينس آيرس في الأعوام الشائنة.

إنريكي سانتوس ديسثيبولو Enrique Santos Discepolo أبدع ألحانه الأولى من التانغو، وهي أفكار حزينة يمكن أن يُرْقص عليها، حين عملَ كممثل هزلي لدى شركة متجولة في الأقاليم. تعرف في حجرات تبديل الملابس المتداعية للسقوط على براغيث ضخمة بحجم الإنسان تقريباً، ودندن لها ألحان تانغو تحدثت عن أولئك الذين لا يملكون نقوداً ولا يؤمنون.

1935: بوينس آيرس

إيفيتا

إذا نظرت إليها لن تبدو إلا فتاة عادية وبليدة، شاحبة وباهتة، غير دميمة وغير جميلة، ترتدي ثياباً من البالة وتكرر كل يوم، بكآبة، الأعمال الروتينية للبؤس. ومثل الآخرين، تعيش مولعة بالمسلسلات الإذاعية التافهة، وتحلم، كل يوم أحد، بأنها نورما شيرر، وتذهب، كل مساء، إلى محطة القطار، لترى قطار بوينس آيرس وهو يعبر. ولكن إيفا دوارتي وصلت إلى سن الخامسة عشرة وفقدت قدرتها على الاحتمال، فصعدت إلى القطار وسافرت.

لم تكن تلك المخلوقة الصغيرة تملك نقوداً أو أباً أو ذكريات تتمسك بها. منذ أن ولدت في بلدة لوس تولدوس من أم غير متزوجة، حكم عليها بالذل، وهي الآن رقم بين آلاف من الأرقام الذين تصبهم القطارات في بوينس آيرس كل يوم، وهي حشود من سكان الأقاليم ذوي الشعر الأشعث والجلد الداكن، عمال وخادمات يمتصهم فم المدينة ويلتهمهم على عجل. وفي أثناء الأسبوع تمضغهم بوينس آيرس، وتبصقهم في أيام الأحد قطعاً.

عند قدم مولوخ[1] المتعجرف، قمم الإسمنت الكبيرة، شلت إفيتا من ذعر جعلها تغلق يديها المحمرتين، والباردتين بشدة، وبكت ثم جففت دموعها، صرت أسنانها، وضغطت بشدة على قبضة حقيبتها الكرتونية ودفنت نفسها في المدينة.

1935: بوينس آيرس

ألفونسينا

تجف مبيضات المرأة التي تفكر. تولد المرأة لكي تنتج الحليب والدموع، لا الأفكار، تولد لا لكي تعيش الحياة وإنما لتتلصص عليها من خلال الستائر الفينيسية المضلعة. شرحوا لها ذلك ألف مرة لكن ألفونسينا ستورني لم تصدقهم مطلقاً، وأشعارها الأكثر شهرة تحتج ضد السجان الفحل.

حين جاءت ألفونسينا إلى بوينس آيرس من الأقاليم، كان كل ما تمتلكه حذاء وطفلاً في بطنها ليس له أب شرعي. ولقد عملت في هذه المدينة في أي عمل حصلت عليه وسرقت أوراق البنك الخاصة بالبرقيات لتكتب آلامها. وبينما كانت تصقل كلماتها قصيدة قصيدة، ليلة بعد أخرى، شابكتْ أصابعها وقبلت البطاقات التي أعلنت عن رحلات وإرث وعلاقات حب.

مر الوقت، مر تقريباً ربع قرن ولم يقدم لها القدر هدايا. لكن ألفونسينا شقت طريقها، نوعاً ما، في عالم الذكور. وجهها، الذي يشبه فأرة لعوباً، لم يغب مطلقاً من الصور الجماعية لكتاب الأرجنتين البارزين.

في صيف ذلك العام، اكتشفت أنها مصابة بالسرطان فبدأت تكتب عن عناق البحر والمنزل الذي ينتظرها في الأعماق، في جادة كورالس.

1935: مديين Medellin

غاردل

كلما غنى بصوت ألوان كثيرة، يغني بطريقة لم يقم بها سابقاً. يصنع ألحاناً سوداء، وتتألق أغانيه المبهمة. إنه الساحر، الأعظم، كارلوس غاردل.

ظلٌ صمبريرة فوق عينيه، ابتسامةٌ أبدية ومكتملة فتية دائماً، يبدو كرابح لم يخسر مطلقاً. أصله لغزٌ، حياته أحجية، ولم يكن للمأساة خيار سوى أن تنقذه من الشرح والتآكل. لم يسامحه عابدوه على التقدم في السن. الطائرة التي سافر فيها أقلعت من مطار ميدييِّن Medellin وانفجرت في الجو.

---

[1] إله سامي كان يعبد من خلال تضحية الأطفال على مذبحه.

1936: بوينس آيرس

باتوروثو

طول عشر سنوات نشرت المسلسلة الهزلية التي كتبها دانتي كينتيرو في صحف بوينس آيرس اليومية. فيما بعد، ظهرت مجلة شهرية مخصصة بشكل كامل للشخصية. باتوروثو، مالك أراض كبير يمتلك نصف باتوغونيا ويعيش في فنادق خمس نجوم في بوينس آيرس ويبدد الملايين، ويؤمن، بولع، بالملكية الخاصة وحضارة المستهلك. شرح دانتي كينتيرو أن باتوروثو هندي أرجنتيني نموذجي.

1936: ريو دي جانيرو

أولغا وهو

عبر لويس كارلوس بريستيس، هو وجيشه المتمرد، البرازيل كلها سيراً على الأقدام، من النهاية إلى النهاية، من البراري الجنوبية، إلى الصحارى الشمالية الشرقية، وعبر غابة الأمازون كلها. طيلة ثلاث سنوات حارب جيش بريستيس بارونات البن والسكر دون أن يتعرض لهزيمة واحدة. وهكذا تخيلته أولغا بيناريو عملاقاً مدمراً ودهشت حين ظهر أنه شخص صغير وهش يحمر خجلاً حين تنظر في عينيه.

هي التي اشتد عودها في الصراعات الثورية في ألمانيا، تلك المقاتلة بلا حدود، كانت تحب وتغذي ذلك المتمرد الذي لم يعرف امرأة مطلقاً. أسرا في الوقت نفسه. ووضعا في سجنين منفصلين.

من ألمانيا طالب هتلر بأولغا، تلك الشيوعية ـ ذات الدم الفاسد والأفكار الفاسدة ـ وسلمها رئيس البرازيل خيتوليو بارغاس. حين جاء الجنود إليها بدأ السجناء أعمال الشغب. أوقفتهم أولغا، التي لم تجد جدوى في الذبح الذي لا فائدة منه، وسلمت نفسها. من بين قضبان زنزانته، رآها الروائي غراثيليانو راموس تعبر، مقيدة اليدين، وحاملاً.

على رصيف المرفأ كانت تنتظرها سفينة تحمل علم الصليب المعقوف، وكان لدى الكابتن أوامر بالاتجاه مباشرة إلى هامبورغ. هناك ستوضع أولغا في معسكر تعذيب، وتُخْنَق في غرفة غاز، وتُحَوَّل إلى فحم في فرن.

1936 : مدريد

الحرب الإسبانية

فقس التمرد ضد الجمهورية الإسبانية في الثكنات، وغرف المقدسات والقصور. كان أبطاله الضبابيون هم الجنرالات والرهبان، وأتباع الملوك، والإقطاعيون أصحاب المشانق والسكاكين.

لعنهم الشاعر التشيلي بابلو نيرودا، محرضاً الطلقات التي ستجد يوماً ما مسكناً في قلوبهم. في غرناطة كان الفاشيون قد أطلقوا النار لتوهم على أخيه الحبيب فيديريكو غارثيّا لوركا، شاعر الأندلس، لمعة البرق الحرة دائماً، لكونه أو لأنه بدا شاذاً وشيوعياً.

طاف نيرودا أرض إسبانيا المبللة بالدم وطرأ عليه تحول. طلب الشاعر، الذي ضللته السياسة، من الشعر الذي يجعل نفسه مفيداً مثل المعدن أو الطحين، أن يستعد ليلطخ وجهه بهباب الفحم ويقاتل جسداً لجسد.

1936: سان سلفادور

مارتينيث

على رأس التمرد أعلن فرانسيسكو نفسه جنرالاً ورئيساً إسبانياً للدولة. جاء الاعتراف الدبلوماسي الأول إلى مدينة بورغوس Burgos من الكاريبي البعيد. هنأ الجنرال ماكسيميليانو إرنانديث مارتينيث، ديكتاتور السلفادور، ديكتاتورية زميله المولودة حديثاً.

كان مارتينيث، الجد اللطيف الذي قتل ثلاثين ألف سلفادوري، يؤمن أن قتل النمل إجرامي أكثر من قتل البشر، لأن النمل، كما يقول، لا يمكن أن يتناسخ. كان المايسترو مارتينيث يتحدث كل يوم أحد إلى البلاد، عبر الإذاعة، عن الوضع السياسي الدولي، الديدان المعوية، تناسخ الأرواح، والخطر الشيوعي. كان يعالج روتينياً أمراض وزرائه ومسؤوليه بمياه ملونة محفوظة في قوارير كبيرة في فناء القصر الرئاسي، وحين ينتشر داء الجدري يخيفه ويبعده بتغليف مصابيح الشوارع بورق السيلوفان.

ولكي يكتشف المؤامرات، يعلق بندول ساعة فوق حساء يتصاعد منه البخار. ومن أجل المشكلات الأكثر جدية، كان يلجأ إلى الرئيس روزفلت، ويتصل مباشرة مع البيت الأبيض من خلال التخاطر.

1936: سان سلفادور

ميغيل في الواحد والثلاثين

كان ميغيل، الذي أطلق سراحه لتوه ـ وقيدت يداه لمدة عامين تقريباً في الزنزانة المنفردة ـ يتجول على الطرقات، منبوذاً، يرتدي الأسمال ولا يملك أي شيء. ليس لديه حزب، لأن رفاقه في الحزب الشيوعي شكوا أنه عقد صفقة مع الديكتاتور مارتينيث. ليس لديه عمل لأن الديكتاتور مارتينيث يرى أنه لا يستطيع أن يحصل على أي عمل. ليس لديه زوجة، لأنها تركته وأخذت الأطفال معها، ولا يملك بيتاً، أو طعاماً، أو حذاء أو حتى اسماً. ولقد أقر رسمياً أن ميغيل مارمول ليس حياً لأنه أعدم في 1932.

قرر أن ينهي الأمر مرة واحدة وإلى الأبد. كفى أفكاراً كهذه. ضربة منجل واحدة ستفتح شرايينه. كان قد رفع المنجل حين ظهر على الدرب فتى يركب على حمار. حياه الفتى بحركة من صمبريرته القشية الكبيرة، وطلب منه المنجل لكي يفتح جوزة هند، ثم قدم له نصفها، وماء ليشرب، وجوز هند ليأكل. أكل ميغيل وشرب كأن ذلك الفتى المجهول دعاه إلى وليمة، ثم نهض وسار بعيداً عن الموت.

وهكذا حصلت الولادة الثامنة لميغيل مارمول، في سن الواحد والثلاثين.

1936: غواتيمالا سيتي

أوبيكو

كان مارتينيث قد سبقه بضع ساعات، لكن أوبيكو كان الشخص الثاني الذي اعترف بفرانكو. قبل هتلر وموسوليني بعشرة أيام، وضع أوبيكو طابع شرعية على الانتفاضة ضد الديموقراطية الإسبانية.

حكم الجنرال خورخي أوبيكو، زعيم غواتيمالا، محاطاً بتماثيل نابليون بونابرت، الذي يشبهه، كتوأم، كما قال. لكن أوبيكو كان يركب الدراجات النارية والحرب التي يشنها لا علاقة لها بفتح أوروبا. كانت حربه حرباً ضد أفكار سيئة.

ضد الأفكار السيئة، انضباط عسكري. عسكر أوبيكو موظفي مركز البريد، موسيقيي الأوركسترا، وأطفال المدارس. وبما أن البطن الممتلئة هي أم الأفكار السيئة، أنزل أجور المستعمرة الزراعية ليونايتد فروت إلى النصف. عاقب الكسل، أب الأفكار السيئة، بإجباره أولئك المذنبين به أن يعملوا في أراضيه دون مقابل. ولكي يطرد الأفكار السيئة من أذهان الثوريين، ابتكر تاجاً فولاذياً يعصر رؤوسهم في زنزانات البوليس.

فرض أوبيكو على الهنود إسهاماً إجبارياً يتألف من خمسة قطع نقدية شهرياً لكي يشيد نصباً عظيماً لأوبيكو. واضعاً يده في جيب سترته، يأخذ وضعية أمام النحات.

1936: تروخيو سيتي

في العام السادس من عصر تروخيو

صحح اسم عاصمة جمهورية الدومينيكان في العام السادس من عصر تروخيو. أصبحت سانتو دومنغو، كما عمدها مؤسسوها، تروخيو سيتي. أصبح الميناء يدعى الآن تروخيو كما هو الأمر مع بلدات كثيرة، وساحات، وأسواق، وجادات. من تروخيو سيتي، أرسل الجنرال رافايل ليونيداس تروخيو إلى الجنرال فرانكو دعمه الأكثر حماسية.

تروخيو، الهلاك الذي لا يتعب للحمر والمهرطقين، ولد مثل أناستاسيو سوموزا من احتلال عسكري أميركي. لم يمنعه وقاره الطبيعي من السماح لاسمه بالظهور على جميع نمر السيارات،

ولصورته على جميع الطوابع البريدية، ولم يعارض منح رتبة عقيد لابنه رامفيس الذي في الثالثة من عمره، كفعل عدالة بسيط. وأرغمه حسه بالمسؤولية أن يعين شخصياً جميع الوزراء، والبوابين، والأساقفة، وملكات الجمال. ولكي يحرض روح المشاريع، منح تروخيو لتروخيو احتكارات الملح، والتبغ، والنفط، والإسمنت، والطحين، والكبريت. ودفاعاً عن الصحة العامة، أغلق تروخيو المشاريع التي لا تبيع اللحم من مسالخ تروخيو أو الحليب من مزارعه، ومن أجل الأمن العام جعل الحصول على سندات التأمين التي يبيعها تروخيو إجبارياً. ممسكاً خوذة التقدم بشدة، حرر تروخيو مشروعات تروخيو من الضرائب بينما زود أملاكه بالري والطرقات ومعامله بالزبائن. وبأمر من تروخيو، صانع الأحذية، كل من يقبض عليه حافياً في شوارع بلدة أو مدينة يذهب إلى السجن.

كان هذا الجبار يمتلك صوتاً كالصفير، معه ليس هناك نقاش.على العشاء، يقرع الكؤوس مع محافظ أو نائب سيذهب إلى المقبرة بعد القهوة. حين تهمه قطعة أرض لا يشتريها وإنما يحتلها. وحين تروقه امرأة، لا يغويها وإنما يشير إليها.

إجراء ضد المطر

ما تحتاجه جمهورية الدومينيكان حين تغرق الأمطار الجارفة المحاصيل هو متضرع مناسب يستطيع أن يسير تحت المطر دون أن يتبلل لكي يرسل توسلات مستعجلة إلى الله والقديسة المباركة بربارة.

التوأمان جيدان، بشكل خاص، في كبح المطر وإخافة الرعد.

في إقليم سالثيدو الدومينيكاني استخدموا أسلوباً آخر. كانوا يبحثون عن حجرين بيضويين كبيرين، من النوع الذي يصقله النهر، ويحكمون ربطهما بحبل، ويعلقانهما على غصن شجرة. يعصرون البيضتين الحجريتين ويشدونهما بقوة ويصلون لله، الذي يطلق صرخة ويتحرك إلى مكان آخر آخذاً معه سحبه السوداء.

إجراء ضد العصيان

إنها امرأة قداسات يومية وصلاة مستمرة. كشطت أم (ماريا لا أو) جلد ركبتيها وهي تتوسل إلى الله كي تحدث معجزة تجعل ابنتها مطيعة وجيدة، وتعتذر عن الوقاحات الصفيقة للفتاة الصغيرة.

في مساء أحد أيام الجمعة، ذهبت (ماريا لا أو) إلى النهر. حاولت أمها أن تمنعها دون جدوى. «فكري وحسب. إنهم يقتلون سيدنا يسوع المسيح...»

إن غضب الله يترك إلى الأبد أولئك الذين يمارسون الحب في يوم الجمعة الحزينة ملتصقين ببعضهم، ورغم أن (ماريا لا أو) لم تكن ذاهبة لتقابل حبيبا، لم ترتكب خطيئة. سبحت عارية في النهر، وحين كركر الماء أعضاء جسدها الممنوعة، ارتجفت من المتعة.

فيما بعد حاولت أن تخرج من النهر لكنها لم تقدر لأنها كانت مغطاة بالحراشف وامتلكت زعانف حيث كانت قدماها.

ولا تزال (ماريا لا أو) تسبح، إلى هذا اليوم، في مياه أنهار الدومينيكان: ولم يغفر لها مطلقاً.

1937: داخابون Dajabon

إجراء ضد التهديد الأسود

كان المحكومون سوداً من هاييتي يعملون في جمهورية الدومينيكان. استمر التطهير العسكري، الذي خطط له إلى التفصيل الأخير، الجنرال تروخيو، يوماً ونصف يوم. في إقليم السكر، سجن الجنود العمال النهاريين في الزرائب ـ قطعان رجال ونساء وأطفال ـ وقضوا عليهم، فوراً وفي المكان نفسه، بالحراب، أو قيدوا أيديهم وأرجلهم وساقوهم بتهديد الحراب، إلى البحر.

تروخيو، الذي يبودر وجهه عدة مرات في اليوم، يريد جمهورية الدومينيكان بيضاء.

1937: واشنطن

جريدة السينما

بعد أسبوعين، نقلت حكومة هاييتي إلى جمهورية الدومينيكان *قلقها حيال الأحداث الأخيرة على الحدود. وعدت* جمهورية الدومينيكان بإجراء *تحقيق شامل.*

باسم الأمن القاري، اقترحت حكومة الولايات المتحدة على الرئيس تروخيو أن يدفع تعويضاً من أجل تجنب نزاع محتمل في المنطقة. اعترف تروخيو، بعد مفاوضات مطولة، بموت ثمانية عشر ألف هاييتي على الأراضي الدومينيكانية. وكما قال، إن رقم الخمسة وعشرين ألف ضحية، الذي تناقلته بعض المصادر، يعكس نية التلاعب بالأحداث بشكل غير شريف. وافق تروخيو أن يدفع لحكومة هاييتي تعويضاً قدره 522,000 $ أو تسعة وعشرين دولاراً مقابل كل ميت معترف به رسمياً.

هنأ البيت الأبيض نفسه على اتفاقية تم التوصل إليها في إطار اتفاقيات وإجراءات أميركية داخلية. وأعلن وزير الخارجية كوردل هل في واشنطن أن الرئيس تروخيو هو أحد أعظم الرجال في أميركا الوسطى وفي معظم أميركا الجنوبية.

دفع التعويض في حينه نقداً، وتعانق رئيس الدومينيكان مع رئيس هاييتي على الحدود.

1937: ريو دي جانيرو

إجراء ضد التهديد الأحمر

لم يكن أمام رئيس البرازيل خيتوليو بارغاس بديل سوى أن ينصب ديكتاتورية. ذلك أن صخب الصحافة والتقارير الإذاعية فضح خطة كوهين الشريرة، وأجبر بارغاس على قمع البرلمان

والعملية الانتخابية. لن يستسلم مسقط الرأس لتقدم حشود موسكو. خطة كوهين، التي اكتشفتها الحكومة في أحد الأقبية منحت التفاصيل الكاملة ـ التكتيك والاستراتيجية ـ للمؤامرة الشيوعية ضد البرازيل.

دعيت الخطة كوهين بسبب خطأ اختزالي. واضع الخطة، الكابتن أولمبيو موراو فيلهو، عمدها باسم خطة كن، بعد أن بناها على وثائق من الثورة الهنغارية القصيرة التي قادها بيلا كن.

لكن الاسم ثانوي. لقد حصل على ترقية استحقت بجدارة ومنح رتبة رائد.

1937: وادي كاريري

جريمة الجماعة

من الطائرات قصفوهم وحصدوهم بنيران الرشاشات. وعلى الأرض ذبحوهم، دفنوهم أحياء، وصلبوهم. بعد أربعين عاماً من القضاء على جماعة كانيودس، فعل الجيش البرازيلي الشيء نفسه مع كالديراو، الجزيرة الخضراء في الشمال الشرقي، وللسبب نفسه: رفض مبدأ الملكية الخاصة.

في كالديراو لم يمتلك أحد أي شيء: لا أنوال نسيج، ولا أفران قرميد، لا بحر حقول الذرة حول القرية، ولا حقول القطن الشاسعة التي وراءها. كان المالكون الجميع ولا أحد، ولم يكن هناك عار أو جائع. أسس المحتاجون تلك الجماعة بدعوة من صليب الصحراء المقدس، الذي حمله خوسيه لورينكو الطاهر، حاج الصحراء، إلى هناك على كتفه. ولقد اختارت العذراء مريم موضع الصليب والرجل المقدس الذي حمله. حيث نصب الصليب، تدفق الماء بشكل متواصل.

قالت صحف المدن البعيدة، إن هذا الرجل القذر هو سلطان لحريم يتألف من إحدى عشرة ألف عذراء، وإذا لم يكن هذا كافياً، كان أيضاً عميلاً لموسكو ويمتلك ترسانة أسلحة مخبأة في مخازنه.

لم يترك شخص أو شيء من جماعة كالديراو. أما المهر ترانسلم الذي لم يمتط الرجل المقدس شيئاً غيره، فقد هرب إلى الجبال الصخرية. عبثاً بحث عن شجرة تقدم ظلاً تحت تلك الشمس الجحيمية.

1937: ريو دي جانيرو

مونتيرو لوباتو

منع الرقباء *فضيحة النفط* لمونتيرو لوباتو. الكتاب يسيء للاتحاد النفطي الاحتكاري وتقنييه، المستأجرين أو المشترين، الذين ادعوا أن البرازيل ليس فيها نفط.

حطم المؤلف نفسه محاولاً أن يؤسس شركة نفط برازيلية. قبل ذلك، فشل في مهنة النشر، حين جاءته الفكرة المجنونة بأن يبيع الكتب لا في المكتبات فحسب، وإنما في الصيدليات والأسواق وأكشاك الصحف في الوقت نفسه.

لم يولد مونتيرو لاباتو لينشر كتباً وإنما ليؤلفها. موطن قوته هو روايــة الحكايـات للأطفـال. في مزرعة بينتيبو أماريو هنــاك خـنزير بذكـاء محـدود هـو مركـيز رابيكـو وثمـة عرنـوس ذرة يصبح فيسكونتاً مميزاً يستطيع أن يقرأ التوراة في اللاتينية ويتحدث الإنكليزيـة للدجـاج الكثـير البيـض. يلقي المركيز نظرة دافئة على إميليا، الدمية الرثة، التي تثرثر دون توقف، لأنها بدأت متأخرة في الحياة ولديها الكثير من الثرثرة المخزونة.

1937: مدريد

همنغواي

تصف تقارير همنغواي الحرب التي تندلع على بعد خطوة من فندقـه في هـذه العاصمـة التـي يحاصرها جنود فرانكو وطائرات هتلر.

لماذا ذهب همنغواي إلى إسبانيا الوحيدة؟ إنه ليس محارباً مثل الأشـخاص الذيـن جـاؤوا مـن أنحاء العالم لينضموا إلى الفرق العالمية. ما يكشفه همنغواي في رواياته هو شيء آخر ـ البحث اليائس عن الكرامة بين الرجال. والكرامة هي الشيء الوحيد غير المتوفر في خنادق الجمهورية الإسبانية.

1937: مكسيكو سيتي

البوليرو

منعت وزارة التربية العامة المكسيكية رقصات أوغستن لارا في المدارس، لأن أغانيها *الفاحشة*، *وغير الأخلاقية*، *والمنحطة* يمكن أن تفسد الأطفال.

مَجَّدَ لارا المرأة الضائعة التي تبدو في عينيها أشجار نخيل ثملة من الشمس، التمس الحب من المنحطة، التي ينتشر الضجر من بؤبؤيـها كذيـل طـاووس، حلـم بالسـرير المـترف للمحظيـة ذات الجلد الحريري، وبنشوة رفيعة وضـع ورداً عنـد قـدم المذنبـة، وغطـى العـاهرة الموصومـة بالعـار بالبخور والمجوهرات مقابل عسل فمها.

1937: مكسيكو ستي

كانتينفلاس Cantinflas

من أجل الضحك، انطلق البشر حشوداً إلى خيام الضواحي، المسارح الفقيرة والبديلـة، حيـث جميع أضواء مقدمة المسرح تشع علـى كـانتينفلاس. «ثمـة لحظـات في الحيـاة هـي في الحقيقـة خاطفة»، يقول كانتينفلاس، بشاربه الذي كقلم الرصـاص وبنطلونـه الفضفـاض، متفوهـاً بحديثـه بسرعة قصوى.

كان وابل الهراء الذي يطلقه يقلد بلاغة مفكرين وسياسيين نصف ناضجين، أطباء مصابين بإسهال كلامي لا يقولون شيئاً، يتابعون فكرة بعبارات لا تنتهي، لا يمسكون بها مطلقاً.
في هذه الأراضي، يعاني الاقتصاد من تضخم نقدي، وتعاني السياسة والثقافة من تضخم لفظي.

1937: مكسيكو ستي

كارديناس

لا تغسل المكسيك يديها من الحرب في إسبانيا. لم يعلن لاثارو كارديناس ـ الرئيس النادر، صديق الصمت وعدو الإسهاب ـ تضامنه فحسب وإنما مارسه، وأرسل أسلحة إلى الجبهة الجمهورية عبر البحر، وتلقى أطفالاً ميتمين من حمولات السفن.
كان كارديناس يصغي وهو يحكم. يتجول ويصغي. يذهب من بلدة إلى أخرى، يسمع الشكاوى بصبر لا ينتهي، ولا يعد بأكثر مما هو ممكن. رجل يحترم كلمته، يتحدث قليلاً. قبل أن يجيء كارديناس، كان فن الحكم في المكسيك يتألف من تحريك اللسان، وحين يقول نعم أو لا يصدقه الناس.
في الصيف الماضي أعلن برنامجاً للإصلاح الزراعي ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف عن منح الأراضي للجماعات المحلية.
كرهه أولئك الذين كانت الثورة بالنسبة إليهم مشروعاً تجارياً. قالوا إن كارديناس يبقى صامتاً لأنه، بعد أن أمضى وقتاً طويلاً بين الهنود، نسي الإسبانية، وأنه سيظهر في أحد الأيام بثياب كوجر وريش.

1938: أنينيكويلكو Anenecuilco

نيكولاس، ابن زاباتا

قبل أي شخص آخر، وأقسى من أي شخص آخر، قاتل فلاحو أنينيكويلكو من أجل الأرض، لكن بعد الكثير من الوقت وسفح الدماء، لم يتغير شيء يذكر في الجماعة حيث ولد إميليانو زاباتا وترعرع في التمرد.
كانت مجموعة أوراق، أكلها العث والقرون، ترقد في قلب الصراع. هذه الوثائق، التي تحمل ختم نائب الملك، تبرهن أن هذه الجماعة هي مالكة أرضها. ترك إمليانو زاباتا الأوراق مع أحد جنوده، بانشو فرانكو وقال له: «*إذا فقدتها ستجف وأنت متدل على غصن.*»
وفعلاً، في مناسبات عديدة، أنقذ بانشو فرانكو الأوراق وحياته بشعرة.

كان أفضل صديق لأنينيكويلكو هو الرئيس لاثارو كارديناس، الذي زار الفلاحين واستمع إليهم واعترف بحقوقهم ووسعها. كان العدو الأسوأ هو النائب نيكولاس زاباتا، ابن إميليانو الأكبر، الذي يملك أغنى الأراضي، ويخطط أيضاً للاستيلاء على المتبقية.

1938: مكسيكو سيتي

تأميم النفط

إلى الشمال من تامبيكو، ينتمي نفط مكسيكو إلى ستاندارد أويل، وإلى الجنوب تمتلكه شيل. تدفع المكسيك غالياً من أجل نفطها الذي تشتريه أوروبا والولايات المتحدة بثمن رخيص. كانت الشركتان تنهبان ما تحت التربة وتسرقان الضرائب والرواتب من المكسيك طول ثلاثين عاماً ـ إلى أن جاء يوم رائع قرر فيه كارديناس أن المكسيك هي مالكة التربة المكسيكية.

منذ ذلك اليوم، لم يستطع أحد أن ينام. أيقظ التحدي البلاد. في مظاهرات لا تنتهي، تدفقت حشود ضخمة في الشوارع حاملة توابيت لستاندارد وشيل على ظهورها. على قرع الماريمبا والأجراس، احتل العمال الآبار والمصافي. لكن الشركتين ردتا بلطف: سحبتا جميع التقنيين الأجانب، أسياد اللغز. لم يتبق أحد للعناية بأدوات الإدارة التي لا يمكن فك شيفرتها. رفرف العلم الوطني فوق أبراج صامتة. توقفت الحفارات، فرغت الأنابيب، انطفأت النيران. إنها الحرب: حرب ضد تراث أميركا اللاتينية العاجز، وضد الجهل وغياب الفعل الناجمين عن الاستعمار.

1938 : مكسيكو سيتي

الحسم

طلبت ستاندارد أويل غزواً فورياً للمكسيك.

حذر كارديناس أنه إذا ظهر جندي واحد على الحدود فإنه سيأمر بإحراق الآبار. صفر الرئيس روزفلت ونظر إلى الجانب الآخر، لكن التاج البريطاني الذي تبنى غضب شيل، أعلن أنه لن يشتري قطرة واحدة من النفط المكسيكي. تعاونت فرنسا. انضمت بلدان أخرى إلى الحصار. لم تجد المكسيك أحداً يبيعها قطعة غيار، واختفت السفن من مرافئها.

لا يزال كارديناس يرفض النزول عن البغل. بحث عن زبائن في الأمكنة الممنوعة ـ روسيا الحمراء، ألمانيا النازية، إيطاليا الفاشية ـ بينما كانت التجهيزات تعود إلى الحياة قطعة بعد أخرى. العمال المكسيكيون يصلحون، يرتجلون، يبتكرون، بحماسة هائلة، وهكذا بدأ سحر الإبداع يجعل الكرامة ممكنة.

1938: كويواكان Coyoacan

تروتسكي

كل صباح كان يدهشه بقاؤه على قيد الحياة. ورغم أن منزله محاط بأبراج حراسة وأسيجة مكهربة، كان ليون تروتسكي يعرف أنه قلعة لا فائدة منها. شكَرَ مؤسس الجيش الأحمر المكسيك لأنها منحته ملاذاً، لكنه شكر القدر أكثر. كان يقول لزوجته كل صباح: «انظري يا ناتاشا، لم يقتلونا البارحة، ومع ذلك أنت تشكين.»

بعد موت لينين، أباد ستالين الرجال الذين صنعوا الثورة الروسية واحداً بعد آخر ـ لينقذها، كما قال ستالين، ليهيمن عليها، كما قال تروتسكي، الرجل الذي أُدرج اسمه في القائمة.

واصل تروتسكي إيمانه العنيد بالاشتراكية، التي لطخها الوحل البشري بالقذارة، ذلك أنه حين يقال كل شيء، من يستطيع أن ينكر أن المسيحية هي أهم بكثير من محاكم التفتيش؟

1938: المنطقة الخلفية

العصابات المتنقلة

يعملون بميزان معقول وليس بدون باعث مطلقاً. لا يسرقون البلدات التي فيها أكثر من كنيستين، ولا يقتلون إلا بأمر محدد أو من أجل انتقام أقسم عليه بتقبيل الخنجر. يعملون في أراضي الصحراء المحترقة بعيداً عن البحر والنفس المالح لتنانينه. يعبرون المساحات المعزولة لشمال شرق البرازيل، على الأحصنة أو على الأقدام، وصمبريراتهم مثقلة بالأوسمة. من النادر أن يتريثوا في أي مكان. لا يربون أولادهم ولا يدفنون آباءهم. عقدوا ميثاقاً مع السماء والجحيم بأن لا يحموا أجسادهم من الرصاص أو السكاكين وذلك من أجل الموت ميتة طبيعية، وعاجلاً أم آجلاً ستنتهي نهاية سيئة هذه الحيوات المخاطرة والمعرضة للخطر، التي مجدت ألف مرة في رباعيات مغنين عميان: *سيقول الله، سيمنح الله، طريق مرتفع، طريق طويل* ـ ملحمة العصابات المتجولة التي تنتقل من معركة إلى أخرى، دون وقت كي يبرد تعرقها.

1938: أنخيكو

صيادو العصابات المتنقلة

لكي يبعدوا أعداءهم عن الرائحة، يقلد رجال العصابات ضجة ومسارات الحيوانات أو يستخدمون نعلا مخادعا يكون فيه الكعب وإصبع القدم معكوسين. لكن أولئك الذين يعرفون يعرفون. يتعرف متعقب الآثار الجيد على مرور البشر في هذا المكان المقفر مما يراه، من غصن

مكسور أو حجر انتقل من موضعه، ومما يشمه. إن رجال العصابات مجانين بخصوص العطر. فهم يستخدمون كميات كبيرة منه وهذا الضعف يخونهم.

يصل الصيادون إلى مخبأ الزعيم لامبياو متبعين الآثار والروائح، وخلفهم القوات، من مكان قريب يسمعون لامبياو يتجادل مع زوجته. وهي جالسة على كرسي عند مدخل كهف، تلعنه ماريا بونيتا، بينما هو يدخن سيجارة بعد أخرى، ومن الداخل يقدم أجوبة حزينة. يركب الجنود رشاشاتهم وينتظرون الأمر. يسقط رذاذ ضوئي.

1939: ساو سلفادور دي باهيا

نساء الآلهة

جاءت عالمة الإناسة الأميركية الشمالية، روث لانديس، إلى البرازيل لتتعلم عن حياة السود في بلاد بدون تمييز عنصري. استقبلها في ريو دي جانيرو الوزير أوزبالدو أرانها. شرح أن الحكومة اقترحت أن تُنَظِّف السلالة البرازيلية، الملوثة بالدم الأسود، لأن الدم الأسود يجب أن يلام من أجل التخلف الوطني.

ذهبت روث من ريو إلى باهيا. في هذه المدينة التي نصب فيها نائب الملك الغني بالسكر والعبيد عرشه في إحدى المرات، السود هم أغلبية وافرة. وسواء تعلق الأمر بالدين أو الموسيقى أو الطعام، الأسود هو ذو الشأن هنا. مع ذلك، كان جميع سكان باهيا، ومن بينهم السود، يعتقدون أن الجلد الأبيض دليل على النوعية الجيدة. كلا، ليس الجميع. اكتشفت روث كبرياء السواد في نساء المعابد الأفريقية، الكاهنات السوداوات، اللائي يتلقين في أجسادهن آلهة من أفريقيا.

إنهن متألقات ومستديرات كقذائف المدفعية، ويقدمن أجسادهن الرحبة كمنازل حيث الزيارة والبقاء ممتعان. وبينما تدخلها الآلهة، وترقص فيها، يتلقى البشر من أيدي الكاهنات الممسوسات التشجيع والعزاء، ويسمعون من أفواههن أصوات القدر.

تقبل كاهنات باهيا السوداوات العشاق، لا الأزواج. ما يمنحه الزواج في هيبة يأخذه في حرية وسعادة. لا تهتم أي منهن بالزواج الرسمي أمام قاض أو كاهن. لا ترغب أي منهن بأن تكون زوجة مقيدة. تنتصب الرؤوس باهتزازات ضعيفة، تتحرك الكاهنات كملكات خلق، يحكمن على رجالهن بعذاب غيرة الآلهة الذي لا نظير له.

إكسو Exu

أزعج زلزال من الطبول نوم ريو دي جانيرو. من الغابات الخلفية، في ضوء النار، سخر إكسو من الأغنياء، وصبَّ عليهم لعناته المهلكة. ذلك المنتقم للذين لا يملكون شيئاً، أضاء الليل وأعتم النهار. إذا ألقى حجراً في دغل، ينزف الدغل.

إن إله الفقراء هو شيطان في الوقت نفسه. له رأسان: أحدهما، يسوع الناصرة، الآخر، شيطان الجحيم. في باهيا هو رسول مزعج من العالم الآخر، إله صغير من الصنف الثاني، لكن في أحياء ريو الفقيرة هو السيد القوي لمنتصف الليل. إكسو، القادر على المداعبة أو الجريمة، يستطيع أن ينقذ أو يقتل، وأحياناً يقوم بالأمرين في الوقت نفسه.

يجيء من أحشاء الأرض، ويدخل بعنف، عبر باطن الأقدام الحافية. يعيره جسداً وصوتاً الرجال والنساء الذين يرقصون مع الجرذان في أكواخ متدلية بشكل مهلك فوق الفراغ، بشر يخلصهم إكسو بجنون فيتدحرجون على الأرض ضاحكين حتى الموت.

ماريا باديلا

إنها إكسو وإحدى نسائه في الوقت نفسه، المرآة والعاشقة: ماريا باديلا أكثر الشيطانات عهراً والتي يحب إكسو أن يتدحرج معها في نيران الجحيم.

ليس من الصعب التعرف عليها حين تدخل الجسد. تصرخ ماريا باديلا، تزأر باللعنات، تضحك بجفاف، وفي نهاية النشوة تطلب مشروبات غالية وسجائر مستوردة. ينبغي أن تعامل كسيدة عظيمة ويتم التوسل إليها بهيام قبل أن تتنازل لاستخدام نفوذها المعروف مع الشياطين والآلهة الأكثر أهمية.

لا تدخل ماريا باديلا أي جسد. لكي تتجلى في هذا العالم، تختار امرأة من أحياء ريو الفقيرة اللائي يعشن من بيع أنفسهن مقابل فكة قليلة. وهكذا يصبح المحتقرون مستحقين للإخلاص. اللحم المستأجر يصعد إلى مركز المذبح. إن قمامة الليل تشع بتألق أكبر من تألق الشمس.

1939: ريو دي جانيرو

السامبا

البرازيل برازيلية والله كذلك، هذا ما أعلنه آري باروسو بالموسيقى الوطنية نفسها التي يمكن الرقص على ألحانها والتي أصبحت قلب كرنفال ريو.

لكن أغاني السامبا الأكثر إمتاعاً، التي تقدم في الكرنفال، بعيداً عن تمجيد فضائل تلك الجنة الاستوائية، تمدح الحياة البوهيمية وخطايا الأرواح الحرة، تلعن البؤس والشرطة، وتحتقر العمل. العمل للبلهاء، لأن بوسع أي شخص أن يرى أن البَنّاء لا يدخل مطلقاً إلى ما شيدته يداه.

السامبا، الإيقاع الأسود، سليلة الابتهالات التي تجمع آلهة الأحياء الفقيرة السوداء، تهيمن الآن على الكرنفالات، حتى ولو كانت لا تزال تزدرى في المنازل المحترمة. إنها تدعو إلى عدم الثقة لأنها فقيرة وسوداء وولدت في أحياء البشر الذين اعتقلتهم الشرطة.

لكن السامبا تسرِّع الأقدام وتداعب الروح ولا مجال لاحتقارها حين تتحرك. يتنفس الكون على إيقاع السامبا حتى أربعاء الرماد في مهرجان يحول أي بروليتاري إلى ملك، وجميع المشلولين إلى أبطال، وجميع الدببة إلى رجال جميلين ومجانين.

1939: ريو دي جانيرو

الوغد

إن الوغد الذي يخشى منه كثيراً في ريو يدعى المدام شيطان.

حين بلغ الفتى السابعة، قايضته الأم بحصان. منذ ذلك الوقت، مر من يد إلى أخرى، ومن سيد إلى آخر، إلى أن انتهى إلى ماخور حيث تعلم مهنة الطبخ ومتع السرير. أصبح هناك حامياً قوياً ومحترفاً للعاهرات، ذكوراً وأناثاً، ولجميع البوهيميين الضعفاء. ضربته الشرطة بما يكفي لإرسال عدة رجال إلى المقبرة، هذا الأسود المتوحش لا يعبر مطلقاً قرب مستشفى أو سجن.

المدام شيطان ذكر من الاثنين إلى الجمعة، شيطان يرتدي قبعة قشية يهيمن بالقبضة والموسى على الليل في حي العمال لابا حيث يطوف مدندناً السامبا ويحدد الزمن بعلبة كبريت، ولكن في نهاية الأسبوع يصبح أنثى، المرأة المستهترة التي ربحت لتوها الفستان التنكري في مسابقة الكرنفال والرداء الخارجي الذهبي الخفاشي، والتي ترتدي خاتماً في كل إصبع وتحرك ردفيها مثل صديقتها كارمن ميراندا.

19939: ريو دي جانيرو

كارتولا

كارتولا هو روح السامبا، وهو عملياً روح كل شيء آخر.

غالباً ما يعبر في ومضة، ملوحاً ببنطلونه كراية، يطارده زوجٌ غاضب. بين مرحه وهروبه، تعوم ألحان واحتجاجات الحب في داخله، لكي تدندن وتنسى بسرعة.

يبيع كارتولا السامبا لكل من يأتي ومقابل أي أجر يحصل عليه. يكون دائماً مندهشاً أن هناك بشراً سيدفعون أي شيء مقابلها.

1939: مونتسيرات

بايبخو

وهي مجروحة بشكل مهلك، خطت الجمهورية الإسبانية خطواتها الأخيرة بتثاقل. بقي لها نَفَسٌ قصير بينما كان جيش فرانكو المبيد يندفع.

في دير مونتسيرات، ومن أجل الوداع، نشرت الميليشيات أشعاراً كتبها شاعران من أميركا اللاتينية تمجيداً لإسبانيا ومأساتها. طبعت قصائد التشيلي بابلو نيرودا والبوليفي باييخو على ورق صنع من أسمال البزات، ورايات العدو، والضمادات.

كان قيصر باييخو قد مات لتوه، متأذياً ووحيداً، مثل إسبانيا. مات في باريس، وهو يوم تنبأ به وسجله، وكانت قصائده الأخيرة، التي كتبت بين أربعة جدران، مهداة إلى إسبانيا. غنى باييخو عن بطولة الشعب الإسباني، لروح إسبانيا المستقلة، لشمسها المعشوقة، وظلها المحبب، وكانت إسبانيا آخر كلمة نطقها في غصة الموت، هذا الشاعر الأميركي، هذا الأكثر أميركية بين الشعراء.

1939: واشنطن

روزفلت

حين أصبح فرانكلن ديلانو روزفلت رئيساً، كان في الولايات المتحدة خمسة عشر مليون عامل بلا عمل يبحثون بأعين أطفال مفقودين، رافعين إبهاماً على الطرق العامة وهم يتجولون من مدينة إلى أخرى، حفاة أو بغطاء من الكرتون وبأحذية يتسرب إليها الماء، ويستخدمون المراحيض العامة ومحطات سكك الحديد كفنادق.

كان أول ما فعله روزفلت لكي ينقذ أمته هو وضع النقود في قفص. أغلق جميع البنوك إلى أن توضح الطريق إلى الأمام. منذ ذلك الوقت حكم الاقتصاد دون أن يدعه يحكمه، وقوى ديموقراطية تهددها أزمة.

كانت علاقته جيدة مع طغاة أميركا اللاتينية ذلك أن روزفلت حماهم، كما حمى سيارات فورد، برادات كيلفيناتور، ومنتجات الولايات المتحدة الأخرى.

1939: واشنطن

في العام التاسع من حقبة تروخيو

في العام التاسع من عهد تروخيو رحبت به في ويست بوينت تحية من عشرين طلقة مدفعية، حيث كان تروخيو يهوي نفسه بمروحة من العاج معطرة ويحيي طلاب الكلية العسكرية برفرفة قبعته المزينة بريش النعام. كان يرافقه حشد كبير من الأساقفة، والجنرالات، والحاشية، بالإضافة إلى طبيب وساحر، مختصين بمشكلات العين، هذا إذا لم نذكر العميد رامفيس تروخيو، الذي في سن العاشرة، ويجر سيفاً أطول منه.

أقام الجنرال جورج مارشال لتروخيو مأدبة على متن الميفلاور واستقبله الرئيس روزفلت في البيت الأبيض. وأمطر المشرعون، والحكام، والصحفيون رجل الدولة الفذ بالمديح. تروخيو الذي دفع نقداً مقابل الجرائم، ربح المدائح بالطريقة نفسها، وسجل المال المنفق تحت عنوان «حب الطير» في الميزانية التنفيذية لجمهورية الدومينيكان.

1939: واشنطن

سوموزا

قبل أن يجعله المارينز جنرالاً ورئيساً مطلقاً لنيكاراغوا، اتبع أناستاسيو تاتشو سوموزا مهنة ناجحة في تزوير السبائك الذهبية والغش في البوكر والحب.

وبعد أن أصبح الحاكم المطلق، وضع قاتل ساندينو الميزانية الوطنية في حسابه المصرفي الخاص وسيطر على أغنى أراضي البلاد. أباد أعداءه الذين تعوزهم الحماسة بإطلاق ديون البنك الوطني عليهم، بينما انتهى أعداؤه المقربون في حوادث أو كمائن.

لم تكن زيارة سوموزا إلى الولايات المتحدة أقل انتصاراً من زيارة تروخيو. ظهر الرئيس روزفلت وعدة أعضاء في الوزارة في محطة يونيون لكي يستقبلوه. عزفت فرقة عسكرية النشيدين الوطنيين، وتبع ذلك طلقات مدفعية. أعلن سوموزا أن جادة ماناغوا الرئيسية، التي تعبر المدينة من البحيرة إلى البحيرة، ستسمى جادة روزفلت.

1939: نيويورك

السوبرمان

احتفلت أكشن كوميكس بالذكرى الأولى للإطلاق الناجح لسوبرمان، هرقل أزمنتنا الذي يحرس الملكية الخاصة في العالم. يطير من مكان يدعى ميتروبوليس، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء، يكسر حواجز الزمن، ويسافر إلى حقب ومجرات أخرى. وأينما يذهب، في هذا العالم أو العوالم الأخرى، يعيد سوبرمان خزن الأوامر بشكل أكثر فعالية وسرعة من كل سلك المارينز. بنظرة يذيب الفولاذ، وبرفسة يقطع غابة، وبلكمة يثقب سلاسل الجبال.

في شخصيته الأخرى، سوبرمان هو كلارك كينت الجبان، الخنوع كأي شخص من قرائه.

1941: نيويورك

صورة صانع رأي

في البداية تجرأت بعض الصالات على عرض *المواطن كين*، الفيلم الذي يروي فيه أورسون ويليز قصة رجل مصاب بحمى السلطة، رجل يشبه إلى حد بعيد ويليم رودولف هيرست.

كان هيرست يملك ثماني عشرة صحيفة، تسع مجلات، سبع قلاع، وبعض البشر الكافين. كان خبيراً في إثارة الرأي العام. وطول حياته الطويلة حرض على حروب وإفلاسات، صنع ودمر ثروات، خلق أوثاناً وأباد سمعة كثيرين. كان من بين ابتكاراته الأفضل حملة الفضيحة وعمود الثرثرة، الجيدين لما يحب أن يفعله بشكل أفضل ـ أن يوجه ضربة قوية إلى ما تحت الحزام.

اعتقد أقوى مفبرك للرأي في الولايات المتحدة أن السلالة البيضاء هي السلالة الإنسانية الوحيدة، آمن بالنصر الضروري للأقوى، واقتنع بأن الشيوعيين يجب أن يلاموا من أجل استهلاك الكحول بين الشبان، وأن اليابانيين يولدون خونة.

حين قصفت اليابان القاعدة البحرية في بيرل هاربور، كانت صحف هيرست تعزف مسبقاً إيقاعاً تحذيرياً ثابتاً لمدة نصف قرن عن الخطر الأصفر.

دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية.

1942: نيويورك

الصليب الأحمر لا يقبل دماً أسود

ركب الجنود الأميركيون السفن وانطلقوا إلى جبهات القتال. كان كثيرون منهم سوداً تحت قيادة ضباط بيض.

أولئك الذين بقوا على قيد الحياة عادوا إلى الوطن. دخل السود من الباب الخلفي، وفي الولايات الجنوبية، تابعوا الحياة، وعملوا، وماتوا منفردين، ودفنوا في قبور منفصلة. وكان رجال الكلكس كلان المقنّعون، يضمنون أن لا يتطفل السود ويدخلوا العالم الأبيض، وقبل كل شيء، مخادع النساء البيضاوات.

كانت الحروب تقبل السود، آلافاً مؤلفة منهم، لكن الصليب الأحمر لم يقبلهم. كان الصليب الأحمر يحظر الدم الأسود في بنوك البلازما، لكي يضمن ألا تختلط السلالات من خلال نقل الدم.

وأخيراً جعل بحث تشارلز درو، مبتكر الحياة، من الممكن إنقاذ الدم. وبفضله، أحيت بنوك البلازما آلاف الموتى في ساحات المعارك في أوروبا.

حين قرر الصليب الأحمر أن يرفض دم السود، استقال درو، مدير خدمة البلازما لدى الصليب الأحمر. كان درو أسود.

1942: أكسفورد، المسيسيبي

فوكنر

كان ويليم فوكنر يجلس على كرسي هزاز، في رواق مقنطر لمنزل متداع، يدخن في غليونه ويصغي إلى أسرار الأشباح المهموسة.

روى أسياد المزرعة لفوكنر عن أمجادهم ومخاوفهم. لم يرعبهم أي شيء مثل اختلاط السلالات. قطرة من دم أسود، قطرة واحدة صغيرة، تلعن حياة بأكملها، وتضمن، بعد الموت، نيران الجحيم. كانت السلالات الجنوبية القديمة، المولودة من الجريمة والمحكوم عليها بالجريمة، تراقب بقلق الروعة الشاحبة لغروبها، التي أساء إليها ظل السواد، أدنى أثر من

السواد. كان هؤلاء السادة يحبون أن يؤمنوا أن طهارة النسب لا تموت، رغم أن ذكراها يمكن أن تتلاشى، وأن أبواق الخيالة الذين هزمهم لينكولن لم تعد تصدح بعد الآن.

1942: هوليود

بريخت

كانت هوليود تصنع الأفلام لكي تحول الصلوات المخيفة لبشرية على حافة الدمار إلى أحلام عذبة. وُظِّف برتولت بريخت، الذي نفي من ألمانيا هتلر، في صناعة الحبة المنومة تلك. كان مؤسس المسرح الذي هدف إلى فتح الأعين، يكسب رزقه في استديوهات الولايات المتحدة، كأي كاتب آخر يعمل ساعات الدوام في هوليود، التي تتنافس لتنتج الحصة اليومية الأكبر من البلاهة.

في أحد تلك الأيام، اشترى بريخت إله حظ صغيراً مقابل أربعين سنتاً من مخزن صيني ووضعه على مكتبه. قيل لبريخت إن إله الحظ يلعق شفتيه في كل مرة يجعلونه يتناول السم.

1942: هوليود

الجيران الجيدون إلى الجنوب

رافق الجيران الطيبون من الجنوب الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية. إنه زمن الأثمان الديموقراطية: كانت البلدان الأميركية اللاتينية تقدم موادَّ أولية رخيصة، طعاماً رخيصاً، جندياً أو اثنين.

عظمت الأفلام الهدف المشترك. ونادراً ما غاب عن الفيلم الرقم الأميركي الجنوبي، الذي يرقص أو يغنى، بالإسبانية أو البرتغالية. اكتسب دونالد دك صديقاً برازيلياً حميماً، الببغاء الصغير خوسيه كاريوكا. أما في الجزر الباسيفيكية أو في حقول أوروبا، فقد كانت هوليود تمجد إبادة اليابانيين أو الألمان بالجملة. وكم من الأدونيسات يوجد إلى جانبهم ظريفٍ لاتيني كسول وغبي، يعجب بأخيه الشمالي الأشقر ويخدم كصداه وظله، أحدب مطيع، مغن مبتهج، رسول، وطباخ؟

1942: ماريا بارثولا بامبا

طريقة أميركية لاتينية لتخفيض كلفة الإنتاج

بوليفيا، التي تعيش، دائماً، على الكفاف ـ هي إحدى البلدان التي دفعت للحرب العالمية من خلال بيع قصديرها بعشر الثمن العادي.

كان عمال المناجم يمولون هذا السعر القائم على صفقة. وكانت أجورهم تتراوح من لا شيء إلى لا شيء مطلقاً. وحين كانت الحكومة تدعو إلى العمل الإجباري بتهديد البنادق، كانت الإضرابات

تبدأ. حظر مرسوم آخر الإضرابات، لكنه فشل في إيقافها. وهكذا أمر الرئيس إنريكي بيناراندا، الجيش بأن يتخذ إجراء *حاداً وفعالاً*. أصدر باتينو، ملك المناجم، أوامره الخاصة: *تابعوا دون تردد*. وافق نائباه، أرامايو وهوتشتشيلد. بصقت الرشاشات النار طول ساعات وغطت الأرض بالجثث.

دفعت مناجم باتينو لشراء بعض التوابيت، لكنه ادخر التعويضات. الموت بالرشاشات ليس مخاطرة مهنية.

1943: سانس ـ سوسي

كاربنتييه Carpentier

اكتشف أليخو كاربنتييه مملكة هنري كريستوفي. طاف الكاتب الكوبي في تلك الأطلال الملكية، ذلك النصب التذكاري لهذيان طباخ أسود أصبح ملك هاييتي وقتل نفسه بالرصاصة الذهبية التي كانت تتدلى دائماً حول عنقه. ابتهالات طقسية، وطبول سحرية نهضت لتقابل كاربنتييه وهو يزور القصر الذي نسخه الملك كريستوفي عن فرساي. سار حول حصنه المحمي، وهو متراس ضخم، التصقت أحجاره بإسمنت دم الثيران التي ضحي بها للآلهة، وقاوم الصواعق والزلازل.

في هاييتي، عرف كاربنتييه أنه ليس هناك سحر أكثر إدهاشاً ومتعة من الرحلة التي تقود، عبر التجربة، عبر الجسد، إلى أعماق أميركا. في أوروبا أصبح السحرة بيروقراطيين، والدهشة، التي استنفدت، تحولت إلى خدعة استدعاء. لكن السريالية، في أميركا، طبيعية كالمطر أو الجنون.

1943: بورت ـ أو ـ برينس

الأيدي التي لا تكذب

أنشأ ديويت بيترز مشغلا مفتوحا انطلق منه فجأة الفن الهاييتي. كان الجميع يرسمون على كل شيء: الملابس، الكرتون، علب الصفيح، الألواح الخشبية، الجدران وكل ما يقدم نفسه. رسموا بانفجار روعة كبير، بأرواح قوس قزح السبع. الجميع: الحذاء، الصياد، غاسلة النهر، بائع الكشك في السوق. في البلاد الأميركية الأكثر فقرا، التي عصرتها أوروبا، وغزتها الولايات المتحدة، التي مزقتها الحروب والديكتاتوريات، كان الشعب يصيح ألوانا ولم يستطع أحد أن يخرسه.

1943: جبل رويس

حبة ملح صغيرة

في بار، وهو محاط بأطفال منتفخي البطون وكلاب هزيلة، كان فيكتور هيبوليت يرسم الآلهة بفرشاة من ريش الدجاج. وكان القديس يوحنا المعمدان يأتي في المساء ليساعده.

يصور هيبوليت الآلهة التي ترسم عبر يده. هذه الآلهة الهاييتية، المرسومة والرسامة، تعيش بشكل متزامن على الأرض وفي الفردوس والجحيم: قادرة على الخير والشر، تقدم لأبنائها الانتقام والعزاء.

لم تأت جميعها من أفريقيا، بعضها ولد هنا، مثل بارون ساميدي، إله الخطوة الوقورة، سيد السموم والقبور، الذي تعزز سواده قبعة وقصبة. أن يقتل السم وأن يرقد الميت بسلام، هذا يعتمد على بارون ساميدي. كان يعيد كثيراً من الموتى إلى الحياة ويحكم عليهم بالعمل كعبيد.

الموتى المسحورين ـ الذين يسيرون أو يعيشون، الذين فقدوا أرواحهم ـ يظهرون نظرة غباء لا أمل فيها. لكنهم لا يستطيعون أن يهربوا أو يستعيدوا حياتهم الضائعة أو أرواحهم المسروقة. حبة ملح واحدة كافية لإيقاظهم. ولكن كيف يمكن أن يفقد الملح في وطن العبيد الذين هزموا نابليون وأسسوا الحرية في أميركا.

1944: نيويورك

تعلم الرؤية

إنها الظهيرة، وكان جيمس بالدوين يسير مع صديق عبر شوارع مانهاتن. أوقفهما ضوء أحمر.

قال الصديق مشيراً إلى الأرض: «انظر».

نظر بالدوين لكنه لم ير شيئاً.

«انظر، انظر».

لا شيء، لم يكن هناك شيء ينظر إليه سوى بركة ماء صغيرة وقذرة على حافة الطريق.

ألح صديقه: «انظر؟ ألا ترى؟»

وعندئذ نظر بالدوين جيداً ورأى هذه المرة بقعة نفط تنتشر في البركة. عندئذ رأى، في بقعة النفط، قوس قزح، وفي أعماقها رأى الشارع والبشر الذين يتحركون فيه: الغريق، المجنون، السحرة، العالم كله يتحرك، عالم مذهل مليء بالعوالم التي تتوهج في العالم. رأى بالدوين. للمرة الأولى في حياته رأى.

1945: حدود غواتيمالا ـ السلفادور

ميغيل في سن الأربعين

نام في الكهوف والمقابر. حكم عليه الجوع بهقات عديدة، تنافس مع الغربان من أجل الفتات. أخته، التي تقابله بين فينة وأخرى قالت: *«لقد منحك الله مواهب عديدة، لكنه عاقبك بجعلك شيوعياً».*

منذ أن استعاد ميغيل ثقة حزبه، ازداد الركض والمعاناة. والآن قرر حزبه أن عضوه الأكثر تضحية يجب أن يذهب إلى المنفى في غواتيمالا.

نجح ميغيل في عبور الحدود بعد ألف مشاحنة وخطر. خيّم ليل عميق. تمدد، منهكاً، تحت شجرة. فجراً، أيقظته بقرة صفراء عملاقة لحست قدميه.

قال ميغيل: صباح الخير، لكن البقرة هربت مذعورة وركضت نحو الغابة وهي تخور. ظهرت من الغابة على الفور أربعة ثيران منتقمة. ليس هناك مهرب. خلف ميغيل هاوية، وللشجرة التي خلف ظهره جذع نحيل. هجمت الثيران، ثم توقفت ساكنة وبدأت تنظر، لاهثة، تتنفس ناراً ودخاناً، ترفع قرونها وتضرب الأرض، تمزق النباتات وتثير الغبار.

ارتجف ميغيل وغطاه عرق بارد. مربوط اللسان من الذعر تمتم بعض الكلمات. نظرت الثيران إليه: رجل نصف جائع ونصف خائف. ثم نظرت إلى بعضها بعضاً. ودع نفسه لدى ماركس والقديس فرانسيس من أسيسي بينما كانت الثيران تدير له ظهورها وتتجول هازة رؤوسها.

وهكذا حصلت الولادة التاسعة لميغيل مارمول في سن الأربعين.

1945: هيروشيما وناغازاكي

شمس من النار

شمس من النار، ضوء بنفسجي لم ير في العالم من قبل، شق السماء وفتحها، ثم انهار. بعد ثلاثة أيام، انفجرت شمس شموس ثانية فوق اليابان. وفي الأسفل بقي خبث مدينتين، صحراء من الركام، عشرات الآلاف من الموتى والمزيد من الآلاف الذين حكم عليها بالموت التدريجي في الأعوام الآتية.

انتهت الحرب تقريباً، ذهب هتلر وموسوليني، حين أصدر الرئيس هاري ترومان الأمر بإسقاط قنابل ذرية على سكان هيروشيما وناغازاكي. في الولايات المتحدة، كان الصخب القومي في أوجه حيال القضاء العاجل على الخطر الأصفر. لقد حان الوقت لإنهاء الأوهام الإمبريالية لتلك البلاد الآسيوية المغرورة، التي لم يستعمرها أحد. قالت صحافة تلك القردة الصغيرة الخائنة إن الوحيد الجيد هو الميت.

الآن تبددت جميع الشكوك. ثمة فاتح عظيم واحد بين الفاتحين. بزغت الولايات المتحدة من الحرب سليمة وأكثر قوة من قبل. تصرفت وكأن العالم كله غنيمة لها.

1945: برينستون

آينشتاين

شعر ألبرت آينشتاين وكأن يده هي التي ضغطت على الزر. وعلى الرغم من أنه لم يصنعها، فإن القنبلة الذرية لم تكن ممكنة لولا اكتشافاته حول تحرير الطاقة. تمنى آينشتاين لو أنه كان

شخصاً آخر، لو أنه خصّص وقته لمهمة غير عدوانية كتركيب المغاسل أو بناء الجدران بدلاً من استقصاء أسرار الحياة التي يستخدمها آخرون، الآن، للقضاء عليها.

حين كان طفلاً قال له مدرس: «*لن تصبح أي شيء*».

مستغرقاً في أحلام اليقظة، متأملاً ملامح شخص على القمر، تساءل كيف سيبدو الضوء لشخص قادر أن يركب على شعاع؟ حين أصبح رجلاً، عثر على الجواب في نظرية النسبية، فاز بجائزة نوبل، واستحق أشياء كثيرة بسبب أجوبته على أسئلة أخرى ولدت في ذهنه حول العلاقة الغامضة بين سوناتات موزارت ونظرية فيثاغورث، أو حول الأرابيسك المتحدي الذي يرسمه دخان غليونه، ذي الطول الزائد، في الجو.

آمن آينشتاين أن العلم طريقة لكشف جمال الكون. كان ذلك العالم الأكثر شهرة بين العلماء يمتلك العينين الأكثر حزناً في تاريخ الإنسانية.

1945: بوينس آيرس

بيرون

تولى الجنرال مكآرثر مسؤولية اليابانيين، وتولى سبرويل برادين Spruille Braden مسؤولية الأرجنتينيين. ولكي يقود الأرجنتين، على الطريق الجيدة، إلى الديموقراطية، جمع السفير الأميركي برادين جميع الأحزاب، من المحافظة إلى الشيوعية، في جبهة موحدة ضد خوان دومنغو بيرون. استناداً إلى وزارة الخارجية الأميركية، كان العقيد بيرون، وزير العمل، زعيم عصابة من النازيين. دعته مجلة لوك منحلاً يحفظ في درج مكتبه صور نساء هنديات عاريات من باتاغونيا مع صور هتلر وموسوليني.

مع ذلك، طار بيرون، بسرعة، على الطريق إلى الرئاسة مع إيفيتا، الممثلة الإذاعية ذات العينين المحمومتين والصوت المغوي، وحين كان يتعب، أو يشك، أو يخاف، كانت هي التي تريحه. أصبح بيرون يجذب المزيد من البشر أكثر من الأحزاب كلها مجتمعة. حين كانوا يدعونه «مهيجاً» كان يقبل اللقب كشرف. كان الأشخاص المهمون والمتنوّقون يترنمون باسم السفير برادين في زوايا شوارع بوينس آيرس، ملوحين بالقبعات والمناديل، ولكن في حي العمال، كان الذين لا يرتدون قميصاً يصيحون باسم بيرون. عثر العمال، المنفيون في أرضهم، الكئيبون بسبب الحجز الكثير، على صوت ومسقط رأس في هذا الوزير غير العادي الذي يقف دوماً إلى جانبهم.

تواصل صعود شعبية بيرون وهو ينفض الغبار عن القوانين الاشتراكية المنسية أو يبتكر قوانين جديدة. قانونه قانون يفرض احترام حقوق الذين يكسرون ظهورهم في المزارع والمستعمرات الزراعية. والقانون لا يبقى مجرد ورقة، هكذا يصبح عامل الريف الهندي، الذي لا يساوي شيئاً، عاملاً ريفياً تحمي حقوقه نقابة عمال.

1945: حقول توكيومان

المألوف

كان يغضب من تلك البدع التي تزعج أملاكه. يغضب من نقابات العمال ويخشاها أكثر مما يخشى مقبض السكين.

في مزارع قصب السكر في شمال الأرجنتين، المألوف مسؤول عن طاعة الفلاحين. إذا أجاب أحدهم أو تصرف بوقاحة، يلتهمه المألوف ببلعة واحدة. يتحرك بقعقعة السلاسل ونتانة الكبريت، ولكن لا أحد يعرف إن كان هو الشيطان شخصياً أو مسؤولاً. لم يره إلا ضحاياه، ولا يبدو أن أحداً يقدر على إضافة المواصفات. أشيع أن المألوف يتحول في الليل إلى ثعبان كبير وينفذ دورية في الأكواخ حيث ينام الفلاحون الأقنان، أو يقبع منتظراً على الطرقات في شكل كلب عيناه ملتهبتان، أسود، بأسنان ضخمة ومخالب.

يقظة ملاك صغير

في أقاليم الأرجنتين الشمالية، لا يبكون على موت الأطفال. إذا غاب فم عن الأرض ولد ملاك في السماء. الموت ثمل ويرقص منذ صياح الديك، ويمتص جرعات كبيرة من الشراب والشيكا chicha على إيقاع الطبلة العظمى والغيتار. وبينما يدور الراقصون ويضربون أقدامهم بالأرض، يمرر الطفل من ذراع إلى آخر. وبعد أن يهدهد الطفل ويحتفل به، بشكل جيد، يبدأ الجميع بالغناء ليجعلوه يبدأ طيرانه إلى الجنة. وإلى هناك يذهب المسافر الصغير، مرتدياً أفضل ثياب الأحد بينما ترتفع الأغنية، ويودعونه، مشعلين المفرقعات النارية، حريصين جداً على أن لا يحرقوا جناحيه.

1945: حقول توكيومان

يوبانكوي

كان يمتلك الوجه الحجري لهندي يحدق، بجمود، بالجبل الذي يحدق به، لكنه جاء من سهوب الجنوب، التي لا ترجع صدى والتي لا تخبئ أي شيء، إنه راعي البقر، مغني ألغاز الشمال الأرجنتيني. جاء على حصان، وكان يتوقف في أي مكان، مع أي شخص، على هوى الطريق. ولكي يتابع رحلته يغني عن أسفاره السابقة، إنه أتاوالبا يوبانكوي الذي يغني ليجعل التاريخ يمضي، هذا الذي يعزف بيده اليسرى على الغيتار، واليساري حين يفكر بالعالم، يعرف جيداً أن تاريخ الفقراء إذا لم يجد من يتغنّى به يُنسى.

1946: لاباث

دائرة النفوذ

هناك ثلاثة على القمة، وفي سفح الجبل ثمة ثلاثة ملايين. الجبل قصدير ويدعى بوليفيا.

يؤلف الثلاثة الذين على القمة دائرة النفوذ: سيمون باتينو في المركز، في جانب كارلوس أرامايو، وفي جانب آخر مورثيو هوتشتشايلد. منذ نصف قرن، كان باتينو معدّناً فقيراً، لكن حورية لمسته بعصاها السحرية وحولته إلى أحد أغنى الرجال في العالم. والآن يرتدي صدرة بسلسال ذهبي، ويجلس الملوك والرؤساء إلى مائدته. صعد أرامايو من الأرستقراطية المحلية، وخرج هوتشتشايلد من الطائرة التي أقلته إلى بوليفيا. كان كل منهم يملك نقوداً أكثر من الدولة.

كان كل ما يربحه القصدير يبقى خارج بوليفيا. ومن أجل تجنب الضرائب كان مقر باتينو في الولايات المتحدة، ومقر أرامايو في سويسرا، ومقر هوتشتشايلد في تشيلي. كان باتينو يدفع لبوليفيا خمسين دولاراً في العام كضريبة دخل، أرامايو اثنين وعشرين، والآخر لا شيء. من كل طفلين يولدان في مناجمهم يموت واحد.

كل عضو من دائرة النفوذ يمتلك تحت تصرفه صحيفة وعدداً من الوزراء والمشرعين. ومن التقليدي بالنسبة لوزير الخارجية أن يتلقى راتباً شهرياً من مناجم باتينو. ولكن الآن بما أن الرئيس خوالبيرتو بيلارويل يقترح أن تدفع مناجم أصحاب النفوذ الضرائب والرواتب التي ليست مجرد رمزية، ما الذي يجب أن يفعل سوى التخطيط لمؤامرة؟

1946: لا باث

بيلارويل

لم يدافع الرئيس بيلارويل عن نفسه وإنما سلم نفسه للقدر ـ وكأن المسألة كانت مسألة قدر.

هاجمه قتلة مستأجرون يتبعهم حشد يثير الغبار من النساء الورعات والطلاب. ملوحين بالمشاعل، والرايات السوداء، والمناديل الدموية، اقتحم المتمردون القصر الحكومي، رموا بيلارويل عن الشرفة، ثم علقوا ما تبقى منه عارياً على عمود مصباح.

بالإضافة إلى تحدي أصحاب النفوذ أراد بيلارويل أن يمنح حقوقاً متساوية للبيض والهنود، الزوجات والعاشقات، الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين.

ابتهج العالم بالجريمة. أثنى قادة الديموقراطية على إبادة طاغية يقبض من هتلر، والذي، بوقاحة لا يمكن الصفح عنها، أراد أن يرفع ثمن القصدير السيىء. وفي بوليفيا، البلاد التي لا تتوقف عن الكدح من أجل مصائبها، احتفل بشكل وحشي بسقوط ما هو قائم وإعادة ما كان قائماً: أيام سعيدة لعصبة الأخلاق، رابطة أمهات الكهنة، أرامل الحرب، السفارة الأميركية، جميع المظاهر اليمينية، تقريباً اليسار كله ـ يسار يسار القمر! ـ دائرة النفوذ

1946: هوليود

كارمن ميراندا

مغطاة بالنثار اللماع والعقود، متوجة ببرج من الموز، تتموج كارمن ميراندا إزاء ستارة خلفية استوائية من الكرتون.

كارمن المولودة في البرتغال، ابنة حلاق فقير وبخيل عَبَرَ المحيط، هي الصادر الرئيسي من البرازيل. بعد ذلك يأتي البن.

كانت تلك المرأة الفاجرة، الشديدة الصغر، تملك صوتاً ضعيفاً، وما لديها هو نشاز، لكنها تغني بيديها وعينيها المتوهجتين، وكان ذلك أكثر من كاف. كانت واحدة من أفضل المؤديات اللائي يدفع لهن في هوليود. كانت تمتلك عشرة منازل وثمانية آبار نفط.

لكن فوكس رفض أن يجدد عقدها. ذلك أن السيناتور جوزف مكارثي دعاها فاحشة، لأن مصوراً، في قمة أحد عروضها، كشف لمحات من اللحم العاري غير مسموح بها، ومن يعرف ماذا أيضاً تحت تنورتها الطائرة. وكشفت الصحافة أيضاً أن كارمن حين كانت طفلة قرأت سطوراً أمام ملك بلجيكا ألبيرت، ترافقت مع اهتزازات وغمزات فضحت الراهبات وسببت للملك أرقاً مستمراً.

1948: بوغوتا

في مساء

في بوغوتا الهادئة، منزل الكهنة والمحلفين، جلس الجنرال مارشال مع وزراء خارجية أميركا اللاتينية.

ما الهدايا التي أحضرها معه، ملك الغرب الحكيم هذا، الذي روى بالدولارات الأراضي الأوروبية التي دمرتها الحرب؟ الجنرال مارشال، الجامد، الميكروفونات مثبتة إلى صدره، يقاوم تدفق الخطابات. دون أن يحرك كثيراً حتى جفنه، تحمَّل الإصغاء طويلاً إلى الخدمات الديموقراطية التي قدمها كثيرون من الموفدين الأميركيين اللاتينيين المتلهفين لبيع أنفسهم بسعر ديك ميت، بينما كان جون مكلوي، رئيس البنك الدولي، يحذر: *«أنا آسف أيها السادة، لكنني لم أحضر معي دفتر شيكاتي في حقيبتي.»*

إلى ما وراء صالونات المؤتمر التاسع الشامل لأميركا، تدفق المزيد من الخطابات المنمقة عبر طول وعرض البلد المضيف. أعلن الليبراليون المتفقهون أنهم سيحضرون السلام إلى كولومبيا كما جعلت الإلاهة بالاس أثينا غصن الزيتون يزهر على تلال أثينا، ووعد المحافظون الواسعو الإطلاع أن يخرجوا قوى مجهولة إلى الضوء، ويضيئوا بالنار المظلمة، التي هي أحشاء الكوكب، الضوء الجبان النذري للشمعدانات التي تشعل في مساء الخيانة في الليلة الظلماء.

وبينما كان وزراء الخارجية يصخبون، ويعلنون، ويتكلمون بطريقة خطابية، كان الواقع يلح. في الريف الكولومبي كانت الحرب بين المحافظين والليبراليين تخاض بالبنادق. السياسيون يقدمون الكلمات، والفلاحون يقدمون الجثث. وكان العنف يتغلغل مسبقاً إلى بوغوتا، قارعاً على أبواب العاصمة ومهدداً أعمالها الروتينية التي شرفها الزمن ـ دائماً الخطايا نفسها، والاستعارات نفسها. في أثناء صراع الثيران، الأحد الماضي، تدفق الحشد اليائس إلى الساحة ومزق إرباً ثوراً بائساً رفض أن يقاتل.

1948: بوغوتا

غايتان Gaitan

قال خورخس إلييثير غايتان Gorge Eliecer Gaitan: *لا علاقة للبلاد السياسية بالبلاد القومية*. غايتان، رئيس الحزب الليبرالي، هو أيضاً خروفه الأسود. عبده الفقراء من جميع المذاهب. *ما الفرق بين الجوع الليبرالي والجوع المحافظ؟ ليست الملاريا ليبرالية أو محافظة* !

كان صوت غايتان يفك وثاق الفقراء الذين يصرخون عبر فمه. كان يرمي الخوف أرضاً. جاؤوا من كل مكان للإصغاء إليه ـ للإصغاء إلى أنفسهم ـ سار مرتدو الأسمال عبر الغابة، ونخسوا أحصنتهم على الطرقات. قالوا إن غايتان حين يتحدث ينجلي الضباب في بوغوتا، وإن القديس بطرس في السماء يصغي ويمنع سقوط المطر على الحشد الضخم الذي يجتمع في ضوء المشاعل.

لم يتردد القائد المبجل، ذو الوجه الغريب كوجه تمثال، في شجب الأوليغاركية والإمبريالي الذي يتكلم من بطنه ويجلس الأوليغاركيون عند قدميه دون حياة أو كلمات خاصة بهم. دعا إلى تطبيق الإصلاح الزراعي وأوضح حقائق أخرى ليضع حداً للكذبة المتواصلة.

إذا لم يقتلوا غايتان سيصبح رئيس كولومبيا التالي. لا يمكن شراؤه. لأي إغراء سيخضع، هذا الرجل الذي يحتقر المتعة، وينام وحيداً، ويأكل القليل، ولا يشرب شيئاً، والذي يرفض حتى المخدر حين ينزع أحد أضراسه؟

1948: بوغوتا

البوغوتاثو[1]

في الثانية بعد الظهر من التاسع من نيسان، كان لغايتان موعد مع أحد الطلاب الأميركيين اللاتينيين المجتمعين في بوغوتا على هامش احتفال الجنرال مارشال الشامل لأميركا.

---

[1] البوغوتاثو: هي ثورة قامت في مدينة بوغوتا وامتدت إلى بقية أنحاء كولومبيا بعد مقتل المرشح غايتان.

في الواحدة والنصف، غادر الطالب فندقه، مقرراً أن يسير إلى أن يصل إلى مكتب غايتان. ولكن بعد بضع خطوات أوقفته ضجة كالزلزال، وغمره مد بشريٌّ. اندفع البشر، المتدفقون من أحياء العمال ومن التلال، بجنون وهم يعبرونه، كإعصار من الألم والغضب طوفن المدينة، حطم واجهات المستودعات، قلب السيارات، وأضرم النيران في الأبنية.

لقد قتلوه! لقد قتلوه!

حصل ذلك في الشوارع، بثلاث طلقات، توقفت ساعة غايتان عند الواحدة وخمس دقائق ظهراً.

كان الطالب شاباً كوبياً بديناً يدعى فيدل كاسترو، قذف قبعته فوق رأسه وترك ريح البشر تعصف به.

1948: بوغوتا

ألسنة لهب

غزت معاطف الهنود وأحذية العمال مركز بوغوتا، الأيدي التي خشنتها أحجار الأرض، الأيدي الملطخة بزيت الآلات، أو ببويا الأحذية، إعصار من الحمالين، والطلاب، والخدم، والغاسلات، والبائعات، وجميع أنواع الصناع، مطاردو سيارة الإسعاف والباحثون عن الثروة. فصلت امرأة نفسها عن الإعصار، كانت ترتدي أربعة معاطف فرائية، وخرقاء كدب عاشق. ركض رجل كأرنب وحول عنقه عدة عقود من اللؤلؤ، ركض آخر كسلحفاة حاملاً براداً على ظهره.

كان في زوايا الشوارع أطفال يرتدون أسمالاً ويشرفون على حركة المرور. حطم السجناء قضبان زنزاناتهم، وقطع شخص خراطيم إطفاء النار بمنجل. تحولت بوغوتا إلى نار كبيرة، والسماء إلى قبة حمراء. قفز ضاربو الآلة الكاتبة عن شرفات الوزارات، ومن الأبراج المحترقة أمطر الرصاص. اختبأ رجال الشرطة أو توقفوا عن عملهم أمام العنف.

من القصر الرئاسي، شوهد نهر من البشر يقتربون. كانت الرشاشات قد ردت مسبقاً هجومين من هذا النوع، رغم أن الحشد نجح في قذف الجسد المنتزع الأحشاء لدمية الشخص الذي قتل غايتان على أبواب القصر.

السيدة الأولى، دونا بيرثا، وضعت مسدساً في حزام خصرها واتصلت بقس الاعتراف: «*أيها الأب كن جيداً وخذ ابني إلى السفارة الأميركية*».

في اتصال آخر رتب الرئيس ماريانو أوسبينا بيريث حماية بيت الجنرال مارشال وأملى أوامر ضد حشد المتمردين، ثم جلس منتظراً. ازداد الشغب في الشوارع.

قادت ثلاث دبابات الهجوم على القصر الرئاسي. كانت تغص بحشود تلوِّح بالرايات وتهتف باسم غايتان، وخلفها اندفع حشد يتلألأ بالمناجل، الفؤوس، والهراوات. حين وصلت الدبابات إلى القصر توقفت، استدارت أبراجها ببطء، سددت إلى الخلف، وبدأت تحصد البشر.

1948: بوغوتا

رماد

أحد ما يتجول بحثاً عن حذاء. امرأة تعول، وبين يديها طفل ميت. الدخان يعلو من المدينة. إذا لم تسر بحرص ستدوس على الجثث. تمثال لعرض الملابس مقطع يتدلى على كابلات الترام. من على درج أبرشية محترقة، مسيح عار، مسودٌّ، يحدق بالسماء ويداه ممدودتان. عند قدم ذلك السلم، يجلس شحاذ ويشرب. تاج كبير الأساقفة يغطي رأسه وستارة مخملية أرجوانية تغلف جسده. يدافع عن نفسه من البرد باحتساء كونياك فرنسية من كأس القربان الذهبية، ويقدم المشروبات للعابرين بقدح فضي.

لم يكن لدى الجنرال مارشال شكوك. كان تمرد البوغوتيين من تخطيط موسكو. قطعت حكومة كولومبيا علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي.

1948: وادي أوبار Upar

الباييناتو

«أريد أن أطلق صرخة لكنهم لا يسمحون لي...»

منعت حكومة كولومبيا «صرخة المتشرد». كل من يغني يجازف بالسجن أو برصاصة. وعلى الرغم من ذلك يتابعون الغناء على طول نهر مجدلينا.

كان سكان الساحل الكولومبي يدافعون عن أنفسهم بعزف الموسيقى. و«صرخة المتشرد» هي إيقاع الباييناتو Vallenato، إحدى أغاني رعاة البقر التي تروي قصة الإقليم، تملأ الجو بالمتعة.

وفقاً للصدر، يرقص الشعراء الجوالون ويبحرون، وفقاً للفخذ، يتلقون المشروبات الأولى في جميع الحفلات ويتحدون بعضهم إلى مبارزة بالرباعيات.

تندفع أشعار الباييناتو المولودة من الأكورديونات إلى الأمام والخلف كالسكاكين، كوابل من الطلقات النارية في المعارك الموسيقية الجسورة التي تستمر أياماً وليالي في الأسواق وحلقات صراع الديكة. منافس المغني الأكثر إثارة للخوف هو لوسيفر، ذلك الموسيقي العظيم، الذي يضجر في الجحيم ويأتي إلى أميركا بسرعة سقوط قبعة، متنكراً، ليبحث عن التسلية.

1948: روكلو قاموس الأطلس

بيكاسو

يجسد هذا الرسام أفضل الرسامين في جميع الأزمنة. يتعايشون فيه، حتى ولو بشكل غير مريح. وليس من السهل فهم بشر عنيدين كهؤلاء، قدماء ومعاصرين، يمضون وقتاً طويلاً في

الصراع مع بعضهم بعضاً بحيث أن الفنان لا يمتلك لحظة حرة لكي يصغي إلى الخطابات أو يلقيها.

لكن للمرة الأولى والوحيدة في حياته، ألقى بابلو بيكاسو كلمة. وحصل ذلك الحدث الذي لم يُسمَع به في مدينة روكلو Wroclow البولونية، في مؤتمر عالمي للمفكرين حول السلام. «*لدي صديق ينبغي أن يكون هنا*...»

أثنى بيكاسو *على أعظم شاعر في اللغة الإسبانية، وأحد أعظم الشعراء على الأرض، الذي وقف دائماً إلى جانب الفقراء: بابلو نيرودا الذي يضطهده البوليس في تشيلي، المرمي في زاوية ككلب*...

1948: في مكان ما في تشيلي

نيرودا

كان العنوان الرئيسي في صحيفة إل إمبراثيال El Impracial: بحث عن نيرودا في البلاد كلها، وتحته: المحققون الذين يحددون مكانه سيكافأون.

كان الشاعر ينتقل من مخبأ إلى آخر، مسافراً في الليل. نيرودا واحد من بين كثيرين عانوا من الاضطهاد كونه أحمر أو محترماً أو لأنه كائن فحسب، ولم يتذمر من ذلك المصير، الذي اختاره. ولم يندم من العزلة: استمتع بذلك الهيام المقاتل واحتفى به، رغم المشكلات التي سببها له، كما استمتع واحتفى بأجراس الكنائس، والخمرة، وحساء الأنقليس، والنيازك الطائرة ذات الأجنحة العريضة.

1948: سان خوسيه دي كوستا ريكا

أرقام

بعد ستة أسابيع من الحرب الأهلية، وألفي قتيل، وصلت الطبقة الوسطى الريفية إلى السلطة في كوستاريكا.

قال رئيس الحكومة الجديدة، خوسيه فيخيريس إن الحزب الشيوعي خارج على القانون. ووعد بدعم غير مشروط لصراع العالم الحر ضد الرأسمالية الروسية. ولكنه وعد، بصوت خفيض، أن يتابع توسيع الإصلاحات الاشتراكية التي أحدثها الاشتراكيون في السنوات الأخيرة.

بحماية الرئيس رافايل كالديرون، صديق الشيوعيين، انتشرت النقابات والتعاونيات في كوستا ريكا، وربح مالكو الأرض الصغار أراضي من الأملاك الكبيرة، تحسنت الصحة واتسع نطاق التربية.

لم يلمس فيخيريس المعادي للشيوعية أراضي شركة يونايتد فروت، السيدة الأكثر قوة، لكنه أمم البنوك وحل الجيش، بحيث لا تضارب النقود ولا يتآمر الجيش. كانت كوستا ريكا تريد مخرجاً من الاضطراب الوحشي في أميركا الوسطى.

1949: واشنطن

الثورة الصينية

بين الأمس وغداً ثمة هاوية. قفزت الثورة الصينية في الجو وعبرت الفجوة.

أثارت الأنباء القادمة من الصين الغضب والخوف في واشنطن. بعد مسير طويل من البؤس المسلح، انتصر حمرُ ماو. هرب الجنرال شيانغ كاي شيك ونصبته الولايات المتحدة على عرش جزيرة فورموزا.

منع الفقراء والكلاب من دخول الحدائق في الصين، وكان الفقراء لا يزالون يتجمدون حتى الموت في الصباح الباكر، كما في أيام موظفي الإمبراطورية الكبار، لأن الأوامر لم تكن تأتي من بكين، ولم يكن الصينيون هم الذين يعينون الوزراء والجنرالات، أو يكتبون قوانينهم ومرسوماتهم، ويحددون تعريفاتهم ورواتبهم.

بسبب خطأ جغرافي، لم تكن الصين في منطقة البحر الكاريبي.

1949: هافانا

المسرح الإذاعي

توسل الممثل للمؤلف: «*لا تقتلني*.»

فكر أونيليو خورخي كاردوسو أن يقضي على الكابتن هوك في الحكاية التالية، ولكن إذا ماتت الشخصية من طعنة سيف على متن سفينة القراصنة، فإن الممثل سيموت من الجوع في الشارع. المؤلف، الذي هو صديق جيد للمثل، يعده بحياة أبدية.

اخترع أونيليو مغامرات مثيرة، لكن مسرحياته الإذاعية لم تحظ إلا بنجاح قليل.

لا يسكبها كثيفة بما يكفي، لا يعرف كيف يعصر القلوب كالغسيل ـ حتى آخر قطرة. على العكس، يلمس خوسيه سانشيث آرسيلا، الأنسجة الأكثر حميمية. في مسلسله «قلادة الدموع»، تصارع الشخصيات ضد القدر الفاسد في تسعمائه وخمسة وستين حكاية تغسل الجمهور بالدموع.

لكن النجاح الأكبر للزمن كله كان «حق أن تولد»، لفيليكس بـ كانيت. لم يسمع بشيء مثله في كوبا أو في أي مكان آخر. في الساعة الليلية المحددة، وحده يحظى بالإصغاء، في قداس جماعي. تقاطع الأفلام، تفرغ الشوارع، يعلق العشاق مداعباتهم، تترك الديكة القتال، وحتى الذباب يحط في تلك الفترة.

طوال أربع وسبعين حلقة، كانت كوبا كلها تنتظر أن ينطق دون رافايل ديل جنكو. ذلك أن هذه الشخصية تملك السر، لكنه ليس مشلولاً بشكل كامل وحسب، إنما فقد صوته في الحلقة 197. ولقد وصلنا إلى الحلقة 271 ودون رافايل لا يستطيع إلا أن ينظف حنجرته. متى سينجح في كشف الحقيقة للمرأة الجيدة التي لم تذنب إلا مرة واحدة، وقد خضعت لنداء الهيام المجنون؟ متى سيمتلك الصوت ليقول لها إن ألبرتيكو ليمونتا، طبيبها، هو في الحقيقة ثمرة الحب غير الشرعي نفسه، الطفل الذي هجرته حالاً بعد ولادته بين يدي امرأة سوداء بروح بيضاء؟ متى، آه! متى؟

الجمهور، الميت من الإثارة، لا يعرف أن دون رفايل هو في إضراب صامت. وهذا الصمت القاسي سيستمر إلى أن يتلقى الممثل الذي يلعب دور دون رفايل ديل جنكو العلاوة التي كان يطلبها طول شهرين ونصف.

1950: ريو دي جانيرو

أوبدويو

رغم أن النرد ممسوك ضده، خطا أوبدويو بشدة وسدد. الكابتن الأوروغوايي، الرجل الأسود القائد والعضلي، لا يفقد شجاعته. وكلما زأر الحشد المعادي في المدّرج، ينمو أوبدويو.

دهشة وأسى في إستاد ماراكانا: البرازيل، الآلة العظيمة، المدمرة ومحققة الأهداف، المفضلة دائماً، خسرت تلك المباراة الأخيرة، في الدقيقة الأخيرة. الأوروغواي، التي تلعب من أجل حياتها، فازت ببطولة العالم لكرة القدم.

في تلك الليلة هرب أوبدويو من فندقه، وقد حاصره الصحفيون، والمراوح، والفضوليون. مفضلاً أن يحتفل وحده، ذهب بحثاً عن شراب في حانة ما رديئة، لكنه كان يلتقي في كل مكان ببرازيليين يبكون.

«*أوبدويو يربحنا المباراة*»، كانوا يصيحون في الإستاد منذ ساعة، في منتصف المباراة. الآن، مستحمين بالدموع، يصيح البشر نفسهم: «*كان هذا خطأ أوبدوليو*»

وأوبدويو، الذي كرههم حديثاً، مذهول من رؤيتهم فردياً. بدأ النصر يثقل عليه. حطم حفلة أولئك البشر الطيبين، وبدأ يتساءل إن كان ينبغي عليه أن يعتذر منهم عن خطيئة الفوز الهائلة. وهكذا تابع تجواله في شوارع ريو من بار إلى آخر. وإلى الفجر كان يشرب وهو يعانق المهزومين.

1950: هوليود

ريتا

غيرت اسمها، ووزنها، وعمرها، وصوتها، وشفتيها، وحاجبيها وغزت هوليود. حُوِّلُ شعرُها من الأسود الباهت إلى الأحمر المتوهج. ومن أجل تعريض حاجبيها أزالوا الشعر بجهاز كهربائي. وضعوا فوق عينيها أهداباً كالتويجات.

تنكرت ريتا هيوارث كإلاهة، وربما كانت إلاهة ـ بالنسبة للأربعينيات على أي حال. أما الخمسينيات فقد كانت تتطلب شيئاً جديداً.

1950: هوليود

مارلين

حُسِّنت مارلين مثل ريتا. كان لها أهداب كثيفة وذقن ملتو، أنف مستدير في قمته، وأسنان كبيرة. قللت هوليود من السمنة، قمعت الغضروف، وبردت الأسنان، وحولت الشعر الكستنائي إلى شلال صغير من الذهب المتوهج. بعد ذلك عمدها التقنيون باسم مارلين مونرو واخترعوا لها قصة طفولة مشجية لكي ترويها للصحفيين.

لم تعد فينوس الجديدة، المصنعة في هوليود، تحتاج إلى التسلق إلى أسرة غريبة بحثاً عن عقود لتؤدي أدواراً في أفلام من الدرجة الثانية. لم تعد تعيش على اللحم المعلب والقهوة، أو تعاني من البرد في الشتاء. أصبحت نجمة، أو بالأحرى، شخصية صغيرة ترتدي قناعاً وتحب أن تتذكر تلك اللحظة حيث كان كل ما تريده هو أن تُنقَذ من الوحدة، لكنها لا تستطيع.

1951: مكسيكو سيتي

بونويل

أُمْطِرَ بونويل بالأحجار. أصرت جميع نقابات الصحافة والإعلام على أن تطرد من المكسيك ذلك الناكر للجميل الذي يرد الجميل بعمل شائن. رصد فيلم (المنسيون)، الذي أثار الاستياء الوطني، أحياء مكسيكو سيتي الفقيرة. كان المراهقون، الذين يعيشون على الكفاف في ذلك العالم السفلي المريع، يأكلون كل ما يصادفونه بما فيه بعضهم بعضاً، وملعبهم هو أكوام النفايات. يقطعون بعضهم إلى أشلاء، قطعة قطعة، تلك الطيور الطفلة الآكلة للجيف، وهكذا ينجزون المصير الأسود الذي اختارته لهم مدينتهم.

رنين غامض، قوة غريبة، يتردد صداها في أفلام بونويل. قرع طبول طويل وعميق، ربما طبول طفولته في كالاندا، يجعل الأرض ترتجف، حتى لو لم يسجل المدرج الصوتي ضجة، وتظاهر العالم بالصمت والنسيان.

1952: هضبة سان فرناندو

مريضة حتى الموت

مرضت كولومبيا حتى الموت منذ أن قتل غايتان Gaitan في شارع بوغوتا. في الجبال والسهول، البراري المتجمدة والأودية التي يتصاعد منها البخار ـ في كل مكان ـ كان الفلاحون

يقتلُ بعضهم بعضاً، فقراء ضد فقراء، الجميع ضد الجميع. سمح إعصار من عمليات الثأر والانتقام لبلاك بيلد وكلـو وطـرزان، تيـف ليـك وروتـش، وفنـاني ذبـح آخريـن، أن يتفوقـوا في تجارتـهم المختارة، لكن قوى النظام ارتكبت جرائم وحشية أخرى كثيرة. قتلـت كتيبـة توليمـا 1500، هـذا دون أن نحصي الإغتصابات والانتهاكات، حين سحقت المنطقة الممتدة بين بانتاميو وهضبـة سـان فرناندو. ولكي لا يتركوا بذرة يمكن أن ينمو منـها المسـتقبل، كـان الجنـود يقذفـون الأطفـال إلـى الأعلى ويطعنوهم بالحراب أو المناجل.

«*لا تسمعونا قصصاً، أديروا لنا آذاناً*»، قال الذين يصدرون الأوامر.

بحث الفلاحون الذين نجحوا في الـهرب عـن الحمايـة عميقـاً في الجبـال، تـاركين أكواخـهم المدخنة وراءهم. قبل أن يغادروا، وفي حفل حزين، قتلوا كلباً لأنه كان يصدر ضجة.

1952: لا باث

إل إيبماني El Illimani

على الرغم من أنك لا تستطيع أن تراه، فهو يراقبك. اختبئ أينما شئت، سيعرف مكـانك. لا ينجو منه مخبأ. تنتمي عاصمة بوليفيا إليه، رغم أنهم لا يعرفون ذلك، أولئك السادة الذين ظنوا، إلى البارحة، أنهم أسياد هذه المنازل وهذا الشعب. إل إيبماني، الملـك المتعجـرف، يغسـل نفسـه بالضباب. عند قدميه تبدأ المدينة نهارها. تنطفئ نيران المعسكرات، تسمع آخر زخات الرشاشات. قبعات المعدّنين الصفراء تغمر القبعات العسكرية. انهار الجيش الذي لم ينتصر مطلقاً على مـن هـم في الخارج ولم يخسر بتاتاً ضد من هم في الداخل. رقص البشـر في جميـع زوايـا الشـوارع. رفرفـت المناديل، والجدائل، وتموجت التنورات ذات الطبقات العديدة على إيقاع الكويكا Cueca.

وفي زرقة السماء المطلقة توهج تاج إل إيبماني المؤلف من ثلاث قمم: مـن القمـم المكللـة بـالثلج تتأمل الآلهـة أبناءها المسلحين، في نهاية هذا الصراع المتواصل، قدماً بعد قدم، عبر الشوارع الخلفية.

1952: لا باث

طبل الشعب

كان طبل الشعب الذي يتواصل قرعه، يجسد انتقام الهنود الذين ينـامون في السـاحة ككـلاب ويحيون السيد بركبة محنية: قاتل جيش الخاسرين بقنابل مصنوعة محلياً وبأصابع الدينـاميت، إلى أن سقطت في أيديهم، أخيراً، الترسانة العسكرية.

وعد فكتور باث إستنسورو أن بوليفيا، منذ هذا اليوم، ستكون للبوليفيين. رفع الهنود في المناجم العلم الوطني إلى منتصف السارية حيث سيبقى إلى أن ينجز الرئيس الجديد وعده في تأميم القصدير. اعتقدوا في لندن أن الأمر سيحصل: وكأن الأمر بفعل السحر، انخفض سعر القصدير ثلثين.

في عزبة بيروماني، كان الهنود يشوون ثيران الغنيمة التي استوردها باتينو من هولندا. ساحات تنس أرامايو، المغطاة بغبار آجر من إنكلترا، حولت إلى زرائب للحمير.

امرأة من المناجم البوليفية
تقدم وصفة القنبلة المصنعة محليا

ابحث عن علبة حليب صغيرة. ضع الديناميت في وسطها تماما، ثم كبسولة. ثم ضع قطعا من الحديد، والخبث وقليلا من التراب، وغطيها جيدا. هكذا، أترى؟ أشعلها هنا تماما ثم اقذفها. إذا كان لديك مقلاع تستطيع أن تبعدها أكثر. زوجي يستطيع أن يقذفها مسافة ستة فراسخ، ولكي تبعدها ضع فتيلا أطول.

1952: كوشابامبا

صرخات السخرية والشكوى

كانت الأزمنة تتغير في كل الريف البوليفي: حدث تمرد كبير ضد الملكيات الكبيرة وضد الخوف. وفي وادي كوشابامبا، كانت النساء اللواتي يعبرن عن التحدي يرقصن ويغنين.

في طقوس تقديم التبجيل للمسيح، يشعل فلاحو الكيتشوا Quechua من الوادي كله الشموع، يشربون التشيتشا Chicha ، يغنون الأشعار، يثبون فرحا على ألحان الأكورديونات وCharangos، حول المصلوب.

تتوسل الفتيات الشابات إلى المسيح من أجل زوج لا يسبب لهن البكاء، ومن أجل حمار محمل بالذرة، وخروف أسود وخروف أبيض، وآلة خياطة، أو خواتم بعدد أصابع أزواجهن. فيما بعد يغنين بنغمة عالية، ودائما بلغة هندية، معبرات عن احتجاجهن. يعدن المسيح، والأب، والصديق بالحب والخدمة، على المائدة أو في السرير، لكنهن لا يردن أن يصبحن وحوش عبء محطمات بعد الآن.

يطلقن طلقات سخرية وهن يغنين لعين الفحل العاري التي تشبه عين الثور، الذي أنهكته الأعوام والحشرات، وينام أو يتظاهر بالنوم على الصليب.

أشعار شائنة تغنيها النساء
المنديات في كوشابامبا ليسوع المسيح

أيها الأب الصغير
دائما تقول لي انضمي إلى القطيع يا ابنتي
لكن كيف تكون أبا لي

وليس لك عضو؟

توبخني قائلاً: كسولة، كسولة
أيها الأب الصغير، أيها الصليب المقدس
انظر إلى نفسك: ألست عاجزاً وكسولاً
وأنت تقف هناك دون حراك.

ثعلب صغير بذيل وخصلات
عينان كرويتان تتجسسان على النساء،
عجوز صغير بوجه هادئ
وأنفك مليء بالثقوب.

لن تصبر عليَّ دون زواج،
تحكم عليَّ أن أحمل أطفالاً،
أكسوهم وأغذيهم بينما هم أحياء
وأدفنهم بشكل لائق حين يموتون.

هل سترسل إليَّ رفيقاً
يضربني ويرفسني؟
لماذا كل وردة متفتحة
يجب أن تعاني مصير الذبول نفسه؟

1952: بوينس آيرس

الشعب الأرجنتيني يشعر بأنه عار بدونها

يحيا السرطان! كتبت يد ما على حائط في بوينس آيرس. كرهوها، يكرهونها، المغذون جيداً ـ لأنها فقيرة، وامرأة، ومتجرئة. تحدتهم أثناء الحديث، وأساءت إليهم في الحياة. ولدت لتكون خادمة، أو ممثلة في الميلودرامات الرخيصة، رفضت إيفيتا أن تحفظ دورها.

أحبوها، يحبونها، غير المحبوبين ـ من خلال فمها عبروا عن عقولهم ولعناتهم. كانت إيفيتا الحورية الشقراء التي عانقت المجذومين ومرتدي الأسمال وأراحت اليائسين. كانت نبعاً، لا قاع له، يتدفق وظائف ومخدات، أحذية وآلات خياطة، فكوكاً وجهاز أعراس. كان الفقراء يتلقون تلك الصدقات على باب جانبي، بينما ترتدي إيفيتا مجوهرات مذهلة ومعاطف من فرو المنك في

منتصف الصيف. هذا لا يعني أنهم حسدوها على الترف: وإنما احتفلوا به. لم يشعروا بأنهم أذلوا وإنما بالانتقام من خلال زيها الملكي.

أمام جسد إيفيتا، المحاط بالقرنفل الأبيض، يصطف البشر ويبكون. يوماً بعد يوم، ليلاً بعد ليل، صف المشاعل: موكب استمر أسبوعين.

أصدر أصحاب البنوك، ورجال الأعمال، ومالكو الأراضي تنهيدة ارتياح. بموت إيفيتا أصبح الرئيس بيرون سكيناً دون شفرة.

1952: في أعالي البحار

مطلوب: شارلي المتسكع

أبحر شارلي شابلن إلى لندن. في اليوم التالي من رحلته؛ وصلت الأنباء إلى السفينة أنه لا يقدر أن يعود إلى الولايات المتحدة. طبق النائب العام على حالته قانوناً يستهدف الأجانب المشكوك بأنهم شيوعيون أو فاسدون أو مجانين.

قبل ذلك بسنوات حقّقَ مع شابلن مسؤولون من الإف بي آي وقسم الهجرة والتهيئة:

هل أنت من أصل يهودي؟

هل أنت شيوعي؟

هل سبق ومارست الزنى؟

وافق السيناتور ريتشارد نيكسون وكاتبة عمود الثرثرة هيدا هوبر: *يشكل شابلن تهديداً لمؤسساتنا*. الصالات الخارجية التي تعرض أفلامه، رابطة آداب السلوك، والرابطة الأميركية، سيجت باللافتات التي تقول: *اذهب إلى روسيا يا شابلن*.

بحثت الإف بي آي، لمدة ثلاثين عاماً، عن دليل يؤكد أن شارلي شابلن يهودي اسمه اسرائيل ثونشتاين ويعمل كجاسوس لموسكو. وأثيرت شبهاتهم في 1923 حين نشرت *البرافدا* هذا التعليق: *إن شابلن ممثل يمتلك موهبة لا يشك بها*.

1952: لندن

الشبح الذي يثير الإعجاب

عاد شبح يثير الإعجاب يدعى كيتون إلى الشاشة بفضل شارلي شابلن. افتتح فيلم لايم لايت في لندن، وفيه توحد كيتون، للحظات قليلة وثمينة، مع شابلن في فصل مزدوج سخيف سرق العرض.

هذه هي المرة الأولى التي عمل فيها كيتون وشابلن سويةً. ظهرا شائبي الشعر ومليئين بالتجاعيد، بنفس البهجة كما في تلك اللحظات منذ زمن بعيد، حين جعلا الصمت أطرف من الكلام.

لا يزال شابلن وكيتون هما الأفضل. يعرفان أنه ليس هناك شيءٌ أكثر جدية من الضحك، الفن الذي يتطلب عملاً لا ينتهي، وأنه طالما أن العالم يدور، فإن جعل الآخرين يضحكون هو النشاط الأكثر روعة.

1953: واشنطن

الجريدة السينمائية

فجرت الولايات المتحدة القنبلة الهيدروجينية الأولى في إينيويتوك. عيّن الرئيس أيزنهاور تشارلز ويلسون وزيراً للدفاع. ويلسون، المدير في جنرال موتورز، صرح مؤخراً: *ما هو جيد لجنرال موتورز جيد لأميركا.*

بعد محاكمة طويلة، أعدم إيثيل Ethel وروزنبرغ على الكرسي الكهربائي بعد أن اتهما بالتجسس لصالح روسيا وأنكرا التهمة إلى النهاية.

حضت مدينة موسكو الأميركية موسكو السوفييتية على تغيير اسمها. ادعت سلطات هذه المدينة الصغيرة في إداهو الحق الحصري بأن يلقبوا بالموسكوفيين، وطالبوا بأن يُغَيَّرَ اسم العاصمة الروسية من أجل *تجنب أية تداعيات مزعجة.*

دعم نصف سكان الولايات المتحدة، بشكل حاسم، حملة السيناتور مكارثي ضد التسلل الشيوعي إلى الديموقراطية، وفقاً لاستطلاعات الرأي.

أحد المشتبه بهم، والذي خطط مكارثي للتحقيق معه، هو المهندس ريموند كابلان، رمى نفسه أمام شاحنة وانتحر.

ناشد العالم ألبرت آينشتاين المفكرين أن يرفضوا الإدلاء بشهاداتهم أمام لجنة النشاطات غير الأميركية وأن يستعدوا للسجن أو للدمار الاقتصادي. آمن آينشتاين *أن المفكرين إذا فشلوا في ذلك فإنهم لا يستحقون سوى العبودية التي تخطط لهم.*

1953: واشنطن

صيد الساحرات

ألبرت آينشتاين الفاسد، وفقاً لقائمة السيناتور مكارثي، رفيق *طريق أميركا* في المقام الأول. لكي تدخل القائمة كل ما عليك أن تفعله هو أن يكون لك أصدقاء سود، أو أن تعارض إرسال القوات الأميركية إلى كوريا، لكن حالة آينشتاين هي أكثر ثقلاً. امتلك مكارثي دليلاً بأن ذلك اليهودي يمتلك قلباً يميل إلى اليسار ويضخ دماً أحمر.

غرفة الإصغاء، حيث تشتعل نيران محكمة التفتيش، أصبحت سيرك شهرة. ليس آينشتاين الاسم الوحيد الذي تردد صداه هناك. ذلك أن لجنة النشاطات غير الأميركية وضعت عينها على

هوليود. طلبت اللجنة أسماء، وأسماء هوليود تسبب فضيحة. أولئك الذين رفضوا الكلام فقدوا وظائفهم وتحطمت مهنهم، أو سجنوا مثل داشييل هاميت، أو فقدوا جوازات سفرهم مثل ليليان هيلمان وبول روبيسون، أو طردوا من البلاد مثل سيدريك بيلفريج. كان رونالد ريغان، الشخصية البارزة الثانوية، يشم الحمر والقرنفليين الذين لا يستحقون أن ينقذوا من غضب هرمجدّون[1] Armageddon. رجل آخر بارز، يدعى روبرت تيلور، تاب علنياً لأنه مثل في فيلم ابتسم فيه الروس. واعتذر الكاتب المسرحي كليفورد أوديتز عن أفكاره وخان رفاقه القدماء. الممثل خوسيه فيرير والمخرج إليا كازان أشارا بأصابعهما إلى زملائهما. ولكي يفصل نفسه عن الشيوعيين بشكل كامل، صنع كازان فيلماً عن القائد المكسيكي إمليانو زاباتا لم يكن فيه زاباتا الفلاح الصامت الذي طبق الإصلاح الزراعي، وإنما مشعوذٌ يطلق الرصاص والخطابات في إسهال لا يتوقف.

1953: واشنطن

صورة صياد ساحرات

مادته الخام هي الخوف الجماعي. يطوي كميه ويذهب إلى العمل. الجابل الماهر لهذا الصلصال، جوزف مكارثي يحول الخوف إلى ذعر والذعر إلى هستريا.

بإلحاح حضهم على الخيانة. أقسم أنه لن يطبق فمه طالما أن بلاده مصابة بالطاعون الماركسي. بالنسبة إليه كل الغموض يحتوي على مسحة جبن. أولاً يتهم ثم يحقق. يبيع الحقائق للمترددين، ثم يضرب بعنف، بركبة على الخصيتين أو سكين على البطن، أي شخص يشكك بحقوق الملكية الخاصة أو يعارض الحرب ومشاريع الأعمال كالعادة.

1953: سياتل

روبيسون

منعوه من السفر إلى كندا، أو إلى أي مكان آخر. حين دعاه بعض الكنديين غنى لهم بول روبيسون على الهاتف من سياتل، ومن خلال الهاتف أقسم أنه سيصمد طالما هناك نَفَس في جسمه.

روبيسون، حفيد العبيد، يعتقد أن أفريقيا هي مصدر الكبرياء وليست حديقة حيوانات يديرها طرزان. أسود بأفكار حمراء، وصديق الصفر الذين يقاومون الغزو الأبيض في كوريا، كان يغني باسم شعبه المهان وباسم جميع الشعوب المهانة التي يجعلها الغناء ترفع رأسها. كان يغني بصوت مليء بسماء مرعدة وأرض مزلزلة.

---

[1] الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة بين قوى الخير أو قوى الشر، معركة فاصلة كبرى ــ المورد.

1953: سانتياغو دي كوبا

فيديل

في فجر 26 تموز هاجمت حفنة من الشبان ثكنة مونكادا. كانوا مسلحين بالكرامة والثقة الكوبية بالنفس، وببضع بنادق صيد، وهاجموا دكتاتورية فولخنثيو باتيستا Fulgencio Batista ونصف قرن من الاستعمار المتنكر كجمهورية.

مات البعض في المعركة، ولكن الجيش قتل أكثر من سبعين بعد أسبوع من التعذيب. قلع الجلادون عيني آبيل سانتاماريا بين آخرين.

الزعيم المتمرد، الذي أسر، قدم التماسه الدفاعي. كان فيديل كاسترو يمتلك صورة الرجل الذي يمنح نفسه دون مقابل. أصغى القضاة إليه مندهشين، دون أن يفوّتوا كلمة. وكلماته، على أي حال، ليست للذين تقبلهم الآلهة، إنه يتحدث من أجل الذين بالت عليهم الشياطين، ولهم، وباسمهم، شرح ما قام به.

أعلن فيديل كاسترو حق التمرد القديم ضد الطغيان: «*ستغوص هذه الجزيرة في المحيط قبل أن نقبل بأن نكون عبيد أي شخص...*»

رفع رأسه كشجرة، واتهم باتيستا وضباطه بتبديل بذلاتهم بعباءات سفاحين، ووضع برنامجاً للثورة. يمكن أن يكون هناك في كوبا طعام وعمل للجميع، والكثير الذي يمكن توفيره.

«*كلا، ليس هذا غير قابل للتخيل.*»

1953: سانتياغو دي كوبا

المتهم يكسب المدعي العام
ويعلن: «التاريخ سيغفر لي»

ما لا يمكن تصوره هو أنه ينبغي أن يكون هناك بشر يذهبون إلى النوم جائعين بينما يبقى إنش من الأرض دون زراعة، ما لا يمكن تصوره أنه ينبغي أن يكون هناك أطفال يموتون دون عناية طبية، أن ثلاثين بالمائة من فلاحينا لا يعرفون أن يكتبوا أسماءهم، وتسعة وتسعين بالمائة لا يعرفون تاريخ كوبا، أن معظم الأسر في ريفنا تعيش في ظروف أسوأ من تلك التي وجد كولمبوس الهنود يعيشون فيها حين اكتشف أجمل بلاد سبق أن رأتها عينا إنسان...

من بؤس كهذا لا يمكن أن يحرر المرء نفسه إلا بالموت، وفي هذا لا تساعدهم الدولة. تسعون بالمائة من الأطفال الريفيين تلتهمهم ديدان تدخل من التراب عبر أظافر أرجلهم الحافية.

أكثر من نصف أفضل الأراضي الزراعية هي في أيد أجنبية. في أورينتي Oriente، الإقليم الأكبر، تمتد أراضي شركة يونايتد فروت وشركة ويست إنديان من الساحل الشمالي إلى الساحل الجنوبي...

لا تزال كوبا مصنعاً ينتج مواد أولية. السكر يُصدّر من أجل استيراد السكريات، ويُصَدَّر الجلد من أجل استيراد الأحذية، ويُصدَّر الحديد من أجل استيراد المحاريث...

1953: بوسطن

يونايتد فروت

عرش الموز، تاج الموز، موز ممسوك كصولجان: سام زيموري، سيد أراضي وبحار مملكة الموز، لا يعتقد أنه من الممكن أن تسبب له أراضيه الغواتيمالية المُقتطَعَة صداعاً. «*الهنود جاهلون جداً بالماركسية*»، اعتاد أن يقول وكانت تصفق له حاشيته في قصره الملكي في بوسطن، ماساتشوسيتس.

وبفضل المرسومات المتعاقبة لمانويل إسترادا كابريرا، الذي كان يحكم محاطاً بالمتملقين الذليلين والجواسيس، وببحار من اللعاب، وغابات من المألوفين، وبخورخي أوبيكو، الذي كان يعتقد أنه نابليون لكنه لم يكن، بقيت غواتيمالا جزءاً من أملاك يونايتد فروت الشاسعة لنصف قرن. استطاعت يونايتد فروت في غواتيمالا أن تسيطر على ما تشاء من الأراضي ـ قطع أرض ضخمة غير مستخدمة ـ وامتلكت سكة الحديد، الهاتف، التلغراف، الموانئ، السفن، هذا إذا لم نذكر الجنود، والسياسيين، والصحفيين.

بدأت مشكلات سام زيموري حين أجبر الرئيس خوان خوسيه أريبالو الشركة على أن تحترم الاتحاد وحقه بالإضراب. ومن سيىء إلى أسوأ: أدخل رئيس جديد، هو جاكوبو أربينث، الإصلاح الزراعي وسيطر على أراضي يونايتد فروت، غير المحروثة، ووزعها على مائة ألف أسرة، وتصرف كأن غواتيمالا يحكمها الذين لا يملكون أرضاً، غير المتعلمين، الجائعون، *الأقل*.

1953: غواتيمالا سيتي

أربينث

زأر الرئيس ترومان حين بدأ العمال في مزارع الموز في غواتيمالا يتصرفون كبشر. وبصق الرئيس الجديد ناراً بسبب تجريد يونايتد فروت من أملاكها.

اعتبرت الولايات المتحدة أن سيطرة حكومة غواتيمالا على دفاتر أرصدة يونايتد فروت إساءة. اقترح أربينث أن يدفع، كتعويض، القيمة نفسها التي وضعتها الشركة على أراضيها لتحتال على قوانين الضرائب. لكن وزير الخارجية جون فوستر دالاس طلب أكثر من ذلك بخمسة وعشرين مرة.

أخذ جاكوب أربينث، المتهم بالتآمر مع الشيوعيين، إلهامه من أبراهام لنكولن وليس من لينين. إصلاحه الزراعي، محاولته لتحديث الرأسمالية الغواتيمالية، أقل جذرية من القوانين الريفية الأميركية الشمالية التي وضعت منذ نصف قرن تقريباً.

1953: سان سلفادور

ديكتاتور مطلوب للعدالة

عاش الجنرال الغواتيمالي ميغيل يديغوراس فوينتيس، القاتل البارز للهنود، في المنفى منذ سقوط الديكتاتور أوبيكو. جاء والتر تيرنبل إلى سان سلفادور ليعرض عليه صفقة. تيرنبل، ممثل كل من يونايتد فروت والسي آي إيه، اقترح أن يتولى يديغوراس مسؤولية غواتيمالا. وهناك نقود متوفرة لمشروع كهذا، إذا وعد بأن يدمر النقابات، ويعيد أراضي يونايتد فروت وامتيازاتها، ويدفع هذا الدين، إلى آخر سنت، في فترة معقولة. طلب يديغوراس وقتاً ليفكر بالموضوع فيما أوضح أن الشروط استغلالية.

بمثل لمح البصر انتشر خبر بأن هناك منصباً فارغاً. طار الغواتيماليون المنفيون، العسكريون والمدنيون، إلى واشنطن ليقدموا خدماتهم. قرع آخرون أبواب السفارات الأميركية. عرض خوسيه لويس أريناس، «صديق» نائب الرئيس نيكسون، أن يطيح بالرئيس أربينث مقابل مائتي ألف دولار. قال الجنرال فيديريكو بونس أن لديه جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف رجل جاهزين للهجوم على القصر الرئاسي. أجره سيكون معقولاً، رغم أنه يفضل ألا يتحدث الآن عن الأرقام. فقط تقدم صغير...

قضى سرطان الحنجرة على خيار شركة يونايتد فروت: خوان كوردوبا ثيرنا. على فراش موته، على أي حال، لفظ الدكتور كوردوبا، بصوت خشن، اسم مرشحه: العقيد كارلوس كاستيو أرماس، المدرب في حصن ليفينوورث بكانساس، وهو حمار رخيص ومطيع.

1954: واشنطن

الآلة المقررة قطعة قطعة

دوايت أيزنهاور: رئيس الولايات المتحدة. أطاح بحكومة محمد مصدق في إيران لأنها أممت النفط. وقد أصدر الآن الأوامر للإطاحة بحكومة جاكوبو أربينث في غواتيمالا.

سام زيموري: مالك الأسهم الرئيسي في يونايتد فروت. جميع اهتماماته تتحول آليا إلى تصريحات لحكومة الولايات المتحدة، وفي النهاية إلى بنادق، مدفعية هاون، ورشاشات، وطائرات سي آي إيه.

جون فوستر دالاس: وزير الخارجية الأميركي. محام سابق ليونايتد فروت.

آلان دالاس: مدير وكالة الاستخبارات المركزية، شقيق جون فوستر دالاس. ومثلـه قـام بعمـل قانوني ليونايتد فروت. ومعاً نظّما «العملية غواتيمالا» ـ *أوبريشن غواتيمالا* .

جون مورز كابوت: وزير الخارجية للشؤون الأميركية الداخلية، شقيق تومـاث كـابوت مديـر يونايتد فروت.

والتر بديل سميث: وكيل وزارة الخارجية، خدم كضابط ارتباط في العملية غواتيمـالا. العضـو المستقبلي لمجلس إدارة يونايتد فروت.

هنري كابوت لودج: عضو مجلس الشيوخ، ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. مساهم في يونايتد فروت. تلقى في مناسبات عديدة نقوداً مـن تلـك الشـركة مـن أجـل خطابـات في مجلـس الشيوخ.

آن ويتمان: سكرتيرة شخصية للرئيس أيزنهاور، متزوجة من مدير العلاقات العامة في يونـايتد فروت.

سبرويل برادين Spruille Braden: سفير أميركي سابق في عدة بلدان أميركيـة لاتينيـة. تلقـى مرتباً من يونايتد فروت منذ 1948. قيل عنـه كثـيراً في الصحافـة أنـه حـضَّ أيزنـهاور علـى *قمـع الشيوعية بقوة في غواتيمالا* .

روبرت هل: سفير أميركا إلى كوستاريكا، تعاون في «العملية غواتيمالا». العضـو المسـتقبلي في مجلس إدارة يونايتد فروت.

جون بيوريفوي: سفير أميركا إلى غواتيمالا، مشهور بلقب «سـفاح اليونـان» بسـبب خدمتـه الدبلوماسية السابقة في أثينا. لا يتحدث الإسبانية. الخلفية السياسية: مجلـس الشـيوخ، واشـنطن دي سي، حيث عمل مرة كعامل مصعد.

1954: بوسطن

آلة الكذب قطعةً، قطعةً

المحرِّك: الجلاد يصبح الضحية، والضحية تصبح الجلاد. أولئك الذين حضّروا لغزو غواتيمالا من هندوراس عزوا إلى غواتيمالا نية غزو هندوراس وكل أميركا الوسطى. قال جون مـورز كـابوت من البيت الأبيض: *من السهل رؤية مجسّات الكرملين*. حـذّر السـفير بيوريفـوي في غواتيمـالا: *لا نستطيع السماح بجمهورية سوفييتية بين تكساس وقناة بنما*. وكمنت خلف هذه الفضيحة شـحنة سلاح نقلت من تشيكوسلوفاكيا. منعت الولايات المتحدة بيع الأسلحة لغواتيمالا.

المسنّن الأول: قصفت الجمهور أنباء ومقالات، وتصريحات، ونشرات، وصور، وأفلام، وقصص، وعروض كوميدية عن الأعمال الشيوعية الوحشية في غواتيمالا. وجاءت تلك المادة التربويـة، التـي لم يُكشف أصلها، من مكاتب يونايتد فروت في بوسطن ومن المكاتب الحكومية في واشنطن.

المسنن الثاني: حض كبير أساقفة غواتيمالا، ماريانو موسيل أريانو، السكان لينتفضوا ضد الشيوعية، عدوة الله والوطن. أمطرت ثلاثون طائرة، أرسلتها السي آي إيه، رسالته الرعوية فوق البلاد كلها. لكبير الأساقفة صورة مسيح إسكيبولاس Esquipulas الشعبي، والذي سيعيّن قائداً للفرقة المحررة، التي جاءت إلى العاصمة.

المسنن الثالث: في المؤتمر الشامل لأميركا، ضرب جون فوستر دالاس الطاولة بقبضته وتلقى بركة منظمة الولايات الأميركية من أجل الغزو المعد. في الأمم المتحدة، حاصر هنري كابوت لودج مطالب جاكوبو أربينث للنجدة. الدبلوماسية الأميركية معبأة في جميع أنحاء العالم. تم الحصول على مشاركة إنكلترا وفرنسا مقابل التزام أميركي بالصمت إزاء القضايا الحساسة لقناة السويس، وقبرص، والهند الصينية.

المسنّن الرابع: لم يقدم طغاة نيكاراغوا، هندوراس، فنزويلا وجمهورية الدومينيكان معسكرات تدريب، محطات للبث الإذاعي، ومطارات لعملية غواتيمالا فحسب، وإنما أيضاً أسهموا في الحملة الدعائية. جمع سوموزا الأول وكالات الأنباء العالمية وعرض بعض المسدسات التي ختم عليها منجل ومطرقة. قال: إنها من غواصة روسية تم اعتراضها في الطريق إلى غواتيمالا.

1954: غواتيمالا سيتي

إعادة غزو غواتيمالا

لم تكن غواتيمالا تملك طائرات أو قوة دفاعية جوية، وهكذا قصف الطيارون الأميركيون البلاد بسهولة كبيرة.

نشر جهاز بث عملاق تابع لوكالة الاستخبارات المركزية، مركب على سطح السفارة الأميركية، الفوضى والذعر: أبلغت آلة الكذب العالم أن هذه هي إذاعة المتمردين، صوت التحرير، التي تذيع المسير المنتصر للعقيد كاستيو أرماس المعسكر في مزرعة تابعة ليونايتد فروت في هندوراس، والذي ينتظر الأوامر من آلة القرار.

حضرت حكومة أربينث المشلولة طقس انهيارها. وصل القصف الجوي إلى العاصمة وقصفت محطات الوقود. انحصر عمل الحكومة في دفن الموتى. عبر جيش المرتزقة، «جيش الله والوطن والحرية»، الحدود. لم يلق مقاومة. كان المال والخوف هما اللذان شرحا كيف استطاع زعماء غواتيمالا العسكريون أن يسلموا جنودهم دون إطلاق. حاول طبيب أرجنتيني في العشرينات من عمره، يدعى إرنستو غيفارا، أن ينظم، دون جدوى، الدفاع الشعبي عن العاصمة: لم يعرف كيف أو بماذا. تجولت ميليشيات مرتجلة في الشوارع دون سلاح. حين أمر أربينث في النهاية بفتح الترسانات، رفض ضباط الجيش أن يطيعوا الأمر. في أحد تلك الأيام المظلمة والحقيرة، تعرض

غيفارا لنوبة ربو واستياء، في يوم آخر، في منتصف الليل، وبعد أسبوعين من القصف، هبط الرئيس أربينث ببطء على درج القصر الوطني، عبر الشارع، والتجأ إلى السفارة المكسيكية.

1954: ماثاتينانغو

ميغيل في التاسعة والأربعين

حالما بدأت الطيور تغرِّد، قبل ضوء الفجر الأول، شحذوا حرابهم، وبدأوا يقتربون من ماثاتينانغو بعدو خفيف، بحثاً عن ميغيل. كان الجلادون يضعون إشارة إكس على القائمة الطويلة للذين ستتم تصفيتهم، بينما كان جيش كاستيو أرماس يستولي على غواتيمالا. كان ميغيل رقم 5 على القائمة المطلوبة أكثر من غيرها، حكم عليه كونه أحمر ومثيراً للمتاعب أجنبياً. ومنذ وصوله هارباً من السلفادور، لم يتوقف لحظة واحدة عن إثارة العمال.

حرضوا الكلاب عليه. كانوا يهدفون إلى عرض جسمه متدلياً عن حصان على الطرقات، وحنجرته مذبوحة بمنجل. لكن ميغيل، الخبير جداً والحيوان العارف، ضاع في الغابة.

وهكذا حصلت الولادة العاشرة لميغيل مارمول في التاسعة والأربعين من عمره.

1954: غواتيمالا سيتي

الجريدة الإخبارية

صرّحَ كبير أساقفة غواتيمالا: «*أعجب بالوطنية المخلصة والحماسية للرئيس كاستيو أرماس*.»

وسط عرض مرعب للبربرة، تلقى كاستيو أرماس بركة السفير البابوي السيد جينارو بيرولينو.

هنأ الرئيس أيزنهاور زعماء وكالة الاستخبارات المركزية في البيت الأبيض: «*شكراً لكم جميعاً. لقد منعتم رأس جسر ساحلي سوفييتي في نصف كرتنا*».

كلّف مدير وكالة الاستخبارات المركزية، آلان دالاس، صحفياً من التايم بوضع دستور غواتيمالا الجديد.

نشرت التايم قصيدة لزوجة سفير الولايات المتحدة في غواتيمالا تقول إن السيد والسيدة بيوريفوي *متفائلان* لأن غواتيمالا لم تعد *شيوعية*.

في لقائه الأول مع السفير بعد النصر عبر الرئيس كاستيو أرماس عن قلقه حيال عدم كفاية السجون المحلية وغياب الزنزانات الضرورية لجميع الشيوعيين. وفقاً لقوائم أرسلتها وزارة الخارجية من واشنطن بلغ عدد الشيوعيين في غواتيمالا 72 ألفاً.

أقامت السفارة حفلة. غنى أربعمائة غواتيمالي، في تساوق، نغمات أغنية «راية النجوم والأشرطة[1]».

[1] – علم الولايات المتحدة الأميركية الحالي.

1954: ريو دي جانيرو

خيتوليو

أراد أن يمحو ذكرى ديكتاتوريته الخاصة، أيام الدولة البوليسية القديمة والسيئة، وهكذا حكم، في أعوامه الأخيرة، البرازيل كما لم يفعل أحد من قبل.

وقف إلى جانب الأجير فأعلن حاصدو الفوائد الحرب على الفور.

ولكي يمنع البرازيل من أن تكون مصفاة للطهو، أوقف نزف الثروة. على الفور لجأ رأس المال الأجنبي إلى التخريب الاقتصادي.

أعاد للبرازيل نفطها وطاقتها اللذين هما إرث وطني مثل الراية والنشيد الوطني. ردّت قوى الاحتكار التي أُسيءَ إليها، على الفور، بهجوم مضاد عنيف.

دافع عن سعر البن بدلاً من حرق نصف المحصول، كما جرت العادة. حالاً خفضت الولايات المتحدة وارداتها إلى النصف.

في البرازيل، انضم صحفيون وسياسيون من جميع الألوان والمناطق إلى الكورس المفضوح.

حكم خيتوليو بارغاس بكرامة. حين أُجبرَ على الانحناء، اختار كرامة الموت. رفع المسدس، سدد إلى قلبه وأطلق النار.

1955: مديين

نوستالجيا

مر عشرون عاماً على إعدام كارلوس كاردل حرقاً بالنار، وأصبحت مدينة مديين الكولومبية، التي حدثت فيها المأساة، مكاناً للحج ومركزاً للعبادة.

أتباع كاردل معروفون بسبب قبعاتهم المائلة، بنطلوناتهم ذات الأشرطة، ومشيتهم المتأرجحة. يملِّسون شعرهم، ينظرون من زوايا أعينهم، ولهم ابتسامات ملتوية. ينحنون ويكنسون، وكأنهم في رقصة متواصلة، حين يتصافحون، يشعلون سيجارة، أو يلعبون بعصا البلياردو. يمضون الليلة متكئين على حامل مصباح في الضاحية، يصفرون أو يدندنون التانغو التي تشرح أن جميع النساء عاهرات عدا الأم، تلك العجوز المقدسة التي خصها الله بالمجد.

كان بعض المؤمنين المحليين، وبعض الزوار المتعبدين من بوينس آيرس، يبيعون تذكارات الوثن. وعرض أحدهم أسناناً حقيقية لكاردل، حصل عليها في المكان نفسه الذي انفجرت فيه الطائرة. باع أكثر من 1300 بمعدل 12 دولاراً لكل قطعة. كان هذا منذ بضع سنوات حين وجد أول من اشترى منه، وهو سائح من نيويورك، عضو نادي كاردل فان. حين يرى الزبون التذكار، كيف يستطيع أن يقاوم دموعه؟

1955: أسنثيون

أعراض انسحاب

حين ارتكب الخطيئة التي لا تغفر ونشر قانون طلاق، رسمت الكنيسة إشارة الصليب المفقودة عليه، وبدأ الجيش بالتآمر، في وضح النهار، للإطاحة به.

احتفل بالأنباء في غرف الرسم وندبت في المطابخ: لقد سقط بيرون. دون مقاومة، غادر الأرجنتين إلى الباراغواي والمنفى.

كانت أيامه حزينة في أسنثيون. شعر بالهزيمة، والشيخوخة، والوحدة. ادعى أن تخليه منع موت مليون شخص. لكنه قال أيضاً إن الشعب لم يعرف كيف يدافع عن ما منحه له، أن الناكرين للجميل يستحقون أية مصائب تحل بهم، أنهم يفكرون ببطونهم، لا برؤوسهم أو قلوبهم.

في صباح ما كان بيرون يسر بمرارته لمضيفه، ريكاردو جايول، حين أغمض عينيه فجأة نصف إغماضة وهمس: «*كانت ابتسامتي تسبب لهم الجنون. ابتسامتي...*»

رفع ذراعيه وابتسم وكأنه كان على شرفة القصر، يحيي ساحة تغص بالحشود المبتهجة.

«*هل تحب ابتسامتي؟*»

نظر إليه مضيفه مشدوهاً.

«*خذها، إنها لك*»، قال بيرون. أخذها من فمه ووضعها في يد مضيفه ـ كان ذلك فكه.

1955: غواتيمالا سيتي

بعد عام من إعادة غزو غواتيمالا

زار ريتشارد نيكسون تلك الأرض المحتلة. حظرت الحكومة الجديدة نقابة عمال يونايتد فروت بالإضافة إلى 532 نقابة أخرى. حكم القانون الجنائي الجديد بالموت على أي شخص يدعو إلى الإضراب. حُظرت الأحزاب السياسية قانونياً. ألقيت كتب دوستويفسكي وكتاب روس آخرين في النار.

أنقذت مملكة الموز من الإصلاح الزراعي. هنأ نائب رئيس الولايات المتحدة الرئيس كاستيو أرماس.

قال نيكسون: للمرة الأولى في التاريخ، حلت حكومة حرة مكان حكومة شيوعية.

1956: بوينس آيرس

قررت الحكومة أن البيرونية غير موجودة

بينما كان العسكر الأرجنتينيون يعدمون العمال على أكوام النفايات، قرروا أن بيرون غير موجود هو وإيفيتا والبيرونية. منع ذكر اسميهما أو أفعالهما. كان امتلاك صور لهما يعتبر جريمة. أما المقر الرئاسي فقد دُمِّر إلى آخر حجر، وكأن المرض كان معدياً.

ولكن ماذا عن جسد إيفيتا المحنط؟ كان الرمز الأكثر خطراً الذي يعبر عن غرور العامة الذين ساروا الهوينى في أروقة السلطة وكأنهم في منازلهم. وضع الجنرالات الجثة في صندوق كتب عليه: أجهزة راديو، ونفوه إلى مكان سري. قالت الشائعة إنه نفي إلى أوروبا، أو ربما إلى جزيرة في منتصف المحيط. أصبحت إيفيتا جسداً متجولاً يسافر، بشكل سري، عبر مقابر بعيدة، وقد طردها من البلاد جنرالات لا يعرفون ـ أو لا يريدون أن يعرفوا ـ أنها ترقد داخل الشعب.

1956: ليون

ابن سوموزا

غنى عازفو الموسيقى ورقص الراقصون: *سانتا مارتا، سانتا مارتا لديها قطار، في سانتا مارتا قطار لكن ليس فيها ترام*، وفي منتصف الأغنية والحفلة، قتل ريغوبيرتو لوبيث بيريث، الشاعر، الذي لا يملك أي شيء، مالك كل شيء، بأربع رصاصات.

حملت طائرة أميركية شمالية أناستاثيو سوموزا الذي يحتضر إلى مستشفى منطقة قناة بنما الأميركية الشمالية. دفنوه في نيكاراغوا، وسط طقوس أحياها أمير كنيسة.

استلم سوموزا الأول السلطة عشرين عاماً. وكان يرفع الحصار يوماً واحداً في كل ستة أعوام ليقيم الانتخابات التي تبقيه على العرش. أصبح لويس، الابن الأكبر والوريث، أقوى وأغنى رجل في أميركا الوسطى. من واشنطن هنأه الرئيس أيزنهاور.

انحنى لويس سوموزا أمام تمثال والده، البطل البرونزي الذي يعدو دون حراك في مركز ماناغوا نفسه. في ظل حافري الحصان ينشد النصيحة من مؤسس السلالة، المرشد إلى الحكومة جيدة، وناشر السجون والمشاريع، ثم يغطي المدفن التذكاري بالأزهار.

يد أحد ما، أي أحد، يد الجميع، تجنبت حذر الحارس وبسرعة خربشت هذه الكلمة على الضريح الرخامي: *هنا يرقد سوموزا، أكثر عفونة بقليل مما كان عليه في أثناء حياته*.

1956: سانتو دومنغو

في العام السادس والعشرين من عهد تروخيو

بيع شبيهه في الأسواق، بين النقوش الصغيرة للعذراء مريم، والقديس جورج، ومجترحي معجزات آخرين.

«*قديسون، قديسون رخيصون!*»

لم يكن هناك شيء دومينيكاني خارج قبضته. كان يملك كل شيء: الليلة الأولى للعذراوات، الأمنية الأخيرة للمحتضرين، البشر والأبقار، الأسطول الجوي، وسلسلة المواخير، طواحين السكر والطحين، معمل البيرة ومصنع السموم النشيط.

طيلة ستة وعشرين عاماً شغل تروخيو منصب نائب الله الرئاسي. كل أربعة أعوام، تبارك الانتخابات الديموقراطية هذه الصيغة: *الله وتروخيو*، تعلن الجدران.

في كتابها **تأملات أخلاقية**، الذي منحها لقب السيدة الأولى للآداب الكاريبية، قارنت دونا ماريا دي تروخيو زوجها مع السيد The Cid ونابليون بونابرت. دونا ماريا المتلثة، التي تمارس الربا في أثناء الأسبوع والتصوف أيام الأحد، قورنت بدورها مع القديسة تيريثا دي خيسوس من قبل النقاد المحليين.

بسيف السيد أو قبعة نابليون، يتوضع تروخيو أمام النحاتين. تزيد التماثيل عدده في البرونز والرخام، بذقن ليس له وبدون ذقنه الملتوي. آلاف التماثيل. عالياً على المناصب، يفرشخ تروخيو في الزوايا البعيدة لكل مدينة أو قرية، مراقباً. في هذه البلاد حتى الذبابة لا تتبرز إلا بإذن منه.

1956: هافانا

الجريدة الإخبارية

اعترض الجيش الكوبي حملة مسلحة قادمة من المكسيك، حاصر الغزاة، رشهم وقصفهم في مكان يدعى أليغريا دي بايو في إقليم أورينتي. بين الموتى الكثيرين كان فيديل كاسترو، قائد العصابة، والمحرض الشيوعي الأرجنتيني إرنستو غيفارا.

بعد الاستمتاع بإقامة طويلة في نيويورك، عاد إلى هافانا الدكتور إرنستو سارا، وزوجته الجذابة والرشيقة جداً، لولو، شخصيتا الدرجة الأولى في الدوائر الاجتماعية للعاصمة.

أيضاً وصل من نيويورك بنج كروسبي، المغني المشهور، الذي أعلن في المطار، دون أن ينزع معطفه الخفيف، أو قبعته الفرائية: «*جئت إلى كوبا لألعب الغولف*».

هافاني شاب، على وشك أن يفوز بالجائزة الكبرى «في مسابقة التلفزيون المدرسي» فشل في الإجابة على السؤال بعد الأخير. السؤال الأخير، الذي بقي دون أن يطرح، كان: ما اسم النهر الذي يعبر باريس؟

صف استثنائي من الأشخاص سيركض غدا في حلبة سباق ماريايناو.

1956: في سفوح سلسلة جبال مايسترا

اثنا عشر مجنونا

أمضوا أسبوعا بلا نوم، مكومين مع بعضهم كسمك السردين في علبة، تقيأوا، بينما كانت ريح الشمال تلعب، مبتهجة، بالقارب الصغير غرانما. بعد كثير من التأرجح في خليج المكسيك، نزلوا

في المكان الخطأ، وبعد بضع خطوات على الشاطئ حصدتهم نيران الرشاشات أحرقتهم القنابل الحارقة في مذبحة سقطوا جميعهم فيها. سأل الذين بقوا على قيد الحياة السماء عن توجيهات لكن النجوم اختلطت عليهم. ابتلعت المستنقعات حقائبهم الظهرية وأسلحتهم. لم يكن معهم طعام سوى قصب السكر وتركوا بقاياه الخائنة مبعثرة على الطريق. في لحظة غفلة خلطوا مياههم الطازجة المتبقية بماء البحر. ضاعوا وبحثوا دون هدف عن بعضهم بعضاً. أخيراً، وبالمصادفة، اكتشفت مجموعة صغيرة مجموعة أخرى على تلك المنحدرات، وهكذا اجتمع من جديد اثنا عشر شخصاً نجوا من المجزرة.

كان لدى أولئك الرجال، أو ظلال الرجال، سبع بنادق، قليل من الذخيرة المبللة، وما لا يحصى من الندوب والجراح. ومنذ أن بدأ الغزو لم يكن هناك خطأ لم يرتكبوه. ولكن في الليلة الظلماء تنفسوا هواء أكثر نقاء وقال فيديل، واقفاً في سفح سلسلة جبال مايسترا: «*لقد ربحنا الحرب مسبقاً. لقد سقط باتيستا.*»

1957: بنيدورم

البطاقات المعلّمة

كان هناك بين الليبراليين والمحافظين، اتفاق زوجيٌّ. على شاطئ من شواطئ المتوسط، وقّعَ سياسيو كولومبيا التسوية التي أنهتْ عشر سنوات من الإبادة المتبادلة. قدم الطرفان الرئيسيان لكل منهما عفواً. من الآن فصاعداً، سوف يتناوبان على الرئاسة ويوزعان الأعمال الأخرى.

سيقدر الكولومبيون على التصويت، لا على الانتخاب. سيأخذ الليبراليون والمحافظون أدواراً في السلطة، ليضمنوا حقوق الملكية والإرث التي أحضرتها أسرهم أو تلقتها كهدايا، في البلاد.

في هذه الاتفاقية بين الأثرياء لم يكن هناك أنباءٌ طيبة للفقراء.

1957: ماخاغوال Majagual

بيضة كولمبيا المقدسة

حرقوا البلدات وقتلوا الهنود، قطعوا الغابات ونصبوا الأسلاك الشائكة، ودفع أسياد الأرض الفلاحين إلى ضفاف النهر في هذا الإقليم الساحلي الكولومبي. مع ذلك رفض كثيرٌ من الفلاحين أن يخدموا كعبيدٍ في المزارع وبدلاً من ذلك أصبحوا صيادين ـ فنانين في جعل أسنانهم تصرّ وعاشوا على ما قدروا العُثور عليه. أكلوا الكثير من السلاحف وتعلموا منها: لا تفلت السلحفاة مطلقاً ما تمسك به في فمها وتعرف كيف تدفن نفسها على الشواطئ في الفصل الجاف حين تهددها النوارس. عاشوا بهذا وبمساعدة من الله.

بقي بعض الرهبان في تلك الأقاليم الحارة. هنا، على الشاطئ، لم يتلق أحد القداس بشكل جدي. كان كل من ليس مشلولاً يهرب من الزواج والعمل، وكان من الأفضل الاستمتاع بالخطايا السبع المهلكة، والانغماس في قيلولة لا تنتهي في أراجيح شبكية لا تنتهي. الله هنا شخص جيد، وليس زعيم شرطة حاقداً وعيّاباً.

كان مسيح جيغوا Jegua المضجر ميتاً ـ دمية محطمة لا تتعرق أو تنزف أو تجترح المعجزات. لم يزل أحد براز الخفاش عنه منذ أن هرب الكاهن بالفضة كلها. لكن سيدنا الأسود الصغير، السيد الأسود لسان بينيتو، المفعم بالحياة، المتعرق، والنازف ومجترح المعجزات، كان يقدم النصيحة لكل من يضربه بحب. كان القديسون المرحون الذين يظهرون على الشاطئ الكولومبي أحياء أيضاً ويحركون أذيالهم حين تسقط قبعة أو عصا في الجوار؟

في إحدى الليالي العاصفة، اكتشف بعض الصيادين وجه الله يتوهج في لمعان البرق، على حجر بحجم بيضة. مذاك احتفلوا بمعجزات القديس بيضة، رقصوا الكمبيا وشربوا نخبه.

أعلن كاهن ماخاغوال أنه سيذهب نحو النهر مع كتيبة من المقاتلين، ويرمي الحجر المدنّس في قاع النهر، ويحرق كوخهم المصنوع من ورق النخيل.

في المصلى الصغير، حيث تحتفل موسيقى حية بالقداس، يقف الصيادون ليحرسوا القديس بيضة، حاملين الفؤوس بأيديهم ليلاً ونهاراً.

1957: سكري Sucre

القديس لوثيو

حين أعلن كاهن ماخاغوال الحرب على القديس بيضة، طرد كاهن سكري القديس لوثيا من كنيسته، لأن قديسة أنثى لها عضو ذكري أمرٌ لمْ يُسمع به.

في البداية بدا كمثانة أو ورم على العنق، نما وانتفخ تحت الرداء الكهنوتي المقدس الذي كان يقصر كل يوم. تظاهر الجميع بأنهم لم يلاحظوا ذلك، إلى أن قال طفلٌ فجأة وبدون تفكير في أحد الأيام:

«القديس لوثيو له عضو!»

نفي القديس لوثيو ولاذ في كوخ غير بعيد عن المعبد الصغير للقديس بيضة. في الوقت المناسب، نصب الصيادون له مذبحاً، لأن القديس لوثيو شخص محب للمرح، جدير بالثقة، وينضم إلى حفلات عابديه، يصغي إلى أسرارهم، ويصبح سعيداً حين يأتي الصيد وتتقافز الأسماك.

هذا الذكر، الذي اعتاد أن يكون أنثى، لا يذكر بين القديسين المسجلين في تقويم بريستول، ولم يطوِّب بابا روما القديس بيضة. ولا القديس لوح الذي نزع من صندوق الصابون الذي عثرت فيه المرأة الغاسلة على العذراء مريم، أو القديس كلية، الكلية المتواضعة لبقرة رأى فيها الذابح تاج شوك المسيح. ولا القديس دومنغو بيدال...

1957: ضفاف نهر سينو Sinu

القديس دومنغو بيدال

كان قزماً ومشلولاً. سماه البشر القديس دومنغو بيدال لأنه عرف، بأحاسيسه الباطنية النبوية أين ضلّ حصانٌ ضائعٌ على هذا الساحل الكولومبي، وأي ديك سيفوز في المقارعة التالية، ولأنه لم يطلب شيئاً مقابل تعليم الفقراء القراءة والدفاع عنهم من الجراد والأسياد الجشعين.

لقبته الكنيسة ابن لوسيفر. قذفه كاهن من خارج قبره في مصلى تشيما Chima وكسر عظامه بفأس ومطرقة. انتهت بقاياه المحطمة إلى زاوية الساحة، وأراد كاهن آخر أن يرميها في القمامة. مات الكاهن الأول ميتةً أليمة، تحولت يداه إلى مخالب، واختنق الآخر متمرغاً في برازه.

مثل القديس بيضة، والقديس لوثيو، وكثير من زملائهما المحليين، بقي القديس دومنغو حياً وسعيداً بسبب حماسة سكان هذا الجوار الذين يحبون - إما في حالة الزواج أو خارجها - أو في حشد البشر الذين يشتركون في المعركة الضارية من أجل الأرض ومتع ثمارها.

كان القديس دومنغو بيدال يحمي العادة القديمة لقرويي نهر سينو، الذين يزور بعضهم بعضاً حاملين هدايا من الطعام. حمل سكان إحدى القرى إلى القرية الأخرى محفات محملة بالأزهار والطيبات من النهر وضفافه: أسماك مطهوة، قطع من سمك السلور، بيوض إغوانة، جوز هند بالأرز، جبن، مونغومنغو حلوة، وبينما كان متلقو الهدايا يأكلون، يغني المتبرعون ويرقصون حولهم.

1957: بينو ديل آغوا

كروسيتو

عرض باتيستا ثلاثمائة بيزو وبقرة مع عجل لكل من يحضر له فيديل كاسترو حياً أو ميتاً.

على الجانب الآخر من قمم جبال مايبيسترا، كان رجال العصابات يتعرقون ويتكاثرون، يتعلمون بسرعةٍ قواعد الحرب في الأدغال، أن يفقدوا الثقة، أن يتحركوا ليلاً، ألا يناموا مطلقاً مرتين في المكان نفسه، وقبل كل شيء أن يصادقوا السكان المحليين.

حين وصل الاثنا عشر المتسخون الباقون على قيد الحياة إلى هذه الجبال، لم يكونوا يعرفون فلاحاً واحداً، ولم يعرفوا نهر يارا إلا من الأغنية التي كانت تذكره. بعد بضعة شهور انضم بعض الفلاحين إلى الصفوف المتمردة، وكانوا من الرجال الذين يقطعون القصب وقت الحصاد ثم يُتركون ليتضوروا جوعاً في مناطق مجهولة، أما الآن فقد أصبح رجال العصابات يعرفون هذه المناطق وكأنهم ولدوا فيها. يعرفون أسماء الأمكنة، وحين لا يعرفون، يطلقون عليها اسماً بطريقتهم الخاصة. منحوا جَدْول الموت اسمه لأن رجل عصابات فارّاً، أقسم هناك أن يقاتل حتى الموت.

آخرون ماتوا وهم يقاتلون، دون أن يقسموا حول أي شيء.

وهو يدخن في غليونه في أوقات الاستراحة، كان خوسيه دي لا كروث ـ كروسيتو ـ شاعر الجبال المتجول، يؤلف في مقاطع من عشرة أبيات التاريخ الكامل للثورة الكوبية. وبسبب عدم توفّر الورق حفظه في ذاكرته، لكنه أُخِذَ منه برصاصة، على مرتفعات بينو ديل آغوا في أثناء كمين قامت به شاحنات الجيش.

1957: إل أو بيرو El Uvero

ألميدا Almeida

زعم خوان ألميدا أن ثمة متعة في داخله تدغدغه باستمرار، تجعله يضحك ويقفز. متعة عنيدة جداً، إذا أخذ المرء بعين الاعتبار، أن ألميدا ولدَ فقيراً وأسود على هذه الجزيرة ذات الشواطئ الخاصة المغلقة في وجه الفقراء والسود لأنهم يلوثون المياه، وأنه، لجعل الأمور أكثر سوءاً، قرر أن يصبح مساعدَ بنّاء وشاعراً، وأنه، وكأن هذه ليست تعقيدات كافية، انخرط في الثورة الكوبية، وكأحد مهاجمي المونكادا حُكمَ عليه بالسجن والمنفى، وكان بحاراً في الغرانما قبل أن يصبح رجل عصابات، وكان قد تلقى لتوه رصاصتين ـ غير مهلكتين ولكن مزعجتين ـ في الرجل اليسرى وأخرى في الكتف، في أثناء الهجوم الذي استغرق ثلاث ساعات على ثكنة أوبيرو التي قرب الشاطئ.

1957: سانتياغو دي كوبا

صورة سفير إمبريالي

تلقى إيرل سميث، سفير الولايات المتحدة مفاتيح مدينة سانتياغو دي كوبا. وفيما كان الاحتفال يتواصل والخطب تنسكب، سُمِعَ صخبٌ من خلال الستائر. نظر السفير من النافذة، بوقار، ورأى نساء يقتربن، متشحات بالسواد، ويغنين النشيد الوطني ويصحن: «الحرية!» ضربهم رجال الشرطة بالهراوات.

في اليوم التالي، زار السفير القاعدة العسكرية الأميركية في خوانتنامو، ثم تجول في مناجم الحديد والنيكل التابعة لشركة فريبورت سيلفر، التي، وبفضل جهوده، أُعفيتْ لتوّها من الضرائب.

عبر السفير علناً عن قرفه من ضرب الشرطة، رغم معرفته أن الحكومة تمتلك الحق في الدفاع عن نفسها من الاعتداء الشيوعي. شرح مستشارون للسفير أن فيديل كان غير سويّ منذ طفولته، بعد أن سقط عن دراجة نارية متحركة.

اعتقد السفير، الذي كان بطلاً في الملاكمة أيام دراسته، أنه يجب الدفاع عن الجنرال باتيستا مهما كانت الكلفة. إذا بقي باتيستا في السلطة، يستطيع السياح أن يختاروا، من الصور التي تُسلّم لهم على الطائرة، خلاسيتهم الجميلة من أجل عطلة نهاية الأسبوع. هافانا مدينة أميركية

شمالية، مليئة برجال عصابات بذراع واحدة من نيفادا وبزعماء مافيا من شيكاغو، وبكثير من التلفونات لكي يطلبوا عشاء ساخناً ظريفاً في السفرة الجوية التالية إلى ميامي.

1957: إل هومبريتو

تشي

في وادي هومبريتو نصب المتمردون فرناً لإعداد الخبز، مطبعة تتألف من آلة نسخٍ قديمة، وعيادة تعمل في كوخ من غرفة واحدة. الطبيب هو إرنستو غيفارا، المعروف بـ «تشي»، الذي، بغض النظر عن كنيته، احتفظ ببعض العادات الأرجنتينية مثل المتة والسخرية. انضم هذا المتجول الأميركي إلى قوات كاسترو في المكسيك، حيث استقر بعد سقوط غواتيمالا ليكسب رزقه كمصور يأخذ بيزو مقابل الصورة الواحدة، وكبائع متجول لتذكارات صغيرة لعذراء غوادالوبّه.

في عيادة هومبريتو، كان تشي يعتني بالأطفال ذوي البطون المنتفخة، الذين يبدون كالأقزام، وبفتيات مسنات منهكاتٍ من ولادات كثيرة وطعام قليل جداً، ورجال فارغين وجافين كاليقطين، لأن البؤس أحال الجميع إلى مومياءات حيّة.

في العام الماضي، حين حصدت الرشاشات رجال العصابات الذين هبطوا حديثاً، كان على تشي أن يختار بين صندوق رصاص وصندوق أدوية. لم يكن قادراً على حمل الصندوقين فقرر أن يحمل صندوق الرصاص. والآن يداعب بندقيته التي من نوع تومسون، الأداة الجراحية الوحيدة التي يؤمن بها حقاً.

تشانا العجوز، الفلاحة التي من سلسلة جبال مايبسترا، تتذكر

العزيز المسكين تشي! كنت دائماً أراه بتلك اللعنة التي هي الربو وأقول: «آه، أيتها العذراء المقدسة!»

الربو يجعله هادئاً ويتنفس بصوت منخفض. تحل الهستريا ببعض المصابين بالربو، يسعلون ويفتحون أعينهم وأفواههم. لكن تشي كان يحاول أن يخفف من الربو. يرمي نفسه في زاوية ليهدئه.

لم يكن يحب الشفقة. إذا قلت: أيها المسكين! يمنحك نظرة سريعةً لا تعني شيئاً لكنها تعني الكثير.

اعتدت أن أسخن له قليلاً من الماء لأدلك صدره وأريحه. هو، المتملّق الكبير، سيقول: «آه يا حبيبتي». لكنه كان وغداً.

1958: ستوكهولم

بيليه

توهجت كرة القدم البرازيلية. رقصت وقامت برقصة واحدة. في مباريات كأس العالم في السويد، كان بيليه وغارينتشا هما بطلا العالم، وبرهنا أن أولئك الذين يشيعون أن السود لا يستطيعون اللعب في المناخ البارد هم مخطئون.

بيليه، النحيل كمدمة، الصبي تقريباً، ينفخ صدره ويرفع ذقنه ليخلق انطباعاً. إنه يلعب كرة القدم كما يمكن أن يلعبها الله، لو كرّس الله نفسه جدياً للعبة. كان بيليه ينظم موعداً مع الكرة في أي مكان، في أي زمان، ولم تقف في وجهه مطلقاً. يرسلها عالياً في الجو، تدور وتعود إلى قدمه، مطيعة، ممتنة، أو ربما مقيدة برباط قابل للتمدد. يرفعها بيليه، ينفخ صدره، وتتدحرج بنعومة على جسده. ودون أن يدعها تلمس الأرض ينقلها إلى القدم الأخرى وهو يقذف نفسه، راكضاً كأرنب بري، نحو المرمى. لا أحد يستطيع أن يلحق به، بوهقٍ أو رصاصة، إلى أن يترك الكرة، متلألئة، بيضاء، مشدودة إلى ظهر الشبك.

في الملعب وخارجه يعتني بنفسه. لا يضيع مطلقاً لحظة من وقته، ولا يترك بنساً يسقط من جيبه. حتى وقت متأخر كان يلمِّع الأحذية على رصيف المرفأ. لقد ولد بيليه كي يرتقي وكان يعرف ذلك.

1958: ستوكهولم

غارينتشا

يسبب غارينتشا الفوضى في لعبه مع الفرق الأخرى، دائماً يهدد بالاختراق. يدور، دورة كاملة، يبدو كأنه قادم، لكنه يكون ذاهباً. يتصرّف كأنه ذاهب، لكنه يكون قادماً. يسقط الخصوم المذهولون على مؤخراتهم وكأن غارينتشا كان يبعثر قشور الموز في الملعب كله. عند خط المرمى، بعد أن يخدعهم جميعاً، وبينهم حارس المرمى، يجلس على الكرة. المعجبون يستمتعون، المدراء يجنّون. غارينتشا، الطائر المبتهج، ذو الساقين المتقوستين، يلعب من أجل الضحك، لا الفوز، وفيما بعد ينسى النتائج. لا يزال يعتقد أن كرة القدم هي حفلة، وليست وظيفة أو عملاً. يحب أن يلعب دون أي مقابل، أو مقابل بعض زجاجات البيرة، على الشواطئ أو في الملاعب الرديئة الصغيرة.

له العديد من الأطفال، أطفاله وأطفال بشر آخرين. يشرب ويأكل وكأنه يفعل ذلك للمرة الأخيرة. كانت يده مفتوحة، يمنح كل شيء، ويفقد أية وظيفة يحصل عليها. ولد غارينتشا لكي يسقط، لكنه لم يعرف ذلك.

1958: سلسلة جبال مايبيسترا

الثورة هي أم أربع وأربعين لا تتوقف

فيما كانت الحرب تصل إلى أوجها، طبق فيديل كاسترو الإصلاح الزراعي في سلسلة جبال مايبيسترا تحت الرصاص. حصل الفلاحون على أراضيهم الأولى، هذا إذا لم نذكر طبيبهم الأول، معلمهم الأول، وقاضيهم الأول ـ وقيل إن هذه طريقة لإنهاء نزاع أقل خطراً من استخدام المدية.

وبدا أن جنود باتيستا العشرة آلاف لم يفعلوا أي شيء سوى أن يخسروا. كان الجيش المتمرد أقل عدداً بكثير، وفقير السلاح، لكن، تحته وفوقه، وفيه، وأمامه، وخلفه، هناك الشعب.

لقد بدأ المستقبل. شنَّ فيديل هجوماً أخيراً شمل كوبا من أولها إلى آخرها. في صفين، أحدهما بقيادة تشي غيفارا، والآخر بقيادة كاميلو ثيينفويخوس، هبط مائة وستون من رجال العصابات من الجبال لكي يفتحوا السهل.

1958: ياغواخي Yaguajay

كاميلو

تجنّب الصفان، بشكل سحري، القصف والكمائن، وضربا أحشاء الجزيرة وقطعا كوبا إلى نصفين بينما سيطر كاميلو ثيينفويخوس على ثكنة ياغواخي بعد أحد عشر يوماً من القتال ودخل تشي مدينة سانتا كلارا. فجأة اختفت نصف جزيرة باتيستا.

قاتل كاميلو ثيينفويخوس، الشجاع والجشع، بالسلاح الأبيض. كان يقتل جندياً من العدو، يمسك بندقيته في منتصف الجو دون أن يدعها تلمس الأرض. أخطأته الطلقات القاتلة مرات عديدة، ومرة كان على وشك أن يموت حين ابتلع جدياً صغيراً بعد يومين بلا طعام.

لكاميلو لحية وعرف نبي توراتي، ولكن حيث يجب أن يكون وجهه مغطى بالتجاعيد، كانت هناك ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن.

العمل العظيم الذي يفتخر به حدث في الجبال حين خدع طائرة عسكرية خفيفة داهناً نفسه باللون الأحمر للأيودين واستلقى هادئاً وذراعاه متصالبتان.

1959: هافانا

كوبا تستيقظ بدون باتيستا

استيقظت كوبا في اليوم الأول من العام بدون باتيستا. هبط الديكتاتور في سانتو دومنغو والتجأ عند زميله تروخيو. أما في هافانا، بالنسبة للجلادين السابقين، بدا الأمر فراراً جماعياً.

دبّ الهلع في السفير الأميركي إيرل سميث. سيطر على الشوارع الرعاع وبعض رجال العصابات المتسخين، طويلي الشعر، والحفاة، والذين هم عصابة لاتينية ترقص الغواغوانكو guaguanco، وتحدد الوقت بطلقات البنادق.

الرومبا[1]

الغواغوانكو guaguanco هي نوع من الرومبا، وكل كوبي محترم يضع الرومبا وراء حزامه، في السلام والحرب، وأي شيء بينهما. كان الكوبي، حتى وهو يقاتل، يرقص، وهكذا انضم الحشد إلى رقص الرصاص دون ثانية تفكير، واندفع الحشد خلف الطبول التي استدعته.

«أنا أستمتع بها وإذا قبضوا علي سيكون الأمر سيئاً، على الأقل أنا أستمتع بها».

كانت الموسيقى تندفع في الشوارع أو الساحات ولم يكن هناك شيء يوقف إيقاع الرومبا الذي يصدر عن الطبول أو الصناديق، وإذا لم يكن هناك طبول أو صناديق كان يقرع على الأجساد، أو في الهواء فحسب. حتى الآذان كانت ترقص.

1959: هافانا

صورة كازانوفا كاريبي

كان بورفريو روبيروزا، السفير الدومينيكاني، ينظر بمقت إلى المشهد المريع. لم يتناول في الصباح فنجان من القهوة. جردته الأنباء من شهيته. وبينما كانت دزينات من الخدم تحزم الصناديق وتغلق العلب والحقائب، أشعل روبيروزا سيجارة، وهو متوتر، ووضع أغنية مفضّلة في الفونوغراف: «ذوقي».

يقولون إن الشمس لا تغرب مطلقاً في سريره. كان رجل تروخيو في كوبا ساحراً مشهوراً للأميرات والوريثات، ونجمات السينما. يخدعهن بالإطراء ويعزف لهن Ukulele قبل أن يحبهن أو يضربهن.

وقال البعض إن سبب طاقته الهائلة هو حليب رضاعته، الذي جاء من حلمات السيرانات. أصر الوطنيون الدومينيكانيون أن سره هو إكسير رجولة يستخرجه تروخيو من نبتة البيغا بالو ويصدّره إلى الولايات المتحدة.

بدأت مهنة روبيروزا حين جعله تروخيو صهراً له، واستمرت، حين كان سفير الدومينيكان في باريس، من بيع التأشيرات لليهود الذين كان يضطهدهم هتلر، واكتملت بزواجه من المليونيرتين الكبيرتين دوريس ديوك وباربارا هتون. كانت رائحة النقود هي التي تثير كازانوفا الكاريبي، كما تثير رائحة الدم أسماك القرش.

---

[1] – رقصة كوبية زنجية تتميز بحركاتها العنيفة.

1959: هافانا

لم نربح سوى الحق بالبدء

لم نربح سوى الحق بالبدء، قال فيديل، الذي كان يتجه إلى المدينة على برج دبابة من سلسلة جبال مايسترا. شرح لحشد متدافع أن كل هذا، الذي يمكن أن يبدو كخاتمة، ليس إلا بداية.

كانت نصف أراضي كوبا غير محروثة. ووفقا للإحصائيات، كان العام الماضي هو الأكثر ازدهارا في تاريخ الجزيرة، لكن الفلاحين الذين لا يستطيعون أن يقرأوا الإحصاءات أو أي شيء آخر، لم يلاحظوا ذلك.

من الآن فصاعدا، سيصيح ديك مختلف، معلنا أن الإصلاح الزراعي والحملة ضد الأمية، هما المهمتان الأكثر إلحاحا كما في الجبال. ولكن قبل هذا، كان ينبغي الإطاحة بجيش من السفاحين. كان أسوأ الجلادين يتم صفهم على حائط. الذي كان يدعى، بشكل مناسب، «كاسر العظام» يغمى عليه في كل مرة تسدد عليه فرقة الإعدام. وكان عليهم أن يوثقوه إلى عمود.

1960: برازيليا

مدينة أو هذيان وسط لاشيء

رفعت البرازيل الستارة عن عاصمتها الجديدة. فجأة، ولدت برازيليا في صليب رسم على الغبار الأحمر للصحراء، بعيدا جدا عن الساحل، عن كل شيء، في نهاية العالم - أو ربما في بدايته.

بنيت المدينة بسرعة تسبب الدوار. طيلة ثلاث سنوات كانت كثيب نمال حيث اشتغل العمال والتقنيون ليلا ونهارا، وتقاسموا الأعمال، والطعام، والمأوى. ولكن حين انتهت برازيليا، انتهى وهم الأخوة العابر كذلك. أغلقت الأبواب: ليست هذه المدينة للخدم. سجنت برازيليا الذين شيدوها بأيديهم. كوموا في أكواخ تكاثرت، بنعمة من الله، على أطراف المدينة.

إنها مدينة الحكومة، منزل السلطة. لا بشر في ساحاتها، لا ممرات للسير عليها. برازيليا هي على القمر: بيضاء، مضيئة، تعوم إلى الأعلى، عاليا فوق البرازيل، محمية من أوساخها وحماقاتها.

أوسكار نيميير، مهندس قصورها، لم يحلم بها بتلك الطريقة. حين حصلت حفلة الافتتاح الكبيرة، لم يظهر نيميير على المنصة.

1960: ريو دي جانيــرو

نيمبير Niemeyer

كان يكره الزوايا اليمنى والرأسمالية. ليس هناك شيء كثير يستطيع أن يفعله ضد الرأسمالية، لكن الهندسة الحرة، والحسية، والخفيفة كالغيوم لذلك الظالم، وعـاصر الفضـاء، انتصـرت علـى الزاوية اليمنى.

تخيّل نيميير المساكن البشرية علـى شـكل جسـد امـرأة، شـاطئ متعـرِّج، أو ثمـرة اسـتوائية. تخيله، كذلك، على شكل جبل، هذا إذا انكسر الجبل في انحناء جميل إزاء السـماء، كمـا تفعـل جبال ريو دي جانيرو، التي صمّمها الله في ذلك اليوم حين أعتقد أنه نيميير.

1960: ريو دي جانيــرو

غيمارياس روسا Guimaraes Rosa

جسورة ومتموِّجة، كانت كذلك، لغة غيمارياس روزا، الذي يبني المنازل بالكلمات.

أبدع ذلك المعلم الشكلاني، الدقيق كالبندول، وغير القادرٍ على عبور الشارع إذا جاء الضوء من أمامه، أعمالاً حميمة ومحبة. انفجرت المأساة بشكل وحشيٍ عبر قصص وروايات الدبلومـاسـي ذي المهنة المبتسمة. كان ذلك البرجوازي المحافظ، الـذي يحلم بدخـول الأكاديميـة، ينتـهك جميـع القواعد الأدبية حين يكتب.

1960: أرتيميسا

آلاف وآلاف من المناجل

كانت آلاف مؤلفة من المناجل تلوِّح في الهواء، تصطدم، تشـتبك، تقـدم خلفيـة مـن الموسـيقى الحربية لخطاب فيديل ـ أو، بـالأحرى، للأغنيـة التـي يؤديـها علـى المنصـة. هنـا، في النهايـة الشرقية من الجزيرة، كان يشرح لعمال السكّر لماذا أممت حكومته شركة تيكساكو أويل.

لم تستجب كوبا لجميع الضربات المتعاقبة بذعر أو إذعان. رفضت وزارة الخارجية الأميركيـة أن تقبل الإصلاح الزراعي: وزعت كوبا العقارات التي تمتلكها الولايات المتحدة علـى الفلاحـين. أرسل أيزنهاور الطائرات لتحرق حقـول الـذرة وهـدّدَ بعـدم شـراء السـكّر الكوبـي: كسـرت كوبـا الاحتكار التجاري وقدمت للاتحاد السوفييتي السكر مقابل النفط. رفضت شركات النفط الأميركية أن تكرِّر النفط السوفييتي فأممتها كوبا.

كل خطاب هو مسار. كان فيديل، طيلة ساعات، يسأل ويفكر، يعلّم ويتعلّم، يدافـع ويتـهم، بينما كانت كوبا تتلمّس طريقها إلى الأمام، وكل خطوة تخطوها هي بحث عن الطريق.

1961: سانتو دومنغو

في العام الواحد وثلاثين من عهد تروخيّو

كانت المثقّلة على مكتبه، وبين تماثيل كيوبيد المذهّبة يستلقي قفاز بيسبول خزفي. محاطاً بتماثيل نصفية لتروخيّو، كان تروخيو يفحص، بدقّة، القوائم الأخيرة للمتآمرين التي قدّمها جواسيسه. بنقرةٍ محتقرة من إصبعه يعلّم على الأسماء، الرجال والنساء الذين لن يستيقظوا غداً، بينما ينتزع جلاّدوه أسماءً من سجناء يصرخون في قلعة أوثاما.

قدمت القوائم لتروخيّو سبباً للتأمل الحزين. كان الذي يقود المتآمرين عليه هو السفير الأميركي وكبير أساقفة الأنديز، الذي شاركه البارحة في حكومته. جحدت الإمبراطورية والكنيسة ولدهما المخلص، الذي أصبح غير قابل للتقديم أمام أعين العالم، ورفضتا يده السخيّة. آلمه كثيراً عدم امتنان كهذا من مؤلفي التطور الرأسمالي في جمهورية الدومينيكان. مع ذلك، من بين جميع الأوسمة التي تزيّن صدره، وبطنه وجدرانه، لا يزال تروخيّو يحب، بشكل أكبر، الصليب المهيب لنظام القديس غريغوري، الذي تلقّاه من الفاتيكان، والوسام الصغير، الذي، منذ سنوات طويلة، يشهد على الخدمات التي قدّمها للمارينز الأميركيين.

سيبقى حتى الموت خفير الغرب، رغم كل الأسى، هذا الرجل الذي لقّبَ نفسه المحسِن للوطن، مخلِّص الوطن، أب الوطن، مستعيد الاستقلال المالي، بطل السلم العالمي، حامي الثقافة، أول عدوٍ للشيوعية في الأميركيتين، الجنرال الأبرز والأكثر تبجيلاً.

1961: سانتو دومنغو

الميت

ترك كوصية بلاداً بأكملها - بالإضافة إلى تسعة آلاف وستمائة ربطة عنق، ألفي بدلة، ثلاثمائة وخمسين بزة عسكرية، ستمائة زوج من الأحذية في خزنه في سانتو دومنغو، وخمسمائة وثلاثين مليون دولار في حساباته المصرفية الخاصة في سويسرا.

رافايل ليونيداس تروخيّو سقط في كمين، ثقب الرصاص سيارته. طار ولده رامفيس من باريس ليتولى مسؤولية الإرث، الدفن، والانتقام.

اكتسب رامفيس تروخيو، زميل وصديق برفريو روبيروزا، شهرةً معيّنة بسبب مهمة ثقافية إلى هوليود. هناك، عرض المرسيدس بينز ومعاطف فرو النمس لكيم نوفاك وZsa Zsa Gabor باسم الشعب الدومينيكاني الجائع، لكن الكريم.

1961: خليج الخنازير

ضد الريح

ضد الريح والموت، كانت تتقدم إلى الأمام، ولم ترجع القهقرى. بقيت الثورة الكوبية، بشكل فضائحي، حيةٍ على بعد ثماني دقائق طيران من ميامي.

لوضع حد لهذه الإساءة، نظمّت وكالة الاستخبارات المركزية غزواً انطلق من الولايات المتحدة، غواتيمالا، ونيكاراغوا. رأى سوموزا الثاني الحملة من على رصيف المرفأ. في جيش التحرير الكوبي، الذي ركّبتْ وكالة الاستخبارات المركزية آلته، ودهنتها، وزيّتتْها، تعايش جنود ورجال شرطة من ديكتاتورية باتيستا مع ورثة مستعمرات السكر الذي أطيح بهم، والمصارف، والصحف، وكازينوهات القمار، والمواخير، والأحزاب السياسية.

أرشدهم سوموزا: «*أحضروا لي بعض الشعرات من لحية كاسترو!*»

دخلت طائرات أميركية، مموّهة ومزيّنةٌ بنجمة القوى الجوية الكوبية، أجواء كوبا. قصفت تلك الطائرات، التي كانت تطير على ارتفاع منخفض، البشر الذين حيّوها، ثم قصفت المدن. بعد عملية التمهيد هذه، هبط الغزاة، لسوء حظهم، في مستنقعات خليج الخنازير.

في غضون ذلك، كان الرئيس كينيدي يلعب الغولف في فرجينيا. أصدر أمر الغزو، لكن أيزنهاور هو الذي حرّك الخطة، ومنحها الضوء الأخضر حول المكتب نفسه حيث وافق على غزو غواتيمالا. أكّد له آلن دالاس، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، أن التخلّص من فيديل سيكون بسيطاً مثل التخلّص من أربينث. مسألة أسبوعين، أنقص أو أضف يوماً، حتى فريق السي آي إيه نفسه تولّى مسؤوليته. نفس الرجال، نفس القواعد. سيولّد هبوط المحرّرين عصياناً شعبياً على هذه الجزيرة الرازحة تحت قدم الطغيان الأحمر. هذا ما قالته تقارير جواسيس الاستخبارات الأميركية. انتظر شعب كوبا، المتخم من تشكيل الصفوف، إشارة الانتفاضة.

1961: بلايا خيرون Playa Giron

الهزيمة العسكرية الأميركية الثانية في أميركا اللاتينية

احتاجت كوبا إلى ثلاثة أيام فحسب للقضاء على الغزاة. كان بين الموتى أربعة طيارين أميركيين. هربت سفن أسطول الغزو السبع، التي رافقت البحرية الأميركية، أو غاصت في خليج الخنازير.

تحمل الرئيس كينيدي المسؤولية الكاملة لفشل السي آي إيه الذريع.

آمنت الوكالة، كما دائماً، بتقارير جواسيسها المحليين، الذين دفعت لهم لكي يقولوا ما يدفع إلى اليأس عند سماعه، وكما دائماً، خلطت الجغرافيا بخريطة عسكرية لا علاقة لها بالشعب أو التاريخ. كانت المستنقعات، التي اختارتها السي آي إيه للهبوط، البقعة الأكثر بؤساً في كوبا، وهي منطقة بقيت مملكة من التماسيح والبعوض إلى أن نشبت الثورة. حوّلت الحماسة البشرية تلك المستنقعات، ونقّطتها بالمدارس، والمستشفيات والطرقات.

كان البشر الذين هنا أول من تلقوا رصاص الغزاة الذين جاؤوا لإنقاذهم.

1961: هافانا

صورة الماضي

أجاب الغزاة ـ الطفيليون والجلادون، الأثرياء الشبان، متطوعو ألف جريمة ـ على أسئلة الصحفيين. لم يتحمل أحد مسؤولية بلايا خيرون، أو مسؤولية أي شيء. كانوا جميعهم طباخين.

عانى رامون كالبينو، الجلاّد المشهور لنظام باتيستا، من فقدان الذاكرة الكلي حين واجهته النساء اللواتي عذّبهن، أو رفسهنّ أو اغتصبهنّ، اللائي تعرّفن عليه وشتمنه. استحضر الأب إسماعيل دي لوغو، قسّيس فرقة الغزو، عذراء الملك، مالكة مصرف ما أو مزرعة مؤممة، التي كانت تفكر وتشعر كمثل السجناء الذين بلغ عددهم ألفاً ومئتين: هذا الحق هو حق الملكية والإرث، الحرية، حرية المشاريع، المجتمع النموذجي، الديموقراطية النموذجية، اجتماع لمالكي الأسهم.

عُلِّمَ جميع الغزاة أخلاق الحصانة. لم يعترف أحد أنه قتل أي شخص، لكن، البؤس كان مثلهم ولم يوقّع اسمه بالضبط على جرائمه أيضاً. سألهم بعض الصحفيين عن الظلم الاجتماعي، لكنهم غسلوا أيديهم منه، النظام يغسل يديه. في النهاية، كان الأطفال في كوبا ـ في جميع أنحاء أميركا اللاتينية ـ الذين يموتون حالاً بعد الولادة، يموتون من أمراض المعدة والأمعاء، وليس من الرأسمالية.

1961: واشنطن

من غزا كوبا؟

حوار داخل مجلس الشيوخ

السيناتور كيب هارت: *كم نملك من الطائرات؟*

آلن دالاس *(مدير السي آي إيه): كم كان الكوبيون يمتلكون؟*

السيناتور سباركمان: *لا، كم كان لدى الأميركيين؟*

دالاس: *حسناً، هؤلاء كوبيون.*

سباركمان: *المتمردون.*

دالاس: لا نسميهم متمردين.
كيبهارت: أعني، القوى الثورية.
كيبهارت: حين قال كم كان لدينا، كان يعني القوى المضادة لكاسترو.
ريتشارد م. بيسيل (نائب مدير السي آي إيه): بدأنا، يا سيدي، بست عشرة طائرة B- 26s

1961: هافانا

ماريا دي لا كروث

حالاً، بعد الغزو، اجتمع حشدٌ كبيرٌ في الساحة ليصغي إلى فيديل وهو يعلن أنه ستتم مبادلة السجناء بأدوية للأطفال، ثم منح شهادات لأربعين ألف فلاح تعلّموا القراءة والكتابة.
ألحّت امرأة عجوز على الصعود إلى المنصّة، ألحّت، بقوة، إلى أن أصعدوها في النهاية. ضربت بلا جدوى على الميكرفون المرتفع جداً، إلى أن سلّمه فيديل لها.
«أردتُ أن أقابلك يا فيديل، أردت أن أخبرك...»
«انظري ستجعلينني أحمرٌ.»
لكن المرأة العجوز، المليئة بالتجاعيد، وذات العظام الصغيرة، لم تتوقف. قالت إنها تعلمت أخيراً القراءة والكتابة في سن المائة وستة أعوام. قدّمتْ نفسها. اسمها المسيحي هو ماريا دي لا كروث، لأنها ولدتْ في اليوم الذي ابتكر فيه الصليب المقدّس، كنيتها هي سيمانات، على اسم مزرعة السكّر التي ولدتْ فيها عبدةً، ابنة عبيد، حفيدة عبيد. في تلك الأيام كان السادة يرسلون العبيد، الذين يحاولون أن يتعلّموا، إلى المخلعة، كما شرحت ماريا دي لا كروث، لأنه كان من المفترض أن يكون السود آلات تعمل على صوت الجرس، وإيقاع السياط، ولهذا استغرق الأمر معها زمناً طويلاً كي تتعلّم.
احتلّتْ ماريا دي لا كروث المنصّة. بعد التحدّث، غنّتْ. مر أكثر من قرن منذ أن رقصتْ ماريا. خرجت من بطن أمها وهي ترقص وسافرت، وهي ترقص أيضاً، عبر الألم والرعب، إلى أن وصلتْ إلى هنا، حيث يجب أن تكون منذ زمن طويل. الآن لا أحد يستطيع أن يوقفها.

1961: بنتا ديل إيستي

دبلوماسية المرحاض

بعد الفشل الذريع للهبوط العسكري في كوبا، غيّرتْ الولايات المتحدة لحنها معلنةً هبوطاً شاملاً للدولارات في أميركا اللاتينية.
ومن أجل عزل ملتحي كوبا، غمر الرئيس كينيدي أميركا اللاتينية بسيل من التبرعات، والقروض، والاستثمارات.

«*إن كوبا هي الدجاجة التي باضت بيوضكم الذهبيـة*»، قـال تشـي غيفـارا في المؤتمـر الشـامل لأميركا في بونتا ديل إيستي، داعياً برنامج الرشوة المقترح مزحة ضخمة على أميركا اللاتينية.

وهكذا كي لا يتغير أي شيء، أطلقت بلاغة التغيـير. وصلـت التقـارير الرسـمية للمؤتمـر إلـى مليون صفحة، لم تهمل أيٌّ منها أن تذكر «الثـورة»، «الإصـلاح الزراعـي»، أو «التنميـة». بينمـا خفضـت الولايـات المتحـدة أسـعار المنتجـات الأميركيـة اللاتينيـة، وعـدت بـالمراحيض للفقـراء، والهنود، والسود ـ لم تعد بآلات أو تجهيزات، وإنما بمراحيض فحسب.

قال تشي: «*بالنسبة للسادة التقنيين، التخطيط يرقى إلى تخطيط المراحيـض. إذا أخذنـا هـذا على محمل الجد، يمكن أن تكون كوبا ... فردوس المرحاض*!»

1961: إسكوينابا

غزّال الحكاية

مرة أسرج نمراً وامتطاه ظاناً أنه حمار. مرة أخرى حزم بنطلونه بأفعى حيّة ـ لاحظ ذلك لأنـه ليس لها إبزيم. صدقه الجميع حين شرح أنه لا تستطيع أية طائرة أن تهبط إذا لـم تـرش حبـات الذرة على مدرج المطار، أو حين وصف حمّام دمٍ مرعباً في اليوم الذي جنَّ فيه القطار وبـدأ يجـري جانبياً. قال ويلي همبج كاذباً: «*أنا لا أكذب بتاتاً*».

ويلي، صياد القريدس عند مصبّات إسكوينابا، ثرثارٌ نموذجيٌّ في هذه المنطقة. إنه من السـلالة الأميركية اللاتينية الرائعة لغزّالي الحكايات، سحرة الحديث الكاذب الذي يروى ولا يكتب مطلقاً.

في سن السبعين، لا تزال عيناه ترقصان. حتى أنه ضحك على الموت، الـذي جـاء في طلبـه في إحدى الليالي.

توكن توك، توك... قرع الموت.

قال ويلي وهو في سريره: «ادخل، كنت في انتظارك.»

لكنه حين حاول أن ينزع بنطلونها، فرّت الموت مذعورة[1].

1961: سان سلفادور دي بايا

أمادو

بينما كان ويلي همبج يخيف الموت في المكسيك، كان الروائي جورج أمـادو يبتكـر في الـبرازيل قبطاناً يخيف العزلة ويبعدها. وفقاً لأمادو، كان ذلك القبطان يتحدى الأعاصير والوهج المستنقعي، ويتخطى الزلازل البحرية والزوابع السـوداء، بينمـا يعـالج جيرانـه الفقـراء بمشـروبات معـدّةٍ مـن وصفات ذئب بحري عجوز من هونغ كونغ.

---

[1] يلاحظ أن الكاتب يؤنث الموت.

حين تحطّمتْ سفينة القبطان عند سواحل البيرو، تحطم جيرانه أيضاً. حين رأى المسؤولون المتقاعدون والجبناء، المرضى من الضجر والروماتيزم، جبلاً من الجليد يتقدم نحو سفينتهم بعيداً عن منعطف المرفأ، في بحر الشمال الضبابي، أو ريح السموم التي تهبّ بعنف على بحر بينغال دب الهلع في قلوبهم. كان الجميع يرتعشون من المتعة حين يستحضر القبطان مرة أخرى الحسناء العربية التي تأكل حبات عنب ريّانة وهي ترقص على رمال الإسكندرية، عارية إلا من وردة بيضاء على سرّتها.

لم يغادر القبطان البرازيل مطلقاً، ولم يضع قدمه في أي نوع من أنواع القوارب، لأن البحر يمرضهُ. كان يجلس في غرفة الجلوس في منزله فيما المنزل يبحر إلى أبعد مما حلم به ماركو بولو أو كولمبوس أو رواد الفضاء.

1962: كوسالا

واحد زائد واحد يساوي واحداً

كانا مقيدين إلى العمود نفسه، مثقلين بالخشب الجاف، ينظران إلى بعضهما بعضاً. هو، بعشق، هي، بدوار. وبينما كان الحمار والأتان ينظران إلى بعضهما ويفكران ببعضهما، عبرت نساءٌ ورعات الساحة، متجهات نحو الكنيسة، وهن يرتدين ثياباً للصلاة. ولأن اليوم هو يوم الجمعة الحزينة كن يرتّلن قدّاسات نادبة لسيدنا يسوع المسيح، وهن يعبرن، متشحات بالسواد، بطرحات سوداء، وجرابات سوداء، وقفازات سوداء. دب فيهن الهلع حين فلت الحماران وركضا ليمتعا نفسيهما هناك، في الساحة، قبالة الكنيسة، الملحقة بقصر المدينة.

دوّتْ الصرخات عبر المكسيك. ظهر رئيس بلدية كوسالا، خوسيه أنطونيو أوتشوا، على الشرفة، أطلق صرخةً، وغطى عينيه. على الفور أمر بإطلاق النار على الحمارين المتمردين فسقطا ميتين، مقيدين معاً بالحب.

1962: بيا دي خيسوس ماريا

واحد زائد واحد يساوي الكل

في قرية جبلية أخرى ليست بعيدة جداً كان هنود الكورا Cora يرتدون الأقنعة ويصبغون أجسادهم العارية. وكما في كل جمعة حزينة، كانوا يطلقون على الأشياء أسماءً جديدة بينما يستمر الاحتفال ـ هوى المسيح، اصطياد الأيّل السحري، قتل إله الشمس، تلك الجريمة التي بدأت منها الحياة الإنسانية على الأرض.

«ليمت، ليقتل، لينجب.»

عند قدم الصليب، كان العشاق الراقصون يقدمون أنفسهم، يتعانقون، يدخلون بعضهم بعضاً، وبين الراقصين ينزلق المهرجون ويقلدونهم. ينضم الجميع إلى لعب الحب، يداعبون، يكركرون، يضايقون. يأكل الجميع وهم يلعبون: تصبح الثمار قذائف، البيض قنابل، وتنتهي الوليمة العظيمة بحرب من التورتيا المقذوفة والعسل المنسكب. يمتّع هنود الكورا أنفسهم كالمجانين، يرقصون، يحبون، يأكلون تبجيلاً للآلام الأولى للمسيح المحتضر. من مكانه على الصليب يعبر عن شكره بابتسامة.

1963: بايامو

الإعصار

ضرب الإعصار كوبا لأكثر من أسبوع. هاجم أطول إعصار في تاريخ الأمة وتراجع، ثم عاد وكأنه أدرك أنه نسي سحق بضعة أشياء أخيرة. دار كل شيء حول ذلك العملاق، الثعبان الهائج الذي كان يتلوّى ويضرب فجأة، حيث لا يتم توقّع ذلك.

لم ينفع إغلاق الأبواب والنوافذ بالمسامير. حصد الإعصار كل شيء، لعب بالمنازل والأشجار، وقذفهما في الجو. فرغت السماء من الطيور المذعورة، بينما غمر البحر الجزء الشرقي من الجزيرة. من قاعدة في بايامو، غامرت الألوية متقدمة بالمروحيات والهجمات، وكان المتطوعون يجيئون ويذهبون لإنقاذ البشر والحيوانات، ويحقنون كل ما يجدونه على قيد الحياة ويدفنون أو يحرقون ما تبقى.

1963: هافانا

كل شخص يتقن جميع الصنائع

على تلك الجزيرة التي دمرها الإعصار، وتحاصرها وتضغط عليها الولايات المتحدة، كانت متابعة اليوم عملاً فذّاً. عرضت واجهات المخازن ملصقات تضامن مع فييتنام وليس أحذية أو قمصاناً، ولكي تشتري أصغر شيءٍ، يجب أن تنتظر ساعات في صف. السيارة التي تأتي بالمصادفة تسير على حلقات البستون المصنوعة من قرون الثيران، وفي مدارس الفن كان الغرافيت[1]، الذي تصنع منه أقلام الرصاص، يطحن ليقارب الألوان. في المصانع، تغطي بيوت العنكبوت بعض الآلات الجديدة، لأن قطعة غيار معيّنة لم تكمل بعد رحلة الستة آلاف ميل لتصل إلى هنا. كان النفط وكل ما تحتاجه كوبا يأتي من موانئ بحر البلطيق البعيدة، أما رسالة إلى فنزويلا فيجب أن تدور حول العالم قبل أن تصل إلى وجهتها القريبة.

[1] – شكل من الكربون أسودُ طريّ تُصنع منه أقلام الرصاص.

وليست الأشياء هي المفقودة فحسب، ذلك أن كثيراً من المتعالين ذهبوا إلى ميامي على غرار الأثرياء.

والآن؟

«الآن علينا أن نخترع».

في الثامنة عشرة، قام ريكاردو غوتييريث بعرض في هافانا رافعاً بندقيةً إلى الأعلى، وسط مدٍّ من البنادق، المناجل، وصمبريرات من ورق النخل، محتفلاً بنهاية دكتاتورية باتيستا. في اليوم التالي توجب عليه أن يتولى مسؤولية مشاريع متنوّعة تركها مالكوها. صار من نصيبه مصنع للثياب الداخلية النسائية، بين أشياء أخرى. على الفور بدأت مشكلة المواد الخام. لم يكن هناك زبد عصارة الشجر لحمالات الصدر. ناقش العمال المسألة في مقابلة وقرروا أن يشقوا الوسائد. كانت مصيبة. لا يمكن أن يغسل حشوُ المخدات لأنه لا يجف مطلقاً.

كان ريكاردو في سن العشرين حين وضعوا في جيبه قطعتي نقد وأرسلوه ليدير طاحونة سكّر. لم يكن قد رأى بتاتاً طاحونة سكر طيلة حياته، وحتى ولو من بعيد. اكتشف هناك أن لعصير قصب السكر لوناً داكناً. المدير السابق، الخادم المخلص، الذي يمتلك نصف قرن من التجربة، اختفى وراء الأفق حاملاً تحت ذراعه الصورة الزيتية لخوليو لوبو، سيد حقول قصب السكر التي صادرتها الثورة.

أرسل وزير الخارجية في طلبه. جلس راول روا Raul Roa على الأرض أمام خريطة كبيرة لأسبانيا مفروشة فوق السجّادة، وبدأ برسم صلبان صغيرة. هكذا اكتشف ريكاردو في سن الثانية والعشرين أنهم جعلوا منه قنصلاً.

قال متلعثماً: «*لكنني أطبع بإصبعين فحسب*.»

قال راو منهيا المسألة: «*أطبع بإصبع واحد ومع ذلك أنا وزير*.»

1963: هافانا

صورة بيروقراطي

زمن أسود يولد زمنا أحمر سيجعل ممكنا زمنا أخضر: ببطء حل التضامن مكان الجشع والخوف. انطلقت الثورة الكوبية لأنها قادرة على الاختراع، والإبداع والجنون. لكن، لها أعداء يجب أن تتجنبهم. كان هناك بين الذين يجب أن يخشى منهم أكثر من غيرهم، البيروقراطي، المدمر كالإعصار، الخانق كالإمبريالية. ليس هناك ثورة لا تحمل هذه الجرثومة في بطنها.

البيروقراطي هو الرجل الخشبي، خطأ الآلهة الذي بلا دم، ليس حاسما ولا غير حاسم، إنه صدى دون صوت، مصدر للأوامر، لا للأفكار. ينظر إلى أي شك كهرطقة، وإلى أي تناقض كخيانة، يخلط الوحدة بالإجماع، ويرى الشعب كطفل أبدي يجب أن يقاد من أذنه.

من المرجّح كثيراً أن البيروقراطي سيضع حياته على خط القتال. ولكن من المستحيل جداً أن يضع عمله على الخط.

1963: هافانا

بولا دي نييبي Bola de Nieve

«هذه ماركسية لينينية محلية» قال بولا دي نييبي مغنّي الغواناباكو، ولد دومنغو الطبّاخ وماما إنيس Mama Ines. قالها بنوع من التذمّر، بصوته الضخم، الأجش قليلاً، والمتلئ. الماركسية اللينينية المحلية، هو الاسم الذي أطلقه بولا دي نييبي على حماسة وابتهاج هذا الشعب الذي يرقص على إيقاع النشيد بأرداف متأرجحة، في تلك الثورة المولودة من العناق الوحشي بين أوروبا وأفريقيا على رمال أميركا. في هذا المكان، الآلهة التي صنعها البشر يهجّنها رجال صنعتهم الآلهة، السابقون انحدروا إلى الأرض، واللاحقون أطلقوا ليفتحوا السماء، وبولا دي نييبي احتفل بهذا كله في أغانيه المالحة.

1963: ريو كوكو

على كتفيه يحمل عناق ساندينو

الذي لم يمحوه الزمن. بعد ثلاثين عاماً، عاد العقيد سانتوس لوبيث إلى الحرب في الغابات الشمالية، بحيث يمكن أن تُولد نيكاراغوا.

منذ بضع سنوات، ولدت الجبهة الساندينية. أنجبها كارلوس فونسيكا أمادور وتوماس بورخي مع سانتوس لوبيث وآخرين لم يعرفوا ساندينو مطلقاً لكنهم أرادوا أن يطيلوا عمره.

كان العمل سيكلفهم دماً، وهم يعرفون ذلك: «*وهكذا لا يمكن أن تُغسَل أوساخ كثيرة بالماء مهما كان مقدّساً*»، قال كارلوس فونسيكا.

ضائعين، بلا أسلحة، مبلّلين بمطر أبدي، دون شيء يأكلونه ـ لكنهم يُؤكلون، يُضربون، ويخيب أملهم ـ يتجول رجال العصابات في الغابة. ولم يكن هناك لحظة أسوأ من الغروب. النهار هو النهار، لكن الغسق هو ساعة الألم، الوحدة المخيفة، والساندينيون ليسوا شيئاً بعد، أو تقريباً لا شيء.

1963: سان سلفادور

ميغيل في الثامنة والخمسين

كان ميغيل، يعيش كالعادة، مستخدماً يده وفمه، يوحّد الفلاحين ويسبب الأذى، حين اعتقلته الشرطة في بلدة صغيرة ما، ونقلته، مقيّد اليدين والقدمين، إلى مدينة سان سلفادور.

تعرّض هناك للضرب فترةً طويلةً. طيلة ثمانية أيام كانوا يضربونه وهو معلّقٌ، لحمه يصرخُ، لكنه لا يصدر أي صوت وهم يعذّبونه لينتزعوا أسراره. مع ذلك، حين شتم النقيب الشعب الذي يحبه، رفع العجوز المتحدي بقاياه النازفة، رفع الديك المنتوف عرفه وصاح.

أمر ميغيل النقيب أن يغلق فمه القذر. كان النقيب يدفن ماسورة مسدّس في عنقه. تحدّاه ميغيل أن يطلق النار. بقي الاثنان وجهاً لوجه، متوحشين، يلهثان وكأنهما ينفخان الجمر: ثبت الجندي، الذي يضع إصبعه على الزناد، عينيه على ميغيل، لم يرفّ جفن لميغيل، وهو يحصي الثواني، القرون، وهي تعبر، ويصغي إلى نبض قلبه وهو يصعد إلى رأسه. اعتبر ميغيل نفسه ميتاً، ميتاً بالفعل، حين فجأة أعتمَ ظلّ الوميض الوحشي لعيني الجلاّد، بسبب إنهاك، أو من يعرف ماذا، وميغيل يحتل تلكما العينين. رف جفن الجلاّد، وكأنه مندهش من كونه حيث كان. ببطء، أخفض المسدس، ومعه عينيه.

وهكذا حصلت الولادة الحادية عشرة لميغيل مارمول في الثامنة والخمسين من عمره.

1963: دالاس

تقرّر الحكومة أن الحقيقة لا توجد

ظهراً، في شارع بدالاس، اغتيل رئيس الولايات المتحدة. لم يكن قد مات حين أذيعت الرواية الرسمية. في تلك الرواية، التي ستكون نهائية، قيل إن لي هارفي أوسفالد، وحده، قتل جون كينيدي.

لم يتطابق السلاح مع الرصاصة، ولا الرصاصة مع الثقوب. ولم يتطابق المتهم مع التهمة: أوسفالد هو شخص سيىء جداً، بنيته الجسدية عادية، لكن، وكما تقول النسخة الرسمية، أفعاله كانت أفعال بطل في الرماية وعدّاء أولمبي. أطلق النار من بندقية قديمة بسرعةٍ مستحيلة وطلقته السحرية، التفت ودارت بشكل بهلواني لتخترق كينيدي لكن جون كونالي، حاكم تكساس، نجا بفعل معجزة.

بحماسةٍ أنكر أوسفالد ذلك. لكن لم يعرف أحد، ولن يعرف أحد مطلقاً ما لديه ليقوله. بعد يومين انهار أما كاميرات التلفزيون، والعالم كلّه يشاهد المشهد. قتله وأغلق فمه جاك ربي، وهو رجل عصابات تافه مهرّب للنساء والمخدرات. قال ربي إنه انتقم لكينيدي بسبب الوطنية والشفقة على الأرملة المسكينة.

1963: سانتو دومنغو

تاريخ عادات أميركية لاتينية

اعتاد أن يسبح من رمال سوسوا إلى البحر، مع فرقة تعزف لكي تبعد أسماك القرش.

لكن الجنرال توني إمبرت، كبير البطن والخامل، الذي نادراً ما يدخل إلى الماء، لا يزال يعود إلى شاطئ طفولته. كان يحب أن يجلس على حد الماء، يسدِّد، ويطلق النار على أسماك القرش. في سوسوا، تتنافس أسماك القرش مع الفقراء على بقايا المسلخ. الجنرال إمبرت متأسِّفٌ على الفقراء. من الشاطئ يرمي إليهم بعشرة دولارات.

كان الجنرال إمبرت يشبه، بشكل كبير، صديقه الحميم الجنرال ويسين ي ويسين. حتى ولو كان الاثنان مصابين بالزكام، يستطيعان أن يشما الشيوعية على بعد ميل، وكلاهما فاز بأوسمة كثيرة بسبب نهوضهما باكراً وقتلهما للبشر المغلولين. حين يقولان: «الرئيس»، يشير الاثنان إلى رئيس الولايات المتحدة.

سمنَ المتخرجان الدومينيكانيان من المدرسة الأميركية للأميركيتين في بنما، الجنرال إمبرت وويسين ي ويسين، تحت حماية تروخيّو. فيما بعد خانه الاثنان. حين أُجريتْ الانتخابات بعد موت تروخيّو وصوّت البشر كلهم لخوان بوش Juan Bosch، لم يستطيعا أن يقفا هادئين. رفض بوش أن يشتري طائرات للقوى الجويّة، طبق الإصلاح الزراعي، دعم قانون طلاق ورفع الأجور.

استمر الأحمر سبعة شهور، بعدها استعاد ويسين ي ويسين وجنرالات البلد الآخرين السلطة، قرص العسل الغني، في تمرد سهل حدث فجراً في الثكنات.

لم تضيّع الولايات المتحدة أي وقت واعترفت بالحكومة الجديدة.

1964: بنما

حشي اثنان وعشرون فتى بالرصاص

حين حاولوا رفع علم بنما على التربة البنمية.

«*لم نستخدم إلا زرق الطيور*»، قال قائد قوى الاحتلال الأميركية الشمالية مدافعاً.

رفرفتْ رايةٌ أخرى فوق القطّاع الذي يشق بنما من البحر إلى البحر. سادَ قانونٌ آخر، سيطرت شرطةٌ أخرى وسادت لغةٌ أخرى. لا يسمح للبنميين بدخول منطقة القناة دون إذن، حتى من أجل التقاط ثمار المانغو الساقطة، وكانوا يعملون هناك بمرتب من الدرجة الثانية، كالسود والنساء.

كانت منطقة القناة، المستعمرة الأميركية، مكاناً للمشاريع وقاعدة عسكرية في آن. كانت تموّل مناهج مدرسة الأميركيتين من الرسوم التي تدفعها السفن. في ثكنة منطقة القناة، كان ضباط البنتاغون يدرّسون الجراحة المضادة للشيوعية للعسكر الأميركيين اللاتينيين الذين سيحتلون حالاً في بلدانهم الرئاسة والوزارات ومراكز القيادة والسفارات.

«*إنهم قادة المستقبل*»، قال روبرت ماكنمارا، وزير دفاع الولايات المتحدة.

وبسبب خوفهم من السرطان الذي ينتظرهم، سيقطع هؤلاء العسكر يدي أي شخص يتجرأ على ارتكاب الإصلاح الزراعي أو التأميم، وسينتزعون ألسنة الحمقى أو الفضوليين.

1964: ريو دي جانيــرو

هناك غيوم سوداء

قال لنكولن جوردون:

«*ثمة غيوم سوداء تطوّق مصالحنا الاقتصادية في البرازيل...*»

كان الرئيس خواو غولارت Joao Goulart قد طبّق لتوّه الإصلاح الزراعــي وأمّـم مصـافي النفـط، وأنهى هرب رأس المال.

هاجمه السفير الأميركي الساخط علناً. من السفارة، تدفّقت أنهار النقود لتلوّث الـرأي العـام، واستعدّ العسكر للاستيلاء على السلطة. تم ترويج دعوة حادّة إلى انقلاب في الإعلام. حتـى نـادي الأسود وقّعها.

بعد عشر سنوات من انتحار بارغاس تأجّجَ الغضب نفسه مرّة أخرى أقوى بعـدة مـرّات. دعـا السياسيون والصحفيون إلى يسوعٍ يرتدي البدلة العسكرية لكـي ينظّم الفوضى. عـرض التلفزيـون فيلماً أظهر جدراناً برلينية تفصلُ جميعَ المدن البرازيلية إلى اثنتين. مجّدتْ الصحـف والإذاعـات فضائل الرأس مال الخاص، الذي يحوِّلُ الصحارى إلى واحاتٍ، وفضـائل القـوات المسلّحة التـي تمنع الشيوعيين من سرقة المياه. في جادات المـدن الرئيسـية توسـل مسير **الأسـرة والله مـن أجـل الحرية** طالباً الرحمة من السماء.

شجب السفير لنكولن جوردون، بقوّة، المؤامرة الشيوعيّة: خان غولارت، مالك المزارع، طبقته في لحظة الخيار بين الملتهمين والمُلْتَهَمون، بين الصـانعين وموضوعـات الآراء، بـين حرّيـة النقـود وحرية الشعب.

1964: خويث دي فورا Juiz de Fora

إعادة غزو البرازيل

تقريباً بعد ثلاثين عاماً من ترتيب الكابتن أوليمبيو موراو فيلو Olympio Mourao Filho لمؤامـرة شيوعية بأمر من الرئيس بارغاس، اشترى الجـنرال مـوراو فيلـو مؤامـرة شـيوعية فبركـها السـفير لنكولـن جـوردون. اعـترف الجـنرال المتواضـع أنـه، في المسـائل السياسـية، «مجـرد ثـور بلبـاس عسكري، لكنه لا يفهم شيئاً بخصوص المؤامرات الشيوعية.

رفع سيفه في ثكنة خويث دي فورا: «*سأنتشل البرازيل من الهاوية.*»

كان موراو مستيقظاً قبل الفجر، وبينما كان يحلق ذقنه رتّل مزمور داوود، ذلك الذي يعلـن أن الزرع كله سيهلك. ثم تناول فطوره، هنّأ زوجته لأنها متزوِّجة من بطل، وعلى رأس قواتـه انطلـق نحو ريو دي جانيرو.

وقف بقية الجنرالات معه، ومن الولايات المتحدة، التي كانت تتقدم مسبقاً نحو البرازيل، أتت حاملة طائرات واحدة، وعدد كبير من الطائرات والسفن الحربية، وأربع سفن للتزويد بالوقود. إنها عملية «الأخ سام» لمساعدة الانتفاضة.

كان خواو غولارت، المحتار، يراقب الحدث. أرسل زميله لندن جونسون موافقته الكاملة لمؤلفي الانقلاب، رغم أن غولارت لا يزال رئيساً. على الفور قدمت وزارة الخارجية الأميركية قروضاً كريمة للحكومة الجديدة. من الجنوب، لم تنتج محاولة ليونيل بريثولا للمقاومة أي صدى. أخيراً، اتجه غولارت إلى المنفى.

يد مجهولةٌ كتبتْ على الحائط في ريو دي جانيرو: «لا حاجة للوسطاء، اجعلوا لنكولن جوردون رئيساً!»

لكن الجنرالات المنتصرين اختاروا المارشال كاستيبيو برانكو، وهو رجل عسكريٌّ وقورٌ دون حسّ فكاهة أو عنق.

1964: لا باث

دون عارٍ أو مجدٍ

دون عار أو مجد، ومثل رئيس البرازيل، ركب الرئيس فيكتور باث إستنسورو طائرة أقلّته إلى المنفى.

ترك خلفه ريني بارينتوس، طياراً ثرثاراً، كديكتاتور بوليفيا. شارك السفير الأميركي في اجتماعات مجلس الوزراء، جالساً بين الوزراء، بينما أعد مدير شركة غلف أويل المرسومات الاقتصادية.

ترك باث إستنسورو وحيداً، بشكل مدمّر، ومعه سقطتْ الثورة الوطنية بعد بقائها في السلطة لمدة اثني عشر عاماً. استدارت الثورة قِطعةً بَعد أخرى إلى أن أدارتْ ظهرها للعمال، من الأفضل أن ترضعَ الأثرياء الجدد والبيروقراطيين الذين عصروها إلى أن جفّتْ. الآن، نفخةٌ ضئيلةٌ تكفي لنسفها.

في غضون ذلك، تنازع العمال كأنهم رجال قبائل لايمي Laime وخوكوماني Jucumani.

1964: شمال بوتوسي

بغضبٍ وحشيٍ

بغضبٍ وحشيٍ تقاتل هنود لايمي وخوكوماني. الأفقر في بوليفيا الفقيرة، المنبوذون بين المنبوذين، كرسوّا أنفسهم لقتل بعضهم بعضاً على السهب الجليدي في شمال بوتوسي. مات خمسمائة من القبيلتين في السنوات العشر السابقة والأكواخ التي احترقت لا تُحصى. كانت المعارك تتواصل أسابيع، دون انقطاعٍ أو رحمة. قطّع الهنود بعضهم بعضاً إلى أشلاءٍ للانتقام من

أجل مظالم تافهة أو نتيجة نزاع على قطع من الأرض المجدبة في تلك العزلة المهيبة التي نُفوا إليها منذ زمن بعيد.

كان هنود اللايمي والخوكوماني يعيشون على البطاطس والشعير، وهما كل ما يقدمه لهم السهب بعد جهدٍ كبير، وينامون على جلود الخراف، يرافقهم القمل الذي يرحّبُ بدفء أجسادهم.

ومن أجل طقوس الإبادة المتبادلة كانوا يغطون رؤوسهم بقبعات من الجلد النيئ وهي بالضبط في شكل خوذ الفاتحين.

قبعات

جاءت القبعات إلى بوليفيا من أوروبا، أحضرها الفاتحون والتجار، لكنها تكيّفتْ لتنتمي إلى هذه الأرض وهذا الشعب. كانت، في الأصل، مثل وسم القطيع، أقنعة إجبارية ساعدت الأسياد الإسبان على التعرّف على الهنود الذين يملكونهم. مع مرور الزمن، بدأت الجماعات تزيّن أغطية رؤوسها بأختام كبريائها الخاصة، رموز المتعة: النجوم، والأقمار الفضية الصغيرة، الريش الملوّن، الكرات الزجاجية، الأزهار الورقية، تيجان الذرة... فيما بعد، غمر الإنكليز بوليفيا بالقبعات المستديرة السوداء والقبعات الرسمية: قبعة أنبوب الموقد لنساء بوتوسي الهنديات، قبعات كوتشابامبا البيضاء. نتيجة خطأ ما، وصلت قبعة بورسالينو من إيطاليا واستقرّتْ على رؤوس نساء لاباث الهنديات.

وسواء كان الهندي البوليفي، رجلاً أو امرأة، فتى أو فتاة، يمكن أن يسير حافياً، لكنه لا يسير مطلقاً بدون قبعة. تطيل القبعة الرأس الذي تحميه، وحين تسقط الروح، تلتقطها عن الأرض.

1965: سان خوان، بويرتو ريكو

بوش Bosch

تدفق البشر في شوارع سانتو دومنغو، مسلّحين بكل ما وقع تحت أيديهم، وقذفوا أنفسهم على الدبابات. «اخرجوا أيها اللصوص! «صرخوا.» عد يا خوان بوش يا رئيسنا!»

سجنت الولايات المتحدة بوش في بويرتو ريكو ومنعته من العودة إلى بلاده الملتهبة. كان بوش، الرجل الذي من نسيجٍ قوي، وكلّه أوتارٌ وتوتّر، وحيداً في غضبه، يعضُّ قبضتيه، فيما عيناه الزرقاوان تخترقان الجدران.

سأله صحفيٌّ عبر الهاتف إذا كان عدوّاً للولايات المتحدة. كلا، إنه عدوٌّ للإمبريالية الأميركية فحسب.

قال بوش: «*لا يمكن لأحد قرأ مارك توين أن يكون عدوّاً للولايات المتحدة.*»

1965: سانتو دومنغو

كامانو Caamano

تدفق الطلاب، والجنود، والنساء اللائي يحملن مجعدات الشعر إلى الشجار. بحواجز من البراميل والشاحنات المقلوبة، تم إيقاف التقدم الصاخب للدبابات. طارت الأحجار والزجاجات، بينما من رأس أجنحة الطائرات المحومة حصدت نيران الرشاشات جسر نهر أوثاما والشوارع المزدحمة. ارتفع مد البشر وفصل الجنود الذين خدموا سابقا تروخيو: كان في جانب أولئك الذين قادهم إمبرت وويسن ي ويسن، الذين يطلقون النار على البشر، وفي الجانب الآخر وقف أتباع فرانسيسكو كامانو الذين حطموا أبواب الترسانات وبدأوا يوزعون البنادق.

في ذلك الصباح، أطلق كامانو الانتفاضة من أجل عودة بوش، معتقدا أن المسألة لن تستغرق سوى دقائق. في منتصف اليوم، أدرك أن المسألة تقتضي عملا طويلا، أن عليه أن يواجه رفاقه في السلاح، أن الدم يتدفق، وانتابه إحساس بمأساة وطنية. حين خيم الليل لجأ إلى السفارة السلفادورية.

منهارا على كرسي بذراعين، حاول كامانو أن ينام. تناول حبوبا منومة، جرعته المعتادة وأكثر من ذلك، لكن هذا لم يعمل. الأرق، طحن الأسنان، عض الأظافر: إرث تروخيو له منذ أن كان ضابطا في جيش الديكتاتور ونفذ أعمالا سوداء وأحيانا وحشية أو شاهدها تنفذ. والليلة الأمر أسوأ من السابق. ما إن أغمض عينيه حتى بدأ يحلم. حين يحلم يكون صادقا مع نفسه، حين يستيقظ يرتجف، يبكي، ويشعر بالعار من خوفه.

جاء الصباح وانتهى منفاه الذي لم يستمر إلا ليلة واحدة. بلل العقيد كامانو وجهه وغادر السفارة. سار محدقا إلى الأرض، عبر دخان النيران، الدخان الكثيف الذي ألقى ظلا على الأرض، وظهر في ضوء النهار الذي يومض ليعود إلى موقعه على رأس التمرد.

1965: سانتو دومنغو

الغزو

ليس جوا أو برا أو بحرا. لم تستطع طائرات الجنرال ويسن ي ويسن ودبابات الجنرال إمبرت أن تهدئ المناقشة العامة في المدينة المحترقة وفشلت كذلك السفن التي أطلقت على القصر الحكومي الذي احتله كومانو ولم تقتل إلا الخادمات.

أفادت سفارة الولايات المتحدة، التي دعت التمرد «*الحثالة الشيوعية*» و*عصابة من* «*قطاع الطرق*»، أنه ليس هناك طريقة لإيقاف الإزعاج وطلبت مساعدة مستعجلة من واشنطن. هبط المارينز.

في اليوم التالي، مات الغازي الأول: أطلقت النار على فتى من جبال ولاية نيويورك الشمالية، من سطح، في شارع ضيّق من شوارع هذه المدينة التي لم يسمع باسمها طيلة حياته. كانت الضحية الدومينيكانية الأولى فتى في الخامسة من عمره. مات على الشرفة بسبب انفجار قنبلة يدوية. ظنّه الغزاة قنّاصاً.

حذّر الرئيس ليندون جونسون أنه لن يسمح بكوبا أخرى في منطقة الكاريبي. هبط المزيد من القوات ثم المزيد. عشرون ألفاً، خمسة وثلاثون ألفاً، اثنان وأربعون ألفاً. وبينما كان الجنود الأميركيون يمزّقون الدومينيكانيين، كان المتطوعون الأميركيون الشماليون يخيطونهم مع بعضهم في المستشفيات. حضّ جونسون حلفاءه على الاشتراك في هذه الحملة الصليبية الغربية. ديكتاتورية البرازيل العسكرية، ديكتاتورية باراغواي العسكرية، ديكتاتورية هندوراس العسكرية، وديكتاتورية نيكاراغوا العسكرية، أرسلت جميع هذه الديكتاتوريات قوات إلى جمهورية الدومينيكان لإنقاذ الديموقراطية التي كان يهددها أبناؤها.

قاتل أبناء الشعب وهم محصورون بين النهر والبحر، في الحي القديم لسانتو دومنغو.

التقى خوسيه مورا أوتيرو، الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية، سراً بالعقيد كامانو. عرض عليه ستة ملايين دولار ليغادر البلاد وقال له: اذهب إلى الجحيم.

1965: سانتو دومنغو

مائة واثنان وثلاثون ليلة

ولا تزال حرب العصي والسكاكين والقربينات ضد مدفعية الهاون والرشاشات مستمرة. فاحت المدينة برائحة البارود، القمامة، والموت.

غير قادرين على فرض الاستسلام، لم يكن أمام الغزاة، الأقوياء جداً، سوى الاتفاقية. اللاأحد، اللاشيء لم يسلموا أنفسهم للهزيمة، خاضوا معارك شرسة في الليل، في كل ليلة، من منزل إلى آخر، جسداً لجسد، ياردة ياردة، إلى أن ترفع الشمس رايتها الملتهبة من قاع البحر ليختفوا في الظلمة إلى الليلة التالية. وبعد ليال كثيرة من الرعب والمجد، لم تنجح القوى الغازية في تنصيب الجنرال إمبرت في السلطة، ولا الجنرال ويسن ي ويسن ولا أي جنرال آخر.

1965: هافانا

مكثّر الثورات

انطلق رجل العصابات السبارطي، نحو أراض أخرى. أعلن فيديل عن رسالة تشي الوداعية. «*الآن لا شيء قانونياً يربطني بكوبا، لا تربطني بها سوى الروابط التي لا يمكن أن تقطع*»، قال تشي.

كتب تشي أيضاً إلى والديه وأولاده. طلب من أولاده أن يقدروا أن يشعروا في أعماق قلوبهم أي ظلم يُمارس ضد أي شخص في أي جزء من العالم.

هنا، في كوبا، الربو وكل شيء، كان تشي أول من وصلَ وآخر من ذهب، في الحرب والسلم، دون أدنى ضعف.

أحبّهُ الجميع ـ النساء، الرجال، الأطفال، الكلاب والنباتات.

تشي غيفارا يودّعُ والديه

مرة أخرى أشعر تحت كعبيَّ بأضلاع روزنانته: أعود إلى الطريق بدرع على الذراع...

سيقول كثيرون إنني مغامر، وهذا صحيح، لكنني مغامرٌ من نمطٍ مختلف ـ من أولئك الذين يجازفون بجلودهم ليشرحوا حقائقهم. يمكن أن يكون هذا حاسماً. غير أنني لا أبحث عنه لكنه داخل التقدير المنطقي للاحتمالات. إذا كان هكذا، فهذا عناقي الأخير.

أحببتكما كثيراً، لكنني لم أعرف كيف أعبّر عن عاطفتي، أنا قاس جداً في أفعالي وأعتقد أنكما لم تفهماني أحياناً. لم يكن من السهل فهمي، لكن أتمنى أن تصدقاني اليوم.

إن الإرادة التي صقلتها بمتعة فنان سوف تغذّي هاتين الساقين الضعيفتين والرئتين المنهكتين. سأفعلها. فكرا مرة واحدة بمرتزق القرن العشرين الصغير هذا.

1966: باتيوثيمنتو Patiocemento

نعرف أن الجوع فان

قال الكاهن كاميلو توريس. «*نعرف أن الجوع فان، وإذا عرفنا هذا، هل هناك معنى في تضييع الوقت في الجدل حول فيما إذا كانت الروح خالدة؟*»

آمن كاميلو بالديانة المسيحية كممارسة لحب المرء لجاره، وأراد أن يكون هذا الحب فعّالاً. كان مهووساً بالحب الفعال. جعله الهوس يحمل السلاح، وبسببه مات، في زاوية مجهولة من كولومبيا، مقاتلاً مع الثوار.

1967 : يايـاغوا Llallagua

عيد سان خوان

المُعَدِّنون البوليفيون هم أبناء العذراء وأبناء أخت الشيطان، لكن كلتاهما لا تستطيع أن تنقذهم من الموت المبكر. كانوا يُدفنون في أحشاء الأرض والمطر العنيد لغبار المنجم يدمرهم: في لحظة فقط، بضعة سنين، تتحول رئاتهم إلى أحجار وتنسدُّ قصباتهم الهوائية. وحتى قبل أن تنسى الرئات أن تتنفس، ينسى الأنف الروائح واللسان الطعم، تصبح الرجل كالرصاص ولا يطلق الفم إلا الشتيمة والانتقام.

حين يخرجون من الحفـرة، يبحـث المعدّنون عـن حفلـة. وبينمـا تتواصـل حياتـهم القصـيرة وتتحرك أرجلهم، يحتاجون إلى تناول يخنة متبّلة وبلع مشروبات قوية. يغنون ويرقصون في ضوء النيران التي تدفئ السهل العاري.

في ليلة سان خوان هذه، تقوم أعظم الحفلات، فيما الجيش يكمن في الجبـال. تقريبـاً لا شـيء معروفاً عن ثوار نهر نانكاهواثو البعيد، رغم أن الحكاية تقول إنهم يقاتلون من أجل ثورةٍ جميلـة، كمثل المحيط لم تُر مطلقاً. لكن الجنرال بارييتوس كان يعتقد أن إرهابياً ماكراً يكمـن داخـل كـل معدّن.

قبل الفجر، تماماً مع نهاية عيد سان خوان، شق إعصارٌ من الرصاص طريقه عبر بلدة اياغوا.

1967: كاتابي Catavi

اليوم التالي

ضوء اليوم الجديد هو مثل وميض العظام. عندئذ تختبئ الشمس خلف السحاب بينما يحصـي منبوذو الأرض موتاهم ويحملونهم في عربات صغيرة. يتقدّم المعدّنون علـى طريـق ضيّـق وموحـل في ياياغوا. يعبر الموكب النهر، يسيل لعاب قذر بين أحجار من الرماد، ثم يشكل خيطاً نَحو السهل الشاسع إلى مقبرة كاتابي.

السماء، سقف الصفيح الكبير، ليس فيها شمس، وليس على الأرض نار لتدفئتها. لم يكن هذا السهل متجمداً هكذا من قبل.

ينبغي أن تُحفر قبور كثيرة. اصطفت أجسام من جميع الأحجام، متمددة ومنتظرة.

من على سور المقبرة، صرخت امرأة.

1967: كاتابي

دوميتيلا

صرخت دوميتيلا من على السور ضد القتلة.

كانت تعيش في غرفتين دون مرحاض أو مياه جارية مع زوجها المعدّن وسبعة أبناء فيما الابـن الثامن متلهّفٌ للولادة. كانت دوميتيلا تطبخ كل يوم، تغسل، تكنـس، تنسـج، تخيّـط، تعلّـم مـا تعرفه، تعالج قدر استطاعتها، تحضر مائة فطيرة لحم وتطوف في الشوارع بحثاً عن شراة.

اعتقلوها بتهمة شتم الجيش البوليفي وبصق جنديٌّ على وجهها.

التحقيق مع دوميتيلا

بصق على وجهي ثم رفسني. لم أتحمّل ذلك فأوقفته. لكمني مرة أخرى. خدشتُ وجهه. كان يضربني ويضربني... وضعَ ركبته هنا على بطني. عصر عنقي حتى كدتُ أختنق. بدا وكأنه أراد أن يفجر بطني. أحكم إمساكه بي... ثم بيديَّ، بيديّ الاثنتين، وبكامل قوّتي انتزعتُ يديه. ولا أعرف كيف، لكنني أمسكته بقبضتي وبدأت أعضّه... قرفتُ بشكل مرعب من مذاق دمه في فمي... ثم، بكل غضبي بصقت الدم على كل وجهه. بدأ عويلٌ هائلٌ. أمسكني، رفسني، صرخ بي... نادى الجنود وجعل أربعةً منهم أو أكثر يمسكونني...

حين استيقظت وكأنني أستيقظ من حلم، كنت أبلع قطعة من ضرسي. شعرت بها هنا في حنجرتي. ثم لاحظتُ أن هذا الوحش كسرَ ستةً من أسناني. كان الدمُ يتدفّقُ عليَّ ولم أستطع أن أعرف إن كان من عينيَّ أو أنفي...

ثم، وكأن القدر أراد ذلك، بدأتُ أنجبُ. بدأت أشعر بالآلام المتلاحقة، وأحياناً بدا الرضيع الذي كان يولد كثيراً جداً عليَّ... لم أعد أستطيع تحمّل ذلك. وذهبت لأنحني في زاوية. دعمتُ نفسي وغطّيتُ وجهي، لأنني لم أستطع أن أجنّد ذرة من القوة. شعرت أن وجهي سينفجر. وفي إحدى تلك اللحظات خرجَ. رأيت أن رأس الطفل قد خرج مسبقاً... وحينئذٍ أُغميَ عليَّ.

لا أدري كم استمر هذا: «أين أنا؟ أين أنا؟»

كنت مبللة بشكل كامل. الدم والسائل الذي يخرج أثناء الإنجاب بلل كامل جسدي. ثم قمت بجهدٍ وبطريقة ما أمسكت بحبل سرة الطفل. سحبت الحبل، في نهايته وجدتُ طفلي الصغير، بارداً، متجمداً، هناك على الأرض.

1976: كاتابي

الإله في الحجر

بعد عاصفة الرصاص، كنست ريح عاصفة مدينة المناجم ياياغوا ونزعت جميع السقوف. في أبرشية كاتابي في الجوار، قلبت الريح تمثال العذراء وحطّمته. لكن منصبه الحجري بقي سليماً. جاء الكاهن ليلتقط عن الأرض قطع المرأة الطاهرة.

«انظر أيها الأب»، قال له العمال، وشرحوا له كيف تخلّص المنصب من العذراء التي أنهكته.

داخل المنصب لا تزال الآلهة القديمة المغزوّة تنام، وتحلم، وتتنفس، تحرص على الملتمسين، وتذكر عمال المنجم أن اليوم العظيم آتٍ: *يومنا، ذلك الذي ننتظره*.

منذ ذلك اليوم الذي اكتشفه فيه العمال وعبدوه، شجب الكاهن الحجر الذي يجترح المعجزات. سجنه في قفصٍ إسمنتي بحيث لا يستطيع العمال أن يعرضوه في المواكب، ثم وضع

عليه العذراء مريم. كان البنّاء الذي سجن الحجر بأمرٍ من الكاهن يرتجف من الحمّى وأصيب بالحول منذ ذلك اليوم المشؤوم.

1976: على ضفتي نهر نانكاهواثو

سبعة عشر رجلاً يسيرون إلى الإبادة

وصل الكاردينال موريز إلى بوليفيا. أحضر من روما بركات البابا وكلمة تفيد أن الله يدعم، بشكل لا لبس فيه، الجنرال بارييتنوس ضد المغاوير.

في غضون ذلك، التف المغاوير الجائعون، والفاقدون للاتجاه، وداروا عبر دغل نهر نانكاهواثو. هناك عددٌ قليل من الفلاحين في هذه المناطق المنعزلة، ولم ينضمّ فلاّحٌ واحدٌ إلى قوات تشي غيفارا القليلة. كانت قواته تتضاءل من كمين إلى آخر. لكن تشي لم يضعف ولم يقبل الضعف، رغم شعوره بأن جسده حجرٌ بين الأحجار، حجرٌ ثقيلٌ يجرّهُ وهو يقود الآخرين، ولا يسمح بأن تغريه فكرة إنقاذ المجموعة من خلال ترك الجرحى. بأمرٍ من تشي تحرك الجميع بخطوة أولئك الأقل قدرة على الحركة: سيُنْقذون جميعاً أو يضيعون.

يضيعون. ألف وثمانمائة جندي يقودهم جنود أميركيون مدرّبون، كانوا يتعقبونهم في الظلال. اشتدت الحلقة بالتدريج. أخيراً، بلّغ عنهم فلاحان مخبران وحدد رادار وكالة الأمن القومي الأميركي موقعهم.

1967: وهد يورو

سقوط تشي

كسرت طلقات الرشاش رجليه. وهو يجلس، قاتل إلى أن فجّروا البندقية بين يديه. تقاتل الجنود الغازون على ساعته، ومزادته، وحزامه، وغليونه. تناوب على استجوابه عدة ضباط، واحداً بعد آخر. لجأ تشي إلى الصمت بينما كان ينزف. أهانه نائب الأميرال أوغارتيشي، ذئب الأرض الجسور، رئيس البحرية في بلد بلا محيط، وهدده. بصق تشي في وجهه.

من لاباث جاء الأمر بإنهاء الأسير. انفجار طلق ناري. مات تشي من رصاصة خائنة قبل عيد ميلاده الأربعين بوقت قصير، في السن الذي مات فيه زاباتا وساندينو، كذلك من رصاصات خائنة.

في بلدة إيغيراس Higueras الصغيرة، عرض الجنرال بارييتنوس غنيمته للصحفيين. كان تشي ممدداً في حوض للغسيل. أطلقوا عليه للمرة الأخيرة بعدسات الكاميرات. في هذا الوجه الأخير عينان متهمتان وابتسامة كئيبة.

1967: إيغيـراس

الأجراس تقرع من أجله

هل مات في 1967 في بوليفيا لأنه خمّن خطأ عن متى وأين وكيف؟ أو هل لم يمت على الإطلاق، في أي مكان، لأنه لم يكن مخطئاً حيال ما يهم في الحقيقة رغم كل متى وأين وكيف؟

آمن أن المرء ينبغي أن يدافع عن نفسه ضد مصائد الجشع دون أن يتخلّى عن يقظته. حين كان رئيساً لبنك كوبا الوطني، كان يوقع على الأوراق النقدية «تشي» ليسخر من النقود. من أجل حب البشر ازدرى الأشياء. اعتقد أن العالم الذي تكون فيه الملكية والوضاعة شئياً واحداً هو عالم مريض. لم يحتفظ مطلقاً بأي شيء لنفسه، ولم يطلب أي شيء.

أن تحيا هو أن تمنح نفسك، هذا ما ظنّه، ولقد منح نفسه.

1967: لاباث

صورة فحل خارق

على كتفي نيني، حارسه الشخصي العملاق، عبر الجنرال بارييتوس مدينة لاباث. من على كتفي نيني كان يحيي أولئك الذين يصفقون له. دخل القصر الحكومي. جالساً إلى مكتبه، ونيني خلفه، يوقع مرسومات تبيع بأسعار منخفضة السماء، التربة، الطبقة التي تحت التربة في بوليفيا.

منذ عشر سنوات، وضع بارينتوس في الوقت المناسب في مصح نفسي في واشنطن دي سي لأنه خطر له أن يصبح رئيساً لبوليفيا. كان قد شق طريقاً لنفسه كرياضي. متنكراً كطيار أميركي شمالي، حاصر السلطة، والآن يمارسها، يقتل العمال ويهدم المكتبات والأجور.

قاتل تشي هو ديكٌ بصياح مرتفع، رجل بثلاث خصيات، مائة امرأة، وألف طفل. لم يطر أي بوليفي إلى هذا الارتفاع، أو يلقي تلك الخطب الكثيرة، أو يسرق هذا المقدار.

في ميامي، انتخبه الكوبيون المنفيون رجلَ العام.

1967: استوريل

مشاهير المجتمع

ثبّتتْ المضيفة إلى تسريحة شعرها المتوهجة بعض أكبر قطع الألماس في العالم. عرض الصليب الذي على عقد حفيدتها إحدى أكبر قطع الزمرد في العالم. أقام آل باتينو Patinos، ورثة إحدى أكبر الثروات في العالم، إحدى أكبر الحفلات في العالم.

لكي يسعدوا ألف شخص ليلاً ونهاراً طيلة أسبوع، جمع آل باتينو جميع الأزهار الجميلة والمشروبات التي يمكن شراؤها في البرتغال. كانت الدعوات قد تمت مسبقاً، بحيث أن مصممي الأزياء، والصحفيين يمكن أن يؤدوا وظائفهم بشكل جيد. كانت السيدات يغيرن عدة مرات في اليوم فساتينهن، وكلها تصميمات خاصة، وحين يظهر ثوبان متشابهان في أحد الصالونات، تعلق إحداهن إنها ستقلي إيف سان لوران بالزيت. جاءت الأوركسترا من نيويورك بعقد خاص وأتى الضيوف باليخوت أو بالطائرات الخاصة. كان نبلاء أوروبا في الخارج في طريقهم. اشترى المرحوم، المنتحب عليه، سيمون باتينو، آكل لحوم البشر البوليفي، مفترس المعدّنين، اشترى تحالفات من الصنف الأول. زوج ابنتين إلى كونت وماركيز، وابنة إلى ابن العم الأول لملك.

1967: هوستون

علي

سموه كاسيوس كلاي: لكنه اختار أن يدعو نفسه محمد علي.

جعلوه مسيحياً: اختار أن يكون مسلماً.

أجبروه أن يدافع عن نفسه: لا أحد يلكم مثل علي، بشكل وحشي وسريع. إنه دبابة خفيفة، ريشة كالبلدوزر، مالك تاج العالم الذي لا يُهزم.

قالوا له إن الملاكم الجيد يحصر قتاله بالحلبة: قال إن الحلبة الحقيقية هي شيء آخر، حيث يقاتل الأسود المنتصر من أجل السود المنهزمين، من أجل أولئك الذين يأكلون الفتات في المطبخ.

نصحوه بالتعقّل: مذاك بدأ يصرخ.

راقبوا هاتفه: فبدأ يصرخ على الهاتف أيضاً.

وضعوا عليه بزة عسكرية ليرسلوه إلى فييتنام: نزعها وصرخ بأنه لن يذهب وليس لديه شيء ضد الفييتناميين، الذين لم يؤذوه هو أو أي أميركي أسود.

انتزعوا منه لقبه العالمي، منعوه من الملاكمة، حكموا عليه بالسجن وبدفع غرامة: فصرخ شاكراً على هذه الاطراءات لكرامته الإنسانية.

1968: ممفيس

صورة رجل خطير

وعظ مارتن لوثر كنغ الموقر ضد حرب فييتنام. احتج قائلاً: يموت هناك من السود أكثر مما يموت من البيض بمرتين، يغذون المدافع في مغامرة إمبريالية تقارن بجرائم النازية. كان تسميم الماء والأرض، تدمير البشر والمواسم جزءاً من خطة للإبادة. قال الواعظ: من بين المليون فييتنامي الذين ماتوا، كان الأغلبية من الأطفال.

أضاف: إن الولايات المتحدة تعاني من مرض في روحها، والتشريح سيظهر أن هذا المرض اسمه فييتنام.

منذ ستة أعوام وضعت الـ «ف بي آي» هذا الرجل في القسم ألف من القائمة المدّخرة للمستقبل، بين أولئك الأفراد الخطيرين الذين يجب أن يُراقبوا ويُسجنوا في حالة الطوارئ. منذ ذلك الوقت بدأت الشرطة تطارده، تتجسس عليه ليلاً ونهاراً، تهدده وتحرّضه.

انهار مارتن لوثر كنغ على شرفة فندق في ممفيس. رصاصة في الوجه أنهت ذلك «الإزعاج».

1968: سان خوسيه، كاليفورنيا

الشيكانوز The Chicanos

أصدر القاضي جيرالد شارجن حكماً على شاب اتهم بسفاح القربى، وبينما هو يفعل ذلك نصح الشاب أن ينتحر وقال له: «*أنتم الشيكانوز أسوأ من الحيوانات، بائسون، قذرون، ومتعفّنون...*»

الشيكانوز منحدرون من أولئك الذين جاؤوا عبر نهر الحدود من المكسيك إلى قطاف القطن، البرتقال، البندورة، والبطاطس بأجور تافهة ومكثوا في الولايات الجنوبية الغربية والغربية، التي كانت، حتى من أقل من قرن، تدعى شمال المكسيك. في هذه الأراضي، التي لم تعد لهم، استخدموا واحتُقِروا.

من كل عشرة أميركيين شماليين قُتلوا في فييتنام، كان هناك ستة من السود أو الهسبانيين. ولهم يقولون:

إذا كنتم أشداء وأقوياء هكذا، تذهبون إلى خط القتال أولاً.

1968: سان خوان، بويرتو ريكو

ألبيثو

مواطنو بويرتكو ريكو جيدون أيضاً في الموت في فييتنام باسم أولئك الذين احتلوا بلادهم.

كانت جزيرة بويرتو ريكو، المستعمرة الأميركية الشمالية، تستهلك ما لا تنتجه وتنتج ما لا تستهلكه. لا يُزْرَعُ في أراضيها المهجورة حتى أرز وحبوب الطبق الوطني. كانت واشنطن تعلّم سكان بويرتو ريكو أن يتنفسوا هواء مبرّداً، ويأكلوا طعاماً معلّباً، ويسوقوا سيارات طويلة، مطلية بالكروم، أن يغوصوا في الديون إلى أعناقهم، ويفقدوا أرواحهم وهم يشاهدون التلفاز.

مات بدرو ألبثيو كامبوس منذ وهلة بعد أن أمضى عشرين عاماً في السجون الأميركية بسبب نشاطاته التي لا تتوقف كمثير للشغب. اعتاد أن يقول: لكي يستعيد الوطن، يجب أن يحبه المرء بروحه وحياته، كما اعتقد، وكأنه امرأة. لكي يجعله يتنفّس مرة أخرى، يجب أن ينقذه المرء بالرصاص.

كان دائماً يرتدي ربطة عنق سوداء من أجل الوطن المفقود. وكانت وحدته في ازدياد.

1968: مكسيكو سيتي

الطلاب

اجتاح الطلاب الشوارع. لم تُر في مكسيكو من قبل مظاهرات كهذه مطلقاً، ضخمة، مرحة، الجميع يشابكون أذرعهم، يغنون ويضحكون. كان الطلاب يصرخون ضد الرئيس دياث أورداث ومومياءاته الوزارية، وجميع الذين استولوا على ثورة زاباتا وبانتشو.

في تلاتيلولكو، الساحة التي تقاتل فيها الهنود والفاتحون حتى الموت، نصبَ فخٌ. سد الجيش جميع المخارج بدبابات ورشاشات تمركزت استراتيجياً. داخل الإسطبل، سجن الطلاب، المستعدون للتضحية، مع بعضهم بشكل يدعو إلى اليأس. تقدم جدار متواصل من البنادق بحراب مثبتة لختم المصيدة.

قدم مشعلان، أحدهما أخضر، والآخر أحمر، الإشارة. بعد ساعات، بحثت امرأة عن ولدها، وكان حذاؤها يترك آثار دم على الأرض.

قالت أم الطالب:

كان هناك الكثير، الكثير من الدم

«كثير من الدم شعرت بكثافته على يديَّ. كان هناك دمٍ على الجدران كذلك. أعتقد أن مسام جدران تلاتيلولكو مليئة بالدم، تلاتيلولكو كلها تتنفس دماً... كانت الأجساد تتمدد على الإسمنت تنتظر أن تُنقل. أحصيت الكثيرين من النافذة، حوالي ثمانية وستين. كانوا يكومونهم تحت المطر. تذكرت أن ولدي كارليتوس يرتدي سترة خضراء من القماش القطني واعتقدت أنني رأيته في جميع الجثث...»

1968: مكسيكو سيتي

ريبويلتاس Revueltas

كان هناك طيلة نصف قرن، لكنه يكرر كل يوم جريمة كونه شاباً. دائماً يحضر خوسيه ريبويلتاس في مركز أي اضطراب، وهو يشجب الآن مالكي القوة في المكسيك، الذين، بسبب حقد لا يتوقف على كل ما ينبض، وينمو، ويتغيّر، قتلوا ثلاثمائة طالب جامعي في تلاتيلولكو.

سادة الحكومة موتى. ذلك أنهم يقتلوننا.

في المكسيك، القوة تستوعب أو تدمِّر، تطلق برقاً مهلكاً بعناق أو لكمة، تودع في قبر أو سجن الحمقى الذين لا يمكن شراؤهم بالوظائف العاطلة[1]. ريبويلتاس، الذي لا سبيل إلى تقويمه، نادراً ما ينام خارج زنزانة، وحين يفعل ذلك، يمضي الليل متمدداً على مقعد ما في حديقة، أو على مقعد في الجامعة. هذا الذي تكرهه الشرطة لأنه ثوري، ويكرهه الدوغمائيون من جميع الأنواع لأنه حر، شجبه يساريون ورعون بسبب ولعه بالبارات الرخيصة. منذ فترة ليست طويلة زوّده رفاقه بملاك حارس لينقذه من الإغواء، لكن كان على الملاك أن يرهن جناحيه لكي يدفع من أجل إسرافهما معاً في الشراب.

1968: ضفتا النهر ياكوي

لم تعد الثورة المكسيكية هناك بعد الآن

هنود الياكي Yaqui، المحاربون طيلة قرون، استدعوا لاثارو كارديناس. التقوا به على نجد متألق ومشمس في شمال مكسيكو، قرب نهرهم المقدس.

وهم يقفون في ظل شجرة خبز[2] مورقة، رحّب به زعماء قبائل الياكوي الثماني. على رؤوسهم كان يتوهج الريش المحفوظ للمناسبات العظيمة.

هل تذكر، يا تاتا؟ مرّتْ ثلاثون سنة وهذه مناسبة عظيمة. تحدّث الزعيم الرئيسي: «*هل تتذكّر يا تاتا لاثارو؟ لقد أعدت لنا الأراضي. بنيت لنا مستشفيات ومدارس.*»

في نهاية كل جملة كان الزعماء يضربون الأرض بهراواتهم، وكان الصدى الجاف يترجّع عبر المرج.

هل تتذكر؟ نريدك أن تعرف، لقد أخذ الأغنياء الأراضي. حوّلت المستشفيات إلى ثكنات. المدارس صارت حانات.

كان كارديناس يصغي ولا يقول شيئاً.

1968: مكسيكو سيتي

رولفو

في الصمت، تنبضُ مكسيك أخرى. خوان رولفو، راوي الحكايات عن مصائب الموتى والأحياء، يلوذ إلى الصمت. منذ خمس عشرة سنة قال ما كان عليه أن يقوله، في رواية قصيرة وبضع قصص قصيرة، ومذاك لم يقل أي شيء. أو مارس، بالأحرى، أعمق أنواع الحب، ثم خلد إلى النوم.

---

[1] – منصب لا يقوم صاحبه بأي عمل أو يقوم بعمل لا يتكافئ مع راتبه الكبير – المورد.

[2] شجر من فصيلة الخبزيات ذو ثمار كبيرة تشتمل على لب نشوي يستخدم كالخبز – المورد.

1969: **ليما**

أرغيداس Arguedas

شق أرغيداس جمجمته برصاصة. قصته هي قصة البيرو: مريضاً من البيرو، قتل نفسه.
ابن رجل وامرأة من البيض، نشأ خوسيه ماريا أرغيداس بين الهنود وتحدث الكيتشوا Quechua طوال طفولته. في سن السابعة عشرة، أبعد من سلسلة الجبال ونفي إلى المنطقة الساحلية ـ من البلدات الجماعية الصغيرة إلى المدن القائمة على الملكية.
تعلّم لغة المنتصرين قراءة وكتابة. لم يكتب مطلقاً عن المهزومين، وإنما، بالأحرى، منهم. عرف كيف يعبّر عنهم، كان عمله العظيم لعنة حلّت به. شعر أن كل شيء حوله كان خيانة وفشلاً، شعر أنه ممزّقٌ. لم يستطع أن يكون هندياً، ولم يرد أن يكون أبيض. لم يتحمل الازدراء أو أن يكون مزدرياً.
سار عابر السبيل الوحيد على حافة هاوية، بين عالمين معاديين. دهمته حالات ألم كثيرة، أسوأ من أي انزياح للطين والصخور، إلى أن غُلبَ في النهاية.

1969: **بحر الهدوء**

اكتشاف الأرض

وضعت المركبة الفضائية التي انطلقت من هوستون بتكساس ساقيها العنكبوتيتين الطويلتين على القمر. شاهد رائداً الفضاء أرمسترونغ وألدرين الأرض كما لم يرها أحد من قبل، الأرض التي لم تعد الصدر الكريم الذي يرضعنا الحليب والسم، وإنما حجرٌ أنيقٌ متجمدٌ يدور في عزلة الكون. بدت الأرض بدون أطفال، غير مسكونة، ربما غير مبالية، وكأنها لم تشعر بدغدغة واحدةٍ من الأهواء الإنسانية التي تحتشد على تربتها.
من خلال التلفزيون والراديو أرسل إلينا رائدا الفضاء كلمات مبرمجة عن الخطوة التي تقوم بها الإنسانية، بينما كان ينصبان راية الولايات المتحدة الأميركية على بحر الهدوء الحجري.

1969: **بوغوتا**

الأطفال الفقراء

الشارع منزلهم. إنهم قطط للقفز والصفع، عصافير للطيران، ديكة صغيرة للقتال. كانوا يتجولون في قطعان، في عصابات وينامون في عناقيد، مكومين مع بعضهم في صباحات متجمدة. يأكلون ما يسرقونه أو البقايا التي يتسولونها أو القمامة التي يعثرون عليها، لهم أسنان رمادية ووجوه حرقها البرد.

أرتورو ديناس من عصابة الشارع 22، يترك مجموعته، يتغذى من عرض عجيزته للصفع، فقط لأنه الأصغر، بقة الفراش، القرادة. قرر أنه سيصيب نجاحاً بشكل أفضل لوحده.

في إحدى الليالي، في ليلة كأية ليلة أخرى، ينسل أرتورو تحت مطعم، يمسك ساق فروج، يرفعها كراية، ويركض عبر الزقاق. حين يجد زاوية مظلمة يجلس ليتناول العشاء. يراقبه كلبٌ صغيرٌ ويلعق فكيه. يدفعه أرتورو بعيداً عدة مرات، لكن الكلب يعود، يفحصان بعضهما بعضاً: الاثنان متساويان، ولدا لا أحد، مضروبان، عظم وسخام. يتراجع أرتورو ويتقاسم الطعام معه.

مذاك، انطلقا سوية على أقدام مجنحة، يتقاسمان الخطر، الغنيمة، والقمل. أرتورو، الذي لم يتحدث مطلقاً مع شخص، ينفتح وينام الكلب الصغير ملتفاً عند قدميه.

في أحد الأيام الملعونة يقبض رجال الشرطة على أرتورو وهو يسرق الكعك ويقذفونه إلى الضاحية الخامسة ليتلقى ضرباً هائلاً. حين، عاد أرتورو، في الوقت الملائم، إلى الشارع، ممزقاً، لم يجد الكلب. ركض أرتورو جيئة وذهاباً، باحثاً بشكل وحشي في كل مكان، لكن الكلب لم يظهر. كثير من الأسئلة دون فائدة. كثير من النداء ولا شيء. لا أحد في العالم وحيد كهذا الطفل، الذي في السابعة، الوحيد في شوارع مدينة بوغوتا، الأجش من صراخ كثير.

1969: أية مدينة

أحدٌ ما

في زاوية، وفي ضوء أحمر، أحد ما يبلع النار، أحدٌ ما يغسل زجاج السيارات، شخص ما يبيع الكلينكس، العلكة، الرايات الصغيرة، ودمى تصدر صوتاً. شخص ما يصغي إلى الأبراج من الراديو، مسروراً من أن النجوم مهتمة به. وهو يسير بين الأبنية المرتفعة، شخصٌ ما يود أن يشتري الصمت أو الهواء، لكنه لا يملك نقوداً. في حي قذر، وسط حشود من الذباب في الأعلى وجيوش من الجرذان في الأسفل، شخصٌ ما يستأجر امرأة لمدة ثلاث دقائق. في زنزانة ماخور المُغتصَبُ يصبح مغتصباً، بدلاً من فعل ذلك مع حمار في النهر. شخص ما يتحدث مع لا أحد أمام التلفزيون. شخص ما يتحدث مع لا أحد مع رجل عصابات بذراع واحدة. أحد ما يسقي إناء من الأزهار البلاستيكية. أحد ما يصعد إلى باص فارغ، فجراً، والباص يبقى فارغاً.

1969: ريو دي جانيرو

الطرد من الأحياء الفقيرة

يرفضون الذهاب. كانوا أفقر الفقراء في الريف والآن هم الأفقر في المدينة، بشر بأيد رخيصة وأقدام راقصة. هنا، على الأقل، يعيشون قرب الأماكن التي يكسبون منها خبزهم. سكان برايا دو بنتو والأحياء الفقيرة الأخرى التي تغطي جبال ريو دي جانيرو أصبحوا عنيدين. لكن العسكر

نظروا طويلاً إلى تلك البقع، القابلة للبيع جداً والتي يمكن بيعها من جديد والمناسبة جداً للمضاربة، وهكذ ستُحل المشكلة بوساطة نار تنشب في الوقت المناسب. لم يأت رجال الإطفاء مطلقاً. الفجر هو ساعة الدموع والرماد. بعد أن دمرت النار المنازل المصنوعة من القمامة، كُنس البشر كالقمامة ونقلوا بعيداً إلى مقلب النفايات.

1969: بايخو غراندي Baixo Grande

قلعة من القمامة

كان العجوز غابرييل دوس سانتوس يفعل ما تأمره أحلامه. حلم في البرازيل الأحلام المجنونة نفسها التي حلمها أنطونيو جودي منذ عقود في كاتالونيا، في برشلونة البعيدة جداً، على رغم أن العجوز غابرييل لم يسمع مطلقاً بجودي ولم ير أعماله.

حالما يستيقظ، يبدأ العجوز غابرييل ويصنع، بيديه، الأعاجيب التي يراها في أحلامه قبل أن تهرب منه. وهكذا شيّد منزل الزهرة. وعاش فيه، على منحدر هضبةٍ تضربها رياح المحيط. من حلم إلى حلم، ومع مرور الزمن، تابع منزل العجوز غابرييل نموّه، هذه القلعة الغريبة، أو الوحش المؤلف من ألوان متوهجة وأشكال معقّدة، المصنوعة كلها من القمامة.

العجوز غابرييل، العامل في مناجم الملح، لم يذهب مطلقاً إلى المدرسة أو يشاهد التلفزيون أو يملك النقود. لا يعرف قواعد أو نماذج. يلعب، بأسلوبه الخاص والحر، بأية بقايا ترميها مدينة كابو فريو في طريقه: رفرافات، مصابيح أمامية، نوافذ وزجاجات محطّمة، صحون مكسورة، قطع قديمة من الحديد، أرجل كراس وعجلات...

1969: أركي باس Arque Pass

العمل المثير الأخير للطيار بارييتوس

قال الرئيس بارييتوس إن الكاردينال مورير هو مثل القديس بولس، لأنه يطوف في الريف البوليفي ويقدم الحقائق. كذلك يقدم بارييتوس النقود وألعاب كرة القدم. يأتي ويذهب، يمطر أوراقاً نقدية من المروحية. منحت شركة غلف أويل المروحية لبارييتوس مقابل ما يعادل بليوني دولار من الغاز وبليوناً من النفط منحها بارييتوس للشركة.

على نفس المروحية، دار بارييتوس بجسد تشي غيفارا مربوطاً إلى مزلقتها في سماوات بوليفيا. في هذه المروحية وصل بارييتوس إلى أركي باس في إحدى رحلاته التي لا تتوقف، وكالعادة رمى النقود إلى الفلاحين، ولكن، عند الإقلاع، اصطدم بسلك سياج وتحطمت طائرته على الصخور واحترق وهو على قيد الحياة. بعد حرق صور وكتب كثيرة، مات بارييتوس محترقاً حتى الهشاشة في مروحيته، مليئاً إلى الحافة بالأوراق المالية التي احترقت معه.

1969: سان سلفادر وتيغوسيغالبا

مباراتا كرة قدم مضطربتان

حدثت مباراتان مضطربتان بين هندوراس والسلفادور. نقلت سيارات الإسعاف الموتى والجرحى عن المدرج، بينما تابعت المراوح زئير الاستاد في الشوارع.

على الفور، قطع البلدان العلاقات. في تيغوسيغالبا، حملت واجهات السيارات ملصقات تقول: *هندوراس، احملي عصا، كوني رجلاً واقتلي سلفادورياً*. في سان سلفادور، حثت الصحف الجيش على غزو هندوراس *لتلقين أولئك البرابرة درساً*. طردت هندوراس الفلاحين السلفادوريين، الذين لا يدركون تقريباً أنهم أجانب ولم يشاهدوا مطلقاً بطاقات شخصية. أجبرت الحكومة الهندوراسية السلفادوريين أن يغادروا دون أي شيء سوى ثيابهم، ثم أحرقت أكواخهم، ووصفت الطرد بأنه إصلاح زراعي. اعتبرت حكومة سان سلفادور جميع الهندوراسيين الذين يعيشون على أراضيها جواسيس.

نشبت الحرب على الفور. عبر جيش السلفادور الحدود إلى هندوراس وتقدّم فاتحاً نيران الرشاشات على القرى الحدودية.

1969: سان سلفادور وتيغوسيغالبا

حرب كرة القدم

صُنّعتْ عداوة بين قطعتين من أميركا الوسطى، تفتت ما كان جمهورية واحدة منذ قرن ونصف.

كان يهيمن على هندوراس، البلد الزراعي الصغير، ملاك أرض كبار.

كانت السلفادور بلداً زراعياً صغيراً ، يهيمن عليه ملاّك أرض كبار.

لم يملك فلاحو هندوراس الأرض أو العمل.

لم يملك فلاحو السلفادور الأرض أو العمل.

في هندوراس ديكتاتورية عسكرية ولدت من انقلاب عسكري.

درِّبَ الجنرال الذي يحكم هندوراس في مدرسة الأميركيتين في بنما.

دُرِّبَ الجنرال الذي يحكم السلفادور في مدرسة الأميركيتين في بنما.

من الولايات المتحدة جاءت الأسلحة والمستشارون إلى ديكتاتور هندوراس.

من الولايات المتحدة جاءت أسلحةٌ ومستشارون إلى ديكتاتور السلفادور.

اتهم ديكتاتور السلفادور ديكتاتور هندوراس بأنه شيوعي يدفع له فيديل كاسترو.

استمرت الحرب أسبوعاً. بينما كانت الحرب تتواصل، اعتقد شعب هندوراس أن عدوه هو شعب السلفادور الذي اعتقد بدوره أن عدوه هو شعب هندوراس.
قتل أربعة آلاف شخص في ساحة المعركة.

1969: بورت آبرنس

قانون يحكم بالموت على أي شخص يتفوه بكلمات حمراء أو يكتبها في هاييتي

المادة الأولى: تعتبر النشاطات الشيوعية جرائم ضد أمن الدولة مهما كانت صيغتها: أية مهنة إيمان شيوعي، شفهية أو مكتوبة، علنية أو خاصة، أي نشر للمذاهب الشيوعية أو الفوضوية من خلال المحاضرات والخطابات، والأحاديث، والقراءات، اللقاءات العامة أو الخاصة، من خلال النشرات، الملصقات، الصحف، المجلات، الكتب والصور، أي تواصل شفهي أو مكتوب مع مؤسسات محلية أو أجنبية، أو مع أشخاص ينشرون الأفكار الشيوعية أو الفوضوية، والأكثر من ذلك، فعل تلقي، وجمع، أو منح تمويل مخصص، بشكل مباشر أو غير مباشر، لنشر الأفكار التي سبق ذكرها.
المادة الثانية: كل من يقوم أو يشترك في ارتكاب هذه الجرائم سيحكم عليه بالإعدام. ستصادر أملاكه المنقولة وغير المنقولة وتباع لصالح الدولة.

الرئيس فرانسوا دو فالييه
رئيس جمهورية هاييتي مدى الحياة.

1970: مونتيفيديو

صورة مدرب تعذيب

أعدم ثوار توبامارو دان أنطوني متريوني، أحد المدرسين الأميركيين الشماليين لشرطة الأوروغواي.
قدم الميت مناهجه الدراسية إلى ضباط في قاعدة عازلة للصوت. من أجل دروسه العملية استخدم الشحاذين والعاهرات وأنجزت بعض الدروس في الشارع. أظهر لطلابه تأثيرات فولتات كهربائية متنوعة على أكثر أجزاء الجسد حساسية، وشرح لهم كيفية استخدام المواد المقيّئة ومواد كيماوية أخرى بشكل فعّال. في الأشهر الأخيرة مات ثلاثة رجال وامرأة في أثناء تلك الدروس الخاصة بتقنية الاستجواب.

كان متريوني يحتقر الفوضى والقذارة. ينبغي أن تكون غرفة التعذيب معقمة كغرفة العمليات. كان يمقت اللغة غير الصحيحة: «*ليس بيضات أيها الفوض وإنما خصيتان*». كان يبغض أيضا الكلفة التي لا فائدة منها، الحركة غير الضرورية، الأذى الذي يمكن تجنبه.

قال: «*إنه فن أكثر مما هو تقنية. الألم المحدد في المكان المحدد، بالكمية المحددة.*»

1970: ماناغوا

روغاما

تلقى شاعر مميز، وهو رجل صغير يرتدي مدرعة[1]، العشاء الرباني واقفا، أطلق رصاصته الأخيرة ومات وهو يقاوم كتيبة كاملة من قوات سوموزا.

كان ليونيل روغاما في العشرين من عمره.

من بين الأصدقاء، كان يفضل لاعبي الشطرنج.

من بين لاعبي الشطرنج، كان يفضل الذين يخسرون بسبب فتاة عابرة.

من بين العابرين، الذي يبقى.

من بين الذين يبقون كان يفضل الذي لم يصل بعد.

من بين الأبطال، كان يفضل أولئك الذين لا يقولون إنهم يموتون من أجل بلادهم.

من بين البلدان، البلد الذي يولد من موته.

1970: سانتياغو دي تشيلي

مشهد طبيعي بعد الانتخابات

في عرض لسلوك سيىء لا يغفر، انتخب الشعب التشيلي سلفادور الليندي رئيسا. قدم رئيس آخر لشركة الهاتف والتلغراف العالمية مليون دولار لكل من يستطيع أن ينهي هذا العار، بينما خصص رئيس الولايات المتحدة عشرة ملايين دولار للمسألة. طلب ريتشارد نيكسون من وكالة الاستخبارات المركزية أن تمنع سلفادور الليندي من الجلوس على كرسي الرئاسة، وإذا جلس، أن يفهم أن الكرسي لن يبقى تحته طويلا.

رفض الجنرال ريني شنايدر، قائد الجيش، دعوة إلى انقلاب عسكري وقتل في كمين. قال الليندي:

«*كانت تلك الرصاصات تستهدفني.*»

علقت القروض من البنك الدولي ومن جميع البنوك الأخرى الرسمية والخاصة، عدا تلك الخاصة بالجيش. هبط سعر النحاس.

---

[1] – رداء كهنوتي أبيض.

من واشنطن، شرح وزير الخارجية هنري كيسنجر: «*لا أعرف لماذا يتوجب علينا أن نقف جانبا ونترك بلادا تصبح شيوعية بسبب غياب المسؤولية لدى شعبها*.»

1971: سانتياغو دي تشيلي

دونالد دك

نشر دونالد دك وأبناء أخيه فضائل الحضارة الاستهلاكية بين متوحشي بلد متخلف من خلال بطاقات صور مشاهد طبيعية. قدم أبناء أخ دونالد فقاعات صابون للسكان المحليين الأغبياء مقابل كتل من الذهب الخالص، بينما كان العم دونالد يقاتل الثوريين الخارجين عن القانون الذين يزعجون النظام.

من تشيلي، كانت توزع مسلسلات وولت ديزني الهزلية في جميع أنحاء أميركا الجنوبية وتدخل أرواح الملايين من الأطفال. لم يقف دونالد دك ضد الليندي وأصدقائه الحمر، لأنه لم يكن بحاجة إلى ذلك. كان عالم ديزني حديقة الحيوان المحبوبة للرأسمالية: البط، الفئران، الكلاب، الذئاب، والخنازير الصغيرة تقوم بالعمل، تشتري، تبيع، تستجيب للإعلانات، تحصل على الرصيد، تقوم بالواجبات، تجمع الحصص، تحلم بالإرث، وتتنافس فيما بينها لتملك أكثر وتحصل على المزيد.

1971: سانتياغو دي تشيلي

«أطلقوا النار على فيديل»

أمرت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية اثنين من عملائها أن يطلقا النار على فيديل. بدت كاميرات تلفزيونية معينة تخبئ مسدسات أوتوماتيكية كأنها منشغلة بتصوير زيارة فيديل كاسترو إلى تشيلي. وجه العميلان العدسات إلى فيديل، وضعاه في مدى رؤيتها ـ لكن كلاهما لم يطلق النار.

طيلة سنوات، كان أخصائيو قسم الخدمات التقنية في وكالة الاستخبارت المركزية يحلمون بالقيام بهجمات على فيديل. بددوا ثروات مجربين كبسولات مسمومة في الشكولاتة، وحبوبا تنحل في البيرة والرم لا يمكن اكتشافها حين تشرح الجثة. جربوا البازوكا وبنادق مزودة بمنظار، قنبلة وزنها ثلاثون كيلو غراما كان على عميل أن يزرعها في مجرور تحت منصة المتحدث. جربوا حتى السيجار المسموم: صنعوا سيجار هافانا خاصا لفيديل ـ من المفترض أن يقتل حالما يلمس الشفتين. لكن هذا لم ينجح، وهكذا جربوا سيجارا آخر من المضمون أن يسبب الغثيان، والأسوأ من ذلك صوتا بنبرة مرتفعة ـ وإذا لم يستطيعوا قتله كانوا يأملون أن يقتلوا، على الأقل، هيبته. ومن أجل ذلك أيضا حاولوا أن يرشوا على مكبر الصوت بودرة تحرض، في منتصف الكلام، على

التفوه بكلام هراء، ثم، كرصاصة رحمة، حضروا مزيلا للشعر ليجعلوا لحيته تسقط، ويعروه أمام الحشد.

1972: ماناغوا

شركة نيكاراغوا

كان السائح يصل بطائرة أو سفينة لسوموزا وينزل في أحد فنادق سوموزا في العاصمة.حين يتعب، ينام في سرير وعلى مخدة صنعهما سوموزا. حين يستيقظ، يشرب قهوة بريستو، التي يملكها سوموزا، بحليب من أبقار سوموزا وسكر من مزرعة سوموزا مكرر في طواحينه. يشعل عود ثقاب أنتجته شركة سوموزا،مومومتمبو، ويجرب سيجارة من إنتاج شركة التبغ النيكاراغوية التي يمتلكها سوموزا باشتراك مع شركة التبغ البريطانية الأميركية.

يخرج السائح ليبدل نقودا في مصرف لسوموزا ويشتري صحيفة سوموزا اليومية نوبيداديس Novedades. كانت قراءة نوبيداديس عملا مستحيلا، وهكذا يرمي الصحيفة إلى القمامة لتجمعها، في الصباح الباكر، شاحنة مرسيدس استوردها سوموزا.

يركب السائح أحد باصات كوندور التابعة لسوموزا، يأخذه إلى فتحة بركان ماسايا. متدحرجا نحو القشرة النارية، يرى من النافذة أكواخ الصفيح والطين حيث تعيش الأيدي الرخيصة والقذرة التي يستخدمها سوموزا.

يعود السائح حين يخيم الليل. يشرب رما قطره سوموزا، بثلج من شركة سوموزا التي تدعى بولار، يأكل لحما من أحد عجوله، الذي ذبح في أحد مسالخه، بأرز من إحدى مزارعه وسلطة متبلة بزيت كورونا، الذي يملكه، بشكل مشترك، سوموزا ويونايتد براندز.

بعد منتصف الليل ينفجر البركان. وربما يكون السائح واحدا من بين اثني عشر ألفا من الموتى. إذا لم ينته في أحد القبور الجماعية، سوف يرقد بسلام في تابوت من مؤسسة سوموزا لدفن الموتى، يلف بكفن من نسيج إل بورفنير، الذي تعود ملكيته إلى...

1972: ماناغوا

ابن سوموزا الآخر

توقفت ساعة الكاتدرائية إلى الأبد في تلك الساعة التي رفع فيها الزلزال المدينة في الجو. هز الزلزال ماناغوا ودمرها.

في وجه هذه الكارثة، برهن تاتشيتو سوموزا على فضائله كرجل دولة وكرجل أعمال. أصدر مرسوما يقضي بأن يعمل البناؤون ستين ساعة في الأسبوع دون زيادة سنتافو واحد وصرح: «هذه *ثورة الفرص*».

تاشيتو، ابن تاتشو سوموزا، أطاح بأخيه لويس عن عرش نيكاراغوا. وكونه خريجا من ويست بوينت كانت له مخالب أكثر حدة. على رأس عصابة شرسة من أبناء عم من الدرجة الثانية وأعمام من الدرجة الثالثة، انقض على الأنقاض. لم يبتكر الزلزال، لكنه حصل على زلزاله منه.

مأساة نصف مليون مشرد هي هدية رائعة لسوموزا هذا، الذي يتاجر، بشراهة، بالحطام والأراضي، وكأن هذا لا يكفي، باع في الولايات المتحدة الدم الذي تبرع به للضحايا الصليب الأحمر الدولي. فيما بعد، يواصل خطته المربحة القذرة مظهرا المزيد من المبادرة وروح المشاريع أكثر من الكونت دراكولا، ويؤسس شركة محدودة لشراء دم رخيص في نيكاراغوا وكان يبيعه بسعر مرتفع في السوق الأميركية الشمالية.

لؤلؤة حكمة لتاشيتو سوموزا

لا أظهر نقودي كرمز للقوة، وإنما كرمز فرص عمل للنيكاراغويين.

1972: سانتياغو دي تشيلي

تشيلي تحاول أن تولد

تظاهر مليون إنسان في شوارع سانتياغو دعما لسلفادور الليندي وضد البرجوازيين المحنطين الذين يتظاهرون بأنهم أحياء وتشيليون.

بشر في النار، بشر يكسرون عادة المعاناة. وهي تبحث عن نفسها، استعادت تشيلي نحاسها، وحديدها، ونتراتها، ومصارفها، وتجارتها الخارجية، واحتكاراتها الصناعية. أممت أيضا النظام الهاتفي ITT ودفعت المبلغ الصغير الذي قالت شركة ITT أنه كانت له قيمة مالية في عائداتها الضريبية.

1972: سانتياغو دي تشيلي

صورة شركة متعددة القوميات

اخترعت ITT تلسكوبا لرصد الثوار في الظلام، لكنها لم تحتاجه للعثور عليهم في حكومة تشيلي ـ كانت تحتاج فقط إلى النقود، التي تصرف منها الشركة الكثير ضد الرئيس الليندي. أظهرت التجربة الحديثة كم هي جديرة بالاهتمام: الجنرالات الذين يحكمون الآن البرازيل دفعوا لـ ITT أكثر بعدة مرات من الدولارات التي استثمرت للإطاحة بالرئيس غولارت Goulart .

كانت ITT، بعمالها ومسؤوليها الأربعمائة في سبعين بلدا، تكسب أكثر من تشيلي. وكان يجلس في هيئة مدرائها رجال كانوا سابقا مدراء وكالة الاستخبارات المركزية والبنك الدولي. وهي تدير مشاريع عديدة في جميع القارات. تنتج الأجهزة الإلكترونية وأسلحة متطورة، تنظم أنظمة

اتصالات وطنية ودولية، تشترك في الطلعات الفضائية، تقرض النقود، تنفذ صفقات تأمين، تستغل الغابات، تقدم للسياح سيارات وفنادق، وتصنع الهواتف والديكتاتوريات.

1973: سانتياغو دي تشيلي

الفخ

في الحقيبة الدبلوماسية جاءت الدولارات التي مولت الإضرابات، التخريب، والأكاذيب. شل رجال الأعمال تشيلي وحرموها من الطعام. ولم تكن هناك سوق إلا السوق السوداء. كان على البشر أن يقفوا في صفوف طويلة من أجل علبة سجائر أو كيلو من السكر. كان الحصول على اللحوم أو الزيت يتطلب معجزة من العذراء مريم الأكثر قداسة. شتم الديموقراطيون المسيحيون وصحيفة إل مركوريو الحكومة وطلبا علنا انقلابا عسكريا علاجيا، بما أن الوقت حان للانتهاء من الطغيان الأحمر. رددت الصحف، المجلات، والإذاعة والتلفزيون صدى الصرخة. كان من الصعوبة بالنسبة للحكومة أن تقوم بأية حركة مهما كانت: توتر القضاة والبرلمانيون بينما كان رجال الجيش الحقيقيون في الثكنات، الذين اعتقد الليندي أنهم مخلصون، يتآمرون ضده.

في هذه الأوقات العصيبة، اكتشف العمال أسرار الاقتصاد. تعلموا أنه ليس من المستحيل الإنتاج بدون رؤساء أو أن يزودوا أنفسهم دون تجار. لكنهم تقدموا دون أسلحة، فارغي الأيدي، على طريق الحرية ذاك.

في الأفق كانت تبحر سفن حربية أميركية تستعد لعرض نفسها قبالة الساحل التشيلي. ثم حدث الانقلاب العسكري، الذي أنذر به كثيرا.

1973: سانتياغو دي تشيلي

الليندي

يحب الحياة الجيدة. قال مرات كثيرة إنه لا يملك ما يجعله حواريا أو شهيدا. لكنه قال كذلك إنه من المجدي الموت من أجل ذلك الشيء الذي بدونه ليس من المجدي أن يعيش المرء.

طلب الجنرالات المتمردون استقالته. قدموا له طائرة لتنقله خارج تشيلي. حذروه أن القصر الرئاسي سوف يقصف.

مع حفنة من الرجال، أصغى سلفادور الليندي للأنباء. هيمن الجنرالات على البلاد. ارتدى الليندي خوذة وجهز بندقيته. سقطت القنابل الأولى وأحدثت اهتزازات. تحدث الرئيس من خلال الراديو للمرة الأخيرة:

«*لن أستقيل*...»

1973: سانتياغو دي تشيلي

ستنفتح ممرات كبيرة،
أعلن سلفادور الليندي في رسالته الأخيرة

لن أستقيل. في هذه اللحظة التاريخية الحرجة، سأضحي بحياتي من أجل ولاء الشعب. ودعوني أخبركم بأنني واثق من أن البذرة التي بذرناها في الضمير المبجل للتشيليين لن تدمر بالتأكيد. يمتلكون القوة. يمكن أن ينتصروا علينا، لكن المسيرات الاشتراكية لا يمكن إيقافها بالجريمة أو القوة. التاريخ لنا والشعب يصنعه...

يا عمال بلادي: أنا أؤمن بتشيلي ومصيرها. سيتغلب بشر آخرون على هذه اللحظة الرمادية والمرة التي تحاول الخيانة فيها أن تفرض نفسها. كونوا متأكدين، أنه عاجلا لا آجلا، ستنفتح ممرات كبيرة ومرة أخرى ستمر منها الإنسانية الحرة لتبني مجتمعا أفضل. تعيش تشيلي! يعيش الشعب، يعيش العمال! هذه هي كلماتي الأخيرة. أنا واثق أن تضحيتي لن تذهب عبثا.

1973: سانتياغو دي تشيلي

إعادة غزو تشيلي

تصاعدت سحابة سوداء كبيرة من القصر الملتهب. مات الرئيس الليندي في موقعه بينما كان الجنرالات يقتلون التشيليين بالآلاف. لم تسجل أمانة السجل المدني أسماء الموتى لأن الدفاتر لم تكن تتسع لها، لكن الجنرال توماس أوباثو سانتاندر قدم ضمانات بأن عدد الضحايا لم يصل إلى نسبة 0.1٪ من عدد السكان، وهذه ليست، في النهاية، كلفة اجتماعية عالية. شرح مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، ويليم كولبي، في واشنطن، أنه بفضل عمليات الإعدام تجنبت تشيلي حربا أهلية. أما السيدة بينوشيه فقد صرحت أن دموع الأمهات سوف تخلص البلاد.

تولى السلطة مجلس عسكري مؤلف من أربعة عناصر شكل في مدرسة الأميركيتين في بنما. ترأسه الجنرال أوغستو بينوشيه، بروفيسور الجيبولوتيكا. دوت الموسيقى العسكرية إزاء خلفية من الانفجارات وطلقات الرشاشات. أذاعت الإذاعات مرسومات وتصريحات وعدت بالمزيد من سفك الدماء، بينما ارتفع فجأة سعر النحاس في السوق العالمية.

سأل الشاعر بابلو نيرودا، الذين كان يحتضر، عن أخبار الإرهاب الجديد. نجح في أن ينام في غضون لحظات وهذى في أثناء نومه. الصلوات والحلم كابوس واحد كبير. منذ أن سمع وداع سلفادور الليندي الذي يعبر عن كبرياء في المذياع، بدأ الشاعر آلام احتضاره.

1973: سانتياغو دي تشيلي

منزل الليندي

قبل أن يهاجموا القصر الرئاسي، قصفوا منزل الليندي. فيما بعد، مسح الجنود كل ما تبقى. بالحراب شقوا اللوحات التي رسمها ماتا، وخواياسامين، وبورتوكاريرو، وسحقوا الأثاث بالفؤوس.

مر أسبوع. أصبح المنزل كومة قمامة. تناثرت أذرع وأرجل من بذلات الدروع، التي تزين الدرج، في كل مكان. نام جندي في غرفة النوم ليستريح من إسرافه في الشراب، منفرج الساقين ومحاطا بالزجاجات الفارغة.

جاء من حجرة الجلوس أنين ولهاث. هناك، على كرسي كبير، ممزق لكنه لا يزال منتصبا، كانت كلبة الليندي تنجب. الجراء، التي لا تزال عمياء، تزحف من أجل الدفء والحليب. تلعقها الكلبة.

1973: سانتياغو دي تشيلي

منزل نيرودا

وسط الدمار، في منزل تحول أيضا إلى أشلاء، كان نيرودا يستلقي، ميتا من السرطان، ميتا من الأسى. لم يكن موته كافيا، رغم أن نيرودا رجل حي بعناد، وهكذا يجب أن يقتل العسكر أشياءه. سحقوا سريره السعيد وطاولته السعيدة، انتزعوا أحشاء فرشته وحرقوا كتبه، سحقوا مصابيحه وزجاجاته الملونة، آنيته ولوحاته، وأصدافه. انتزعوا بندول وعقارب ساعته الجدارية، وبحربة اقتلعوا عين زوجته في الصورة.

من منزله المدمر، الذي طاف بالوحل والماء، غادر الشاعر إلى المقبرة. رافقته حاشية من الأصدقاء المقربين، تقودهم ماتيلدي أوروتيا Matilde Urrutia. (قال لها مرة: *كان جميلا أن أعيش بينما أنت تعيشين*).

بعد كل فرسخ كانت الحاشية تزداد. عند كل زاوية انضم إليها بشر رغم الشاحنات العسكرية المليئة بالرشاشات ورغم حاملي القربينات والجنود الذي يروحون ويغدون على الدراجات النارية أو في السيارات المصفحة، ويصدر عنهم الخوف والضجة. خلف نافذة ما، يد تحيي. عاليا على شرفة ما يد تلوح بمنديل. كان ذلك هو اليوم الثاني عشر بعد الانقلاب، اثنا عشر يوما من السجن والموت، وللمرة الأولى سمع النشيد الوطني في تشيلي ـ طن النشيد الوطني، أن وبكى، لكنه لم يغن إلى أصبحت الحاشية موكبا والموكب مظاهرة، والبشر، الذين يتقدمون ضد الخوف، غنوا في شوارع سانتياغو، بأعلى صوت، بجميع أصواتهم، ليواكبوا، بطريقة ملائمة، نيرودا، الشاعر، شاعرهم، في رحلته الأخيرة.

1973: ميامي

النزعة الاستهلاكية المقدسة ضد تنين الشيوعية

ولد حمام الدم في تشيلي الخوف والقرف في كل مكان، لكنه لم يفعل ذلك في ميامي: مظاهرة شديدة الابتهاج قام بها كوبيون منفيون احتفلت بقتل الليندي وجميع الآخرين.

كان في ميامي، في ذلك الوقت، أكبر مخيم للكوبيين في العالم باستثناء هافانا. الشارع الثامن هو كوبا التي كانت. تلاشت الأحلام بإسقاط فيديل، ولكن حين يسير المرء في الشارع الثامن فإنه يعود إلى الأيام القديمة الطيبة المفقودة.

كان زعماء المافيا والصرافون يديرون المشهد. كل من يفكر هو مجنون أو شيوعي خطير، ولا يزال السود يعرفون مكانهم. حتى الصمت هنا عالي النغمة. تصنع الأرواح البلاستيكية وسيارات اللحم والدم. أما في السوبرماركات فإن الأشياء تشتري البشر.

1973: ريسيف Recife

مديح الذل

في عاصمة الشمال الشرقي البرازيلي حضر خيلبرتو فريري Gilberto Freyre، افتتاح مطعم سمي باسم كتابه الشهير، **المنزل الكبير ومساكن العبيد**. هنا، احتفل الكاتب بالذكرى الأربعين لطبعة الكتاب الأولى.

لبس الخدم الذين خدموا الموائد كالعبيد. خلق الجو بالسياط، والأغلال، والمخالع، والقيود، والأطواق الحديدية التي تتدلى على الجدران. شعر الضيوف بأنهم عادوا إلى عصر متفوق حين كان الأسود يخدم الأبيض دون أي مزح، كما يخدم الابن الأب، والمرأة زوجها، والمدني الجندي، والمستعمرة الوطن.

كان ديكتاتور البرازيل يفعل كل ما هو مناسب ليسرع تلك النهاية. ولقد صفق خيلبرتو فريري لذلك.

1974: برازيليا

عشر سنوات بعد إعادة فتح البرازيل

الاقتصاد يسير بشكل جيد جدا. أما البشر، فأمورهم في غاية السوء. وفقا للإحصاءات الرسمية، جعلت الديكتاتورية العسكرية البرازيل قوة اقتصادية بمؤشر نمو مرتفع لمنتجها القومي الإجمالي. وأظهرت أيضا أن عدد البرازيليين الناقصي التغذية ارتفع من 27 مليونا إلى 72 مليونا، منهم ثلاثة عشر مليونا أضعفهم الجوع بحيث لم يعودوا قادرين على الركض.

1974: ريو دي جانيرو

تشيكو

هذا الديكتاتور يؤذي البشر ويفكك الموسيقى. تشيكو بواركي Chico Buarque، المصنوع من البشر والموسيقى يغني ضد ذلك.

من بين كل ثلاث أغان يكتبها، يحظر الرقيب أو يمزق اثنتين. وتقريبا كل يوم، كان البوليس السياسي يحقق معه مطولا. حين يدخل مكاتبهم، يفتشون ثيابه. حين يغادر، يبحث تشيكو في أحشائه ليرى إن كان البوليس قد وضع رقيبا في روحه أو، في لحظة غفلة، صادر متعته.

1974: غواتيمالا سيتي

بعد عشرين عاما من إعادة فتح غواتيمالا

ظهرت في البلدات والمدن صلبان حوارية على الأبواب، وعند جوانب الطرق علقت الرؤوس على الأوتاد. وكدرس وتحذير، تحولت الجريمة إلى مشهد عام. وكان الضحايا يجردون من الاسم والتاريخ، ثم يرمون في فوهة بركان أو في قاع البحر، أو يدفنون في قبر جماعي تحت نقشNN، الذي يعني Non Nato، الذي يعني: لم يولد. وكان إرهاب الدولة هذا يمارس في معظم الأحيان بدون بزة. كان يدعى اليد، الظل، وميض البرق، الجيش السري المضاد للشيوعية، أمر الموت، سرية الموت.

الجنرال لاوخيرود، الذي جاء حديثا إلى الرئاسة بعد انتخابات مزيفة، تعهد أن يطبق في غواتيمالا التقنيات التي برع بها البنتاغون في فييتنام. غواتيمالا هي المختبر الأميركي اللاتيني الأول للحرب القذرة.

1974: غابات غواتيمالا

الكتزل

كان طائر الكتزل دائما متعة الجو في غواتيمالا. استمر الأكثر تألقا بين الطيور رمزا لهذه البلاد، على رغم أنه من النادر أن يشاهد الآن في الغابات المرتفعة حيث ازدهر مرة. كانت طيور الكتزل تموت فيما العقبان تتكاثر. كان العقاب، الذي يملك أنفا جيدا يشم الموت من بعيد، يكمل عمل الجيش، ويتبع الجلادين من قرية إلى أخرى، دائرا بلهفة.

هل سيحل العقاب، عار السماء، مكان الكتزل على ورق العملة، في النشيد الوطني، على الراية؟

1974: إكسكان Ixcan

صف للتربية السياسية في غواتيمالا

عبر المغاوير الحدود مليئين بالديدان وغياب اليقين. كانت تلك الظلال المجوّعة، تسير في الظلام طيلة أيام تحت سقف من الأشجار حجب عنها الشمس. وبدلاً من الساعة استخدموا أصوات الدغل: كان السبد يغنّي من النهر معلناً الفجر، وفي الغسق تبدأ الببغاوات وطيور المقو ثرثرتها الفضائحية، وحين يخيّم الليل تصرخ الغريرات وتسعل طيور القوطيّ. وفي هذه المناسبة، وللمرة الأولى طول شهور، يسمع رجال العصابات ديكاً يصيح. ثمة قرية قريبة.

كان في تلك القرية الجبلية، مالك يدعى نمر إكسكان Ixcan هو الرئيس. وكمثل أسياد هذه الأرض الآخرين، أعفي من القانون والمسؤولية الإجرامية. في مزارعه هناك مشانق، وأسواط ومخلعة. وحين تكون قوة العمل المحلية غير كافية، يرسل إليه الجيش هنوداً بالمروحيات، لكي يقطعوا الشجر أو يقطفوا البن دون أي مقابل.

قلة رأت نمر إكسكان. الجميع يخشونه. قتل كثيرين، وأمر بقتل كثيرين.

جمع المغاوير الهنود وأطلعوهم على ذلك. حين مات النمر بدا كأنه بزة فارغة.

1974: يورو

مطر

رأى الكثير من الموت في تشيلي، أعدم أصدقاؤه الأعزاء رمياً بالرصاص، ضُربوا، أو رُفسوا حتى الموت. أنقذ خوان بستوس، أحد مستشاري الرئيس الليندي، نفسه بشعرة.

منفياً في هوندوراس، يجر خوان أيامه. من بين أولئك الذين ماتوا في تشيلي، كم مات بدلاً عنه؟ ممن يسرق الهواء الذي يتنفسه؟ بقي على هذه الحال شهوراً، جاراً نفسه من ألم إلى آخر، يشعر بالعار من بقائه على قيد الحياة، حين، في مساء ما، أخذته قدماه إلى بلدة تُدعى يورو، في أعماق هندوراس الوسطى.

وصل إلى يورو دون أي سبب محدد، وفي يورو أمضى الليل تحت سقف قديم. كان ينهض باكراً ويبدأ السير دون حماسة عبر الشوارع المتسخة، خائفاً من الكآبة، محدقاً دون مشاهدة.

فجأة، ضربه المطر، الذي كان عنيفاً بحيث أن خوان غطى رأسه، ملاحظاً أن هذا المطر الضخم ليس ماء أو برداً. كانت أضواء فضية مجنونة تقفز على الأرض وتقفز عبر الهواء.

«*إنها تمطر أسماكاً!*» صرخ خوان، لاطماً الأسماك الحية التي تسقط من الغيوم وتقفز وتتلألأ حوله. ولن يخطر له مطلقاً مرة أخرى أن يلعن معجزة كونه حياً، لن ينسى بتاتاً مرة أخرى أنه محظوظ لأنه ولد في أميركا.

«*هذا صحيح*»، قال جارٌ، بهدوء، وكأن الأمر ليس شيئاً. «*هنا في يورو تمطر أسماكاً.*»

1975: سان سلفادور

ميغيل في السبعين

كل يوم من الحياة هو نغم موسيقي غير قابل للتكرار يضحك على الموت. ولأن ميغيل الخطير لا يزال على قيد الحياة، قرر سادة السلفادور استئجار قاتل لكي يرسل حياته وموسيقاه إلى مكان آخر.

أخبأ القاتل خنجراً تحت قميصه. كان ميغيل جالساً يتحدث إلى طلاب الجامعة ويقول لهم إن الشبان يجب أن يأخذوا مكان الكبار المنهكين، يجب أن يعملوا ويجازفوا بأعناقهم، ويفعلوا ما ينبغي فعله دون إصدار أصوات كما تفعل الدجاجات حين تبيض. انسل القاتل ببطء عبر الجمهور إلى أن وقف خلف ميغيل. ولكن حين رفع السكين، صرخت امرأة فرمى ميغيل آلياً نفسه على الأرض، وتجنب الطعنة.

هكذا حصلت الولادة الثانية عشر لميغيل مارمول، في سن السبعين.

1975: سان سلفادور

روكي Roque

نجا روك دالتون Roque Dalton، تلميذ ميغيل مارمول في فن الانبعاث، مرتين من الموت إزاء حائط. أنقذ مرة لأن الحكومة سقطت، وفي المرة الثانية لأن الحائط انهار بفضل زلزال حدث في الوقت المناسب. نجا أيضاً من الجلادين، الذين تركوه في شكل سيىء لكن حياً، ومن رجال الشرطة، الذين طاردوه ببنادق ملتهبة. نجا كذلك من رمي الحجارة، من غضب امرأة وبِّختْ، ومن أزواج عديدين متعطشين للانتقام.

فضل الشاعر العميق واللعوب روكي دالتون أن يضحك على نفسه بدلاً من أن يتعامل مع الحياة بجدية كاملة، وهكذا أنقذ نفسه من التفخيم، والرزانة، وأمراض أخرى أصابت، بشكل خطير، الشعر السياسي الأميركي اللاتيني.

لكنه لم يستطع أن ينقذ نفسه من أصدقائه الذين حكموا عليه بتهمة الاختلاف في الرأي. تلك الرصاصة، الوحيدة التي استطاعت أن تعثر على روكي، أتت من جانبه تماماً.

1975: نهر الأمازون

مشهد استوائي

كانت السفينة تتحرك ببطء صاعدة في نهر الأمازون في تلك الرحلة اللانهائية من بيليم إلى مناؤس. بين فينة وأخرى، كان يظهر كوخٌ ما مغطّى بالنبات المتعرّش، ويلوِّح طفلٌ عار بيده

للطاقم. على سطح السفينة المزدحم شخصٌ ما يقرأ، بصوت مرتفع، الإنجيل، مدائح طنّانة لله، لكن معظم البشر فضّلوا أن يضحكوا ويغنّوا بينما الزجاجات والسكائر تعبر من فم إلى آخر. كوبرا مروّضة لفّت نفسها على العارضات الحديدية المتقاطعة، تحت جلود أخوة ميتين يتجففون في الهواء. كان مالك الكوبرا، يجلس على سطح السفينة، ويتحدّى المسافرين الآخرين للعب الورق.

صحفي سويسري كان يسافر في هذه السفينة، راقب، طول ساعات، عجوزاً فقيراً ونحيلاً يعانق علبة كبيرة لا يتركها مطلقاً، حتى حين ينام. بعد أن لسعه الفضول، قدم السويسري السجائر، وقطع الحلوى، والحديث، لكن العجوز امرؤ دون عيوب، ليس جائعاً وليس لديه شيء يقوله.

في وسط الرحلة، في وسط الغابة، نزل العجوز. نظر السويسري، وهو يساعده في حمل العلبة الكبيرة، من خلال الغطاء نصف المفتوح ورأى في الداخل شجرة نخيل بلاستيكية، ملفوفة بالسيلوفان.

1975: نهر الأمازون

هذا هو أب جميع الأنهار

إنه أب جميع الأنهار، أقوى نهر في العالم، والغابة التي تنبثق من نَفَسِهِ هي آخر رئة على هذا الكوكب. اندفع المغامرون والطامعون إلى أمازونيا منذ أن اكتشف الأوروبيون الأوائل، الذي جاؤوا إلى هذه الناحية، الهنود ذوي الأرجل المعكوسة، الذين يسيرون إلى الوراء بدلاً من إلى الأمام، على هذه الأراضي التي تعد بثروات هائلة.

مذاك، بدأ العمل كله في أمازونيا بمجزرة. في مكتب مكيّف في ساو باولو أو نيويورك وقّع مدير شركة شيكاً وصل إلى أمر بالإبادة، ذلك أن العمل الأولي في تنظيف الغابة بدأ بالهنود ووحوش برية أخرى.

قدموا للهنود سكراً أو ملحاً ممزوجاً بدم الجرذان، أو قصفوهم من الجو، أو علّقوهم من الأقدام لكي ينزفوا حتى الموت دون أن يزعجوا أنفسهم بسلخهم، ثم من الذي سيشتري الجلود؟

انتهى العمل باستخدام السوائل الكيماوية لـ «داو كيميكال»، التي دمّرتْ غابات فييتنام ثم انتقلت الآن إلى البرازيل. كانت سلاحف عمياء تتعثر في المكان الذي كانت فيه أشجارٌ.

1975: ريبيروا بونيتو Ribeirao Bonito

يوم عدالة

ضخمة كالبلدان هي أراضي شركات الماشية، غازية أمازونيا. أعفاها جنرالات البرازيل من الضرائب، شقوا لها الطرق، منحوها الامتيازات وأذناً بالقتل.

استخدمت الشركات فلاحين مدقعين من الشمال الشرقي استنبتتهم هنا الأنهار والبؤس. قتل الفلاحون الهنود، وقُتلوا بدورهم، سرقوا أراضي الهنود، وسرقوا بدورهم. ساقوا ماشية الهنود التي لم يتذوقوا لحمها مطلقاً.

حين وصل الطريق العام إلى قرية ريبيراو بونيتو، بدأت الشرطة بعملية الطرد. الفلاحون الذين قاوموا أُقنعوا في السجن. وبرهن سحقهم بالهراوات أو إدخال الإبر تحت أظافرهم على أنه تقنية مفيدة. في غضون ذلك، وصل الكاهن خواو بسكو بورنيير Joao Bosco Burnier إلى القرية، دخل السجن، وسأل عن الجلادين. أجابه شرطي بتفجير رأسه برصاصة.

في اليوم التالي نصبت نساء غاضبات ـ كارميسينها، نيدي، مارغاريدا ـ صليباً ضخماً. خلفهن، حمل ستمائة فلاح فؤوساً، معاول وعصياً. انضمت القرية كلها إلى الهجوم، مغنية في كورس، وارتفع صوت من الأصوات رائع. والآن، حيث كان السجن ينتصب، ثمة كومة من الأنقاض.

1975: واياناي Huayanay

يوم عدالة آخر

لبضع سنوات أصيبت جماعة وايانـاي في جبال الأنديز البيروفية بمرض رهيب: ماتياس إسكوبار. هذا الوغد، سارق الماعز والنساء، حارق المباني والمجرم، قام بالكثير من الأذى قبل أن تقبض عليه الجماعة وتحاكمه وتحكم عليه وتعدمه. مات ماتياس من مائتين وثلاثين ضربة في قرية بلازا دي أرماس: أسهم كل عضو من الجماعة بضربة، وفيما بعد وقع مائتان وثلاثون إبهاماً الاعتراف.

لم يكترث أحد بمرسوم الجنرال بيلاسكو ألبارادو الذي جعل الكيتشوا Quetchua لغة رسمية. لم تكن الكويتشوا تدرّس في المدارس أو تقبل في المحاكم. في اللغة القشتالية التي لا تُفهم حقق القاضي مع هنود وايـاني المسجونين في ليما. سألهم، وكأن الأمر مجهول: من قتل ماتياس إسكوبار.

1975: كوزكو

كوندوري يقيس الزمن بالخبز

كان يعمل كبغل. عند صياح الديك تكون الشحنة الأولى قد حُمِّلتْ على ظهره في السوق أو المحطة، وإلى أن يخيّم الليل يكون في شوارع كوزكو ينقل كل ما يستطيع أن يحصل عليه مقابل أي شيء يحصل عليه. مسحوقاً تحت ثقل الصرر والأعوام، وفي ثياب ممزقة، كان الرجل الممزق غريغوريو كوندوري يعمل ويتذكر طالما أن ظهره وذاكرته تقاومان.

منذ أن قست عظامه وهو طفل، كان راعياً وحاجاً، عاملاً وجندياً. سجن تسعة أشهر في أوركوس لأنه قبل قليلاً من الحساء المصنوع من بقرة مسروقة. في سيكواني شاهد قطاره الأول، الثعبان الأسود الذي ينفث ناراً من رأسه، وبعد سنوات ركع على ركبتيه حين عبرت طائرةٌ السماء ككندور أعلن بصرخات حادة نهاية العالم.

تذكر كوندوري تاريخ البيرو من خلال الأرغفة: «*حين كانت خمسة أرغفة كبيرة من القمح النقي تكلف ريالاً واحداً، وثلاثة تكلف نصف ريال، أخذ أودريا الرئاسة من بوستامانت*».

ثم جاء شخص آخر واستولى على السلطة من أودريا، ثم شخص آخر، وآخر، وآخر، إلى أن أطاح بيلاسكو، في النهاية، بـ بيلاوندي Belaunde. والآن، من الذي سيطيح ببيلاسكو؟ سمع كوندوري أن بيلاسكو وقف مع الفقراء.

1975: ليما

بيلاسكو

صاح ديك بطريقة غريبة. كانت طيور جائعة تنقر حبوباً جافة والشحارير تضرب بأجنحتها فوق أعشاش طيور أخرى. لم يطح به بالضبط، لكنه غادر، على أية حال.

بعد أن أصابه مرض، ونُقر إلى أن أصبح أشلاء، ترك الجنرال بيلاسكو ألبارادو رئاسة البيرو وهو محبط.

في البيرو، التي تركها أقل ظلماً مما كانت عليه حين استلم السلطة، ألغى الاحتكارات الإمبريالية وهاجم الإقطاعيين، وحاول أن يمكّن الهنود من أن يكونوا شيئاً ما أكثر من منفيين في أرضهم.

تابع الهنود، الأشداء كعشب الحلفاء، أملهم بأن يومهم سيأتي. بمرسوم من بيلاسكو، حصلت لغة الكويتشوا على الحقوق نفسها كالإسبانية، وأصبحت رسمية بشكل مساو، رغم عدم اكتراث أي مسؤول. تلقت أكاديمية اللغة الكويتشية معونة من الدولة ـ ما يعادل ستة دولارات وخمسة وسبعين سنتاً في العام.

1975: ليما

نقوش مذبح وامانغا

عبّر الرسامون والباحثون في ليما عن سخطهم، وعبّرت الطليعة عن صدمتها. منحت جائزة الفن الوطنية لخواكين لوبيث أنتاي Joaquin Lopez Antay صانع نقوش مذبح وامانغا. فضيحة. الصنعة جيدة طالما أنها تعرف مكانها، قال الفنانون البيروفيون.

كانت نقوش مذابح وامانغا، التي أبدعت في البداية كمذابح محمولة، تغير أدوار شخصياتها مع مرور الوقت. أفسح القديسون والحواريون مجالاً للخراف كي ترضع حملانها بينما الكندور

يراقب العالم، العمال والرعاة، الرؤساء المعاقبين، صانعي القبعات في مشاغلهم، والمغنين الذين يداعبون، بحزن، آلاتهم الموسيقية.

تعلّم لوبيث أنتي، الدخيل إلى الفن السماوي، من جدته الهندية كيف يصنع النقوش. منذ أكثر من نصف قرن علّمته أن يصنع القديسين، والآن تراقبه وهو يعمل، من هدوء قبرها.

لوحات سان بلاس

كان هنود الكونا Cuna، في جزر سان بلاس في بنما، يصنعون لوحات تُعْرضَ من الأمام أو الخلف. بإبرة وخيط، وبصبر وموهبة، يمزجون قطع القماش الملونة في نماذج لا تتكرر. أحياناً يحاكون الواقع، وفي أحيان أخرى يبدعونها. وفي بعض الأحيان لكي ينسخوا طيراً ما شاهدوه، يقطعون ويخيطون، درزة بعد أخرى، وينتهون إلى اكتشاف مخلوق جديد أكثر تلوناً وإيقاعية ورشاقة من أي طائر سبق وحلّق في السماء.

رسوم لحاء نهر بالساس

قبل الأمطار، في فصل القمر الجديد، كانوا ينتزعون لحاء شجرة الأماتي amate. تموت الشجرة التي تجرّد من اللحاء أما على جلدها فيرسم الهنود المكسيكيون، في منطقة نهر بالساس، الأزهار والأخيلة، طيوراً جبلية متألقة ووحوشاً تكمن منتظرة، أو يرسمون دورة الأحداث اليومية في الجماعات التي تحيي العذراء في موكب مقدّس ويستدعون الأمطار في طقوس سرية.

قبل الفتح الأوروبي، رسم هنود آخرون على لحاء شجر الأماتي المخطوطات التي روت حياة البشر والنجوم. وحين فرض الفاتحون ورقهم وصورهم اختفت أشجار الأماتي. لأكثر من أربعة قرون لم يرسم أحد من المكسيك على هذا الورق الممنوع. منذ وقت ليس بطويل، في منتصف قرننا، عاد ورق الأماتي: «*إن جميع البشر رسامون. الجميع. كلهم*».

تتنفس الحياة القديمة عبر لحاء الأماتي هذا، الحياة التي تأتي من بعيد، من بعيد جداً، لكنها لا تأتي متعبة مطلقاً.

سجاد سانتياغو

الأطفال، الذين ينام منهم ثلاثة في كل سرير، يمدون أذرعهم نحو بقرة طائرة. يحمل سانتا كلوز حقيبة من الخبز وليس من الألعاب، معلقة على كتفه. عند جذع شجرة تتوسل امرأة. تحت الشمس الحمراء يسوق هيكلٌ عظميٌ عربة قمامة. على طرق لانهائية يسير رجال بدون وجوه. عينٌ ضخمة تراقب. في مركز الصمت والخوف يتصاعد بخار حساء الجماعة.

تشيلي هي بلد السجاد الملوّن إزاء خلفية من أكياس الطحين. بمزق من القطن والأقمشة القديمة، تطرز نساء من أحياء سانتياغو الفقيرة السجاد الملون. وهو يباع في الكنائس وإذا اشتراه أي شخص فهذا لا يصدق. النساء يندهشن: «نطرز مشكلاتنا وهي بشعة.»

وهذا أول ما فعلته نساء السجناء. ثم أخذه آخرون ـ من أجل المال الذي يساعد، ولكن ليس فقط من أجل المال. إن تطريز السجاد الملون يجمع النساء ويؤنس وحدتهن وحزنهن، ولبضع سنوات قصيرة، كسر روتين الطاعة للزوج، والأب، والابن الفحل، والجنرال بينوشيه.

شياطين أوكوميتشو Ocumitcho الصغيرة

مثل السجاد التشيلي الملون، كانت شياطين الطين الصغيرة في قرية أوكوميتشو التشيلية من إبداع النساء. تمارس هذه الشياطين الحب، في أزواج أو جماعات، تذهب إلى المدرسة، تقود الدراجات أو الطائرات، تتسلل إلى سفينة نوح، تختبئ بين أشعة الشمس التي تحبُّ القمر، وتتدخل في مشاهد عيد ميلاد المسيح. تكمن منتظرة تحت مائدة العشاء الأخير، بينما يسوع المسيح، المصلوب، يتقاسم وجبة من سمك بحيرة باتثكوارو Patzcuaro مع حوارييه الهنود. فيما هو يأكل، يضحك المسيح من أذن إلى أخرى، وكأنه قد اكتشف فجأة أنه من الأسهل تخليص هذا العالم من خلال المتعة أكثر من الألم.

في منازل مظلمة، بلا نوافذ، تصوغ خزّافات أوكوميتشو الأشكال المضيئة. نساء مقيدات بسلسلة لا تنتهي من الأطفال، سجينات أزواج سكارى يضربونهن، يمارسن فناً جديداً حرَّ الأسلوب. وهن تحت حكم الخضوع، ومقدر عليهن الحزن، يخلقن، كل يوم، تمرداً جديداً.

حول الملكية الخاصة وحق الإبداع

يريد المشترون من خزّافات أوكوميتشو أن يوقّعن أعمالهن، وهكذا يستخدمن أختاماً كي يطبعن أسماءهن عند أقدام شياطينهن الصغيرة. لكنهن غالباً ما ينسين، أو يستخدمن ختم جارة إذا لم يكن ختمهن في المتناول، بحيث تصبح ماريا مبدعة عمل قامت به نيكولاسا، أو بالعكس.

لا يفهمن عمل المجد المنعزل ذاك. في جماعة تاراسكانٍ الهندية، كلهن واحدة حين يتعلق الأمر بهذه المسألة. خارج الجماعة، المرء ليس أحداً، كسنٍ يسقط من الفم.

1975: كابيماس Cabimas

بارغاس

النفط، الذي مر على ضفاف بحيرة ماراكيبو، أخذ معه الألوان. في كومة القمامة الفنزويلية هذه من الشوارع القذرة، والهواء الملوث، والمياه النفطية، عاش رافايل بارغاس ورسم.

لا ينمو العشب في كابيماس، المدينة الميتة، والأرض الفارغة. لم تبق أسماك في المياه ولا طيور في سمائها، ولكن، في لوحات بارغاس يعيش العالم في احتفال، تتنفس الأرض بكل قوة رئتيها، وأكثر الأشجار خضرة تنفجر بالثمار والأزهار، فيما تصطدم أسماك، وطيور، وديكة وافرة، ببعضها بعضا كالبشر.

لا يكاد بارغاس يعرف أن يقرأ أو يكتب. ويجــهل كيـف يكسـب قـوت يومـه كنجـار، أو أن يربح، كرسام، الضوء النظيف لأيامه: إنه يمتلك الانتقـام، نبـوءة شـخص لا يرسـم الواقـع الـذي يعرفه، وإنما الواقع الذي يحتاجه.

1975: سالتا Salta

رياح التغيير السعيدة

كما في لوحة للفنان الفنزويلي بارغاس، رسمت في إقليم سـالتا الأرجنتينـي سـيارات دوريـات الشرطة بالأصفر والبرتقالي. بدلا من صفارات الإنذار، فيها موسيقى، وبدلا من السجناء، أطفـال: كانت سيارات الدوريات تتنقل مليئة بالأطفـال الذيـن يجيئـون ويذهبـون مـن أكـواخ بعيـدة إلـى مدارس المدينة. دمرت زنزانات العقوبة وغرف التعذيب. انسحب رجال الشرطة مـن ألعـاب كـرة القـدم والمظـاهرات. تحـرر المعذبـون والجـلادون، واختفـى الضبـاط المتخصصـون في كسـر العظـام بالمطارق، وراء القضبان. بـدأت كـلاب الشـرطة، التـي زرعـت الرعـب في الفقـراء، تـؤدي ألعابـا بهلوانية في أحيائهم.

حدث هذا منذ عامين، حين كان روبن فورتني Ruben Fortuny رئيسا لشرطة سالتا. لم يستمر فورتني طويلا. وبينما يفعل ما فعله، كان رجال آخرون مثله يرتكبون أعمـالا جنونيـة مشـابهة في الأرجنتين، وكأن البلاد كلها كانت مضمومة في عناق واحد خفيف.

خاتمة حزينة لهذه الحادثة البيرونية الأكثر جدة: بعد أن عـاد بـيرون إلـى السـلطة، مـات، وأصبح الجلادون، مرة أخرى، أحرارا ومشغولين.

قتلوا فورتني برصاصة في القلب ثم اختطفوا الحاكم الذي عينه، ميغيل راغوني. كل ما تركـوه من راغوني هو بقعة دم وحذاء.

1975: بوينس آيرس

ضد أطفال إفيتا وماركس

ولكن، بالنسبة للأرجنتينيين، رفضت رياح التغيير الخطيرة أن تموت. شـاهد العسـكر تـهديد الثورة الاشتراكية ينتأ من كل باب ويستعد لإنقاذ الأمة. أنقذوا الأمة لمدة نصف قـرن تقريبـا، وفي وقت قريب، في المناهج في بنما، عثروا على الدعم في عقيدة الأمـن القومـي، التـي أكـدت لـهم أن العدو هو في الداخل. أضيفت لمسات إنهاء معينة إلى الانقلاب العسكري التـالي. سـيطبق برنـامج التطهير القومي بأية وسيلة: هذه حرب، حرب ضد أطفال إفيتا ومـاركس، وفي الحـرب الخطيئـة الوحيدة هي اللاكفاءة.

1976: مدريد

أونيتي

لم يتوقع العثور على أية رسالة في أية زجاجات في أي بحر. لكن خوان كارلوس أونيتي، اليائس، رفض أن يكون وحيدا. سيكون وحيدا، بالطبع، لولا سكان بلدة سانتا ماريا، الحزانى مثله، والذين أبدعهم ليرافقوه.

عاش أونيتي في مدريد منذ أن خرج من السجن. سجنه حكام الأوروغواي العسكريون لأنهم لم يحبوا قصة منحها جائزة في مسابقة كان حكما فيها.

فيما يداه متشابكتان خلف العنق، يتأمل المنفي البقع الرطبة على سقف غرفته في سانتا ماريا أو مدريد أو مونتيفيديو ومن يعرف أين أيضا. بين فينة وأخرى كان يتماسك ويكتب صرخات تبدو كأنها همسات فحسب.

1976: سان خوسيه

بلاد مجردة من الكلمات

صرح الرئيس أبارسيو مينديث أن حزب الولايات المتحدة الديموقراطي وعائلة كينيدي هم شركاء الفتنة الأفضل في الأوروغواي. سجل صحفي هذا الوحي الحسي، بحضور أسقف مدينة سان خوسيه وشهود آخرين.

اختير أبارسيو مينديث رئيسا في انتخابات صوت فيها اثنان وعشرون مواطنا: أربعة عشر جنرالا، خمسة قادة ألوية، وثلاثة أميرالات. منع العسكر رئيسهم من التحدث إلى الصحافة، إلى أي شخص، في الحقيقة، عدا زوجته. وبسبب هذا العمل الطائش عاقبوا الصحيفة التي نشرت تصريحه بمنعها عن الصدور لمدة يومين، وسرح الصحفي.

قبل إسكات رئيسهم، قام العسكر بتدابير معقولة وأسكتوا الأوروغواي كلها. كل كلمة ليست كذبة هي مخربة. لا أحد يمكن أن يذكر أيا من آلاف السياسيين، اتحادات التجارة، الفنانين، والعلماء الذين اعتبروا خارجين عن القانون. حظرت كلمة *المغاوير* رسميا، وبدلا منها، على المرء أن يقول *الرذيل*، *الجانح*، *المجرم أو الشرير*. موسيقيو الكرنفال، الوقحون وغير المحترمين، يجب ألا يستخدموا في غنائهم كلمات مثل *إصلاح زراعي*، *سيادة*، *جوع*، *سري*، *حمامة*، *أخضر*، *صيف*، ولا يسمح لهم بذكر كلمة قرية، حتى حين تعني مدينة صغيرة.

في مملكة الصمت يدعى السجن الرئيسي للسجناء السياسيين الحرية. كان السجناء، المحتجزون في العزلة، يبتكرون شفرات ليتحدثوا دون أصوات، يقرعون على الجدران، من زنزانة إلى أخرى، ليشكلوا كلمات وحروفا بحيث يستطيعون أن يتابعوا محبة وإبهاج بعضهم بعضا.

سجين سياسي من الأوروغواي، يدعى موريسيو روزنكوف يقول كلامه

إنه كصراع إنسان يقاوم تحويله إلى بقرة. ذلك أنهم وضعونا في آلة لصناعة البقر وقالوا لنا إنه بدلا من الكلام يجب أن نصدر خوارا. وهذه هي المسألة: كيف يستطيع سجين أن يقاوم تحويله إلى حيوان في موقف كهذا. إنها معركة من أجل الكرامة ... كان هناك رفيق أمسك قطعة من قصب السكر بأظافره، وصنع نايا. وهذا الشيء الأخرق والمتخلف يتأتى نوعا من الموسيقى...

1976: الحرية

طيور ممنوعة

لم يسمح للسجناء السياسيين في الأوروغواي بالتحدث دون إذن، أو بأن يصفروا، أو يبتسموا، أو يغنوا، أو يسيروا بسرعة، أو يحيوا سجناء آخرين أو يرسموا أو يتلقوا صور نساء حبالى، وأزواج، وفراشات، ونجوم، أو طيور.

في يوم أحد، زارت ديداسكو بيريث، أستاذ المدرسة، الذي سجن وعذب لامتلاكه أفكار إيديولوجية، ابنته ميلاي، التي تبلغ الخامسة من عمرها. أحضرت له رسوما للطيور فسحقها الحرس على مدخل السجن.

في يوم الأحد التالي، أحضرت له ميلاي رسوما للأشجار. ليست الأشجار ممنوعة، فدخلت الرسومات. مدح ديداسكو عملها وسألها عن الدوائر الملونة المبعثرة في قمم الأشجار، وهي دوائر صغيرة كثيرة، نصف مختبئة بين الأغصان: «*هل هذا برتقال؟ أية فاكهة هذه؟*»

وضعت الطفلة إصبعا على فمها وقالت: اصمت. وهمست في أذنه: *أيها السخيف ألا ترى أنها أعين؟ إنها أعين الطيور التي هربتها من أجلك.*

1976: مونتيفيديو

خمسة وسبعون طريقة للتعذيب

خمسة وسبعون طريقة للتعذيب استورد بعضها، وابتكر بعضها الآخر بفضل إبداع عسكر الأوروغواي، تعاقب التضامن. أي شخص يشك بحقوق الملكية أو قانون الطاعة ينتهي إلى السجن، القبر، أو المنفى. كان مقياس الخطر يصنف البشر إلى ثلاث فئات: ألف وباء وسين، أي: إلى «خطرون»، «خطرون بشكل كبير»، أو «غير خطرين». أصبحت الاتحادات التجارية مراكز للشرطة وخفضت الأجور إلى النصف. كل من يفكر أو سبق أن فكر يفقد عمله. في المدارس الابتدائية، والثانوية، وحتى الجامعة، منع التحدث عن برنامج الإصلاح الزراعي الذي وضعه

خوسيه أرتيغاس. من يأبه إن كان البرنامج الأول في أميركا؟ لم يسمح لأي شيء بمقاطعة نظام الصم والبكم هذا وفرضت نصوص إجبارية جديدة البيداغوجيا[1] العسكرية على الطلاب.

1976: مونتيفيديو

النصوص الرسمية الجديدة تعلم تلاميذ الأوروغواي: على المرء أن يطيع

ليس وجود الأحزاب السياسية ضروريا للديموقراطية. لدينا المثال الواضح للفاتيكان، حيث لا توجد الأحزاب السياسية، ومع ذلك، هناك ديموقراطية حقيقية...

إن مساواة النساء، التي ترجمت بشكل سيىء، تعني تشجيع الجنس والتفكير لديها، وتأجيل مهمتها كأم وزوجة. وإذا كان الرجل والمرأة، من وجهة نظر قانونية، متساويين بشكل واضح، فهذا ليس صحيحا من وجهة نظر بيولوجية. المرأة، هكذا، خاضعة لزوجها وبالتالي مدينة له بالطاعة. ومن الضروري أن يكون هناك، في كل مجتمع، رأس يخدم كمرشد، والأسرة هي مجتمع...

من الضروري أن يطيع البعض لكي يمارس الآخرون القيادة. إذا لم يطع أحد، سيكون من المستحيل الحكم...

1976: مونتيفيديو

مقلصو الرؤوس

حطم عسكر الأوروغواي، المكرسون لمنع الحقيقة وإحراق الذاكرة، الرقم القياسي العالمي في إغلاق الصحف.

أغلقوا المجلة الأسبوعية مارشا Marcha، بعد حياة طويلة وعذب أحد محرريها، خوليو كاسترو، حتى الموت، ثم اختفى دون جثة. وحكم على المحررين الآخرين بالسجن، والمنفى، أو الصمت.

في إحدى الليالي، شاهد الناقد السينمائي هوغو ألبارو، المحكوم عليه باللاعالمية، فيلما أثاره. حالما انتهى ركض إلى منزله وطبع بعض الصفحات، بسرعة كبيرة، لأن الوقت متأخر ولأن مارشا تغلق صفحاتها الخاصة بالتسلية في الساعات الباكرة. وبينما كان يغتنم الفترة الأخيرة، أدرك ألبارو أن مارشا لم تصدر منذ سنتين. شعر بالعار، ورمى مقالته في درج المكتب.

كانت تلك المقالة، التي لم تكتب لأحد، تتحدث عن فيلم جوزيف لوزي الذي تجري أحداثه في أثناء الاحتلال النازي لفرنسا، وهو فيلم يظهر كيف تطحن آلة القمع لا المضطهدين

---

(1) – علم أصول التدريس – المورد.

فحسب وإنما أيضا أولئك الذين هم بمأمن، الذين يعرفون ماذا يجري، وحتى الذين يفضلون ألا يعرفوا.

في غضون ذلك، على ضفة نهر بلاتا الأخرى، قام العسكر الأرجنتينيون بانقلابهم العسكري الخاص. أوضح أحد رؤوس الديكتاتورية الجديدة، وهو الجنرال إبيريكو سينت جان، الأمور: *«أولا، سنقتل جميع المنحرفين. ثم سنقتل المتعاونين. ثم المتعاطفين. ثم الذين لم يتخذوا قرارهم. وأخيرا، سنقتل اللامبالين».*

1976: لا بيرلا

الحرب العالمية الثالثة

من على قمة هضبة مليئة بأشجار البلوط، نظر راعي بقر أرجنتيني. شاهد خوسيه خوليان سوياني Sollanille قافلة عسكرية طويلة تقترب. تعرف على الجنرال مينينديث يهبط من مصفحة. من شاحنات، قذف الرجال والنساء وهم يضربون بالهراوات وثمة أغطية على رؤوسهم، وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. شاهد راعي البقر أحد المعصوبي الأعين يهرب. سمع الطلقات. سقط الهارب، نهض وسقط عدة مرات قبل سقوطه الأخير. حين بدأ وابل الرصاص انهار الرجال والنساء كدمى رثة. نخس راعي البقر حصانه وانطلق. خلفه صعد دخان أسود.

هذا الوادي، في التموجات الأولى لسلسة جبال قرطبة، هو أحد المزابل الكثيرة للجثث. حين يسقط المطر، يندفع الدخان من الحفر بسبب الجير الحي الذي يرمونه على الجثث.

في هذه الحرب المقدسة، *يختفي* الضحايا. أولئك الذين لا تبتلعهم الأرض تلتهمهم الأسماك في قيعان الأنهار أو البحر. ولم يرتكب كثيرون أية جريمة سوى أنهم ظهروا على قائمة أرقام تلفونية. ساروا في العدم، في الضباب، في الموت، بعد التعذيب في الثكنات. *لا أحد بريئا*، قال المنسينور بلاثا، أسقف لا بلاتا، وقال الجنرال كامبز: من الصائب إبادة مائة مشبوه إذا ظهر أن خمسة منهم فقط مذنبون بالإرهاب.

شرح الجنرال بيديا: *ليس الإرهابيين أولئك الذين يزرعون القنابل فحسب وإنما أيضا أولئك الذين يعملون بأفكار معادية لحضارتنا الغربية والمسيحية*. هذا انتقام لهزيمة الغرب في فييتنام: *«نحن نربح الحرب العالمية الثالثة»*، صاح الجنرال مينينديث.

1976: بوينوس آيرس

الخيار

خيرت سجينة حبلى بين الاغتصاب والمنخس الكهربائي. اختارت المنخس، ولكن لم تعد تستطيع أن تتحمل الألم بعد ساعة فاغتصبوها جميعا. وبينما هم يغتصبونها غنوا مارش الزفاف.

قال المنسينور غارثيي Garcelli: «*حسناً، هذه حرب*.»
كان الرجال الذين يحرقون الصدور بوابور لحام المعادن يرتدون كتافيات ويحضرون العشاء الرباني أيام الأحد.
قال الجنرال بيديا: «*الله فوقنا جميعاً*.»
قارن المونسينور تورتولو، رئيس هيئة الأساقفة، الجنرال بيديا بيسوع المسيح، والديكتاتورية العسكرية بانبعاث عيد الفصح. باسم الآب المقدس، زار السفير البابوي بيو لاغي Pio Laghi معسكرات الإبادة، رفع من شأن حب العسكر لله، والوطن، والأسرة، وبرر إرهاب الدولة على أساس أن الحضارة تمتلك الحق في الدفاع عن نفسها.

1976: لابلاتا

امرأة تبحث بين الأنقاض

كانت ماريا إيزابيل دي مارياني تبحث عبثاً عن شيء ما لم يُسْحَق في منزلها الذي دمرته قوات النظام. ما لم يسرقوه هشموه. لم ينج إلا شريط مسجلة واحد وهو معزوفة لفيردي، موسيقى قداس الموتى.
كانت ماريا تحب أن تعثر في الحطام على ذكرى ما لأولادها أو لحفيدتها، صورة أو لعبة، منفضة، أي شيء. قتل أولادها، الذين اشتبه بأنهم يديرون مطبعة سرية، رمياً بالرصاص. أما حفيدتها التي تبلغ من العمر ثلاثة أشهر فقد منحها الضباط أو باعوها كغنيمة حرب.
إنه الصيف، ورائحة البارود تختلط برائحة الزيزفون المزهر. سيظل ذلك الأريج لا يحتمل إلى الأبد. لا تملك ماريا إيزابيل أحداً لتكون معه. إنها والدة مخرّبين. حين يشاهدها أصدقاؤها تقترب يرسمون إشارة الصليب أو يشيحون نظرهم. هاتفها صامت. لا أحد يخبرها عن أي شيء، حتى الأكاذيب. دون مساعدة أحد تتابع وضع شظايا منزلها في صناديق. وحين يخيّم الليل تجر الصناديق على الرصيف. وفي الصباح الباكر يجمع عمال التنظيفات الصناديق، بلطف، واحداً واحداً، دون أن يقلبوها. عامل عمال التنظيفات الصناديق بعناية فائقة، وكأنها مليئة بقطع حياة مكسرة. وهي تحدق، بصمت، من خلال بقايا الستائر تشكرهم ماريا إيزابيل من أجل تلك المداعبة الوحيدة التي حصلت عليها منذ أن بدأ الأسى.

1976: غابة ثينيكا

كارلوس

ينتقدك في حضورك ويمدحك في غيابك. له نظرة ديك غاضب، حسيرة ومتعصبة، عينان بنيتان حادتان يرى بهما أبعد مما يرى الآخرون، رجل كل شيء أو لا شيء، لكن لحظات المتعة تجعله يقفز كطفل صغير، وحين يصدر الأوامر يبدو وكأنه يطلب معروفاً.

كارلوس فونسيكا أمادور، قائد الثورة النيكاراغوية، مات وهو يقاتل في الغابة.
أحضر عقيد الأنباء إلى الزنزانة التي كان يرقد فيها توماس بورخي Tomas Borge محطما. سوية سافرا على طريق طويل، كارلوس وتوماس، منذ تلك الأيام حين كان كارلوس يبيع الصحف والسكر نبات في ماتاغالبا Matagalba. ومعا أسسا، في تيغوثيغالبا Tegucigalba، الجبهة الساندينية.
قال العقيد: «*لقد مات.*»
قال توماس: «*أنت مخطئ، أيها العقيد.*»

1977: ماناغوا

توماس

وهو مقيد إلى حلقة حديدية، أسنانه تصطك، ومبلل بالبراز، بدا توماس بورغي كأنه كومة من العظام المحطمة والأعصاب المنتزعة، قصاصة ترقد على الأرض في انتظار دورة التعذيب التالية.
لكن هذه البقية منه لا تزال تستطيع الإبحار في أنهار سرية تأخذه وراء الألم والجنون. تاركا نفسه يذهب، دخل في نيكاراغوا أخرى ورآها.
من خلال القلنسوة التي تعصر وجهه المنتفخ من الضربات، يراها: يحصي الأسرة في كل مستشفى، النوافذ في كل مدرسة، الأشجار في كل حديقة، ويرى النائمين تطرف أجفانهم، حائرين، أولئك الذين ماتوا طويلا من الجوع وكل ما يقتل، توقظهم الآن الشموس الحديثة الولادة.

1977: أرخبيل سولينتينامي Solentiname

كاردينال

كانت طيور مالك الحزين التي تنظر إلى نفسها في مرايا تتلألأ، ترفع مناقيرها. وكانت زوارق الصيادين في طريق العودة، وخلفها السلاحف التي أتت إلى هنا لتنجب على الشاطئ.
في كابينة خشبية، كان المسيح يجلس إلى مائدة الصيادين ويأكل بيض السلاحف، والمنيهوت. وكانت الغابة، التي تبحث عنه، تدخل أذرعها عبر النوافذ.
تمجيدا ليسوع كتب إرنستو كاردينال، الشاعر - الراهب من سولينتينامي. وتمجيدا له غنى نافخ البوق Zanate، الطائر المشرد، الذي يطير دائما بين الفقراء، ويطري جناحيه في مياه البحيرة. وتمجيدا له رسم الصيادون صورا متألقة أعلنت عن الفردوس - الجميع أخوة، لا رؤساء، لا أقنان - إلى أن قرر الصياد الذي رسم الجنة، في أحد الأيام، أن يبدأ بصناعتها ثم عبر البحيرة ليهاجم ثكنات سان كارلوس.
من الظلمة، وعدت البومة بالمتاعب: «ثمل... ثمل..»

قتلت الديكتاتورية كثيرين بينما كان يعبر الباحثون عن الفردوس جبال وأودية وجزر نيكاراغوا. *العجين يرتفع، الرغيف الكبير ينتفخ...*

عمر كابيثاس Omar Cabezaz يروي عن الهضبة التي ندبت موت أحد المغاوير في نيكاراغوا

لم أسامح تيو Tello مطلقا لأنه قتل برصاصة واحدة، رصاصة واحدة فحسب... شعرت بخوف كبير، وبدا كأن الهضبة شعرت بالخوف كذلك. توقفت الريح والأشجار عن التأرجح، لم ترتعش ورقة واحدة، وصمتت الطيور. تجمدت الأشياء كلها، منتظرة تلك اللحظة حين جاؤوا وقتلوا مجموعة منا.

وانطلقنا. وحين سرنا إلى أعلى الوهد، بدا الأمر وكأننا نهز الهضبة، كأننا نمسكها ونقول لها: من تظن هذا العاهرة نفسها بحق الجحيم؟

عاش تيو مع الهضبة. أنا مقتنع أن له علاقات معها، فهي تحمل له الأولاد، وحين مات تيو شعرت أن كل شيء قد انتهى، ذهب التزامها، وكل ما تبقى غباء... ولكنها، حين شاهدت إرادة القتال عند الرجال الذين يتقدمون هناك، فوقها، في قلبها، أدركت أن تيو ليس بداية العالم ونهايته. ورغم أن تيو يمكن أن يكون ابنها، وربما كان حياتها، عشيقها السري، شقيقها، مخلوقها، حجرها، رغم أن تيو يمكن أن يكون نهرها... إلا أنه لم يكن نهاية العالم، وأن بعده، جاء جميعنا نحن الذين لا نزال نستطيع أن نشعل نارا في قلبها.

1977: برازيليا

مقص

وقع أكثر من ألف مفكر برازيلي بيانا ضد الرقابة. في تموز، العام الماضي، منعت الديكتاتورية العسكرية المجلة الأسبوعية «الحركة» Movimiento من نشر إعلان استقلال الولايات المتحدة الأميركية، لأنه قيل فيه إن الشعب يمتلك الحق والواجب لإلغاء الحكومات الاستبدادية. منذ ذلك الوقت منعت الرقابة باليه البولشوي لأنه روسي، صور بيكاسو الإيروتيكية لأنها إيروتيكية، وكتاب *تاريخ السريالية*، لأن أحد فصوله يحمل كلمة ثورة كعنوان له (الثورة في الشعر).

1977: بوينوس آيرس

والش

أرسل في البريد رسالة وعدة نسخ. بعث الرسالة الأصلية، إلى المجلس العسكري الذي يحكم الأرجنتين والنسخ، إلى وكالات الأنباء الأجنبية. في الذكرى الأولى للانقلاب العسكري، أرسل

بيان الشكاوى، سجلا من الأفعال الشائنة ارتكبها نظام يستطيع أن يترنح في رقصة موته فحسب. وضع توقيعه في الأسفل ورقمه (رودلفو والش، رقم الهوية الشخصية 2845022). ولم يكن قد ابتعد إلا خطوات عن مركز البريد حين أسقطه الرصاص، وحمل مجروحا، ولم ير بعد ذلك.

كانت كلماته العارية فضائحية حيث يحكم خوف كهذا، خطيرة بينما تستمر الحفلة التنكرية الكبيرة.

1977: ريو كوارتو Rio Cuarto

كتب والش المحروقة وكتب مؤلفين آخرين صرح أنها غير موجودة

نظرا للإجراء الذي اتخذه التدخل العسكري السابق في الجامعة الوطنية وتنفيذا لأوامر عليا سريعة، تسحب من المكتبة جميع مواد القراءة التي لها طبيعة مضادة للمجتمع وتبث محتوياتها الغريبة على الكينونة الأرجنتينية الوطنية، أفكارا ماركسية وتخريبية ومتطرفة.

بعد أن أحرقت النصوص في الوقت المناسب، كان من الملائم طردها من إرث مركز الدراسات المتقدمة فقرر رئيس الجامعة الوطنية في ريو كوارتو أن يطرد من إرث الجامعة الوطنية (من جميع فروع المكتبة) جميع الأسماء المدونة أدناه: (قائمة طويلة من الكتب بعضها لرودلفو والش، برتراند رسل، ويلهيلم ديلثي، موريس دوب، كارل ماركس، باولو فريري، وآخرين).

1977: بوينس آيرس

أمهات ساحة دي مايو

نساء أنجبهن أطفالهن كن الكورس اليوناني لهذه التراجيديا. يلوحن بصور أبنائهن المختفين، يدرن ويدرن حول المسلة، أمام المجلس الحكومي، بعناد كما يقمن بحج إلى الثكنات، مراكز الشرطة، والكنائس، جافات من بكاء كثير، يائسات من انتظار طويل لأولئك الذين لم يعودوا موجودين، أو ربما الذين لا يزالون موجودين... من يدري؟

قالت واحدة، قلن جميعهن: «استيقظت معتقدة أنه حي. بدأت أفقد إيماني فيما الصباح يستمر. مات مرة أخرى ظهرا. انبعث في المساء، بدأت أعتقد أنه سيعود حالا، ورتبت له مكانا إلى المائدة، لكنه مات مرة أخرى، وفي المساء نمت دون أمل. حين أستيقظ أشعر أنه حي...» يدعونهن بالنساء المجنونات. لا يتحدث عنهن أحد عادة. بعد أن أعيد الموقف إلى حالته العادية، أصبح سعر الدولار رخيصا وكذلك سعر بشر معينين. ذهب الشعراء المجانين إلى موتهم، وقبل الشعراء الأسوياء السيف ومدحوا الصمت. كان وزير المالية يصطاد الأسود والزرافات في

أفريقيا والجنرالات يصطادون العمال في ضواحي بوينس آيرس. وصدرت أوامر لغوية جديدة تجعل من الإجباري تسمية الديكتاتورية العسكرية عملية إعادة التنظيم الوطنية Proceso de Reorganizacion Nacional.

1977: بوينس آيرس

أليثيا مورياو Alicia Moreau

أحيانا تصل إلى أقصى حدود الحماسة في إيمانها، متوقعة ثورة اشتراكية بطريقة ليست واقعية بتاتا، أو تنفجر علنا في خطب مسهبة ضد السلطة العسكرية وبابا روما. ولكن ما الذي كان سيحدث لأمهات ساحة دي مايو لولا حماسة هذه المرأة الشبح؟ لا تتركهن مطلقا يصبن بالإحباط أو يشعرن بالهزيمة بسبب اللامبالاة والسخرية الكثيرة. كانت تقول لهن: «يستطيع المرء دائما أن يفعل شيئا ما، مع الجماعة. كل امرأة لوحدها، لا. دعونا ـ يجب أن»

التقطت عكازها وكانت أول من تحرك.

كانت أليثيا مورياو تبلغ من العمر مائة عام تقريبا. انخرطت في الصراع منذ تلك الأيام عندما لم يكن الاشتراكيون يشربون سوى المياه ويغنون سوى النشيد الوطني. شهدت أعاجيب كثيرة وخيانات، ولادات، وميتات، ومهما كانت مشكلاتها الحالية، كانت تتابع الإيمان أنه من الجدارة أن نؤمن. أليثيا مورياو هي حية الآن كما كانت حين بدأ القرن وألقت خطبا وهي تقف على صناديق الصابون بين أعلام حمراء في أحياء العمال في بوينس آيرس، ومرة عبرت جبال الآنديز على ظهر بغل، وحثت الحيوان على السرعة لكي لا تتأخر في الوصول إلى مؤتمر نسوي.

1977: بوينس آيرس

صورة مدير لعبة قمار

كان وزير مالية الديكتاتورية الأرجنتينية مؤمنا ورعا بالمشاريع الخاصة. كان يفكر بها أيام الأحد، حين يركع في أثناء القداس، وأيضا في أيام الأسبوع، حين يدرس في الكلية العسكرية. مع ذلك، انسحب الوزير، بشكل صحيح، من الشركة التي كان يديرها، وبكرم اقتطعها للدولة بما يعادل ثمنها عشرة أضعاف.

حول الجنرالات البلاد إلى ثكنة. وحولها الوزير إلى كازينو. طافت الأرجنتين بالدولارات وبضائع المستهلك. إنه زمن الجلاد، ولكن أيضا زمن المخادع والدجال. أمر الجنرالات البلاد أن تخرس وتطيع، بينما أمرها الوزير أن تضارب وتستهلك. كل من يعمل هو مستغل، وكل من يحتج جثة. ولكي يخفض الأجور إلى النصف ويحول العمال المتمردين إلى لا شيء، رشا الوزير أبناء الطبقة الوسطى بالفضة، وكانوا يطيرون إلى ميامي ويعودون محملين بجبل من الأدوات

وآلات التحكم بأجهزة المقامرة. في وجه المجزرة اليومية، كان البشر يهزون أكتافهم: «*لا بد أنهم فعلوا شيئا ما. إنها لسبب جيد.*»

أو يصفرون وينظرون إلى مكان آخر: «*لا تتورط.*»

1977: كاراكاس

سفر خروج المتطفلين

تحدث النبي في مقهى في كاراكاس كايي ريال دي سابانا غراندي Calle Real de Sabana Grande. شخص غير أرضي، بعينين ملتهبتين، ظهر للحظة وأعلن أنه في يوم أحد معين في شهر آب سيشق محيط غاضب الجبال ويمسح المدينة.

أكد الأساقفة، الساحرات، الفلكيون، والمنجمون، أكثر من مرة، أنه ليس هناك داع للقلق، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الذعر عن النمو، ومن أن يتدحرج ككرة عبر أحياء العمال في كاراكاس.

البارحة كان الأحد المقصود. أمر رئيس الجمهورية أن تتولى الشرطة مسؤولية المدينة. تشتت أكثر من مليون كاراكاسي، وهربوا حاملين ممتلكاتهم على ظهورهم. بقي في المدينة سيارات أكثر من البشر.

في يوم الاثنين بدأ الهاربون بالعودة. لم يغادر المحيط مكانه الأبدي، والجبال كذلك. في الوادي، واصلت كاراكاس حياتها. وهكذا استعادت عاصمة النفط مواطنيها المرعوبين. عاودوا الدخول إليها وكأنهم يعتذرون، لأنهم يعرفون الآن أنهم زائدون، أن هذا عالم عجلات، لا أرجل. تنتمي كاراكاس إلى سياراتها المهيمنة، لا إلى كل من يجرؤ ويعبر شوارعها ليزعج الآلات. ما الذي سيجري لهؤلاء البشر المحكوم عليهم أن يعيشوا في مدينة لا تنتمي إليهم، إذا لم تحمهم ماريا ليونثا ولم يشفهم خوسيه غريغوريو.

ماريا ليونثا

يرتفع صدرها فوق مركز كاراكاس ويحكم، عاريا، فوق الجنون. في كاراكاس، وفي فنزويلا كلها، ماريا ليونثا هي إلاهة.

قصرها اللامرئي بعيد عن العاصمة على جبل في سلسلة سورتي Sorte. تتبعثر الصخور على هذا الجبل حيث عشاق ماريا ليونثا دفعوا مقابل ليلة من المعانقات أن يتحولوا إلى أحجار تتنفس.

عمل سيمون بوليفار ويسوع الناصرة من أجلها في الملاذ. وأيضا يساعدها معاونون: أسود، وهندي، وأبيض ويخدمون المؤمنين، الذين يأتون محملين بهدايا من الفاكهة، والعطور، والثياب التحتية.

ماريا ليونثا، المرأة غير المروضة، التي يخشاها ويرغبها الله والشيطان، تمتلك قوى الفردوس والجحيم. تستطيع أن تلهم السعادة والشقاء، تنقذ إن شعرت بحب الإنقاذ، وترعد إن أحبت ذلك.

خوسيه غريغوريو

إنه أطهر الطاهرين، سكرتير ماريا ليونثا الأبيض. الطبيب خوسيه غريغوريو هيرنانديث لم يستسلم مطلقا لإغراء الجسد. جميع النساء المتملقات اللائي اقتربن منه انتهين إلى الأديرة، تائبات، ومستحمات بالدموع. أنهى طبيب الفقراء الفاضل هذا، حواري الطب، أيامه في 1919، غير مهزوم. سحقت جسده الطاهر، بلا رحمة، سيارة من السيارتين أو الثلاث التي كانت تدور في كاراكاس ببطء السلحفاة في تلك الأيام السعيدة. بعد الموت، تابعت يدا خوسيه غريغوريو، اللتان تجترحان المعجزات، وصف العلاج وإجراء العمليات للمرضى.

في ملاذ ماريا ليونثا، كان خوسيه غريغوريو يشغل نفسه بمشكلات الصحة العامة. لم يفشل مطلقا في أن يعود من الغيب ليلبي نداء الذين يعانون. كان القديس الوحيد الذي يرتدي ربطة عنق ويعتمر قبعة.

1977: غريسلاند

إلفيس

مرة، حرضت طريقته في هز رجله اليسرى، على الصراخ. وكانت شفتاه، وعيناه، وشارباه الخديان، أعضاء جنسية.

إنه الآن كرة هشة من الضعف. كان إلفيس بريسلي، ملك الروك آند رول المخلوع عن عرشه، يرقد في السرير، فيما عيناه تطوفان بين ست شاشات تلفزيونية. كان كل من التلفزيونات المعلقة من السقف، مدارا إلى محطة مختلفة. بين النوم والأحلام، وهو نائم أكثر من كونه مستيقظا، كان إلفيس يطلق من مسدسات فارغة من الذخيرة، على الصور التي لا يحبها. كانت كرة جسده الشحمية تغطي روحا مصنوعة من الكودين ـ مخدر مستخرج من الأفيون ـ والمورفين، والفاليوم، والسيكونال Seconal، والبلاسيديل Placidyl، والكواليود Quaalude، والنيمبوتال Nembutal، والفالميد Valmid، والديميرول Demerol، والإلافيل Elavil، والأفنتيل Aventyle، والكاربريتال Carbrital، والسينوتاب Sinutab، والأميتال Amytal.

1978: سان سلفادور

روميرو

قدم لها كبير الأساقفة كرسيا لكن ماريانيلا فضلت أن تتحدث وهي واقفة. كانت تأتي دوما من أجل الآخرين، لكن ماريانيلا جاءت، هذه المرة، من أجل نفسها. لم تأت ماريانيلا غارسيا بيلاس، محامية المعذبين والمختفين في السلفادور، هذه المرة، لكي تطلب من كبير الأساقفة أن

يتضامن مع أحد ضحايا D' Aubuisson، الكابتن تورش، الذي يحرق جسدك بوابور لحام المعادن، أو أحد أخصائيي الرعب العسكري. لم تأت ماريانيلا لكي تطلب المساعدة لأي شخص خاضع للتحقيق أو الشجب. لديها شيء شخصي هذه المرة لتقوله له. قالت له، بقدر ما تستطيع من الهدوء، أن الشرطة اختطفتها، قيدتها، وضربتها، وأذلتها، وعرتها ـ وأنهم اغتصبوها. قالت له ذلك دون بكاء أو اهتياج، بهدوئها المعتاد، ولكن كبير الأساقفة أرنولفو روميرو لم يسمع من قبل مطلقا في صوت ماريانيلا اهتزازات الحقد تلك، أصداء القرف، دعوات الانتقام. حين أنهت كلامها، صمت كبير الأساقفة المنذهل.

بعد صمت طويل، بدأ يقول لها إن الكنيسة لا تكره وليس لها أعداء، وإن كل ظلم وكل فعل ضد الله يشكل جزءا من نظام مقدس، إن المجرمين هم أيضا أخوة لنا ويجب أن يصلى من أجلهم، إن المرء يجب أن يسامح مضطهديه، ويقبل الألم، و... فجأة، توقف كبير الأساقفة روميرو.

خفض نظرته، دفن وجهه بين يديه. هز رأسه، ناكرا كل شيء، وقال: *«كلا، لا أريد أن أعرف»*

«لا أريد أن أعرف»، قال فيما صوته ينهار.

كبير الأساقفة روميرو، الذي يقدم دائما النصيحة والراحة، بكى كطفل دون أم أو منزل. كبير الأساقفة روميرو، الذي يمنح دائما اليقين، اليقين المهدئ لإله محايد يعرف الجميع ويعانق الجميع ـ كبير الأساقفة روميرو يشك.

روميرو يشك ويبكي وماريانيلا تدلك رأسه.

1978: لاباث

خمس نساء

«من هو العدو الرئيسي؟ الديكتاتورية العسكرية؟ البرجوازية البوليفية؟ الإمبريالية؟ كلا، أيها الرفاق، أريد أن أقول لكم ذلك فحسب: عدونا الرئيسي هو الخوف. إنه في داخلنا».

هذا ما قالته دوميتيلا في منجم قصدير كاتابي، ثم جاءت إلى العاصمة مع أربع نساء وأكثر من عشرين طفلا. في يوم عيد الميلاد بدأوا إضرابهم عن الطعام. لم يصدقهم أحد. اعتقد البعض أنها نكتة سخيفة: «*خمس نساء سوف يطحن بالديكتاتورية*؟!!!»

كان الكاهن لويس إسبينال أول من انضم إليهن. وفي وقت سريع كان هناك 1500 شخص يضربون عن الطعام في جميع أنحاء بوليفيا. دعت النساء الخمس، المتعودات على الجوع منذ أن كن صغيرات، الماء دجاجا أو ديكا روميا والملح قطعة لحم خنزير، وكن يتغذين على الضحك. في غضون ذلك، تضاعف عدد المضربين ـ ثلاثة آلاف، عشرة آلاف ـ إلى أن أصبح من المتعذر إحصاء

البوليفيين الذين توقفوا عن تناول الطعام والعمل، وبعد ثلاثة وعشرين يوما من بداية الإضراب عن الطعام غزا البشر الشوارع، وأصبح من المتعذر إيقافهم.
أطاحت النساء الخمس بالديكتاتورية العسكرية.

1978: ماناغوا

حظيرة الخنازير

أطلق في نيكاراغوا على القصر الوطني اسم حظيرة الخنازير. كان الطابق الأول من هذا البارثينون[1] المزيف، يغص بالشيوخ.

في منتصف أحد أيام آب، هاجمت حفنة من المغاوير يقودهم إيدن باستورا ودورا ماريا تييث حظيرة الخنازير وأسروا في ثلاث دقائق جميع مشرعي سوموزا. مقابل إطلاق سراحهم، على سوموزا أن يطلق سراح سجناء الجبهة الساندينية. اصطف البشر على طريق المطار كي يحييوهم.

بدا كأن هذا العام عام حرب متواصلة. بدأها سوموزا بذبح الصحفي بدرو خواكين شامورو. أحرق البشر الغاضبون، على الفور، عددا من مشاريع الديكتاتور. التهمت ألسنة اللهب شركة Plasmaferesis المزدهرة التي تصدر الدم النيكاراغوي إلى الولايات المتحدة الأميركية. أقسم البشر أنهم لن يستريحوا إلى أن يدفن مصاص الدماء في مكان ما أكثر ظلمة من الليل بوتد يخوزق قلبه.

لؤلؤة حكمة تاتشيتو سوموزا Tachito Somoza

أنا رجل أعمال متواضع.

1978: بنما سيتي

توريخوس Torrijos

قال الجنرال عمر توريخوس إنه لا يريد أن يدخل التاريخ، كل ما يريده هو أن يدخل منطقة القناة، التي سرقتها الولايات المتحدة عند منعطف القرن. هكذا تجول في العالم من بلاد إلى أخرى، ومن حكومة إلى أخرى، ومن منصة إلى أخرى. حين كان يتهم بأنه يخدم موسكو أو هافانا، كان توريخو يضحك ويقول إن كل شعب يبلع أسبرينه الخاص من أجل صداعه. حين يتعلق الأمر بهذا، قال، تكون علاقته مع أنصار كاسترو أفضل من علاقته مع المخصيين.

أخيرا سقطت أسيجة القناة. وقعت الولايات المتحدة، التي ضغط عليها العالم، اتفاقية تعيد إلى بنما، على درجات، القناة والمنطقة الممنوعة التي تحيط بها.

قال توريخوس مرتاحا: «هكذا أفضل، لقد أراحوني من مهمة تفجير القناة وجميع منشآتها.»

---

[1] – هيكل الإلاهة أثينا في مدينة أثينا.

1979: مدريد

متطفلون يزعجون تناول
الطعام الهادئ لجسد الله

في كنيسة كبيرة في مدريد، احتفل قداس خاص بذكرى استقلال الأرجنتين. دعا الجنرال ليناردو أنايا الدبلوماسيين، مدراء الأعمال، ورجال الجيش، والجنرال ليناردو هو سفير الديكتاتورية المشغولة، عبر البحر، بحماية إرث الوطن الأرجنتيني، وإيمانه وأموره الأخرى.

عبر النوافذ الزجاجية الملونة كانت أضواء باهرة تضيء وجوه وأزياء السيدات والسادة. في آحاد كهذه، الله جدير بالثقة. وفي أحيان نادرة تزين سعلة رعديدة الصمت، بينما يؤدي الكاهن الشعيرة: صمت الأبدية الهادئ، أبدية مختاري الله.

تأتي لحظة العشاء الأخير. مطوقا بالحرس الشخصي، يقترب السفير الأرجنتيني من المذبح. يركع، يغمض عينيه، يفتح فمه. يسمع حالا حفيف المناديل البيضاء التي تفتح، والتي كانت تغطي رؤوس النساء اللواتي يسرن في الممرات، جميع الممرات. تقدمت أمهات ساحة دي مايو بهدوء، أصدرن حفيفا قطنيا، إلى أن أحطن بالحراس الشخصيين الذين يحيطون بالسفير. ثم حدقن به. حدقن ببساطة. فتح السفير عينيه، نظر إلى جميع النساء اللواتي كن ينظرن إليه دون أن يرف له جفن وابتلع لعابه، بينما بقيت يد الكاهن مشلولة في الجو، وخبز القربان بين أصابعه.

امتلأت الكنيسة كلها بهؤلاء النساء. فجأة اختفى القديسون أو التجار من هذا المعبد، لم يبق سوى حشد من النساء غير المدعوات: فساتين سوداء، مناديل بيضاء، جميعهن صامتات، جميعهن واقفات.

1979: نيويورك

المصرفي روكفلر يهنئ الدكتاتور بيديا

إلى صاحب السيادة خورخي رافايل بيديا
رئيس الأرجنتين
بوينس آيرس، الأرحنتين

عزيزي الرئيس
أنا ممتن جدا لك لمنحي الوقت واستقبالي في أثناء زيارتي الأخيرة إلى الأرجنتين. وكوني لم أذهب إلى هناك لمدة سبع سنوات، كان من المشجع أن أرى التقدم الذي أنجزته حكومتك في

أثناء السنوات الثلاث الماضية، على صعيد السيطرة على الإرهاب وتقوية الاقتصاد. أهنئك على ما أنجزته وأتمنى لك كل نجاح في المستقبل ...

مع أطيب التمنيات
المخلص لك،
ديفد روكفلر

1979: سيونا Siuna

صورة عامل نيكاراغوي

خوسيه بيارينا Jose Villarreina، متزوج، له ثلاثة أطفال. يعمل لدى الشركة الأميركية الشمالية روزاريو ماينز، التي أطاحت، منذ سبعين عاما، بالرئيس ثيلايا. منذ 1952 كان بيارينا ينقي الذهب من الحفريات في سيونا، ومع ذلك، لم تهترئ رئتاه بشكل كامل بعد.

في الواحدة والنصف بعد الظهر، في آب 1979 نظر بيارينا إلى الخارج من مدخل المنجم فمزقت عربة مليئة بالمعادن رأسه. بعد خمس وثلاثين دقيقة، نوهت الشركة أن الرجل الميت، ووفقا للمواد 18 و115 و119 من قانون العمل، صرف من الخدمة لأنه لم ينجز عقده.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

الأرض تضطرب

وتهتز بشكل أسوأ مما يحدث حين تجتمع الزلازل كلها مع بعضها. طائرات تحلق فوق مساحات ضخمة من الغابة وترمي النابالم، وتقصف المدن المتقاطعة بالحواجز والخنادق. استولى الساندينيون على ليون، ومسايا، وخينوتيغا، وتشينانديغا، إستيلي، كاراثو، وخينوتيبي...

وبينما كان سوموزا ينتظر دينا قيمته خمسة وستون مليون دولار وافق عليه البنك الدولي، كانوا يقاتلون في نيكاراغوا من شجرة إلى أخرى، من منزل إلى آخر. بأقنعة أو مناديل تغطي وجوههم، كان الشبان يهاجمون بالبنادق أو بالحراب، بالعصي أو الأحجار، حتى مسدس اللعبة كان يخدم ويترك انطباعا.

في مسايا، والتي تعني بلغة الهنود، المدينة التي تحترق، كان المقاتلون، الخبراء في صناعة الألعاب النارية، يحولون أنابيب التصريف إلى مدفعية هاون ويخترعون قنبلة دون صمام تنفجر حين تصطدم. وكانت العجائز ينسجن بين الرصاص حاملات سلالا ضخمة مليئة بالقنابل، يوزعنها حولهن كأنها أرغفة خبز.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

افهموها جميعا، جميعكم

لا تخسروها، الكبير هنا، غادر البراز، انفتحت الجحيم، نحن في حرارة الحمى، نقاتل بترسانة صنعناها هنا ضد الدبابات والسيارات المصفحة والطائرات، وهكذا فليدخلها الجميع، من الآن فصاعدا لا أحد يفر، إنها حربنا، الشيء الحقيقي، إذا لم تموتوا وأنتم تقتلون فستموتون محتضرين، التضامن يجعلنا أكثر شجاعة، سوية الآن، الشعب هو نحن.

من دفتر مواعيد تاتشيتو سوموزا

1979

الثلاثاء، 12 تموز

حب.

1979: ماناغوا

يجب تشجيع السياحة

أمر الديكتاتور أن تشجع السياحة بينما كانت أحياء الفقراء الشرقية تحترق بعد أن قصفتها القوى الجوية.

من غرفته المحصنة، والتي هي رحم فولاذي وإسمنتي كبير، كان سوموزا يحكم. هنا لا شيء يتغلغل، لا رعد البنادق، ولا صرخات الناس، لا شيء يزعج الصمت المطبق. هنا لا يرى المرء شيئا ولا يشم أي شيء. عاش سوموزا في هذه الغرفة المحصنة، لبعض الوقت، تماما وسط ماناغوا، ولكن بعيدا عن نيكاراغوا قدر ما تتصور، وفي هذه الغرفة المحصنة، كان يجلس الآن مع فاوستو أمادور.

فاوستو أمادور هو والد كارلوس فونسيكا أمادور. كان الابن، مؤسس الجبهة الساندينية، يفهم الوطنية، بينما كان الأب، المدير العام للرجل الأغنى في أميركا الوسطى، يفهم الميراث.

كان سوموزا المحاط بالمرايا والأزهار البلاستيكية، يجلس أمام كمبيوتر، وينظم، بمساعدة فاوستو أمادور، تصفية مشاريعه، وكان هذا يعني نهب نيكاراغوا كلها.

قال سوموزا فيما بعد على الهاتف: «*لن أذهب ولن يطيحوا بي.*»

1979: ماناغوا

حفيد سوموزا

إنهم يطيحون به وسيذهب. فجرا، ركب سوموزا طائرة إلى ميامي. في تلك الأيام الأخيرة تخلت عنه الولايات المتحدة، لكنه لم يتخل عنها: «*في قلبي، سأكون دائما جزءا من هذه الأمة العظيمة*»

أخذ سوموزا معه سبائك الذهب من البنك المركزي، ثمانية ببغاوات متألقة الألوان وتابوتي والده وشقيقه. أخذ أيضا جسد ولي العهد الحي.

أناستاسيو سوموزا بورتوكاريرو، حفيد مؤسس السلالة، رجل عسكري سمين تعلم فنون القيادة والحكومة الجيدة في الولايات المتحدة الأميركية. وفي نيكاراغوا أسس وأدار مدرسة تدريب المشاة الأساسية، وهي مجموعة فتية من الجيش متخصصة في استجواب السجناء ـ ومشهورة بسبب مهارتها. كان أولئك الشبان المسلحون بالكماشات والملاعق، يستطيعون أن ينتزعوا الأظافر دون أن يكسروا جذرها، والأعين دون أن يؤذوا الأجفان.

ذهبت قبيلة سوموزا إلى المنفى بينما كان أوغستو سيزار ساندينو يطوف في نيكاراغوا تحت مطر من الأزهار، بعد نصف قرن من قتلهم له. لقد جنت هذه البلاد، الرصاص يعوم، الفلين يغوص، الموتى يهربون من المقبرة، والنساء من المطبخ.

1979: غرانادا

القائدة

خلفهم هاوية. في الأمام وإلى كلا الجانبين، مسلحون في حالة هجوم. سقطت ثكنة لا بولبورا، المعقل الأخير للديكتاتورية في مدينة غرانادا.

حين سمع العقيد القائد أن سوموزا هرب، أمر بإسكات الرشاشات. أوقف الساندينيون أيضا إطلاق النار.

حالا انفتحت بوابة الثكنة الحديدية وظهر العقيد ملوحا بقماشة بيضاء: «*لا تطلقوا النار.*»

عبر العقيد الشارع. «*أريد أن أتحدث مع القائد.*»

سقط منديل يغطي أحد الوجوه: «*أنا القائد*»، قالت مونيكا بالتودانو، إحدى نساء الجبهة الساندينية التي تقود القوات.

«*ماذا؟*»

من فم العقيد، هذا الفحل المترفع، تحدثت المؤسسة العسكرية، مهزومة لكن بكرامة. رجولة البنطلون، شرف البذلة. «*لا أريد أن أستسلم لامرأة!*» زار العقيد.

لكنه استسلم.

1979: في جميع أنحاء نيكاراغوا

ولادة

كان عمر نيكاراغوا، التي ولدت حديثا في الأنقاض، بضع ساعات فحسب. كانت نباتات خضراء جديدة تنمو بين أنقاض الحرب المنهوبة، فيما الضوء المغني ليوم الخلق الأول يملأ الجو الذي يفوح برائحة النار.

1979: باريس

دارسي

منحت جامعة السوربون درجة الدكتوراة الفخرية لدارسي ريبيرو Darcy Ribeiro. قال إنه قبلها بفضل فشله.

فشل دارسي كعالم إناسة لأن هنود البرازيل لا يزالون تحت الإبادة. فشل كرئيس جامعة لأن الواقع الذي أراده أن يتحول برهن أنه عنيد. فشل كوزير تربية في بلاد لا تتوقف فيها الأمية عن الانتشار مطلقا. فشل كعضو حكومة حاولت وفشلت إما في تطبيق الإصلاح الزراعي أو السيطرة على العادات الوحشية لرأس المال الأجنبي. وفشل ككاتب حلم بمنع التاريخ من أن يكرر نفسه.

هذه هي حالات فشله. هذه هي كرامته.

1979: سانتياغو دي تشيلي

إيمان عنيد

وقع الجنرال بينوشيه على مرسوم فرض الملكية الخاصة على هنود المابوتشي Mapuche. قدمت الحكومة الأموال، السياج، والبذار لأولئك الذين وافقوا على تقسيم جماعاتهم مقابل الحصول على امتياز جيد. إذا لم يوافقوا، حذرت الحكومة، فسوف يقبلون دون امتياز.

لم يكن بينوشيه أول من آمن أن الجشع هو جزء من الطبيعة الإنسانية وأن الله يريد الأمر هكذا. منذ زمن طويل، حاول الفاتح بدرو دي بالديبيا أن يفكك جماعات تشيلي المحلية. مذاك، تم الاستيلاء على كل شيء من الهنود بالسيف والنار، كل شيء: الأرض، اللغة، الدين، العادات. ولكن الهنود، المطوقين، المسجونين في البؤس، الذين أنهكتهم حروب كثيرة وخداع كثير، أصروا على الإيمان أن العالم منزل يمكن تقاسمه.

1979: تشاخول Chajul

نوع آخر من التربية السياسية في غواتيمالا

ولد باتروسينيو مينتشو، الهندي من المايا كويتشي، في قرية تشيميل Chimel، دافع، مع والديه، عن أراضي جماعته المنهكة من الغارات. تعلم من والديه أن يسير على المرتفعات دون أن ينزلق، أن يحيي الشمس حسب العادات القديمة، أن ينظف الأرض ويسمدها، وأن يربط حياته بها.

الآن، هو أحد السجناء الذين أحضرتهم شاحنات الجيش إلى قرية تشاخول كي يراهم الناس. تعرفت شقيقته، ريغوبيرتا، عليه، رغم أن وجهه منتفخ من الضربات وينزف من عينيه، وفمه بلا لسان، وأصابعه بلا أظافر.

كان خمسمائة جندي ـ هنود أيضا، هنود من مناطق أخرى ـ يحرسون الطقس. أجبر جميع سكان تشاخول، الذين جمعوا في حلقة، على المشاهدة. كان على ريغوبيرتا أن تراقب، بينما في داخلها، كما في الجميع، كانت تبرعم لعنة صامتة وندية. عرض النقيب الأجساد العارية، مجروحة، مبتورة، لا تزال حية، وقال إنهم كوبيون جاؤوا ليثيروا الاضطرابات في غواتيمالا. بعد أن شرح تفاصيل عقوبة كل منهم، صرخ النقيب:

«انظروا جيدا إلى ما ينتظر المغاوير!»

ثم بلل السجناء بالبنزين وأحرقهم.

كان باتروسينيو لا يزال شتلة ذرة طرية. ولم يزرع إلا منذ ستة عشر عاما.

هنود المايا يزرعون كل طفل يولد

عاليا في الجبال، كان هنود غواتيمالا يدفنون حبل السرة بينما يقدمون الطفل إلى الجد فولكانو، والأم الأرض، والأب الشمس، والجدة القمر، وجميع الأجداد الأقوياء، ويطلبون منهم أن يحموا الوليد الجديد من الخطر والخطأ.

أمام المطر الذي يروينا وأمام الريح التي تشهد علينا، نحن، الذين هم جزء منك، نزرع هذا الطفل الجديد، هذا الرفيق الجديد، في هذا المكان...

1980: لاباث

مافيا الكوكايين Cococracy

أعلن الجنرال لويث غارسيا ميثا، مخطط الانقلاب الـ 189 في قرن ونصف من تاريخ بوليفيا، أنه سيؤسس اقتصادا حرا، كما في تشيلي، وأكد أن جميع المتطرفين سيختفون، كما في الأرجنتين.

مع غارسيا ميثا، سيطر مهربو الكوكايين على الدولة. كان وزير داخليته الجديد، العقيد لويس آرسي غوميث، يقسم وقته وطاقته بين تهريب المخدرات ورئاسة القسم البوليفي من العصبة العالمية المضادة للشيوعية. قال إنه لن يستريح مطلقا *إلى أن يزيل سرطان الماركسية*.

رفعت الحكومة العسكرية الستارة باغتيال مارسيلو غيروكا سانتا كروث، عدو شركة غلف أويل ولصوصها الأربعين، الخصم العنيد للقذارة المختبئة.

1980 : سانتا آنا دي ياكيوما

صورة رجل أعمال حديث

يطلق من ردفه، الرصاص والرشاوى. يحمل عند خصره مسدسا ذهبيا، وفي فمه ابتسامة ذهبية. يستخدم حراسه الشخصيون الرشاشات المزودة بمنظار. يمتلك اثني عشرة طائرة مقاتلة مسلحة بالصواريخ وثلاثين طائرة شحن تقلع باكرا كل صباح من الغابة البوليفية محملة بمعجون الكوكايين. كان روبيرتو سواريث، عم ورفيق وزير الداخلية الجديد، يصدر طنا كل شهر.

قال: «*فلسفتي هي أن أعمل جيدا.*»

زعم أن المال الذي منحه للعسكر البوليفيين يكفي لدفع ديون البلد الخارجية.

كمثل رجل أعمال أميركي لاتيني جيد، كان سواريث يرسل أرباحه إلى سويسرا، حيث تجد ملاذا في السرية المصرفية. ولكن في سانتا آنا دي ياكيوما، البلدة التي ولد فيها، رصف الشارع الرئيسي، أصلح الكنيسة، ومنح آلات خياطة للأرامل والأيتام، وحيث يستدير هناك يراهن بآلاف الدولارات على رمية نرد أو صراع ديكة.

سواريث هو أهم رأسمالي بوليفي في مشروع ضخم متعدد القوميات. بين يديه، يتضاعف سعر ورقة الكوكايين عشر مرات وهي تتحول إلى معجون وتغادر البلاد. فيما بعد، وحين تصبح مسحوقا وتصل إلى الأنف الذي يستنشق، يحلق سعرها مائتي مرة. كأية مادة خام من بلد فقير، تملأ أوراق الكوكة جيوب الوسطاء، وقبل كل شيء جميع الوسطاء في البلدان الغنية التي تستهلكها بعد تحويلها إلى كوكايين، الإلاهة البيضاء.

الإلاهة البيضاء

هي الأغلى بين الآلهة. تكلف أكثر بخمس مرات من الذهب. في الولايات المتحدة، هناك عشرة ملايين مؤمن يتوقون ويحترقون، جاهزين للقتل، ويقتلون أنفسهم من أجلها. يرمون، كل عام، ثلاثين بليون دولار عند قدم مذبحها المشع من الثلج النقي. وعلى المدى الطويل، تدمرهم، ومن البداية تسرق أرواحهم، ولكن، مقابل ذلك، تجعلهم، بقدرتها، سوبرمانات للحظة.

1980: سانتا مارتا

الماريجوانا

من كل دولار من الأحلام التي يشتريها مدخن ماريجوانا أميركي بالكاد يصل سنت واحد إلى أيدي الفلاحين الكولومبيين الذين يزرعونه. تذهب السنتات التسع وتسعين الأخرى إلى المهربين، الذين يملكون، في كولومبيا، 1500 مطار، خمسمائة طائرة، ومائة سفينة.

على حواف ميديين Medellin أو سانتا مارتا، تعيش مافيا المخدرات في منازل لافتة للنظر. في الأمام يحبون أن يعرضوا، على منصات غرانيتية، طائرات صغيرة استخدموها في عمليتهم الأولى. يهزون أطفالهم في مهود ذهبية، يمنحون أظافر ذهبية لعشيقاتهم، أو يضعون على خاتم الإصبع أو ربطة العنق قطع ألماس متحفظة كأضواء السيارات الأمامية.

والمافيا تطهر قواتها بشكل اعتيادي. منذ أربع سنوات قتلت بنيران الرشاشات لوتشو برانكويا، الأشهر بين المهربين، على زاوية شارع في مدينة سانتا مارتا. أرسل القتلة إلى الجنازة إكليلا من الأزهار على شكل قلب وأخذوا مجموعة لينصبوا تمثالا للمتوفى في الساحة.

1980: سانتا مارتا

القديس أغاتون

ندب لوتشو بارانكويا بشكل واسع. بكى عليه الأطفال الذين كانوا يلعبون في حديقة تسليته، كما فعلت الأرامل والأيتام الذين حماهم، ورجال الشرطة الذين أكلوا من يده. في الحقيقة، كل مدينة سانتا مارتا، التي عاشت بفضل ديونه وتبرعاته، بكت. وبكى من أجله أيضا القديس أغاتون.

القديس أغاتون هو القديس الراعي للسكارى. في كرنفال الأحد، يصعد سكارى من كل الساحل الكولومبي إلى قرية ماماتوكو، على حواف سانتا مارتا. هناك يخرجون القديس أغاتون من الكنيسة ويسيرون به ويغنون أغاني قذرة ويرشونه بشراب كحولي قوي، فقط بالطريقة التي يحب.

ولكن ما يعرضه السكارى هو فقط دجال أحضر من إسبانيا. ذلك أن القديس أغاتون الحقيقي، الذي له وجه هندي ويعتمر قبعة قشية، اختطفه منذ ربع قرن كاهن معتدل في شرب الخمور وهرب واضعا القديس تحت مدرعته. عاقب الله ذلك الكاهن بالجذام وختم عيني الحافظ الذي رافقه، لكنه ترك القديس الحقيقي أغاتون مخبأ في قرية سكري Sucre البعيدة.

ذهبت لجنة إلى سكري في الأيام الأخيرة لكي تتوسل إليه أن يعود: «*منذ أن غادرت*»، قالوا له، «*لم يعد هناك معجزات أو تسلية.*»

رفض القديس أغاتون وقال إنه لن يعود إلى سانتا مارتا لأنهم قتلوا هناك صديقه لوتشو بارانكويا.

1980: غواتيمالا سيتي

جريدة السينما

كان الجنرال روميو لوكاس غارسيا، رئيس غواتيمالا، هو الذي أصدر الأمر بإشعال النار في السفارة الإسبانية بمن فيها. جاءت هذه الإفادة من إلياس باراوونا، الناطق الرسمي باسم وزارة الداخلية، الذي دعا إلى مؤتمر صحفي بعد أن التجأ سياسيا إلى بنما.

قال باراوونا إن الجنرال لوكاس غارسيا مسؤول شخصيا عن موت الأشخاص التسعة وثلاثين الذي أحرقوا أحياء بقنابل الشرطة. كان بين الضحايا سبعة وعشرون زعيما هنديا احتلوا السفارة بسلام كي يشجبوا المجازر في إقليم كيتشي Queche.

أضاف باراوونا إن الجنرال لوكاس غارسيا يقود عصابات العسكر والشرطة الشاذة المعروفة باسم سرايا الموت، وساعد في وضع قوائم بأسماء المعارضين الذين قدر عليهم أن يختفوا.

زعم سكرتير الإعلام السابق لوزارة الداخلية أنه طبق في غواتيمالا «برنامجا لإسكات وإبادة الشيوعية»، يستند إلى وثيقة مؤلفة من أربعمائة وعشرين صفحة وضعها أخصائيون في الولايات المتحدة على أساس تجربتهم في حرب فييتنام.

في النصف الأول من عام 1980 في غواتيمالا، قتل 27 بروفسورا جامعيا، ثلاثة عشر صحفيا، وسبعون قائدا فلاحيا، معظمهم من الهنود. وكان للقمع حضورا خاصا في مناطق الجماعات الهندية في إقليم كويتشي، حيث اكتشفت حديثا كميات نفط ضخمة.

1980: أوسبانتان

ريغوبيرتا

هي هندية من المايا كيتشي، ولدت في قرية تشيميل، وكانت تقطف البن والقطن في المزارع الساحلية منذ أن تعلمت السير. شاهدت في حقول القطن موت اثنين من أشقائها ـ نيكولاس وفيليبي، الصغير ـ وكذلك صديقها المفضل، الذي كان في ريعان فتوته. سقط الجميع ضحايا لرش المبيدات.

في العام الماضي، في قرية تشاخول، شاهدت ريغوبيرتا منتشو كيف أحرق الجيش شقيقها باتروسينيو حيا. بعد ذلك حالا عانى والدها من المصير نفسه في السفارة الإسبانية. وفي أوسبانتان، قتل الجنود أمها، تدريجيا، وقطعوها إلى أشلاء بعد أن ألبسوها لباس أحد المغاوير.

من جماعة تشيميل، حيث ولدت ريغوبيرتا، لم يبق أحد حيا.

ريغوبيرتا، التي هي مسيحية، علمت أن المسيحيين الحقيقيين يسامحون مضطهديهم ويصلون لأرواح جلاديهم. علمت أن المسيحي الحقيقي حين يضرب على خده يدير الخد الآخر.

قالت ريغوبيرتا: «*لم يعد لدي خد لأديره.*»

1980: سان سلفادور

الأعطية

لم تتحسن علاقته مع الله إلا منذ سنتين. الآن يتحدث مع الجميع ولأجل الجميع. إن كل طفل ينجبه شعب عذبه الأقوياء هو طفل الله مصلوبا، وينبعث الله في الناس بعد كل جريمة يرتكبها المستكبرون. لم يعد المونسينور روميرو، كبير أساقفة السلفادور، محطم العالم، كاشف العالم، يشبه رعاة الأرواح الثرثارين الذين استخدمهم المستكبرون ليصفقوا. أصبح البشر العاديون يقاطعون، بتصفيق حماسي، مواعظه التي تشجب إرهاب الدولة.

البارحة، الأحد، حض كبير الأساقفة الشرطة والجنود على عصيان أمر قتل أشقائهم الفلاحين. باسم المسيح، قال روميرو للشعب السلفادوري: «*انهضوا واذهبوا*.»

اليوم، الاثنين، وصل القاتل إلى الكنيسة ترافقه دوريتان للشرطة. يدخل وينتظر، مختبئا خلف عمود. كان روميرو يحتفل بالقداس. حين فتح ذراعيه وقدم الخبز والخمرة، جسد ودم البشر، ضغط القاتل على الزناد.

1980: مونتيفيديو

شعب يقول لا

دعت ديكتاتورية الأوروغواي إلى استفتاء عام وفشلت.

هذا الشعب الذي أجبر على الصمت بدا كأنه أخرس، ولكنه حين فتح فمه، قال لا. كان صمت تلك الأعوام مصما بحيث أن العسكر خلطوا بينه وبين الاستقالة. لم يتوقعوا مطلقا استجابة كهذه. سألوا فقط لمجرد السؤال، ككبير خدم يأمر دجاجاته أن تقول بأية صلصة تفضل أن تؤكل.

1980: في جميع أنحاء نيكارلغوا

بطريقتها

لا تطلق الثورة الساندينية النار على أي شخص، ولكن لم يبق من جيش سوموزا شريط نحاسي. كانت البنادق تمر في أيدي الجميع، بينما نصبت راية الإصلاح الزراعي فوق حقول مهجورة.

غزا جيش من المتطوعين، بأسلحة من أقلام الرصاص والحقن، بلاده. إنها ثورة، ووحي أولئك الذين يؤمنون ويبدعون، وهم ليسوا آلهة معصومة بخطوة ملكية، وإنما بشر عاديون، فرضت عليهم الطاعة قرونا ودربوا على العجز. الآن، حتى حين يتنزهون، يتابعون السير، بحثا عن الخبز والكلمة: هذه الأرض التي فتحت فمها، متلهفة لتأكل وتتحدث.

1980: أسنثيون

ستروسنر Stroessner

تمزق تاتشيتو سوموزا، المخلوع، المنفي، إلى أشلاء في زاوية شارع بأسنثيون.

سأل الصحفيون في ماناغوا: «*من فعلها؟*»

أجاب القائد توماس بورغي: فونتيو بيخونا[1] Fuenteovejuna.

عثر تاتشيتو على ملاذ في عاصمة البارغواي، المدينة الوحيدة في العالم التي لا يزال فيها تمثال نصفي برونزي لوالده تاتشو سوموزا Tacho Somoza، وحيث لا يزال هناك شارع باسم الجنرال فرانكو.

البارغواي، أو القليل الذي ترك من البارغواي بعد كثير من الحروب والنهب، هي ملك الجنرال ألفريدو ستروسنر. كل خمسة أعوام كان هذا المحارب المحنك، زميل سوموزا وفرانكو يجري انتخابات ليؤكد سلطته. ولكي يستطيع البشر أن يصوتوا علق لمدة أربعة وعشرين ساعة حالة الحصار الأبدية المفروضة على البارغواي.

كان ستروسنر يعتقد أنه عصي على الخطر وذلك لأنه لا يحب أحدا. الدولة هي هو. كان كل يوم، تماما في السادسة مساء، يتصل بمدير البنك المركزي ويسأله: «*كم جمعنا الليلة؟*»

1980: في جميع أنحاء نيكاراغوا

اكتشاف

انطلقوا على الأحصنة، أو في الزوارق، أو سائرين. شن رجال الثورة حملات لمحو الأمية اخترقت أكثر الزوايا اختباء في نيكاراغوا. في ضوء المصباح كانوا يعلمون أولئك الذين لا يعرفون استخدام قلم الرصاص، لكي لا يخدعهم مرة أخرى بشر يظنون أنفسهم أذكياء.

وبينما هم يدرسون كانوا يتقاسمون الطعام القليل الذي بجعبتهم، يلجأون إلى الأعشاب والمحاصيل، يقشرون أيديهم وهم يقطعون الخشب، ويمضون الليل على الأرض في صفع البعوض. يكتشفون العسل البري في الأشجار، وفي البشر يكتشفون الأساطير، والأشعار، والحكمة الضائعة، شيئا فشيئا بدأوا يعرفون اللغات السرية للأعشاب التي تقوي النكهة، تشفي الآلام، وتعالج لسعات الثعابين. وفيما هم يعلمون، كان رجال الثورة يتعلمون أعاجيب وأحقاد هذه البلاد،

---

[1] – الإشارة هنا هي إلى مسرحية فونتيوبيخونا للمسرحي الأسباني لوبي دي بيغا (1562– 1635)، والتي فيها جميع سكان البلدة التي تحمل هذا الاسم يدعون المسؤولية الجماعية عن قتل طاغية. أكثر النصوص شهرة في المسرحية يقول: «من قتل الكومندادور؟ فونتيوبيخونا، سنيور.»

بلادهم التي يسكنها الباقون على قيد الحياة. ففي نيكاراغوا، أي شخص لا يموت من الجوع، أو المرض، أو من رصاصة، يموت من الضحك.

1980: نيويورك

يبدو تمثال الحرية كأنه مصاب بالجدري

وذلك بسبب الغازات السامة التي ترميها معامل كثيرة في السماء والتي تعيدها الأمطار والثلوج إلى الأرض. قتلت مائة وسبعون بحيرة بسبب هذا المطر الحمضي في ولاية نيويورك وحدها، لكن مدير المكتب الفيدرالي للإدارة والميزانية قال إن الأمر لا يستحق أن يزعج المرء نفسه من أجله. ففي النهاية، لا تشكل هذه البحيرات إلا 4٪ من مياه الولاية.

العالم حلبة سباق. الطبيعة، عائق. ترك النفس الميت للمداخن أربعة آلاف بحيرة دون أسماك أو نباتات في أونتاريو، بكندا.

«*من الأفضل أن نطلب من الله أن يتدخل*»، قال صياد.

1980: نيويورك

لينون

قميص معلق على سقف يطوي ذراعيه. الريح تشكو. ينضم إلى زئير وصراخ حياة المدينة زعيق بوق يندفع في الشوارع. في ذلك اليوم القذر في مانهاتن، قتل المبدع الموسيقي جون لينون.

لم يرد أن يربح أو يقتل. لم يوافق أن العالم يجب أن يكون سوق بورصة أو ثكنة. كان لينون على هامش السكة. يغني أو يصفر بنظرة شاردة، يراقب عجلات الآخرين تدور في الدوار الأبدي الذي يروح ويغدو بين مشفى المجانين والمسلخ.

1981: سورأمار Surahammar

المنفى

ما المسافة التي تفصل معسكر تعدين بوليفي عن مدينة في السويد؟ كم من الأميال، كم من القرون، كم من العوالم؟

دوميتيلا، إحدى النساء الخمس اللواتي أطحن بديكتاتورية عسكرية، حكمت عليها بالنفي ديكتاتورية عسكرية أخرى، ونفيت مع زوجها المعدن وأطفالها الكثيرين، إلى ثلوج أوروبا الشمالية.

من مكان لا يوجد فيه أي شيء، إلى مكان مليء بكل شيء، من البؤس الأسوأ إلى الوفرة الأعلى. أعين مليئة بالدهشة في وجوه الطين تلك: هنا في السويد، يرمون في القمامة تلفزيونات

جديدة تقريبا، ألبسة وأثاثا بالكاد قد استخدم، وبرادات وآلات لغسل الصحون تعمل بشكل كامل.

دوميتيلا ممتنة لدعم السويديين ومعجبة بحريتهم، لكن القمامة تسيء إليها والوحدة تزعجها. يعيش هؤلاء البشر الأغنياء الفقراء وحيدين أمام تلفزيوناتهم، يشربون وحدهم، يأكلون وحدهم، يتحدثون مع أنفسهم:

قالت دوميتيلا: «*هناك، في بوليفيا، نجتمع سوية حتى من أجل شجار.*»

1981: سيليكا كانتون

«حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء»

تحطمت طائرة في نهاية أيار، وهكذا انتهت حياة جيمي رولدوز، رئيس الإكوادور. سمع بعض الفلاحين الانفجار ورأوا الطائرة تشتعل قبل أن تتحطم.

لم يسمح للأطباء بفحص الجسد. لم تشرح الجثة. لم يظهر الصندوق الأسود مطلقا، وقالوا إنه لم يكن في الطائرة صندوق. الباحثون ملسوا فوق مشهد الكارثة. محيت أشرطة من أبراج المراقبة في كيتو، غواياكيل، ولوخا. مات عدد من الشهود في حوادث. استبعد تقرير القوى الجوية مسبقا أية جريمة.

حظ سيء، خطأ بشري، طقس سيىء. لكن الرئيس رولدوز كان يدافع عن نفط الإكوادور المشتهى، أعاد العلاقات الممنوعة مع كوبا، ودعم الثورات الملعونة في نيكاراغوا، والسلفادور، وفلسطين.

بعد شهرين تحطمت طائرة أخرى في بنما. حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء. اختفى فلاحان سمعا الطائرة تنفجر في الجو. كان عمر توريخوس، المذنب باستعادة قناة بنما، يعرف أنه لن يموت كعجوز في الفراش.

تقريبا، في وقت متزامن، تحطمت مروحية في البيرو. حظ سيىء، خطأ بشري، طقس سيىء. وهذه المرة الضحية هو رئيس الجيش البيروفي الجنرال رافايل هويوس ربيو، العدو القديم لستاندارد أويل وشركات أخرى متعددة القوميات.

1982: جنوب جزر جيورجيا

صورة شخص شجاع

سمته أمهات ساحة دي مايو الملاك، بسبب وجهه الطفولي القرنفلي. أمضى بضعة شهور وهو يعمل معهن، دائما يبتسم، دائما مستعد أن يقدم المساعدة. وفي مساء ما، قبض البوليس على عدد

من أكثر مقاتلي الحركة نشاطا وهم يغادرون اجتماعا. اختفت الأمـهات كأبنائـهن، وبناتـهن ولـم يسمع عنهن أي شيء.

أشار الملاك بإصبعه إلى الأمهات المختطفات، وهـذا المـلاك هـو مـلازم أول البارجـة الحربيـة ألفريدو أستيث، عضو قوة المهمة 3 ـ 3 ـ 2 في مدرسـة الميكانيكـا البحريـة، الـذي يملـك سـجلا طويلا ومتألقا في غرف التعذيب.

هذا الجاسوس والجلاد، الذي هو الآن ملازم أول فـي سـفينة حربيـة، كـان أول مـن استسـلم للإنكليز في حرب المالبيناس Malvinas. استسلم دون أن يطلق طلقة واحدة.

1982: جزر مالبيناس

حرب المالبيناس

انتهت الحرب الوطنية التـي وحـدت، للحظـة، المداسـين والـذي يدوسـون، بانتصـار جيـش بريطانيا العظمى الاستعمارية.

الجنرالات والعقداء الأرجنتينيون الذي وعدوا أن يسفحوا آخر قطرة من دمائهم لم يجـرح لـهم إصبع. أولئك الذين أعلنوا الحرب لم يرتدوا حتى مظهر الضيف. هكذا بحيـث يمكـن أن يرفـرف العلم الأرجنتيني فوق قطع الثلج هذه، في قضية عادلة في أيد غير عادلة،أرسـلت القيـادة العليـا إلى المسلخ شبانا مقيدين بالخدمة الإلزامية، ماتوا من البرد أكثر مما ماتوا من الرصاص.

لم يخفق نبضهم. بأيد قوية وقع مغتصبو النسـاء المقيـدات، وجـلادو العمـال غـير المسـلحين، الاستسلام.

1982: طرق لامنتشا

السيد جواب الكرة

أكمل نصف قرنه الأول من الحياة بعيـدا عـن مكـان ولادتـه. فـي قريـة قشـتالية، أمـام أحـد طواحين الهواء التي تحدت دون كيخوتة، احتفـل خـابيير بيافـاني Javier Villafane، بطريـك محركي دمى أميركا، بعيد ميلاد ابنه المفضل. ليكون جديرا بهذا التاريخ العظيم، قرر خـابيير أن يتزوج غجرية جميلة قابلها لتوه، وترأس السيد جواب الكرة المأدبة بوقاره الكئيب المميز.

تابع السيد جواب الكرة والحاج خابيير الحياة معـا وحركـا الدمـى علـى طـول طـرق العـالم، العذبة والسيئة. كلما مرض السيد جواب الكرة، ضحية الديدان أو العث، يشفي خـابيير جراحـه بصبر لا ينفد وفيما بعد يعتني به وهو نائم.

في بداية كل أداء، أمام حشد من الأطفال المترقبين، يرتجف الاثنان وكأنهما في عرضهما الأول.

1982: ستوكهولم

الروائي غارسيا ماركيز يتلقى جائزة نوبل ويتحدث عن أراضينا المحكوم عليها بمائة عام من العزلة

أتجرأ وأعتقد أن هذا الواقع الزائد عن حده، وليس التعبير الأدبي فحسب، هو الذي استحق انتباه أكاديمية الآداب السويدية. واقع ليس من الورق، وإنما واقع يعيش فينا ويحدد كل لحظة من ميتاتنا اليومية التي لا تحصى، وهذا يغذي مصدر إبداع نهما ومليئا بالألم والجمال، لا يشكل منه هذا الكولومبي الجوال إلا صفرا أفرده الحظ. الشعراء والشحاذون، الموسيقيون والأنبياء، المحاربون والأنذال، نحن جميع مخلوقات ذلك الواقع المنزوع اللجام، علينا أن نسأل فقط قليلا من مخيلتنا، لأن مشكلتنا الحاسمة كانت غياب طرق تقليدية لجعل حياتنا قابلة للتصديق. هذا يا أصدقائي جوهر العزلة ...

إن ترجمة واقعنا من خلال نماذج لا يخدم إلا في جعلنا مجهولين أكثر، وأقل حرية، وأكثر انعزالا ...

كلا: عنف تاريخنا الذي لا يقاس وألمه هما نتيجة ظلم قديم ومرارة لم ترو، وليس نتيجة مؤامرة حيكت على بعد ثلاثة آلاف فرسخ عن بلداننا. لكن كثيرا من القادة والمفكرين الأوروبيين فكروا هكذا، وهذا مع طفولية المحافظين الذين نسوا الإفراط المثمر لشبابهم، وكأنه كان من المستحيل العثور على مصير آخر سوى أن نحيا تحت رحمة سيدي العالم الكبيرين. هذا، يا أصدقائي، درع عزلتنا نفسه...

1983: سينت جورج Saint George's

إعادة فتح جزيرة غرانادا

غرانادا الصغيرة، بقعة الخضرة التي لا تكاد تلمح في الكاريبي الشاسع، عانت من غزو استعراضي قام به المارينز. أرسلهم الرئيس رونالد ريغان لكي يقتلوا الاشتراكية، لكن المارينز لم يقتلوا إلا جثة. قبل ذلك ببضعة أيام، اغتال عسكريون محليون معينون، جشعون للسلطة، الاشتراكية مسبقا، باسم الاشتراكية.

خلف المارينز هبط وزير الخارجية الأميركية جورج شولتز وقال في مؤتمر صحفي: «*من النظرة الأولى أدركت أن هذه الجزيرة يمكن أن تكون مشروعا عقاريا رائعا*.»

1983: لا برمودا

ماريانيلا

كل يوم، في الفجر، يصطف أقرباء، وأصدقاء، وعشاق السلفادوريين المختفين. يأتون ليقدموا الأنباء أو في طلبها، ليس لهم مكان آخر ليسألوا عن المفقودين. كان باب مفوضية حقوق الإنسان مفتوحا دائما، أو يستطيع المرء أن ينزلق بسهولة من الثغرة التي فتحتها قنبلة في جدار بنائها.

منذ أن بدأت حركة المغاوير تنمو في الريف، توقف الجيش عن استخدام السجون. أدانتهم المفوضية أمام العالم: *تموز: خمسة عشر طفلا تحت سن الرابعة عشرة سجنوا بتهمة الإرهاب وعثر عليهم مقطعين. آب: ثلاثة عشر ألف وخمسمائة مدني اختفوا أو قتلوا هذا العام...*

من بين عمال المفوضية، كانت ماجدلينا إنركويث، تلك التي ضحكت أكثر، أول من سقط. رمى الجنود جسدها المجرح على الشاطئ. ثم جاء دور رامون بالاداريس الذي عثر عليه مثقبا بالرصاص في الوحل على جانب الطريق. لم يبق إلا ماريانيلا غارسيا بيلاس التي قالت: «*العشبة السيئة لا تموت مطلقا*».

قتلوها قرب قرية لا برمودا في أراضي كوسكاتلان المحروقة. كانت تسير بكاميرتها ومسجلتها تجمع الأدلة حول إطلاق الجيش للفوسفور الأبيض على الفلاحين المتمردين.

1983: سانتياغو دي تشيلي

عشرة أعوام بعد إعادة فتح تشيلي

قال وزير المالية: «*لكم الحق باستيراد جمل.*» من شاشة التلفزيون كان وزير المالية يحض التشيليين على الاستفادة من التجارة الحرة. في تشيلي يستطيع أي شخص أن يزين بيته بتمساح أفريقي أصلي، وتتألف الديموقراطية من الخيار بين الشيفاز ريغال والجوني ووكر بلاك ليبل.

استوردت جميع الأشياء: المكانس، علاقات أقفاص الطيور، الذرة، الماء للويسكي، الأرغفة المستطيلة المحدبة تأتي جوا من باريس. النظام الاقتصادي، المستورد من الولايات المتحدة، أجبر التشيليين أن يخدشوا أحشاء جبالهم من أجل النحاس، ولا شيء أكثر. لا يستطيعون أن يصنعوا دبوسا، لأن الدبابيس الكورية الجنوبية تأتي بسعر أقل. أي فعل إبداعي هو جريمة ضد قوانين السوق ـ أي، قوانين القدر.

من الولايات المتحدة تأتي البرامج التلفزيونية، السيارات، الرشاشات، الأزهار البلاستيكية. في حارات الطبقة العليا في سانتياغو لا يستطيع المرء أن يتحرك دون أن يصطدم بالكمبيوترات اليابانية، وأفلام الفيديو الألمانية، وأجهزة التلفزيون الهولندية، والشوكولاتة السويسرية،

والمارملاد الإنكليزي، ولحم الخنزير الدانمركي، والثياب التايوانية، والعطور الفرنسية، والتن الأسباني، والزيت الإيطالي...

وكل من لا يستهلك لا يوجد. وجميع الآخرين يستخدمون ويرمون، رغم أنهم يدفعون الفواتير لحفلة الكرديت كارد هذه.

يبحث العاطلون عن العمل عن الطعام من خلال الرفض. يرى المرء في كل مكان لافتات تقول: لن نفتح. لا تلحوا.

تضاعف الدين الخارجي ونسبة الانتحار ستة أضعاف.

1983 : وهد بين كاليبادو وبيتوركا

التلفزيون

لم تكن عائلة إسكاراتي تملك شيئا ـ إلى أن أحضر أرماندو تلك العلبة على ظهر بغله.

غاب أرماندو إسكاراتي سنة كاملة، ليعمل في البحر كطباخ للصيادين، وكذلك في بلدة لا ليغوا حيث قام بأعمال غريبة وأكل الفتات، كادحا ليلا ونهارا إلى أن جمع مالا كافيا ليشتريه.

حين نزل أرماندو عن بغله وفتح العلبة، ذهلت الأسرة من الخوف. لم يـر أحد مثله في هذه المناطق من الجبال التشيلية. جاء الناس من أماكن بعيدة، وكأنهم في حج، ليفحصوا جهاز السوني الكامل الألوان الذي عمل على بطارية شاحنة.

لم تكن عائلة إسكاراتي تملك شيئا. ولا يزالون لا يملكون أي شيء وينامون مكومين مع بعضهم بعضا، لا يكادون يحصلون على الجبن الذي يصنعونه، وعلى الصوف الذي ينسجونه، وعلى قطعان الماعز التي يرعونها لرئيس المزرعة. لكن التلفزيون انتصب كطوطم وسط كوخهم الطيني المسقوف بالخيزران. من الشاشة قدمت لهم الكوكاكولا شرارة الحياة، والسبرايت فقاعات الشباب، ومنحتهم سجائر المارلبورو الرجولة، حلوى الكادبري منحتهم التواصل الإنساني، بطاقات الاعتماد، الثروة، عطور ديور وقمصان كاردان، منحتهم التميز، خمر السنزانو منحهم الموقع الاجتماعي، والمارتيني، الحب الجامح. حليب النسلة المبودر منحهم فتوة أبدية، وسيارة الرينو طريقة حياة جديدة.

1983 : بوينوس آيرس

الجدات المحققات

بينما كانت الديكتاتورية العسكرية تتفكك في الأرجنتين، كانت جدات ساحة دي مايو ينطلقن للبحث عن أحفادهن الضائعين. هؤلاء الأطفال، الذين سجنوا مع آبائهم، أو ولدوا في معسكرات التعذيب، تم توزيعهم كغنائم حرب، وكثير منهم تبناهم من قتل آباءهم. حققت الجدات على

أساس ما يستطعن أن ينقبن عنه ـ الصور، المعلومات الضالة، علامة ولادة، شخص ما رأى شيئا ما ـ وهكذا، فتحن ممرا بدهاء محلي وضربات مظلة، واستعدن بعض الأطفال.

تامارا آرثي، التي اختفت في الواحدة والنصف، لم تصل إلى الأيدي العسكرية. إنها في حي فقير في الضواحي، في منزل الناس الطيبين الذين التقطوها حين رميت إلى القمامة. بطلب من الأم، تولت الجدات البحث عنها. لم يمتلكن إلا بعض الخيوط، ولكن بعد مسح طويل ومعقد، حددن مكانها. كل صباح تبيع تامارا الكيروسين على عربة يجرها حصان، لكنها لا تشكو من مصيرها. في البداية لم ترد حتى أن تسمع عن أمها الحقيقية. شرحت لها الجدات بالتدريج إنها ابنة روزا، العاملة البوليفية التي لم تتخل عنها مطلقا. إنه في إحدى الليالي قبض على أمها على بوابة المصنع، في بوينس آيرس....

1983: ليما

تامارا تطير مرتين

عذبت روزا ـ تحت إشراف طبيب كان يشير متى يجب التوقف ـ واغتصبت، وأطلق عليها برصاص فارغ. أمضت ثماني سنوات في السجن، دون محاكمة أو تفسير، وفقط في العام الماضي طردت من الأرجنتين. الآن، في مطار ليما، تنتظر بينما ابنتها تامارا تطير فوق الآنديز نحوها.

رافقت تامارا على الطائرة جدتان من اللواتي عثرن عليها. كانت تلتهم كل قطعة من الطعام تقدم إليها في الطائرة، دون أن تترك كسرة خبز أو حبة سكر.

في ليما، تكتشف روزا وتامارا بعضهما بعضا. تنظران سوية إلى المرآة. إنهما متماثلتان: الأعين والعلامات نفسها في الأمكنة نفسها.

حين خيم الليل، حممت روزا ابنتها. وهي تضعها في السرير، شمت رائحة حليبية عذبة عليها، وهكذا حممتها مرة أخرى. ثم أخرى. ولكن كلما استخدمت المزيد من الصابون، يصبح من الصعب إزالة الرائحة. إنها رائحة غريبة... وفجأة تذكرت روزا. هذه رائحة الأطفال الصغار حين يفطمون: تامارا في العاشرة، والليلة تفوح منها رائحة كطفل حديث الولادة.

1983: بوينس آيرس

ماذا لو كانت الصحراء محيطا والأرض سماء؟

أمهات وجدات ساحة دي مايو مخيفات. ما الذي سيحدث لو تعبن من التحلق أمام المجلس الحكومي وبدأن يوقعن مرسومات حكومية؟ وإذا أمسك الشحاذون على باب الكاتدرائية صدرة كبير الأساقفة وقلنسوته المربعة وبدأوا يبشرون بالمواعظ من على المنبر؟ وإذا بدأ مهرجو السيرك الشرفاء يصدرون الأوامر في الثكنات ويضعون المناهج في الجامعات؟ وإذا فعلوا؟ وإذا؟

1983: نجد الالتماسات Plateau Petitions

مسرح الأحلام المكسيكي

كما يفعلون كل عام، يجيء هنود الزابوتيك Zapotec إلى نجد الالتماس.

في جانب هناك البحر، وفي الآخر، قمم وجروف.

هنا تتحرر الأحلام. ينهض رجل راكع ويدخل إلى الغابة، على ذراعه عروس لامرئية. يتحرك شخص ما كقنديل بحر كسول، يبحر في سفينة جوية. شخص يرسم على الريح وآخر يسير على الحصان ببطء ملكي، يعبر غصن شجرة. تصبح الحصى حبات ذرة وجوز البلوط يصبح بيضا. العجائز يصبحون أطفالا، والأطفال عمالقة، ورقة الشجرة تصير مرآة تعكس وجها جميلا لكل من ينظر إليها.

وسوف تنكسر الأحجية إذا تجرأ أي شخص وفقد جديته حيال بروفة لباس الحياة هذه.

1983: نهر توما

تحقق

في نيكاراغوا كان الرصاص يئز رائحا غاديا بين الكرامة والاحتقار، وتقضي الحرب على حيوات كثيرة.

هذه إحدى الكتائب التي تقاتل الغزاة. جاء المتطوعون من أفقر أحياء ماناغوا إلى سهول نهر توما البعيدة.

حين تحل لحظة هدوء، ينشر البروفسور بيتو عدوى الرسائل. تصيب العدوى رجل من الميليشيا طلب منه أن يكتب له رسالة. فعل بيتو ذلك، ثم قال: «*هذه آخر رسالة أكتبها لك وسوف أقدم لك شيئا أفضل.*»

سيباستيان فويرتيس، الجندي الحديدي من باريو إل مالديتو، والذي هو رجل متوسط العمر شارك في كثير من الحروب وتزوج كثيرا من النساء، وهو أحد الذين نموا وحكم عليهم بتعلم الأبجدية. لبضعة أيام كان يكسر أقلام الرصاص ويمزق الأوراق، في فترات الاستراحة من إطلاق النار، ويثبت في وجه الكثير من المزاح الثقيل. وحين حل الأول من أيار، انتخبه أصدقاؤه ليعد الخطاب.

عقد الاجتماع في حقل أخضر مليء بالروث والقراد. وقف سيباستيان على صندوق، أخرج من جيبه ورقة مطوية، وقرأ الكلمات الأولى التي أنجبتها يداه. قرأ من مسافة، مادا ذراعه، لأن بصره ضعيف ولا يضع نظارة.

«*أيها الأخوة في الكتيبة 8221!...*

1983: ماناغوا

التحدي

خرج ريش من الدخان من أفواه البراكين وسبطانات البنادق. ذهب الفلاح إلى الحرب على حمار، وثمة ببغاء على كتفه. لا بد أن الله كان رساما بدائيا حين حلم بهذه الأرض ذات الكلام اللطيف، التي حكمت عليها الولايات المتحدة، التي تدرب الكونترا وتدفع لهم، أن تقتل وتموت. من هندوراس، هاجمها السوموزيون، من كوستاريكا خانها إيدن باستورا.

والآن، جاء إلى هنا بابا روما. وبخ البابا أولئك الكهنة الذين يحبون نيكاراغوا أكثر من الفردوس، وبشكل مفاجئ أسكت أولئك الذين طلبوا منه أن يصلي من أجل الوطنيين الذين قتلوا. بعد خصام مع الحشد الكاثوليكي المتجمع في الساحة، خرج غاضبا من هذه الأرض التي حل بها الشيطان.

1983: مريدا

وضع الشعب الله على قدميه

وكان البشر يعرفون أن الله بحاجة إلى مساعدتهم لكي يقف في العالم. وكل عام، يولد المسيح الطفل في مريدا وفي مكان آخر من فنزويلا. منشدو الخورس يغنون على إيقاع الكمنجات، الماندولين، والغيتارات، بينما تلف العرابات في قطعة قماش كبيرة الطفل الذي يستلقي في المذود ـ مهمة حساسة، عمل جاد ـ ويأخذنه في نزهة.

العرابات يجعلن الطفل يسير في الشوارع. يتبعهن الملوك والرعاة، بينما يرمي الحشد القبل والأزهار. بعد ترحيب حميم كهذا في العالم، تضع العرابات المسيح في المذود حيث ينتظره يوسف ومريم. بعد ذلك، وباسم الجماعة، تجعله العرابات يقف للمرة الأولى ويتأكدن من انتصابه بين والديه. أخيرا رتلت صلاة المسبحة وتناول جميع الحاضرين قطعة من الكاتو من النوع القديم المصنوع من اثني عشر صفار بيض وبعض خمرة المستيلا الحلوة.

1983: ماناغوا

جريدة السينما

في حي للعمال بماناغوا انجبت امرأة دجاجة، حسب الجريدة النيكاراغوية اليومية La Presna مصادر مقربة من هيئة الكهنوت لم تنكر أن هذا الحدث الفائق للعادة يمكن أن يكون إشارة تدل على غضب الله. يمكن أن يكون سلوك البشر أمام البابا قد أدى إلى نفاد الصبر الإلهي، كما آمنت تلك المصادر.

في 1981 حدثت معجزتان في نيكاراغوا كان لهما الصدى الكبير نفسه. قامت عذراء كوابا Cuapa بظهور مثير ذلك العام في حقول شونتالز حافية، ومتوجة بالنجوم، ومحاطة بهالة أعمت الشهود، قامت العذراء بتصريحات لحافظ كنيسة يدعى برناردو. عبرت أم الإله عن دعمها لسياسات الرئيس ريغان ضد الساندينيين الملحدين والشيوعيين.

بعد ذلك بوقت قصير، تعرقت عذراء الحمل وبكت بغزارة لعدة أيام في منزل بماناغوا. كبير الأساقفة، المونسينور أباندو، ظهر أمام مذبحه وحض المؤمنين لكي يصلوا من أجل صفح الأكثر طهارة. توقفت انبثاقات عذراء الحمل فقط حين اكتشفت الشرطة أن مالكي الصورة الجصية كانوا يغطسونها في الماء ويضعونها ليلا في براد بحيث تعرق حين تعرض في الحرارة المحلية المرتفعة، أما حشد الحجاج.

1984: الفاتيكان

مكتب محكمة التفتيش المقدس

يحمل الآن الاسم الأكثر وقارا وهو أبرشية عقيدة الإيمان. لم يعد يحرق المهرطقين وهم على قيد الحياة، رغم إنه يمكن أن يحب ذلك. وجع رأسه الرئيسي يأتي هذه الأيام من أميركا. باسم الأب المقدس، يستدعي المفتشون عالمي اللاهوت الأميركيين اللاتينيين ليوناردو بوف وجستابو غوتيريث، ويوبخهما الفاتيكان بشدة لقلة احترامهما لكنيسة الخوف.

كنيسة الخوف، المشروع الوافر المتعدد القوميات، المكرس للألم والموت، متلهف ليصلب أي طفل لنجار من السلالة التي تدور الآن في السواحل الأميركية لتثير الصيادين وتتحدى الإمبراطوريات.

1984: لندن

الذهب واللبان

اجتمع كبار المسؤولين من الولايات المتحدة، واليابان، وألمانيا الغربية، وإنكلترة، وفرنسا، وإيطاليا، وكندا في لانكاستر هاوس ليهنئوا بعضهم على تأسيس المنظمة التي تضمن حرية النقود. صفقت قوى العالم الرأسمالي السبع بشكل جماعي *لعمل البنك الدولي في البلدان النامية*.

لم تذكر التهنئات الجلادين والمعذبين والمفتشين والسجانين والمخبرين الذي هم موظفو البنك في تلك *البلدان النامية*.

سيمفونية دائرية للبلدان الفقيرة

ست حركات متعاقبة

وهكذا لكي يكون العمل مطيعاً ورخيصاً باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى فيالق من الجلادين، والمعذبين، والمفتشين، والسجانين، والمخبرين.

ومن أجل تسليح وتغذية هذه الفيالق، تحتاج البلدان الفقيرة إلى قروض من البلدان الغنية.

ولدفع الفائدة المترتبة على هذه القروض، تحتاج البلدان الفقيرة إلى المزيد من القروض.

ولدفع الفوائد المترتبة على القروض التي اقترضت فوق القروض، تحتاج البلدان الفقيرة أن تزيد صادراتها.

ولكي تزيد صادراتها، المنتجات المحكوم عليها بأسعار تنهار باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى خفض كلف الإنتاج.

ولكي تخفض كلفة الإنتاج، تحتاج البلدان الفقيرة، بشكل مستمر، إلى عمل مطيع ورخيص.

ولكي تجعل العمل مطيعاً ورخيصاً باستمرار، تحتاج البلدان الفقيرة إلى فيالق من الجلادين، والمعذبين، والمفتشين...

1984: واشنطن

1984

قررت وزارة الخارجية الأميركية أن تحذف كلمة *جريمة* من التقارير حول انتهاكات حقوق الإنسان في أميركا اللاتينية ومناطق أخرى. بدلاً من جريمة، يجب أن يقول المرء: *تجريد من الحياة غير قانوني واعتباطي*.

تجنبت السي آي إيه، لبعض الوقت، ذكر كلمة *جريمة* في نشراتها حول الإرهاب العملي. حين تقتل السي آي إيه عدواً أو ترتب قتله، فهي *تحيّده*.

تسمي وزارة الخارجية الأميركية أية قوى حربية تنزلها إلى الجنوب من حدودها *قوات حفظ السلام*، وتسمي القتلة الذين يقاتلون ليستعيدوا مصالحها في نيكاراغوا *مقاتلين من أجل الحرية*.

1984: واشنطن

جميعنا رهائن

لا تزال نيكاراغوا وبلدان أخرى وقحة تتصرف وكأنها غير مدركة أن التاريخ أُمِرَ بأن لا يتزحزح، تحت ألم التدمير الشامل للعالم.

حذّر الرئيس ريغان: «*لن نسمح*.»

كانت القاذفات النووية تحوم فوق السحاب. وبعيدا إلى الأعلى، الأقمار الصناعية العسكرية. تحت الأرض وتحت البحر، تكمن الصورايخ. ولا تزال الأرض تدور لأن القوى العظمى تسمح لها بذلك. إن قنبلة نيوترونية بحجم برتقالة تكفي لتفجير الكوكب برمته، وشحنة جيدة من الإشعاع تستطيع أن تحولها إلى صحراء تسكنها الصراصير.

قال الرئيس ريغان: ينصح القديس لوقا (14:31) بالمزيد من التمويل العسكري لمواجهة القبائل الشيوعية. لقد عسكر الاقتصاد، الأسلحة تطلق نقودا لشراء أسلحة لإطلاق النقود. يصنعون الأسلحة، والهمبرغر، والخوف. ليس هناك عمل أفضل من بيع الخوف. أعلن الرئيس، مبتهجا، عسكرة النجوم.

1984: ساو باولو

عشرون عاما بعد إعادة فتح البرازيل

ترك الرئيس الأخير للديكتاتورية العسكرية، الجنرال فيغيريدو Figueiredo، الحكومة للمدنيين. حين سألوه ما الذي سيفعله إذا كان عاملا يكسب الأجر الأدنى، أجاب الجنرال: «*سأطلق رصاصة على رأسي.*»

عانت البرازيل من رخاء مجاعة. بين البلدان التي تبيع الأغذية للعالم، تقع في المرتبة الرابعة، ومن بين البلدان التي تعاني من الجوع في العالم، تقع في المرتبة الثالثة. والآن تصدر البرازيل الأسلحة والسيارات، بالإضافة إلى البن، وتنتج من الفولاذ أكثر من فرنسا، لكن البرازيليين هم أقصر وأقل وزنا مما كانوا عليه منذ عشرين عاما.

ملايين من الأطفال المشردين يتجولون في شوارع مدن مثل ساو باولو، لكي يصطادوا الطعام. تتحول الأبنية إلى حصون، البوابون إلى حرس مسلحين. كل مواطن هو إما مهاجم أو معتدى عليه.

1984: غواتيمالا سيتي

ثلاثون عاما بعد إعادة فتح غواتيمالا

بنك الجيش هو الأهم في البلاد بعد بنك أميركا. يأخذ الجنرالات أدوارهم في السلطة، مطيحين ببعضهم، محولين الديكتاتورية إلى ديكتاتورية، لكن الجميع يطبقون سياسة الاستيلاء على أرض الهنود المذنبين بسكن مناطق غنية بالنفط، النيكل، وكل ما له قيمة.

لم تعد هذه أيام اليونايتد فروت، وإنما شركة كيتي أويل، تكساكو، وشركة النيكل الدولية. أباد الجنرالات كثيرا من الجماعات الهندية بالجملة وطردوا كثيرين من أراضيهم. حشود من الهنود الجائعين، المجردين من كل شيء، تتجول في الجبال. جاؤوا من الرعب، لكنهم ليسوا ذاهبين إليه. يسيرون ببطء، يقودهم اليقين القديم بأنه، يوما ما، سيعاقب الجشع والغرور. هذا ما أكده بشر الذرة القدماء لأطفال الذرة في القصص التي يروونها لهم حين يخيم الليل.

1984: ريو دي جانيــرو

الحظوظ العاثرة للذاكرة الجمعية في أميركا اللاتينية

قفز المحاسب العام خواو ديفد دوس سانتوس من الفرح حين نجح في جمع حساباته الكثيرة المتأخرة. دفعوا له بشكل لطيف، لكن، شيئا ما. بسبب غياب التمويل، دفع له مركز لأبحاث العلوم الإنسانية مكتبته المؤلفة من تسعة آلاف كتاب وأكثر من خمسة آلاف مجلة ونشرة مكرسة للتاريخ البرازيلي المعاصر. احتوت على مادة قيمة جدا عن الهيئات الفلاحية في الشمال الشرقي وعن إدارة خيتوليو بارغاس Getulio Vargas، من بين موضوعات أخرى.

ثم عرض المحاسب دوس سانتوس المكتبة للبيع. عرضها على المنظمات الثقافية، والمؤسسات التاريخية، ووزارات مختلفة. حاول مع الجامعات، الحكومية والخاصة، واحدة بعد أخرى. لم يشتر أحد. ترك المكتبة كدين لدى إحدى الجامعات لمدة بضعة أشهر، إلى أن بدأوا يطلبون أجرة. ثم حاول مع مواطنين. لم يظهر أحد أدنى اهتمام. تاريخ الأمة لغز، كذبة أو تثاؤب.

شعر المحاسب التعيس دوس سانتوس براحة كبيرة حين نجح أخيرا في بيع مكتبته إلى معمل الورق تيخوكا، الذي حول جميع الكتب، والمجلات، والنشرات إلى مناديل ورقية.

1984: مكسيكو سيتي

ضد النسيان

ضد النسيان، الوحيد الذي يقتل بشكل فعلي، كتب كارلوس كويخانو ما كتبه. هذا المتذمر ومسبب المشكلات ولد في مونتيفيديو مع ولادة القرن، ومات في المنفى، فيما كانت ديكتاتورية الأوروغواي تسقط. مات وهو يعمل ليحضر طبعة مكسيكية جديدة من مجلته مارشا.

احتفى كويخانو بالتناقضات. ما كان هرطقة بالنسبة للآخرين، كان علامة حياة بالنسبة إليه. شجب الإمبريالية، مذلة الأمم والجموع، وأعلن أنه مقدر على أميركا اللاتينية أن تخلق اشتراكية جديرة بآمال أنبيائها.

1984: مكسيكو سيتي

انبعاث الأحلام

يقوم المكسيكيون بعادة أكل الموت، والذي هو عبارة عن هيكل عظمي من السكر أو الشوكولاتة يقطر منه الكاراميل الملون. بالإضافة إلى أكله، فهم يغنونه، ويرقصونه، وينامونه. أحيانا، لكي

يسخروا من السلطة والنقود، يلبس الناس الموت فراكا ونظارة أحادية، شارات كتفية وأوسمة، لكنهم يفضلونه عاريا، زكي الرائحة، ثملا قليلا، رفيقهم في النزهات الاحتفالية.

يجب أن يدعى يوم الموت هذا يوم الأحياء، رغم أنه، لدى التأمل، نفسه، لأن كل ما يأتي يذهب وكل ما يذهب يأتي، وفي التحليل الأخير بداية كل ما يبدأ هي نهاية ما ينتهي.

«*جدي صغير لأنه ولد بعدي*»، قال طفل يعرف ما يتحدث عنه.

1984: إستيلي

الإيمان

يشرفن على ولادة الطفل. مهنتهن منح الحياة والضوء. بأيد متمرنة يقومن الطفل إذا خرج بشكل خاطئ ويمنحن الأم القوة والطمأنينة.

اليوم، قابلات قرى إستيلي والجبال القريبة من حدود نيكاراغوا يقمن حفلة ليحتفلن بشيء يستحق الفرح حقا: طول عام لم يمت أحد من أطفال هذه المنطقة من مرض الكزاز. لم تعد القابلات يقطعن حبل السرة بمنجل، أو يحرقنه بالشمع أو يلففنه دون مطهر للجراثيم، وتحقن النساء الحبالى من أجل حماية الطفل الذي يعيش في الداخل. والآن لا أحد هنا يصدق أن الحقن هي خمرة ساحرات روسيات هدفها تحويل المسيحيين إلى شيوعيين، ولا أحد تقريبا يصدق، أن طفلا حديث الولادة يمكن أن يموت من النظرة الثابتة لرجل سكير أو امرأة حائض.

هذا الإقليم، منطقة الحرب، عانى من انتهاكات عديدة قام بها الغزاة.

«*هنا، نحن في فم التمساح.*»

أمهات كثيرات يذهبن إلى القتال. اللواتي يبقين يشركن أطفالا آخرين في حليب صدورهن.

1984: هافانا

ميغيل في التاسعة والسبعين

منذ فجر القرن، خاض هذا الرجل في الجحيم ومات عدة مرات. الآن، من المنفى، لا يزال يرافق، بقوة ونشاط، شعبه في حربه.

دائما يجده ضوء الفجر مستيقظا، حليقا ومتعاونا. يستطيع فقط أن يتابع دورانه بسهولة في باب الذاكرة الدائر، لكنه لا يعرف كيف يكون أصما حين تناديه أصوات هذه الأزمنة الجديدة والطرق التي لم يرتدها بعد.

وهكذا في التاسعة والسبعين من عمره كل يوم هو ولادة لميغيل مارمول، المعلم القديم لفن الولادة المتواصلة.

1984: باريس

الأصداء تذهب للبحث عن صوت

فيما كان يكتب كلمات أحبت البشر، كان خوليو كورتاثار يقوم برحلته الخاصة، وهي رحلة إلى الوراء في نفق الزمن. كان يسافر من النهاية إلى البداية، من الإحباط إلى الحماسة، من اللامبالاة إلى الهيام، من العزلة إلى التضامن. وتقريبا في سن السبعين أصبح طفل جميع العصور.

كطير حلق باتجاه البيضة، مضى كورتاثار إلى الأمام بذهابه إلى الوراء، سنة بعد سنة، يوما بعد يوم، نحو عناق العشاق الذين يمارسون الحب الذي يخلقهم. والآن يموت، الآن يدخل التراب، كرجل، فيما يدخل امرأة، يعود إلى المكان الذي جاء منه.

1984: بونتا سانتا إلينا

العناق الأبدي

اكتشفا حديثا في الأرض الخراب التي كانت مرة شاطئ ثومبا في الإكوادور. وها هما الآن، في ضوء الشمس الساطع، أمام كل من يريد أن يشاهد: رجل وامرأة يستلقيان متعانقين، كعاشقين نائمين، من الأبدية.

بعد أن نقب في مقبرة هندية عثر عالم آثار على هيكلين عظميين مقيدين إلى بعضهما بالحب. منذ ثمانية آلاف عام ارتكب عاشقا ثومبا العمل غير الوقور وماتا دون أن ينفصلا، وكل من يقترب يستطيع أن يرى أنهما لا يأبهان بالموت.

جمالهما الرائع مدهش، آخذين بعين الاعتبار أنهما عظام بشعة في صحراء بشعة كهذه، جافة ورمادية، وأكثر إدهاشا وقارهما. هذان العاشقان، اللذان ينامان في الريح، يبدوان وكأنهما لا يفهمان أن فيهما من السر والعظمة أكثر من أهرامات تيوتيهواكان أو ملاذ ماتشو بيكتشو Machu Picchu أو شلالات إغواثو.

1984: جماعة بيوليتا بارا

الاسم المسروق

غيرت ديكتاتورية الجنرال بينوشيه أسماء عشرين جماعة فقيرة حتى العظم، تعيش في منازل من الصفيح أو الكرتون، على حواف سانتياغو دي تشيلي. في أثناء إعادة التعميد، حصلت جماعة بيوليتا بارا على اسم بطل عسكري ما. لكن السكان رفضوا حمل الاسم الذي لم يختاروه. اسمهم بيوليتا بارا أو لا شيء.

منذ وهلة قرروا في اجتماع عام أن يسموا أنفسهم باسم مغنية الفلاحين ذات الصوت الخشن، التي عرفت في أغانيها النضالية كيف تحتفل بألغاز تشيلي.

كانت بيوليتا مذنبة ووقحة وذلك بسبب مداعبة أوتار الغيتار والأحاديث الطويلة والحب، وبكل رقصها وتهريجها واصلت خلق الأزمات. *وبفضل الحياة، التي منحتها الكثير*، غنت أغنيتها الأخيرة، وأرسلتها علاقة حب عاصفة إلى القبر.

1984: تيبك

الاسم المكتشف

في جبال نياريت في المكسيك، كانت هناك جماعة لم تمتلك اسما. طول قرون كانت هذه الجماعة من هنود الويتشول Huichol تبحث عن اسم. ولقد عثر كارلوس غونزاليث على واحد بمحض الصدفة.

جاء هذا الهندي إلى مدينة تيبك ليشتري بذارا ويزور أقرباءه. وفيما هو يعبر كومة قمامة التقط كتابا مرميا فيها. كان كارلوس قد تعلم منذ سنوات أن يقرأ باللغة القشتالية، ولا يزال يستطيع أن يدبر أمره في ذلك. جالسا في ظل سقف ناتئ، بدأ يفك شفرة الصفحات. تحدث الكتاب عن بلد باسم غريب، لم يستطع كارلوس أن يحدده لكنه كان بعيدا عن المكسيك، وروى قصة حدثت مؤخرا.

في طريق عودته، وهو يعبر الجبل، تابع كارلوس القراءة. لم يستطع أن يبعد نفسه عن تلك القصة المليئة بالرعب والبسالة. حين وصل كارلوس إلى القرية، أعلن بابتهاج: «*أخيرا أصبح لنا اسم!*»

وقرأ الكتاب للجميع بصوت مرتفع. واستغرق في هذه القراءة المتعثرة أسبوعا. فيما بعد، صوتت العائلات التي يبلغ عددها مائة وخمسون. جميعهم رقصوا وغنوا وأدوا العمادة.

وهكذا أصبح لهم اسم في النهاية. حملت هذه الجماعة اسم رجل جدير بذلك لم يشك في لحظة الخيار بين الخيانة والموت.

«*أنا ذاهب إلى سلفادور الليندي*،» يقول عابرو السبيل الآن.

1984: بلوفيلدز

طيران

جذر عميق، جذع مهيب، ورق كثيف: من مركز العالم تبزغ شجرة بلا شوك، إحدى تلك الأشجار التي تعرف كيف تمنح نفسها للطيور. حول الشجرة تدور أزواج راقصة، متلاصقة البطون، تتموج على إيقاع موسيقى توقظ الأحجار وتشعل الجليد. وفيما هم يرقصون، يلبسون الشجرة ويعرونها من شرائط متدفقة من مختلف الألوان. على هذا الساحل النيكاراغوي المعذب، الذي يغزى ويقصف باستمرار، يحتفل بمهرجان ميبولي كما جرت العادة.

تعرف شجرة الحياة أنه مهما حدث، لن تتوقف الموسيقى الدافئة التي تدور حولها مطلقا. مهما أتى من موت، مهما تدفق من دم، سترقص الموسيقى الرجال والنساء طالما أن الهواء يتنفسهم والأرض تحرثهم وتحبهم.

1986: مونتيفيديو

رسالة

*سيدريك بلفريج**
ص.ب. 630
كويرناباكا، موريلوس
مكسيكو

عزيزي سيدريك:

انتهى الجزء الثالث من ذاكرة النار. وكما ترى، فهو ينتهي في 1984. ولا أعرف لماذا لم ينته قبل ذلك أو بعد ذلك. ربما لأن هذا كان آخر عام من منفاي، نهاية دورة، نهاية قرن، أو ربما لأنني أعرف، أنا والكتاب، أن الصفحة الأخيرة هي الأولى كذلك.

سامحني إن كان طويلا فقد كانت كتابته متعة لدي، والآن، أشعر، أكثر من قبل، بالفخر لأنني ولدت في أميركا، في هذا البراز، في هذه الأعجوبة، في أثناء قرن الريح.

ما من مزيد الآن، لأنني لا أريد أن أدفن المقدس في الهذر.

أبرازوث
إدواردو

نهاية الجزء الثالث من ذاكرة النار

---

* – روائي إنكليزي الأصل نفي من أميركا في الفترة المكارثية له العديد من الروايات من بينها: محكمة التفتيش الأميركية. وهو مترجم أعمال إدواردو كاليانو إلى الإنكليزية.



ذاكرة النار

علي مولا

في قرن الريح الجزء الثالث والأخير من ثلاثية ذاكرة النار يخترق كاليانو القرن التاسع عشر وصولاً إلى ثمانينيات القرن العشرين، وكالجزأين الآخرين يقدم كاليانو عملاً إبداعياً مبنياً على توثيق دقيق لكنه يتحرك بحرية كاملة.

لا يعرف المؤلف إلى أي شكل أدبي ينتمي الكتاب: إلى السرد، المقالة، القصيدة الملحمية، التأريخ، الشهادة ربما ينتمي إلى جميع هذه الأشكال أو لا ينتمي إلى أي منها. يروي المؤلف الوقائع التي صنعت القرن العشرين ويكشف معنى العالم الجديد كما كان والعالم كما هو الآن. يروي المؤلف ما حدث، تاريخ أميركا، وقبل كل شيء، تاريخ أميركا اللاتينية، وحاول أن يفعل ذلك بطريقة تجعل القارئ يشعر أن ما حدث يحدث مرة أخرى حين يرويه.

دار الطليعة الجديدة

دمشق. ص.ب: 34494 تلفاكس: 2311378